

# فُضْرَةُ الْفَتْرَةِ وَعُصْرَةُ الْفِطْرَةِ

عماد الدين الأصبهاني

(519 - 597 هـ)

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ

الدكتور عبد الله عبد الرحيم السوداني



UNIVERSITY OF  
K U F A

نُصْرَةُ الْفَتْرَةِ وَعُصْرَةُ الْفِطْرَةِ

# نُصْرَةُ الْفَتْرَةِ وَعُصْرَةُ الْفِطْرَةِ

عماد الدين الأصبهاني (519 - 597 هـ)

حقّقه وقدم له

الدكتور عبد الله عبد الرحيم السوداني

الناشر جامعة الكوفة

سلسلة «دراسات فكرية»

الطبعة الأولى: بيروت لبنان، 2019

First Edition: Beirut Lebanon, 2019

© جميع حقوق النشر محفوظة لسلسلة «دراسات فكرية» جامعة الكوفة.



UNIVERSITY OF  
KUFA

توزيع: دار الرافدين - بيروت

ISBN: 978 - 1 - 989492 - 03 - 1

# نُصْرَةُ الْفَاتِرَةِ وَعُصْرَةُ الْفِطْرَةِ

عماد الدين الأصبهاني

(519 - 597 هـ)

حقّقه وقدم له

الدكتور عبد الله عبد الرحيم السوداني



UNIVERSITY OF  
K U F A

## دليل المحتويات

- 13 هذا الكتاب.....
- 14 أنو شروان بن خالد، ترجمته.....
- 15 العماد الأصبهاني، ترجمته.....
- 19 حسنات الكتاب.....
- 21 المأخذ على الكتاب.....
- 23 أصول الكتاب.....
- 31 عملي في إخراج الكتاب.....
- 34 نبذ من بداية حال السلجقية.....
- 38 السلطان طغرلبيك مُحمد بن ميكائيل بن سلجق.....
- 40 ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرلبيك أبي شجاع مُحمد بن ميكائيل بن سلجق إلى بغداد.....
- 42 ذكرُ الحالِ في ذلك.....
- 43 ذكرُ عوارضٍ حدثت، وحوادثٍ ونواقضٍ عرت وعرى انتقضت.....
- 44 ذكر عود السلطان طغرلبيك الى بغدادَ وحضوره بين يدي الخليفة.....
- 47 أحداث سنة خمسين واربعمائة.....
- 54 ذكر سبب تولي ابن دارست وزارة الخليفة الى حين انصرافه.....
- 55 ذكر حوادث في هذه السنين.....
- 57 ذكر وصول السلطان طغرلبيك الى بغداد وهي المرة الرابعة من دخوله اليها.....
- 58 ذكر وفاة السلطان طغرلبيك.....
- 59 ذكر سيرة طغرلبيك.....
- 60 ذكر جلوس السلطان عضد الدولة ألب أرسلان أبي شجاع مُحمد بن ميكائيل بن سلجق.....
- 61 ذكر عزل عميد الملك واعتقاله وقتله.....
- 62 ذكر نظام الملك.....
- 63 ذكر ابتداء حال نظام الملك.....

- 63..... ذكر ما جرى للسلطان ألب أرسلان بعد ملكه
- 65..... ذكر وصول شرف الملك أبي سعد منصور بن مُحَمَّد مستوفي المملكة الى بغداد
- 66..... ذكر طوارق طرات، وطوارئ طرقت، واتفاقات وافقت، وموافقات انفتت، وأجال تدانت، ورجال تفانت
- 69..... ذكر عود فخر الدولة ابن جهيز إلى الوزارة
- 69..... ذكر حريق جامع دمشق
- 70..... ذكر مبدأ تصدر عميد الدولة بن فخر الدولة الوزير ابن جهيز
- 71..... ذكر أحوال ألب أرسلان بديار بكر والشام
- 73..... ذكر خروج ملك الروم وكسره وقسره وأسره، وخاتمة عسره، وعاقبة خسره
- 80..... ذكر آحاد أحاديث وأحداث وصدور تنقلت من رتب وصدور إلى ترب وأجدات
- 82..... ذكر وفاة السلطان ألب أرسلان في سنة خمس وستين وأربعمائة
- 84..... ذكر جلوس جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان على سرير الملك ساري الفلك راسي الفلك
- 86..... وورود مؤيد الملك أبي بكر عبيدالله بن نظام الملك
- 86..... ذكر وفاة القائم بأمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنه
- 87..... تولي أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله
- 88..... ذكر صروف حدثت وحوادث تصرفت
- 91..... أيام السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان يمين أمير المؤمنين
- 97..... ذكر الأكابر والكتاب في زمانه
- 110..... ذكر ظهور الاسماعيلية
- 112..... ذكر نبذة من حوادث وأخبار في أيام السلطان ملكشاه أغفلها الوزير أنوشروان
- 115..... ذكر حال جمال الملك أبي منصور بن نظام الملك
- 117..... نبذ من أحوال بني جهيز وديار بكر
- 119..... ذكر ما آلت إليه وزارة الإمامة
- 121..... ذكر النوب التي وصل فيها السلطان ملكشاه إلى بغداد وهي ثلاث ولكل نوبة نواب وأحداث وأحداث
- 122..... ذكر حوادثه
- 123..... ذكر حال ولاية السلطان أبي المظفر بركيارق بن ملكشاه برهان أمير المؤمنين
- 124..... وزارة عز الملك أبي عبد الله الحسين بن نظام الملك

- 126 ذكر وصول مؤيد الملك أبي بكر عبيدالله بن النظام من خراسان إلى العراق ووزارته.....
- 127 ذكر انتقال الوزارة عن مؤيد الملك إلى أخيه فخر الملك أبي الفتح المظفر بن نظام الملك.....
- 129 ذكر حادثة مجد الملك.....
- ذكر خروج السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين من جترة وأران إلى الري وأصفهان بإشارة مؤيد الملك.....
- 132 وزارة الأستاذ عبد الجليل الدهستاني بركيارق.....
- 135 ذكر ما كان بعد مؤيد الملك.....
- 138 ذكر الحوادث في أيامه.....
- 145 مُختص الملك أبو نصر القاشي.....
- 155 الأمير العميد محمد الجوزقاني عميد بغداد.....
- 167 وزارة خطير الملك أبي منصور محمد بن أحمد الميذي رحمه الله.....
- 175 ذكر جلوس شرف الدين أنوشروان بن خالد في نيابة الوزارة.....
- 181 ذكر تولي الكمال علي السميي إشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه وابتداء أمره.....
- 187 ذكر وزارة ربيب الدولة أبي منصور بن الوزير أبي شجاع.....
- ذكر جلوس السلطان مغيث الدنيا والدين أبي القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين.....
- 194 وفي ابتداء هذه الدولة انتقلت الخلافة إلى أمير المؤمنين المسترشد بالله بن المستظهر بالله رضي الله عنهما.....
- 195 ذكر وصول السلطان الأعظم شاهنشاه المعظم معز الدنيا والدين ملك الإسلام والمسلمين أبي النحارث سنجر بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين من خراسان إلى حدود العراق وظفره وعفوه وعوده إلى خراسان.....
- 202 تولي كمال الملك علي بن أحمد السميي الوزارة.....
- 203 وزارة شمس الملك بن نظام الملك.....
- 223 ذكر وزارة الدرگزيني سنة ثمان عشرة وخمسمائة.....
- 251 وزارة شرف الدين أنوشروان بن خالد.....
- 264 وعاد الوزير الدرگزيني إلى الوزارة.....
- 265 ذكر ما حدث بعد وفاة السلطان محمود إلى أن استقر الملك طغرل.....
- 273 جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبي طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان.....
- 277 ذكر ما جرى للملك داود بن السلطان محمود بعد وفاة أبيه.....
- 277

- 281 ..... ذكر ما كان من حديث عمي عزيز الدين وحادثه بعد عوده إلى القلعة
- 283 ..... ذكر قتل الوزير الدرگزيني وما آل إليه أمر السلطان طغرل
- 288 ..... ذكر جلوس الوزير شرف الدين علي بن رجا
- ذكر جلوس السلطان الأعظم غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه قسيم
- 290 ..... أمير المؤمنين سنة ثمان وعشرين وخمسمائة
- 296 ..... ولاية أمير المؤمنين جعفر المنصور الراشد بالله بن المسترشد بالله
- 300 ..... وزارة عماد الدين أبي البركات الدرگزيني
- 307 ..... الوزير كمال الدين محمد بن علي الخازن من أهل الري
- 309 ..... الوزير عز الملك أبا العز البروجردي في وزارة السلطان مسعود
- 316 ..... علي بن طراد الزيني في وزارة الخليفة المقتفي
- 318 ..... وزارة المرزبان بن عبيد الله الأصفهاني
- 328 ..... ذكر وفاة جاوولي جاندار وعوامر السلطان مسعود إلى الفرار
- 330 ..... ذكر زنكي بن اق سنقر في آخر عهده
- 331 ..... ذكر مقتل جعفر نائب زنكي بالموصل
- 336 ..... ذكر حال الوزير جمال الدين الجواد أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور
- 339 ..... رجوع الحديث إلى ذكر ما جرى للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بعد موت جاوولي جاندار
- 340 ..... ذكر وصول العبادي
- 341 ..... ذكر ما جرى من الحوادث التي انحلت بها تلك العقود فاختلفت تلك العهود
- 342 ..... ذكر وزارة شمس الدين أبي النجيب الأصم الدرگزيني
- 344 ..... ذكر ما اعتمده بوزابة بعد وصول خبّر قتل ابن طغايرك وعباس إليه
- 346 ..... ذكر ما جرى بأصفهان من الفتنة بعد مصرع بوزابة
- 349 ..... ذكر بعض الحوادث
- 349 ..... ذكر ما جرى للسلطان مسعود بعد قتل بوزابه
- 349 ..... ذكر ما جرى ببغداد
- 351 ..... ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه
- 352 ..... ذكر الحوادث في تلك السنين
- 353 ..... ذكر ما تجدد من الملك ملكشاه محمود
- 355 ..... ذكر جلوس السلطان ملكشاه بن محمود
- ذكر جلوس السلطان غياث الدنيا والدين أبي شجاع محمد بن محمود بن ملكشاه في أواخر سنة
- 357 ..... سبع وأربعين وخمسمائة

- 358..... ذكر ما جرى من الحوادث بعد حادثة خاصبك بن بلنكري
- 359..... ذكر ما جرى للسلطان سليمان بن مُحمد بن ملكشاه وجلوسه على سرير السلطنة
- 361..... ذكر رجوع السلطان مُحمد بن محمود بن ملكشاه إلى مقر ملكه بهمدان بعد غيبة السلطان سليمان
- 361..... ذكر ما اعتمده الإمام المُقتفي لأمر الله ببغداد بعد موت السلطان مسعود
- 371..... ذكر وصول السلطان سليمان بن مُحمد بن ملكشاه إلى بغداد وقبول الخليفة له وتجهيز الجيش معه وذلك في سنة خَمْسِينَ وخَمْسَمائة
- 373..... ذكر اتصال المُلك جعفري شاه بن محمود بأخيه السلطان مُحمد
- 375..... ذكر حوادث جرت في هذه السنين
- 376..... ذكر وزارة شمس الدين أبي النجيب الدرگزيني
- 379..... ذكر وصول السلطان مُحمد شاه إلى مُحاصرة بغداد وما اعتمده أمير المؤمنين المُقتفي لأمر الله من حسن الصبر المُعقب حميد الظفر والنصر
- 390..... ذكر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه وشرح شيء من أحواله من ابتداء عمره إلى خاتمة أمره
- 390..... ذكر السبب في ذلك
- 396..... عدنا إلى حديث السلطان سنجر
- 399..... ذكر وزراء السلطان سنجر بخراسان
- 400..... ذكرُ السَّبب في ذلك
- 404..... عبدالعزيز الحامدي
- 404..... ناصر الدين طاهر بن فخر المُلك بن نظام المُلك
- 405..... ذكر جماعة من خواص سنجر ومماليكه أحبهم ثم سلاهم وخلا بخلايهم ثم خلاهم، ووضعهم بعد أن أعلاهم، وحطهم بعد أن حاطهم، ولأم اعتبارهم بعد أن سأم اغتباطهم
- 407..... ذكر علو همة السلطان سنجر وكرمه وإسهام أصحابه وأمرائه في نعمه
- 408..... ذكر سبب اختلال مُلكه وانحلال سلكه
- 409..... ذكر السبب في ذلك وانكسار سنجر في حربه مع الخُطائبة
- 410..... ذكر انتعاش سنجر بعد أن عثر وانتياشه وأنحيازه بعد أن شيك وانكسر
- 411..... ذكر نوبة الغز
- 414..... ذكر الحوادث بالعراق بعد انفصال السلطان مُحمد بن محمود عن بغداد بعد حصارها سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة
- 417..... تقلد ضياء الدين بن مجد الدين بن علجة الاصفهاني وزارة السلطان
- 419..... ذكر وفاة الإمام المُقتدي بأمر الله وجلوس ولد الإمام المُستجد بالله أبي المُظفر يوسف أمير المؤمنين

- 422..... ذكر مراسلة الخليفة للسلطان
- 425..... ذكر ما آل إليه أمر السلطان سليمان وكيف جفأه زمانه وخان، وكيف دُلَّ بعد ما عَزَّ وهان
- 428..... ذكر مُحاربة الأمير أيناك السلطان وأمرائه بنواحي الكرج وما مَنَّ الله عليهم مِنَ النصرِ وَالفرجِ
- 432..... وزارة فخر الدين بن الوزير المعين المختص القاضي
- 432..... ذكر وفاة السلطان
- 433..... ذكر الوزراء المتولين
- 435..... المصادر والمراجع

يوم عاد أستاذه الدكتور علي جواد الطاهر (رحمه الله) من باريس وقد أكمل فيها دراسته، عاد ومعه مصورات المخطوطات التي رجع إليها في إعداد دراسته، فسلم منها مصورات مخطوطات شعر الحسين بن الحجاج وغيرها إلى المجمع العلمي العراقي الذي صرف إليه ثمن تصويرها، واحتفظ لنفسه بصور مخطوطات أخرى صورها من ماله الخاص، منها مخطوطة (نصرة الفترة وعصرة الفطرة) للعماد الاصبهاني الكاتب، وكانت النية أن يقوم الأستاذان علي جواد الطاهر والدكتور مصطفى جواد (رحمهما الله بتحقيقها ونشرها، وكلاهما متخصص بالعصر السلجوقي، وشرعا بقراءة الكتاب، إلا أن انقلاب شباط الأسود حال دون ذلك، إذ افترق الرجلان، ذهب الأستاذ الطاهر الى العمل في المملكة السعودية، وانتقل الأستاذ مصطفى جواد إلى بارته، فمات بموته مشروع تحقيق الكتاب.

وأكملت دراستي للماجستير بإشراف الدكتور الطاهر، ورأى ميلي لدراسة أدب العصر السلجوقي، فأهداني مشكوراً مصورة مخطوطة (نصرة الفترة وعصرة الفطرة) على أمل تحقيقها وإخراجها للناس، فكان هذا العمل الذي بين يدي القارئ الكريم.

\*\*\*



## هذا الكتاب

كان نية العماد الاصبهاني الكاتب تأليف كتاب في تاريخ وزراء الدولة السلجوقية وأكابر دولتها، يقول العماد في مقدمة الكتاب: (ومازلت أفكر فما يواتيني فكر، ولا يطاوعيني في تأليف عنوانه ترتيب بكر، حتى تأملت الكتاب الذي صنفه أنوشروان بن خالد بالفارسية وسَمَّاه [فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور] فوجدته تنبئُ إطالته عن القصور، وألفيته قد قصره على زمانه، من أوسط عهد نظام الملك إلى آخر عهد طغرل بن مُحمد بن ملكشاه وتَقَضَّى سلطانه، وصادفته بناه على غرضه وشفاء مرضه، وقصد التشفي والانتقام، وثلب أعراض الكرام).

فالعماد الأصبهاني لم يطاوعه فكر ولا ترتيب بكر في تأليف كتاب عن (تاريخ الدولة السلجوقية وأكابر دولتها حتى تأمل كتاب أنوشروان بن خالد الذي سَمَّاه (فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور)، يقول العماد: (فعربته وهذبتة، حتى انتهيت في هذا الموضوع إلى مفتتحه، وفسرته على مقترحه، ووصلت هذه الجملة التي ذكرتها به، وجعلتها طريقاً إلى دخول بابه). ويضيف إليها ما تجدد من الأحداث في عصره. فهو يكمل ما أخذ من أنوشروان وينقله إلى العربية، وهو يحكم مولده بأصبهان يُجيد الفارسية، حتى أنه كان ينشئ الرسائل بها لنور الدين زنكي صاحب حلب والموصل، فيجيد فيها إجادته بالعربية كما يذكر ياقوت الحموي.

أنوشروان بن خالد،<sup>(1)</sup> ترجمته

هو شرف الدين أنوشروان بن خالد بن محمد القاشاني، ولد بالري سنة تسع وخمسين وأربعمائة للهجرة، كان نبيلاً فاضلاً من عقلاء الرجال ودهاتهم، ومن الصدور الأفاضل موصوفاً بالفضل والأجود، مُحباً لأهل العلم، وكان يتشيع، تولى الوزارة في عهد السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي سنة سبع عشرة وخمسمائة، وقدم بغداد واستوطنها، وكان يسكن في الحريم الطاهري، وعزل عن الوزارة وأعيد إليها، وكتبه السلطان بالتوجه إلى المعسكر، فمضى إلى حضرة السلطان وأقام معه وزيراً ومدبراً إلى أن عزله ثم قبض عليه واعتقله. وأفرج عنه فعاد إلى بغداد، واستوزره الخليفة المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة، ويقال أوائل سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وبقي في الوزارة حتى عزل عنها سنة ثمان وعشرين وخمسمائة في أيام السلطان مسعود، وأُذن له بالعودة إلى منزله بالحريم الطاهري حتى وفاته سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وذكر ابن الأثير أنه توفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ورثاه عدد من الشعراء منهم حيص بيص، يقول فيه من قصيدة:

بقيتَ ولا زَلَّكَتْ بِكَ النُّعْلُ إنني      فقدتُ اصطباري بعدَ فقدِ ابنِ خالدِ  
فتى عاشَ محمودَ المساعي مُمدِّحاً      وماتَ نقيَّ الجيبِ جَمَّ المحامدِ

ذُكِرَ أن الحريري قدَّم له عدداً من المقامات فأشار عليه باكمالها، وهو الذي عناه الحريري بقوله: (فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع)، وذكر ابن خلكان أنه رأى سنة ست وخمسين وستمائة بالقاهرة نسخة مقامات يخط مصنفها وقد كتب في ظهرها أنه صنفها لأبي الحسن بن صدقة وزير المسترشد أيضاً، ورجَّح صحة هذا لكونه يخط المؤلف.

ألف أنوشروان كتاباً بالفارسية في أخبار الدولة السلجوقية سَمَّاه (صدور زمان الفتور

(1) ترجمته في: ياقوت الحموي. معجم الادباء، تحقيق: إحسان عباس، ابن الجوزي. المنتظم، ط حيدرآباد 1357 هـ، ابن الطقطقي. الفخري في الأدب السلطانية، دار صادر، بيروت، الصفدي. الوافي (تحقيق: ديدرنج وآخرين)، ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب. القاهرة 1350 - 1351 هـ، الذهبي. العبر في خبر من غير، تحقيق: صلاح الدين المنجد وآخرين، الكويت، 1960 - 1961 م، ابن كثير. البداية والنهاية، العماد الاصفهاني. خريدة القصر، قسم العراق، 1 / 244 الهامش، و: قسم شعراء بلاد العجم، 3 / 196 - 197 الهامش.

وفتور زمان الصدور) وقف فيه إلى زمنه، فنقله العماد الأصبهاني إلى العربية ووقف فيه عند عهد الخليفة الناصر لدين الله.

وحيث ينتهي كلام أنوشروان وعمله يبدأ عمل العماد فيقول: (ومن هاهنا يقع ما بدأ به البداية ونكمل بتعريبه)، وقد يعود العماد فينقل من أنوشروان أخبار حوادث وقعت في عهده، حتى إذا توفي أنوشروان انفرد العماد بالكتابة حتى ينهي الكتاب ويقف عند عهد الخليفة الناصر لدين الله.

\*\*\*

### العماد الأصبهاني،<sup>(1)</sup> ترجمته

هو أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفى الدين أبي الفرج محمد بن أبي الرجاء نفيس الدين حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني. ولد باصبهان يوم الإثنين ثاني جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة، ونشأ بها في بيت علم وأدب ووزارة وإدارة، وقدم بغداد شاباً وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، فتفقه بها على أبي منصور سعيد بن محمد بن الرزاز وسمع منه، ومن أبي بكر الأشقر، وأبي الحسن علي بن عبد السلام، وأبي القاسم علي بن الصباغ، وأبي منصور بن خيرون، وأبي المكارم المبارك بن علي السمرقندي، وأبي الفرج الاسفراييني، وأبي البركات النيسابوري البغدادي، وأبي عبد الله المقرئ الحنبلي، وجمال الدين بن الأخوة الشيباني، وعلي بن محمد بن الهيثم العلوي، ويوسف الدمشقي، وأحمد الحريري، وابن الخشاب، وزين الاسلام بن الحريري. وأجاز له أبو القاسم بن الحصين، وأبو عبد الله الفراوي.

(1) ترجمته في: ياقوت الحموي. معجم الادباء (تحقيق: احسان عباس)، ابن الأثير. الكامل في التاريخ (دار صادر، بيروت، 1965 - 1967 م)، ابن الساعي. الجامع المختصر، ج 9، بغداد، 1934 م، سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان، حيدرآباد، 1951 - 1953 م، ابن خلكان. وفيات الاعيان، تحقيق: احسان عباس، بيروت 1968 - 1972 م، ابن الفوطي. الحوادث الجامعة، تحقيق: مصطفى جواد، ابن الديبشي. المختصر المحتاج إليه، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد، 1951 م، الذهبي. سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت، 1981 - 1988 م. الذهبي. العبر في خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المنجد وآخرين، الكويت، 1960 - 1966 م، السبكي. طبقات الشافعية، تحقيق: عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي، القاهرة 1964 - 1974 م، بروكلمان. تاريخ الادب العربي، مج 3، ج 6 / 5 - 6، مج 3، ج 7 / 29، شوقي ضيف. عصر الدول والامارات. الشام 301، جرجي زيدان. تاريخ آداب اللغة العربية 3 / 301

ثُمَّ عاد إلى أصبهان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتفقه بها أيضاً على محمد بن عبداللطيف الخجندي، وأبي المعالي الوركاني، وفارق أصبهان سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ثم رجع إلى بغداد سنة إحدى وخمسين وخمسمائة واشتغل بصناعة الكتابة فَبَرَعَ فيها وأجاد، فاتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة فولاه النظر بالبصرة، ثم بواسط، وفي البصرة سَمِعَ مقامات الحريري عن ابن الحكيم عن زين الاسلام أبي العباس محمد بن الحريري، فقرأ عليه خمساً وأربعين مقامة وقطعه المرض عن إتمامها.

ولما توفي الوزير عون الدين بن هبيرة سنة ستين وخمسمائة وتشتت شمل المنتسبين إليه أقام العماد ببغداد مدة منكد العيش فانتقل إلى دمشق فوصل إليها في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية التي سُمِّيَتْ بالعمادية فيما بعد نسبة إلى العماد، وقد نُسِبَتْ إليه لأنَّ المَلِكَ العادلَ نورَ الدين ولاه إياها سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكانت للعماد معرفة بنجم الدين والد السلطان صلاح الدين، عرفه بتكريرت حين كان نَجْمَ الدين والياً عليها، فلما سَمِعَ نَجْمَ الدين بوصوله بادر لتبجيله والسلام عليه في منزله، ومدحه العماد حينذاك بقصيدة طويلة مطلعها:

يوم النوى ليس من عمري بِمَحسوبٍ ولا الفراقُ إلى عيشي بِمَنسوبٍ  
فشكره نَجْمَ الدين وأحسن إليه وأكرمه وقَدَّمَه على الاعيان، وعَرَفَ به ابنه صلاح الدين، وكان القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يحضر مجالس العماد ويذاكره بمسائل الخلاف في الفروع، فَنَوَّه القاضي بذكر العماد عند السلطان نور الدين زنكي، وذكر له تقدمه في العلم والكتابة، وأهله للكتابة والإنشاء، فتردد العماد في الدخول فيما لم يتقدم له اشتغال طويل به. مع توفر مواد هذه الصناعة عنده خوفاً من التقصير فيما لم يُمارسه، ثم أقدم بعد الإحجام فباشرها وأجاد فيها، حتَّى زاحم القاضي الفاضل بِمنكب ضخم، وكان ينشئ الرسائل بالفارسية أيضاً فيجيد فيها إجادته بالعربية، وَعَلَّتْ منزلته عند نور الدين، وصارَ كاتبَ سرِّه، وفُوِّضَ إليه تدريس المدرسة الكمالية كما تقدم، وولاه الإشراف على ديوان الإنشاء.

ولمّا توفي نور الدين في سنة تسع وستين وخمسمائة وولي ابنه الملك الصالح اسماعيل أغراه بالعماد جماعة كانوا يحسدونه ويكرهونه، فخاف على نفسه وخرج من دمشق قاصداً بغداد، فوصل إلى الموصل ومرض بها، ولمّا أبُلَّ من مرضه بلغه خروج السلطان صلاح الدين قاصداً دمشق ليستولي عليها، فعزم على الرجوع إلى الشام، وخرج من الموصل سنة سبعين وخمسمائة فوصل إلى دمشق وسار إلى حلب، وصلاح الدين يومئذ نازل عليها، فلاقاه في حمص وقد استولى على قلعتها، فلزم بابه ومدحه بقصيدة كان نظمها من قبل في الشوق والتأسف، وجعل مدح صلاح الدين مخلصها، ومطلعا:

أجيرانَ جَـيـرٍ مـالـي مُجـيـرٍ      سـوـى عـدـلـكـم فاعـدـلـوا أو فـجـوروا  
ولزم العماد من ذلك اليوم باب السلطان صلاح الدين، ينزل ينزوله ويرحل برحيله، ولم يزل يغشى مجالسه ملازماً لخدمته حتى قرّبه واستكتبه واعتمد عليه، فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة، وعلا قدره وطار صيته، وكان إذا انقطع القاضي الفاضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه، وألقى إليه السلطان مقاليدته وركن إليه بأسراره، فتقدم الأعيان وأشير إليه بالبنان، وكانت بينه وبين القاضي مراسلات ومُحاورات.

ولمّا توفي السلطان صلاح الدين سنة تسع وثمانين وخمسمائة كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله، فزار العماد مصر، ثم عاد إلى دمشق وقد اختلت أحواله فلزم بيته وأقبل على التصنيف والإفادة، حتى توفي يوم الإثنين مستهل رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

\*\*\*



## حسّات الكتاب

وللكتاب حسّات كثيرة ومحمّدة نذكر منها:

- 1- ان العماد الاصبهاني وأهله كانوا من رجال الدولة العباسية والسلجوقية، فهو أقرب إلى الأحداث وفاعليها والمُسهمين فيها ومدبري أمورها وإنه أقرب إلى وثائقها، وهو إذ يؤرخ لذلك العصر إنّما يغترف من معين العصر ومن رجاله مباشرة ويسجل أحداثاً كان قريباً منها.
- 2- إنه استشهد بشعر كثير لشعراء عصره ممّا قالوه في أحداث عصرهم أو رجاله، كالأرجاني، وحيصّ بيصّ، وعلي بن أفلح العبسي، وأبي الغنائم الهُرثي المعروف بابن المعلم الواسطي وغيرهم ممّن ضاع شعرهم أو فات جامعهم.
- 3- ثمّ ان الكتاب أوسع كتاب في موضوعه كتبه أديب ومؤرخ لأحداث ذلك العصر.

\*\*\*



## الْمَأْخَذُ عَلَى الْكِتَابِ

والكتاب على جزيل فائدته وعظيم نفعه لا يَخْلُو من هنات هيئات لا تقدح فيه، نذكر منها:

1. إنه في أحيان كثيرة وأماكن عديدة من الكتاب يغمز عمل أنوشروان بن خالد ويحط منه ويعيبه، فهو يتهمه بأنه يثلم أعراض الكرام ويثلبهم، وينسى العماد ما أخذه على أنوشروان فيتناول أنوشروان بالطعن فيه وازدراء عمله وانتقاصه أحياناً.

2. إغراقه في الإطالة في الجمل وفي استعماله المحسنات اللفظية والبديعية كالجناس والمقابلة والتورية ورد الصدر على العجز، إظهاراً منه لِمقدرته على التصرف بفنون الكلام، حتى أكثر وأمَلَّ وأرهق القارئ وأضجره، وهي بلا شك متأية من تأثره بأساليب معاصريه وإدما نهم قراءة مقامات الحريري ومُحاولتهم مُجارأتها، فقد كانوا مأخوذِين بها يتدارسونها ويحفظونها ويُجارونها ويكتبون على مثالها، حتى انه التزم النهج نفسه في أسماء كتبه، فكانت (نصرة الفطرة وعصرة القطرة) و(خريدة القصر وجريدة العصر) و(الفيح القسي في الفتح القدسي) و(خطفة البارق وعطفة الشارق) وغيرها. وهي على ما فيها من غثاء وسماجة وثقل لا تخلو من فائدة في أحيان كثيرة، فقد أمكنتنا من تبين معاني كثير من الألفاظ التي أبهم خطها أو طمست حروفها إعتياداً على أختها أو مُجاورتها من الألفاظ المُسجوعة، إذا علمنا أن العماد كان كثيراً ما يهمل إعجام بعض الحروف ونقطها.

3. رأينا العماد في أماكن كثيرة من الكتاب يعجز عن إكمال بيت أو شطر بيت، وما كان أسهل العود لديوان قائله أو سؤال الآخرين عنه، كما رأينا في بيتي البلاذري، وبيت أبي ذؤيب الأهذلي من عينيته المشهورة في رثاء أولاده، وشرط بيت قاله معاصره حيص بيص.

4- ثم انه إذا أورد مثلاً شعرياً - وما أكثر ذلك - نظم في معناه وفكرته وحاول مُجَاراة قائله، وقد يتجاوز حده في أحيان كثيرة فيفضل قوله على قول سابقه مع ركاكة قوله وثقله، وينسى أن الفضل للمتقدم.

\*\*\*

## أصول الكتاب

لَمَّا عَقَدَتِ الْعَزْمَ عَلَى تَحْقِيقِ الْكِتَابِ وَنَشَرَهُ بَيْنَ النَّاسِ اتَّخَذَتْ نَسْخَةَ بَارِيسَ مَخْطُوطَةً إِمَامًا، وَنَقَبَتْ فِي فَهَارَسِ الْمَخْطُوطَاتِ لِعَلِيٍّ أَحْطَى بِنَسْخَةٍ أُخْرَى تَعَيَّنَ عَلَى اسْتِجْلَاءِ الْغَامِضِ فِي مَخْطُوطَةِ بَارِيسَ فَاحْتَلَّتِي الْكُتُبَ وَالْفَهَارَسَ إِلَى مَخْطُوطَةِ بَوْلِيَانِ، وَهِيَ تَنْظُوهَا نَسْخَةٌ ثَانِيَةٌ كَامِلَةٌ مِنَ الْكِتَابِ، فَطَلَبْتُهَا إِذَا هِيَ مُخْتَصِرٌ لِلْكِتَابِ مِمَّا اخْتَصَرَهُ الْفَتْحُ الْبِنْدَارِيُّ مِنْ (نَصْرَةِ الْفِتْرَةِ)، وَهَذَا وَصْفٌ لِمَخْطُوطَاتِ الْكِتَابِ:

1. مَخْطُوطَةُ بَارِيسَ: وَرَقْمَهَا بَارِيسَ أَوَّلُ 2145، وَتَقَعُ فِي 326 وَرَقَةً، فِي كُلِّ وَرَقَةٍ صَفْحَتَانِ، وَفِي كُلِّ صَفْحَةٍ 21 سَطْرًا، مَكْتُوبَةٌ بِخَطِّ نَسْخِ جَمِيلٍ دَقِيقٍ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَهْمَلُ وَضَعَ النِّقَاطَ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَعْجَمَةِ ثَقَّةً مِنْهُ بِفِطْنَةِ الْقَارِئِ وَحَسَنَ ذَوْقَهُ وَفَهْمَهُ، وَكَتَبَ عُنْوَانَاتِ الْفُصُولِ وَالْفُقَرَاتِ بِمَدَادٍ أَحْمَرَ وَبِخَطِّ نَسْخِ جَلِيٍّ أَكْبَرَ مِنْ حُرُوفِ سَائِرِ النَّصِّ. وَهِيَ النِّسْخَةُ الَّتِي اعْتَمَدْنَاهَا أَمَّا، وَهَذِهِ صُورَةُ الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنْهَا:

نُصْرَةُ الصُّتْرَةِ وَعَصْرَةُ الصُّطْرَةِ  
لِلْحَمَادِ الْكَاتِبِ الْأَصْفَهَانِيِّ

auxilium  
et maturatio  
immaturum  
gintia vira  
et illustrium  
sub soldanorum  
parlarum in  
flouant  
metonymia  
katibis

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
رَبِّ سِرِّ الْأَقْسَامِ  
أَتَمُّهُ مَعْرُوفُ الْأَقْرَابِ وَمَقْدَرُ الصُّرُوفِ وَمَعْرِفُ السُّلُوكِ وَشَاطِعِ  
الْمَعْرِفَةِ وَخَالِنُ الْبَرِيَّةِ وَبَارِي الْخَلْقِ وَمُخَوِّقُ الْأَنْشَاءِ وَمُنْتَهَى  
الْمَعَارِفِ وَمُسْتَعْتَبُ الْمَقْدُورِ الْمُبَالِغِ وَمُعْطَلُ الْخَالِي وَمَعْلَى الْعَاطِلِ  
وَالْحَيِّ وَالْمَيِّتِ وَالْمَلِكِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَبِقُدْرَتِهِ ذَارَاتُ النُّعْمِ وَالْعُرْ  
وَالرُّبَا وَالنُّشُوتِ وَعَشْبَتُهُ الْأَرْبَعُ وَالْإِحْتِرَاقُ وَالْإِعَادَةُ وَالْإِبْرَاءُ  
بِوَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ شَأْنِهَا وَيُنزِعُ الْمَلِكُ مِنْ بَشَائِعِهَا مَوْجِدُ الْكَائِنَاتِ  
وَمَكُونُ الْمَوْجُودَاتِ وَمِدْبِرُ الْأَشْيَاءِ الْأَبْرَبُ عَنْهُ مَقَالُ  
ذُرُوعِ الْأَرْضِ وَوَلَاةُ السَّمَاءِ وَالصَّلَاةُ عَلَيْهِ نَابِيَةٌ عَمْرِيَاتُ  
الْأَنْبِيَاءِ وَالْعَلَى وَالصَّحَابَةُ سُجُودُ الْهَدْيِ وَشُمُوسُ الصُّخْرِ عَجُومُ الدَّجْرِ  
وَأَقَارُ النُّجُومِ وَالْبِحْرُ فِي كِتَابِهَا وَتُرَاثُ الْجَمْعِ كِتَابَاتُهَا وَزِيَارَةُ  
الْمَلُوكِ السُّلْطَنَةِ وَالْكَارِدُ وَلِئَهَا ذِكْرُ الْهَمِّ الْعَلِيَّةِ وَالْأَصُولُ  
الْفَعِيَّةِ وَمَا رَأَيْتُ فَعْلًا فَبِوَابِئِهِ فَعْلًا وَلَا أَبْطَاعِيَّ فِي مَا لَيْفِ  
عَوَانِهِ تَرْتِيبُ بَلْجَحِيِّ مَا مَلَّتْ الْكِتَابُ الَّذِي صَفَعَهُ الْوَقْرُ  
أَوْ شَرَّانُ بْنُ خَالِدٍ بِالْفَارَسِيَّةِ وَسِمَاءُ قُتُورِ زَمَانَ الصُّدُورِ  
وَصِدُورِ زَمَانَ الْقُتُورِ وَفُوجِدَتْهُ تَنبِيُّ الطَّالِئَةِ عَنِ الْمَقْصُورِ  
وَالْمَقْبِيَّةِ فَدَقَّصْرُهُ عَلَى زَمَانِهِ مِنْ أَسْطِ عَمْدِ نِظَامِ الْمَلِكِ الْبَلِيغِ  
أَخِي عَمْدِ طُغْرَيْلِ بْنِ مَهْدِي بْنِ مَكْنَشَاءَ وَنَفَضِي سُلْطَانَهُ وَصَادِقِي  
بِنَاءَهُ عَلَى وَجْهِ عَرْضِهِ وَشِفَا مَرِيضَتِهِ وَقَصْدِ الْقَسْفِ وَالْإِنْفِ  
وَتَلْبِ شِلْمِ أَعْرَاصِهَا الْكِرَامِ فَأَلْضَفَ فِيهَا صَنْفَءَ وَلَا  
الْمَنْفِ قَلْبًا جَا الْفِ دَوْلًا فِي حَقِّهَا وَالْمُنْفِ رَفْعًا لِمَا شَفَى قَصْدًا

منه

326

فيه إلى آخر عام بكتفه بصلى الله الشام وتسا عرف في من معرفة  
 مروف تلك الأيام أقمت على ما عرفت من الجمل واستغيت  
 بها عن ذكر المفضل ولان الساطنة في تلك الأيام  
 ذهبت وهانت وبانت اسباب اعتقالها وظلمت  
 اسرارها بها وبانت وما قلن وز من سيرة ساد  
 وميزة باره حتى انوه بذكره واسمه وفيما انشأته من  
 بحاسن الايام الباهرة كفايه وكله وفوق الى هذه  
 هداية تم كتاب نصر الفترة وعصر الفطرة  
 بون الله ومنه والصلوة على محمد وآله

titulus edidit biblioteca regina  
 no 767 a  
 كتاب زبدة النصر وخبئة  
 العفنة

من انشاء الامام عماد الدين محمد بن محمد حامد الاصمغاني  
 رحمه الله

انتقاه الشيخ الامام العالم الفقيه ابن علي بن محمد البنداري  
 لاصمغاني رحمه الله في سنة

abvialis historico...  
 al. tit. magnum...  
 al. tit. magnum...  
 al. tit. magnum...

وهذه صورة الصفحة الأخيرة منها

2. مخطوطة بودليان: ورقمها 1/662، وتقع في 248 ورقة، في كل ورقة صفحتان، في كل صفحة 13 سطراً، مكتوبة بخط نسخ واضح جميل مشكول الكلمات، وقد سقطت صفحتها الأولى فعوضت بصفحة كتبها ناسخ آخر وبخط نسخ مغاير دون خط النسخة الكاملة في الجودة والجمال والتزام قاعدة النسخ. وبعبارة مغايرة لنسخة الفتح البنداري المطبوعة، وقد اعتمدها نسخة رديفاً أعانت في حل كثير مما أشكلت قراءته.

وعليها طبعت نسخة المستشرق هوتسما سنة 1889م، وطبعة القاهرة سنة 1900م، وطبعة صلاح الدين المنجد، بيروت 1978م.

جاء في مقدمة النسخة المطبوعة على لسان الفتح البنداري: (انه كما فرغ من انتخاب الكتاب الموسوم بـ (البرق الشامي) من إنشاء عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني الكاتب رحمه الله، طالعت كتابه الموسوم بـ (نصرة الفترة وعصرة القطرة) في أخبار الوزراء السلجوقية، فصادفته قد سلك فيه منهجه المعروف في إطلاق أعنة أقلامه في مضمار بيانه، وإسباغ أذيال القرائن المترادفة من وشائع ما يُحِبُّه رقم بنانه، بحيث صار المقصود مغموراً في تضاعيف ضمائر الأسجاع،... فانتخب هذا المختصر الذي هو بعد اشتماله على جميع مقاصد الكتاب مُحْتَوٍ على عيون قرائنه البديعة، وزواهر ألفاظه الفصيحة، خدمة لملك اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في جميع سلاطين الأمم، وصار نظاماً لمحاسن يتزين بافراها سائر ملوك العرب والعجم، مولانا السلطان الملك المعظم أبي الفتح عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، لازالت معارج دولته راقية في مدارج الإقبال،...، وقد افتتحت به شهر ربيع الأول سنة 623 هـ، مستعيناً بالله تعالى...)

فالفتح البنداري جرد الكتاب مما أثقله من أسجاع ومحسنات لفظية وبديعية وحافظ على مقاصد الكتاب، خدمة للملك عيسى بن أبي بكر بن أيوب.

وهذه صورة الصفحة الأولى من مخطوطة بودليان وهي بخط مغاير لكامل المخطوطة:

شمائله الزمير المحم  
 المحمدية حيا دائما ودام التعمير والافلاك . والشكر على الاله شكر عباده  
 وسلكه ويشهد ان لا اله الا هو الاحد القديم الذي ليس له ولد له ولد  
 ولم يولد ولم يكن له كفوا احد . وتعلي على المصوت الى العرب والعجم  
 سيد البلاغة والفصاحة الذي اشرفت انوار الساطع واسفل الصالح الام  
 بالفضة والاباحة صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وكرمه اجمعين  
 فعلا ما سيج اتدا دولت المللك السعدي هو انما سابع الاستخار الذي  
 ان فتح والفتح من عهد المللك الساعه والاسعاع حيث جعل لغاها على  
 الاستخار والالطاف . ونحت عزه من عجايب ايضا انما الاستخار ثم  
 مضمون الوصية وقوله على الامر بهذه الال لمضيه وانتم اولين وفاصحة  
 التي لا اله الا الله الذي جعل في البلاد مستشاره وشاعده اليه فادرسها  
 مقبل عليه ونحوه وان كان من عادته ان قال له تقدم وانكفرت تقدم فانت  
 اولي بها وانكفرت تقدم فانت اولي بها وانكفرت تقدم فانت  
 للموجع وانكفرت تقدم فانت اولي بها وانكفرت تقدم فانت  
 بعد العزيم والباسع . واطن قلوبهم الى الملك وانكفرت الضار من العباد  
 ...  
 ...  
 ...

صورة الصفحة الثانية من مخطوطة بودليان

طِرَانِهَا وَالنَّادِ قَالَ وَالسُّلْطَانُ الْفَرِيدُ مُحَمَّدُ بْنُ كَابِلِ  
 ابْنِ بَلْخِي وَالْأَخِيهِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي بَلْخِي وَهُوَ أَبُو دُرَيْدِ بْنِ كَابِلِ  
 مِنْ بَنِي جَعْفَرِ بْنِ الْيَسَافِ بْنِ الْخَاشِعِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَزْبَةَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ  
 بْنِ يَسَافِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ قُصَيْبَةَ بْنِ جَبْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي  
 تَالِبٍ وَهُوَ شَيْخُ وَجْهِ سَمَنَانَ وَابْنُ الْقُرَيْشِيِّ قَالَ وَاسْتَدَّ طَرَفُكَ  
 عَلَى الرَّبِيِّ وَقَدْ كَانَ أَوْجَعًا لِلَّهِ جَمِيعًا مِنْهُ مِنْ هَذَا  
 الصَّوْبِ بِجَمَلِ الرَّبِيِّ الَّتِي رَجَعَتْ عَنْهُ جَدَّتُهُ إِلَى أَبِي جَدِّهِ  
 فِي دَوْلَةِ الْمُهَلَّبِيِّينَ وَخَلَّازِ سَفَرَتْ بِهَا إِلَى قَوْمِهَا مِنْ مَنَاقِلِ  
 رَائِدِ وَوَرِيٍّ وَرَبِّ سَعْدِ بْنِ دُرَيْدِ بْنِ قَدْرَةَ وَطَهْرَةَ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ  
 نِبَالَةَ فَقَرَّبَتْهُمَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَادْرَأَتْهُنَّ  
 مَحْدَةَ عَنَانِ بْنِ عَلِيٍّ الْهَلْبِيِّ تُوِّدَةُ أَبُو الشَّامِ فِي شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ  
 وَذَلِكَ بِسَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَارْتَدَّ عَلَيْهِ وَفِي ذَلِكَ السَّنَةِ وَرَبَّ  
 رَيْثُ الرَّبِيِّ أَبُو النَّبِيِّ طَرَفُ الْحَارِثِيِّ وَاسْتَدَّ لَهُمُ ابْنُ

صورة الصفحة الأخيرة من مخطوطة بودليان

والاشارة اليه للاسفل في المصنفه اعني لا الشارح باحد  
 عن محمد بن عوف القاسم انتم في علي اعرفت من المفضل  
 انه في حديثه ما من فيكم الفلك لان القاسم في ذلك الايام  
 واهتد واهتد وابت اسباب الخلالا وظهرت اسرارها ما  
 واهتد واهتد واهتد واهتد واهتد واهتد واهتد واهتد  
 فاشبه واهتد واهتد من جليس الايام الناصره واهتد واهتد  
 مؤمن لا شك لا شك لا شك  
 واليه المولى رب العالمين  
 وصل الله على سيدنا محمد وآله  
 وصحبه وسلم  
 السبع ليالي يوم من جمادى الآخرة  
 سنة خمس وعشرون  
 سنة خمس وعشرون  
 كتاب فيه حديث شراع النبي صلى الله عليه وسلم مع ابي جهم العدي  
 الله تعالى قال حدثنا اصحابنا العارفين عمار واهل الشرايح  
 القضا انه لما نزل فاعبد الله ابن عبد المطلب كان النبي صلى



## عملي في إخراج الكتاب

لَمَّا كانت الغاية الأساس من التحقيق تقديم النص التراثي القديم للقارئ بصورة دقيقة واضحة هي أقرب ما تكون للنص الذي كتبه المؤلف، التزمت هذه القاعدة ما استطعت. ولهذا:

- 1- تركت فراغاً بقدر أحرف الكلمة المطموسة الأحرف والمبهمه التي لم أستطع تبيين معناها على ما بذلت من جهد في تبيينها.
  - 2- استعنت بمختصر الكتاب وكتب التراث في حل كثير من إنبام الألفاظ والأعلام المبهمه أو المطموسة الأحرف فأصلحت بها ما أمكن إصلاحه.
  - 3- ترجمت لكثير من الأعلام الذين ذكروا في الكتاب من شعراء أو أدباء أو مشاهير دون إفاضة في التعريف ولا إطالة دفعاً لملل القارئ.
  - 4- لم أترجم لأعلام العصر السلجوقي من خلفاء وسلاطين وملوك ووزراء، لأن الكتاب معقود على التعريف بهم بعصرهم وحكمهم، وإن تراجعهم منشورة في أثناء الكتاب تفصيلاً.
- وختاماً وفقنا الله لخدمة أوطاننا وتاريخنا، فلعل ساسة عصرنا الحاضر يتعظون بالماضي فيوظفونه لخير الحاضر. ومن الله التوفيق والسداد.

الدكتور

عبد الله عبدالرحيم السوداني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُصَرِّفِ الْأَقْدَارِ وَمُقَدِّرِ الصَّرُوفِ، وَمُعَرِّفِ الشَّرَائِعِ وَشَارِعِ الْمَعَارِفِ، وَخَالِقِ الْبَرِيَّةِ وَبَارِيِ الْخَلَائِقِ، وَمُحَقِّقِ الْإِنْشَاءِ وَمُنْشِئِ الْحَقَائِقِ، وَمُعِزِّ الْحَقِّ وَمُذِلِّ الْبَاطِلِ، وَمُعْطِلِ الْحَالِي وَمُحَلِّي الْعَاطِلِ، وَالْمُحْيِي وَالْمُمِيتِ وَالْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَيَقْدِرِيهِ وَإِرَادِيهِ النَّفْعَ وَالضَّرَّ، وَالزُّوَالَ وَالثَّبُوتَ، وَيَمَشِيئِيهِ الْإِبْدَاعَ وَالْإِخْتِرَاعَ وَالْإِعَادَةَ وَالْإِبْدَاءَ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، مُوجِدِ الْكَائِنَاتِ وَمُكَوِّنِ الْمَوْجُودَاتِ، وَمُدَبِّرِ الْأَشْيَاءِ، لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَالصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا نَبِيِّ مُحَمَّدٍ خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ سُرُجِ الْهُدَى وَشُمُوسِ الصُّحَى وَنُجُومِ الدُّجَى وَأَقْمَارِ الظُّلْمَاءِ.

وَبَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَوْثِرُ أَنْ أُجْمَعَ كِتَابًا فِي وَرَاءِ الْمُلُوكِ السَّلْجُوقِيَّةِ وَأَكَابِرِ دَوْلَتِهَا، ذَوِي الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ، وَالْأُصُولِ النَّقِيَّةِ، وَمَا زِلْتُ أَفَكِّرُ فَمَا يُوَاتِينِي فِكْرًا، وَلَا يُطَاوِعُنِي فِي تَأْلِيفِ عُنْوَانِهِ تَرْتِيبُ بِكْرٍ، حَتَّى تَأَمَّلْتُ الْكِتَابَ الَّذِي صَنَّفَهُ أَبُو شُرَّوَانُ بْنُ خَالِدٍ<sup>(1)</sup> بِالْفَارْسِيَّةِ، وَسَمَّاهُ (فُتُورُ زَمَانِ الصَّدُورِ وَصُدُورُ زَمَانِ الْفُتُورِ) فَوَجَدْتُهُ تَنْبِيئُ إِطَالَتُهُ عَنِ الْقُصُورِ، وَأَلْفِيئَتُهُ قَدْ قَصَرَهُ عَلَى زَمَانِهِ، مِنْ أَوْسَطِ عَهْدِ نِظَامِ الْمُلْكِ إِلَى آخِرِ عَهْدِ طُغْرُلِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ وَتَقْضِي سُلْطَانِيهِ، وَصَادَفْتُهُ بِنَاءَهُ عَلَى وَفْقِ غَرَضِهِ وَشَفَاءِ مَرَضِهِ، وَقَصَدَ التَّشْفِيَّ وَالْإِنْتِقَامَ، وَتَلَبَّ أَعْرَاضِ الْكِرَامِ، فَمَا أَنْصَفَ فِيمَا صَنَّفَ، وَلَا أَلْفَ بِمَا أَلْفَ، وَلَا وَفَى حَقًّا وَلَا حَقَّقَ وَفَاءً، وَلَا شَفَى قَصْدًا، وَلَا قَصَدَ شَفَاءً، وَلَا صَدَّقَ فِي نَبَأٍ، وَلَا أَنْبَأَ عَنْ صِدْقٍ، وَلَا سَبَقَ بِفَضْلٍ، وَلَا فَضَلَ بِسَبْقٍ، وَإِنَّمَا تَحَدَّثَ عَنْ حَوَادِثِهِ، وَكَثَّرَ ذِكْرَ كَوَارِثِهِ، وَشَكَا نَصْبَهُ فِي مَنْصَبِهِ، وَحَكَى مَا دَفَعَهُ إِلَيْهِ حَظَّهُ مِنَ الْمَطْلِ بِه فِي مَطْلِهِ، وَتَسَبَّ كُلَّ مَا نَسَبَ فِيهِ إِلَى مَنْ كَانَ يُجَارِيهِ

(1) ترجمناه في المقدمة.

في مضمار الكفاية ويباريه، فبلغ في فرض عرضه ورفض فرضيه، وجعل جرح كل صدرٍ شرح صدره، وباء في كل وزير يوزره، فما ألقىته حتى ألقىته، ولا أبقىته عليه ولا أبقىته، حتى سامني من إنعائه طوق عنفي، وتاج مفرقي، وقوة مرفقي، وسراج أفتي أن أعرب له الكتاب، وأعتمد فيه الصدق والصواب، فأنمرت لطاعته وأطعت أمره، وسررت بإبدائه وأبديت سره، فلما تم تعريبه وكمل تهذيبه رأيت مقتضب الافتتاح منقطع الاختتام، مفترقة فقره إلى نظمها في سلك التمام، فألحفته جناحاً، وألحقت بلبله صباحاً، وجعلت مفتوحة وزارة عميد الملك أبي نصر الكندري، وبدأت فيه بداية الملك السلجوقي ثم وصلته بمبدأ كتاب الوزير أنوشروان، ثم ذيلته بما عاينته في عصري من حديث الأعيان وحادث الزمان، واقتصرت على ذكر الجميل وتجميل الذكر، واقتضاء البديع البعيد، واقتضاض الفكر البكر.

#### نبد من بداية حال السلجوقية

كانت السلجوقية ذوي عددٍ وعدد، وأيد ويد، لا يدينون لأحد، ولا يدنون من بلد، وهم حيّ لقاح، في السلم حيون وفي الحرب وقاح، وميكائيل بن سلجوق زعيمهم المجل وعظيمهم المفضل وسيدهم المحكم وحاكمهم المسود، وماجدهم المكرم وكريمهم الممجد، وقد سكنوا من عمل بخارى<sup>(1)</sup> موضعاً يقال له (نور بخارى)، وجاري بأسيهم لايجارى، وباري قوسهم لايبارى، وجارهم لايجار عليه، وثارهم لا يثار إليه، ودارهم لا تدور بها الدوائر، وزارهم يزور عنه الزائر، وكانوا أشد غيل وغائلي أشد، وسعود مطالع وطالعي سعد، وضراعهم ضراء وصلادهم صلاء، وضياغم إذا انتدبوا ضاعمة، ولطائم إذا ابتدوا فاعمة، وما زالوا في أنصر شيعة وأنصر عيشة، وأعز جمى وأحمى عزة كأنهم أسود ينسنة<sup>(2)</sup>، وهم في تلك المراتع راتعون ويتلك المرباع رابعون، وإلى تلك المواضع موضعون، وفي تلك المجمع مجتمعون، والنمرعى مربع، والمعاد منيع، وهم في الرعي يكلاون الكلا، وفي الروع يملأون الملاء، وهم غنى مغناهم بالغنى والغنى، وطنّ وطنهم بنغم النعم، يفلون الفلا ويبرون البر،

(1) بخارى: قال ياقوت الحموي: مدينة من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يُعبر إليها من أمل الشط، وبينها وبين جيحون يومان، وكانت قاعة ملك السامانية.

(2) ينسنة: قال ياقوت: موضع من عمل مكة تما يلي اليمن من مكة على خمس مراحل، وفي وادي بيشة موضع مشجر كثير الأمد،

وَيَحْمُونَ وَيَحْمُونَ النَّسْلَ وَالذَّرَّ، لَا يَدْعُرُهُمْ ذَاعِرٌ وَلَا يَرَوْعُهُمْ دَاعِرٌ، وَلَا يَطْرُقُهُمْ خَوْفٌ وَلَا يُخَفِّفُهُمْ طَارِقٌ، وَلَا يَعْرِفُهُمْ نَابٌ وَلَا يَنْوِبُهُمْ عَارِقٌ، وَالسَّلَاطِينُ يَرَعُونَهُمْ لِلْمَلِمَاتِ وَلَا يَرَوْعُونَهُمْ، وَيَدْعُونَهُمْ لِلْمُهْمَاتِ وَلَا يَدْعَوْنَهُمْ، حَتَّى عَبَّرَ السُّلْطَانُ بِعَيْنِ الدَّوْلَةِ مَحْمُودَ بْنِ سُبُكْتِكِينَ إِلَى بُخَارَى لِمُسَاعَدَةِ قَدْرَخَانَ، وَوَقَى لَهُ حِينَ رَأَى أَنَّ الْحِطَّ لَا الْقَدَرَ خَانَ، فَرَأَى مِكْيَالَ مِكْيَائِلَ بِحِصْيِ الْحِصَانَةِ مُعْتَبِرًا، وَصَاعَ مِصَاعِهِ بِأَسِ البِسَالَةِ مُوقِرًا، وَالْفَاهُ الْفَاهَا لِلشَّدَّةِ وَالشَّدِّ، وَجِلْفًا لِلجِدِّ وَالجَدِّ، فَرِغَبٌ فِي اسْتِرْغَابِهِ، وَأَنْجَذَبَ إِلَى اجْتِنَابِهِ، وَمَالَ إِلَى اسْتِمَالَتِهِ، وَرَمَقَ قَمَرَهُ فِي هَالَتِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَنْزِلَ مِنْ أَوْجِهِ، وَيَنْقَلَهُ عَنْ بُرْجِهِ، وَيَعْبُرَ إِلَى خُرَاسَانَ<sup>(1)</sup> بِهِ وَبِأَهْلِهِ، وَيَكْنِفُ أَكْنَافَهَا لَدَى الْحَفِظِ وَالْحَفِيطَةِ بَنِيهِ وَنَبِيهِ، فَامْتَنَعَ مِكْيَائِلُ عَلَيْهِ، وَمَالَ عَنْهُ وَلَمْ يَحْمِلْ إِلَيْهِ، وَعَصَى أَمْرَهُ الْمُطَاعَ وَأَظْهَرَ الْامْتِنَاعَ، وَغَاظَ السُّلْطَانَ تَمَنُّعَهُ، وَوَضَعَ مِنْ مَوْضِعِهِ الرَفِيعَ عِنْدَهُ عِنَادَهُ وَتَرْفَعُهُ، فَجَبَّضَهُ وَاعْتَقَلَهُ، وَعَبَّرَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ إِلَى خُرَاسَانَ وَنَقَلَهُ، وَقَالَ أَرْسَلَانُ الْحَاجِبُ: أَرَى فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ عَيْنَ الْهَوْلِ، وَإِنَّهُمْ لَمَعْرُوفُونَ بِالْجِرَاءِ وَالْقُوَّةِ وَالْحَوْلِ، وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَقْطَعَ إِيْهَامَ كُلِّ مَنْ تَعَبَّرَهُ مِنْهُمْ لِيُؤْمَنَ ضَرُّهُ وَلَا يُخَافَ شَرُّهُ، فَمَا قَبِلَ خَطَابَهُ فِي هَذَا الْخَطْبِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ لَقَاسِي الْقَلْبِ، فَلَمَّا أَقَامُوا بِخُرَاسَانَ تَقَرَّبُوا إِلَى عَمِيدِهَا أَبِي سَهْلِ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ الْحَمْدُونِيِّ وَأَهْدَوْا إِلَيْهِ ثَلَاثَةَ أَفْرَاسٍ خُتْلِيَّةٍ وَسَبْعَةَ أَجْمَالٍ بُخْتِيَّةٍ وَثَلَاثُمِائَةَ رَأْسٍ مِنَ الْغَنَمِ التَّرْكِيَّةِ، فَهَدَاهُ إِقْبَالَهُمْ إِلَى قَبُولِ الْهَدِيَّةِ، وَكَانُوا سَأَلُوهُ أَنْ يُمَرِّجَهُمْ فِي الْمُرُوجِ، وَيَسُدُّ بِمَوَاشِيهِمْ مَخَارِمَ تِلْكَ الْفُرُوجِ، فَعَيَّنَ لَهُمْ مَرُوجَ دَانْقَانَ، فَفَقَرُوا بِهَا وَيَمَا قَارَبَهَا، وَتَحَامَاهَا مِنْ عَدَائِهِمْ وَجَانِبَيْهَا، وَثَوَفِي مَحْمُودُ بْنُ سُبُكْتِكِينَ وَهُوَ كَارَةٌ لِأَمْرِهِمْ، مُشْفِقٌ مِنْ وَمِيضِ جَمْرِهِمْ، مُشْفٍ مَلِكُهُ مِنْ شَرِّ شَرِّهِمْ، مُسْتَشْفٍ سَتَرَ الْقَضَاءِ فِي قَضِيَّةِ سَرِّهِمْ، مُسْتَشْفٍ يَمَا جَرَى مَجْرَى أَسْرِهِمْ مِنْ نَقْلِهِمْ بِأَسْرِهِمْ، وَعَدَّ أَبُو سَهْلِ الصَّعْبَ فِيهِمْ سَهْلًا، وَاتَّخَذَهُمْ لَارْتِفَاقِهِ بِهِمْ صَحْبًا وَأَهْلًا وَنَفَذَ مَسْعُودُ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ سُبُكْتِكِينَ عَسْكَرًا مِنْ غَزَنَةَ إِلَى خُرَاسَانَ فَوَاقِعُهُمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ عَدَّةً وَأَسْرَ مِنْهُمْ جَمَاعَةً حَمَلَهُمْ إِلَى غَزَنَةَ مِنْهُمْ كَبِيرُهُمْ بِيغُو أَرْسَلَانَ فَاسْتَعْفَفُوهُ فَلَمْ يَعْطَفْ، وَاسْتَسَعَفُوهُ فَلَمْ يُسْعَفْ، وَلَمَّا غَلَقَ رَهْنَهُمْ وَتَوَثَّقَ سَجْنَهُمْ شَرِبُوا كَأَسِّ الْيَأْسِ وَاجْتَابُوا الْبَاسَ الْبَاسَ، وَنَشَأَتِ الشُّحْنَاءُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشُّحْنِ

(1) خراسان: قال ياقوت: بلاد واسعة أول حدودها بما يلي العراق أزدوار قصبه جُوزين وبيهق، وآخر حدودها بما يلي الهند طخارستان و غزنة وسجستان وكرمان، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة و مرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد و سرخس، ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم فيها.

النَّاشِيَةِ، وَأَبْدَلُوا إِيْنَسَ النَّاسِ بِإِيْحَاشِ الْحَاشِيَةِ، وَمَشَى شُحْنَةَ طُوسٍ <sup>(1)</sup> لَاسْتِيَاقِ مَا لَهُمْ مِنَ الْمَاشِيَةِ، وَاسْتَلَانَ خُشُونَتَهُمْ وَاسْتَسَهَلَ حُزُونَتَهُمْ، وَرَاعَ رُعَاتَهُمْ، وَمَا حَامَى حُمَاتَهُمْ، وَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهُ أَبَ بِالْغَنَمِ وَالْغَنِيمَةِ وَبَاءَ بَعِزَّ الْعَزِيمَةِ سَلَّ خَوْفَ سَلْجُوقِ مِنَ الْحَقَائِبِ طَلَبَى الْحَقَائِدَ، وَجَعَلُوا صِدَاقَ عَقَائِلِ الْمَلِكِ صِدْقَ الْعَقَائِدِ وَرَكِبُوا إِلَيْهِ صَهَوَاتِ الْحَقِّقِ، وَصَرَفُوا نَحْوَهُ أَعْنَةَ الْخَبَبِ وَالْعَنْقِ، حَتَّى لَقَوْهُ فَتَرَكَهُ لُقَى، وَعَلِقَتْ سُيُوفُهُمْ مِنْ دَمِهِ وَدِمَاءِ أَصْحَابِهِ عَلِقَاءً، وَتَبِعُوا الْمُنْهَزِمِينَ وَدَخَلُوا إِلَى طُوسٍ وَمَلَكُوهَا، وَجَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ وَسَلَكُوهَا، ثُمَّ تَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا: هَذَا بَحْرٌ خُضْنَاهُ، وَذَمَّرَ قَضَعْنَا، وَغَنَمٌ نَضْنُنَاهُ، وَخَتَمٌ فَضَضْنَاهُ، وَيَكْرٌ افْتَضَضْنَاهُ، وَدَكْرٌ اسْتَنْهَضْنَاهُ، وَفَنَحَ ابْتَكْرْنَاهُ، وَنُجِحَ أَظْهَرْنَاهُ، وَعِزٌّ اسْتَجْدَيْنَاهُ، وَفَوْزٌ اسْتَجْدَيْنَاهُ، وَمَلِكٌ اغْتَمَمْنَاهُ، وَسَلَكٌ نَظْمْنَاهُ، وَقَدْ صَارَ لَنَا فِي الْبَلَدِ مَعْقِلٌ، وَفِي الْبَلَاءِ مَعْقِدٌ، وَفِي الْأَمْرِ مَرْقَى، وَفِي الْأَمْرِ مَرْقَدٌ، وَلِلْسَلَامِ مَوْعِقٌ، وَلِلْحَرْبِ مَوْقِدٌ، وَطُوسٌ طَاسٌ نَشَوْتِنَا، وَكَاسٌ قَهَوْتِنَا، وَكَيْسٌ ثَرَوْتِنَا، وَمَدِينَتُنَا الَّتِي تُؤْوِنَا، وَسَفِينَتُنَا الَّتِي تُحَوِّنَا، وَحِصْنُنَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ، وَرُكْنُنَا الَّذِي إِلَيْهِ يُسْتَنْدُ فَلَا تُفْرَجُ عَنْهَا وَلَا تُخْرَجُ مِنْهَا.

وشرح أبو سهل الحمدوني في تسهيل ما تصعب، وتأويل ما تشعب، وتحليل ما تعقد، وتعديل ما تأود، واستدراك ما قرط، واستمساك ما اختبط، لأنه كان يعرف إليهم بالصنعية وصنع معهم معروفاً، وأرسل إليهم يذكّرهم بذلك المعروف معروفاً، وزجا منهم ما لوفاء كان مالوفاً، وكادوا يجيبونه بالجميل ويجمعون في الجواب ويميلون بمالائه إلى صوب الصواب، فتسرع شحنة نيسابور <sup>(2)</sup> وتعسر، وجرى في ميدان الثهور به فتعثر، واستعجل قزل وتكثّر قفل، وتعرّز قدل واستهدف، واستخف واستضعف، وحشد وعسكر ونادى وحشر، وشن على سرجهم غارة على غرة، ونهض لمنفعة نهضت مصرة، وساق لهم غنيمه عدها غنيمه، وغرة طمعه فصار إقامه هزيمة، وركب السلجقية إليه وإلى جماعته أرسلوا، ونسبوا معه وشبوا قتالاً، وهزمهم وكسروهم وقتلوهم وأسروهم واعتقلوا جماعة من الوجوه وعروا نفوسهم المكروبة بالمكروه وامتدوا إلى نيسابور فدخلوها، ووجدوا

(1) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدين يقال لأحدهما الطابران وللأخرى نونان، ولها أكثر من ألف قرية، وبها قبر الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) وبها أيضاً قبر هارون الرشيد.

(2) نيسابور: قال ياقوت: مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء لم أر فيها طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها.

في خُلُوبِهَا فِرْصَةً أَخَذَهَا وَفَتَحَهَا فَاهْتَبَلُوهَا، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَعَزَمُوا عَلَى مَدِّ الْيَدِ وَنَهَبِ الْبَلَدِ وَهَجَمِ الْمُهْجِ وَالْمَنَازِلِ بِالْتَوَازِلِ وَالرَّعْيِ فِي الرِّعَايَا بِالْغَوَايَاتِ وَالْغَوَاثِلِ، وَإِصْمَاءِ الْمَقَاتِلِ بِالْمَخَاتِلِ فَمَنْعَهُمْ طَغْرَبِكَ مُحَمَّدُ بْنُ مِيكَائِيلَ بْنِ سَلْجُوقٍ، وَهُوَ أَمِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ وَظَهِيرُهُمْ وَنَصِيرُهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: نَحْنُ فِي شَهْرِ حَرَامٍ لَا نَهْتِكُ حُرْمَتَهُ وَلَا نَنْهَكُ عَصْمَتَهُ، وَلَا يَحْصُلُ مِنَ النَّهَبِ أَرْبٌ، وَلَا يَجْتَمِعُ أَيْضًا فِيهِ نَسَبٌ، وَإِنَّمَا تَسَوُّءٌ بِهِ السُّمْعَةُ وَتَشْيِيعُ الشَّنْعَةُ، وَتَنْفَرُ الْخَلْقُ وَتَنْفِرُ، وَتَعَافِ الْأَنْفُسُ وَتَشْمِيزُ، وَلَا تَسْكُنُ النَّفُوسُ عَلَى دَوْلَةٍ تُبْنَى عَلَى الْإِزْعَاجِ، وَلَا يَهَاءُ إِلَّا بِالْإِبْهَاجِ، وَدَاءُ الْعَجَلَةِ عَيْسُ الْعِلَاجِ، فَفَرَّ جَمَاعَتُهُ مِنْ مَقَالِهِ، وَسَخَّفُوا رَأْيَهُ فِي تَبْيِينِ حَرَامِ الْفِعْلِ وَحِلَالِهِ، وَقَالُوا أَنْتَ تَرِيدُ فَوْتَ غَنِيمَةٍ حَاصِلَةٍ وَقَطْعَ فَائِدَةٍ وَاصِلَةٍ، وَنَحْنُ سَطَوْنَا بِالشَّرِّ لَا بِالشَّرِّعِ، وَاسْتِيْلَاؤُنَا لِلتَّفَرُّقِ لَا لِلجَمْعِ، وَمَنْ يَتَّبِعُنَا إِذَا عَفَفْنَا؟ وَمَا الَّذِي يَكْفِينَا إِذَا كَفَفْنَا؟ فَمَا زَالَ بِهِمْ طَغْرَبِكَ يُفْلِلُ حَدَّهُمْ وَيُقَلِّلُ جَدَّهُمْ، وَيَقُولُ: أَمَهَلُوا بَقِيَّةَ هَذَا الشَّهْرِ وَأَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ بَعْدَ الْفِطْرِ فَإِذَا انْقَضَى الصَّوْمُ وَانْقَرَضَ قَضَى الْقَوْمِ الْغَرَضُ وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ وَصَلَ إِلَيْهِمْ كِتَابُ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يُخَوِّفُهُمْ وَيَعْظُمُهُمْ وَيُنَبِّهُهُمْ لِأَمْرِ الدِّينِ وَيُوقِظُهُمْ وَيَحْمَلُهُمْ عَلَى رِعَايَةِ عِبَادِهِ وَعِمَارَةِ بِلَادِهِ، وَخَلَعُوا عَلَى الرَّسُولِ الْمَعْرُوفِ بِأَبِي بَكْرٍ الطُّوسِيِّ ثَلَاثَ عَشْرَةَ خِلْعَةً وَتَبَاهَوْا بِرِسَالَةِ الْخَلِيفَةِ وَازْدَادُوا بِهَا قُوَّةً وَرِفْعَةً، وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْعِيدِ اجْتَمَعُوا مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ وَهَمَّوْا بِالنَّهَبِ، وَمَدُّوْا أَيْدِيَهُمْ بِالسَّلْبِ، فَرَكِبَ طَغْرَبِكَ لِمَنْعِهِمْ وَجَدَّ فِي رَدِّهِمْ وَرَدَعِهِمْ وَقَالَ: الْآنَ قَدْ جَاءَ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ الْمُفْتَرَضِ الطَّاعَةِ عَلَى الْخَلِيفَةِ، وَقَدْ حَصَّنَا مِنْ تَوَلِيَّتِهِ إِيَانًا بِالْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ، لَا يَسْعُنَا سَلُوكٌ مِثْلَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَلَجَّ عَلَيْهِ أَخُوهُ جَغْرِي بَكِ دَاوُدَ وَهُوَ عَزِيزٌ عِنْدَهُ مَوْدُودٌ، وَأَخْرَجَ سَكِينَتَهُ وَقَالَ: إِنْ تَرَكْتَنِي وَإِلَّا قَتَلْتُ نَفْسِي بِيَدِي، وَنَقَصْتُ مِنْكُمْ عَدَدِي، فَرَّقَ لَهُ وَسَكَنَهُ وَأَرَاهُ أَنَّهُ قَدْ مَكَّنَهُ وَأَرْضَاهُ بِمِئْبَلِغِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ قَسَطَهُ، وَأَمَّنَ سُخْطَهُ وَاسْتَدْرَكَ بِهِ غَلَطَهُ، وَوَزَّنَ أَهْلَ الْبَلَدِ مَعْظَمَتَهُ، وَأَدَّى هُوَ مِنْ مَالِهِ الْبَاقِي وَتَمَّمَهُ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ لِمَحْمُودِ بْنِ سُبُكْتِكِينَ فِي نَيْسَابُورٍ فَكَأَنَّ الدَّهْرَ أَعَادَ كَيْسِرِي سَابُورَ، وَأَمَرَ وَنَهَى، وَأَخَذَ وَأَعْطَى، وَأَبْرَمَ وَنَقَضَ، وَأَحْكَمَ وَقَوَّضَ، وَمَنْحَ وَمَنْعَ، وَرَفَعَ وَوَضَعَ، وَجَلَسَ يَوْمِي الْأَحَدِ وَالْأَرْبَعَاءِ لِكَشْفِ الْمِظَالِمِ وَبَسْطِ الْمَعْدَلَةِ وَبَثِّ الْمَكَارِمِ، وَسَيَّرَ أَخَاهُ دَاوُدَ إِلَى

سَرْخَسَ<sup>(1)</sup> فَمَلَكَهَا، وَنَهَجَ لَهُ طَرِيقَهُ فِي الْعَدْلِ فَسَلَكَهَا، وَسَيَّرَ إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ الْمُعْظَمَةِ رَسُولًا يُعْرَفُ بِأَبِي إِسْحَاقَ الْفُقَاعِيِّ، صَيِّحَ الْبَهْجَةِ فَصِيحَ الْلَهْجَةِ، بَكْتَابٍ مَضْمُونُهُ: إِنَّهُمْ لَمَّا وَجَدُوا ابْنَ يَمِينِ الدَّوْلَةِ مَحْمُودَ غَيْرِ مَحْمُودٍ، وَهُوَ مَائِلٌ عَنِ الْخَيْرِ وَالسَّمْوِ، مُشْتَغَلٌ بِالشَّرِّ وَالْعُتُوِّ، وَهُوَ مِنْهُمْ فِي بَغْيِهِ مَرْتَبِكُ بَغْيِهِ، لِأَنَّهُ بِلَهْوِهِ، زَاهٍ بِزَهْوِهِ، ذَاهِلٌ عَنِ دِينِهِ بِدَنِّهِ، ذَاهِبٌ عَلَى حُكْمِ شَهْوَتِي فَرِجِهِ وَيَطْنِهِ، غَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَالْبِلَادِ، وَهُمْ عِبِيدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي حِفْظِ الْعِبَادِ وَقَدْ سَنَوْا سُنَّةَ الْعَدْلِ وَعَقُّوا آثَارَ الْآثَامِ، وَزَقُّوا أَيَّامَ الْأَيَّامِ، فَهُمْ أَجْنَادُ الْإِنْجَادِ أَمَامَ الْإِمَامِ وَمَضَى رَسُولُهُمْ، وَقَضِيَ سَوْلُهُمْ، وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُهُمْ، وَسَرَّ سَرِيرُهُمْ، وَدَبَّ دَبِيحُهُمْ، وَقَرَّ بَعِيدُهُمْ بِعِيدُهُمْ وَقَرِيْبُهُمْ، وَتَوَاصَلَتْ مَعَ مَسْعُودِ بْنِ مَحْمُودِ بْنِ سَبِكْتِكِينَ حُرُوبُهُمْ وَجَلَّتْ خُطُوبُهُمْ، وَهَزَمُوهُ فِي سِنَةِ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَاشْتَدَّتْ مَنَعَتُهُمْ، وَمَنَعَتْ شِدَّتُهُمْ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ، وَسَالَتْ قُوَّتُهُمْ، وَانْتَشَرَ جَرَادُهُمْ، وَانْتَشَبَ طِرَادُهُمْ، وَكَثَفَ حَدِيدُهُمْ، وَأَمَّرَ أَمْرَهُمْ، وَدَرَّ ذَرُّهُمْ، وَغَالَتْ غَوَائِلُهُمْ، وَجَدَلَتْ أَجَادِلُهُمْ، وَقَضَقَصَتْ أَسْوَدُهُمْ وَنَضْنَصَتْ أَسَاوِدُهُمْ، وَسَاعَدَتْ مَكْتَهُمْ وَتَمَكَّنَ سَاعِدُهُمْ، وَذَبَّيْتُ فِرْسَانَهُمْ وَفَرَسَتْ ذِنَابُهُمْ، وَعَظَمَتْ نَوَائِبُهُمْ، وَعَظَّصَتْ أُنْيَابُهُمْ، وَاسْتَوَلَوْا عَلَى خِرَاسَانَ وَتَجَاوَزَوْهَا إِلَى الْعِرَاقِ، وَطَارُوا إِلَى الْأَفَاقِ، وَصَرُّوا عَلَى مَلِكِ الدَّلِيلِمِ، وَزَمَوْهُ بِالصَّيْلِمِ، وَبَلَّغُوا الْأَفْلَاكَ وَعَلَّبُوا الْأَمْلاكَ، وَنَصَّبُوا الْأَشْرَاكَ، وَنَصَرُوا الْأَتْرَاكَ، وَاقْتَسَمُوا بَيْنَهُمُ الْبِلَادَ، وَطَرَفُوا أَطْرَافَهَا التَّلَادَ، وَرَفَعُوا الْمُتَنَافِسَةَ فِي الْفِتْنَانِ، وَرِيضَتِ الْأُسْدُ بِتَرَاضِيهَا عَلَى حُصَصِ تِلْكَ الْفِرَائِسِ.

### السُّلْطَانُ طَغْرَلْبَكُ مُحَمَّدُ بْنُ مِيكَائِيلَ بْنِ سَلْجُوقِ

وَأَخِيهِ جُغْرِي بَكُ أَبِي سُلَيْمَانَ دَاوُدَ بْنِ مِيكَائِيلَ مِنْ نَهْرِ جِيحُونَ<sup>(2)</sup> إِلَى نِيْسَابُورَ، وَأَخِيهِ مِنْ أُمِّهِ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَنَالٍ بْنِ سَلْجُوقِ قَهْسْتَانَ وَجُرْجَانَ<sup>(3)</sup>، وَابْنِ عَمِّهِ أَبِي عَلِيِّ

(1) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، ليس لها في الصيف إلا ماء الأبار العذبة وليس بها نهر جار إلا نهر يجري في بعض السنة ولا يدوم ماؤه وهو فضل مياه هراة.

(2) نهر جيحون: قال ياقوت: هو اسم وادي خراسان يجري في وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبه الناس إليها وقالوا جيحون على عادتهم في قلب اللفاظ. قال ابن الفقيه: يجيء جيحون من موضع يقال له ريرساران وهو جبل يتصل بتاحة السند والهند وكابل.

(3) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه.

الحسن بن موسى بن سلجق هراة<sup>(1)</sup> وبوشنج<sup>(2)</sup> وسجستان<sup>(3)</sup> وببلاد الغور، وامتد طغربك إلى الرّي ليطاً ويّطيف، ويستفيض ويستضيف، ويتناول ويتناول، ويسلك ويملك، ويستوي ويستولي، ويستقر ويستقر، ويستغنم ويستغني، ويثير ويثير، ويبر ويبري، ويجر ويجري، وقد كانوا جعلوا له جميع مايفتحه من هذا الصّوب، وفصلوا العزيمه كل ما يحوكه من الثوب، فحمد الرأي بالرّي، ونجزت عدة جدته بعد اللّي، وانتشرت ثروته بعد الطّي، ورشد زمانه بعد الغي، ووجد في دار الديلم دفائن وخزائن، سفرت بها أيامه عن أيامن من مصوص موصون، ومكنوز ومكنون، وموشى منسوج، وموشع ممزوج، ولجين وعسجد، وياقوت وزبرجد، وحمر وبيض، وعرض ونضير، ونضار عريض، ومراكب وشيوف، وأساور وشنوف، وجواهر وزواهر، ومفارش ومعارش، فتائل وتائل، وورى زند سعديه بما ورث، فطار اسمه، وسما طيره، وسار عرفه، وعرف سيره، وانتدبت سراياه، وسرت ندوبه وحطبت عظمته، وعظمت خطوبه، وقدم قدامه ابراهيم بن ينال لينال حوزة ويحوز نيلاً وأسأل معه من المجر المجرى سيلاً، ففر ذلك القزم بقرميسين<sup>(4)</sup>، وحز وحاز وانتزعها من الأمير أبي الشوك فارس بن محمد بن عتاز، وحل بحلوان<sup>(5)</sup>، وتوفي أبو الشوك في شهر رمضان وذلك سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

وفي هذه السنه وزر رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن بن المسلمة للقائم بأمر الله وهي أول سنة ورد فيها الأتراك إلى العراق، وانتشروا منه في الآفاق، وكان عند طغربك رسول الخليفة وهو أبو محمد هبة الله بن محمد بن الحسين بن المأمون مقيماً يدعوهُ إلى بغداد ولا يدعوهُ يقيم، ويروم صدق القصد ولايرنم، وطال بالحضرة حضوره طالباً، وحال يحضه إليه خطه جالياً، حتى حرك عزمه فعزم على الحركة، وأطلق أعتة الرعبات الممتسكة،

(1) هراة: قال ياقوت: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، لم أر عند كوني بها مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة، محشوة بالعلماء ومملوءة باهل الفضل والثراء، وقد خربها التتار سنة 618 هـ.

(2) بوشنج: قال ياقوت: ببلدة نزهة خصيبة في واد مشجر من نواحي هراة، بينها عشرة فراسخ.

(3) سجستان: قال ياقوت: ناحية كبيرة وولاية واسعة، جنوبي هراة، بينها وبين هراة عشرة أيام ثمانون فرسخاً، وأرضها كلها رملة سبخة.

(4) قرميسين: بلد معروف بينه وبين همدان ثلاثون فرسخاً قرب الدينور، وهي بين همدان وحلوان على جادة الحاج.

(5) حلوان: قال ياقوت: مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد ودمشق وأرضها واكثر ثمارها التين وهي بقرب الجبل، وربها يسقط فيها الثلج، وهي ليست حلوان مصر، ولا التي في بلاد فارس،

وَأَنْدَفَعَ كَالسَّلِيلِ، وَكَسَا الْفَلَقَ عَجَاجٌ فَيَلْقِيهِ صِبْغَةَ اللَّيْلِ وَاسْتَنْابَ رِيحٌ مَجْرَهُ عَنْ رَائِحَةِ مِجْمَرِهِ، وَاسْتَخَارَ مِزْمَهُ الصَّبِيْبَ عَلَى صَوْتِ مِزْمِهِ، وَقَامَ عَنِ الْعُوْدِ السُّرْبِجِيِّ مُقْبِداً عُوْدَ السَّرْجِ، وَثَنَاهُ مَرَّاحُ الصَّفَّاحِ عَنِ صَفْحَاتِ الْمَرْجِ، وَشَغَلَهُ الْخُرْصَانُ عَنِ الرَّخْصِ، وَالزَّرْجُ عَنِ الْأَزْجِ، وَأَلْهَاهُ الْكَمِيْتُ عَنِ الْكَمِيْتِ، وَالْوَرْدُ عَنِ الْوَرْدِ، وَصَدَفَهُ الطَّرْفُ عَنِ الطَّرْفِ، وَالنَّهْدُ عَنِ النَّهْدِ، وَجَرَّ عَرْمَماً عَارِماً وَمَجْرَاً جَارِماً، وَفَيْلِقاً فَالِقاً، وَمُحَلِّقاً كَالنَّسْرِ إِلَى الثُّرَيَّا لِلشُّرَى بِسُوْرِهِ حَالِقاً، وَلَمْ يَتْرِكِ التَّرْكَ وَرِداً إِلَّا شَفِيْهُوْهُ، وَلَا حَسَناً إِلَّا شَوَّهَوْهُ، وَلَا نَاراً إِلَّا أَرْثَوْهَا، وَلَا غَوَاراً إِلَّا شَتَّوْهُ، وَلَا غَرَاراً إِلَّا سَتَّوْهُ، وَلَا عِصْمَةً إِلَّا رَفَعَوْهَا، وَلَا وَصْمَةً إِلَّا وَضَعَوْهَا، وَاسْتَوْحَشَ النَّاسُ مِنْ بَأْسِهِمْ، وَأَقْوَى سَهْمٌ كُلُّ مَعْنَى مِنَ الْغِنَى بِسَهْمِهِمْ وَأَقْوَاهُمْ، وَدَامَ احْتِرَاسُهُمْ مِنْ احْتِرَاسِهِمْ، وَشَابَتْ الْمَفَارِقُ مِنْ فَرَقٍ أَوْشَابِهِمْ وَأَوْبَاشِهِمْ، وَأَجْفَلَ الْمُلُوكُ مِنْ خَوْفِ إِقْدَامِهِمْ، وَتَنَحَّوْا مِنْ طَرِيْقِ ضَرَامِهِمْ، وَأَحْلَتِ الْعَوَاسِلُ أَجَامَهُمَا لِأَجَامِ عَوَاسِلِهِمْ، وَتَفَرَّقَتِ الْقَبَائِلُ لِتَجَمُّعِ قِبَائِلِهِمْ فَمَا جَاؤُوا إِلَى بِلْدَةٍ إِلَّا مَلَكُوا مَالِكُهَا، وَمَلَأُوا مَسَالِكُهَا، وَأَرْعَبُوا سَاكِنِيهَا، وَأَسَكَّنُوهَا الرُّعْبَ، وَعَلَبُوا وَلَائِهَا وَوَلَّوْهَا الْغُلْبَ، وَمَدَّوْا إِلَى رُؤُوسِهَا أَيْدِي السَّلْبِ، وَتَبَّهَوْا فِي أَعْيَانِهَا عِيُونَ النَّهْبِ، وَأَطَارُوا مِنْ وَكُورِهَا فِرَاحَ الْأَمْنِ، وَسَامُوا بِجِيوشِهِمُ الرِّعْنَ جَاشَ الرِّعْنَ، وَرَامُوا بِتَفْوِيْقِ النَّبَالِ لِلرِّمَاءِ تَفْرِيقَ النَّبَالِ، وَسَامُوا الْبِلَادَ سَوْمَ الْبَلَاءِ، وَاجْتَابُوا سَرَابَ السَّرَةِ الْحَصْدَاءِ لِيُرْدُوا عَنْهَا بِغَيْرِ بَلَلٍ وَرَادَ الظُّبَى الظَّمَاءَ، وَمَاجَوْا فِي بَحَارِ الدَّلَاصِ، وَأَسَالُوا الْعِرَاصَ بِالْأَسَلِ الْعَوَاصِ، وَأَزْوَرُوا إِلَى الزُّورَاءِ وَامْتَدَّوْا بِالْبَيْدَاءِ فَأَشَاعُوا مَدَّ الْيَدِ بِالْغَارَةِ الشَّعْوَاءِ، وَزَفَلُوا فِي ثَوْبٍ مِنَ النَّقْعِ ذَائِلٌ، وَعَامُوا فِي غَدِيرٍ مِنَ الرَّعْفِ سَائِلٌ، وَضَيَّقُوا الْفِضَاءَ الْوَاسِعَ وَقَيَّضُوا الْقِضَاءَ الْوَاقِعَ.

ذكر دخول السلطان ركن الدولة طغرل بك أبي شجاع محمد بن ميكائيل بن سلجق إلى بغداد

في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة ومعة الوزير عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكُندري، وهو أول وزراء السلجوقية البدر الزاهر، والبحر الزاخر، والناقض المُبْرِم، والناهض المُقَدِّم، والعاقل العاقد، والنافذ الناقد، والشهم الأشد، والشهم الأشد، والمالك الكامل، والمُتَطَوِّلُ المُتَطَوِّل، والكافي الكافل، والعادي العادل، والناهب الواهب، والكاسر الكاسب، وكان عدوه مهيباً، وعدوه مهيناً، وحكمه مُحْكَمًا،

وَمَكَائِهِ مَكِينًا، وَصَوْلُهُ هَائِلًا، وَهَوْلُهُ صَائِلًا، وَحَوْلُهُ شَدِيدًا، وَقَوْلُهُ سَدِيدًا، وَسَائُهُ رَفِيعًا،  
 وَسَائَتُهُ وَضِيعًا، وَكَانَ حَصِيْفًا فَصِيْحًا، رَجِيْحًا نَجِيْحًا، أَدِيْبًا أَرِيْبًا، مُتَسَلِّطًا بِمَكَانِهِ، مُتَمَكِّنًا مِنْ  
 سُلْطَانِهِ، يُرْجَى وَيُخْشَى، وَيُقْصَدُ وَيُعْشَى، وَيُخْدَمُ وَيُرْشَى، وَمَا لَا يُمَشِيهِ مِنَ الْأَمْرِ لَا يُتَمَشَى،  
 وَالسُّلْطَانُ بِأَذْنِهِ وَنَظَرِهِ يُبْصَرُ وَيَسْمَعُ، وَيَبْأَذْنُهُ وَنَظَرُهُ يَرْفَعُ وَيَضَعُ، وَيَعْلَمُ عِلْمَهُ يُقَدِّمُ وَيُحْجِمُ،  
 وَيُحْزِمُ حَزْمَهُ يُسْرِجُ وَيُلْجِمُ، وَبَسَدَادِ حِلْمِهِ يُسَدِّي وَيُلْجِمُ، وَلِرَأْيِهِ يَقْتَبِسُ، وَيَقْبَسُوهُ يَرَى،  
 وَبُورِي زَنَادِهِ يَسُوسُ الْوَرَى، وَلَهُ الْبَهْجَةُ الْمَهِيْبَةُ وَاللَّهْجَةُ الْمُصَيَّبَةُ، وَالِدَوْلَةُ الْحَادَّةُ وَالصَّوْلَةُ  
 الْجَادَّةُ، وَالصَّيْتُ الْجَوَابُ وَالصَّوْتُ الْمُجَابُ، وَهُوَ لُبُّ بِالْأَمْرِ أَمِيرُ اللَّبِّ، قَلْبُ الْحَيِّ حَيُّ  
 الْقَلْبِ، صَائِبُ الْهَيْمَةِ هَامِي الصَّوْبِ، وَكَانَ مَعَ السُّلْطَانِ طَغْرَبِكْ يَوْمَ وَصُولِهِ إِلَى بَغْدَادَ وَقَدْ  
 خَرَجَ رَئِيسُ الرُّسَاءِ وَزَيْرُ الْإِمَامِ الْقَائِمِ لِاسْتِقْبَالِ السُّلْطَانِ فِي جَمْعٍ مُحْتَفِلٍ وَحَفْلٍ مُجْتَمِعٍ،  
 وَرِفْعَةٍ مُعَلِّمَةٍ وَعَلِمٍ مُرْتَفِعٍ، وَمَعَهُ أَرْبَابُ الْمَنَاصِبِ وَأَصْحَابُ الْمَرَاتِبِ، وَالْخَدَمُ وَالْخَوَاصُّ،  
 وَمَنْ لَهُ الْإِصْطِفَاءُ وَالِاسْتِخْلَاصُ، وَالنَّقِيْبَانِ وَالْأَشْرَافُ، وَالْأَوْسَاطُ وَالْأَطْرَافُ، وَقَاضِي  
 الْقَضَاةِ وَالشُّهُودُ، وَالْجُرْدُ وَالْبُنُودُ، وَالْبِيضُ وَالسُّودُ، وَالْمَوْكِبُ الْمَفْخَمُ وَالْمَرْكَبُ الْمُعْظَمُ،  
 وَالْأَبْهَةُ الْجَمِيْلَةُ وَالْجَمَالُ الْبَهِي، وَالسَّنَاءُ الظَّاهِرُ وَالظُّهُورُ السَّنِي، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى نَهْرِ بَيْنَ  
 لَقِيَهُ صَاحِبٌ لِلْسُّلْطَانِ مِنَ الْمَقْرَبِيْنَ، وَقَدَّمَ لِلْوَزِيرِ شَهْرِيًّا، وَقَالَ: هَذَا مَرْكَبُ السُّلْطَانِ وَقَرَّبَهُ،  
 فَزَلَّ عَنِ بَغْلَتِهِ وَرَكَبَهُ، وَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ عَمِيْدُ الْمَلِكِ أَبُو نَصْرِ الْكُنْدَرِيُّ فِي أَلْفِ صَنْمٍ، وَمَوْكِبِ  
 ضَخْمٍ، وَفَخْرٍ فَخْمٍ، وَجَمْعِ جَمٍّ، وَقَدْ وَقَفَ بِتَوْقَعٍ مُطْلَعُهُ وَيَتَطَّلَعُ مَوْقَعَهُ، فَلَمَّا بَصَرَ بِهِ قَصَدَ  
 عَمِيْدُ الْمَلِكِ أَنْ يَتَرَجَّلَ لَهُ فَمَنْعُهُ وَتَعَانَقَا رَاكِبِيْنَ، وَخَلَطَا الْمَوْكِبِيْنَ، وَوَصَلَ السُّلْطَانُ إِلَى  
 بَغْدَادَ وَنَزَلَ عَلَى دَجَلَةَ عِنْدَ مُسْتَاةِ عِزِّ الدَّوْلَةِ، مَسْنِيَّ الْعِزِّ مَهْنِيَّ الْفُوزِ، جَدِيْدَ الْيَمَنِ مِيْمُونَ  
 الْجَدِّ، حَدِيْدَ الرَّهْبِ مَرْهُوبَ الْحَدِّ، رَاتِقَ الْهَيْبَةِ، سَافِرَ السَّعَادَةِ مَسْعُودَ السَّفْرِ، مَرْجُوَّ الْبِيْدِ  
 مُؤَيَّدَ الرَّجَاءِ، سَامِيَّ الْهَيْمَةِ هَامِيَّ السَّمَاءِ، عَالِيَّ الْقَدْرِ قَادِرَ الْعَلَاءِ، قَدْ ضَاقَتْ الْأَرْضُ بِجُنُودِهِ  
 وَضَاقَتْ السَّمَاءُ عَذَابَاتِ بُنُودِهِ، وَالْوِهَادُ بِخِيَامِهِ أَكْمُ، وَالْمَرْوَةُ بِرِمَاجِهِ أَجْمُ، وَالضَّرَاغِمُ حَوْلَ  
 سُرَادِقِهِ وَوُفُوفُ، وَالْقَشَاعِمُ عِنْدَ بِيَارِقِهِ ضِيُوفُ، وَقَامَتْ حُرْمَتُهُ وَاحْتَرَمَتْهُ (القَائِمُ)، وَأَعْرَبَتْ  
 وَأَعْجَمَتْ عَنِ مَكْنِيَّتِهِ وَمَكَائِيَّتِهِ الْأَعْرَابُ وَالْأَعَاجِمُ.

وَقَبْضُ عَلَى الْمَلِكِ الرَّحِيْمِ أَبِي نَصْرِ الدَّيْلَمِيِّ مِنْ نَسْلِ عَضِدِ الدَّوْلَةِ وَسَيَّرَهُ إِلَى الرَّيِّ  
 فَقَطَعَ عَلَيْهِ الْأَجْلَ الطَّرِيقَ فِي طَرِيقِهَا، وَأَذْنَتْ جُمُوعَ مَمَالِكِ الدَّيْلَمِ بِتَفْرِيقِهَا.

وَقَبَضَ عَمِيدُ الْمَلِكِ أَبُو نَصْرِ الكُنْدَرِي الوزير الْأَعْرَزَ أَبَا سَعِيدٍ وزيرِ الْمَلِكِ الرَّحِيمِ ثُمَّ اسْتَدَامَ صِحَّتَهُ حِينَ أَلْفَاهُ فِي الْكَفَايَةِ صَاحِحِ الْأَدِيمِ، وَأَطْلَقَهُ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْحَبْسِ وَالْإِطْلَاقِ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ وَفَوَّضَ إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْعِرَاقِ.

وَتُوفِيَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ قَاضِي الْقَضَاةِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مَآكُولِهِ فَخَاطَبَ عَمِيدُ الْمَلِكِ فِي تَوَلِيَةِ قَاضِي الْقَضَاةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الدَّامَغَانِيِّ فَتَسَنَّتْ قَاعِدَتُهُ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ، وَأَحْسَنَ الْعِنَايَةَ بِهِ لِمَعَانِيهِ الْحَسَنَةَ. وَقَالَ: هُوَ قَدَوْتُنَا بِخُرَاسَانَ وَالْمَوْصُوفُ بِجَمِيعِ الْأَسَنَةِ. وَحَضَرَ عَمِيدُ الْمَلِكِ الكُنْدَرِيُّ فِي بَيْتِ النَّوْبَةِ الشَّرِيفَةِ، وَحُصِّصَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ بِالْمُنْزِلَةِ اللَّطِيفَةِ، وَأَنْفَذَتْ مَعَهُ بِرِسْمِ طَغْرَبِكِ خَلْعٌ سَنِيَّةٌ وَتَشْرِيفَاتٌ سَرِيَّةٌ.

وَقَدَّمَ طَغْرَبِكُ بِنَاءَ مَدِينَةٍ عَلَى دَجَلَةٍ، وَهِيَ الَّتِي جَامِعُهَا الْيَوْمَ بَاقٍ، وَقَدْ كَانَتْ حَيْثِيذَ ذَاتِ أُسْوَارٍ وَأُسْوَاقٍ.

وَدَخَلَتْ سَنَةُ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَفِي الْمُحَرَّمِ مِنْهَا عَقَدَ الْخَلِيفَةُ عَلَى ابْنَةِ أَخِي طَغْرَبِكِ أُرْسُلَانَ خَاتُونَ خَدِيدَجَةَ بِنْتِ دَاوُدَ بْنِ مِيكَائِيلَ، وَقَصَدَ بِذَلِكَ تَعْظِيمَهُ وَالتَّبْجِيلَ، وَلِئَلَّا يَجِدَ الْأَعْدَاءُ بِهَذِهِ الْوَصْلَةِ إِلَى قَطْعِ سَبِيلِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَهُمَا السَّبِيلَ.

### ذِكْرُ الْحَالِ فِي ذَلِكَ

فِي الْمُحَرَّمِ جَلَسَ الْإِمَامُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَحْضَرَ عَمِيدَ الْمَلِكِ الكُنْدَرِيَّ وَقَدَّمَهُ عَلَى الْمُقَدَّمِينَ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِإِحْضَارِ مَنْ يَجُوزُ إِحْضَارُهُ، وَيَقَعُ عَلَيْهِ إِثَارُهُ، فَشَدَّ وَسَطَهُ، وَأَخَذَ دَبُوسًا بِيَدِهِ، وَجَرَى فِي حِفْظِ أَدَبِ الْخِدْمَةِ عَلَى جَدِيدِهِ، وَاسْتَدْعَى أَمَائِلَ دَوْلَةِ السُّلْطَانِ فَخَدَّمُوا الْخَلِيفَةَ، وَشَاهَدُوا السُّدَّةَ الشَّرِيفَةَ، ثُمَّ شَرَعَ رَئِيسُ الرُّؤَسَاءِ فِي خُطْبَةِ النِّكَاحِ، وَجَاءَ بِهَا عَلَى وَجْهِ الْإِقْتِرَاحِ، وَاسْتَوْعَبَ شُرَائِطَ الْإِنْبِجَابِ بِالذِّكْرِ، وَمِنْ تَسْمِيَةِ الْمَخْطُوبَةِ وَالْمَهْرِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَأْيَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَنْ يُنْعَمَ بِالْقَبُولِ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: قَدْ قَبَلْنَا هَذَا الْعَقْدَ بِهَذَا الصَّدَاقِ. وَاسْتَوْثَقَ بِذَلِكَ الْعَقْدِ الْمُوفِقِ مِيثَاقَ الرَّفَاقِ، وَشَاعَ الْخَبْرُ فِي الْآفَاقِ، وَامْتَزَجَتِ الدَوْلَتَانِ بِالِاسْتِحْقَاقِ، وَقَرَّتِ الْأُمُورُ، وَافْتَرَّتِ الثُّغُورُ، وَاسْتَمَرَّتِ الْبَرَكَةُ وَاسْتَقَرَّتِ الْمَمْلَكَةُ، وَتَرَفَعَتِ الْخِلَافَةُ وَارْتَفَعَ الْخِلَافُ، وَعَادَ إِلَى (قَرِيشِ) الْإِيلَافِ، وَاعْتَزَّتِ الْأَشْرَافُ، وَاهْتَزَّتِ الْأَعْطَافُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ وِلَادَةُ (الْمُقْتَدِي) سَحْرَةَ الْأَرْبَعَاءِ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى، وَسُمِّيَ (عَبْدُ اللَّهِ) وَكُنِّيَ (أَبَا الْقَاسِمِ) وَأُمَّهُ جَارِيَةٌ لِذَخِيرَةَ الدِّينِ أَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَانَتْ

وفاة الدَّخِيرَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَعُمُرُهُ أَرْبَعٌ عَشْرَةَ سَنَةً حِينَ أَدْرَكَ، وَبُوفَاتِهِ قَامَتْ قِيَامَةً (القائم) وَعَدَّهَا إِحْدَى الْعِظَامِ، فَإِنَّهُ كَانَ وَلِيَّ عَهْدِهِ، وَالْمُسْتَمَى لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ، فَانْحَنَتْ جَوَانِحُ حُنُوهِ عَلَى جِوَاهِ، فَلَمَّا وُلِدَتْ جَارِيَتُهُ ابْنًا اسْتَجَدَّ بِهِ جَدًّا وَبِهَاءً وَيُمْنًا وَأَمْنًا، وَجَلَسَ رَئِيسُ الرُّؤَسَاءِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِلِهَيْئَةِ، وَحَضَرَ عَمِيدُ الْمَلِكِ وَجَمَاعَةُ الْأُمَرَاءِ، وَحَمَلَتْ الْهَدَايَا وَأُجْرِلَتِ الْعَطَايَا، وَأُظْهِرَتِ الزَّيْنَةُ وَزُيِّنَتِ الطَّوَاهِرُ، وَنَظَّمَتِ الزَّوَاهِرُ، وَثَبَّتَتِ الْجَوَاهِرُ، وَتَرَبَّى طِفْلُ الْعَهْدِ فِي مَهْدِ اللَّطْفِ، وَأَرْجَتِ الْأَرْجَاءُ بِعَرَفِ الْعُرْفِ.

وَتُوفِيَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَمِيدُ الرُّؤَسَاءِ أَبُو طَالِبِ بْنِ أَيُّوبَ عَنْ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَقَدْ كَتَبَ لِلْخَلِيفَةِ بِسِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَتْ حَسَنَاتُهُ سَائِرَةً وَسِرَّتُهُ حَسَنَةً.

### ذِكْرُ عَوَارِضِ حَدِثَتْ، وَحَوَادِثِ وَنَوَاقِصِ عَرَتْ وَعَرَى انْتَقَضَتْ

كَانَ ابْنُ عَمِّ طَغْرَلْبِكِ بِالْمُوصِلِ وَدِيَارِ بَكْرِ وَهُوَ قَتْلَمُشُ بْنُ إِسْرَائِيلَ بْنِ سَلْجُوقِ مُتَسَقِّ الْأَمْرِ مُتَّبِعِ الصَّدْرِ، مُسْتَمِرَّ الشَّأْنِ مُسْتَقَرَّ الْمَكَانِ، فَاجْتَمَعَ الْبَسَاسِيْرِيُّ وَهُوَ أَبُو الْحَارِثِ أَرْسَلَانَ وَقُرَيْشُ بْنُ بَدْرَانَ الْعَقِيلِيُّ وَنُورُ الدَّوْلَةِ دُبَيْسُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مَزِيدِ الْأَسَدِيِّ عَلَى حَرْبِهِ، وَأَوْقَعُوا بِهِ وَيَحْزِيهِ، وَكَانَتْ الْوَقْعَةُ بِسَنْجَارٍ، وَحَكَّمُوا فِي دِمَاءِ الْأَتْرَاكِ السَّيْفَ الْفَجَّازَ، وَفَجَّرُوا الْأَحْجَارَ، وَمَضَى قَتْلَمُشُ صَوْبَ (هَمْدَانَ) مُؤَلِّيًّا، وَعَنْ أَصْحَابِهِ مُتَخَلِّيًا، فَانْتَخَى طَغْرَلْبِكُ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَشَاطَ، وَغَيَّضَ الْغَيْظُ مِنْهُ النِّشَاطَ، وَتَوَجَّهَ إِلَى (الْمُوصِلِ) مُوَصِّلًا سَيْرَهُ إِلَى الشَّرِيِّ، وَجَرَّ عَسْكَرًا كَانَ الْقَدْرُ بِأَمْرِهِ جَرِيًّا، وَأَجْفَلَ الْبَسَاسِيْرِيُّ إِلَى (الرَّحْبَةِ)<sup>(1)</sup>، وَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، وَأَذَعَنْتْ لِطَغْرَلْبِكِ الْبِلَادَ وَعَنْتْ وَأَصْبَحَتْ، وَوَاتَاهُ الْأَرْبُ وَوَأَفَاهُ الْعَرَبُ، وَأَطَاعَهُ الْأَمِيرَانَ الْأَسَدِيُّ دُبَيْسُ<sup>(2)</sup> وَالْمُسَيَّبِيُّ قُرَيْشُ<sup>(3)</sup>، وَلَمْ يَبْعَثْ لَهُ فِي هَذِهِ الْوَجْهَ جَائِشٌ وَلَا جَيْشٌ، وَاتَّصَلَ بِهِ أَخُوهُ يَاقُوتِي، فَزَادَتْ قُوَّتُهُ وَعَادَتْ غَنُوَّتُهُ وَأَرَعَبَتْ النَّاسَ

(1) الرحبة: قال ياقوت: قرية يحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على بسار الحاجاج إذا أرادوا مكة، وهي من القادسية على ثلاثة أيام، وقد خربت على عهده.

(2) دُبَيْسُ الْأَسَدِيِّ: هو أبو الأغر نور الدولة، دببب بن علي بن مزيد الأسدي، ولد سنة 394 هـ، أمير الخلة قبل بنائها، وليها بعد وفاة أبيه سنة 408 هـ، وكان صغيراً فنازعه في الملك أقاربه وواجه مصاعب تغلب عليها بمساعدة أرسلان البساسيري، وساهم في حركة البساسيري، ثم رُضِيَ عنه وظل في حكمه حتى وفاته سنة 474 هـ، وكان حسن السيرة في رعيته وورثه كثير من الشعراء.

(3) قُرَيْشُ بْنُ بَدْرَانَ الْعَقِيلِيُّ: أمير من بني عَقِيلٍ، من أمراء الدولة العباسية، ومن العقلاء البواسل، وهو صاحب الموصل ونصيبين، استمرت إمارته عشر سنين، ومات بالطاعون سنة 453 هـ.

صَوْلَتُهُ، وَأَعْرَبَتْ لِلنَّاسِ دَوْلَتُهُ، وَكَانَ عَلَى أَهْلِ سَنجَارٍ حَاقِدًا، وَلِحَبِي السُّخْطِ عَلَيْهِمْ عَاقِدًا، فَإِنَّهُمْ مَثَلُوا بِقَتْلِي قَتْلُمُشٍّ، وَاعْتَمَدُوا كُلُّ مَا أَوْحَرَ وَأَوْحَشَ، وَتَرَكَوهُمْ أَعْرَاءَ بِالْعَرَاءِ وَجَرَّأُوا الْجَوَارِحَ بِالْإِشْلَاءِ عَلَى تِلْكَ الْأَشْلَاءِ، وَأَظْهَرُوا الرُّؤُوسَ عَلَى النُّصَبِ، وَأَخَذُوا النِّفُوسَ بِالْوَصْبِ، وَمَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُغْنُوا قِتِيلًا، وَلَمْ يَدْفِنُوا قِتِيلًا، فَسَارَ طَغْرَلْبِكُ إِلَى سَنجَارٍ، وَجَارَ وَمَا أَجَارَ، وَأَزَارَهَا يَفْتَحُهَا حَتْفَهَا، وَسَامَهَا بِسَيْفِهِ حَيْفَهَا، وَاسْتَبَاحَهَا وَسَلَبَ أَرْوَاحَهَا وَأَشْبَاحَهَا، وَأَوْسَعَهَا سِبَاءَ لَا سَبَاءَ، وَأَوْدَعَهَا حَرْبًا لَا خَرْبًا، إِلَى أَنْ شَفَعَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ يِنَالٍ بَعْدَ أَنْ عَقَى، وَكَفَّ بَعْدَمَا اكْتَفَى، وَذَلِكَ سَنَةٌ تِسْعٌ وَارْبَعِمِائَةٌ، وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَوَفَّى أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ<sup>(1)</sup>.

### ذِكْرُ عَوْدِ السُّلْطَانِ طَغْرَلْبِكِ إِلَى بَغْدَادَ وَحُضُورِهِ بَيْنَ يَدَيْ الْخَلِيفَةِ

وَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ ظَافِرَ الْيَدِ وَافِرَ الْأَيْدِ، مَالِكًا لِلنَّصْرِ مَنصُورَ الْمُلْكِ، فَاتَكَ النُّهَيْتَةَ مَهِيْبَ الْفَتْكِ، وَجَلَسَ لَهُ الْخَلِيفَةُ يَوْمَ السَّبْتِ خَامِسَ عَشْرِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَقَامَتْ قَاعِدَةُ الْقَوْمِ بِتِلْكَ الْقَعْدَةِ، وَرَكِبَ دَجَلَةَ مُجْرِيًا طَيَّارَةً فِي تَيَّارِهَا، حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَابِ الرَّقَّةِ مِنَ السَّنَةِ الشَّرِيفَةِ وَدَارِهَا، وَقُدِّمَ لَهُ فَرَسٌ فَرَكْبَهُ، وَقَدْ بَهَّرَ بِهَاؤُهُ الَّذِي أَظْهَرَهُ وَحَجَبَهُ، وَالْيَوْمَ مِنَ النَّظَّارَةِ فِي نَضَارَةٍ، وَالْدَهْرُ فِي أَحْلَى بَشَارَةٍ وَأَخْلَبَ شَارَةٍ، وَحَافَتَا دَجَلَةَ قَدْ حَفَّتَا بِكُلِّ حَسَنِ وَحُسْنِي، وَالْعِزُّ قَدْ مَلَأَ مِنَ الْمَلَا بِكُلِّ يُمْنٍ وَكُلِّ يُمْنِي، وَدَخَلَ طَغْرَلْبِكُ رَاكِبًا إِلَى دِهْلِيزِ صَحْنِ السَّلَامِ وَحِصْنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نَزَلَ وَمَشَى وَالْأَمْرَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِغَيْرِ سِلَاحٍ، بِخَيْرٍ وَفَلَاحٍ، يَمْشُونَ إِلَى حَيْثُ الْجَلَالَةُ مَقِيمَةٌ وَالذَّلَالَةُ بِالْقَائِمِ قَائِمَةٌ، وَالرَّسَالَةُ مَلَانِمَةٌ وَالْإِمَامَةُ دَائِمَةٌ، وَالْكَرَامَةُ حَائِمَةٌ، وَالنُّبُوَّةُ مُسْتَمِرَّةُ الْإِرْبِ، وَالْمَرْوَةُ مُسْتَقْرَّةُ الْبَعْثِ، وَالْخِلَافَةُ حَافِلُ حَفْلُهَا، خَالِفٌ خُلْفُهَا، كَافِلٌ حِفْلُهَا، أَلْفٌ إِفْهَاءُ، وَالشَّرْفُ مُسْتَوِطِنٌ وَالْوَطَنُ شَرِيفٌ، وَالْفَضْلُ وَافِرٌ وَالظُّلُّ وَرِيفٌ، وَالرَّفْعَةُ مُحْجِبَةٌ وَالْحِجَابُ رَفِيعٌ، وَالشَّفَاعَةُ مَحْجُوجٌ إِلَيْهَا وَالْحِجَا شَفِيعٌ، وَبِسِتَارَةِ الْبِهَاءِ مُسَدُولَةٌ عَلَى الْبِهْوِ، وَطَهَارَةُ الْإِنْتِمَاءِ مَجْبُولَةٌ بِالرَّهْوِ، وَالْمُلْكُ حَقٌّ وَالْحَقُّ مُمْلَكٌ، وَالنُّسْكُ مُعْبَدٌ وَالنَّعْبُدُ مُنْسَكٌ، وَلَا يُيْمَانُ الْإِيْمَانُ إِيْمَاءً، وَلَا أَعْلَامُ السَّلَامِ إِيْعَاءً، وَوَجْهُ الْإِهَابَةِ

(1) المعري: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، ولد في معرة النعمان سنة 363 هـ، وهو من بيت علم كبير في بلده، كان تحيف الجسم، أصيب بالجذري صغيراً فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، وكان يلعب الشطرنج والنرد، ويُحَرِّمُ إِيْلَامَ الْحَيَوَانِ، وَلَمْ يَأْكُلْ لَحْمَ الْحَيَوَانِ حَتَّى وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَيَلْبَسُ خَشَنَ الثِّيَابِ، وَكَانَ شِعْرُهُ دِيْوَانَ حِكْمَتِهِ وَفَلْسَفَتِهِ مِنْ دَوَائِنِهِ (سَقَطُ الزَّنْدِ) وَ(الزُّومُ مَا لَا يَلِزُ) وَ(ضَوْءُ السَّقَطِ) وَكُتِبَ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُهَا (رِسَالَةُ الْغَفْرَانِ) تَوَفَّى فِي سَنَةِ 449 هـ، وَوَقَّفَ عَلَى قَبْرِهِ 84 شَاعِرًا رِثِيَهُ.

بِهَيْجٍ، وَمَهَبٌ الْمَهَابَةِ أَرْجِحُ، وَالْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ جَالِسٌ مِنْ وِرَاءِ السِّتْرِ عَلَى سُدَّةٍ مُشْرِفَةٍ مُشْرِقَةٍ، وَمَرْتَبَةٌ مُنِيفَةٌ مُوَنَقَةٌ، فِي إِيْوَانٍ مِنْهُ لِلْجَلَالِ إِيْوَاءٌ، وَدَارٍ مِنْهَا لِلْإِقْبَالِ سَمَاءٌ، وَرَبِيعٌ رَبُّهُ لِلرَّبِّ مُطِيعٌ، وَدَسَتْ شَمْلُهُ بِالشَّرْفِ جَمِيعٌ، وَعَلَى كَتْفِهِ وَيَبِيدُهُ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ النَّبَوِيَّانِ، وَهُمَا بِمَاءِ الطُّهْرِ الْمُحَمَّدِيِّ رَوِيَّانِ، وَالْبُرْدَةُ مُشْتَمَلَةٌ مِنْهُ عَلَى مَنْكِبٍ لَا يُنْكَرُ شَبَهُهُ بِالْمَنْكَبِ النَّبَوِيِّ هُوَ أَبُو عُدْرَتِهَا مُتَسَنَّمَةٌ وَلايَةٌ شَبَابُهَا وَأَوْلِيَّةٌ دَوْلَتُهَا وَيَرْجِعُ نَفْسُ الْبُرْدَةِ مَا تَنْشَقُّهُ مِنْ عَرَفِهِ، وَيُمْسِكُ رَمَقَهَا مَا تَلْمُسُهُ مِنْ كَفِّهِ، وَتَشْتَمَلُ عَلَيْهِ شَمْلَتُهَا فَلَا يَكَادُ يَنْفَرُجُ عَنْهُ هِدَابُهَا، وَيَطْلَعُ مِنْهُ بَدْرًا طَالَمَا أُطْلِعَ بِدَوْرٍ خَلْفَاءَ اللَّهِ سَحَابُهَا، وَهِيَ الَّتِي كَانَ يَلْتَبِسُ بِلَابِسِهَا جَبْرِئِلُ، وَيُحْتَبِي لِلْمَحْتَبِيِّ بِهَا التَّنْزِيلُ، وَيَرْتَدِي بِهَا الْمُرْمَلُ الْمُدْتِيرُ، وَيَرْجُو الْإِنْتِعَاشَ بِشِفَاعَةِ صَاحِبِهَا الْمُذَنْبُ الْمُتَعَثِّرُ، وَمَا زَالَ بِهَا تَتِيْمُنُ الْمَلَائِكُ، وَإِلَيْهَا تَتَحَنَّنُ الْأَرَائِكُ، وَبِذَيْلِهَا تَعْلُقُ الْأَنْوَارُ، وَفِي لَيْلِهَا تَأَلَّقُ الْأَقْمَارُ، وَبِرَكِبِهَا تَمَسَّحُ الْأَمْلَاكُ، وَبِرِدْنِهَا تَمَسَّكُ الْأَفْلَاكُ، وَبِالْمُتَدَرِّعِ بِهَا تَدْرَعُ الْوَسَائِلُ، وَتَضْرَعُ السَّائِلُ وَتَعَرَّضُ الْأَمَلُ، قَدْ اجْتَابَهَا مَنْ اجْتَبَاهُ اللَّهُ لِخِلَافَتِهِ كَمَا اصْطَفَاهَا مِنْ قَبْلِ مَنْ اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِرِسَالَتِهِ، فَجَدُّ الْخَلْقِ بِأَخْلَاقِهَا جَدِيدٌ، وَلِمَزَائِنِ الْإِسْلَامِ بِأَسْمَالِهَا مَزِيدٌ، فَلَا تَصَافِحُ الْأَبْصَارُ إِلَّا صَافَحَتِهَا الْأَنْوَارُ، وَتُشَايِعُ وَشَائِعُهَا الْهُدَى بِكُلِّ سَوَادِهَا وَبِيَاضِهَا سُودِهَا قُلُوبِ الْأَبْرَارِ، وَيَزْخَرُ فِيهَا مِنَ الْأَثْمَةِ كُلُّ بَحْرِ جُودٍ، وَيُجْتَنِّي بِهَا مِنْهُمْ كُلُّ طَوْدٍ وَقَارٍ، وَيَبِيدُهُ الْقَضِيبُ النَّبَوِيُّ الَّذِي تَنَاوَلَتْهُ يَدُ الطَّوْلِ الطُّوْلِ، وَسَمِعَ الْمَوَاعِظَ النَّبَوِيَّةَ قَدِيمًا فَهَوَ يَحْنُ حَيْنٌ جَدَعِ الْمَعْجِزَةِ الْأُولَى، وَأُورِقُ وَالْبُرْدَةُ الشَّرِيفَةُ مِنْ أَوْرَاقِهِ، وَتَعَرَّضَ لَهُ الدَّهْرُ فَشَمَّرَ لِحَرْبِهِ عَنْ سَاقِهِ، وَصَالَ عَلَى أَهْلِ السِّيُوفِ سَيْفَ وَقَارٍ مَا تَعَلَّمَ السَّيْفُ الْمَضَاءَ إِلَّا مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَلَمَّا قَرَّبَ طَغْرَلْبِكَ مِنَ الْمَقَرِّ الْأَشْرَفِ وَالْمَرْقِيِّ الْمُسْجَفِ، وَرَفَعَتْ سِتَارَةَ الْبَهْوِ، وَظَهَرَتْ نَضَارَةُ الزَّهْوِ، وَكَلَّهَا الْجَدُّ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَنِ اللَّهْوِ، وَأَنَارَ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ كَالْقَمَرِ فِي سُدْفَةِ السَّدَةِ الشَّرِيفَةِ، وَأَدَّى الْفَرَضَ وَقَبَّلَ الْأَرْضَ، وَوَفَّرَ جَدَّهُ بِأَنْ عَفَّرَ خَدَّهُ، ثُمَّ مَثَلُ قَائِمًا لِلْقَائِمِ، وَوَقَفَ لِتَرْقُبٍ مَا يَقْفُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَرَامِسِ، وَصَعَدَ رَيْسُ الرُّؤَسَاءِ إِلَى سَرِيرِ لَطِيفٍ، فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ: أَصْعِدْ رُكْنَ الدَّوْلَةِ إِلَيْكَ وَمَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَنْصُورٍ مُفَسِّرًا وَمُتَرَجِمًا، وَمُعَرِّبًا عَنْهُ مَا كَانَ مُعْجَمًا، ثُمَّ وَضَعَ لَطْغْرَلْبِكَ كُرْسِيًّا جَلَسَ عَلَيْهِ، وَفَسَّرَ عَمِيدُ الْمُلْكِ لَهُ تَفْوِيضَ الْخَلِيفَةِ إِلَيْهِ، وَتَبَّتْ فِي كِرَاسَةِ شَرَعِهِ كُرْسِيَّ عَرْشِهِ، وَمَحَا مِنْ كُلِّ عَقْدٍ وَتَقَدَّ سِوَى وَصِفِهِ وَنَقِشِهِ، وَأَمَرَ بِتَجْلِيسِهِ وَتَسْجِيلِ أَمْرِهِ، وَتَفَحَّحَ لَهُ فِي الْعَطَاءِ الْجَمِّ وَتَفَحَّحَ فِي جَمْرِهِ.

ثُمَّ قَامَ طغْرَبِك إلى مقام الرَّفْعَةِ وَمَكَانِ الْخُلْعَةِ، وَاحْتَبَى بِعِزِّ الْحَبَاءِ وَاجْتَابَ خَلَعَ الْإِحْتِبَاءِ، وَتَوَجَّحَ وَطَوَّقَ وَسُوَّرَ، وَحِطَّ بِهِ حِمَى الْمُلْكِ وَسُوَّرَ، وَافِضَتْ عَلَيْهِ سُبْحَ خَلَعِ سُودٍ فِي زِيَقٍ وَاحِدٍ اتَّحَدَتْ لَهُ بِهَا مَمْلَكَةُ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ، وَطَابَ وَطَالَ بِسَمَاعِ الْحَسَنِ وَحُسْنِ الشَّمْعَةِ، وَشُرِّفَ بِعِمَامَةِ مَسْكِيَّةٍ مُذْهِبَةٍ، فَجَمَعَ بَيْنَ تَاجِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَسَمَّا بِهِمَا وَتَسَمَّى بِالْمُتَوَجِّجِ الْمُعَمَّمِ، وَقُلِّدَ سَيْفًا مُحَلَّى بِالذَّهَبِ، فَخَرَجَ فِي أَحْلَى الْحُلَى وَأَهْيَبِ الْأَهْبِ، وَعَادَ وَجَلَسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ، وَرَامَ تَقْبِيلَ الْأَرْضِ وَلَمْ يَتِمَّكَنْ لِمَوْضِعِ التَّاجِ الْخُسْرَوِيِّ، وَسَأَلَ مُصَافِحَةَ الْخَلِيفَةِ فَأَعْطَاهُ يَدَهُ دُفْعَتَيْنِ، فَقَبَّلَهَا وَوَضَعَهَا عَلَى الْعَيْنِ، وَقَلَّدَهُ سَيْفًا آخَرَ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَتَمَّ لَهُ بِتَقْلِيدِ السِّيفَيْنِ تَقْلِيدُ وِلَايَةِ الدُّوَلَتَيْنِ، وَخَاطَبَهُ بِمَلِكِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَحَكَّمَهُ فِي الْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ، وَأَبْرَمَ عَقْدَهُ وَأَحْضَرَ عَهْدَهُ، وَقَالَ الْخَلِيفَةُ هَذَا عَهْدُنَا يقرأهُ عَلَيْكَ مُحَمَّدٌ بْنُ مَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ صَاحِبُنَا وَوَدِيعَتُنَا عِنْدَكَ فَاحْفَظْهُ وَأَحْرَسَهُ فَإِنَّهُ الثَّقَةُ الْمَأْمُونُ، وَأَنْهَضَ فِي دَعَاةِ اللَّهِ مَحْفُوظًا، وَبَعَيْنِ الْكَلَاءَةِ مَلْحُوظًا. وَلَأَيِّ الْجَوَائِزِ الْوَاسِطِي<sup>(1)</sup> مِنْ قَصِيدَةٍ فِي عَمِيدِ الْمُلْكِ:

[الكمال]

أَثْنَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكَ إِذْ  
أَقْبَلْتَ تَقْدِمُ طغْرَبِكِ مَعْظَمًا  
فَكَانَهُ . لَمَّا دَعَاكَ فَلَمْ تَخَمْ  
وَنَصَرْتَ دَعْوَتَهُ بِشُرْكَ أَغْفَلُوا  
مَنْ كَلِمَةٍ مِنْ خَاصِّ الْإِبَاءِ لِحَاطَهُ

[الكمال] وَلَأَيِّ الْفَضْلِ صَرْدُرٌ<sup>(2)</sup> فِيهِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

مَلِكٌ إِذَا مَا الْعَزْمُ حَتَّى جِيَادُهُ  
بِأَعْرَمَا أَبْصَرْتُ نُورَ جَبِينِهِ  
مَرَحْتُ بِأَزْهَرِ شَامِخِ الْعِرْنَيْنِ  
إِلَّا اقْتَضَانِي بِالسَّجُودِ جَبِينِي

(1) أَبُو الْجَوَائِزِ الْوَاسِطِي: هُوَ أَبُو الْجَوَائِزِ، الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ بَادِي، أَدِيبٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْكُتَّابِ، وَوُلِدَ سَنَةَ 382 هـ، أَسَلَهُ مِنْ وَاسِطٍ، وَسَكَنَ بَغْدَادَ وَبِهَا تَوَفَّى سَنَةَ 460 هـ.

(2) صَرْدُرٌ: هُوَ أَبُو مَنْصُورٍ، عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْفَضْلِ الْبَغْدَادِيِّ، شَاعِرٌ مُجِيدٌ مِنَ الْكُتَّابِ، كَانَ يُقَالُ لِأَبِيهِ (صَرْبَغْر) وَسَمَّاهُ نِظَامَ الْمَلِكِ (صَرْدُر) فَلَزِمَهُ اللَّقَبُ، مَدَحَ الْخَلِيفَةَ الْقَائِمَ وَوَزِيرَهُ ابْنَ الْمُسْلِمَةِ، وَتَوَفَّى سَنَةَ 465 هـ، وَهُوَ دِيْوَانٌ مَطْبُوعٌ. وَالْأَبْيَاتُ الْمَذْكُورَةُ قَالَهَا فِي مَدْحِ الْوَزِيرِ الْكَنْدَرِيِّ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى الْعِرَاقِ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ 455 هـ. دِيْوَانُ صَرْدُرٍ، 55

عَمَّتْ فَوَاضَلُهُ الْبَرِيَّةُ فَالتَقَى  
شَكَرُ الْغَنِيِّ وَدَعَاؤُهُ الْمَسْكِينِ  
لَوْ كَانَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ تَظَلَّمَتْ  
مِنْهُ الْكِنُوزُ إِلَى يَدَيْ قَارُونَ

## أحداث سنة خمسين وأربعمائة

انتقض على طغرل بك أمر الموصل فانزعج له وحرص من ربه وحرص عجله، وقد كان استخلف بها الأميرين أزدم وباتكين، وأوسع لهما التمكين، فقصدهما البساسيري وقرش بن بدران، وحاصراهما أربعة أشهر وأخرجاهما بأمان، فعاد طغرل بك الخروج إلى الموصل لطلب الداء المعضل وجب الشر المستعجل، ونصب بنصيين مضاربه، ماضي المضارب قاضي القواضب، سامي الهضاب هامي الهواضب، فخالفه إبراهيم بن ينال خالعا للطاعة، خارجا على الجماعة، ومضى إلى همدان ناويا للمناوأة عاديا بالمعاداة، وسار السلطان وراء أخيه إلى همدان في سبعة أيام ونفذ وزيره عميد الملك وزوجه خاتون إلى مدينة السلام، ثم كتب إليهما يستدعيهما فتمسك بهما الخليفة، وتواترت الأراجيف المخيفة، فتارة بوصول البساسيري وتعاصيه، وتارة بأنهبام السلطان من أخيه وقوة طمعه فيه، وشرع عميد الملك الكندري في أخذ العهد بالمملكة لأنوشروان بن خاتون، وانفق من ماله الظاهر والمخزون، فما وفاقا ولا ووفقا، ولا وثقا ولا استوثقا، فأرادت خاتون القبض عليهما قرهبا وهربا، وحسبا عقوبة عاقبتهما وتسحبا، فأما عميد الملك فإنه انحدر إلى الأهواز، وأمن عند هزارسب بن بنكير بن عياض من الإعواز، وسارت خاتون تطلب السلطان، ولحق بها ولدها أنوشروان، وذلك في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

وفي هذه الفترة تمت فتنة البساسيري فأساء السيرة وأتى الكبيرة، ودخل إلى بغداد سادس ذي القعدة سنة خمسين، وخرج منها سادس عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين، وكانت سنة سيئة، كادت أن تكون لنور الله مطفئة، فإنه دعا إلى الدعى بمصر مضرا، ولم يجد الخليفة بمقره من دار الإمامة مقرا، وحصل من تلك الحادثة بالحديثة، وتوالت منه لطغرل بك أمداد كتبه ورسله المستصرخة المستغنية، وهو مشغول بحرب أخيه مهموم بما هو فيه، مهزوم الكتيبة مثلوم الضريبة، مغلوب الجند، مسلوب الجذ، ضعيف الظاهر ظاهر الضعيف، مقبوض الطرف مغبوض الطرف، وغابة الخلافة قد غابت ضرغامتها، وساء الإمامة قد دامت بغمام الغم إغامتها.

وَصَلَبَ الْبِيسَاسِيرِيُّ رَئِيسَ الرُّؤَسَاءِ وَأَبَا مُحَمَّدٍ بِنِ الْمَأْمُونِ رَسُولَ الْخَلِيفَةِ فِي اسْتِدْعَاءِ السُّلْطَانِ طَغْرَلْبِكِ، وَقَتْلَ أَصْحَابِ قُرَيْشِ بِنِ بَدْرَانَ أَبَا نَصْرِ أَحْمَدَ بَنِ عَلِيِّ عَمِيدِ الْعِرَاقِ، فَاخْتَلَّ نِظَامُ الْإِسْلَامِ، وَاعْتَلَّتْ دَارُ السَّلَامِ، وَطَالَتْ غُرْبَةُ الْإِمَامِ، وَهَالَتْ كُرْبَةُ الْأَيَّامِ، إِلَى أَنْ اسْتَنْجَدَ السُّلْطَانُ طَغْرَلْبِكُ أَوْلَادَ أَخِيهِ: أَلْبَ أَرْسَلَانَ وَيَاقُوِيَّ وَقَاوِرْدَ بَنِي دَاوُدَ، وَهُوَ بِالرِّيِّ، فَأَنْجَدُوهُ وَأَسْعَفُوهُ وَأَسْعَدُوهُ، وَقَوِيَ بِمَكَانَتِهِمْ، وَتَمَكَّنَ بِقُوَّتِهِمْ، وَتَكَثَّرَ بَعْدَتْهُمْ، وَاعْتَدَّ بِكَثْرَتِهِمْ، وَرَأَشُوا جَنَاحَهُ وَأَعَاشُوا نَجَاحَهُ، وَأَصْبَحُوا طَلَاثَةَ وَأَطْلَعُوا صَبَاحَهُ، وَتَبَّهُوا جَدَّهُ الْمُعْتَمِضَ، وَأَبَّهُوا حُدَّةَ الْمُعْتَرِضِ، وَأَهَبُوا عِزَّمَةَ الرَّاقِدِ، وَشَبَّهُوا هَمَّةَ الْخَامِدِ، وَرَدَّوْا أَنْسَهُ النَّاقِرَ، وَأَجَدَّوْا بِشْرَهُ السَّافِرَ، وَأَعَادُوا رُوحَ الْأَمْنِ إِلَى شِجَعِهِ، وَرَاحَ الرَّاحَةُ إِلَى قَدِجِهِ، فَرَاخَ بِفَرَجِهِ، وَغَدَا فِي مَرَاخِ مَرَجِهِ، وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ يَنَالُ بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِـ (هَفْتَادُ بُولَانَ) <sup>(1)</sup> فَكَسَّرَهُ، ثُمَّ وَجَدَهُ وَقَدِ وَقَفَ بِهِ فَرُسُهُ فَأَسْرَهُ وَخَنَقَهُ بُوْتَرِ لِيُوْتَرِهِ وَخَنَقَهُ، وَاسْتَرَاحَ مِنْ حَثِّ ذَمِيلِهِ إِلَيْهِ وَعَنْقِهِ، وَعَادَ سَعْدُهُ وَسَعَدُ عَيْدِهِ، وَكَثَّفَتْ عِدَّتُهُ وَكَثُرَ عَدِيدُهُ، وَزَارَهُ وَزِيرُهُ، وَسَرَّ بِهِ سَرِيرُهُ، وَسَارَ إِلَيْهِ عَمِيدُ الْمُلْكِ وَجَهَّزَهُ هَزَارَ سَبْ جِهَازٍ مِثْلِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِ لِفَضْلِهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَطْغْرَلْبِكِ بَعْدَهَا هَمٌّ سِوَى رَدِّ الْخَلِيفَةِ إِلَى دَارِهِ، وَإِظْهَارِ قَمْرِهِ مِنْ سِرَارِهِ، وَرَحَلْ نَحْوَ بَغْدَادَ، وَوَأَصَلَ الْإِغْدَادَ، وَأَحْسَسَ الْبِيسَاسِيرِيُّ بِرِنِجِهِ، وَأَيَقَنَ بِتِيَارِهِ وَوَقَعَ فِي تَبَارِنِجِهِ، وَلَمَّا قُرِبَتْ الْعَسَاكِرُ السَّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَغْدَادَ بَعُدَ، وَقَامَتْ قِيَامَتُهُ وَمَا قَعَدَ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ بِحَدِيثَةِ عَانَةَ فَطَلَبَهُ قُرَيْشُ بَنِ بَدْرَانَ مِنْ ابْنِ عَمِّهِ مُهَارِشِ بْنِ مُجَلِّي فَحَمَاهُ وَمَا أَبَاحَ حِمَاهُ، وَخَرَجَ مُهَارِشُ بِالْخَلِيفَةِ إِلَى تَلْعَفَرٍ فَصَدَّ بَدْرَ بْنَ مُهَلْهَلٍ وَمَعَهُ الْفَقِيهُ ابْنُ فُورِكَ، وَقَدِ تَيَمَّنَ بِهِ وَتَبَرَّكَ، وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِهِ وَتَمَسَّكَ، وَهَنَّاكَ فَازَ مَنْ وَحَدَّ وَهَلَّاكَ مَنْ أَشْرَكَ، وَلَمَّا وَصَلَ السُّلْطَانُ إِلَى بَغْدَادَ سَيَّرَ إِلَى الْخَلِيفَةِ عِظْمَاءَ مَمْلَكَتِهِ وَأَمْلَاكِ عِظْمَتِهِ، وَوَزِيرَ صَدْرِهِ وَصَدَرَ زَارَتِهِ عَمِيدَ الْمُلْكِ وَأَصْحَبَهُ أَنْوَشِرَوَانَ بِنِ خَاتُونَ كَبِيرِ التُّرْكِ، وَمَعَهُمُ الْمَهْدُ وَالسَّرَادِقُ وَالْخَيْلُ السَّوَابِقُ، وَلَمَّا مَثَلُوا بِالْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ، وَشَاهَدُوا أَحْوَالَ الْخَلِيفَةِ أَرَادَ عَمِيدُ الْمُلْكِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى السُّلْطَانِ كِتَابًا بِشَرَحِ الْحَالِ، وَوَصَفِ مَا اجْتَلَاهُ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْجَلَالِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ دَوَاةٌ، وَلَا أَدَاةٌ لِلْكَتَابَةِ مُسَوَّاةٌ، فَأَحْضَرَ مِنْ خِيَمَتِهِ دَوَاةً عَلَيْهَا مِنَ الذَّهَبِ أَلْفٌ وَسَبْعُمِائَةٌ مِثْقَالًا، وَأَضَافَ إِلَيْهَا سَيْفًا ذَا فَرْنِيدٍ وَصِقَالَ، وَقَالَ: هَذِهِ خِدْمَةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورٍ أَصْغَرِ الْخَدَمِ، وَقَدِ جَمَعَ فِي هَذِهِ

(1) هفتاد بولان: من قرى الري.

الدولة بين خدمة السيف والقلم، وأحسن الخليفة قبوله وخطابه، وتوجَّح بخطبه الشريف كتابه، ولما وصل الخليفة إلى النهروان، وصل إليه السلطان، وتبأشرت بقدميه الأوطار والأوطان، واستأذنه عميد المملك في حضور السلطان، فأذن ودخل وقبَّل الأرض سبع مرَّات، وأتى من أدب الخدمة الممكن، وقَدَّم له الخليفة مَخَدَّة من دَسْتِيه، وقال: اجلس، فقَبَّلها وجلس، وأنسه فأنس، وجعل عميد المملك يُفَسِّر لهم ويترجم، ويعرب ويُعجم، والسلطان يعتذر عن تأخيره وتراخيه بما شغله من وتر أخيه، فمهد عذره وهمد دُعره، وقد الخليفة سيفاً تبرَّك به كان خرج معه من الدار فتقلَّده تقلَّد علي رضي الله عنه ذا الفقار، وذلك يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي القعدة، واستقرَّ أن يدخل إلى الدار غداً، ويُعيد بَعُوْدِهِ عيش الإسلام رَعداً، فلَمَّا أصبح السلطان تقدَّم إلى باب التَّوْبِي وَجَلَس مكان الحاجب. وقام في خدمة القائم، فلَمَّا قَرَّب الخليفة قام وأخذ بلجام بغلته، ومشى في خدمته إلى باب حُجْرته، وذلك يوم الاثنين خامس عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، فعادت الأنوار إلى الطلوع، والأنواء إلى الهموع، وصفا الشَّرع من مشرعه، وجرى الخير من منبعه، وحلَّ الشرف في موطنه، وفاض الكرم من معدنه، وقام بالقائم بأمر الله الأمر، وفخر الدين ودان الفخر، وسعد الوري ووري السعد، وحُمد الإحسان وحسن الحمد، وأذيت الأمانة إلى أهلها، وهنت الإمامة بشملها، وزدَّت الخلافة إلى مستحقها، واجتلبت الجلالة من ألقها، وحلِّي منزل الذكر المنزل بالذكر، ونطقت بشكر أيدي النعمة السنة الشكر، ونام الأنام في منى الأمن، وسَلِم الإسلام من الوهَى والوهن، وخلا البأل، وخلد الإقبال، وتجلَّى الجلال، وتعلَّى الجمال، وبارَّ الحزن وبأد، وزان الحسنُ وزاد، وطاب العراق، وطالت الأعناق، واهترت الأعطاف، واعتزت الأطراف، وثابت الليالي، وثابت المعالي، ونجحت الأماني، ورجحت المعاني، ورشدت القلوب، وشردت الخطوب، وتبَسَّمت وجوه الأحوال، وتَنَسَّمت قبول الإقبال، وتَنَقَّل إلى النعمى البوس، وتبدلت بالبشر العُبوس، وهرب البساسيري إلى حلة ديس بن علي بن مَزِيد، وقد ولت سعادته، فهو مطلق بنحسه في زي مُقَيَّد، فسير السلطان وراءه عسكرياً مُقَدِّمُوهُ سرهنك ساوتكين وأنوشروان وأردم والطغرائي حمارتكين، وأنفذ معهم سرايا بن منيع الخفاجي، وأوعز إليه أن يتقدَّم، وهو يتهدأ في البيات على بيت للعدو يتهدم، فواقوا البساسيري وواقعوه، وراموه وراموه، ووقع في فرسه سهم رُميت به قرمته، وحام حوله حُمائه فما حَمَتُهُ، وصادمت وجهه ضربة أدمته، وكَمَش لأدوائه كُمشتكين دواتي

عميد المُلْكِ، فأسرَهُ ثُمَّ أَصْجَعَهُ عَلَى مُصْرَعِ الْهَلْكِ، وَابْتَزَّ لِيَاسَهُ، وَاحْتَرَّ رَأْسَهُ، وَحُجِلَ إِلَى بَغْدَادَ وَعُلِقَ قِبَالَةَ بَابِ النَّوْبِيِّ، وَزَالَتْ بِزَوَالِهِ النَّبُوَّةُ الْحَالَّةُ بِالْمَحَلِّ النَّبَوِيِّ، وَأَوْدَى بِالْهَوَانِ الْأَعْدَاءَ، وَأَعْدَى الْأَوْذَاءَ الْهَنَاءَ، وَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ، وَاسْتَقَى مِنَ السَّرْوِ السَّرُّ، وَارْجَ النَّشْرَ وَأَنْشَرَ الرِّجَاءَ، وَتَوَلَّتْ الْعَمَاءَ وَتَوَلَّتْ النَّعْمَاءَ.

وَكَانَ طَغْرَبِكُ بِوَسْطِ قَدِيمِ بَغْدَادَ فِي صَفْرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ، فَعَمَلَ لَهُ الْخَلِيفَةُ فِي رَوْسَنِ النَّجَاحِ سِمَاطًا، وَأَحْضَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَكْبَارِ دَوْلَتِهِ رُؤَسَاءَ وَأَوْسَاطًا، ثُمَّ عَمَلَ السُّلْطَانُ فِي ثَانِي رِبْعِ الْأَوَّلِ سِمَاطًا آخَرَ، فَاصْطَلَّ بِهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَفَآخِرَ، وَخَلَعَ عَلَى الْأَمْرَاءِ، وَأَفَاضَ الْأَلَاءَ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَتَوَجَّهَ فِي خَامِسِ الشَّهْرِ إِلَى الْجَبَلِ، نَاجِحَ الْأَمَلِ رَاجِحَ الْعَمَلِ. وَدَخَلَ عَمِيدُ الْمُلْكِ إِلَى الْخَلِيفَةِ فَأَقَامَ فِي مَوْضِعِ الْإِصْطِفَاءِ وَلَقَّبَهُ سَيِّدَ الْوُزَرَاءِ.

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ احْتَرَقَتْ بِبَغْدَادَ دَارُ الْكُتُبِ الَّتِي وَقَفَّهَا الْوَزِيرُ سَابُورُ بْنُ أَرْدَشِيرٍ<sup>(1)</sup> بَيْنَ السُّورَيْنِ<sup>(2)</sup>، فَأَطْفَأَتِ النَّارُ الْمَشْتَعِلَةَ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ النَّوْرَيْنِ، وَأَخَذَ عَمِيدُ الْمُلْكِ مَا سَلِمَ مِنَ النَّارِ فَكَانَ أَحَدَ الْحَرِيقَيْنِ، وَكَأَنَّمَا طَرَقَ الْحَادِثُ عَلَى الْكُتُبِ بِهِ وَبِالنَّارِ طَرِيقَيْنِ، فَعَدِمَ التَّوْفِيقَ الَّذِي وَجَدَهُ نِظَامُ الْمُلْكِ فِي بِنَاءِ دَارِ الْكُتُبِ، وَمَا كَانَتْ تَمَحُّو آثَارَ تِلْكَ السَّنِينِ الْعُجْرِ إِلَّا أَنْدَاءُ تِلْكَ السَّحْبِ.

وَتُوفِيَتْ خَاتُونُ زَوْجَةِ السُّلْطَانِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ بِزَنْجَانٍ<sup>(3)</sup>.

وَلَمَّا رَحَلَ السُّلْطَانُ اسْتَصْحَبَ مَعَهُ أَرْسِلَانَ خَاتُونِ ابْنَةِ أَخِيهِ زَوْجَةِ الْخَلِيفَةِ، وَشُيِّعَتْ بِالْأَلْطَافِ مِنَ السَّنَةِ الشَّرِيفَةِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالرِّيِّ عَزَمَ عَلَى نَشْرِ مَا كَانَ مِنْ رَغْبَتِهِ بِالطِّيِّ، وَسَيَّرَ

(1) سابور بن اردشير: هو أبو نصر داود بن أردشير وزير البويهيين، كان أميناً محباً للخير، أسس خزانة كتب ببغداد سنة 381 هـ، فقد اشترى داراً في الكرخ في محلة بين السورين وعمرها وبيضا وسماها (دار العلم) ووقفها على أهلها، ونقل إليها الكتب الكثيرة من شراء وهدايا، حتى بلغت أكثر من عشرة آلاف وأربعمئة مجلد. وكان يزود قراءها بالورق للنسخ من كتبها، ويذكر المعري أنه استفاد من كتبها وخدمته فيها قينة كانت تقرأ له وتنسخ، وهي التي أشار إليها الشاعر مصطفى جمال الدين في قصيدته عن بغداد بقوله:

وتظلل قينة دار سابور بما أسدت إلى شيخ المعرفة نذكر  
(2) بين السورين: محلة كبيرة في الكرخ ببغداد.  
(3) زنجان: قال ياقوت: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أهر وقزوين، والعجم يقولون: زنگان بالكاف الفارسية.

قاضي الرِّيِّ أبا سعدِ بنِ صاعدٍ إلى دارِ الخِلافةِ رَسولاً، وَصَمَّنَ رِسالَتَهُ في خُطبةِ السَّيِّدةِ ابنةِ القائمِ سُؤالاً وَسؤالاً، وَذلكَ في سَنَةِ ثلاثٍ وَخَمسينَ، فَندَبَ لِلجوابِ أبا مُحَمَّدٍ التَّميميَّ لِلاستِغفاءِ وَإِظهارِ الإِباءِ، وَإنَّهُ لَمَ يَجْزِ بِهذا سَنَةَ الخِلفاءِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ إنَّ عُدِمَتِ في الإِغفاءِ الوِساطُ فَاطْلُبْ الصِّداقَ ثلاثِمائةَ ألفِ دينارٍ وَأعمالَ واسطِ، وَاستوفِ الشرائطِ، وَاحذرْ أن يفرطَ مِنْكَ أمرٌ فيصعبُ عَلينا أن يُستدركَ الفارطِ، فَلَمَّا وَصَلَ ابنُ التَّميميِّ أعلَمَ عميدَ المَلِكِ بِالحالِ، فقالَ: أَمَّا الاستِغفاءُ فَلَا يَحسُنُ مَعَ رِغبةِ السُّلطانِ وَضِراعتِهِ في السُّؤالِ، وَأَمَّا طَلَبُ الأَعْمالِ وَالْمالِ فيصِبُ لِأنَّهُ يَفْعَلُ أَكثَرَ ما يَدورُ في خِواطرِ الأَمالِ، وَالصَّمْتُ المَقبولُ أَوْلَى مِنَ المَقالِ المَقْلُوبِ، وَالْمَعْنَى المَحفوظُ أَنْفَعُ وَأَنْفَعُ مِنَ اللَّفْظِ المَتَلَوِّ، فَخَلَّني أُخْلِ سِرِّكَ مِنْ هذا السِّرِّ، وَدَعْنِي أَتَوَلَّى هذا الأَمْرَ. فقالَ لَهُ ابنُ التَّميميِّ: الأَمْرُ إِلَيْكَ وَالاعتمادُ عَلَيْكَ، وَالصَّوابُ ما تُدبِّرُهُ وَالتَّدبِيرُ ما تَسْتَصيهُهُ، وَأَنْتَ أَعْرَفَ بِما تُخاطِبُ بِهِ صاحِبَكَ وَبِما تَجِيءُ بِهِ وَبِما تُجيبُهُ، وَأَقْدَحَ زَنْدَكَ، وَأَبْرِ بِرَأْيِكَ فَمَا يَرى بِهِ ما يُريهِ، فقالَ عميدُ المَلِكِ لِلسُّلطانِ: إنَّ القِضيةَ قَدْ تَسَهَّلَتْ، وَإِنَّ العِقدَةَ قَدْ تَحَلَّلَتْ، وَإِنَّ المُنيَةَ قَدْ امْكَنَتْ، وَإِنَّ البُغيَةَ قَدْ تَمَكَّنَتْ، وَزَعِمَ أَنَّ عِزمَهُ بِالتَّميميِّ تَمامُهُ، وَلا يَكْذِبُ الهُثمُ بِهِ إِذا صَدَقَ اهْتِمامُهُ. فَأشاعَ السُّلطانُ لِلناسِ خِطْبَتَهُ وَأذاعَ رِغبَتَهُ، وَأَعْلَمَهُمُ بِأنَّهُ سَمَتَ إلى هذا الشَّرِيفِ هِمَّتُهُ، وَأَنَّهُ قَدْ صَمَّمَتْ عَلى تَسْييرِ الرِّسلِ في المَعْنَى عِزْمَتُهُ، وَتَقَدَّمَ إلى عَميدِ المَلِكِ بِالمَسيرِ مَعَ أرسِلانِ خاتونِ بنتِ أَخِيهِ زوجَةِ الخِليفةِ إلى دارِ الخِلافةِ المَعْظَمَةِ، وَاسْتَصحبَتِ ما جاورَ حَدَّ الكَثِيرِ مِنَ الدنانيرِ المُبَدَّرَةِ، وَالجِواهرِ المُثَمَّنَةِ، وَالأَعْيانِ المُتَقَوِّمَةِ، وَسَيَّرَ مَعَهُما عِدَّةً مِنَ الأَكابِرِ وَذِوي العُلَى، وَمِنْ عِظَمائِ الدَّيْلَمِ فِرامرزِ بنِ كاكِويهِ وَسِرخابِ بنِ كامروا.

وَكانَ قَدْ وَزَرَ لِلخِليفةِ في تلكَ السَنَةِ مَجْدُ الوِزراءِ أَبُو الفِتحِ مَنْصُورُ بنُ أَحْمَدَ بنِ دارِستِ وَسَيَّابِي ذَكَرُ سَببِ وَزارتِهِ، فَخَرَجَ ليلَقِيَ الواسِلينَ إلى قُربِ النَهرِوانِ، وَالتَقَى هِوَ وَعَميدُ المَلِكِ وَهُما راکِبانِ، وَدَخَلَ عَميدُ المَلِكِ بَغدادَ وَجَلَسَ عَلى بابِ النُوبِيِّ<sup>(1)</sup> عَلى تَرُوقِ خاتونِ وَأَنتظارِها فَلَمَّا وَصَلَتْ سارَ في خِدمَتِها إلى دارِها، ثُمَّ حَضَرَ بَيتَ النُوبِيَّةِ، سَامي الرُّبِّيَّةِ، نَامي الهِبيَّةِ، بِهَيِجِ الجِاهِ. وَجِيةِ البَهِجَةِ، لَهجاً بِالإِقبالِ مَقبولِ اللَهِجَةِ، وَأَخَذَ دِوَاةَ الوِزيرِ ابنِ دارِستِ وَأَنهَى حَضورَهُ وَحَضورَ الأَمراءِ الَّذِينَ مَعَهُ، وَأَدَى مِنَ الرِسالَةِ

(1) باب النُوبِيِّ: من أبواب دار الخِلافةِ العِباسِيَّةِ بِبَغدادِ، وَقَدْ سُمِّيَتْ بِهذا الاسمِ لأن نوبياً أسودَ كان يَجلسُ عَندَها.

ما أودعَهُ، فَفَرَّ الْخَلِيفَةُ وَعَظِبَ، وَغَاضَ مَاءُ بَشِيرِهِ وَنَضَبَ، وَهَجَرَ الْإِغْتِمَاضَ لِلِإِغْتِمَامِ، وَتَرَكَ الْإِهْتِمَامَ بِالْتِمَامِ، وَتَبَّرَأُ وَتَبَّرَمَ، وَتَلَوَى وَتَلَوَّمَ، وَقَصَدَ الْإِمْتِنَاعَ وَمَنَعَ الْمَقْصُودَ، وَسَدَّ الْبَابَ وَلَمْ يَفْتَحِ الْبَابَ الْمَسْدُودَ، فَشَرَعَ عَمِيدُ الْمُلْكِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ فَرْقٍ، وَيُقَعِّقُ بِكُلِّ شَنْ، وَيَقُولُ مَا بِالْكُفْمِ اقْتَرَحْتُمْ ثُمَّ امْتَنَعْتُمْ، وَفِيمَ ذَهَبْتُمْ إِلَى أْبَعْدِ غَايَةٍ فِي الطَّلَبِ ثُمَّ رَجَعْتُمْ، وَقَدْ خَاطَرْتُمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ بِدَمِي، وَأَزَلْتُمْ بِمَا قَدَّمْتُمْ عَنِ التَّقَدُّمِ قَدَمِي، وَفَارَقَ الْهَمُّ مَطَاعِمَهُ وَمَشَارِبَهُ، وَأَخْرَجَ إِلَى النُّهْرَانِ مَضَارِبَهُ، وَخَلَعَ الْأَهْبَةَ السُّودَاءَ وَكَبَسَ بِيَاضاً، وَأَلْفَى مَرَاضِيَهُ فِيمَا أَلْفَهُ مَرَاضِياً، فَاسْتَوْقَفَهُ ابْنُ يَوْسُفَ وَقَاضِي الْقَضَايَةِ لِيَسْتَنْزِلُوهُ عَنِ الْمَضَارِعِ إِلَى الْمُرَاضِيَةِ، وَمَازَالَ يَتَلَطَّفَانِ وَيُقَرِّبَانِ وَيُصَوِّبَانِ حَتَّى حَضَرَ عَمِيدُ الْمُلْكِ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ دُعَيْتَيْنِ، وَأَحْسَنَ نِيَابَتَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ تَوْبَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا فِي لَيْلَةِ الْاِثْنَيْنِ رَابِعِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْحُجَّابِ وَالْقَضَايَةِ وَالشُّهُودِ، وَبَالِغِ فِي الْخُطَابِ وَيَذَلُّ الْمَجْهُودَ، وَقَالَ الْخَلِيفَةُ: نَحْنُ بَنُو الْعَبَّاسِ خَيْرُ النَّاسِ، فِينَا الْإِمَامَةُ وَالزَّعَامَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ تِمَسَّكَ بِنَا رَشِدًا وَهُدًى، وَمَنْ نَاوَأْنَا ضَلَّ وَعَوِيَ.

وَكَانَ الْخَلِيفَةُ قَدْ كَتَبَ إِلَى عَمِيدِ الْمُلْكِ: نَحْنُ نُرَدُّ الْأَمْرَ إِلَى رَأْيِكَ، وَنُعَوِّلُ فِيهِ عَلَى أَمَانَتِكَ وَدِينِكَ. فَقَالَ عَمِيدُ الْمُلْكِ: اسْأَلْ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ التَّطَوُّلَ بِذِكْرِ مَا شَرَفَ بِهِ الْخَادِمَ النَّاصِحَ شَاهِنشَاهَ رَكْنَ الدِّينِ فِيمَا رَغِبَ وَسَمَتَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ الْخَلِيفَةُ مَا يَلِزِمُهُ مِنَ الْإِجَابَةِ، فَقَطَّنَ لَذَلِكَ وَغَالَطَهُ، وَقَدْ سَطَّرَ فِي الْجَوَابِ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ، فَاِنْصَرَفَ عَاتِباً، وَذَهَبَ مُعَاذِيباً، وَفَاضَ غِيظُهُ وَغَاضَ فَيْضُهُ، وَرَاحَ رَاحِلاً، وَقَفَّلَ وَمَا فَصَلَ إِلَّا مَفَاصِلاً، وَرَدَّ الْمَالَ إِلَى هَمْدَانَ، وَأَخْبَرَ بِالْحَالِ السُّلْطَانَ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ قَدْ كَتَبَ إِلَى خَمَارْتَكِينِ الطُّغْرَائِيِّ يَشْكُو مِنْ عَمِيدِ الْمُلْكِ وَالْحَاجِجِ، وَبَصَفَ اجْتِرَاحَهُ فِي اقْتِرَاحِهِ، فَكَتَبَ فِي جَوَابِهِ يُشِيرُ بِالرَّفْقِ وَالتَّلَطُّفِ، وَيُنصُّ عَلَى التَّثَبُّتِ وَالتَّوَقُّفِ، فَسَبَّ عَمِيدُ الْمُلْكِ قَطَعَ الْحَدِيثَ فِي الْوَصْلَةِ إِلَى مُخَاوَرَةِ خَمَارْتَكِينِ وَأَنَّهُ كَاتَبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَغَيَّرَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِ، وَسَرَّتْ قَوَارِضُهُ إِلَيْهِ، فَذَهَبَ وَهَرَبَ، وَتَسَرَّعَ وَتَسَرَّبَ وَكَتَبَ السُّلْطَانُ إِلَى قَاضِي الْقَضَايَةِ وَالشَّيْخِ أَبِي مَنْصُورِ بْنِ يَوْسُفَ بِالْعَتَبِ الْمُمِضِّ، وَالْخَطْبِ الْمَقْضُصِ، وَالْكَلَامِ الْكَالِمِ وَالْمَلَامِ الْمُلَامِ، وَقَالَ: هَذَا جَزَائِي مِنَ الْإِمَامِ الْقَائِمِ، وَقَدْ قَتَلْتُ أَخِي فِي طَاعَتِهِ، وَوَهَبْتُ عُمْرِي لِسَاعَتِهِ، وَأَهْلَكْتُ أَصْحَابِي فِي صُحْبَتِهِ، وَأَخْتَرْتُ مَتْرَبِي لِمَرْتَبَتِهِ، وَأَنْفَقْتُ أَمْوَالِي فِي خِدْمَتِهِ، وَصَيَّقْتُ عَلَى

نَفْسِي لِسَعْتِهِ، وَطَلَبْتُ فَقْرِي لِثَرْوَتِهِ، وَوَفَّرْتُ أَنْصَارِي عَلَى تَوْفِيرِ نُصْرَتِهِ، فَمَا بَالُهُ مَا بَالِي  
 بِرَدِّ قَوْلِي وَقَالَ بَرْدِي، وَقَابَلْتُ بِالْجَزْرِ مَدِّي، وَصَدَّقْتُ صَدِّي، وَقَصَّدْتُ صَدِّي. وَكَتَبْتُ إِلَى عَمِيدِ  
 الْمَلِكِ بِأَنْ يَقْبَضَ الْإِقْطَاعَاتِ وَيَقْطَعَ الْمَقْبُوضَاتِ، وَلَا يَتْرُكُ لِلْخَلِيفَةِ إِلَّا مَا كَانَ بِاسْمِ الْإِمَامِ  
 الْقَادِرِ قَدِيمًا، وَأَنْ يَكُونَ لِمَعَارِضَةِ أَسْبَابِهِ مُسْتَدِيمًا، وَيُطَالِبُ بِأَبِي تُرَابِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَقُولُ إِنَّ  
 الطُّغْرَائِيَّ عِنْدَهُ، وَأَنْ تَبْدَلَ فِي مَطَالِبَتِهِ بِهِ جَدَّهُ وَجَهْدَهُ فَحَضَرَ الْعَمِيدُ رَئِيسَ الْعِرَاقَيْنِ بَيْتِ  
 النُّبُوَّةِ، وَعَرَضَ الْكُتُبَ وَأَعَادَ الْعَتَبَ، فَخَرَجَ جَوَابُ الْخَلِيفَةِ: مَا رَجَوْنَا مِنْ رُكْنِ الدِّينِ مَا  
 صَنَعَ، وَمَا تَوَقَّعْنَا مِنْهُ مَا وَقَعَ، وَمَا تَصَوَّرْنَا هَذِهِ الصُّورَةَ، وَلَا قَرَأْنَا مِنْ سَوْرَتِهِ هَذِهِ السُّورَةَ،  
 وَيَبِينُ يَدِيكَ الْإِقْطَاعَاتُ فَأَقْطِعْهَا، وَقَدْ ارْتَفَعَتْ مَوَانِعُهَا مِنَّا فَاْمَنْعُهَا وَارْفَعْهَا، وَأَمَّا ابْنُ الْأَنْبَرِيِّ  
 كَاتِبُنَا فَإِنَّهُ بَرٌّ سَاحِتُهُ بِيَمِينِهِ، وَتَبَدَّلَ انْزِعَاجُهُ بِتَسْكِينِهِ وَتَخْوِيفُهُ بِتَأْمِينِهِ. وَاتَّفَقَ أَنَّ الطُّغْرَائِيَّ  
 الْمَطْلُوبَ أُذِرِكَ بِبُرُوجَرْدٍ<sup>(1)</sup>، وَرَأَى وِرَاعَةَ الطَّرَادِ وَالطَّرْدِ، وَجَاءَ أَوْلَادُ إِبْرَاهِيمَ بِنَالٍ وَقَالُوا: هُوَ  
 قَاتِلُ أَبِيْنَا، وَجَدَّهُ وَعِنَادُهُ أَثَارُنَا، وَثَارُنَا عِنْدَهُ، فَاسْتَأْذَنُوا السُّلْطَانَ فِي قَتْلِهِ، فَأَذِنَ فِيهِ، وَمَكَّنَ مِنْ  
 إِتْلَافِهِ وَلَمْ يُمَكِّنْ تَلَافِيهِ، فَخَرَجُوا وَاسْتَقْبَلُوهُ، فَأَدْرَكُوهُ عَلَى فِرَاسِخٍ مِنْ هَمْدَانَ وَقَتَلُوهُ، وَبُرِّيَّ  
 كَاتِبَ الْخَلِيفَةِ مِنْ ظَنِّ أَنَّهُ عِنْدَهُ مُخْتَفٍ، وَثَبِتَ أَنَّهُ مِنْهُ مُنْتَفٍ.

وَخَرَجَتْ السَّنَةُ وَالْوَحْشَةُ قَائِمَةً، وَعَيْنُ التَّائِسِ عَنِ إِزَالَةِ أَسْبَابِهَا نَائِمَةً، فَلَمَّا دَخَلَتْ  
 سَنَةُ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ أَجَابَ فِي الْمَحْرَمِ مِنْهَا إِلَى الْوَصْلَةِ، وَأَذَنَ الْقَدْرُ فِي انْحِلَالِ  
 الْعُقْدَةِ وَرُؤَالِ الْعُقْلَةِ، وَكَتَبَ وَكَالَهُ بِاسْمِ عَمِيدِ الْمَلِكِ، شَهِدَ فِيهَا قَاضِي الْقَضَاةِ وَابْنُ يَوْسُفَ  
 بِمَا سَمِعَاهُ مِنْ تَلْفُظِهِ بِالْإِجَابَةِ، وَصُيِّبَتِ الشَّهَادَاتُ بِالْكِتَابَةِ. وَسِيرَ أَبُو الْغَنَائِمِ بْنِ الْمُحَلَّبَانَ  
 فِي الرِّسَالَةِ، وَاسْتَصْحَبَ كِتَابَ الْوَكَالَةِ، فَسَّرَ السُّلْطَانَ وَاحْتَفَلَ، وَوَفَّى لَهُ الْقَدْرُ بِمَا كَفَلَ،  
 وَصَادَقَتْ مِنْهُ الْبُشْرَى بِشْرًا، وَأَحْضَرَ الرِّسُولَ وَجَمَعَ لِسَمَاعِ ذَلِكَ الشَّرْحِ حَشْرًا، وَأَنْشَرَ  
 رِجَاؤَهُ وَأَرْجَ نَشْرًا، وَعَقَدَ الْعَقْدُ فِي ظَاهِرِ تَبْرِيزَ بِالْمُخَيَّمِ، وَتَمَّتِ الْوَصْلَةُ عَلَى الْوَجْهِ الْإِلَازِمِ  
 الْمُحْتَمِّ، وَعَاشَ الْأَمَلُ وَرَاشَ الْجَدُلُ.

وَكَانَ رَئِيسَ الْعِرَاقَيْنِ بِالْمَعْسُكِرِ، وَقَدَّ قَرَفَ مِنْ غَضَبِ الْخَلِيفَةِ بِمَا قَرَفَ، وَخَاطَبَ ابْنَ  
 الْمُحَلَّبَانَ فِي صَرْفِهِ فَمَا صُرِفَ، لَكِنَّهُ أُعِيدَ إِلَى بَغْدَادَ فِي أُنْمَى حُرْمَةٍ وَأُنْمَى حِشْمَةٍ وَأُنْمَى نَعْمَةٍ،

(1) بُرُوجَرْدٌ: قَالَ يَاقُوتٌ: بِلَدَةِ بَيْنَ هَمْدَانَ وَبَيْنَ الْكُوجِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَمْدَانَ ثَلَاثِينَ عَشْرَ فَرَسَخًا، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكُوجِ عَشْرَ  
 فَرَسَخٍ وَبُرُوجَرْدٌ بَيْنَهَا، وَهِيَ خَصْبَةٌ كَثِيرَةُ الْحَيْثَرَاتِ، تُحْمَلُ فَوَاكِهِهَا إِلَى الْكُوجِ وَغَيْرِهَا.

وَأَجَدَّ جَاهٍ وَأَوْجِهَ جِدَّةً، وَأَحْمَدَ عِزًّا وَأَعَزَّ مُحَمَّدَةً، فَإِنَّهُ سَيَّرَتْ عَلَى يَدِهِ هُدَايَا، وَأَنْفَذَتْ مَعَهُ صَلَاتٌ وَعَطَايَا، وَأَعَادَهُ فِي صُحْبَةِ ابْنِ الْمَحْلَبَانِ، وَأَصْحَبَهُ بِرِسْمِ الْخَلِيفَةِ ثَلَاثِينَ غُلَامًا وَجَارِيَةً عَلَى ثَلَاثِينَ فَرَسًا، وَخَادِمِينَ وَفَرَسًا بِمَرْكَبِ ذَهَبٍ وَسَرَجٍ مُرْصَعٍ بِالْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ، وَعَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ وَيُرْسِمِ السَّيْدَةَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، وَتَوَقِيعًا بِبَعْقُوبَا وَمَا كَانَ لِخَاتُونِ الْمُتَوَفَاةِ بِالْعِرَاقِ، وَعَقْدًا فِيهِ ثَلَاثُونَ حَبَّةً، كُلُّ لَوْلُؤَةٍ مِثْقَالًا، وَيُرْسِمُ عِدَّةَ الدِّينِ خَمْسَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، وَيُرْسِمُ السَّيْدَةَ وَالِدَةَ الْمُخَطُوبَةَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ دِينَارٍ، وَذَلِكَ فِي سُؤَالٍ مِنَ السَّنَةِ. فَلَمَّا قَرَّبَ رَيْسُ الْعِرَاقِيِّينَ مِنْ بَغْدَادَ تَلَقَّاهُ النَّاسُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، وَخَرَجُوا صَادِقِينَ وَأَخْرَجُوا صَدَقَاتِهِمْ، وَاسْتَبَشَرُوا بِانْتِظَامِ الْأُلْفَةِ بَيْنَ الْإِمَامَةِ وَالسُّلْطَنَةِ، فَوَفُوا نَدْوَرَهُمْ، وَشَرَحُوا صُدُورَهُمْ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَابِ النَّبِيِّ نَزَلَ وَقَبِلَ الْأَرْضَ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى بَابِ أَرْسِلَانَ خَاتُونِ زَوْجَةِ الْخَلِيفَةِ وَأَدَّى مِنْ خَدْمَتِهَا الْفَرَضَ، وَأَوْصَلَ إِلَيْهَا مَا حَمَلَتْهُ فَتَوَلَّتْ تَسْلِيمَهُ، وَبَاشَرَتْ عَرْضَهُ بِالْمَقَامِ النَّبِيِّ وَتَقْدِيمَهُ.

### ذِكْرُ سَبَبِ تَوَلَّى ابْنَ دَارِسْتَ وَزَارَةَ الْخَلِيفَةَ إِلَى حِينِ انْصِرَافِهِ

كَانَتْ زَارَتُهُ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَمَّا عَادَ إِلَى الدَّارِ وَرَجَعَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْقَرَارِ، وَعَدَمَ الْوَزِيرَ وَفَقِدَ مَنْ يَتَوَلَّى التَّدْبِيرَ، فَحَدَّثَ رَأْيَهُ بِأَنْ يَسْتَعْمِدَ رَجُلًا خَدَمَهُ بِالْحَدِيثَةِ، لِيَجْبُرَ كَسْرَةَ الْحَادِثَةِ الْقَدِيمَةَ بِحِفْظِ مَا تَسْتَي مِنَ النُّصْرَةِ الْقَادِمَةِ الْحَدِيثَةِ، وَهُوَ: أَبُو تُرَابِ الْأَنْبَرِيِّ، وَقَدْ وَجَدَهُ أَثِيرَ الْأَثْرِ، نَضِيرَ النَّظَرِ فَلَقَّبَهُ: (حَاجِبَ الْحُجَابِ عِزُّ الْأُمَّةِ)، وَاسْتَعْمَدَهُ فِي الْإِنْهَاءِ وَحُضُورِ الْمَوَاقِبِ وَتَنْفِيزِ الْأَمْرِ الْمُهْمَةِ.

وَكَانَ عَمِيدُ الْمُلْكِ يَتَرَفَّعُ عَنِ الْجُلُوسِ عِنْدَ الْأَنْبَرِيِّ، فَإِذَا حَضَرَ الدِّيْوَانَ أَنْهَى بِخَطِّهِ، وَكَانَ يُؤَثِّرُ أَنْ يُلْزِمَهُ الْخَلِيفَةَ النَّظْرَ لِيَقُومَ بِشَرِّهِ وَشَرْطِهِ، وَكَانَتْ بَيْنَ ابْنِ يَوْسُفَ وَبَيْنَ الْأَنْبَرِيِّ وَحِشَّةٌ حَمَلَتْ ابْنَ يَوْسُفَ عَلَى أَنْ ذَكَرَ ابْنَ دَارِسْتَ وَقَرَّظَهُ، وَجَانَبَ حِفْظَ جَانِبٍ مَنْ أَحْفَظُهُ، وَقَالَ: إِنَّهُ مَعَ أَمَانَتِهِ يُؤَدِّي مَالًا وَيَخْدُمُ بغيرِ إِقْطَاعِ بَسْعَةِ صَدْرِ وَرَحْبِ بَاعٍ، فَمَضَتْ الْكُتُبُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي شِيرَازَ بِاسْتِدْعَائِهِ، فَقَدِمَ الْجَوَابُ بِاسْتِعْفَائِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ رِضْوَانَ وَمَعَهُ ظَفَرُ الْخَادِمِ لِاسْتِدْعَائِهِ، وَقَوَى عِزْمَةَ أَبُو الْقَاسِمِ صَهْرُ ابْنِ يَوْسُفَ قُورْدَ بِقُوَّةِ اعْتِرَافِهِ. وَكَتَبَ عَمِيدُ الْمُلْكِ عَنِ السُّلْطَانِ إِلَى الْخَلِيفَةِ بِأَنَّهُ كَارِهِ لَاسْتِدْعَائِهِ وَاسْتِخْدَامِهِ، لِإِمْلَاقِهِ مِنَ الْكِفَايَةِ وَإِنْ

كَانَ مُثْرِباً وَإِعْدَامِهِ، فَأَجَابَ الْخَلِيفَةُ: بَأَنَّهُ مَعَ وَصُولِهِ إِلَى وَاسِطٍ وَمُفَارَقَةِ وَطَنِهِ وَمِهَاجِرَتِهِ إِلَى حَرَمِ الْكَرَمِ وَمَعْدِنِهِ لَا يَجُوزُ رُدُّهُ وَلَا يُخَلَّفُ وَعَدُّهُ.

وَقَدِمَ بَغْدَادَ فِي ثَامِنِ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ، وَوَصَلَ إِلَى الْخَلِيفَةِ فِي مَتَسَفِّهِ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ فَأَقْبَضَتْ خَلْعُ الْوِزَارَةِ عَلَيْهِ، وَأُضِيفَتْ مَعَ الْوِزَارَةِ الْأُمُورُ إِلَيْهِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ تَوْقِيعٌ مِنْ إِنْشَاءِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْمَوْصَلَايَا، وَأَقَامَ السَّنَنَ الْمُرْتَبَةَ، وَقَامَ بِالرُّتْبِ السَّنَايَا، وَبَقِيَ فِي الْمَنْصَبِ مُتَنْصِباً، وَفِي الْمَرْتَبَةِ مُتْرْتَباً، إِلَى رَابِعِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ، فَإِنَّهُ صُرفَ مِنْ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ، فَانصَرَفَ إِلَى دَارِهِ بِيَابِ الْمَرَاتِبِ، بَلْ تَرَكَ الْخِدْمَةَ مُسْتَعْفِياً، وَلِرَقَّةِ جَاهِهِ مُسْتَجْفِياً، وَتَعَرَّضَ بَعْضُ مُبْغِضِيهِ وَتَصَدَّ ذَمُّهُ بِقَصِيدَةٍ فِيهِ، مِنْهَا: [البيسط]

إِنَّ الْوَزِيرَ الَّذِي فِي الدَّارِ مُحْتَجِبٌ  
لَا كَاتِبٌ نَاهِضٌ تُخْشَى كَفَايَتُهُ  
بَلْ جَالِسٌ لَيْسَ يَدْرِي مَا يُرَادُ بِهِ  
وَلَوْ رَأَى شِدَّةَ مَعِ ضَعْفِ صَنْعَتِهِ  
فَأَسْتَقْبَلَ الْآنَ مَا اسْتَدْبَرَكَ زَمَانًا  
وَهَذَا نَظْمٌ ضَعِيفٌ وَشِعْرٌ سَخِيفٌ.

وَكَاثَتْ وَفَاةُ ابْنِ دَارِسْتِ بِالْأَهْوَاذِ حَادِي عَشْرِي شَعْبَانَ سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ.

### ذِكْرُ حَوَادِثٍ فِي هَذِهِ السَّنِينَ

فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ تُوفِّيَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ طَاهِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرِ الطَّبْرِيِّ بِبَغْدَادَ عَنْ مِائَةِ سَنَةٍ وَسِتِّينَ، وَكَانَ صَحِيحَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ، سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ، يَنَظُرُ وَيُنْفَعِي وَيَسْتَدْرِكُ عَلَى الْفُقَهَاءِ، وَحَضَرَ عَمِيدُ الْمَلِكِ الْكَنْدَرِيُّ جَنَازَتَهُ، وَدُفِنَ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ عِنْدَ قَبْرِ أَحْمَدَ، وَلَهُ فَضْلٌ غَزِيرٌ، وَأَدَبٌ كَثِيرٌ، وَشِعْرٌ رَائِقٌ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ الْبَصْرِيُّ: [الكمال]

يَارَا كِبَاءَ قَطْعِ الْمَهَامَةِ مُسْرِعاً  
عَبْرُجٌ بِأَكْنَافِ الْقَطِيعَةِ نَازِلاً  
وَاسْأَلْ عَنِ الطَّبْرِيِّ تُهْنَدُ مُوَقَّعاً  
قَدْ عَرَّنَا قَوْمٌ وَقَالُوا: إِنَّهُ  
مُتَطَلِّباً لِلْعِلْمِ وَالْأَدَابِ  
وَاسْأَلْ عَنِ الْفُقَهَاءِ وَالْأَصْحَابِ  
لِمُؤَوَّقِي يُفْتِي بِكُلِّ صَوَابٍ  
لَا حَدَّ لِمُتَلَوِّطِ الْمُرْنَابِ

وَالْقَلْبُ فِي زَمَنِ الشَّبِيحَةِ صَابٍ  
فَيَرْوِحُ فَاعْلُهُ بِغَيْرِ عِقَابٍ  
بَيِّنٌ تَفْزُزُ بِغَنِيمَةٍ وَنَسْوَابٍ

حَتَّى أَنْأَخَ بِعِقْوَتِي وَجَنَابِي  
يَرْجُو النِّجَاةَ بِهَا وَحُسْنَ مَأْبٍ  
صَدَرَتْ عِبَارَتُهُ عَنِ الْأَدَابِ  
بِإِصَابَةِ الْمَعْنَى وَحُسْنِ خِطَابِ  
لَا عُذْرَ فِيهِ لِجَاحِدِ مُرْتَابٍ  
فَتَسَاوَى فِي رَدْعِهَا بِعِقَابِ

وفي آخر هذه السنة توفي أفضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي،  
ولقد كان في العلم بحرأ زاخراً، وفي أفق الشرع بدرأ زاهراً، قال: بسطت الفقه في أربعة  
آلاف ورقة يعنى (الحاوي)، واختصرته في أربعين، يعنى (الإقناع)، فيا لهما من بحرین  
نضبا، وبدرين غربا، وطودين وقعا، وجودين أفلعا.

وفي سنة ثلاث وخمسين توفي قريش بن بدران، وتولى ولده مسلم إمارة بني عقيل.  
وتوفي في شوالها نصر الدولة أبو نصر بن مروان بميافارقين<sup>(1)</sup> عن نيف وثمانين سنة.

وفي يوم عرفة من سنة أربع وخمسين وزر للخليفة الوزير فخر الدولة أبو نصر محمد بن  
محمد بن جهمر، وسبب ذلك أنه كان مقيماً بميافارقين عند [ابن] مروان في جاء وقاه، وعز  
أمرناه، وسنا زاهر زاه، وهو لاه بالزمان والزمان عنه لاه، فسمت همته وهم سموه، وعلت  
سعادته وسعد علوه، فكتب إلى الخليفة في زيارته لوزارته، وذكر أن فائدته في وفادته، وأنه  
يبدل بدولا ويحمل حمولا، فندب إليه من دار الخلافة نقيب النقباء الكافل أبو الفوارس  
طراد بن محمد الزينبي، فقرر ما أراد تقريره، ودبر ما شاء تديره، فخرج الناس عند وصوله  
إلى بغداد لاستقباله، وتلقاه الإقبال في إقباله، ونزل بالحرثي الطاهري ومكث ثمانية أيام حتى

(1) ميافارقين: قال ياقوت: أشهر مدينة بديار بكر على حدود أراضي المسلمين والروم. وهي تقع في جنوب تركيا الحالية والنسبة إليها الفارقي.

جَاوَزَ الْكُسُوفَ، وَتَشَقَّ نَشْرَ الْعِزِّ الْمَشُوفِ، وَتَيَمَّنَ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَحَضَرَ بَيْتَ النَّوْبَةِ الْمُنَوَّبَةِ، مَحْبُوبًا بِالْكَرَامَاتِ الْمَحْبُوبَةِ، وَأَسْعَدَتْهُ السَّعَادَةُ، وَاجْتَمَعَ هُنَاكَ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مَنْ جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ، وَاحْتَقَلَ لَهُ الْخَلِيفَةُ بِالْجُلُوسِ، وَبَشَّرَ بِنَشْرِهِ وَجْهَ الدَّهْرِ الْعَبُوسِ، وَطَلَعَ نُورُ الْيَمَنِ مِنْ أَفْقِهِ، وَقَرَأَ أَبُو سَعْدِ بْنِ الْمُوصِلَايَا تَوْقِيْعًا خَرَجَ فِي حَقِّهِ.

ذَكَرَ وَصُولَ السُّلْطَانِ طَغْرَلْبَكِ إِلَى بَغْدَادٍ وَهِيَ الْأَمْرَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ دَخُولِهِ إِلَيْهَا

وَفِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ تَوَجَّهَ السُّلْطَانُ إِلَى بَغْدَادٍ مِنْ أَرْمِيَةِ بِعِزْمِ الدَّخُولِ عَلَى الزَّوْجَةِ، وَالْخُرُوجِ عَنِ الْحُجَّةِ، وَتَلَقَّاهُ فَخَرَّ الدَّوْلَةَ بِنُ جَهِيْرٍ بِالْقُفْصِ<sup>(1)</sup> فِي الْمَوْكِبِ الْأَعْظَمِ، وَالْمَنْكِبِ الْأَسْنَمِ، وَالْأَبْهَةِ الْفَاخِرَةِ، وَالْأَهْبَةِ الزَّاهِرَةِ، وَنَزَلَ عَسْكَرُهُ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، فَزَادَتْ بِهِ الْأَذْيَةُ، وَارْتَاعَتِ الرَّعِيَّةُ، وَوَصَلَ عَمِيْدُ الْمُلْكِ إِلَى السَّدَةِ مُطَالِيًا بِالشَّرِيفَةِ السَّيِّدَةِ، مُتَقَرِّبًا بِكُلِّ مَا يَبْعُدُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوجِدَةِ الْمَوْجِدَةِ، فَوَقَعَتِ الْإِجَابَةُ فِي نَقْلِ الْجَهَةِ إِلَى دَارِ الْمَمْلَكَةِ، وَنَزَلَتْ فِيهَا فِي الْحُجْرَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِالْيَمَنِ وَبِالْبَرَكَةِ، وَرُفَّتْ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ صَفْرِ، فَبَشَّرَ وَجْهَ السَّعْدِ وَسَفَرِ، وَجَلَسَتْ عَلَى سَرِيرٍ مُلْبَسٍ بِالذَّهَبِ، تَخَطَفُ النَّوَظِرُ مِنْهُ أَشْعَةُ اللَّهَبِ، وَدَخَلَ السُّلْطَانُ إِلَيْهَا وَقَبَّلَ الْأَرْضَ وَخَدَمَهَا، وَمَا كَشَفَ بُرْقَعَهَا بَلْ احْتَرَمَهَا وَعَظَّمَهَا، وَجَلَسَ بِإِزَائِهَا عَلَى سَرِيرٍ مُلْبَسٍ بِالْفِضَّةِ، تَرَى الْعَيُونَ الظَّامَةَ رِيْهَا مِنْ عَيُونِ أَنْوَارِهَا الْمُرْفُضَةِ، وَكَانَ أَنْفَذَ إِلَيْهَا مَعَ بِنْتِ أَخِيهِ أَرْسِلَانَ خَاتُونَ زَوْجَةِ الْخَلِيفَةِ عَقْدَيْنِ نَفْسَيْنِ ثَمِينَيْنِ، وَجَامَا خُسْرَوَانِيًّا مِنْ إِبْرِيْزِ الْعَيْنِ، وَفَرَجِيَّةً مِنْ نَسَجِ الذَّهَبِ مُكَلَّلَةً بِالْحَبِّ، وَصَارَتْ نَفْسُهُ لَهَا مُوَكَّلَةً بِالْحُبِّ، وَظَهَرَ مِنْهُ بِهَا سُرُورٌ، وَسَرَّهُ مِنْهَا لِشَرْفِهِ ظُهُورٌ، وَبَقِيَ مَدَّةَ أُسْبُوعٍ يَهَبُ وَيَخْلَعُ، وَيَمْنَعُ وَلَا يَمْنَعُ، وَيَنْحَلُّ وَلَا يَبْحَلُّ، وَيُكَيِّرُ وَلَا يُقَلِّلُ، وَيَنْظُمُ السَّمْطَ نَظْمَ السَّمُوطِ، وَيُعَلِّي الْحِظْوْظَ إِلَى يَفَاعِ الصُّعُودِ مِنْ حَضِيضِ الْهُبُوطِ، وَالْأَغَانِي مَسْمُوعَةً وَالْمَغَانِي مَجْمُوعَةً، وَلِلْأَصْحَابِ إِصْحَابِ، وَلِلْأَتْرَابِ إِتْرَابِ، وَلِلْوُجُدِ وَجُودٌ، وَبِالْمَوْجُودِ جُودٌ، وَلِلْمَجَامِعِ مَجَامِرُ عُودِ، وَلِلْمَجَالِسِ مَجَالُ سُعُودِ، وَالْمَزَاهِرُ بِالْقُبُولِ زَاهِيَّةٌ، وَالْقُلُوبُ بِالْمَلَاهِي لَاهِيَّةٌ، وَالذُّوْحُ مُتَرَنَّحٌ وَالْجُدُّ مُتَرَنَّمٌ، وَالْمُلْكُ لِمَالِكِهِ مُتَعَنَّ مَتَعَنَّ، وَخَلَعَ عَلَى عَمِيْدِ الْمُلْكِ وَعَلَى الْأُمَرَاءِ، وَأَفَاضَ التَّشْرِيفَاتِ عَلَى الْأَكَابِرِ وَالْعُظَمَاءِ، وَقَدْ كَانَ وَرَدَ مَعَهُ إِلَى بَغْدَادَ أَبُو عَلِيٍّ بِنُ الْمَلِكِ

(1) الْقُفْصُ: قَالَ يَاقُوتُ: قَرْيَةٌ مَشْهُورَةٌ بَيْنَ بَغْدَادَ وَعُكْبَرَا قَرِيبًا مِنْ بَغْدَادَ، وَكَانَتْ مِنْ مَوَاطِنِ اللّهُوِّ وَمَعَاهِدِ النَّزْهِ وَمَجَالِسِ الْفَرَحِ، تَنْسَبُ إِلَيْهَا الْخَمُورُ الْجَيِّدَةُ وَالْحَنَاتُ الْكَثِيرَةُ، وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ ذِكْرِهَا.

أبي كالجار وهزارسب وفرارمز بن كاكويه وسرخاب بن بدر بن مهلهل، فما منهم إلا من أضيفت عليه الخلع الرائقة، وأضيفت له إليها العطايا اللابثة.

وحضر عميد المملك في تاسع شهر ربيع الأول بيت النبوة، واستاذن السلطان في الأوبة، وأن يستصحب السيدة وخاتون، وذكر أنهم بعد مضيهم عن قريب آتون، فأذن في ذلك الخليفة، وتركت دار الشرف التركية والشريفة، وفارقنا أبا وزوجاً، ورافقتنا زوجاً وعمماً، وكانت أرسلان خاتون قد حملت من أطراح الخليفة لها عمماً، وأما السيدة فقد كره الخليفة مسيرها، وسام تأخيرها، فلما مضت أمضت بألم فراقها، ومضت لأمل رفاقها، وسارت محفتها محتفة بالسراة، وحامى دونها دين الحماة، والتقت للعض عن نواظرها الغضة نواظر الثقة، وأصبح مهدها مهدي الصباح، متهادياً في مطار الهدى بجناح النجاح.

ولما انفصل السلطان عن بغداد أذن لهزارسب في المضي إلى الأهواز، مرعياً بالإعزاز، محمياً من الإعواز، مرضياً في مواعده ومقاصده بالإنجاح والإنجاز، فإنه مكث على بابيه ثلاث سنين لا يؤذن له في الانفصال، ولا يؤذن أربته المفارق بالوصول.

وعقد ضمان بغداد على أبي سعيد القابني (بشمانية وخمسين ألف دينار) فأثر الفوادح، وأزت اللوايح، وأورث الجوانح، وأثر القبائح، وأعاد كل ما أبطله رئيس العراقيين من ضرر الضرائب، وشر النوائب، وأصر المآصر، ومورثات الموارث والمؤثرات في أكباد الرعية بالتفتيت والتفريث، وقد كان يتولى مطبخ عميد المملك، وهو أستاذ داره، فجرى المقذور برفع مقذاره.

### ذكر وفاة السلطان طغرلبيك

وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين توفى طغرلبيك بالرّي، وتعوّض الزمان من رُشده فيه بالغي، وانصرف عن روح روح حياء الحياة، وانعطف على روع روعه وفاء الوفاة بالقوات، وجفف جفاء العمر له بنات النبات، وانتقل من الحمى إلى الحمام، ومن الرجاء إلى الزجاج، ومن سراء السرير إلى صراء الصريح، ومن متضى الصفاح إلى متضد الصفيح، واضطرب بهلكه المملك واضطرب، وعري الدهر من الغنى بما عر واعتر، ومر ما حل بما حل ومر، وساء القدر كما سر، وبس الصرع الذي در، والزرع الذي اخضر.

وَبَلَغَ عَمِيدَ الْمُلْكِ نَعِي السُّلْطَانِ وَهُوَ عَلَى سَبْعِينَ فَرَسَخًا مِنَ الرَّيِّ، فَقَطَعَهَا فِي يَوْمَيْنِ إِشْفَاقًا مِنْ تَشْوِيشِ يَتِيمٍ، وَتَشْوِيرِ يَتِيمٍ، وَفِتْنَةِ تَقَعُ وَوَاقِعَةِ نَفْتُنُ، وَمِحْنَةِ تَحَدُّثٍ، وَحَادِثَةِ تَمَحُّنٍ، وَخِيفَةِ لَا تُؤْمَنُ، وَحَرَكَةِ لَا تَسْكُنُ، فَوَصَلَ وَهُوَ بِحَالِهِ لَمْ يُدْفَنِ، وَلَمْ يُقْبَرْ، وَصَدَعَ الْقُلُوبَ الْمُرِيًّا لِمَصَابِيهِ لَمْ يَرَأَبَ وَلَمْ يُجْبِرَ، فَتَوَلَّى دَفْنَهُ وَتَوَخَّى سَكُونَ الْخَلْقِ وَأَمْنَهُ، وَمُنَعَ الْغُلَمَانَ مِنْ شَقِّ الثِّيَابِ وَطَيِّبِ الْمُسْغَلِ بِتَفْرِيفِ الْأَكْيَاسِ وَتَفْرِيقِ مَا فِي الْعِيَابِ، وَأَخْرَجَ جَمِيعُ مَا يَمْلِكُهُ عَلَى الْعَسْكَرِ حَتَّى الدَّوَابِّ، وَأَجْلَسَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ أَخِي السُّلْطَانِ وَكَانَتْ أُمُّهُ عِنْدَهُ وَقَدَرَصَ عَمُّهُ عَلَيْهِ وَقَرَّرَ الْأَمْرَ لَهُ وَفَوَّضَهُ إِلَيْهِ، فَسَكَنَتِ الْمَمَالِكُ وَأَمِنَتِ الْمَسَالِكُ وَتَفَجَّرَتِ النِّعْمَاءُ وَتَفَرَّجَتِ الْغَمَاءُ.

### ذِكْرُ سِيرَةِ طغرلبيك

كَانَ حَلِيمًا كَرِيمًا مُحَافِظًا عَلَى الطَّاعَةِ وَصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَصَوْمِ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ وَتَخْلِيقِ النَّفْسِ بِالْخُلُقِ النِّفِيسِ، وَكَانَ يَلْبَسُ الْوَادَارِيَّ وَالْبِيَاضَ، وَأَشْبَهَتْ أَيَّامُهُ لِمَحَاسِنِ سِيرَةِ الرِّيَاضِ، وَكَانَ لَا يَرَى الْفِتْكَ وَلَا يَسْفِكُ دَمًا وَلَا يَهْتِكُ مُحَرَّمًا، شَدِيدَ الْاِحْتِمَالِ سَدِيدِ الْأَفْعَالِ.

حَكَى عَنْهُ أَقْضَى الْقِضَاةِ الْمَاوَرِدِيِّ أَنَّهُ تَوَجَّهَ فِي رِسَالَةِ الْقَائِمِ إِلَيْهِ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ فَكَتَبَتْ فِيهِ كِتَابًا صَمَّمَتْهُ الطَّعْنَ عَلَيْهِ وَالْقَدْحَ فِيهِ وَغَمَطَ مَحَاسِنِهِ وَبَسَطَ مَسَاوِيهِ وَوَقَعَ الْكِتَابُ مِنْ غُلَامِي فَحَمِلَ إِلَيْهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ثُمَّ خَتَمَهُ وَكَتَمَهُ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ عَادَةِ إِكْرَامِي وَشِيمَةِ احْتِرَامِي، وَكَذَلِكَ دُكِرَ أَنَّ بَعْضَ خَوَاصِّهِ كَتَبَ مُلْطَفَاتٍ إِلَى الْمَلِكِ أَبِي كَالِيَجَارِ يُطْلِعُهُ فِيهَا عَلَى بَعْضِ الْأَسْرَارِ فَوَقَعَتْ فِي يَدِهِ وَأَخْفَاهَا وَدَاوَى هَفَوَاتِهِ بِحَلِيهِ وَشَفَاهَا، وَكَانَ كَثِيرَ الصَّدَقَاتِ حَرِيصًا عَلَى بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ مُتَعَبِّدًا مُتَهَجِّدًا وَيَقُولُ: اسْتَحْيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أُبْنِيَ دَارًا وَلَا أُبْنِيَ بِجَنِّيهَا مَسْجِدًا.

وَحَكَى عَمِيدَ الْمُلْكِ أَنَّهُ لَمَّا مَرِضَ قَالَ: إِنَّمَا مَتَلِي فِي مَرَضِي مِثْلَ شَاةٍ تُشَدُّ قَوَائِمُهَا لِجَزْرِ الصَّوْفِ فَتَظُنُّ أَنَّهَا تُدْبِحُ فَتَضْطَرِبُ حَتَّى إِذَا أُطْلِقَتْ تَفْرَحُ ثُمَّ تُشَدُّ قَوَائِمُهَا لِلذَّبْحِ فَتَظُنُّ أَنَّهَا لِجَزْرِ الصَّوْفِ وَتَسْكُنُ فَتُدْبِحُ، وَهَذَا الْمَرَضُ شَدُّ الْقَوَائِمِ لِلذَّبْحِ، وَتُوفِّيَ وَعَمْرُهُ سَبْعُونَ.

قَالَ عَمِيدَ الْمُلْكِ إِنَّ طغرلبيك قَالَ لَهُ: رَأَيْتُ فِي مَنَامِي فِي مُبْتَدَأِ أَمْرِي بِخِرَاسَانَ كَأَنِّي

رُفِعْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقِيلَ لِي: سَلْ حَاجَتَكَ تُقْضَ، فَقُلْتُ: مَا شِئٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَوْلِ الْعُمَرِ.  
فَقِيلَ لِي: عَمْرُكَ سَبْعُونَ. قَالَ عَمِيدُ الْمَلِكِ: وَكُنْتُ سَأَلْتُهُ عَنِ السَّنَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، فَقَالَ: السَّنَةُ  
الَّتِي خَرَجَ الْخُنَانُ الْفَلَانِيُّ بِمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، فَلَمَّا تُوْفِي حَسِبْتُ الْمُدَّةَ فَكَانَتْ سَبْعِينَ سَنَةً كَامِلَةً.  
وَلَمَّا وَصَلَ خَبْرٌ وَفَاتِهِ إِلَى بَغدَادَ جَلَسَ الْوَزِيرُ فَخَرُّ الدَّوْلَةِ ابْنُ جَهْمِيرٍ لِلْعَزَاءِ فِي صَحْنِ  
السَّلَامِ فِي سَادِسِ عَشَرَ شَهْرِ رَمَضَانَ.

ذَكَرَ جُلُوسَ السُّلْطَانِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ أَبِي شَجَاعٍ مُحَمَّدَ بْنَ مِيكَائِيلَ  
بِئْسَ سَلْجُوقِي

تُوْفِي أَبُوهُ دَاوُدُ بِيْلَخَ سَنَةَ خَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ، وَقَامَ مَقَامَهُ وَحَاطَ نِظَامَهُ، وَلَمَّا خُطِبَ لِأَخِيهِ  
سُلَيْمَانَ بِالرِّيِّ بَعْدَ وَفَاةِ عَمِّهِ طُغْرَلْبِكِ مَضَى أَرْسَعُونَ وَأَزْدَمَ إِلَى قَرْوِينَ وَخَطَبَا لِأَلْبِ أَرْسَلَانَ  
ثُمَّ بَعْدَهُ لِسُلَيْمَانَ، وَأَقْبَلَ عَضُدُ الدَّوْلَةِ أَلْبَ أَرْسَلَانَ مِنْ نَيْسَابُورَ يَطْوِي السَّهُولَ وَالْوَعُورَ،  
وَيَطْوِي الظِّلَّ وَالْحَرُورَ، وَيَرْفَعُ مَا نُصِبَ مِنْ أَعْلَامِ الْجَيْشِ الْمَجْرُورِ، وَيَجْبُرُ مَا وَهَنَ مِنْ قَلْبِ  
الْمَلِكِ الْمَكْسُورِ، وَقَدْ انْتَقَلَتِ الْأَرْضُ إِلَى السَّمَاءِ بُوْهَجِ خَيْلِهِ وَرَخَرَتِ أَمْوَاجُ الْحَدْرِ فِي  
لُجَجِ سَيْلِهِ، وَأَقْبَلَ إِقْبَالَ الضَّيْعَمِ الضَّارِي، وَأَقْدَمَ إِقْدَامَ الْخُضْمِ الْجَارِي وَسَارَتِ خَيْلُهُ أَسْرَعَ  
مِنْ الْخِيَالِ السَّارِي، وَأَقْبَلَ وَقَدْ أَعْطَاهُ الزَّمَانُ زِمَامَهُ، وَالظَّفَرُ إِلَى دَارِ مُلْكِهِ قَدْ أَمَّهُ قُدَامَهُ، وَقَدْ  
جَعَلَ اعْتِقَادُهُ فِي نُصْرَةِ إِمَامِهِ أَمَامَهُ، وَقَدْ عَقَدَتْ حَوَافِرُ الْحَوَا عَلَى الْأَفْقِ مِنْ مِثَارِهَا عَمَامَهُ،  
وَأَلْحَقَتْ أَطْوَادَ هَوَادِيهَا بُوْهَادِ الثَّرَى أَكْمَامَهُ، وَفِي الْأَعْدَاءِ إِعْدَاءَ الْفُرْسَانِ لِلْفُرْسَانِ، وَكَأَنَّ  
شُهْبَ الْخَيْلِ فِي كُنِّ اللَّيْلِ شُهْبٌ مُنْقَضَةٌ وَذَهْمَهَا جَانٌ، وَلَمَّا جَاءَ فَلَّ وَجَفَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلُّ ذِي  
عَرَبٍ وَغَارِبٍ، وَصَيَّقَ الْفِضَاءَ الْوَاسِعَ بِكُلِّ طَاعِنٍ وَضَارِبٍ.

وَكَانَ ابْنُ عَمِّ أَبِيهِ قَتْلُمُشَ بْنَ إِسْرَائِيلَ فِي كَرْدِكُوهِ قَوْقَدْ تَمَلَّكَهُ الطَّمَعُ وَطَمَعَ فِي الْمَلِكِ،  
وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الطَّمَعَ يُورِطُهُ فِي الْهَلِكِ، فَعَارَضَهُ فِي جُمُوعِ شَعَلَتْ الْعُرْصَ وَالطَّوْلَ، وَمَلَأَتْ  
الْبُحُورُونَ وَالسَّهُولَ، وَقَاضَتْ بِأَمْوَاهِ الْحَدِيدِ مِنْهَا جِدَاوِلَ النَّارِ، وَجَرَّتْ بِسَيْلِ لَيْلِهَا الْمُدْلَاهِمُ  
أَنْهَارُ النَّهَارِ، فَتَقَابَلَا وَتَجَالَدَا وَتَجَادَلَا، وَأَنْجَلَتْ الْمَعْرَكَةَ عَنِ قَتْلِ قَتْلُمُشَ وَهَزِيمَةَ جُمُوعِهِ،  
وَكَانَتْ مَنِيئَتُهُ فِي عَثُورِ الْفَرَسِ بِهِ وَوُقُوعِهِ، وَقَتَّلَ أَلْبَ أَرْسَلَانَ مِنَ التُّرْكَمَانِ عِدَّةً وَافِرَةً وَحَارَ  
مِنْ أَمْوَالِهِمْ غَنِيمَةً ظَاهِرَةً، وَسَاقَ أَلْبَ أَرْسَلَانَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى خَوَارِ الرِّيِّ ظَافِرَ الْجُنْدِ، ظَاهَرَ

الْجَدِّ، مَاضِي الْحَدِّ، قَاضِي الْجَدِّ، سَعِيدَ الطَّلَعَةِ طَالِعِ السَّعِيدِ، وَمَعَهُ وَزِيرُهُ نِظَامُ الْمَلِكِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ إِسْحَاقَ الطُّوسِيِّ، فَتَلَقَّاهُ عَمِيدُ الْمَلِكِ فِي حَشِيئِهِ وَخَدِيمِهِ وَكُوسِهِ وَعَلَيْهِ، وَعَرَبِيهِ وَعَجَمِيهِ، وَجَمَعِيهِ وَبُهْمِيهِ، وَوَصَلَ بِهِ إِلَى الرَّيِّ وَأَجْلَسَهُ عَلَى السَّرِيرِ وَجَرَى عَلَى عَادَتِهِ مَعَهُ فِي التَّدْبِيرِ.

### ذَكَرَ عَزَلَ عَمِيدَ الْمَلِكِ وَاعْتَقَالَهُ وَقَتْلَهُ

وَعَارَ نِظَامُ الْمَلِكِ مِنْ عَمِيدِ الْمَلِكِ وَاسْتِقْلَالِهِ، وَغَارَ مَاءُ احْتِمَالِهِ، وَعَمَلَ وَاحْتَالَ مُدَّةً فِي قَبْضِهِ وَاعْتَقَالِهِ، وَلَمَّا كَانَ فِي الْمُحْرَمِ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ زَارَ عَمِيدُ الْمَلِكِ نِظَامَ الْمَلِكِ زِيَارَةً يِنَاسٍ وَاعْتِنَارًا، وَتَرَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَنَدِيلاً فِيهِ خَمْسُمِائَةَ دِينَارٍ، وَلَمَّا سَارَ عَنْ حَضْرَتِهِ سَارَ أَكْثَرُ الْعَسْكَرِ فِي خِدْمَتِهِ، فَخَوَّفَ السُّلْطَانَ مِنْ عَاقِبَةِ ذَلِكَ وَمَعَّيَّبَهُ، فَأَمَرَ بِقَبْضِهِ وَأَنْفَذَهُ إِلَى مَرَوَالِدِ<sup>(1)</sup>، وَمَكَّثَ سَنَةً فِي الْأَعْتِقَالِ بِهَا مَكَّثَ الْمَوْقُومُ الْمَوْقُودُ، ثُمَّ سَبَّرَ إِلَيْهِ غُلَامَيْنِ فَدَخَلَا عَلَيْهِ وَهُوَ مَحْمُومٌ، وَأَخْبَرَاهُ أَنَّ قَتْلَهُ أَمْرٌ مَحْتَمٍ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَمَهَّلْ فِي قَتْلِهِ وَأَنْظَرَاهُ حَتَّى اغْتَسَلَ وَتَوَضَّأَ وَتَابَ تَوْبَةً مِثْلِهِ، وَدَخَلَ لِيُدَاعِ أَهْلَهُ وَخَرَجَ إِلَى مَسْجِدِ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، وَاسْتَسَلَّمَ لِلْقَضَاءِ الْمُقَدَّرِ بِالْحَيَاتِنِ، وَوَجَدَ الْغُلَظَةَ مِنَ الْغُلَامَيْنِ عِنْدَ انْقِضَاءِ لَيْلِ الْقَاتِلَيْنِ وَضَرْبَاهُ بِالسِّيفِ وَأَخَذَا رَأْسَهُ، وَأَفَاطَا نَفْسَهُ، وَأَغَاضَا أَنْفَاسَهُ، وَرَجَعَا بِخَبْرِهِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَحَمَلَا إِلَيْهِ رَأْسَ ذَلِكَ الْكَرِيمِ بِكَرْمَانَ، وَأَمَّا جِثَّتُهُ فَإِنَّهَا لُتَّتْ فِي خِرْقَةٍ كَانَتْ لُفَافَةَ الْبُرْدَةِ النَّبَوِيَّةِ وَكَانَ اسْتَهْدَاهَا مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَفِي قَمِيصٍ دَبِيقِيٍّ مِنْ مَلَابِسِ الْقَائِمِ الشَّرِيفَةِ، وَقُبِرَ فِي قَبْرِ أَبِيهِ بِكُنْدَرٍ، وَتَرْتَقَ صَفْوُ مَوْرِدِ الْفَضْلِ وَتَكَدَّرَ.

وَكَانَتْ مُدَّةُ زِيَارَتِهِ ثَمَانِي سِنِينَ وَشَهْرًا، وَلَمْ يَزَلْ مَوْسِمٌ جَاهِهِ فِيهَا مَشْهُودًا مَشْهُورًا، وَكَانَ عَمْرُهُ نِيفًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَتْ مَحَاسِنُهُ مُفَضَّلَةً، وَفَضَائِلُهُ مُحَسَّنَةً، لَكِنَّهُ لَكِنَّةً تَهَوَّرَ وَتَهَوَّنَ وَغَايَةَ عَيْهِ فِي سُوءِ التَّدْبِيرِ وَتَوَهِينِهِ قَصَّرَتْ يَدُهُ الطُّوْلَى عَنْ اسْتِمَالَةِ الْقُلُوبِ الْجَافِيَةِ وَاسْتِلَاةِ الْقُلُوبِ الْآبِيَّةِ، وَكَانَ يَرْجِعُ إِلَى حَسَبِ وَبُئِلٍ، وَأَدَبِ وَفَضْلِ، وَقِيلَ مِنْ شَعْرِهِ فِي غُلَامٍ: [مَجْزُوءُ الرَّمْلِ]

(1) مرو الروذ: قال ياقوت: مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى ينسب إليه كثير من أهل العلم.

أَنَا مَشْفُوفٌ بِحُبِّهِ      وَهُوَ مَشْفُوفٌ بِلِئَمِهِ  
 لَوْ أَرَادَ اللَّهُ خَيْرًا      وَصَاحِبًا لِمُحِبِّهِ  
 نُقِلْتُ رِقَّةً خَدِيدٍ [م]      إِلَى قَسْوَةِ قَلْبِهِ  
 صَانَهُ اللَّهُ فَمَا أَكْرَمَ [م]      ثَرًا إِعْجَابِي بِعُجْبِهِ

وهو الذي يقول، وكان كما قال: [البيسط]

الْمَوْتُ مُرٌّ وَلَكِنِّي إِذَا ظَمِنْتُ      نَفْسِي إِلَى الْعِزِّ مُسْتَحْلِلٌ لِمَشْرَبِهِ  
 رِئَاسَةً بَاضَ فِي رَأْسِي وَسَاوِسُهَا      تَدَوَّرَ فِيهِ وَأَخْشَى أَنْ تَدَوَّرَ بِهِ

وكان خصيًّا، وسبب ذلك أن طغرل بك أنفذه في ابتداء حاله ورعيان إقباله ليخطب له امرأة فزوجها لنفسه وعصاه، ولما ظفر به أقره على خدمته بعد أن خصاه، وكان حنفي المذهب كثير التعصب لمذهبه، والذهاب مع عصيه، ثم فارق العصية وجمع بين العصابتين، وحسن رأي اجتهاده في الإصابتين.

وكان سبب معرفته بطغرل بك أنه لما ورد نيسابور وافتقر إلى كاتب يجمع في العربية والفارسية بين الفصاحتين، ويبلغ بمدد فضله مدى البلاغتين، فدله عليه الموفق والد أبي سهل فظفر بنهضة شاب في رأي كهل.

### ذكر نظام الملك

وَلَمَّا صُرِفَ عَمِيدُ الْمُلْكِ وَعُزْلٌ وَنُقِلَ إِلَى حَيْثُ اعْتُقِلَ اسْتَوَى أَمْرُ نِظَامِ الْمُلْكِ وَمَلَكَ نِظَامَ  
 أَمْرِهِ، وَسَمَا ضِرَامُ جَمْرِهِ، وَبَزَعَتْ بِالسَّنَاءِ شَمْسُهُ، وَبَلَغَتْ الْمُنَى نَفْسُهُ، وَعَلَا عِلْمُهُ وَجَرَى  
 قَلْمُهُ، وَعَنَى وَتَرَهَ وَتَجَلَّى قَتْرُهُ، وَفَخِمَ مَوْكِبُهُ وَصَحِمَ مَنَكِبُهُ، وَتَمَكَّ سَنَامُهُ وَسَمَكَ مَقَامُهُ،  
 وَرَسَا طَوْدُهُ وَسَرَى جُودُهُ، وَطَمَّ وَاذِيهِ وَطَمَا نَادِيهِ، وَزَخَرَ مَوْجُهُ وَفَخَرَ أَوْجُهُ وَزَهَرَ كَوْكِبُهُ  
 وَزَهَى مَوْكِبُهُ، وَحَلَيْتَ بِنِضَارِهِ حَالْتَهُ وَتَهَلَّلْتَ بِنَظَرِ بَدْرِهِ هَالْتَهُ، وَتَرَفَعْتَ إِسَادَتَهُ وَتَفَرَّعْتَ  
 سِيَادَتَهُ، وَلَمْ تُعَدِّ حَسَنَتَهُ وَتَحَسَّنْتَ عَادَتَهُ، وَأَسْدَى مِنَ الْعَرَفِ مَا تَصَوَّغَ نَشْرُهُ وَتَوَضَّحَ فَجْرُهُ،  
 وَأَثَرَتْ مَاثِرُهُ، وَعَزَّ فِيهِ مُسَاجِلُهُ وَمُكَاثِرُهُ.

## ذكر ابتداء حال نظام الملك

حكى أبو زكريا الخطيب التبريزي<sup>(1)</sup> أن فخر الملك بن نظام الملك حَدَّثَهُ أَنَّ وَالِدَهُ كَانَ لِلْأَمِيرِ بَاحِرٍ صَاحِبِ بَلُخِ كَاتِبًا، وَقَدْ جَعَلَ لَهُ رَاتِبًا، وَهُوَ فِي أَوَّلِ كُلِّ سَنَةٍ يَعْتَرِضُهُ وَيَبْسُطُ عَلَيْهِ يَدَهُ وَيَقْبِضُهُ، وَيَأْخُذُ مَوْجُودَهُ، وَيَلْحَى عُوْدَهُ، ثُمَّ يُعْطِيهِ فَرَسًا وَمِقْرَعَةً، وَيَقُولُ: هَذَا يَكْفِيكَ لِأَنَّ تَنَالَ مَرْتَبَةً وَمَنْفَعَةً، وَبَقِيَ فِي قَيْدِ خِدْمَتِهِ كَالْأَسِيرِ، صَاحِبًا لِلْإِعْسَارِ مِنْ صَاحِبِهِ الْعَسِيرِ، فَخَلَصَ إِلَى الْكَيْدِ لِيَخْلَصَ مِنَ الْقَيْدِ، وَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ الْأَمْدُ وَنَالَ مِنْهُ الْكَمْدُ، عَمَدَ إِلَى الْفِرَارِ لِعَدَمِ الْفِرَارِ، فَأَدْرَكَهُ أَصْحَابُ بَاحِرٍ وَهُوَ عَلَى بَرْدُونَ بَطِيءٍ فَأَمْسَكُوهُ فَلَقِيَ تُرْكَمَانِيًّا وَأَخَذَ مِنْهُ فَرَسًا قَوِيًّا فَأَفَلَّتْ مِنْهُمْ وَلَمْ يُدْرِكُوهُ، وَدَخَلَ إِلَى دَاوُدَ بْنِ مِيكَائِيلَ، وَعَدَّقَ بِهِ التَّامِيلَ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَسَلَّمَهُ إِلَى أَلْبِ أَرْسِلَانَ وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَلِّيه الْإِحْسَانَ، وَقَالَ: هَذَا حَسَنُ الطُّوسِيِّ فَاتَّخِذْهُ لَكَ وَالِدًا، وَاجْعَلْهُ لَكَ سَاعِدًا وَمُسَاعِدًا، وَجَاءَ بَاحِرٌ وَقَدْ رَكِبَ خَلْفَهُ وَطَلَبَ حَتْفَهُ، فَدَخَلَ إِلَى دَاوُدَ وَقَالَ: هَذَا كَاتِبِي، وَفِي رَاتِبِي، وَقَدْ نَهَبَ مَالِي، وَأَذْهَبَ حَالِي، وَعِنْدَهُ لِكُلِّ عَمَلٍ حِسَابٌ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَجَرِيدَتُهُ عَلَى مَا أَجْرَى يَدُهُ تَدَلُّ، وَدَاوِينُهُ لِمَا أُوْدَى دَيْتُهُ تُؤْمَلُ، فَادْفَعُهُ إِلَيَّ وَأَوْقَعُهُ فِي يَدِي.

فَقَالَ: خَطَابُكَ مَعَ وَلَدِي مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ عِنْدَهُ لَا عِنْدِي، وَمَنْ وَفَدِيهِ لَا وَفَدِي، وَفِي رِفْدِهِ لَا رِفْدِي، وَإِنَّمَا أَتَى لِقَصْدِهِ لَا قَصْدِي، وَلَمَّا خَاطَبَهُ فِيهِ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ وَكَانَ كَالْحَيْبِ الْمُتَحَبِّبِ الْمُتَحَمِّيِّ يُحَقِّقُ فِيهِ يَأْسَ مُجِبِّهِ، وَيَرْفُلُ فِي مَعَارِجِ السِّيَادَةِ وَمَدَارِجِ الزِّيَادَةِ، وَتَنَقَّلَ فِي مَنَاهِجِ السَّعَادَةِ إِلَى أَنْ حَتَمَ اللَّهُ بَعْدَ الْعُمُرِ الْمَزِيدِ وَالْعَيْشِ الرَّغِيدِ بِالشَّهَادَةِ.

## ذكر ما جرى للسلطان ألب أرسلان بعد ملكه

كَانَ قَاوْرِدُ بْنُ دَاوُدَ أَخُوهُ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى كِرْمَانَ فِي زَمَانِ عَمِّهِ طَغْرَلِيكِ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَمَلَّكَ شِيرَازَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ، وَقَتَلَ كُلَّ دَيْلَمِيٍّ بِهَا، وَقَتَلَ

(1) الخطيب التبريزي: أبو زكريا، يحيى بن علي بن محمد الشيباني التبريزي، ولد بتبريز سنة 421 هـ، ونشأ ببغداد وارتحل إلى بلاد الشام، وقرأ (تهديب اللغة) للأزهري على أبي العلاء المغربي، ودخل مصر، ثم عاد إلى بغداد فكان على خزانة كتب المدرسة النظامية حتى وفاته سنة 502 هـ، خلف بعده مجموعة نفيسة من المؤلفات

وَسَفَكَ، وَبَتَكَ وَهَتَكَ، وَيَطُشُ وَأَوْحَشَ، وَخَافَ وَأَخَافَ، وَعَسَفَ وَعَصَفَ، وَظَلَمَ وَكَلَمَ، وَقَطَعَ وَقَفَفَ، وَعَنَى وَعَعَفَ، وَجَرَحَ وَاجْتَرَحَ، وَقَرَحَ وَاقْتَرَحَ، وَطَرَحَ الرَّحْمَةَ وَالْحُرْمَةَ وَأَطْرَحَ، وَخَالَفَ أَبَاهُ أَلْبَ أَرْسَلَانَ وَاعْتَصَمَ مِنْهُ بِمَدِينَةِ بَرْدِشِيرَ بِكِرْمَانَ، فَسَارَ إِلَيْهِ أَلْبَ أَرْسَلَانَ وَأَمَّتَهُ، وَأَخَذَ قَلْعَةَ اصْطَخْرِ<sup>(1)</sup> وَاقْتَادَتْ سَعَادَتُهُ أَرْمَةَ الْمِصَاعِبِ وَالْأَنْتَ لَهُ الصَّخْرُ، وَأَنَاهُ مَسْتَحْفِظُ الْقَلْعَةِ بِتُخَفِ فَيْرُوزِجَ وَكَأَسَ زُمْرِدَ كَمِ يَرِ مِثْلُهَا، وَسَمَلُ بِلَادِ فَارِسَ إِحْسَانُ الدَّوْلَةِ وَعَدْلُهَا، وَأَدَانَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَأَرْضَى الدِّينَ، وَسَلِمَتْ بِهِ الرَّعَايَا وَرَعَى الْمُسْلِمِينَ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ شَرْفُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْمَكَارِمِ مُسْلِمُ بْنُ قُرَيْشٍ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ فَأَكْرَمَ وَفَادَتَهُ، وَأَكْثَرَ إِفَادَتَهُ، وَأَكْرَمَ قَدُومَهُ وَقَدَّمَ تَكْرِمَتَهُ، وَسَرَّ بِوَصُولِهِ وَوَأَصَلَ مَسَارَهُ، وَبَرَّهُ بِإِرْفَادِهِ وَرَادَفَ مَبَارَهُ، وَجَلَا فِي مَطَالِعِ مَطَالِبِهِ صُبْحَ النَّجْحِ الْبَهِيحِ، وَأَجْرَى فِي إِقْطَاعِهِ هَيْتَ وَالْأَنْبَارِ وَحَرَبِيَّ<sup>(2)</sup> وَالسَّنَّ<sup>(3)</sup> وَالْبُوزَاجِيَّ<sup>(4)</sup>. وَوَصَلَ شَرْفُ الدَّوْلَةِ مُسْلِمُ إِلَى بَغْدَادَ فِي شَهْرِ رَيْبَعِ الْآخِرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ، فَتَلَقَّاهُ الْوَزِيرُ فُخْرُ الدَّوْلَةِ بْنُ جَهْيَرٍ، وَأَلْفَى مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ خَيْرَ ظَهْنٍ.

وَأَوْغَلَ السُّلْطَانَ فِي بِلَادِ الْخَزَرِ مِنْ طَرِيقِ نَخْجَوَانَ وَحَقَّقَ لِلْإِسْلَامِ الْعِزَّ وَاللِّكْفَرَ الْهَوَانَ، وَكَثَّرَ لِإِعَانَةِ الْإِيمَانِ نَصْرَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانَ، وَأَلْجَأَ مَلِكَ الْأَبْخَازِ بِقِرَاطِ بْنِ كَيُورِكِي إِلَى طَلَبِ هَدَنِيَّتِهِ، وَعَرَضَ ابْتَهُ فِتْرُوجَ بِهَا وَهَادَنَهُ، وَقَبَلَ بِذَلِكَ وَأَمِنَهُ، ثُمَّ طَلَّقَ الْمَلِكَةَ الْكُرْجِيَّةَ وَرَوَّجَهَا لِنِظَامِ الْمُلْكِ وَزَيْرِهِ، وَسَارَ بِسُرُورِهِ إِلَى سَرِيرِهِ، وَفَتَحَ بِلْدَ بِلْدَانِيَّ وَسَلَّمَهُ مِنَ الْأَمِيرِ أَبِي الْأَسْوَادِ الشَّدَادِي، وَعَرَضَتْ بِنَسْطَةِ تَسْلُطِهِ الْمُلْكَ السَّلْجُوقِيَّ، وَوَقَعَتْ هَيْبَتُهُ وَهَيْبَتِ وَقَعَتُهُ، وَسَطَّتْ رَهْبَتُهُ وَرُهْبَتِ سَطْوَتِهِ، وَعَلَّتْ قِيمَتُهُ، وَعَلَّتْ شِيمَتُهُ، وَوَمَضَّتْ دِيمَتُهُ، وَمَضَّتْ عِزْمَتُهُ، وَعَنَّتْ الْبِلَادُ، وَأَذَعَّتْ الْعِبَادُ، فَسَرَى الْبَاسُ، وَسَرَّ النَّاسُ.

(1) اصطخر: قال الاصطخري: مدينة وسطية وسعتها مقدار ميل وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان سكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور.

(2) حَرَبِيٌّ: ببلدية بين بغداد وتكريت مقابل الخنظيرة تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتُحْمَلُ إلى سائر البلاد. وما زال جسرًا ساخصاً إلى اليوم.

(3) السن: ويقال لها سن يارمًا، مدينة على دجلة فوق تكريت لها سور وجامع كبير وفي أهلها علماء وفيها كتانس وبيع للنصارى، وعند السن مصب الزاب الأسفل.

(4) البوزاجي: بلد قرب تكريت على قم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، ويقال لها بوزاجي الملك، وهي من أعمال الموصل.

ذِكْرُ وَصُولِ شَرْفِ الْمَلِكِ أَبِي سَعْدٍ مَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ مُسْتَوْفِي الْمَمْلَكَةِ إِلَى بَغْدَادَ

وَكَانَ وَصُولُ شَرْفِ الْمَلِكِ أَبِي سَعْدِ الْمُسْتَوْفِي إِلَى بَغْدَادَ فِي صَفْرِ سَنَةِ تِسْعِ وَخَمْسِينَ، وَكَانَ جَلِيلَ النَّسَبِ، جَلِيَّ الْحَسَبِ، كَرِيمَ الْأَصْلِ، أَصِيلَ الْكَرَمِ، مَشِيمَ الْمُزْنِ، مَزِينَ الشَّيْمِ، هَامِي السَّمَاءِ، سَامِي الْهَمَّةِ، وَافِي الذَّمَّةِ، كَافِلَ الْمَلَّةِ، وَهُوَ السَّائِدُ السَّيْدُ، وَالْجَائِدُ الْجَيْدُ، وَالْمَاجِدُ الْمُجِيدُ الْمُجْدِي، وَالْمَاهِدُ الْمَهْدِي الْمُهْدِي، وَمَا تَوَلَّى لِلْسَّلْجُوقِيَّةِ مِثْلَهُ كَرَمًا وَخَيْرًا وَفَضْلًا كَثِيرًا، وَدِينًا مَتِينًا، وَمَكَانًا مَكِينًا، وَغِنَى وَغِنَاءً وَسَنَا وَسَنَاءً، وَمَرُوءَةً ظَاهِرَةً، وَقُوَّةً بَاهِرَةً، وَخَزَمًا مُتَحَفِّظًا، وَعَزَمًا مُتَيَقِّظًا، وَجِلْمًا وَاسِعًا، وَعِلْمًا جَامِعًا، وَرَغْبَةً فِي إِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ، وَمَحَبَّةً لِإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ، وَوَقَارًا يَسْتَعِيرُ مِنْهُ الطُّودُ، وَجُودًا يَتَعَلَّمُ مِنْهُ الْجُودُ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ أَنْسَابُهُ يَلْبَسُهُمْ عَلَى الْحَلْوِ وَالْمُرِّ، وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ، يَنْفِي لِجَافِيهِمْ، وَيُوفِي لِعَافِيهِمْ، وَيَعْفُو عَنْ جَانِيهِمْ، وَيُعْتَى بِفَكَ عَانِيهِمْ.

وَكَانَ جَدِّي لِأُمِّي أَمِينُ الدِّينِ عَلِيُّ الْمُسْتَوْفِي رَحِمَهُ اللَّهُ كَاتِبًا لَهُ فِي رِيْعَانِ عُمْرِهِ، وَعُفْوَانِ أَمْرِهِ، إِلَى أَنْ صَارَ بَعْدَهُ كَاتِبًا لِخِزَانَةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ بْنِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ، وَالْخِزَانَةُ عَادَتْ بِقَلْمِهِ مَضْبُوطَةً، وَبِكِفَايَتِهِ مَنُوطَةً، وَكَانَ يُحَدِّثُنِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ فِي صِغَرِي عَنْ شَرْفِ الْمَلِكِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِكُلِّ مَا يَدُلُّ عَلَى سِيَادَةِ نَفْسِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ فَضْلِهِ ذَا تَفَضُّلٍ، وَمَعَ إِجْمَالِهِ ذَا تَجَمُّلٍ، وَحَكَى أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ كُسُوةً مُكَمَّلَةً مُفَضَّلَةً مُعَزَّلَةً عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ مِنَ الْمَلَابِسِ الْفَاحِشَةِ الْحَسَنَةِ، فَيَلْبَسُ كُلَّ يَوْمٍ مَا يُنَاسِبُهُ مِنْ أَيَّامِ الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ، مِنْ أَنْوَاعِ الثِّيَابِ الْمُوشَّاةِ الْمُوسَّعَةِ، وَإِذَا خَلَعَ مِنْهَا أَوْ وَهَبَ أَعَادَ خَازِنُهُ إِلَى الْخِزَانَةِ عَوْضَ مَا ذَهَبَ، فَهُوَ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي لِبْسٍ جَدِيدٍ، وَجَدُّ غَيْرِ لَيْسٍ، وَنَفْسٍ فَاحِشَةٍ وَفَخَارٍ تَفْنِيسٍ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ وَحَضَرَ إِلَى بَيْتِ النَّوْبَةِ فِي ثَانِي عَشَرَ صَفْرِ، فَبَشِّرَ بِإِقْبَالِهِ سَفِيرًا وَجَهَ الْقَبُولِ وَسَفَّرَ، وَخَدَّمَ الْأَخْلِيْفَةَ بِمَصْحَفِ جَلِيلٍ وَقِطْعَةٍ بِلُخْشٍ فِي مَنْدِيلٍ، وَأَوْصَلَ كِتَابَ السُّلْطَانِ فِي خَرِيْطَةِ سُودَاءَ، وَسَرَّ الْأَوْدَاءَ وَسَاءَ الْأَعْدَاءَ، وَوَجَدَ نَوَابَ نِظَامِ الْمَلِكِ الْوَزِيرِ قَدْ شَرَعُوا فِي بِنَاءِ الْمَدْرَسَةِ، وَتَشْيِيدِ دَعَائِمِهَا الْمُشْتَبَةِ عَلَى الْبِنَانِ الْمُقَوَّى الْمَوْسِمِيَّةِ، فَاعْتَمَمَ اقْتِدَارُهُ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ، وَابْتِدَارُهُ بِالْاِبْتِدَاءِ، وَبَنَى عَلَى ضَرْحِ أَبِي حَنِيفَةَ (رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) بِيَابَ

الطاق مشهداً ومدرسةً لأصحابه، وأعلمَ بِمَعْلَمِهَا ثوبَ ثوابه، وَأَنْشَرَ مَنْشُرَ الْعِلْمِ فِيهَا رُوحَهُ الشَّرِيفَةَ وَنَفْثَهَا، وَكَتَبَ الشَّرِيفُ أَبُو جَعْفَرِ الْبِيضِيِّ<sup>(1)</sup> عَلَى الْقَبِيَّةِ الَّتِي أَحَدَّثَهَا: [الطويل]

أَلَمْ تَرَهُ هَذَا الْعِلْمَ كَانَ مُشْتَتَاً      فَجَمَّمَهُ هَذَا الْمُغْنِيْبُ فِي اللَّحْدِ  
كَذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ مَيِّتَةً      فَأَنْشَرَهَا فَضْلُ الْعَمِيدِ أَبِي سَعْدِ

وَوَصَلَتْ أُرْسُلَانُ خَاتُونِ زَوْجَةِ الْخَلِيفَةِ إِلَى بَغْدَادَ فِي مُسْتَهْلَ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ مَعَ عَفِيفٍ، فِي مَوْكَبٍ كَثِيفٍ، وَجَمَعَ كَثِيفٍ، وَاسْتَقْبَلَهَا الْوَزِيرُ فَخَرُّ الدَّوْلَةِ عَلَى فِرَاسِخٍ، وَجَلَا فَجَرَ فَخْرِهِ السَّافِرِ وَطَوْدَ وَقَارِهِ الرَّاسِخِ، وَوَقَفَتْ مَوْكَبَهَا عِنْدَ الْقَرَبِ مِنَ الْإِلْتِقَاءِ، وَخَدَمَهَا عَلَى ظَهْرِ فِرْسِهِ بِالِدَعَاءِ، وَأَقْبَلَتْ وَقَبِلَتْ، وَدَخَلَتْ وَحَلَّتْ، وَأَبْهَجَتْ وَابْتَهَجَتْ، وَنَهَجَتْ جَادَةً جَدًّا وَأَنْهَجَتْ، وَقَرَّتْ بِالِدَارِ وَدَرَّتْ بِالْقَرَارِ، وَأَسَدَتْ إِلَى السِّدَّةِ جَمِيلًا وَجَمَالَهَا، وَأَنْزَلَتْ مَنَزَلَةَ الْجَلَالَةِ جَلَالَهَا، وَعَادَتْ إِلَى عَادَةِ السَّعَادَةِ، وَوَأَفَتْ لِلزِّيَارَةِ الْإِيْفَاءَ عَلَى الزِّيَادَةِ.

ذَكَرَ طَوَارِقَ طَرَاتٍ، وَطَوَارِئَ طَرَقَتْ، وَاتِّفَاقَاتٍ وَافَقَتْ، وَمُؤَافَقَاتٍ اتَّفَقَتْ، وَآجَالَ تَدَانَتْ، وَرِجَالَ تَفَانَتْ

فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ تُوْفِيَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَرَّاءِ شَيْخُ الْحَنَابِلَةِ، وَنَاهَجُ طَرِيقَهُمُ السَّابِلَةَ، وَمُخَضَّرِ شَجَرَتِهِمُ النَّاصِرَةَ غَيْرِ الذَّابِلَةَ.

فِي هَذِهِ السَّنَةِ اسْتَمَّ بِنَاءُ الْمَدْرَسَةِ النَّظَامِيَّةِ بِبَغْدَادَ وَانْتَضَمَتْ أَحْوَالُهَا، وَأَتَسَّقَ كَمَالُهَا، وَأَتَسَّعَ جَمَالَهَا، وَسَكَنَتْهَا مِنْ حَمَلَةِ الشَّرِيعَةِ رِجَالُهَا، وَبَسَّرَ بَعِيدَ الْعِلْمِ إِهْلَالَهَا، وَرَوَّضَ ثَرَى الْفِقْهِ اسْتِهْلَالَهَا، وَدَرَّسَ فِيهَا الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّرِيزِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ) فَأَحْيَى مِنَ الْعِلْمِ مَا دَرَسَ، وَكَشَفَ مِنَ الْحَقِّ مَا تَبَسَّ، وَنَشَرَ الْعُلُومَ وَأَنْشَرَهَا، وَنَوَّرَ الْوُجُوهُ وَبَشَّرَهَا، وَشَرَحَ الْأَصُولَ وَقَرَّعَهَا، وَأَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ وَنَوَّعَهَا، وَبِمَوْلَفَاتِهِ تَأَلَّفَ الشَّرْعُ، وَبِمُصَنَّفَاتِهِ تَعَرَّفَ الْأَصْلُ وَالْقَرْعُ، وَبِفَوَائِدِهِ قَامَتِ الْبَرَاهِينُ، وَبِقَوَاعِدِهِ اسْتَقَامَتِ الْقَوَانِينُ.

(1) الشريف البياضي: أبو جعفر مسعود بن عبدالعزيز بن المحسن بن الحسن البياضي، والبياضي نسبة إلى لبس البياض، شاعر هاشمي ولد ببغداد وبها مات سنة 468 هـ، قال ابن خلكان: له ديوان صغير غاية في الحسن والرفقة وليس فيه من المذاتح إلا اليسير.

وفي سنة ستين تُوْفِيَ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ يَوْسُفَ، وَكَانَ مِنْ أُمَّائِلِ بَغْدَادَ وَأَعْيَانِهَا، وَالْمَرْجُوعِ إِلَيْهِ فِي نَوَائِبِ اللَّيَالِي وَحَدَّثَانِهَا، وَكَانَ قَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى صَلَاحِهِ وَاسْتِجَادَةِ رَأْيِهِ وَاسْتِرْجَاحِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ خَيْرَاتِهِ أَنَّهُ تَسَلَّمَ الْمَارِسْتَانَ الْعَضُدِيَّ<sup>(1)</sup> مِنَ الْقَاضِي أَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ الْغَرِيقِ وَكَاتِبِهِ الْهَارُونِيَّ الْيَهُودِيَّ، وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخِرَابُ، وَأَنَابَ أَوْقَافَهُ بِالنَّوَابِ التُّوَابِ، فَعَمَّرَهُ وَطَبَّقَهُ، وَأَذْهَبَ رَنَقَهُ، وَأَعَادَ رَوْتَهُ، وَأَحْسَنَ فِي أَحْوَالِهِ تَرْتِيبًا، وَأَقَامَ فِيهِ ثَلَاثَةَ خُرَازِينَ وَثَمَانِيَةَ وَعَشْرِينَ طَبِيبًا، وَنَوَّعَ أَقْسَامَ الْبِرِّ فِي بَرِّ الْأَسْقَامِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَرَعَى مَرَاضِيَ اللَّهِ تَعَالَى بِرِعَايَةِ الْمَرَاضِ بِالْمُدَاوَاةِ النَّافِعَةِ وَالْمُدَارَاةِ الْمُقْنَعَةِ.

وَلَمَّا تُوْفِيَ هَذَا الرَّجُلُ وَقَاهُ الرَّجَالُ حَقَّهُ مِنَ الْخُرْنِ، وَيَكْتَبُ الْعِيُونَ عَلَيْهِ بِكَاءِ عِيُونِ الْمُزْنِ، وَرِثَاةِ ابْنِ الْفَضْلِ صَرَّ دُرٌّ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوْلَّهَا<sup>(2)</sup>: [الْخَفِيفُ]

لَا قَبْلَنَا فِي ذَا الْمَصَابِ عَزَاءُ أَحْسَنَ الدَّهْرِ بَعْدَهُ أَمْ أَسَاءُ  
وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تُوْفِيَ أَبُو الْجَوَائِزِ بْنُ بَارِي الْوَاسِطِيِّ<sup>(3)</sup> وَكَانَ شَاعِرَ زَمَانِهِ، وَفَارَسَ مِيدَانِهِ، وَنَاطَمَ دُرَّهُ وَجَمَانِهِ.

وَتُوْفِيَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضًا أَبُو جَعْفَرِ الطُّوسِيِّ<sup>(4)</sup> بِمَشْهَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَكَانَ إِمَامَ الشَّيْعَةِ، وَهُوَ صَنَّفَ التَّفْسِيرَ، وَيَسَّرَ لَهُمْ مِنْ مَذْهَبِهِمُ الْعَسِيرَ.  
وَفِي جُمَادَى الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ زَلْزَلَةٌ بِأَرْضِ فَلَسْطِينَ أَهْلَكَتِ الرَّمْلَةَ وَأَتْلَفَتْهَا، وَخَرَّبَتْ مَبَانِيَهَا وَتَسَفَّتْهَا.

وَفِيهِ تُوْفِيَ صَاحِبُ الرِّثَامِ بَدَارٌ لِسَلَامٍ أَبُو نَصْرِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ حُمَيْلَةَ، وَرِثَاةُ ابْنِ الْفَضْلِ بِقَصِيدَةٍ مِنْهَا<sup>(5)</sup>: [الْخَفِيفُ]

(1) المَارِسْتَانُ الْعَضُدِيّ: مَسْتَشْفَى أَنْشَأَهَا عَضُدُ الدَّوْلَةِ الْبُؤَيْبِي فِي مَنطِقَةِ الشَّامِ سَهْلِي بَغْدَادَ، وَزَوَّدَهَا بِالْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِرِ، وَحَسِبَ عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ عَلَيْهَا الْأَطْيَاءَ وَالْمُسْتَعْمِدِينَ لِعِلَاجِ الْمَرَضَى وَالْعَنَايَةَ بِهِمْ.

(2) دِيْوَانُ صَرْدَر: 135، وَهِيَ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي رِثَاءِ أَبِي مَنْصُورِ بْنِ يَوْسُفَ وَيَعْزِي عَنْهُ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ رِضْوَانَ صَهْرِهِ.

(3) تَرَجَمْنَا لَهُ فِي صَفْحَةٍ سَابِقَةٍ.

(4) أَبُو جَعْفَرِ الطُّوسِيِّ: شَيْخُ الطَّائِفَةِ أَبُو جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِي الطُّوسِيِّ، فَقِيهٌ وَمُفَسِّرٌ وَمُصَنِّفٌ، وَلِدَ سَنَةَ 385 هـ، وَانْتَقَلَ مِنْ خِرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ سَنَةَ 408 هـ، وَأَقَامَ بِهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى النَجَفِ وَظَلَّ بِهَا حَتَّى وَفَاتَهُ سَنَةَ 460 هـ، أَحْرَقَ الْعَبَّاسِيُّونَ كِتَابَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ بِمَحْضَرٍ مِنَ النَّاسِ، لَهُ مَوْالِفَاتٌ كَثِيرَةٌ.

(5) دِيْوَانُ صَرْدَر 143، فِي رِثَاءِ ابْنِ حُمَيْلَةَ صَاحِبِ الدِّيْوَانِ.

إِنْ يَكُنْ لِلْحِيَاءِ مَاءٌ فَمَا كَا [م]      نَ لَهُ غَيْرَ ذَلِكَ الْوَجْهَ مُرْنَا  
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى حُسَامِ صَقِيلٍ      كَيْفَ أَضَحَتْ لَهُ الْجَنَادُ جَفْنَا  
 وَنَفِيسٍ مِنَ الدُّخَانِ لَمْ يُوْ [م]      مَنْ عَلَيْهِ فَاسْتَوْدِعَ الْأَرْضَ خَزْنَا  
 وَرُتَّبَ فِي دِيوَانِ الزَّمَامِ لِلنَّظَرِ وَالتَّدْبِيرِ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ فَخْرِ الدَّوْلَةِ بْنِ جَهْمِ بْنِ لُقْبَانَ عَمِيدَ  
 الرُّوَسَاءِ، وَاجْتَابَ خَلَعَ لِالْجَبْتَاءِ، وَمَدَحَهُ ابْنُ الْفَضْلِ بِقَصِيدِهِ الَّتِي أَوَّلَهَا<sup>(1)</sup>: [الرجز]

صَبَّحَهَا الدَّمْعُ وَمَسَّاهَا الْأَرْقُ      هَلْ بَيْنَ هَذَيْنِ بَقَاءٌ لِلْحَدَقِ  
 وَفِي ثَانِي عَشَرَ رَجَبٍ وَرَدَ إِلَى بَغْدَادَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْخَوَافِي عَمِيدًا، وَقَدِمَ بِخَوَافِي الْجَاهِ  
 وَقَوَادِمِهِ حَمِيدًا، وَعُزِّلَ الْوَزِيرُ فَخْرُ الدَّوْلَةِ ابْنُ جَهْمِ لَيْلَةَ الْمَهْرَجَانِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ بِالتَّوْقِيعِ  
 الْإِمَامِيِّ بِمَحْضَرٍ مِنْ قَاضِي الْقَضَاةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الدَّامَغَانِيِّ، وَنَزَلَ مِنْ بَابِ الْبُشْرَى عَادِمَ  
 الْبِشْرِ، وَقَدْ طَوَى جَاهُهُ بَعْدَ النَّشْرِ، وَالْعَامَّةُ تَبْكِي لِئُكَايِهِ، وَتَشْتَكِي لِاسْتِكَايِهِ، وَسَارَ إِلَى نَوْرِ  
 الدَّوْلَةِ دُبَيْسٍ وَهُوَ بِالْفَلُوجَةِ، وَبَيْتُهُ عَلَى طَرِيقِ زُورِ الكَعْبَةِ الْمَحْجُوجَةِ، فَأَوَاهُ وَأَكْرَمَ مَثَوَاهُ،  
 وَقَدْ كَانَتْ الْوِزَارَةُ تَقَرَّرَتْ لِأَبِي يَعْلَى وَالِدِ الْوَزِيرِ أَبِي شُجَاعٍ، وَهُوَ كَاتِبُ هَزَارَسَبِ بْنِ بَنْكِيَرٍ،  
 فَكُوِّتِبَ لِلزِّيَارَةِ، وَخُوِّطِبَ بِالْوِزَارَةِ، فَوَرَدَ الْخَيْرُ بِمَرْضِيهِ يَوْمَ صُرِفَ ابْنُ جَهْمِ، وَبُوفَاتِهِ يَوْمَ  
 وَصُولِهِ إِلَى الْفَلُوجَةِ كَمَا جَرَى بِهِ قَلَمُ التَّقْدِيرِ.

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِّينَ عَوَّلَ الْخَلِيفَةُ فِي الْوِزَارَةِ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ، فَتَارَ  
 الْعَوَامُّ وَقَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا مِنْ ظَلَمِهِ بُوْرُودِ الْجَحِيمِ، وَهُوَ الَّذِي أَتَى بِالْبَسَاسِيرِيِّ، وَأَعَانَ  
 أَحْدَاثَ اللَّيَالِي، وَقَالَتْ خَاتُونُ: هُوَ الَّذِي نَهَبَ مَالِي، فَبَطَّلَ حُكْمَهُ وَعَطَّلَ اسْمَهُ، وَأَنْسَى  
 وَنَسِيَ، وَأَرْجَى وَمَا رَجِي، وَصُرِفَ قَبْلَ التَّصْرِيفِ.

وَوَرَدَ إِلَى بَغْدَادَ أَبُو الْمَعَالِي أَخُو الْوَزِيرِ أَبِي الْعَلَاءِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَكَانَ عِنْدَ هَزَارَسَبِ  
 بَكْتَابَ شَفَاعَةَ سُلْطَانِيَّةٍ لِأَخِيهِ، فَمَا قُبِلَتْ الشَّفَاعَةُ فِيهِ، وَلَمْ يَزَلِ الْخَلِيفَةُ يَفْكَرُ فِي مَنْ يَسْتَوْرِزُهُ،  
 وَيَسْتَكْتِرُ مَنْصِبَهُ لِمَنْ يَسْتَنْزِرُهُ، وَيَجْلُ صَدْرُهُ إِلَّا عَنِ صَدْرِ جَلِيلٍ، وَيُؤَثِّرُ تَجْمِيلِ دَسْتِهِ بِمُجْمِلِ  
 جَمِيلٍ، فَلَمْ يَرْضَ مَنْ حَصَلَ وَلَا حَصَلَ عَلَى مَنْ يُرْضِيهِ، وَلَا مَضَى فِكْرُهُ إِلَى مَنْ يَنْفَعُ أَمْرَهُ  
 وَيُغْضِيهِ، حَتَّى كَاتَبَ نَوْرَ الدَّوْلَةِ الْخَلِيفَةَ فِي مَعْنَى ابْنِ جَهْمِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرُ وَزِيرٍ وَظَهِيرٍ.

## ذكر عود فخر الدولة ابن جهير إلى الوزارة

فَأَجَابَ الْخَلِيفَةُ إِلَى إِعَادَتِهِ إِلَى عَادَتِهِ، وَإِدَارَةَ فَلَكَ إِدَارَتِهِ بِزِيَادَتِهِ فِي سِيَادَتِهِ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي شَهْرِ صَفْرِ، وَجَلَسَ لَهُ فِي النَّجَاحِ، وَوَجَدَ أَمَلَهُ بِالنُّجُحِ مَفْتُوحَ الرَّجَاحِ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ الشَّمْلِ بَعْدَ شَتَاتِهِ، وَوَاصِلِ الْحَبْلِ بَعْدَ بَتَاتِهِ، وَفِي تِلْكَ النَّوْبَةِ مَدْحَهُ صَرْدُرُ بْنُ الْفَضْلِ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا<sup>(1)</sup>: [الرجز]

فَدَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نَصَابِهِ وَأَنْتَ مِنْ دُونِ الْوَرَى أَوْلَى بِهِ  
وَرَكَبَ هُوَ وَوَلَدَاهُ إِلَى النَّجْمِيِّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي مَوْكَبٍ فَاصٍّ بِيَحْرَهُ الْفَضَاءُ، وَضَاقَ عَنِ  
زَحْفِهِ الْقَضَاءُ، وَاجْتَازَ فِي جَمِيعِ مَحَالِّ الْجَنَابِ الْغَرْبِيِّ طَالِعِ السَّنَا، مُتَبَلِّجِ التَّبَاشِيرِ، وَنَثَرَ عَلَيْهِ  
أَهْلُ الْكَرْخِ أَكْيَاسَ الدَّرَاهِمِ وَالْدِنَانِيرِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ تَوْقِيعٌ مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ الْمُوَصَّلَايَا، وَتَسَنَّتْ إِلَيْهِ  
الْمَرَاتِبُ السَّنَايَا.

## ذكر حريق جامع دمشق

وَفِي النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ هَذِهِ السَّنَةِ احْتَرَقَ الْمَسْجِدُ الْجَامِعُ بِدِمَشْقَ، فَفُجِعَ الْإِسْلَامُ  
بِمَصَابِيهِ، وَصَلَّتِ النَّارُ فِي مِحْرَابِهِ، وَتَبَدَّلَتِ الصَّلَاةُ بِالصَّلَاةِ، وَوَقَعَ الْإِبْتِلَاءُ بِالْبِلَاءِ،  
وَتَسَلَّطَتِ الْجَحِيمُ عَلَى الْجَنَّةِ بِأَحْرَاقٍ مُتَعَبِّدٍ أَهْلِهَا، وَطَالَتِ النَّيْرَانُ عَلَى أَشْرَافِهَا وَأَطْرَافِهَا  
أَلْسِنَةً جَهْلِيهَا، وَاشْتَعَلَ رَأْسُ الْقَبَّةِ شَيْبًا بِمَا سَبَّتْ، وَأَكَلَتْ أُمَّ اللَّيَالِي مِنْهُ مَا رَبَّتْ، وَطَارَ  
النَّسْرُ بِجَنَاحِ الضَّرَامِ، وَكَادَ يَحْتَرِقُ عَلَيْهِ قَلْبُ أَخِيهِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَكَأَنَّ الْجَحِيمَ اسْتَجَارَتْ  
بِهِ فَتَمَسَّكَتْ بِذَيْلِهِ، أَوْ كَأَنَّ النَّهَارَ تَذَكَّرَ نَارًا عِنْدَهُ فَعَطَفَ عَلَى لَيْلِهِ، أَوْ كَأَنَّ لَيْلَتَهُ الْحُبْلَى  
بِأَجَنَّةٍ قَنَادِيلَهُ وَكَذَتْ نَيْرَانًا، بَلْ كَانَ الْجَائِرُونَ لِجَيْرُونِهِ جَيْرَانًا، فَدَارَتْ دَائِرَةُ سُوءِهِمْ عَلَيْهِ،  
وَطَارَ سَرَارُ شَرِّهِمْ إِلَيْهِ، وَعَبَّرَ (مَالِكُ) مِنْهُ بِدَارِ (رُضْوَانِ)، وَسَرَّتْ مِنْ أَرْوَقَتِهِ وَسَوَارِيهِ  
أَنْفَاسُ جُنَّانٍ فِي جِنَانٍ، فَوَاهَا لَهُ مِنْ جَامِعِ شَتِّ شَمْلُهُ، وَحَامِلِ خَفِّ حِمْلُهُ، وَمَسْجِدِ  
أَحْرَقَتُهُ أَنْفَاسُ السَّاجِدِينَ، وَعَلَقَتْ فِيهِ لَفْحَاتُ قُلُوبِ الْوَاجِدِينَ، وَقِيلَ أَصَابَتْ حُسْنَهُ  
الْعِيُونَ، وَآتَتْهُمْ بِذَلِكَ الْوَلَاةُ الْمَصْرِيُونَ، وَكَمَا مُنِعَ مَنِيرُهُ مِنْ بَرِّهِ وَمُنِيَا بِالْمَدْعُورَةِ إِلَى الدَّعْيِ  
احْتَرَقَ، وَحِينَ شَمَلَ لِحْيَتَهُ شَمَلَ حَقَّهُ الْبَاطِلُ الْبَاطِنِيُّ افْتَرَقَ، ثُمَّ تَدَارَكُهُ اللَّهُ بِالْإِلْطَافِ

(1) ديوان صردر 63، وهي في مدح الوزير ابن جهير وتمنته بعودته إلى الوزارة بعد أن عزل منها.

وَالِإِطْفَاءِ، وَأَعَادَ عِيُونَ تِلْكَ الشُّعَلِ إِلَى الْإِغْفَاءِ، وَأَتَاهُ بِالشِّفَاءِ بَعْدَ الْإِشْفَاءِ، وَقَالَ قَوْلُهُ:  
(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا <sup>(١)</sup>).

فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ أَقْبَلَ كَلْبُ الرُّومِ فِي جَمْعِهِ الْمَهُولِ، وَحَشِدِهِ الْمَهْزُولِ،  
وَجَيْشِهِ الْمَخْذُولِ، وَأَنْحَى عَلَى مَنْ يَمْنِجُ وَاجْتَا حَهَا، وَاسْتَنَاحَ مَيْتَهَا وَاسْتَبَاحَهَا، وَعَادَ إِلَى  
قُسْطَنْطِينِيَّةٍ وَقَدِ سَاءَتْ آثَارُهُ، وَالذِّينُ قَدْ ثَارَ ثَارُهُ، وَأَنَارَتْ لِإِبْصَارِ الْأَنْصَارِ نَارُهُ، وَفَنِيَتْ  
جُمُوعُ الرُّومِ فِي الرَّجُوعِ بِالْجُوعِ، وَأَدْبَرَ مَتَمَلِّكُهُمْ فِي زِيِّ الْمَهْزُومِ الْمَقْمُوعِ.

ذَكَرَ مَبْدَأَ تَصَدُّرِ عَمِيدِ الدَّوْلَةِ بْنِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ الْوَزِيرِ ابْنِ جَهْيَرٍ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ رَوَّجَ نِظَامَ الْمُلْكِ ابْتِنَهُ لِعَمِيدِ الدَّوْلَةِ أَبِي مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بْنِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ  
الْوَزِيرِ ابْنِ جَهْيَرٍ، وَصَارَ لَهُ بِمُصَاهَرَتِهِ خَيْرٌ ظَهِيرٌ، وَكَانَ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى السُّلْطَانِ  
بِالرِّيِّ فِي رِسَالَةٍ، فَتَلَقَّى بِكَرَامَةٍ وَجَلَالَةٍ، وَاسْتَمَرَّتْ لَهُ هَذِهِ الْمُصَاهَرَةُ، وَاسْتَبْتَبَتِ الْمُظَاهَرَةُ،  
وَعَادَ بِجَاهِ الْوَصْلَةِ النَّظَامِيَّةِ فِي نِظَامٍ مُتَّصِلٍ مُنْجِهٍ، وَحَظَّ نَابَهُ وَزِيٌّ مُشْتَهَى غَيْرِ مُشْتَبِهٍ.

وَوَصَلَ فِي رَجَبٍ فِي صُحْبَةِ رُسُلٍ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ، وَقَدِ كَانَ بَعَثَهُمُ إِلَى السُّلْطَانِ،  
وَصَمِنَ لَهُ إِقَامَةَ الْخُطْبَةِ بِمَكَّةَ (حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى)، وَخَلَعَ الْخَلِيفَةَ عَلَى عَمِيدِ الدَّوْلَةِ فِي بَيْتِ  
النُّوْبَةِ، فَزَفَلَ فِي مَلَابِسِ الْإِصْطِنَاعِ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ الْإِنْهَاءَ وَالْمُطَالَعَةَ وَمُرَاعَاةَ الْإِقْطَاعِ، وَقُرِئَ لَهُ  
تَوْقِيعٌ مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ الْمَوْصِلَايَا تَمَكَّنَ بِهِ مِنْ افْتِرَاعِ عِذْرَةِ الْإِرْتِفَاعِ، وَجَلَسَ بَارِعَ الطُّولِ طَوِيلُ  
الْبَاعِ، رَائِعَ الْمَضَاءِ مَاضِي الْيِرَاعِ، وَتَصَدَّرَ فِي الْوَسَادَةِ، وَتَصَدَّى لِلْسِّيَادَةِ، وَتَرَشَّحَ لِلزِّيَادَةِ،  
وَتَوَشَّحَ بِالسَّعَادَةِ، وَجَمَّلَ الدِّيوانَ، وَدَوَّنَ الْجَمِيلَ، وَكَمَّلَ الْحَوَاصِلَ، وَحَصَّلَ التَّكْمِيلَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تُوْفِيَ تَاجُ الْمُلُوكِ هَزَارَسَبُ بْنُ بَنْكَيْرِ بْنِ عِيَاضِ مُنْصَرِفًا عَنِ بَابِ السُّلْطَانِ  
أَلْبِ أَرْسَلَانَ، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ أَصْفَهَانَ عَلَى قَصْدِ خَوْزِسْتَانَ، وَكَانَ قَدْ عَلَا أَمْرُهُ وَعَرَّضَ جَاهُهُ،  
وَتَنَارَكَ عَنْ دَرَجَتِهِ أَشْبَاهُهُ، وَتَزَوَّجَ بِأَخْتِ السُّلْطَانِ، وَاسْتَظْهَرَ مِنْهُ بِالْمَكَانَةِ وَالْإِمْكَانِ، فَاقْتَضَاهُ  
الْأَجَلَ حَسَابَ عُمُرِهِ، وَعَلَّقَ بِبَابِ نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، وَفَارَقَ الدُّنْيَا بِالْأَمِّ أَمَلِهِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْآخِرَةِ بِعِلْمِ  
عَلِمِهِ. وَتَزَوَّجَ بَعْدَهُ مُسْلِمُ بْنُ قُرَيْشٍ بِأَخْتِ السُّلْطَانِ زَوْجَتَهُ وَتَدَرَّجَ إِلَى دَرَجَتِهِ.

وفي هذه السنة وَرَدَ وَلَدُ أَمِيرِ الْحَرَمَيْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي هَاشِمِ الْحَسَنِيِّ إِلَى بَغدَادَ عَلَى قَصْدِ الْوَفَادَةِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَكَتَبَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَ أَنْ شَرَّفَهُ وَرَفَعَهُ، وَعَادَ مِنَ الْمُعْسَكِرِ السُّلْطَانِيَّ عَلَى بَابِ أَمْدٍ، وَقَدْ اسْتَفَادَ مِنْهُ الْفَوَائِدَ وَإِفَادَةَ الْمَحَامِدِ.

### ذِكْرُ أَحْوَالِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ بَدِيَارِ بَكْرٍ وَالشَّامِ

وَلَمَّا تَوَجَّهَ أَلْبُ أَرْسَلَانَ إِلَى دِيَارِ بَكْرٍ خَرَجَ إِلَيْهِ نَصْرٌ مِنْ مَرَوَانَ بِالْمَرْوَةِ الْمُتَنَاصِرَةِ، وَالتَّكْرِمَةِ الظَّاهِرَةِ، وَتَلْقَاهُ فِي أَنْوَرِ رَفْعَةٍ وَأَرْفَعِ مَنَارٍ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، فَقَبِلَ إِحْسَانَهُ وَأَحْسَنَ قَبُولَهُ، وَسَأَلَ عَنْ قَضَايَاهُ وَقَضَى سُؤْلَهُ، وَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ قَدْ قَسَطَهُ عَلَى الْبِلَادِ فَأَمَرَ بِرَدِّهِ، وَعَفَى عَنْهُ، وَعَافَى وَبَيَّلَ وَرَدَّهُ، وَانْتَهَى إِلَى أَمْدٍ أَمْدٍ مِنْ قَصْدِهِ، فَوَجَدَ نَعْرَهَا مُمْتَنِعًا، وَسُورَهَا مُرْتَفِعًا، وَمَكَانَهَا مَكِينًا، وَحَصْنَهَا حَصِينًا، وَرُكْنَهَا شَدِيدًا، وَقَصْرَهَا مَشِيدًا، وَهُوَ فِي حِضَانَةِ الْحِصَانَةِ صَجِيعُ حِضْنٍ وَرَضِيعُ رُضْوَى، وَإِذَا غُضَّ مِنْهُ قِيلَ شُرَوَاهُ شُرورًا، فَمَسَحَ السُّلْطَانُ لِلتَّبَرُّكِ بِهِ يَدَهُ عَلَى سُورِهِ، وَأَمَرَهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَتَبَسَّمَ نَعْرَ نَعْرِهِ عَنْ ثَنَائِهَا الشَّنَاءِ عَلَى قَدْرِهِ، ثُمَّ تَوَجَّهَ مِنْهَا إِلَى الشَّامِ وَعَبَّرَ بِالرَّهَاءِ، وَتَعَدَّرَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا، فَحَلَّ بِحَلْبٍ وَشَرَعَ فِي حِصَارِهَا، وَأَحَاطَ بِأَسْوَارِهَا، وَصَاحِبُهَا حِينْتِذِ مَحْمُودِ بْنِ نَصْرِ بْنِ صَالِحِ بْنِ مِرْدَاسٍ، وَكَانَ قَدْ خَطَبَ تِلْكَ السَّنَةَ لِابْنِي الْعَبَّاسِ وَقَدْ وَجَدَ بِشَرِيفِ الْخَلِيفَةِ خُلْفَ شُرْفِهِ حَافِلًا، وَأَصْبَحَ فِي مَلَابِسِ الْجَلَالِ وَخَلَعَ الْجَمَالَ رَافِلًا، وَعِنْدَهُ مِنْ جَانِبِ الْخَلِيفَةِ نَقِيبُ النِّبَاءِ أَبُو الْفَوَارِسِ طَرَادُ بْنُ مُحَمَّدِ الزَّيْنِيِّ، وَقَدْ أَفَاضَ عَلَيْهِ الْخَلْعَ، وَخَلَعَ بِتِلْكَ الْخَلْعِ عَنْهُ بَرْدَ النَّزْوَعِ وَنَزَعَ، وَهُوَ عَلَى سُرِيرِ سُرُورِهِ، فِي حَبِيرِ حُبُورِهِ، وَمَوْسِمِ سُمُورِهِ، وَمَجْتَمِ نُمُورِهِ، وَقَدْ جَادَتْ بِسَحَابِهِ فِي السَّمَاحِ سَمَاءُ سِمَاطِهِ، وَفَرَشَ لِصَحَابِهِ الصُّبْحَ بِسَاطِ نَشَاطِهِ، وَالْوَطْرَ يَغْنُ، وَالْوَتْرَ يَزُنُ، وَالْوَطْنَ يَطْنُ، وَالْغَنَاءُ يَسْمَعُ، وَالْغَنَى يُطِمِعُ، وَالطَّرْبُ يَزِيهِ، وَالْبَطْرُ يُلْهِمِي، وَالْدُنْيَا تَدِينُ، وَالْعِلْيَاءُ تُعِينُ، وَالسَّعَادَةُ رَاجِحَةٌ، وَالْإِرَادَةُ نَاجِحَةٌ، وَهُوَ فِي غَفْلَةٍ مِنَ النُّوَابِ، وَغَفْوَةٍ مِنَ الشُّوَابِ، وَأَمَانٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَحَدِيثٍ يُذْهِلُ عَنِ الْحَدَثَانِ، وَغِرَّةٍ مِنَ الدَّهْرِ الْغَرَارِ، وَفِتْرَةٍ مِنَ رُسُلِ الْخَطْبِ الضَّرَارِ، فَلَمَّ يَشْعُرُ حَتَّى قَدَحَهُ الْأَمْرُ، وَلَقَحَهُ الْجَمْرُ، وَحَارَبَهُ الدَّهْرُ، وَقَارَبَهُ الْقَهْرُ، وَبَغَتَهُ الْحَصْرُ، وَمَقَّتَهُ النَّصْرُ، وَعَرَاهُ الْهَمُّ، وَعَنَاهُ الْمَلِمْ، وَضَايِقَهُ أَلْبُ أَرْسَلَانَ فِي بَلَدِهِ بَلْ دَهَاهُ، وَجَدَّ عَلَيْهِ بِلَهَامٍ عَنْ كُلِّ مَا أَلْهَى آلِهَاهُ، وَأَنَاحَ هُنَاكَ بِعَسْكَرِ جَرَّارٍ، وَجَلَبَ عَلَى (حَلَبَ) ذَا لَجَبٍ يَحْلَبُ لِلْبَاسِ دَارَ، وَأَخَذَ بِمِخْنَقِهِ، وَوَقَفَ عَلَى طُرْقِهِ، وَسَدَّ بِعَرَبِهِ عَلَى

أَفْقِهِ ضِيَاءَ مَشْرِقِهِ، وَخَرَجَ نَقِيبُ الثُّقْبَاءِ طَرَادًا إِلَى السُّلْطَانِ يَطْرُدُ سَرَحَ سُخْطِهِ عَنْ وَرْدِ رِضَاهِ، وَيُحْمِدُ لَفْحَ غَضَبِهِ الْمُتَوَقِّدِ فِي غَضَاهِ، وَيَتَطَفَّلُ عَلَيْهِ وَيَتَلَطَّفُ، وَيَسْتَعْظِمُ غَفْوَهُ وَيَسْتَعْطِفُ، وَيَجْتَلِي صَفْحَةَ صَفْحِهِ، وَيَسْتَطْلِعُ صُبْحَ صَلْحِهِ، وَيَجْتَهِدُ فِي تَسْكِينِ حِدَّتِهِ، وَتَلْيِينِ شِدَّتِهِ، وَتَعَرَّضَ بِمَحْمُودٍ وَتَشَفَّعَ فِيهِ، وَيَذَكُرُ مَا حَمَدَهُ مِنْ نُجْحِ مَسَاعِيهِ، وَيَقُولُ: هُوَ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِخُطْبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَدَعْوَتِهِ، وَيَبَشِّرُهُ وَخِلَعَتِهِ، وَيَسْأَلُ أَنْ ظَلَّ الْإِكْرَامِ عَنْهُ لَا يُقْلَصُ، وَأَنَّ الْإِنْعَامَ عَلَيْهِ لَا يُنْغَصُ، فَقَالَ: خُطْبَتُهُمْ أَيُّ شَيْءٍ يُسَاوِي؟ مَعَ مَا يَرَاهُ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاوِي، أَوْ مَا يُؤْذِنُونَ بِهِ (حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ)؟ أَوْ مَا يُؤْذِنُونَ بِشَرِّ الْعَمَلِ فِي أَسْبَابِ الزَّلْزَلِ، فَخُذْ فِي إِشْعَارِ مَحْمُودٍ بِأَنَّ شِعَارَهُ مَذْمُومٌ، فَأَنْتَهُ فَإِنَّهُ بِالْمَأْثُورِ مِنْ سُوءِ سَيْرَتِهِ مَأْثُومٌ، وَأَبَى الرِّضَا عَنْ مَحْمُودٍ إِلَّا بِدُوسٍ بِسَاطِهِ حَامِدًا وَرَاعِيًا وَلِعَفْوِهِ عَافِيًا، وَعَنْ طَاعَتِهِ وَضَرَاعَتِهِ مُتَقَاضِيًا، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِ وَلَمْ يَحْضُرْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاحْتَدَّ الْقِتَالُ وَاحْتَدَمَ النَّزَالُ، وَطَالَ الْحِصَارُ وَطَارَتِ الْأَحْجَارُ وَطَاشَتِ الْأَسْوَارُ وَوَمِيَّيَ الْبِلْدُ بِتَضْيِيفِ تَضْيِيفِهِ، وَعَزَّ مَنْجَى نَيْقِهِ مِنْ مَنْجِيفِهِ، وَوَقَعَ فِي فَرْسِ السُّلْطَانِ حَجْرٌ اسْتَشَاطَ مِنْ وَقِيهِ، وَخَافَ مَحْمُودٌ لَمَّا ضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ مِنْ اتْسَاعِ خَرَقِ يَعْجُزٍ مِنْ رَقِيهِ، فَخَرَجَ لَيْلًا إِلَى السُّلْطَانِ وَمَعَهُ وَالدُّهُ مَنِيْعَةٌ بِنْتُ وَثَابِ النَّعْمِرِيِّ يَضْرَعَانِ وَيَعْرِضَانِ الْإِسْتِكَانَ وَالْخُضُوعَ وَيَخْشِيَانِ وَيَخْتَشِعَانِ وَقَالَتْ لِلْسُّلْطَانِ: هَذَا وَلَدِي قَدْ جِئْتُكَ بِهِ فَافْعَلْ مَا تُحِبُّ وَقَدْ اعْتَرَفْنَا وَعَرَفْنَا إِنَّ سَلَامَتَنَا إِلَّا بِسَلْمِكَ لَا تَسْتَيْبُ، وَلَمَّا أَقْرَتِ الْعَجُوزُ بِعَجْزِهَا وَاسْتَحَلَّتْ مَقَرَّ ذُلِّهَا فِي مَقَرِّ عِزِّهَا، وَنَابَ سُفُورُ وَجْهَهَا عَنْ تَوَجُّهِهِ سَفِيرِهَا وَأَعْنَتِ بِتَفْرِهَا عَنِ الْإِقْدَامِ بِتَفِيرِهَا، وَبَرَزَتْ مِنْ خِدْرِهَا لَيْلًا لِثَلَاثِ تَبَارُزٍ خَادِرِهَا نَهَارًا وَبَاحَتْ بِسِرِّهَا سِرًّا لِثَلَاثِ تَبَاحٍ سِرَّاتِهَا جَهَارًا، وَرَمَتْ خِمَارَهَا، وَرَامَتْ لِذَمِّهَا ذِمَارَهَا، وَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَأَقْلَتِ حَصَاهَا، وَنَارَلَتْ بِرَجَائِهَا لَا بِرِجَالِهَا، وَبِأَقْبَالِهَا لَا بِأَقْبَالِهَا، وَقَاتَلَتْ بِصَلَاحِهَا لَا بِسَلَاحِهَا وَبِكَفِّهَا لَا بِكَفَاحِهَا، وَذَادَتْ عَنْ مَعْقِلِهَا بِعَقْلِهَا، وَسَدَّتْ إِلَى الْغَرَضِ نُبْلَهَا عَوْضَ نُبْلِهَا، وَنَزَلَتْ مِنْ سُؤْمٍ سُؤْمِيهَا لِقِوَامِ قَوْمِهَا، وَقَالَ السُّلْطَانُ: إِنَّهَا اسْتَنْقَذَتْ بِسَلَامِهَا سَلْمَهَا، وَأَنْقَذَتْ بِحِكْمَتِهَا حُكْمَهَا، وَمَا أَرَى مَبْرَّةَ مَبْرَّةٍ كَرَّمَ الْكَرَمِ بِشَعَّتْ مِنْ حُرْمَةِ الْحَرَمِ، وَقَدْ أَمْتَكْتُمْ بِحَلْبِ فِي أَمَنِ الْحَرَمِ، وَلَمَّا صَفَا صَفْحُ، وَحِينَ سَمَا سَمَحَ، وَحِينَ بَدَّ بَدَّلَ، وَحِينَ حَلَمَ حَمَلَ، وَأَعَادَ مَحْمُودٌ إِلَى مَكَانِهِ مَحْمُودَ الْمَكَانَةِ، وَقَدْ ارْتَفَعَ بِالتَّوَاضِعِ وَسَمَا بِالِاسْتِكَانَةِ، وَقُدَّامَهُ أُمُّهُ الْبِرَّةُ قَدْ أَمَّ بِرَّهَا، وَسَرَّ سِرَّهَا، وَاسْتَخْلَصَ الدُّوْلَةَ دُعَاهَا وَشُكْرَهَا، وَحَلَبَتْ حَلْبَ لَهَا دَرَّهَا، وَأَمْنَتْ الشُّبُهَاءَ، وَسَكَنَتْ الدَّهْمَاءَ.

ذَكَرَ خُرُوجَ مَلِكِ الرُّومِ وَكُسْرِهِ وَقُسْرِهِ وَأَسْرَهُ، وَخَاتِمَةَ عَسْرِهِ، وَعَاقِبَةَ خَسْرِهِ

وَبَلَغَ السُّلْطَانَ خُرُوجَ أَرْمَانُوسِ مُتَمَلِّكُ الرُّومِ فِي جَمْعٍ لَا يُحْصَى عَدْدَهُ، وَلَا يُحْصَرُ مَدَدَهُ، وَقَدْ اخْضَرَّتِ الْعَبْرَاءُ مِنْ حَدِيدِهِ، وَاعْبَرَتِ الْخُضْرَاءُ مِنْ عَدِيدِهِ، وَمَاجَتِ الْوَهَادُ بِأَكَامِهِ، وَهَاجَتِ الْأَسَادُ فِي آجَامِهِ، وَقَدْ سَدَّ فَيْلِقُهُ الْفَلَقُ، وَأَسْكَنَ قَلْبَ الدَّهْرِ مِنْ وَصُولِهِ إِلَى قَلْبِ قَلْبِ الْفَلَقِ، وَالْبُرُّ مِنْ مَوْجِ سَيْلِهِ بَحْرٍ، وَالْبَحْرُ مِنْ فَوْجِ خَيْلِهِ بَرٍّ، وَجَفَنُ الْبَيْضِ لِرِغَارِهِ حَانَ، وَحِبَابُ الْبَيْضِ عَلَى تِيَارِهِ طَافٍ، وَالسَّنَانُ لِسَانُهُ لِسَانُهُ ذَلْقٌ، وَالْعَمْدُ قَلْبُهُ فِي غَمْدِهِ قَلِقٌ، وَالنَّصْلُ مَاؤُهُ بِنَارِهِ مُحْتَرِقٌ، وَكُلُّ رُوحٍ لِفِرَاقِ جَسَدِهِ فِرْقٌ، وَقَدْ حَشَدَ وَحَشَرَ، وَجَسَرَ وَحَسَرَ، وَنَفَرَ النَّفْرَ، وَعَبَّرَ الْعَبْرَ، وَجَلَبَ اللَّجْبَ، وَسَحَبَ السُّحْبَ، وَجَرَّ الْمَجْرَ، وَحَجَبَ الْفَجْرَ، وَشَرِهَ وَشَهَرَ، وَاسْتَظَهَرَ وَظَهَرَ، وَسَارَ وَالرَّوَاسِي سَوَارٍ، وَزَنَدُ الْبَاسِ وَاِرٍ، وَالنَّهَارُ سُورٍ، وَالنَّجْوُ فِي عَوَارِضِ عَوَارٍ، وَبَوَارِقَ بَوَارٍ، وَمِعْصَمَ الْعِصْمَةِ لِلسُّوءِ بِلا سَوَارٍ، وَقَدْ ذُهِلَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ مِنْ إِسْلَامِهِمْ وَالْأَوْلَا بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى الْآلَمِهِمْ، وَلَمَّا أَتَى هَذَا الْخَبْرَ لِلسُّلْطَانِ أَغْذَّ السَّيْرَ إِلَى أَدْرِيَجَانَ إِذْ سَمِعَ أَنَّ مُتَمَلِّكَ الرُّومِ أَخَذَ عَلَى سَمْتِ بِلَاطٍ بِبِلَاطِهِ، وَاسْتَكْتَرَّ مِنْ أَصْنَافِ الْعَسْكَرِ وَأَخْلَاطِهِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ فِي خَوَاصِّ جُنْدِهِ، وَجُمْهُورِ جَمْعِهِ الْجَمِّ بَعِيدٌ مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمْ يَرِ أَنْ يَعُودَ إِلَى بِلَادِهِ لِيَجْمَعَ عَسَاكِرَهُ، وَيَسْتَدْعِيَ مِنَ الْجِهَاتِ قِبَائِلَ الدِّينِ وَعَشَائِرَهُ فَسَيَّرَ وَزَيَّرَهُ نِظَامَ الْمُلْكِ وَزَوْجَتَهُ خَاتُونَ إِلَى تَبْرِيزِ مَعَ أَثْقَالِهِ، وَيَقِي فِي خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفِ فَارِسٍ مِنْ نُحْبِ رِجَالِهِ، وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ فَرَسٌ يَرْكَبُهُ وَآخَرٌ يُجْنِبُهُ وَقَدْ وَضَحَ إِلَى النَّصْرِ الْمَذْهَبَ مَذْهَبَهُ، وَالرُّومَ فِي ثَلَاثِمِائَةِ أَلْفٍ وَيَزِيدُونَ، لَمْ يَرَوْا دُونَ مَا يُرِيدُونَ، مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ وَرَامِحٍ وَنَابِلٍ، وَقَاضٍ بِقَاضِبٍ، وَذَابٍ بِذَابِلٍ، وَمَا بَيْنَ رُومِيٍّ وَرُوسِيٍّ وَالْأَلْبِيَّ وَخَزْرِيٍّ وَعَزْرِيٍّ وَقَفْجَاقِيٍّ وَكَرْجِيٍّ وَأَبْخَازِيٍّ وَقَرَنْجِيٍّ وَأَرْمِيٍّ، وَفِيهِمْ خَمْسَةُ أَلْفِ جَرَخِيَّةٍ، وَاللُّوفُ مَنَاجِيْقِيَّةٌ، وَمَعَهُ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنْ مُقَدَّمِينَ وَدَوَاقِسَ وَبَطَارِقَةَ، وَقَدْ عَزَّ الْإِسْلَامُ مِنْهُمْ كُلِّ بِطَرِيقِ بَطَارِقَةٍ، وَرَأَى السُّلْطَانُ أَنَّهُ إِنْ تَمَهَّلَ لِحَشْدِ الْجُمُوعِ وَجَمْعِ الْمُحْشُودِ وَتَجْنِيدِ الْجِيُوشِ وَتَجْيِيشِ الْجُنُودِ ذَهَبَ الْوَقْتُ وَجَاءَ الْمَقْتُ، وَعَظُمَ بِلَاءُ الْبِلَادِ، وَثَقُلَتْ أَعْبَاءُ الْعِبَادِ، وَعَلَبَتْ الرُّومُ وَتَلَعَتْ الْمَرَامَ وَبَنَتْ الْكُفْرَ وَهَدَمَتْ الْإِسْلَامَ، فَرَكَبَ فِي نُخْبَتِهِ وَأَوْجُو عَصَبِيَّتِهِ وَحَمِيَّةِ حَامِيَّتِهِ، وَقَالَ: أَنَا أَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ نَفْسِي، وَإِنْ سَعِدْتُ بِالشَّهَادَةِ فَنَفِي حَوَاصِلِ الطَّيُورِ الْخُضْرِ وَمِنْ حَوَاصِلِ النُّسُورِ الْعُغْبَرِ رَمِيْسِي، وَإِنْ نُصِرْتُ فَمَا أَسْعِدْنِي! وَأَنَا أَمْسِي وَيَوْمِي خَيْرٌ مِنْ أَمْسِي، وَمَا يُظَاهِرُ هَذَا الدِّينَ إِلَّا مَنْ

يُظْفِرُهُ اللَّهُ وَيُظْهِرُهُ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، ثُمَّ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَعَزِّمْ وَجِزِّمْ، وَلَزَّ مَنْ مَعَهُ مِنَ  
الْأُمَرَاءِ مِمَّا ذَهَبَ مِنْ أَمْرِ الدَّهْمَاءِ وَالزِّمِّ، وَسَارُوا وَالْمَلَانِكَةُ لِمَلِكِهِ سَائِرُونَ، وَصَارَ إِلَى حَيْثُ  
أُولُو الْحِثِّ سَائِرُونَ، وَأَقْبَلَ وَالنَّصْرُ مُقْبَلٌ صُبْحُهُ، وَالنَّصْلُ مُتَقَدِّمٌ صَفْحُهُ، وَالْحَقُّ مُتْرَمِلٌ  
وَالْبَاطِلُ مُتْرَزِلٌ، وَقَدْ سَدَّ الْجَوَّ بِالسَّلَاحِبِ، وَجَرَّ ذَيْلَ الرَّوْعِ فَوْقَ الْغَوَارِبِ، وَأَنْهَضَ الرَّعْبَ  
قُدَّامَ جَحْفَلِهِ جَحْفَلًا، وَفَوْقَ وَشَرَعَ نَوَافِدَ وَلَهَادِمَ يَرُومُ بَيْنَ اللَّهَازِمِ وَالْجَوَانِحِ مَنَهَجًا وَمَنَهَلًا،  
وَقَدْ أَعْطَى الْمَنِيَّةَ نَفْسَهُ حَتَّى فَيَّتَتْ فِي عَزِّ الْجِهَادِ مَطَالِبَهَا، وَجَدَّتْ هِمَّتَهُ فَوَجَدَتْ فُرْصَةَ ظَفِيرٍ  
عَدِمَتْ عَنِ انْتِهَازِهَا مَارِبُهَا، وَطَارَ بِجَيْشِهِ كُلَّ طَيَّارِ الْعَنَانِ كَأَنَّهُ مِنْ طَوْلِ هَادِيهِ رَاكِبٌ لِرَاكِبِهِ فِي  
عَرْمَرَمٍ تَتَخَلَّلُ سَنَاخِيْبُ الذَّرَى مِنْ مُزَاحِمَةِ مَنَاقِبِهِ، ذِي مَضَاءٍ قَدْ أَعَدَّ لِلْكَفْرِ مَضَارِيهَ  
وَاقْتِضَاءَ بَدِينِ الدِّينِ قَدْ أَمِنَ مِنَ الْغَرَمِ مَطَالَ مَطَالِبِهِ، وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى الْيُسْرِ وَيَسْرِي، وَيَجْرُ إِلَى  
الْأَجْرِ وَيَجْرِي، وَيُجِيبُ الْمُسْتَدْعِيَ إِلَى النَّصْرِ، وَيُجِيرُ الْمُسْتَعْدِيَ مِنَ الْكُفْرِ، وَيَرْتَاخُ ظُبَاهُ إِلَى  
الْإِمْسَاءِ مِنْ دَمِ عِدَائِهِ فَهُوَ رَحِيقٌ، وَيَرْتَاخُ عِدَاؤُهُ مِنْ لَمْعِ بَرِيْقِ ظُبَاهُ فَهُوَ حَرِيْقٌ، وَيَتَرَاقِصُ سُمُرُهُ  
عَلَى إِيْمَانِ الْإِتْحَادِ لِاتِّحَادِ الْإِيْمَانِ، وَيَتَغَنَّى بِيضُهُ فِي هَامِ اللَّهَامِ لِلْحَيْنِ بِالْأَلْحَانِ، وَقَدْ  
خَرَجَتْ أَحْشَاءُ الْكِنَانِ مِنْ حَسْوِ سَهْمِهِ بَيْنَانَ الصَّغَانِ، وَأَخْرَجَتْ أَفْوَاهُ الْأَعْمَادِ أَلْسِنَةَ الْبُوحِ  
بِأَسْرَارِهَا الْكَوَامِينِ، وَالسَّاكِنَاتُ فِي الْقِرَابِ مُتَحَرِّكَاتٌ فِي الرِّقَابِ، وَالْمَرِيشَاتُ مِنَ النَّبَالِ  
مُتَبَدِّلَةٌ مِنْ أَوْكَارِ الْجِعَابِ، وَالْحَنَائِيَا تَرْنُ وَالْمَنَائِيَا تَتْنُ، وَالسَّوَابِغُ تُفَاضُ وَالسَّوَابِقُ تُرَاضُ،  
وَالْعِتَاقُ تُضَمَّرُ وَالرِّمَاقُ تُضْرَمُ، وَالْأَمْلُ يَقْوَى وَالْأَسْلُ يَقْوَمُ، وَالْأَجَلُ يُدْعَى وَالْوَجَلُ يُنْعَى،  
وَالسَّلْطَانُ سَائِرٌ بِهَذِهِ الْعَزِيمَةِ الْأَمَاضِيَةِ الْقَوِيَّةِ، وَالصَّرِيمَةُ الصَّارِمَةُ الرَّوِيَّةِ إِلَى حَيْثُ يُنْكِرُ  
السَّيْفُ جَفْنَهُ، وَيَعْرِفُ الْقَرْنُ قَرْنَهُ، وَيَخْفِرُ الذَّمْرُ ذِمَارَهُ، وَيَخْوُضُ ذُو الْعَمْرِ الْعَمْرَ غِمَارَهُ، بَلْ  
إِلَى حَيْثُ الْبَاسِلُ يَقْرَعُ الْبَاسِلَ وَالْعَاسِلُ يَقْرِي الْعَاسِلَ، وَالْحَيْلُ تُصَدِّمُ الْحَيْلَ، وَالنَّهَارُ يَصْدَعُ  
اللَّيْلَ، وَالْأَيْسَةُ تُصَرِّفُ الْأَعْيَةَ، وَالْأَعْيَةُ تُصَرِّفُ الْأَيْسَةَ، وَكَانَ مَتَمْلِكُ الرُّومِ قَدْ قَدَّمَ رُؤْسَاءَ  
مُقَدِّمِينَ مِنَ الرُّوسِ فِي دُرُوعِ الرُّوْعِ وَكَبُوسِ الْبُوسِ فِي عَشْرِينَ أَلْفِ فَارِسِ إِلْفِ فَرَسِ  
الْفَرَسَانِ وَشَجَّ الشَّجْعَانَ وَابْطَالَ الْأَبْطَالَ وَاسْتَزَارَةَ الْأَجَالَ وَاسْتَنَارَةَ الْأَوْجَالَ وَلِقَاءَ الرَّجَالَ  
وَشَقَّ الصَّفُوفِ وَدَقَّ الْأَلُوفِ وَحَطَمَ الْأَيْبِيَّ وَحَطَمَ الْخَطِيَّ، وَمَعَهُمْ عَظِيمُهُمُ الْأَصْلَبُ  
وَصَلِيهِمُ الْأَعْظَمُ وَمُقَدَّمُهُمُ الْمُقَدِّمُ، وَخَالَطُوا بِإِلَادَ خِلَاطَ بِالْبِلَاءِ وَالسَّلْبِ وَالسَّبَاءِ وَتَخَوِيضِ

دَامَاءِ الدَّمَاءِ، وَتَخْوِيفِ دَهْمَاءِ الْعَبْرَاءِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَسْكَرُ خِلَاطٍ<sup>(1)</sup> وَمُقَدَّمُهُ صَيْدَاقُ التَّرْكِيِّ، فَصَدَّقَ الْإِقْدَامَ وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ، وَزَلَزَلَ اللَّهُامَ وَأَزَلَّ الْهَامَ، وَصَبَّ صُبْحَ الْبَيْضِ عَلَى لَيْلِ النَّقْعِ الْمُظْلِمِ، وَخَاصَّ مُشْمَرًا إِلَى الْغَزِّ نَارَ الْحَرِيقِ الْمُتَضَرِّمِ، وَقَطَفَ رُؤُوسَ الرُّوسِ وَقَطَّهَا، وَحَطَمَ قُرُومَ الرُّومِ وَحَطَّهَا، وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَقَادَ قَائِدَهُمْ فِي الْقَيْدِ أَسِيفًا أَسِيرًا، فَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِجَدِّعِ أَنْفِهِ وَإِرْجَاءِ حَتْفِهِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ رَابِعِ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَقِيلَ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْهُ، وَعَجَّلَ إِنْفَاذَ الصَّلِيبِ الصَّلِيبِ إِلَى نِظَامِ الْمَلِكِ لِيَعَجَلَ إِنْفَاذَهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ مُبَشِّرًا بِسَلَامَةِ الْإِسْلَامِ، وَتَلَاخَقَ عَسْكَرُ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى خِلَاطٍ مُحَاصِرًا، وَأَهْلَهَا وَاتَّقُونَ بِاللَّهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِيَدِينِهِ نَاصِرًا، وَنَزَلَ مَتَمَلِّكُ الرُّومِ عَلَى مَنَاكَرِدٍ<sup>(2)</sup> فِي عَسَاكِرِهِ وَجِحَافِلِهِ وَظُبَاهُ وَذَوَابِلِهِ وَقَنَاهُ وَقَنَابِلِهِ وَقَوْمِهِ وَقَبَائِلِهِ وَقَارِسِهِ وَرَاجِلِهِ وَرَامِحِهِ وَنَابِلِهِ وَكُفَاهِ كُفْرِهِ وَشُرَكَاءِ شِرْكِهِ وَأَبْطَالِ بَاطِلِهِ وَأَنْصَارِ نَصْرَانِيَّتِهِ وَعُمَدَاءِ مَعْمُودِيَّتِهِ وَأَمْلِيَاءِ مِلَّتِهِ وَعُصَبِيَّةِ عَصَبِيَّتِهِ، وَأَزَعَجَ سُكَّانَهَا وَزَعَزَعَ أَرْكَانَهَا وَجَلَّ خَطْبُهَا وَذَلَّ حَرِيمُهَا وَحَزَنَ أَهْلُهَا وَأَحْزَنَ سَهْلُهَا، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُمْ بِمَا نَزَلَ بِهِمْ طَاقَةٌ، وَأَنَّ دِمَاءَهُمْ لَا شَكَّ بِسَيُوفِ الْكُفْرِ مُرَاقَةٌ، فَخَرَجُوا بِأَمَانٍ وَإِذْعَانٍ فِي هَوَانٍ، وَسَلَّمُوا الْبَلَدَ لِيَسَلَمُوا وَتَبَدَّوْا الْعِصْمَةَ لِيُعْصَمُوا، فَبَيَّتَهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عِنْدَ بِلَاطِهِ تَحْتَ احْتِيَاطِهِ، فَلَمَّا بَكَرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ سَبَّوْهُمَ بِأَسْرِهِمْ فِي أَسْرِهِمْ، وَرَدَّ فِيهِمْ بِعَسْكَرٍ مَجْرٍ وَخَرَجَ يَشِيعُهُمْ بِنَفْسِهِ وَهُوَ فِي حُمَاتِهِ وَحُمْسِهِ، وَوَافَقَ ذَلِكَ وَصُولَ الْعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ وَإِرْسَالَ الْجَمْعِ الْأَلْبِ أَرْسِلَانِي، وَوَقَعَتِ الْعَيْنُ فِي الْعَيْنِ، وَاجْتَمَعَتِ عَلَى الْمُجَالِدَةِ أَجَادُلُ الْجَمْعَيْنِ، وَجَرِي الْخَيْلِ وَجَرَفُ السَّيْلِ، وَدَخَلَ عَلَى النَّهَارِ اللَّيْلُ، وَأَنْجَرَ عَلَى السَّمَاءِ مِنَ الْأَرْضِ الدَّيْلُ، فَلِغَلِيلِ الْكُمَاةِ بِالنَّقْعِ نَقْعٌ، وَلِحُدُودِ الْبَيْضِ عَلَى الْبَيْضِ وَقَعٌ، وَصَحَّتْ عَلَى الرُّومِ كَسْرَةٌ أَرْدَتْهُمْ وَرَدَّتْهُمْ وَصَدَّقَتْهُمْ وَصَدَّتْهُمْ، فَانْكَشَفُوا إِلَى مَجْثِمِهِمْ فِي مُخَيِّمِهِمْ وَأَبْلَسُوا بِمَا تَمَّ مِنْ عُرْسِ الْإِسْلَامِ بِمَا تَوَجَّهَتْ، وَشَرَعَ الْمَنَازِكُ رِدِيَّةً يَتَسَلَّلُونَ وَعَنْ فَلْهِمْ يَتَفَلَّلُونَ، فَقَتِلَ مِنَ الرُّومِ مِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَهُ أَجَلُهُ وَنَجَا الْبَاقُونَ، وَعَرَفَ الرُّومُ أَنَّهُمْ لِلْمَوْتِ مُلَاقُونَ، وَتَرَكَ الرُّومَ طَرِيقَهُمَ الْمَرُومَ لِطَارِقِ التُّرْكِ، وَأَيَقِنُوا أَنَّهُمْ إِنْ تَفَرَّقُوا تَجَمَّعَتِ عَلَيْهِمْ أَسْبَابُ الْهَلْكَ، وَعَادَ مَتَمَلِّكُهُمْ إِلَى مَضَارِبِهِ وَالْمَضَارِّ بِهُ مُحِيطَةٌ، وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ

(1) خِلَاط: قال ياقوت: قصبه في أرمينية الوسطى كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة شديدة البرد في الشتاء، وفيها بحيرة ليس لها نظير في الدنيا يجلب منها السمك المعروف بالطرخين إلى سائر البلاد.

(2) منازكرد: قال ياقوت: بلد مشهور بين خِلَاط وبلاد الروم بعد أرمينية وأهله من الروم، والنسبة إليه منازكي.

وَالْكُوسَاتُ تَصْرُخُ وَالْبُوقَاتُ تَنْفُخُ، وَالْجَرُوحُ يَنْعَرُ وَالْجَوُّ يَسْعَرُ، وَصَوْتُ الْمَوْتِ صَهْصَلَقُ، وَعَنَانُ الْعِنَادِ مُنْطَلِقُ، وَكِسَانُ السَّنَانِ ذَلِيقُ، وَلَمَّا أَصْبَحُوا بُكْرَةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ وَصَلَ السُّلْطَانُ أَلْبَ أَرْسِلَانَ وَتَزَلَّ عَلَى النَّهْرِ فِي دُهِمٍ كَالدَّهْرِ وَمَعَهُ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ الْأَتْرَاكِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ لَا يَعْرِفُونَ سِوَى الْفَتَكِ وَالْقَهْرِ، وَكَلَبُ الرُّومِ نَازِلٌ بَيْنَ خِلَاطٍ وَمَنَازِكُرْدٍ فِي مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِالزَّهْرَةِ، وَهُوَ فِي مِائَةِ أَلْفِ فَارِسٍ مِنْ ذَوِي الْقُلُوبِ الْمُدْلَهَمَّةِ وَالْوَجُوهِ الْمَكْفَهْرَةِ، وَيَبِينُ الْعَسْكَرِينَ فَرَسَخٌ<sup>(1)</sup>، وَيَبِينُ التَّوْحِيدَ وَالصَّلِيبَ بَرَزَخٌ، وَالظَّلَامُ لِلنُّورِ مُقَابِلٌ، وَالْإِسْلَامُ لِلْكَفْرِ مُقَابِلٌ، وَعَلَى الْأَعْدَاءِ ظِلَالُ الضَّلَالِ مَسْدُولَةٌ، وَلِلْأَوْلِيَاءِ مَرَاشِفُ الْمَرَاشِدِ مَعْسُولَةٌ، وَتَمَّ قَدْ اسْتَشَاطَ الشَّيْطَانُ وَهَاهُنَا قَدْ تَسَلَّطَ السُّلْطَانُ، فَأَرْسَلَ أَلْبَ أَرْسِلَانَ رَسُولًا وَسُؤْلًا وَمَقْصُودًا أَنْ يَكْشِفَ سِرَّهُمْ وَيَتَعَرَّفَ أَمْرَهُمْ وَيُظَهِّرَ لَهُ بَاطِنَهُمْ وَيَصْحَحَ كَامِنَهُمْ، وَيَقُولُ لِمَلِكِ الرُّومِ إِنْ كُنْتَ تَرَعَّبُ فِي هَدَنَةِ أَمْتَمْنَاهَا، وَإِنْ كُنْتَ تَزْهَدُ فِيهَا تَوَكَّلْنَا فِي الْعَزْمَةِ عَلَى اللَّهِ وَصَمَمْنَاهَا، فَظَنَّ الرَّومِيُّ أَنَّهُ إِنَّمَا رَاسَلَهُ عَنِ خَوْرٍ، وَأَنَّهُ مِنْ خُطْبَتِهِ عَلَى خَطَرٍ، فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَتَبَا وَتَعَسَّرَ، وَانْتَهَى عَنِ النَّهْيِ إِلَى غَايَةِ الْغَيِّ، وَأَجَابَ بِأَنِّي سَوْفَ أُجِيبُ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ بِالرَّيِّ، فَغَاطَ السُّلْطَانُ لَوْثَ سَيْفِ الْإِمْرَاءِ سَلَّتَهُ الْمُرَاسَلَةَ، وَارْتَفَعَتْ بَيْنَهُمَا الْمُخَاطَبَةُ وَانْقَطَعَتْ الْمُواصَلَةُ، وَلِثَبُّوا يَوْمَ الْخَمِيسِ وَالْخَمِيسَانَ يُعَيِّنَانِ، وَلِدَاعِي الْمَوْتِ يُلَيِّبَانِ، وَالْمَنُونُ تَدْعُو وَتُجِيبُ، وَالظَّنُونُ تُحْطِي وَتُصِيبُ، وَالنَّهُولُ شَدِيدٌ وَالشَّدَّةُ هَائِلَةٌ، وَالصَّوْلُ مَخَوْفٌ وَالْمَخَافَةُ صَائِلَةٌ، وَالشَّمْسُ تُشْكُو حَرَّ مَا تَصَاعَدُ إِلَيْهَا مِنْ زَفَرَاتِ الْأَحْقَادِ، وَكَأَنَّمَا شِعَاعُهَا دَمٌّ أَرَاقَتَهُ عَلَى الْآفَاقِ حَرَاتُ تِلْكَ الصَّعَادِ، وَالخَيْلُ خَارِجَةٌ مِنْ رَهْجِ الْقِيَامِ خُرُوجَ أَسْيَافِهَا مِنَ الْأَعْمَادِ، وَالطَّلَانِجُ عَلَى الْمَطَالِحِ وَلَا عَوَاقِقَ مِنَ الْوَقَائِعِ، وَالسَّرَايَا عَلَى الْمَتَايَا، وَلَا أَمَانَ مِنَ الْمَتَايَا، وَالْيَزِينَةَ مَعَ التَّرْكِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ الْمُتَمَارِيَّةِ مِتْرَامِيَّةٍ إِلَى مُوَافَقَةِ التَّرْكِيَّةِ الزَكِيَّةِ، وَالْعَزْمُ السُّلْطَانِيَّ إِلَى اللَّقَاءِ مُشْرَبٌ وَلِلْمَضَاءِ مُسْتَبَبٌ، وَلِلْهَيْجَاءِ هَائِجٌ، وَلِنَارِ الْحَرْبِ مَارِجٌ فَائِجٌ، فَقَالَ لَهُ فَقِيهُهُ وَإِمَامُهُ أَبُو نَصْرِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْبَخَارِيُّ الْحَنْفِيُّ إِنَّكَ تُقَاتِلُ عَنْ دِينِ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ إِظْهَارَهُ عَلَى الْأَدْيَانِ، وَبِالْإِعَانَةِ وَالنُّصْرَةِ لِأَنْصَارِهِ وَالْأَعْوَانِ، فَالْقَهْمُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الزَّوَالِ وَالنَّاسُ يَدْعُونَ لَكَ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ غَدًا يَوْمَ يَلْحَقُ فِيهِ أَعْدَاءُ اللَّهِ بِأَمْسٍ

(1) الفرسخ: قال ياقوت: الفرسخ: فارسي معرب وأصله فرسك، وقال آخرون: بل هو عربي محض، يقال: انتظرتك فرسخا من النهار، أي طويلا، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون أصبعا. وقال قوم: الفرسخ سبعة آلاف خطوة.

الغابر، وَلَمَّا أَصْبَحُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ارْتَجَّتِ الْأَرْضُ بِالضَّجَاجِ، وَأُرْتَجَّتِ السَّمَاءُ بِالْعَجَاجِ، وَقَامَتِ الدُّنْيَا عَلَى سَاقٍ، وَمِنْ كُلِّ رُومِيٍّ وَهِنْدِيٍّ شَارِبٍ لِكَأْسِ الْمَوْتِ وَسَاقٍ، وَمَا لِلْأَسْوَدِ مِنْ سَمِّ أَسْوَدِ السَّمِّ رَاقٍ، وَكُلُّ بَاسِلٍ لِبَاسِ الْمَشْحُونِ الْمُتَأَقِّقِ الشَّحْنَاءِ مُتَأَقِّقٍ، وَقَدْ لَفَحَتْ الْحَرْبُ الْعَوَانُ بِالْمُهَنْدَةِ الذَّكُورِ وَالْمُسُومَةِ الْفُحُولِ، وَأَنَّ أَنْ يَنْشَأَ سَحَابٌ مِنَ الدَّمَاءِ يَكْشِفُ مَا طَلَّ بِالْقَسَاطِلِ مِنَ الْمُحُولِ، وَالْكُمَاءِ الْحُمَاءِ يَحْمُونَ حِمَى الْجَمَامِ وَيَحْوُمُونَ حَوْلَ الذَّحُولِ، بَدُورًا عَلَى أَهْلَةٍ مِنَ الضُّمَرِ الدَّفَاقِ شَابَهَتْ ذَوَابِلَهَا فِي النُّحُولِ، فَشَمْسُ الْأَفْقِ طَالِعَةٌ مِنَ الْقَتَمِ، وَشَمْسُ الْبَيْضِ غَارِبَةٌ فِي الْقِمَمِ، وَأَسَادُ الْوَعَى مِنَ الْوَشِيحِ فِي الْأَجَمِ، وَالصَّلَادِمِ فِي صِلَاءِ الدَّمِ، وَالضَّرَاغِمِ فِي ضِرَاءِ الضَّرَمِ، وَالْجِلَادُ بِرَقَمِ جِلْدِ الْأَرْقَمِ، وَقَدْ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَقَرَعَتِ الْقَارِعَةُ، وَاعْتَنَقَتِ الطَّوَامِي الْمَوَاضِي، وَاعْتَلَقَتِ الْقَوَاضِبُ الْقَوَاضِي، فَالْشُيُوفُ عَمَائِمُ وَالنَّقْعُ عَارِضٌ مُتْرَاكِمِ، وَالسَّهَامُ مُوجِهَاتٌ وَالْوُجُوهُ سَوَاهِمِ، وَأَنْفُ الْكُفْرِ رَاغِمِ، وَرُزْعِيمُ الدِّينِ غَارِمِ، وَالْقَسَاوِرُ يَرْجُوهَا الْقَشَاعِمِ، وَالْبَوَائِرُ تَشْكُوهَا الْجَمَاجِمِ، وَالرُّومُ قَدْ سَدَّتِ الْأَفَاقَ فَيَالِقُهَا، وَشَدَّتِ بَطَارِقَاتِ الشَّدَائِدِ بَطَارِقُهَا، وَالْأَهْوَاءُ قَدْ نَبَهَتْ كُلَّ نَائِمِ، وَالْأَهْوَالُ قَدْ أَعْدَدَتْ كُلَّ قَائِمِ، وَالْأَزْحَامُ جَنَّبَتْ كُلَّ سَائِلِ، وَالْإِقْتِحَامُ جَبَّنَ كُلَّ بَائِلِ، وَكَأَنَّ الصُّفُوفَ سَوَامِي جِبَالِ شَوَامِخِ، وَكَأَنَّ لِلصُّفُوفِ رَوَاسِي هَضَابِ رَوَاسِخِ، وَالْمُصْطَفُونَ مِنَ التُّرُكِ مُصْطَفُونَ، وَالْمُتَلِفُونَ لِلرُّومِ مُتَلِفُونَ، مِنْ كُلِّ دَفَاعٍ فِي نُحُورِ الْعِظَامِ، هَتَاكِ صُدُورِ الْجَحْفَلِ الْمَلَاجِمِ، لَمَاعَ فِي دَيْمِ الدَّمَاءِ بِيْرِوقِ الصُّوَارِمِ، فَتَاحَ لِلْمَعَالِقِ قِتَالَ بِالضَّرَاغِمِ، وَوَقَعَتِ الطَّوَالِعُ فِي الطَّوَالِعِ، وَقَرَعَتِ الْقَوَاطِعُ بِالْقَوَاطِعِ، وَارْتَدَعَتِ الْفَرَايِصُ وَارْتَدَعَتِ الْعِنَايِصُ، وَالتَّبَسَّتِ الْفَوَارِسُ وَاسْتَبَشَّرَتِ الْأَحَامِسُ بِالخَيْلِ الْعَوَابِسِ، وَغَنَّتِ الطُّبَا وَرَقَصَتِ الْمُرَّانُ، وَمَالَ الْقَنَا وَجَالَ الْغُرَّانُ، وَدَارَتِ الرُّوُوسُ وَطَارَتِ الرُّوُوسُ، وَحَوَمَتِ الْأَجْمَاجِمُ مِنَ وَقَعِ الضَّرْبِ فَوْقَ النَّسُورِ الْحُومِ، وَعَوَّجَتِ الصُّفُوفُ الْمُقَوَّمَةُ مِنْ طَعْنِ الْأَسَلِ الْمُقَوَّمِ، وَمَا فَيَّتَتِ الْفَتَيَانُ تَجُورُ وَتَجُولُ، وَالْخِرْصَانُ تَصُوبُ وَتَصُورُ، وَالْأَرْوَاحُ لَا يَتْرُكُ الْلِهَادِمُ لَهَا ذِمَاءً، وَالْأَرْمَاحُ بِنُجُومِ الْأَيْسَةِ تَبْنِي مِنَ مَنَارِ الْأَرْضِ سَمَاءً، إِلَى أَنْ دَنَا وَقَتُ الزُّوَالِ، وَدَانَ لِمِقَةِ الدِّينِ مَقَتُ الزُّوَالِ، وَصَدَحَتِ أَعْوَادُ الْمَنَابِرِ لِلخَطْبَاءِ، وَصَدَقَتِ نِيَاتُ أَهْلِ الْجُمُعَةِ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي إِخْلَاصِ الدُّعَاءِ، وَسَمِعَ مِنْ كُلِّ مَنْبَرٍ اللُّهُمَّ انصُرْ جِيُوشَ الْمُسْلِمِينَ وَسَرَايَاهُمْ، وَاعْفِرْ ذُنُوبَهُمْ وَتَجَاوَزْ عَنْ خَطَايَاهُمْ، فَتَزَلَّ أَلْبُ أَرْسَلَانَ عَنْ فَرَسِهِ وَشَدَّ لِلْحَزْمِ حِزَامَهُ، وَأَحْكَمَ سَرَجَهُ وَلِجَامَهُ، ثُمَّ رَكَبَ جَوَادَهُ وَتَبَّتْ فَوَادَهُ، وَسَوَى قَلْبَهُ وَقَوَى قَلْبَهُ، وَفَرَّقَ أَصْحَابَهُ

أربع فِرْقٍ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ فِي كَمِينٍ، وَرَاحَ لَهُ مِنَ الرُّوحِ الْأَمِينِ خَيْرٌ أَمِينٍ، وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْكَمِينَ مَكِينٌ، وَأَنَّ الضَّمِيرَ بِمَا يَشْهَدُهُ مِنَ النَّصْرِ شَاهِدٌ ضَمِينٌ، تَلَقَّى بِوَجْهِهِ الْخُرَّ حَرَّ الْحَرْبِ، وَاسْتَحْلَى طَعْمَ الطَّعْنِ وَضَرْبَ الضَّرْبِ، وَالرُّومُ فِي غِرَّةٍ مِنْ عَشْرَاتِهَا وَاعْتَرَا بِكثْرَتِهَا وَإِعْجَابِ بَعْدِهَا وَإِعْجَازِ بَعْدِهَا، فَأَمَاجِهَا مُتَلَاطِمَةٌ وَأَفْوَاجُهَا مُتَلَاحِمَةٌ، وَجُيُوشُهَا جَامِعَةٌ وَجُمُوعُهَا جَائِشَةٌ، وَسِهَامُهَا طَائِرَةٌ وَأَحْلَامُهَا طَائِشَةٌ، وَحَمَلُ مُتَمَلِّكِ الرُّومِ بِجَمْعِهِ، وَأَخَذَ بَبَصْرِ الدَّهْرِ وَسَمِعِهِ، وَالْمَوْتُ نَبَعٌ مِنْ غَرْبِ غَرْبِهِ وَتَبِعَهُ، وَقَالَتْ الْأَمْنَايَا قَدْ أَنَّ أَنْ نَقَعَ فِي نَقْعِهِ، فَنَقَاعَهُ تَهَامٌ بِهَمَّةٍ فِي فِقْعِهِ، وَأَقْبَلَ كَالسَّيْلِ يَطْلُبُ الْقَرَارَ، وَكَاللَّيْلِ يَسْلُبُ النَّهَارَ فِي شَوَارِبِ شَوَارِبِ مِنْ وَرْدِ الْوَرِيدِ وَسَوَابِقِ سَوَابِحِ فِي بَحْرِ الْحَدِيدِ، وَصَوَارِمَ صَوَادٍ إِلَى انْتِجَاعِ النَّجِيعِ، وَفِرْقٍ مُجْتَمِعَةٍ لِتَفْرِيقِ الْجَمْعِ، وَصِحَافٍ صِفَاحِ بَطْلَاءِ الطَّلَا مُتْرَعَةً، وَمُشِيحِينَ شِحَاحِ بِالْعِزِّ يَبْدُلُ مُهْجَهَا مُبْرَعَةً، وَبَنَّتْ لَهَا حَيْلَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ وَبَّتْ وَجَالَتْ وَمَا وَجَلَتْ وَانْتَسَبَتْ وَانْتَسَبَتْ وَطَارَتْ الدَّمَاءُ مِنَ الْعُرُوقِ لَمَّا رَغِبَتْ وَطَارَتْ مِنْهَا السَّهَامُ وَمَا تَخَضَّبَتْ وَاسْتَجَرَّتِ الرُّومُ إِلَى أَنْ صَارَ الْكَمِينُ مِنْ وَرَائِهَا، وَوَقَفَتْ الْمَنُونُ بِإِزَائِهَا، ثُمَّ خَرَجَ الْكَمِينُ مِنْ خَلْفِهَا وَدَوَّرَ الْإِقْدَامَ مِنْ قُدَامِهَا، وَوَقَعَتْ نَارُ الْبَيْضِ فِي حَلْفَاءِ هَامِهَا، وَأَذْنَتْ بِانْهِزَامِهَا، وَانْكَسَرَتْ كَسْرَةَ لَمْ تَقْبَلْ جَبْرًا، فَطَائِفَةٌ لَمْ تَثْبِتْ لِلْقِتَالِ وَلَمْ تَصْبِرْ، وَطَائِفَةٌ ثَبَّتَتْ فَتَقَبَّلَتْ صَبْرًا، وَعَرَفَتْ ذَلِكَ الْحَيَاةَ فِي الْفِرَارِ فَفَرَّتْ إِلَى عِزِّ الْقَتْلِ وَأَذْهَبَتْ نَارَ الضَّرْبِ مِنَ الطَّبِي مَاءِ الصَّقْلِ وَحَمَلَتْ خِيفَةَ السِّيَوفِ ظَهْرَهَا عَيْنًا تَقِيلًا، وَمَرَّتِ التَّرْكَ فَتَرَكَتْ بِكُلِّ مَرْتٍ مِنْ جُثَثِ الْقَتْلِ كَثِيرًا جَمِيلًا، وَخَرَجَتْ الْفَوَارِسُ وَالصَّوَاهِلُ فَمَا عَاوَدَتْ نُطْقًا وَلَا صَهِيلًا، فَمَا نَجَتْ مِنْ تَلْكَ الْأَلُوفِ أَحَادٍ، وَلَا سَلِمَتْ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ أَعْدَادٌ، وَمُلِكُ الْمَلِكِ وَقَعْدَ وَقِيدَا، وَأَسِيرٌ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ مُعِينًا وَلَا مُعِيدًا، وَحَقَّ الظُّفْرُ وَظَفَرَ الْحَقُّ، وَأَفَاقَ النُّورُ وَأَنَارَ الْأَفُقُ، وَلَمَّا نَصَرَ السُّلْطَانُ أَسْلَاهُ الْعِزُّ عَنِ الْأَسْلَابِ، وَأَبَاحَ لِلْغَائِمِينَ الْعِنَانِمَ لِسِفَاكِ جَلِّ عَنِ الْأَصْرَابِ، وَاتَّحَدَ يَوْمَهُ فَيَوْمَ النَّدَى وَيَوْمَ الضَّرْبِ، وَرَكَبَ الْمُسْلِمُونَ أَكْتَانَهُمْ، وَقَتَلَ الْأَحَادُ الْأَفْهَمَ، وَطَهَرَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَثِيهِمْ وَفَرَشَتْ بِجَثِيهِمْ، وَصَارَتِ الْوَهَادُ بِأَسْلَاءِ الْقَتْلِ أَكْمَاءَ، وَالْمُرُوثُ مِنْ قَصْدِ الْقَنَا أَجْمَاءَ، فَهَرَّ الدَّمُ طَافِيفًا، وَصَفَحَ النَّصْلُ لِلنَّصْرِ مُصَافِحًا، وَكُلُّ سَابِحٍ سَابٍ، وَكُلُّ عَامِلٍ لِخِرَاجِ الْأَرْوَاحِ جَابٍ، وَكُلُّ صَابٍ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِي مُصَابٍ، وَامْتَلَأَتْ أَيْدِي الْغَائِمِينَ مِنْ الْغِنَى، وَتَلَعُوا مِنْ مَنَايَا أَعْدَائِهِمُ الْمُنَى، وَانْفَصَلَ عَدُوُّ الْعِدَى بِالرَّفُولِ فِي أَرْضِيَّةِ الرَّدَى، وَاتَّصَلَ هَدْيُ الْهُدَى بِحَفُولِ أُنْدِيَّةِ النَّدَى، وَانْكَشَفَتِ الْغِيَايَةُ وَانْكَسَفَتِ الْغَوَايَةُ، وَكَانَ حَفْتُ الرُّومِ

فَتَحَا مَرُومًا، وَأَسْرُ عَظِيمِهِمْ سُرُورًا عَظِيمًا، وَيَوْمَ كَسَرِهِمْ جَبْرًا لِلْأَيَّامِ، وَإِسْلَامَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ أَيْدًا لِلْإِسْلَامِ، وَسَاعَةٌ عَزَّهِمْ عَزًّا إِلَى السَّاعَةِ، وَعُدَّتْ الْجُمُعَةُ عِيدًا لِلْجَمَاعَةِ، وَكَانَتْ مَعَ الرُّومِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ عَجَلِيَّةٍ تَنْقُلُ الْأَحْمَالَ وَتَحْمَلُ الْأَثْقَالَ، وَمِنْ الْمَنْجَنِيقاتِ الَّتِي تَحْمِلُهَا مَنْجَنِيقٌ هُوَ أَعْظَمُهَا وَأَثْقَلُهَا، لَهُ ثَمَانِيَةُ أَسْهُمٍ وَيَمُدُّ فِيهَا أَلْفٌ وَمِائَتَانِ رَجُلٌ وَيَحْمِلُهُ مِائَةٌ عِجَلٍ، يَرْمِي حَجْرًا وَزَنَّهُ بِالرَّطْلِ الْكَبِيرِ الْخِلَاطِيِّ فِنْطَارٌ، وَكَانَتْ جَبَلٌ لَهُ فِي الْجَوْ مَطَارٌ، وَمَا لِأَحْجَارِ الْأَسْوَارِ مِنْ سَوْرَةٍ ذَلِكَ الْحَجَرِ أَمَانٌ، وَكَانَتْما عَلَيْهِ فِي طَمِّ الْوَهَادِ وَهَذَا الْأَطْمِ ضَمَانٌ، وَشَمَلَهُمْ بِأَسْرِهِمُ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ وَضَاعَفَ لِصِحَّةِ الْإِسْلَامِ ذَلِكَ الضَّعْفُ وَالْكَسْرُ، وَيَقِيَّتْ أَمْوَالُهُم بِالْعَرَاءِ مَنبُودَةٌ لَا تُرَامُ وَمَعْرُوضَةٌ لَا تُسَامُ، وَقَدْ حَمَلَ الْعَسْكَرُ مِنْهَا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ وَتَخَلَّوْا عَنِ الْبَاقِي وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، فَسَافَرُ أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ لِنَقْلِهَا، وَتَمَادَتْ الْأَيَّامُ عَلَى حَمْلِهَا، وَسَقَطَتْ قِيمُ الدَّوَابِّ وَالْكَرَاعِ وَالسَّلَاحِ وَالْمَتَاعِ، حَتَّى بِيَعَتْ بِسُدْسِ دِينَارٍ اثْنَتَا عَشْرَةَ خُوذَةً، وَبِدِينَارٍ ثَلَاثَةَ أَدْرَاعٍ، وَإِذَا هَانَتْ لِكَثْرَتِهَا نَفَائِسُ يَواقِيَتِ وَجَواهِرَ مَأخُوذَةٌ فَمَا دِرْعٌ وَمَا خُوذَةٌ، وَمَا سَلِمَ مِنَ الرُّومِ إِلَّا الْعَسْكَرُ الَّذِي كَانَ عَلَى خِلَاطِ مُحَاصِرِها فَرَحَلَ عَنْهَا صَاحِرًا، وَتَبَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَجَعَلُوهُ جُذادًا، وَتَرَكَّهُمْ وَقَعُ فُولاذِ التُّرْكِ أَفْلاذًا.

وَمِنْ عَجِيبِ ما حُكِيَ فِي أَسْرِ الْمَلِكِ أَنَّهُ كَانَ لِيَسْعِدِ الدَّوْلَةِ كَواهِرِينَ مَمْلُوكًا أَهْدَاهُ إِلَى نِظامِ الْمُلْكِ وَرَدَّهَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ وَرَأَهُ حَقِيرًا، فَرَغَبَهُ مُهْدِيهِ فِيهِ كَثِيرًا، فَقَالَ نِظامُ الْمُلْكِ وَمَاذَا يُرَادُ مِنْهُ عَسَى أَنْ يَأْتِيَنَا بِمَلِكِ الرُّومِ أَسِيرًا، وَذَكَرَ ذَلِكَ اسْتَهْزَاءً بِهِ وَاسْتِصْغارًا لِقادِرِهِ وَاحْتِقارًا لِأَمْرِهِ، وَنُيْسِي الْحَدِيثُ وَعَتَقَ، وَبَقِيَ مَخْزُونًا فِي سِرِّ الْقَدَرِ الَّذِي انْغَلَقَ، فَاتَّفَقَ وَقُوعُ مُتَمَلِّكِ الرُّومِ يَوْمَ الْوَقْعَةِ فِي أَسْرِ ذَلِكَ الْغلامِ، وَوَأَفَّقَ تَصَدِيقُ قَوْلِ النِّظامِ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ السُّلْطانُ وَخَصَّه بِالْإِكْرَامِ، وَقَالَ أَنَا أَغْنِيكَ، فَاقْتَرَحَ مِنَ الْعَطَاءِ ما أُعْطِيكَ، وَمِنْ الْجَنَّا ما أَجْنِيكَ، فَطَلَبَ بِشِارةٍ عَزَّزَتْهُ، وَاسْتَسْقَى لِيَتْرِيضِي ما حَلَّ أَمْلِيهِ تَلْكَ الْمُزْنَةَ.

وَرَحَلَ السُّلْطانُ إِلَى أَدْرِيانَ بِمَلِكِهِ وَأَيْدِهِ، وَالْمَلِكُ فِي قَيْدِهِ وَصَيْدِهِ، وَمَا أَوْبَقْتَهُ وَأَوْبَقْتَهُ يَدُ كَيْدِ كَيْدِهِ، وَظَلَّ مِنْ ضَلَّ أَسِيفَ جِهْدِهِ وَأَسِيرَ جَهْلِهِ، وَلَا يُحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، فَإِنَّهُ خَرَجَ وَفِي نَيْتِهِ فَتْحُ الدُّنْيا وَحَتْفُ الدِّينِ، وَقَهْرُ السُّلْطينِ وَنِصْرُ الشَّيْطينِ، فَعَزَمَ وَعَرَمَ وَجَسَرَ وَحَسَرَ وَحَسَرَ، وَكَتَبَ الْجُمُوعَ وَجَمَعَ الْكُتائِبَ، وَقَتَّبَ السُّرايا وَسَيَّرَ الْمَقانِبَ، وَكَتَفَ الْعُدَدَ وَكَثَّرَ الْعُدَدَ، وَلَقُوَّةَ الرِّجاءِ قَوِي الرِّجالِ، وَلِوَجْهِهِ الْأَمالِ وَجَّهَ الْأَمْوالَ، وَحَسَنَ لَهُ الْاِغْتِرازُ

الاجتراب، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْإِنْتِصَارُ الْإِنْتِصَابَ، وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ نَفَاسَةَ السُّوْلِ، وَأَمَلَتْ عَلَى خَاطِرِهِ خَطَرَ الْمَأْمُولِ، وَاسْتَخْرَجَ الذِّخَائِرَ حَتَّى مِنْ أَطْرَافِ بِلَادِهِ، وَكَانَ مِنْ كِبَرِهِ وَخَسِرِهِ وَأَسْرِهِ مَا كَانَ، وَذَلَّ بَعْدَ الْعَزِّ وَهَانَ، وَتَعَرَّضَ لِلْإِبْتِذَالِ كُلِّ مَا صَانَ، ثُمَّ تَعَطَّفَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِ وَأَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ أَخْبِرْنِي بِصِدْقِكَ فِي قَصْدِكَ، وَمَا الَّذِي زَعَمْتَ جِئِنَ عَزَمْتَ، وَأَمَلْتَ لَمَّا أَلَمَمْتَ، وَنَوَيْتَ إِذْ نَاوَيْتَ، وَتَرَجَّيْتَ مُذْ تَجَرَّيْتَ، وَسَوَّلْتَ بِمَا تَوَسَّلْتَ، وَحَدَّثْتَ مِمَّا أَحَدَّثْتَ، وَتَمَنَّيْتَ مَا تَعَنَّيْتَ، وَاسْتَهَيْتَ حَيْثُ انْتَهَيْتَ، وَأَقْتَرَحْتَ مَعَ مَا اجْتَرَحْتَ، وَمَا الَّذِي قَدَّرْتَ لَوْ قَدَّرْتَ، فَقَالَ: كُنْتُ أَحْسِبُ أَنِّي أَحْبِسُ مَنْ أَسْرَتُهُ مِنْ أَسْرَاكِمَ مَعَ الْكَلَابِ، وَأَجْعَلُهُ مَعَ السَّبَايَا وَالْأَسْلَابِ، وَإِذَا أَخَذْتُكَ مَأْسُورًا، اتَّخَذْتُ لَكَ وَقْدَ سَاءِ جُورِي سَاجُورًا، فَقَالَ السُّلْطَانُ قَدْ عَثُرْتُ عَلَى سِرِّ سِرِّكَ، وَسُرِرْتُ بِعَثُورِكَ فِي الْعَاثُورِ، فِيمَا الْمُؤَثِّرُ لَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَعْلِنَا بِكَ فِي الْمَأْثُورِ، وَمَا دَابُّكَ الْآنَ تَصْنَعُ وَنَحْنُ بِمَا نَوَيْتَهُ فِينَا لَا نَفْنَعُ، فَقَالَ: أَنْظُرْ عَاقِبَةَ نَيْبِي وَالْعَقُوبَةَ الَّتِي جَرَّتْهَا عَلَيَّ جَرِيرَتِي، وَإِنْ رَدَاءَةٌ صَمِيرِي أَضْمَرْتَ إِلَيَّ الرَّدَى، وَيَعْدُوِي عَلَى السُّلْطَانِ تَسَلَّطَ عَلَيَّ الْوَرَى، فَزَقَّ لَهُ قَلْبُ أَلْبِ أَرْسِلَانٍ وَأَرْسَلَهُ، وَفَكَ قَيْدَهُ وَوَصَلَهُ، وَمَنَحَهُ بِإِخْتِصَاصِهِ وَخَصَّهُ بِمِنْجِيهِ، وَجَلَا لَهُ صَفْحَةٌ صَفْحِهِ، وَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ وَحَقَّقَ اقْتِرَاحَهُ، وَغَفَّرَ اجْتِرَاحَهُ، وَأَنْشَرَ لِقَلْبِهِ أَلْمِيَةَ انْشِرَاحَهُ، وَأَخْرَجَهُ مُبْجَلًا، وَأَفْرَجَ عَنْهُ مُعْجَلًا، وَأَوْجَدَهُ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَأَقَالَهُ بَعْدَ عَثْرَةِ الْقَدَمِ، وَضَوَّعَ لَهُ أَرْجَ الرَّجَاءِ فِي حَالَةِ الْيَاسِ، وَحَبَّأَهُ بَعْدَ وَحْشَةِ الْعَطَلِ بِحِلْيَةِ الْإِيْنِاسِ، وَلَمَّا انْصَرَفَ الْمَلِكُ أَرْمَانُوسَ مَآيُوسًا رَمَى بِأَسْهُ وَسَمَّهُ، وَمَحَّوَا مِنْ الْمَلِكِ رَسْمَهُ، وَقَالُوا: هَذَا مِنْ عِدَادِ الْمُلُوكِ سَاقِطٍ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ سَاخِطٌ.

ذكر آحاد أحاديث وأحداث وصدور تنقلت من رتب وصدور إلى ترب وأجدات

وفي آخر سنة ثلاث وستين توفي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب<sup>(1)</sup> مؤلف تاريخ بغداد، وكان علامة دهره وعالم عصره، وقد علا على العلماء علم نصره.

(1) الخطيب البغدادي: أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت، المعروف بالطيب، أحد الحفاظ المؤرخين المتقدمين، ولد في غزني، في منتصف الطريق بين الكوفة ومكة سنة 392 هـ، ونشأ ببغداد وبها توفي سنة 463 هـ. تنقل في البلاد في طلب العلم، وعاد إلى بغداد، ثم انه خرج منها مستترا لاختلافه مع الحنابلة، فأقام في دمشق وصور وطرابلس وحلب، ولما مرض مرضه الأخير وقف كتبه وفرق جميع أمواله على طلبة العلم وفي وجوه البر، وخلف أكثر من خمسين كتاباً من مؤلفاته.



وفي سنة أربع وستين رُتِبَ لِيَعْدَادَ شَحْنَةَ يُقَالُ لَهُ اَيْتَكَيْنُ السُّلَيْمَانِي وَوَرَدَهَا فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، فَلَمْ يَرْضَ الْخَلِيفَةُ بِتَوَلِيهِ وَأَقَامَ أَيَّاماً عَلَى بَابِ النَّوْبِيِّ يَسْأَلُ فِي تَوْبِيهِ وَيَطْلُبُ الْعَفْوَ عَنِ زَلَّتِهِ، فَلَمْ تَقَعْ إِجَابَتُهُ إِلَى مَسْأَلَتِهِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتُخْلِفَ فِي الشُّحْنَكِيَّةِ فَتَسَرَّعَ فِي قَتْلِ أَحَدِ الْعُلَمَاءِ الدَّارِيَّةِ، وَلَمَّا عَرَفَ السُّلْطَانُ مَا أَنْكَرَ لَهُ الْخَلِيفَةُ مِنْ اَيْتَكَيْنَ صَرَفَهُ بِسَعْدِ الدَّوْلَةِ الْخَادِمِ كُوْهْرَايْنِ، وَوَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ، فِي جَمْعٍ كَالْبَحْرِ الزَّائِرِ، وَوَقَعَ بِاقْبَالِهِ الْاِحْتِفَالُ وَرُتِبَ لِحَفْلِهِ الْاِسْتِقْبَالُ، وَخَرَجَ النَّاسُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ لِتَلْقَائِهِ، وَجَرَى الْقَدْرُ بِرَفْقِهِ، وَجَلَسَ الْخَلِيفَةُ لَهُ فِي دَارِ أَرْسَلَانَ خَاتُونَ، وَهَيْبَ الْآتُونَ وَهَابَ الْعَانُونَ، وَتَهَدَّبَ الْبَلَدُ بِسِيَاسَتِهِ وَتَمَّتِ الْحِمَايَةُ بِحِمِيَّتِهِ.

وَوَرَدَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ الْوَزِيرُ أَبُو الْعَلَاءِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَعَلَيْهِ خُلِعَ سُلْطَانِيَّةً، وَكَهُ فِي الْجُلُوسِ نِيَّةً، فَإِنَّهُ نَدَبَهُ السُّلْطَانُ إِلَى خِدْمَتِهِ الْخَلِيفَةُ، لِتَقْوِيَةِ مَا تَوَهَّمَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الضَّعِيفَةِ، وَخَصَّهُ بِالْحُبِّ وَالْجَبَاءِ وَلَقَّبَهُ بِوَزِيرِ الْوُزَرَاءِ، وَأَقْطَعَهُ النِّصْفَ مِنْ إِقْطَاعِ الْوَزِيرِ فَخِرِ الدَّوْلَةِ بْنِ جَهْمِرٍ، لِيَأْخُذَ بِالنَّصِيبِ مِنْ مَنْصِبِهِ، وَيَفُوزَ بِالْمُذْهَبِ مِنْ مَذْهَبِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ تَقَدَّمَ الْخَلِيفَةُ بِأَنْ لَا يُسْتَقْبَلَ وَلَا يُحْتَمَلَ بِهِ إِذَا أَقْبَلَ وَلَا يُقْبَلَ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى بَابِ النَّوْبِيِّ نَزَلَ وَقَبَلَ الْأَرْضَ وَأَنْصَرَفَ وَلَمْ يُرِضْ لِلْقُبُولِ وَمَا تَصَرَّفَ، وَأَقَامَ بِبَغْدَادَ أَيَّاماً ثُمَّ رَحَلَ وَحَلَ بِالْحِلَّةِ الْمَزِيدِيَّةِ مُسْتَزِيداً، وَصُرِفَ أَخُوهُ أَبُو الْمَعَالِي عَنِ الْحُجْبَةِ فَعَادَ بَعْدَ أَنْ كَانَ حَاجِباً قَرِيباً مَحْجُوباً بَعِيداً.

وفي صفر من هذه السنة تَوَجَّهَ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ أَبُو مَنْصُورِ ابْنِ الْوَزِيرِ بْنِ جَهْمِرٍ بِخُلِعِ إِمَامِيَّةٍ إِلَى أَلْبِ أَرْسَلَانَ بِنِيسَابُورَ وَأَمُرَ لِكِفَايَتِهِ أَنْ يَكْفِي الْأُمُورَ، وَوُكِّلَ فِي تَرْوِيجِ الْمُقْتَدِي بِنْتِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ الْمَنْعُوتَةِ بِخَاتُونَ السَّفَرِيَّةِ، فَسَفَرَ وَجَهَ وَجَاهَتِهِ بِهَذِهِ السَّفَرَةِ الصَّفَرِيَّةِ، فَلَمَّا وَصَلَ وَأَقْبَلَ وَصَلَ، وَقِيلَ وَصَلَ وَقَبِلَ، وَتَلَقَّى لِعَظَمَتِهِ بِالْعُظَمَاءِ، وَاسْتَقْبَلَ وَتَقَدَّمَ بِإِزَالِهِ فِي الْمُرْتَبَةِ الْكَبِيرَةِ، وَتَرْتِيبِ الْاِنْزَالِ الْكَثِيرَةِ، وَعَقِدَ الْعَقْدَ لِلْمُقْتَدِي عَلَى بِنْتِ السُّلْطَانِ فِي أَسْعَدِ سَاعَةِ وَأَسْعَى سَعَادَةَ، وَأَعُوذَ حُسْنِي وَأَحْسَنِي عَادَةَ، وَأَزِيدَ زِينَةَ وَأَزِينُ زِيَادَةَ، وَكَانَ يَوْمَ مَشْهُوداً أَزْهَرَ، وَنَثَرَ فِيهِ الْمُلُوكُ الْجَوْهَرَ، وَتَوَلَّى ذَلِكَ بظَاهِرِ نِيسَابُورَ، وَظَهَرَ بِهِ وَاسْتَظْهَرَ وَلَمَّا عَادَ جَعَلَ عَلَى أَصْفَهَانَ الْعُبُورَ، وَلَقِيَ مِنْ مَلِكِشَاهِ وَلِدِ السُّلْطَانِ الْحُبِّ وَالْجَبَاءِ وَالْحُبُورَ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِ الْخُلِعَ الْإِمَامِيَّةَ فَلَبَسَهَا، وَأَحْكَمَ عِنْدَهُ قَوَاعِدَ الْأُمُورِ فِي الْعَوَاقِبِ وَأَسْسَهَا، وَكَانَ مَلِكِشَاهِ

عائداً مِنْ شِيرَازَ وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى الْوَالِدِ وَوَرَدُ الْمُلْكِ مِنْهُ ظَمَانٌ إِلَى وَارِدِهِ، وَعَادَ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ إِلَى بَغدَادَ فِي ثَامِنِ عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ، بَادِي الْحُجَّةِ، هَادِي الْمَحَجَّةِ.

### ذِكْرُ وَفَاةِ السُّلْطَانِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ فِي سَنَةِ خَمْسِ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ

فِي أَوَّلِ هَذِهِ السَّنَةِ تَوَجَّهَ السُّلْطَانُ أَلْبِ أَرْسَلَانَ لِقَصْدِ بِلَادِ التُّرْكِ، وَقَدْ كَمَلَتْ لَهُ أَسْبَابُ الْمُلْكِ، وَهُوَ فِي جَمْعٍ مَتَمُّوجٍ اللَّجِّ مُتَأَجِّجِ الْوَهْجِ، وَفَيْلِقٍ رَادِّ لِقَلْقِ، وَجَحْفَلٍ سَادِّ لِلْأَفْقِ، وَجُنُودٍ فَارِعَةِ الْبُنُودِ، وَجُدُودٍ قَاطِعَةِ الْحُدُودِ، وَحَشُودٍ زَائِرَةِ الْأَسُودِ، وَيُحُورٍ زَاخِرَةِ الْمُدُودِ، وَجِيُوشٍ جَائِشَةِ الْغَوَارِبِ، وَأَعْلَامٍ عَالِيَةِ الذُّوَابِ، فِي أَكْثَرِ مِنْ مِائَتِي أَلْفِ فَارِسٍ لِيَصِيدَ الْفَوَارِسَ صَائِدِ فَارِسَ، وَمَدَّ عَلَى جِيحُونَ جِسْرًا، كَمَا حَطَّ الْكَاتِبُ عَلَى الطَّرْسِ سَطْرًا، وَجَعَلَ لِسَمَاءِ الْمَاءِ مِنْ الْمَجْرَةِ مَجْرَى، وَأَجْرَى عَلَى تَبِجِ الْمَجْرِ بَحْرًا، وَعَرَّضَ فِي عَرْضِ النَّهْرِ نَهْرًا، وَكَانَتْ مُدَّةُ عُبُورِ الْعَسْكَرِ عَلَيْهِ شَهْرًا، وَكَانَ قَدْ قَصَدَهُ شَمْسُ الدِّينِ تَكِينُ بْنُ طَفْقَاجَ، وَالْإِقْبَالُ قَدْ بَلَغَ الْكَمَالَ وَأَوْضَحَ الْمِنْهَاجَ، وَالسَّعْدُ قَدْ طَلَعَ وَالطَّالِعُ سَعْدٌ وَالْجَدُّ قَدْ سَعَدَ، وَهُوَ فِي رِدَائِ السَّرُورِ رَافِلٌ، وَمِنْ سِرِّ الرَّدَى غَافِلٌ، وَيَأْيِدِي الْأَقْتِدَارِ زَاهٍ، وَعَنْ كَيْدِ الْأَقْدَارِ سَاهٍ، وَأَنَّهُ فِي سَادِسِ شَهْرِ رَيْبِعِ الْأَوَّلِ بَكَرَ وَهُوَ فِي الصَّدْرِ الْأَرْحَبِ وَالْبَاعِ الْأَطْوَلِ وَالْجَمَالِ الْأَرْوَى وَالرَّوَاءِ الْأَجْمَلِ وَالْكَمَالِ الْأَهْبَى وَالْبِهَاءِ الْأَكْمَلِ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرِ سُرُورِهِ، لَا يَسُ حَبِيرَ حُبُورِهِ، مُسْتَوِفٍ سَمَاءِ الشَّمْسِ عَلَى عَرْشِهِ، مُحْتَوٍ عَلَى مُلْكِ الْبَسِيطَةِ بِبَسْطَةِ جَيْشِهِ، وَسِمَطَا سِمَاطِيهِ الْمَمْدُودِينَ مِنْ فَرَاغِ مَفْرِدِهِ مَنظُومَانِ، وَالْبَاسِ وَالنَّائِلِ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ مَقْسُومَانِ، وَالْعُظْمَاءِ وَالْقَفُونَ وَالْمَوْقِفُ عَظِيمٌ وَالْكَرْمَاءُ قَائِمُونَ، وَالْمَقَامُ كَرِيمٌ وَالنَّهْيَةُ مَالِكَةٌ وَالْمُلْكُ مَهَبٌ، وَالنَّدَى مَنَادٍ وَالرَّجَاءُ مُجِيبٌ، وَالدُّنْيَا مُقْبَلَةٌ وَالْإِقْبَالُ دَانٌ، وَالْجَنَانُ ضَايِرٌ وَالنَّاطِرُ جَانٌ، وَالزَّمَانُ فِي غُفُولٍ، وَالْحَدَثَانُ فِي ذُهُولٍ، فَحَمَلٌ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ مُسْتَحْفِظٌ قَلْعَةٍ يُقَالُ لَهُ يَوْسُفُ الْخَوَارِزْمِيِّ، وَهُوَ يَرِسُفُ فِي قَيْدِهِ، وَلَمْ يَدِرْ أَنَّهُ سَيَسْرِفُ فِي كَيْدِهِ، وَحُمِلَ إِلَى قُرْبِ سَرِيرِهِ وَهُوَ مَعَ غَلَامَيْنِ، قَدْ شَدَا بِيَدَيْهِ الْيَدَيْنِ، فَتَقَدَّمَ بَأَن تَضَرَّبَ لَهُ أَرْبَعَةٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ لِيُشَدَّ إِلَيْهَا أَطْرَافُهُ، وَيَجْعَلُ عَلَى تِلْكَ الْهَيَاةِ إِتْلَافَهُ، فَقَالَ مِثْلِي يَلْقَى هَذِهِ الْمُثَلَّةَ، وَيُقْتَلُ هَذِهِ الْقَتْلَةُ؟ فَحَوِيَ السُّلْطَانُ وَاحْتَدَّ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى غَضِّ غَضْبِهِ وَاشْتَدَّ، وَأَخَذَ قَوْسَهُ وَسَهْمَهُ، وَتَرَكَ رَأْيَهُ وَحَزَمَهُ، وَأَمَرَ بِحُلِّ رِبَاطِهِ، وَتَخَلَّى عَنِ احْتِيَاطِهِ، وَقَالَ لِلْغَلَامَيْنِ خَلِيَاءَهُ وَرَمَاهُ فَأَخْطَاهُ، وَكَانَ قَدْ اعْتَادَ مِنَ الْقُدْرَةِ فِي مَرَامِيهِ الْإِصَابَةَ، وَمِنْ الْقَدْرِ فِي مَرَامِيهِ الْإِجَابَةَ، فَغَرَّتْهُ السَّلَامَةُ وَأَسْلَمَتْهُ الْغَرَّةُ، وَدَلَّتْهُ إِلَى الْغُرُورِ دَوْلَتُهُ الْمُسْتَمْرَّةُ، وَعَادَتْهُ

عَادَتُهُ وَأَرَدَتْهُ إِرَادَتُهُ، وَمَا سَاعَدَتْهُ سَعَادَتُهُ، وَأَصَابَهُ سَهْمُ الْمَنِيَةِ حِينَ أَخْطَأَهُ سَهْمُ الْأَمْنِيَةِ، وَكَانَ جَالِسًا عَلَى سُدَّةٍ سَادَّةٍ، أَنَسَا بِمَا أَنَسِيَ لَهُ مِنْ مُدَّةٍ وَمَادَّةٍ، فَقَامَ وَتَرَكَ لِزَانِلِيَّتِهِ، وَوَقَعَ عَلَى وَجْهِهِ فِي عَثْرَتِهِ، فَجَاءَ يَوْسُفُ فَجَاءَهُ فَوْجَاهُ بِسِكِّينٍ فِي خَاصِرَتِهِ، فَكَأَنَّهُ شَيْطَانٌ فِي يَدَيْهِ شِهَابٌ، أَوْ خَنْزِيرٌ أُبْرِرَ لَهُ نَابٌ، أَوْ صَاعِقَةٌ بَرَقَتْ مِنَ الْعَمَامِ، أَوْ أَبُو لَوْلُؤَةَ وَتَبَّ عَلَى الْإِمَامِ، وَفَجَأَ الْجُرْمُ وَفَجَعَ الْجَرْحُ، وَفَرَحَ الْقُلُوبُ وَالْعَيُونَ الْقُرْحُ، وَعَظَّمَتِ الْكَبِيرَةُ وَكَبَّرَتِ الْعَظِيمَةُ، وَتَمَّ الْقَطْعُ وَانْقَطَعَتِ التَّمِيمَةُ، وَشَانَ الشَّانُ، وَزَمَنَ الزَّمَانُ، وَأُصِيبَ الْجَلِيلُ وَجَلَّ الْمَصَابُ، وَنَابَ الْعَقْرُ وَعَقَرَ النَّابُ، وَعَابَ الْحَادِثُ وَحَدَّثَ الْعَابُ، وَغَابَ ذُو الْأَشْبَالِ وَالْأَشْبَالُ بِعَطْفٍ وَخَلَا الْغَابُ، وَكَانَ سَعْدُ الدَّوْلَةِ كَوْهَرَاتَيْنِ وَاقِفًا فَجَرَّحَهُ يَوْسُفُ جِرَاحَاتٍ، سَدَّتْ عَلَيْهِ فَجَّ رَاحَاتِهِ، وَنَهَضَ السُّلْطَانُ إِلَى خَيْمَةِ أُخْرَى مَجْرُوحًا، وَكُلَّ عَضُو مِنْهُ تَخَالَه مَجَّ رُوحًا، فَأَمَّا يَوْسُفُ فَإِنَّهُ ضَرَبَهُ فَرَأْسُ أَرْمِيٍّ بِمِرْمَزَتِهِ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَوَقَّتِ الضَّرْبَةَ بِقَطْعِ أَنْفَاسِهِ وَقَلَعَ أَمْرَاسِهِ، وَفَاطَتْ نَفْسُهُ الشَّرِيرَةَ، وَجَرَّتُهُ إِلَى الْهَوَايَةِ الْجَرِيرَةَ، وَأَمَّا أَلْبُ أَرْسِلَانُ فَإِنَّهُ أَحْضَرَ وَزِيرَهُ نِظَامَ الْمُلْكِ وَنَاطَبَهُ نِظَامَ الْمُلْكِ، وَحَاطَ بِتَدْبِيرِهِ دَوْلَةَ التُّرْكِ، وَأَوْصَى بِهِ وَإِلَيْهِ، وَعَوَّلَ فِي كِفَايَةِ الْمُهِمَّاتِ وَكَفَّ الْمُهِمَّاتِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ وَلَدَهُ مَلِكُشَاهَ وَلِيَّ عَهْدِهِ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ الْمُلْكَ مِنْ بَعْدِهِ، وَخَصَّ ابْنَهُ إِيَّازَ بِمَا كَانَ لِأَبِيهِ دَاوُدَ بِيْلَخَ، وَقَالَ لَهُ: أَقْصِدْ نُصْرَةَ أَخِيكَ وَتَوَخَّ، وَعَيَّنَ لَهُ خَمْسَمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَأَثَرَهُ عَلَى بَنِيهِ أَحْسَنَ إِيثَارٍ، وَجَعَلَ الْقَلْعَةَ بِهَا لِمَلِكُشَاهِ، وَقَالَ لَهُ: إِنْ لَمْ يَرْضَ فَضَيِّقْ عَلَيْهِ الْأَرْضَ، وَاسْتَعِنْ عَلَى قِتَالِهِ بِمَا عَيَّنَ لَهُ مِنْ مَالِهِ، وَوَصَّى لِأَخِيهِ قَاوَرْدُ بَكِ بْنِ دَاوُدَ بِأَعْمَالِ فَارِسَ وَكِرْمَانَ، وَأَجْزَلَ لَهُ بِتَعْيِينِ شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ وَالْإِحْسَانِ، وَانْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ فَاتَزَأَ بِالشَّهَادَةِ حَائِزًا لِلْسَعَادَةِ، حَسَنَ الذِّكْرِ مَذْكَورَ الْحُسْنَى، مُتَعَقِّبًا بِالْحَمْدِ حَمِيدَ الْعُقْبَى، وَاسْتُشْهِدَ وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعَمْرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَشَهْرَيْنِ، وَكَانَ مَوْلَدُهُ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ، وَمَلَكَ تِسْعَ سَنِينَ وَشَهْرًا، وَجَمَعَتْ أَيَامُهُ نَصْرًا وَوَيْمَانًا وَتُجْحًا وَخُبُورًا.

وَخُكِّي أَنَّهُ قَالَ حِينَ خَبِيهِ وَقَدْ عَايَنَ الْمَوْتَ بَعَيْنِهِ: مَا كُنْتُ قَطُّ فِي وَجْهِ قَصْدَتِهِ وَلَا عَدُوًّا أَرَدْتُهُ إِلَّا تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِي، وَطَلَبْتُ مِنْهُ نَصْرِي، إِلَّا هَذِهِ النَّوْبَةُ فَإِنِّي أَشْرَفْتُ عَلَى عَسْكَرِي مِنْ تَلِّ عَالٍ فَرَأَيْتُهُ فِي أَجْمَلِ حَالٍ وَأَحْلَى جَمَالٍ، وَقَدْ مَلَأَ الْقَضَاءَ وَمَالَأَ الْقَضَاءَ، فَقُلْتُ أَيْنَ مِنْ لَهْ قَدْرٌ مُضَارِعَتِي أَوْ قُدْرَةٌ مُعَارَضَتِي، وَأَنَا مَلِكُ الدُّنْيَا الَّتِي دَانَتْ لِمُلْكِي، وَقَدْ انْتَضَمَتْ مَمَالِكُ الْمَشْرِقَيْنِ وَمَسَالِكُ الْمَغْرِبَيْنِ فِي سُلْكِِي، وَأَنَا أَصْلُ بِهَذَا الْعَسْكَرِ إِلَى أَقْصَى الصَّيْنِ، فَخَرَجَتْ

عَلِيٍّ مَنِّيَّ بَعْتَهُ مِنَ الْكَمِينِ، وَكَانَ أَلْبُ أَرْسِلَانَ بِالْأَبْرَارِ بَارِئًا، وَلَمْ يَزَلْ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ دَارِهِ دَارًا، وَكَانَ يُطْبِخُ فِي مَطْبِخِهِ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْغَنَمِ خَمْسُونَ رَأْسًا بِرِسْمِ الْفُقَرَاءِ وَذَلِكَ سِوَى الرَّاتِبِ الْمُعَيَّنِ لِلْسَّمَاطِ بِرِسْمِ الْعَسْكَرِ وَالْأَمْوَاءِ، وَكَانَ إِذَا أَمَرَ بِنِيَانٍ أَوْ عَزَّ أَنْ يَكُونَ أَسْمَى بِنِيَانٍ وَأَسْمَقَهُ، وَأَشْرَفَ مَكَانٍ وَأَشْرَفَهُ، وَيَقُولُ أَنَا زُنَا هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ هَمَّتِنَا، وَوُفُورِ نَعْمَتِنَا، وَخَلْفَ مِنَ الْبَيْنِ وَهُمْ مَلِكُشَاهُ، وَتَكْشُ، وَإِيَازُ، وَتُشُّشُ، وَأَرْسِلَانَ أَرْغُونَ، وَبُورِي بِرِسْمِ.

ذَكَرَ جُلُوسَ جَلَالِ الدَّوْلَةِ أَبِي الْفَتْحِ مَلِكُشَاهُ بِنِ أَلْبِ أَرْسِلَانَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ سَارِي الْفُلْكِ رَاسِي الْفُلْكِ

وَلَمَّا وَقَفَ أَلْبُ أَرْسِلَانَ عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِ بِمَرَوْ وَقَالَ الْقَدَرُ لَا غُرُو، وَأَقَامَ ابْنُهُ إِيَازُ بِيَلِخَ وَصَمَّ ذَلِكَ الْعَرِينُ بَعْدَ الْأَسَدِ الشَّبَلِ وَذَلِكَ الْوَكْرُ بَعْدَ الصَّقْرِ الْفَرِخِ عَادَ مَلِكُشَاهُ بِالْعَسَاكِرِ مَشْكُورَ الشُّوَكَةِ شَاكِيَ الشَّاكِرِ، فِي عَدَدٍ مِنَ الْأَقْدَارِ وَمَدَدٍ مِنَ الْأَقْدَارِ، وَهُوَ فِي رِيْعَانِ الرَّائِعِ وَصَوْعِهِ الْأَرْجِ وَأَرْجِهِ الضَّائِعِ وَشَبَابِهِ الْمَشُوبِ وَتُبَابِهِ الْمَحُوبِ، وَسَمِعَ قَاوْرِدُ بُوْفَاةَ أَخِيهِ أَلْبِ أَرْسِلَانَ فَسَارَ لِلرِّيِّ طَالِبًا، وَفِي الْمُلْكِ رَاغِبًا، وَظَنَّ أَنَّهُ يَسْبِقُ إِلَيْهَا وَيَحْتَوِي عَلَيْهَا، فَسَبَقَهُ مَلِكُشَاهُ، وَأَمِنَ مَا كَانَ يَخْشَاهُ، وَسَارَ قَاصِدًا لِلِقَاءِ قَاوْرِدٍ مِنْهَا قَاوْرِدُ وَرَدَهُ وَقَلَّ حَدَّهُ بِحَدِّهِ، وَوَرَدَ قَاوْرِدُ فِي عَسْكَرِ كَالْبَحْرِ مَوَاجٍ، وَجَحْفَلُ فِي الْعَجَاجِ عَجَاجٍ، وَفِي لِيَصِيْقِ الْمَازِقِ قَرَّاجٍ، وَفِي مَضِيْقِ الرُّوْعِ وَوُجِّ أَلْمِ وَوَلَاجٍ، وَالتَّقْوَا يُقْرِبُ هَمْدَانَ رَابِعَ شَعْبَانَ، وَقَرَّ الْعَاسِلُ الْعَانِجُ شَعْبَانَ، وَكَانَ عَسْكَرُ مَلِكُشَاهُ إِلَى عَمِّهِ قَاوْرِدُ مَاثِلًا وَلِقَوْلِهِ مُرْجِحًا وَيَتَرَجِّجُهُ قَائِلًا، فَلَمَّا تَلَاظَمَ الْبَحْرَانِ وَتَصَادَمَ الْمَجْرَانِ وَارْتَقَى التَّقَعَانِ وَالتَّقَى الْجَمْعَانِ وَتَصَافَّ الصَّفَانِ وَتَصَافَحَتِ الْكَفَّانِ حَمَلُ قَاوْرِدُ عَلَى مِيْمَتِهِ مَلِكُشَاهُ وَجَعَلَهَا دَكَاً وَأَوْسَعَهَا فَتْكَأً، وَحَمَلُ شَرَفُ الدَّوْلَةِ مُسْلِمُ بْنُ قُرَيْشٍ وَنَهَاءُ الدَّوْلَةِ مَنصُورُ بْنُ دُبَيْسٍ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْأَكْرَادِ عَلَى مِيْمَتِهِ قَاوْرِدُ فَذَكَّرَهَا وَخَرَّقَهَا بِالرُّوَاعِفِ وَهَتَكَوَهَا وَخَاطُوهَا بِالْخَطِيِّ وَقَصَلُوهَا وَقَطَّعُوهَا بِالصَّوَارِمِ لِحَيْنِهَا جِيْنٌ وَصَلَّوهَا فَمَلَّكَ شَاهِدَ النَّصْرِ مَلِكُشَاهُ وَأَنْجَابَ عَنْهُ رُعْبٌ كَانَ يَخْشَاهُ، وَغَاطَ أَصْحَابَ مَلِكُشَاهُ مَا صَحَّ مِنْ كَسْرِ عَمِّهِ وَكَرِهُوا مَا أَحَبَّ الْأَوْلِيَاءُ مِنْ هَزِيمِهِ وَكَانَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَنْهَزُوا عَنْهُ أَنْهَزَمَ، وَأَنَّهُمْ إِذَا انْتَلَمُوا انْتَلَمَ وَقَالُوا مَا عَرَّتْنَا هَذِهِ الْأَكْدَارُ إِلَّا مِنَ الْأَعْرَابِ وَالْأَكْرَادِ، وَصَدَدْنَا بِتَصَدِيدِهِمْ لِلْغَنَاءِ مِنْ مَرَادِ الْمُرَادِ فَمَضَى الْمَنْهَزِمُونَ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ إِلَى مَلِكِ الْعَرَبِ وَتَهَبُوهَا وَشَنُوهَا عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَسَلَّبُوهَا وَنَهَبُوهَا خِيَمَ نَقِيبِ النُّقْبَاءِ طَرَادِ بْنِ مُحَمَّدِ الرَّيْنِيِّ وَأَعَدَمُوا مَوْجُودَهُ وَعَاوَدَهُ

الْعَجْمَ فَعَجَمُوا عُدَّهَ وَوَقَعَتْ فِي أَبِي الْأَعَزِّ بْنِ أَبِي الْهِنْدَامِ الْكَاتِبِ نُشَابَةٌ نُسِبَتْ فِي رُوحِهِ وَنَقَلَتْهُ  
ضَرْبِجًا إِلَى ضَرْبِجِهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى إِلَى مَلِكِشَاهٍ وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ عَمَّهُ فِي قَرْيَةٍ بِقَرْيِهِ، وَقَدْ  
انْفَرَدَ فِي حَرْبِهِ عَنْ حِزْبِهِ، فَسَارَ إِلَيْهِ وَأَخَذَهُ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَ بَأْسِهِ وَأَنْفَذَهُ، وَجَعَلَ عَمَّهُ يَسْتَعِظُفُهُ  
وَهُوَ لَا يَعِظُفُ وَيَسْتَسَعِظُهُ وَهُوَ لَا يُسَعِظُ، وَيَعْتَقِي وَهُوَ لَا يَعْفُو، وَيَقْتَضِي صَفْوَهُ وَهُوَ لَا يَصْفُو،  
وَيَذُلُّ لَهُ وَهُوَ يَعِزُّ، وَيَبْذُلُّ لَهُ وَهُوَ يَسْمِتُزُّ، وَيَقُولُ لَا تَخْلَعْ عَنِّي قَبَاءَ الْبِقَاءِ، وَوَسَّعَ رَجَائِي بِالْمَكْثِ  
فِي سِجْنِ صَبِيحِ الْأَرْجَاءِ، فَمَا أَجَابَهُ وَلَا أَجَارَهُ، وَلَا رَعَاهُ طَرْفَهُ وَلَا أَعَارَهُ، بَلْ تَقَدَّمَ إِلَى كَوْهَرَاتَيْنِ  
بِحَقِّقِهِ وَهُوَ يَنْصَرِّعُ وَيَتَضَوَّرُ فَخَنَّفَهُ غُلَامٌ أَرْمَنِيٌّ أَعُورٌ، وَقَرَّ مَلِكُ مَلِكِشَاهٍ وَجَاءَهُ الْأَجَاهُ وَنَزَلَ عَلَى  
نَصْلِهِ نَصٌّ نَصْرِهِ، وَلَحَظَ الْقَدْرُ حَظَّ قَدْرِهِ، وَحَمَلَ أَمْرُ أَمْرَائِهِ بِحُكْمِهِ، وَحَكَّمَ بِرِضَاهُمْ وَأَرْضَاهُمْ  
بِحُكْمِهِ، وَخَلَعَ عَلَى نِظَامِ الْمُلْكِ وَعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي تَوَلَّى وَزَارِيهِ وَمَنَاصِبِهِ الْعِظَامِ، وَأَعْطَى سِرْهَنَكَ  
سَاوَنَكَيْنِ أَعْمَالَ قَاوَرِدِ عَمَّهُ وَلَقَبَهُ بِلَقْبِهِ (عماد الدولة) وَأَجْرَاهُ عَلَى رَسْمِهِ وَوَلَاهُ وَلَايَاتِهِ وَخَصَّمَهُ  
بِمَنَاجِقِهِ وَكُوسَاتِهِ، وَأَجَزَلَ لِلْأَمْرَاءِ الْعَرَبِ وَالْأَكْرَادِ نَصِيبَ الْإِصْطِفَاءِ وَالْإِصْطِنَاعِ، وَوَقَّرَ حَظَّهُمْ  
مِنَ التَّشْرِيفِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْإِقْطَاعِ.

وَدَخَلَتْ سَنَةٌ سِتٌّ وَسِتِّينَ وَوَرَدَ فِي صَفَرٍ مِنْهَا سَعْدُ الدَّوْلَةِ كَوْهَرَاتَيْنِ إِلَى بَغْدَادَ نَافِذَ الْقَوْلِ  
مَقْبُولَ التَّفَاقُذِ، وَجَلَسَ لَهُ الْخَلِيفَةُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي ثَانِي صَفَرٍ كَأَنَّمَا أَنْارَ الْبَدْرُ مِنْ بَشْرِ وَجْهِهِ  
وَسَفَرَ وَقَامَ عِدَّةُ الدِّينِ الْمُقْتَدِي عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً فِي حَالَةٍ نَبَاهَةٍ وَتَنَبُّهُ  
كَانَتْ عَيْنُ السُّوءِ فِيهَا مَتَوَسِّنَةً، وَسَلَّمَ الْخَلِيفَةُ إِلَى كَوْهَرَاتَيْنِ عَهْدَ مَلِكِشَاهٍ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ أَوَّلَهُ  
وَمُتَّصِمَةً أَنَّهُ جَعَلَ عَلَيْهِ فِي الْمُلْكِ مُعَوَّلَهُ، وَكَانَ إِذْنًا عَامًا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي الْوَصُولِ، وَلَمْ  
يُمنَعْ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَحَدٌ مِنَ الدَّخُولِ.

وَوَرَدَ الْخَبْرُ بِوفاةِ إِيَّازِ أَخِي السُّلْطَانِ وَكُفِّيَ أَمْرُهُ كَمَا كُفِّيَ أَمْرَ عَمِّهِ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ مِنْ شُغْلِهِ،  
وَاسْتَرَاحَ مِنْ هَمِّهِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَرِقَتْ بَغْدَادُ، وَعَادَ الْعَزِيزُ وَعَزَّ الْمَعَادُ وَعَمَّ الْغَرَقُ وَغَمَّ الْفَرَقُ، وَلَمْ  
يَسْلَمْ سِوَى دَارِ الْخَلِيفَةِ وَمَا فِي جِوَارِ سَدَّتَيْهَا الشَّرِيفَةِ، وَغَرَقَ مَشْهُدُ بَابِ التَّيْنِ (1) وَأَنْهَدَمَ  
سُورُهُ وَخَرِبَ مَعْمُورُهُ، فَأُطْلِقَ لَهُ شَرَفُ الدَّوْلَةِ مُسْلِمُ بْنُ قُرَيْشٍ أَلْفَ دِينَارٍ وَعُمَّرَ عَلَى عَادَتِهِ  
وَأَعِيدَتْ عِمَارَتُهُ، وَزِيرَتْ أَمَاكِنُهُ وَأَمَكَّنَتْ زِيَارَتَهُ.

(1) مشهد باب التين: هو مشهد الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق (عليهما السلام)

### وورود مؤيد الملك أبي بكر عبيدالله بن نظام الملك

وَالْمَاءُ طَامٌ وَهُوَ صَنْدَلِيٌّ أَحْمَرٌ كَأَنَّهُ مِنْ مُدَامٍ دَامٍ، وَغَارِبٌ دَجَلَةٌ ذُو سَنَامٍ نَامٍ، وَالْخَلْقُ مُتَمَارٍ، وَالْمَوْجُ مَتْرَامٌ، وَقَدْ انْسَدَّتْ أَفْوَاهُ الطُّرُقِ، وَتَبَعَتْ بَعْدَادَ مَا وَقَدَّ الْمَاءُ مِنَ الْحَرَقِ، وَصَارَتْ الْمَسَارِبُ مَشَارِبَ، وَالْمَنَاهِجُ مَنَاهِلٌ، وَالرَّحَابُ بِحَارًا، وَالْمَوَاصِلُ سَوَاحِلٌ، وَاسْتَحَالَ التُّرَابُ مَاءً، وَالذَّبْيُومُ دَامًا، وَأَطَافَ الْخَوْفُ، وَخِيفَ الطُّوفَانُ، وَتَعَرَّفَ النُّكْرُ، وَتَنَكَّرَ الْعِرْفَانُ، وَاخْتَبَلَ النَّاسُ، وَاقْتَبَلَ الْيَاسُ، وَتَقَلَّتْ الْأَحْمَالُ عَلَى الْمَنَاكِبِ، وَتَقَلَّتْ الرَّحَالُ إِلَى الْمَرَاجِبِ، وَعَزَّتْ السَّفَانُ، وَدَارَتْ بِالذُّورِ مِنَ الْأَسْوَاءِ أَسْوَارٌ، وَكُلَّ تَنُورٍ نَارٍ فِيهَا بِالْمَاءِ عَلَى الْقَوْرِ فَوَارٌ، فَالْمَعَادُنُ مَنَابِعٌ، وَالثَّنَايَا عَيُونٌ، وَالْمِيَاهُ صَوَارِمٌ، وَالْجِدَاوُلُ جُفُونٌ، وَالْمَغَايِضُ فَيَاضَاتٌ، وَالْمَرَابِضُ مَخَاضَاتٌ، وَالشَّاطِئُ بِعُبابِهِ طِيَّاشٌ، وَجَاشُ دَجَلَةٌ جِيَّاشٌ، وَلَا لِيَجْسِرَ جَسَارَةً، وَلَا لِيَعْبِرَ عِبَارَةً، وَلَا لِيَسْفِينَةَ سَكِينَةَ، وَلَا لِيَسَالِكُ سَبِيلَ مُسْتَبِينَةَ، وَأَقْبَلَ مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ وَالْمُدُودُ تَعَوَّقُ عَنْ اسْتِقْبَالِهِ بِالْإِمْدَادِ، وَتَسَوَّقُ السَّفْنَ إِلَى غَيْرِ جِهَةِ الْمُرَادِ، وَنَزَلَ تَلْقِيهِ لِلضَّرُورَةِ الْعَاقِقَةُ، وَدَخَلَ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ اللَّائِقَةِ، وَعَلَى غَيْرِ الْحَالَةِ وَالْحَلِيَّةِ الرَّائِعَةِ الرَّائِقَةُ، فَإِنَّهُ رَكَبَ فِي سَفِينَةٍ وَأَنْحَدَرَ إِلَى بَابِ الْمَرَاتِبِ، وَلَمَّا حَازَى التَّاجَ قَامَ وَقَامَ بِأَدَاءِ الْوَاجِبِ، وَلَمَّا نَزَلَ فِي مَقَرِّهِ وَقَرَّ فِي مَنَزَلِهِ ظَنَّ أَنَّ الْخَلِيفَةَ مَا نَبِيَّ بِاسْتِقْبَالِهِ إِلَّا وَقَدْ نَبَا عَنْ تَقَبُّلِهِ، وَمَضَى إِلَيْهِ النُّقْيَانُ وَقَاضِيَ الْقَضَاةَ وَلَمْ يُوصِلْهُمْ بَلْ رَدَّعَهُمْ وَرَدَّهْمُ وَصَدَفَهُمْ وَصَدَّهُمْ وَقَالَ جَرَى بِي تَهَاوُنٌ، وَتَمَّ عَلَيَّ تَعَاوُنٌ، وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ مَنْ أَوْضَحَ لَهُ الْعُذْرَ، وَاسْتَخْلَصَ مِنْهُ بِإِنْفَازِ الْخَلْعِ إِلَيْهِ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ، وَاسْتَأْذَنَ الْخَلِيفَةَ فِي الرُّكُوبِ بِبَابِ الْمَرَاتِبِ فَأَذِنَ لَهُ وَأَمَلَى لَهُ فِي كُلِّ نَجْحٍ أَثْمَلَهُ، وَمَضَى إِلَى بَيْتِ النَّوْبَةِ وَتَلَقَّاهُ الْوَزِيرُ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ أَبُو مَنْصُورٍ فَخَرَّ الدَّوْلَةَ مَشْمُولًا مِنْ جَلَالِ الدَّوْلَةِ مَلِكِشَاهِ بِالْإِجْلَالِ وَتَرَكَ اسْتِقْبَالَهُ لِمَا اتَّفَقَ فِي حَقِّ مُؤَيَّدِ الْمَلِكِ مِنْ تَرْكِ الْاسْتِقْبَالِ.

وفي آخر هذه السنة توفي زعيم الملك أبو الحسن بن عبد الرحيم في الحلة المزديية، وقد كان مترشحاً للمناصب السامية السنية.

### ذكر وفاة القائم بأمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنه

وَدَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ وَالدُّنْيَا مُبْهَجَةٌ وَالْبَهْجَةُ دَانِيَةٌ، وَالْغِنَى دَيْلٌ وَالدَّوْلَةُ غَانِيَةٌ، وَالْكَرَامَةُ شَامِلَةٌ وَالسَّمَائِلُ كَرِيمَةٌ، وَالشَّيْمُ مُجْدِيَةٌ وَالْجَدَوَى مُشِيمَةٌ، وَالْخَوَاطِرُ غَافِلَةٌ

وَالْغَفْلَةَ خَاطِرَةَ، وَالْعِطْرَ مُتَّارِجٌ وَالْأَرْجَاءُ عَاطِرَةَ، وَالزَّمَانَ شَهْدَةً بِغَيْرِ صَاحِبٍ، وَشَهْوَدُهُ بِغَيْرِ مُصَاحِبٍ، وَوَرْدُهُ بِغَيْرِ صَدْرٍ، وَصَفْوُهُ بِغَيْرِ كَدْرٍ، حَتَّى فَجَأَ الزَّمَانَ الْحَدَثَانَ بِأَفْجَعِ حَادِثٍ، وَكَرِهَتْ الزَّمَانَ بِأَوْجَعِ كَارِثٍ، وَهِيَ وَفَاةُ الْقَائِمِ الَّتِي عَوَّرَتْ عُيُونَ النِّعَمِ، وَعَوَّرَتْ عُيُونَ الْكِرْمِ، وَوَعَرَتْ السُّبُلَ وَسَعَّرَتْ الْعِلَلَ، وَأَهَمَّتْ غُرُوبَ الْحُزْنِ، وَأَمَهَتْ غُرُوبَ الْوَهْنِ، وَأَمَّضَتْ الْقُلُوبَ وَأَقْضَتْ الْجُنُوبَ وَأَغْضَضَتْ جُفُونَ الْمَسْرَاتِ، وَأَغَاضَتْ فُيُوضَ الْمَبْرَاتِ، وَأَطَالَتْ مَدَّ الْمَدَامِعِ فِي مَنَابِ الْمَنَابِعِ، وَأَجَالَتْ خُطَى الْخُطُوبِ النَّوَاجِي الْفَوَاجِعِ، وَخَيَّبَتْ الْوَسَائِلَ وَغَيَّبَتْ السَّائِلَ، وَأَزَارَتْ النَّوَارِلَ وَأَزَالَتْ الْفَوَاضِلَ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ ثَالِثَ عَشَرَ شَعْبَانَ، وَقَدْ كَانَ زَرْعُ عُمْرِهِ اسْتَحْصَدَ فَمَا اقْتَصَدَ فِي أَلَمِ أَلَمٍ، وَاقْتَصَدَ فَكَانَ مِبْضَعُ الْفَاصِدِ مِنْجَلُ الْحَاصِدِ، وَالزَّهْرُ صَوَّحٌ وَالْعُمُرُ طَوَّحٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَوَدَّعَ مُفْتَصِّدًا وَنَامَ مُنْفَرِدًا، فَانْفَجَرَ فِصَادُهُ، لَمَّا غَلَبَهُ رُقَادُهُ، وَخَرَجَ مِنْهُ دَمٌ عَظِيمٌ أَقْوَتَ مِنْهُ قُوَاهُ، وَأَقْفَرَ مِنْهُ مَتَوَاهُ، وَانْتَبَهَ وَالضَّعْفُ قَدْ تَضَاعَفَ وَالْحِمَامُ قَدْ تَشَارَفَ، وَمَكَّثَتْ مَعَهُ حَيَاةُ النَّهْيِ عِنْدَ انْتِهَاءِ حَيَاتِهِ فَطَلَبَ ثِقَاتِهِ وَوَثَقَهُمْ بِطَلْبَاتِهِ وَاسْتَدْعَى عِدَّةَ الدِّينِ أَبَا الْقَاسِمِ وَأَوْدَعَهُ وَصَايَا يَكُونُ بِهَا الْقَائِمَ عَنِ الْقَائِمِ، وَأَحْضَرَ النَّقِيبِينَ وَقَاضِيَ الْقَضَاةَ وَالْقَاضِيَ أَبَا الْحَسَنِ بْنِ الْبِيضَاوِيِّ وَالْقَاضِيَ أَبَا مُحَمَّدٍ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ طَلْحَةَ الدَّامَغَانِيَّ، وَالْوَزِيرُ قَائِمٌ وَالْقَائِمُ مُسْتَنْدٌ فِي شُبَّانِكَ وَهُوَ فِي سُكُونٍ يَشْعُرُ بِمَا لَيْسَ بَعْدَهُ مِنْ حِرَاكٍ، وَقَالَ لَهُمْ اشْهَدُوا عَلَيَّ مَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الرُّقْعَةُ الَّتِي كَتَبْتُ فِيهَا سَطْرِينَ بِخَطِّي: [الْمُقْتَارِبُ]

قَضَى نَحْبَهُ وَلَقِيَ رَبَّهُ

تولي أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله

وَبُوعَ لَهُ يَوْمَ وَفَاةِ جَدِّهِ، وَهُوَ يَوْمُ وَفَاةِ جَدِّهِ، وَجَلَسَ فِي دَارِ الشَّجَرَةِ<sup>(1)</sup> عَلَى كُرْسِيِّ بِقَمِيصٍ أَيْضٌ وَعِمَامَةٍ بِيضَاءَ لَطِيفَةٍ وَفَوْقَهَا طَرَاحَةٌ قَصَبٍ دُرِّيَّةٍ، وَهُوَ مُشْتَرِي فَلَكِ السَّعَادَةِ وَأَصْحَابُهُ

(1) دار الشجرة: دار من دور الخلافة العباسية ببغداد بناها المقتدر بالله وهي فسحة ذات بساطين موقنة، وقد سميت بدار الشجرة لوجود شجرة فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مورة أمام أبوابها وبين شجر بساطها لها ثمانية عشر غصناً، لكل غصن فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار، وعلى أغصانها أنواع الطير من الذهب والفضة إذا مر عليها الهواء سُمع لها صفيير وهدير.

زهرٌ دُرَيْه، وَدَخَلَ الْوَزِيرُ فَخَرُ الدَّوْلَةَ أَبُو نَصْرِ وَوَلَدُهُ عَمِيدُ الْمُلْكِ أَبُو مَنْصُورٍ وَأَمْرَاءُ الدَّوْلَةِ بِكفائِهِ غَيْرَ قَاصِرٍ وَلَا مَقْصُورٍ، فَاسْتَدْعَى مُؤَيَّدُ الْمُلْكِ بَنُ نِظَامِ الْمُلْكِ وَالنَّقِيَّانِ وَقَاضِي الْفُضَاةِ وَحَضَرَ أَعْيَانُ الدَّوْلَةِ مِنْ ذَوِي الْمَرَاتِبِ وَالْكَفَاةِ وَهَنَّاكَ نُوْرُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْأَعْرَضِيِّ بِنُ عَلِيِّ الْمَزِيدِيِّ وَوَلَدُهُ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَادِ الْأَسَدِيِّ وَبَايَعُوهُ وَعَاقَدُوهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَشَايَعُوهُ، وَصَلَّى بِالنَّاسِ الْعَصْرَ فِي صَحْنِ السَّلَامِ وَاتَّصَمُوا بِهِ وَصَلَّى عَلَى الْقَائِمِ، وَأَغْلَقَتِ الْأَسْوَاقُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِعَقْدِ الْمَأْتَمِ، وَكَانَ بَيْنِغَدَادَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ عَبْدِ الْكَرِيمِ النَّائِحُ، ذُو صَوْتٍ شَجٍ نَدٍ مُعَدَّدٌ، فِي النَّوْحِ مُعَزِّدٌ، فَتَرَدَّدَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ فِي الْأَسْوَاقِ مُمْتَرِيًا بِنَوْحِهِ أَخْلَافَ الدَّمُوعِ، مُورِيًا بِشَجْوِهِ فِي شِدْوِهِ زِنَادَ الضُّلُوعِ، وَجَلَسَ فَخَرُ الدَّوْلَةِ الْوَزِيرُ وَابْنُهُ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ لِلْعَزَاءِ فِي صَحْنِ السَّلَامِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَأَقِيمَ ذَلِكَ الرَّسْمُ عَلَى أَنْظَمِ حَالٍ وَأَحْلَى نِظَامٍ، وَمَضَى عَمِيدُ الدَّوْلَةِ إِلَى السَّلْطَانِ مَلِكِشَاهُ لِأَخْذِ الْبَيْعَةِ عَلَيْهِ وَحَمَلَ عَهْدَهُ إِلَيْهِ، وَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَقَدْ تَمَكَّنَ بِالْجِدَّةِ وَوَجَدَ بِالْتَمَكُّنِ، وَأَوْصَلَهُ الْخَلِيفَةُ إِلَى مَجْلِسِهِ الْأَشْرَفِ وَحَصَّه بِإِكْرَامِهِ الْأَلْطَفِ، وَكَانَ قَدْ سِيرَ مِنَ الدِّيْوَانِ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْبِيضَاوِيِّ فِي ضُحْبَةِ مُؤَيَّدِ الْمُلْكِ إِلَى الْوَالِدِ نِظَامِ الْمُلْكِ لِيَسِيرَ مِنْهُ إِلَى عَزَّةَ وَيَأْخُذَ الْبَيْعَةَ عَلَى صَاحِبِهَا وَذَوِي مَرَاتِبِهَا، فَعَادَ مَصْحُوبًا بِالْجِدَّةِ مَجْدُودَ الصُّحْبَةِ، مَحْبُورًا بِالْحَبَاءِ مَحْبُورًا بِالْمَحَبَّةِ، وَقَدْ تَرْتَّبَتْ وَأَتْرَبَتْ وَتَدَبَّرَتْ وَفَرَعَتْ الرُّتَبَ، وَلَمَّا سَكَنَ إِلَى الشَّرَاءِ سَكَنَ الثَّرَى، وَحِينَ أَبْرَ بِالْبِرِّ بَرَاهُ الْبِرَّ، وَتَوَفَّى فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ سَبْعِينَ، وَالْقَدْرُ كَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ وَرْدِ الْحَيَاةِ الْمَعِينِ، وَكَانَ شَافِعِيًّا ذَكِيًّا لَوْ ذَعِيًّا أَلْمَعِيًّا تَقِيًّا نَقِيًّا.

### ذَكَرَ صُرُوفَ حَدِثَتْ وَحَوَادِثَ تَصَرَّفَتْ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ جَدَّ الْجَدْبُ وَحَلَّ الْمَحْلُ، وَحَطَّ لِلْقَحْطِ الرَّحْلُ، وَسَعَّرَ الْغَلَّةَ سِعْرُ الْعَلَّةِ، وَلَزِمَ الْخَلْقُ خَلْقَ اللَّزْمَةِ، وَصَرَفَ الصَّرْفُ أَزْمَةَ الْأَزْمَةِ، وَأَعْدَمَ الْقُوَّةَ وَعَدِمَ الْقُوَّةَ، وَحَوَّتِ الْحَضَارِمُ ذِمَّةَ الْحُوتِ، وَغَاضَتِ الْبِحَارُ وَغَارَتِ الْأَنْهَارُ، وَيَسَّسَ الثَّرَى وَيَسَّسَ الْوَرَى، حَتَّى كَفَى اللَّهُ الْغُمَّةَ وَكَفَّتِ الْمُلِمَّةَ، وَأَطْفَأَ إِسْعَارَ الْأَسْعَارِ، وَحَصَّ بِأَقْسَامِ الْخِصْبِ إِبْرَارَ قِسْمِ الْأَبْرَارِ، وَأَهَبَّ رُخَاءَ الرِّخَاءِ بَعْدَ إِعْصَارِ الْإِعْسَارِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَسَلَّمَ نَصْرُ بْنُ مَحْمُودٍ صَاحِبُ حَلَبَ قَلْعَةَ مَنِيحٍ مِنَ الرُّومِ وَخَلَّصَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَنْقَذَهَا مِنْ تَعَدِّيهِمْ.

وفي سنة تسع وستين وأربعمائة تزوج عليُّ بنُ أبي منصورٍ فرامز بن علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه بأرسلان خاتون بنت داود التي كانت زوجة القائم، وكانت فارقت بغداد حين عرفت يوفاة أخيها ألب أرسلان وخرج منها وتوفي بعد ذلك زوجها القائم عنها، واستبدلت عن القرشي ديلمياً، وعن الإمام أُمياً.

وفي هذه السنة ورد إلى بغداد الشيخ الإمام أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري حاجاً، وهاج لنصرة التوحيد فأطلع في ظلمة البدعة منه سراجاً وهاجاً، وجدد منه مبهجاً، وأوضح بعلمه منهاجاً، وجلس للوعظ في النظامية، وفي رباط الصوفيّة، وأبدى شعاع الأشعرية، وحقق أدلة الموحدة المنزهة، وأبطل شبه المجسمة المشبهة، فنارت الفتنة من العامة، وطمت أمواج الطامة، وقصد الحنابلة سوق المدرسة وقتلوا جماعة، وأظهروا رقاعة، وأوقعوا شناعة، وكان قد ورد مؤيد الملك بن نظام الملك من المعسكر في صفر فلم يطوق دفعا، ولم يستطع منعاً، وكتب أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الواسطي<sup>(1)</sup> إلى نظام الملك<sup>(2)</sup>: [مجزوء الرمل]

يا نظامَ الملِكِ قد حلَّ ببغدادِ النُّظامُ  
وابنك القاطنُ فيها مُستَهامُ مُستَضامُ  
وبها أودى له قتلاً غلامٌ وغلامُ  
والذي منهم تبقي سالماً فيه سهامُ  
يا قوامَ الدينِ لم يبقَ ببغدادِ مُقامُ  
عَظَمَ الخَطْبُ وللحربِ انصالٌ ودوامُ  
فمَنى لم يحسمِ الداءَ يكفيكِ الحُسامُ  
ويكفُ القومُ في بغدادِ فنكٌ وانتقامُ  
فعلَى مدرسةٍ فيها ومَن فيها السَّلامُ

(1) هو أبو الحسن، محمد بن علي بن الحسن المعروف بابن أبي الصقر الواسطي: شاعر من أهل واسط، وكاتب ومن فقهاء الشافعية، كان يتعصب لهم وله فيهم قصائد، له ديوان شعر في مجلد رأه ابن خلكان بدمشق، توفي سنة 498 هـ.

(2) خريدة القصر / قسم العراق مج 1 / ج 4 / 326-327

فَنَسَبَ نِظَامَ الْمُلْكِ إِلَى بَنِي جَهْمِ الْجَهْرَ بِتِلْكَ الْفِتْنَةِ، وَحَتَّى أَحْنَاءَ ضُلُوعِهِ لَهُمْ عَلَى الْإِحْتِ، وَأَتَّفَقَتْ وَفَاةُ ابْنَةِ نِظَامِ الْمُلْكِ زَوْجَةَ عَمِيدِ الدَّوْلَةِ فِي شِعْبَانَ سَنَةِ سَبْعِينَ وَدَفَنْتْ بَدَارَ الْخُلَافَةِ إِكْرَامًا لِأَبِيهَا وَلَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِالذَّفْنِ فِيهَا، وَجَلَسَ فَخْرُ الدَّوْلَةِ أَبُو نَصْرِ الْوَزِيرُ وَابْنُهُ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ لِلْعَزَاءِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي دَارِهِ بِيَابِ الْعَامَّةِ، وَقَامَا بِسُنَّةِ التَّعْزِيَةِ وَشُرُوطِهَا التَّامَّةِ وَانْقَطَعَ مَا بَيْنَ النِّظَامِ وَبَيْنَهُمْ مَا كَانَ اتَّصَلَ مِنَ النِّظَامِ وَأَذْنَتْ عُرَا النَّسَبِ بِالْإِنْفِصَامِ. وَوَصَلَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ لِشِحْنَكِيَّةِ بَغْدَادَ سَعْدُ الدَّوْلَةِ كَهْرَائِثِينَ وَضُرِبَ عَلَى بَابِهِ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الثَّلَاثِ الطَّبْلُ، وَكَانَ قَدْ مَنَعَ مِنَ ذَلِكَ وَقِيلَ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَةٌ مِنْ قَبْلٍ، وَأَعْقَبَ ذَلِكَ عَزَلَ الْوَزِيرِ فَخْرُ الدَّوْلَةِ بِنِ جَهْمِ وَذَلِكَ أَنَّ كَهْرَائِثِينَ أَوْصَلَ عِنْدَ وَصُولِهِ كِتَابًا مِنَ السُّلْطَانِ إِلَى الْخَلِيفَةِ يَتَضَمَّنُ عَزَلَ الْوَزِيرِ لِأَوْزَارِهِ، وَجُمُودِ مَنَابِعِ مَنَافِعِهِ وَمَضَاءِ مَضَارِبِ مَضَارِهِ، فَقِيلَ فِي الْجَوَابِ إِنَّهُ لَيْسَ بِوَزِيرٍ وَلَا مُتَوَلِيٍّ تَدْبِيرٍ، وَإِنَّمَا الْوَزِيرُ وَلَدُهُ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ وَقَدْ قَصِدُ نَحْوَكُم بِالْمُعْسَكِرِ وَهَذَا وَالدُّهُ يَنْوُبُ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَحْضُرَ، وَكَانَ عَمِيدُ الْمُلْكِ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ خَرَجَ إِلَى الْمُعْسَكِرِ يَسْتَجِدُّ جَدَادًا وَيَسْتَجِدِّي جَدِي وَيَسْتَأْدِي يَدًا وَيَسْتَهْدِي هُدًى، وَعَرَفَ أَنَّ كَهْرَائِثِينَ إِنْ صَادَقَهُ فِي الطَّرِيقِ طَرَفَهُ وَصَدَقَهُ، وَأَصْرَفَ فِي قَصْدِ صَدِّهِ وَصَدَّ قَصْدِيهِ وَصَرَفَهُ، فَعَرَجَ فِي الْحَالِ وَأَتْبَعَ تَرْحَالَهُ بِالْتَّرْحَالِ.

وَجَاءَ كَهْرَائِثِينَ فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرٍ إِلَى بَابِ الْفِرْدُوسِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ مِنَ السَّكْرِ فَعَلِقُوا دُونَهُ وَرَبَطُوا هُنَاكَ حَيْلَهُ وَأَقَامَ يَوْمَهُ وَكَلِمَتَهُ وَقَالَ لَا بُدَّ لِي مِنَ الْوَزِيرِ وَلَا مَهْلَةَ فِي التَّأخِيرِ، فَلَمَّا عَرَفَ فَخْرُ الدَّوْلَةِ الْحَالَ قَدَّمَ السُّؤَالَ وَطَلَبَ الْإِعْتِزَالَ فَأَذِنَ لَهُ أَنْ يَعْتَزَلَ وَيَلْزَمَ الْمَنْزَلَ وَخَرَجَ إِلَى كَهْرَائِثِينَ تَوْقِيعُ فِيهِ لَمَّا عَرَفَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بِنِ جَهْمِ مَا عَلَيْهِ جَلَالُ الدَّوْلَةِ وَنِظَامُ الْمُلْكِ مِنَ الْمَطَالِبَةِ بِصَرْفِهِ سَأَلَ الْإِذْنَ فِي مُلَازِمَةِ دَارِهِ إِلَى أَنْ يُكَاتَبَ فِي أَمْرِهِ وَلَمْ يَزَلْ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ يَسْتَعْطِفُ نِظَامَ الْمُلْكِ حَتَّى عَطَفَ، وَيَتَأَلَّفُ قَلْبَهُ حَتَّى انْقَلَبَ إِلَى مَا أَلْفَ، وَأَلْزَمَهُ تَقَلُّدُ مِنْهُ وَرَوَّجَ ابْنَتَهُ بِابْنِهِ وَعَادَ إِلَى عَادَتِهِ الْعَادِلَةِ وَشَامَ لَهُ عَارِضٌ عَارِضِهِ الشَّاطِطَةَ وَكَتَبَ إِلَى كَهْرَائِثِينَ بِإِعَادَتِهِ إِلَى الْخُدْمَةِ وَزِيَادَتِهِ فِي النُّحْرَمَةِ، وَسَأَلَ الْخَلِيفَةَ فِي الْإِعْضَاءِ عَنِ رِزْقِهِ وَالرِّضَا عَنْ مَنْزِلَتِهِ وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ عَزَلَهُ الْخَلِيفَةُ عَنْ خُدْمَتِهِ وَنَقَلَهُ إِلَى مَنْزِلَتِهِ، وَرَتَّبَ الْوَزِيرَ أَبَا شُجَاعٍ مُحَمَّدَ بْنَ الْحُسَيْنِ نَائِبًا فِي الْوِزَارَةِ وَبِالدِّيْوَانِ وَجَلَسَ بَغْيَرٍ مِعْخَدَةً.

ثُمَّ وَزَرَ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ بِنِ جَهْمِ لِلْمُقْتَدِيِّ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَأُفِيضَتْ عَلَيْهِ خَلْعٌ أَذْنَتْ بِتَجْمِيلِهِ وَتَوَلَّى أَمِينَ الدَّوْلَةِ بِنِ الْمُوصَلَايَا قِرَاءَةَ تَوْقِيعِ خَرَجٍ فِي حَقِّهِ بِتَجْمِيلِ، وَلَمَّا كَانَ

الكتاب الذي صَنَفَهُ الْوَزِيرُ أَبُو شُرَوَانَ الْمُسَمَّى بِ(فُتُورِ زَمَانِ الصُّدُورِ وَصُدُورِ زَمَانِ الْفُتُورِ) وَعَرَبِيَّتُهُ وَهَدَيْتُهُ قَدْ انْتَهَيْتُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى مُفْتَتِحِهِ، وَفَسَّرْتُهُ عَلَى مُقْتَرِحِهِ، وَصَلْتُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الَّتِي ذَكَرْتُهَا بِهِ وَجَعَلْتُهَا طَرِيقاً إِلَى دُخُولِ مَا بِهِ، لَكِنِّي عِنْدَ تَقْضِيِ أَيَّامِ كُلِّ سُلْطَانٍ وَتَقْضِيِ زَمَانِ كُلِّ ذِي شَانٍ أوردتُ حَوَادِثَ تَجَدَّدَتْ فِي عَصْرِهِ، وَأَخَّلَ أَبُو شُرَوَانَ بِنَشْرِ حَدِيثِهَا وَذِكْرِهِ، وَمَنْ هَاهُنَا يَتَّقِعُ مَا بَدَأَ بِهِ الْبَدَايَةِ، وَتَكْمُلُ بِتَعْرِيْبِهِ وَالْإِعْرَابِ عَنِ مَعْنَاهُ وَالْعِنَايَةِ، وَالْكِتَابُ هُوَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: رَبِّ يَسِرْ

أَيَّامُ السُّلْطَانِ جَلَالِ الدُّنْيَا وَالِدَيْنِ أَبِي الْفَتْحِ مَلِكِشَاهِ بْنِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ يَمِينِ  
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

عُقِدَ لُؤَاءُ سُلْطَنِيَّتِهِ فِي أَيَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَصْرُ خِلَافَتِهِ قَدْ قَارَبَ انْتِهَاءَهُ وَشَارَفَ انْقِضَاءَهُ، وَلَهَجَ عِنْدَ وَفَاتِهِ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ: [الطويل]

سَلَا أُمَّ عَمْرٍو كَيْفَ بَاتَ أَسِيرُهَا      يُغْلُ الْأَسَارَى حَوْلَهُ وَهُوَ مُوْتَقٌ  
فَإِنْ كَانَ مَقْتُولًا فَفِي الْقَتْلِ رَاحَةٌ      وَإِنْ كَانَ مَمْنُونًا عَلَيْهِ فَمُطْلَقٌ

وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَتَوَلَّى بَعْدَهُ الْخِلَافَةَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْتَدِي بِأَمْرِ اللَّهِ أَنَارَ اللَّهُ بَرَاهَنَهُ، وَيَابَعَهُ هَذَا السُّلْطَانُ، وَكَانَ مَلِكِشَاهَ مَلِكاً سِيرَتُهُ الْعَدْلُ، وَسِرِيرَتُهُ الْإِنصَافُ وَالْفَضْلُ، مُؤَيِّدًا بِالتَّوْفِيقِ مُظْفَرًا بِالتَّحْقِيقِ، حَسَنَ الْخَلْقَةِ وَالْخَلِيقَةِ، يَقَطُرُ مَاءَ الْبِشْرِ مِنْ طَلْعَتِهِ الطَّلِيقَةِ، قَدْ وَافَقَ مَنْظَرُهُ مَخْبَرَهُ فِي الْحُسْنِ وَالْحُسْنَى، وَلَهُ السَّنَنِ الْأَسْنَى، سَيِّدًا قِمْقَامًا شَجَاعًا مَقْدَامًا، صَائِبَ الرَّأْيِ وَالتَّنْدِيرِ، حَقِيقًا بِالتَّاجِ وَالْخَاتَمِ وَالسَّرِيرِ، وَكَانَتْ دَوْلَتُهُ مُسْتَقِيمَةً وَمَمْلَكَتُهُ وَشِيمَتُهُ وَنَعْمَتُهُ جَسِيمَةً، وَأَيَّامُهُ فِي أَيَّامِ آلِ سُلْجُقِ كَالْوِاسِطَةِ فِي الْعُقْدِ وَالْيَتِيمَةِ فِي سَلِكِ الدَّرِّ، وَكَلِيلَةَ الْقَدْرِ فِي لِيَالِي الشَّهْرِ، قَدْ تَنَاسَبَتْ فِي الْحُسْنِ بَدَايَتُهُ وَنَهَائَتُهُ، وَتَنَاسَقَتْ فِي الْإِقْبَالِ فَاتِحَتُهُ وَخَاتِمَتُهُ، وَطَبَقَ شِعَاعُ شَمْسِ دَوْلَتِهِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَرَوَّضَ حَيَاءً عَدْلِيَهُ الْبَعْدَ وَالْقَرَبَ، وَهُوَ مِنَ الرَّمَاةِ الْمُجِيدِينَ حَتَّى لَمْ يُخْطِئْ لَهُ فِي الْإِصَابَةِ وَهَمٌّ، وَلَمْ يَتَّقِعْ لَهُ دُونَ الْغَرَضِ سَهْمٌ، وَمِنَ الْحَازِقِينَ فِي الطَّعْنِ حَتَّى يَنْفَذَ بِطَعَانِهِ مُضَاعَفَ الزَّرْدِ، وَيَكَاذُ يَسْتَلْبُ بِسَنَانِهِ مِخْلَبَ الْأَسَدِ، وَلَمْ يَتَوَجَّهْ إِلَى إِقْلِيمٍ إِلَّا فَتَحَهُ، وَقَهَرَ الْعَدُوَّ وَفَدَحَهُ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ

إلى الشام وَأَنْطَاكِيَةَ بَلَغَ إِلَى حَدِّ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَقَرَّرَ أَلْفَ دِينَارٍ أَحْمَرَ تُحْمَلُ إِلَى خَزَائِنِهِ مِنْ تِلْكَ الْوَالِيَّةِ، وَوَضَعَ فِي الْوُحَايِ الَّتِي فَتَحَهَا مِنَ الرُّومِ خَمْسِينَ مِئْرًا إِسْلَامِيًّا أَبَدَلُ فِيهَا ظِلْمَةَ الضَّلَالَةِ بِنُورِ الْهُدَايَةِ، وَعَادَ إِلَى الرَّيِّ وَقَصَدَ فَتَحَ سَمَرْقَنْدَ، وَلَمْ تَزِدْ مَدَّةُ هَذِهِ الْأَعْمَالِ عَلَى شَهْرَيْنِ.

قَالَ شَرَفُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَدْ كُنْتُ أَقُولُ الْيَوْمَ لِلسُّلْطَانِ إِنَّا كُنَّا نَعْتَقِدُ مَا كَانَ يُذَكِّرُ مِنْ رُسْتَمٍ وَيُحْكِي مِنْ آثَارِهِ وَيَدْبِعُ أَحْبَابَهُ حِكَايَاتُ مَوْضُوعَةٌ وَأَحْبَابٌ مَسْمُوعَةٌ، وَالْيَوْمَ آثَارُكَ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْقَبُولِ عَنِ آثَارِ الْقَدَمَاءِ، وَتَرَى أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِأَقْلٍ مِنَ تِلْكَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ بِهَا عَنِ أَوْلِيكَ الْعِظْمَاءِ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَحَصَرَهَا نَزَلَ عَلَيْهَا وَحَصَرَهَا وَظَفَرَ بِخَائِنِهَا وَهُوَ فِي مَوْضِعِ سُلْطَانِهَا وَجَرَتْ لَهُ مَعَهُ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ هَزَمَهُ فِيهَا وَكَسَرَهُ وَظَفَرَ بِهِ وَأَسْرَهُ فَحَمَلَ غَاشِيَةَ السُّلْطَانِ عَلَى كَتِفِهِ وَسَارَ فِي رِكَابِهِ مِنْ مَوْضِعِ سَرِيرِ اِفْرَاسِيَابِ الَّذِي كَانَ مَلِكُ مَلُوكِ التُّرْكِ إِلَى مَوْضِعِ سَرِيرِ مُلْكِيهِ، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ، وَالنَّاسُ مَزْدَحْمُونَ لِلنَّظَرِ إِلَى جَمَالِهِ وَالْإِبْتِهَاجِ بِجَلَالِهِ، وَحَمَلَهُ أُسِيرًا إِلَى الْعِرَاقِ تَحْتَ الْوِثَاقِ، ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِ بِالْإِطْلَاقِ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِاعَادَتِهِ إِلَى مُلْكِيهِ، وَتَوَجَّهَ السُّلْطَانُ فِي السَّنَةِ الْأُخْرَى إِلَى أَوْزَخِ كِنْدِهِ وَوَصَلَ حَمْلُ أَنْطَاكِيَةِ إِلَيْهَا، وَإِنْقَادُ لَهُ مَلِكِ التُّرْكِ يَعْقُوبُ سَاوَتِكِينِ، وَرَتَبَ لَهُ فِي مَجْلِسِهِ مَقَامًا يَقِفُ فِيهِ لِذَلِكَ حَتَّى يَصَلَ بِهِ إِلَى أَصْفَهَانَ، ثُمَّ أَكْرَمَهُ وَشَرَّفَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى مَقَرِّ عِزِّهِ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَأَسْعَدَهُ وَأَسْعَفَهُ، وَهَذِهِ السَّعَادَةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ سَعَادَةِ الْوَزِيرِ الْكَبِيرِ خَوَاجَةِ بُزْرُكِ قَوَامِ الدِّينِ بْنِ نِزَامِ الْمُلْكِ أَبِي عَلِيِّ الْحُسَيْنِيِّ بْنِ عَلِيِّ بْنِ إِسْحَاقَ رَضِيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الْوَارِثِ الظِّلِّ، الْوَافِرِ الْفَضْلِ، النَّامِي السَّعَادَةِ، الْغَزِيرِ الْمَادَّةِ، السَّامِي السِّيَادَةِ، وَكَانَتْ وَزَارَتُهُ لِلدَّوَلَةِ حَلِيَّةً، وَبَهَجَتُهُ لِلْمَمْلَكَةِ زِينَةً، وَلَهَجَتُهُ عَنِ فِضَائِلِ السُّلْطَانَةِ مَبِينَةً، وَلَمْ يَزَلْ بِمَا حَوَى مِنْ خُلُقِي بَاسٍ وَكَرَمِ يَدِهِ الْعُلْيَا فَوْقَ كُلِّ يَدٍ وَتَحْتَ كُلِّ فَمٍ، كَأَنَّمَا خَلَقَهُ اللَّهُ لِلْمُلْكِ وَالْجَلَالَةِ مُصَوَّرًا، وَكَانَ الْإِقْبَالَ بِهِ مَعْلَمًا، وَالظَّفَرَ لَهُ مُسَخَّرًا، وَبَسَطَ إِنْعَامِهِ وَغِيضَ بَاسِهِ غَيْظَ الْبِأْسَاءِ الْمُسْتَشِيظَةِ، وَمَلَكَتْ مَهَابَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ مِنَ الدَّهْرِ مَهَبَّ شِمَالِهِ وَجَنُوبِهِ، وَمَشَى فِي رِكَابِهِ سُلْطَانُ الْعَرَبِ مُسْلِمُ بْنُ قُرَيْشٍ وَقَبَّلَ حَافِرَ مَرْكُوبِهِ، وَكَانَ مَلُوكُ الرُّومِ وَعِزَّتُهُ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ فِي ظِلِّ حِمَايَتِهِ وَكَنْفِ رِعَايَتِهِ، وَكَانَ مَلُوكُ الْأَطْرَافِ يُقْبَلُونَ كُتْبَهُ إِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا، وَيَتَشَرَّفُونَ بِلبسِ خِلْعِهِ، وَكَانُوا أَنْجَادًا لَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَجَرَّ الْجَحَافِلِ الثَّقِيلَةِ وَالْعَسَاكِرِ الْكَثِيفَةِ،

وَبَقِيَ فِي صَدْرِ الْوِزَارَةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَالدُّنْيَا بِحُكْمِ قَلْبِهِ وَتَحْتِ أَمْرِهِ وَتَهْيِهِ وَقَبْضِهِ وَبَسْطِهِ، وَكَانَ نَهَابًا وَهَابًا يَأْخُذُ مِنْ وَاحِدٍ بِالْإِجْبَارِ وَيَبْذُلُهُ لِآخَرَ بِالِاخْتِيَارِ، عَدْلًا وَجُودًا وَسَمَاحَةً، وَمِمَّا شَرَحَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ قَالَ: كُنْتُ فِي مُبْتَدَأِ أَمْرِي فِي خِدْمَةِ الْأَمِيرِ بِنَجِيرِ اسْبَهْسَلَارِ خُرَاسَانَ فَأَشْخَصَنِي إِلَيْهِ مِنْ مَوْضِعٍ كُنْتُ مُتَوَلِّيًا لَهُ تَحْتَ الْحَوَاطَةِ وَالتَّوَكُّيلِ وَأَنَا مُتَوَجِّهٌ نَحْوَهُ خَائِبَ الْأَمَلِ مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ مِنْ بَعْدِ الْوَصْلَةِ عَلَى فَرَسٍ نَحْرُونِ قَطُوفِ هَزِيلٍ يُتَعَبَّنِي سَيْرُهُ وَأَنَا فِي ضَرْبٍ شَدِيدٍ مِنْ رُكُوبِهِ، فَبَيْنَا أَنَا سَائِرٌ إِذْ ظَهَرَ مِنْ صَدْرِ الْبَرِيَّةِ تُرْكَمَانِيٌّ عَلَى فَرَسٍ يَجْرِي جَرِي الْمَاءِ رَهْوَانٌ، فَتَمَنَيْتُ مَعَ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ التَّعَبِ وَالْأَلَمِ الْقَلْبِ أَنْ أَكُونَ رَاكِبًا مِثْلَ ذَلِكَ الْفَرَسِ فَتَقَرَّبَ التُّرْكَمَانِيُّ حَتَّى اخْتَلَطَ بِالْمُوكَلِّينِ بِي وَكَلَّمَهُمْ ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تُقَايِضَ فَرَسَكَ بِفَرَسِي، فَحَسِبْتُ أَنَّهُ يَهْزَأُ بِي، وَقُلْتُ لَهُ يَجُوزُ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْمَحْنَةِ أَنْ تَسْتَهْزِئَ بِي؟ وَنَزَلَ فِي الْحَالِ عَنِ فَرَسِهِ وَأَعْطَانِيهِ وَأَخَذَ فَرَسِي، وَالْيَوْمَ لِي مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَتَمَنَى لِقَاءَ ذَلِكَ التُّرْكَمَانِيِّ وَأَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا أَجِدُهُ، وَكَانَتْ عَلَامَةُ نِظَامِ الْمُلْكِ فِي وَزَارَتِهِ (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمِهِ) وَكَانَ مُؤَيَّدًا مَوْفَقًا مِنْ جُمْلَةِ الْبَشَرِ مَخْصُوصًا مِنَ اللَّهِ بِالنَّصْرِ، وَالْفَتْحِ وَالظَّفْرِ وَالصُّوَابِ لَمْ يَزَلْ مَقْرُونًا بِرَأْيِهِ وَكَانَ لِلدِّينِ مُعْظَمًا، وَلِلشَّرْعِ مُؤَيَّدًا مَقْومًا، وَمَقَامَ السِّيَاسَةِ وَالسِّيَادَةِ يُحْكَمُ بِتَدْبِيرِهِ، وَالذَّهْمَاءُ سَاكِنَةٌ فِي أَيَّامِهِ، وَأَهْلُ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ رَاتِعُونَ فِي إِنْعَامِهِ، وَلَمَّا انْتَقَلَ إِلَى الرَّحْمَةِ فَكَأَنَّمَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ بِوَفَاتِهِ، وَمِنْ حِكَايَاتِهِ إِنِّي رَأَيْتُ إِبْلِيسَ فِي الْمَنَامِ فَكَلَّمَا طَرَدْتُهُ وَأَبْعَدْتُهُ لَا يَبْعُدُ وَقُلْتُ لَهُ مَا لَكَ عِنْدِي شُغْلٌ، أَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ إِسْحَاقٍ أَسْجُدُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ كَذَا وَكَذَا سَجْدَةً وَأَنْتَ أَمْرَكَ اللَّهُ بِسَجْدَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَيَّتَ، وَأَنْشَدَ: [مُخْلَعُ السِّبْطِ]

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا      فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذَنْبٌ  
ثُمَّ وَآلِي وَأَنْصَرَفَ.

وَفِي أَيَّامِ نِظَامِ الْمُلْكِ نَشَأَ لِلنَّاسِ أَوْلَادٌ تُجَبَّاءُ وَتَوَفَّرَ الْآبَاءُ عَلَى تَهْدِيدِ الْأَبْنَاءِ حَتَّى يُحْضِرُوهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَيَحْظَرُوا بِتَقْرِيْبِهِ فَإِنَّهُ كَانَ يُرْشِعُ كُلَّ وَاحِدٍ لِمَنْصَبٍ يَصْلُحُ لَهُ بِمِقْدَارِ مَا يَرَى فِيهِ مِنَ الرَّشِيدِ وَالْفَضْلِ، وَمَنْ وُجِدَ فِي بِلْدَةٍ قَدْ تَمَيَّزَ وَتَبَحَّرَ فِي الْعِلْمِ وَتَوَخَّذَ بِقُوَّةِ الْفَهْمِ بَنَى لَهُ مَدْرَسَةً وَوَقَّفَ عَلَيْهَا وَقَفًا وَجَعَلَ فِيهَا دَارَ كُتُبٍ، وَأَعَزَّ الدِّينَ وَرَفَعَ أَعْلَامَهُ وَكَأَنَّمَا عَنَاهُ أَبُو الصِّيَاءِ الْجَمِصِيُّ فِي قَوْلِهِ: [الطَّوِيلُ]

وَمَا خُلِقْتَ كَفَأِكَ إِلَّا لِأَرْبَعٍ      وَمَا فِي عِبَادِ اللَّهِ مِثْلَكَ مِنْ ثَانٍ  
 لِتَجْرِيدِ هِنْدِيٍّ وَإِسْدَاءِ نَائِلٍ      وَتَقْبِيلِ أَفْوَاهِهِ وَأَخْذِ عِنَانِهِ  
 وَمَا خَلَا زَمَانُهُ مِنَ الْأَنْمَةِ وَالرَّهَادِ وَالْعُبَادِ وَالْأَبْدَالِ وَالْأَوْتَادِ، وَوَسِعَ كَرَمُهُ الْوُفَا بِحَقْوَقِهِمْ  
 جَمِيعِهِمْ وَرَبَا الدِّينَ وَالْمُلْكَ جَمِيعاً.

وَظَهَرَ مِنْ تَدْبِيرِهِ فِي سِيَاسَةِ الْمَمَالِكِ مَا قَالَهُ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: عَجِبْتُ لِجِدَّةِ الْأَعَاجِمِ  
 مَلَكُوا أَلْفَ سَنَةٍ فَلَمْ يَحْتَاجُوا إِلَيْنَا سَاعَةً وَمَلَكْنَا مِائَةَ سَنَةٍ لَمْ نَسْتَغْنِ عَنْهُمْ سَاعَةً.

وَاخْتَصَّ عَصْرُهُ بِحَسَنَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَفِي دِيْوَانِهِ نَشْأُ طَبَقَاتِ الْكِتَابِ الْجِيَادِ وَقَرَعُوا الْمُنَاصِبَ  
 وَوَلَّوْا الْمُرَاتِبَ، وَلَمْ يَزَلْ بَابُهُ مَجْمَعُ الْفُضْلَاءِ وَمَلْجَأُ الْعُلَمَاءِ، وَكَانَ نَاقِداً بَصِيْراً، بَعْلَمُ كُلِّ  
 مِنْهُمْ خَبِيْراً، وَكَانَ يَبْحُثُ عَنْ أَحْوَالِ كُلِّ مِنْهُمْ وَيَسْأَلُ عَنْ تَصَرُّفَاتِهِ وَخَبْرَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَخَطِيئَتِهِ  
 وَرَبِيئِهِ وَشَيْمَتِهِ، فَمَنْ تَفَرَّسَ فِيهِ صِلَاحِيَّةَ الْوِلَايَةِ وَلَاهُ، وَمَنْ رَأَاهُ مُسْتَحِقّاً لِرَفْعِ قَدْرِهِ رَفَعَهُ  
 وَأَعْلَاهُ، وَمَنْ رَأَى الْإِنْتِفَاعَ بَعْلَمِيهِ أَغْنَاهُ، وَرَتَّبَ لَهُ مَا يَكْفِيهِ مِنْ جَدْوَاهُ، حَتَّى يَنْقَطِعَ إِلَى إِفَادَةِ  
 الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ، وَتَدْرِيسِ الْفُضْلِ وَذِكْرِهِ، وَرُبَّمَا سَيَّرَهُ إِلَى إِقْلِيمِ خَالٍ مِنَ الْعِلْمِ لِيَحْلِيَ بِهِ عَاطِلَهُ  
 وَيُحْيِيَ بِهِ حَقَّهُ وَيُمِيتَ بَاطِلَهُ.

تَوَلَّى الْوِزَارَةَ وَالْمُلْكَ قَدْ اخْتَلَّ نِظَامُهُ، وَالدِّينُ قَدْ تَبَدَّلَتْ أَحْكَامُهُ، فِي أَوَاخِرِ دَوْلَةِ الدَّلِيْمِ  
 وَأَوَاثِلِ دَوْلَةِ التُّرْكِ وَقَدْ خَرَبَتْ الْمَمَالِكُ بَيْنَ إِدْبَارِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ وَإِقْبَالِ هَذِهِ، وَقَدْ أَقْفَرَتْ  
 الْبِلَادُ وَأَقْوَتْ، وَاسْتَوْلَتْ الْيَدُ الْعَادِيَّةُ عَلَيْهَا وَتَقَوَّتْ، وَمَا فِي الْقُرَى قَارٍ، وَلَا فِي الدُّرَى مَنْ  
 يَزِيدُهُ لَعْدِلٍ وَارٍ، وَقَدْ قَامَتِ النَّوَائِحُ عَلَى النَّوَاحِي وَالنَّوَادِبُ عَلَى النَّوَادِي، وَعَمَّ الْبِلَاءُ الْبِلَادَ  
 وَخَصَّ السَّوَاءَ السَّوَادَ، وَأَغْفَلَتِ الْعِمَارَاتُ وَعَمَرَتِ الْغَفْلَاتُ، وَأَنْهَارَتِ الْأَنْهَارُ وَتَسَوَّرَتِ  
 الْأَسْوَارُ، وَعَرِيَتْ الرَّعِيَّةُ وَتَمْنَيْتِ الْمَنِيَّةُ، وَلِلْأَذَى أَذْيٌ زَاخِرٌ، وَلِلشَّرِّ شَرٌّ مُتَطَايِرٌ، وَالِدِيَالِمُ  
 فِي بَقَايَا نَزَوَاتِهِمْ، وَالْأَتْرَاكُ فِي مَبَادِي نَزْوَلِهِمْ، وَأَيْدِي الشَّرْعِ رَعِشَتْ، وَأَعْيُنُ الدِّينِ عُمِشَتْ،  
 حَتَّى جَاءَ نِظَامُ الْمُلْكِ إِلَى النِّظَامِ، وَالدِّينُ إِلَى الْقِرَامِ، وَقَوَاعِدُ الشَّرْعِ إِلَى الْإِبْرَامِ، وَقَوَاعِدُ  
 الْأَحْكَامِ إِلَى الْإِحْكَامِ، وَسَدَّ الْخَلَّةَ وَالْخَلَّلَ، وَحَلَى الْعَاطِلَ وَأَزَالَ الزَّلَّلَ، وَأَنَالَ الْمَقَاصِدَ  
 وَأَلَانَ الشَّدَائِدَ، وَذَلَّلَ الْجَوَامِحَ، وَأَجَارَ الْجَوَائِزَ وَاجْتَاخَ الْجَوَائِحَ، وَحَلَّمَ السَّفِيَةَ وَعَلَّمَ  
 الْفَقِيَةَ، وَتَبَّهَ عَلَى النَّبِيِّ وَصَانَ وَجْهَ الْوَجِيهِ، وَأَعْدَى عَلَى الْعَادِي وَأَعْدَلَ التَّنْدَى إِلَى النَّادِي،  
 وَنَفَحَ لَفْظَ الْفُضْلِ وَأَنْبَطَ عَدَا الْعَدْلِ، وَعَمَدَ إِلَى الْمُلْكِ فِي مَبَادِي نَسْبِهِ وَرَبِّيهِ، وَنَظَرَ فِي

عواقبِ فتنتهِ وَنَيْبِهِ وَتَبِيئِهِ، وَعَمَّ الْوَالِيَّاتِ وَالْإِمَارَاتِ، وَكَانَتْ الْعَادَةُ الْجَارِيَةُ بِجَبَايَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْبِلَادِ وَصَرَفِهَا فِي الْأَجْنَادِ فِي مَوَاسِمِ الْإِنْفَاقِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ إِقْطَاعٌ وَرَأَى نِظَامُ الْمَلِكِ أَنَّ الْأَمْوَالَ لَا تُحْصَلُ مِنَ الْبِلَادِ لِاخْتِلَالِهَا وَلَا يَصِحُّ مِنْهَا ارْتِفَاعٌ لِاعْتِلَالِهَا فَفَرَّقَهَا عَلَى الْأَجْنَادِ إِقْطَاعًا، وَجَعَلَهَا حَاصِلًا وَارْتِفَاعًا، فَتَوَفَّرَتْ دَوَاعِيهِمْ عَلَى عِمَارَتِهَا، وَعَادَتْ فِي أَقْصَرِ مُدَّةٍ إِلَى أَحْسَنِ حَالَةٍ مِنْ خِلَّتِهَا، وَحَمَى كُلُّ مِنْهُمْ إِقْطَاعَهُ، وَأَهْلَ رِبَاعِهِ وَوَفَّرَ ارْتِفَاعَهُ، وَكُلَّمَا اسْتَمَرَّتِ الدَّوْلَةُ بِهَا اتَّسَعَتْ عِمَارَاتُ الْبِلَادِ وَاتَّسَقَّتْ آثَارَاتُ السَّدَادِ، فَتَمَدَّدَتْ الْقُرَى وَأَثْرَى الثَّرَى وَرَوَى الْوَرَى، وَتَبَدَّلَتْ الْمِحْنُ بِالْمَنْحِ وَالشُّكَاوَى بِالْمَدْحِ، وَالتَّرْحُ بِالْفَرَحِ، وَانْحَلَّتْ ظِلْمُ الظُّلْمِ، وَانْجَلَّتْ ظِلُّ العُدْمِ، وَتَفَقَّتِ الْفَضَائِلُ فِي سَوَاقِهَا، وَاتَّفَقَتْ الْفَوَاضِلُ بِسُوقِهَا، وَكَانَ لِلسُّلْطَانِ نُسْبَاءٌ يُدْلُونَ بِسَبِيهِ وَيَدْلُونَ بِنَسَبِهِ وَيَسْطُونَ بِأَنَّهُمْ دَوُو قَرَابَتِهِ وَيَدْعُونَ حَمِيمَ رِعَايَتِهِ فَفَصَّرَ أَيْدِيَهُمْ وَمَنَعَ تَعْدِيَهُمْ، وَسَاسَهُمْ بِتَدْبِيرِهِ وَدَبَّرَهُمْ بِسِيَاسَتِهِ، وَكَفَّفَهُمْ بِهَيْبَتِهِ وَأَهَابَ بِهِمْ إِلَى كِفَايَتِهِمْ، وَرُبَّمَا قَرَّرَ لِوَاحِدٍ مِنَ الْجُنْدِ أَلْفَ دِينَارٍ فِي السَّنَةِ، فَوَجَّهَ نِصْفَهُ عَلَى بَلَدٍ مِنَ الرُّومِ وَنِصْفَهُ عَلَى وَجْهِ فِي أَقْصَى خُرَاسَانَ، وَصَاحِبُ الْقَرَارِ رَاضٍ، وَلِيَقِينَهُ بِحُصُولِ مَالِهِ غَيْرَ مُتَقَاضٍ، وَتَوْقِيعُهُ مَأْمُونٌ التَّعْوِيقِ، وَتَوْقِيفُهُ لِسَهْمِ السَّدَادِ مَقْرُونٌ بِالتَّصَدِيقِ، فَقَسَمَ الْمَلِكُ الَّذِي حَازَهُ السِّيفُ بِقَلْبِهِ أَعْدَلَ تَقْسِيمٍ وَقَوْمَهُ أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ، وَعَادَ الزَّمَانُ بِتَأْثِيرِ حَقِّهِ لَا لِفَوْقِهَا وَلَا تَأْثِيمٍ وَكَانَ كَمَا قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِي (1): [الوافر]

بِسِيفِ الدَّوْلَةِ اتَّسَقَّتْ أُمُورٌ      رَأَيْنَاهَا مُبَدَّدَةَ النِّظَامِ  
سَمًا وَحَمَى بَنِي سَامٍ وَحَامٍ      فَلَيْسَ كَمَثَلِهِ سَامٌ وَحَامٍ  
وَكَانَ يَنْظُرُ فِي الْأَوْقَافِ وَالْمَصَالِحِ      وَيُرْتَبُّ عَلَيْهَا الْأَمْنَاءُ وَيُسَدِّدُ فِي أَمْرِهَا، وَيَتَحَوَّبُ  
عَنْ قُرْبِهَا وَيَرْعَبُ فِي أَجْرِهَا، وَيَحْمِي سُبُلَهَا وَيَصُونُ مَجَلَّهَا وَيَكِلُهَا إِلَى الْأَمْنَةِ، وَلَا يَدْعُهَا  
مَأْكَلَةً لِلْخَوْنَةِ، وَوَضَعَ عَلَى مُلُوكِ الْأَطْرَافِ وَعَلَى إِقَالِيمِ الْمَمَالِكِ وَالْأَمْصَارِ حُمُولًا لِخِزَانَةِ  
السُّلْطَانِ يَحْمِلُونَهَا وَخِدْمًا عَنْ عِصْمَةِ وَلَايَاتِهِمْ يَصِلُونَهَا، وَقَرَّرَ مَعَهُمُ الْحَضُورَ إِلَى الْخِدْمَةِ

(1) البيتان في: ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق: شاکر العاشور، ط 3، دمشق، 2011 م، 328، والبستي هو أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي، شاعر عصره وكتابه، ولد في (بست) قرب سجستان وإليها نسب، وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، وقدمه الأمير سيكتكين وابنه محمود، ثم أخرجته هذا إلى ما وراء النهر، فمات هناك قريباً من بلدة (أورجند) ببخارى سنة 400 هـ، وله ديوان شعر مطبوع جمعه الأستاذ شاکر العاشور وطبعه غير مرة

وَمُوَالاةِ الْخِدْمَاتِ لِلْحَضْرَةِ وَالْوَصُولِ بِالْعَسَاكِرِ الْجَمَّةِ، وَالْقِيَامِ بِكُلِّ مُهْمَةٍ فِي دَفْعِ النُّوَابِثِ الْمُلِمَّةِ، حَتَّى مَلَأَ الْخَزَائِنَ بِالذَّخَائِرِ وَالْفَلَاحِ بِالْعَسَاكِرِ، وَنَشَأَ لَهُ أَوْلَادٌ كَبُرُوا فِي دَوْلَتِهِ وَوَلَاهُمُ الْبِلَادَ، وَمَلَكَهُمْ مِنَ الزَّمَانِ الْقِيَادَ، وَمَوَلَّهُمْ وَخَوَّلَهُمْ وَأَغْنَاهُمْ وَأَقْنَاهُمْ، وَأَوْطَأَ عَقِبَهُمْ وَأَعْلَى رُتَبَهُمْ، وَكَمَا وَقَّرَ الْأَمْوَالَ عَلَى الْخِزَانَةِ وَالْعَسْكَرِ، جَعَلَ فِيهَا لِأَرْبَابِ الْعُلُومِ وَأَصْحَابِ الْحَقُوقِ حَقُوقًا لَا تُؤَخَّرُ وَرُسُومًا لَا تُغَيَّرُ، وَصَيَّرَ إِحْسَانَ السُّلْطَانِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِيرَاثًا يَأْخُذُونَهُ بِقَدْرِ الْفِرَاطِضِ، وَيَأْمَنُونَ بِهِ النُّوَابِثِ وَالْعَوَارِضِ، وَإِذَا تَوَفَّى صَاحِبٌ رَسَمَ قَسَمَهُ عَلَى وَرَثَتِهِ وَوَزَعَهُ عَلَى عَصَبَتِهِ وَقَضَّهَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا جَرَمَ تَذَلَّلَتْ لَهُ الْمِصَاعِبُ، وَتَيَسَّرَتْ لَهُ الْمَطَالِبُ، وَتَفَتَّحَتْ لَهُ الْمَغَالِقُ، وَدَانَتْ لِحُكْمِهِ الْمَغَارِبُ وَالْمَشَارِقُ، وَبَدَّلَ الْأَمَالَ وَاقْتَنَى الْحَمْدَ وَهَدَمَ الثَّرَاءَ، وَابْتَنَى الْمَجْدَ مَا اجْتَمَعَ الْمَالُ وَحَسَنَ الشَّاءَ قَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا لِانْسَانِ فَأَيُّ هَذَا لَيْسَ يُخْرِبُهُ صِيَانَةُ مَالِهِ عَنِ الثَّانِي، وَلَهُ فِي الْجُودِ مَقَامَاتٌ نَسَخَتْ أَخْبَارَ الْبِرَامِكِ وَنَسَجَتْ حُلَلًا لِلْمَمَالِكِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ: [الْمُتْقَارِبِ]

بَدَا حِينَ أَنْرَى بِأَخْوَانِهِ      فَقَلَّلَ عَنْهُمْ شِبَاهَ الْعَدَمِ  
وَحَدَّرَهُ الْعَزْمُ رَبِّبَ الزَّمَانِ      فَبَادَرَ بِالْقُرْبِ قَبْلَ النَّدَمِ

وَعِنْدَ الْوَصُولِ إِلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَقَعَ لِي هَذَا الْمَعْنَى، فَقُلْتُ: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

لَا يَقْتَنِي مَا جَدُّ ثَرَاءً      إِلَّا لِإِغْنَاءِ مُغْتَفِيهِ  
إِنْ صَانَهُ لِلزَّمَانِ دُخْرًا      عَادَاهُ صَرْفُ الزَّمَانِ فِيهِ  
وهذه الأبيات لا ثقة به وفيه: [البسيط]

الدِّينَ وَالْمُلْكَ مَنْصُورَانِ مِنْ هَمَمِكَ      وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ مَنْ فَطَرَ رَأْفَتَهُ  
فَأَصْبَحَ النَّاسُ بِأَدْبِهِمْ وَحَاضِرُهُمْ      وَمَا أَخَافُ وَيَبْتَ اللّهُ مِنْ قَسَمِي  
وَاللّهُ مَا كَانَ ذَاكَ الْمُبْلَغِي وَإِنْ      وَكَمَا قِيلَ فِيهِ: [البسيط]

انظُرْ تَرَى حَسَنًا كَمْ يَحْوَاهُ حَسَنٌ      أَمْ هَلْ فَتَى نَالَ جَدْوَاهُ بِجَدْوَاهُ  
الْبَحْرُ يَفْنَى وَلَا تَفْنَى مَوَاهِبُهُ      وَالْقَطْرُ يُحْصَى وَلَا تُحْصَى عَطَايَاهُ

وَلِلْقَاضِي أَبِي بَكْرِ الطَّرِيشِيِّ فِيهِ: [الوافر]

أَطَالَ يَسْدِي عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى

وَقَالَ أَيْضاً: [الطويل]

هُمُ سَلَّمُوا دَهْرِي إِلْسِي فَشَلُّوهُ  
أَمْزَقَهُ مَا مَرَّ [بِي] أَمِنْ صُرُوفِهِ

وَكذَلِكَ أَيْضاً: [البيسط]

رَوَى حَيَاتِي فَتَى وَالْمَوْتُ يُخْلِقُهُ  
وَاسْتَأْنَفَ الدَّهْرُ لِي عِزًّا بِخِدْمَتِهِ  
وَلَى شَبَابِي وَمَا اتَّبَعْتَهُ أَسْفَاءً  
مَهْمَا نَسَيْتُ فَلَا أَنْسَى الَّذِي فَعَلْتَ

### ذِكْرُ الْأَكْبَابِ وَالْكِتَابِ فِي زَمَانِهِ

الْكَمَالُ وَالشَّرْفُ وَسَيِّدُ الرُّؤَسَاءِ وَابْنُ مَهْمَنِيَارٍ وَتَاجُ الْمُلْكِ وَغَيْرُهُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَكَانَ  
نِظَامُ الْمُلْكِ مُؤَيِّدًا بِقَرِينَيْنِ مُؤْتَمَنَيْنِ لِدَوْلَتِهِ مُعَيَّنَيْنِ أَمِينَيْنِ بَلِّ يَمِينَيْنِ، وَهُمَا حَوَاجَةٌ كِمَالُ  
الْمُلْكِ أَبُو الرِّضَا فَضْلُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ صَاحِبُ دِيْوَانِ الْإِنشَاءِ وَالطَّغْرَاءِ، وَحَوَاجَةٌ شَرَفُ  
الْمُلْكِ أَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ صَاحِبُ دِيْوَانِ الرِّمَامِ وَالْإِنشَاءِ وَكِلَاهُمَا  
صَاحِبُ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالنَّجَاحِ وَالْمَالِ وَالدَّهَاءِ وَالدَّكَاةِ وَمَعْدَنُ الْفَضْلِ وَالْعَطَاءِ، وَكَانَا  
يَعْرِفَانِ النَّاسَ وَلَا يَنْسِيَانِ الْمَعْرُوفَ وَيَقْضِيَانِ الْحَقُوقَ وَيُعْثِيَانِ الْمَلْهُوفَ، وَكَانَ ظِلُّهُمَا  
لِلْفَضْلَاءِ مَقِيلًا، وَفَضْلُهُمَا لِعِثَارِ الْكِرْمَاءِ مَقِيلًا، وَجَنَى إِحْسَانِهِمَا دَانِي الْقَطَافِ لِلْمُؤَافِي،  
وَسَنًا إِحْسَانِهِمَا سَامِيًا لِإِسْعَافِ الْعَافِي، قَدْ اتَّخَذَ الْفَضْلَاءُ فِي أَكْنَافِهِمَا أَعْمَاشًا، وَاكْتَسَبَا  
مِنْ أَطْوَافِهِمَا رِيَاشًا، وَأَخْمَدُوا بَانصَافِهِمَا مَعَادًا وَمَعَاشًا، وَكَانَ لِهَيْدِيْنِ الْكَبِيرِيْنِ ابْنَانِ،  
وَالْكَمَالُ وَلَدُهُ سَيِّدُ الرُّؤَسَاءِ أَبُو الْمِحَاسِنِ مُحَمَّدٌ وَكَانَ مُقْبِلًا مَقْبُولًا مَمُولًا مَأْمُولًا، قَدْ  
اخْتَصَّهُ السُّلْطَانُ بِخِدْمَتِهِ وَأَخْتَارَهُ لِنِدْمَتِهِ، وَاسْتَأْمَنَهُ عَلَى سِرِّهِ وَاسْتَسْرَاهُ لِأَمَانَتِهِ، وَبَلَغَتْ  
مَنْزِلَتُهُ مِنْ اصْطِفَاءِ السُّلْطَانِ لَهُ وَاسْتِخْلَاصِهِ وَتَقْرِيْبِهِ فِي مَجَالِسِ أَنْسِهِ وَاخْتِصَاصِهِ إِلَى  
غَايَةِ لَمْ يَبْلُغْهَا أَنْسِي، وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا جَلِيْسِي، فَلَمْ يَكُنْ لِلْسُّلْطَانِ عَنْهُ صَبْرٌ وَلَا لَهُ دَوْنُهُ يَسْتَرُّ،

فَاسْتَبْطَأَهُ يَوْمًا عِنْدَ صَبُوحِهِ فَاخْتَلَّ عَلَيْهِ لِتَغْيِيهِ رُوحٌ وَرُوحِهِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ بِحَطِّ يَدِهِ بَيْتًا  
بِالْفَارْسِيَةِ مَعْنَاهُ:

إِنَّكَ لَا تَتَأَثَّرُ بِالْغَيْبَةِ عَنِّي فَإِنَّكَ تَجِدُ مَنْ تَأَنَسُ بِهِ

وَأَنَا أَتَأَثَّرُ بِغَيْبَتِكَ فَإِنِّي لَا أَجِدُ الْأَنْسَ بِغَيْرِكَ

وَصَارَ حَتْنًا لِنِظَامِ الْمُلْكِ وَتَزَوَّجَ بِابْنَتِهِ، وَزَادَ ذَلِكَ فِي مَنَزَلَتِهِ، وَضَرَبَ لَهُ سُرَادِقَ وَلَهُ  
الْكُوسُ وَالْعَلَمُ، وَالْخَيْلُ وَالْحَشَمُ وَالْخَوَلُ وَالنَّعْمُ، وَأَمَّا النَّائِبُ عَنِ شَرَفِ الْمُلْكِ فَقَدْ كَانَ  
الْأُسْتَاذُ أَبُو غَالِبِ التَّرَاوِسْتَانِي مِنْ أَهْلِ قَمْ، وَالنَّجِيبُ الْجَرَبَادْقَانِي، ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو غَالِبِ  
وَتَوَلَّى مَكَانَهُ فِي النِّيَابَةِ الْأَعَزُّ الْكَامِلُ أَبُو الْفَضْلِ سَعْدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى الْهَرَادِسْتَانِي،  
فَلَمْ يَزَلْ نَائِبًا إِلَى أَنْ صَارَ أَسْتَاذًا وَلَقَّبَ بِمَجْدِ الْمُلْكِ بَعْدَ شَرَفِ الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ  
السُّلْطَانِينَ كَأَبِي الْفَضْلِ الْمَذْكُورِ فِي الضَّبِطِ وَالتَّحْفِظِ وَالدِّكْرِ وَالتَّيَقُّظِ وَحِفْظِ الْقَوَانِينِ وَتَدْبِيرِ  
الدَّوَابِّ وَاحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ، وَتَقْلِيدِ أَطْوَاقِ مَنِي مَكَارِمِهِ الْأَعْنَاقِ، وَكَانَ أَيْضًا مُلْجَأً لِفُضْلَاءِ  
الزَّمَانِ وَمُوسِعًا عَلَيْهِمْ بِالْإِحْسَانِ وَكَانَ عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ وَفِي دِيْوَانِهِ كُتَابُ فُضْلَاءِ وَكُفَاءِ  
كُبْرَاءِ وَتُؤَابِّ عُلَمَاءَ وَدُهَاءِ أَذْكَيَاءَ، وَكَانَ لِمَتُولِي فَارِسَ وَزَيْرُ يُقَالُ لَهُ ابْنُ بَهْمَنِيَارِ وَيُلَقَّبُ بِعَمِيدِ  
الدَّوْلَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ بَصِيرٌ فِي الْأَعْمَالِ، بِهِ كَانَ التَّوْفِيرُ وَالتَّقْصِيرُ، خَيْرٌ بِالنَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ، وَهُوَ  
ذُو هِمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَلَهُ مَالٌ وَثَرَاءٌ وَطَلْعَةٌ وَرَوَاءٌ وَبَهْجَةٌ فِي الْمَنْظَرِ وَبَهَاءٌ، وَاتَّصَلَ بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ  
وَعَلَّتْ مَكَانَتُهُ وَسَمَّتْ مَنَزَلَتُهُ، وَصَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَيِّدِ الرُّؤَسَاءِ اتِّحَادًا وَصَدَاقَةً وَوَدَادًا، وَجَمَعَتْ  
بَيْنَهُمَا عَاهَةٌ عِدَاوَةِ الْوَزِيرِ نِظَامِ الْمُلْكِ وَمُخَالَفَتُهُ وَتَصَادُقًا عَلَى عِدَاوَتِهِ، وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ  
الْمُدْبِرِ إِذَا عَادَى الْمُقْبِلَ، فَإِنَّهُ لَا يَبُتُّ مَعَ زَلِيلِهِ حَتَّى يَتَزَلَّزَلَ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بُكِّنَا وَأُهِنَا وَطُرِدَا  
وَأُهِنَا، وَهَجِرَا بَعْدَ ذَلِكَ الْقُرْبِ، وَأَبْغَضَا بَعْدَ ذَلِكَ الْحُبِّ، وَسَجِنَا وَاعْتَقَلَا وَحَسِبَا وَسُمِلَا،  
فَأَضْمَحَلَّتْ مَعْرِفَةُ السُّلْطَانِ لُهُمَا فَعَادَتِ نُكْرَةً، وَصَارَتْ تِلْكَ الْحَالَةُ الصَّافِيَةَ مُتَكَدِّرَةً، وَتَبَدَّلَ  
الْإِكْرَامُ بِالْإِهَانَةِ وَالْإِعْزَازُ بِالْإِدْلَالِ، وَطُرِحَ الْإِدْبَارُ بِالْإِقْبَالِ، وَلَمْ تَزَلْ أَحْوَالُ السُّلْطَانِينَ عَلَى  
هَذَا الْمِثَالِ، كَمَا قَالَ أَبُو الْعَيْنَاءِ<sup>(1)</sup>: [البسيط]

(1) أبو العيناء: هو أبو عبد الله، محمد بن القاسم بن خلاد، الهاشمي بالولاء، الضريع، مولى أبي جعفر المنصور، ولد في الأهواز سنة 191 هـ، ونشأ في البصرة وبها سمع الحديث وسمع من أبي عبيدة والاصمعي وأبي زيد الأنصاري والعتبي وغيرهم، وكان أحفظ الناس وأفصحهم لساناً، ذكياً سريع الجواب، وله مع أبي علي البصري أخبار وأشعار ملاح، وكف بصره في الأربعين من عمره، وقدم سامراء وسكن بغداد مدة، وعاد إلى البصرة وتوفي فيها سنة 283 هـ.

إِنَّ الْمُلُوكَ بِلَاءٌ حَيْثُمَا حَلُّوا فَسْتَغْنِي بِاللَّهِ عَنِ أَسْوَابِهِمْ كَرَمًا  
فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَكْنَافِهِمْ ظِلٌّ  
وَلِلْوَزِيرِ أَبِي [.....]<sup>(1)</sup> غَايَةُ الْقَصْوَى: [الطويل]

وَمَنْ حَالَفَ السُّلْطَانَ حَالَفَ نَفْسَهُ  
وَمَنْ عَبَدَ النَّيْرَانَ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا  
وَلَكِنْ أَرَى إِكْرَامَهَا قَدْ أَهَانَهَا  
وَلَمْ يَلْقَ إِلَّا خَرًّا وَدُخَانَهَا  
وَسَقَطَتْ مَنَزَلَةٌ كَمَالِ الدَّوْلَةِ أَيْضًا لِسُقُوطِ مَنَزَلَةِ وَلَدِهِ وَأَدْرَكَتْهُ حَرَقَتُهُ وَنَكَبَتْهُ وَحَدَّثَتْ بِهِ  
حَادِثَةً وَخَدِمَ مِنْ مَالِهِ لِخِزَانَةِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ فِيهِ أَبُو الْمُعَالِي النَّخَّاسُ  
شِعْرًا بِالْفَارَسِيَّةِ مَعْنَاهُ:

إِنَّ ظَهْوَرَ كَمَالِ الدَّوْلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ دَلِيلٌ عَلَى زَوَالِهَا

فَإِنَّ زَوَالَ الْأُمُورِ عِنْدَ كَمَالِهَا

وَزَادَتْ جَلَالَةَ نِظَامِ الْمُلْكِ بَعْدَاوَةَ الْمَذْكُورِينَ أَضْعَافًا وَعَلَتْ إِشْرَاقًا وَإِشْرَافًا، وَلَمَّا  
صُرِفَ كَمَالُ الدَّوْلَةِ مِنْ دِيْوَانِ الطَّغْرَاءِ وَالْإِنْشَاءِ تَوَلَّى مَكَانَهُ مُؤَيَّدُ الْمُلْكِ أَبُو الْمُخْتَارِ  
بِحُكْمِ الْإِصَالَةِ وَوُعِيَتْ بِكَمَالِ الْمُلْكِ وَكَانَ مِنْ نَوَابِ كَمَالِ الدَّوْلَةِ أَبِي الرَّضَا وَأَتْبَاعِهِ فَبَلَغَ  
إِلَى مَنْصِبِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى مَذْهَبِهِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ، وَكَانَ الرَّئِيسُ تَاجُ الْمُلْكِ أَبُو  
الْعَنَائِمِ الْمَرْزُبَانُ بْنُ خَسْرُو فَيُرُوزٍ مِنْ أَوْلَادِ الْوَزِيرِ بَفَارَسٍ وَقَدْ خَدِمَ السَّرْهَنْكَ سَاوَتَكِينِ  
مُدَّةً، وَهَذَا الْأَمِيرُ كَبِيرُ الدَّوْلَةِ الْمُتَحَكِّمُ فِيهَا وَأَسْفَهْسَلَارُ الْعَسْكَرِ، وَكَانَ قَدْ أَثْنَى عَلَى تَاجِ  
الْمُلْكِ قَبْلَ وَفَاتِهِ عِنْدَ السُّلْطَانِ وَقَرَّطَهُ وَسَبَّكَرَهُ وَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ يُصَلِّحُ لِخِدْمَتِهِ، وَقَالَ إِنَّهُ مُعْتَمِدُهُ  
وَالْمُعَوَّلُ عَلَى أَمَانَتِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَخَزَائِنُهُ تَحْتَ حُكْمِهِ وَحُكْمِهِ، وَكَانَ رَجُلًا سَرِيًّا بَهِيمًا مَقْبُولًا  
صَبِيحًا بَهِيَجًا تَامَ الْخُلُقِ فَصِيحَ اللَّهْجَةِ حَسَنَ الْبَهْجَةِ، ذَا هِمَّةٍ عَلِيَاءٍ وَفِطْنَةٍ وَسَخَاءٍ كَمَا قَالَ  
زَهَيْرٌ<sup>(2)</sup>: [الطويل]

(1) فراغ في الأصل.

(2) زهير بن أبي سلمى: هو زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح السلمى، من مؤمنة من مضر، حكيم الشعراء في  
الجاهلية ومن أصحاب المعلقات، كان أبوه وخاله شاعرين وكذلك كان ابنه كعب وبجيز، كما كانت أخته سلمى  
والخنساء شاعرتين، ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة وكان يقيم في الحجر بنجد، وكان ينظم القصيدة في شهر  
وينقحها ويهدئها في سنة، فكانت قصائده تسمى الحوليات، توفي في حوالي سنة 13 ق، هـ.  
وهذان البيتان لم يذكر في (ديوان زهير بن أبي سلمى، ط دار الكتب المصرية)

لَهُ هَمَّةٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا      وَهَمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِّنَ الدَّهْرِ  
لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا      عَلَى الْبَرِّ كَانَ الْبَرُّ أُنْدَى مِّنَ الْبَحْرِ  
فَقَبْلَهُ السُّلْطَانُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَسَكَنَ إِلَيْهِ وَاخْتَارَهُ وَارْتَضَاهُ وَعَدَّقَ بِهِ الْمَهْمَاتِ وَقَوَّضَ إِلَيْهِ  
الْخِدْمَاتِ وَوَلَاهُ وَزَارَهُ أَوْلَادِهِ الْمُلُوكِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ خِزَانَتَهُ وَوَلَاهُ النَّظَرَ فِي أُمُورِ دُورِهِ وَحَرَمِهِ  
وَعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الْوَلَاةِ وَقَوَّضَ إِلَيْهِ بَعْضَ الْعَسَاكِرِ، وَجَعَلَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ كَلِّهِ دِيْوَانَ الطَّرْفَاءِ  
وَالْإِنْشَاءِ. [السريع]

أَلْبَسَهُ اللَّكَّةَ ثِيَابَ الْعُلَا      فَلَمْ يَطُلْ عَنْهُ وَلَمْ يَقْصُرِ  
وَاسْتَنَابَ عَنْهُ الْكِيَا مُجِيرُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْفَتْحِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأَرْدِسْتَانِي وَصَارَ كَاتِبَ  
الرِّسَالِ، وَكَانَ أَوْحَدَ عَصْرِهِ وَتَسِيحَ وَحِدِهِ، وَكَانَ مَا عَنَاهُ الْمَاهِرُ الْحَلِيْبِيُّ<sup>(1)</sup> بِقَوْلِهِ: [البسيط]  
إِذَا امْتَطَى قَلَمٌ يَوْمًا أَنْامَلَهُ      سَدَّ الْمَعَاقِرَ وَاسْتَوْلَى عَلَى الْفِقْرِ  
أَوْ أَرَادَهُ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِي بِقَوْلِهِ<sup>(2)</sup>: [البسيط]

إِذَا أَقْرَّ عَلَى رِقٍّ أَنْامَلَهُ      أَقْرَّ بِالرَّقِّ كُتَّابُ الْأَنْامِ لَهُ  
وَكَانَ رَجُلًا سَكِينًا حَسَنَ السَّمْتِ وَالصَّمْتِ كَثِيرَ الْأَدْوَاتِ مَوْصُوفًا بِالثَّبَاتِ، فَغَيْرَ تَاجِ  
الْمُلْكِ مَلْحَتَهُ الْمُقْبُولَةَ وَإِصْغَاءَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِ أَوْضَاعَ الْمَمْلَكَةِ جَمِيعَهَا، وَبَدَّدَ نِظَامَهَا النَّظَامِيَّ  
وَبَدَّلَ إِحْسَانَهَا الْحَسَنِيَّ، وَنَقَضَ تِلْكَ الْمَعَانِي وَقَوَّضَ تِلْكَ الْمَبَانِي، وَكَانَ كَمَا قِيلَ: [الكامل]  
قَسَمْتَ يَدَاهُ عَفْوَهُ وَعِقَابَهُ      قِسْمَيْنِ ذَا وَبِلٍّ وَذَاكَ وَبِيَلَا  
وَأَذْهَبَ حَلَاوَةَ قَبُولِ الْوَزِيرِ مِنْ قَلْبِ السُّلْطَانِ إِلَيْهِ، وَظَهَرَتْ آثَارُ الْمَلَائِكِ عَلَيْهِ، وَنَطَقَتْ  
أَسَارِيرُهُ بِأَسْرَارِهِ كَالْمَاءِ يَبُوحُ بِأَسْرَارِهِ صَفَاؤُهُ، وَيَلُوحُ فِي قَرَارِهِ حَضْبَاؤُهُ، وَكُلَّمَا زَادَ تَقْرِبُ  
السُّلْطَانِ لِتَاجِ الْمُلُوكِ زَادَ تَقْرِبُ السُّلْطَانِ تَاجِ الْمُلُوكِ إِلَى الْوَزِيرِ بِالتَّوْفِيرِ وَالتَّوْقِيرِ، فَقَدْ  
كَانَتْ هَدِيَّتُهُ نَكْبَةً عَمِيدِ الدَّوْلَةِ وَسَيِّدِ الرُّؤَسَاءِ، فَلَمْ يَعْرِ مِنَ السُّلْطَانِ بِذَلِكَ إِلَّا وَبِالسَّكْنَةِ

(1) الماهر الحلبي: أبو الفتح أحمد بن عبيدالله بن فضال، الموزيني الحلبي، المعروف بالماهر، توفي سنة 452 هـ.

(2) ديوان أبي الفتح البستي: أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي، شاعر عصره وكتابه، ولد في (بُست) قرب سجستان وإليها نسب، وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، وقدمه الأمير سُبُكْتِكِين وابنه محمود، ثم أخرجه هذا إلى ما وراء النهر، فمات هناك غريباً في بلدة (أوزجند) ببخارى سنة 400 هـ، وله ديوان مطبوع بتحقيق الأستاذ شاهر العاشور، دمشق، 2011.

تُحِيلُ عَلَيْهِ، وَدَبَّتْ فِي الْبَاطِنِ عِقَابُهُ إِلَيْهِ، فَكَانَ يُكْرَمُ مَجْدَ الْمَلِكِ الْمُسْتَوْفِي وَوَيْتِي عَلَيْهِ عِنْدَ السُّلْطَانِ وَكَانَ سَدِيدَ الْمَلِكِ أَبُو الْمُعَلَّى الْمُفَضَّلُ عَبْدُ الرَّزَاقِ بْنُ عَمْرٍوَ عَارِضُ الْجُنَيْدِ، وَلَمْ يَزَلْ مُنْذُ نَشَأَ وَإِلَى آخِرِ الْوَقْتِ فِي دِيْوَانِ الْعَرَضِ، تَارَةً نَائِبًا وَتَابِعًا وَتَارَةً كَاتِبًا وَأَصْلًا، فَكَرَّبَهُ أَيْضًا تَاجُ الْمُلُوكِ وَأَكْرَمَهُ وَجَعَلَهُ مِنْ حِزْبِهِ، وَاخْتَصَّ كِلَاهُمَا بِقُرْبِهِ، وَاسْتَوْلَى بِهِمَا عَلَى حِيَارَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَاسْتَبَاعَ الْعَسَاكِرَ وَالرِّجَالَ، وَاتَّفَقُوا فِي حَلِّ نِظَامِ الْمَلِكِ وَمُخَالَفَتِهِ، وَغَيَّرُوا رَأْيَ السُّلْطَانِ فِي وَزَارَتِهِ، وَرَامُوا إِزَالَةَ ذَلِكَ الطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَنَثَرُوا ذَلِكَ السَّلْكَ النَّظِيمَ، وَهُوَ شَيْخٌ قَدْ طَعَنَ فِي سِنِّهِ وَبَلَغَ بِقُوَّتِهِ أَمَدَ وَهْنِهِ، وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ وَأَيْسَ عَنْ نَجَابَةِ أَوْلَادِهِ، وَقَدْ أَنْتَهَى نِفَاذُ الْأَمْرِ إِلَى مَدَى نِفَادِهِ، وَطَالَ عَمْرُهُ حَتَّى سَيَّمَهُ وَأَنْسَ بِالْمُلِمَاتِ فَلَنْ تُؤَلِّمَهُ وَلَمْ يَكْتَرِثْ بِهِمْ وَلَمْ يَلْتَمِثْ إِلَيْهِمْ وَلَا فَكَّرَ بِهِمْ، وَلَا كَرَّ عَلَى مَكْرِهِمْ، وَلَا تَأَثَّرَ بِكَيْدِهِمْ، وَلَمْ يُقِمْ وَزَنًا لِعَمْرِهِمْ وَزَيْدِهِمْ، فَفَتِيلَ يَوْمًا غَيْلَةَ بِسَكِينٍ مُلْجِدٍ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَجَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّرَّ مَا ظَنُّوهُ خَيْرًا لَهُمْ وَكَانَ خَطْبًا يَسِيرًا فِي رَدَمِ خَطْبِ كَبِيرٍ، وَأَرَادُوا يَسْتَأْنِفُوا الْأَمْرَ فِي أَوْلَادِهِ فِي مَلِكٍ قَدْ بَلَغَ آخِرَهُ وَيَسْتَجِدُّوا مَوَارِدَهُ وَقَدْ شَارَفَ مَصَادِرَهُ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ سَعَوْا فِي حَتْفِ أَنْفُسِهِمْ وَقَلْعِ مُغْرَسِهِمْ، وَكَأَنَّمَا قِيلَ فِي نِظَامِ الْمَلِكِ مَا قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ<sup>(1)</sup> فِي الْأَمِينِ: [الوافر]

أَظْلَمَ الْعَرَفُ بَعْدَكَ مُتَبِعُوهُ  
هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هَوَتْ الْمَعَالِي لِهَدْيَتِهِ وَرَبِيعَ الصَّالِحُونَ  
وَتُوْفِي السُّلْطَانُ مَلِكُ شَاهٍ بَعْدَ قِتْلِ الْوَزِيرِ بِثَلَاثَةِ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا، فَتَغَيَّرَتِ الْأُمُورُ وَتَفَرَّقَ الْجُمْهُورُ، وَحَالَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ، وَجَالَتْ فِي الْقُلُوبِ الْأَوْجَالُ، وَلَمْ يَعِشْ تَاجُ الْمُلُوكِ بَعْدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْخَطَرِ، وَالِاسْتِشْعَارِ وَالْإِرْتِيَابِ وَالتَّرَدُّدِ إِلَى الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قُتِلَ قِتْلًا ذَرِيعًا وَفَتِكَ بِهِ فَتَكَأَ شَنِيعًا، وَبُضِعَ بِالسِّيُوفِ تَبْضِيعًا، وَمُرِعَ لِحْمُهُ تَمْرِيعًا، وَنُهَبَتِ أَمْوَالُهُ وَأَحْوَالُهُ، وَلَمْ يَحِوِهِ مَمَالِكُهُ وَلَا رَجَالُهُ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ مَمَالِكِ نِظَامِ الْمَلِكِ

(1) البيتان في: أشعار الخليل الحسين بن الضحاك، جمعها وحققها عبدالستار أحمد فراج، دار الثقافة، بيروت، 1960 م، ص 119، والحسين بن الضحاك: أبو علي، الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي الشاعر، ولد في البصرة سنة 162 هـ وبها نشأ، وتوفي ببغداد سنة 250 هـ، اتصل بالأمين العباسي ونامده ومدحه، ولما ظفر المأمون خافه الحسين بن الضحاك فعاد وسكن البصرة، حتى إذا آلت الخلافة للمعتصم عاد ومدحه ومدح الواثق من بعده، أخباره كثيرة وشعره عذب، وكان يتهم أبا نواس بأخذ معانيه في الخمر.

أَتَهَمُوهُ بِقَتْلِهِ، لِمَا عَرَفُوهُ مِنْ عَدَاوَتِهِ وَدَخَلِهِ، فَأَجْمَعُوا عَلَى الْفِتْكِ بِهِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى عَطْبِهِ، فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ سَلَامَةَ تِلْكَ الدَّوْلَةِ وَأَرْبَابِهَا وَسَلَامَةَ سُلْطَانِهَا كَانَتْ بِسَلَامَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ مَنُوطَةً، وَبِحَيَاتِهِ مَحُوطَةً، وَبِارْتِبَائِهِ مَرْبُوطَةً: [الطويل]

وَكَمْ شَامَتْ بِي قَبْلَ مَوْتِي جَاهِلٌ      سَيَّبَلَى بِسَلِّ السَّيْفِ بَعْدَ وَفَاتِي  
وَلَوْ عَلِمَ الْمَسْكِينُ مَاذَا يَنَالُهُ      مِنْ الذَّلِّ بَعْدِي مَاتَ قَبْلَ مَمَاتِي

وَلَمَّا كَانَ حُكْمُ اللَّهِ بِبَقَاءِ ذَلِكَ الشَّيْخِ جَارِيًا، وَبِاقْبَالِهِ رَائِحًا وَغَادِيًا، مَا تَمَّ أَمْرٌ إِلَّا بِمُرَادِهِ وَمَا جَرَى صَوَابٌ إِلَّا بِاجْتِهَادِهِ فَمَا كَادَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَكْبَدَ، وَلَا أَبَدَى لَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُبِيدَ، وَمَعَ الشَّيْخُوخَةِ يَسْتَجِدُّ كُلُّ يَوْمٍ لِدَوْلَتِهِ شَبَابًا، وَيَسْتَنْجِحُ بِأَرَائِهِ آرَابًا، حَتَّى تَحْرَكَ الْقَضَاءُ السَّاكِنُ وَتَخَوْفُ الْمَلِكُ الْأَمْنُ، وَتَزْعَنُ الطَّوْدُ الثَّابِتُ وَتَطُقُ الْقَدْرُ السَّاكِنُ، وَتَحْدَثُ الْحَادِثُ الصَّامِتُ، وَصَوَّحَ الرُّوْضُ النَّابِتُ، وَتَجَارَتْ تِلْكَ الْعَرَارَةُ، وَغَاضَتْ تِلْكَ الْعَضَارَةَ، وَعَادَ الْبَشْرُ عُبُوسًا وَالنَّعْمَةُ بُوسًا، وَكَانَ مَعَ شَيْخُوخَتِهِ يَنْفُثُ سِمَامَهُ وَتَنْفُذُ سَهَامَهُ، وَتَتْرَى وَتَقْرَى سَيُوفُهُ وَأَقْلَامُهُ، وَكَمَا مَلَ السُّلْطَانُ طَوْلَ مُدَّتِهِ وَاسْتَطَالَهُ مَكْتَبَتِهِ وَأَصْغَى إِلَى وُشَاتِهِ وَأَصَاخِ إِلَى ذَوِي سَعَايَاتِهِ وَأَثَّرَتْ فِي قَلْبِهِ اخْتِلَافَاتُ الْمَزُورِينَ وَتَزْوِيرَاتُ الْمُخْتَلِفِينَ أَنْفَذَ إِلَيْهِ يَوْمًا تَاجَ الْمَلِكِ بِرِسَالَتِهِ، وَوَكَّلَ عَلَى لَفْظِهِ نَقِيْبَيْنِ مِنْ أَكْبَابِ خَوَاصِّهِ لِيُؤَدِّيَهَا إِلَى جَهْتِهَا وَلَا يَرِاقِبُهُ فِي آدَابِهَا وَيُبَالِغُ فِي إِبْلَغِهَا، وَكَانَ مَضْمُونُ رِسَالَتِهِ إِنَّكَ اسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَلِكِي وَقَسَمْتَ مَمَالِكِي عَلَى أَوْلَادِكَ وَأَصْهَارِكَ وَالْمَمَالِكِ فَكَأَنَّكَ فِي الْمُلْكِ شَرِيكٌ، أَتَرِيدُ أَنْ أَمَرَ بِرَفْعِ دَوَاةِ الْوِزَارَةِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَأُخْلَصَ النَّاسَ مِنْ اسْتِطَالَتِكَ؟ فَأَجَابَ بِجَوَابٍ ثَبَتَ رَابِطَ الْقَلْبِ حَاضِرِ اللَّبِّ غَيْرِ مُرْتَاعٍ وَلَا مُرْتَابٍ، وَقَالَ: قَوْلُوا لِلْسُّلْطَانِ كَأَنَّكَ الْيَوْمَ عَرَفْتَ أَنِّي فِي الْمُلْكِ مُسَاهِمُكَ وَفِي الدَّوْلَةِ مُقَاسِمُكَ؟ فَانَّ دَوَاتِي مُقْتَرَنَةٌ بِتَاجِكَ، فَمَتَى رَفَعْتَهَا رُفِعَ وَمَتَى سَلَبْتَهَا سَلِبَ، فَكَأَنَّمَا نَطَقَ بِمِثْلِ مَا بِهِ الْقَدْرُ سَبَقَ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْوِزِيرِ وَالسُّلْطَانِ إِلَّا شَهْرٌ وَاحِدٌ، وَكَمَا سَمِعَ جَوَابَ الرِّسَالَةِ فِي خَشُونَةِ رِسَالَتِهِ اِزْدَادَ فِي تَغَيُّظِهِ عَلَيْهِ وَاسْتِشْاطِيَتِهِ، وَأَثَّرَ فِي قَلْبِهِ تَخْوِيفُ النَّاقِلَيْنِ وَنَقْلُ الْمُخَوِّفِينَ، وَكَانَ بِمَا جَرَى عَلَى نِظَامِ الْمُلْكِ مِنَ الْاِغْتِيَالِ تَحْرِيرُ أَمْنِ السُّلْطَانِ مُضْمَرًا وَأَمْرًا مُبَيَّنًّا مُدْبَّرًا، فَلَمَّا مَضَى السُّلْطَانُ عَلَى أَثَرِهِ وَانْقَطَعَ أَمْرُهُ لَانْقِطَاعِ عَمْرِهِ، فَسَبَّ ذَلِكَ التَّأثيرَ إِلَى تَغْيِيرِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى

يُغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ ﴿١﴾ وَحَصَلَ لِلنَّاسِ التَّشْفِي بِذَلِكَ الْحَدَثَانِ وَاسْتُهِوْنَ بَعْدَ الْوَزِيرِ مَوْتُ السُّلْطَانِ، وَنَظَّمَ أَبُو الْمَعَالِي النَّخَاسُ أَيْبَاتًا بِالْفَارَسِيَّةِ لَمْ يَقْصُرْ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ الْوَزِيرِ وَالْجَمَاعَةِ فِي مَرَاتِبِهِمْ، وَذَكَرَ الْأَوْلَيْنِ وَمَنَاقِبَهُمْ وَالْآخِرِينَ وَمَعَابِيَهُمْ، فَحَرَّطَ زَمَانَ الْوَزِيرِ وَأَثْنَى عَلَى فِضَائِلِهِ، وَعَابَ عَصْرَ مَنْ خَلَفَهُ وَعَمَّصَهُ بِرذَائِلِهِ، فَقَالَ:

كَانَ مَلِكُكَ مِنْ أَبِي عَلِيٍّ وَأَبِي الرِّضَا بِالْعُلُوِّ وَالْفَضْلِ مُرْضِيَا

فَلَمَّا آلَ إِلَى أَبِي الْغَنَائِمِ وَأَبِي الْفَضْلِ وَأَبِي الْمَعَالِي عَادَ مِنْ كِسُورَةِ جَمَالِهَا عَرِيَا

عَنَى بِالْأَوْلَيْنِ نِظَامَ الْمُلْكِ الْوَزِيرِ وَشَرَفَ الْمُلْكِ الْمُسْتَوْفِي وَكَمَالَ الدَّوْلَةَ الْمُشْرِفَ الْمُنْشِي، وَعَنَى بِالْآخِرِينَ تَاجَ الْمُلْكِ الْوَزِيرِ وَمَجْدَ الْمُلْكِ وَسَدِيدَ الْمُلْكِ الْمُنْشِي، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، وَكَانَ تَاجَ الْمُلْكِ يُظْهِرُ أَنَّهُ صَائِمُ الدَّهْرِ، وَفِي مَدِيحِ تَاجِ الْمُلْكِ وَمَجْدِ الْمُلْكِ دَوَائِنُ أَشْعَارٍ، وَقَالَ فِيهِ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ بِالْفَارَسِيَّةِ أَيْبَاتًا عَرَبْتُهَا: [مَجْرُوءُ الْكَامِلِ]

بِاصْنَائِمٍ كَمَا يَزَلُ مِنْ كُلِّ شَرِّ صَائِمَا  
لَا زَالَ مُلْكُكَ بِالسُّعُو [م] دِ إِلَى الْقِيَامَةِ قَائِمَا  
لَا زَالَ طَرْفُ الدَّهْرِ عَنَّا [م] بِكَ أَبَا الْغَنَائِمِ نَائِمَا

وَمَا أَلْبَقَّ بِحَالِ مَجْدِ الْمُلْكِ أَبِي الْفَضْلِ قَوْلَ أَبِي سُلَيْمَانَ أَيُّوبَ: [الْبَسِيطُ]

إِنَّ الْمُعَلَى بْنَ أَيُّوبَ لَهُ شَرَفٌ مَازَالَ يَرْفَعُ أَعْضَادًا وَيَرْتَفِعُ  
إِنْ قَالَ أَفْعَلُ شَيْئًا فَهُوَ فَاعِلُهُ أَوْ قَالَ لَا لَمْ يَكُنْ فِي غَيْرِهِ طَمَعُ

وَكَانَ مَثَلُ كُلِّ كَبِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ أَبُو الْعَيْنَاءِ فِي الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ: (خَلَفَ آدَمَ فِي وُلْدِهِ فَهُوَ يَنْقَعُ غَلَّتَهُمْ وَيَسُدُّ خَلَّتَهُمْ، وَلَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ الدُّنْيَا مِنْ شَانِهَا إِذْ جَعَلَهُ مِنْ سُكَّانِهَا) وَمَعَ هَذِهِ الْخِلَالِ الرُّضِيَّةِ وَالْخِصَالِ الزُّكِّيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الذُّكِّيَّةِ وَالدرَجَةِ الْعَلِيَّةِ وَالْمَنْزَلَةِ الرَّفِيعَةِ وَالصِّيغَةِ الْوَسِيعَةِ لَمْ يَخْلُصُوا مِنْ أَبْنَاءِ الزَّمَانِ وَحَدَثَانِهِ وَمِنْ ابْتِلَاءِ الدَّهْرِ وَامْتِحَانِهِ، وَتَشَبَّهَتْ فِي أَعْرَاضِهِمْ مَخَالِبُ الْهَجَاءِ وَعَثَرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَةُ الشُّعْرَاءِ، وَقَدْ جَمَعَهُمْ أَبُو يَعْلَى ابْنُ الْهَبَّارِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ السَّنِينِيَّةِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا<sup>(2)</sup>: [الْكَامِلِ]

(1) سورة الرعد، آية 11

(2) خريدة القصر، قسم العراق 2 / 81 - 84، حذف العباد منها أيباتا كثيرة لأنه يعرض للخليفة، أقول: وليته أعرض عن ذكر الآخرين كما أعرض عن ذكر ما يمس الخليفة، ابن الهبارية: أبو يعلى، محمد بن محمد بن محمد بن صالح العباسي،

أَلْقَى وَلَكِنْ لَيْسَ لِي نَفْسُ  
 ثُمَّ الْقُرُونِ أَنْوَقُهُمْ فُطْسُ  
 وَلَهُمْ بِحُسْنِ مَدَائِحِي عُرسُ  
 طَمَعًا فَحَنَظَلْ ذَلِكَ الْغَرَسُ  
 خَرِفٌ لَعَمْرِكَ بَارِدٌ جِبْسُ  
 يَمْعِدُو وَدَارَ خَلْفَهُ الْقَسُ  
 جَنْبِ الْوَزِيرِ كَأَنَّهُ جَعْسُ  
 وَسُهَيْلٌ مِثْلُ الْكَلْبِ يَنْدَسُ  
 بِالنَّيْسِ فَرَطُ الْقُرْبِ وَالْأَنْسُ  
 يَمْعَلُو وَلَيْسَ لِيَوْمِهِ أَمْسُ  
 كَالْمَوْتِ فِيهِ الْبَرْدُ وَالْيَيْبُسُ  
 مِنْ بُخْلِهِ لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ  
 وَأَخْفُفٌ مِنْ حَرَكَاتِهِ قُدْسُ

هذه الأبيات الثلاثة في الأديب الزوزني وكان يُلقب بِكَمَالِ الْمُلْكِ وَكُنْيَتُهُ أَبُو الْمُخْتَارِ  
 وَكَانَ لَهُ مَنْصِبُ الطَّغْرَاءِ وَالْإِنْشَاءِ.

وَمُحَمَّدُ الْقَصَّابُ فَحَحْتُهُ لِأَيُّورِ قَصَّابِي نَسَارِمَسُ

هُوَ عَمِيدٌ وَاسَانٌ وَكَانَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ غُلَامٌ قَصَّابٌ بِمَدِينَةِ نَسَا.  
 وَحُرَيْبَةُ الْإِسْكَافُ خَازِنُهُ رَخْوُ الْحَتَارِ مُفَرَّسٌ قِلْسُ  
 قَدْ صَارَ مَالُ الْأَرْضِ فِي يَدِهِ عَفْوًا وَقَيْمَةٌ رَأْسُهُ فِلْسُ  
 يُعْرَفُ بِأَبِي حَرْبِ الْمُخَازِنِ، وَكَانَ أَقْرَعَ وَخَزَائِنُ الْأَمْوَالِ فِي يَدِهِ

هَذِي أَمْوَرُ الْمُلْكِ أَجْمَعُهَا فَسَعَوْدُهَا مِنْ أَجْلِهِمْ نَحْسُ

المعروف بابن المُهْبَارِيَّةِ، شَاعِرٌ هَجَاءٍ، وَلَدَ بَيْغَدَادَ سَنَةَ 414 هـ، وَأَقَامَ مَدَّةَ بَاصْبَهَانَ، وَفِيهَا مَلِكْشَاهُ وَوَزِيرُهُ نِزَامِ الْمُلْكِ،  
 وَهُوَ مَعَ الْوَزِيرِ أَحْبَابٌ، وَتَوَفَّى فِي كِرْمَانَ سَنَةَ 509 هـ، مِنْ آثَارِهِ (الصَّادِحُ وَالْبَاغِمُ) وَهِيَ أَرْجُوزَةٌ فِي أَلْفِ بَيْتٍ عَلَى  
 أُسْلُوبِ (كَلِيلَةِ وَدَمْنَةَ)، كَمَا نَظَّمَ (كَلِيلَةَ وَدَمْنَةَ) وَسَمَّى الْمُنْظُومَةَ (نَتَائِجَ الْفِطْنَةِ) وَلَهُ دِيْوَانٌ شَعْرٍ. وَجَمَعَ مُحَمَّدٌ فَاتَزَ  
 سَنَكْرِي طَرَابِيئِي مَا بَقِيَ مِنْ شَعْرِهِ.

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِأَنْ أَفَارِقَهُمْ  
لَكِنْ نِنَانِي عَنْ فِرَاقِهِمْ  
مَنْ ذَا أَرُومٍ وَأَجْتَدِيهِ لَقَدْ  
الْمُقْتَدِي الْمَسْكِينُ لَيْسَ لَهُ  
بِبَنِي وَيَنْقُضُ مَا يُشَيِّدُهُ  
هَذَا وَكُھَرَائِينُ شُحْنَتُهُ  
رَجُلٌ وَلَكِنْ مَالَهُ ذَكْرٌ

الأمير كُھَرَائِينُ كان شحنةً ببغدادَ وَكَانَ خَصِيًّا

وَأَبُو شَجَاعٍ فِي وَسَادَتِهِ  
أَبْنِي جَهْنِيرُ أَرْتَجِي وَهُمْ  
أَعْلَى أُمُورِهِمْ إِذَا نَفَقَ الطَّمَامُ  
وَاللَّهُ لَوْ مَلَكَوا السَّمَاءَ لَمَا  
أَمْ بِأَبِ إِبْرَاهِيمَ أَقْصَدُهُ  
قَدْ كَانَ مَحْبُوسًا وَكَانَ لَهُ  
أَمْ أَعْتَفِي ابْنَ أَخِيهِ مُرْتَجِيًّا  
نَدَفْتُ أَيْوُرَ التَّرِكَ فَفَحَحْتُهُ

كَانَ الْوَزِيرُ ابْنُ مُقَلَّةٍ<sup>(1)</sup> صَاحِبُ الْخَطِّ فِي وَزَارَةِ الْمُقْتَدِرِ جَالِسًا فِي طَيَّارِهِ وَقَدْ وَقَعَتْ فِي  
دَارِهِ مُقَلَّةٌ يَجْعَلُهَا النِّجَارُونَ فِي رَأْسِ الْمُثَقَّبِ وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهَا: [الكامل]

تَكَلَّتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ رَأْسِ الْمُثَقَّبِ  
فَانظُرْ بِعَيْنِكَ مَا صَنَعَتْ تَأْمَلًا  
وَأَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ دَارًا فِي الزَّاهِرِ فَرَمِيَتْ رَقْعَةً فِي دَارِهِ فِيهَا: [البيسط]

(1) ابن مقلة: أبو علي، محمد بن علي بن الحسين، وزير من الشعراء الأدباء، يضرب المثل بحسن خطه، ولد ببغداد سنة 272 هـ، ولي جباية الخراج في بعض أعمال فارس، واستوزره المقتدر، ثم غضب عليه وصادره ونفاه إلى فارس، واستوزره القاهر بالله فلم يكذب يتولى حتى اتهمه بالتآمر عليه واستوزره الراضي ثم نعم عليه وسجنه مدة وأخل سبيله، ثم علم أنه يكاتب أحد الخارجين عليه ويطمعه بدخول بغداد فقبض عليه وقطع يده اليمنى، ثم قطع لسانه وسجنه فمات في سجنه سنة 328 هـ.

فَلْ لَابِنٍ مُقْلَةٌ مَهْلًا لَا تَكُنْ عَجَلًا  
 تَبْنِي بِأَنْقَاضِ دُورِ النَّاسِ مُجْتَهِدًا  
 مَا زَلْتِ تَخْتَارُ سَعْدَ الْمُشْتَرِيِّ لَهَا  
 فَكذلكَ فِي أَيَّامِ هُؤُلَاءِ الصُّدُورِ مَعَ كَوْنِ أَمْوَالِكَ كَانَتْ مَوْقُوفَةً عَلَى الصَّلَاتِ  
 مَقْصُورَةً عَلَى الْمَبْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ مَصْرُوفَةً فِي أُبْنِيَةِ الْقَرَبَاتِ وَنِيَّةِ الْخَيْرَاتِ، وَجَدُوا رُقْعَةً  
 رُمِيَتْ فِي الدِّيْوَانِ فِيهَا بَيْتَانِ بِالْفَارْسِيَّةِ مَعْنَاهُمَا مَا نَظَّمْتُهُ عَرَبِيًّا: [السريع]

لَا عَجَبُ إِنْ خَفْتُ فِي عَصْرِكُمْ  
 يَسْتَوْعِبُونَ الْبَحْرَ وَالْبَرَّ مِنْ  
 أَجْوَعٍ مِنْ نَارِ أَرَاكُمُ كَمَا  
 لَأَتْسِنِي فِي دَوْلَةِ الْمَحَلِ  
 نَهَمْتِكُمْ بِالشَّرْبِ وَالْأَكْلِ  
 أَرَاكُمُ أَظْمَأْ مِنْ رَمْلِ  
 وَرُبَّمَا كَانَ بَيْنَ وَاحِدٍ مِنْ هُؤُلَاءِ الْأَكْبَابِ مِثْلِ ابْنِ مُقْلَةَ جَمَاعَةً مِنْ ذَوِي الْمَفَاخِرِ وَالْمَأْتَرِ،  
 رَأَيْتُ لِتَاجِ الْمُلْكِ صِلَةً وَاحِدَةً كَانَتْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي أَكْيَاسِهَا، وَلَعَلَّ ابْنَ مُقْلَةَ فِي  
 أَيَّامِ وَزَارَتِهِ لَمْ يَمْلِكْ هَذَا الْمَبْلَغُ، وَتَاجُ الْمُلْكِ حَيْثُذِ لَمْ يَكُنْ وَزِيرًا وَإِنَّمَا كَانَ فِي عَصْرِ نِظَامِ  
 الْمُلْكِ صَدْرًا كَبِيرًا. [الكامل]

الْمُلْكُ رَأْسَهُ بَأَنِي مُحَجَّرٌ  
 وَالِدَوْلَةُ الْفَرَاءُ قَالَتْ إِنَّنِي  
 يَناظِرِي فَمَتَى تَحُلُّ الْمَحْجَرَا  
 عَيْنٌ مُؤَزَّزَةٌ وَأَنْتَ لَهَا كَرَى  
 وَكَانَ نِظَامُ الْمُلْكِ مِنْ طُوسٍ يُقَالُ لَهُمْ فِي اصْطِلَاحِ النَّاسِ (بَقَرِ طُوسٍ) وَكَانَ  
 لِلْخَزَانَةِ صَانِعٌ يُقَالُ لَهُ حُسَيْنٌ، حَسَنُ الصَّنَاعَةِ فِي الصِّيَاغَةِ قَالَ: اسْتَدْعَانِي يَوْمًا نِظَامُ  
 الْمُلْكِ وَقَالَ أَحْضِرْ لِي قَوْلِبَ سُخُوبٍ فَأَحْضَرْتَهَا لَهُ، فَأَوَّلَ مَا وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى قَالِبٍ  
 فِيهِ صُورَةُ الْبَقَرِ وَقَدْ كُنْتُ غَفَلْتُ عَنِ الْحَدِيثِ فَضَحَكَ وَقَالَ يَا أَسْتَاذُ مَا تُحَلِّينَا مِنْ  
 يَدِكَ؟ فَلَمْ يَتْرِكِ الظَّرْفَ وَاللُّطْفَ مَعَ جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ، وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ الْهَبَّارِيَّةِ<sup>(١)</sup>:  
 [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

لَا غُرُوبَ إِنْ مَلِكُ ابْنِ إِسْمَ [م]  
 قَالَ دَهْرٌ كَالدُّوَلَابِ كَيْ [م]  
 حَاقَ وَسَاعَدَهُ الْقَدَرُ  
 نَسَّ يَدُورُ إِلَّا بِالْبَقَرُ

وَذَكَرَ شِعْرَاءَ الْعَجَمِ فِيهِ: أَنَّ اللَّهَ أَقَامَ الْأَرْضَ عَلَى قِرْنِ ثَوْرٍ وَمَلَكَهَا الثَّوْرُ، وَكَانَ فِي رَأْسِ كِمَالِ الدَّوْلَةِ أَبِي الرِّضَا فَضْلِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ قَرَعُ، فَقَالَ فِيهِ ابْنُ الْهَبَّارِيَّةِ: [البسيط]

كِمَالُ دَوْلَتِنَا نَقْصٌ لِدَوْلَتِكُمْ      وَفَضْلُكُمْ جَاهِلٌ نَادَى بِهِ النَّاسُ  
وَلَيْسَ هَمَّتُهُ إِلَّا كَهَامَتِهِ      فَتَلَّكَ سَاقِطَةٌ وَالْهَامَةُ الطَّاسُ

وَلِأَبِي الْمَعَالِيِّ النَّخَّاسِ فِي شَرَفِ الْمَلِكِ مِنْ آيَاتِ فَارَسِيَّةٍ مَعْنَاهَا: [الرملي]

شَرَفُ الْمُلْكِ أَرَاهُ خَيْرَهُمْ      وَهَوَّلِ الْكَلْبِ عَلَيْهِ شَرَفُ

وَقَالَ أَيْضًا فِي شَرَفِ الْمَلِكِ مَا مَعْنَاهَا: [مَجْزُوءُ الْوَافِرِ]

وَهَذَا الصَّادِرُ مِنْ قُمْ      فَتَقُمْ وَآخِرًا عَلَى قُمْ

قَالَ: وَسَمِعْتُ مُجَبِّرَ الدَّوْلَةِ أَبَا الْفَتْحِ الْكَاتِبَ الْإِرْسْتَانِيَّ آيَاتَ ابْنِ الْهَبَّارِيَّةِ فِيهِ وَهُوَ يُنْشِدُهَا: [الهنج]

أَبَا الْفَتْحِ أَبَا الْفَتْحِ      تَعَلَّمْتَ مِنْ الْقَوْمِ  
وَأَعْرَضْتَ وَعَرَّضْتَ      حِمَى عِرْضِكَ لِلْقَوْمِ  
مِنْ الْيَوْمِ تَغَيَّرْتَ      عَلَيْنَا وَمِنْ الْيَوْمِ

وَلِلْأَسْتَاذِ الْمَوْفِقِ أَبِي طَاهِرِ الْخَاتُونِيِّ<sup>(1)</sup> فِي سَدِيدِ الدَّوْلَةِ الْعَارِضِي: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

أَنْتَ الَّذِي كَوْنُهُ قَسَادٌ      فِي عَالَمِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ

وَمِنْهَا فِي أَبِي عَلِيِّ بْنِ زِيَادٍ: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

أَبَا عَلِيٍّ تُسَبِّتُ ظُلْمًا      مِثْلَ زِيَادٍ إِلَى زِيَادِ  
أَنْتَ بِهِ مُلْحَقٌ مَنْوُطٌ      كَوَاحِدِ الثَّرْدِ بِالزِّيَادِ

وَكَانَتْ بَيْنَ الْأَسْتَاذِينَ أَبِي طَاهِرِ الْخَاتُونِيِّ وَأَبِي الْحَسَنِ الْقَصْرِيِّ الصَّدْرِيِّ الْكَبِيرِينَ فِي الدَّوْلَةِ مُعَارَضَاتٌ فِي النَّظْمِ، فَلِأَبِي الْحَسَنِ الْقَصْرِيِّ فِيهِ: [المتقارب]

(1) أبو طاهر الخاتوني: قال براون: عاش الخاتوني حوالي سنة 500 هـ، ويبدو أنه اتخذ لقبه من تخلصه باسم الخاتوني نسبة إلى زوجة السلطان المسماة (جوهر خاتون) لأنه كان ملحقاً بخدمتها، وذكر الراوندي في كتابه (راحة الصدور) أنه كان يتولى قيد الصيد الذي يصيده (ملكشاه). وتنحصر شهرته في أنه ألف أقدم كتاب في تراجم شعراء الفرس، ومن سوء الحظ أن الكتاب مفقود. ادوارد براون. تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ترجمة إبراهيم الشويري، مط السعادة، القاهرة، 1954 م، 411-412.

أَبَاطَاهِرَ نَاكَكَ الْعَالَمُونَ      وَتَطْلِبُ نَارًا مِنَ النَّائِكِينَ  
 هَبْ أَنْكَ قَدْ نَكَتَ أَحْيَاءَهُمْ      فَمَنْ لَسَكَ بِالرَّمِّ الْهَالِكِينَ  
 وَكَانَ هَوْلًا أَكْبَرُ الدَّوْلَةِ ظُرْفًا وَقَضْلًا      وَكَانَتْ تَوَاجِدُنَا ضَاكِحَةً لِزَمَانِهَا مَالِكَةً فَذَهَبُوا  
 وَذَهَبَ الْفَضْلُ وَالْكَرْمُ وَعَدَمَتْ بِعَدَمِ الْمُتَعَمِّينَ النَّعْمَ. [الطويل]

وَمَا يَنْفَعُ الْأَدَابَ وَالْعِلْمَ وَالْحِجَا      وَصَاحِبُهَا عِنْدَ الْكِمَالِ يَمُوتُ  
 كَمَا مَاتَ لِقْمَانُ الْحَكِيمُ وَعَبِيرُهُ      وَكُلُّهُمْ تَحْتَ التَّرَابِ صُمُوتُ  
 وَلَاخَمْدَ بْنِ أَبِي طَاهِرٍ<sup>(1)</sup> فِي آلِ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ الْمُتَّجِمِ<sup>(2)</sup>: [الوافر]

مَكَارِمُ آلِ يَحْيَى كُلُّ يَوْمٍ      تَزِيدُ وَيَنْقُصُ النَّاسُ الْكِرَامُ  
 عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا آلُ يَحْيَى      خَلَّوْا فِيهَا وَخَلَّوْهَا السَّلَامُ  
 حَكَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَزِّ عَنِ الزَّبِيرِ بْنِ بَكَارٍ، قَالَ يَحْيَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ يَقُولُ:  
 دَخَلْتُ مِصْرَ فِي زَمَنِ مُوسَى الْهَادِي فَرَأَيْتُ بِهَا أَشْعَبَ<sup>(3)</sup> الطَّامِعِ وَهُوَ شَيْخٌ قَدْ فَنِي وَهُوَ  
 سَطِيحٌ فَأَتَيْتُهُ وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَتَسَبَّيْتُ فَاَنْتَسَبْتُ، فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ أَبَاكَ وَجَدَّكَ فَقَدْ كَانَا لِي أَحْوَرَيْنِ  
 وَخِلَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: مَتَى عَهْدُكَ بِحَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قُلْتُ: هَذِهِ وَجْهَتِي مِنْ  
 هُنَاكَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ أَحَدٌ؟ قُلْتُ: مَكَانُهُ. فَقُلْتُ: حَرَفَ وَاللَّهِ الشَّيْخُ، ثُمَّ قُلْتُ: لَا أَرَاكَ تَسْأَلُنِي  
 إِلَّا عَنِ الْجِبَالِ. قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّ الرِّجَالَ قَدْ ذَهَبُوا فَظَنَنْتُ أَنَّ الْجِبَالَ أَيْضًا قَدْ مَضَتْ فِي  
 آثَارِهِمْ. [مُخْلَعُ السِّبْطِ]

خَلَا عَلَى الدَّهْرِ مِنْ رِجَالٍ      مَدَّوْا إِلَى الْمَجْدِ كُلِّ بَاعٍ  
 تَوَسَّطُوا مَنْصَبَ الْمَعَالِي      تَوَسَّطَ الصُّلْبِ لِلنُّخَاعِ

(1) أحمد بن أبي طاهر: أبو الفضل، أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني، مؤرخ من الكتاب البلغاء الرواة، أصله من مروالروذ ومولده ببغداد سنة 204 هـ، وفيها وفاته سنة 280 هـ، كان مؤدب أطفال له نحو تحسين مؤلف منها تاريخ بغداد والنتور والمنظوم وغيرها.

(2) يحيى بن علي المنجم: هو أبو أحمد، يحيى بن علي بن يحيى بن منصور المعروف بابن المنجم، نديم أديب متكلم من فضلاء المعتزلة ولد ببغداد سنة 241 هـ ووجها توفي سنة 300 هـ، نادم الموفق بالله العباسي وعدة خلفاء آخرهم المكتفي، صنّف كتباً كثيرة منها (النجم) و(الباهر) في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

(3) أشعب الطامع: هو أبو العلاء، أو أبو القاسم أشعب بن جبيز، المعروف بأشعب الطامع، ويقال له: ابن أم حُميدة، ظريف من أهل المدينة، كان مولى لعبد الله بن الزبير، كان متادباً ومن رواة الحديث وكان يجيد الغناء، وعمر طويلاً، قيل إنه أدرك عهد عثمان وقدم ببغداد أيام المنصور، توفي في المدينة سنة 154 هـ.

[الكامل]

جَرَتِ الرِّيحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ فَكَانَتْهَا وَكَانَتْهُمْ أَحْلَامُ  
حَكِي الْمُبْرَدُ<sup>(1)</sup> أَنَّ سِتْرَ بَابِ كِسْرَى أَحْرَقَهُ الْمُسْلِمُونَ لَمَّا افْتَتَحُوا الْمَدَائِنَ فَأَخْرَجُوا مِنْهُ  
أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ بِيَعِ دِينَارًا بِعَشْرَةِ دِرَاهِمٍ فَبَلَغَ عَشْرَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ. [الْخَفِيفُ]

ثُمَّ أَضْحَوْا كَانَتْهُمْ وَرَقٌّ جَفَّ فَأَلْوَتْ بِهِ الصُّبَا وَالذَّبَابُ  
وَجِدَّ مَكْتُوبًا فِي دِهْلِيزِ دَارِ مُحَمَّدِ بْنِ سَلِيمَانَ الْهَاشِمِيِّ بِالْبَصْرَةِ [الْكَامِلُ]

بِأَمْنِ زَلَالِ كَعْبِ الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ طَوْرًا يُفْرَقُهُمْ وَطَوْرًا يَجْمَعُ  
أَيْنَ الَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ بِكَ مَرَّةً كَانَ الزَّمَانُ بِهِمْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

فِي مَا أَدْرَكْتُ مِنْ تِلْكَ الدَّوْلَةِ ذُنَابِي قَدْ شَارَفَتْ انْقِضَاءً وَانْقِضَابًا، وَأَوَانٌ لِيْلِهَا فِي  
سَحْرِهِ، وَوَرِيدِهَا فِي صَدْرِهِ، وَصَفْوُهَا قَدْ ذَهَبَ سَقِيًّا لِلْكَدْرِ، فَمَا ظَفَرْتُ بِطَائِلٍ وَلَا  
حَصَلْتُ عَلَى حَاصِلٍ، وَلَا وَصَلْتُ إِلَى وَاصِلٍ، وَلَا مَرَرْتُ بِمَقْصُودٍ وَلَا جُرْتُ بِمَحْمُودٍ.

[السريع]

بِأَيِّهَا السَّائِلَ عَنِ شَأْنِهِمْ عَيْبُكَ يَكْفِيكَ مَكَانَ السَّوَالِ  
اطْرَحْ بِعَيْنَيْكَ إِلَيَّ جَمْعَهُمْ وَأَنْتَظِرِ الرُّوحَ وَعُدَّ اللَّيَالِي

قَالَ: كَانَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ<sup>(2)</sup> يَطُوفُ يَوْمًا فِي ضِيَاعِهِ بِالرِّيِّ فَكَانَ يَمُرُّ بِالْقُرَى الَّتِي فِيهَا الْأَبْنِيَّةُ  
الْكُسْرِيَّةُ، فَيَقَالُ: هَذَا بِنَاءُ قُبَاذٍ وَهَذَا بِنَاءُ فُلَانٍ مِنْ مَلُوكِ الْعَجَمِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: فِي الْأَمْثَالِ  
الْقَدِيمَةِ إِنَّ اللَّهَمَّ يَقُولُ جِلْدِي الَّذِي خُلِقَ لِي لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ أَفْتَرَاهُ يَبْقِي عَلَيَّ مِنْ شَيْبَتِهِ، وَفِي هَذَا  
الْوَقْتِ فَسَدَتْ الدَّوْلَةُ فَسَدَتْ أَبْوَابُ إِقْبَالِهَا وَتَقَصَّتْ فَتَقَصَّتْ مُبْرَمَاتُ أَسْبَابِ كَمَالِهَا.

(1) الْمُبْرَدُ: أَبُو الْعَبَّاسِ، مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْكَبِيرِ الثَّوَالِي الْأَزْدِي، الْمَعْرُوفُ بِالْمُبْرَدِ، إِمَامٌ عَرَبِيٌّ فِي زَمَنِ بَيْغَدَادَ، وَاحِدٌ أُمَّةِ  
الْأَدَبِ وَالْإِخْبَارِ، وَوُلِدَ فِي الْبَصْرَةِ سَنَةَ 210 هـ، وَتَوَفَّى بِبَيْغَدَادَ سَنَةَ 286 هـ، خَلَفَ تَجْمُوعَةً مِنَ الْأَثَارِ طَبِيعَ الْكَثِيرِ مِنْهَا.

(2) بَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ مَرْكِي: أَبُو الْفَضْلِ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ، وَزَيْرٌ مِنْ سُرَّاءِ بَنِي بَرْمَكٍ وَهُوَ سَيِّدُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ،  
وَمُعَلِّمُ هَارُونَ الرَّشِيدِ وَمُرَبِّيهِ، وَقَدْ أَرْضَعَتْ زَوْجَتُهُ الرَّشِيدَ مَعَ ابْنَتِهِ الْفَضْلِ، فَكَانَ يَدْعُوهُ: يَا أَبِي، وَأَمْرُهُ الْمُهْدِي  
أَنْ يَلْزَمَ ابْنَهُ الرَّشِيدَ وَيَكُونَ كِتَابًا لَهُ، وَلَمَّا وُلِيَ الرَّشِيدَ الْخِلَافَةَ دَفَعَ خَاتَمَهُ إِلَى يَحْيَى وَقَلَدَهُ أَمْرَهُ، وَاسْتَمَرَ إِلَى أَنْ نَكَبَ  
الرَّشِيدَ الْبَرَامِكَةَ فَنَقَضَ عَلَيْهِ وَسَجَنَهُ فِي الرَّقَّةِ إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ 190 هـ، فَقَالَ الرَّشِيدُ: مَاتَ أَعْقَلَ النَّاسِ وَأَكْمَلَهُمْ.

## ذكر ظهور الاسماعيلية

نَابَتِ النَوَائِبُ وَأَشَابَتِ الشَّوَائِبُ فَظَهَرَتِ الْعَجَائِبُ وَبَدَتِ الْغَرَائِبُ، وَفَارَتِ الْجُمْهُورُ مِنْ بَيْتِ جَمَاعَةِ نَشَأُوا عَلَى طِبَاعِنَا وَكَأَلُوا بِصَاعِنَا، وَكَانُوا مَعَنَا فِي الْمَكْتَبِ وَأَخَذُوا حِظًا وَافْرًا مِنَ الْفِقْهِ وَالْأَدَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الرَّيِّ وَسَاحٍ فِي الْعَالِمِ وَصَنَاعَتُهُ الْكِتَابَةُ وَأَزْبُهُ الْإِرَابَةُ فَخَفِيَ أَمْرُهُ حَتَّى ظَهَرَ، وَاسْتَرَّ عَنِ النَّاسِ حَتَّى اسْتَهَرَ، وَقَامَ وَأَقَامَ مِنَ الْفِتْنَةِ كُلِّ قِيَامَةٍ، وَغَوَّرَ مَاءَ السَّلَامَةِ، وَعَوَّرَ نَهْجَ الْإِسْتِقَامَةِ، وَاسْتَوْلَى فِي مُدَّةٍ قَرِيبَةٍ عَلَى حِصُونِ وَقَلَاعِ مَنِيَعَةٍ، وَبَدَأَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْفَتْكِ بِأُمُورٍ فَظِيعَةٍ شَنِيعَةٍ، وَخَفِيَتْ عَنِ النَّاسِ أَحْوَالُهُمْ وَدَبَّ احْتِيَالُهُمْ وَاعْتِيَالُهُمْ، وَدَامَتْ حَتَّى اسْتَبْتَّ عَلَى اسْتِتَارِ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلدَّوْلَةِ أَصْحَابُ أَخْبَارٍ، وَكَانَ الرَّسْمُ فِي أَيَّامِ الدَّلِيلِمْ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ لَا يُخْلُونَ جَانِبًا مِنْ صَاحِبِ خَيْرٍ وَبَرِيدٍ، فَلَمْ يَخَفْ عَنْهُمْ أَخْبَارُ الْأَدْنَى وَالْأَقَاصِي، وَحَالَ الطَّائِعِ وَالْعَاصِي، حَتَّى وَلِيَ فِي الدَّوْلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ أَلْبَ أَرْسَلَانَ مُحَمَّدَ بْنَ دَاوُدَ وَفَاوَضَهُ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمَلِكِ فِي هَذَا الرَّسْمِ وَإِمَاضِءِ هَذَا الْحُكْمِ، فَأَجَابَهُ بِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ لِصَاحِبِ خَيْرٍ، فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو كُلَّ بَلَدٍ مِنْ أَصْدِقَاءِ لَنَا وَأَعْدَاءِ، وَأَرْبَابِ آرَابٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَرَاءِ، وَإِذَا نَقَلَ إِلَيْنَا صَاحِبُ الْخَيْرِ وَلَهُ غَرَضٌ أَخْرَجَ الصَّدِيقَ فِي صُورَةِ الْعَدُوِّ وَالْعَدُوَّ فِي صُورَةِ الصَّدِيقِ، فَيَخَافُ مِنَّا الْوَلِيُّ وَيَسْتَشْعِرُ الضَّرَرَ وَيَسْتَدِينُ الْحَدَرَ، فَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِاسْقَاطِ هَذَا الرَّسْمِ لَمَّا وَقَعَ لَهُ مِنَ الْوَهْمِ فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِظُهُورِ الْقَوْمِ قَدْ اسْتَحْكَمَتْ قَوَاعِدُهُمْ وَاسْتَوَثَّقَتْ مَعَاوِدُهُمْ وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَلْفُوا النِّعْمَةَ وَصَحَّبُوا النِّعْمَةَ فَوَافَقُوهُمْ عَلَى الْعَيْشِ الْقَشْفِ وَالرَّأْيِ الْمُتَعَسِّفِ، وَفَارَقُوا الْمَالَ وَالْأَهْلَ وَالْوَالِدَ، وَحَمَلُوا الْجَهْلَ وَالسَّلَاحَ وَالْعُدُدَ، وَقَدْ كَانُوا يَضْعَفُونَ عَنِ حَمْلِ الْإِبْرِ وَيَتَأَلَّمُونَ مِنْ وَخْزِهَا، وَيَأْتَسُونَ بِالرَّفَاهِيَةِ وَتَحَيَّيْ أَنْفُسَهُمْ فِي كَتَفِ عَجِزِهَا، فَاجْتَرَأُوا عَلَى قَتْلِ النُّفُوسِ وَسَفِكِ الدِّمَاءِ وَفَتَكَوْا بِالْأَوْلَادِ، وَاعْتَاضُوا مِنَ السَّكِينَةِ السَّكِينَةَ، وَأَذْهَبَتْ قَسَاوِثُهُمُ اللَّيْنَ، وَأَخَافُوا السُّبُلَ وَأَحَالُوا عَلَى الْأَكَابِرِ، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَهْجُمُ عَلَى كَبِيرٍ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُقْتَلُ فَيَقْتُلُهُ غِيْلَةً، وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْمُلُوكِ فِي حِفْظِ نَفْسِهِ مِنْهُمْ حِيلَةً، فَصَارَ النَّاسُ فِيهِمْ فَرِيقَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَاوَزَهُمْ بِالْعَدَاوَةِ وَالْمُنَازَعَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَهُمْ عَلَى الْمُسَالَمَةِ وَالْمُؤَادَعَةِ، فَمَنْ عَادَاهُمْ خَافَ مِنْ فَتْكَهُمْ، وَمَنْ سَالَمَهُمْ تُسِبَّ إِلَى شَرِكْتِهِمْ فِي شَرِكِهِمْ، فَكَانَ النَّاسُ مِنْهُمْ عَلَى حَظَرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْجَهْتَيْنِ، وَعَلَى فَرَقٍ مِنْ فِرَاقِ السَّلَامَةِ مِنْ

الْجَانِبَيْنِ، فَأَوَّلُ مَا بَدَأُوا بِقَتْلِ نِظَامِ الْمَلِكِ ثُمَّ اتَّسَعَ الْخَرْقُ، وَتَفَاقَمَ الْفِتْنُ وَأَوْرَى الرَّقُّ، وَبَطَلَتْ الْحَقُوقُ وَزَالَ الْوَثُوقُ، وَازْدَادَتِ الظُّغْنُ، وَأَتَتْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْتَمَنُ، وَلَمَّا كَانُوا قَدْ تَجَمَّعُوا مِنْ كُلِّ صِنْفٍ تَطَرَّقَتْ إِلَى جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّاسِ التُّهْمُ، وَدَبَّ إِلَى الْبَرِيِّ السَّقَمُ، وَتَوَفَّرَتْ عَلَى التُّوقِي الْهَمَمُ، وَتَعَيَّنَ عَلَى السُّلْطَانِ أَنْ يَكْأَشِفَهُمْ مُدَافِعاً وَيُحَارِبُهُمْ مُقَارِعاً لِئَلَّا يَنْسِبَهُ الْعَوَامُّ وَأَهْلُ الدِّينِ وَالرَّوْعِ إِلَى الْإِلْحَادِ وَفَسَادِ الْعِتْقَادِ، كَمَا جَرَى عَلَى مَلِكِ كِرْمَانَ فَإِنَّ الرِّعِيَةَ اتَّهَمُوهُ بِالْمَيْلِ إِلَى الْقَوْمِ فَفَصَّدُوهُ وَبَطَّشُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ، وَأَقَامُوا مَلِكاً آخَرَ مُقَامَهُ، وَقَارَعُوا الْعِدَى أَمَامَهُ، وَسَيَّأَتِي ذَكَرُ بَعْضِ الْأَحْوَالِ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ الَّذِينَ وَلُّوا وَمَا كَانَ سُلْطَانٌ يَلِي يَتَّقُ بِخَوَاصِهِ، وَسَعَى ذُوو الْأَغْرَاضِ فِي ذَوِي إِخْلَاصِهِ، وَلَمَّا عَرَفُوا جَدَّ السُّلْطَانِ فِي إِبَادَةِ الْقَوْمِ وَإِبَارَتِهِمْ وَتَصَرَّمَ عَزِيمَةً فِي إِطْفَاءِ نَاطِرَتِهِمْ سَعَى بَعْضُ النَّاسِ بِبَعْضٍ، وَأَحَبَّ وَصَمَهُ بِالْإِلْحَادِ لِسَابِقِ عِدَاوَةِ وَبُغْضٍ، وَوَسَمَهُ بِاسْمِ لَمْ يَمَحُهُ عَنْهُ غَيْرُ السَّيْفِ وَلَمْ يَجِدْ مَحِيداً مِنَ التَّرَامِ، وَنُفِيَ فِي هَذِهِ الْأَصْطِكَكَاتِ وَالْإِصْطِدَامَاتِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِيرٌ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْأَكْبَرِ فِي دَفْعِ مَا عَرَا رَأْيٌ وَلَا تَدْبِيرٌ، وَكَانَ قَتْلُ نِظَامِ الْمَلِكِ فِي لَيْلَةِ السَّبْتِ عَاشِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ مِنْ إِفْطَارِهِ، وَتَفَرَّقَ مَنْ كَانَ عَلَى طَبَقِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعُفَاتِهِ وَزُورِيهِ، وَحُمِلَ فِي مَحْفَقَةٍ مِنْ مَوْضِعِ سِمَاطِهِ إِلَى خَيْمَةِ أَهْلِهِ، وَأَتَاهُ صَبِيٌّ دَيْلِمِي فِي هَيْئَةٍ مُسْتَمِيعٍ مُسْتَعِيبٍ وَضَرْبَةٍ بِسَكِينٍ قَضَتْ بِقَتْلِهِ، وَهَرَبَ الدَيْلِمِيُّ فَعَثَرَ بِطَنَابٍ وَأَدْرَكَ، وَتَنَاوَبَتِ الْأَيْدِي عَلَى ضَرْبِهِ فَأَتَلَفَ وَأَهْلِكَ، وَذَلِكَ بَيْنَ نَهَاوَنْدَ وَالسَّحْنَةِ، وَهَوَّ سَائِرٌ إِلَى بَغْدَادَ فَيَقْطَعُ طَرِيقَهُ طَارِقُ الْمِحْنَةِ، وَرَكِبَ السُّلْطَانُ مَلِكْشَاهَ إِلَى مُخَيِّمِ نِظَامِ الْمَلِكِ بِنَفْسِهِ، وَأَزَالَ وَحْشَةَ أَصْحَابِهِ بِأَنْسِهِ، وَلَمَّا دَخَلَ السُّلْطَانُ إِلَى بَغْدَادَ كَانَ مِنْ حَدِيثِ وَفَاتِهِ مَا سُيُورِدُ، وَتَكَدَّرَ ذَلِكَ الْمَوْرِدُ.

وَتُوفِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْتَدِي بَعْدَ سِنَةٍ فَجَاءَتْ فِي سِنَةِ سَبْعٍ وَتَمَانِينَ يَوْمَ السَّبْتِ مُتَّصِفَ مُحْرَمٍ، فَكَانَ فِي سِنَةٍ وَاحِدَةٍ مَوْتُ السُّلْطَانِ وَالْوَزِيرِ وَالْخَلِيفَةِ وَجَمِيعِ أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ [كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ<sup>(1)</sup>].

ذَكَرَ أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ نُبَاتَةَ الْفَهْمِيَّ دَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَكَانَ مُسِنّاً فَقَالَ: أَيُّ الزَّمَانِ أَدْرَكَتْ أَفْضَلُ؟ وَأَيُّ الْمُلُوكِ أَكْمَلُ؟ فَقَالَ: أَمَّا الْمُلُوكُ فَمَا أَرَى إِلَّا ذَامَاتًا وَحَامِدَاتًا،

وَأَمَّا الزَّمَانُ فَيَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَضَعُ أَقْوَامًا، وَكُلُّهُمْ يَذُمُّ زَمَانَهُ لِأَنَّهُ يُبْلِي جَدِيدَهُمْ وَيُهْرِمُ صَغِيرَهُمْ وَكُلُّ مَا فِيهِ مُنْقَطِعٌ غَيْرُ الْأَمَلِ.

ذكر نبذة من حوادث وأخبار في أيام السلطان ملكشاه أغضها الوزير أنوشروان

وُلِدَ ملكشاه في تاسع عشر جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمائة وتوفي في سادس عشر شوال سنة خمس وثمانين، وعمره ثمان وثلاثون سنة وأشهرًا، وكان يُعرف بالسلطان العادل ليخلق العدل وعدله في الخلق وملاحظته للحقيقة ومحافظته على الحق، ومن جملة عدله أنه رأى شاكيًا بآكيا فسأل عن موجب اشتكائه وسبب بكائه ومقتضى استعدائه، فقال: اشتريت بططيوخات بدرهيمات لأعود برنجها على عيالي وأعيد منها رأس مالي وأخذها من يدي قوي أضعفت من الأخذ على يده وتركتي التركي وهو يضحك من بلتي وأنا أبكي من نكده. فقال له السلطان: طب نفسًا، واستبدل من الوحشة أنسًا، وهل تعرفه أنكرك عليه أم تُنكره لتسلك سبيل المعرفة إليه فأنكر معرفته وأعاد شكايته وشكا عاديته، وكان البطيخ حبيذ في أول باكوريته، ولا يكاد يُصاب منه في البلد إلا في كورته، فقال السلطان لبعض خواصه قد اشتيت بطيخًا فاجتهد في تحصيله فلو واحدة، فاستكثر لك متي في إحصار قليله فائدة، فمزال يطلبه حتى قال له بعض الأمراء عندي وقد أحضره، فلما عرف ملكشاه أحضر المتظلم وقال: خذ بيد هذا الأمير فإنه مملوكي وقد وهبته لك وبعه باختيارك بيع من تصرف وملك، ففدى نفسه منه بثلاثمائة دينار، وأثرى صاحب البطيخ بعد افتقار، وكان ملكشاه مُجِبًّا لِلصَّيْدِ صائدًا بِالْمَحَبَّةِ قلوب القلوب، مُجْرَبًا في مقام النصر منصورًا في مواقف الحروب، وقيل كان حُصْرَ عَدُوِّ كُلِّ مَا اصطادَهُ بيده فبلغت عدته عشرة آلاف فتصدق بعشرة آلاف دينار، وكان بالعمارات ذا اهتمام، وبالغرامات فيها ذا إغرام، فحفر أنهارًا، وأوثق على المدن أسوارًا، وأنشأ رباطات في المفاوز، وقناطر للجائز، ومن جملة صنويه في العمارة عمارة مصانع طريق مكة ومنازلها، وتسهيل ما توغر من مسالك قوافلها، وخرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج والعود بعرفهم الأريج، وعرفهم البهيج فجاوز العذيب وبلغ السبيعة بقرب الواقعة، وشيع وفد الله برفده المَحْضِ وَنَيْتِهِ الْخَالِصَةِ، وَبَنَى هُنَالِكَ مَنَارَةَ تَرَكَ فِي أَثْنَاءِ بِنَائِهَا قُرُونُ الطَّبَاءِ وَحَوَاقِرُ الْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي اصطادها في طريقه وَخَصَّهُ اللَّهُ بِتَوْفِيْقِهِ، وَالْمَنَارَةُ بَاقِيَةٌ إِلَى الْآنَ وَتُعْرَفُ بِـ (مَنَارَةِ الْقُرُونِ). وَحُكِّيَ عَنِ كَرَمِهِ مَا لَمْ يَحْكُ

عَنِ الْمُلُوكِ فِي سَالَاتِ الْقُرُونِ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ فِي جَوَارِحِ لِلْجَوَازِي جَوَارِحَ وَضَوَارِجِ ضَوَارِبِ ضَوَارِحَ وَأَسْوَدِ حَقَّانِ تَرُومِ أَرَامَ وَجَدَةَ وَأَنْصَارِ إِثَارِ تُؤْتُرُ فِي وَصَلِ سُلْطَانِيهَا الْهَجْرَةَ فَجَرَى وَجَرَخَ وَصَادَ وَصَدَحَ وَقَادَ وَقَدَحَ وَفَرَى وَفَرَحَ وَسَمَا وَسَمَعَ وَصَفَا وَصَفَحَ وَمَرَى وَمَرَحَ وَاعْتَبَقَ وَاصْطَبَحَ وَاقْتَرَى وَاقْتَرَحَ وَسَرَى وَسَرَحَ وَانْفَسَحَ وَانْشَرَحَ، وَعَادَ فِي ثَالِثِ شَوَالٍ فِي إِبْقَالِ مُؤَذِّنِ بِالْإِدْبَارِ، وَلَيْلِ عُمَرَ قَرِيبُ صُبْحِ أَجْلِهِ مِنَ الْإِسْفَارِ، فَابْتَدَأَتْ بِهِ حُمَى مُحْرِقَةٌ مَنَ أَمْعَانِهِ فِي أَكْلِ لَحْمِ الصَّيْدِ، فَقَادَتْ إِلَيْهِ حُلُولَ الْمُنُونِ وَحَلَّتْ مَا كَانَ لِلْحَيَاةِ مِنَ الْقَيْدِ، وَتُوْفِيَ فِي سَادَسِ عَشْرِ الشَّهْرِ، وَعَادَ الْمُلْكُ بِظَهْوَرِ وَفَاتِهِ مُنْقَصِمَ الظَّهْرِ، وَقَدْ كَانَتْ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلِيفَةِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَحِشَّةُ أَسَاءَتِ الظُّنُونِ وَنُسَبَ إِلَى عَوَارِضِهَا الْمُنُونِ، وَمِنَ أَسْبَابِ الْوَحْشَةِ اقْتِرَاحُهُ عَلَى الْإِمَامِ الْمُقْتَدِي انْتِقَالَهُ عَنِ بَغْدَادَ إِلَى حَيْثُ يَخْتَارُهُ مِنْ دِمَشْقِ أَوْ الْحِجَازِ، وَعَدَمَ مِنْ جَانِبِهِ الْإِمَامُ بِالْمُجَانِبَةِ مَا يَجِبُ مِنَ الْإِكْرَامِ وَالْإِعْتِزَالِ، فَطَلَّبَ مِنْهُ الْمُهَلَّةَ ثُمَّ كُفِّيَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَخْفِ النِّقْلَةَ، وَقَدْ كَانَ قَرَّرَ فَتَحَ أَقَالِيمِ الدُّنْيَا، وَعَلَا اتِسَامُهُ بِالنِّسَامِي فِي الْعَلِيَا، فَجَعَلَ الْأَمِيرُ بَرَسَقَ لِلرُّومِ فُضَايِقَهَا حَتَّى قَرَّرَ عَلَى قُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي كُلِّ سَنَةٍ حَمْلَ ثَلَاثِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ لَهُ جِزْيَةٌ يُؤَدِّيهَا الرِّدْيُ بِالصَّغَارِ وَالْهَوَانِ، وَسَيَّرَ أَحَاهُ تَاجَ الدَّوْلَةِ تَتَشَّ إِلَى الشَّامِ وَقَرَّرَ مَعَهُ فَتَحَ دِيَارِ مِصْرَ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَمَرَ مَمْلُوكِيهِ بُزَانَ صَاحِبَ الرَّهَاءِ وَأَقَ سَنْقَرِ صَاحِبَ حَلَبَ أَنْ يُطِيعَاهُ فِي هَذَا الْغَرَضِ، وَيُسَاعِدَاهُ عَلَى أَدَاءِ هَذَا الْمُفْتَرَضِ، وَأَمَرَ سَعْدَ الدَّوْلَةِ كَهْرَائِينَ بِفَتْحِ بِلَادِ الْيَمَنِ وَاسْتِخْلَاصِ زَبِيدٍ<sup>(1)</sup> وَعَدَنَ، فَسَيَّرَ إِلَيْهَا جَيْشًا قَدَّمَ عَلَيْهِ تَرَشَكَ فَمَضَى إِلَيْهَا وَاسْتَعْلَى وَاسْتَوْلَى وَارْتَكَبَ كُلَّ مَحْظُورٍ، وَاقْتَرَفَ كُلَّ مَحْذُورٍ، وَمَاتَ بِهَا وَعُمُرُهُ سَبْعُونَ سَنَةً وَهُوَ مَجْدُورٌ، وَتَوَلَّى مَكَانَهُ يَرْنَقِشُ صَاحِبُ قَتْلَغِ أَمِيرِ الْحَاجِ، وَجَرَى فِي الْاسْتِيلَاءِ عَلَى هَذَا الْمُنْهَاجِ، وَأَوْعَلَ مَلِكْشَاهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ حَتَّى أَطَاعَهُ صَاحِبُ طِرَازِ، وَكَانَتْ حُلَّةُ الدَّوْلَةِ بِجَلَالَةٍ جَلَالِهَا ذَاتِ طِرَازِ، وَفِي سَنَةِ ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ عَرَضَ الْعَسْكَرَ وَأَسْقَطَ مِنْهُ سَبْعَةَ أَلْفِ رَجُلٍ مِنَ الْأَرْمَنِ وَالْمُتَشَبِّهِةِ بِالْأَتْرَاكِ وَتَلَا فِي فَارِطِ الْإِحْتِيَاطِ بِالْإِسْتِدْرَاكِ فَمَضُوا إِلَى أَخِيهِ تَكْشَ بِقَلْعَةٍ وَلِخَ قَفُويَ بِهِمْ جَانِبُهُ، وَتَقَنَّتْ مِنْهُمْ مَقَابِلُهُ، وَتَكْتَبَّتْ كِتَابَتُهُ، وَسَقَّ عِصَاهُ بِالْعِصْيَانِ وَالشُّقَاقِ، وَجَرَتْ الْأَحْدَاثُ بِأَجْرَاءِ الضَّمَرِ

(1) زَبِيدٌ: قَالَ يَاقُوتُ الْحَمُوي: اسْمُ وَادٍ بِهِ مَدِينَةٌ يُقَالُ لَهَا الْحُصْبُ ثُمَّ غَلِبَ عَلَيْهَا اسْمُ الْوَادِي فَلَا تَعْرِفُ إِلَّا بِهِ، وَهِيَ مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالْيَمَنِ أَحْدَثَتْ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ، وَبِلِزَانِهَا سَاحِلُ غَلَاظِقَةَ وَسَاحِلُ الْمُنْدَبِ، وَهُوَ عِلْمٌ مَرْتَجَلٌ لِهَذَا الْمَوْضِعِ. وَيُنْسَبُ إِلَيْهَا جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

العِثاق، وَمَا زالَ السُّلْطَانُ مَلِكْشاهَ يَقْصِدُهُ فَتارَةً يُصَالِحُهُ وَتارَةً يُكَافِحُهُ حَتَّى ظَفَرَ بِهِ فِي سَنَةِ سِتِّ وَسَبْعِينَ، وَقَدْ كَانَ عَاهِدَهُ أَنْ لَا يُؤْذِيَهُ وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْيَمِينَ، ففَوَّضَ أَمْرَهُ السُّلْطَانُ إِلَى وُلْدِهِ أَحْمَدَ فَأَخَذَهُ وَسَمَلَهُ، وَأَعْجَزَهُ بِالْمَكْرُوهِ الَّذِي مِنْهُ سَمَلَهُ.

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ دَعَا الْاِقْسِيسُ تاجَ الدَّوْلَةِ تَمَشُ بِنَ أَلْبِ أَرْسَلانَ إِلَى دَمَشَقَ وَاتَّقَا بِهِ، خَارِجاً عَنِ خِلافِهِ دَاخِلاً فِي مَذْهَبِهِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ دَمَشَقَ مُسَلِّماً وَلِحُكْمِهِ مُسْتَسَلِّماً فَصَرَبَ رَقَبَتَهُ صَبْرًا، وَغَادَرَ شِلْوَهُ عَارِيًا بِالْعَرَاءِ غَدْرًا، وَدَخَلَ إِلَى الْبَلَدِ مُسْتَبَدًّا، وَأَصْبَحَ لِلْمَلِكِ مُسْتَجَدًّا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ اسْتَوْلَى شَرْفُ الدَّوْلَةِ مُسْلِمُ بْنُ قُرَيْشٍ عَلَى حَلَبَ، وَمَرَى عَيْشُهُ بِهَا طَبِي الطَّيِّبَ وَحَلَبَ.

وَفِي الْمَحْرَمِ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ عَادَ السُّلْطَانُ مَلِكْشاهَ مِنْ كَرْمَانَ إِلَى أَصْفَهَانَ وَكَانَ قَدْ وَرَدَ إِلَيْهَا عَامَ أَوَّلِ وَاسْتَعَذَبَ الْوَرْدَ وَخَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ سُلْطَانُ قَاوَرِدَ وَعَاهَدَهُ وَعَاقَدَهُ وَأَخَذَ عَلَى الْعَهْدِ يَدَهُ.

وَفِي صَفْرِ تَسَلَّمَ سَدِيدُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَهْرِبَاطِ تَكْرِيتَ وَقَلْعَتَهَا وَأَحْكَمَهَا وَوَقَّرَ عُدَّتَهَا.

وَفِي لَيْلَةِ الْأَحَدِ عَاشِرِ شَوَّالِ تُوفِّيَ دُبَيْسُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مَزِيدٍ<sup>(1)</sup>، وَكَانَتْ إِمَارَتُهُ سَبْعًا وَسِتِينَ سَنَةً وَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَلَدُهُ بَهَاءُ الدَّوْلَةَ مَنْصُورًا، وَمَضَى إِلَى السُّلْطَانِ وَعَادَ ثَانِيًا عَشْرَ صَفْرِ سَنَةِ أَرْبَعِ وَسَبْعِينَ بِمَكْنَةٍ قَوِيَةٍ وَقُوَّةٍ مُتَمَكِّنَةٍ، وَقَدْ تَقَرَّرَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ.

وَفِي شَوَّالِ سَنَةِ أَرْبَعِ وَسَبْعِينَ خَلَعَ الْمُقْتَدِي عَلَى الْوَزِيرِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ بْنِ جَهْمِرٍ وَتَوَجَّهَ لِيخْطَبَ مِنَ السُّلْطَانِ لِلْخَلِيفَةِ ابْنَتَهُ، وَيُظْهِرَ لَهُ فِي الْوَصْلَةِ رَغْبَتَهُ، وَسَارَ بَعْدَهُ أَبُو شِجَاعِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ إِلَى الْمُعْسَكِرِ فَإِنَّ نِظَامَ الْمَلِكِ كَانَ يُكَاتِبُ فِي إِيْعَادِهِ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ رَاغِبًا فِيهِ لِسَدَادِهِ، فَكَتَبَ بِخَطِّهِ إِلَى نِظَامِ الْمَلِكِ يَأْمُرُهُ بِالْعَوْدِ إِلَى الْمَعْهُودِ فِي حَقِّ أَبِي شِجَاعِ، وَأَنْفَذَ مَعَهُ مَخْتَصِمًا الْخَادِمَ لِيَتَّبِعَ قَوْلَ الطَّوْلِ فِيهِ بِاسْبَاغِ وَإِشْبَاعِ، وَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ فِي

(1) ديبس بن علي بن يزيد الاسدي: أبو الاغر، نور الدولة، ديبس بن علي بن يزيد الاسدي ولد سنة 394 هـ، أمير الخلة قبل بنائها، وليها بعد وفاة أبيه سنة 408 هـ، تولى الحكم صغيراً، فنازعه في الملك أقاربه وواجه مصاعب تغلب عليها بمساعدة البساسيري، وساهم في حركة البساسيري، ثم رضي عنه وظل في حكمه حتى وفاته سنة 474 هـ، وكان حسن السيرة في رعيته، ورثاه كثير من الشعراء.

رَجَبِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ فِي حُرْمَةِ وَاغْرَةِ، وَحِشْمَةِ ظَاهِرَةِ، وَحَالَةِ بَاهِرَةِ، وَحَلِيَّةِ زَاهِرَةِ، وَخَرَجَ مَوْكِبُ الْخَلِيفَةِ لِتَلْقِيهِ، وَظَهَرَتْ دَلَائِلُ تَرْفِيعِهِ وَتَرْقِيهِ، وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَخَرَّ الدَّوْلَةَ فَإِنَّهُ لَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمُعَسْكَرِ بُجِّلَ وَعُظِّمَ وَفُخِّمَ وَأُكْرِمَ وَمَضَى نِظَامُ الْمَلِكِ مَعَهُ إِلَى تَرْكَانِ خَاتُونٍ وَخَاطَبَهَا فِي الْوَصْلَةِ بِابْتِيهَا فَقَالَتْ إِنَّ مَلِكَ غَزَنَةَ وَمُلُوكَ الْخَانِيَّةِ قَدْ أَرْسَلُوا فِي خُطْبَتِهَا وَبَدَّلَ كُلٌّ مِنْهُمْ عَنَ وَلَدِهِ لَهَا أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ فَإِنْ بَدَلَهَا الْخَلِيفَةُ فَإِنِّي أَخْتَارُ شَرْفَهُ. وَهُوَ أَشْرَفُ مُخْتَارٍ فَعَرَفَتْهَا أَرْسِلَانُ خَاتُونِ زَوْجَةِ الْقَائِمِ مَا تَصِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَبَيَّنَ لَهَا الْفَقِيهُ الْمُشْطَبُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَنْفِيُّ حَلِيَّةَ الْحَقِّ وَحَقِيقَةَ الْحَالِ، وَقَالَ: هُوَ لَاءٌ عَمِيدُ الْخَلِيفَةِ وَمِثْلُهُ لَا يُقَابَلُ بِطَلَبِ أَمْوَالٍ، فَحَيْثُ نَزَّ أَجَابَتْ وَسَدَّتْ إِلَى الْغَرَضِ وَأَصَابَتْ، وَأَخَذَ فَخْرُ الدَّوْلَةِ يَدَ السُّلْطَانِ عَلَى الْعَقْدِ، وَعَادَ فِي صَفْرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ بِالْحَمْدِ، وَفِي جُمَادَى الْأُولَى وَرَدَ مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ إِلَى بَغْدَادَ قَادِمًا مِنْ أَصْفَهَانَ وَخَرَجَ إِلَيْهِ الْوَزِيرُ عَمِيدُ الدَّوْلَةِ وَتَلَقَّاهُ بِالْحَلِيَّةِ<sup>(1)</sup> وَنَزَلَ فِي دَارِهِ مَرْقَبَ الرَّفْعَةِ مَرْفَعِ الرَّبِيَّةِ، وَضَرَبَ عَلَى بَابِهِ الطُّبُولَ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الثَّلَاثِ، فَعُدَّ ذَلِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَحْدَاثِ، وَوَصَلَ بِغِطَاءِ رَصِينَةٍ فَقَطَعَ بِهِ ضَرْبُ الطُّبُولِ، وَأَذْبَتِ الْحَبَاءُ بِوَصْلِ الْحَبْلِ.

وَفِي شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ جَلَسَ مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ فِي بَغْدَادَ لِلْعَزَاءِ بِأَخِيهِ جَمَالِ الْمَلِكِ وَرَكِبَ إِلَيْهِ فَخَرَّ الدَّوْلَةَ وَعَمِيدُ الدَّوْلَةِ وَأَرِيَابُ الْمَنَاصِبِ، وَأَقَامَهُ فَخْرُ الدَّوْلَةِ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَقَدْ حَضَرَ دَارَهُ بِالْمَوْكِبِ.

### ذِكْرُ حَالِ جَمَالِ الْمَلِكِ أَبِي مَنْصُورِ بْنِ نِظَامِ الْمَلِكِ

كَانَ كَبِيرَ أَوْلَادِ نِظَامِ الْمَلِكِ وَعَظِيمَهُمْ وَسَخِيهِمْ وَكَرِيمَهُمْ، وَفِيهِ دِهَاءٌ وَجَرَاءَةٌ وَعِزٌّ وَنَخْوَةٌ، وَخَاطَبَهُ أَبُوهُ فِي أَيَّامِ أَلْبِ أَرْسِلَانَ أَنْ يَزَرَ لَوْلَدِهِ مَلِكْشَاهَ فَأَظْهَرَ إِيَّاهُ مُمْتَنِعًا وَامْتِنَاعَ أَبِي، وَقَالَ: مِثْلِي لَا يَكُونُ وَزِيرًا لِيَصِيَّ ثُمَّ أَقَامَ بِبَلْخِ مُتَوَلِيًّا، وَعَلَى تِلْكَ الْأَمْوَالِكِ مُسْتَوَلِيًّا، فَسَمِعَ أَنَّ جَعْفَرَكَ مَسْخَرَةَ السُّلْطَانِ تَكَلَّمَ عَلَى الْوَالِدِ نِظَامِ الْمَلِكِ بِأَصْبَهَانَ وَقَرَّرَ الْوِزَارَةَ لِابْنِ بَهْمَنِيَارِ فَهَاجَ وَتَغَيَّطَ وَنَارَ وَأَعَدَّ السَّيْرَ مِنْ بَلْخِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْحَضْرَةِ فَقَطَعَ الْمَضْرَّةَ وَأَخَذَ جَعْفَرَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ السُّلْطَانَةِ، وَتَقَدَّمَ بِسَقِّ قَفَاهُ وَإِخْرَاجِ لِسَانِهِ، فَتَمَكَّنَ مِنْهُ الْقَضَاءُ وَقَضَى فِي مَكَانِهِ،

(1) الْحَلْبَةُ: قَالَ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ: حَلَّةٌ كَبِيرَةٌ وَاسِعَةٌ فِي شَرْقِي بَغْدَادَ عِنْدَ بَابِ الْأَزْجِ وَفِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ.

ثُمَّ أَوْقَعَ التَّدْبِيرَ فِي حَقِّ ابْنِ بَهْمَنِيَارٍ حَتَّى أَخَذَهُ وَسَمَلَهُ وَقَدَّهُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ مَعَ الْوَلَدِ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ إِلَى خِرَاسَانَ وَأَقَامُوا بِنِيسَابُورَ، وَدَبَّرُوا الْأُمُورَ، فَلَمَّا أَرَادَ السُّلْطَانُ أَنْ يَنْفَضَلَ وَرَى نُوْبَتَهُ لِيَرْتَجِلَ اسْتَدْعَى بِعَمِيدِ خِرَاسَانَ أَبِي عَلِيٍّ، وَقَالَ لَهُ أَنَا مُنْفَضٍ إِلَيْكَ بِسِرِّ خَفِيِّ فِي جَلَلِي جَلِيٍّ، فَقَالَ أَنَا مُسْتَقِيمٌ مِنْ كُلِّ مَا تَأْمُرُنِي بِهِ عَلَى أَقْوَمِ سَنَيْنَ، فَقَالَ: رَأْسُكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ رَأْسُ مَنْصُورِ بْنِ حُسَيْنٍ؟ فَقَالَ: بَلْ رَأْسِي أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَنَا لِمَا تَسْتَطِيعُنِي مِنْ دَائِهِ أَطْبُ، فَقَالَ لَهُ إِنْ لَمْ تَقْتُلْهُ فَتَلْتَكُ وَصَرَفْتَكُ عَنْ وِلَايَةِ الْحَيَاةِ وَعَزَلْتَكُ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَقِيَ خَادِمًا بِخِدْمَةِ جَمَالِ الْمَلِكِ مُخْتَصِّمًا وَعَرَفَ فِي عَقْلِهِ تَقْصَا، فَقَالَ لَهُ سِرًّا إِنَّ السُّلْطَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى أَخِيذِ صَاحِبِكُمْ وَقَتْلِهِ غَدًا، وَالصَّوَابُ أَنْ تَصُونُوا بِيَاذَتِهِ حُرْمَتَكُمْ أَبَدًا، فَظَنَّ الْخَصِيَّ الْخَصِيصُ بِهِ السَّخِيفُ الْعَقْلَ أَنْ ذَلِكَ عَنْ أَصْلِ، وَجَهْلَ النَّظَرِ وَنَظَرَ عَنْ جَهْلٍ، وَخَافَ عَلَى تَشْتَتِ نِظَامِ آلِ النَّظَامِ بِهَذَا الْوَلَدِ، وَأَخْلَدَ إِلَى وَهْمِهِ وَهَمِّهِ فِي الْخُلْدِ، وَقَلِقَ وَأَرَقَ وَفَرَّقَ وَاحْتَرَقَ وَصَدَّقَ الْمَيْنَ وَتَحَقَّقَ الْحَيْنَ، وَظَلَّ الْمُدَبِّرُ مُدْبِرًا فِي ضَلَالِهِ، مُتَخَيِّلًا مِنْ خَيَالِهِ مُتَحَيِّلًا فِي حَالِهِ، فَعَمِدَ إِلَى كَوْرٍ فِقَاعٍ فَسَمَّهُ وَغَدَقَ بِهِ هَمَّهُ حَتَّى انْتَبَهَ صَاحِبُهُ فَصَاحَ بِهِ وَطَلَبَ الْفِقَاعَ فَمَا ارْتَابَ وَلَا ارْتَاعَ، وَأَتَاهُ بِالْكُوْرِ الْمَسْمُومِ، وَصَبَّحَهُ بِظِلَامٍ وَجْهَهُ الْمَشْهُومِ، فَلَمَّا شَرِبَهُ أَحْسَسَ بِالشَّرِيَةِ الَّتِي حَلَبَ دَرَّ الشَّرِّ بِهَا وَالضَّرْبَةَ الَّتِي جَلَبَ دَوْرَ الضَّرِّ بِهَا، وَاسْتَدْعَى أُخْتَهُ لِيُوصِيَ إِلَيْهَا، فَقَضَى نَحْبَهُ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ عَيْنُهُ عَلَيْهَا، وَكَانَ السُّلْطَانُ قَدْ رَحَلَ وَنِظَامُ الْمَلِكِ قَدْ سَبَقَهُ فَسَارَ وَرَاءَهُ بِمِقْدَارِ أَرْبَعِ مَنَازِلَ حَتَّى لَحِقَهُ وَدَخَلَ إِلَى نِظَامِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَعْلَمْ بَعْدُ وَفَاةً وَوَلَدِهِ فَعَزَّاهُ، وَقَالَ لَهُ: أَنَا وَلِذَلِكَ وَالْخَلْفَ عَمَّنْ ذَهَبَ، وَأَنْتَ أُولَى مَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ.

وَفِي سَنَةِ خَمْسِ وَسَبْعِينَ سَارَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْرَازِي رَسُولًا مِنَ الْمُقْتَدِي إِلَى السُّلْطَانِ بَعْدَ أَنْ أَوْصَلَهُ الْخُلَيْفَةُ إِلَيْهِ وَفَاوَضَهُ شِفَاهَا، وَشَكَا مِنَ الْعَمِيدِ أَبِي الْفَتْحِ بْنِ أَبِي اللَّيْثِ سَفَاهَا، وَوَصَلَ وَنَاطَرَ مَعَهُ الْإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِي الْجَوْنِي، وَكَانَ فِي صَحْبَتِهِ مِنَ الْأَكَابِرِ تَلَامِذُهُ الشَّاشِيُّ وَابْنُ مَارَةَ الطَّبْرِيُّ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَالُ الدَّوْلَةِ عَفِيفُ الْخَادِمِ، وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ الْمَكَارِمُ، وَعَادَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ إِلَى بَغْدَادَ وَالْقُلُوبُ إِلَى حَضْرَتِهِ مُتَعَطِّشَةٌ وَالْعَيُونُ مِنْ غَيْبَتِهِ مُسْتَوْحِشَةٌ، فَانْتَعَشَ الْعَاثِرُ وَحَيَّى بِدَرْسِهِ مِنْهُ الْعِلْمُ الدَّارِسُ الدَّائِرُ، ثُمَّ تُوْفِيَ قَدَسَ اللَّهِ رُوحَهُ لَيْلَةَ الْأَحَدِ الْاِحْدَايِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ سِتِّ وَسَبْعِينَ، فَعَدَمَ لَفْظَ الْعِلْمِ الْمَعْنَى وَطَالِبُهُ الْمُعِينَ وَظَامِيهِ الْمُعِينِ، وَرَتَبَ مُؤَيِّدُ الْمَلِكِ أَبَا سَعِيدَ الْمُتَوَلِّي مُدْرَسًا لِيَبْنِي فِي

العلم على ما كان له الشيخ مؤسساً، فلم يرض نظام الملك به وجعل التدريس للشيخ الإمام أبي نصر الصَّبَّاحِ صاحب كتاب الشامل المُحتَوِي على الفُضائل، فاتفق خروج مؤيد الملك وخروج معه المُتولي، وعاد متولياً وفي رُتَب السمو مُتعلِّياً، وقد بعث شرف الأئمة وكان من أكابر الأئمة، واتفقت وفاة أبي نصر الصَّبَّاحِ تلك السنة يوم الخميس النصف من شعبان وهذه عادة عادية الزمان، وبقي المُتولي مُتولياً إلى أن توفي سنة ثمان وسبعين في شوال، وأضحت ولاية العِلْمِ بغيرِ إلٍ، ودرّس بعده الشريف العلويّ الذبوسي أبو القاسم، وعاد العِلْمُ به عالي المَعالم، وتوفي في ثالث عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين.

وفي ثالث عشر مُحَرَّم هذه السنة درس الإمام أبو بكر الشاشي في المدرسة التي بناها تاج الملك بيغداد، وما فتى بفتياهُ للعِبَادِ العياد.

وفي مُحَرَّم سنة ثلاثٍ وثمانين أصبح الشيخ أبو عبدالله الطبري بمنشور نظام الملك مُتولياً للتدريس، مُتحرِّياً في مبانِي عِلْمِ الشريعة بالتأسيس، ثم وصل بعده القاضي أبو محمد عبد الوهاب الشيرازي للتدريس بالنظامية أيضاً، وتقرر أن يدرس هو يوماً والطبري يوماً ليزيد العِلْمُ بتحرّيهما فيضاً.

وفي سنة أربعٍ وثمانين قدم الشيخ أبو حامد الغزالي للتدريس في النظامية وكان في العِلْمِ بحرًا زاهراً وبدرًا زاهراً، وأشرقت غرائبه في المشرقين والمغربين، وملاّت حقائب الملوّنين، وثقلت غوارب الثقلين، ولم يزل واحد عصره وهو بنور عِلْمِهِ ثالث القمّرين.

نبذ من احوال بني جهنم وديار بكر

عزل عميد الدولة في صفر سنة ستٍ وسبعين بمكتوبٍ خرج إليه من الخليفة مضمونه انصرف إلى دارك وخل ما أنت به منوط من النظر، فال صفوه إلى الكدر، وتغص وردة بالكدر بعد الصدر، واجتمع الحاجب يارق والشحنة والعميد وأصحاب مؤيد الملك على باب عمورية حتى خرج بنو جهنم بأهلهم وحواشيهم وكهلبهم وناشيهم، وساروا إلى المعسكر وحصلوا على المنصب الأظهر، فإن السلطان عقد على فخر الدولة أبي نصر ديار بكر، وخصه بكل ما أعرب له عن وجهة قدر ونباهة ذكر، وخلع عليه وأعطاه الكوس والعلم، ونفى عنه البؤس والعدم، وأذن له في الخطبة لنفسه وفي الشكبة باسمه، وحكم

مُضَاءُهُ بِامِضَاءِ حُكْمِهِ، ثُمَّ أَنْفَذَ السُّلْطَانُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ أَرْتُقَ بْنَ أَكْسَبِ صَاحِبَ حُلْوَانَ مَعَ التُّرْكَمَانِ إِلَى فِخْرِ الدَّوْلَةِ مَدَدًا، وَتَوَقَّى وَتَقَوَّى بِهِمْ عُدْدًا وَعَدَدًا، وَكَانَ ابْنُ مَرْوَانَ صَاحِبُ دِيَارِ بَكْرِ قَدْ اسْتَنْجَدَ شَرَفَ الدَّوْلَةِ مُسْلِمَ بْنَ قَرِيْشٍ لِنُصْرَتِهِ وَاسْتَنْصَرَ بِهِ لِجَنْدِيَّتِهِ، وَأَعْطَاهُ يَدَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ أَمَدًا إِذَا أَمَدَهُ وَأَيْدِيَهُ، وَقَصَدَ ابْنُ جَهْمِ الصَّلْحَ وَأَنْ يَسْتَعْمَلَ عَوْضَ الصَّفَاحِ الصَّفْحَ، وَقَالَ أَنَا أَكْرَهُ أَنْ يَحُلَّ بِالْعَرَبِ مَكْرُوهٌ أَنَا سَبَبُهُ، وَالْأَرَيْبُ مِنَ السَّلْمِ وَالسَّلَامَةُ أَرْبُهُ، وَاللَّيْبُ مَنْ حَوَى مَنْحَ وَاجِدٍ بِالْجُودِ كَيْبُهُ، وَعَلِمَ التُّرْكَمَانُ مَا رَأَوْهُ وَخَالَفُوا هَوَاهُ، وَتَوَاوَأَتْهُ فِي مَا نَوَاهُ، وَرَكِبُوا أَيْلًا وَحَاطُوا بِالْعَرَبِ وَوَجَدُوا لِلطَّعْنِ وَالضَّرْبِ طَعْمَ الضَّرْبِ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَيْبِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ، وَالتَّحَمَّ الْقِتَالُ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَهَرَبَ الْعَرَبُ وَرَهَبُوا، وَطَلَبُوا فِي كُلِّ وَادٍ وَنَادٍ وَسَلَبُوا، وَلَمْ يَحْضُرْ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ ابْنُ جَهْمِ وَلَا أَرْتُقُ، وَكِلَاهُمَا يَقُولُ لَوْ حَضَرْتُ الْفَتْحَ لَكُنْتُ أَرْتُقُ، وَإِنَّمَا اصْطَلَى نَارَهَا الْأَمِيرُ حَبِيقٌ، وَحَقَّنَ دِمَاءَ الْعَرَبِ لَوْلَا الْحَقُّ، وَاسْتَوْلَى عَلَى جُمَلِ جِمَالِهِمْ وَعَامَتِ أَيْدِي الْعَامَّةِ فِي لُجِّ مَالِهِمْ وَالْحِجَى شَرَفُ الدَّوْلَةِ مُسْلِمٌ إِلَى فَصِيلِ أَمَدٍ فَعَزَّتِ الْحَيْلَةُ وَأَعْوَزَتِ الْوَسِيلَةُ، وَضَاقَ مَذْهَبُ الْخِلَاصِ، وَحَصَلَ فِي مَضِيْقِ الْإِعْتِيَاقِ وَالْإِعْتِيَاصِ، وَوَصَّى فِخْرُ الدَّوْلَةِ ابْنُ جَهْمِ أَرْتُقَ بِأَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ طَرَفَهُ وَيَسُدَّ عَلَيْهِ أَفْقَهُ، وَقَالَ إِذَا حَصَلَ مُسْلِمٌ فِي الْيَدِ حَصَلْنَا مِنْ أَمْرِنَا عَلَى الرَّشِيدِ، وَفَتَحْنَا لِلْسُلْطَانِ الْبِلَادَ وَحَوَيْنَا الطَّرَافَ وَالْبِلَادَ، فَبَدَّلَ شَرَفُ الدَّوْلَةِ لِلْأَمِيرِ أَرْتُقَ مَا لَا يُفْرِجُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيُوسِعُ عَنْهُ فِي مَضِيْقِهِ، فَمَالَ إِلَى الْمَالِ وَحَالَ عَنِ الْحَالِ، وَلَآنَ لَيْنَالٌ وَقَبْلَ السُّؤَالِ أَظْهَرَ أَرْتُقَ الْغَضَبَ مِنْ تَحَكُّمِ فِخْرِ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ فَتَخَلَّى عَنِ الْحِفْظِ، وَبَدَأَ فَيُضُّ الْعَيْظَ مِنْهُ فِي اللَّحْظِ وَاللَّفْظِ، وَأَبَى أَنْ يَكُونَ لِمُسْلِمٍ مُسْلِمًا وَتَنْفَسَ خَنَاةَهُ، فَسَارَ إِلَى الرَّقَّةِ لَمَّا رَقَّ مِنْ أَنْفَاسِ السَّلَامَةِ مُتَنَسِّمًا، وَذَلِكَ فِي حَادِي عَشْرِ شَهْرِ رَيْبِ الْأَوَّلِ وَقَصَدَ فِخْرُ الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرَاءُ مَعَهُ مِيَا فَارِقِينَ وَهُمْ سَيْفُ الدَّوْلَةِ صَدَقَةُ بَنِي بَهَاءِ الدَّوْلَةِ وَإِيَّازَ وَخُمَارَتَاشَ وَعَسْكَرُ كَهْرَائِينَ، وَلَمَّا قَصَدَ خِلَاطًا رَجَعَ هُوَ إِلَى الْعِرَاقِ وَوَأَصَلُوا إِلَيْهِ وَفَاقَ الْفِرَاقَ.

وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ خَرَجَتْ دِيَارِ بَكْرِ مِنْ نَظَرِهِ، وَفَوَّضَهَا السُّلْطَانُ إِلَى الْعَمِيدِ أَبِي عَلِيٍّ الْبَلْخِيِّ فَغَمَّرَهَا بِتَأْتِيرِ إِحْسَانِهِ وَحُسْنِ أَثَرِهِ، فَأَمَّا شَرَفُ الدَّوْلَةِ فَانَّهُ لَمَّا وَصَلَ إِلَى الرَّقَّةِ أَبْدَلَ لَهُ الدَّهْرَ قَسَاوَتَهُ بِالرَّقَّةِ، وَأَحْمَدَ عَاقِبَتَهُ الْمَشَقَّةَ، وَعَدَّ مَا بَدَّلَ لَأَرْتُقَ مِنَ الْحَقُوقِ الْمُسْتَحَقَّةَ، فَانْتَجَزَ الْوَعْدَ وَأَحْرَزَ الْحَمْدَ وَأَرْسَلَ الْمَالَ وَأَصْدَقَ الْمَقَالَ، وَلَمْ يَشْكُ السُّلْطَانُ لَمَّا تَمَّى إِلَيْهِ

الْخَبْرُ فِي أَنَّ شَرْفَ الدَّوْلَةِ ابْنَ جَهْمٍ وَأَنْفَذَهُ إِلَى وِلَايَتِهِ وَكَاتَبَ التُّرْكَمَانَ بِطَاعَتِهِ وَأَنْفَذَ مَعَهُ الْأَمِيرَ آقَ سَنْقَرُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ صَاحِبَ حَلَبٍ وَصَارَ فِي صُحْبَتِهِ، وَاتَّصَلَ بِهِ الْأَمِيرُ أَرْتُقُ وَصَارَ فِي جُمْلَتِهِ، وَوَصَلَ إِلَى الْمَوْصِلِ فَطَاعَهُ أَهْلُهَا وَتَسَهَّلَ لَهُ وَعَرُهَا وَسَهَّلَهَا، وَتَوَجَّهَ السُّلْطَانُ إِلَى بِلَادِ مُسْلِمِ بْنِ قُرَيْشٍ فِي أَقْوَى جَاشٍ وَأَوْقَى جَيْشٍ، فَلَمَّا عَرَفَ سَلَامَتَهُ وَنَجَاتَهُ، وَأَنَّهُ بِالْمَكْرِ قَدْ فَاتَهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مُؤَيِّدَ الْمُلْكِ وَهُوَ مُقَابِلُ الرَّحْبَةِ فَقَابَلَهُ بِالرَّحْبِ وَالْمَحَبَةِ وَوَثَّقَهُ بِالْإِيمَانِ وَأَمَنَهُ بِالْمَوَاتِيْقِ وَهَدَاهُ إِلَى نَهْجِ التَّوْفِيقِ، وَقَدِمَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَهُوَ بِالْبُوزِيجِ<sup>(1)</sup>، وَأَحْلَلَ لَهُ حَبَاءَ الْجَنَابِ الْمُرِيْعِ وَأَسَامَهُ فِي مَرَادِ الْأُمْرَادِ الْبَهِيْعِ، وَكَانَتْ أحوَالُهُ قَدْ ذَهَبَتْ وَأَمْوَالُهُ قَدْ نُهَبَتْ، وَقَدْ خَلَا مِنْ نَشْبِهِ فَاسْتَقْرَضَ مَا خَدَمَ بِهِ وَقَدَّمَ خَيْلَهُ، وَفِيهَا بَشَارٌ وَإِلَيْهِ يُبَارُ، فَإِنَّهُ كَانَ فَرَسًا سَابِقًا مَذْكُورًا مُوَافِقَ الْمَنْظَرِ وَالْمَخْبِرِ مَشْكُورًا، وَهُوَ الَّذِي نَجَا بِهِ يَوْمَ أَمْدٍ وَسَبَقَ وَوَثَبَ الْخُنْدُقَ، وَرَاهَنَهُ السُّلْطَانُ عَلَى مَسَابِقَتِهِ وَأَجْرَاهُ مَعَ الْخَيْلِ فِي حَلْبَتِهِ فَجَاءَ سَابِقًا وَالْخَيْلُ مُصْلِيَةً بَعْدَهُ لَا تَتَعَلَّقُ مِنْهُ بِغَبَارٍ، وَلَا تَجْرِي ضَمْرًا مَعَهُ فِي مِضْمَارٍ، وَلَمَّا طَلَعَ صَبْحُ غُرَّتِهِ مِنْ ظِلَامِ قِيَامِهِ قَامَ السُّلْطَانُ لِلْإِعْجَابِ بِهِ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ لِإِكْرَامِهِ، وَفِي صَفْرِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ تَجَرَّعَ شَرْفُ الدَّوْلَةِ كَأْسَ الْحِمَامِ، فَإِنَّهُ فَتَكَ بِهِ خَادِمًا بِالْحِمَامِ.

### ذَكَرَ مَا آلَتْ إِلَيْهِ وَزَارَةَ الْإِمَامَةَ

وَكَانَ أَبُو الْفَتْحِ الْمُظْفَرُ بْنُ رَيْسِ الرُّؤَسَاءِ قَدْ رُتِّبَ فِي دِيْوَانِ الْخُلَيْفَةِ بَعْدَ خُرُوجِ بَنِي جَهْمٍ، وَاشْتَغَلَ بِكُلِّ تَرْتِيبٍ وَتَدْبِيرٍ، إِلَى أَنْ وَزَرَ أَبُو شِجَاعٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ سَنَةَ سِتِّ وَسَبْعِينَ لِلْمُقْتَدِيِّ وَخَلَعَ عَلَيْهِ لِلْوِزَارَةِ، وَلَقَّبَهُ ظَهِيْرَ الدِّينِ مُؤَيِّدَ الدَّوْلَةِ سَيِّدَ الوِزَرَاءِ صَفِيَّ الْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَرَجَ فِي حَقِّهِ تَوْقِيعٌ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي سَعْدِ بْنِ الْمَوْصِلَايَا وَاصِلًا بِالسَّعْدِ، مُصَدِّقًا فِي عَوْدِ مَقْصِدِهِ لِلْوَعْدِ، وَوَصَلَ عِمَادُ الدَّوْلَةِ سَرَهَنْكَ سَاوَتِكِينَ إِلَى وَاسِطٍ وَمِنْهَا إِلَى النَّبْلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَزَارَ الْمَشْهَدَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَأَطْلَقَ لِلْإِشْرَافِ مَالًا جَزِيْلًا، وَأَدَّخَرَ لَهُ صَنِيعًا جَمِيْلًا، وَأَسْقَطَ خُفَارَةَ الْحَاجِّ وَكَانَتْ تُؤَخِّذُ بِقَهْرٍ، وَخَفَرَ الْعَلْقَمِيَّ وَكَانَ خَرَابًا مُنْذُ دَهْرِهِ، وَقَدِمَ بَغْدَادَ وَالْمُعْتَقُونَ مِنْ جُودِهِ فِي أَخْصَبِ انْتِجَاعٍ، وَتَلَقَّاهُ الْوَزِيرُ أَبُو شِجَاعٍ، وَوَصَلَ إِلَى حَضْرَةِ الْخُلَيْفَةِ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ ثَامِنَ ذِي الْحِجَّةِ مَخْصُوصًا بِشَرَفِ اصْطِنَاعٍ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَحْسَنَ

(1) البوزايج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، ويقال لها بوزايج الملك وهي من أعمال الموصل، وهي المقصودة هنا، وهناك بوزايج الانبار وهي غير الأولى.

إِلَيْهِ وَحُمِلَ عَلَى فَرَسٍ وَعُقِدَ لَهُ لَوَاءٌ، وَكَانَ قَدْ عَلِقَ بِهِ السُّلَّ وَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِ دَوَاءً، وَرَحَلَ إِلَى أَصْفَهَانَ وَلَقِيَ بِهِ الْحَدَثَانَ وَاسْتَوْفَى الزَّمَانَ، وَكَانَ أَعَزَّ مَنْ فِي الدَّوْلَةِ وَمَنْ نُقِلَ إِلَى التَّرَابِ هَانَ، وَكَانَ قَدْ تَوَجَّهَ جَمَالَ الدَّوْلَةِ عَفِيفٌ إِلَى أَصْفَهَانَ فِي إِثْمَامِ الْعَقْدِ لِلْخَلِيفَةِ عَلَى بِنْتِ السُّلْطَانِ، فَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ مَسْعُودَ الطَّالِعِ مَحْمُودَ الصَّنَائِعِ، فَخَلَعَ الْخَلِيفَةُ عَلَى أَبِي مَنْصُورِ بْنِ الْوَزِيرِ أَبِي شِجَاعٍ وَسِنَّهُ يَوْمِئِذٍ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً وَلَقَّبَهُ رَيْبِبَ الدَّوْلَةِ وَأَخْرَجَهُ لِاسْتِقْبَالِ عَفِيفٍ، وَشَرَفَهُ بِهَذَا الْاِخْتِصَاصِ بَعْدَ أَنْ حَصَّه بِتَشْرِيفٍ، وَاسْتَمَرَّ أَبُو شِجَاعٍ فِي وَزَارَتِهِ جَرِيئاً فِي الشُّجَاعَةِ شِجَاعاً بِالْجَرَاءِ، أَهْلًا لِمَحْمُودِ الزَّمَامِ ذَامًا لِأَهْلِ الذَّمِّ وَالزَّمَّ أَكَابِرَهُمْ بِلِبْسِ الْغِيَارِ، وَأَدَاءِ الْجَزِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الصَّغَارِ، فَاسْلَمَ الرَّئِيسُ أَبُو غَالِبِ بْنِ الْأَصْبَاغِيِّ غَيْرَةً مِنَ الْغِيَارِ، وَاسْتَقَالَهُ مِنَ الْعَثَارِ، وَتَخْلِصًا لِابْرِيزِ دِينِهِ مِنَ الْغُشِّ فِي الْعِيَارِ، وَتَقْضًا لِمَا كَانَ عَلَى صَفْحَاتِ أَحْوَالِهِ الْحَالِيَةِ لِمَوْضِعِ النُّصْرَانِيَّةِ مِنَ الْغِيَارِ، وَاسْتِعَاضَةً لِلرِّيحِ الْمُؤَبِّدِ مِنَ مَبِيدِ الْخَسَارِ، وَأَسْلَمَ الرَّئِيسَانِ أَبُو سَعْدِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ وَهَبِ بْنِ الْمَوْصَلَايَا صَاحِبُ دِيْوَانِ الْاِنْشَاءِ وَابْنُ أَخِيهِ أَبُو نَصْرِ بْنِ صَاحِبِ الْخَبْرِ، وَكَانَ مِنْ مَرْتَبَتِهِ فِي السَّمَاءِ، وَذَلِكَ فِي رَابِعِ عَشْرِ صَفْرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَتَمَانِينَ وَتَقَلَّتْ وَطْأَةُ الْوَزِيرِ عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَتَرَكَ الْمُحَابَبَةَ فِي الدِّينِ، وَاسْتِضْعَافَ أَدْيَانِ الْجَمَاعَةِ بِدِينِهِ الْمَتِّينِ، وَوَافَقَ ذَلِكَ وَصُولَ كِتَابِ مِنَ السُّلْطَانِ فِي عَزْلِهِ وَوُقُوعِ ضَجْرِ الْخَلِيفَةِ مِنَ التَّشْدِيدِ فِي فِعْلِهِ، فَخَرَجَ التَّوْقِيعُ بِصَرْفِهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ تَاسِعَ عَشْرِ صَفْرِ فَانْصَرَفَ وَهُوَ يُنْشَدُ: [الوافر]

تَوَلَاهَا وَكَانَ لَهُ عَدُوٌّ وَفَارَقَهَا وَكَانَ لَهُ صَدِيقٌ  
وَكَانَتْ أَيَّامُهُ أَنْصَرَ الْأَيَّامِ وَأَعْوَامُهُ أَحْسَنَ الْأَعْوَامِ، فَخَرَجَ ثَانِيَّ يَوْمِ عَزْلِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَا شِئًا إِلَى الْجَامِعِ مِنْ دَارِهِ فِي زِيٍّ شَاهِدٍ بِاسْتِعْبَارِهِ وَاعْتِبَارِهِ، وَانْتَالَ النَّاسُ عَلَيْهِ بِصَافِحُونَهُ وَيَهْ يَتَبَرَّكُونَ وَلَيْسَ كَيْهِ يَنْسَكُونَ وَيَتَمَسَّكُونَ، فَانْكَرَ ذَلِكَ وَكَلَّمَ دَارَهُ وَصَيَّقَ الْخَلِيفَةَ فِيهِ أَعْدَارَهُ ثُمَّ سَافَرَ إِلَى الْحَجِّ فِي الْمَوْسِمِ، لِيَفُوزَ مِنَ الْمُجَاوِزَةِ بِالْمَعْتَمِ، وَتُوْفِيَ بِطَيْبَةِ طَيْبِ الْوَفَاةِ صَيَّبَ الْبَرَكَاتِ فِي النِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَتَمَانِينَ، فَدُفِنَ بِالْبُقْعِ عِنْدَ قَبْرِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ مَوْلَدُهُ بِكَنْكُورٍ<sup>(1)</sup> سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ.

(1) كَنْكُورٌ: قَالَ يَاقُوتُ الْحَمُوي: بَلِيدَةٌ بَيْنَ هَمْدَانَ وَقَرْمِيسِينَ، وَفِيهَا قَصْرٌ عَجِيبٌ يُقَالُ لَهُ قَصْرُ اللَّصُوصِ، وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ، وَكَنْكُورٌ أَيْضًا: قَلْعَةٌ حَصِينَةٌ عَامِرَةٌ قَرِبَ جَزِيرَةِ ابْنِ عَمْرٍ مَعْدُودَةٌ مِنْ قَلْعِ نَاحِيَةِ الزُّوزَانَ وَهِيَ لِصَاحِبِ الْمَوْصَلِ.

وَلَمَّا عَزَلَ الْوَزِيرُ أَبُو شِجَاعٍ تَوَلَّى أَبُو سَعِيدُ بْنُ الْمَوْصِلَايَا النَّظَرَ فِي الدِّيْوَانِ، وَكَانَ كَبِيرَ الشَّأْنِ كَثِيرَ الْإِحْسَانِ، تَوَلَّى دِيْوَانَ الْإِنشَاءِ بَعْدَ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَعَاشٍ إِلَى أَنْ نَابَ عَنِ الْوِزَارَتَيْنِ الْمُقْتَدِيَّةِ وَالْمُسْتَظْهَرِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ سِرَاةِ الْفَضْلَاءِ بِفَضَائِلِهِ السَّرِيَّةِ، ثُمَّ أُعِيدَتْ الْوِزَارَةُ إِلَى عَمِيدِ الْمُلْكِ بْنِ جَهْمِيرٍ فِي السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَكَانَ السُّلْطَانُ بِيغْدَادَ فَرَكَبَ نِظَامَ الْمُلْكِ وَتَأَجَّ الْمُلْكِ وَأَكَابُرُ الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى دَارِ عَمِيدِ الدَّوْلَةِ لِإِجْلَالِهِ وَالتَّنْوِيهِ لِمَنْصَبِ إِبْقَالِهِ.

ذَكَرَ النَّوْبُ الَّتِي وَصَلَ فِيهَا السُّلْطَانُ مَلِكْشَاهَ إِلَى بَغْدَادَ وَهِيَ ثَلَاثٌ وَلِكُلِّ نَوْبَةٍ نَوَائِبُ وَأَحَادِيثُ وَأَحْدَاثُ

فَأَمَّا النَّوْبَةُ الْأُولَى: فَأَنَّهَا فِي آخِرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَقَدْ أَحْفَفَ الْقَدْرُ قُدْرَتَهُ وَقَدَّرَهُ الْمَزِيدَ وَالْمَزِينِ وَدَخَلَ إِلَى بَغْدَادَ فِي رَابِعِ ذِي الْحِجَّةِ وَاضْحَ الْمَحِجَّةِ، وَخَرَجَ الْوَزِيرُ أَبُو شِجَاعٍ لِاسْتِقْبَالِهِ وَتَوْفِيَةِ حَقِّ إِعْظَامِهِ وَإِجْلَالِهِ وَظَهَرَتْ بِقُدُومِهِ تَبَاشِيرُ الْأَيَّامِ الْمُسْفِرَةِ وَرَكِبَ فِي ثَالِثِ يَوْمِهِ إِلَى الْحَلْبَةِ وَكَعِبَ بِالْأَكْرَةِ وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةَ أَفْرَاسًا وَالطَّافَا وَأَنْوَعًا مِنْ مَبَارِهِ وَأَصْنَافًا، وَتَصَادَقَا وَتَصَافَيَا وَتَوَافَيَا، وَمَضَى نِظَامُ الْمُلْكِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَحَضَرَهَا وَنَظَرَ لَهَا وَنَظَرَهَا وَدَخَلَ إِلَى دَارِ الْكُتُبِ وَقَلَّبَهَا وَتَصَفَّحَهَا وَرَمَّ أَحْوَالَهَا وَأَصْلَحَهَا، وَعَادَ إِلَى دَارِ وَلَدِهِ مُؤَيَّدَ الْمُلْكِ وَأَقَامَ بِهَا لَيْلَتَيْنِ، فَلَبَسَتْ بِهِمَا مِنَ الْفَخْرِ حُلَّتَيْنِ.

وَفِي سَابِعِ عَشْرِ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ ثَمَانِينَ اسْتَدْعَى الْخَلِيفَةُ السُّلْطَانَ إِلَى حَضْرَتِهِ عَلَى لِسَانِ ظَفَرٍ فَبَشَرَ وَجْهَهُ وَسَفَّرَ، وَسَمَا جَاهَهُ وَوَفَّرَ، وَرَكِبَ فِي الطَّيَارِ وَرَكِبَ الْبَحْرُ مِنَ الْبَحْرِ وَشَجَّ التِّيَارِ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَابِ الْعَرَبَةِ قُدِّمَ إِلَيْهِ فَرَسٌ مِنْ مَرَائِبِ الْخَلِيفَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السِّدَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَأَمَرَهُ الْخَلِيفَةُ بِالْجُلُوسِ فَامْتَنَعَ وَتَوَاضَعَ حَتَّى ارْتَفَعَ، ثُمَّ أَسَمَ عَلَيْهِ فَجَلَسَ وَزَادَ فِي إِيْنَانِيهِ فَأَنَسَ ثُمَّ نَهَضَ لِتَمَاضٍ عَلَيْهِ الْخِلْعُ الَّتِي أُعِدَّتْ وَالتَّشْرِيفَاتُ الَّتِي اسْتَجَدَّتْ، وَلَمْ يَزَلْ نِظَامُ الْمُلْكِ يَأْتِي بِأَمِيرٍ أَمِيرٍ إِلَى تَجَاهِ السِّدَّةِ لِيُخَصَّ جَدَّةً بِالْجِدَّةِ وَالْجِدَّةُ، وَيَقُولُ لِلْأَمِيرِ هَذَا أَمِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ، فَيُعَفَّرُ بِتَقْبِيلِ الْأَرْضِ النَّجْبِينَ، وَيَقُولُ لِلْخَلِيفَةِ هَذَا فَلَانٌ وَعَسْكَرُهُ كَذَا وَوَلَايَتُهُ كَذَا، وَكَانُوا فَوْقَ الْأَرْبَعِينَ، وَكَانَ فِيهِمْ إِيْتِكُنْ خَالَ السُّلْطَانَ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَمَسَحَ لِلتَّبَرُّكِ وَجْهَهُ بِأَرْكَانِ الدَّارِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَعَادَ السُّلْطَانُ وَعَلَيْهِ الْخِلْعُ السَّبْعُ وَالطُّوْقُ وَالسَّوَارِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مِنْ آثَارِ الْجَلَالَةِ الْأَنْوَارِ، فَقَبَّلَ الْأَرْضَ مَرَّاتٍ وَتَقَبَّلَ مِنَ الرِّضَا

مَبْرَاتٍ، فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ خَادِمَهُ مُخْتَصِّصًا فَقَلَّدَهُ بِسَيْفَيْنِ لِأَجْلِ الْجَلَالَتَيْنِ وَإِدَالَةِ الدَّوْلَتَيْنِ، فَقَالَ  
الْوَزِيرُ أَبُو شِجَاعٍ يَا جَلَالَ الدِّينِ سَيِّدُنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِزِّ الْخُلَافَةِ وَاجْتِبَاءِ  
لِشَرَفِ الْإِمَامَةِ وَاسْتِرْعَاهُ لِلْأُمَّةِ وَاسْتَخْلَفَهُ الدِّينَ وَالْمِلَّةَ قَدْ أَوْقَعَ الْوَدِيعَةَ عِنْدَكَ مَوْعَهَا،  
وَاصْطَفَى لِلصَّبِيغَةِ مَعَكَ مَوْضِعَهَا، وَقَلَّدَكَ بِسَيْفَيْنِ لِتَكُونَ قَوِيًّا عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى تَجُوسُ  
دِيَارَهُمْ وَتَذُلُّ رِقَابَهُمْ وَلَا تَأَلُو فِي مَصْلَحَةِ الرِّعِيَّةِ قِيَامًا، وَلَا تَدْخِرُ عَنْهَا اهْتِمَامًا قِبْطَاعَتِهِ تُقْبَلُ  
عَلَيْكَ الْخَيْرَاتِ مِنْ جَوَانِبِهَا، وَتَدْرُ الْبَرَكَاتِ بِسِحَابِهَا، وَسَأَلَ السُّلْطَانَ فِي تَقْبِيلِ يَدِ الْخَلِيفَةِ  
فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى تَقْبِيلِهَا فَسَأَلَهُ فِي تَقْبِيلِ خَاتَمِهِ لِتَرْفِيهِهَا وَتَبْجِيلِهَا، وَفِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرٍ خَرَجَ  
مِنْ بَغْدَادَ إِلَى خِرَاسَانَ وَاسْتَقْبَلَ مِنْ زَمَانِهِ الْحَسَنَ وَالْإِقْبَالَ وَالْإِحْسَانَ.

وَأَمَّا النَّوْبَةُ الثَّانِيَةُ: فَانْهَارَتْ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ، دَخَلَ فِي الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ  
رَمَضَانَ وَمَعَهُ نِظَامُ الْمُلْكِ وَتَاجُ الْمُلْكِ وَأَكْبَابُ مَمْلَكَتِهِ وَأَرْبَابُ دَوْلَتِهِ، وَبَرَزَ أَمِينُ الدَّوْلَةِ ابْنُ  
الْمُوصِلَايَا لِاسْتِقْبَالِهِ، وَخَرَجَ خُرُوجَ الْوُزَرَاءِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَخَرَجَ السُّلْطَانُ مِنْهَا وَمَضَى  
إِلَى خُوزِستَانَ فِي صَفَرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ بَعْدَ أَنْ سَيَّرَ قَسِيمَ الْمُلْكِ أَقَ سَنَقَرَ إِلَى حَلَبَ  
وَالْأَمِيرَ بُوْزَانَ إِلَى الرَّهَا.

وَأَمَّا النَّوْبَةُ الثَّلَاثَةُ: فَانْهَارَتْ فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ  
بَعْدَ اسْتِشْهَادِ نِظَامِ الْمُلْكِ وَكَانَتْ الدَّوْلَةُ رَأْسُهَا وَرَثِيئُهَا تَاجُ الْمُلْكِ، وَكَانَتْ وَفَاتَتْ بِهَا فِي  
شَوَّالٍ.

### ذِكْرُ حَوَادِثِهِ

فِي سَادِسِ عَشْرٍ فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ تُوْفِيَ قَاضِي الْقَضَايَةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الدَّامَغَانِيُّ  
لَيْلَةَ السَّبْتِ سَادِسَ عَشْرِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَمَوْلَدُهُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتَسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ،  
وَدَخَلَ بَغْدَادَ سَنَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ، وَتَوَلَّى بَعْدَهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ الْمَظْفَرِيُّ بْنُ بُكَرَانَ الْحَمَوِيُّ الشَّامِيُّ  
الْقَضَاءَ.

وَتُوْفِيَ فَخْرُ الدَّوْلَةِ أَبُو نَصْرِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَهْيَرٍ بِالْمُوصَلِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ  
وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَمَوْلَدُهُ بِهَا فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَتَسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ.

عَادَ الْحَالَ إِلَى تَعْرِيْبِ كِتَابِ أَنْوَشِرَوَانَ.

ذَكَرَ حَالِ وِلَاةِ السُّلْطَانِ أَبِي الْمُظْفَرِ بَرْكِيَارِقِ بْنِ مَلِكْشَاهِ بَرْهَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

وَلَمَّا دَرَجَ أَوْلَادُ الْقَوْمِ وَكَانَ لِلْسُّلْطَانِ مَلِكْشَاهِ أَرْبَعَةٌ بَنِينَ وَهُمْ: بَرْكِيَارِقُ وَمُحَمَّدٌ وَسَنْجَرٌ وَمَحْمُودٌ، وَكَانَ مَحْمُودٌ طِفْلاً وَبَايَعُوهُ عَلَى السُّلْطَانِيَّةِ لِثَلَاثَةِ أَسْبَابٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ أُمَّهُ تَرَكَانَ خَاتُونَ كَانَتْ مُسْتَوْلِيَةً فِي أَيَّامِ مَلِكْشَاهِ مُحَكَّمَةً فِي الدَّوْلَةِ مُقَدَّمَةً، وَلَمَّا دَرَجَ بَقِيَ تَحَكُّمُهَا وَاسْتَمَرَّ تَقَدُّمُهَا، وَالثَّانِي: أَنَّ الْأَمْرَاءَ وَالْوُزَرَءَ وَأَرْبَابَ الدَّوْلَةِ كَانُوا مِنْ صَنَائِعِهَا فَاخْتَارُوا وَلَدَهَا وَأَقْرَبُوا يَدَهُ وَيَدَهَا، وَالثَّلَاثُ: أَنَّ هَذِهِ خَاتُونَ كَانَتْ مِنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ فَفَضَّلُوا ابْنَهَا وَقَبَّلُوا مِنْهَا، عَلَى أَنَّ بَرْكِيَارِقَ أَيْضاً كَانَتْ أُمُّهُ سَلْجُوقِيَّةً وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي السُّلْطَانِ بِيغْدَادَ حَاضِراً إِلَّا وَلَدُهُ الطِّفْلُ فَبَايَعُوهُ وَسَارُوا بِهِ إِلَى أَصْفَهَانَ وَعَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ أَجْلَسُوهُ وَأَخْرَجُوا تِلْكَ الْأَمْوَالَ الْعَتِيدَةَ وَالذَّخَائِرَ الطَّارِفَةَ وَالتَّلِيدَةَ فَفَرَّقُوا بِأَمْرِ خَاتُونَ، وَتَمَكَّنَ الْفَتْوَرُ وَالْفَتُونَ، وَرَزَهَتْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ، وَهَزَيْتِ بِالْمُنَى الْأَمْوَالَ، فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ فَتَكَ بِتَاجِ الْمُلْكِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ بِيَدِ مَمَالِيكَ نِظَامِ الْمُلْكِ وَزَيْرِ خَاتُونَ وَوَلَدِهَا وَلَمَّا سَمِعُوا بِأَصْفَهَانَ أَنَّ خَاتُونَ وَوَلَدَهَا قَدْ تَوَجَّهَا إِلَيْهَا خَرَجُوا بِبَرْكِيَارِقِ مِنْهَا إِلَى الرَّيِّ وَشَرَعُوا فِي جَمْعِ الْعَسَاكِرِ عَلَيْهِ وَدَعَا الْأَجْنَادَ إِلَيْهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا تَقَرَّرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ نِسْبَةِ قَتْلِ نِظَامِ الْمُلْكِ إِلَى تَاجِهِ، وَأَهَاجُوا لِلثَّارِ وَتَارُوا فِي مَنَاجِحِهِ.

وَفِي مَبَادِي هَذَا الْأَمْرِ تَوَلَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَظْهَرُ بِاللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ الْمُقْتَدِي الْخَلِيفَةَ بَعْدَ وِفَاةِ الْوَالِدِ، وَمَوْلَدُهُ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ سَبْعِينَ، وَأَخَذُوا مِنْهُ عَهْدَ بَرْكِيَارِقِ بْنِ مَلِكْشَاهِ بِالسُّلْطَانِيَّةِ وَتَقْوِيَةَ يَدِهِ الْمُتَمَكِّنَةَ، وَقَبْلَ ذَلِكَ جَاءَ بَرْكِيَارِقُ إِلَى أَصْفَهَانَ مُحَاصِراً وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ أَحَدٌ مِنْ أَرْبَابِ الدَّوْلَةِ حَاضِراً، فَانِ الْأَكْبَابُ كَانُوا مُحْصُورِينَ، وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أُنْسَاءِ الْوَقْتِ وَأَبْنَاءِ الدَّهْرِ غَيْرُ مَعْرُوفِينَ وَلَا مَذْكُورِينَ، وَلَمَّا سَمِعَتْ وَالِدَتُهُ زُبَيْدَةُ خَاتُونَ بِنْتُ الْيَاقُوتِيِّ بْنِ دَاوُدَ بِأَصْفَهَانَ أَنَّهُ عَلَى قَصْدِهَا وَالشَّرُوعِ فِي وِرْدِهَا، وَكَانَتْ رَابِعَةَ زَمَانِهَا وَسِتِيرَةَ أَوَانِهَا فَخَرَجَتْ مِنْ حِدْرِهَا، وَكَشَفَتْ عَنْ سِتْرِهَا، وَسَفَرَتْ وَجْهَهَا لِلسَّفَرِ، وَأَخْفَرَ مَا كَانَتْ فِيهِ مِنْ ذِمَامِ الْخَفَرِ. [الكامل]

إِنَّ النِّسَاءَ وَإِنْ حُسِبْنَ صَوَالِحاً  
فِي مَا يَحُلُّ مِنَ الْأُمُورِ وَيَحْرُمُ  
لَحْمٌ تُطَيَّفُ بِهِ كَلَابٌ جَوْعٌ  
إِنْ لَمْ يُبْذَنَنَّ فَلِأَنَّهُ يَتَقَسَّمُ

وَلَمْ تَنْقُضِ سَنَةً حَتَّى مَاتَ مَحْمُودٌ، وَمَاتَتْ وَالِدَتُهُ، وَتَمَّ الْمَلِكُ لِيرِكْيَارِقَ وَالْأَقْدَارُ  
مُسَاعِدَتُهُ.

### وزارة عز الملك أبي عبد الله الحسين بن نظام الملك

كَانَ شَرِيحاً حَمِيْزاً، لَا يُصِيبُ رَأياً وَلَا يُحْسِنُ تَدْبِيْراً، وَلَا ثَرْوَةً لَهُ وَلَا فَضْلاً وَلَا نِبَاهَةً وَلَا  
نَبْلًا وَلَا بُلْغَةً وَلَا بِلَاغَةً، وَلَا عِبَارَةً وَلَا بَرَاعَةً، بَعِيداً عَنِ الْكِفَايَةِ، قَرِيباً إِلَى الْغَوَايَةِ، خَالِياً مِنَ  
الْمَعَانِي، مَعْرُوفاً بِالْقُصُورِ وَالْعِجْزِ وَالتَّوَانِي، لَا تَقْأُ بِهَذَا الْبَيْتِ: [الْخُفِيف]

لِأَبِي الصَّلْتِ صُورَةٌ وَنِيَابٌ      ثُمَّ رَاحَ بِهِ يُقْضَى الْكِيَانُ  
[الطَوِيل]

وَمَا حَسَنَ الرِّجَالِ لَهُمْ بَزِين      إِذَا لَمْ يَسْعِدِ الْجُسْنَ الْبِيَانُ  
كَفَى بِالْمَرْءِ عَيْباً أَنْ تَرَاهُ      لَهُ وَجْهٌ وَلَيْسَ لَهُ لِسَانُ

وَلَمَّا رَأَوْا اخْتِلَالَ الْمَلِكِ بَعْدَ نِظَامِهِ ظَنُّوا أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى النِّظَامِ بِأَحَدِ أَوْلَادِهِ وَيَتَبَدَّلُ خَلْلَهُ  
بِسَدَادِهِ، وَلَمْ يَجِدُوا حَاضِراً فِي الْعَسْكَرِ غَيْرَهُ فَاسْتَوَزَرُوهُ وَوَقَّرُوهُ وَعَزَّرُوهُ وَجَعَلُوهُ لِلشَّبَكَةِ  
شَمَاشاً، وَرَجَّوْا بِهِ لِعَاثِرِ الْمَمْلَكَةِ انْتِعَاشاً، وَكَانَتْ عِلَامَتُهُ: (أَحْمَدُ اللَّهُ وَأَشْكُرُهُ)، وَكَانَ لَهُ  
أَخٌ صَغِيرٌ اسْمُهُ عَبْدِ الرَّحِيمِ فَجَعَلُوا إِلَيْهِ مَنْصِبَ الطَّغْرَاءِ بِاتِّفَاقٍ مِنَ تِلْكَ الْأَرْءَاءِ، يَعْنِي أَنَّ هَذَا  
الْمَنْصِبَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْفَضْلِ الْأَدْبِيِّ وَلَا النُّطْقِ الْقَسِيِّ، وَكَيْسَ إِلَّا مُجْرَدَ ذَلِكَ الْخَطِّ الْقَوِيِّ،  
وَكَانَ الْأَسْتَاذُ عَلِيٌّ رَأَى عَلِيَّ الْقُمِّيَّ وَزَيْرَ كُمْشْتَكِينَ الْجَانِدَارِ الَّذِي كَانَ قَدِيمًا مَرْبِيًّا لِيرِكْيَارِقَ  
وَأَتَابَكَ فَحِينَئِذٍ وَلِيَّ السُّلْطَنَةِ نَفَذَ أَمْرَهُ وَمَضَى حُكْمُهُ حَتَّى كَانَتْهُ شَرِيكُهُ فِي الْمُلْكِ، فَلِهَذَا سُمِّيَهُ  
وَلَهُ اسْمُهُ، فَتَوَلَّى هَذَا الْأَسْتَاذُ دِيْوَانَ الْإِسْتِيفَاءِ، وَجَزَتْ بِإِيَالِهِ هَوْلَاءُ أُمُورٍ شَنِيعَةٌ وَأَحْوَالُ  
فَظِيحَةٌ، وَسَاءَتِ السَّمْعَةُ وَشَاعَتِ الشُّبُهَةُ وَحَقَّتِ اللَّعْنَةُ وَظَهَرَتِ الْهَجْنَةُ، وَلَوْ تَمَشَّى أَمْرٌ مِنَ  
الْأُمُورِ فَأَنَّمَا كَانَ بِكِفَايَةِ الْأَسْتَاذِ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ كَانَ يَرْجِعُ إِلَى نِظَرِ لَوْذَعِيٍّ وَرَأْيِ وَرِيٍّ، وَأَمَّا الْبَاقُونَ  
فَكَالْأَصْنَامَ لَا يَحْلُونَ وَلَا يَمْرُونَ وَلَا يَنْفَعُونَ وَلَا يُضْرُونَ.

قَالَ أَنْوَشِرُونَ: وَأَمَّ السُّلْطَانِ قَدْ خَلَعَتْ عِذَارَهَا وَلَا تَتْ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ خِمَارَهَا،  
وَوَافَقَتْ كُمْشْتَكِينَ الْجَانِدَارِ عَلَى الْمُنْكَرِ وَمُعَاوَرَةِ الْمُسْكَرِ، وَالسُّلْطَانُ مَشْغُولٌ بِاللَّذَاتِ  
وَمَقَارِنَتِهَا مَعَ عِدَّةٍ مِنَ اللَّذَاتِ الْأَقْرَانِ، وَالْوَزِيرُ أَيْضاً مُنْهَكٌ فِي الشَّرْبِ وَمُخَاسِرَةُ الْمَسَاحِرِ

وَمُجَانَاةِ الْمُجَانِ، وَوَصَلُوا إِلَى بَغْدَادَ فِي سَابِعِ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ فِي آخِرِ  
الْأَيَامِ الْمُقْتَدِيَّةِ وَاخْتَارُوا الْمَقَامَ فِيهَا وَالْهَتْمُ مَعَانِيهَا وَمَعَانِيهَا، فَشَدُّوا ذَيْلَ الْغُبُوقِ بِجَبِيبِ  
الصُّبُوحِ، وَعَدُّوا تَحِيَّةَ الرِّاحِ حَيَاةَ الْأَرْوَاحِ، وَأَخَذُوا فِي إِزَاقَةِ دَمِ الْكَأْسِ بِقَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ<sup>(1)</sup>:  
[البسيط]

مَا زِلْتُ اسْتَلُّ رُوحَ الزَّرْقِ فِي لُطْفِ      وَأَسْتَبِيحُ دَمًا مِنْ غَيْرِ مَجْرُوحِ  
حَتَّى انْتَشَيْتُ وَلِي رُوحَانَ فِي جَسَدِ      وَالزَّرْقُ مُطَّرِحُ جَسْمٍ بِبِلَا رُوحِ  
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَالٌ يُنْفِقُونَهُ فِي الْعَسَاكِرِ فَفَرَّقُوا فِيهِمْ حَلِي النِّسَاءِ مِنَ الْخَلَاجِلِ وَالْأَسَاوِرِ  
وَوَضَعُوا فِي أَيْدِيهِمْ تَوْقِيْعَاتٍ وَخَطُوطًا أَوْ قَعْتَهُمْ فِي خُطُوبِ، وَمَدَّتْ يَدُ كُلِّ مَنْهَرِمٍ مِنْهُمْ إِلَى  
كُلِّ مَنْهَبٍ وَمَغْصُوبٍ، وَاسْتَضَعَفُوا قَوْمًا وَاسْتَبَاحُوا أَمْلَاكَهُمْ، وَهَلَكَ آخَرُونَ بِسُوءِ تَدْبِيرِهِمْ  
وَلَمْ يَقْصِدُوا هَلَاكَهُمْ، وَصَارَ الْمُهْمُ مُهْمَلًا وَالْعَدْلُ مُعْفَلًا وَالْمُعَلَّمُ مُجْهَلًا، فَالظَّلَامَاتُ  
مُظْلِمَاتٌ وَالْمُلِمَاتُ مَوْلِمَاتٌ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ دَنُّهُ دِينُهُ وَكَأْسُهُ حُدَيْنُهُ، فَلَمَّا فَارَقَهُ التَّوْفِيقُ فَلَا  
يَصْحُو وَلَا يُفِيقُ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَمْرَاءِ فِي ثُغُورِ مِصْرَ وَالشَّامِ أَمِيرَانِ كَبِيرَانِ فِي الْجَاهِ وَالْقَدْرِ  
كَافِيَانِ فِي حِفْظِ الثَّغْرِ، وَهُمَا آقِ سَنْقَرٍ وَبِرَّانِ قَتَابِعَا الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ إِلَى السُّلْطَانِ بِخُرُوجِ عَمِّهِ  
الْمَلِكِ تَشُّشِ بْنِ أَلْبِ بْنِ أَرْسَلَانَ، وَأَنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ وَقَدْ حَشَدَ جُمُوعَ التُّرْكَمَانَ، وَهُمَا  
يَسْتَنْجِدَانِهِ وَيَسْتَحْتَانِهِ وَيَدْعُوَانِهِ عَلَى حِفْظِ الْمَلِكِ وَيَبْعَثَانِهِ، فَمَا قَرَأُوا لَهُمَا كِتَابًا إِلَّا فِي وَقْتِ  
الْعَسْكَرِ وَلَا اطَّلَعُوا أَيْضًا لِمَا أُوْدِعَ مِنَ السَّرِّ، وَزَمُّوا كُلَّ كِتَابٍ وَصَلُّهُمُ رِوَاةَ الظَّهْرِ، حَتَّى يَبْسُ  
الْأَمِيرَانِ مِنْ صِلَاحِ الْأَمْرِ، وَوَقَعَا فِي وَرْطَةِ الشَّرِّ وَظَنَّ أَنَّهُمَا يَقَاوِمَانِ تَشُّشَ فِي رَدِّهِ عَنِ قَصْدِهِ  
وَتَفْرِيقِ جَمِيعِهِ وَحَشْدِهِ، وَوَقَفَا فِي طَرِيقِهِ فَمَحْصَلَا فِي قَبْضَتِهِ وَقَعَدَا عَنِ نَهْضَتِهِ، وَقَتِلَا بِسَيْفِ  
سِيَاسَتِهِ وَحُصْمَا بِحُصَامِ حِمَاسَتِهِ. [الطويل]

فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ      وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكِ الْخَشْرُ<sup>(2)</sup>

(1) ديوان أبي نواس، جمعه وضبطه وشرحه أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1953م، وأبو نواس:  
هو الحسن بن هاني الحكمي بالولاء، فقد كان جده مولى الجراح الحكمي أمير خراسان فنسب إليه، وذكر أن أباه من  
جند مروان بن محمد، وهو شاعر العراق في عصره، ولد في الأهواز ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد واتصل بالخلفاء  
العباسيين ومدح بعضهم، وذهب إلى مصر ومدح الخصب أميرها، وعاد إلى بغداد فأقام بها حتى توفي سنة 198 هـ،  
ذكر الجاحظ أنه كان عالماً باللغة أفصح الناس فحجة، وأثنى عليه علماء وفقهاء عصره.

(2) ديوان أبي تمام، جمع الصولي وترتيب علي بن حمزة الاصفهاني، قدم له: عبدالحميد يونس وعبدالفتاح مصطفى،  
القاهرة، 1942م، 320

وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ الرَّيِّ وَهَمْدَانَ وَقَمَّ وَجَرِبَادْقَانَ، وَأَمْرَاءُ الدَّوْلَةِ الْبِرْكَيَارِقِيَّةِ كُلُّ مِنْهُمْ فِي بِلَدِهِ مَشْغُولٌ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ مُوَاصَلَةِ الْعَصْفِ وَالانْقِطَاعِ إِلَى الْعَرْفِ، وَكَمَشْتَكِينَ مَعَ الْوَالِدَةِ السُّلْطَانِ زُبَيْدَةَ لَا تَعْرِفُ مَكْرَ الْعَدُوِّ وَلَا كَيْدَهُ، وَمِمَّا قَالَهُ أَبُو مَنْصُورِ الْإِيْبِيِّ وَكَانَ مِنْ فُضَلَاءِ الْعَصْرِ بِالْفَارِسِيَّةِ آيَاتٌ مِنْ جُمْلَتِهَا مَا مَعْنَاهُ إِشَارَةٌ إِلَى قَتْلِ بَزَانَ وَأَقِ سَنَقَرٍ مَا قُلْتُ: [الْخَفِيفُ] قَدْ عَرَقْنَا فِي الشُّرْبِ وَالسُّكْرِ حَتَّى لَمْ نُفَكِّرْ فِي سَنَقَرٍ وَبَزَانَ مَا ظَفَرْنَا بِالْبَيْدِقِ الْقَرْدِ فِي الدُّسِّ [م] سِ وَلَكِنْ قَدْ أَسْلِمَ الرَّخَّانِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَجْنَادِ طَلَبَ صِلَاحَ حَالِهِ وَنَجَاحَ أَمَالِهِ، فَأُفْرِدَ بَرَبْرَكَيَارِقُ وَأَتَّصَلُوا بِعَمِّهِ وَذَلِكَ فِي هَمِّهِ وَغَمِّهِ، وَوَقَعَ هُوَ إِلَى أَصْفَهَانَ طَرِيداً شَرِيداً قَدْ اسْتَصْحَبَ جَمْعاً بَدِيداً، لَا يَمْلِكُ عِدَّةً وَلَا عُدِيداً، وَكَانَ بِأَصْفَهَانَ مِنْ بَقَايَا الدَّوْلَةِ الْخَاتُونِيَّةِ أَقْوَامٌ فَحَبَسَهُمْ وَأَتَعَبُوهُمْ فَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ فِي اعْتِقَالِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَبَرَ عَلَى اخْتِلَالِهِ وَرَجَا صِلَاحَ مَالِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فُجِعَ دُونَ نَفْسِهِ بِمَالِهِ.

ذِكْرُ وُصُولِ مُؤَيَّدِ الْمَلِكِ أَبِي بَكْرٍ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ النِّزَامِ مِنْ خِرَاسَانَ إِلَى الْعِرَاقِ وَوِزَارَتِهِ

وَكَانَتْ خِرَاسَانُ أَيْضاً مُضْطَرَبَةً وَالْمُلُوكُ بِهَا مُتَوَتِّبَةً، وَكَانَتْ بَيْنَ وَكَذَلِكَ أَلْبِ أُرْسُلَانِ وَأَرْغُوا مُقَارَعَاتٍ وَمُبَارَعَاتٍ هَرَبَ مِنْهَا مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ إِلَى أَصْفَهَانَ، وَتَرَكَ بِخِرَاسَانَ مَا عَزَّ وَهَانَ، وَأَوَى إِلَى الْعِزِّ فِي أَوَانِهِ، وَصَيَّنَ مِشْرِفِي شَرْفِهِ فِي صِوَانِهِ، وَرَأَاهُ أَهْلًا لِلْوِزَارَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَخَلَصُوا بِهِ مِنَ الْوَصْمِ وَالْمَقْتِ، وَخَلَعُوا عَلَيْهِ خِلْعَةً تَامَةً لِلْوِزَارَةِ، وَعَادَ بِهِ الْمُلْكُ إِلَى النَّصْرَةِ، وَكَانَ مُصْرَفًا لِلسَّيْفِ وَالْقَلَمِ وَمُعْلِيًا لِلْعِلْمِ وَالْعَلَمِ، وَعَارِفًا بِالْبَلْغَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ. [الْوَافِرُ]

لَهُ بَيْنَ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي وَمَا بَيْنَ الْمُهَنْدَةِ الذُّكُورِ مَقَامَاتٍ شَرُفْنَ قَمَا يُبَالِي أَمَاتٍ عَلَى جَوَادِ أَمِ سَرِيرِ وَلَمْ يَكُنْ فِي أَوْلَادِ نِزَامِ الْمَلِكِ أَكْفَأَ مِنْهُ وَأَكْمَلُ مِنْهُ وَأَعْرَفُ مِنْهُ وَأَعْقَلُ، وَكَانَ أَوْحَدَ الْعَصْرِ بَلِيغًا فِي النِّزَمِ وَالشِّرِّ، مُدْبِرًا بِحُسْنِ رَأْيِهِ لِلْأَمْرِ، نَافِذًا لِلْأَمْرِ، فَتَقَدَّمَ وَأَقْدَمَ، وَحَكَّمَ وَأَحْكَمَ، وَبَرَى وَأَبْرَمَ، وَنَظَّمَ تِلْكَ الْأُمُورَ الْمَشُورَةَ، وَطَوَى تِلْكَ السَّيِّئَاتِ الْمَشُورَةَ، وَكَانَتْ عَلَامَتُهُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى النِّعَمِ).

وَتَوَجَّهَ إِلَى مَصَافِّ تَشْتِ وَجَمَعَ وَحَشَدَ وَطَلَبَ الضَّلَالَةَ وَنَشَدَ، وَقَالَ لِمَجْدِ الْمَلِكِ أَبِي الْفَضْلِ وَهُوَ مُتَزَوِّجٌ بِأَصْفَهَانَ فِي مَحَلِّ الْمَحَلِّ: قُمْ وَصَاحِبِيهِ وَلَمْ يَرِضْ مِنْ دُنْيَاكَ فِي عَلِيَاكَ الدُّنْيَا، فَأَجَابَهُ (فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرِيثُكَ فَفَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)<sup>(1)</sup> فَلَمَّا ضَرَبَ الْمَصَافِّ كَبِيرَ تَشْتِ وَقُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَتَوَحَّدَ بِرُكْيَارِقَ بِالْمَمْلَكَةِ، وَاسْتَبْرَكَ بِالْوَزِيرِ.

قَالَ أَبُو شُرَوَانَ: وَأَنَا كُنْتُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْمَصَافِّ وَذَلِكَ فِي سَابِعِ عَشَرَ صَفْرَ سَنَةِ ثِمَانٍ وَثَمَانِينَ عِنْدَ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا شَيْلُوا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ فَرَسَخًا مِنَ الرَّيِّ، فَوَصَلَ مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ فِي الْمَعْرَكَةِ إِلَى السُّلْطَانِ وَهَنَاهُ بِالْفَتْحِ، فَتَبَسَّمَ السُّلْطَانُ سُرُورًا بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْمَنْحِ، وَقَالَ لَهُ كُلُّ هَذَا بِبِرِّكَتِكَ وَيُمْنِ نَفِيَّتِكَ، فَأَبْقَى النَّاسَ أَنَّهُ وَزِيرٌ مَقْبُولٌ، وَأَمَنُوا أَنَّهُ [غَيْرٌ] مَعزُولٌ، وَإِنَّ صَرْفَ النَّاسِ عَنْهُ مَشْغُولٌ، وَكَانَتْ زَارِئُهُ سَنَةَ سَبْعِ وَثَمَانِينَ فِي ذِي الْحِجَّةِ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الرَّيِّ بَعْدَ الْوَقْعَةِ بَادَرَ مَجْدُ الْمَلِكِ أَبُو الْفَضْلِ الْمِيرَاوَسْتَانِي إِلَى الرَّيِّ مِنْ أَصْفَهَانَ لِلِقَاءِ السُّلْطَانِ وَ (فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ) صَارَ هَذَا الْحُكْمُ فِي حَقِّهِمَا بِالْعَكْسِ، وَعَادَتِ الْأُمُورُ إِلَى اللَّبْسِ، وَاسْتَمَالَ مَجْدُ الْمَلِكِ قَلْبَ وَالِدَةِ السُّلْطَانِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ، وَتَمَكَّنَ مِنَ الدَّوْلَةِ وَنَفَاذِ الْأَمْرِ، وَقَبَّضَ عَلَى الْإِسْتِاذِ عَلِيِّ الْمُسْتَوْفِي الَّذِي كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِلْوَزِيرِ مُعِينًا، وَفِي مَكَانِهِ مِنَ الْمَنْصِبِ مَكِينًا، فَسَمِلَ وَأَعْيَبِي، وَأُصِيبَ بِهِ قَلْبُ الْمَلِكِ وَأُصِيبِي، وَبَقِيَ مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ وَحِيدًا يَتَوَقَّعُ الْبَلَاءَ وَيَتَعَرَّضُ، وَتَمَثَّلَ (أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلِ الشُّرَّ الْأَبْيَضَ).

ذَكَرَ انْتِقَالَ الْوِزَارَةِ عَنْ مُؤَيَّدِ الْمَلِكِ إِلَى أَخِيهِ فَخْرِ الْمَلِكِ أَبِي الْفَتْحِ الْمُظْطَرِّبِ نِظَامَ الْمَلِكِ

كَانَ فَخْرُ الْمَلِكِ أَكْبَرَ سِنًا مِنْ مُؤَيَّدِ الْمَلِكِ وَهُوَ حَيْثُذُ بِالرَّيِّ مُتَعَطِّشٌ إِلَى الْوِزَارَةِ طَالِبٌ لِلرَّيِّ، فَاطْمَعَهُ مَجْدُ الْمَلِكِ فِي مَوْضِعِ أَخِيهِ وَسَاعَدَهُ عَلَى تَوَلَّيهِ، وَاعْتَمَلَ مُؤَيَّدُ الْمَلِكِ وَحُسْنُ، وَرُتِبَ فَخْرُ الْمَلِكِ فِي الدَّسْتِ وَأَجْلِسَ، وَلَمَّا كَانَتْ وَالِدَةُ السُّلْطَانِ صَاحِبَةً الْعِنَايَةِ بِمَجْدِ الْمَلِكِ أَعَانَتْ عَلَى مُؤَيَّدِ الْمَلِكِ فَكَتَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْحَبْسِ أَيْبَانًا بِالْفَارْسِيَّةِ يَسْتَمِيلُهَا وَيَسْتَعِطُّهَا وَيَضْرَعُ إِلَيْهَا وَيَسْتَسَعِفُهَا مَعْنَاهَا:

(1) سُورَةُ الْمَائِدَةِ، آيَةُ 24

لَا تُدَلِّي مَنْ أَعَزَّزْتَهُ وَلَا تُبْعِدِي مَنْ قَرَّبْتَهُ،  
وَلَا تَضْعِي مَنْ رَفَعْتَهُ، وَلَا تَأْخِذْنِي بغيرِ ذَنْبٍ،  
فَتَحْمِلَنِي عَلَى الذَّنْبِ، وَلَا تَسَاهَلِي فِي أَمْرِي فَتُلْجِئَنِي إِلَى الصَّعْبِ،  
وَلَا تَعْمَلِي فِيَّ بِقَوْلِ الْأَعَادِي، فَاضْطُرُّ مِنْ عَادِيَةِ الْخِلَافِ إِلَى خِلَافِ عَادِيَتِي.

وَاسْتَقَلَّ مَجْدُ الْمَلِكِ بِالِاسْتِيفَاءِ وَعَلَبَ عَلَى الْوِزَارَةِ، وَبَقِيَ الْوَزِيرُ فخرُ الْمَلِكِ صُورَةً  
بِلا مَعْنَى وَشَجَرَةٌ بلا جِنَاءٍ، وَكَانَ أَيْضاً خَالِياً مِنَ الْكِفَايَةِ وَالْفَضْلِ وَالْأَدَبِ، وَعَادَاً لِكُلِّ شَيْءٍ  
غَيْرِ النَّسَبِ، وَهُوَ أَسِيرٌ تَصَرَّفَاتِ مَجِدِ الْمَلِكِ وَتَابِعٌ رَأْيِهِ، وَكَيْسٌ لَهُ مِنْ رِسُومِ الْوِزَارَةِ إِلَّا  
عَلَامَتَهُ وَهِيَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَائِهِ)، وَذَكَرَهُ مُؤَيِّدُ الْمَلِكِ فِي شِعْرٍ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ غَرِيبٍ،  
مَعْنَاهُ: [مَجْرُوءُ الْكَامِلِ]

مَاذَا أَقْوَلُ لِأَمْرِي جَمَعَ الْمَعَايِرَ وَالْمَعَايِبَ  
عَادَاتِ مَنَاقِبُ وَالسُّوْمِ مِنْ شُؤْمٍ مَنصَبِهِ مَثَالِبَ  
وَمَجْدُ الْمَلِكِ مُجَدُّ فِي مُلْكِهِ، مُنْخَرِطٌ فِي سَلْكِهِ، تَائِهٌ فِي عَمَرْتِهِ، مَغْمُورٌ فِي تَيْبِهِ، غَيْرُ  
مُفَكِّرٍ فِيمَا يَأْتِيهِ مِنْ مَخُوفِ الْخُدَنَانِ وَمَكْرُوهِهِ، وَمَعَ تَقَرُّدِهِ بِالدَوْلَةِ وَنَفَاذِ حُكْمِهِ جَرَى مِنْ  
الْبُخْلِ وَالسَّقُوطِ عَلَى قَدِيمِ رَشِيمِهِ. [الطويل]

إِذَا كُنْتَ جَمَاعاً لِمَالِكَ مُسْكاً فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِينٌ  
تُؤَدِّبُهُ مَذْمُوماً إِلَى غَيْرِ حَامِدٍ فَيَأْكُلُهُ عَفْواً وَأَنْتَ دَفِينٌ  
وَخَلَصَ مُؤَيِّدُ الْمَلِكِ مِنَ الْإِعْتِقَالِ وَأَقَامَ مُدَّةً مَدِيدَةً فِي حِمَايَةِ بَعْضِ الْكُبَرَاءِ وَرَعَايَتِهِ تَارَةً  
فِي نَهَاوِنْدَ وَتَارَةً فِي مَشْكَانٍ، مُظْهِراً انْقِطَاعَهُ إِلَى الْعِبَادَةِ مُنْتَظِراً لِفَرَجِ يَأْتِيهِ مِنَ الزَّمَانِ، وَطَالَ  
عَلَيْهِ الْأَمَدُ، وَزَادَ بِهِ الْكَمَدُ، وَاسْتَحْكَمَ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ إِبْلَاسُهُ، وَعَلَبَ رِجَاءَهُ يَأْسُهُ، فَقَاضَتْهُ  
هِمَّتُهُ بِالْعُلُوِّ، وَسَمَتْ بِهِ إِلَى طَلَبِ السُّؤْمِ، وَتَارَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِالثَارِ وَانْتَضَى سَيْفَ الْعَزْمِ مَلْطَأً  
غَارِبَ الْإِنْتِظَارِ وَقَصَدَ سَرِيرَ الْمَلِكِ الْمُحَمَّدِيِّ فِي جَنْزَةٍ، وَاعْتَنَمَ فِي فُرْصَةِ تَحْرِيكِ الْأَخِ عَلَى  
الْأَخِ لِلنَّهْزَةِ فَاسْتَخَارَ اللَّهَ فِي الْإِسْتِجَارَةِ بِهِ وَرَجَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى رُتْبَتِهِ وَرَأَى أَنَّ إِقْبَالَ مُحَمَّدٍ  
عَلَى إِدْبَارِ بَرِكْيَارِقِ غَالِبٌ، وَأَنَّهُ لَأَشْكُ لِمَلِكِ أَخِيهِ وَارثِ وَسَالِبِ، وَكَانَ فِي نَفْسِ مُحَمَّدٍ  
طَلَبُ السُّلْطَنَةِ فَقَرَّاهَا وَجَرَّاهَا وَحَقَّقَ رِجَاءَهُ فِيهَا وَلا مَهْ كَيْفَ أَرْجَاهَا، وَقَبْلَهُ الْمَلِكُ مُحَمَّدٌ

وَاسْتَخْلَصَهُ، وَاصْطَفَاهُ بَيْرَهُ وَمُجَاوِرَتِهِ وَخَصَّصَهُ، وَاسْتَأْمَنَهُ لِخَلْوَاتِهِ وَاسْتَشَارَهُ فِي عَزَمَاتِهِ وَجَعَلَهُ لَهُ جَلِيسًا وَصَاحِبًا أُنَيْسًا، ثُمَّ سَلَّمَ إِلَيْهِ وَزَارَتْهُ وَعَدَّقَ بِهِ صِلَاحَ مُلْكِهِ وَعِمَارَتَهُ، ثُمَّ سَعَفَ بِقَرِيهِ وَأَسْكَنَهُ صَمِيمَ قَلْبِهِ، فَلَمَّ يَسُغْ مَاءً عَلَى الظَّمِّ لِرِيِّهِ إِلَّا بِرَأْيِهِ وَلَمْ يُصْغِ مُحِبًّا إِلَّا إِذَا دَعَا بِهِ، وَقَلْبُ مُؤَيِّدِ الْمُلْكِ ذَلِكَ كُلُّهُ مُوَكَّلٌ بِالْإِنْتِقَامِ، وَرَأْيُهُ مَعْمَلٌ فِي تَسْدِيدِ مَرَامِي ذَلِكَ الْمَرَامِ، وَإِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ عَايِنَ أَهْوَالًا وَعَايِنَ أَحْوَالًا، وَرَكِبَ أَخْطَارًا، وَخَلَّفَ خَلْفَهُ أَوْطَانًا وَأَوْطَارًا، وَسَلَّكَ إِلَى النِّجَاةِ وَالنِّجَاحِ مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ، وَوَطِئَ بِقَدَمِ إِقْدَامِهِ عَلَى حَسَكِ الْحَسَائِكِ. [الْخَفِيفُ]

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعَبَّتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ<sup>(1)</sup> وَلَوْ وَصَفْنَا مَا تَصَرَّفَتْ بِهِ حَالَاتُهُ وَحَالَتْ بِهِ تَصَرُّفَاتُهُ، حَتَّى وَصَلَّ إِلَى أَمْدِ أَمَلِهِ وَمَرْكَزِ عِلْمِ عَمَلِهِ لِحِمْلِهِ لِأَنْجِحْتَنَا مِنْ مَجَارِي الْقَدْرِ، وَآخَرُهَا الْحَدِيثُ عَنْ أَعَاجِبِ الْغَيْرِ. [الْوَافِرُ] إِذَا شَامَ الْفَتَى بَرْقَ الْمَعَالِي فَأَهْوَنُ مَا يَطِيبُ لَهُ الرُّقَادُ فَوْقَ الْهَمَّةِ عَلَى تِلْكَ الْهَمِّمَةِ، وَرَأَى بِلُوعِ غَابِئِهَا الْكُشْفَ مَا عَرَاهُ مِنْ غَمِّ تِلْكَ الْغُمَّةِ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَرِّبُ عَلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ الْبَعِيدِ، وَيَلِينُ عِنْدَهُ الشَّدِيدِ، وَيَسَهِّلُ عَلَيْهِ الصَّعْبَ، وَيُهَيِّئُ عَلَيْهِ الْحَرْبَ، وَيَسْرُحُ لِلْمُضَاقِقَةِ فِي السُّلْطَنَةِ صَدْرَهُ الرَّحْبَ، وَيُحِبِّبُ إِلَيْهِ الْجَدَّ وَيُبْغِضُ اللَّعْبَ، حَتَّى حَرَّكَ سَاكِنَ إِرَادَتِهِ وَهَاجَ كَامِنَ سَعَادَتِهِ، وَسَارَ مِنْ أَرَانٍ فِي شَرِذِمَةٍ قَلِيلَةٍ مُسْتَقَلَّةٍ بِالْقُوَّةِ غَيْرِ مُسْتَقِيلَةٍ، وَبَلَغَ بِهِ فِي مَدَّةِ يَسِيرَةٍ إِلَى دَارِ الْمُلْكِ أَصْفَهَانَ فَبَنَوْا بِهَا سَرِيرَ سُرُورِهِ، وَاجْتَابَ حَبِيرَ حُبُورِهِ، وَاسْتَمَالَ إِلَيْهِ الْعَسَاكِرَ، وَاسْتَقَالَ إِلَى نَفْحَتِهِ وَأَبْهَجَتَهُ الْأَسْمَاعُ وَالنَّوَاظِرُ، وَأَلْجَأَ بَرَكِيَارِقَ مِنَ الْأَوْسَاطِ إِلَى الْأَطْرَافِ، وَمُنِّيَ بِالْإِغْتِرَابِ وَالْإِعْتِسَافِ، وَاعْتَلَّ مَجْدُ الْمُلْكِ فُقُوتًا، وَقُبِضَ عَلَى خَاتُونِ زُبَيْدَةَ وَحُبِسَتْ فِي قَلْعَةِ الرَّيِّ ثُمَّ سَعَى مُؤَيِّدُ الْمُلْكِ فِي خَنْقِهَا فَخَنْقَتْ، وَأَحَاطَتْ بِهِ أَوْزَارُ قَتْلِهَا وَأَحْدَقَتْ.

### ذِكْرُ حَادِثَةِ مَجْدِ الْمَلِكِ

وَقَدْ سَبَقَ الشَّنَاءُ عَلَيْهِ فِي الْإَيَّامِ الْمُلْكِيَّةِ، وَأَنَّهُ كَانَ مُؤَيِّدًا بِاللِّطَافِ الْإِلَهِيَّةِ، وَكَانَ كَافِيًا، لِأَدْوَاءِ الْخُطُوبِ شَافِيًا، وَهُوَ مِنْ فُحُولِ الرِّجَالِ، وَكَانَتْ لَهُ أَدْوَابُ الْكَمَالِ، وَلَمْ تَزَلْ تَلْكَ

(1) شرح ديوان المنتبي، عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980، 4 / 64

الدولة بفضائله حاليتها، وليسور حسناته تاليته، لكنه لما لم يلق بهذا الزمان لم ينبج من صرفه، وتجرع مؤدبه كاس صرفه، فأفسدوا عليه قلوب العساكر وأصروا بمصرتيه وأعروها بطلب عرته فبصعوا بين الجمهور بسيو فهم أعضائه ورزعا أشلاءه، وذلك يوم الأربعاء ثامن عشر [سنة تسعين وأربعمائة<sup>(1)</sup>] وله إحدى وخمسون سنة، وكان رجلاً مؤظباً على الصيام والقيام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، مديماً للصلوات والصدقات، نافر الطبع من الشر مائل الخلق إلى الخير، لم يسع قط في دم، ولم يخط إلى مصرة أحد بقدم، فلم يكن من جزائه أن يضرب بالسيف مجزاً، ويكون مذلاً بعد أن كان معزاً، وكان الملك به مهناً فعاد معزاً، ولأبن الهبارية في هذا المعنى لما قتل تاج الملك في كتابه المسمى بالصادح والباغم<sup>(2)</sup>: [مجزوء الرجز]

كَانَ بِمَصْرَبَدْرُ	لَهُ عَلَيْهَا الْأَمْرُ
يَقْتُلُ كُلَّ سَاعَةٍ	مِنْ أَهْلِهَا جَمَاعَةٍ
وَيَشْرَبُ الدَّمَاءَ	حَتَّى تُخَالَ مَاءَ
أَصْلَحَهَا بِسَيْفِهِ	وَجَوْرِهِ وَخَيْفِهِ
جَزَاءُ كُلِّ فِعْلٍ	لَدَيْهِ سُوءُ الْقَتْلِ
لَمَّا عَصَاهُ وَكَادَهُ	وَبَانَ مِنْهُ نَكَادُهُ
خَنَقَهُ بِيَدِهِ	ثُمَّ رَمَى بِجَسَدِهِ
فَقَضَبَ الْمُسْتَنْصِرُ	وَقَالَ هَذَا مُنْكَرُ
فَقَالَ إِنْ عَصَانِي	قَلْبِي فِي جُثْمَانِي
نَزَعْتُهُ مِنْ صَدْرِي	وَلَمْ يَكُنْ بِنُكْرٍ
ثُمَّ عَزَا لَوَاتِهِ	إِذْ ظَنُّهُمْ حُمَاتِهِ
فَحِينَ قَبِدَ الْأَسْرَى	قَالَ اقْتُلُوهُمْ صَبْرًا
عَشْرُونَ أَلْفًا كَانُوا	حَتَّى جَرَى الْمَيْدَانُ
فِي النَّبِيلِ مِنْ دِمَائِهِمْ	وَلَسَجَّ فِي إِفْنَائِهِمْ

(1) لم تذكر المخطوطة الشهر ولا السنة، ونقلنا السنة من مختصر البنداري 80

(2) الصادح والباغم: أرجوزة في الحكمة، من الشعر التعليمي في ألف بيت نظمها ابن الهبارية على أسلوب كلية ودمنة، وقدمها للأمير ديبس بن صدقة المزدي أمير الحلة فأجازه عنها بألف دينار، لكل بيت دينار، وقد طبعت مراراً.

وَهُوَ عَلَى ظَهْرِ الْقَرَسِ  
 وَمَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ  
 وَالنَّجَاحُ تَجَاحُ الْمُلْكِ  
 حُرٌّ كَرِيمٌ النَّفْسِ  
 مُهَذَّبُ الشَّمَائِلِ  
 مُسَوِّطُ الْأَكْنَافِ  
 مَا قَطَّ قَطُّ سَيْفًا  
 مُهَذَّبُ السَّرِيرَةِ  
 لَا يَعْرِفُ الْقَسَاوَةَ  
 يَفْرُقُ فِي الْمَنَامِ  
 يَرْحَمُ مَنْ يَقْتَصِدُ  
 وَيَالُوَفَّ أَيَّدِينَ  
 وَأَنْتُمْ أَقْبِلُ قُبُلِ  
 لِيَعْلَمَ اللَّبِيبُ  
 وَإِنَّ بِالْقَصَاصِ

وَكَانَ شَرَفُ الْمُلْكِ أَبُو سَعْدٍ حَيْثُ يَعِشُ وَهُوَ مُقِيمٌ بِأَصْفَهَانَ، قَالَ أَبُو شُرَّانَ: وَدَخَلْتُ  
 إِلَى شَرَفِ الْمُلْكِ يَوْمًا فِي الْأَيَّامِ الَّتِي وَصَلَ فِيهَا السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ مِنْ جَنْزَةِ إِلَى أَصْفَهَانَ وَمُؤَيَّدُ  
 الْمُلْكِ وَزَيْرُ خَاتُونِ زُبَيْدَةَ وَمَجْدُ الْمُلْكِ كِلَاهُمَا مَنِيٌّ، وَبِالإِعْدَامِ عَلَيْهِمَا مَقْضِيٌّ، وَالْخَزَائِنُ  
 مَنُوهَةٌ وَالْأَمْوَالُ مَسْلُوبَةٌ، وَكَانَ قَدْ عَرَفَ شَرَفُ الْمُلْكِ تَخْصِيصِي بِمُؤَيَّدِ الْمُلْكِ وَانْقِضَا  
 عَنْهُ، فَقَالَ لِي: كُنَّا نَطُنُّ بِحَسَبِ حَقُوقِكَ السَّالِفَةِ عِنْدَهُ مَوَدَّاتِكَ الْأَكِيدَةَ وَحُرْمَاتِكَ الْمُهَيَّدةَ  
 وَمَسَاعِيكَ الْحَمِيدَةَ، وَسَوَابِقُ اللَّطِيفَةِ وَلَطَائِفُكَ الْمَجْدُوبَةِ الْمُطِيفَةَ أَنْتَ تَكُونُ رَكْنَ اسْتِنَادِهِ  
 وَفِي مَحَلِّ اعْتِمَادِهِ، فَلَا يُفْعَدُ أَمْرُهُ إِلَّا مِنْ عِنْدِكَ وَلَا يَقْتَدِحُ تَدْبِيرُهُ وَرَأْيُهُ إِلَّا بِوَارِي زَنْدِكَ،  
 فَمَا لِي أَرَاكَ مُتَقَبِّضًا وَعَنْ الْأَمْرِ مُعْرِضًا، قَالَ: فَأَجِبْتُهُ بِكَلَامٍ أَضْمَرْتُ فِيهِ شِكَايَةَ بُحْتٍ فِيهَا  
 بِسْرِي وَعُرْفٌ بِهَا عُذْرِي، ثُمَّ قَالَ لِي أَيْنَ الدَّفْتَرُ؟ أَيْنَ الدِّيوانُ؟ أَيْنَ جَرَائِدُ الْمَمْلَكَةِ؟ لِمَ لَا  
 تَطْلُبُهَا؟ قُتِلَ مَجْدُ الْمُلْكِ وَأَخَذَ مَالَهُ، وَذَهَبَتْ خَاتُونُ وَمَالَهَا، ثُمَّ مَا هَذِهِ الْمَمَالِكُ؟ وَكَيْفَ  
 حَالُهَا؟ هَذَا مَجْدُ الْمُلْكِ كَانَ لِي تَلْمِيزًا وَكَانَ أَقْوَمَ مِنِّي بِالْأَمْرِ تَدْبِيرًا وَتَنْفِيزًا، وَأَنَا الَّذِي عَلَّمْتُهُ

وَحَرَجْتُهُ، وَرَقَيْتُهُ إِلَى الرَّتْبِ وَدَرَجَتُهُ، وَلَقَدْ مَشَى مِنَ الْأَمْرِ مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي عَنْهُ عَاجِزٌ، وَأَنَّهُ دُونِي بِالتَّوْفِيقِ فِيهِ فَائِزٌ، فَإِنَّهُ قَامَ فِي سِنَةِ وَاحِدَةٍ فِي دَوْلَةِ مَلِكِشَاهِ بَعْسَاكِرِ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ، وَأَقَامَ لَهَا جِهَاتِ الْإِنْفَاقِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُصَادِرْ عَلَى وَاحِدٍ بِدَرَاهِمٍ، وَلَمْ يَحْصَلْ مِنْ وَاحِدٍ عَلَى مَنَفَعَةٍ وَمَغْنَمٍ، وَمَا رَتَّبَ لَهُ وَجُوهًا مِنْ بَقَايَا الدِّيَوَانِ وَرَوَايَا الْحُسْبَانِ، وَرَدَّ عَسَاكِرَ خُرَاسَانَ إِلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ الْعِرَاقِ بِالتَّشْرِيفَاتِ وَالْخَلْعِ وَمِنْهُ أَطْوَاقُ الْأَعْيَانِ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْعِرَاقِ شَرَفَ أَيْضًا عَسَاكِرَ الْعِرَاقِ عَلَى أَقْدَارِهِمْ، وَأَحْسَنَ إِلَى كِبَارِهِمْ وَصِغَارِهِمْ، وَلَا شَكَّ فِي كِفَايَةِ الرَّجُلِ وَفَضْلِهِ وَدِينِهِ وَبُيْلِهِ، وَلَقَدْ أَفَكَّرْتُ كَيْفَ تَمَّ هَذَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ، وَمَدَّ الْقَضَاءُ يَدَهُ بِالْقَتْلِ إِلَيْهِ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْمَحْضِيِّ، وَالْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ فِي الدِّينِ وَالْفَرَضِ، فَمَا رَأَيْتُ لَهُ سَبَبًا إِلَّا أَنَّهُ أَمَرَ بِنَاءِ قُبَّةٍ عَلَى صَرِيحِ الْحَسَنِ وَعَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالْبَقِيْعِ، وَلَمْ يُتِمَّمْ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ إِلَّا بِأَمْرِ شَنِيعٍ، وَهُوَ أَنَّهُ عِنْدَ تَحْرِيرِ الْأَسَاسِ نُبِشَتْ قُبُورٌ وَتَبَعَثَتْ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا عِظَامًا وَرُيُمِيَتْ، فَجَازَى اللَّهُ تَعَالَى هَتَكَ بِهَتْكِ، وَفَتَكَ جَرَتْ فِي أَعْظَمِ الْكِرَامِ مِنْهُ بِفَتْكِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا وَلَا مَفْرَأَ مِنْ مَنَّاكَ إِلَّا إِلَيْكَ، وَنَسْأَلُكَ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ وَحُسْنَ الْخَاتِمَةِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لِعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى.

ذَكَرَ خُرُوجَ السُّلْطَانِ أَبِي شَجَاعٍ مُحَمَّدَ بْنَ مَلِكِشَاهِ قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَنْزَةِ وَأَرَانَ إِلَى الرِّيِّ وَأَصْفَهَانَ بِإِشَارَةِ مُؤَيِّدِ الْمَلِكِ

كَانَ هَذَا السُّلْطَانُ مُؤَيِّدًا مُوَفَّقًا مُحَقِّقًا الرَّجَاءَ مِنْهُ مُصَدِّقًا، مَا ضَى الضَّرِيْبَةَ مِيْمُونَ النَّبِيَّةِ، مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَاهُ مَعَ الشِّيْبَةِ، حَسَنَ السِّيْرَةِ مُظْهَرَ السَّرِيْرَةِ، ذَا حِمَايَةَ وَحَمِيَّةٍ وَهَمَّةٍ عَلَيْهِ وَنَفْسِ أَيْبَةٍ، وَعَدَلٍ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ، يَسْمَعُ وَيَسْتَحْبِرُ وَيَحْتَاظُ وَيَسْتَنْظِرُ، وَيُحِبُّ الْاِقْتِدَاءَ بِأَنْبَارِ جَدِّهِ أَلْبِ أَرْسِلَانَ فِي سِيَاسَتِهِ الْمَمْلَكَةِ وَعَلَوِّ الْأَهْمَةِ وَقُوَّةِ النُّخُوَّةِ وَمُواخَاذَةِ الْفِطْرَةِ بِالْفِطْنَةِ وَالْوَقَارِ وَالرَّصَانَةِ وَالرَّأْيِ وَالْحَزَامَةِ.

حُكِيَ عَنِ الْمَأْمُونِ أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ مَقْدَمِهِ الْعِرَاقَ لِيَزِيدِ بْنِ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيِّ<sup>(1)</sup>: صِيفَ لَنَا أَخْلَاقٍ أَخِي مُحَمَّدِ الْأَمِينِ، فَقَالَ: كَانَ صَبِيًّا الْأَدَبِ وَاسِعَ الطَّرْبِ، تَمَنَحُهُ نَفْسُهُ مَا تَعَاْفَهُ نَفُوسٌ دَوِي

(1) يزيد بن مزيد الشيباني: أبو خالد يزيد بن مزيد الشيباني، أمير من القادة الشجعان، كان والياً على أرمينية وأذربيجان، وانتدبه الخليفة الرشيد لقتال الوليد بن طريف الشامي زعيم الخوارج في عصره، فقتل ابن طريف، وكان فيما ولىه اليمن، وتوفي في بردعة من بلاد أذربيجان سنة 185 هـ، ورواه كثير من الشعراء، وهو ابن أخي معن بن زائدة الشيباني.

الأقدارِ وَالْهَيْمَمِ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ فِي حُرُوبِهِ؟ قَالَ: كَانَ يَجْمَعُ الْكُتَابَ بِالتَّبْدِيرِ، وَيَقْضُهَا بِسُوءِ التَّبْدِيرِ. قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ لَهُ؟ قَالَ: كُنَّا أَسْدًا تَبَيْتُ وَفِي أَسْدَائِهَا عَلَقُ النَّاكِثِينَ، وَتُضْبِحُ وَفِي صُدُورِهَا قُلُوبُ الْمَارِقِينَ.

وَهَذَا السُّلْطَانُ كَانَ عَلَى خِلَافِ هَذَا تَقْوِيمًا وَتَهْذِيبًا، وَتَدْبِيرًا وَتَرْتِيبًا، وَكَانَ وَقُورًا مَهِيئًا، أَرِيبًا لَيِّبًا، مُقْبِلًا مُصِيبًا، مُجْبِرًا لِدَاعِي الْخَيْرِ مُجِيبًا، فَلَمَّا جَلَسَ عَلَى سَرِيرِ مَلِكِ أَبِيهِ وَجَدَّهُ وَدَلَّ عَلَى جَدِّهِ سَعُودٍ صَعُودِ جَدِّهِ وَجَدَّ قَوَاعِدَ الدَّوْلَةِ بِبِالِيَّةِ أَخِيهِ مُخْتَلَّةً، وَأَمُورَهَا مُعْتَلَّةً، وَعُقُودَهَا مُنْحَلَّةً، فَضَمَّ النَّشْرَ وَنَظَّمَ الْمُتَسَيِّرَ، وَجَلَا الْمُعْتَكِرَ، وَأَصْفَى الْمُتَنَكِّدِرَ، وَجَبَّرَ الْمُتَنَكِّسِرَ، وَأَحْكَمَ الْقَوَاعِدَ، وَأَبْرَمَ الْمَعَاقِدَ، وَأَنَالَ الْمَقَاصِدَ، وَأَلَانَ الشَّدَائِدَ، وَقَوَّمَ الْمُنَادَ، وَأَبْدَلَ بِالصَّلَاحِ الْفَسَادَ، وَأَعَادَ مَوْيِدَ الْمُلْكِ إِلَى مَنْصِبِ أَبِيهِ فِي الْوِزَارَةِ، وَمَلَأَ بِنْسَانِهِ أَفْقَ السِّيَادَةِ، كَمَا قَالَهُ مَرْوَانُ الْأَصْغَرُ فِي الْمُعِينِ مُعْرَضًا بِالْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ: [السريع]

فَرَدَّهُ اللَّهُ إِلَى حَالِهِ      وَرَدَّهَا اللَّهُ إِلَى حَالِهَا  
وَلَمْ تَكُنْ أَوْلَ عَارِيَّةٍ      قَدَرَدَّهَا اللَّهُ إِلَى آلِهَا  
[الطويل]

وَلَلْشَّمْسُ أَبْهَى حِينَ تَبْرُزُ مِنْ بَسْتِرٍ

فَلَمَسَ هَذَا الصَّدْرُ الْأُمُورَ بِصَدْرٍ وَاسِعٍ، وَرَأَى رَافِعٍ، وَتَدْبِيرَ لِيَجْمَعَ السَّدَادِ جَامِعٍ، وَأُورِدَ وَأَصْدَرَ، وَنَهَى وَأَمَرَ، وَعَقَدَ وَحَلَّ، وَنَظَرَ فِيمَا دَقَّ وَجَلَّ، فَكَانَ عَلَى مُحَيَّاهُ مِنْ مَاءِ الْحَيَاءِ لِثَامٌ، وَكَانَ مِنْهُ لِدَوِي الْحُرْمَةِ وَأُولِي الْمَقَادِيرِ إِكْرَامٌ وَاحْتِرَامٌ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْحَقُوقِ الْقَدِيمَةِ مُرِيئًا، وَلَا لِدِعَائِ الْمُسْتَدْعِينَ لَهَا مُلِيئًا.

قَالَ أَنْوَشِرَوَانُ: طَالَتْ صُحْبَتِي مَعَهُ وَكَثُرَتْ لَدَيْهِ شَوَافِعِي، فَبَارَتْ عَلَيْهِ بِضَائِعِي، وَلَمْ تَنْجَحْ عِنْدَهُ ذَرَائِعِي، وَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْهُ حَظٌّ إِلَّا كَمَا قَالَهُ الْمُرْجَانُ بْنُ بَنَاءِ الْبَطَّاحِيِّ<sup>(1)</sup> فِي ابْنِ أَخِيهِ مُهَذَّبِ الدَّوْلَةِ أَمِيرِ الْبَطِيحَةِ: [الطويل]

(1) الْمُرْجَانُ بْنُ بَنَاءِ الْبَطَّاحِيِّ: هُوَ الصَّارِمُ مُرْجَانُ بْنُ بَنَاءِ الْبَطَّاحِيِّ، خَالَ مَهْذَبِ الدَّوْلَةِ ابْنَ أَبِي الْجَبْرِ صَاحِبِ الْبَطِيحَةِ، قَالَ الْعِمَادُ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي الْحَزِينَةِ: (كَانَ هَجَاءً، عَلَى الْكِرَامِ هَجَامًا، قَرِيضُهُ كَالْقِرَاضِ).

عَلَيَّ لِمَوْلَانَا الْأَمِيرِ ثَلَاثَةً      تُعَدُّ لَهُ عِنْدِي مِنَ الطُّوْلِ وَالْمَنْ  
إِذَا جِئْتُ قَالَ النَّاسُ قَدْ جَاءَ خَالُهُ      وَأَدْخَلُ أحياناً إِلَيْهِ بِلا إِذْنِ  
وَإِنْ ضُرِبَ الطُّبْلُ الشَّرِيفُ سَمِعْتُهُ      بِأُذُنِي وَهَذَا الْحِطُّ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ

وَإِنِّي عَاذِرٌ وَشَكُورٌ وَكَانَ الْمُنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ بَيْتِ نِظَامِ الْمُلْكِ هَذَا الصَّدْرُ، وَكَانَتْ حَالِي  
مَعَهُ كَمَا وَصَفْتُ، وَعِنْدَهُ فِي الشَّرْحِ وَقَفْتُ، وَلَا شَكَّ أَنْ حَقَّ الْخُدْمَةِ أَوْلَى مِنْ حَقِّ النِّعْمَةِ،  
وَاسْتَقَلَّتْ الدَّوْلَةُ بِاجْتِهَادِهِ مِنْ كِبُورِهَا، وَزَالَتْ نَوْبَةُ نَبُوتِهَا، وَاسْتَقَالَتْ مِنْ عَشْرَتِهَا، بَقِيَ سِنِينَ  
وَقَدْ انْتَقَمَ مِنْ خُصُومِهِ بِأَخْذِ الثَّارِ، وَشَفَى غُلَلِ الْأَوْتَارِ، وَحَازَ مَالَ مَجْدِ الْمُلْكِ وَسَعَى فِي  
قَتْلِ زُبَيْدَةَ خَاتُونٍ وَخَنَقِهَا، وَأَوْبَ إِلَيْهَا طَوَارِقَ الْغَوَائِلِ فِي طَرَفِهَا، فَلَا جَرَمَ عَادَ مُرْتَهَنًا بِجَرَمِهِ  
وَعَثْرَتِ قَدَمِهِ فِي ظُلْمَةِ ظُلْمِهِ، وَأَسْرَهُ عَسْكَرُ بَرَكْيَارِقَ فِي مَصَافٍ جَرَى بَيْنَ الْأَخْوِينَ عَلَى حَدِّ  
هَمْدَانَ، وَأَحْضَرَهُ بَرَكْيَارِقَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَوْثَقَهُ كِتَافًا، وَعَصَبَ لِلْقَتْلِ عَيْنَيْهِ، وَهُوَ قَدْ رَفَعَ صَوْتَهُ  
بِذِكْرِ كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ، وَلَمْ يَظْهَرِ مِنْهُ جَزَعٌ وَلَا خَوْزٌ وَلَا فَرَعٌ.

قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ (1): (إِذَا نَزَلَ بِكَ مَكْرُوهٌ فَانظُرْ فَإِنْ كَانَ لَهُ حِيلَةٌ فَلَا تَعَجَزْ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا  
لَا حِيلَةَ لَهُ فَلَا تَجْرَعْ)، فَضَرَبَ السُّلْطَانُ بَرَكْيَارِقَ بِيَدَيْهِ عُنُقَهُ، وَقَدْ كَانَ قَصَدَ الْوَالِدَةَ السُّلْطَانِ  
وَالسَّعْيَ فِي دِمَائِهِ أَوْبَقَهُ، فَأَعْدَمَ مِثْلَ ذَلِكَ الشَّخْصِ الْعَدِيمِ النَّظِيرِ، وَأُعْتِقَ ذَلِكَ الْوَزْرُ فِي حَزِّ  
عُنُقِ ذَلِكَ الْوَزِيرِ.

قِيلَ كَانَ الْحِجَاؤُ قَتَلَ ابْنَ لِرَجَلٍ مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ، فَلَمَّا مَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحِجَاكِ قَالَ الْعُقَيْلِيُّ:

[الطوبيل]

فَدُؤِفُوا كَمَا دَفْنَا غَدَاةَ مُحَجَّرٍ      مِنَ الْغَيْظِ فِي أَكْبَادِهَا وَالتَّحَوُّبِ  
وَاسْتَشْهَدَ مُؤَيِّدُ الْمُلْكِ عَظِيمَ الْمَحَلِّ عَدِيمَ الْمِثْلِ عَزِيزَ الْفَضْلِ، لَمْ يَرِ بَعْدَهُ نَظِيرُهُ نَاطِرٌ،  
وَلَمْ يَسْبِقْ بَعْدَهُ فِي مَضْمَارِ شَرْفِهِ ضَامِرٌ، وَحُكِّيَ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا أُسِرَ فِي الْمَصَافِ حَبَسُوهُ وَأَطْمَعُوهُ  
فِي الْحَيَاةِ وَطَابُوهُ بِمَالٍ يَبْدُلُهُ عَلَى وَجْهِ الْمُنْفَادَةِ وَأَخَذُوا خَطَّهُ بِمَا تَبَيَّ أَلْفِ دِينَارٍ فَسَكَنَ إِلَى

(1) ابن المقفع: هو عبد الله بن المقفع، ولد في العراق سنة 106 هـ، وكان مجوسياً فاسلم على يد عيسى (عم السفاح)،  
ولم يترك كتابه الديوان للمنصور، وبعد من أوائل من اهتم بالترجمة في الإسلام، ترجم للمنصور كتب ارسطوطاليس، كما  
ترجم من الفارسية كتاب (كليلة ودمنة)، وأنشأ كتاباً منها (الادب الكبير) و(الادب الصغير) و(رسالة الصحابة)  
و(اليتيمة)، وأتهم بالزندقة فقتل في البصرة سنة 142 هـ.

ذَلِكَ غُرُورًا، وَعَفَلَ عَمَّا كَانَ لَهُ مَقْدُورًا، وَشَرَطَ فِي التَّوْقِيعِ شُرُوطًا طَرَقَتْ قَدْحًا إِلَى عَقْلِهِ، وَتَقَصَّتْ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهُ شَرَطَ أَنَّ الدَّهَبَ الْعَتِيقَ يُؤْخَذُ مِنْهُ بِالصَّرْفِ وَالْأَجْنَسِ بِقِيَمَةِ الْعَدْلِ، فَمَنْ هُوَ عَلَى خَطَرِ الْقَتْلِ كَيْفَ يَتَفَرَّغُ لِهَذَا الشَّغْلِ، وَلَمْ يَنْزَلْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ عَنْ شِيْمَةِ الْبُخْلِ، كَانَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ يَقُولُ: (إِعْطِ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ، فَإِنَّ الْعَطَايَا لَا تُنْقِصُهَا، وَاعْطِ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ مُدْبِرَةٌ فَإِنَّ مَتْعَكَ إِيَّاهَا لَا يُبْقِي شَيْئًا مِنْهَا)، وَلِلسَّيِّدِ الرَّئِيسِ أَبِي الْقَاسِمِ الْمُوسَوِيِّ رَئِيسِ مَرُورٍ: [الطويل]

إِذَا لَمْ أَهْتَزْ لِلْجُودِ وَالنَّدَى      فَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْتَزُّ يَا أُمَّ مَالِكِ  
دَرِينِي وَإِنْفَاقِي لِمَالِي عَلَى الْعُلَى      وَرَأَيْكَ فِيمَا اخْتَرْتِ فِي حِفْظِ مَالِكِ  
فَجُودٌ يَمِينِي عَادَةٌ عُرِفَتْ بِهَا      وَإِنَّ يَمِينًا لَمْ تَجُدْ كَشَمَالِكِ  
وَهِيَهَاتَ أَنْ يَلِدَ الزَّمَانُ مِثْلَهُ فِي دَهَائِهِ وَذَكَائِهِ وَرَأْيِهِ وَجَنَانِهِ وَلُطْفِهِ وَظَرْفِهِ وَلَيْنِهِ وَعَظْفِهِ،  
الكَبِيرُ ابْنُ الْكَبِيرِ الْوَزِيرُ ابْنُ الْوَزِيرِ. [الرجز]

إِنَّ السَّرِيَّ يَلِدُ السَّرِيَّا      مَنْ يَرِدُ الْبَحْرَ يُصَادِفُ رِيَّا

وزارة الأستاذ عبد الجليل الدهستاني بركيارق

وَأَلَتْ وَزَارَةَ بَرْكِيَارِقَ إِلَى عَبْدِ الْجَلِيلِ الدَّهْسْتَانِيِّ. [الطويل]

خَلِيلِيَّ إِنَّ الدَّهْرَ مَا تَرِيَانَهُ      خُيُومٌ نَبِيهِ أَوْ عُيُومٌ سَفِيهِ  
فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ      فَأَعْجِبْ مَا لَاقَيْتُ مَا أَنَا فِيهِ  
وَلَمْ يَكُنْ لِعَبْدِ الْجَلِيلِ أَثَرٌ مَحْمُودٌ، وَلَا يَوْمٌ فِي الْكِفَايَةِ مَشْهُودٌ، بَلْ تَفَاقَمَ شَرُّهُ إِلَى أَنْ أُخْرِجَ  
أَمْوَالُ النَّاسِ فِي الْإِقْطَاعِ، وَكَانَ فِي الظُّلْمِ مُسْتَطِيلَ الْيَدِ طَوِيلَ الْبَاعِ، وَلَمْ تَطُلْ أَيَّامُهُ، وَبَقَرَ بَطْنُهُ  
بَاطِنِيَّ بِقَرَبِ أَصْفَهَانَ، وَهُوَ عَلَى بَابِهَا إِذْ عَضَّتْهُ نَائِبَةُ اللَّيَالِي بِنَابِهَا، وَاسْتَوَزَّرَ بَرْكِيَارِقَ بَعْدَهُ  
خَطِيرَ الْمُلْكِ الْمَيْدِيِّ.

ذَكَرَ مَا كَانَ بَعْدَ مُؤَيِّدِ الْمَلِكِ

لَمَّا جَرَتْ وَاقِعَةُ مُؤَيِّدِ الْمَلِكِ تَخَلَّفَ عَنْهُمْ قَوْمٌ كَانُوا لِلنَّارِ يِعَاسِبُ وَوَلَفْتِنَةِ طَوَاعِيَتِ،  
وَتَفَرَّقُوا فِي كُلِّ صَوْبٍ، وَتَمَزَّقُوا فِي كُلِّ أَوْبٍ، وَكَانَ كَبِيرُهُمُ الرَّفِيعُ الشَّانِ الْكَثِيرُ الشَّبِيهِ

بالإنسان نصيرَ المُلِكِ بنَ مؤيدِ المُلِكِ، وَكَانَ يَأْتِفُ الكَلْبُ مِنْ لُؤْمِهِ وَالبُومُ مِنْ شُؤْمِهِ، قِيلَ لأعرابيٍّ: أَيُّ بَيْتِكَ الثَّلَاثَةُ أَثْقَلُ؟ فَقَالَ: لَيْسَ بَعْدَ الكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ إِلَّا الأَوْسَطُ. [السريع]

لَوْ كُنَّ يَكُونُ جَدُّهُمُ عَائِرًا      وَحَظُّهُمُ صَاحٍ بِهِ صَائِحُ  
مَا مَاتَ مِنْهُمُ أَحْمَدُ المُرْتَضَى      وَعَاشَ عَبْدُ الصَّمَدِ الفَضِيحُ  
وَمَعَايُهُ وَمَخَازِيهُ لَا تُحَدُّ، وَعَنَّ لَهُ أَن يَشْتَغَلَ بِعِلْمِ الأَوَائِلِ فَبَلَغَ مِنْهُ إِلَى حَدِّ التَّعْطِيلِ،  
وَوَقَّفَ عِنْدَ البُخَارِ الدَّلِيلَ<sup>(1)</sup>. [الكامل]

وَقَفَّ الهَوَى بِبِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيسَ لِي      مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ  
فَلَمْ يَصِلْ مِنَ الجَهْلِ إِلَى العِلْمِ، وَلَمْ يَرْتَقِ مِنَ حَضِيضِ الوَهْمِ إِلَى يَفَاعِ الفَهْمِ، بَلْ  
زَادَ جَهْلًا عَلَى جَهْلِهِ، وَمَكَّنَ ضَلَالًا مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقِيَتْ حَقُوقُ مؤيدِ المُلِكِ عِنْدَ السُّلْطَانِ  
مُحَمَّدٍ مَحْفُوظَةً وَبِعَيْنِ الرِّعَايَةِ مَلْحُوظَةً، فَاعتَقَدَ أَنَّ النُّصِيرَ وَلَدُهُ النَّجِيبَ وَأَنَّهُ إِذَا وُلَّاهُ  
قَضَى حَقَّ أَيْهِ، وَعَوَّلَ مِنْهُ عَلَى النَّبِيلِ النَّبِيهِ، فَوَلَّاهُ وَزَارَةَ بَنِيهِ، وَكَأَنَّمَا قِيلَ فِيهِ: [مَجْزُوءُ  
[الكامل]

قَالُوا مُحَمَّدٌ قَدْ وَزَرَ      فَقَرَأْتُ [كَلا لا وَزَرَ ]  
وَاللهُ لَوْ حُكِّمْتُ فِيهِ [م]      هِ جَمَلُهُ رَاعِي البَقَرِ  
ثُمَّ أَبْطَلَ السُّلْطَانُ انْتِصَابَهُ حَتَّى خَلَا الدِّيْوَانُ مِنْ عَارِهِ وَعَابِهِ، وَقَدْ صَنَّفَ الأَسْتَاذُ المُؤَفِّقُ  
أَبُو طَاهِرٍ الخَاتُونِي فِي مَثَالِبِ المَذْكُورِ كِتَابًا سَمَّاهُ: (تَنْزِيرِ الوَازِرِ الزَّيْرِ العُخْزَيْرِ) وَبَنَاهُ عَلَى  
حُرُوفِ المُعْجَمِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَطْلُبَ مَثَالِبَهُ فَلْيَطْلُبْ هَذَا الكِتَابَ، فَإِنَّهُ مَوْجُودٌ لِأَيِّ حَرَمٍ طَالِبُهُ،  
وَيَطَّلُ بَعْدَ مؤيدِ المُلِكِ ذَلِكَ التَّرْتِيبُ وَتَبَدَّلَ ذَلِكَ الطَّيِّبُ، وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِه الأَيَّامِ التَّقْطِيبُ،  
وَاسْتَمَرَّتْ سِنِينَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبِرْكَيَارِقِ مُصَافَاتٍ، وَتَمَّتْ آفَاتٌ وَمَخَافَاتٌ.

قَالَ أنوشروان: وَكُنْتُ قَدْ فُجِعْتُ بِمَصْرَعِ مؤيدِ المُلِكِ وَأَثَّرَ فِي قَلْبِي مُؤَلِّمٌ مُلِمُّهُ،  
وَأَزْعَجَهُ عَنِ المُقَامِ مُقِيمٌ هَمِّهِ، وَرَأَيْتُ الفِتْنَةَ بَيْنَ السُّلْطَانَيْنِ دَائِمَةً الِاسْتِمْرَارِ، وَمَا رَأَيْتُ  
لِلدَوْلَةِ وَجْهَ اسْتِقْرَارٍ، فَلَمَّا عَدِمْتُ مِنْ تَرْجِي النُّصْرَةِ طَوَّحْتُ بِبِي الطَّوَائِحُ حَتَّى حَصَلْتُ

(1) البيت من شعر ديك الجن، ينظر: ديوان ديك الجن الحمصي، بتحقيق واستدراك: أحمد مطلوب و عبد الله الجبوري، بيروت، 1964 م

بِالْبَصْرَةِ. قَالَ أَعْدَائِي الْاِغْتِرَابُ يَرُدُّ الْحِجْدَةَ وَيُكْسِبُ الْحِجْدَةَ، وَلِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ<sup>(1)</sup>:  
[الطويل]

صَرِيحٌ لَرَيْبِ الدَّهْرِ مَنْ كَانَ حَاضِرًا      وَحَرْبٌ لَدَى الْأَيَّامِ مَنْ يَتَفَرَّبُ  
وَالْبَصْرَةُ بِلَدَّةٍ مِنْ أُمَّهَاتِ الْبِلَادِ وَالْخَرَابُ فِيهَا اسْتَوْلَى عَلَى الْعُمَرَانِ، وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ  
[رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ [عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ] قَالَ: (قَرْيَةٌ أَوْ بَلَدَةٌ يُقَالُ لَهَا الْبَصْرَةُ  
أَقْوَمُ النَّاسِ قِبَلَهُ، وَأَكْثَرُهُمْ مُؤَدَّنِينَ يُدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَكْرَهُونَ)، فَأَقَمْتُ بِالْبَصْرَةِ مَدَّةَ ثَلَاثِ سِنِينَ،  
وَصَادَفْتُ أَحْوَانًا صَادِقِينَ، وَاسْتَخَلَصْتُ خُلَانًا مُخْلِصِينَ، مِنْ جُمْلَتِهِمُ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو  
مُحَمَّدٍ الْقَاسِمُ بْنُ عَلِيِّ الْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ الْمَقَامَاتِ، يُوَافِقُنِي فِي الْحِجْدِ وَالْهَزْلِ طَائِعًا فَيَنْظُرُ  
فِي عَيْنِي وَيَسْمَعُ مِنْ سَمْعِي، وَكُلُّ بِلَادٍ أَوْطَأْتُ كِبْلَادِي. [البسيط]

تَلَقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَلَتْ بِهَا      أَهْلًا بِأَهْلِ وَجِيرَانًا بِجِيرَانِ  
وَمَعَ حَرَّ الْبَلَدِ وَمَائِهِ الْأَجَاجِ، وَأَثْرَهُمَا فِي تَحْرِيفِ الْمَزَاجِ، سَكَنْتُ إِلَى مُسَاكِنَةِ أَوْلِيائِكَ  
الْكَرَامِ، وَرَضِيْتُ بِهِمْ عَنِ الْأَيَّامِ، وَفِي هَذِهِ الْمَدَّةِ الَّتِي أَقَمْتُ فِيهَا بِالْبَصْرَةِ دَرَجَ بَرَكِيَارِقَ  
وَكَانَتْ وَفَاتَهُ بِالسُّلِّ وَالْبَوَاسِيرِ، وَجَرَدَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتَسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَبَلَغَ مِنْ  
الْعَمْرِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَوَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ السُّلْطَنَةِ وَلَهُ اثْنَا عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَاسَى مِنَ الْحُرُوبِ  
وَإِخْتِلَافِ الْأُمُورِ وَتَوَالِي الْفُتُورِ وَالْفِتُونِ مَا لَمْ يُقَاسِهِ أَحَدٌ، فَتَفَرَّدَ بِالسُّلْطَنَةِ أَخُوهُ مُحَمَّدٌ وَزَالَ  
الْمَكْرُوهُ، وَسَفَرَتِ الْوُجُوهُ، وَعَقَلَتِ الزَّمَانُ الْمَعْتُوهُ، وَدَانَتْ لَهُ الْمَشْرِقَانِ، وَتَصَرَّفَ بِيَدِهِ زَمَانُ  
الزَّمَانِ. قَالَ أَبُو شُرَوَانَ: فَجَاءَنِي يَوْمًا تَوْقِيعُ سُلْطَانِيٍّ عَلَى يَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْضِ الْخَوَاصِّ  
كَبِيرٍ، فَاسْتَدْعَانِي وَاسْتَدْنَانِي فَوَصَلْتُ إِلَى بَغْدَادَ وَالسُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ بِهَا فِي وَزَارَةِ سَعِيدِ الْمَلِكِ  
أَبِي الْمَحَاسَنِ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ الْآبِيِّ.

(1) البيت في: ديوان الشريف الرضي، صنعة أبي حكيمة الخبزي، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، وزارة الاعلام، بغداد، 1977 م، 242، الشريف الرضي هو: أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى، الرضي العلوي الحسيني الموسوي، ولد في بغداد سنة 359 هـ وبها توفي سنة 406 هـ، أشعر الطالبين وأرقهم عبارة، انتهت إليه نقابة الاشراف في حياة والده، وخلع عليه السواد، وجدد له التقليد سنة 403 هـ، له مجموعة من المؤلفات منها ديوانه، و (المجازات النبوية) و (مجاز القرآن) ورسائل.

## ذكر الحوادث في أيامه

وكانَ وزيراً سعيدياً، لِلخَيْرِ مُؤَيِّداً وَلِلنُّجْحِ مُفِيداً، حُرَّ الخَلِيقَةِ، حَامِي الحَقِيقَةِ، حَسَنَ الطَّرِيقَةِ، ذَا هُدًوٍ وَهَدَايَةٍ، وَفَهْمٍ وَدِرَايَةٍ، وَرَأْيٍ وَكِفَايَةٍ، فَجَمَعَ العَسَاكِرَ عَلَى الطَّاعَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَكَانَ الأَمِيرُ الأَصْفَهْسَلَارُ أَيَازُ مُقَدِّمَ العَسْكَرِ البَرَكْيَارِقِيِّ وَهُوَ ذُو الأَمْرِ الجَارِي وَالعَزْمِ الجَرِيِّ، فَلَمَّا تُوفِّيَ بِرَكْيَارِقٍ صَارَ أَتَابِكُ ابْنِهِ مَلِكشَاه، فَأَقَامَ مُقَامَ وَالدِّوِ، وَرَدَّ مَلِكُهُ بِهِ إِلَى قَوَاعِدِهِ، وَاهْتَمَّ سَعْدُ المُلْكِ بِاسْتِمَالَتِهِ، وَحَلَفَ لَهُ عَلَى سَلَامَتِهِ، فَلَمَّا مَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ قَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا مَلِكشَاهَ بَنَ بِرَكْيَارِقٍ فَسَمَلُوهُ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، فَخَمَدَ اللُّهْبُ وَزَالَ الشَّغْبُ وَسَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ، وَكَانَ لِلوزِيرِ سَعْدِ المُلْكِ فِي هَذِهِ الحِجْلِ اليَدُ البَيْضَاءُ. قَالَ أَوْشُرَوَانُ: وَسِرْتُ فِي الخُدْمَةِ لَمَّا سَارُوا إِلَى أَصْفَهَانَ وَمَادَامَ هَذَا الوَزِيرُ فِي وَايَةِ السُّلْطَانِ ظَهَرَتْ لَهُ أَنَارٌ حَمِيدَةٌ وَأَرَاءٌ سَدِيدَةٌ، وَتَدَابِيرٌ حَسَنَةٌ وَأَعْمَالٌ مُتَزِينَةٌ، وَكَانَتْ عَلَامَتُهُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمِهِ)، وَكَانَتْ لَهُ فِي البَاطِنِيَّةِ نَكَايَاتٌ، وَرُفِعَتْ لَهُ فِي فَتْحِ قَلْعَةِ شَاهِ دَرُ زِيَابِتْ، وَكَانَتْ قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ وَقَلْعَةٌ رَفِيعَةٌ عَلَى جَبَلِ أَصْفَهَانَ، تُنَاجِي السَّمَاءَ، وَتُبَاهِي السَّمَاءَ وَتُنَاطِرُ الأَفْلاكَ، وَقَدْ تَحَصَّنَ بِهَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ المَعْرُوفُ بِعِطَاشٍ، طَاغِيَةُ البَاطِنِيَّةِ فِي طَائِفَتِهِ، وَكُتِبَتْ أَصْفَهَانَ وَضِياعُهَا بِبَلِيَّتِهِ، وَقَالَ الخَالِدِيَانُ فِي وَصْفِ هَذِهِ القَلْعَةِ<sup>(1)</sup>: [الطويل]

وَحَرَقَاءَ قَدْ بَاهَتَ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا	بِمَرْقَبِهَا العَالِي وَجَانِبِهَا الصَّعْبِ
تَزُرُّ عَلَيْهَا الجَوُّ جَيْبَ عِمَامَةٍ	وَتَلْبِسُهَا عِقْدًا بِأَنْجُمِهَا الشُّهْبِ
إِذَا مَا سَرَى بَرْقٌ بَدَّتْ مِنْ خِلَالِهِ	كَمَا لِاحْتِ العِذْرَاءِ مِنْ خَلَلِ الحُجْبِ
فَكَمَ ذِي جُنُودٍ قَدْ أَمَاتَتْ بَغُصَّةً	وَذِي سَطَوَاتٍ قَدْ أَبَاتَتْ عَلَى غَبِّ
سَمَوَتْ لَهَا بِالرَّأْيِ تُشْرِقُ فِي الدُّجَى	وَتَقَطُّعُ فِي الجَلَى وَتَصْدَعُ فِي العَصَبِ
فَأَبْرَزَتَهَا مَهْتُوكَةً الجَيْبِ كَالقَبَا	وَغَادَرَتَهَا مَلْصُوقَةً الحَدِّ بِالثَّرِبِ

فَلذَلِكَ سَعْدُ المُلْكِ سَمَا لَهَا بِالرَّأْيِ الصَّائِبِ وَالعَزْمِ الثَّاقِبِ، وَتَلَطَّفَ فِي افْتِتَاحِهَا وَتَرَكَ فِي اسْتِيزَالِ مَنْ فِيهَا بِفَرْجِهِ عَلَى إِثَارِ المَلَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَاقْتِرَاحِهَا، فَأَنْزَلُوهُ مِنْ مَعْقِلِ إِلَى عِقَالٍ وَبَدَّلُوهُ أَجَالاً مِنْ أَمَالٍ، وَأَلْصَقُوا حَدَّ تِلْكَ القَلْعَةِ بِالثَّرِبِ، وَوَضَعَ الهَنَاءَ فِيهَا مَوَاضِعَ النَّقْبِ، وَكَذَلِكَ افْتَتَحَ قَلْعَةَ الأَلْبِجَانِ وَهِيَ أَيْضاً بِقَرَبِ أَصْفَهَانَ، وَكَانَتْ قَدْ خَرِبَتْ تِلْكَ الوَايَةَ بِمَا

(1) ديوان الخالدين، تحقيق: سامي الدهان، دار صادر بيروت، باذن من مجمع اللغة العربية بدمشق، ص 155

لَأَهْلِهَا فِيهَا مِنَ النَّكَايَةِ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ عَلَى أَهْلِهَا نَائِحَةٌ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ بَلِّ فِي كُلِّ سَاعَةٍ فِيهَا صَارِخَةٌ وَصَائِحَةٌ، وَكَأَنَّمَا وَصَفَهَا كَعْبُ الْأَشْقَرِيِّ <sup>(1)</sup> بِقَوْلِهِ: [الطويل]

مُحَلَّقَةٌ دُونَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا      عِمَامَةٌ صَيْفٍ زَالَ عَنْهَا سَحَابُهَا  
فَمَا يَلْحَقُ الْأَرَوَى سَمَا رِنِحِهَا الَّذِي      وَلَا الطَّنِيرُ إِلَّا نِسْرُهَا وَعُقَابُهَا  
وَمَارُوعَتٍ بِالذُّبِّ وَلِدَانُ أَهْلِهَا      وَلَا نَبَحَتْ إِلَّا النُّجُومُ كَلَابُهَا

وَكَانَ بِأَصْفِهَانِ قَاضٍ يُقَالُ لَهُ عَيْدُ اللَّهِ الْخَطِيْبِيُّ وَهُوَ حَاكِمُهَا وَالْمُسْتَوْلِيُّ عَلَى رِثَايَتِهَا، وَهُوَ رَجُلٌ جَاهِلٌ، مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ خَالَ مُخْتَالٌ، يُبْدِي تَنَمُّسًا بِإِظْهَارِ زُهْدٍ وَوَرَعٍ، مُحَالٌ عَلَى مُحَالٍ.

قِيلَ كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: (رَزَيْتُوا الْعِلْمَ بِأَنْفُسِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ وَلَا تُزَيِّنُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْعِلْمِ)، وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ لِأَصْحَابِهِ: (لِيَكُنْ دُعَاؤُكُمْ لِلنَّاسِ بِأَفْعَالِكُمْ قَبْلَ دُعَائِكُمْ لَهُمْ بِأَفْوَالِكُمْ، وَالزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا قَصْرُ الْأَمَلِ لَيْسَ بِأَكْلِ النَّجْسِ وَلَا لَبْسِ الْعَبَاءِ الْخَسَنِ).

وَقَالَ سُفْيَانُ: (إِنَّ اللَّهَ يَبْغُضُ أَهْلَ الْبَيْتِ اللَّحْمِينَ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يُؤْكَلُ فِيهِ اللَّحْمُ وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَأْكُلُ لَحْمَ النَّاسِ أَيَّ يَغْتَابُ أَهْلَهُ...)، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (إِلَّا مَنْ تَابَ) قَالَ: مِنَ الذَّنُوبِ وَأَمِنَ مِنَ الشَّرِّكَ وَعَمَلَ عَمَلًا صَالِحًا، قَالَ: قَامَ وَصَلَّى وَفَعَلَ سَائِرَ الْفَرَائِضِ ثُمَّ اهْتَدَى، قَالَ: عَلِمَ أَنَّ لِهَذَا الْفِعْلِ ثَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى ضَخَامَةِ جَنَّةٍ وَفَخَامَةِ لِحْيَةٍ كَثِيَّةٍ عَرِيضِ الْقَفَا وَالْأَكْتَفِ طَوِيلِ اللِّسَانِ فِي عَرَضِ الْأَشْرَافِ، شِعَارُهُ الدَّرَاعَةُ الْكَافُورِيَّةُ وَالْفُوطَةُ النِّيْسَابُورِيَّةُ وَالزِّيَاءُ وَالرَّوَاءُ وَالْبَهْجَةُ وَالْبَهَاءُ وَالثَّرَى بِالْتَزْيِينِ وَالتَّرَائِي بِالْتَحْسِينِ، وَكَانَ لِقَاؤُهُ الْآتِيَّ مَقْبُولًا وَكَلَامُهُ الْمُسَمَّى مَعْسُولًا. وَكَانَ مِنْ هَذَا الْوَزِيرِ خَائِفًا، وَبِمَعْرِفَةِ الْوَزِيرِ بِيَاظِنِ شَرِّهِ عَارِفًا، وَطَلَبَ مِنَ السُّلْطَانِ خَلْوَةَ عَرِّ السُّلْطَانِ فِيهَا بِتَنْمِيسِهِ، وَرَوَّجَ لَدَيْهِ سُوقَ تَلْبِيسِهِ، وَتَمَّ نِفَاقُ نِفَاقِهِ، وَبَرَزَ هِلَالٌ مُحَالِهِ مِنْ مُحَاقِهِ، وَجَرَى مِنْ مَنَاصِبِهِ عَلَى سَعْدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ حَقَّقَ فِي اعْتِقَادِ السُّلْطَانِ أَنَّهُ صَدِيقُهُ الصَّادِقُ وَمُؤَافِقُهُ الْمُؤَافِقُ لَوْلَا أَنَّ فِيهِ عَيْبًا وَاحِدًا وَهُوَ أَنَّهُ إِلَى الْبَاطِنِيَّةِ مَائِلٌ

(1) كعب بن معدان الأشقري: أبو مالك كعب بن معدان، من الأشاقر من الأزدي، فارس شاعر خطيب، من شعراء خراسان، كان من أصحاب المهلب بن أبي صفرة في حرب الازارقة، توفي سنة 80 هـ. والابيات في: نوري حمودي القيسي. كعب بن معدان الأشقري، حياته وما تبقى من شعره، في مجلة: المورد [بغداد] مج 5 (1976 م) 2 / 91

وَيَمْذِهِم قَائِلٌ، وَأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ فِي إِزَالَةِ هَذَا الْاِعْتِقَادِ مِنْ قَلْبِهِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي نُصْحِهِ إِشْفَاقًا عَلَى مَا أَجْدُ مِنْ حُبِّهِ، فَإِنَّهُ يَعْزُ عَلَيَّ فَسَادَ اِعْتِقَادِ مِثْلِهِ مَعَ فَضْلِهِ وَنُبْلِهِ، وَاعْتَقَدَ السُّلْطَانُ صِدْقَ قَوْلِ الْقَاضِي وَصِحَّتَهُ وَقَبِلَ مُنَاصِحَتَهُ وَحَسَبَهُ خَالِيًا مِنَ الْغَرَضِ، جَالِبًا لِلنُّصْحِ الْمُفْتَرَضِ، ثُمَّ أَغْفَلَهُ مُدَّةً وَعَادَ إِلَيْهِ وَأَيْسَهُ مِنْ قَبُولِهِ وَأَسْفَ عَلَى مَا فَاتَهُ فِيهِ مِنْ سَوْئِهِ، وَصَارَ يَتَشَفَّعُ إِلَى السُّلْطَانِ فِي تَأْجِيلِ أَمْرِهِ لِأَجْلِ مَا عِنْدَهُ مِنْ مَوَدَّتِهِ، وَأَنْ لَا يُعَجَّلَ فِي عَقُوبَتِهِ، وَقَدْ وَضَعَ مِنْ خَوَاصِّ السُّلْطَانِ صُبِيانًا عَلَى الْوُقُوعِ فِي الْوَزِيرِ، وَأَنَّهُ بَاطِنِي الصَّمِيرِ يَخَاطِبُونَهُ فِي أَمْرِهِ وَيَحْدُثُونَهُ وَيَسْتَحْتُونَهُ فِي الْإِيْقَاعِ بِهِ وَيَعِثُونَهُ، حَتَّى أَوْقَعَ بِنَحْسِهِ السَّعْدَ فِي الْحَبْسِ وَانْتَحَسَتْ تَتَابِعُ الشَّرِّ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْحَبْسِ، فَلَمَّا قَيَّدَ الْوَزِيرُ وَقَيَّدَ لِيَهُ بِيَدِهِ وَمَا أُيِّدَ وَقَضَى الْقَاضِي الْخَطِيئِي عَلَيْهِ بِخَطْبِهِ وَجَبَّ غَارِبٌ مَنْصِبِهِ حِينَ أَلْقَاهُ بَقْرَيْنِ مَنْصُوبَاتِهِ فِي حَيْنِهِ رَتَّبَ جَمَاعَةً مِنَ الْأَوْغَادِ شَنَعُوا عَلَى الْوَزِيرِ فِي دَارِ السُّلْطَانِ فِي مَجْمَعٍ مِنَ الْأَمْرَاءِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْوَزِيرِ وَتَرُّ، أَوْ مَنْ لَهُ مَعَ الْقَاضِي سِرٌّ، أَوْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ السُّلْطَانَ لَوْ لَمْ يَصْحُحْ عِنْدَهُ كَفْرُهُ لَمَا اعْتَقَلَهُ وَأَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ أَمْرِهِ أَمْرٌ، فَصَدَّقُوا الْقَائِلِينَ بِأَلْحَادِهِ، وَقَدَحُوا بِحُكْمِ التَّقْلِيدِ فِي اِعْتِقَادِهِ فَتَمَى الْخَبْرُ إِلَى السُّلْطَانِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُتَبَرِّعِينَ بِتَقْلِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْقَاضِي صَحَّ عِنْدَهُ الْيَوْمَ إِلْحَادُ الْوَزِيرِ بِشَهَادَةِ الْأَخْيَارِ وَتَصْدِيقِ الْأَمْرَاءِ الْكِبَارِ، فَرَادَ ذَلِكَ فِي خَفْضِ الْوَزِيرِ وَخَطِّهِ، وَتَغْيِيرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ وَسَخِطِهِ، وَكَانَ سَعْدُ الْمُلْكِ غَافِلًا مِنَ التَّدْبِيرِ عَلَيْهِ فَلَمْ يَحْتَرِزْ، فَلَمَّا عَرَفَ الْأَمْرَ بِالْآخِرَةِ سُبِقَ إِلَى الْفُرْصَةِ فَلَمْ يَنْتَهِزْ، وَاسْتَمَالَ الْقَاضِي قُلُوبَ الْجَمَاعَةِ مِنَ الصُّبْيَانِ الَّذِينَ حَوْلَ السُّلْطَانِ إِلَى قَبُولِهِ، فَاسْتَوَا فِي سَبِيلِهِ عُقُولًا مِنْ عُشْبِهِ وَعُغْلُولِهِ، فَمَازَلُوا بِالسُّلْطَانِ حَتَّى صَلَبَ الْوَزِيرَ مَعَ عَدُوِّهِ مِنْ أَكَابِرِ دِيَوَانِهِ بِبُهْتَانِهِ وَرَفَعَ شَأْنَ سَنَانِهِ، إِنَّ الْمَنُونَ بِصَيْرَةِ بِالْحَاسِدِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا أُطْلِعَ سَعْدُ الْمُلْكِ الْوَزِيرَ عَلَى تَدْبِيرِ الْقَاضِي عَلَيْهِ بِالْآخِرَةِ وَأَنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَهُ لَا مِنَ الْمَكْرَةِ الْفَجْرَةِ السَّحْرَةِ دَبَّرَ فِي مَكِيدَةٍ عَلَى الْقَاضِي فَعَادَ إِلَيْهِ وَبَالَهَا وَآلَ إِلَى هَلَاكِهِ مَأْلَهَا، وَالتَّدْبِيرُ حَالُهُ الْإِدْبَارُ يَزِيدُ فِيهِ، وَالشَّقِيُّ كُلَّمَا رَجَا أَنَّهُ يُسَعِدُهُ فَاتَهُ يُشْقِيهِ، فَإِنَّ الْوَزِيرَ كَانَ عَارِفًا بِمَكَاتِبَاتِ كَانَتْ بَيْنَ هَذَا الْقَاضِي وَبَيْنَ رِئِيسِ الْبَاطِنِيَةِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَطَّاشٍ فِي مَبَادِي أَمْرِهِ وَكَانَ مُطَّلِعًا عَلَى سِرِّهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَدْعِيَ بَعْضَ تِلْكَ الْمَكَاتِبَاتِ بِخَطِّ الْقَاضِي إِلَيْهِ وَيُؤَافِقُهُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ لِلْسُّلْطَانِ هَذَا الْقَاضِي رَمَانِي بِمَا هُوَ مَذْهَبُهُ وَشَأْنُهُ، وَخَطُّ هَذَا حُجَّةٌ قَوْلِي وَبُرْهَانُهُ، وَأَرْسَلَ مِنْ ثِقَاتِهِ فِي هَذَا الْمُهِّمِ مَنْ كَتَبَ عَلَى يَدِهِ بِخَطِّهِ تَوْقِيعًا بِالْجَوَازِ وَلَمْ يُوصِهِ بِالْاِحْتِرَازِ، فَظَفَّرَ بِالرَّسُولِ مَنْ كَانَ مُرْتَبًا لِحِفْظِ طَرِيقِ الْقَلْعَةِ وَمَنْعِ الْمِيْرَةِ

عَنْهَا وَالطَّعْمَةَ، فَوَجَدُوا خَطَّ الْوَزِيرِ مَعَهُ بِالْجَوَازِ، فَأَخَذُوا الْخَطَّ وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ سَبَابِ ذَلِكَ الْخَطْبِ فِي الْإِجْهَازِ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ حَفِظَ خَطَّهُ إِلَى أَنْ بَقِصَهُ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْهِ فَصَرَخَ لَهُ أَنَّ كِتَابَهُ لِلتَّلْفِ غَرَضُهُ، فَلَمَّا أُوتِيَ كِتَابَهُ لَمْ يُعِدْ جَوَابَهُ وَيَنْبَسُ بِكَلِمَةٍ وَلَا فَاةَ بِنْتِ شَفْهِ، وَلَوْ قَالَ لَمَّا سَمِعَ، وَلَوْ اعْتَدَرَ لَرُفِعَ عِذْرُهُ وَمُتَّعَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ وَلَقِيَ الرَّحْمَنَ، وَلَقَدْ كَانَ رَجُلًا حُرًّا نَقِيًّا الْأَدِيمِ كَرِيمَ الْخِيمِ جَامِعًا لآلَاتِ الْوِزَارَةِ وَأَدْوَانِهَا، وَكَانَ كَمَا قَالَ عَاصِمُ بْنُ وَهَبٍ فِي عِبِيدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى (١) فَكَأَنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ حَالَتِهِ وَأَعْرَبَ عَنْ مَكْرَمَاتِهِ: [الطويل]

رَأَيْتُ عُبَيْدَ اللَّهِ أَكْرَمَ سُودَدٍ وَأَكْرَمَ مِنْ فَضْلِ وَيَحْيَى بْنِ خَالِدِ  
أَوْلَشِكَ جَادُوا وَالزَّمَانَ مُسَاعِدًا وَقَدْ جَادَا وَالذَّهْرُ غَيْرُ مُسَاعِدِ

وَكَانَتْ ثِقَةُ هَذَا الْوَزِيرِ مُتَمَكِّنَةً مِنْ قَلْبِ السُّلْطَانِ مُعْتَرَا مُغْتَرَا، وَكَانَ مِنْهُ بِأَخْذِ الْقَدْرِ مِنْ غَفْلَتِهِ عَنِ الْمُفْتَرِي فِيهِ مُفْتَرَا، وَكَانَ مَثَلُ قَاضِي أَصْفَهَانَ مَثَلُ ذَنْبِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ فِي وَكْرِ الثَّوْرِ وَهُوَ غَافِلٌ أَيْمَنٌ وَكَيْدُ عَدُوِّهِ كَامِلٌ كَامِنٌ وَالسُّلْطَانُ كَالنَّارِ فَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنْهَا كَانَ أَسْلَمَ مِنْ خَطَرِهَا وَأَمِنَ مِنْ شَرِّهَا، وَالْمَسْرُورُ بِتَقْرِيبِ السُّلْطَانِ لَهُ مَغْرُورٌ، وَالْمَصْدُرُ فِي مَنْصِبِهِ بِنَصْبِهِ مَصْدُورٌ، وَحَدِيثُ الْفَضْلِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ وَقَرِيبِهِ مِنَ الْمَأْمُونِ مَشْهُورٌ وَمَنْ جُمِلَتْهُ مَا كَتَبَ لَهُ فِي الْبِلَادِ أَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ ارْتَضَى ذَا الرِّثَاسَتَيْنِ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلِ مُدْبِرًا وَقَضَلَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَلَكَهُ جَمِيعَ مَا مَلَكَ وَأَجَازَ أَمْرَهُ فِي كُلِّ مَا حَوَتْهُ يَدُهُ وَقَالَ: إِذَا أَمَرْتُ بِأَمْرٍ فَلَا تُنْفِذُوهُ حَتَّى يَأْمَرَ الْفَضْلُ بِانْفَازِهِ وَإِذَا أَمَرَ الْفَضْلُ بِأَمْرٍ أُنْفِذْ مِنْ غَيْرِ مُؤَامَرَتِي، فَانظُرْ إِلَى هَذَا الْإِعْتِمَادِ الْأَكِيدِ ثُمَّ إِلَى ذَلِكَ الطَّشِ الشَّدِيدِ وَالْفَتْكِ الْمُبِيدِ، وَذَكَرَ فِي آدَابِ الصُّحْبَةِ السُّلْطَانِيَّةِ: مَنْ أَحَبَّ الْإِزْدِيَادَ مِنَ النَّعْمِ فَلْيَشْكُرْ، وَمَنْ أَحَبَّ الْمَنْزَلَةَ مِنَ السُّلْطَانِ فَلْيَكْفُرْ، وَمَنْ أَحَبَّ بَقَاءَ عِزِّهِ فَلْيَسْقِطْ دَأْبَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ السَّلَامَةَ فَلْيَلِزِمِ الْجَادَّةَ، وَأَنْشَدَ: [الخفيف]

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ السُّدِّ بُدٌّ فَالِقَ بِالسُّدِّ إِنْ لَقِيَتْ الْكِبَارَا  
وَسَعِدَ الْمُلُوكَ مَعَ لَزُومِ طَرِيقِ السَّلَامَةِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى سَنَنِ الْإِسْتِقَامَةِ لَمْ يَنْجُ مِنْ فِتْنِكَ  
ذَلِكَ السُّلْطَانِ الْحَمِيدِ الشَّدِيدِ الْخَلَالِ الْمَوْصُوفِ بِالْكَمَالِ، وَذَهَبَ عَلَيْهِ مَعَ فِطْنَتِهِ وَذِكَاةِ  
قَرِيحَتِهِ اِحْتِيَالُ الْمُلْسِ وَتَلْبِيسُ الْمُحْتَالِ، وَكَانَ الْمُسْتَوْفِي لِلْسُّلْطَانِ فِي أَيَّامِ وَزَارَتِهِ زَيْنُ

(١) عبيد الله بن يحيى: أبو الحسن، عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وزير من المتقدمين في العصر العباسي، ولد سنة 209 هـ، استوزره المتوكل والمعتمد، وكان عاقلاً حازماً، وظل في الوزارة حتى توفي سنة 263 هـ.

الْمَلِكِ أَبُو سَعْدِ بْنِ هِنْدُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ لَا أَصْلٌ ثَابِتٌ وَلَا فَرْعٌ ثَابِتٌ، سَاقِطٌ بَيْنَ الْفَرَّاشِينَ قَاصِرٌ  
عَنِ الْغَائِثِينَ، وَكَانَ اسْمُ الْاسْتِيفَاءِ عَلَيْهِ. [الطويل]

كَمَا قِيلَ هَذَا قَصْرٌ عَيْسَى<sup>(1)</sup> إِشَارَةٌ إِلَيْهِ وَلَا عَيْسَى هُنَاكَ وَلَا قَصْرٌ  
وَكَانَ رَجُلًا مُتَهَوَّرًا مُبْدِرًا نَهَابًا وَهَابًا، جَامِعًا مِنْ تَهَارِينَ وَصَارِفًا فِي تَهَارِينَ، مَا يَذْرَعُ  
بِذَرِيَعِهِ وَلَا يَبِيتُ بِوَسِيلَةٍ وَلَا أَتَى بِصَنْعِيَةٍ. [السريع]

أَحْسَنُ حَالًا مِنْكَ عِنْدِي الَّذِي يُصْرَعُ فِي الشَّهْرِ وَرَأْسِ الْهِلَالِ  
فَذَلِكَ مَجْنُونٌ لَهُ رَاحَةٌ وَأَنْتَ مَجْنُونٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ

وكانت صورته في الإيراد والإصدار كما قيل<sup>(2)</sup>: [الكامل]

أولى الأمور بضيعة وفساد أمر يدبيرة أبو عبادة  
سمح على أعدائه بدواته فمشجج ومضرج بمداد  
فكأنه من دير هرقل<sup>(3)</sup> مفلت حرد يجزر سلاسل الأقياد

وَكَانَ سَبَبُ تَصْدِيرِ زَيْنِ الْمَلِكِ بْنِ هِنْدُوا فِي مَنْصِبِ الْاسْتِيفَاءِ أَنَّ سَعْدَ الْمَلِكِ تَوَلَّى  
الْوِزَارَةَ وَالْمَمَالِكَ مَسْلُوبَةً، وَالْخَزَائِنُ مَنهوبةً، وَالْأَعْمَالُ مَغْصُوبَةٌ، وَالسُّلْطَنَةُ عَلَى وَلَايَاتِهَا  
مَقْلُوبَةٌ، وَلَمْ يَجِدْ لَهُ بُدْأً مِنْ تَوْجِيهِ الْجِهَاتِ وَتَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ بِالشُّبُهَاتِ، وَكَانَ رَجُلًا حَسَنَ  
السُّمْعَةِ، مَشْهُورَ الصَّنِيعَةِ وَالصَّنْعَةِ، فَلَمْ يُؤْثِرْ أَنْ يُؤْثِرَ عَنْهُ غَيْرُ الْجَمِيلِ، وَلَا يَهْدُمُ بِالإِشَارَةِ  
مَا بَنَاهُ لَهُ إِحْسَانُهُ مِنَ الْمَجْدِ الْأَثِيرِ الْأَثِيلِ، وَرَأَى أَنَّ الْمَلِكَ لَا اسْتِقْلَالَ لَهُ مَعَ الْإِقْلَالَ، وَلَا  
غِنَى لَهُ عَنِ اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ، فَرتَّبَ ابْنَ هِنْدُوا فِي مَنْصِبِ الْاسْتِيفَاءِ وَوَلَاهُ وَمَكَّنَهُ وَقَوَاهُ مَعَ  
عَلِيهِ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ قَوَائِنَ الْعَمَلِ، وَأَنَّهُ مَعَ الْمُحَلِّي بِهِ بَاقٍ عَلَى الْعَطْلِ، وَإِنَّمَا رَتَّبَ الْاسْتِخْرَاجَ  
وَالْمُسْتَوْفَى لَا يَسْتَخْرِجُ، وَعَلَى غَيْرِ ضَبْطِ الْحِسَابِ وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ لَا يَعْرِجُ، فَلَمَّا تَوَلَّى  
خَرَجَ وَاسْتَخْرَجَ وَأَمَرَ وَأَمْرَجَ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ جُزْأَفًا، وَأَنْفَقَهَا إِسْرَافًا، فَلَمَّا انْقَضَى أَمْرُ سَعْدِ

(1) قصر عيسى: قصر ينسب إلى عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس على شاطئ نهر الرقيل عند مصبه بدجلة، وهو أول قصر بناه العباسيون ببغداد، قال ياقوت الحموي: ولا أثر له الآن، وهو اليوم تحلة كبيرة ذات سوق تسمى قصر عيسى.

(2) ديوان دعبيل الخزامي، تحقيق: عبد الصاحب عمران الدجيلي، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972 م، ص 181

(3) اللدير بيت يتبعد فيه الرهبان، ويكون الصحاري ورؤوس الجبال، وهز قل أصله حز قيل نقل إلى هرقل، ودير هرقل مشهور بين البصرة وعسكر مكرم وكان يُجَزَّرُ فِيهِ عَلَى الْمُجَانِينَ.

الْمُلْكِ سَقَطَتْ مَنَزَلَتُهُ وَزَالَتْ دَوْلَتُهُ، لِأَنَّ تَقَدُّمَ الْمَذْكُورِ كَانَ بَغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، وَإِنَّمَا جَرَى ذَلِكَ عَلَى اتِّفَاقٍ، فَزَالَتْ سَعَادَةُ أَبِي سَعِيدٍ بِزَوَالِ سَعِيدٍ، فَكَأَنَّمَا كَانَا عَلَى وَعْدٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا بَقِيَ وَحِيداً بَعْدَ ذَلِكَ الْأَوْحِدِ وَبَقِيَ فِي ذُلِّ الْعَبْدِ بَعْدَ السَّيِّدِ لَقِيَ هَوَاناً، وَلَمْ يَلْقَ لَهُ أَعْوَاناً، وَطَمَعَ فِي جَانِبِهِ وَتَطَرَّقَ الْكُدْرُ إِلَى مَشَارِبِهِ وَرُفِعَتْ عَلَيْهِ رَفَائِعُ، وَأَظْلَمَتْ فِي عَيْنِهِ مَطَالِعُ، وَأُخِذَ وَحْسِسَ وَاسْتُصْفِيَتْ أَمْوَالُهُ وَأَفْلَسَ وَأَقْطَعَتْ أَمْلَاكُهُ وَنُهَبَتْ دُورُهُ وَتَخَبَّطَتْ أُمُورُهُ، وَبَقِيَ فِي السَّجَنِ بِضَعِّ سَنِينَ، وَلَقِيَ الْعَذَابَ الْمُهِينَ، وَكَانَ أَيْضاً فِي وَزَارَةِ سَعِيدِ الْمُلْكِ صَاحِبُ دِيْوَانِ الرِّسَالِ نَصْرُ الْمُلْكِ مُحَمَّدُ بْنُ مُؤَيَّدِ الْمُلْكِ مِنْ نُطْفِ النَّسْوَانِ فِي صَدْفِ النَّسْوَانِ، وَكَانَ مَعَ جِهْلِهِ وَالْإِعْدَامِ مِنْ فَضْلِهِ لِلدِّيْوَانِ بِهِ أَهْبَةٌ وَجَلَالَةٌ، وَحِلْيَةٌ أَفْبَحُ مِنَ الْعَطَلِ وَحَالَةٌ، وَأَيَّاتُ أَبِي بَكْرِ الْقَهْطَانِيِّ لِاتِّقَةِ بِهِ: [الْمُجْتَث]

ابن الوزير علي	من الأم الناس طراً
لو أتته لأبيه	لكان كالأب حراً
عليه لعنة ربي	تتري وتتري وتتري
فلأثفرن منه	بصحن خد أغراً
فليس يوليك خيراً	وليس يالوك شراً

وَمَا كَانُوا وَلَوْهُ أَيْضاً هَذَا الشُّغْلُ بِاسْتِحْقَاقِ الْفَضْلِ وَالصَّنَاعَةِ وَالْبَلَغَةِ وَالْبِرَاعَةِ، وَإِنَّمَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَرْعُونَ حَقَّ أَبِيهِ فِيهِ، وَرَأَمُوا تَجَلِّيهِ مَعَ تَخَلِّيهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُمْتُّ بِهِ إِلَّا كَوْنُهُ نِظَامِيًّا، وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ عِصَامِيًّا لَا عِظَامِيًّا، وَمَعَ كَوْنِ سَعِيدِ الْمُلْكِ مُرِيًّا وَلِدْعَائِهِ فِي الْحَاجَاتِ مُلَبِّياً أَعَانَ عَلَيْهِ السَّاعِينَ، وَلَمْ يَكُنْ لِحُقُوقِهِ مِنَ الْمُرَاعِيَيْنِ، وَمَا سُمِعَتْ سِعَايَتُهُ حَيْثُ عَرَمَتْ فِي الْغَوَايَةِ غَايَتُهُ، وَإِنَّمَا نَضَحَ إِنْأَوْهَ بِمَا فِيهِ وَبَاءَ بِقَبْحِ الذِّكْرِ وَالْوِزْرِ فِي السَّعَايَةِ الَّتِي أَبَتْ بِقُبْحِ مَسَاعِيهِ فَزَلَّتْ بِهِ أَيْضاً قَدَمُهُ وَلَمْ يَأْخُذْ آخِذٌ بِيَدِهِ وَبَقِيَ مَشْتَوْماً مَهْجُوراً مَهْجُوراً بِكَمِيهِ، وَكَانَ وَكِيلِدَارِ السُّلْطَانِ فِي أَيَّامِ وَزَارَةِ سَعِيدِ الْمُلْكِ أَمِيرُ قَزْوِينِ الْمَعْرُوفِ بِالذِّكْوِيِّ دُوكَيْسَهُ مِنْ جُمْلَةِ التَّجَارِ، وَكَانَ قَدْ هَرَبَ مِنْ أَبِي مُسْلِمِ رَيْسِ الرِّيِّ وَالتَّجَا إِلَى سَعِيدِ الْمُلْكِ وَهَرَبَ إِلَى جِمَايَتِهِ، وَأَقَامَ فِي ظِلِّ رِعَايَتِهِ وَكَتَفِ عِنَايَتِهِ، فَأَرَادَ الْوِزِيرُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ مَنْ يَتَرَدَّدُ فِي الْمُهَمَّاتِ وَيَأْتِيهِ بِجَوَابِ الْمُوَافَرَاتِ وَالرِّسَالَاتِ، وَمَنْ يَتَوَلَّى هَذَا الشُّغْلَ يُقَالُ فِي الْعَجَمِ وَكِيلِدَارِي وَكِيلُ الْبَابِ، وَمَنَزَلَتُهُ أَحْصَى، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَنْطِقِيًّا

بليغاً، مُتَجَرِّعاً في مَضَائِقِ الْكَلَامِ لِلْغُصَصِ مُسِينِغاً، مُسْتَقْلَلاً بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ فِي مَقَامِ الْحَاجَةِ، مُتَجَنِّباً لِلْسَّمَاجَةِ بِقَوْلِ يُنْسَبُ لِلْسَّمَاحَةِ، عَارِفاً بِأَخْلَاقِ السُّلْطَانِ فِي أَوْقَاتِ رِضَاةٍ وَسَخَطِهِ، وَبِقَضِيهِ وَيَسْطِهِ، وَمَلَالِيهِ وَنَسَاطِيهِ، وَاغْتِمَائِهِ وَاغْتِبَاطِهِ، وَإِذَا وَجَدَهُ مُنْقَبِضاً تَلَطَّفَ فِي بَسْطِهِ بِمَا يَنْفَقُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَدِيثِ الرَّائِقِ وَالْقَوْلِ النَّافِقِ، حَتَّى إِذَا رَأَى مِنْهُ سِيمَاءَ الْقَبُولِ حَدَّثَهُ بِمَقْصُودِهِ، وَإِلَّا جَرَى فِي الْإِمْسَاكِ عَلَى مَعهودِهِ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ لَا يَثْبُتُ خَلْقُهُ عَلَى حَالِهِ، وَلَا بَدَأَ لَهُ مِنْ ضَجْرٍ وَمَلَالَةٍ، وَكَانَ هَذَا الذِّكْرِيُّ الْقَرْوِينِيُّ خَالِياً مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا مُنْحَرِفاً عَنِ سُبُلِهَا، لَيْسَ لَهُ مَعْنَى يُصَابُ وَلَا مَعْنَى يُسْتَبَاطُ، فَجَعَلَهُ الْوَزِيرُ عِنْدَ السُّلْطَانِ وَكَيْلِدَارِهِ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ هَذَرَةً! وَأَثْقَلَ فِي الْغِيِّ حَجْرَهُ! وَكَانَ إِذَا حَدَّثَ السُّلْطَانَ قَطَعَ الْكَلَامَ وَوَزَعَهُ وَأَعْمَى مَطْلَعَهُ، وَلَمْ يَبْلُغْ مَقْطَعَهُ، وَأَدَّاهُ بِعِبَارَاتٍ سَخِيفَةٍ أَبَدَتْ رَنَقَهُ وَأَذْهَبَتْ رَوْتَهُ، وَالتَّمَسَّ مِنْ سَعْدِ الْمُلْكِ هَذِهِ الْوَالِيَةَ فَاجَابَهُ إِلَى مُلْتَمَسِهِ، وَوَاقَفَهُ عَلَى هَوَسِهِ لِسَلَامَةِ نَفْسِهِ وَفَرَطِ أَنْفَسِهِ، وَذَهَبَتْ عَلَيْهِ أَنَّهُ سَوْفِيٌّ فَفَزَّ مِنَ الدَّكَانِ إِلَى بَارِكَاةِ السُّلْطَانِ، وَزَاخَمَ أَرْكَانَ دَوْلَتِهِ عَلَى الْمَكَاتَةِ وَالْمَكَانِ، بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا عَقْلِ وَلَا فَهْمٍ وَلَا شَكْلِ، وَقَدْ نَظَّمَ اللَّبِيْبِيُّ الشَّاعِرُ بَيْتَيْنِ بِالْفَارْسِيَةِ عَرَبْتُهُمَا فِي هَذَا الْمَعْنَى: [السريع]

وَلَيْتُمْ كُلَّ أَخِي حَرْقَةً      بِهِ لِيَدِيَوَانِكُمْ عِبْرَةً  
فَوَاحِدٌ قَدْ قَرَّمَن قَأْسَهُ      وَوَاحِدٌ قَرَّمِنَ الْأَبْرَةَ  
وَلَأَحْمَدُ بْنُ حَمْدُونَ النَّدِيمُ<sup>(1)</sup>: [الوافر]

خُذُوا مَالَ التَّجَارِ وَسَوْفَوْهُمْ      إِلَى وَقَسْتِ فَإِنَّهُمْ لِنَامٍ  
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ إِثْمٌ      لِأَنَّ جَمِيعَ مَا جَمَعُوا حَرَامٌ  
فَكَانَ إِذَا خَاطَبَ السُّلْطَانَ أَوْ شَافَهُهُ وَفَاوَضَهُ فِي أَمْرٍ وَوَاجَهَهُ وَتَافَنَهُ وَتَافَنَتْ لَهُ حَدَثٌ لَهُ عَجَبٌ  
بِأَنِّ حَادَثَهُ وَنَسِيَ نَفْسَهُ وَشَوَّشَ مَا هُوَ فِيهِ حَسَهُ، فَانْخَرَعَ وَانْخَلَعَ وَخَرَجَ عَمَّا فِيهِ شَرَعٌ وَجَمَعَ  
بَيْنَ الْأَرْوَى وَالنَّعَامِ وَالصَّبِيحِ وَالْبُعَامِ، وَالْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَالصَّرِيحِ وَالْهَجِينِ، ثُمَّ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا  
بِكَلِّ مَا يَبْضُرُّ، وَيَسُوءُ وَلَا يَسُرُّ، وَيَجْلِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَهُ الشَّرَّ وَيَجْرُ، وَلَوْ تَكَلَّمَ نَهَارَهُ

(1) أحمد بن حمدون النديم: أبو عبد الله، أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، عالم بالادب والخبار، من الندماء، نادم المتوكل والمستعين العباسيين ونال جوائزهم، كانت إقامته ببغداد، ألف عدداً من الكتب في الاخبار والادب توفي سنة

أَجْمَعَ حَسَبَ أَنَّهُ مَا تَنْفَسَ، وَلَا فَاةَ بِكَلِمَةٍ وَلَا نَبَسَ، وَهُوَ مُعْجَبٌ بِجَرِيَانِهِ فِي هَدْيَانِهِ وَاسْتِيَانِهِ فِي مِيدَانِهِ، لَا يَفْرُقُ بَيْنَ الْخَطَا وَالصَّوَابِ فِي الْجَوَابِ وَالْخِطَابِ، وَالْخَطَلِ وَالسَّدَادِ وَالْمُقِيمِ وَالْمُنَادِ، وَكَانَ يَدَهْشُ وَيَشْدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْمَهِيْبِ الَّذِي لَا يَتَقَوُّهُ بِهِ إِلَّا الْأَقْوَةُ، فَكَيْفَ السُّوقِيُّ الْأَبْلَةُ، فَيَبْعُدُ عَنِ رُشْدِهِ وَيَضِلُّ عَنِ قَصْدِهِ، وَيَنْسَى مَا ذَكَرَهُ، وَيَغِيْبُ خَاطِرُهُ عَمَّا حَضَرَهُ، وَيُنْكِرُ مَا عَرَفَهُ وَلَا يَعْرِفُ مَا أَنْكَرَهُ، فَاذَا سُئِلَ عَنْهُ تَبَلَّهُ وَتَبَلَّدَ وَأَطْهَرَ اللَّدْدَ، وَاسْتَضَرَّ سَعْدَ الْمَلِكِ مِنْ جَانِبِ ذَلِكَ الْعَاجِزِ بَغَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ فِي حَقِّهِ، وَأَيُّ ضَرَرٍ أَقْوَى وَأَمْكَنُ مِنْ كَوْنِهِ قُتِلَ فِي حَيْلِ حَتْفِهِ، وَكَانَ فِي وَزَارَةِ سَعْدِ الْمَلِكِ عَارِضَ الْجَيْشِ أَبُو الْمَفَاخِرِ الْقُتَيْبِيُّ، وَكَانَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ فِي اصطلاحِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ نَعْتُ (طَرْطِيلِ) وَمَا عَرَفُوهُ بِغَيْرِ هَذِهِ الْأُمُورِ ثُمَّ الثَّقِيلِ، وَهَجَاهُ أَبُو طَاهِرِ الْخَاتُونِيِّ بِشِعْرِ مَعْنَاهُ:

إِنَّهُ خَرِيٌّ مِنْ فِيهِ لَمَّا تَكَلَّمَ فِي حَقِّي وَهَجَرَ

وَلَقَدْ كَدْتُ أَحْشَوْ فَاةَ خَرَا وَلَكِنْ مَنْ رَدَّ التَّمَرَ إِلَى هَجَرَ

وَيَلِيقُ بِهِ مَا قِيلَ فِي عِلْبَاءِ بْنِ حَبِيبٍ لِبَعْضِ بَنِي أُسْدٍ: [الزهج]

أَرَى الْعَلْبَاءَ كَالْعَدِّ [م] بَاءٌ لَا حُلُوًّا وَلَا مُرًّا

شَيْخٌ مِنْ بَنِي الْجَارِوِ [م] دِ لَا خَيْنَرٌ وَلَا شُرًّا

وَصُرِفَ فِي وَزَارَةِ سَعْدِ الْمَلِكِ، وَانْتَقَلَ دِيوَانُ الْعَرَضِ إِلَى عِزِّ الْمَلِكِ بْنِ الْكَافِيِّ الْأَصْفَهَانِيِّ، وَبَقِيَ فِيهِ أَشْهُرًا وَانْتَصَبَ فِي دَسْتِهِ مُتَّصِدًّا فَلَمَّا أَخَذَ سَعْدُ الْمَلِكِ اقْتَرَنَتْ نَكْبَتُهُ بِنَكْبَتِهِ، وَاتَّفَقَتْ صَلْبَتُهُ مَعَ صَلْبَتِهِ.

### مُخْتَصُّ الْمَلِكِ أَبُو نَصْرٍ الْقَاشِي

اسْتُدْعِيَ مِنْ قَاشَانَ فِي وَزَارَةِ سَعْدِ الْمَلِكِ وَصُرِفَ بِهِ مِنْ دِيوَانِ الْإِنشَاءِ مُحَمَّدُ بْنُ مُوَيْدِ الْمَلِكِ قُتَيْبِلَ هَذَا وَذَلِكَ طَرْدٌ، وَأَقِيمَ ذَلِكَ وَهَذَا قَعْدٌ، وَصَارَ مُخْتَصَّ الْمَلِكِ بِالْمَلِكِ مُخْتَصَّصًا، وَلَا تَرِ الصَّلَاحِ وَالسَّدَادِ مُقْتَصَّصًا، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ لِسَانِ قَاضِي أَصْفَهَانَ إِلَّا عَرْضُهُ، وَلَمْ يَقُلْ فِيهِ مَا يَغْمُضُهُ وَيَغْضُهُ، فَأَنَّهُ كَانَ مِنْ وَثَاقِ شَرِّهِ مُطْلَقًا، وَمِنْ اسْتِرْقَاقِ تَلْبِيسِهِ بِاسْتِقْرَارِ إِبْلِيسِهِ مُعْتَقًا، فَخَلَا لَهُ وَجْهُ السُّلْطَانِ فِي خُلُوتِهِ وَخُرُوجِهِ، وَصُعُودِهِ إِلَى مَرَامِي السَّمَوِّ فِي دَرَجَاتِهِ وَعُرُوجِهِ، وَخَلَا الْمِيدَانَ لِقَاضِي أَصْفَهَانَ مَا بَيْنَ عَزْلِ الْوُزَرَاءِ وَنَصْبِهِمْ وَخَفْضِهِمْ وَرَفْعِهِمْ،

فَصَارَ مِحْكًا لِلْإِسْلَامِ، وَهَوَّ عِنْدَ السُّلْطَانِ مَقْبُولَ الْكَلَامِ نَافِذَ الْأَحْكَامِ، وَأَصْحَابُ السُّلْطَانِ مِنْهُ خَاشُونَ، وَإِلَى بَابِهِ غَاشُونَ، وَمِنْ بُهْتَانِهِ مَذْعُورُونَ، وَعَلَى الْفَرْقِ مِنْ حُكْمِهِ مَعْدُورُونَ، وَهُمْ عَلَيْهِ مَعْرُوضُونَ وَلِنَارِهِ مُعْرَضُونَ، وَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ تَمَوِيهَاتٌ، وَفِي إِيهَامِهِ وَإِيهَامِيهِ تَقْسِيمَاتٌ، فَإِذَا سَأَلَهُ السُّلْطَانُ عَنْ وَاحِدٍ كَيْفَ تَعْرِفُهُ فِي الدِّينِ؟ أَجَابَ مَرَّةً بِلَا أُدْرِي، وَمَرَّةً بِلَا أَعْرِفُهُ، وَتَارَةً أَمَهْلِنِي فَإِنِّي أَبْحَثُ عَنْهُ فَأَكْشِفُهُ، وَتَارَةً يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِمَا يَهْدُرُ دَمَهُ، وَأَوْبَةً يَغْلِبُ عَلَى وُجُودِهِ عَدْمُهُ، وَوَصَلَ الْأَمْرُ مِنْ قَبُولِ الْقَاضِي وَغُفُولِ السُّلْطَانِ إِلَى دَرَجَةِ طَلَبِ فِيهَا الدَّمَاءِ وَاسْتِحْكَامِ فِيهَا الْاجْتِرَاءِ، وَأَخَذَ الْقَاضِي أُمُورًا كَثِيرَةً مِنْ كُلِّ مَنْ أَرَهَبَهُ وَذَعَرَهُ، وَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ أَبَاحَ دَمِهِ وَأَهْدَرَهُ، وَبَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ مَنْ كَانَ لَهُ فِي خِصْمِهِ عَرَضٌ حَمَلَ إِلَى الْقَاضِي أَلْفَ دِينَارٍ أَوْ أَكْثَرَ وَرَشَاهُ فِي قَتْلِهِ فَاقْتَاهُ فَإِذَا قَتَلَهُ الْمُقَاضِي دَفَعَ عَنْهُ الْقَاضِي وَقَالَ لَا قِصَاصَ عَلَى الْمُؤَحِّدِ بِقَتْلِ الْمُلْجِدِ، وَلَمْ يُعْرِفْ بِالْحَادِ الْمَقْتُولِ وَتَوْحِيدِ الْقَاتِلِ إِلَّا بِقَوْلِ الْقَاضِي الْمَذْكُورِ وَحُكْمِهِ بِالْبُهْتَانِ وَالزُّورِ.

قَالَ أَبُو شُرَوَانَ: حَدَّثَنِي ابْنُ الْمَطْلَبِ وَكَانَ وَزِيرَ الْإِمَامِ الْمُسْتَظْهِرِ بِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا زَالَ هَذَا الْقَاضِي بِبَغْدَادَ يَتَوَضَّلُ حَتَّى أَبْصَرَ قَهْرْمَانَةَ لِدارِ الْخِلَافَةِ، فَقَالَ لَهَا الْيَوْمَ أَجْرِي مَعِيَ السُّلْطَانُ حَدِيثَ هَارُونَ أَخِي الْإِمَامِ الْمُسْتَظْهِرِ وَسَأَلَنِي عَنْهُ، فَدَخَلَتْ الْقَهْرْمَانَةُ وَأَوْصَلَتْ إِلَى سَمْعِ أَخِيهِ مَا حَدَّثَهَا بِهِ الْقَاضِي مِنْ حَدِيثِ السُّلْطَانِ وَالِاسْتِخْبَارِ، فَقَامَتْ قِيَامَةَ الْخَلِيفَةِ، وَتَمَكَّنَ الْاسْتِشْعَارُ مِنْ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ، فَكَتَبَ إِلَى الْوَزِيرِ بِأَمْرِهِ بِالرُّكُوبِ إِلَى الْقَاضِي وَيَحْمِلُهُ عَلَى الْإِضْرَابِ عَنْ ذِكْرِ هَارُونَ أَخِيهِ وَيَحْمِلُ إِلَيْهِ سِتَّةَ آلَافِ دِينَارٍ أَمِيرِيَّةً يَدْفَعُ بِهَا شَرَّهُ وَيَكْفِيهِ، قَالَ فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الرُّكُوبِ إِلَيْهِ حَتَّى رَكِبَتْ إِلَى الْقَاضِي وَأَرْضِيَتْهُ بِمَا حَمَلَتْهُ، وَاسْتَعْفَيْتُهُ عَنْ حَدِيثِ هَارُونَ وَاسْتَنْزَلَتْهُ، فَانْقَطَعَ مَدُّ ذَلِكَ الْحَدِيثِ بِطَيْبِ قَلْبِ ذَلِكَ الْخَبِيثِ، وَكَذَلِكَ مَا تَوَلَّى وَزِيرٌ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا رَاقِبُهُ وَقَارِبُهُ، وَإِنْ لَمْ يُشَارِكُهُ فِي مَنْصِبِهِ نَاصِبُهُ، فَلَمْ يَتْرِكْ أَحَدًا مِنْ خَوَاصِّ السُّلْطَانِ إِلَّا لَوْنَهُ، وَشَوْشَ عَلَيْهِ رَأْيَهُ وَخَبْتَهُ، وَلَمْ يُغَادِرْ أَحَدًا مِنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ إِلَّا طَرَقَ إِلَيْهِ ظَنُّهُ، وَقَلَّدَهُ بِسُكُوتِهِ عَنْهُ مَنَّهُ، وَقَالَ لَهُ السُّلْطَانُ يَوْمًا كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ دَوَابِنِ وَالِدِي وَجَدِّي فِي أَدْيَانِهِمْ وَإِنَّهُمْ كَانُوا لَا قَدَحَ فِي إِيمَانِهِمْ فَكَيْفَ اخْتَصَّ هَذَا اللُّوثُ بَرْمَانِي وَبِأَصْحَابِ دِيوَانِي وَأَمْرَاءِ سُلْطَانِي وَالْمُنْفَرَسِينَ بِإِحْسَانِي؟ فَقَالَ أَوْلَئِكَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ، وَهُمْ أَهْلُ الدِّينِ وَالْإِحْسَانِ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَهْلُ الْإِنْحَادِ وَالنَّفَاقِ، فَتَحَيَّلَ

السلطانُ صَحَّةَ مَقَالِهِ، وَاسْتَحْكَمَ تَقْرِيبُ الْخُرَاسَانِيِّنَ وَإِبْعَادُ الْعِرَاقِيِّينَ فِي خَيَالِهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعِرَاقِ مُسْلِمٌ، وَأَنَّ أَفْقَ الْمَشْرِقِيِّينَ مُظْلَمٌ، وَكَانَ بِالْعِرَاقِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ مَحْرُومُونَ مَهْجُورُونَ مَحْدُودُونَ مَطْرُودُونَ، مِنْ كُلِّ جَاهِلٍ وَمَجْهُولٍ، وَسَاقِطٍ ذِي خُمولٍ، وَمُتَزَوٍّ إِلَى زَاوِيَةٍ، وَمُتَمَتِّحٍ إِلَى نَاحِيَةٍ، وَمُتَمَتِّسٍ بِالرِّبَاءِ، وَمُتَهَوِّسٍ بِالْكَيمِيَاءِ، وَمُخَبَّلٍ بِالتَّنْجِيمِ، وَمُشْتَبِلٍ بِالتَّعْلِيمِ، وَمُنْكَسِرٍ فِي كَسْرِ الْفَاقَةِ، وَمُرْتَقٍ بِالنَّسَاجَةِ وَالْوَرِاقَةِ، وَمُعْتَكِفٍ فِي مَسْجِدٍ لِلضَّرُورَةِ، وَمَهْجُورٍ سَاكِنٍ فِي الْمَسَاكِينِ الْمَهْجُورَةِ، وَيَطَّالِ مُرْجِفٍ وَعَمَّالٍ لِمُحْتَرَفٍ، فَلَمَّا عَلِمُوا مَيْلَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَاعْتِمَادَهُ عَلَيْهِمْ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَعَرَضُوا نَفُوسَهُمْ، وَظَهَرَتْ مُكْتَتَهُمْ وَطَالَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وَعَرَضَتْ أَكْتَفُهُمْ وَشَمَخَتْ أَنْفُهُمْ، وَخَطَبُوا الْمَنَاصِبَ، وَاجْتَرَوْا عَلَى الْعِرَاقِيِّينَ بِالرَّقَاعَاتِ وَأَنْفَقُوا مِنْ ذَخَائِرِ الْحِمَاقَاتِ، وَقَالُوا نَحْنُ ضَالَّةُ سُلْطَانِ الْوَقْتِ، وَنَحْنُ الْمُبْرُؤُونَ عِنْدَهُ مِنَ الْمَقْتِ، وَنَحْنُ الصَّالِحُونَ لِخِدْمَتِهِ النَّاجِحُونَ بِنِعْمَتِهِ، الرَّاجِحُونَ فِي دَوْلَتِهِ النَّاجِحُونَ عِنْدَ أَمْنِيَّتِهِ، وَغَفَلُوا بَلْ غَفَلَ السُّلْطَانُ عَنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ أَنَّ خُرَاسَانَ عَشُ مَذْهَبِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَبِهَا أَفْرَخَ وَبَاطَرَ، وَمِنْهَا شَاعَ وَفَاضَ وَاسْتَفَاضَ، وَمِنْهَا حَصُونُهُ الَّتِي لَمْ تُفْتَحَ وَعَيُونُهُ الَّتِي لَمْ تُمْتَحَ، وَقَدْ قِيلَ فِيهَا: [الوافر]

تَمَنَيْنَا خُرَاسَانَ زَمَانًا      فَلَمْ نُعْطَ الْمُنَى وَالصَّبْرَ عَنْهَا  
فَلَمَّا أَنْ آتَيْنَاهَا سِرَاعًا      وَجَدْنَاهَا بِحَذْفِ النَّصْفِ مِنْهَا  
فَأَوْرَدَ فِي هَجْوِ خُرَاسَانَ أَشْعَارًا كَثِيرَةً بِالْفَارْسِيَّةِ بَدِيعَةً فِي حُسْنِهَا بَعِيدَةً فِي فَنِّهَا، فَذَا عَرَّبَتْ عَرَبِيَّتَ، وَإِذَا نُقِضَتْ فَارْسِيَّتُهَا خَرَبَتْ، وَهَجَا الْأَدِيبُ مُحَمَّدُ التَّبْرِيذِيُّ بَعْضَ وَرَاءِ خُرَاسَانَ بَيِّنَتَيْنِ بِالْفَارْسِيَّةِ مَعْنَاهُمَا مَا عَرَّبْتَهُ: [الطويل]

فَنَعْنُمُ لِدَفْعِ الْجُوعِ بِالْحُبْزِ يَابَسًا      وَأَجْزَاكُمُ فِي الْأَدَمِ جَبْنٌ وَكَامِخٌ  
فَمَالِي أَرَاكُمُ تَبْعَثُونَ بِشَارِكًا      عَلَيْهَا صِنَادِيقُ لَكُمْ وَمَطَابِخُ

وَلِلْمُرَّجَانِ بْنِ بَنَاءِ الْبَطَانِحِيِّ فِي الْمَطْبَخِ الْخَالِيِّ مِمَّا يُطْبَخُ فِيهِ: [المجث]

رَأَيْتُ مَضْرَبَ شَعْرٍ      فَقُلْتُ مَاذَا السَّوَادُ  
فَقِيلَ مَطْبَخُ نَصْرٍ      فَقُلْتُ أَيْبَنَ الرَّمَادُ  
فَقِيلَ لِي فِيهِ بُنٌّ      وَكَامِخٌ وَجَبْرَادُ  
وَكَيْسَ فِيهِ سَيُّوِيٌّ ذَا      وَلِلْجَمَالِ يُرَادُ

وَانْقَضَى عَصْرُ سَعْدِ الْمَلِكِ سَرِيعاً، وَصَارَ بِالْمَكْرِ الصَّرِيحِ صَرِيعاً، وَعَادَ الْمَلِكُ الْمَرِيحُ مِنْهُ لِفَقْدِ مَحَلِّهِ بِمَحَلِّهِ مَرَوْعاً. [الوافر]

عَلَامٌ وَعَیْ تَقَحَّمَهَا فَأَبْلَى فَخَانَ بَلَاءَهُ الزَّمَنُ الْخَوُونُ  
فَكَانَ عَلَى الْفَتَى الْإِقْدَامُ فِيهَا وَلَيْسَ عَلَيْهِ مَا حَكَّ الْمَنُونُ

وَلَمَّا نَكَبَ سَعْدُ الْمَلِكِ طَمَحَ إِلَى الْوِزَارَةِ عَمْرُو وَزَيْدُ، وَوَصَلَ يَوْمَ نَكَبَتِهِ الْأَمِيرُ ضِيَاءُ الْمَلِكِ أَحْمَدُ بْنُ نِزَامِ الْمَلِكِ وَخَوَاجَةٌ خَطِيرُ الْمَلِكِ أَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمَيْيَدِي، وَكَانَ قَدْ اسْتَدْعَى مِنْ فَارَسٍ، وَهُوَ مَعَ خُلُوءَةٍ مِنَ الْفَضْلِ فِي مِيدَانِ الْجَلَادَةِ فَارَةٌ فَارِسٌ، فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الْأَرَاءُ وَالْأَمْرَاءُ، وَاحْتَدَّتْ فِيهِمَا أَهْوَاءُ الْكِبْرَاءِ، وَتَحَزَّبَ الْخَوَاصُّ حِزْبَيْنِ، وَتَفَرَّقُوا إِلَيْهِمَا فَرِيقَيْنِ مُتَعَصِّبَيْنِ، وَرَجَّحَ كُلُّ مِنْهُمُ جَانِبَ صَاحِبِهِ وَفَضَّلَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَ مَنْ عَنِى بِهِ وَبَجَّلَهُ، فَرَأَى السُّلْطَانُ حِفْظَ الْجَانِبَيْنِ، وَأَمَرَ بِتَوَلِيَةِ الصَّاحِبَيْنِ، وَجَعَلَ دَسْتَ الْوِزَارَةِ لِلنِّزَامِيِّ وَتَمَنَّبَ الْاسْتِيفَاءَ لِلْمَيْيَدِي، وَأَلْفَ بِتَأْلِيفِهِمَا قُلُوبَ خَوَاصِيهِ، وَخَصَّ كِلَاهُمَا بِاسْتِخْلَاصِهِ، وَأَعْطَى سِيَاسَةَ مُلْكِهِ حَقَّهَا، وَجَلَا بِسَنَا إِحْسَانِهِ أَفْقَهَا.

قَالَتِ الْحُكْمَاءُ: مَنَازِلُ النِّيَاسَةِ أَرْبَعٌ، فَالْأُولَى سِيَاسَةُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ، وَالثَّانِيَةُ سِيَاسَةُ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَنْ يَضُمُّهُ مَنَزِلُهُ، وَالثَّلَاثَةُ سِيَاسَةُ بَلَدٍ وَاحِدٍ يَتَقَلَّدُهُ، وَالرَّابِعَةُ سِيَاسَةُ الْمَلِكِ كُلِّهِ، فَمَتَى عَجَزَ عَنِ مَنَزِلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ فَهُوَ عَنِ التِّي تَلِيهَا أَعْجَزَ، لِأَجْرَمِ ابْتِلَايِ هَذَا الْوَزِيرِ بِشَفَعَةِ نَسَبِهِ بِعَمَلٍ هُوَ غَيْرُ خَيْرٍ بِسُلُوكِ مَذْهَبِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَغْلِهِ وَلَا أَرْبِهِ، وَكَانَتْ عِلَامَتُهُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمِهِ) فَفَقَضَى حَقَّهُ بِشَغْلِ عَجَزَتِ الْكُفَاءُ وَالدُّهَاءُ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ، وَوَقَعَ اسْمُ الْاسْتِيفَاءِ عَلَى الْخَطِيرِ كَمَا يَدْعَى بِالْجَهْلِ اسْمَ النَّبُوَّةِ أَبُو جَهْلٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْمَنْصَبِ الْمَأْهُولِ دَسْتُهُ بِهِ بِأَهْلٍ وَخَوَاجَةٌ مُخْتَصَّصَ الْمَلِكِ صَاحِبُ دِيَوَانِ الرِّسَالِ مُعَدِّمٌ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَهُوَ عِنْدَ أَوْلَثِكَ أَكْتَبُ الْكُتَّابِ وَيُعْجِزُ عَنِ كِتَابِ خَمْسَةِ أَسْطُرٍ بِالْفَارْسِيَّةِ فَضْلاً عَنِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَا وَلَايِي السُّلْطَانِ الْخِزَانَةَ وَحَمَلْتُ الْأَمَانَةَ، فَإِنَّهُ اسْتَدْعَانِي إِلَى خَلُوتِهِ وَخَصَّنِي بِكَرَامَتِهِ، وَأَكْرَمَنِي بِأَنْ صَيَّرَنِي مِنْ خَاصَّتِهِ، وَسَلَّمْ إِلَيَّ خِزَانَتَ مَمَالِكِهِ فِي مُكَالَمَتِهِ إِيَّايَ وَمُخَاطَبَتِهِ، وَتَحَقَّقَ فِي حَقِّي مِنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ [وَقَالَ الْمَلِكُ إِتْرُونِي بِهِ اسْتِخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خِزَانَتِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ<sup>(1)</sup>] فَكَانَ هُوَ لِأَكْبَارِ إِنَّمَا يَصِلُونَ إِلَى السُّلْطَانِ

في الباركاه إذا جلس لِعَامَّتِهِ وَإِنَّمَا أَخْتَصَّ بِخَلْوَتِهِ وَاسْتَسَعَدَ بِمَحَادِثِهِ، فَعَظَّمَتْ وَجَاهَتِي بِمُؤَاجَهَتِهِ، وَحَسَدَنِي أَكْبَرُ دَوْلَتِهِ عَلَى مَنْزِلَتِي وَانْتَظَرُوا رَأْيِي وَمَنْزِلَتِي، وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ الْأَمِيرَ السَّيِّدَ أَبَا هَاشِمِ الْحَسَنِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ رَيْسَ هَمْدَانَ قَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ رَأْيُ السُّلْطَانِ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَرْبَابِ الدَّوْلَةِ تَنَاصَرُوا عَلَيْهِ وَأَدْبُوا مَكَائِدَهُمْ إِلَيْهِ وَجَرَّوْا قَوْمًا عَلَى التَّظْلَمِ مِنْهُ وَاخْتَلَفُوا أَكَاذِيبَ وَأَبَاطِيلَ عَنْهُ، وَذَكَرُوهُ بِالْقَبِيحِ وَتَبَحُّوا ذِكْرَهُ وَمَرَّوْا فِي وَهْنِهِ وَأَوْهَنُوا أَمْرَهُ، وَأَسْقَطُوا مَآثِرَهُ وَأَثَرُوا سَوَاقِطَهُ، وَنَفَّوْا مَرَاضِيَهُ وَأَبْتَبُوا مَسَاحِطَهُ، وَأَجْرُوا عَلَى أَمْلَاكِهِ حُكْمَ الْجِيَازَةِ، وَأَسْنَدُوا إِلَى السُّلْطَانِ حَدِيثَ حَادِثِهِ بِالْإِجَازَةِ، وَوَصَمَوْهُ بِالْعَقِيدَةِ الرَّيْثِيَّةِ، مَعَ كَوْنِهِ مِنَ الْعَتَرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْأَسْرَةِ الْعَلَوِيَّةِ وَالْفِطْرَةِ الزُّكِّيَّةِ، وَأَطْمَعُوا الْمُتَوَجِّحَ بِنِ أَبِي سَعْدٍ خَلْفِ الْهَمْدَانِيِّ فِي إِيَالَةِ هَمْدَانَ وَرِثَاسَتِهَا، وَبَعَثُوهُ عَلَى الْإِيقَاعِ فِيهِ لِيَحْصَلَ عَلَى وِلَايَتِهَا، وَظَنَّ الْمُتَوَجِّحُ أَنَّهُ يَصِيرُ بِهَا مُتَوَجِّهًا، وَيَعُودُ إِلَيْهَا مُتْرَضِيًا عَنِ الْعَيْشِ الَّذِي كَانَ لَهُ مُتَكْرَهًا، وَكَانَ هَذَا الْمُتَوَجِّحُ مِنْ جِهَةِ هَذَا الرَّيْسِ مُنْكَوبًا وَبِيدَهُ مَضْرُوبًا، وَبِحِمَّتِهِ وَحِمَاتِهِ مَلْسُوبًا مَسْلُوبًا، وَمِنْ جِهَتِهِ بِالْقَتْلِ مُهَدَّدًا، وَبِإِبْعَادِهِ وَإِبْعَادِهِ مِنْ بَيْتِهِ مُشْرَدًا، فَأَوْقَعُوهُ فِي مُعَارَضَتِهِ وَعَرَّضُوهُ لِمُؤَاجَهَتِهِ، وَأَغْلَقُوا عَلَى الْأَمِيرِ السَّيِّدِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ بَابَ دَارِهِ، وَسَدُّوا عَلَيْهِ طَرِيقَ فِرَارِهِ، وَقَرَّرُوا عَلَيْهِ سَبْعَمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ أَحْمَرَ، سِوَى مَا يَلْزَمُهُ مِنْ تَوَابِعٍ وَلِوَاظِمٍ هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: فَأَمْرِنِي السُّلْطَانُ بِالْمَسِيرِ إِلَى هَمْدَانَ لِاسْتِيفَاءِ هَذَا الْمَالِ دَنَائِرٍ مُدْتَرَّةً وَبِدْرًا مُبَدَّرَةً، وَعَادَ الْأَمِيرُ السَّيِّدُ أَبُو هَاشِمٍ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ ضَعُفَ بَصْرُهُ وَاخْتَلَّ نَظْرُهُ، فَعَظَّمْ عِنْدَهُ مَا قُرَّرَ عَلَيْهِ وَاسْتَكْتَرَهُ، وَعَوَّلَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى الْإِبَاءِ، وَقَالَ: هَذَا الْمَالُ مُسْتَحِيلٌ وَجُودُهُ فَكَيْفَ بِالْأَدَاءِ، فَمَحَضَتْ لَهُ النُّصْحَ وَقَوَّيْتُ رَجَاءَهُ وَضَمَنْتُ لَهُ النُّجْحَ وَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ مَا اسْتَبَعَدَهُ، وَرَجَّحْتُ عِنْدَهُ الْاعْتِرَافَ بِمَا جَحَدَهُ، وَعَاقَدْتُهُ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ وَعَاهَدْتُهُ عَلَى مُعَاوَدَتِهِ وَوَعَدْتُهُ بِالسَّعْيِ فِي إِصْلَاحِ أَحْوَالِهِ وَإِنْجَاحِ آمَالِهِ، وَتَقَدَّ سَبْعَمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ عَتِيقِي فِي سَبْعَةِ أَيَّامٍ مِنْ مَوْجُودِ خَزَائِنَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَسَلَّمَ إِلَيْنَا الْمَالَ وَحَثَّنَا عَلَى الْمَسِيرِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَنَا فِي الْمَقَامِ الْيَسِيرِ، فَحِينَ أَوْصَلْتُ الْمَالَ إِلَى الْخَزَائِنَةِ بِأَصْفِهَانٍ وَلَقِيْتُ السُّلْطَانَ شَافَهُتُهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّتِي سِرِّهِ وَعَرَفْتُهُ اخْتِلَافَ أَصْحَابِ الْأَعْرَاضِ بِالْبَاطِلِ فِي حَقِّهِ، وَدَلَّلْتُهُ بِكُشْفِ أَدْبِيَّتِهِمْ عِنْدَهُ عَلَى صَدْقِهِ، وَقَدْ قَدِمْتُ إِلَيْهِ مِنْ هَمْدَانَ بِمَا ذَكَرْتُهُ مَطَالَعَةً وَشَكَرْتُهُ، وَذَكَرْتُ أَنَّهُ سَلَّمَ الْمَالَ وَلَمْ يُظْهِرْ فِي دَفْعِهِ

مُدَافَعَةً، فَأَمَرَ السُّلْطَانَ بِإِعَادَتِهِ إِلَى رِئَاسَتِهِ وَمَنْصَبِ سِيَادَتِهِ وَأَجْرَى أُمُورَهُ عَلَى إِرَادَتِهِ، وَسَبَّرَ إِلَيْهِ الْخِلْعَ السَّنِيَّةَ وَالتَّشْرِيفَاتِ اللَّائِقَةَ بِشَرَفِهِ، وَأَحْيَى مُتَلَدَّ مَجْدِهِ بِمُطَرِّفِهِ، قَالَ: وَلَمَّا حَصَلَ ذَلِكَ إِلَى الْخِزَانَةِ سَلَّمَهَا إِلَيَّ، وَعَوَّلَ فِي دَخْلِهَا وَخَرَجِهَا وَحِفْظِهَا وَضَبْطِهَا عَلَيَّ، فَتَوَلَّيْتُ الْخِزَانَةَ وَالزَّكَاةَ ذُو كَيْسَةٍ فِي سُوقِهَا، وَعَامَلْتُ الدُّنْيَا عَامِلَهَا الْعَدْلَ الْأَمِينَ بِفُسُوقِهَا، وَسَمَّرْتُ صُرُوفَهَا بِمَدِّ أَيْدِي التَّعَدِّيِّ إِلَيْهِ عَنِ سُوقِهَا، وَوَفَّعْتُ تِلْكَ النُّخْلَةَ الثَّمْرَةَ بَعْدَ بُسُوقِهَا، فَقَتَلْتُ فِي الْحَالِ قَاتِلَهُ، وَلَمْ يَعْرِفْ مِنْ أَيِّ وَجْهِ غَائِلُهُ، وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ إِنَّهُ لَمْ يَخْلُصْ مِنْ طَعْنِ الْقَاضِي الْخَصِيْبِيِّ سِوَى مُخْتَصِّ الْمُلْكِ الْقَاشِي، وَلَمْ يَثْبُتِ الْقَاضِي عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ وَطَرَقَ إِلَى الْمَذْكُورِ الْقَالَةَ، وَشَرَعَ عِنْدَ السُّلْطَانِ يَقْدُحُ فِي دِينِهِ وَيَجْرِي مِنَ الشَّرِّ فِي مِيَادِينِهِ، وَكَانَ قَدْ نَقَشَ فِي لَوْحِ خَاطِرِ السُّلْطَانِ أَنَّ الْبَاطِنِيَّ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْبَاطِنِيُّ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُظْهِرُ مِنْ اعْتِقَادِهِ الْخَفِيِّ وَمَقْصُودِهِ أَنْ لَا يَقُولَ الْقَائِلُ كَيْفَ يُقْبَلُ قَوْلُ الْبَاطِنِيِّ فِي الْمُسْلِمِ؟ وَكَيْفَ يُسْمَعُ فِي الصَّالِحِ سَعَايَةَ الْمُجْرِمِ ثُمَّ اجْتَهَدَ الْقَاضِي حَتَّى دَلَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ مِنَ الْخَوْفِ مُخْتَبِئًا، وَبِالْسَّلَامَةِ فِي بَعْضِ الزُّوَايَا مُكْتَبِئًا، فَأَحْضَرَهُ وَأَمَّنَهُ وَقَوَّى نَفْسَهُ بِمَا أَمَكَّنَهُ، وَقَالَ لَهُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ وَلَا سَبِيلَ لِلْأَذَى إِلَيْكَ، فَإِنِ اطَّعْتَنِي سَلِمْتَ وَأَكْرَمْتَ وَأُنْعِمَ عَلَيْكَ وَنَعَمْتَ، وَأَنَا الْمُحَامِي عَنكَ وَحَامِيكَ وَرَاعِيكَ وَمُرَاعِيكَ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى سَكَنَ مِنْ رُوعِهِ وَجَعَلَهُ عَلَى طَوْعِهِ، وَلَقَّنَهُ أَسْمَاءَ مِائَةِ نَفْسٍ مِنْ خُدَّامِ السُّلْطَانِ وَأَعْيَانِ الْبُلْدَانِ، وَقَالَ لَهُ لَا بَأْسَ إِذَا سُئِلْتَ عَمَّنْ تَعْرِفُهُ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ فَادْكُرْ هُوْلَاءَ وَعَدَّهُمْ عَلَى الْوَلَاءِ وَعَدَّهُمْ ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى مَوْضِعِهِ، وَقَالَ: لَا تَخَفْ فَإِنَّكَ إِنِ أُخِذْتَ أَنْجَيْتُكَ وَإِنِ أُخِذَ مِنْكَ أَعْطَيْتُكَ، فَلَمَّا عَادَ الرَّجُلُ إِلَى مَأْمَنِهِ وَرَجَعَ إِلَى مَكْمَنِهِ جَاءَ الْقَاضِي إِلَى السُّلْطَانِ وَقَالَ قَدْ دُلَّ عَلَى رَجُلٍ بَاطِنِيٍّ فِي مَوْضِعٍ كَذَا وَهُوَ مُسْتَخْفٍ مِنَ الْأَذَى وَأَرْجُو أَنْ يَقَعَ لَعْلَهُ يُفْتَحَ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ مِنَ أَمْرِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ السُّلْطَانِ خَبِيرٌ مِنَ بَاطِنِ تِلْكَ الْقِضِيَّةِ، وَأَمَرَ الْأَمِيرَ الْحَاجِبَ بِإِنْفَازِهِ مَنْ يَأْخُذُهُ وَتَأْكِيدِ الْأَمْرِ عَلَى مَنْ يُنْفِذُهُ، فَلَمَّا أَحْضَرَ الرَّجُلَ اسْتَدْعَاهُ إِلَى الْخَلْوَةِ بِحَضُورِ الْقَاضِي الْمَذْكُورِ وَالْأَمِيرِ الْحَاجِبِ الْمَأْمُورِ وَسُئِلَ عَمَّنْ يَعْرِفُهُ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ فِي الْبِلَادِ وَفِي الْعَسْكَرِ فَأَعَادَ مَا تَلَقَّنَهُ مِنَ الْقَاضِي وَتَعَلَّمَهُ، وَكَلَّمَ عَرَضَ كُلِّ مَنْ حَدَّثَهُ فِيهِ وَكَلَّمَهُ، وَأَجْرَى ذِكْرَ مُخْتَصِّ الْمُلْكِ أَبِي نَصْرٍ وَأَبْتِ اسْمَهُ، وَذَكَرَ أَيْضًا الصَّفِيَّ أَبَا الْفَضْلِ الْقَمِّيَّ وَذَكَرَ مَنْ فَتَحَ الذِّكْرَ سَهْمَهُ،

وَكَانَ الصَّفِيُّ أَبُو الْفَضْلِ الْقُمِّي نَائِبَ الْخَطِيرِ فِي دِيوَانِ الْإِسْتِيفَاءِ، وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ أَفْلَحٍ (1)  
الشاعر: [الرجز]

رَأَيْتُهُ يَسْحَبُ فَضْلَ بَرْدِيَّةِ  
كَالتَّيْسِ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ  
فَقُلْتُ مَنْ ذَا خَاطِرٍ أَوْ فِي مَشِيئَتِهِ  
كَأَنَّهُ مُنْتَقِبٌ فِي لِحِيئَتِهِ  
قَبِيلَ الصَّفِيِّ لَا لَعَا لِعَبْرَتِهِ

وَكَذَلِكَ عَدَّ قَرِيباً مِنْ مِثِّهِ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ ذَلِكَ الْمَجْهُولُ، وَصَادَفَ قَوْلُهُ الْقَبُولَ، وَأَخَذَ  
أَوْلِيكَ الْمَذْكُورُونَ وَسَلَّمُوا إِلَى الْأَتْرَاكِ، وَتَصَرَّفُوا مِنْهُمْ فِي الدُّورِ وَالْأَمْلَاكِ، وَتَشَتَّتَ أَهْلُهُمْ  
وَتَفَرَّقَ شَمْلُهُمْ، وَفِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمَكَائِدِ وَالْحِيَلِ وَخِلَالَ هَذَا الْخَلَلِ أَنْزَلَ اللَّهُ قَضَاءَهُ بِالْقَاضِي  
وَعَجَلَ نَقْمَتَهُ وَصَرَفَ بَغْيَهُ بِسَكِينٍ سَكَنَتْ حَرَكَتَهُ وَأَسَكَنَتْ نَأْمَتَهُ، وَأَشْمَتَتْ بِهِ خَاصَّةَ الزَّمَانِ  
وَعَامَّتَهُ، وَقَالُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: [الطويل]

فَصَحَّتْ وَلَا شُكْرٌ وَضَرَبُ عَدُوِّهَا      يَمِينٌ أَرَأَيْتَ مُهْجَةَ ابْنِ سَعِيدِ  
وَمِنْ غُلُوِّ هَذَا الْقَاضِي فِي حَقِّ سَعِدِ الْمَلِكِ مُحَافِظَةً عَلَى حُسْنِ الْعَهْدِ، وَرِعَايَةً لِمَا  
كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْوَدِّ، وَذَلِكَ بَعْدَ سَنَيْنَ مِنْ قَتْلِهِ فَحَفِظْتُ عَهْدَهُ فِي أَهْلِهِ، فَتَمَنَّعَ السُّلْطَانُ  
مِنْ ذَلِكَ وَشَدَّدَ وَأَوْعَدَنِي عَلَيْهِ وَهَدَّدَ، وَأَنَا جَارٍ عَلَى عَادَتِي لَا أَنْقَبُضُ وَلَا أَنْتَجَعُدُّ، وَكَانَ  
ذَلِكَ حَالِي كَمَا صَمَّنَ إِسْحَاقُ بْنُ مُسْلِمِ الْعُقَيْلِيِّ غِلَامِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ  
مَا صَمِنْتَهُمَا إِلَّا لِيَقِيَهُ فِي قَلْبِكَ لِبَنِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: أَجَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا وَفَاؤُنَا  
لِمَنْ لَهُ عِنْدَنَا يَدٌ وَالنِّعْمَةُ عَلَيْهِ مُقِيمَةٌ، نَحْنُ فِي الْأُولَى نَتَمَسَّكُ بِوَفَاءِ خَالٍ مِنَ الرَّجَاءِ، وَفِي  
الثَّانِيَةِ نَعْتَصِمُ بِوَفَاءِ مَقْرُونٍ بِالرَّجَاءِ، وَبَيْنَ الْحَالَيْنِ فَرْقٌ، فَأَعْجَبَ الْمَنْصُورُ بِكَلَامِهِ وَأَمَرَ

(1) ابن أفلح: جمال الدين، أبو القاسم علي أفلح العبسي، شاعر من الكتاب مدح الخلفاء وأرباب المناصب، خلع عليه الخليفة المسترشد ولقبه جمال الملك، ثم ظهر أنه يكاتب ديبساً المزديدي صاحب الحلقة، فامر المسترشد بنقض داره، وكانت رائعة البنيان باذخة الكلفة، فاستجار بهروز الخادم صاحب تكريت، ثم انه عفا عنه، وتوفي في بغداد سنة 535 هـ.

بِاطْلَاقِ الْغُلَامِينَ وَيَبْقَى أَوْلَئِكَ الْمَكْذُوبُ عَلَيْهِمْ فِي السَّجْنِ شُهْرًا، وَانْتَقَمَ مِمَّنْ جَاءَ فِي  
 أَمْرِهِمْ بُهْتَانًا وَرُزْرًا، ثُمَّ تَبَيَّنَ لِلسُّلْطَانِ بَعْدَ قَتْلِ الْقَاضِي أَنَّهُ كَانَ مُحَالِيًا مُسْتَحِيلًا، مُسْتَبَدًّا  
 بِالْإِحْتِيَالِ وَالْإِعْتِيَالِ مُسْتَفِيلًا، وَانْكَشَفَ لَهُ سِرُّهُ وَتَصَوَّرَ لَهُ شُرُّهُ وَكَيْفَ كَانَ مَكْرُهُ، حَتَّى  
 يَصُحَّ مَكْرُهُ، وَعَرَفَ أَنَّ ذَلِكَ الْبَاطِنِيَّ ذَكَرَ مَنْ ذَكَرَ بِتَلْقِينِهِ وَأَنَّهُ دَعَا بِتَأْمِينِهِ، وَأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَهُ  
 وَبَيْنَ مَنْ سَمَاهُمْ وَأَجَابَ عَنْهُمْ لَمْ يَعْرِفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَندِمَ السُّلْطَانُ وَلَاتَ حِينٌ نَدَمَ،  
 فَمَا أَمَكَنَ اسْتِدْرَاكَ مَا اسْتَحَلَّ مِنْ عَرَضِ حَرَامٍ وَدَمٍ، وَأَمَرَ بِالْإِفْرَاجِ عَنِ أَوْلَئِكَ الْمَسَاكِينِ  
 وَرَدَّهُمْ إِلَى مَسَاكِينِهِمْ وَجَمَعَ شَمْلَ أَهْلِهِمْ بِهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ، وَأَقَامَ السِّيَاسَةَ فِي ذَلِكَ  
 الْمُفْتَرِي وَبَيْنَهُ لِمَا يَعْرِضُ مِنَ الظَّنِّ الْفَاسِدِ وَيَعْتَرِي، فَأَمِنَ الْبَرِيءُ مِنْ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ سَقِيمٌ وَلَمْ  
 يَسْمَعْ السُّلْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ حَدِيثًا فِي اعْتِقَادِهِ، وَلَمْ يُصَدِّقْ نِسْبَةَ مُسْلِمٍ إِلَى الْإِحْدَادِ، وَإِذَا أُجْرِيَ  
 عِنْدَهُ أَحَدٌ حَدِيثَ الْبَاطِنِيَّةِ قَالَ إِنَّهُمْ فِي الْقِلَاعِ وَهِيَ مَوْضِعُهَا وَنَحْنُ نَقْصِدُهَا وَنَقْلُعُهَا،  
 وَشُغِفَ بِحِصَارِ حِصُونِهِمْ فَرَتَّبَ الْعَسَاكِرَ لِمُسَارِعَتِهَا وَمُنَازَلَتِهَا، وَأَمَرَهُمْ بِالْمُرَابَاطَةِ عَلَى  
 مُقَابِلَتِهَا وَمُقَاتَلَتِهَا، فَفَتِحَتْ قِلَاعٌ لَوْ بَقِيَتْ إِلَى الْآنِ فِي أَيْدِيهِمْ لَعَمَّ الْعَالَمَ كُفْرُهُمْ وَتَعَدِّيهِمْ،  
 وَكَانَ الْأَمِيرُ شِيرْكَزٍ عَلَى مُحَاصِرَةِ أَلْمُوتِ، وَقَدْ بَالِغٌ فِي تَضْيِيقِ خِنَاقِهَا وَالْأَخِذِ بِأَطْوِاقِهَا،  
 وَمَا زَالَ يُحَاصِرُهَا حَتَّى انْقَضَى عَهْدٌ وَفَتَحَ السُّلْطَانُ فِي أَيَّامِهِ قِلَاعًا كَانَتْ مَوَارِدَ لِلشَّرِّ  
 وَمَصَادِرَ وَطَهَّرَهَا مِنْ قَوْمٍ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ لَا مَنْ مَالٍ إِلَيْهِمْ وَلَا مَنْ مَالٍ عَنْهُمْ، مُتَنَاصِرِينَ  
 عَلَى أَخِذِ الْأَمْوَالِ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ مُعْتَصِمِينَ بِكُلِّ قَلْعَةٍ مُمْتَنِعَةٍ سَمَاءً كَأَنَّمَا  
 عَنَّا الْخَالِدِيَانِ فِي هَذِهِ الْأَيَّاتِ<sup>(1)</sup>: [الْبَسِيطُ]

وَجَارَ مَنْطِقَةَ الْجَوَازِ عَالِيهَا  
 أَرْضًا تَوَطَّأَ قَطْرِيهِ مَرَاسِيهَا  
 حِيَاضُهَا قَبْلَ أَنْ تُجْرِيَ عَزَالِيهَا  
 لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَجْرِي فِي مَجَارِيهَا  
 كِنْبَرَابِهِ وَهُوَ مَمْلُوءٌ بِهَا تِيهَا  
 مِنْ حَوْلِهَا فَهِيَ تَخْفَى فِي خَوَافِيهَا

وَقَلْعَةٌ عَانَقَ الْعَيُوقَ سَافِلُهَا  
 لَا يَعْرِفُ الْقَطْرُ إِذْ كَانَ الْعَمَامُ لَهَا  
 إِذَا الْعَمَامَةُ رَاحَتْ خَاضَ سَاكِنُهَا  
 تَعَدُّ مِنْ أَنْجُمِ الْأَفْلَاقِ [مَرْقَبَهَا]<sup>(2)</sup>  
 عَلَى دُرَا شَامِخٍ وَعَرَقَ قَدْ امْتَلَأَتْ  
 لَهُ عَقَابُ عَقَابِ الْجَوِّ كَائِمَةٌ

(1) ديوان الخالدين، تحقيق: سامي الدهان، ط دار صادر، بيروت، باذن من مجمع اللغة العربية بدمشق، ص 165

(2) الكلمة بين القوسين ساقطة من المخطوطة وأكملناها من: الخالديان، الأشباه والنظائر، حققه وعلق عليه السيد

محمد يوسف، القاهرة، 1958 م، 181، 182، وديوان الخالدين 165

رَدَّتْ مَكَائِدَ أَمْلَاكِ مَكَائِدِهَا  
 وَأَوْطَأَتْ هَمَّتَكَ الْعَلِيَاءَ هَامَتِهَا  
 وَقَصَّصَتْ بَدَوَاهِيهِمْ دَوَاهِيَهَا  
 لَمَّا جَعَلَتْ الْعَوَالِي مِنْ مَرَاقِيهَا  
 فَوَكَّلَ السُّلْطَانُ هِمَّتَهُ الْعَلِيَّةَ بِقَلْعِ تِلْكَ الْقِلَاعِ وَرَوَى الظُّبْيَاءَ الظَّامِيَةَ، وَأَسَاعَ النَّسُورَ  
 الْعَافِيَةَ مِنْ أَشْلَاءِ أَوْلَئِكَ السَّبَاعِ الضَّارِيَةِ وَالذَّنَابِ الْجِيَاعِ، وَمَا زَالَ مُجْتَهِدًا فِي تَطْهِيرِ  
 الْإِسْلَامِ بِدِمَائِهِمْ وَتَخْلِيصِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اعْتِدَائِهِمْ، وَعَادَ إِلَى الْيَقِينِ وَالتَّمَسُّكِ فِي  
 الدِّينِ، فَقَصَّرَ مَا طَالَ مِنَ الْأَيْدِي وَالْأَلْسِنَةِ، وَرَجَعَ مِنْ تِلْكَ الْأَوْهَامِ الْمُسْتَهْجَةِ إِلَى  
 الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَزَالَ ذَلِكَ الْخِيَالُ، وَانْقَضَى ذَلِكَ الصِّيَالُ وَبَطَلَ الْاِحْتِيَالُ، وَلَمَّا  
 قَضَى الْقَاضِي نَجْبَهُ قَضَى الشَّرَّ نَجْبَهُ وَالْمُحَالَ. وَمَا أَلِيقَ آيَاتِ ابْنِ الْحَجَّاجِ<sup>(1)</sup> بِهِ وَهِيَ:  
 [المنسرح]

يَا مَالِكَ النَّارِ خُذْ إِلَيْكَ أَبَا السِّدِّ [م]  
 وَلَا تَدَعَهُ إِلَى زَبَانِيَّةِ  
 أَذْقَهُ حَرَّ الَّذِي خَلَقْتَ لَهُ  
 فَكَلَسْتَ تَدْرِي أَيَّ ابْنِ زَانِيَّةِ  
 مَاتَ فَمَاتَتْ سُوقُ الْفُسُوقِ بِهِ  
 سَائِبُ شَيْخِ الضَّلَالِ وَالْحَمَقِ  
 يَخْدَعُهُمْ بِالْحَدِيثِ وَالْمَلَقِ  
 وَقُلْ لَهُ يَا أَخَا الْفُسُوقِ دُقْ  
 عِنْدَكَ تَحْتَ الْأَغْلَالِ وَالْحَلَقِ  
 فَالْفَيْشُ مَرْمِيَّةٌ عَلَى الطَّرْقِ  
 [وقال]: [الخفيف]

لَا تَشُقْ بِالْوَرَى فَهُمْ فِي طَرِيقِ الرَّ [م]  
 عَشْرٌ وَحِيدًا مُسْتَوْحِشًا مِنْ آذَاهُمْ  
 فَإِذَا مُتَّ تَسْتَرِيحُ مِنَ النَّاسِ [م]  
 وَكَانَ شَمْسُ الْمُلْكِ بْنِ نِزَامِ الْمُلْكِ أَخُو الْوَزِيرِ قَدْ أَوْقَعُوا فِي خَاطِرِ السُّلْطَانِ أَنَّهُ  
 بَاطِنِيٌّ وَأَنَّ دِينَهُ رِدِّيٌّ، وَكَانَتْ لَهُ مَعَ قَاضِي أَصْفَهَانَ مَوَدَّةٌ قَدِيمَةٌ وَطَرِيقَةٌ فِي الْمُصَافَاةِ  
 مُسْتَقِيمَةٌ، فَلَمَّ يُزَلُّ يَتَلَطَّفُ لَهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَتَمَسَّكُ بِهِ، وَيَسُومُهُ أَنْ يُزِيلَ مِنْ خَاطِرِ  
 السُّلْطَانِ مَا خَافَهُ بِسَبَبِهِ، فَخَاطَبَ السُّلْطَانَ فِي مَعْنَاهُ، وَقَامَ مِنْ طَرِيقِ آذَاهُ، وَأَصْفَى لَهُ  
 قَلْبَ السُّلْطَانِ وَنَقَّاهُ.

(1) هاتان القطعتان لم تذكر في ديوان ابن الحججاج تحقيق الأستاذ سعيد الغانمي طبع دار الجمل..

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَأَنَا كُنْتُ مُتَوَلِّياً لِعَرَضِ الْجَيْشِ فَفَقَلَ هَذَا الْمَنْصِبَ مِنِّي إِلَيْهِ وَاسْتَمَلَ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْ شَمْسِ الْمَلِكِ أَلْفِي دِينَارٍ خِدْمَةً أَوْصَلَهَا إِلَى الْخِزَانَةِ، وَتَقَعَهُ الْقَاضِي بِالْإِعَانَةِ. [مَجْزُوءُ الرَّجْزِ]

لَا تَمْتَنِعْ مِنْ عَمَلٍ يَخْطُبُهُ فَيَمْنُ خَطْبٍ  
فَإِنَّ ذَلِكَ بَيْعٌ وَشِرَارٌ فَكُلُّ مَنْ زَادَ رَكْبَ  
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَجْزُ عَجْزَانِ التَّقْصِيرُ فِي طَلَبِ الْأَمْرِ وَقَدْ أَمَكَّنَ وَالْجِدُّ فِي طَلَبِهِ  
وَقَدْ فَاتَ، وَإِنَّ مَا ذَكَرَ أَنُوشِرَوَانُ وَمَا نَقَلَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ تَسْلِيَةٌ لِنَفْسِهِ عِنْدَ عَزْلِهِ مِنْ عَرْضِ  
الْجَيْشِ وَصَرْفِهِ، وَيَبْقَى فِي قَلْبِ السُّلْطَانِ مِنْ مُخْتَصِّصِ الْمَلِكِ شَيْءٌ مِنَ الْإِرْتِيَابِ وَلَمْ يَزَلْ  
وَمَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ، وَجَرَى أَمْرُهُ عَلَى مَا جَرَى أَمْرُ الرَّبِيعِ مَعَ النِّعْمَانِ حَيْثُ هَجَرَهُ وَأَبْعَدَهُ لِقَوْلِ  
لَبِيدٍ<sup>(1)</sup> حِينَ قَامَ فِي مَجْلِسِهِ فَقَالَ: [الرَّجْزِ]

مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلُ مَعَهُ  
إِنَّ أَسْتَهُ مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّمَةٍ  
وَأِنَّهُ يُدْخِلُ فِيهَا إصْبَعَهُ  
يُدْخِلُهُ حَتَّى يُوَارِيَ أَشْجَعَهُ  
كَأَنَّمَا يَطْلُبُ شَيْئاً ضَيَّعَهُ

فَكَتَبَ الرَّبِيعُ إِلَيْهِ آيَاتاً يَسْتَعِظُفُهُ أَوْهَلَهَا: [الْبَسِيطُ]

لَسِنٌ رَحَلْتُ جِمَالِي لَا إِلَى سِعَةٍ مَا مِثْلُهَا سِعَةٌ عَرْضاً وَلَا طُولاً  
فَأَجَابَهُ النِّعْمَانُ: [الْبَسِيطُ]

شَرُّدٌ بِرَحْلِكَ عَنِّي كَيْفَ شِئْتَ وَلَا  
قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ حَقًّا وَإِنْ كَذِباً  
تُكْرِزُ عَلَيَّ وَدَعَّ عَنكَ الْأَبَاطِيلَا  
فَمَا اعْتِذَارُكَ مِنْ شَيْءٍ إِذَا قِيلَا

(1) لبيد: أبو عقيل، لبيد بن ربيعه بن مالك العامري، أحد الشعراء الفرسان الاشراف في الجاهلية، من نجد، أدرك الإسلام، وقد وفد على النبي (عليه الصلاة والسلام) وهو من الصحابة، ومن المؤلفات قلوبهم، وترك الشعر، وسكن الكوفة وعمر طويلاً، ويعد من أصحاب المعلقات توفي سنة 41 هـ، وله ديوان مطبوع.

وَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ظَهَرَتْ اِحْتِيَالاتُ الْقَاضِي وَفَضَائِحُهُ وَلَا اِنْكَشَفَتْ اِخْتِلَاقَاتُهُ وَقَبَائِحُهُ، فَازَالَ السُّلْطَانُ اِخْتِصَاصَ الْمُخْتَصِّصِ، وَتَعَمَّدَ قَوَادِمَ شُغْلِهِ بِالْحَصِّصِ، وَحَطَّ مَنْصِبَهُ مِنَ الْعِمْنِصِّ، وَصَرَفَهُ بِمَا كَرَّرَهُ الْقَاضِي. عَلَى السَّمْعِ السُّلْطَانِيِّ فِيهِ مِنَ الْعَمَطِ وَالْعَمَصِ.

### الأمير العميد محمد الجوزقاني عميد بغداد

وكان الأمير العميد محمد الجوزقاني عميد بغداد فاستدعاه السلطان ونقل إليه منصب المذكور واعتمد عليه في تلك الأمور وهو منصب الطغراء الذي هو من مناصب العظماء، وليس أكبر منه بعد الوزارة إلا منصب الاستيفاء، ثم الطغراء من جملة ديوان الرسائل والانشاء، ثم الإشراف ثم عرض الجيش وهذان المنصبان ليسا في العظمة مثل تلك المناصب الأولى والطرغراء، وهو وزير السلطان في الصيد ليعية الوزير عليه المعول فصار الأمير العميد طغرائياً، وكان من كسوة الفضائل غريباً، فتولى أيضاً وزارة كوهرخاتون بنت الأمير اسماعيل بن ياقوتي زوجة السلطان، وكانت جليلة القدر كريمة الأصل عظيمة الشأن، وكانت وزارتها أيضاً منوطة بكفاية المختص فصرف من الشغلين وحصل بالعرلين، وتسلم الأمير العميد المنصبين، وهذا العميد محمد الجوزقاني كان ولد خطيب جوزقان خراساني المولد والأصل، وإنما كانت الرغبة فيه لخراسانيته لا إنسانيته، وتعرف إلى السلطان بالمذهب الحنفي، ومشاغبيته فيه وإدلاله بالتعصب بين ذويه، إذا سلم عليه واحد لم يسمح بردد السلام حتى يقول له ما مذهبك من أهل الإسلام، وكان بذيء الشفاه رديء الشفاه، قبيح الجبه شديد النجوه صفيق الوجه، محتد المزاج معرج المنهاج، محتاجاً إلى العلاج، كأبي براقش في تلونه، وكالعققي في ثقله، وكالذئب في توثبه، وهو خارج عن تعصبه للمذهب وتعصبه يقيم قيامة العيس الفتن يشغبه. [الوافر]

بِالظُّلْمِ مَنْ فِي الدَّيْرِ مَنُفْلُوْ  
وَأَنْتَ فِي الْعَالَمِ مَحْلُوْ  
مَا فَاتَكَ الدَّيْرُ وَأَعْلَاؤُهُ  
وَأِنَّمَا الشَّاعُورُ مَشْفُوْ

ولأبي أيوب بن محمد<sup>(1)</sup>: [مجزوء الكامل]

(1) في معجم البلدان مادة (برقعيد): قال الصولي: دخل رجل على أيوب بن أحمد بترقيده فأنشده شعراً فجعل أيوب يخاطب جارية ولا يسمع له، فخرج وهو يقول الايات. وفي: ديوان المعاني 1 / 183

أَبْنَ السَّلَاسِلُ وَالْقَيْوُدُ  
 أَمْ لَيْسَ يَصْطَبِلُ الْحَدِيدُ  
 فَكَيْفَ يَدْرِي مَا يُرِيدُ  
 مِمَّا يُوَدُّ بِرَقْعَيْدُ  
 وَالْحُمُقُ مُقْتَبِلُ جَدِيدُ

طَرِيفاً وَلَا أَنْتَ بِالزَاهِدِ  
 وَلَيْسَ صَدِيقُكَ بِالْحَامِدِ  
 وَنَادَيْتُ هَلْ فِيكَ مِنْ زَائِدِ  
 يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ وَاحِدِ  
 كَفُورٍ لِنِعْمَائِهِ جَاحِدِ  
 فَحَلَّتْ بِهِ دَعْوَةُ الْوَالِدِ  
 مَخَافَةَ رَدِّكَ بِالشَّاهِدِ  
 وَحَلَّ السِّبْلَاءُ عَلَى النَّاqِدِ

كَانَ يَقُولُ لِلْمُسْلِمِ يَا كَافِرُ، وَلِلْبَرِّ الصَّالِحِ يَا فَاجِرُ، وَلِلشَّرِيفِ يَا وَضِيعُ، وَلِلْعَلَوِيِّ يَا دَعِي،  
 وَلِلخَيْرِ يَا رَدِي، وَيَتَمَحَلُّ بِالزُّورِ وَالبِهْتَانِ، وَيَسْعَى فِي ذَمِّ مَنْ يَقْصُدُهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ فَكَانَ  
 فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ.....<sup>(2)</sup> وَضَرَّرَ كَثِيرًا، فَلَمَّا عُرِفَ هَذَرُهُ وَكُشِفَ مَخْبِرُهُ عَلِمَ أَنَّهُ مَهْدَاؤُ وَمِكَتَارُ،  
 وَلَمْ يَكُنْ بِكَلَامِهِ اعْتِبَارًا، وَبَقِيَ كَثِيرًا غَيْرَ أَنَّهُ فِي آخِرِ العُمُرِ أُصِيبَ فِي لِسَانِهِ الَّذِي آذَى النَّاسَ  
 وَاعْتَقِلَ لِسَانُهُ مِنْ سَكَرَاتِ المَوْتِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا الكَاسُ، وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو القَاسِمِ بْنِ أَفْلَحَ لَمَّا  
 تَوَلَّى العِمَادَةَ بِيغْدَادَ: [الكامل]

فَلِ لِلْعَمِيدِ المُسْتَجِدِّ لَنَا  
 تَهَ كَيْفَ شِئْتَ عَلَى الزَّمَانِ وَمَا  
 عَيْنِي لِأُمِّ الشُّوْدِ وَالْهَبَلِ  
 أَحْبَبْتَ قَاصِنَعِ فَالِدُنَا دُوْلُ

(1) القطعة منسوبة إلى إبراهيم الصولي، في: ديوان المعاني / 1 / 183، وذكرها المرحوم حسين العلاق، الشعراء الكتاب

وَتَرَدُّ بَسَوْنَ الْكَبِيرِ مُجْتَهِدًا؟ هَلْ أَنْتَ إِلَّا ذَلِكَ الرَّجُلُ  
لَا تَحْسُنُ الْوَرَهَاءَ قَطُّ وَكُو؟ عَطَى عَلَيْهَا الْحَلِيَّ وَالْحُلُلُ

قال أنوشروان: وقد وقعت لي هذه الأبيات لائقة به: [الطويل]

إنساني أخلاقاً حسناً قبيحةً وَأَنْتَ لُرُومٌ لِلَّذِي أَنَا وَاصِفُ  
كُفُورٌ شُكُورٌ أَحْمَقٌ مُتَغافلٌ بَخِيلٌ سَخِيٌّ مُسْتَقِيمٌ مُخَالِفُ  
وَلَسْتَ بذي عُشٍّ وَلَسْتَ بِناصِحٍ وَإِنِّي لَفِي شَكٍّ بِشَأْنِكَ وَإِقْفُ  
تَلَوْنَتْ حَتَّى لَسْتُ أَدرِي مِنَ الْعَنَا أَرِيحُ رَكُودٌ أَنْتَ أَمْ أَنْتَ عَاصِفُ  
فَإِنْ كُنْتَ بَسْتَوْقاً فَمَا فِيكَ فِضَّةٌ وَإِنْ كُنْتَ مَغشوشاً فَإِنَّكَ زَانِفُ

وفي الجملة كان رجلاً لا يذكُرُ أحداً ولا يذكُرُه أحدٌ بخير، وقلتُ له يوماً مُتَمَثِّلاً عقيبَ  
مُناظرةِ جَرَّت في شعرِ لابنِ عروس: [الكامل]

سافر بطرفك هل تَرى لك مادحاً أَوْ شاكِراً أَوْ ذاكِراً أَوْ حامِداً  
كُن كَيْفَ شِئْتَ فَلَو كَسَاكَ بُرُودُهُ تَمُورٌ كُنْتَ فَتَى وَحَقَّكَ بَارِداً

هؤلاء صدورُ الديوانِ ومُقرَّبُو السلطانِ، وكانَ خَلصَ زَيْنُ الْمُلْكِ أَبُو سَعِيدِ بْنِ هِنْدُوا مِنْ  
الْحَبْسِ، وكانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ كانَ لَهُ صاحِبٌ عَنانُهُ وَقَالَ لَهُ نَقَذَ هَذَا الْمُلْحَدَ إِلَى السَّجَنِ  
وَأَمَرَ زَيْنُ الْمُلْكِ بِأَنْ تُضْرَبَ عَنقُهُ، فَإِنْ فَعَلَ وَقَتَلَ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُطْلَقَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ كانَ مِنْ  
القَوْمِ لَا يَقْتَلُهُ وَيَعْتَدِرُ عَنِ الأَمْرِ بِقَتْلِهِ وَلَا يُمَسِّكُهُ، وَزَيْنُ الْمُلْكِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ خائِفٌ  
عَلَى نَفْسِهِ مُضَيِّقٌ عَلَيْهِ فِي حَبْسِهِ، فَلَو دُفِعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ لِينالَهُ مِنْهُ المَكْرُوهُ فَراجا بِهِ فَراجاً لَسارَعَ  
إِلَيْهِ مُبْتَهِجاً، فَلَمَّا دُفِعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قَتَلَهُ وَكَادَ يَشْرِبُ دَمَهُ، وَاخْتارَ عَلَى وَجودِهِ عَدَمَهُ، فَصَحَّ  
الإِعْتقادُ فِي صِحَّةِ اِعْتقادِهِ، وَصَلَحَ أَمْرُهُ بَعْدَ فَسادِهِ، وَتَرَكَلَ فِي العَسْكَرِ بِغَيْرِ شُغْلٍ مُتَمَرِّغاً لِشُغْلِ  
الْقُلُوبِ مُتَبَلِّغاً بِمَا يَسْتَفِيدُ مِنَ البِلاغاتِ المُتَمَحَّلَةِ لِلْبِريءِ وَجِوهِ الذُّنُوبِ، فَكانَ يَنْقَلُ حَدِيثاً  
لَا أَصْلَ لَهُ، وَيُنَمِّقُهُ عِنْدَ السُّلطانِ حَتَّى يَقْتَلَهُ، وَداخَلَ صُدُورَ الدِّيانِ وَأَسْتَوَلَى عَلَى النُّمُوضِ  
وَالْمَكَانِ، وَكانَ خالِياً مِنْ أَدْنَى فِهْمٍ، جاهِلاً بِكُلِّ عِلْمٍ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنَّهُ سَلَّمَ إِلَيْهِ كِتابُ  
قَرارِ لِيَكْتَبَ فِيهِ حَظَّهُ بِما جَرى مِنْ قَرارِ الدِّيانِ فَكَتَبَ: كَذَا الإِسْتَقْرَ بِالْألفِ وَاللامِ وَكَتَبَ  
فُلانٌ بِنُ فُلانٍ<sup>(1)</sup>. [الكامل]

(1) تنسب الابيات لابي الحسن علي بن محمد بن منصور بن نصر بن بسام يهجو أسد بن جهور في: المسعودي، مروج

تَمَسَّ الزَّمَانُ لَقَدْ أَتَى بِعُجَابٍ      وَمَحَا صُنُوفَ الْعِلْمِ وَالْآدَابِ  
 وَأَتَى بِكُتَابٍ لَوْ انْطَلَقَتْ يَدِي      فِيهِمْ رَدَدْتُهُمْ إِلَى الْكُتَابِ

وكان الوزير ضياء الملك أبو نصر أحمد بن نظام الملك رجلاً سهلاً المِخْجَةَ صادقاً اللّهجة، لا يميل إلى الكذبِ وسَمَاعِهِ، ولا ينفقُ عليه ابتداءً رَوْجَهُ بِابْتِدَائِهِ، وكان إذا جلس في صدرِ وزارتهِ وأحدقَ الصُّدُورُ بِوَسَادَةِ سِيَادَتِهِ أَنَارَ دَسْتَهُ وَحَسَنَ سَمْتَهُ وَطَالَ صَمْتُهُ وَقَلَّ كَلَامُهُ وَعَدَمَ فِي الْخُطَابِ عِنْدَ الْخُطْبِ اقْتِحَامَهُ وَقَالَ كُلُّ مِنْهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا لَوْ كُنْتُ أَنَا مَكَانَهُ وَوَجِدْتُ إِمَكَانَهُ لَقُلْتُ كَذَا وَقَعَلْتُ كَذَا وَأَبَانَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ مِنَ السَّلَامَةِ وَالْأَدَى، وَسَلَقُوهُ بِالسِّنَةِ حِدَادًا، وَكَدَّرُوا وَرَدَهُ فِيمَا هُوَ قَانُونُ الْوِزَارَةِ مِنَ الْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِسْتِدَادِ، وَصَارَتْ هَيْبَتُهُ وَهَيْبَتُهُ عِنْدَ الْخَلْقِ مُخْلِقَةً، وَوَلَايَتُهُ مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْحَقِّ مَقْوِيَةٌ مُمْلِقَةً، وَأَصْبَحَ مُضَعَّجَةً لِلْأَفْوَاهِ وَبَيْبِي وَزَيْرًا سَاقِطَ الْحُرْمَةِ وَالْجَاهِ وَهُوَ يَسْلُكُ طَرِيقَ السَّلَامَةِ، وَيَتَنَكَّبُ نَهَجَ النَّدَامَةِ، وَيُمَسِّي أَمْرَهُ بِالسُّكُونِ وَالسُّكُوتِ، لَيْسَلَّمَ أَوْانَ عَزَلِهِ الْمُقَدُّورِ وَصَرَفِهِ الْمَوْقُوتِ، وَكَانَ مِنْ ذَابِهِ أَنْ يَرْكَبَ بَكَرَةً مِنْ مَنَزِلِهِ إِلَى الدَّرَكَاهِ وَيَجْلِسَ مَلِيًّا فِي الْبَارَكَاهِ، فَإِنْ وَجَدَ إِذْنًا فِي الدُّخُولِ وَالْحُضُورِ فِي الْخِدْمَةِ وَالْمُتَمَوْلِ وَصَلَّ وَمَثَلَ ثُمَّ حَدَّمَ وَأَنْفَضَلَ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ وَصُولًا رَجَعَ إِلَى دَارِهِ وَجَرَى عَلَى إِثَارِهِ، وَأَخْلَى سَاحَتَهُ لِرَاحَتِهِ وَاشْتَغَلَ بِإِمَاطَةِ تَعْبِهِ وَإِزَاحَتِهِ، فَإِذَا رَجَعَ مِنْ أَمْرِ يَقْضِيهِ وَحُكْمٍ يُمْضِيهِ قَالَ أَنَا لَا أَعْرِفُ فَالْمَرْجِعُ فِيهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَوَسَّلُوا بِهِمْ فِي مَرَاجِعَتِهِ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ وَقَلِيلَةٍ وَكَثِيرَةٍ حَتَّى صَجِرَ وَمَلَّ، وَضَاقَ ذَرْعُهُ بِمَا دَقَّ وَجَلَّ، وَكَانَ خَطِيرُ الْمَلِكِ أَيْضًا لِتَرْشِيحِهِ بِالْوِزَارَةِ يُنَدُّ بِالْوِزِيرِ وَيَقِفُ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى مَوَاضِعِ التَّقْصِيرِ وَيَضَعُهُمْ، حَتَّى عَرَفُوا السُّلْطَانَ عَجْزَهُ، وَأَكْثَرُوا هَمْزَهُ وَكَمَزَهُ، وَكَانَ زَيْنُ الْمَلِكِ بْنُ هِنْدُوا رَأْسَ الْجَمَاعَةِ وَرَتَيْسَهُمْ فِي قَصْدِهِ، وَجَعَلَ الْوَقِيعَةَ فِيهِمْ مِنْ وَكْدِهِ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ يَلِي مَكَانَهُ بَعْزَلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ مَقَامَهُ غَيْرُهُ فِي شُغْلِهِ، فَقَصَرَ سَاعَاتِهِ عَلَى سَعَايَاتِهِ وَبَلَّغَتْ فِي بَلَاغَاتِهِ عِنَايَاتِهِ إِلَى غَايَاتِهِ، وَكَانَ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى أَخْذِ مَنْصِبِهِ وَأَشَدَّهُمْ اِهْتِمَامًا بِطَلْبِهِ، وَدَوَّوْا الْأَمَالَ أَيْضًا قَدْ وَقَفَتْ أَمَالُهُمْ وَقَصَّرَتْ أَحْوَالُهُمْ وَضَعُفَتْ عَنِ إِهْمَالِ أُمُورِهِمْ صَبْرُهُمْ وَاحْتِمَالُهُمْ

الذهب (ط شارل بلا) 5 / 202، و: ابن خلكان، وفيات الاعيان 3 / 364، و: الصفدي، الغيث المنسجم في شرح لامية المعجم (ط 1290 هـ) 2 / 120، و: غرر الحُصَانِصِ الْوَاضِحَةِ (ط المُلِيجِي، الْقَاهِرَةُ) 137، وَنَسَبُهَا يَاقُوتُ الْحَمُوي لى أَبِي الْعِيْنَاءِ فِي هِجَاءِ أُسْدِ بْنِ جَوْهَرٍ، مَعْجَمِ الْاَدْبَاءِ 2612

وَحَارَ دَلِيلُهُمْ وَجَارَ سَبِيلُهُمْ، وَلَمَوَارِدِ الْأُمُورِ مَصَادِرُ، وَلَاوَائِلِ الْخُطُوبِ أَوَاخِرُ، وَلَايِي الْقَاسِمِ بْنِ أَفْلَحِ الْبَغْدَادِيِّ فِيهِ<sup>(1)</sup>: [السريع]

وَزِيرُنَا لَيْسَ لَهُ عَادَةٌ  
قَدْ جَعَلَ الْكَبِيرَ شِعْمَارًا لَهُ  
لَوْ سَلَّمَ السَّلْطَانَ مِنْ كَبْرِهِ  
كَأَنَّهُ مَا كَانَ مِنْ تَيْبِهِ  
قَدْ آيَسَ الطَّارِقُ مَنْ فَتَحَهَا

فَمَا أَفْلَحَ ابْنُ أَفْلَحَ فِي تَشْبِيهِهِ الْأَبْوَابِ الْمُغْلَقَةَ بِأَجْفَانِ الْعِمْيَانِ، تَعَسَّفَ نَظْمَ آيَاتِ عَرِيَّةٍ  
عَنْ الْمَعْنَى ثُمَّ لَمْ يَأْتِ بِالْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهَ بِهِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، فَوَقَعَ لِي آتِي نَظْمْتُ: [المجنت]

مَا فِي يَدَيْكَ رَجَاءٌ  
وَمَا لِبَابِكَ فَتْحٌ  
لِبُؤْسٍ مَا فِيهِ نُعْمَى  
كَأَنَّهُ جَفَنُ أَعْمَى

وَلَهُ فِيهِ<sup>(2)</sup>: [السريع]

شَكَرْتُ بِوَابِكَ إِذْ رَدَدَنِي  
لَأَنَّكَ قَلَّدَهُ مَنَّةً  
أَعَاذَنِي مِنْ تُبُحِ مَلَقَاكَ لِي  
فَعَدْتُ أَنْ ضَرَّجَ خَعْدِي لِمَنْ  
وَدَمَّهُ غَنِيْرِي عَلَى رَدِّهِ  
يَسْتَوْجِبُ الْإِغْرَاقَ فِي حَمَلِهِ  
وَكَبِيرِكَ الزَّائِدِ عَنْ حَدِّهِ  
مَاءَ الْحَيَا قَدْ غَاضَ مِنْ خَدِّهِ

وَلَهُ فِيهِ<sup>(3)</sup>: [المتقارب]

فَصَدْتُ لَزُومَ لِقَاءِ الْوَزِيرِ  
وَكُلُّ عَلَى الْبَابِ يَبْغِي الدَّخُولَ  
وَلَكَمْ أَعْلَمَ الْمُعْذِرُ فِي قَفْلِهِ  
فَصَحْتُ مُحَمَّدٌ أَلَا فَتَحَتْ  
وَمِنْ دُونَ فَتْحِي فَتُحِ الْوَجُوهِ  
وَقَدْ مَنَعَ الْإِذْنَ بِالْوَاوِحِدِ  
وَالْبَابُ كَالصَّخْرَةِ الْجَامِدَةِ  
فَكُنْتُ أَعْوُدُ عَلَى قَاعِدِهِ  
فَقَالَ الْوَزِيرُ عَلَى الْمَائِدَةِ  
فُئِدَ الرَّجُوعِ مِنَ الْفَائِدَةِ

(1) خريدة القصر. قسم العراق 2 / 67

(2) خريدة القصر. قسم العراق 2 / 67

(3) خريدة القصر. قسم العراق 2 / 66

وللأستاذ الموفق أبي طاهر الخاتوني<sup>(1)</sup> فيه: [المتقارب]

مَرَرْتُ عَلَى الشَّيْخِ عِنْدَ الْعَدَا      وَخُفَّ الْخِيَانُ بِأَخْوَانِهِ  
وَفِي خَدِّهِ كُتْمًا أَمَعْنُوا      مَنِ الْغَيْظِ أَلْوَانَ أَلْوَانِهِ

قَالَ: وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ تَنْزِيرُ ذِكْرِهِ وَتَصْغِيرُ قَدْرِهِ وَتَحْقِيقُ أَمْرِهِ، بَلْ ذُكِّرَتْ لَأَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ فَائِدَةٍ طَرِيفَةٍ وَنَكْتَةٍ لَطِيفَةٍ، وَوَفَدَ إِلَيْهِ الْقَاضِي زَيْنُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ الْأَرْجَانِيُّ فَرِيدُ عَصْرِهِ وَقَرِيعُ دَهْرِهِ وَنَسِيجُ وَحْدِهِ فِي نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ، وَأَقَامَ مُدَّةً مَدِيدَةً مِنْ أَيَّامِ وَزَارَتِهِ عَلَى بَابِهِ، فَلَمْ يَظْفَرْ مِنْهُ بِنَجْحِ أَرْبٍ مِنْ آرَائِهِ، وَكَانَ الْوَزِيرُ مَعْدُورًا فِي حَقِّهِ لِإِبْهَامِ سُبُلِ النِّجَاحِ وَطُرُقِهِ لِأَنَّهُ مَا يَرَى لَهُ رِيًّا فِي طَرِيقِهِ وَمَا قَدَرَ أَنْ يَعْتَرِفَ مِنْ بَحْرِ السُّلْطَانِ عَرَفَةَ لِدَرَقِهِ مَا فَرَضَ لَهُ الْوَزِيرُ مَا يَبْقَى بَعْرَضِهِ وَلَمْ يَقْنَعْ رَجَاءَ الْأَرْجَانِيِّ مِنَ الْوَزِيرِ بِالرِّضَا بِرَضَاتِهِ، وَلَمْ يَرْضَ التَّعَرُّضَ لِعَرْضَتِهِ، لِتَبَرُّأِ الذَّمَّةِ مِنْ ذَمِّهِ، وَحَوَى فِي شِكَايَةِ الْحَالِ عَلَى رَسْمِهِ، وَلَمْ يُصْرِّحْ بِاسْمِهِ، وَقَالَ<sup>(2)</sup>: [الكامل]

صَدَرَ الدَّعَاءُ وَمَا شَفَيْتُ ظِمَائِي      أَفَلَا يَخْبُورُ جِنَانُ هَذَا الْمَاءِ  
يَا مَاءَ هَا أَنَا مِنْ جَنَابِكَ رَاحِلٌ      فَلَقَدْ أَطَلْتُ وَلَنْ يَنْلِكَ رِشَائِي  
حَتَّى مَتَى صَدْرِي وَوَرْدِي وَاحِدٌ      وَإِلَامٌ أَشْكَو حَرْقَةَ الْأَحْشَاءِ  
مَنْ جَمَعَ قَطْرَ حَيَا أَرَاكَ مُصَوَّرًا      أَفَلَيْسَ يَوْجَدُ فَيْكَ قَطْرَ حَيَاءِ  
تَرَوِي أَخَانَهُلْ وَتَتَرَكُ صَادِيًا      أَغْدِيرُ رِيًّا أَمْ غَدِيرُ رِيَاءِ  
إِنِّي أَرَى يَا مَاءُ وَجْهَكَ صَافِيًا      لَكِنَّ نَفْسَكَ غَيْرُ ذَاتِ صَفَاءِ  
مَا الْفَضْلُ فَيْكَ لِشَارِبِيكَ بِمُعُوزِ      بَلْ لَيْسَ عِنْدَكَ حَرَمَةُ الْفَضْلَاءِ  
بَخْلَ الْغَمَامُ عَلَيْكَ بُخْلَكَ ظَالِمًا      وَجَفَا ذِرَاكَ كَمَا أَطَلْتَ جَفَائِي  
وَإِذَا الرِّبْعُ كَسَا الْبِلَادَ بِرَوْدُهُ      فَتَجَاوَزْتُكَ نَسَائِحُ الْأَنْوَاءِ

(1) أبو طاهر الخاتوني: [قال براون: من شعراء الفرس، عاش حوالي سنة 500 هـ، ويبدو أنه اتخذ لقبه من تخلصه باسم الخاتوني نسبة إلى زوجة السلطان المسماة (جوهر خاتون) لأنه كان ملحقاً بخدمتها، وذكر الراوندي في كتابه (راحة الصدور) أنه كان يتولى قيد الصيد الذي يصيده (ملكشاه)، وتنحصر شهرته في أنه ألف أقدم كتاب في تراجم شعراء الفرس، ومن سوء الحظ أن الكتاب مفقود. أدوارد براون. تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، مط السعادة، القاهرة 1954 م، 411 - 412.

(2) ديوان الارجاني 1 / 41 - 44.

فَبَقِيَتْ غَيْرَ مَدْبِجِ الْأَرْجَاءِ  
بِالْشَرْقِ وَالْغَرْبِ الْقَاصِيَّ نِدَائِي  
وَالْحَكْمُ عَقْلَةُ السِّنِّ الْعَقْلَاءِ<sup>(1)</sup>  
كَلِمَاءُ وَأَحْسَنُ فِي الْكِتَابِ لِرَائِي  
أَصْدَرَنَ عَنْكَ وَهَسَنَ غَيْرُ مِلَاءِ  
دَائِي الْقَرِيبُ مِنَ الْبَعِيدِ النَّائِي  
بَلْ مَا انْتَفَاعُكَ فِي اِكْتِسَابِ هِجَائِي  
تَحْدُو مَطَايَا الرِّكْبِ أَيَّ حِدَاءِ  
فِي الْعَصْرِ بَلْ أَنَا أَفْقَهُ الشُّعْرَاءِ  
بِالطَّبْعِ لَا مُتَكَلِّفُ الْإِلْقَاءِ  
لِلسَّمْعِ هَاجَ تَجَاوَبَ الْأَصْدَاءِ

وَإِذَا تَفَرَزْتَ الْمِيَاهُ بِخَضْرَا  
لَأَنَادِيَنَّ بِسُوءِ فَعْلِكَ مُسْمَعًا  
وَلَأَطْلُقَنَّ الشُّعْرَ مَنْ أَقْبِيَادِهِ  
وَلَأَنْظِمَنَّ أَرْقًا مِنْكَ لِسَامِعٍ  
وَلَأَمْلَأَنَّ الْأَرْضَ إِنْ مَزَاوِدِي  
وَلَأَخْبِرَنَّ النَّاسَ حَتَّى يَعْلَمَ الدَّ [م]  
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ كَتَبْتَ مَدَائِحِي  
مَنْ كُلُّ سَائِرَةٍ بِأَفْوَاهِ الْوَرَى  
أَنَا أَشْعَرُ الْفُقَهَاءِ غَيْرُ مَدَافِعِ  
شُعْرِي إِذَا مَا قَلْتُ بِرُويهِ الْوَرَى  
كَالصَّوْتِ فِي ظِلِّ الْجِبَالِ إِذَا عَلَا

ولقد صدق ذو المفاخر في قوله: [الكامل]

وَالشُّعْرُ مِنْهُ لُعَابُهُ وَلَجَاجُهُ  
وَلَقَدْ يَهْوُنُ عَلَى الْكَرِيمِ عِلَاجُهُ  
وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْوَزِيرِ كَيْفَ عَدِمَ تَوْفِيقَهُ، وَأَخْطَأَ تَصْوِيبَ رَجَاءِ الْأَرْجَانِيِّ فِيهِ وَتَصَدِيقَهُ، وَلَمْ  
يُطَلِّقْ لَهُ مِنْ قَيْدِ يَدِهِ رِفْدًا يُطَلِّقُهُ مِنْ قَيْدِ الْأَجْلِ، وَمَنْ لَمْ يَقْتَنِصِ الْحَمْدَ الْوَحْشِيَّ بِتَأْنِيْسٍ كَرَمِهِ صَيَّرَهُ  
بِمَحَلِّ الْعَذْرِ صَيْدَ الْعَدْلِ، وَكَانَ الْأَرْجَانِيُّ أَنْشَدَ الْوَزِيرَ قَصِيدَةً مِنْ جُمْلَةِ آيَاتِهَا<sup>(2)</sup>: [السريع]

وَالشَّاعِرُ الْمُنطَبِقُ أَسْوَدُ سَالِحٌ  
وَعَدَاوَةُ الشُّعْرَاءِ دَاءٌ مُعْضَلٌ

فَلَاخَ لِي أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ فَلَاحٌ  
فَمَا تَنَبَّهَ لِلْمَعْنَى، وَمَا عَرَفَ مَا كُنِّي، قَالَ أَنْوَشْرَوَانُ: وَكَتَبَ الْأَرْجَانِيُّ إِلَيَّ رَقْعَةً يَطْلُبُ  
خَيْمَةً فَأَنْفَذْتُ إِلَيْهِ مَائَةَ دِينَارٍ وَقَرَنْتَهَا بِاعْتِذَارٍ، فَقَالَ<sup>(3)</sup>: [المنسرح]

أَمَلْتُهُمْ ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ

رَدَّ لِي الْجُودَ بَعْدَ مَا ذَهَبَا  
فَجَادَ لِي مِلءَ خَيْمَةٍ ذَهَبَا

لِلْهِ دَرُّ ابْنِ خَالِدِ رَجُلًا  
سَأَلْتُهُ خَيْمَةً يَجُودُ بِهَا

(1) هذا البيت لم يذكر في الديوان المطبوع.

(2) ديوان الأرجاني 1 / 296

(3) ديوان الأرجاني 1 / 197

وَلَوْلَا هَذِهِ الصَّنْةَ لَبَيَّيْ أَكْثَرُ الْكِرْمِ النَّظَامِيِّ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ طَرِيًّا، وَكَدَامَتْ جِدَّتُهَا عَلَى  
الْجَدِيدِينَ وَلَمْ يُعَدِّ مِنْ جِدَّةٍ جَدُّ أَبِيهِ عَرِيًّا، وَلَأَبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُدَبِّرِ<sup>(1)</sup>: [الكامل]

لَهُ دَرَكٌ أَيُّمَا رَجُلٍ      يَبْنِي أَبُوكَ وَهَمُّكَ الْهَدْمُ  
لَوْ كُنْتَ تَرَقَى فِي الصَّعُودِ كَمَا      تَنْحَطُّ قَصْرُ دُونَكَ النَّجْمُ

وَوَقَعَ لِلْوَزِيرِ أَنَّ الْوِزَارَةَ تَخْلُو لَهُ حَلْبَتُهَا وَتَدْرُّ لَهُ حُلُوبُهَا، وَأَنْ تَخْلَصَ لِرَجْزِ مَدْحِهِ وَمَا  
لَهُ بَحْرٌ لَهُ عَجَاجٌ بِمَنْجِهِ رَوِيَّتْهَا، وَأَنَّهُ تُسْهَلُ عَلَيْهِ وَلَا يَلْقَى مَصَاعِبَ مَطَالِبِهَا صَعُوبُهَا، وَإِنْ  
سَعِدَتْ سِوَاهِ بِمَرَاتِهَا وَتَصَفَوْا لَهُ عَذُوبُهَا، فَأَرَادَ أَنْ تَحْلُو لَهُ مَنَحَهَا وَتَخْلُو مِنْ مَحْنِهَا وَيَضَعُ  
لَهُ سِنِّيَّهَا وَلَا يَصِحُّ لَهُ الْقِيَامُ بِسِنِّيَّهَا، وَأَنْ لَا يَقَعَ بِالرَّاحَةِ فِي تَعْبِهَا وَأَنْ يَأْمَنَ فِي مَنْصِبِهَا مِنْ  
نَصَبِهَا، وَظَنَّ أَنَّهُ إِذَا صَنَّ بِمَا افْتَنَى وَجَدَ الْمُنَى بِالْجِدِّ وَالْغِنَى، وَحَسَبَ أَنَّ الْوِزَارَةَ لِإِثْرَائِهِ لَا  
لِلْإِثْرَاءِ بِهِ، وَتَرَكَ وَرَاءَ رَأْيِهِ مَا يَتَمَخَّضُ لَهُ بَدْرُ الْجُودِ مِنْ زَيْدِ الشُّكْرِ وَرَائِبِهِ فَغَلَطَ فِي حِسَابِهِ  
وَحَرَّمَ صَوَّبَ صَوَابِهِ. [الخفيف]

تَشْتَهِي تَرِيكَ الرَّيَابِ وَتَخْشَى      قَوْلَ وَاشٍ وَتَشْقِي إِشْمَاعَهُ  
لَكَ مِنْ قَلْبِهَا مَحَلًّا شَرَابِ      تَشْتَهِي شَرِبَهُ وَتَخْشَى صُدَاعَهُ

وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ مَبَاشِرَتُهُ لِلْوِزَارَةِ صَائِبَةً وَكَانَتْ الْأَمَالُ فِي نُجُجِهِ خَائِبَةً لَمْ يَلَقْ مُدَّةً وَلَا يَتِيَّةً  
تَمَكِينًا، وَبَقِيَ بَعْدَ صَرْفِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً مَشْحُونًا، وَلَقِيَ أَضْعَافَ كِرَامِيَّتِهِ هَوَانًا، وَلَمْ يُصَادَفْ  
مِنْ زَمَانِهِ وَأَخْوَانِهِ إِلَّا خَوَانًا، وَفِيمَا يُحْكِي عَنِ نِظَامِ الْمُلْكِ أَنَّ بَعْضَ أَكْبَارِ خِرَاسَانَ يَمَنَّ عَرَسَ  
نِظَامِ الْمُلْكِ عِنْدَهُ الْإِحْسَانَ احْتَفَلَ لَهُ فِي مَنَزِلِهِ وَدَعَاهُ إِلَى ضِيَافَتِهِ فِي جَمْعِهِ وَخَوْلِهِ فَرَيْنَ  
وَحَسَنَ وَيَيْنَ، وَعَيْنَ وَرَتَبَ وَهَدَّبَ وَطَيَّبَ وَأَعَدَّبَ، وَحَلَى وَأَحَلَى وَمَلَأَ بِأَنْوَاعِ الطَّرَائِفِ  
وَأَصْنَافِ اللَّطَائِفِ الْمَلَأَ وَأَتَى بِكُلِّ مُمَكِّنٍ، وَأَحْسَنَ فِي تَحْصِيلِ كُلِّ مُحْسِنٍ، مُطْرَبَ وَمَغْنَنَ،  
وَدَبَّرَ ذَلِكَ وَفَقَّ مُنِيَّةَ كُلِّ مَتَمَّنٍّ، وَهَيَّا لِلْوَزِيرِ دَسَاتُ فِي دَارِهِ يُعْجَبُ بِهَيْجِهِ، وَيَأْخُذُ النَّاطِرَ نَاضِرُ  
نَضَارِهِ وَنَسِيْجِهِ، وَيَفْرُحُ فِي أَرْجَاءِ النَّدِيِّ بِالنَّدَى وَالطَّيْبِ أَرْجِيْجِهِ، وَخَلَبَ خُلْبَ الْحَاضِرِينَ  
تَوْشِيَّتَهُ وَتَوْشِعَهُ وَتَدْبِيْجِهِ، وَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ حُضُورُ نِظَامِ الْمُلْكِ فَشَرَعُوا فِي اللَّهْوِ شَغْلًا لِلْوَقْتِ،  
فَقَامَ أَحَدُ الْمَتَطَرِّفِينَ بِالنَّجَائِنِ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الدَّسْتِ فَتَعَاوَرَتْهُ أَيْدِي الْأَجْمَاعِ وَالسُّنْتُهُمُ

(1) إبراهيم بن المدبر: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر، وزير من الكتاب الشعراء، من أهل بغداد، تولى مناصب جليلة، واستوزره الخليفة المعتد العباسي، توفي ببغداد سنة 279 هـ وهو يتقلد ديوان الضياع للمعتضد.

بالشتم والضرب، وَتَنَاوَلُوا رِجْلَهُ بِالْجَرِّ وَالسَّحْبِ، وَأَشْبَعُوهُ لِكَمَا وَلَطَمًا، وَأَوْسَعُوهُ سَبًّا وَشْتَمًا، وَعَدَدُوا اسْتِنَادَهُ إِلَى مُسْتَنَدِ الْوَزِيرِ الْعَظِيمِ وَرِزًّا عَظِيمًا، وَأَحْلَوْا بِهِ لِأَلْمَامِيهِ بِذَلِكَ الْمَحَلِّ الْخَطِيرِ خَطْرًا كَبِيرًا وَعَذَابًا أَلِيمًا، فَدَخَلَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَلَقِيَ ذَلِكَ الْمَسْكِينُ لَقَى فِي تِلْكَ الصِّفَةِ عَلَى تِلْكَ الصُّفَةِ، فَانْكَرَ تِلْكَ الْحَالَةَ السَّعِيدَةَ مِنَ الصَّنْعَةِ وَأَشْكَلَ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْمَعْرِفَةِ فَنَادَاهُ الرَّجُلُ يَا نِظَامَ الْمَلِكِ اسْتَخِيرْ وَاعْتَبِرْ بِحَالَتِي وَاسْتَعِيرْ، أَنَا جَلَسْتُ فِي هَذَا الدَّسْتِ سَاعَةً فَجَرَى عَلَيَّ مَا جَرَى وَأَنْتَ جَالِسٌ فِيهِ عُمْرَكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى. [السريع]

لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ وَأَحْدَانَهُ      مِنْ بَعْدِ يَحْيَى<sup>(1)</sup> وَيَسْنِي يَحْيَى  
حَطَّهْمُ الدَّهْرُ عَلَى قَدْرِ مَا      أَعْطَاهُمْ مِنْ رُتَبِ الدُّنْيَا  
وَلَاخِرَ: [الطويل]

فَلَا تَنْبِظَنَّ الْمُسْرِفِينَ فَإِنَّهُ      عَلَى قَدْرِ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ  
إِذَا مَا كَسَاكَ اللَّهُ سَرِيالَ صِحَّةٍ      وَلَمْ تَحُلْ مِنْ قُوَّةِ تَطْيِبٍ وَتَعَذُّبٍ  
وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ صَدُورِ أَيَّامِ وَزَارَتِهِ فَكَانَ الْخَطِيرُ صَاحِبَ دِيْوَانِ الْاسْتِيفَاءِ وَالْمُخْتَصِّصِ  
صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنشَاءِ ثُمَّ عَزَلَ بِالْأَمِيرِ الْعَمِيدِ مُحَمَّدِ الْجُوزْقَانِي، وَهَمَّ مُخْتَلِطَةً أَهْوَاؤُهُمْ  
مُخْتَلِفَةً أَرَاؤُهُمْ، مُخْتَلِفَةً أَعْرَاضَهُمْ، مُخْتَلِفَةً أَعْرَاضَهُمْ، لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَعَى وَلِكُلِّ مَسْعَى، وَلِكُلِّ  
مَصِيفٍ فِي غَيْرِ أَقْرَبِ صَاحِبِهِ وَمَشْتَى إِنْ سَعَيْكُمْ لَسْتَى. [الخفيف]

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلًا      عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ<sup>(2)</sup>  
هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ      وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ  
كَانَ مَوْلِدُ الْوَزِيرِ بَلْخِ وَمَرْبَاهُ أَصْفَهَانَ، وَالْمُسْتَوْفِي مِنْ يَزْدِ، وَالطُّغْرَائِيَانِ مِنْ قَاشَانَ  
وَجُوزْقَانَ، وَبَيْنَهُمْ بَوْنٌ بَعِيدٌ وَمَا فِيهِمْ مَنْ لَهُ رَأْيٌ سَدِيدٌ، وَكَانَ خَيْرُهُمُ الْمُخْتَصِّصُ وَالْخَطِيرُ وَمَا  
فِيهِمَا إِلَّا مَجْهُولٌ مَا لَهُ بَيْتٌ أَتَيْلٌ وَلَا أَصْلٌ أَثِيرٌ، وَهَذَا هُنَا<sup>(3)</sup> لِي أَنْوَشِرَوَانَ وَسَعٍ فِي أَعْرَاضِ  
الْأَكَابِرِ وَتَقْيِيسُ صِحَّةِ الْأَكَارِمِ بِأَمْرَاضِهِ. [الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذَا قَمٍ مُرٌّ مَرِيضٍ      يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالًا<sup>(4)</sup>

(1) يحيى المذكور في البيت هو يحيى بن خالد البرمكي الذي نكبه واهل بيته هارون الرشيد

(2) ديوان عمر بن أبي ربيعة، وقف على طبعه وتصحيحه: بشير يموت، المكتبة الاهلية، بيروت، 1934 م، 229

(3) فراغ في الأصل المخطوط.

(4) شرح ديوان المتنبي، عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980 م، 3 / 344

فَإِنَّ مُخْتَصَّ الْمَلِكِ أَبَا نَصْرِ رَحْمَهُ اللَّهُ كَانَ مِنْ أَوْسَعِ الصُّدُورِ صَدْرًا وَأَعَدَّهُمْ قَرِينًا، فَأَمَّا بَيْتُهُ فَهَوَ بَقَاشَانٌ مَعْرُوفٌ لَا مَجْهُولٌ، وَهَوَ بِالْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ وَالْقَبُولِ وَالْإِقْبَالِ مَاهُولٌ، وَمِنْ مُكْرَمَاتِهِ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَوَزَّرَهُ السُّلْطَانُ سَنَجَرَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَزَادَتْ جَلَالَةُ السُّلْطَانَةِ بِجَلَالَةِ قَدْرِهِ شَرَعٌ فِي رَدِّ الْمَظَالِمِ، وَكَانَ قَدْ أَثْبَتَ مَا أُهْدِيَ لَهُ وَارْتَفَقَ بِهِ فِي أَعْمَالِهِ فَتَّبَعَ جَمِيعَ ذَلِكَ وَأَخْرَجَهُ مِنْ مَالِهِ، حَتَّى أَنْفَذَ إِلَى جَنْزَةِ مَنْ سَأَلَ عَنْ وَرَثَةِ قَوْمٍ دَرَجُوا فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ أَسْلَافِهِمْ، وَأَخَذَ كَتَبَ السُّلْطَانِ بِرِعَايَتِهِمْ وَاحْتِرَامِهِمْ وَإِنصَافِهِمْ، فَإِنَّهُ كَانَ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ بِجَنْزَةِ عِنْدَ مَقَامِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ بِهَا فِي حَيَاةِ أَبِيهِ، فَبَدَأَ بِأَوَّلِ بَلَدَةٍ مِنْ بِلَادِ تَوَلَّيَهُ فَمَنْ وَسِعَ مَالَهُ لِرَدِّ كُلِّ مَا كَسَبَ فِي شُغْلِهِ، كَيْفَ يُقَالُ هُوَ مَجْهُولٌ فِي أَصْلِهِ، وَفَتَكَ بِهِ الْبَاطِنِيَّةُ فِي وَزَارَةِ سَنَجَرَ بَعْدَ مَدَّةٍ مَدِيدَةٍ مِنَ الدَّهْرِ فَكَيْفَ يُطَعَنُ فِي دِينِهِ، وَكَيْفَ يَنْسَبُ أَنْوَشُرَوَانُ إِلَى ذَلِكَ الْمَذْهَبِ وَقَدْ قُتِلَ بِسَكِينِهِ، وَقَدْ كَانَ الْمُخْتَصَّ صَدِيقَ عَمِّي وَالوَالِدِي فَلَمْ أَرِ الْجَمُودَ عَلَى تَعْرِيبِ سَبِّهِ، وَأَتَخَيْتُ لَهُ فَأَعْرَبْتُ عَنِ افْتِرَاءِ الطَّاعِنِ عَلَيْهِ وَكِذْبِهِ.

قَالَ أَنْوَشُرَوَانُ: وَتُوفِيَ الْأَمِيرُ السَّيِّدُ أَبُو هَاشِمٍ الْحَسَنِيُّ رَيْسُ هَمْدَانَ فُنُقِلَ مِنْ خَزَانَتِهِ إِلَى خَزَانَةِ السُّلْطَانِ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ آذَاهُ بِمِلْغُ مَاتَيْنِ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَمَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي حَالِ بَيْتِهِ، وَقَامَ حَيَّةً بِتَأْنِيْلٍ مَجْدٍ مَبِيَّتِهِ، وَزَادَ تَقْرِيْبُ السُّلْطَانِ لُوَلْدِهِ وَقَوَى يَدَهُ عَلَى رِئَاسَةِ بَلَدِهِ.

وظَهَرَتْ مَخَايِلُ عَصِيَانِ مَلِكِ الْعَرَبِ صَدَقَةَ بِنِ مَنْصُورِ بِنِ دُبَيْسِ بِنِ عَلِيِّ بِنِ مَزِيدِ الْأَسَدِيِّ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسِمِائَةٍ فَتَغَيَّرَ رَأْيُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ فِيهِ وَتَغَيَّبَ وَحَسَنَ بِأَسْهُ عَلَيْهِ، وَغَلِظَ وَجَرَ إِلَيْهِ عَسْكَرُهُ وَكَدَرَ عَلَيْهِ مَوْرَدُهُ وَمَصْدَرُهُ، وَحَجَبَ بِالْمَجْرِ الْمَجْرُورِ أَرْضَهُ وَبِالنَّقْعِ الْمُثَارِ سَمَاءَهُ، وَاللَّهَبِ نَارَ الظُّبَى مِنْهُ فِي مَاءِ الطَّلَى، فَأَخَمَدَ نَارَهُ وَأَرَأَقَ مَاءَهُ وَحَمَلَ عَلَى صَدَقَةٍ وَصَدَقَةُ الْحَمَلَةِ، وَأَكْرَمَ لَهُ فِي الْمُلتَقَى الْقَبْلَةِ، وَلَمَّا قُتِلَ اسْتَضَافَ السُّلْطَانُ مَمْلَكَتَهُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَاسْتَخْلَصَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنْ وِلَايَتِهِ، فَابْتَهَجَتِ الدَّوْلَةُ بِالْمَلِكِ الْمُسْتَضَافِ وَالنَّصْرِ الْمُسْتَضَافِ، وَعَادَ الْبَيْتُ الْمَزِيدِيُّ لَا يُطِيقُ مَنَهْضًا فِي النَّجَاحِ بِالنَّجَاحِ الْمُنْهَاضِ، وَحِيزَ إِقْلِيمُهُ بِقَلَمِ الْحِيَازَةِ الدِّيَوَانِيَّةِ، وَتَصَرَّفَ فِيهِ كِتَابُ الدَّوْلَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَمَزَقُوا بِالتَّبْذِيرِ تِلْكَ الْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ، وَخَرَّبُوا بِسُوءِ التَّبْذِيرِ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الْجَلِيلَةَ، وَتَوَلَّوْا إِقْطَاعَاتِهَا وَأَقْطَعُوا وِلَايَاتِهَا، وَخَلَطُوا وَأَخْبَطُوا وَقَبَضُوا بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَبَسَطُوا وَتَقَلَّوْا وَخَفَضُوا وَضَاعَفُوا وَأَضَعَفُوا وَوَطَّفُوا وَنَظَّفُوا وَاقْتَسَمُوا بِالْجَنَابِيَّةِ، وَاشْتَرَكُوا وَأَخَذُوا وَمَا تَرَكَوْا وَصَّيَعُوا أَكْثَرَ مَا حَفَظُوا، وَرَقَدُوا أَكْثَرَ

ما استيقظوا، وَالْهَمَّةُ السُّلْطَانِيَّةُ مُتَعَالِيَةٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِتِلْكَ الْأَوْضَاعِ، غَيْرُ مُنْطَلَعَةٍ إِلَى مَا تَمَّ مِنْ ضِيَاعٍ حَاصِلٍ تِلْكَ الْمُدُنِ وَالضِّيَاعِ، وَقَدَحَ الْعِرَاقِيُونَ فِي الدَّرَكَاهِ وَكُتَّابِهِ وَمُجَازِ فِيهِمْ فِي ضَبْطِ حَسَابِهِ وَتَعْمِيرِ جِهَاتِ الْمَالِ وَتَعْفِيَةِ آثَارِهِ وَتَوْرِيَةِ أَبْوَابِهِ، وَبَتَّ التَّسْلُطُ عَلَى عُمَّالِ السُّلْطَانِ ثَابِتِ بْنِ سُلْطَانَ الْأَسَدِيِّ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ وَرَفَعَ وَأَرَخَ أَصُولَ الْوَقَائِعِ وَقَرَعَ وَكَشَفَ الْأَعْمَالَ وَصَمَّنَهَا وَأَبْدَى مُتَمَكَّنَهَا، فَقَالَ الْمُرْجَانُ بْنُ بَنَاهُ خَالَ مُهَذَّبِ الدَّوْلَةِ بْنِ أَبِي الْجَبْرِ أَمِيرِ الْبَطِيحَةِ فِي ذَلِكَ<sup>(1)</sup>: [الطويل]

لَقَدْ سَنَّ لِلْسُّلْطَانِ ثَابِتُ سُنَّةٌ  
مُؤَافِقَةٌ النَّظَارِ وَالْكَشْفِ عَنْهُمْ  
فَقَدْ كَثُرَ الْإِقْطَاعُ حَتَّى أَظْنَهُ  
ثَلَاثُونَ أَلْفًا لِلْبِشِيرِيِّ وَحَدَّهُ  
وَعِشْرُونَ أَلْفًا أَقْطَعَتْ نَرْجِسِيَّةٌ  
فَلَا يَأْمُنُ السُّلْطَانُ زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو  
وَلَوْ كَانَ مِمَّا لَا يَصِحُّ لَهُ الْعِشْرُ  
سَيُقْطَعُ كَلْبٌ فِي الْجَزِيرَةِ أَوْ هِرٌّ  
فَدَعَّ عَنْكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ لَهُ ذِكْرُ  
كَثِيرٌ لَهَا أَلْفٌ وَلَوْ أَنَّهَا بَعْرُ

البشيرية والنجسية بطنان من الأكراد بحلة ابن مزيد وقد أقطعوا أكثر مما يستحقونه

فَلَوْ لَا سَفَاهُ الرَّأْيِ كَانَ عَلَيْهِمْ  
وَمَا كَانَ أَسْيَاكِيلُ يَرْكَبُ خَلْفَهُ  
وَيَرْكَبُ سَلَاةً أَخْوَهُ بِزَهْوِهِ  
وَرُمْحَانٍ مَدْهُونَانَ يَخْفَقُ فَوْقَهَا  
وَأَصْبَحَتْ لَا أُدْرِي إِذَا مَا رَأَيْتُهُ  
سَلَامٌ عَلَى مَالِ الْعِرَاقِ فَإِنَّهُ  
فَشَطَّرَ لِاتِّرَاكٍ وَمِنْ دُونِهَا النَّهْرُ  
وَشَطَّرَ لِكِتَابٍ وَمَا فِيهِمْ صَدْرُ  
وَشَطَّرَ لَصَبِيَّانِ يَتَامَى وَنَسْوَةٌ  
وَتَسْمُونَ أَلْفًا أَقْطَعَتْ مَغْرِبِيَّةٌ  
مِنْ الْغَنَمِ الْأَعْشَارُ وَالصَّوْفُ وَالشَّعْرُ  
جِيَادُ الْبِرَازِدِينَ الْبِشِيرِيَّةِ الْحَمْرُ  
وَمِنْ خَلْفِهِ فَهْدٌ وَقُدَامُهُ صَقْرُ  
عُقَابَانِ مَكْتُوبٌ عَلَى وَجْهِهَا نَصْرُ  
لَقَدْ جَنَّ أَسْيَاكِيلُ أَمْ خَرِفَ الدَّهْرُ  
مَضَى حَيْثُ لَا نَفْعَ هُنَاكَ وَلَا ضُرَّ  
وَشَطَّرَ لِأَكْرَادٍ وَمِنْ شَأْنِهَا الْغَدْرُ  
وَشَطَّرَ لِحُجَابٍ وَمَا بِهِمْ فَخْرُ  
أَيَامِي وَمَا فِي بَرٍّ أَكْثَرِهِمْ أَجْرُ  
جِيَادُ لِيُورَ أَمْنِينَ قَاطِعَةٌ صَفْرُ

(1) تنظر: خريدة القصر، قسم العراق مج 2 / ج 2 / 532 - 546، مصطفى جواد. (جاوان القبيلة الكردية المنسية) في: مجلة المجمع العلمي العراقي 4 (1956) 1 / 100، علي جواد الطاهر. الشعر العربي في العراق وبلاد العجم 337 - 338، عبد الله عبدالرحيم السوداني. الشعر العربي في ظل الامارة المزيديّة. ط جامعة بابل، 1999، 121 - 122.

هُمَا كَرْدُ أَحَدُهُمَا وَرَامُ بِنِ بَافِرَاسِ وَالْآخِرُ وَرَامُ بِنِ بَانَصِرِ

فَوْرَامُ مِنْ وَرَامٍ خَيْرٌ سَجِيَّةً  
وَلَيْسَ سِوَاءَ أَبَافِرَاسٍ وَبَانَصِرِ  
حَمَارَانِ صَوَانَانِ قَرْدٌ وَأَفْقَمٌ  
وَأَعْمَى لَهُ عَيْنٌ وَلَيْسَ لَهُ شَفْرُ  
وَفِي هَيْتَ وَالْأَنْبَارِ لِلنَّاسِ عِبْرَةٌ  
إِذَا أَبْصَرُوا يُمْنًا كَمَا انْكَشَفَ الْبَدْرُ  
كَأَنَّ عُرَابًا فَوْقَ أَعْوَادِ سَرَجِهِ  
لَكَ الْخَيْرُ إِنْ لَاقَيْتَهُ وَلَهُ الشَّرُّ  
كَأَنَّ عَلَيْهِ حُلَّةً مِنْ إِهَابِهِ  
وَقَدْ طَلَيْتَ بِالْقَارِ أَوْ مَسَّهَا الْجَبْرُ

هَذَا يُمْنٌ هُوَ أَمِيرُ الْجِيُوشِ وَتَوَلَّى إِمَارَةَ الْحَاجِّ إِلَى أَنْ تَوَفَّى وَكَانَ جَلِيلَ الْمَقْدَارِ جَمِيلَ  
الْأَثَارِ، وَهُوَ مَقْطَعُ هَيْتِ وَالْأَنْبَارِ، وَكَانَ خَادِمًا حَبَشِيًّا خَيْرًا سَرِيًّا، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَّةَ  
حَرَّسَهَا اللَّهُ اشْتَرَى نَيْفًا وَسَبْعِينَ رَقِيقًا وَأَعْتَقَهُمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اشْتَرَى فِيهِ شُكْرًا لِلَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ أَيَادِيهِ.

وَمِنْ تَمَامِ شَعْرِ ابْنِ بَتَّاهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا اسْتِشْعَارُهُ بِالْعِرَاقِ لِهَجْرِهِ وَخَوْفِهِ مِمَّنْ يَدْمُهُ  
وَيَشْكُوهُ وَهِيَ:

إِذَا مَا عَبَرْتُ النَّهْرَ يَوْمًا وَأَصْبَحْتَ  
تَخُبُّ بِي الْخَيْلُ الْمُحَجَّلَةَ الْغُرَّ  
فَأَدْنَى بِلَادِ اللَّهِ مِنْهَا وَإِنْ نَأَتْ  
وَأَكْثَرُهَا عَدْلًا وَأَمْنُهَا مِصْرُ  
هِنَالِكَ لَا أَحْشَى عَظِيمًا هَجْوَتُهُ  
وَتُكْتَمُ أَشْعَارِي كَمَا يُكْتَمُ السَّرُّ  
وَيَقْنَعُنِي أَنْ لَا أَرَى مِنْ أَخَافُهُ  
بِمِصْرٍ عَلَى نَفْسِي وَأَنْ يَظْهَرَ الشَّمْرُ

وَلَوْ أَنَّ مَقَالِيدَ الْأُمُورِ سُلِّمَتْ إِلَى ذَوِي الْمَعْرِفَةِ وَالذَّرَائِعِ وَأَهْلِ الْخُبْرَةِ وَالْكَفَايَةِ لَكَانَ ظَلُّ  
الْإِمَامِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْخِيَانَةِ سَابِغًا، وَكَانَ قَلْبُ السُّلْطَانِ مِنْ شُغْلِ الدِّيْوَانِ وَأَرْبَابِيهِ فَارِعًا، وَكَانَ  
مَشْرَبَ الْمَلِكِ لِوَارِدِهِ سَاتِعًا، وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ لِسَانٍ بِالْقَدْحِ فِيهِ وَالْغَاءُ، وَكَيْفَ يَجُوزُ لِلنَّظَارَةِ عَلَى  
الْأَطْرَافِ الْقَدْحُ فِي صُدُورِ الْمَمْلَكَةِ الْأَشْرَافِ، وَإِنَّمَا رَفَعَ السُّلْطَانُ لِلدِّيْوَانِ الْوَضِيعَ فَاتَّضَعَ،  
وَلَوْ اخْتَارَ الرَّفِيعَ لَارْتَفَعَ، وَقَدْ كَثُرَ عَجَبِي مِنَ السُّلْطَانِ يَتَأْتَقُ فِي تَخْيِيرِ كِلَابِ الصَّيْدِ وَفَهْوِيهِ  
وَإِنَّمَا يَنْتَقِي مِنْهَا مَا يَرَاهُ مُوَافِقًا لِمَقْصُودِهِ، فَيَسْأَلُ عَنْ فُرُوعِهِ وَأُصُولِهِ وَانْقِطَاعِهِ وَوُصُولِهِ،  
وَتَبَاتِيهِ فِي وَتَبَاتِيهِ وَعَدَوَاتِهِ فِي عَدَاوَتِهِ، وَنَشَاطِيهِ فِي الْإِدْرَاكِ وَاحْتِيَاطِيهِ فِي الْإِمْسَاكِ، فَلَا يَقْتَنِي  
إِلَّا كُلُّ فَهَيْدٍ قَانِصٍ وَكُلُّ كَلْبٍ خَالِصٍ، وَكُلُّ جَارِحٍ جَارِحٍ وَكُلُّ فَارِهِ قَارِحٍ، وَكُلُّ ذِي مِخْلَبٍ  
كَأَنْفِ الْمَجْدَعِ وَكُلُّ قَطَامِيٍّ بَعِيدِ الْمَطْرَحِ وَكُلُّ بَازِيٍّ شَدِيدِ الْمَطْمَحِ فَمَا بَالُهُ لَا يَتَخَيَّرُ لِدِّيْوَانِيهِ

وَمَرَاتِبِ سُلْطَانِيهِ مِنَ الْكِفَاةِ الْأَفْضَلِ وَالصَّدُورِ الْأَمَائِلِ مَنْ عَرَفَهُ ذَاكَ وَعَرَفَهُ زَاكٍ وَعَرَفَهُ كَرِيمٌ وَمَجْدُهُ قَدِيمٌ وَنَهْجُهُ فِي الْفَضْلِ قَوْنِمٌ وَطَرِيقُهُ فِي الْكِفَاةِ مُسْتَقِيمٌ، لَقَدْ كَانَ هُوَ لِأَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ وَأَجْدَرَ بِالِاخْتِبَارِ، فَإِنَّهُمْ أَمْنَاؤُهُ فِي إِيفَاءِ حَقِّ نَعْمَتِهِ وَأَوْلِيَاؤُهُ وَنَاصِرُوهُ فِي حَبِّ نُصْرَتِهِ وَوِلَايَتِهِ.

### وزارة خطير الملك أبي منصور محمد بن أحمد الميبدي رحمه الله

قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (كُلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَقْلِ إِلَّا الدَّوْلَةَ)، وَكَانَ قَدْ عَرَفَ الْخَلْقُ أَنَّهُ مُعَدَّمٌ مِنْ كُلِّ آلَةٍ وَأَدَاةٍ، غَيْرَ لَاتِقٍ بِرِعَايَةِ يَرَاعِيهِ وَلَا لِإِتْقَانِ دَوَاةٍ، حِمَارٌ رَامِحٌ جَانِحٌ جَامِحٌ عَضُوضٌ رَفُوسٌ حَرُونٌ شَمُوسٌ، مَعْدَنٌ لِلْعُشِّ وَالِدَّغْلِ، مَنِيحٌ لِلْمَكْرِ وَالْحَيْلِ، إِذَا أَرَادَ الْاسْتِعَانَةَ بِشَخْصٍ فِي نَفْعٍ بِهِ مُخْتَصٍ قَرَبَهُ وَقَارَبَهُ وَجَذَبَهُ وَجَادَبَهُ وَدَاعَبَهُ وَلَاعَبَهُ، وَضَحِكَ لَهُ مُتَكَلِّفًا وَأَضْحَكَهُ مُتَلَطِّفًا، وَحَادَثَهُ مُتَطَرِّفًا وَبَاحَثَهُ مُتَطَرِّفًا، وَأَنَسَهُ بِنَفْسِهِ وَنَافَسَهُ فِي أَنَسِهِ، وَنَاوَلَهُ يَدَهُ لِتَمْيِيزِهِ وَأَخَذَ يَدَهُ لِتَغْمِيزِهِ، حَتَّى إِذَا خَلَبَ خَلْبَهُ وَقَلَبَ قَلْبَهُ وَسَلَبَ لَبَّهُ أَسَرَ إِلَيْهِ بِسَرِّهِ فَأَمَرَهُ بِأَمْرِهِ وَأَجَالَهُ فِي مَكْرٍ مَكْرِهِ، وَشَادَبَهُ رُكْنَ نُكْرِهِ، فَأَذَا فَرَعَ مِنْ شَغْلِهِ وَوَضَعَ بِالسَّعْيِ نُجْحَهُ فِي مَحَلِّهِ أَنْكَرَ مَعْرِفَتَهُ وَجَهَلَ صِفَتَهُ، فَأَذَا رَأَى عَبَسَ وَبَسَرَ وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَتَنَمَّرَ وَتَنَكَرَ وَنَعَرَ وَكَشَرَ وَتَصَجَّرَ لِرُؤْيَتِهِ وَتَبَرَّمَ بِمُشَاهَدَتِهِ وَصَعَّرَ خَدَّهُ وَصَغَّرَ مِنْهُ جَدَّهُ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ وَبَدَخَ بِعَنْفِهِ وَشَزَرَ بِطَرْفِهِ وَتَأَى بِعَظْفِهِ. وَأُورِدَ آيَاتًا بِالْفَارَسِيَّةِ عَرَبْتُ بَعْضَ مَعْنَاهَا وَزِدْتُ فِيهِ: [الطويل]

لَنَا صَاحِبٌ إِنْ عَنَّ شَرٌّ لِفِكْرِهِ      تَسْرَعُ أَوْ إِنْ عَنَّ خَيْرٌ تَوَقَّفَا  
يَهْشُ لِفِعْلِ ابْنِ الْحَرَامِ بِطَبْعِهِ      وَإِنْ شِيمَ فَعَلَ ابْنِ الْحَلَالِ تَكَلَّفَا

وَكَانَ قَدْ وَزَرَ مَرَّةً أَوْلَى وَعَرَفُوا أَنَّ يَدَهُ فِي الْقَصُورِ طُولِي لَكِنَّهُ تَوَسَّلَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لِعَوْدِهِ إِلَى الْوِزَارَةِ بِجَنْسِ تَوَصُّلِ ابْنِ جَهْمِيرٍ فِي الْوَصْلَةِ إِلَى نِظَامِ الْمَلِكِ بَابَتِيهِ، وَهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ وَصْلَةٌ شَرِيعَةٌ وَلَكِنْ تَمَّ لَهُ الْأَمْرُ بِمِثْلِ وَسِيلَتِيهِ، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ ابْنُ الْهَبَارِيَّةِ فِي وَزَارَةِ ابْنِ جَهْمِيرِ:

[البيط]

قُلْ لِلْوِزِيرِ وَلَا تُفْرِعْكَ هَيْبَتُهُ      وَإِنْ تَعَاظَمَ وَاسْتَعَلَى بِمَنْصَبِهِ  
لَوْلَا ابْنَةُ الشَّيْخِ<sup>(1)</sup> مَا اسْتُوزِرْتَ ثَانِيَةً      فَاشْكُرْ جِرًّا صِرْتَ مَوْلَانَا الْوِزِيرُ بِهِ

(1) وابنة الشيخ المذكورة هنا هي صفية ابنة الوزير نظام الملك زوجة الوزير ابن جهير.

وَكَانَ رَجُلًا وَسِيمًا جَسِيمًا مِلءَ التَّابُوتِ، وَعَقْلُهُ أَوْهَنُ مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فَإِذَا اسْتَنْدَ إِلَى  
مُسْنِدِهِ فِي الدِّيْوَانِ اعْتَمَدَ أَنْهَمَا مُسْنَدَانِ مَحْشَوَانِ: [الوافر]

وَزِيْرٌ غَاصَ فِي شَحْمٍ وَكَحْمٍ      وَلَمْ يُنْسَبِ إِلَى عَقْلِ وَفَهْمٍ  
إِذَا لَبَسَ الْبِيَاضَ فَعَدَلُ قُطْنٍ      وَإِنْ لَبَسَ السَّوَادَ فَتَلُّ فَحْمٍ  
وَكَانَتْ عِلْمَتُهُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنِيعِ) وَكَانَتْ لَهُ فِي الْجَهْلِ نَوَادِرُ وَشَوَارِدُ وَبَوَادِرُ وَبَوَارِدُ،  
وَمَنْ جُمِلَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَوْمًا بِبَغْدَادَ رَاكِبًا فِي زِيٍّ خَشِنٍ وَمَوْكِبٍ خَشِنٍ وَجَمَعَ جَمًّا وَبُهْمٍ  
وَدُهْمٍ، وَجَلَّالَ الدِّينِ عَمِيْدُ الدَّوْلَةِ أَبُو عَلِيٍّ بِنُ صَدَقَةَ الَّذِي وَزَرَ لِلْمُسْتَرَشِدِ مُسَايِرَةً وَالْحُجْنَْدُ قَدْ  
عَدَّتْ بِرَوَايَةٍ وَوَلَايَتِهِ أَشْمَاعَهُ وَنَوَاطِرَهُ، فَالْتَقَتْ الْخَطِيْرُ الْوَزِيْرُ فَقَالَ: قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيَّ مَسْأَلَةٌ  
لَا بَدَّ مِنْ إِشْكَالِهَا وَإِنْشَاطِ قَلْبِي مِنْ عِقَالِهَا، هَذِهِ اللُّوَاطَةُ سُنَّةٌ قَدِيْمَةٌ سَبَقَ إِلَيْهَا الْقَدَمَاءُ أَوْ رَسَمٌ  
مُسْتَجَدٌّ أَحَدُهُ السَّفَهَاءُ؟ فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: هَذَا رَسَمٌ قَدِيمٌ لِقَوْمِ لُوطٍ، فَقَالَ الْخَطِيْرُ: وَمَنْ كَانَ  
لُوطٌ؟ فَقَالُوا: نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ. قَالَ: فَتَمَنَّى كَانَ؟ قَبْلَ نَبِيْنَا أَمْ بَعْدَهُ؟ قَالُوا لَهُ: كَانَ نَبِيْنَا صَلَوَاتُ  
اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ وَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ. قَالَ: فَمَا الَّذِي قَالَ فِيهِ؟ قَالُوا  
لَهُ: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْمِ لُوطٍ [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ] بَلْ أَنْتُمْ  
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ<sup>(1)</sup> فَقَالَ: مَا مَعْنَى تَجْهَلُونَ؟ وَكَانَ عَجْمِيًّا لَا يَعْرِفُ كَلِمَةً عَرَبِيَّةً، فَقَالُوا لَهُ: أَيْ  
لَا تَعْلَمُونَ، فَقَالَ: هَذَا حَسْبُ، فَالْأَمْرُ إِذَا سَهَّلَ وَعُدْرُ فَاعِلِهِ أَنَّهُ ذُو جَهْلِ، وَأَنَا كُنْتُ اعْتَقَدْتُ أَنَّهُ  
أَعْظَمُ وَزَرًا وَأَفْظَعُ أَمْرًا. فَانظُرْ إِلَى جِهَالِيَّةِ وَضَلَالِيَّةِ وَبِرَازِيَّةِ فِي وَزَارِيَّةِ، وَكَانَ مِهْدَارًا مَكْتَارًا،  
لَا يَسْتُرُ شَوَارًا، وَلَا يَخْذُرُ عَثَارًا، وَلَا يُحْسِنُ جَوَارًا، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقُوطُهُ، وَمَنْ لَمْ  
يَتَحَفَّظْ فِيمَا يَقُولُهُ زَادَ غَلْطُهُ وَكَلَعَطُهُ.

وَقَالَ فَيْثَاغُورَسُ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: حَسَاسَةُ الْإِنْسَانِ تُعْرَفُ بِشَيْئَيْنِ، بَأَن يَكُونَ كَلَامُهُ فِيمَا لَا  
يُسْتَفْعُ بِهِ وَأَن يُخْبِرَ بِمَا لَا يُسْأَلُ عَنْهُ، وَأَنْشَدَ: [الكامل]

إِنْ كَانَ مَنْطِقُ نَاطِقٍ مِنْ فَضَّةٍ      فَالْصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ الْبِاقُوتُ  
وَيَقِي نِيْفًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عَمْرِهِ مُتَوَحِّدًا فِي مَرَاتِعِهِ بِسَمَاعِ الْمَثَلِ وَالْمَثَانِي، مُتَفَرِّدًا  
فِي مَعَانِيهِ بِنَغْمَاتِ الْعَوَانِي فِي الْأَغَانِي، قَدْ اتَّخَذَ الْمَلَادَ مَلَاذًا، وَكَمْ يَتَّخِذُ لِلْمَعَادِ مَعَادًا، وَكَمْ

يَزَلْ إِلَى اللَّهِ مُصْنِغاً وَلِلْجَدِّ مُلْغِياً، وَلِلْمُجُونِ طَرُوباً وَلِلزَّرْجُونِ شَرُوباً، وَلِلْأَنَاشِيدِ الضَّالَّةِ  
الْمُضِلَّةِ نَاشِداً وَفِي طَرِيقِ الْغَيِّْ وَالْبَطَالَةِ رَاشِداً، يَسْتَهْزِهُ الطَّرْبُ وَالْبَطْرُ، وَيَسْتَهْزِئُ بِهِ الْوَطَنُ  
وَالْوَطَرُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَقِيمُ مِصْرَاعاً، وَلَا يُسَوِّي فِي مَرَكَبِ شَرَعِ الْإِحْسَانِ شَرَاعاً، هُذِهِ  
غَايَتُهُ فِي غَوَايَتِهِ وَحَالَتُهُ فِي بَطَالَتِهِ وَدَلَالَتُهُ فِي دَوْلَتِهِ، لَا يَحْفَظُ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ  
فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ، وَلَا يَقْرَأُ قِصَصَ الْمَلْهُوفِينَ، وَلَا يُوقِرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ حِصَصَ الْمَعْرُوفِينَ،  
وَلَا يُجْرِي إِدْرَاراً وَلَا يَدْرُجُ جَارِياً، وَلَا يَرْجُو الرِّحْمَانَ وَلَا يَرْحَمُ رَاجِياً، وَلَا يَكْشِفُ ضَيْقاً وَلَا  
يُسَعِّفُ مُضِيقاً، وَلَا يَجْرِي قَلْمُهُ بِإِزَالَةِ أَذْيَةٍ وَلَا بِقَضِيَّةٍ رَضِيَّةٍ. [الكامل]

أَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي<sup>(1)</sup>

وَلَمَنْجِيكَ الشَّاعِرُ بِالْفَارِسِيَّةِ عَرَّبْتُ مَعْنَاهُ وَزَدْتُ عَلَيْهِ نَيْتاً آخَرَ: [السريع]

لَنَا صَدِيقٌ زَائِدٌ شَحْمُهُ      كَالثُّورِ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ الرُّتُوعِ  
سَمْنُهُ الْأَكْلُ فَلَا يَنْحَنِي      حِينَ يُصَلِّي ظَهْرُهُ لِلرُّكُوعِ  
وَزَدْتُهُ فِي وَزْنٍ أَخْفَ فَقُلْتُ: [المجنت]

لَنَا صَدِيقٌ لَحِيمٌ      كَالثُّورِ يَهْوَى الرُّتُوعَا  
جَافٌ مِنَ الشَّحْمِ صَلَّى      فَمَا اسْتَطَاعَ رُكُوعَا  
وَلِلْأَسْتَاذِ أَبِي طَاهِرِ الْخَاتُونِيِّ فِيهِ<sup>(2)</sup>: [السريع]

لَنَا وَزِيرٌ بِشْرُهُ بَارِقٌ      يَشِيئُهُ الْمُسْتَأْنَسِ الْخَائِبُ  
يَكْذِبُ بِالطَّبَعِ بِلَا كَلْفَةٍ      وَأَنْتَ مَا الطَّبَعُ هُوَ الْغَالِبُ  
فَوَعْدُهُ فِي لَيْلِ آمَالِنَا      صُبْحٌ وَلَكِنْ صُبْحٌ كَاذِبُ

وَلَهُ فِيهِ<sup>(3)</sup>: [السريع]

سَلَّمَ إِلَهُ إِلَى مَالِكٍ      إِنْ مَاتَ أَوْ عَاشَ فَلَا سَلَّمَ  
أَقْلَامُهُ حَازَتْ أَقَالِمَنَا

(1) هذا عجز بيت قاله الخطيئة من قصيدة في هجاء الزبيرقان بن بدر، وصدرة: (دع المكارم لا ترحل لبغيتها)

(2) خريدة القصر، قسم بلاد المعجم 3 / 87

(3) خريدة القصر، قسم شعراء المعجم 3 / 87

قَدْ صُفِّرَ الْكَذَّابُ مِنْ قَبْلِهِ      فَلَا تُصَفِّرْهُ وَقُلْ مَسَلَمَهُ  
يَسْحَبُ فِي قَمَرَاءٍ تَخْبِيْطُهُ      بِاللَّيْلِ حَبْلَ الْأَمَالِ بِالشُّوْلَمَهُ  
لَا دَرُّ دَرُّ النَّبِيسِ لَا دَرَّةٌ      مِنْ عَالِمٍ بِالْجَهْلِ مَا أَعْلَمَهُ  
وَلَهُ فِي الْوَزِيرِ وَصَدُورِ الدِّيَوَانِ بِالْفَارَسِيَّةِ مَا عَرَّبْتُهُ نَظْمًا وَقُلْتُ: [المتقارب]

أَمَا فِيهِمْ مُسَلِّمٌ وَاحِدٌ      إِلَى الصَّدَقِ مِنْ دُونِهِمْ يَنْجَذِبُ  
كَأَنَّهُمْ صَدَّقُوا مُجْمَعِينَ      مُسَيْلَمَةً فِي ادِّعَاءِ الْكَذِبِ  
وَقَدْ كَانَ الْوَزِيرُ مَوْصُوفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعْرُوفًا بِهَذِهِ الْأَدْوَاتِ، وَمَا كَفَاهُ ذَلِكَ حَتَّى اسْتَبَابَ  
ابْنَ الْكَافِي الْأَصْفَهَانِيَّ النَّاقِصَ الْمُلقَّبَ بِالْكَامِلِ الطَّوِيلُ بغيرِ طَائِلٍ، اللَّثِيمَ الَّذِي كَانَ لَهُ عِنْدَ  
الْكَرَامِ طَوَائِلٌ، طَنَازٌ غَمَازٌ هَمَازٌ تَمَازٌ، فَكَانَ مِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ كَوْنُهُ نَائِبَ الصَّدْرِ يَمُتُّ بِأَنَّ اخْتَهُ  
تَحَتَ الْوَزِيرِ، وَهُوَ بِذَلِكَ بِالْغُ الْقُدْرَةِ وَالْقَدْرِ. [الطويل]

فَمَنْ يَكُ أَرْعَاهُ الْحَمَى أَخْوَاتُهُ      فَمَا لِي مِنْ أُخْتِ عَوَانٍ وَلَا بِكْرِ  
وَكَمَلِ الْخَطِيرِ بِالْكَامِلِ وَتَدَلَّتْ بِهِ حِسْبَةُ الرِّذَائِلِ، وَلَا يَبِي فِرَاسِ بْنِ حَمْدَانَ<sup>(1)</sup>: [مُخْلَعٌ  
الْبَسِيطُ]

قَدْ كَانَ بَدْرَ السَّمَاءِ حُسْنًا      وَالنَّاسُ فِي حُبِّهِ سَوَاءُ  
فَزَادَهُ رَبُّهُ عَذَارًا      تَمَّ بِهِ الْحُسْنُ وَالْبَهَاءُ  
لَا تَعَجَّبُوا رَبُّنَا قَدِيرٌ      يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

مُورَّجَةٌ جُمْلٌ مَحْنَةٍ مِنْ حَجَّةٍ شُعْلٍ فِتْنَةٍ، عَالٍ عِلْمٌ نَارِهِ، حَارٍ قَلَمٌ اضْطِرَارِهِ، لَا يُوسَى كُلُّمٌ  
كَلَامِهِ، وَلَا يُرْجَى النَّهَاءُ النَّهَامِهِ، وَلَهُ مَعَ طُولِ الْقَامَةِ قَصْرُ الْهِمَّةِ، خَالِي الْوَفَاضِ مِنَ الْحَمْدِ  
عَلَى أَنَّهُ بِالذَّمِّ مَلِيءٌ الذَّمَّةُ، وَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ ابْنُ الْهَبَّارِيَّةِ فِيهِمْ مِنْ آيَاتٍ فِي ذَمِّ أَصْفَهَانَ<sup>(2)</sup>:

[الكمال]

(1) ديوان أبي فراس الحمداني، رواية ابن خالويه، دار صادر بيروت، 1961 م، 10، وأبو فراس هو: الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي، الأمير الشاعر الفارس، وهو ابن عم سيف الدولة الحمداني، ولد سنة 320 هـ، وشهد وقائع كثيرة قاتل بها بين يدي سيف الدولة، وكان سيف الدولة يُجبه ويُجمله ويقدمه على سائر قومه، وقلده منبجاً وحران وأعمالها، جرح في معركة مع الروم فأسروه سنة 351 هـ، وبقي في الأسر سنوات، ثم فداه سيف الدولة بأموال عظيمة، قتل سنة 357 هـ. وله ديوان مطبوع.

(2) خريدة القصر. قسم العراق 2 / 107

بَكَدُ أَبُو الْفَتْحِ اللَّثِيمِ عَمِيدُهُ      وَالْقَاسِمُ بْنُ الْفَضْلِ قَبِيلَ رَئِيسُهُ  
وَطَرِيفُهُ الْكَافِي الطَّوِيلُ وَشَيْخُهُ      مَعَ أَنَّهُ دَنَسُ الْمَحَلِّ خَسِيئُهُ  
وَابْنُ الْخَطِيبِيِّ الصَّغِيرِ مَحِلُّهُ      قَاضٍ وَجُرُؤُ الْمَنْدَوِيِّ جَلِيلُهُ

فَاتَّفَقَ جَمِيعُهُمْ عَلَى الْوَقِيعَةِ فِي زَيْنِ الْمَلِكِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ هِنْدُوا حَتَّى بَلَّغُوا فِي مَكْرُوهِهِ مَا وَدُّوا وَلَقَّفُوا لَهُ قَبَائِحَ وَاخْتَلَقُوا لَهُ فُضَائِحَ، وَأَظْهَرُوا مِيعَارَ مَعَارِيهِ، وَبَاحُوا بِسُرِّ سِرَائِرِهِ، وَحَمَلُوا السُّلْطَانَ عَلَى أَخْذِهِ بِجَرَائِرِهِ، وَأَجَالُوا خَيْلَ التَّخْيِيلِ مِنْهُ فِي مِضْمَارِ ضَمَانِيهِ، فَأَذَلَّ ذَلِكَ الصَّدْرَ مَعَ عَزِّهِ وَصَادَرَهُ وَأَخَذَ دُورَهُ وَأَمْلَاكَهُ وَمَالَهُ سَائِزَةً وَإِنَّمَا تَمَشَى لَهُمُ السَّعْيُ فِيهِ بِمَا كَثُرُوا عِنْدَ السُّلْطَانِ مِنْ ثُرُوتِهِ، وَقَالُوا إِنَّا نَنْقُلُ مَائَتِي أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى الْخِزَانَةِ مِنْ خِزَانَتِهِ وَأَمَرَ السُّلْطَانَ بِأَخْذِهِ وَتَسْلِيمِهِ إِلَى التُّونَاسِ وَأَوْقَعَهُ فِي مِخْلَبِ ذَلِكَ الْبَطَّاشِ، فَحَمَلَهُ مِنْ أَصْفَهَانَ مُوَاصِلًا إِلَيْهِ الْإِسَاءَةَ وَوَصَلَ بِهِ إِلَى مَدِينَةِ سَاوَةَ وَصَلَبَهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي شَارِعِهَا وَمَشَرَّعُ الْمَنُونِ لَا بُدَّ أَنْ يَصْدَرَ إِلَيْهِ وَارِدُ مَشَارِبِ الْحَيَاةِ وَمَشَارِعِهَا<sup>(1)</sup>: [الكامل]

أَمِنَ الْمَنُونُ وَرَبَّهَا تَوَجَّعُ      وَالْدَهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ  
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا      أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فَلَمَّا قَبِلَ تَصَرَّفُوا فِي مَالِهِ وَتَدَيَّنُوا بِاسْتِحْلَالِهِ وَأَنَسُوا السُّلْطَانَ الْمَائَتِي أَلْفَ دِينَارٍ وَأَنَسُوا عَنْهُ حَمَلَ ذَلِكَ الْقَدْرَ، وَتَحَكَّمَ ابْنُ الْكَافِي فِي ذَلِكَ الْأَمَالِ وَاسْتَوْعَبَهُ الْكَامِلُ عَلَى الْكَمَالِ فَادَّخَرَ بَعْضًا، وَأَسْخَطَ بَكْتَرِهِ سَمَاءً وَأَرْضَى أَرْضًا، فَاسْتَبَدَّ بِهِ دُونَ السُّلْطَانِ الْقَوِيِّ وَالذَّرِيَّةِ الضُّعَافِ وَأَخْلَى عَنْهُ قَبْضَتِي الظُّلْمِ وَالْإِنْصَافِ وَعَدَمَ الْمُلْكَ زَيْنَهُ، وَأَسَخَنَ هَوْلَاءَ الْأَعْيَانِ عَيْنَهُ، وَكَانَتْ لِرَازِيَنِ الْمُلْكِ سَلْعَةٌ كَبِيرَةٌ نَازِلَةٌ مِنْ خَلْفِهِ مُشَوَّهَةٌ لِخَلْقِهِ، وَتَحْتَاجُ إِلَى مِخْدَةٍ تَحْتَهَا لِيَتَنَاسَبَ شَكْلُهُ فِي النَّظَرِ، وَتَتَوَارَى سَلْعَتُهُ مِنْ مَرَأَى الْبَصْرِ، وَكَانَ يَتَمَتُّ بِعِمَامَةٍ عَرِيضَةٍ فِي مَلَائِهَا سَالِمَةٍ مِنْ انْتِكَائِهَا، وَأَكْثَرَ شِعْرَاءَ الْعَجَمِ فِي وَصْفِ عِمَامَتِهِ الْمُتَبَطِّحَةِ وَسَلَعَتِهِ الْمُسْتَطْحَةِ، فَنَظَّمُوا أَيْبَاتًا سَخِيفَةً وَضَمَّنُوهَا مَعَانِيَّ ضَعِيفَةً، فَاسْتَحَمَلْتُهَا فَمَا اسْتَمَلَحْتُهَا وَاسْتَحَشْتُهَا فَمَا اسْتَحَسْتُهَا، فَمَا وَجَدْتُ نَكْتَةً فَأَعْرَبْتُهَا، وَلَا اسْتَبَعَدْتُ فَائِدَةً فَأَقْرَبْتُهَا، وَمِنْ

(1) البيتان لأبي ذؤيب الهذلي من قصيدة قالها في رثاء أبنائه، ديوان الهذليين 1 / 5، وكان المطلع كما يلي:

ولكل جنب مصرع  
والدهر ليس بمعتب من يجزع  
وصححناه اعتماداً على رواية الديوان ط دار الكتب المصرية.

جُمْلَةً ذَلِكَ رِبَاعِيَةٌ ذَكَرُوهَا فِي الشَّمَامَةِ بِمَوْتِهِ فَجَمَعُوا فِي مَصَارِعِهَا الْأَرْبَعِ بَيْنَ الْعُنَاصِرِ  
الْأَرْبَعَةِ فَاسْتَبَحَّتْهَا وَاسْتَشْنَعَتْهَا وَاسْتَبَشَعَتْهَا، وَنَظَّمْتُ فِي مَرْتَبَةِ صَدِيقٍ مَا اشْتَمَلَ بَيْتٌ وَاحِدٌ  
عَلَى الْأَرْبَعَةِ الْعُنَاصِرِ. [المتقارب]

لَهْفِي عَلَى مَنْ كَانَ صُبْحِي وَجْهَهُ      فَعَدِمْتُ حِينَ عَدَمْتُهُ أَنْوَارَهُ  
سَكَنَ التَّرَابَ وَغَاضَ مَاءَ حَيَاتِهِ      قَدْ أَطْفَأَتْ رِيحُ الْمَنِيِّ نَارَهُ  
وَكَانَ زَيْنُ الْمُلْكِ لِتَهْوَرِهِ قَدْ وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى رَاحَتِهِ، وَهُوَ يُنَادِي مَنْ يَأْخُذُهُ رَاغِبًا عَنِ تَعْبِهِ  
بِهِ فِي رَاحَتِهِ، وَكَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُذَكَّرَ فِي الْمُتَهَوِّرِينَ، أَوْ يَحْظَى مِنَ الْقَتْلِ بِخَاتِمَةِ الْمُتَصَدِّقِينَ،  
فَكَانَ مِثْلَهُ مِثْلَ رَجُلٍ كَلَّمَا رَأَى قَوْمًا مُكْتَفِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَسَادِ مُقَوِّدِينَ فِي الْأَقْيَادِ دَخَلَ بَيْنَهُمْ  
وَتَكْتَفَ وَمَشَى فِيهِمْ وَتَأَسَّفَ وَتَلَهَّفَ وَأَرَى النَّاسَ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَقَدْ ابْتُلِيَ عَلَيْهِ أَلْفَ ابْتِلَاءٍ وَأَنَّهُ  
يُقْتَلُ إِنْ قُتِلُوا فَيَطْلُبُ مِنَ النَّظَارَةِ الدُّعَاءَ وَيُكْثِرُ الضَّرَاعَةَ وَالِاسْتِجْدَاءَ وَالْبَكَاءَ. قَالَ يَعْقُوبُ بْنُ  
دَاوُدَ<sup>(1)</sup>: [يُحْفَظُ الْأَحْمَقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسَهُ]. [الوافر]

وَكَمِ مِنْ قَائِلِ إِنِّي صَحِيحٌ      وَتَأْبَاهُ الْخَلَانِقُ وَالرَّوَاءُ  
وَأُعِيدُ فِي وَزَارَةِ الْخَطِيرِ دِيوَانُ الْاسْتِيفَاءِ إِلَى مُعِينِ الدِّينِ مُخْتَصِّصِ الْمُلْكِ فَتَوَلَّى بَعْدَ الْعَزْلِ  
وَتَمَكَّنَ مِنَ الشُّغْلِ، وَتَخَلَّى عَطْلَهُ وَتَجَلَّى بِهِ عَمَلَهُ، وَعَبَّثَ بِهِمْ أَبُو طَاهِرِ الْخَاتُونِي فِي آيَاتِ  
فَارِسِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ ثَلَاثًا مِنْهَا وَقَلْتُ: [مَجْزُوءُ الْوَافِر]

صَدُورٌ مَا بِهِمُ لِلْمُلْمِ [م]      كِ إِيرَادُ وَإِصْدَارُ  
خَفَافٌ لَوْنَقَخْتُهُمْ      وَهُمُ فِي دَسْتِهِمْ طَارُوا  
رَأَيْتُهُمْ كَمَا كَانُوا      وَأَعْرَفْتُهُمْ كَمَا صَارُوا

وَكَانَ الْأَسْتَاذُ أَبُو طَاهِرِ الْخَاتُونِي مِنْ صُدُورِ الدَّوْلَةِ وَأَعْيَانِ الْمَمْلَكَةِ وَأَفَاضِلِ الْعَصْرِ  
وَأَمَائِلِ الدَّهْرِ، ذَا فَصَاحَةٍ وَحَصَافَةٍ وَلَطَافَةٍ وَظَرَفَةٍ وَصَنَاعَةٍ فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ وَصِيَاعَةٍ وَبِرَاعَةٍ

(1) أبو عبد الله، يعقوب بن داود بن عمر السلمى بالولاء، كاتب من أكابر الوزراء، كان يكتب لابراهيم بن بن عبد  
الله بن الحسن المثنى، وحين خرج اراهيم على المنصور بالبصرة وقتله المنصور سجن يعقوب، حتى أطلق بعد وفاة  
المنصور فتقرب من المهدي وعلت منزلته عنده وتقدم فغلب على الأمور كلها، ومدحه الشعراء وتنابت وشايات  
الحاسدين له عند المهدي وذكروا له صلته الأولى بالعلويين، فطلب منه أن يرثيه من أحد العلويين فارسل إليه  
يعقوب أحد رجاله مجلده، وأوعز اليه بالرحيل والاختفاء، وعرف المهدي بتدييره فسجنه في المطبق وصادر أمواله  
حتى ولي الرشيد فرد عليه أمواله وقد كف بصره واختار الإقامة بمكة وبها مات سنة 187 هـ.

في الأدبِ وَالْكِتَابَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَكَانَ مَعْسُورَ الْفُكَاهَةِ مَقْبُولَ الرَّجَاهَةِ، حَلَوَ النَّادِرَةِ حَسَنَ الْبَادِرَةِ، مَوْمُوقَ الشَّمَائِلِ مَرْمُوقَ الْفَضَائِلِ، جَامِعاً لِأَدْوَابِ خِدْمَةِ الْمُلُوكِ، خَبِيرًا فِي مَنَاجِحِ الْمَنَاجِحِ بِالسُّلُوكِ، قَدْ قَلَّبَ الْأُمُورَ ظَهْرًا لِبَطْنِ، وَجَرَّبَ الْحَالِيْنَ مِنْ قُوَّةِ وَوَهْنِ، وَكَمْ يَزَلْ مُدَّ نَشَأً وَإِلَى آخِرِ عَمْرِهِ صَدْرًا كَبِيرًا، وَمُشَارًا إِلَى صَوْبِهِ وَبِالصُّوَابِ مُشِيرًا، وَمَا زَالَ لِخَاتُونِ مُسْتَوْفِيَا، وَدِيوَانِ السُّلْطَانِ بِكِفَايَتِهِ مُكْتَفِيَا، فَلَمَّا تَوَلَّى هُوَ لِإِعْرَافِ نَقْصَانِهِمْ عِنْدَ فَضْلِهِ، وَأَنْخِفَاصِ مَحَلِّهِمْ فِي الْبِرَاغَةِ بَارْتِفَاعِ مَحَلِّهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُغْضِي عَنْ عَيْبِهِمْ عَيْنَهُ، وَلَا يَقْضِي إِلَّا مِنْ عُرُوضِ عَرَضِهِمْ إِنْ قَارَضُوهُ وَعَارَضُوهُ دَيْنَهُ، فَتَحَيَّلُوا مِنْ تَرْنِيقِهِ وَانْتِقَادِهِ، وَتَحَيَّلُوا بِكُلِّ طَرِيقٍ بَعْدَ تَقْرِيْبِهِ فِي إِعْبَادِهِ، وَكَمْ يَقْدُرُوا عَلَى اعْتِقَالِهِ لِصِحَّةِ عَقْدِهِ وَاعْتِقَادِهِ، فَتَمَحَّلُوا لَهُ مِنْ جُرْجَانِ شُغْلًا وَعَدُوَّةٍ لَهُ أَهْلًا، وَأَكْرَهَ عَلَى ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ، وَلَبَسُوا فِي تَوْجِيهِهِ صَفَافَةَ الْوَجُوهِ، وَجَرَّ إِلَى جُرْجَانِ جَرَّ جَانِ، وَنُقِلَ مِنْ أَعَزِّ مَكَانِهِ إِلَى أَدَلِّ مَكَانِ، فَوَدَّعَ الْوَزِيرَ حِينَ أَوْدَعَهُ الْوَزْرُ، وَاسْتَقَلَّ لِلْسَّفَرِ الَّذِي عَلَيْهِ اسْتَقَرَّ، وَوَصَفَ تَوْدِيْعَهُ الْوَزِيرَ فِي آيَاتِ مَطْبُوعَةٍ وَكُنَتْ بِالْعَجْمِيَّةِ مَصْنُوعَةٌ وَجَّهْتُ مَعْنَاهَا بِالْتَعْرِيْبِ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيْبِ: [الوافر]

خَرَجْتُ مُوَدَّعًا لِلصَّدْرِ أَبْغِي الْمَفَازَةَ مِنْهُ فِي قَطْعِ الْمَفَازَةِ  
وَسَيِّمْتُ الْوَزِيرَ وَخَلْتُ أَتِي مُصَابًا رَامَ تَشْيِيعِ الْجَنَازَةِ  
وَشَكَا فِي آيَاتِ عَجْمِيَّةِ إِعْجَامِ خَطِّهِ وَإِنْهَامِهِ وَإِقَالَالِ قَلْمِهِ وَإِعْدَامِهِ، وَقَرَّبْتُ مَعْنَاهَا فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ: [المتقارب]

لِمَرْتَبَةِ الْكَلْبِ فِي عَصْرِنَا عَلَى رُتَبَةِ نَحْنُ فِيهَا شَرَفٌ  
وَمَا عَادَ ذُو قَلَمٍ مُفْلِحًا فَإِنَّ الْفَلَاحَ لِطَبْلِ وَدُفٍ  
وَكَانَ مَعِينُ الدَّوْلَةِ الْمُخْتَصُّ قَدْ شَامَ جَفَنَهُ لِلشَّعْرِ فِيهِ فِعَادَ كَأَنَّهُ شَكْلٌ مُثَلَّثٌ فِي عَيْنِ رَائِيهِ،  
فَقَالَ فِيهِ الْمَوْفِقُ الْخَاتُونِي بَيْتًا بِالْفَارْسِيَّةِ مُشْتَمَلًا عَلَى مَعْنَى بَدِيعٍ، وَهُوَ أَنَّهُ يَنْظُرُ مِنْ مُثَلَّثِ  
عَيْنِيهِ إِلَى النَّاسِ نَظَرَ تَرْبِيعٍ. [الوافر]

لِصَدْرِ الصَّدْرِ ضَيْقٌ فِي اتِّسَاعٍ وَيَسْطَمَعُ فِي كِمَالٍ مِنْ قُصُورٍ  
عَلَى التَّثْلِيثِ نَاطِرُهُ وَلَكِنْ مِنَ التَّرْبِيعِ يَنْظُرُ فِي الْأُمُورِ  
وَمَا زَالَ الْوَزِيرُ يُصْفِي فِيهِ إِلَى السَّعَادَةِ وَيُسِيمُ فِي مَرَعِي سَمِعِهِ سَرَحَ الْوُشَاةِ وَنَسَبُوا إِلَيْهِ  
التَّقْصِيرَ وَالتَّخْلِيْطَ وَالْإِفْرَاطَ وَالتَّفْرِيطَ، وَأَحَالَ الْوَزِيرُ عَلَيْهِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَانْتَهَزَ فِي أَمْرِهِ

الفرصة وأخذ في استدعائه من جرجان الرخصة، فاستحضره وشدّد في إرهابه، واستصغى ماله فعاد ذلك بإملاقه، وأحوجتُه الأحوالُ عليه إلى الاستقراض، وانضاف اشتغال ذمّيه إلى الإنقاض، وكانت للأستاذ الموقّ أبي طاهر الخاتوني معرفةً بالكمال السُميرمي وبينهما صداقة صادقة، ومودةٌ صالحةٌ من كأس الصفاء غابقة، وهذا الكمال السُميرمي سيأتي ذكره عند ديوان الاشراف إليه في الأيام المُحمّديّة، وعند استقلاله بالوزارة في الأيام المَحموديّة، ولقد كان من أوسع الصدورِ صدراً وأرفعهم قدراً، وأحسبهم تدبيراً وأجملهم تأثيراً، وأنوشروان ألمّ بدمه، وجرى في تقبيح ذكره على رَسْمِهِ، وكان الكمال يُلقَّب حينئذٍ بعزّ الدين وهو في منصب مشهور، وعلى مذهب في السّماح مشكور، فلَمَّا أملتُ الموقّ وسدّ اليأس على الرجاء منه الرتاج واجتاح الظلم ثروته فأحتاج وكادت نفسه لتفصّ الهموم عليه يقضي عليها غيظها بفيضها، وكتب إلى الكمال السُميرمي آياتاً يطلب فيها مروحةً في حرّ بغداد وقبظها وذكّر فيها حقوق خدمته وعقوق خطوته، وشكا حاله وهجا الوزير وأشكاه في آيات يسيرة لم يتأتّ تعريبها ولَمَّا يأنس بخاطري غريبها، فأعربتُ معناها تسجاً على منواله، لكنّ البيت الثاني أبي أن يكون على مثالي. [الطويل]

وكم ببدق في خدمة الشاه ساعة      تفرزنتُ لَمَّا صار في سابع البيت  
ولي أخدم السلطان سبعين حجةً      وهأنا حيّ في الإضاعة كالميت  
وملاً هذا الوزير الخطير مخازن مخازيه، والكمال بن الكافي فيها مؤازنه وموازيه، ولم يكن عنده من الله خبر، ولا في قلبه للدين أثر، وكلّما طال عليه الدهر تطاول على بنيه حتى تأسست بالشر مبانيه، وحلت له من الدهر مكاسب لا يرضي المجانين بها مجانيه، وكلّما امتدّ عمره استدراجاً من الله وأملأ زاد اجتراماً واجتراحاً واجترأ [الكمال]

وإذا أتت للمرء من أهوامه      خمسون وهو إلى التقى لم ينجح  
عكفت عليه المخزيات وقلن قد      أرضيتنا فاقم كذا لا تبرح  
وإذا رأى الشيطان غرة وجهه      حتى وقال فديت من لم يفلح  
وكان ذلك الجمع قد ارتفع كل منهم بضعة، وقد صاقت عيونهم كأنهم لم يظفروا بساعة سعة، فلا عباراتهم في مذاهبهم مهذّبة، ولا أخلاقهم بأديهم مؤدّبة، ولا أحوالهم في مراتبهم مرتّبة، والسلطان لهم كاره، وضميرهم له بما هم فيه مشافه، وقد ضجر منهم وسيم وممل من

جانِبِهِمْ وَيَبِشِّمَ، وَعَرَفَ أَنَّ وَزِيرَهُ بِهَيْمَةَ بَهِيمَةٍ، وَبِدِمَّةَ ذَمِيمَةٍ، وَبِدِمَّةَ ذَمِيمَةٍ، وَشِيمَةَ مُشِيمَةٍ، وَوَقِيمَةَ سَقِيمَةٍ، وَخِيمَ وَخِيمٍ، وَشُؤْمَ وَشُؤْمٍ.

### ذَكَرَ جُلُوسَ شَرَفِ الدِّينِ أَنْوَشِرَوَانَ بْنِ خَالِدٍ فِي نِيَابَةِ الوِزَارَةِ

قَالَ أَنْوَشِرَوَانُ: فَرَأَسَنِي السُّلْطَانُ بِخَادِمٍ مِنْ خَوَاصِّهِ، وَشَكَا مِنْ الوَازِرِ اعْتِيَادَ اعْتِيَاصِهِ، وَقَالَ هَذَا الوَازِرُ قَدْ آيَسْتُ مِنْ فَلَاحِهِ، وَلَا مَطْمَعٌ لِي أَصْلًا فِي إِصْلَاحِهِ، وَتَعَلَّقْتُ قَلْبِي بِهِ مُحَالًا، وَالْإِهْتِدَاءُ بِرَأْيِهِ ضَلَالٌ، وَفِي كُلِّ وَقْتٍ يَحْكُمُ فِي بَيْتِي وَأَوْلَادِي مِنْ أَوْلَادِ الكَافِي غَيْرُ كَافٍ، وَإِذَا رُمْتُ لَهُ وَفِيَّ جَاءَ فِيهِ مِنْهُمْ بِجَافٍ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَى مُلْكِي مِنْهُمْ فَشُؤْمُهُمْ غَيْرُ خَافٍ، وَبِالْأَمْسِ لَمَّا صَلِبَ عِزُّ المُلْكِ قُلْتُ قَدْ خَلَصَ المُلْكَ وَجَرَى بِالمُرَادِ المُلْكَ، وَاليَوْمَ قَدْ خَلَعَهُ الكَامِلُ النَّائِبُ وَكَمَلْتُ النَوَائِبُ، وَشَمَلْتُ الشَوَائِبُ، وَكَدَرْتُ المَشَارِبُ، وَتَغَوَّرْتُ المَارِبُ، وَأَنَا لَا أَرَى العَجَلَةَ الآنَ فِي تَغْيِيرِ هَذِهِ الحَالَةِ وَتَبْدِيلِهَا وَنَقْلِ هَذِهِ المَنَاصِبِ وَتَغْيِيرِهَا، فَمَا تَعَسَّرَ إِلَّا أَمْرٌ مِنْ تَسْرَعٍ، وَلَا تَعَوَّقَ نَجْحُ مَطْلَبِ مَنْ تَوَقَّعَ، وَإِذَا عَجَلْتُ فِي عَزْلِهِمْ، وَتَعَوَّضْتُ بِالسَّمِينِ وَالْحَدَّ مِنْ هُزْلِهِمْ وَهَوْلِهِمْ، لَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ سِرَّ ذَلِكَ فَتَسْبُونِي إِلَى التَّلَوْنِ وَعَزُونِي إِلَى التَّنَوُّعِ فِي الأَحْوَالِ وَالتَّغْيِيرِ، وَأَصْرُّ مَا عَلَى السُّلْطَانِ أَنْ يَعْرِفَ فِي أَخْلَاقِهِ بِالتَّنَكُّرِ، فَيُضْعَفُ الوَثُوقُ بِهِ لِكَثْرَةِ التَّلَوْنِ وَالتَّغْيِيرِ، وَقَدْ عَرَفْتُ يَا أَنْوَشِرَوَانَ طَرِيقَتَكَ وَعَلِمْتُ حَقَّكَ وَحَقِيقَتَكَ، وَقَدْ شَكَرْتُ الخَلِيقَةَ خَلِيقَتَكَ، وَأَنَا أَوْثَرُ أَنْ تَتَوَبَّ مِنْ قِبَلِي الوِزَارَةَ، وَتَعْمَرَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي السَّفَارَةِ حَقَّ العِمَارَةِ، فَأَنْتَ الذِّي أَسْمَعُ مِنْكَ وَتَسْمَعُ مِنِّي، وَتُحَدِّثُنِي وَتُحَدِّثُ عَنِّي، وَأَنْتَ تَعْرِفُ عَادِيَّتِي وَتَخْبِرُ إِرَادِيَّتِي، وَأَضِيفُ لَكَ إِلَى نِيَابَةِ الوِزَارَةِ عَرَضَ الجَيْشِ، وَأَخْلَصُ مِنْ ذَوِي الطَّيْشِ، وَأَخْلُو بِطِيبِ القَلْبِ وَالعَيْشِ، وَقَبِلْتُ الأَرْضَ فِي تَوَلِّي خِدْمَتِهِ وَشُكْرَ نِعْمَتِهِ الفُرْصِ، وَقَدَّمْتُ عُذْرًا لَانْقَاءَ بِالحَالِ فَلَمَّا أَنْكَرَ سَارِعْتُ فِي الامْتِثَالِ وَجَرَّتْ مَرَاضِيهِ وَقَابَلْتُ بِالوَفَاءِ وَالوَفَاقِ تَقَاضِيهِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ كَرِيمًا حَلِيمًا، لَا يَعْجَلُ بِمُؤَاخَذَةِ مَنْ يَخُونُهُ وَإِنْ كَانَ بِحَالِهِ عَلِيمًا، فَحَفِظَ قَلْبَ الوَازِرِ فِي نِيَابَةِ ابْنِ الكَافِي لَمَّا عَزَلَهُ فَهَانَ وَكَمَا نَفَاهُ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى أَصْفَهَانَ وَكَانَ فِي نَفْسِهِ مُؤَاخَذَتُهُ بِالأَمْوَالِ الَّتِي اخْتَزَلَهَا وَالمَكَاسِبِ الَّتِي عَزَلَهَا وَعَزَّ لَهَا فَأَخْرَجَهَا مُرَاعَاةً لِقَلْبِ الوَازِرِ وَمُحَافَظَةً لِخَطَرِ الأَخْطِيرِ. قَالَ: وَجَلَسْتُ فِي النِّيَابَةِ عَنْهُ عَلَى الكُرْهِ مِنْهُ فَكَانَ مِثْلَ السُّلْطَانِ فِي حَقِّ ابْنِ الكَافِي فِي الإِغْضَاءِ عَنْهُ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ مَا

يُحْكِي عَنِ الْوَائِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ رَأَى يَوْمًا أَحْمَدَ بْنَ الْخَصِيبِ وَهُوَ يَتَبَخَّرُ فِي الدَّارِ  
فَأَنشَدَ: [الطويل]

مِنَ النَّاسِ إِنْسَانَانِ دَبِنِي عَلَيْهِمَا      مَلِيَّانِ أَوْ شَاءَ إِذْنِ لِقَضَائِي  
خَلِيكِي أَمَّا أُمَّ عَمْرٍو فَوَاحِدٌ      وَأَمَّا عَنِ الْأُخْرَى فَلَا تَسْلَائِي  
فَلَمَّا بَلَغَ الْحَدِيثُ إِلَى الْوَزِيرِ سَلِيمَانَ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: أَمَّا أُمَّ عَمْرٍو فَلَيْسَ إِلَّا أَحْمَدُ بْنُ  
الْخَصِيبِ وَأَمَّا الْأُخْرَى فَأَنَا، وَكَانَ كَمَا قَالَ، فَإِنَّهُ نَكَبَهُمَا بَعْدَ أُسْبُوعٍ، وَكَانَ احْتِرَامُ السُّلْطَانِ  
لِلْوَزِيرِ لَا تَبْجِيلًا بَلْ تَدْفِيعًا لِلْوَقْتِ بِهِ وَتَأْجِيلًا.

قَالَ أَبُو شُرَوَانَ: فَأَجْلَسَنِي فِي الدِّيْوَانِ مُكْرَمًا مَمَكَّنًا مُعْظَمًا، مُفَضَّلًا عَلَى الصَّدُورِ مُقَدَّمًا،  
فَأَمَرَنِي بِالنَّظَرِ فِي الْقَصَصِ الْمَرْفُوعَةِ وَإِطْلَاقِ الْحَصَصِ الْمُمْنُوعَةِ وَكَشْفِ الظُّلْمَاتِ  
الْمُظْلِمَاتِ، وَلَمْ شَعِبْ مَا يَعْزُضُ مِنَ الْمُؤَلِّمَاتِ الْمُؤَلِّمَاتِ، وَإِضَاعَةِ مَطَالِعِ الْمُطَالِبِ فِي  
الْمُهْمَاتِ الْمُدْلَهَمَاتِ، وَأَجْلَسَ عَن يَمِينِي وَيَسَارِي الْأَمِيرَ الْحَاجِبَ الْكَبِيرَ وَالْأَمِيرَ يَارُوكَ،  
فَمَا خَرَجَ أَمْرُهُ إِلَّا إِلَيَّ وَلَا عَوَّلَ فِي مُهْمِهِ إِلَّا عَلَيَّ، وَسَمِعَ مِنِّي قَابِلًا وَأَسْمَعَنِي قَائِلًا، فَوَجَدَ  
جَاهَ الْوَزِيرِ بِنِيَابَتِي عَنْهُ طَلَاوَةً وَاسْتَجَدَّ طَرَاوَةً، وَاسْتَرَادَ حِلْيَةً وَحَلَاوَةً، فَإِنَّهُ كَانَ بِنِيَابَتِهِ الْأَوَّلِ  
قَدْ اتَّضَعَ فَلَمَّا نُبْتُ عَنْهُ ارْتَفَعَ لَكِنَّهُ اعْتَقَدَ أَنِّي لِلْسُلْطَانِ عَلَيْهِ عَيْنًا، فَهُوَ يَسْتَقْبِلُنِي كَأَنِّي مِمَّنْ  
لَهُ قَبْلَهُ نَارٌ أَوْ دِينَ، وَكَانَتْ صُحْبَتُهُ لِي عَلَى مَضْضٍ، وَصَحَّةُ مَلَقَاهُ لِي عَلَى مَرَضٍ، وَبَقِيَتْ  
حَلَاوَةُ ابْنِ الْكَافِي فِي قَلْبِهِ وَمَرَارَةُ اخْتِصَاصِي بِقَرِيْبِهِ، وَصَدُورُ الدِّيْوَانِ عَن يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ  
مُؤَثِّرُونَ لِإِيثارِهِ، يُدَوِّنُ بِي فِتْرًا، وَيَضْمُرُونَ لِي شِرَاءً، وَاتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ مَعَ افْتِرَاقِ طَبَائِعِهِمْ  
عَلَى مَضَارَّتِي وَمُضَادَّتِي، وَاعْتَقَدُوا حُصُولَ مَحَابَبِهِمْ فِي مَحَادَّتِي، وَأَنشَدَ: [الخفيف]

أَخْوَةٌ مَا حَضَرْتُ سُرُّوا بِمَرَايَ      فَإِنِ غِبْتُ فَالذَّنَابُ الْجَبَائِغُ  
لَا بَسُوا السُّنْأَاءَ مِنِّي وَلَكِن      ظَهَرَتْ نِعْمَةٌ عَلَيَّ وَكَاعُوا  
مَا بَنَوْنِي حَتَّى إِذَا عَابُونِي      بَانَ مِنْهُمْ تَضَايِدٌ وَاخْتِشَاعُ  
فَهُمْ يَغْمُرُونَ مِنِّي قَنَاءً      لَيْسَ يَأْلُونَ صَدْعَهَا مَا اسْتَطَاعُوا  
مَا كَذَا يَفْعَلُ الْكِرَامُ وَلَكِن      هَكَذَا يَفْعَلُ اللَّئَامُ الْوَضَاعُ

وأورد أنوشروان عدَّةً مقطوعاتٍ للشعراءِ يتضمَّنُ رجاءَ تعميره حتى يتتصَّفَ من الاعداءِ،  
ومِنها قولُ جحظة<sup>(1)</sup>: [الوافر]

سَأَلْتُ اللّٰهَ تَعْمِيْرًا طَوِيْلًا  
وَأَرْجُو أَنْ أَعِيْشَ لَعَلَّ تَرْضَى

ومِنها: [الكامل]

مَدَحْتِكَ أَلْسِنَةُ الْأَنْبَاءِ مَخَافَةً  
وَعَسَى الزَّمَانُ مُؤَخَّرٌ فِي مُدَّتِي

ومِنها: [البيسط]

سَيَنْصِفُ النَّهْرُ مَنْ قَوْمَ بَقَارِعَةَ  
وَتَقْتُ فِيهِمْ بَغْدَرَ الدَّهْرِ إِنْ لَهُ

وأشد: [مُخلع البسيط]

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرُمُوهُ

آخر: [الطويل]

عَسَى وَعَسَى يَثْنِي الزَّمَانُ عَنَانَهُ  
فَتُدْرِكُ أَمْأَالَ وَتُقْضَى مَآرِبُ

وأيضاً: [المتقارب]

لَكِنَّ أَبْطَاتَ صَرَعَةِ الظَّالِمِينَ  
فَكَيْسَ بِمُغْفَلِهَا رَبِّهَا

قال: فَمَا اشْتَرَيْتُ بِشُعَيْرَتَيْنِ سِبَالَهُمْ، وَلَا سَعَلْتُ بَالِي بِمَا سَعَلُوا بِهِ بِالْهَمِّ. قِيلَ دَخَلَ  
سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى طَاوُوسٍ عَائِدًا لَهُ مِنْ مَرَضِهِ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ، فَعَوَّتَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ:  
إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ فِي عِبَادِ اللَّهِ مَنْ يَسْتَصْغِرُ مَا يَسْتَعْظِمُهُ.

(1) البيتان غيرُ مذكورين في كتاب المرحوم مزهر عبد السوداني: جحظة البرمكي، ط 1، مط النعنان، بغداد، 1977 م. وجحظة  
البرمكي: هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، فهو من بقايا البرامكة، كان في عينه جحوظ  
فلقبه عبد الله بن المعتز بـ (جحظة) ولد ببغداد سنة 224 هـ، وكان نديلاً أديباً مغنياً، وكان كثير الرواية للأخبار حاضر  
الناصرة مليح الشعر عارفاً بالموسيقى، لم يكن يقدمه أحد في صناعة الغناء، نادم المعتز والمعتد العباسيين، وصنف كتاباً في  
الغناء الأدب، ولأبي الفرج الاصبهاني كتاب (أخبار جحظة البرمكي)، توفي في قرية جُبل من قرى بغداد سنة 324 هـ.

وَلَمَّا عَجَزُوا مِنْ إِيْقَاعِي فِي مَصَائِدِ الْمَكَائِدِ شَرَعُوا فِي تَعْوِيقِ الرُّسُومِ وَالْفَوَائِدِ، وَتَوَقَّفُوا فِي تَوَجِيهِ وَاجْبَاتِي مِنَ الدِّيَوَانِ، وَتَوَافَقُوا عَلَى قَطْعِ مَا أُطْلِقَ لِي مِنْ صِلَاتِ السُّلْطَانِ، فَكُنْتُ أَسْتَلِي بِقَوْلِ الْقَائِلِ: [الْخَفِيفِ]

إِنَّ لِلَّهِ غَيْرَ مَرَعَاكَ مَرَعَى  
إِنَّ لِلَّهِ بِالْبَرِّيَّةِ لُطْفًا  
وَيَقُولُ الْآخَرُ: [الْمُتْقَارِبِ]

كَفَعَكَ الْقَنَاعَةَ شَبَعًا وَرَبَا  
وَهَامَةً هِمَّتِهِ فِي الثَّرِيَا  
تَسْرَاهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَبِيَا  
دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْمُحَبِّيَا  
وَلَأُحْمَدُ بْنُ الْمُعَدَّلِ: [السَّرِيعِ]

فَالْتَمَسَ الْأَرْزَاقَ عِنْدَ الَّذِي  
مَنْ يَبْغِضُ التَّارِكَ تَسَالَهُ  
وَمَنْ إِذَا قَالَ جَرَى قَوْلُهُ  
وَلَمْ أَحْضِرْ مِنْ قَصْدِ الْجَمَاعَةِ فِي نُوْبَةِ الْوِزَارَتَيْنِ الضِّيَائِيَّةِ وَالْخَطِيرِيَّةِ وَمَا زَالَتْ تَأْتِي مِنْهُمُ قَوَارِضُ الْأَدْبِيَّةِ، وَأُورِدَ فِي مَدَمَّةِ الْقَوْمِ آيَاتًا بِالْفَارْسِيَّةِ اسْتَهْجَنْتُ نَقْلَهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ. [الطَوِيلِ]

يُجْمَعُ مِنْهُمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَمَنْزِلٍ  
وَقَالَ: [الطَوِيلِ]

وَلَيْتُمْ فَمَا أَوْلَيْتُمْ النَّاسَ طَائِلًا  
فَإِنْ تُفْقَدُوا لَا يُؤْلَمُ النَّاسَ فَقَدُكُمْ  
وَأُورِدَ آيَاتًا نَسَبَهَا إِلَى أَبِي الْعَمَالِيِّ النَّخَاسِ فِي الْهَجَاءِ يَقُولُ فِي آخِرِهَا مُخَاطِبًا لِبَعْضِ الْوِزَرَاءِ: كَأَنِّي بَكَ وَقَدْ سَلَّمَكُ إِلَى مَالِكِ الدِّيَلَمِيِّ لَيْسَلَمَكَ يَدَا بَيْدٍ إِلَى مَالِكِ، فَتَنظَّمْتُ فِي مَعْنَى الْآيَاتِ الْخَمْسَةِ خَمْسَةَ آيَاتٍ فَارْتَبْتُهَا فِي الْمَعْنَى، وَلَمْ أَعُدْ إِحْكَامَهَا فِي الْمَعْنَى [الطَوِيلِ]

يَرْتَمِيهِ وَغَيْرَ مَا نِكَ مَاءِ  
سَبَقَ الْأُمَهَاتِ وَالْآبَاءِ

مَاعِنْدَهُ إِنْ سَيْلَ مِنْ حَاجِبِ  
جُودًا وَمَنْ يَرْضَى مِنَ الطَّالِبِ  
مِنْ غَيْرِ تَوْقِيعِ إِلَى كَاتِبِ  
عَلَى وَاحِدٍ لَازِلْتُمْ قَرْنَ وَاحِدٍ

وَلَا حُزْتُمْ شُكْرًا وَلَا صُنْتُمْ حُزْرًا  
وَإِنْ تُذَكَّرُوا لَا يُحْسِنُوا لَكُمْ ذِكْرًا

أَبَانَاثِمَا مِنْ عَيْنِ دَهْرٍ تَيْقَظَتْ  
 أَمَا تَخْطُرُ الْأَخْطَارُ مِنْكَ بِخَاطِرِ  
 عَدَالِكَ مِيدَانِ الْمَمَالِكِ خَالِبًا  
 كَبَاتِي أَرَى الدَّهْرَ الْخَوْوْنَ مَبْلَغًا  
 وَأَوْقَعَكَ السُّلْطَانَ فِي يَدِ مَالِكِ  
 ثُمَّ وَلِحَ الْخَاطِرُ بِتَرْدِيدِ ذِكْرِ مَالِكٍ وَمَالِكٍ فَقُلْتُ فِي الْمَعْنَى: [الْمُتْقَارِبِ]

وَزِيْرُكَ مِنْ وَزْرِهِ هَالِكِ  
 تَصَرَّفَ فِي الْأَمْرِ مِنْ دُونِكُمْ  
 إِذَا شِئْتَ تَأْمَنُ مِنْ جُورِهِ الـ [م]  
 فَوَقَّعَ إِلَى مَالِكِ الدِّيَكَمِي  
 وَأَيْضًا: [السريع]

أَيَّ دَمٍ نَجَّاهُ السَّافِكِ  
 كَذَلِكَ الْمُقْبَبِي لِأَمْثَالِهِ  
 يَا مَالِكُ السَّيْفِ أَجْهَزَ عَسَى  
 مِنْ هَالِكِ لَا رُدَّ مِنْ هَالِكِ  
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ  
 تُجَهِّزُ الْيَوْمَ إِلَى مَالِكِ  
 ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فَوَجَدْتُ الْأَوَّلَ قَدْ نَظَرَ الشَّاعِرُ الْفَارِسِيُّ إِلَى شِعْرِ قَدِيمٍ: [السريع]

فَقُلْتُ لَمَّا أَنْ قَضَى نَحْبَهُ  
 أَمَا وَقَدْ فَارَقْتَنَا قَانَتْقَلِ  
 وَكَانَ الْمَعِينُ الْمُخْتَصُّ يَدْعِي الْإِطْلَاحَ عَلَى الْعُلُومِ وَيَتَعَرَّضُ لِلنُّجُومِ، وَهُوَ كَمَا قَالَ أَبُو  
 الْعَيْنَاءِ فِي حَقِّ شَخْصٍ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا لَا يُحْسِنُ شَيْئًا أَشَدَّ ادْعَاءًا لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ.

وَلِأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ أَفْلَحِ الْبَغْدَادِيِّ فِيهِ: [الْمَدِيدِ]

إِنَّ عِنْدِي لِلْمَعِينِ يَدًا  
 صَانَتْنِي عَن أَنْ يَكُونَ لَهُ  
 فَأَنَا مَا عَشْتُ أَعْرَفُهَا  
 مَحَابِبُ الدَّهْرِ أَشْكُرُهَا  
 مِنْتُهُ عِنْدِي أَخْيَرُهَا  
 أَبَدًا مِنْ حَيْثُ أَنْكَرُهَا  
 وَكَانَتْ بَيْنَ الْوَزِيرِ الْخَطِيرِ وَالْمَعِينِ الْمُخْتَصِّ مُنَاوَسَةً وَمُنَاوَاةً وَمُؤَاخَشَةً وَمُنَافَاةً، وَكُلُّ

مِنْهُمَا يُوهَمُ الْآخَرَ فِي شَغْلِ شَاغِلٍ وَدَخَلٍ دَاخِلٍ، وَقَدْ نَظَّمْتُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي نَثَرَهُ أَنْوَشِرَوَانُ:  
[المتقارب]

يُفَرِّغُ لِلْكَيْدِ أَكْيَاسَهُ	وَيَمْلَأُ لِلْمَكْرِ أَكْوَاسَهُ
وَيَالِغُشٌّ يُضْمَرُ إِنْ حَاشَهُ	وَبِالْبَشْرِ يُظْهِرُ إِنْ سَاسَهُ
وَيَمزُجُ لِلْعَقْرِ صَفْوَ الْعُقَارِ	وَيُسْرِجُ لِلْفَرَسِ أَفْرَاسَهُ
وَكَمْ فَاتَكَ بِأَسُهُ بِالْمَرَى	إِذَا مَا رَأَى وَجْهَهُ بِأَسَهُ
يُنَاكِدُهُ وَقَحَاً وَجْهَهُ	وَيُطْرِقُ مُسْتَحْيِباً رَاسَهُ
وَيَبْنِي لَهُ الْوَدَّ حَتَّى إِذَا	تَمَكَّنَ قَوَّضَ آسَاسَهُ
وَيَسْرِي إِلَى نَفْسِهِ عَنُقَهُ	وَيَشْرَبُ فِي الرَّفْقِ أَنْفَاسَهُ
وَيُبْدِي كُنَايَاهُ لِلإِبْتِسَامِ	وَيَبْكِي إِذَا شَدَّ أَضْرَاسَهُ
وَيَجْنِي عَلَى الْعَفْوِ أَثْمَارَهُ	وَيَجْنِي وَيَقْطَعُ أَغْرَاسَهُ
كَذَا خَلَقَ النَّاسَ فَأَحْذَرُهُمْ	وَخَلَّ الزَّمَانَ وَنَسْنَاسَهُ
وَمَا بَاتَ فِي سَرِبِهِ آمناً	مِنَ الدَّهْرِ مَنْ لَمْ يَخْفَ بِأَسَهُ

وَمَا كَانَ يَقْدِرُ أَحَدُهُمَا مَعَ الْمُبَالِغَةِ فِي قَصْدِ صَاحِبِهِ أَنْ يَبْلُغَ فِيهِ غَرَضَهُ، فَكِلَاهُمَا يُخْفِي مَرَضَهُ وَمَضَّضَهُ، حَتَّى قَالَ الْوَزِيرُ إِلَى الْكَمَالِ السَّمِيرِيِّ فَشَكَا أَلَمَ الْعِيِّ إِلَى ذَلِكَ الْأَلْمَعِيِّ فَأَجْرَى مِنَ الْحَدِيثِ مَا أَحْدَثَ لَهُ جَرَأَةً، وَأَوْلَاهُ بَعْدَ نَشَأَتِهِ الْأُولَى مِنَ الْجَسَارَةِ نَشَأَةً، وَصَارَتْ بَيْنَ الْوَزِيرِ وَبَيْنَهُ مُوَازَاةٌ فِي أَمْرِ الْمَعِينِ وَمُشَاوَرَةٌ فِي تَكْدِيرِ ذَلِكَ الْمَعِينِ، حَتَّى بَلَغَ فِيهِ مَا تَمَنَّاهُ، وَالْحَصِيُّ يَفْتَحِرُ بِزُبِّ مَوْلَاهُ، وَسَيَاتِي ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ، وَلِرَجُلٍ مِنْ هَذِهِ (1): [الوافر]

قَبِعُضُ الْأَمْرِ أَصْلَحُهُ لِبَعْضِ	فَإِنَّ الْعَفْكَ يُصْلِحُهُ السَّمِينُ
وَلَا تَعَجَلْ بِظَنِّكَ قَبْلَ خُبْرٍ	فَعِنْدَ الْخُبْرِ تَنْقَطِعُ الظَّنُونُ
تَرَى بَيْنَ الرِّجَالِ الْعَيْنِ فَضْلاً	وَفِيمَا أَضْمَرُوا الْفَضْلَ الْمُبِينُ
كَلَوْنَ الْمَاءِ مُشْتَبِهاً وَكَيْسَتَ	تُخَبِّرُ عَنِ مَذَاقَتِهِ الْعَيْونُ

وَكَانَ الْوَزِيرُ غَمراً بِأَحْوَالِ الْكَمَالِ السَّمِيرِيِّ غِراً بِكَيْدِهِ الْخَفِيِّ فَأَرَخَى عَنَانَهُ وَأَنْهَى سَنَانَهُ وَأَجْرَهُ فِي الْجَرَأَةِ أَرْسَانَهُ، فَظَنَّ أَنَّهُ يَكْفِيهِ شَأْنُ الْمُخْتَصِّ وَسَنَانَهُ، وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَيْهِ وَيَالَهُ.

(1) هذه الايات غير موجودة في ديوان القذليين (ط دار الكتب المصرية).

وَتَوَفَّى الْأَمِيرُ الْعَمِيدُ الطُّغْرَائِيَّ فِي وَزَارَةِ الْخَطِيرِ، وَخَمَدَ شَرُّ شَرِّهِ الْمُسْتَطِيرَ، وَانْتَقَلَ مِنَ الرَّتْبَةِ إِلَى الرَّتْبَةِ، وَمِنَ الْحُجْرَةِ إِلَى الْحُفْرَةِ، وَمِنَ الْمَسْنَدِ إِلَى الْمَلْحَدِ، وَمِنَ الْمَرْقَبِ إِلَى الْمَرْقَدِ، وَمِنَ الْقَصْرِ إِلَى الْقَبْرِ، وَمِنَ السَّرِيرِ إِلَى الْأَسْرِ، وَمِنَ الصَّدْرِ إِلَى الصُّدَا، وَمِنَ الثَّرْوَةِ إِلَى الثَّرَى، وَمِنَ دَارِ الْعِلَاءِ إِلَى دَائِرَةِ الْبِلَاءِ، وَمِنَ الدَّنَارِ إِلَى الدُّثُورِ، وَمِنَ النَّفْرِ إِلَى النُّفُورِ، وَمِنَ الْمَعَشْرِ إِلَى الْمَحْشَرِ، وَمِنَ الْمَرَبَعِ إِلَى الْمَعْبَرِ، وَمِنَ الْقَلَمِ إِلَى اللَّقْمِ، وَمِنَ الْوَجُودِ إِلَى الْعَدَمِ، وَمِنَ مَجْلِسِ النَّدِّ إِلَى مَجْلِسِ النَّدَمِ، وَمِنَ وَطَنِ الْوَطْرِ إِلَى مَجَرِّ الْمَحْزَنَةِ، وَمِنَ مَنْزِلِ الْمَنْزَلَةِ إِلَى مَسْكَنِ الْمَسْكَنَةِ، وَمِنَ الرَّسْمِ إِلَى الرَّمَسِ، وَمِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْفَرْشِ، وَمِنَ الْعَبَثِ إِلَى الْمَبْعَثِ، وَمِنَ الْجَدِّ إِلَى الْجَدَثِ.

وَجَلَسَ مَكَانَهُ فِي دِيْوَانِ الطُّغْرَاءِ وَصَدَرَ الْإِنْشَاءُ مُؤَيِّدُ الدِّينِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْكَاتِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ وَهُوَ أَيْضاً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ شَرَفُ الْأَمْمَالِكِ، وَكَانَ ذَا فَضْلِ غَزِيرٍ وَأَدَبٍ كَثِيرٍ، وَعَلِمَ مَتِينٍ وَحَكْمٍ رَصِينٍ، وَكَانَ فِي حَيَاةِ الْأَمِيرِ الْعَمِيدِ مُنْشِئاً عَلَى سَبِيلِ الْنِيَابَةِ عَنِ الطُّغْرَاءِ فَوْلَاهُ بِالْأَصَالَةِ مُتَّصِراً فِي دَسْتِ الْعَلَا، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ بَطِيءَ الْقَلَمِ كَلِيلَهُ مُلْتَاثُ الْخَطِّ عَلَيْهِ، وَهَتَفَ بِهِ أَبُو طَاهِرِ الْخَاتُونِيِّ فِي نَظْمِهِ، وَسَلَّطَ سَفَهَ الْهَجَاءِ عَلَى حَلِيمِهِ، وَأَشَارَ إِلَى الْقَلَمِ فِي يَدِهِ، وَقَالَ:

كَأَنَّهُ وَهُوَ يَجْرُهُ بِرَجْلِهِ مُذْنَبٌ يُعَاقِبُهُ بِحُرْمِهِ

وَكَانَتْ بَدِيهَتُهُ آيَةً وَرَوِيَّتُهُ رَوِيَّةً مُخَيَّبَةً، فَإِذَا أَنْشَأَ تَرَوَى مَلِيّاً وَتَفَكَّرَ بَطِيّاً، وَغَاصَ فِي بَحْرِ خَاطِرِهِ الزَّخْرِ مُسْتَخْرَجاً لِلْجَوَاهِرِ ثُمَّ أَتَى بِالْمَعَانِي الْبَعِيدَةِ الْبَدِيعَةَ وَالْإِسْتِعَارَاتِ الْعَجِيبَةَ الْغَرِيبَةَ، وَسَنَدَّكَرُ أَحْوَالَهُ فِيمَا بَعْدَ وَحَالَ الْوَزِيرِ الْخَطِيرِ لَمَّا جَانِبَهُ السُّعْدُ وَصَارَتْ حُرْمَةُ الْكَمَالِ السَّمِيرِيِّ كُلَّمَا جَاءَتْ تَنَمُّو وَمَنْزَلَتُهُ تَسْمُو.

ذَكَرَ تَوَلَّى الْكَمَالِ عَلِيَّ السَّمِيرِيِّ إِشْرَافَ مَمْلُوكَةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ وَابْتِدَاءَ أَمْرِهِ

كَانَ الْكَمَالُ عَلِيٌّ بْنُ أَحْمَدَ مِنْ مَدِينَةِ بَقْرَبِ أَصْفَهَانَ يُقَالُ لَهَا سُمَيْرِمُ، رَائِعَةُ الْحَسَنِ حَسَنَةُ الرَّبِيعِ، رَبِيعَةُ الْمَنْظَرِ نَاصِرَةُ الرَّبِيعِ، طَيِّبَةُ الدَّارِ دَائِرَةُ الطَّيْبِ، يَسْتَغْنِي أَهْلُهَا بِصِحَّةِ هَوَائِهَا عَنِ الطَّيْبِ، أَهْلُهَا ذُو نَظَرَةٍ زَكِيَّةٍ وَفِطْنَةٍ ذَكِيَّةٍ، وَطِبَاعُ مَسْتَظَرَفَةٍ وَخِلَاتِقُ إِلَى الْخَيْرِ مُجِيبَةٌ، وَأَذْهَانِ

في السداد مُصَيِّبَةً، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ فِي مَعِيشَةِ كَهْرخَاتُونَ زَوْجَةِ السُّلْطَانِ، وَأَبُو الْكَمَالِ دَارَنَجٍ عَلَاتُهَا وَقَابُضُ ارْتِفَاعَاتِهَا، وَوَزِيرُهَا حَيْثُذِ الْأَمِيرِ الْعَمِيدِ، وَالْكَمَالُ بِسَبَبِ شُغْلِ وَالِدِهِ وَأَنْجَاحِ مَقَاصِدِهِ مُتَرَدِّدٌ إِلَيْهِ مُتَوَدِّدٌ، وَاسْتَجْلَاهُ وَاسْتَجْلَدَهُ وَاسْتَكْفَاهُ وَأَحْمَدَهُ، فَاسْتَنَابَهُ فِي خَاصِهِ حِينَ اسْتَبَانَ نُصْحَهُ، وَاسْتَوْضَحَ فِي لِيَالِي نَوَائِبِهِ بِالنُّجْحِ صُبْحَهُ، فَوَقَّرَ حَالَهُ وَتَمَرَّ حَالَهُ، وَرَتَّبَ أَسْبَابَهُ وَهَدَّبَ أَصْحَابَهُ، وَجَعَلَ لَهُ فِي الْعْيُونِ هَيْبَةً وَفِي الصُّدُورِ رَهْبَةً، وَرَفَعَ لَهُ بِتَنْفِيذِ أَمْرِهِ وَتَرْتِيبِ أُمُورِهِ رَتْبَةً، وَصَارَتْ لِلْأَمِيرِ الْعَمِيدِ بِالْكَمَالِ زِينَةٌ وَزِنَةٌ، وَحَالَةٌ حَالِيَةٌ لِلْوَلِيِّ سَارَةٌ وَلِلْعَدُوِّ مُحْزِنَةٌ، وَأَقَامَ لِمَنْصِبِهِ نَامُوسًا، وَأَنْشَرَ مِنْ جَاهِهِ مَا كَانَ مِنْ جَاهِهِ مَرْمُوسًا، وَارْتَفَعَتْ بِالْكَمَالِ عَنْهُ سِمَةُ النِّقْصِ، وَكَفَّتْ عَنْ عَرْضِهِ أَلْسِنَةُ الْغَمْصِ، وَبَقِيَ الْأَمِيرُ الْعَمِيدُ لَا يَعْتَمِدُ فِي أَمْرِهِ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا يَسْكُنُ فِي شُغْلِهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَلَمَّا اتَّفَقَ مَسِيرُ الْأَمِيرِ الْعَمِيدِ إِلَى بَغْدَادَ فِي تَوَلِّيِ الْعِمَادَةِ، وَكَانَتْ مِنَ الْمَنَاصِبِ الْكِبَارِ الَّتِي لَا يُؤْهَلُ لَهَا إِلَّا ذُو السِّيَادَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ إِقَامَةِ نَائِبٍ فِي زَارَةِ كَهْرخَاتُونَ يُلَازِمُ الدَّرَكَاهُ، وَيُقِيمُ لَهُ بِخِدْمَتِهِ عَنْهُ الْأَسْمَ وَالْجَاهُ، وَخَشِيَ أَنَّهُ إِنْ عَوَّلَ عَلَى مُتَصَرِّفٍ قَدْ عُرِفَ أَوْ مَعْرُوفٍ قَدْ تَصَرَّفَ فَأَنَّهُ يَغْلِبُ عَلَى مَوْضِعِهِ وَهُوَ مُطْلِعُهُ، فَرَأَى أَنَّ الْكَمَالَ أَوْفَقَ وَأَوْثَقَ، وَأَشْفَى لِيَصْدِرِهِ فِي التَّصَدُّرِ وَأَشْفَقَ، فَاسْتَنَابَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يُخَالِطُ أَهْلَ التَّمْيِيزِ، وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْجُلُوسِ فِي الدَّهْلِيزِ، وَلَا يَسْتَعِينُ فِيمَا يَنْبُؤُهُ إِلَّا بِالْعَزِيزِ، وَكَانَ الْعَزِيزُ أَبُو نَصْرِ أَحْمَدُ بْنُ حَامِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَمِّي أَوَّلَ مَا سَبَّ وَمَضَى فِي الْبَلَاغَةِ شِبَاهُ، وَعَقَدَ تَحْتَ الْعُلَى حِبَاهُ، وَصَرَفَ الْبِرَاعَةَ بِنَائِهِ وَعَرَفَ الْبِرَاعَةَ بِيَانِهِ، وَهُوَ فِي الدِّيَوَانِ الْخَاتُونِيَّ نَائِبٌ عَلَى الْأَصْلِ يَحْكُمُ، وَشَابَ عِنْدَ مَشَائِخِ صُدُورِ يَجْهَلُونَ مَا يَعْلَمُ، فَلَمَّا تَوَلَّى الْكَمَالَ نِيَابَةَ زَارَةِ خَاتُونَ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِتْيَةٌ مِنْ ذَلِكَ الْقَانُونِ انْضَمَّ إِلَيْهِ الْعَزِيزُ فَضَمَّ نَشْرَهُ وَثَقَّلَ حَجْرَهُ، وَحَسَّنَ أَثَرَهُ وَأَطْلَعَ فِي ذَلِكَ الدَّسَبِ قَمَرَهُ وَأَرَشَدَهُ وَدَبَّرَهُ وَعَلَّمَهُ بِالرَّأْيِ الرَّاجِحِ مَا أَصْفَى بِهِ فِي التَّصَدُّرِ مَوْرَدَهُ وَمَصْدَرَهُ، وَكَانَ الدِّيَوَانُ الْخَاتُونِيَّ فِي الْوِزَارَةِ الْعَمِيدُ بِهِ خَامِلًا خَامِدًا جَامِدًا، مَا لَهُ غَيْرُ رَوَاتِبِ مُوَظَّفَةٍ وَوِظَائِفَ مُرْتَبَةٍ وَمَعَايِشَ مَرْسُومَةٍ وَعَوَائِدَ مَعْلُومَةٍ، لَيْسَ لِتَوَابِهِ فِي غَيْرِهَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَلَا لِيُوزَّادِهِ مِنْ سِوَاهَا مَشْرَبٌ وَلَا نَهْيٌ، وَخَاتُونَ رَاضِيَةٌ بِالْهَدُوءِ، وَمُتَمَاعِضِيَّةٌ عَنِ النَّمُوِّ، لَا تَعْرِفُ مَزِيدًا مِنَ السَّمُوِّ، فَعَرَفَهَا الْكَمَالُ مَا فِي الْخُمُولِ مِنْ ذَهَابِ رَوْنِقِ السُّلْطَنَةِ، وَعَزَلَ وَلايَةَ الْقُدْرَةِ الْمُتَمَكَّنَةِ، وَكَانَتْ هِيَ ابْنَةُ الْمَلِكِ إِسْمَاعِيلِ الْبَغَانِيِّ مِنَ أَذْرَبِيجَانَ وَهُوَ كَبِيرُ الشَّانِ، فَقَالَ لَهَا قَوْلِي لِلْسُّلْطَانِ إِنَّ أَجْنَادَ أَذْرَبِيجَانَ مِنْ صَنَّاعِ الْوَدِيِّ وَأَشْيَاعِهِ وَهُمْ صَارُوا الْيَوْمَ مَتْبُوعِينَ فَقَدْ كَانُوا أَمْسٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَأُرِيدُ أَنْ يَكْتَبَ مَشُورًا بِأَنَّهُمْ فِي اهْتِمَامِي،

وَأَنَّ أَمْرَ مَعَايِشِهِمْ يُؤْتَمُّ بِإِيرَامِي، فَأَجَابَ السُّلْطَانُ سُؤَالَهَا وَكَتَبَ لَهَا مِثَالَهَا، فَسُيِّرَتِ الْكُتُبُ السُّلْطَانِيَّةُ وَقَامَ بِخِدْمَتِهَا الْأَمْرَاءُ وَالْعَدَّةُ الْأَذْرَبِيجَانِيَّةُ فَبَادَرُوا إِلَى بَابِهَا بِتَقْبِيلِ الْعَتَبَةِ وَتَأْمِيلِ الْمُرْتَبَةِ، وَوَصَلُوا بِالْهَدَايَا وَالتُّحْفِ وَالْأَطْفَافِ وَالطَّرْفِ، وَازْدَحَمَتِ عَلَى بَابِهَا وَفُودُ الْمُلُوكِ، وَاتَّسَقَ إِلَى قَصْدِهَا سَلْكُ الْمَسْلُوكِ، فَرَأَتْ مِنَ الدُّوَلَةِ شَيْئًا عَجِيبًا وَرَعَتِ مِنَ النِّعْمَةِ مَا رَعَتِ وَنَهَتْ وَآمَرَتْ، وَشَادَتْ بِيُوتَا وَعَمَّرَتْ، وَتَبَرَّكَتْ بِمَوْضِعِ الْكَمَالِ، وَتَحَقَّقَتْ أَنَّ إِقْبَالَهَا بِهِ فِي الْإِقْبَالِ، وَسَمِعَ الْأَمِيرُ الْعَمِيدُ بِأَنَّ نَائِبَهُ قَدْ جَاءَهُ الْجَاهُ، وَقَبَّلَتْ يَدَهُ الشَّفَاهُ، وَتَجَمَّلَ بِمَوْكِبِهِ وَمَرَكِبِهِ الدُّسْتُ وَالذَّرَكَاهُ، وَأَنَّهُ عَلَا عَمَّا رَأَاهُ، وَقَامَ وَقَعْدَ وَأَبْرَقَ وَأَرَعَدَ، وَرَأَى وَرَمَجَرَ وَتَفَرَّ وَاسْتَحَقَرَ، وَغَاضَ مَا رَأَاهُ بِمَا غَاغَلَهُ وَرَفَعَ طَرَفَهُ عَضْبًا ثُمَّ عَضَّ أَلْحَاظَهُ وَعَلِمَ أَنَّ الْعِزَّ لَهُ فِي عَزْلِهِ، وَأَنَّهُ يَشْغُلُ سِرَّهُ مَا سَرَّ بِشِغْلِهِ، فَكَتَبَ بِصَرْفِهِ وَعَمَلَ الْحِسَابَ وَرَفَعَهُ وَأَخْرَجَهُ عَنِ الرَّبِيبَةِ، وَرَتَّبَ آخَرَ فِي تِلْكَ النُّصَبَةِ، فَلَمْ تَلْتَقِ خَاتُونَ إِلَى كِتَابِهِ، وَلَمْ تَكْتَرِثْ بِخَطَابِهِ، وَكَتَبَتْ أَنَّ هَذَا النَّائِبَ عِنْدِي مَرْضِيٌّ وَحَقُّهُ مَرْعِيٌّ، وَأَنَّهَا قَدْ تَيَمَّنَتْ بِرِكَتِهِ وَتَبَرَّكَتْ بِمِثْمَنِهِ، وَرَكَتَتْ إِلَى اسْتِظْهَارِهِ وَاسْتِظْهَرَتْ بُرْكَتَهُ، وَأَنَّهَا مَيَّزَتْ مِنْ نَصْبِهِ بِالرَّفْعِ، وَاسْتَرَعَتْهُ صَنِيعَ الْجَمِيلِ وَجَمِيلِ الصَّنْعِ، وَهِيَ بِهِ مُغْتَبِطَةٌ مُغْبِوْطَةٌ، وَأَنَّهَا لَدَيْهِ بِاسْطِطَّةٍ يَدَا هِيَ فِي مَمَالِكِهَا مَبْسُوطَةٌ، فَمَا لَكَ أَنْ تَصْرِفَهُ، بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ، وَتَعْرِفَ حَقَّهُ وَتُنْصِفَهُ، وَهُوَ الْآنَ إِنْ جَافَيْتَهُ فَلَيْسَ لَكَ بِنَائِبٍ وَإِنَّمَا هُوَ شَرِيكَ، وَإِنَّ أَمْرَنَا بِالْإِنْكَارِ إِنْ قُصِدَ مِنْكَ وَشَيْكَ وَشَيْكَ، وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَيُّهَا الْعَمِيدُ أَنَّ دَوْرَ الْحُرْمَةِ مُبْرَمَةٌ لَهَا مَعَاقِدُ الْعَصْمِ، مُحْكَمَةٌ لَهَا قَوَاعِدُ الْعِظَمِ، وَهِيَ مُحَجَّبَةٌ لِلْبُسْتُورِ، مَصُونَةٌ وَجُوهُ أَسْرَارِهَا عَنِ السَّفُورِ، لِأَسْيَمَا الْمَمْلُكَةِ وَمَنْ فِي دَارِهَا، وَمُحَجَّبَاتُ أَسْتَارِهَا وَأَسْرَارِهَا، فَمَا يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّاهَا فِي كُلِّ قَرِيبٍ غَرِيبٍ، وَمَا يَحْسُنُ أَنْ يَتَجَدَّدَ فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا مُسْتَنَابٌ وَمُسْتَنِيْبٌ، وَهَذَا عَرَفْنَا مِنْكَ فَمَا نَجْهَلُهُ، وَرَفَعْنَا بِتَوَلِّيَتِكَ فَمَا نَعْرِضُهُ، وَالْأَوَّلَى بِكَ أَنْ تُبَيِّقَهُ، وَالْأَبْقَى لِجَاهِكَ أَنْ تَوَلِّيَهُ، فَعَرَفَ الْأَمِيرُ الْعَمِيدُ أَنَّ الْأَمْرَ خَرَجَ مِنْ يَدِهِ، وَغُلِبَ عَلَى مَسْنَدِهِ، فَجَدَّدَ لِلْكَمَالِ بِشِغْلِهِ مَنَشُورًا، وَطَوَى مِنْ شُرُوهِ فِيهِ مَا كَانَ مَنَشُورًا، وَكَتَبَ إِلَى الْخَاتُونَ أَنَّ الْآنَ قَدْ قُوِيَ أَمْلِي وَجَلَّ عَمَلِي، حَيْثُ مَكْنَتِ نَائِبِي وَعَرَفْتِ صُحْبَةَ صَاحِبِي، وَأَنْتِي مَا أَرَدْتِ صَرْفَهُ وَإِنَّمَا أَرَدْتِ تَهْدِيئَهُ وَرَمْتِ تَجْرِيئَهُ، وَأَرَهَفْتِ لِلْخِدْمَةِ حُدَّةً وَأَسْعَفْتِ بِالنِّعْمَةِ عِنْدَكَ جَدَّهُ، وَقَدْ وَفَّرْتُ عَلَيْهِ ثُلْثَ الْمَرْسُومِ، وَأَشْرَكْتُهُ مَعِي فِي أَصْلِ الْفِرْعِ الْمَعْلُومِ، فَاسْتَدْرَكَ الْعَمِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ فَارْطَهُ، وَأَطْهَرَهُ بِمَا أَضْمَرَهُ مِنْ مُغَابِطَةٍ مُغَابِطِهِ، فَاسْتَقَلَّ الْكَمَالُ وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ، وَثَابَ سُرُورُهُ، وَكَبَّتْ سَرِيرُهُ، وَبَقِيَ لَذَلِكَ مُتَوَلِّيًّا مُسْتَوَلِيًّا وَمُسْتَعْلِيًّا مُتَعْلِيًّا، وَنَائِبًا مَا نَابَهُ نَائِبًا، وَرَائِبًا

ما رايته رائب، إلى أن قضى العميدُ نَحْبَهُ وَأَلْقَى رَبَّهُ، فَوَلَّته وزارتهَا بالأصالة، وَخَصَّته بالإِنالة والإيالة، ثُمَّ تَعَصَّبَتْ له عند السلطانِ حَتَّى وَلَّته إِشرافَ المملكة، وَتَحَرَّكَتْ لإِعلاءِ قُدْرتهِ مَعَ الأقدارِ المُحرَّكة، فَعَظَّمْ وَعَظَّمْ وَكُرِّمَ وَكُرِّمَ، وَدَانَتْ له الأُمَمُ، وَأَطَافَ به الحَشَمُ وَالخَدَمُ، وَعَظَّمْ قِبُولُهُ في القلوبِ وَشَأْنُهُ في النفوسِ، وَأَبْدَلَ لَهُ وَجْهَ الدُولَةِ بِشَرِّ النُّعْمَى مِنْ عُبُوسِ البُوسِ، وَمَا زالَ يَتَجَدَّدُ جَدُّهُ وَيُسْعِدُهُ سَعْدُهُ، إِلى أَن بَلَغَ الوزارَةَ في الأيامِ المُغِيثِيَّةِ، وَاسْتَقَلَّ مِنَ السلطنةِ المُحمديَّةِ، وَسَيَّأني شَرُحُ ذلكَ عندَ وزارتهِ وَمَا ظَهَرَ مِنْ حَرَامِيَّةِ وَجَسَارَتِهِ.

ثُمَّ أَعُودُ إِلى تعريبِ ما ذَكَرَهُ أنوشروان على سِياقتهِ، وَأَرْدَفَ شُكْرَهُ بِإِفاقتِهِ، وَأَنوَّهُ في إِظهارِ الغنىِ بِسُرِّفاقتِهِ، وَقَالَ: لَمَّا تُوْفِيَ الأَمِيرُ العميدُ عَرَفَ الكَمالَ أَنَّ مَنصبَ وزارَةِ خاتونِ لا يُخْلِى له وَأَنَّهُ لا يَجِدُ استقلالَهُ، وَطَمَعَ إِلى مَنصبِ مِنَ المَناصِبِ السلطانيةِ وَرُتَبِهِ مِنَ الرُّتَبِ الدِّيوانِيَّةِ إِذا تَوَلَّها دَخَلَ في خِفارتِها، وَاسْتَقَلَّ بِشُغْلِ خاتونِ وَوزارتِها، وَكانَ يَتَحَيَّنُ وَيَتَجَنَّبُ، وَيَهَبُّ ثُمَّ يَتَهَيَّبُ، حَتَّى فارَضَني في أمرِهِ وَأَفْضَى إِليَّ بِسَرِّهِ، فَأَطَمَعْتُهُ في جانبِ الأستاذِ أَبِي اسماعيلِ، وَقَوَّيْتُ عندهُ نُجَحَ هذا التأميلِ، وَقَلْتُ هُوَ مُنْشِئُ وَطغرائيِّ وَهُوَ هِدْيُ الكِتابِيَّةِ كُفءُ كَفْوَةٍ وَمَنصبُ الإشرافِ مَعَهُ زيادةٌ، وَهُوَ لَكَ أَتَمُّ سَعادَةٍ، وَلَمْ تَجِرْ مِنَ الوِلاياتِ بِأَنَّ لا يُغَيِّرُ على أربابها عَادَةً، ثُمَّ أَعَنَّتُهُ وَعَنَيْتُ بِهِ وَذَهَبْتُ مَعَهُ في مَذهَبِهِ، حَتَّى تَمَّ تأمِيلُهُ وَسُوِّيَ له سؤْلُهُ، فَتَوَلَّى الإشرافَ وَزاحَمَ بِمَنكبِهِ الأشرافَ، وَذلكَ بَعْدَ تَرَدِّدِهِ سَنَةً في الطلِبِ، وَعَمَتَهُ مَدَّةً إِلى دَرِّ ذلكَ الحَلَبِ، فَلَمَّا وَجَدَ لِقَدَمِهِ مَوْضِعاً وَلِقَمَرِهِ مَطْلَعاً وَلِعَيْنِهِ مَنبَعاً وَلِخَبْرِهِ مَسْمَعاً وَلِقَوْلِهِ قابلاً وَبِقَوْلِهِ قائلاً وَليَضاعِيَتِهِ مُشْتَرِياً وَلِسَعادَتِهِ مُشْتَرِياً، وَلِنُقُودِهِ عَاداً وَليَعقُودِهِ شاداً، شَرَعَ في إِيهامِ السلطانِ في أَصحابِهِ ما أَخْرَجَهُ إِلى الجِماحِ مِنْ أَصحابِهِ وَاسْتَكْتَمَهُ أَسرارَهُ فَكَتَمَها عَلَيهِ وَلَمْ يَنْتَهَ مِنَ السلطانِ إِلى أَحَدٍ ما أَنهاهُ إِليه، وَصارَ السلطانُ يَكْتُبُ إِليه بِخَطِّهِ، وَيُطَلِّعُهُ على حَالتِي رضاهُ وَسَخِطِهِ، وَالتَزَمَ لِلسلطانِ بِما لَمْ يَكُنْ في الوِسعِ وَتَفَقَّ نَفْسُهُ عندهُ أَنَّهُ مَتَفَرِّدٌ بِإِحسانِ الصناعاتِ وَحَسَنِ الصنَعِ وَزَهَنَ قَوْلُهُ بِأَشياءَ لَو طالَ أَمَدُ السلطانِ لَطالَبَهُ وَعائِبَتُهُ على القُصورِ عنها بِلِ عاقِبَتِهِ، وَلَمْ يَبْقِ أَحَدٌ إِلا نَافاهُ وَنَافَرَهُ وَناوَأَهُ وَناقَرَهُ، فَمَنْ راقِبُهُ قارِبُهُ، وَمَنْ ناوَبَهُ بِالطَمَعِ فِيهِ وَائِبُهُ، وَمَا فِيهِمْ إِلا مَنْ لَوَّتهُ عندَ السلطانِ وَعَلَّتهُ، وَأَطالَ بِعَريفِهِ عَيْبُهُ، وَجاهَرَ مِنْهُمُ المُختَصَّ المُستوفِي وَناضَلَهُ وَناظَرَهُ، وَاسْتَرَكَ جانبَهُ لَمَّا عَدِمَ ناصِرَهُ، وَكانَ قَدِ قَدَّمَ عندَ السلطانِ لَهُ أَحاديثَ صَدَّقَهُ عَلَيها بِمُوافِقَتِهِ وَمُثاقَفَتِهِ فَحَسِبَ أَنَّ كَلامَهُمُ

على ذلك المنهاج وافقه، وصحَّ الحقُّ عليه إذا حاققه، وعبرت على هذا مدةً من الزمان وقد شوش على أرباب المناصب قلب السلطان حتى تغيَّر رأيه في وزيره الخطير ورَدَّ وردهُ إلى التكدير، ونقله من بني جنسه إلى بني سجنه، ومن جنا عذبه إلى عذاب أجنيه، ومن مجلس عزه إلى مجلس عزله، ومن جدُّ جدّه إلى هزال الحظِّ وهزله، وسلَّمه إلى الأمير الحاجب عمر بن قراتكين ليُخرجهُ ويستخرجهُ وليُروِّج ماله ويُوَرِّجَه، ونظَّم أبو طاهر الخاتوني فيه بيتين فارسيتين عربتُهما: [المنسرح]

كَانَ حَمَارًا وَزِيرُنَا وَمَضَى      فَمَا يُمْلِكُ السُّلْطَانُ مِنْ خَلَلِ  
لَكِنَّمَا فِي صَدُورِ دَوْلَتِنَا      لَيْسَ لِذَلِكَ الْحَمَارِ مِنْ بَدَلِ

وكان سَمَسُ المُلْكِ عثمانُ بنُ نظامِ المُلْكِ قَد بَقِيَ فِي حَبْسِ الوَازِرِ سَبْعِ سَنِينَ، قَد صَيَّرَهُ اللَّيْلُ الْحَبْلِي فِي رَحِمِ سَجْنِهِ الْأَجْنِينِ، وَهُوَ مُضَيِّقٌ نَفْقِهِ فِي مَضْيِقِ نَفْقِ، وَمُعَانِي رَهَقِ وَعَانِي وَهَقِ، حَتَّى أَفْرَجَ عَنْهُ لِيُوَاقِفَ الوَازِرَ عَلَى أَوْزَارِهِ، فَيَقْرَبُ خُطَى الْخَطِيرِ فِي أَخْطَارِهِ، فَكَانَ حَبْسُ ذَلِكَ لِهَذَا فَرَجًا، وَدَخُولُهُ فِي الْحَبْسِ لَهُ مَخْرَجًا، وَمَاتَمَهُ لَهُ عِرْسًا، وَوَحْشَتَهُ لَهُ أَنْسَاءً، وَجَمَعَ السُّلْطَانُ أُمْرَاءَ دَوْلَتِهِ وَأكَابِرَ مَمْلَكَتِهِ وَأَرْبَابَ دِيَوَانِهِ وَمَرْبُوبِي إِحْسَانِهِ، وَفَاوَضَهُمْ فِي وَزِيرٍ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ وَزَارَتَهُ وَيَنْوِطُ بِهِ مِنْ مَادَّةِ الْعَصْرِ وَسَادَتَهُ وَسِيَادَتِهِ. قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: فَاجْمَعَ الْجَمَاعَةَ عَلَى أَنْ أَكُونَ الْمُتَكَلِّمَ عَنْهُمْ بِالصَّوَابِ وَالْمُبْلَغِ لِلخَطَابِ، وَكَانَ رَأْيِي قَائِلًا إِلَى مِثْلِ مَا حُكِيَ عَنِ الْمُعْتَضِدِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَرَّضَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَانَ وَسَعَى عِنْدَهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَقُولُ إِذَا فَكَّرْتُ فِيمَا يَنْقُصُ مِنَ التَّدْبِيرِ وَيَضِيعُ مِنَ الْأُمُورِ بَيْنَ صَرْفِ وَزِيرٍ وَتَقْلِيدِ وَزِيرٍ وَإِنْ كَانَ الْمُتَقَلِّدُ أَكْفَأَ أَضْرَبْتُ عَنْ نَكْبَتِهِ فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ أَكُونَ النَّاطِرَ فِي الْأُمُورِ وَمُتَقَلِّدُ مَصَالِحِ الْجُمْهُورِ وَمُتَقَدِّ الْأُمُورِ، وَجَامِعِ شَمْلِ الْأَكَابِرِ وَالْأَصَاغِرِ، وَأَنَّ الْمُنْشِئَ وَالْمُشْرَفَ يَكْفِيَانِ بِخَطِيٍّ وَتَمَثِيلِيٍّ، وَيَتَأَثَّلَانِ فِي شَغْلِهِمَا بِتَأْثِيلِيٍّ، حَتَّى يُقْضَى كُلُّ مُهِمٍّ وَيُقْضَى كُلُّ مُلْمٍ، وَتَوْمَنَ فَوَاتِحَ الْفَوَادِحِ وَعَوَاقِبَ الْعَوَاقِقِ، وَلَا تَقْفُ الْأَجْوَانِحُ بِالْحَوَائِجِ وَلَا يُخَافُ الطَّرْفُ بِالطَّوَارِقِ، بَقِيَتِ الرِّعِيَةُ مَرْعِيَّةً وَالسِّيْرَةُ رَضِيَّةً مَرْضِيَّةً، وَالذَّهْمَاءُ سَاكِنَةً وَالغَبْرَاءُ أَمَنَةً، وَالْمُلْكُ فِي زَهْوٍ وَزَهْرٍ، وَفِي سَنَةٍ شَهِيَّةٍ مَدَّةً سَنَةٍ وَشَهْرٍ، وَهُوَ بِتَرْوِيضِ نَظْرِي فِي رَوْضِ نَضْرٍ، وَالْكَلِمَةُ مَتَّفِقَةٌ وَالِدَوْلَةُ مُتَّسِقَةٌ وَالنِّعْمَةُ مُتَّسَعَةٌ وَالْأَمَةُ مُتَّدَعَةٌ وَالذَّيْمَةُ مُسْتَسْقَاةٌ، وَالسُّقْيَا دَائِمَةٌ وَالْقِيَمَةُ مَعْتَدَلَةٌ وَالْمَعْدَلَةُ قَائِمَةٌ، وَنِظَائِمُ الْوَرَى مَكْشُوفَةٌ، وَمِبَاسِمُ الْهَدْيِ مَرْشُوفَةٌ، وَمَوَارِدُ النَّدَى مَشْفُوهَةٌ،

وَحَوَاطِرُ الْخُطُوبِ عَنِ الْوَرَى بِيَّاسِ السُّلْطَانِ وَتَوَالِهِ مَشْدُوهَةً، وَطَالَ حَبْسُ تِلْكَ الْمَدَّةِ وَلَقِيَ الشَّدَّةَ، وَكَانَ قَدْ خَلَفَ الزَّمَانُ رَجُلَيْنِ مِنَ أَوْلَادِ الْكَافِي مِنْ بَقَايَا السِّيُوفِ وَرَزَايَا الْأُحْتُوفِ، فَحَبَسَهُمَا السُّلْطَانُ مَعَهُ وَأَخْتَمَهُمَا الَّتِي كَانَتْ زَوْجَةَ الْوَزِيرِ عَلَى مَائَةِ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَسَاءَهُمْ فِي تِلْكَ الْمُصَادَرَةِ كُلِّ خَسَارٍ وَصَغَارٍ، وَبَاحَ السُّلْطَانُ بِمَا كَانَ يُضْمَرُهُ مِنْ أَمْرِ الْوَزِيرِ وَلَا يُظْهَرُهُ، وَكَشَفَ الْغَطَاءَ عَمَّا كَانَ يَسْتُرُهُ، وَأَنْطَقَهُ بِإِعْرَاءِ الْعَزِيَّةِ تَغْيِيرُهُ، وَأَلْزَمَهُ بِتَطْلِيْقِ زَوْجَتِهِ ابْنَةَ الْكَافِي، وَرَمَاهُ مِنْ مُفَارِقَتِهَا بِثَلَاثَةِ الْأَثَانِي.

قَالَ أَنْوَشِرَوَانُ: وَأَنَا كُنْتُ السَّفِيرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ فَأَغْضَبْتُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَمْرِهِ فِيهِ وَمَا أَمْضَيْتُ وَحَابَيْتُ فِي حُكْمِهِ عَلَيْهِ وَمَا قَضَيْتُ وَخَفَّفْتُ أَثْقَالَهُ وَمَا ثَقَّلْتُ اعْتِقَالَهُ، حَتَّى تَخْطَى فِيهِ عَنْ حَظِّهِ السُّخْطَ، وَسَطَّ عَنْ شَاطِئِ ذَلِكَ الشُّطْطَ، وَغَضَّ بَصَرَ الْغَضْبِ وَخَبَا شَرُّ اللَّهَبِ، وَقَابَلْتُ سُوءَ الصُّنْعِ بِحُسْنِ الصَّنِيعِ، وَاسْتَنْزَلْتُ لَهُ الْأَمْرَ الْفَطَّ عَنْ الْأَمْرِ الْفَطِيعِ، وَكَانَتْ الدَّوْلَةُ السُّلْطَانِيَّةُ قَدْ شَارَفَتْ انْقِضَائَهَا وَانْقِضَاءَهَا وَفَارَبَتْ خُطُوبَاتِهَا لَمَّا قَارَبَتْ انْتِهَاءَهَا، وَأَخَذَتْ تَنْقُصُ مِنْ أَكْنَافِهَا وَتَنْتَقِصُ مِنْ أَطْرَافِهَا، وَبَدَا بِالسُّلْطَانِ مَرَضٌ طَوِيلٌ أَضْنَاهُ وَأَنْحَلَّهُ وَأَلْهَاهُ عَنِ الْمَمْلَكَةِ وَشَغَلَهُ، وَوَقَعَ الْفَنَاءُ فِي أَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكَابِرِ مَمْلَكَتِهِ، وَبَقِيَ السُّلْطَانُ مِنْ مَرَضِهِ فِي ذُوبٍ، وَمِنْ عَيْشِهِ فِي كَدْرٍ وَشُوبٍ، وَأَتَّفَقَ مَوْتُ الْأَصْحَاءِ مِنْ خَوَاصِهِ فَجَاءَةً، وَأَظْلَمَ أَفْقُ إِفَاقَتِهِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ إِضَاءَةً، وَخَارَ لَبُّهُ وَغَارَ قَلْبُهُ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الضَّعْفُ، وَفَتَحَ إِلَيْهِ بَابَ مَقْدَمَاتِهِ الْأُحْتَفِ، وَضَنِيَّ جِسْمَهُ وَفَنِيَّ، وَحَمَّ بِلَاؤُهُ وَبَلِيَّ، وَلَا زَمَةَ الْمَرَضُ إِذَا بِهِ قَدْ أَذَابَهُ، وَعَاصَهُ عَنْ عَذْبِهِ عَذَابَهُ، وَكَانَ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَسْمَعُ بِهَالِكٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَجَلِيلٍ قَدْ بَلَغَ بِهِ الْأَجَلَ إِلَى كِتَابِهِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ فَلَ شَبَابَهُ، وَأَنَّهُ يَنْتَقِلُ إِلَى التَّرَابِ مِنْ دَارِ جَاهِهِ مَعَ الدَّارِجِينَ مِنْ أَتْرَابِهِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] بِبَهْدَيْنِ الْبَيْتَيْنِ: [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

مَا زِلْتَ تَسْمَعُ مَا حَيَّيْ— [م] سَتِ بِهَالِكٍ حَتَّى تَكُونَ

وَالْمَرءُ قَدْ يَرْجُو الرَّجَا— [م] ءَ مُقَيَّبًا وَالْمَوْتُ دُونَهُ

فَأَرَادَ أَنْ يُؤَلِّيَ وَزِيرًا يُوصِي إِلَيْهِ بُولِيَّ عَهْدِهِ وَيَسْتَكْفِي بِهِ مَهَامَ الدَّوْلَةِ حَيْثُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِهَا مَنْ يَقُومُ بِالْمَمْلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِ.

## ذكر وزارة ربيب الدولة أبي منصور بن الوزير أبي شجاع

ذَكَرَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَرْبَابَ الْمَنَاصِبِ لَمَّا عَرَفُوا مَيْلَ السُّلْطَانِ إِلَى تَوَلِّيِّ وَزِيرٍ يَكْفِي الْمَهَامَ وَيَحْفَظُ النُّظَامَ وَيَكْفُلُ الْأُمُورَ الْعِظَامَ، وَيَكْمُلُ نَقْصَ وَلِيِّ الْعَهْدِ، وَيَسْتَقْبَلُ بِالنَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ، خَافُوا مِنْ اسْتِنَابَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بَطْلِ بَطَاشٍ وَمُسْتَجِيشِ بَشَابِ جَاشٍ، أَوْ كَافٍ كَافِلٍ أَوْ عَادٍ غَيْرِ عَادِلٍ، وَإِنَّهُمْ يُلُونُ إِمَامًا بَدِي حَتَّى عَلَيْهِمْ وَإِمَامًا بَدِي فَرَقَ مِنْهُمْ، فَيَدْبُ كَيْدَهُ إِلَيْهِمْ فَحَسَنُوا لِلسُّلْطَانِ طَلِبَ وَزِيرٍ مِنْ تَرْبِيَةِ دَارِ الْخِلَافَةِ فَإِنَّهَا دَارُ الْأُمَثَلِ وَالْأَعْيَانِ وَالْأَفَاضِلِ وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْخِصْرَةِ مَنْ يَصْلُحُ لِهَذَا الْمَنْصَبِ، أَوْ يَحْصُلُ بِهِ نَجْحُ الْمَطْلَبِ، فَاسْتَدْعَى رَيْبُ الدَّوْلَةِ بَنُ الْوَزِيرِ أَبِي شُجَاعٍ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى أَصْفَهَانَ وَسُدَّ بِهِ الْمَكَانَ، فَصَارَ لَهُ اسْمُ الْوِزَارَةِ بِالْوَرَاثَةِ، وَكَانَ لَا تَقَابُلَ بَيْنَ الدَّوْلَةِ الْمَرْصِيَّةِ الْمُتَلَاتِيَّةِ، وَكَانَتْ عَلَامَتُهُ (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى النِّعَمِ)، قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَكَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ أَيَّامِ عُمَرِ السُّلْطَانِ أَرْبَعِينَ خَمْسِينَ يَوْمًا وَقَدْ اسْتَحْصِدَ زَرْعَهُ، وَأَتَسَيَّخَ شَرْعَهُ، وَتَزَعْرَعَ أَصْلُهُ الْبَيْتِ فَرَعَهُ، وَاسْتَبْطَأَ فَنَادَاهُ مِنْ نَادِيهِ وَمَسَّهُ، وَقَارَبَ الْقُلُوصَ ظِلَّهُ وَالْعُرُوبَ شَمْسَهُ، وَأَخَذَ فِي الْإِنْطِفَاءِ سَمْعَهُ، وَشَرَعَ فِي الْإِنْحِدَارِ دَمْعَهُ. [الطويل]

أَسَأَلْتُ عَلَى الْخَدِيدِينَ دَمْعًا لَوْ أَنَّهُ مِنْ الدُّرِّ عِقْدٌ كَانَ دُخْرًا مِنَ الدُّخْرِ

وَكَانَ مَجِيءُ هَذَا الْوَزِيرِ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ كَمَا قِيلَ: [الكامل]

سَلَبَتْ مَعَاجِرُهُنَّ وَاجْتَلَيْتَ  
ذَاتُ النُّقَابِ وَتُوزَعُ الشَّنْفُ  
فَكَاتَهُنَّ لِكْفٍ مُنْتَهَبِ  
دُرٌّ تَكْشَفُ دُونَهُ الصَّدْفُ

وَكَانَ هُوَ كَمَا قِيلَ: [الكامل]

وَجَهُ كَعَبَادَانَ لَيْسَ وَرَاءَهُ  
لِمُحِبِّهِ شَيْءٌ سِوَى الْخَشْبِ

وقيل: [الوافر]

إِذَا جَاوَرَتْ كِسْوَتَهُ إِلَيْهِ فَلَيْسَ وَرَاءَ عِبَادَانَ قَرِيَةً  
وَتَمَثَّلُ أَنُوشِرَوَانُ بِهَذَا الْبَيْتِ بَارِدًا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَإِنَّهُ قِيلَ فِي صَبِيٍّ مَلِيحِ الْوَجْهِ عَارِي  
الْجَسَدِ مِنَ اللَّحْمِ، فَجَاؤُوا بِهَذَا الصَّنَمِ وَدَسَّوْهُ فِي الدَّسْتِ وَقَصَدَ بَتَرْبِيَتِهِ شُغْلَ الْوَقْتِ، وَلَمْ  
يَخْلُصِ السُّلْطَانُ مِنَ الْمَقْتِ، فَلَمْ يَحْصُلْ عَلَى غَرَضٍ، وَلَمْ يَظْفَرْ عَلَى وَزِيرِهِ الْأُولَى بِعَوْضٍ.

[مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

قَاتَلَكَ الدَّهْرُ بِالْعَجَائِبِ      قُلْ لِأَبِي الْقَاسِمِ الْمُرْجَا  
وَعَاشَ ذُو الشَّيْنِ وَالْمَعَائِبِ      مَاتَ لَكَ ابْنٌ وَكَسَانَ زِينَا  
فَلَيْسَ تَخْلُو مِنِّ الْمَصَائِبِ      حَيَاةَ هَذَا كَمَمَاتِ هَذَا  
قَالَ وَأَنْشَدَنِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ أْفَلَحِ الْبَغْدَادِيُّ لِنَفْسِهِ فِي رَجُلَيْنِ وَآتَتْ الْحَالُ فِيهِمَا كَالْخَالِ،  
فَأوردتُها هنا: [الكامل]

وَلَقَدْ ذَمَنْتُ مُحَمَّدًا حَتَّى إِذَا      صَاحِبْتُ سَعْدًا قُلْتُ نِعَمَ مُحَمَّدُ  
وَوَجَّهْتُ مِنْهُ خَلَاتِقًا مَا خَلَّتْهَا      لَوْلَا اخْتِبَارُ خِلَالِ سَعْدِ تَحْمَدُ  
زَيْفَانٍ إِلَّا أَنَّ هَذَا كُتِبَ      مَسٌّ وَذَاكَ عَلَى الرَّدَاءِ عَسَجْدُ  
وَاتَّفَقَ مَوْتُ الْكِفَاةِ وَصَمَّهْمُ حَبْلُ الْوَفَاةِ، وَتَنَاقَرُوا تَنَاقَرُوا وَرَقَ الْخَرِيفِ، وَتَفَرَّقُوا تَفَرَّقُوا  
سَحَابِ الصَّيْفِ، وَمَزَجَتْ لَهُمُ الْاُمْنِيَّةُ صَرْفَ الصُّرُوفِ، وَاسْتَجَابُوا لِدَاعِي الْمَنُونِ الْهَتُوفِ،  
وَكَانُوا كَالنَّجُومِ طَلَعَ عَلَيْهِمُ الصَّبَاحُ، وَكَالْمَصَابِيحِ صَادَقَتْهَا الرِّيحُ، وَكَالنُّوَارِ اقْتَطَفَهُ الْقَاطِفُ،  
وَكَالنَّقُودِ انْتَقَدَهَا الصَّيَارِفُ، وَكَالْأَشْجَارِ اقْتَلَعَتْهَا الرِّيحُ الْعَاصِيفُ، وَالْأَغْصَانِ عَبَتْ بِهَا وَعَاثُ  
فِيهَا الْقَاصِيفُ، يَفُوتُهُمْ بَاعَثُ النُّورِ وَأَفْصَحَ عَنْهُمْ بَاغِي الرَّدَى، وَاسْتَبَاحَ الْجِمَامُ مِنْهُمْ مَصُونُ  
الْحِمَى، وَكَمْ يَبَقُ فِي تِلْكَ الْأَمْدَةِ الْيَسِيرَةِ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ كَبِيرٌ مَوْصُوفٌ، وَلَا مِنَ الْأَمْرَاءِ الْأَكْبَارِ  
مَعْرُوفٌ، فَصَارَ الْأَتْبَاعُ أَصُولًا وَالْأَقْطَاعُ نُصُولًا، وَالنُّصَالُ قُرُومًا وَالْأَمَالُ نُجُومًا، وَالذَّرَارِي  
شُمُوسًا وَالْأَذْنَابُ رُؤُوسًا، فَرَفَعَ كُلُّ نَابِغٍ لِلتَّصَدُّرِ رَأْسَهُ وَمَلَأَ كُلُّ فَارِغٍ بِالرَّصْدِ كَأَسِهِ، وَتَرَجَّى  
كُلُّ خَائِبٍ وَتَجَرَّأَ كُلُّ نَائِبٍ، وَجَدَّ كُلُّ لَاعِبٍ، وَشَدَّ كُلُّ جَادِبٍ، وَرَجَا كُلُّ ذَاهِبٍ، وَطَلَعَ كُلُّ  
غَارِبٍ، وَكَمْ يَبَقُ فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْقَدَمَاءِ إِلَّا مُخْتَصَّصُ الْمُلْكِ الْمُسْتَوْفِي وَالْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْمَاعِيلَ  
الطُّغْرَائِيُّ، فَأَمَّا الْمُخْتَصَّصُ فَإِنَّهُمْ عَزَلُوهُ وَاعْتَقَلُوهُ وَنَهَبُوهُ وَسَلَبُوهُ، وَقَرَّرُوا عَلَيْهِ خَمْسِينَ أَلْفَ  
دِينَارٍ لِلْخِزَانَةِ، وَلَحَظُوا خِيَانَتَهُ بَعْدَ الْأَمَانَةِ، ثُمَّ أَخَذُوا حَظَّهُ بِأَنَّهُ لَا يَخْطُبُ مَا عَاشَ عَمَلًا،  
وَلَا يَسْتَنْجِحُ مَا طَالَ أَمْدُ عَمْرِهِ أَمَلًا، وَلَا يَسْتَنْبِحُ فِي رَجَائِهِ اللَّيْلِ الْجَلِي، وَلَا يَجْلُو فَضْلَهُ  
بَيْنَ الْأَفْضَلِ الْأَجْلَاءِ فِي الْجَلِي، وَخَلَّوْا سَبِيلَهُ وَمَا خَلَّوْا لَهُ إِلَى ثَرْوَةِ سَبِيلًا، وَأَخَذُوا مَا  
كَانَ لَهُ فَلَمْ يَبْرَكُوا لَهُ كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا، وَأَزَالُوهُ عَنِ مَنزِلَتِهِ وَأَلْزَمُوهُ مَنزَلَهُ، وَتَرَكَوا حِلْيَتَهُ وَأَبْقُوا  
عَلَيْهِ عَطْلَهُ، فَأَقْلَبَتْ بِخُدَيْعَةِ الذَّقَنِ، وَعَدَّتْ سَلَامَتَهُ مِنَ الْمِنْحِ فِي تِلْكَ الْمِنْحَنِ، فَتَوَلَّى دِيوَانَ  
الاسْتِيفَاءِ كِمَالَ الْمُلْكِ عَلِيِّ السَّمَيْرِيِّ وَعَلَا مِنْهُ الْأَمْرُ وَحَلَا لَهُ الْمُرُّ، وَاسْتَقَلَّ كِمَالَ الْمُلْكِ

وَاسْتِقَامَ وَسَمَا وَرَمَى وَرَامَ وَوَقَعَ وَأَوْقَعَ وَصَرَ وَفَنَعَ، وَتَحَكَّمَ وَحَكَمَ وَتَسَمَّرَ وَتَسَمَّ، وَحَلَا وَجَلَا وَأَجَالَ فِي الْمَعَالِي الْقِدْحِ الْمُعَلَى، وَالْوَزِيرُ هَيْنٌ لَيْنٌ، وَعَجْزُهُ عَنِ الْبَطْشِ بَيْنٌ، وَالْكَمَالُ فَارِسٌ عَلَى عِلْمِهِ مِنَ الْقَدْحِ مَكْمَنًا أَشَاعُوا بَيْنَهُمْ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَأَنَّهُ فِي السَّحْرِ عَن تَبَاعِدِ الْجِدْقِ حَاسِرٌ، وَأَنَّهُ فِي هَذِهِ الصَّنِيعَةِ مَاهِرٌ، وَأَنَّ مَرَضَ السُّلْطَانِ رُبَّمَا كَانَ بِسِحْرِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَصْرَفَ عَن تَصْرِفِهِ فَلَا أَمِنْ أَمْرُهُ فَبَطَّلُوهُ وَعَطَّلُوهُ وَعَازَلُوهُ وَعَزَلُوهُ، وَعَادَ الْخَطِيرُ الَّذِي كَانَ وَزِيرًا يَمُدُّ الطُّغْرَاءَ وَيَخْطُهُ، وَلَمْ يُضِرَّهُ عَن دَرَجَةِ الْوِزَارَةِ حَطُّهُ، وَكَانَ قَدْ خَلَا دَرَكَاهُ السُّلْطَانِ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْكَبْرَاءِ، فَإِنَّهُ كَانَ سَعْلَهُمْ بِمُحَاصِرَةِ قَلْعَةِ الْأَمْوَاتِ مَعَ الْأَمِيرِ الْكَبِيرِ أَنْوَشْتَكِينَ شِيرْكِينَ، وَلَقَدْ كَانَ شَهْمًا شَدِيدًا وَسَهْمًا سَدِيدًا وَسُمًّا دُعَافًا عَلَى الْعَدُوِّ، وَمَوْتًا زَلْفًا عَلَى أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالْعَتُوِّ، وَلَوْ لَا مَوْتُ السُّلْطَانِ لَبَسَطَ عَلَى الْأَمْوَاتِ وَلَمْ يَتْرِكْ فُرْصَةً فَتَجِهَا أَنْ تَفُوتَ، وَهَوَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَهَا حَاصِرٌ وَاللَّهُ لَهُ نَاصِرٌ، فَصَيَّرَ السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ عَلِيَّ بْنَ عُمَرَ حَاجِبَهُ الْكَبِيرَ وَأَسْمَى مَكَانَهُ الْأَنْبُرَ، وَكَانَ الْبَارِ يَعْنِي أَمِيرَ الْإِذْنِ وَأَمِيرَ الْبَارِ هُوَ الْإِذْنُ عَنِ السُّلْطَانِ إِذَا اجْتَمَعَ الْأَكَابِرُ، وَالْأَمِيرُ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ مُشَافَهَةَ السُّلْطَانِ فَيُؤَدِّيهِ إِلَى الْوَزِيرِ فَهَوَ النَّاهِي الْأَمِيرَ.

قَالَ أَنْوَشْرَوَانُ فِي مُصَنَّفِهِ: خَرَجَ الْوَزِيرُ الرَّيْبِيُّ مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ذَاتَ يَوْمٍ مَعَ الْأَمِيرِ الْحَاجِبِ الْكَبِيرِ وَمَعَهُمَا خَادِمٌ مِنَ الْخَوَاصِّ وَاسْتَدْعَوْنِي، وَمِنْ ثُوقِي بِاللَّهِ قَدْ اسْتَدَّ عَوْنِي، فَحَضَرْتُ حَاضِرَ الرَّايِ وَالرَّوِيَّةِ، فَقَالَ لِي الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ وَالْخَادِمُ بِمَحْضَرٍ مِنَ الْوَزِيرِ يَقُولُ السُّلْطَانُ لَكَ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّكَ دَبَّرْتَ الْمَمْلَكَةَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَأَبْتَّتْ بِالتَّدْبِيرِ الْحَسَنَةِ، وَالْآنَ قَدْ حَصَلْنَا عَلَى وَزِيرٍ مُوَافِقٍ لِلْمَرَادِ مُوَافِقٍ لِلْسُّدَادِ، لَكِنَّهُ غَرِيبُ اللِّسَانِ وَالْيَدِ، وَتَصَعَّبُ عَلَيْهِ مُبَاشَرَةُ غَيْرِ التَّعَوُّدِ، وَهوَ كَافٍ وَمِنْ الْكُدْرِ صَافٍ وَبِالْأَمْرِ وَافٍ، غَيْرَ أَنَّهُ غَيْرُ خَبِيرٍ بِعَادَتِنَا وَلَا بِصَيَّرِ بَرَادَتِنَا، وَأَنْتَ لَهَا بِالْحَزْمِ طَائِرٌ وَنَشَا شَرٌّ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ مَقَاصِدَنَا وَتَعْلَمُ عَوَائِدَنَا وَوُثُقَنَا بِمَعْرِفَتِكَ لِمَعْرِفَتِنَا بِوُثُوقِكَ وَعَرَفْنَا حَقِيقَ بَعْرِفَانِ حَقُوقِكَ وَتَرِيدُ أَنْ تَبْصُرَ الْوَزِيرَ بِالرَّسُومِ وَتُرْشِدَهُ إِلَى الرَّسْمِ الْمَرُومِ وَالْمَرَامِ الْمَرْسُومِ، وَتَهْدِيَهُ إِلَى الْمَصْلِحَةِ وَتُفَقِّهَهُ عَلَى الْفَائِدَةِ الْمُرَجَّحَةِ، وَلَا تَنْظُرَنَّ أَنَّكَ حَصَلْتَ عِنْدَنَا بِمَنْ سَعَى عَلَيْكَ وَأَشَارَ بِالشَّرِّ إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ كَمَا قِيلَ فِي سَوَالِ السُّوءِ قِيلَ فِيكَ وَأَنَا نَصُونُكَ عَن عَادَةِ قَوْلِ إِعَادَتِكَ فَاعْرِفْ لَنَا إِضْرَابَنَا فِيكَ عَن إِضْرَابِ التَّضْرِيْبِ وَتَعْمِيمِنَا الْجَمَاعَةَ بِالإِبْعَادِ وَتَخْصِيصِكَ بِالتَّقْرِيْبِ، فَإِنْ خَالَفْتَ أَمْرَنَا

في مُؤَاوَزَةِ الْوَزِيرِ وَهَدَايَتِهِ إِلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ أَثَرَتْ مِنَّا رَابِضًا، وَأَنْبَطَتْ مِن غَيْظِنَا غَايِضًا، وَصَدَفْنَا فِيكَ مَا كَذَّبْنَاهُ وَأَمَرْنَا مِن شُرْبِكَ مَا أَعَدَّبْنَاهُ، وَأَنْتَهَتْ بِكَ الْعَاقِبَةُ إِلَى نِهَايَةِ الْعُقُوبَةِ، وَعَدِمَتْ مِن خُلْفٍ لُطْفِنَا دَرَّ الْخُلُوبِيَّةِ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي، وَلَمْ أَحْسَسْ بِحَسِّي، وَأَبَيْتُ وَاسْتَعْفَيْتُ وَرَعَيْتُ مِمَّا وَعَيْتُ، وَقَلْتُ إِلَيَّ بِالْخِدْمَةِ خَيْرٌ وَمَالِي بِهَا مَنَفَعَةٌ بَلْ مَضْرَةٌ، فَأَيُّ وَثُوقٍ لِي وَقَدْ رَأَيْتُ بِالْأَمْسِ أَكْبَارَ الدَّوْلَةِ مُقَرَّرِينَ مُكْرَمِينَ مُجَبَّلِينَ مُعْظَمِينَ مَقْبُولِينَ مُقَدَّمِينَ، فَأُبْعِدُوا مِن بَعْدِ قُرْبٍ، وَأُخِذُوا بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَعُزِّلُوا وَلَا أَعْرِفُ لِعَزْلِهِمْ سَبَبًا، وَصُرِفُوا وَلَا أَعْرِفُ لِصُرْفِهِمْ مُوجِبًا، ثُمَّ مَنْ يُؤْمِنُنِي أَنْ يَتِمَّ فِي أَمْرِي غَدًا مَا تَمَّ فِي أَمْرِهِمْ، وَيَصَحَّ مِن كَسْرِي مَا صَحَّ مِن كَسْرِهِمْ، وَإِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ اسْتَحَقُّ بِهِ عِقَابًا وَخَطَأٌ تَجَنَّبْتُ بِهِ صَوَابًا، أَوْ سَيِّئَةٌ اسْتَوْجِبُ بِهَا عِتَابًا، فَعَجَّلُوا الْيَوْمَ مُجَازَاتِي وَأَسْرِعُوا فِي مُوَاظِمَتِي وَأَسْرِعُوا فِي مُكَافَأَتِي فَإِنَّ مُوَاخَذَتِي الْيَوْمَ بِغَيْرِ حِجَّةٍ أَوْلَى مِن مُوَاخَذَتِي غَدًا بِحِجَّةٍ، وَمَا أَوْثُرُ أَنْ أَكُونَ مَعَكُمْ فِي الْخِدْمَةِ عَلَى غَيْرِ مَحَجَّةٍ، وَهَذَا جِزَائِي حَيْثُ وَقَفْتُ نَفْسِي عَلَى خِدْمَةِ الْمَخْلُوقِينَ الَّتِي عَاقِبْتُهَا خَسَارٌ وَخَاتَمْتُهَا دَمَارٌ، وَحَاصِلُهَا مَضَلَّةٌ وَلَذَّتْهَا ذِلَّةٌ، وَغَايَتُهَا غِيَايَةٌ وَتَجَلَّيْهَا غِيَايَةٌ، وَسُرُورُهَا غُرُورٌ وَحُبُورُهَا بُثُورٌ، وَمَسْرَتُهَا مَسَاءَةٌ وَجُودُهَا رَدَاءَةٌ، وَهَيْبَتُهَا هَيْبَاءَةٌ وَدِينُهَا دِنَاءَةٌ، وَنَعْمَتُهَا كَلْفٌ وَنَعْمَتُهَا قَشْفٌ، وَأَمْلُهَا أَلَمٌ وَصِحَّتُهَا سَقَمٌ، وَعَمَلُهَا هَمٌّ وَعَسَلُهَا سُمٌّ، وَالسُّلْطَانُ نَارٌ مَن قُرْبَ مِنْهَا أَحْرَقَتْهُ، وَلُجَّةٌ مَن رَكِبَ فِيهَا أَغْرَقَتْهُ، وَكَلَامُ أَنْوَشِرَوَانَ بِالْفَارِسِيِّ مُخْتَصَرٌ وَرَفَّتْ عَلَى مَعْنَاهُ، وَرَوَقْتُ حُمَيَّاهُ، وَجَلَوْتُ مُحَيَّاهُ، وَعَرَفْتُ رِيَّاهُ، وَرَوَيْتُ رَوَايَتِي فِي رَوَايَتِهِ وَاکْتَفَيْتُ بِعِبَارَتِي وَبِعِبَارَتِهِ، وَإِذَا وَجَدْتُ ذِيلاً سَحَبْتُهُ، وَإِذَا أَلْفَيْتُ مِنَ الْمَعْنَى إِلْفًا صَحَبْتُهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا عَرَّبْتُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَنَسَبْتُهُ فَإِنَّ أَوَّلَ الْخَيْرِ لَهُ وَوَلِي فُرُوعُهُ، وَمِن خَاطِرِي مَعِينُ الْمَعْنَى وَيُنْبِوعُهُ، وَمِن ذَلِكَ مَا لَمْ أُسَجِّلْ ذَكَرَهُ مِن تَلْمٍ وَتَلْبٍ وَسَبِّ وَعَضِيهَةٍ وَعَظِيمَةٍ وَقَذْفٍ وَشْتِيمَةٍ، وَهَجْرٍ وَهُجْرٍ وَرُؤُورٍ وَوُزِيرٍ، فَإِنَّهُ كَانَ مَنَافِسًا لَهُمْ فِي الْعَمَلِ، وَغَابِطًا حَلِيهِمْ عَلَى الْعَطَلِ، وَقَدْ يَجْرِي مِنْهُمْ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْمُتَنَافِسِينَ عَلَى النَّفْسِ مِن حَقْدِ الْقُلُوبِ وَضَغْنِ النُّفُوسِ، وَقَصَدَهُمْ كَمَا قَصَدُوهُ وَحَقَدَهُمْ كَمَا حَقَدُوهُ، فَذَكَرَهُمْ عَلَى حَيْفٍ وَدَخَلَ وَعَابَ مِنْهُمْ بِالنَّقْصِ كُلِّ ذِي فَضْلِ، وَصَنَّفَ وَمَا أَنْصَفَ، وَلَوْ خَلَصَ وَصَفًا أَخْلَصَ فِيهَا وَصَفَ وَأُورِدَ.

قِيلَ لِبَعْضِ الزُّهَادِ: مَا لِفِلَانٍ بَعْدَ هِمَّةٍ حِينَ لَا يَطْلُبُ صَحْبَةَ السُّلْطَانِ. قَالَ: لَمْ يَقْصُرْ هِمَّةً

مَنْ أَنْتَقَى الْأَثَامَ، وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: إِنْ وَجَدْتَ عَنِ السُّلْطَانِ وَصْحِيَّتَهُ غَنَى فَاَسْتَعْنِ عَنْهُ فَإِنَّهُ مَنْ يَخْدُمُ السُّلْطَانَ بِحَقِّهِ يَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ يَخْدُمُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ يَحْتَمِلُ الْفُضِيحَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْوِزَرَ فِي الْآخِرَةِ.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: فَلَمَّا سَمِعُوا مِنِّي هَذَا الْجَوَابَ، وَعَرَفُوا مِنْ رَأْيِي الْاجْتِنَابَ، اسْتَشْهَدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَحَلَفُوا إِلَيَّ أَنَّهُمْ رَأَوْا رَأْيَ السُّلْطَانِ فِي جَمِيلًا، وَأَنَّهُمْ عَرَفُوا مَحَلِّي عِنْدَهُ جَلِيًّا جَلِيلًا، وَقَالُوا لِي لَا مَصْلَحَةَ لَكَ إِلَّا أَنْ يُقَالَ الْأَمْرُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَتَبَدَّلَ فِي الْخِدْمَةِ غَايَةَ الْوَسْعِ وَالِاسْتِطَاعَةَ، وَغَلَبُوا عَلَيَّ رَأْيِي وَقَبِلْتُ وَتَلَقَّيْتُ الْإِنْعَامَ بِالشُّكْرِ، وَقَابَلْتُ وَدَخَلْتُ فِي الْأَمْرِ كُرْهًا وَطَوْعًا، وَقُلْتُ طَاعَةٌ وَسَمْعًا، وَلَمَّا مَضَى شَهْرٌ اشْتَدَّ مَرَضُ السُّلْطَانِ وَبَلَغَ الرَّجَاءُ فِيهِ الْيَأْسَ، وَوَجَدَ بِالْعَدَمِ الْإِحْسَاسَ، وَأَصْبَحَ يَعْذُ الْأَنْفَاسَ، وَاسْتَعْلَى بِالْأَسَى عَنِ الْأَسَى، وَعَرَى عَنِ اللَّحْمِ عَظْمُهُ الْكَاسِي، وَأَمَرَ بِالْحِجَابِ، وَحُجِبَ عَنِ الْأُمَرَاءِ، وَأَيَّقَنَ أَنَّ الْقَدَرَ لَا يُرْعَى لَهُ ذِمَامٌ مَا بَقِيَ مِنَ الدَّمَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ إِلَّا الْأَمِيرُ الْحَاجِبُ عَلِيُّ بْنُ عَمْرِ بْنِ سَرْمَةَ، فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ كَلَامَهُ وَيُنْفِذُ بِالتَّبْلِيغِ أَحْكَامَهُ، وَسَمَى حَدِيثَهُ وَصِيَّةً وَجَعَلَ نَفْسَهُ وَصِيًّا، وَعَدَّ مُصَدِّقَهُ طَبْعًا وَالْمُسْتَرِيبَ بِرَأْيِهِ الرَّائِبَ عَصِيًّا، وَلَمَّا قَرَّبَ الْأَجَلَ وَحَلَّ الْوَجَلَ ذَكَرَ الْأَمِيرُ الْحَاجِبُ أَنَّ السُّلْطَانَ أَمَرَ بِأَخْرَاجِ مَائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ مِنَ الْخَزَانَةِ لِإِرْضَاءِ الْحُضُورِ وَإِشْكَائِهِمْ، وَالِاسْتِحْلَالَ مِنْ فُقَرَاءِ الرِّعْيَةِ وَإِغْنَائِهِمْ، فَتَسَلَّمَ ذَلِكَ الْمَالَ وَقَبَضَهُ، وَتَصَرَّفَ فِيهِ مَا وَافَقَ غَرَضَهُ، وَكَانَ وَزِيرَ الْأَمِيرِ الْحَاجِبِ الْكَبِيرِ حَيْثُ نَذِي أَبُو الْقَاسِمِ الدَّرَكْزِينِيُّ وَتَلَقَّبَ بِزَيْنِ الدِّينِ، فَمِنْ ذَلِكَ الْمَالِ تَمَوَّلَ، وَاسْتَكْتَرَّ الْعَبِيدَ وَالْخَوْلَ، وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ غِنَاهُ وَرِعَانِهِ نُجْحِ مَنَاهُ، وَأَمَرَ الْعَسْكَرَ بِمُبَايَعَةِ وَلِيِّ الْعَهْدِ وَمُتَابَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَمُشَايَعَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ جَلُوتِهِ عَلَى السَّرِيرِ وَإِجْلَاسِهِ، وَوُقُوفِ الْأُمَرَاءِ وَالْعِظْمَاءِ عَلَى رَأْسِهِ، وَقِيلَ لِلْسُّلْطَانِ مَرَضُكَ بِسِحْرِيٍّ وَمَضْمُوكَ خَفِيٌّ، وَإِنَّمَا سَحَرْتَاكَ زَوْجَتَاكَ وَذَهَبَتْ لِحُصَّتَيْهَا صِحَّتُكَ، فَأَعْصَلَ دَاوُوكَ وَبَطَّلَ دَاوُوكَ، وَحَطَّوَا بِكَيْدِهِمُ الْمُبِيرِ مِنْ أَوْجِهِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ، وَوَسَّوَا بِتِلْكَ الْمَوْقُوفَةِ الْمَرْمُوقَةِ، وَتَمَّ بِالتَّفَاقِ عِنْدَ الْمُلُوكِ تَفَاقُ سَوَاقِ الشُّوقَةِ، وَسَعَوْا بِالْمَلِكَةِ بِنْتِ الْأَمْلَاكِ، وَخَافُوا مِنْ حُكْمِهَا قَدْبَرُوا لَهَا بِالْهَلَاكِ، وَحَمَلُوا السُّلْطَانَ عَلَى أَنْ كَحَلَهَا وَسَمَلَهَا، وَحَبَسَهَا فِي بَيْتِ ضَيْقٍ وَاعْتَقَلَهَا، وَأَتَلَفَ السُّلْطَانُ عَدَّةً مِنْ حَوَاشِيهَا وَعِصَابَةً مِنْ جَوَارِيهَا، ثُمَّ أَخْرَجُوا خَاتَمَ السُّلْطَانِ وَقَالُوا إِنَّهُ أَمَرَ بِخَنْقِهَا، وَدَخَلَ إِلَيْهَا مِنْ شَدِّ الْوَتْرِ فِي حَلْقِهَا، وَمِنْ عَجَبِ الْقَدْرِ وَمَقْدُورِ

العجب أن الزوجين تُوِّفِيَا في ساعةٍ واحدةٍ على العطبِ، فآلخاتونُ في بيتها حُنِقَتْ والسُلطانُ على فراشه نفسه زُهِقَتْ، وذلك في آخرِ سنةٍ إحدى عشرةَ وخمسمائةٍ، وقد كانت أيامُهُ أيامَ لِلْأَيامِ وَمَراحِمَ لِلنِّيامِ، وَرُسومُهُ جائزَةٌ غيرَ جائرةٍ، وَأحكامُهُ راضيةٌ غيرَ ضائرةٍ وَهَيْبَتُهُ مانعةٌ وَهَيْبَتُهُ راتعةٌ، وَحِصاهُ مُبيناً وَحِجاءُ رَصيداً وَدِينُهُ متيناً، وَشَرعُ علمِهِ في العملِ بِالشَّرعِ مُبيناً، وَكانَ رَجُلَ السِّلجِيَّةِ الكَاملِ وَفَحْلَهُمُ البازلُ، وَلَهُ الأثارُ الأحميدةُ وَالآراءُ السَّديدةُ، وَلَمَّا حَسُنَتْ سِيرَتُهُ وَكَمَلَتْ دولَتُهُ وَتَمَّ إقبالُهُ وَأبدَرَ هلالُهُ وَأصَحَّتْ سَمائُهُ وَسَبَّغَتْ نَعماؤُهُ وَطابَ هواؤُهُ وَصَفاهُ ماؤُهُ وَآلَتْ آلاؤُهُ أَنْ يُغَيَّبَ الفَقيرَ وَيَجْبُرَ الكَسيرَ وَيُنْفِكَ الأسيرَ وَيَكفِّ الأُمُغِيرَ وَيُجِيرَ الرَاجيَ وَيُجيبَ الداعيَ وَيُسديَ المَعرُوفَ وَيُعديَ المَلهوفَ وَيَكفِي المَضمِيمَ وَيَكفُلَ البَيتِمَ وَيَحميَ الأَحرِمَ وَيَعَدِمُ الإعدامَ وَيَقْلَعُ قِلاعَ المُملِجِدينَ وَيُعَلِي أعلامَ المَوحِدِينَ قَبضَ القِضاءِ يَدَهُ وَقَصَرَ أَمَلَهُ وَأمدَهُ وَعَوَّرَ جَدَّهُ وَعَوَّرَ جَدَّهُ وَكَوَّرَ شَمْسَهُ وَأدوى غرسَهُ وَمَحَا نَفْسَهُ وَنَفَسَهُ، وَغَيَّضَ بَحْرَهُ وَغَيَّبَ بَدْرَهُ، وَأحالَ عَهْدَهُ وَحَلَّ عَقْدَهُ، وَخَلَجَلَ طَوْدَهُ وَأعطَبَ عودَهُ، وَقَطَفَ نَوْرَهُ وَأخفى تَحْتِ الثرى بَهوْرَهُ وَفوقَ التَخِيتِ ظهوْرَهُ، وَاستشهدَ أنوشروانَ في مَريثَتِهِ بِأبياتٍ مِنْها لِلرِياشي (1): [الكامل]

بَيْنَ الصَّفائحِ وَالثَّرى رِيحانَةَ  
وَإِذا تَذَكَّرْتُ الَّذي فَعَلَ البَلي  
وَلابِنِ نُباتَةَ (2): [الوافر]

نَظَرْتُ فَمَ أرى إِلا غَفولاً  
وَبَعَدَ الأَرِيحى أبايَ شِجاعِ  
أَلا يا عَينُ فأنجِ فِلي عَليهِ  
بِناجِ المَلَكَةِ انتَفَرَتِ دُموعِي  
فَإِن أَكُ قَد جَزَعْتُ وَسُرَّ قَومُ  
يَمُدُّ رِجاءَهُ الطَّمَعُ الكَذوبُ  
يُسَرُّ بِعَيشِهِ الفَطَنُ اللَبيبُ  
وَإِن قَرَحْتَ جَفونُكَ وَالغَروبُ  
وَأسرَعُ في تَحَمُّلي النَجيبُ  
بَأني لِلنَّوائِبِ مُسْتَجيبُ

(1) الرياشي: أبو الفضل، العباس بن الفرج بن علي بن عبد الله الرياشي البصري، من الموالى، لغوي راوية، عارف بأيام

العرب، وولد في البصرة سنة 177 هـ، ووجها قتل أيام حركة الزنج سنة 257 هـ، له عدد من الكتب في اللغة.

(2) ابن نباتة السعدي: أبو نصر، عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن نباتة التميمي السعدي، من شعراء سيف الدولة الحمداني، وولد سنة 327 هـ، طاف البلاد ومدح الملوك واتصل بابن العميد ومدحه، توفي ببغداد سنة 405 هـ، له ديوان مطبوع بتحقيق المرحوم عبدالامير الطائي.

وَصَبْرٌ لَيْسَ يُفْنِيهِ الْكُرُوبُ  
كَمَا يَتَنَاوَدُ الْغَصْنُ الرُّطِيبُ  
وَتَحْتَ لِحَائِهِ مَثْنٌ صَلِيبُ  
وله: [الوافر]

فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْهَا فِي صَلَاحِ  
كَمَا يُفْتَرُّ بِالْحَدِيقِ الْمِلاَحِ  
يَحُسُّ فَيَشْتَكِي أَلَمَ الْجِرَاحِ  
وَحَرْمَانَ الْعَطِيَّةِ كَالنَّجَاحِ  
فَلَا يَفْرُرُكَ أَنْفَاسُ الرِّيحِ

وتوفي أمير المؤمنين المستظهر بالله [رضي الله عنه] بعد وفاة السلطان [رحمه الله] بمدة يسيرة، وتحوّلت الدولتان وحالت الحالتان وتفصّلت الجملتان وتزحلت الخلتان وتلّت الثلتان، وقد أورد أنوشروان في ذم الدنيا أبياتاً بالفارسية للعنصري مزدوجة ألممت بتعريبها وقلّت: [المتقارب]

لأبنائها شهدا سئما  
تغيب تحت الثرى خلقها  
إلى تحتها نقل من فوقها  
وتبدل في الصّون مجهودها

فَلِي نَفْسٌ عَلَى الزَّقَرَاتِ بَاقٍ  
وَقَدْ تَتَاوَدُ السُّمْرُ الْعَوَالِي  
كَعَمُودِ النَّبْعِ يُحْسِبُ فِيهِ لِينٌ  
وله: [الوافر]

وَعَايَةُ هَذِهِ الدُّنْيَا فَسَادٌ  
وَقَدْ فُتِنَ الْأَنْامُ بِهَا وَعُورُوا  
أَمَّا فِي أَهْلِهَا رَجُلٌ أَرِيبٌ  
أَرَى التَّشْمِيرَ فِيهَا كَالْتَّوَانِي  
وَمَنْ لَبَسَ التُّرَابَ كَمَنْ عَالَه

هي الدنيا مذ رسمت رسمها  
لذلك مذ خلقت خلقها  
تسرى دائماً للردى سوقها  
تربى وتحفظ مولودها  
وقال: [المتقارب]

وَتَنْظُمٌ مِنْ وَرْدِهِ سِلْكُهُ  
وَقَارَنَ إِحْسَانَهُ حُسْنُهُ  
وَدَارَتْ عَلَى الْقَمَرِ الْهَالَةُ  
وَزَفَّ التَّصَابِي وَزَفَّ الصَّبَا  
وَشَاقَ الْقُلُوبَ بِأَشْبَالِهِ  
وَعُلِّقَ بِالْخَيْرِ مِنْهُ الْأَمَلُ  
وَبَنَّتْ حِبَالَ الْمُتَنَّى مِنْ يَدَيْهِ

تَحُطُّ عَلَى وَرْدِهِ مَسْكُهُ  
إِلَى أَنْ تَمَّا سَامِيًا غِصْنُهُ  
وَرَأَيْتَ لِحَلِيَّتِهِ الْحَالَةَ  
وَرَأَى الشَّبَابُ وَرَقَّ الشُّبَا  
وَمَسَّالَ الْقُبُوبُ بِإِقْبَالِهِ  
وَقَالَ السُّورِيُّ إِنَّهُ قَدْ كَمَلَ  
أَنَّهُ الْمَنْوُونُ وَأَخْنَتَ عَلَيْهِ

وَعَادَ تَرَى الْأَرْضَ وَهُوَ الَّذِي  
 هِيَ السَّادُّ دَاخِلَهَا خَارِجٌ  
 وَكُلُّ رَفِيعٍ بِهَا مُنْخَفِضٌ  
 هِيَ الْأُمُّ تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا  
 أَدُو الْعَقْلِ فِي عَيْشِهَا يَرْعَبُ  
 وَمَنْ عَجِبَ أَنََّّهُ يَفْرَحُ  
 أَنْعَمَ نَفْسٌ تَعُدُّ النَّفْسَ  
 فَمَا يَكْسِبُ الْمَرْءُ لَا يَصْحَبُهُ  
 يَشُدُّ لِمَنْ رَدَى رَحْلَهُ  
 أَيَا سَاكِنَا فِي الثَّرَى ثَاوِيَا  
 حَلَلْتَ لِأَجْلِ بِلَايِ الْبِلَى  
 بَرَعَمِي أَنْ حَلَّ فِي رَمْسِهِ  
 وَخَلَفَ السُّلْطَانَ خَمْسَةَ بَنِينَ وَهُمْ: مَحْمُودٌ وَمَسْعُودٌ وَطَغْرُلٌ وَسَلِيمَانٌ وَسَلْجُوقٌ، وَكُلُّهُمْ  
 تَوَلَّى السُّلْطَنَةَ سِوَى سَلْجُوقٍ، وَسَيَاتِي ذَكَرْتُهُمْ فِيمَا بَعْدُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذَكَرَ جُلُوسَ السُّلْطَانَ مَغِيثِ الدُّنْيَا وَالِدِ ابْنِ أَبِي الْقَاسِمِ مَحْمُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ  
 مَلِكْشَاهِ يَمِينِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

جَلَسَ عَلَى التَّخْتِ مَكَانَ الْوَالِدِ وَاسْتَقَرَّ مِنَ الْمُلْكِ فِي أَعْلَى وَسَائِدِهِ وَأَحْكَمَ قَوَاعِدَهُ،  
 وَحَضَرَ النَّاسُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ لِلْهَنَاءِ، وَجَلَوْهُ فِي دَسْتِ السَّنَا وَالسَّنَاءِ، وَقَبَلُوا الْأَرْضَ وَأَدْوَانَ  
 إِقَامَةِ الرَّسْمِ الْقَرَضِ، وَوَقَفَ الْعِظَمَاءُ وَالْكَبْرَاءُ سِمَاطِينَ عَلَى تَرْتِيبِ أَقْدَارِهِمْ وَقَدَرِ مَرَاتِبِهِمْ،  
 وَتَنَاسَقُوا عَلَى دَرَجَاتِهِمْ فِي مَرَاقِي مَرَاqِيهِمْ.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَتَقَدَّمَ الْوَزِيرُ الرَّيْبِيُّ وَصَعَدَ إِلَى السَّرِيرِ لِلتَّهْنِئَةِ وَتَقَبَّلَ الْيَدَ وَنَزَلَ وَتَقَدَّمَ  
 الْخَطِيرُ بِحُكْمِ أَنَّهُ كَانَ وَزِيرًا لِيَفْعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ، وَكَانَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لِلشَّيْخُوخَةِ وَالتَّقَدُّمِ  
 يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَدَّمَ وَيُبَجَّلَ، فَزَاخَمَهُ السُّمَيْرِيُّ وَأَخْرَجَهُ وَتَقَدَّمَهُ وَلَمْ يَعْرِفْ سَابِقَتَهُ وَخَدَمَتَهُ لِلدُّوْلَةِ  
 وَقَدِمَهُ، فَأَقَامَ الْخَطِيرُ رَسْمَ التَّهْنِئَةِ لِبَعْدِهِ وَلَزِمَ كُلُّ مَنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ حَذَّهْ، وَأَنَا أَيْضًا أَقَمْتُ

رَسْمَ التَّهْنِئَةِ وَوَفِّيَتْ حَقَّ التَّوْفِيَةِ<sup>(1)</sup> ] وَكَانَ السُّلْطَانُ حَيْثُذِي فِي سَنِّ الْجِلْمِ، مُتَوَقِّدُ الذِّكَاءِ كَالنَّارِ فَوْقَ الْعَلَمِ، مُشْرِقًا وَجْهَهُ مَعَ صَغِيرِ سَنِّهِ بِسَنَاءِ الْعَظْمِ.

وَفِي ابْتِدَاءِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ انْتَقَلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَرَشِدِ بِاللَّهِ بْنِ الْمُسْتَظْهِرِ بِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

وَبُويَعُ وَجُدَّدَ تَقْلِيدُ السُّلْطَانِ عَلَى الشَّرَاطِئِ الْمَشْرُوعَةِ وَالرَّسُومِ الْمَوْضُوعَةِ، فَاجْتَمَعَ أَرْبَابُ الدَّوْلَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَاصْطَلَحُوا عَلَى التَّخَالِفِ وَتَخَالَفُوا عَلَى الصَّلَاحِ، وَأَجَالُوا بَيْنَهُمْ فِي مَظَاهِرَةِ بَعْضِ لِبَعْضِ ضَرْبِ الْقِدَاحِ، وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْإِنْسَابَاذِيُّ الدَّرَكْرَنْجِيُّ وَزِيرُ الْأَمِيرِ الْحَاجِبِ عَلِي بَارٍ، فَصَارَ يُلْقَنُ مَخْدُومَهُ وَيُفَهِّدُهُ، وَيَدُلُّهُ عَلَى طَرِيقِ الضَّلَالِ وَيُرِيهِ أَنَّهُ يَرِشْدُهُ، وَيَقُولُ لَهُ إِنَّ الْوَزِيرَ وَالْمُسْتَوْفِيَّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَا بِحُكْمِكَ وَتَحْتَ يَدِكَ، وَيَكُونُ مُعْتَقِدُهُمَا عَلَى وِفَاقِ مُعْتَقِدِكَ، وَهَذَا السُّلْطَانُ صَغِيرٌ [يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ] تَحْتَ حِجْرِكَ وَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِأَمْرِكَ، وَقَدْ جَاءَ عَلَى قَدْرِ مُرَادِكَ، وَانْتَهَزَ فُرْصَةَ اسْتِقْلَالِكَ وَاسْتِبْدَادِكَ، وَلَا تُمَكِّنُ أَحَدًا وَلَا تُقَوِّ يَدًا وَلَا تُحَكِّمُ مَنْ إِذَا قَوِيَ حَكْمَ عَلَيْكَ، وَلَا تَسْكُنُ إِلَى مَنْ إِذَا تَمَكَّنَ أَرْعَجَكَ وَلَا يَسْكُنُ إِلَيْكَ، وَأَجْرُ هَذَا السُّلْطَانِ عَلَى مُقْتَرِحِكَ، وَاللَّهِ بِقَدْحِكَ وَأَنْهَلُهُ بِقَدْحِكَ، فَإِنَّهُ صَبِيٌّ فَاشْغَلْهُ بِاللَّهْوِ وَحُبِّ الزَّهْوِ، وَدَبِّرِ الْمُلْكَ كَمَا تُرِيدُ وَاحْكُمِي وَأَنْتِ تُبْدِي وَتُعِيدُ، وَسَوَّلْ لَهُ مَطَامِعَ وَمَطَامِحَ، وَحَسِّنْ لَهُ مَقَابِحَ وَفَضَائِحَ، وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ أَصْغَرَ سِنًا مِنْ مَخْدُومِهِ بِعَشْرَةِ أَعْوَامٍ، وَهُوَ يُخَاطَبُهُ بِأَخِيهِ فَسَامَهُ أَنْ يُخَاطَبَهُ بِأَبِيهِ فَصَارَ الْأَمِيرُ بَارٍ يَدْعُو وَزِيرَهُ وَهُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ بِالْوَالِدِ، وَيُجْرِّئُهُ أَبُو الْقَاسِمِ عَلَى الْمَفَاسِدِ، وَحَمَلَهُ عَلَى أُمُورٍ، كَانَ الْقَادِحَ فِي طَلَابِهَا غَيْرُ مُورٍ، وَأَدْخَلَ فِي رَأْسِهِ مَا لَمْ يُخْرِجْهُ مِنْهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ إِلَّا السَّيْفُ، وَرَاجَ بِرَوَاجِ نَقْدِهِ الْمُبْهَرَجِ وَزِيرَهُ الزَّيْفُ، فَأَوَّلُ مَا دَبَّرَهُ أَنَّهُ ذَكَرَ لِلْسُّلْطَانِ أَنَّ صِلَاحَ دَوْلَتِهِ فِي إِفْسَادِ عَمَلِهِ، وَإِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَى مَلِكِهِ بِرِجْمِهِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ مَعْرُوفُ الدُّنْيَا وَالِدُ الدُّنْيَا أَبُو الْحَارِثِ سَنْجَرُ بْنُ مَلِكْشَاهِ عِمَادِ آلِ سَلْجُوقِ، وَقَدْ دَانَ لَهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، وَسَلْطَتُهُ بِيَلَادِ خُرَاسَانَ إِلَى الْعِرَاقِ إِلَى مَا وَرَاءَ النَّهْرِ إِلَى غَزَنَةَ وَخَوَارِزْمَ وَالتُّرْكَ وَقَدْ عَمَّتْ وَنَمَّتْ، وَدَوْلَتُهُ قَدْ عَلَتْ وَسَمَتْ، وَهُوَ شَيْخُ الْبَيْتِ وَعَظِيمُهُ وَحَافِظُ عِزِّهِ وَمُدْبِئُهُ، فَأَحْضَرُوا الشَّهَابَ أَسْعَدَ كَاتِبَ الْإِنْشَاءِ وَأَمْرُوهُ بَأَنَّ يَكْتَبَ إِلَى خَانَ

(1) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ زِيَادَةٌ مِنْ زَيْدَةِ النَّصْرَةِ

سَمَرَقَنْدَ، وَيَقْتَدِحُوا مِنْهُ فِي الْمَوَازِرَةِ الزَّيْنِدَ، وَيُظْهِرُوا عَنِ السُّلْطَانِ الرَّغْبَةَ مِنْهُ فِي الْوُدَادِ وَطَلَبُوا مِنْهُ الْإِنْجَادَ بِيَعِضِ الْإِمْدَادِ، وَقَالُوا لَهُ نَحْنُ نَقْصِدُ السُّلْطَانَ سَنْجَرَ وَهُوَ لَاشْكُ أَنََّّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَيْنَا إِذَا أَوْجَهْنَا لِلْقَائِمِ وَالرَّأْيِ أَنْ تَأْتِي أَنْتَ مِنْ وَرَائِهِ فَيَحْصِلُ الْخُصْمُ فِي الْوَسْطِ وَيَقَعُ فِي التَّوْرَطِ، وَيُعْلَبُ عَلَى مَمْلَكَتِهِ، وَيَتَمَّ سَكُونُ الدَّهْمَاءِ بِتَسْكِينِ حَرَكَتِهِ، وَكَانَ هَذَا الرَّأْيُ الْفَائِلُ وَالتَّنْدِيرُ الضَّالُّ الْمُتَضَائِلُ أَوَّلُ مَا أَدَبَ الْإِدْبَارَ وَأَهَبَّ دَبُورَهُ، وَمَحَا مِنْ الْإِقْبَالِ حَبْرَهُ وَأَذْهَبَ حَبُورَهُ. قَالَ أَنْوَشِرَوَانُ: وَمَا عَهْدَتْ قَطُّ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَاضِي وَبَيْنَ خَانِ سَمَرَقَنْدَ هَذَا الْاِسْتِرْسَالِ فِي الْمُرَاسِلَةِ وَاتِّصَالَ مَدَدِ الْمُواصَلَةِ.

وَمِنْ جُمْلَةِ تَنْدِيرَاتِهِمُ الْمُدْبِرَةَ وَتَصَرِّفَاتِهِمُ الْمُنْكَرَةَ ثَانِيًا أَنَّ الْأَمِيرَ مَلِكَ الْعَرَبِ دُبَيْسَ بْنَ صَدَقَةَ بْنَ مَنْصُورِ بْنِ دُبَيْسِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مَزِيدِ الْأَسَدِيِّ كَانَ مُقِيمًا فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ مُنْذَ عَشْرِ سَنِينَ، وَقَدْ سَلَ عَنْ بَلَدِهِ وَقَعَّ بِمَا فِي يَدِهِ، وَرَضِيَ مِنَ السُّلْطَانِ بِالرَّضَى، وَانْقَضَى طَمَعُهُ فِي مَلِكِ أَبِيهِ الَّذِي انْقَضَى، وَبِلَادِ الْجَلَّةِ وَالْوِلَايَاتِ فِي تَصَرُّفِ نُوبِ السُّلْطَانِ وَأَمْوَالِهَا مُؤَفَّرَةً لِلدِّيْوَانِ، وَأَحْوَالِهَا مُتَنَاسِقَةٌ وَمُتَنَاسِبَةٌ، وَنُجُومُ السُّلْطَانِ طَالِعَةٌ وَتَوَاجِمُ الْفَتَنِ غَارِبَةٌ وَزَوَاجِرُ الْخَيْرِ صَادِقَةٌ، وَعَوَارِضُ الْخِصْبِ رَاعِدَةٌ بَارِقَةٌ، وَالرَّعَايَا آمِنَةٌ وَالْأَذْيَا مَآمُونَةٌ، وَالنَّعْمُ رَاهِنَةٌ وَالذَّمُّ بِشِكْرِهَا مَرَهُونَةٌ، وَالْأَمِيرُ الْمَجَاهِدُ بِهَرُورِ الْخَادِمِ الْخَصِيِّ نَائِبُ السُّلْطَانِ بِيغْدَادَ وَمُتَوَلِّيَهَا، وَمُصْلِي حَلِيَّةِ فُحُولِهَا وَمُجَلِّيَهَا، وَالسِّيَاسَةُ مَرْعِيَّةٌ وَالرَّعِيَّةُ مَسُوسَةٌ، وَالْحِرَاسَةُ مُكْتَنَفَةٌ وَالْأَكْنَافُ مَحْرُوسَةٌ، وَدَارُ الْخِلَافَةِ بِمَوَادِّ الْمَوَدَّةِ دَارَةُ الْأَخْلَافِ، عَاقِدَةٌ عَلَى قَاعِدَتِهَا حُبِّي الْحُبِّ بِأَصْنَافِ الْإِنْصَافِ، فَبَدَّلُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ، وَحَلَّلُوا تِلْكَ الْمَعَاقِدَ، وَأَرْهَبُوا أَوْلِيكَ الْمَوَالِي، وَأَذْهَبُوا تِلْكَ الْأَمْوَالَ، وَعَطَّلُوا تِلْكَ الْحَوَالِي، وَبَطَّلُوا تِلْكَ الْأَحْوَالَ، وَسَوَّهُوا تِلْكَ الْوُجُوهَ وَمَوَّهُوا تِلْكَ الْجِهَاتِ، وَبَايَنُوا بَيْنَ الْأَشْبَاهِ وَقَضُوا بَيْنَ الشَّبَهَاتِ، وَارْتَشَوْا مِنَ الْأَمِيرِ دُبَيْسَ فَأَعَادُوهُ إِلَى الْعِرَاقِ، وَرَدَّوْا صَدَقَ الْجَمَاعِ إِلَى الْاِفْتِرَاءِ وَالْاِفْتِرَاقِ، وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِهِ عَلَى سَاقِ، وَالْحَدِيثُ فِي مَوْضِعِهِ إِلَيْهِ يُسَاقُ، وَكُتِبُوا مُلْطَفَةً بِالْقَبْضِ عَلَى بَهْرُورِ، وَمُحَاسِبَتِهِ وَاسْتِخْرَاجِ سِرِّ غِنَاهُ الْمَرْمُوزِ، وَكُلُّ هَذَا عَادَ بِالْفَسَادِ وَأَفْسَدَ الْعَوَائِدَ، وَأَفَادَ التَّمْحِيقَ وَمَحَقَّ الْفَوَائِدَ، وَتَدَلَّى دُبَيْسُ بِرِشَاءِ الرَّشِيِّ إِلَى قَلْبِ تِلْكَ الْقُلُوبِ، ثُمَّ تَغَاضَى أَوْلِيكَ الْقُضَاةَ فَمَا مَطَّلُوا بِالْمَطْلُوبِ: قِيلَ بَلَغَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ أَنَّ قَاضِيًا اسْتَرْشَى فَكَتَبَ إِلَيْهِ: [الطويل]

إِذَا رَشِوَةٌ حَلَّتْ بِبَيْتِ تَوَلَّجَتْ      لِيَتَدَخَلَ فِيهِ وَالْأَمَانَةُ فِيهِ  
سَعَتْ هَرَبًا مِنْهَا وَوَلَّتْ كَأَنَّمَا      تَوَلَّى حَلِيمٌ مِنْ جَوَابِ سَفِيهِ

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَالْمَفْسُدَةُ الثَّلَاثَةُ أَنَّ بِلَادَ فَارِسٍ عَلَى أَحْسَنِ نِظَامٍ وَأَوْفَى مَرَامٍ، وَطَاعَتُهَا شَائِعَةٌ وَشِيَعَتُهَا طَائِعَةٌ، وَرِيْعُهَا رَائِعٌ وَصُبْحُهَا نَاصِعٌ، وَأَمْرُهَا جَامِعٌ وَأَمِيرُهَا سَامِعٌ، وَأَبْوَابُ مَالِهَا مُبَوَّبَةٌ، وَأَسْبَابُ أَعْمَالِهَا مُسَبَّبَةٌ، وَالْبُدُولُ فِيهَا حَاصِلَةٌ، وَالْحُمُولُ مِنْهَا مُتَوَاصِلَةٌ، وَأَتَقَّقَ فِي ذَلِكَ الْأَوَانِ أَنَّ عَامِلَهَا كَانَ حَاضِرًا بِأَصْفَهَانَ وَنَوَابِئَ بِفَارِسٍ قَدْ جَبَّوْا الْأَمْوَالَ وَجَمَعُوهَا وَعَزَّلُوهَا لِيَرْفَعُوهَا فَأَشَارَ أَبُو الْقَاسِمِ الْإِنْسَابَاذِيُّ عَلَى الْأَمِيرِ عَلِيِّ بْنِ مَخْدُومٍ بِالْقَبْضِ عَلَى ذَلِكَ الْعَامِلِ وَأَخْذِهِ بِالْغَوَائِلِ وَمُطَالَبَتِهِ بِالْحَاصِلِ وَمُقَابَلَتِهِ حَقِّهِ بِالْبَاطِلِ، فَأَخَذَهُ وَعَذَّبَهُ وَمَا صَدَّقَهُ أَنَّ الْأَمَالَ بَعْدُ مَعْدُودٌ بِفَارِسٍ بَلْ كَذَّبَهُ، فَلَمَّا نَمِيَ الْخَبْرُ إِلَى أَمِيرِ فَارِسٍ وَكَانَ مَبْلَغًا وَإِفْرَاءً، وَاعْتَمَّتْ تِلْكَ الْحَالَةُ وَعَدَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ أَنْ يَصِيرَ بِهِ ظَافِرًا، ثُمَّ ضَنَّ بِرِدِّ الْأَمَالِ وَاسْتَوْحَشَ وَجَاهَرَ بِالْعَصِيَانِ وَأَفْحَشَ، وَكَانَ لِلسُّلْطَانِ بِتِلْكَ الْبِلَادِ حِشْرَانٍ فَاسْتَأْقَاهَا وَادْخَارَ فَاعْتَاقَهَا، فَاخْتَلَّ نِظَامُ الْوِلَايَاتِ الْفَارِسِيَّةِ بِتِلْكَ الْأَرَابِ السَّيِّئَةِ وَالْأَرَاءِ الْمُسَيِّئَةِ.

قَالَ: وَالْمَفْسُدَةُ الرَّابِعَةُ أَنَّ جَمَاعَةً كَانُوا مُقِيمِينَ فِي الْخُدْمَةِ مِنْ أَمْرَاءِ مَازَنْدَرَانَ وَأَمْرَاءِ الشَّيْكَانَكِيَّةِ وَهُمْ جَيْلٌ مِنْ جِنْسِ الْأَكْرَادِ فِي جَانِبِ بِلَادِ فَارِسٍ، بِلَادُهُمْ مُمْتَنِعَةٌ وَقِلَاعُهُمْ مُرْتَفِعَةٌ، وَلَا تَنْزَالُ مِنْهُمْ الطَّرِيقُ مَخَوْفَةٌ وَالْفَرْقَةُ مِنْهُمْ مَأْلُوفَةٌ، وَالْبِلَادُ مُشَوَّشَةٌ وَالرَّعَايَا مُسْتَوْحِشَةٌ، وَكَانَ السُّلْطَانُ الْمَاضِي قَدْ أَلْفَ قُلُوبَهُمْ بِأَحْسَانِهِ، وَقَادَهُمْ بِالْيَدِ إِلَى سُلْطَانِهِ، وَالزَّمَهُمْ بِمِلَازِمَةِ حُرْمَتِهِ، وَخَصَّهُمْ بِعَمِيمِ نِعْمَتِهِ، وَأَنَسَاهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ وَمَلَأَ بِالْيَسَارِ أَيْمَانَهُمْ، وَاسْتَعَطَفَ كُلًّا مِنْهُمْ بِطَرِيقٍ، وَحَظَرَ لَمَّا حَضَرُوا بِبَابِهِ فَرَاقَهُ كُلَّ فَرِيقٍ، حَتَّى أَمِنَتْ بِلَادُهُمْ مِنْ شَرِّهِمْ وَشَرِّهِمْ، وَوَكَّلَ حَلِمَةَ الرَّاجِحِ بِهِمْ فَكَلَّ حَدَّ سَنَهِيهِمْ، فَأَسَاءَ أَبُو الْقَاسِمِ وَصَاحِبُهُ وَمَنْ وَازَرَهُمَا إِلَيْهِمْ وَاسْتَشْطَوْا عَلَيْهِمْ فَفَنَفَرُوا وَفَرَّوْا، وَعَادُوا إِلَى حِصُونِهِمْ فَتَحَصَّنُوا وَإِلَى أَمَاكِنِهِمْ فَتَمَكَّنُوا، وَأَظْهَرُوا مِنَ الشَّرِّ مَا كَانَ كَمَنْ، وَحَرَكُوا مِنَ الْفِتْنَةِ مَا كَانَ سَكْنًا، فَكَمَ بِلَاءُ دَهَمِ بِلَادِهِمْ وَكَمَ مِنْ هَمِّ عَرَاهَا فَحَلَّ عَرَاهَا مِنْهُمْ.

وَالْمَفْسُدَةُ الْخَامِسَةُ أَنَّهُ لَمْ يُخَلَّفْ أَحَدٌ مِنَ السَّلْجُوقِيَّةِ فِي خِزَانَتِهِ مَا خَلَّفَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّرَاثِ وَالْعَيْنِ وَالْأَثَانِ، فَتَصَرَّفُوا فِيهِ وَتَقَاسَمُوا بِهِ وَفَرَّقُوهُ وَمَزَّقُوهُ وَأَخْرَجُوهُ وَأَنْفَقُوهُ، وَصَرَّفُوا فِي غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مَا كَانَ أَلْفَهُ مِنْ آلَافِ الْأُلُوفِ، وَكَانَ وَجْهُ الْعَسْكَرِ وَأَمَانَتُهُ غَائِبِينَ

فَانْتَهَزُوا فِرْصَةَ غَيْبَتِهِمْ وَلَمْ يَنْتَظِرُوا إِلَى حِينٍ أَوْ يَتَيْهِمْ وَقَرَّغُوا الْخِزَانَةَ مِنَ الْعَيْنِ فِي أَقْرَبِ مِنْ شَهْرَيْنِ، فَلَمَّا ذَهَبَ الذَّهَبُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ مَا يُوهَبُ أَوْ يُنْهَبُ فَضَوَا خْتَمَ الْفِضَّةِ وَقَضُّوْهَا وَاسْتَخْرَجُوا وَجُوهَ الْمُعَامَلَاتِ الرَّائِجَةِ وَاسْتَنْضَوْهَا ثُمَّ تَصَرَّفُوا فِي الْمَصْوَغَاتِ مِنَ الْحَلِيِّ بِهِ وَالْأَوَانِي وَالْآلَاتِ، ثُمَّ فِي الْجَوَاهِرِ ثُمَّ فِي الثِّيَابِ، ثُمَّ فِي الْحَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ الْعَرَابِ، ثُمَّ فِي الْجِمَالِ وَالْبَحَاتِي وَالْبَسَارِكِ، وَلَمْ يُبْقُوا شَيْئًا مِنْ عُدَدِ الْمَمَالِكِ حَتَّى تَفَرَّقُوا بِأَغْنَامِ النَّجَاحِ، وَتَقَاسَمُوا بِالْكِبَاشِ مِنْهَا وَالنَّعَاجِ، فَصَيَّرُوا الْمُلُكَ الْآهَلَ قَرَّاءً، وَضَعَّفُوا بَعْدَ الْغِنَى فَقَارَةً قَرَّاءً.

والمفسدة السادسة أنهم قالوا إن هؤلاء من ممالك السلطان وخواصه لا يطيبون بطاعتنا نسأ، ولا يجدون بمتابعتنا أنسا، وذلك بتسويل علي بار وتزوير وزيره وسوء تدبيره، فاحتالوا في شئت شملهم وبتت حيلهم ونحت أثلهم، وزموا كل سهم منهم إلى هدف وكل سهم منهم إلى طرف.

والمفسدة السابعة وهي المفسدة الكبرى التي هي لهم سابعة، ولخواتيم سوء طبايعهم طابعة، أن العساكر التي كانت مشغولة بحصار الموت قد شارفت فتحها وشاهدت فتحها وعانت بعين اليقين في ليلة سراها صبحها، شرع أبو القاسم الإنساباذي الدرکزبني في تفريقها ليلة إلى الملاحدة ووعده لهم بالماعدة فأوقع بينهم البأس، وأحدث لهم من فتح القلعة اليأس، وأخذ رخصة في قبض الأمير الأسفهلار الكبير أنوشتكين شيركيز وهو أمير ذلك العسكر وقد يلي الملحدون منه بالمبيد المبير، فرحلوا عن الحصار بغير ترتيب، ومضوا لا يظفر الداعي لهم بمجيب، وتبعهم أهل الموت فقتلوا خلقاً وذهب الباقر غرباً وشرقاً، ونقلوا إلى قلعته من السلاح والعدد الكثيرة والأزواد والميرة، ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار فكان هذا أقوى سبب في تقوية تلك القلعة، والممانعة عنها بتوفير أسباب المنعة، وكانوا قد حلفوا لشيركيز فحنتوا، وتقضوا الأيمان المبرمة ونكثوا، ووصل الأمير الكبير كندغدي إلى الباب وكان عظيماً من أولي الألباب، ولوه أنابكية الملك طغرل أخي السلطان وهي مرتبة جليله مكيئة المكان عظيمه الشأن ثم حذروا السلطان من أخيه طغرل وخوفوه، وزعموا أنهم عرفوه من طمعه في الملك بما عرفوه، فخاف الأمير كندغدي على نفسه وعلى ملكه وضاق عليه في الاحتراس والاحتراز منهم فضاء مسلكه فادلج سارياً وذهب متوارياً، ودار به في الأقطار، ولم يستقر بهما قرار، ولم تحوهما بعد ذلك دار، وصار من ذلك للقلب اشتغال، ولنار الفتنة اشتعال.

وَالْمَفْسَدَةُ الثَّامِنَةُ أَنَّ الْأَمِيرَ قُرَاجَةَ السَّاقِي سَلَّمُوا إِلَيْهِ الْمَلِكَ سَلَجُوقَ أَخَا السُّلْطَانَ وَوَلَّوهُ بِلَادَ فَارَسَ، وَجَلَّوْا عَلَيْهِ بِكَرْمَا الْعَانِسَ، فَلَمَّا سَمِعَ الْأَمِيرُ قَيْصَرَ بِقُدُومِهِ وَكَانُوا قَدْ وُلَّوهُ فَارَسَ قَبْلَهُ شَدَّ لِلْفَرَارِ رَحْلَهُ، وَحَصَلَ عِنْدَ السُّلْطَانَ الْأَعْظَمِ سَنْجَرُ بِخِرَاسَانَ، وَهُوَ مَوْتُورٌ وَتَفَقَّتْ شِكَاوِيهِ الَّتِي هُوَ بِهَا مَصْدُورٌ، وَأَحْضَرَ مَثَالَ مِثَالِهِمْ، وَوَسَّعَ عِنْدَهُ مَعَاظِنَ مَعَاظِبِهِمْ، وَكَمْ يُقْصِرُ قَيْصَرَ فِي التَّحْرِيزِ وَالتَّصْرِيحِ بِهِمْ وَالتَّعْرِيزِ.

وَالْمَفْسَدَةُ التَّاسِعَةُ أَنَّ السُّلْطَانَ كَانَ لَهُ مَمَالِكُ صِغَارٍ، كَانَتْهُمْ أَقْمَارُ حَانَ فِيهَا إِبْدَارٌ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَصِيَانِ الْخَوَاصُّ رُقُبَاءُ، وَعَلَى طَوَائِفِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ نُقْبَاءُ، فَأَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ عِدَّةً وَلَمْ يَخَافُوا مِنْ مَالِكِ الرَّقِّ مَوْجِدَةً، وَتَرَكَوا سُرَادِقَ السُّلْطَانَ بِالْفَرَارِ، وَمَضَابِتُهُ خَالِيَةً بِالصَّحْرَاءِ، وَاقْتَسَمُوا بِالْغِلْمَانِ الرُّوقَ، وَأَقَامُوا أَلْفَ سُوقٍ لِلْفُسُوقِ، وَإِذَا جَلَسَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي مَكَانِهِ وَقَفَ أَوْلَئِكَ الْغِلْمَانُ عَلَى رَأْسِهِ مَعَ غِلْمَانِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفُوا حَقَّهُمْ وَلَمْ يَمْلِكُوا بِالْإِحْسَانِ رِقَّهُمْ، حَتَّى تَشْتَتُوا فِي الْأَمْصَارِ، وَطَارُوا إِلَى كُلِّ مَطَارٍ.

وَالْمَفْسَدَةُ الْعَاشِرَةُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الْجَوَارِي الْمَطْرَبَاتِ وَالْإِمَاءَ الْمُغْنِيَاتِ وَالْحِسَانَ الْمُحْسِنَاتِ مِنْ دُورِ الْحَرَمِ إِلَى دُورِهِمْ وَآثَرُوا حُضُورَهُنَّ مَجَالِسَ حُضُورِهِمْ وَاسْتَشْنَفُوا بِسَمَاعِهِنَّ وَشَرَبُوا بِغِنَائِهِنَّ، وَرَكَبُوا كُلُّ مَرْكَبٍ، وَذَهَبُوا فِي الْخِزْيِ كُلِّ مَذْهَبٍ، وَدَخَلُوا مِنَ الدَّخْلِ فِي كُلِّ مَدْخَلٍ، وَاسْتَنَوْا مِنَ الْجَهْلِ فِي كُلِّ مَجْهَلٍ، وَتَسَلَّطُوا عَلَى السُّلْطَانِ وَاجْتَرَوْا عَلَيْهِ بِمَا اجْتَرَحُوهُ، وَتَمَسَّى لَهُمْ مَعَهُ بِصَبُوتِهِ كُلُّ مَا اقْتَرَحُوهُ، وَقَدَّمُوا فِي جَمِيعِ مَا اعْتَمَدُوهُ مَقَاصِدَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَحَقَّقُوا عَنْ مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ أَعْرَاضَهُمْ، وَأَنْشَدَ: [السريع]

إِذَا التَّقَى فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ      خَمْسُونَ أَعْمَى بِمَقَادِيرِ  
فَصَبَرُوا بِمَضُّهُمْ قَائِدًا      وَكُلُّهُمْ يَسْقُطُ فِي الْبِيرِ

وَاتَّبَعُوا النَّشْوََةَ بِالنَّسْوََةِ وَأَبْطَلُوا الْحَقُوقَ بِالرَّشْوََةِ، سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] عَنِ الرَّشْوََةِ فِي الْحُكْمِ أَمِنْ الشُّحْتِ هِيَ؟ قَالَ: مِنَ الْكُفْرِ إِنَّمَا الشُّحْتُ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مِنَ السُّلْطَانِ فَيَكُونَ لِغَيْرِهِ حَاجَةٌ، فَلَا يَقُومُ بِهَا حَتَّى يُهْدَى إِلَيْهِ هَدِيَّةٌ، فَأَمَّا الرَّشْوََةُ فِي دَفْعِ الْحَقُوقِ وَإِبْطَالِ الْحُدُودِ فَكُفْرٌ لَا جَرَمَ.

كَانَ أَبُو الْقَاسِمِ وَمُقَاسِمُوهُ وَمُشَارِكُوهُ وَمُسَاهِمُوهُ دَوِي كُفْرَيْنِ، كُفْرِ اعْتِقَادِ وَإِلْحَادِ وَكُفْرِ جَحْدِ لِلنَّعْمَةِ وَعِنَادِ، وَلَوْ أَنَّ أَوْلَادَ السُّلْطَانِ الْأَمْضِيِّ اقْتَسَمُوا مَا تَرَكَهُ لَمْ يَمْلِكْ أَحَدُهُمْ بَعْضَ

ما حَوَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ الدَّرَكَزِينِي وَمَلِكُهُ، فَكَأَنَّهُ كَانَ أَرشَدًا أَوْ لِادِهِ فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمَالَ، وَجَاءَهُ مَعَ اسْتِحْقَاقِ الْإِدْبَارِ وَالْإِقْبَالِ، وَذَكَرَ لِي أَنَّهُ لَمَّا تُوْفِيَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ دَخَلَ الْأَمِيرُ بَارٍ إِلَى خَزَائِنِهِ وَكَانَ مَتَحَكِّمًا، وَعَلَى الْعِظَامِ كَانَ مَتَهَجِّمًا، فَأَخَذَ صِنَادِيقَ الْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ وَالْيَاقُوتِ الثَّمِينَةِ فَأَوْدَعَهَا عِنْدَ زَبِيرِ هَذَا الدَّرَكَزِينِي، فَلَمَّا قُتِلَ حَصَلَ بِهَا وَلَمْ يَسْأَلْ أَحَدٌ عَنْهَا، وَسَيَّأَتِي قَتْلُ الْأَمِيرِ بَارٍ فِي مَوْضِعِهِ.

وَأَنَا أَذْكَرُ طَرْفًا مِنْ أَمْرِ هَذَا الْإِنْسَابَادِي، وَإِنْسَابَادُ صَيْعَةٌ مِنْ إِقْلِيمِ الْأَعْلَمِ قَرِيبَةٌ مِنْ دَرَكَزِينٍ فَتَسَبَّ نَفْسَهُ إِلَى دَرَكَزِينٍ لِأَنَّهَا أَكْبَرُ قَرَى تِلْكَ الْوِلَايَةِ، وَمِعْظَمُ أَهْلِهَا أَهْلُ الْإِبَاحَةِ وَالْغَوَايَةِ، فَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الْمَزْدَكِيَّةِ الْخُرَيْمِيَّةِ، وَشَرُّهُمْ شَانِعٌ فِي الْبَرِيَّةِ، وَكَانَ أَبُوهُ فَلَاحًا مِنْهُمْ فَجَاءَ بِهِ إِلَى أَصْفَهَانَ وَعَلَّمَهُ الْخَطَّ وَالْجِرَاءَةَ وَالْخَبِطَ، وَكَانَ وَقِحًا، وَتَحَسَى الْخَمْرَ مُغْتَبَقًا وَمُصْطَبِحًا، يَقُودُ وَيَلُوطُ وَيَرْفُو وَيَخِيطُ، وَمَا زَالَ مُخَالِطًا لِلْمُتَصَرِّفِينَ وَمُتَصَرِّفًا مَعَ الْخُلَطَاءِ، وَوَسِيطًا فِي الْمَطَالِمِ وَظَالِمًا لِلْوَسَطَاءِ، وَكَانَ عَمْرًا ذَا غَمِرٍ وَوَتْرًا فِي الشَّرِّ أَخَا وَتَرٍ، أَحْسَسَ أَنْفَسَ أَمْعَطَ أَطْلَسَ، إِذَا حَدَّثَ مَا نَ وَإِذَا اتَّمِنَ خَانَ، وَكَانَ نِقَاقُهُ يَنْفَاقِهِ وَإِبْدَارُهُ بِمُحَاقِهِ، وَكَانَ كَالصِّلِ سُمُّهُ نَاقِعٌ فِي الْفَتْكِ، وَكَاللَّصِّ نَقَعُهُ سَامٌ فِي الْهَنْتِكِ، مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا قَتَلَهُ، وَمَا أَوَى إِلَى جَبَلٍ إِلَّا زَلَّزَلَهُ، وَأَوَّلُ مَنْ اسْتَخْدَمَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَمَالُ الشَّمِيرَمِي وَعَمِي الْعَزِيزُ، فَلَقِيَ كَلَامًا مِنْهُمْ مِنْهُ الْأَمْرَيْنِ، وَقَابَلَ بِالْإِسَاءَةِ مِنْهُمَا الْحُسَيْنَيْنِ.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَجَرَى وَزِيرُ الْوَقْتِ عَلَى تِلْكَ الْقَاعِدَةِ فِي الْإِفْسَادِ، وَلَمْ يَرِ مُخَالَفَتَهُمْ عَلَى الْمُرَادِ. [السريع]

مَوَّةٌ عَلَى النَّاسِ وَمَخْرِقٌ بِهِمْ قَائِمًا الدُّنْيَا مَخَارِيقُ قَالَ: وَلَمَّا اشْتَدَّ أَمْدُ الْفِسَادِ، وَوَقَعَ الْيَأْسُ مِنَ السَّدَادِ، رَعَتِ الْأَطْمَاعُ وَطَمَعَ الرُّعَاعُ، وَضَاعَ الشَّمْلُ وَشَمَلَ الضِّيَاعُ، وَاتَّسَعَ الْخُرْقُ وَاتَّسَقَ الْخُرْقُ، وَانْتَشَرَ الطِّيُّ وَانْتَشَى الْغَيُّ، وَمُئِنَّتْ كُلُّ حُطَّةٍ بِحُطِّ حَبِطٍ وَخَطَبٍ، وَأَحْرَقَتْ نِيرَانَ الْفِتَنِ كُلَّ يَابِسٍ وَرَطَبٍ، فَاسْتَوْلَى الْأَمِيرُ دُبَيْسُ بْنُ صَدَقَةَ عَلَى الْعِرَاقِ، وَكَانَ فِي شَقِّ الشَّقَاقِ، وَتَقَوَّى بِمَالِ السُّلْطَانِ عَلَى عَصِيَانِهِ، وَبَانِعَائِهِ الْمَوْجِبِ لِلشُّكْرِ عَلَى كُفْرَانِهِ، وَقَتَلَ جَمَاعَةً مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ، وَذَهَبَتْ دِمَاؤُهُمْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْأَطْرَافِ وَالْحُدُودِ، تَعَدَّوْا حُدُودَهُمْ وَقَابَلُوا النِّعْمَةَ بِالْجُحُودِ، وَصَادَرُوا مَنْ وَجَدُوا لَهُ جِدَةَ، وَلَمْ يَتْرَكُوا سِيئَةً لِمَوْجِدَةِ الْمُحْسِنِينَ مُوجِدَةً،

وَنَصَاءَ لَتِ الْحَقُوقُ وَتَوَالَتِ الْفِتُوقُ، وَكَانَ مِنْ خَرَقِ الْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ وَالسَّفِيرِ أَنَّهُمْ جَعَلُوا  
 خِطَابَ الْأَمِيرِ عَلِي بَار بَوْصِي السُّلْطَانِ وَصَيَّرُوهُ أَحْصَ الْقَابِيهِ فَأَنَّهُ أَلَزَمَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَالَ يَجِبُ  
 أَنْ أَلْتَبَّ بِهِ، فَكَتَبُوا بِهَذَا النَّعْتِ إِلَى الْأَمْصَارِ، وَأَشْعَرَ ذَلِكَ بَأَنَّ صَارَ مِنْ أَجْلِ الْأَنْصَارِ، فَلَيْتَن  
 كَانَ وَصِيًّا لِلْسُّلْطَانِ الْأَمْضِيِّ فَلَيْمَ صَبَّحَ أَوْلَادُهُ الْبَاقِيْنَ؟ وَلَيْمَ خَانَهُ فِي حُرْمِهِ اللَّاتِي بَقِيْنَ؟  
 وَلَيْمَ لَمْ يَحْفَظْ أَدْبَهُ وَلِسَانَهُ وَقَلَمَهُ؟ وَكَيْفَ وَضَعَ فِيمَا لَيْسَ لَهُ يَدُهُ وَقَدَمُهُ؟ وَلَيْمَ مَالَ إِلَى أَخِيذِ  
 مَالِهِ فَأَخَذَهُ وَتَرَكَ الْمَلِكَ مُتَوَرِّطًا فِي الْهَلَاكِ فَمَا اسْتَنْقَذَهُ؟ وَعَزَلُوا الْخَطِيرَ مِنْ شُغْلِ الطَّغْرَاءِ  
 وَنَاطُوا بِهِ وَزَارَةَ الْبَلِكِ سَلْجُوقَ الْمُنْدُوبِ إِلَى فَارِسَ مَعَ الْأَمِيرِ قَرَاجَةَ السَّاقِي، وَمَقْصُودُهُمْ أَنْ  
 يُبْعِدُوهُ مِنَ الدَّرَكَاهِ فَلَا يَقَعُ مِنْهُ لَهْمُ التَّلَاقِي. [الكامل]

دُمُ الزَّمَانِ كِنَايَةٌ عَنِ أَهْلِهِ      وَهُمْ الْمُرَادُ بِلَوْمِهِ وَبِعَدْلِهِ  
 حَتَّى إِذَا اسْتَمَلَتْ قَبَائِحُ فِعْلِهِمْ      صَارَ الْقَبِيحُ كَأَنَّهُ مِنْ فِعْلِهِ  
 وَقَالَ: [الوافر]

وَفِي مَرِّ الشُّهُورِ لَنَا فَنَاءٌ      وَنَحْنُ نُحِبُّ أَنْ تَفْنَى الشُّهُورُ  
 نَسِيرُ إِلَى الْمَنَايَا وَالْمَنَايَا      إِلَيْنَا غَيْرَ وَانْسِيَةِ تَسِيرُ  
 فَلَا الْمُنْتَرِ تَتْرِكُهُ الْمَنَايَا      لِغُرْتِهِ وَلَا الْحِذْرِ النَّفُورُ  
 وَأُورِدُ هَذَا الْفَصْلَ وَالْأَصْلَ أَقْصَرُ مِنَ الْأَمَلِ، وَالْفَلَكُ أَحَدٌ مِنْ أَنْ يَدَعَ أَحَدًا عَلَى حَالِهِ  
 وَاحِدَةً، وَالزَّمَانُ أَعْدَرُ مِنْ أَنْ يَبْقَى لِأَحَدٍ، وَأَنَا أَقُولُ الْمَنِيَّةُ تَقْطَعُ الْأَمْنِيَّةَ وَتَبْرِي التَّيْرِيَّةَ، وَالْقَدْرُ  
 يَقْضِي عَلَى كُلِّ صَفْوٍ بِكَدْرٍ، وَيُقْضِي بِكُلِّ وَرْدٍ إِلَى صَدْرٍ، وَالْحِمَامُ يَسْتَبِيحُ كُلَّ حِمَى، وَلَا  
 يُؤْمِنُ مَنْ مَخَافَتِهِ حَرْمًا، وَالْعَاقِلُ مَنْ اسْتَعْبَرَ مِنْ أَمْسِهِ، وَاعْتَبَرَ فِي يَوْمِهِ لِغَدِهِ فِي رَمْسِهِ، وَلَمْ  
 يَغْتَرَّ بِجَاهِهِ جَاءَهُ، وَلَمْ يَفْرَحْ بِمَا سَرَّهُ وَلَمْ يَقْنَطْ لِمَا سَاءَهُ، فَإِنَّ عَوَارِفَ الدُّنْيَا الدُّنْيَةُ عَوَارِي  
 وَالظُّلْمَا فِيهَا لَيْمَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ هَجِيرِهَا يَعْقِبُهُ فِي الْأَحْرَى الْبَرْدُ وَالرَّيِّ، وَمَنْ عَرَفَ عَرْفًا،  
 وَمَنْ صَدَّ صَدْفًا، وَمَنْ عَفَّ عَافًا، وَمَنْ أَنْفَ أَنْفًا، وَفِيمَا نُورِدُهُ مِنْ خَبَرِ هَوْلَاءِ عِبْرَةٍ لَيْمَنْ  
 اعْتَبَرَ وَبَصِيرَةٍ لَيْمَنْ اسْتَبَصَّرَ.

قَالَ أَنْوَشُرَوَانُ: وَفِي كُلِّ مَا تَرَاهُ لَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى رَأْيِ السُّلْطَانِ وَلَا اسْتَأْذَنُوهُ وَخَقَرُوهُ  
 وَاسْتَضَعَّفُوهُ، وَقِيلَ لِرَجُلٍ: جَوْرُ السُّلْطَانِ أَضْرُّ أَمْ ضَعْفُهُ؟ فَقَالَ: ضَعْفُهُ لِأَنَّ جَوْرَهُ يَخْصُصُ  
 وَضَعْفُهُ يَعْجَمُ، وَكَانَ السُّلْطَانُ غَيْبًا، وَبِصِبَاةٍ عَنِ النَّطْقِ وَالْإِفْصَاحِ بِفَضَائِحِهِمْ عَيْبًا، فَاسْأَلْ عَلَى

عِلْمٍ وَعَدَّةً سَلَوْتُهُ عَنْهُمْ عَنِ حِلْمٍ، وَقَدْ قِيلَ: مِنْ أَشْرَفِ فِعَالِ الْكِرَامِ غَفَلْتُكَ عَمَّا تَعْلَمُ، لَكِنَّ هَذِهِ الْغَفْلَةُ مِنَ الْعَجْزِ الَّذِي عَلَيْهِ يُبْدَمُ، وَتَوَاتَرَتْ أَخْبَارُ هَذِهِ الْفَضَائِحِ وَتَوَاصَلَتْ أَبْنَاءُ هَذِهِ الْقَبَائِحِ، فَانْتَحَى السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ سَنَجْرَ لَيْبَتِهِ الَّذِي شَرَعُوا فِي هَدْمِهِ، وَتَحَرَّكَ عَلَى ابْنِ الْأَخِ الشَّفِيقِ شَفَقَةً عَمَّهُ.

ذكر وصول السلطان الأعظم شاهنشاه الأعظم معز الدنيا والدين ملك الإسلام والمسلمين أبي النحارث سنجر بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين من خراسان إلى حدود العراق ووضعه وعضوه وعوده إلى خراسان

كَانَ مَلِكًا مَلَكِيَّ السَّيْرَةِ وَالسَّرِيرَةِ، نَافِذَ الْبَصْرِ نَاقِدَ الْبَصِيرَةِ؛ حَقِيقًا بِالْحَمْدِ مَحْمُودَ الْحَقِيقَةِ، خَلِيقًا بِالْحُسْنَى حَسَنَ الْخَلِيقَةِ، مَيْمُونَ الْبَسْطَةِ مَبْسُوطَ الْيَمِينِ، قَرِينًا لِلْعَزِّ عَزِيزَ الْقَرِينِ، مُسْتَبِيضَ الْمَعْرِفَةِ فَائِضَ الْعَارِفَةِ، مُتَعَطِّفًا لِلْكَرَامِ كَرِيمَ الْعَاطِفَةِ، قَدْ بَلَغَ إِحْسَانُ سُلْطَانِهِ الشَّرْقَ وَالْعَرَبَ، وَغَلَبَ سُلْطَانُ إِحْسَانِهِ الْبَعْدَ وَالْقُرْبَ، وَصَرَّفَ زَمَانَ الْبَصْرِ فِيهِ، وَأَلْفَ نِظَامِ الْأَنْبَاءِ بِتَأْلِيفِهِ، وَنُبِعَتْ بِذِي الْقَرْنَيْنِ وَمَلَأَ عَدْلُهُ الْمَلَكُوتَيْنِ، وَكَانَ اسْكَنْدَرَ الْعَصْرِ وَالْمُسْتَظْهِرَ بِالنَّصْرِ، فَتَحَ الْأَقَالِيمَ ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى مُلُوكِهَا، وَنَظَّمَ عَقُودَ الْمِيَامِنِ وَالْمَحَاسِنِ فِي سُلوِكِهَا، وَصَارَتْ خُرَاسَانُ فِي أَيَّامِهِ دَارَ الْعِلْمِ وَمَعْدَنَ الْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ، وَمَشْرِقَ شَمْسِ الْفَضَائِلِ وَمُحْيَا حَيَاءِ الْفَوَاضِلِ، وَمَشْرَعَ الشَّرِيعَةِ وَمَنْبِعَ الصَّنِيعَةِ، وَمَوْقِعَ نَدَى الْجُودِ وَمَطْلَعِ نَجْمِ السَّعُودِ، وَحَدِيقَةَ نَوَاطِرِ الْأَنْوَارِ، وَحَدِيقَةَ نَوَاضِرِ النَّوَارِ، وَمَنْزَلَ دَوِي الْمَنَازِلِ، وَمَوْتَلَ أُولِي الْوَسَائِلِ، وَمَسْقَطَ طَلِّ الطُّولِ، وَمَنْسِجَ حَوْكِ الْحَوْلِ، وَمَوْضِعَ ضَرْعِ الرَّضْعِ، وَمَلْمَعِ ضَوْءِ الشَّرْعِ، وَمَسْمَعِ رَوَايَةِ الْفَضْلِ وَمَرَايَ رَوَاءِ الْأَفْضَالِ، وَمَسْكَنَ دَوِي الْمَسْكَنَةِ وَمَقِيلَ دَوِي الْإِقْلَالِ، وَمَوْقِدَ نَارِ الْقِرَى، وَمَوْرِدَ مَاءِ النَّدَى، وَمَنَارَ سَمَاءِ السَّمَاحِ، وَمَطَارَ جَنَاحِ النَّجَاحِ، وَمَسْجِدَ صَلَاةِ الصَّلَاتِ، وَمَهَبَّ سَنَاتِ الْحَسَنَاتِ، وَمَهَبَطَ وَحِي الْمَكْرُمَاتِ، وَمَرِبَطَ خَيْلِ الْخَيْرَاتِ، وَمَرَكَزَ دَوَائِرِ الْمَنَاجِحِ، وَمُحَرَّرَ ذَخَائِرِ الْمَنَائِحِ، وَمَشِشَقَ أَرْجِ الرَّجَاءِ، وَمَنْشَأَ رُخَاءِ الرَّخَاءِ، وَمَجْنَى ثَمَرِ الثَّوَابِ، وَمَنْجَعَ صَوْبِ الصَّوَابِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا السُّلْطَانِ الْعَادِلِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ الْحَبَاءِ الْمَحْبُوبِ الشَّمَائِلِ أَنْ أَمَرَ ابْنَ أَخِيهِ غَيْرَ مَحْمُودٍ وَأَنَّ مُلْكَهُ إِنْ لَمْ يَتَلَفَ مُؤَدًّا إِلَى التَّلَافِ مُودٍ، فَصَوَّبَ رَايَتَهُ صَوْبَ الرَّيِّ، وَنَشَرَ لَوَاءَهُ الْبَعِيدَ اللَّوَاءِ إِلَى الطَّيِّ، فَكَانَ كَالشَّمْسِ أَضَاءَتِ مِنْ شَرْقِهَا، وَأَنَارَتْ مِنْ أَفْقِهَا، وَكَالْفَجْرِ فَجَّرَ أَنْهَارَ النَّهَارِ، وَكَالْبَدْرِ جَلَا

الظُّلْمَ بِالْأَنْوَارِ، وَكَالسَحَابِ سَحَبَ ذَيْلِ الْإِجْدَاءِ عَلَى الْإِجْدَابِ، وَكَالْبَحْرِ أَمِنَ بِالْإِعْطَاءِ مِنْ  
 الْإِعْطَابِ، فَاسْتَجَدَّ الزَّمَانُ بِمَطْلَعِهِ نُورًا، وَانْكَشَفَ بِهِ مِنَ الْجَدِّ مَا كَانَ مَسْتُورًا، فَلَمَّا أَظَلَّ  
 عَسْكَرُهُ عَلَى الْعِرَاقِ وَسَدَّ عَيْثُهُ جَوَانِبَ الْأَفَاقِ، وَعَقَدَ عَجَاجُهُ سَمَاءَ نُجُومِهَا لَوَامِعَ الْخُرْصَانِ،  
 وَسَمَتَ عَلَى سَوَابِغِ الْبَحَارِ صَوَارِمَ الْخُلُجَانِ، وَعَرَضَ لَهُ جِحْفَلٌ كَالْعَارِضِ يَلْمَعُ مِنْ حَوَاشِيهِ  
 الْبُرُوقِ، وَعَمِيقَ بِأَجْنِحَةِ الرِّيَاطِ عَنِ نَظَارِهِ الْعَيُوقِ، وَنَاجَى عُقَابَ اللَّوَاءِ الْخَافِقِ نَسْرَ السَّمَاءِ  
 الْوَارِيعِ، وَحَرَقَ سِنَاءَ السَّنَانِ حِجَابَ النَّعْمِ الرَّاقِعِ، وَعَبَّ السُّلْطَانَ مَحْمُودَ عَسْكَرُهُ وَسَهَرَ أَبْيَضُهُ  
 وَأَسْمَرَهُ، وَبَرَّرَ سِرَادِقَهُ، وَعَرَضَ فَيَالِقَهُ، وَكَتَبَ كِتَابَهُ وَقَنَّبَ مَقَابِهِ، وَضَرَبَتْ كُوسَاتُهُ وَيُوقَاتُهُ،  
 وَتَرَاءَى إِقْبَالُهُ وَأَقْبَلَتْ رِيَائَتُهُ، وَحَلَقَتْ عُقْبَانُ الْوَيْتِهِ، وَأَعْجَبَ عُقْبَانُ تَوْشِيحِهِ وَتَوْشِيئِهِ، وَرَاقَ  
 الْعَيُونُ نَارُهُ وَرَاعَتِ الْأَسْمَاعُ آثَارَهُ، وَأَعْمَى أَبْصَارَ الزَّهْرِ غُبَارُهُ، وَفَتَحَتْ أَشْفَارَ الْجُفُونِ  
 شِفَارُهُ، وَزَمَجَرَتْ وَاعِقُهُ وَأَرَعَدَتْ بَوَارِقُهُ، وَقَوِيَ رَجَاءُ رَجَالِهِ، وَتَدَمَّ مِنْ إِبْطَاءِ أَبْطَالِهِ، وَأَمَرَ  
 بِحَشْدِ الْجُمُوعِ وَجَمَعَ الْحَشُودَ وَرَفَعَ الْبُنُودَ وَعَرَضَ الْجُنُودَ، وَلَمْ يَغِبْ فِي تِلْكَ النَّوْبَةِ أَحَدٌ  
 مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَتَلَطَّطَتْ أَمْوَاجُ بَحَارِهَا الزَّوَاخِرِ، وَزَارَتْ أَسْدَهَا فِي غَيْلِ الْوَشِيحِ، وَاسْتَلَامَتْ  
 حُمْسُهَا بِالسَّابِرِيِّ النَّسِيحِ، وَكَانَ مُقَدَّمِي الْعَسْكَرِ السُّلْطَانَ مَحْمُودَ وَالْأَمِيرَانَ الْأَسْفَهْسَلَرَانِ  
 عَمِي بَارَ وَمَنْكُوبَرَسَ، وَبَيْنَهُمَا تَبَايُنٌ وَتَضَادٌّ وَتَضَاعُغٌ، وَبَيْنَهُمَا تَفَادُّحٌ عَنِ التَّعَاقُدِ، وَلَدَيْهِمَا  
 نَحَاشِدٌ فِي التَّحَاسُدِ، وَتَوَارَدٌ فِي غَيْرِ التَّوَادِدِ، وَكِلَاهُمَا يَجْدُبُ إِلَى صَاحِبِهِ عِنَانِ عِنَادِهِ، وَيَرْفَعُ  
 مِرَادَ مُرَادِهِ، وَكُلُّ مِنْهُمُ يُرِيدُ الْأَسْمَ لِنَفْسِهِ، وَيَطْلُبُ بُرُوقَ شِعَاعِ شَمْسِهِ، فَلَا جَزَمَ لِاخْتِلَافِ  
 آرَائِهِمَا وَاخْتِلَاطِ أَهْوَائِهِمَا وَاشْتِطَاطِ آرَائِهِمَا وَاخْتِبَاطِ أَسْبَابِهِمَا لَمْ يَسْتَقِمِ تَدْبِيرٌ وَلَمْ يَتَدَبَّرْ  
 تَقْوِيمٌ، وَلَمْ يَتَّضِحْ فِي الْمَصْلِحَةِ تَأْخِيرٌ وَلَا تَقْدِيمٌ، وَدَرَجَ الْوَزِيرُ الرَّيْبُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَسَكَنَ  
 فِي جِمَى الْجِمَامِ، وَتَوَى بِبِئَاسِ الرَّجَاءِ تَحْتَ الرَّجَامِ، وَتَزَلَّ عَنِ ظَهْرِ الثَّرْوَةِ إِلَى بَطْنِ الثَّرَى  
 وَوَارَاهُ مِنَ الثَّرَابِ مَا جَعَلَ لِمُورَاةِ الْوَرَى.

تولى كمال الملك علي بن أحمد السميرومي الوزارة

وتولى الوزارة بعده الصدر الكبير العالم نظام الدين صدر الاسلام كمال الملك  
 أبو الحسن علي بن أحمد السميرومي وذلك في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وذلك قبل  
 المصافح بين السلطنتين محمود وعمه سنجر بثلاثة أيام، وجرى أمره على نظام في غير  
 وقت النظام، وكان العسكران مشغولين بالتعبية، ونداء الألباء منهما مسموعاً بالتلبية،

وَالْحَرْبُ الْعَوَانُ قَدْ لَانَتْ مِنَ النَّقْعِ غِبَارَهَا، وَغَارَتْ عَلَى عُرُوسِ الشَّمْسِ فَكَتَمَتْ أَسْتَارَهَا، وَتَشَرَّتْ إِزَارَهَا قَبْلَ أَنْ تَضَعَ أَوْزَارَهَا، فَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ وَتَقَارَبَ لِلِاصْغَاءِ السَّمْعَانِ وَاخْتَلَطَ النَّعْمَانِ وَتَدَاخَلَ السِّتْرَانِ وَتَقَابَلَ الْجِتْرَانِ وَتَوَاجَهَ النَّيْرَانِ، وَوَقَعَ فِي الْعَيْنِ الْعَيْنُ، وَحَانَ الْإِقْدَامُ وَأَقْدَمَ الْحَيْنُ، وَلَمَعَ الْحَدِيدُ تَحْتَ الشِّعَاعِ فَكَأَنَّمَا أَذْهَبَ اللَّجَيْنُ، وَسُمِعَ وَقَعَ الْبَيْضِ عَلَى الْبَيْضِ كَأَنَّمَا طَبَعَ وَضْرَبَ الْفُؤَادُ الْعَيْنَ، وَطَارَتْ حَمَامُ الْجِمَامِ بِكُتْبِ الْكَبْتِ، وَتَوَفَّرَتْ سِهَامُ السَّهَامِ مِنَ الدَّارِعَيْنِ فَقَامَتْ نَافِذَاتُهَا فِي غُدْرِ الدَّرُوعِ مَقَامَ النَّبْتِ، وَجَالَتْ الْجَالِشِيَّةُ فِي وَتَبَاتِ وَاشْتَمَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَلَى أَوْفِي كُمَاءٍ وَأَفُوقِ رُمَاءٍ أَنْهَزَمَ عَسْكَرُ مَحْمُودٍ وَوَلَّى مُدْبِرًا وَكَبَّتْ عَسْكَرُ سَنْجَرٍ فَتَوَلَّى مُدْبِرًا، وَكَانَ أَنْوَشِرَوَانُ قَدْ قَصَدَ سَنْجَرَ وَكَانَ مِنَ الْمُحَرِّضِينَ الْمُعَرِّضِينَ، قَالَ: قَالَ لِي سَنْجَرُ أُوَانَ عَزَمِهِ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ مَحْمُودٍ كُلُّ مَا تَمَلَّكْتُهُ مِنَ الْمَمَالِكِ قَدْ سَلَّمْتُهُ إِلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْأَجَانِبِ، وَقَدْ خَصَّنِي اللَّهُ تَعَالَى بِمُلْكِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، فَكَيْفَ بَخَلَ عَلَيَّ وَلَدِي وَابْنُ أَخِي بَيْبَتِ أَبِيهِ، وَمَا كُنْتُ أَقْصَدُهُ لَوْلَا تَأْيِيهِ، وَلَكِنْ لَا أَرْضَى بِالْخَلَلِ الَّذِي أَرَاهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَنَا كَبِيرُهُ، وَلَا يَسْعُنِي إِلَّا تَدْبِيرُهُ، وَلَا عُذْرَ لِي فِي التَّغَاضِي، وَلَا بُدَّ لِي بِحَقِّهِ مِنَ التَّقَاضِي، وَمَاذَا أَقُولُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَدَا فِي الْمَحْشَرِ إِذَا قَصُرْتُ الْيَوْمَ لِلسُّلْطَانِ الْأَمَاضِي، فَلَا بُدَّ لِي مِنْ أَخِي هُوَ لَا مِنَ الْمُفْسِدِينَ الَّذِينَ تَحَكَّمُوا فِي الْمُلْكِ وَتَسَلَّطُوا، وَفَرَطُوا فِيهِ وَأَفْرَطُوا، وَأَهْدَبُ مِنْهُمْ مَنْ يَهْدَبُ، وَأُودَبُ مِنْهُمْ مَنْ يَتَادَبُ، وَأُرْتَبُ مِنْ مَمْلَكَةٍ وَلَدِي كُلِّ مَا يَتَرْتَبُ، وَأُصْلِحُ الْفَاسِدَ وَأُحْكِمُ الْقَوَاعِدَ وَأُبْرِمُ الْمَعَاقِدَ، وَيَحْضُرُ وَلَدِي وَابْنُ أَخِي عِنْدِي وَيَحْظِي بِرِفْدِي، وَأَجْعَلُهُ وَلِيَّ عَهْدِي وَيَنَالُ كِرَامَتِي وَيُكْرِمُ بِنَالَتِي، وَأَقْرُرُ مُلْكَ الْعِرَاقِ عَلَيْهِ، وَأَقْرُرُ بَتَعِينِ قَرَارِهِ عَيْنِي، وَأَنَا أَعُودُ إِلَى خُرَاسَانَ وَأَنْتَقِلُ فِي مَمَالِكِي وَأَتَقَلَّبُ، وَأَذْهَبُ إِلَى مُلْكِي حِينَ يَصِحُّ الْمَذْهَبُ، ثُمَّ أَنَّ هَذَا الْمُلْكَ عَارِيَّةٌ مَسْلُوبٌ وَسَلَبٌ مُسْتَعَارٌ، وَمَتَاعٌ مَتَاعِبٌ مَا فِيهِ حَظٌّ لِمُخْتَارٍ، وَمَضَارٌ مَضَارِهِ ذَاتُ مَضَاءٍ، وَمَسَارِبٌ مَسَارِهِ مَغِيضَةٌ لَهَا كُلُّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، فَلَمَّاذَا أَبْخُلُ بِهِ عَلَى وَلَدِي، وَإِنَّمَا أَدَّجِرُ لَهُ مَطْرَفِي وَمَتَلَدِي.

قَالَ أَنْوَشِرَوَانُ: فَقُلْتُ لَهُ حُكْمِي عَنْ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانِ أَنَّهُ قَالَ لَا تُصَغِّرْ أَمْرَ مَنْ حَارِبْتَهُ فَإِنَّكَ إِنْ ظَفَرْتَ بِهِ لَمْ تُحْمَدْ وَإِنْ عَجَزْتَ عَنْهُ لَمْ تُقَدَّرْ، وَمَا ظَنَّ السُّلْطَانُ سَنْجَرَ فِي وَلَدِ أَخِي أَنَّهُ يَرِغَبُ عَنْ مُصَافَاتِهِ إِلَى مُصَافَقَتِهِ، وَيَمِيلُ عَنْ مُوَافَقَتِهِ إِلَى مُوَافَقَتِهِ، وَيَرْجِعُ عَنْ مُوَافَاتِهِ

إِلَى مُنَافَاتِهِ، وَعَنْ مَبَرَّتِهِ إِلَى مُبَارَاتِهِ، فَلَمَّا انكسر جيشه انكسر جأشه، وَلَمَّا ضَلَّ عَنِ النَّارِ فَرَّاهُ ظِلًّا كَأَنَّمَا فِي النَّارِ فِرَاشُهُ، وَلَمَّا عَمَلَ بِرَأْيِ الْأَمِيرِينَ عَلِيٍّ بَارًا وَمَنْكُوبِرْسَ رَأَى عَمَلَهُ غَيْرَ صَالِحٍ، وَمَتَجَّرَهُ خَاسِرًا غَيْرَ رَابِحٍ، وَقَبِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ جَمَاعَةً مُبْرَؤُونَ، وَسَلِمَ الْمُجْرُونَ الْمُجْرَؤُونَ، وَلَيْسَ يَصْلَى بِنَارِ الْحَرْبِ جَانِبَيْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ سَأَلَ سَنَجَرَ عَنْ وَلَدِ أَخِيهِ، وَلَمْ يَحْمَدْ مَا كَانَ مِنْ تَأَخُّرِهِ عَنْ حَضْرَتِهِ وَتَرَاجِيهِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولًا لِقَبْضِ دُعْرِهِ وَبَسْطِ عِذْرِهِ، وَأَنَّهُ لَأَشْكَّ عَلَى مَا تَمَّ مَحْمُولٌ، وَأَنَّ رُشْدَهُ مَأْمُولٌ، وَأَنَّهُ يُؤَيِّرُ حَفْظَ قَلْبِهِ وَالْأَنْسَ بِقُرْبِهِ وَتَنْفِيسَ كَرْبِهِ وَتَطْيِيبَ نَفْسِهِ، وَتَقْضِيلَ يَوْمِهِ فِي الْفَلَاحِ وَالصَّلَاحِ عَلَى أَمْسِهِ، وَأَنَّهُ يَتَدَارَكُ عِنْدَ التَّلَاقِي مَا فَرَطَ بِالتَّلَافِي، وَأَنَّهُ يَتَمُّ التَّقْصِي عَنْ عُهْدَةِ تِلْكَ الْهِنَاتِ، وَأَنَّ مِنْ شِمَيْتِنَا إِسْعَافُ الْعَافِي وَإِنْصَافُ الصَّافِي، فَاسْتَخِرِ اللَّهَ تَعَالَى وَلَا تَسْتَأْخِرْ، وَاسْتَأْخِرْ لِقَاءَ مَنْ عَلَى لِقَائِكَ لَمْ يَسْتَأْخِرْ، وَاسْتَمِرَّ عَلَى كَرَمِ خُلُقِكَ وَلِغَيْرِ كَرَمِكَ لَا تَسْتَأْمِرْ، وَالْمَصْلَحَةُ أَنْ تُسَكِّنَ الذُّهْمَاءَ وَتَحْقِنَ الدَّمَاءَ وَتَنْجِلِي الْعَمَاءَ، وَقَدْ كَانَ أَحَاطَ أَوْلِيكَ الْمَذْمُومُونَ بِالسُّلْطَانِ مَحْمُودٍ، لَا يَهْدُونَهُ إِلَى الصَّوَابِ وَلَا يُصَوِّبُونَهُ إِلَى الْهُدَى، وَيَصُدُّونَهُ عَنِ رِيِّ الرَّأْيِ وَلَا يَرَوْنَ مِنْهُ الصِّدْقَ، وَكَانَ قَدْ سَبَقَ أَبُو الْقَاسِمِ الدَّرَكَزْنِيُّ صَاحِبُ الْأَمِيرِ عَلِيِّ بَارًا إِلَى الْبَابِ الْأَعْظَمِيِّ وَهُوَ الَّذِي أَضْرَمَ هَذِهِ الْفِتْنَةَ وَأَمْرَضَ هَذِهِ اللَّقِيَةَ، وَأَوْقَعَ هَذِهِ الْوَقْعَةَ، وَأَجَالَ قِدْحَ الرَّقَاعَةِ وَجَالَ فِي الرُّقْعَةِ، فَحَضَرَ لِإِصْلَاحِ أَمْرِ صَاحِبِهِ، وَعَعَّضَ عَلَى الْأَمْرِ بِأَنْبَابِهِ وَمَخَالِبِهِ، وَأَحْضَرَ قَدْرًا مِنْ أَلْمَالِ الَّذِي اخْتَزَنَهُ مِنَ الْخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ فَتَثَرَهُ وَبَدَّرَهُ، وَقَدَّمَ الرَّشَى حَتَّى أَيْمَنَ مَا حَذَرَهُ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مَوْرِدَ الْأَمْرِ وَمَصْدَرَهُ، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُتَوَسِّطَ فِي الصَّلَاحِ وَالصَّلَاحِ، وَالْمُتَحَدِّثَ فِي الْإِنْجَاءِ وَالْإِنْجَاحِ، وَالْمُقْتَرَحَ لِلْقَرَارِ وَالْمَقَرَّرَ لِلِاقْتِرَاحِ، وَلَمَّا بَدَّلَ الْمَالَ وَمَلَأَ الْأَيْدِيَّ بِالْبَدَلِ، انْحَدَرَ عَنِ الْوَعْرِ وَمَشَى فِي السَّهْلِ، وَحَكِمَ لَهُ بِالْعِلْمِ مَعَ فَرَطِ الْجَهْلِ، وَبِعَلُّوْهُ الرِّبِيَّةَ مَعَ دَنَاءَةِ الْأَصْلِ وَسَقُوطِ الْمَحَلِّ، وَفُتِحَتْ لَهُ الْأَبْوَابُ، وَأَصْحَبَ لَهُ الْأَصْحَابُ، وَرَفَعَ الْحِجَابَ لَهُ الْحُجَابُ، وَتَدَلَّتْ لَهُ الْمَصَاعِبُ، وَتَسَهَّلَتْ لَدَيْهِ الصُّعَابُ، وَقَالُوا هَذَا كَبِيرُ الدَّوْلَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ وَشَارِحُ مَعَانِيهَا وَمُعْرَبُ آيِهَا وَوَزِيرُ صَاحِبِ رَايَتِهَا بَلِّ رَأْيِهَا. قَالَ أَبُو الْعَيْنَاءِ<sup>(1)</sup>: [السريع]

(1) أبو العيناء: محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر، الهاشمي بالولاء، أديب فصيح من الظرفاء، ولد في البصرة سنة 191 هـ، وها توفي سنة 283 هـ، اشتهر بسرعة جوابه ونوادره ولطائفه، وكان ذكياً حسن الشعر مليح الكتابة، كُفَّ بصره بعد الأربعين من عمره.

إِنْ ضَرَطَ الْمُوسِرُ فِي مَجْلِسٍ      قَالَ وَاللَّهِ يَرْحَمُكَ اللَّهُ  
أَوْ عَطَسَ الْمُفْلِسُ فِي مَجْلِسٍ      سُبِّ وَقَالُوا فِيهِ مَا سَاءَ  
فَمَضَرَطَ الْمُوسِرِ عَرِينُهُ      وَمَعَطِسُ الْمُفْلِسِ مَفْسَاهُ

فَوَجَدَ الطَّرِيقَ إِلَى تِلْكَ السُّدَّةِ الْمُحْتَرَمَةِ وَالْحَضْرَةَ الْمُعْظَمَةَ، وَقَدَّمَ مَالاً وَاسْتَمَالَ  
الْمُقَدَّمِينَ، وَصَارَ عِنْدَهُمُ الْحَفِيزُ الْأَمِينُ، وَقَالَ: حَكْمُ السُّلْطَنَةِ مَعَ مَخْدُومِي، وَهِيَ يَقْبَلُ  
مَرْسُومِي، وَمَفْتَاحُ الْمَلِكِ بِيَدِي وَهُمْ مُتَعَفِّ مُنَادِيهِ وَمُقِيمُ أَوْدِهِ، وَهُوَ الْأَصْلُ وَالْجَمْلَةُ وَالذُّنْيَا  
وَالدُّوْلَةُ، وَإِذَا حَضَرَ فَلَا مُبَالَاةَ بِمَنْ غَابَ، وَإِذَا رَبَّ فَلَا عِبْرَةَ بِمَنْ رَابَ، وَقَدَّمَ دَعَاوِي قُبِلَتْ  
مِنْهُ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ، وَصُدِّقَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ مُتَعَيَّنَةٍ، وَعَرَبْتُ بَيِّنَتِي فَارْسِيَّيْنِ أَوْرُدُهُمَا فَقُلْتُ:

[الرجز]

مَتَى تَكُنْ مَنْيَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ      أَعْلَمُ بِهَا زَوْجَتَهُ فَتَحْصَلُ  
فَإِنَّهُ لِمَا يَقُولُ فَاعِلٌ      وَإِنَّهَا لِمَا أَقُولُ أَنْفَعَلُ  
وَقُلْتُ أَيضاً: [مَجْزُوءُ الرَّجْزِ]

زَوْجَتُهُ فِي حَاجَتِي      إِذَا أَتَاهَا تَشْفَعُ  
فَإِنَّهُ يُطِيعُهَا      وَإِنَّهَا لِي أَطْوَعُ  
وَقُلْتُ: [مَجْزُوءُ الرَّجْزِ]

فِي حَاجَةٍ لِي عِنْدَهُ      زَوْجَتُهُ تُفِيدُنِي  
فَإِنَّهُ يُرِيدُهَا      وَإِنَّهَا تُرِيدُنِي

كَانَ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ فِي عَسْكَرٍ مِنَ الشَّرْقِ كَثِيرٍ كَثِيفٍ، وَمَطَّلَعَ مِنَ السَّعْدِ مُنِيرٍ مُنِيفٍ،  
وَهُوَ لَا يُؤَثِّرُ أَنْ يَطُولَ مَقَامُهُ فَتَقْتُلَ وَطَائِهِ وَتَكْثُرَ مَضْرَتُهُ وَتَعْدِي مَعْرَتُهُ، فَارَادَ إِسْوَاءَ الْجُرْحِ  
وَاسْتِبَابَ الصُّلْحِ، حَتَّى يَعُودَ حَمِيداً وَيُحْمَدَ عَائِداً، وَيَصْرِفَ إِلَى الرَّشِيدِ وَجْهَ الْقَوْمِ وَيَنْصَرِفَ  
رَاشِداً، فَطَالَتْ عَلَيْهِ غَيْبَةُ مُحَمَّدٍ وَلَمْ يَرَ أَنْ يَتَرَكَ الْبَيْتَ مُتَدَاعِي الْبِنْيَانِ غَيْرَ مَعْمُودٍ، وَمَا صَدَّقَ  
بِحُضُورِ الدَّرَكِزِيِّ عَلَى بَابِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ مِنَ النَّجْحِ عَلَى لُبَابِهِ، فَأَذَنَ فِي إِحْضَارِهِ،  
وَمَا اطَّلَعَ عَلَى سِرِّ مَضَارِهِ، فَلَمَّا بَصَرَ بِهِ قَالَ لَهُ: أَيْنَ عَلِيٌّ بَارِ فَإِنَّهُ لِأَمْرِ وَلَدِي صَمِيمٌ، فَتَلَا:

[أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ<sup>(1)</sup>]، وَإِنَّهُ يَسْعُهُ عَظْمُكَ وَعَرْفُكَ، فَدَنَبَهُ إِلَى أَصْفَهَانَ لِاحْتِضَارِهِمْ، وَأَجْرَى الْأُمُورَ عَلَى إِثَارِهِمْ، فَبَلَغَ الْوَزِيرَ الْكَمَالَ السُّمَيْرِيَّ أَنْسُ الدَّرَكِزْنِيَّ بِالْحَضْرَةِ السَّنْجَرِيَّةِ، وَأَنَّهُ وَاصِلٌ بِالْبُجْرَاءِ الْقَوِيَّةِ وَالْقُوَّةِ الْجَبْرِيَّةِ، فَسَبَقَ بِالرَّأْيِ وَرَأَى السَّبْقَ، وَأَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى بِالرَّتَقِ الْفَتَقَ، فَقَالَ لِلسُّلْطَانِ مَحْمُودِ هَذَا عَمَّكَ فِي مَقَامِ الْوَلَدِ وَكَأَنَّكَ عَلَيْكَ حَقُوقٌ وَعَصِيَانَةٌ عُنُوقٌ، وَمِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ اسْتِعْطَافُهُ وَاسْتِجْدَادُ رِضَاؤِهِ وَاسْتِثْبَاقُهُ، وَأَنَا أَمْضِي إِلَيْهِ لِإِمْضَاءِ الْأَلِيَّةِ وَإِرْضَائِهِ بِالْكَلِيَّةِ، وَأَضْرَعُ لَكَ إِلَيْهِ وَأَعْرَضُ تَفْضُلَكَ عَلَيْهِ، وَخَافَ الْوَزِيرُ الْكَمَالَ أَنَّهُ إِنْ وَصَلَ الدَّرَكِزْنِيَّ فَإِنَّهُ يُصَيِّرُ الْأَمِيرَ عَلِيَّ بَارًا لِلْأَمِيرِ مُتَوَلِيًّا، وَيَبْقَى هُوَ عَنِ الشُّغْلِ مُتَخَلِّيًا، وَأَنَّهُ يَصَيِّرُ تَابِعًا، وَمَاؤُهُ غَايِبًا وَمَاءُ جَاهِ الدَّرَكِزْنِيَّ نَابِعًا، فَقَدَّمَ الصَّوَابَ وَأَصَابَ بِالْإِقْدَامِ، وَاحْتَرَزَ مِنَ الْعَثَارِ عِنْدَ مَرَلَةِ الْأَقْدَامِ، وَتَوَجَّهَ مِنْ جَنِّي إِلَى الرَّيِّ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالنَّشْرِ وَالطَّيِّ، وَلَقِيَ أَبَا الْقَاسِمِ الدَّرَكِزْنِيَّ فِي طَرِيقِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِتَوَقُّعِهِ مِنَ السُّلْطَانِ سَنَجَرَ وَتَوَثُّقِهِ، فَلَمْ يَعْجِزْ عَلَى تَصْديقِهِ، وَلَمْ يَعْجِزْ إِلَى تَزْوِيرِهِ وَتَزْوِيقِهِ، وَقَالَ الْوَزِيرُ الْكَمَالَ قَدْ قَضَيْتُ الشُّغْلَ فَلَا تَتَعَبْ، وَعَرَّفْتَهُمْ زُهْدَنَا فَلَا تَرْغَبْ، فَدَعَّ سَنَجَرَ طَالِبًا لَا مَطْلُوبًا، وَمُحِبًّا لَا مَحْبُوبًا، وَاجْتَهَدَ بِكُلِّ طَرِيقٍ عَنِ إِعَادَةِ الْوَزِيرِ عَنِ طَرِيقِهِ، وَمُخَادَعَتِهِ عَنِ حَقِّهِ وَتَحْقِيقِهِ، فَمَا التَّفَقُّ وَلَا الْاِكْتِرَافُ، وَأَعَدَّ السَّيْرَ وَمَا لَبِثَ، فَمَضَى الْخَبِيرَ إِلَى السُّلْطَانِ سَنَجَرَ بِأَنَّ الْوَزِيرَ الْكَمَالَ قَدْ قَدَّمَ، وَأَنَّ ابْنَ أَخِيكَ مَحْمُودَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكَ لِلْعَذْرِ لَمَّا نَدِمَ، فَاطْلَعَ عَلَى سِرِّ إِقْبَالِهِ وَأَقْبَلَ سَارًّا الطَّلِعَةَ وَتَوَقَّعَ الْحُسْنَى بِمَقْدَمِهِ وَقَدَّمَ الْإِحْسَانَ لِمَوْقِعِهِ وَأَمَرَ الْأَمْرَاءَ بِاسْتِقْبَالِهِ، وَاحْتَفَلَ فِي حِفْلِهِ لِتَوْفِيرِ إِقْبَالِهِ، وَأَبْصَرَ الْوَزِيرُ الْكَمَالَ مِنْ تَعْظِيمِ حَظِّهِ مَا لَمْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ فَتَلَقَّاهُ الْكِبْرَاءُ وَالْعِظْمَاءُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، وَخَدَمُوهُ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ، وَلَقُوهُ بِالْمَوْكِبِ السُّلْطَانِيِّ وَالْمَرْكَبِ الْخُسْرَوَانِيِّ، وَاحْتَرَمُوهُ كَمَا يُحْتَرَمُ الْوَزِيرُ، وَأَكْرَمُوهُ كَمَا يُكْرَمُ الصُّدْرُ الْكَبِيرُ، فَحَبَطَ عَمَلُ عَلِيِّ بَارٍ وَبَارَ، وَانْهَدَمَ كُلُّ مَا بَنَاهُ وَانْهَارَ، وَأَخَذَ يَدَ السُّلْطَانِ عَلَى شَدِّ أَوْأَخِيهِ لِابْنِ أَخِيهِ، وَأَعْلَمَهُ بِإِرَادَةِ الْوَفَاقِ وَتَوَخَّيهِ، وَاسْتَوْتَقَّ مِنْهُ فِي كُلِّ مَا اسْتَوْفَقَهُ، وَاسْتَدْرَكَ بِالرَّوِيَّةِ فِي الرَّأْيِ فِي كُلِّ مَا فَاتَهُ مِنْ حَقِّهِ وَاسْتَلْحَقَهُ، وَأَقَامَ الْوَزِيرُ وَسَيَّرَ إِلَى سُلْطَانِهِ مِنْ عِنْدِهِ رَسُولًا يَسْتَدْعِيهِ وَيَسْتَحْتِثُهُ، وَيُعَلِّمُهُ أَنَّ عَمَّهُ لَانْتِظَارِهِ مَقَامَهُ وَمَكَتَهُ، فَأَقْبَلَ مَحْمُودٌ لُوْزِيرَهُ حَامِدًا، وَإِلَى عَمِّهِ وَإِفْدًا، فَأَكْرَمَ وَفَادَتَهُ وَأَكْثَرَ إِفَادَتَهُ وَانْتَجَحَ إِرَادَتَهُ وَأَوْضَحَ سَعَادَتَهُ، وَلَمْ يَجِدْ عَلِيَّ بَارًا بُدْأً

مِنَ الْإِتْبَاعِ، وَخَضَرَ ضَيْقُ الدَّرْعِ قَصِيرَ الْبَاعِ، وَخَرَّ لِيُجِبَلَ التَّرْبَ وَاعْتَرَفَ بِالذَّنْبِ، فَأَبْدَى لَهُ السُّلْطَانُ الرَّحِيمُ صَفْحَةَ الصَّفْحِ، وَمَنَحَهُ الْعَفْوَ وَأَعْفَاهُ مِنْ مِثَّةِ الْمَنَحِ، ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَزِيرُ الْكَمَالُ وَعَلِي بَار وَوَزِيرُهُ، عَلَى مَا يَتِمُّ بِهِ تَقْرِيرُ أَمْرِ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ وَتَدْبِيرُهُ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتْرَكَ رِسْمَ السُّلْطَانَةِ أَحْرَامًا لِعَمِّهِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مُدَّةٍ مُقَامِهِ عِنْدَهُ بِحُكْمِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقْبَلَ نَجِيبَ السُّلْطَانِ يَرْكَبُهُ لِيَحْسُنَ أَدَبُهُ وَأَنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ نَوْبِيَّةِ الْحَمْرَاءِ إِلَى نَوْبِيَّةِ بِيضَاءِ فِي سَوَاءٍ، وَأَنَّهُ يَأْمُرُ بِتَبْطِيلِ ضَرْبِ الطَّبْلِ مَادَامَ فِي ظِلِّهِ مُسْتَمْسِكًا بِحَبْلِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا دَخَلَ إِلَى عَمِّهِ انْقَضَ وَقَبِلَ الْأَرْضَ وَأَنَّهُ يَقُومُ عِنْدَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ فَذَلِكَ أَلْتَقَى بِعَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ يَمْشِي فِي رِكَابِ عَمِّهِ رَاجِلًا مِنَ الْبَارِكَاةِ إِلَى السُّرَادِقِ، وَرَبَّتُوا مَعَهُ حِفْظَ الْأَدَبِ فِي هَذِهِ الطَّرَائِقِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْفَرِدُ عَنْ عَمِّهِ بِسُرَادِقِ بَلْ يَنْزِلُ فِي جَوَارِ خِيَمِهِ، وَفِي مَوْضِعِ أَوْلَادِهِ وَخُرْمِهِ، وَأَنْ يَبْقَى عَشْرِينَ يَوْمًا عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، لِيَسْتَعْطِفَ عَمَّهُ فِي عَوْدِ مَرَاضِيهِ الْمُتَبَاعِدَةِ.

قَالَ أَنْوَشْرَوَانُ: وَكَانَ هَذَا مِنْ آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ فَإِنَّهُمْ لَطَلَّبُوا سَلَامَةَ أَنْفُسِهِمْ أَلَزَمُوا سُلْطَانَهُمُ الْجَزِيَّةَ وَالْأَسْوَةَ الْغِيَارَ، وَسَاوَمُوهُ الصَّغَارَ، وَعَصَبُوا بِحَبِينِهِ الْعَارَ، فَلَمْ يَجْرِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ رِسْمُ خُضُوعِ سُلْطَانِ الْعِرَاقِ لِسُلْطَانِ خُرَاسَانَ، فَلَمْ يُخْلَوْهُ عَلَى طَبْعِهِ الْغَرِيزِيِّ وَأَحْلَوْا بِهِ الْهَوَانَ، عَلَى أَنْ تَوَاضَعَهُ لِعَمِّهِ لَمْ يَكُنْ بِمُنْتَكِرٍ وَلَكِنْ بِطَرِيقِهِ الْمُرْضِيِّ وَنَهَجِهِ الْمَرْعِيِّ، لَا بِإِجْرَاءِ رِسْمِ السَّقُوطِ وَإِسْقَاطِ الرِّسْمِ، وَتَصَغِيرِ قَدْرِهِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ عَلَى الْخُصُوصِ وَالْعُمُومِ، وَكَانَ مَقْصُودُهُمْ أَنْ تَتَأَكَّدَ لِلْكَمَالِ الْوِزَارَةُ، وَلِعَلِّي بَار الْإِمَارَةَ، وَلِلدَّرَكْزِينِيِّ السَّفَارَةَ، فَأَيْنَ تِلْكَ الْحَمِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي عُرِفَتْ مِنْهُ عِنْدَ حَرَكَةِ عَمِّهِ، وَأَيْنَ هِمَّتُهُ الَّتِي كَانَ عَلَى قَدْرِهَا قَدْرُ هَمِّهِ، وَأَيْنَ الْعَزْمَةُ الَّتِي هَاجَتْ نَارُهَا نَارَ الْهَيْجَاءِ، وَأَيْنَ الثَّوْرَةُ الَّتِي أَثَارَتْ الْأَرْضَ إِلَى السَّمَاءِ، فَهُمُ الَّذِينَ عَلَّمُوا ذَلِكَ الْجَفَاءَ، ثُمَّ أَلَزَمُوهُ هَذَا الِاسْتِخْدَاءَ، وَأَوْرَدُوا لِأَبِي الْمَعَالِيِّ النَّخَاسِ بَيْتَيْنِ بِالْفَارْسِيَّةِ مَعْنَاهُمَا مَا عَرَّبْتَهُ وَقُلْتُ: [الْبَسِيطُ]

إِنَّ الْحَبِيبَ الَّذِي قَدْ كَانَ يُبْعِدُنِي      صَوْنًا لَهُ صَارَ يُدْنِينِي وَيَبْذُلُ لِي  
بِالْأَمْسِ أَنْعَبَنِي فِي قُبْلَةٍ طَلَبْتُ      وَالسَّيَوْمَ لِي رَاحَةً مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ

وَمَا جَرَى فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ بَيْنَ السُّلْطَانَيْنِ حَدِيثٌ إِلَّا فِي جَامِعٍ يُدَلُّ وَجَانِحٍ يُعَدَّلُ، وَعَلِمَ يُرْفَعُ وَعَلِمَ يَنْفَعُ، وَعَمَلٌ يُصْلِحُ وَصَالِحٌ يُعْمَلُ، وَسَمِلٌ يُنْظَمُ وَنَظَامٌ يَسْمَلُ، وَرُكْنٌ يُقَوَّى وَقُوَّةٌ إِلَيْهَا يُرْكَنُ، وَسُكُونٌ يُقَرَّرُ وَقَرَارٌ إِلَيْهِ يُسْكَنُ، وَبِنَاءٌ يُؤَسَّسُ وَأَسَاسٌ عَلَيْهِ يُبْنَى، وَجَنَانٌ يُسْتَمَرُّ

وَمَرَّةٌ تُجَنِّي، وَحَقٌّ يُحَقِّقُ وَبَاطِلٌ يُمَحِّقُ، وَوَضِعٌ يُقَنَّ وَقَانُونٌ يُوَضِّعُ، وَشَرَعٌ يُحْفَظُ وَحِفْظٌ يُشْرَعُ، وَأَصْلُ صِلَاحٍ يَنْتَرَعُ وَجَنَسٍ فَلَاحٌ يَنْتَوَعُ، وَخَلَّةٌ تُسَدُّ وَخَلَلٌ يُرْدُّ، وَسُنَّةٌ سَيِّئَةٌ تُمَحَى وَسُنَّةٌ حَسَنَةٌ تُجَدَّدُ، وَسِيَاسَةٌ تُرَعَى وَرَعِيَّةٌ تُسَاسُ، وَقِيَاسٌ يُوَصَّلُ وَأَصْلٌ عَلَيْهِ يُقَاسُ، وَمَعْرُوفٌ يُسَدَّى وَمَلْهُوفٌ يُعَدَّى، وَفَضْلٌ يُكْرَمُ أَهْلُهُ وَأَفْصَاحٌ يُوَضِّحُ سُئْلُهُ، وَعُرْفٌ يُقَامُ فَرَضُهُ، وَجُنْدٌ لِلْجِهَادِ يَدُومُ عَرْضُهُ، وَعَرَفَ السُّلْطَانُ سُنْجَرَ خُلُقِ ابْنِ أَخِيهِ فِي الْكِرَامِ، وَوَجَدَ شَيْمَتَهُ أَرْكَى الشَّيْمِ، وَعَلِمَ أَنَّ جَمِيعَ مَا جَرَى بِتَجَرِّئَةِ جَمَاعَتِهِ وَطَاعَتِهِ لِمُخْفِي عَصِيَانِهِ وَمُظْهِرِي طَاعَتِهِ، وَإِنَّهُمْ حَمَلُوهُ وَبَعَثُوهُ وَوَرَّثُوهُ مِنْ تَعْيِيرِ رَأْيِ عَمِّهِ مَا وَرَّثُوهُ، وَأَرْثُوا مِنْ نَارِ الْفِتْنَةِ الدَّائِمَةِ مَا أَرْثُوهُ، وَعَلِمَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ تَوَاضُعِهِ وَتَنَازُلِهِ كَانَ أَيْضًا بِتَعْلِيمِهِمْ وَتَوْفِيْقِهِمْ عَلَى تِلْكَ الرِّسْمِ وَتَفْهِيمِهِمْ، وَكَانَ مِنْ حِلْمِ سُنْجَرٍ أَنَّهُ يُغْضِي عَمَّنْ يَعْضِبُ، وَيُجَدِّي عَمَّنْ يُجَدِّبُ، فَصَفَّحَ عَنْ كِبَائِرِ ذُنُوبِهِمْ بَعْدَ مَا تَصَفَّحَ مِنْ سَرَائِرِ قُلُوبِهِمْ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الْخُلْعَ وَأَصْطَفَى كُلًّا وَأَصْطَنَعَ، وَكَتَبَ مَنشُورَ الْوَزِيرِ الْكِمَالِ بِتَقْرِيرِهِ عَلَى الْوِزَارَةِ، وَمَنشُورًا لِإِلْعَالِي بَارِ بِمَكِينِهِ مِنَ الْإِمَارَةِ، وَمَنشُورًا لِأَبِي الْقَاسِمِ الدَّرْكَزْنِيِّ بِمَنْصَبِ الطَّغْرَاءِ وَالْإِنشَاءِ، وَتَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ بِمَا قَدَّمُوهُ مِنَ الْخِدْمَةِ وَتَسَلَّفُوهُ فِي تِلْكَ الْحَضْرَةِ مِنْ سِلَاقَةِ الْإِنْتِشَارِ وَتَرَاءُوِهَا وَجِهَةِ الصُّبْحِ فِي مِرَاةِ الْعِشَاءِ، وَلَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا اسْتَجَدُّوهُ مِنَ الْكِرَامَةِ وَاسْتَجْلَوْهُ مِنَ سَنَا السُّمُومِ وَمِنْ جِنَا النَّمُوِّ، فَسَعَوْا بِكُلِّ مَنْ لَهُمْ عِنْدَهُ وَتَرَّ، فَكَمَ أَبْطَلُ حَقِّ وَكُشِفَ سِتْرٌ، وَقَالُوا إِنَّا قَدْ اعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَسَمَلْنَا الْعَفْوَ فَأَنْهَلْنَا الْوَرْدَ الصَّفْوُ، وَلَنَا شُرَكَاءُ فِي الذَّنْبِ لَمْ يَعْتَرِفُوا وَلَمْ يَعْتَدِرُوا عَمَّا اقْتَرَفُوا، وَإِنْ عَدْنَا بِهِمْ لَمْ نَأْمَنَ عَوَائِلَهُمْ، وَإِنَّا لَنُخْشَى أَنْ يُعَلِّبُوا عَلَيْنَا بَاطِلَهُمْ، وَطَلَبُوا مِنْ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ سُنْجَرَ خَلْوَةٍ حَقَّقُوا لِنَفْسِهِمْ جَلْوَةَ، وَوَجَدُوا بِهَا مِنْ إِحْسَانِهِ سَلْوَةَ، وَحَسَّنُوا لِلْسُّلْطَانِ مِنْ سَفِكِ الدَّمَاءِ كُلِّ قَبِيحٍ، وَأَعْلَوْا عِنْدَهُ كُلَّ صَحِيحٍ، وَهَجَّنُوا كُلَّ صَرِيحٍ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ ضُرِبَتْ مِنْهُمْ الرِّقَابُ الْأَمِيرُ مَنكُوبَرِسُ وَقَرَاتِكِينُ الْقِصَابُ، وَكَانَا بَرِيئَيْنِ وَبِالْتَحَرِيرِ خَرِيئَيْنِ، فَانْتَقَلَا إِلَى اللَّهِ مَظْلُومَيْنِ مُضْمِنَيْنِ بِمَا قِيلَ فِيهِمَا مِنَ الْمَيْنِ، وَخَشِي الْأَمْنُ وَأَمِنَ الْمَانُنُ، وَجَلِي الْمَسْتَوْرُ وَخَفِي الْمَشْهُورُ، وَنَفَقَ الزَّيْفُ وَوَقَفَ الْعِلْمُ وَمَضَى السَّيْفُ، وَسَفِكَ الدَّمُ الْمَعْصُومُ وَفَتَكَ الْقَدْرُ الْمَحْتُومُ، وَقَفَّلَ السُّلْطَانُ سُنْجَرَ بِعَسْكَرٍ إِلَى خِرَاسَانَ، وَقَرَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْطُوا الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ، وَعَادَ الْوَزِيرُ الْكِمَالُ وَلَهُ الْأُبُهَّةُ وَالْأَجْلَالُ، وَالدَّرْكَزْنِيُّ فِي دِيوَانِ الطَّغْرَاءِ وَشَمَسَ الْمَلِكُ بَنُ نِظَامِ الْمَلِكِ فِي دِيوَانِ الْإِسْتِيفَاءِ، وَهُوَ بِحُكْمِ الْوَزِيرِ مُتَّصِرَفٌ عَلَى حُكُومِهِ فِي الْيَسِيرِ وَالْكَثِيرِ، وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ رَاحٍ وَعِزٌّ صَادِعٌ وَإِفْرٍ قَاطِعٌ وَجَمْعٌ

لِلْعُظْمَاءِ جَامِعٍ، فَإِذَا رَكِبَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ رُكَايِهِ أَصْحَابُ الْأَقْلَامِ وَأَرْبَابُ السِّيُوفِ، وَكَانَتْ  
 مِثْنَهُ فِي أَعْنَاقِهِمْ. مَكَانَ الْأَطْوَاقِ وَأَمْرُهُ فِي مَسَامِعِهِمْ مَكَانَ الشُّنُوفِ، وَكَانَ عَمِي الْعَزِيزُ فِي  
 ذَلِكَ الْوَقْتِ يَتَوَبُّ فِي الْوِزَارَةِ وَالِاسْتِيفَاءِ، وَيُمَشِي الشَّغْلَيْنِ وَيَحْلِي بِفَضْلِهِ وَكَفَايَتِهِ الْعَطْلَيْنِ،  
 وَالْكَمَالَ لَا يَرْجِعُ إِلَّا إِلَى كَمَالِهِ وَلَا يُعْوَلُ إِلَّا عَلَى اسْتِغَالِهِ، بَلِ السُّلْطَانُ لَا يَأْتِسُ إِلَّا بِهِ وَلَا  
 يُصْغِي إِلَّا لِخِطَابِهِ، وَلَا يَتَصَوَّبُ إِلَّا بِصَوَابِهِ، وَقَلَمُهُ حَاكِمُ الْأَقَالِيمِ وَمُحْكَمُهَا، وَمَقْوِي مَعَاقِدِ  
 الْمَمَالِكِ وَثَبْرُهَا، وَمُكْمَلُ نَقْصِ الْكُفَاءِ وَمُتَمِّمُهَا، وَقَدْ تَبَيَّنَتْ عَلَى فَضْلِهِ الْخَنَاصِرُ، وَتَغَاشَتْ  
 عَنْ سَنَاهِ النَّوَاطِرِ، وَكَسَدَتْ بِعِلْمِهِ سَوَاقِ الْجُهَالِ، وَأَنْخَفَضَتْ بِعِلْمِ هِدَايَتِهِ رَايَةَ الضَّلَالِ،  
 وَافْتَضَحَ الْمُدَّعِي وَامْتَارَ الصَّرِيحُ النَّسَبِ فِي الْكِفَايَةِ مِنَ الْمُدَّعِي، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَنْوَشِرَوَانَ  
 صَعَبَ عَلَيْهِ انْحِطَاطُ حُظُوظِهِ إِلَى الْحَضِيضِ، وَأَنْحَرَفَ مَزَاجُ شُغْلِهِ لِلْحِظِّ الْمَرِيضِ، وَأَنْشَدَ  
 مُتَمَثِّلاً فِي رُكُوبِ الْوَزِيرِ الْكَمَالَ مَا قَبِلَ فِي بَعْضِ الْوِزَرَاءِ: [المنسرح]

وَهُوَ حَقِيرٌ فِي السَّرَجِ مُحْتَقَرٌ      بَيْنَ يَدَيْهِ اللَّجَاجُ وَاللَّغَطُ  
 سُبْحَانَ مُعْطِيكَ مَا أَرَدْتَ وَمَا      كَانَتْ عَلَيْهِ الْكَلَابُ تَمْتَخِطُ  
 عَهْدِي بِهِ إِنْ رَأَى الرَّغِيفَ بَغَى      مِنْ طُولِ جُوعٍ وَكَأَدٍ يَخْتَلِطُ  
 وَتَمَثَّلَتْ أَنْوَشِرَوَانُ بَارِدَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَلَا هِيَ وَاقِعَةٌ فِي مَوْجِعِهَا، وَمَا أَنْصَفَ الْكَمَالَ  
 لَمَّا سَمِعَ مِنْ قَصِيدَةِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرِ الْأَرْجَانِيِّ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ الْوِزَارَةَ وَهُوَ مُشْرِفُ الْمَمْلَكَةِ،  
 وَمَطْلَعُهَا<sup>(1)</sup>: [البسيط]

أَيَقِنْتُ بِالْجَزَعِ مَا أَبْلَيْتُ مِنْ طَلَلٍ      لِمُشْبَهَاتِكَ بِالْأَجْيَادِ وَالْمُقَلِّ  
 وَكَانَ يَنْعَتُ الْكَمَالَ حَيْثُذِ بَعْزِ الدَّوَلَةِ وَمَخْلَصُهَا:      دَعِ عَنكَ يُمْنِي وَيُسْرِي غَيْرَ مُجْدِبَةٍ  
 وَأَعْلَمَ إِذَا قُلْتُ رَدَ بِالْعَيْسِ بَحْرَ نَدَى      إِنِّي عَلَى غَيْرِ عِزِّ الدِّينِ لَمْ أَجِلْ  
 قَالِ بَحْرًا أَسْمَاؤُهُ شَتَّى وَأَشْهَرُهَا      عَلَى لِسَانِ بَنِي الْأَمَالِ كَفُّ عَلِي  
 وَيَصِفُ مِنْهَا مَوْكِبَهُ وَمَرْكَبَهُ:

إِنْ سَارَ بِالخَيْلِ عَصَّ الْجَوْ مِنْ لَجِبِ      نَقْعًا وَإِنْ حَلَّ غَصَّ الْأَرْضَ بِالخَوْلِ

موف على مُلجَم بالنَّجْمِ تَحَسُّبُهُ  
 ذِي غُرَّةٍ وَحِجُولٍ وَضَحٍ عَلَّقَتْ  
 كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ مَاءِ الصُّبْحِ لَهُ  
 لِلنَّاطِرِينَ وَيَأَلْجُوزَاءُ مُنْتَعِلِ  
 مِنْهَا بِأَطْرَافِهَا شَمْسٍ مِنْ الشَّعْلِ  
 لَمَّا تَوَضَّأَ لَمْ يَسْبِغْ عَلَى عَجَلِ

وَسَمِعْتُ وَالِدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَزَارَةِ الدَّوْلَةِ السُّلْجُوقِيَّةِ أَكْمَلَ مِنَ الْكَمَالِ  
 حِرَامَةً وَصِرَامَةً وَشَهَامَةً، وَحِمَاسَةً وَسَمَاحَةً وَفَصَاحَةً فِي الْقَوْلِ وَحَصَافَةً، وَمَعْرِفَةً بِالْعَوَائِدِ،  
 وَمَعْرِوْفًا لِلْأَمَاجِدِ وَجُودًا لِلْأَجَاوِدِ، وَهَيْبَةً تَقْطَعُ وَتَقْرِي، وَرَهْبَةً تَحْزُنُ وَتَبْرِي، وَكُتْبَهُ بِالْفَارَسِيَّةِ  
 تَدُلُّ مِنْهُ عَلَى فَضْلِ غَزِيرٍ وَعِلْمِ كَثِيرٍ، وَمِنْ مَعَانِيهَا تُعْرَفُ قَوَاعِدُ الْوُزَرَاءِ وَقَوَائِنُهَا وَهِيَ رِيَاضُ  
 نَاضِرَةٌ لِلنَّاطِرِينَ أَزْهَارُهَا فَاعِمَةٌ لِلْمُسْتَشْقِيْنَ بِالرِّيَا رِيَاحِينُهَا.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: أَوَّلُ مَا سَرَعَ فِيهِ الْوَزِيرُ الْكَمَالُ مِنْ أَمْرِ وَزَارَتِهِ أَنَّهُ لَمَّا وَصَلَ إِلَى أَصْفَهَانَ  
 تَقَدَّمَ بِقِرَاءَةِ مَنُشُورِهِ بِوِزَارَةِ الْعِرَاقِ مِنْ خِرَاسَانَ، ثُمَّ دَبَّرَ فِي قِتْلِ الْأَمِيرِ أَحْمَدَ بْنِ بُغْرَا، وَبَعَثَ  
 السُّلْطَانَ عَلَى الْفَتْكِ بِالْأَمِيرِ عَلِيِّ بَارٍ وَأَعْرَى، حَتَّى أَفْلَتَ مِنْهُ هَرْبًا، وَأَتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا أَدْلَجَ  
 رَهْبًا، فَأَرْكَبَ وَرَاءَهُ مَنْ رَحَلَ رَأْسَهُ عَنِ بَدْنِهِ وَأَخْرَجَ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِهِ، فَتَفَاهُ مِنْ وَطَنِهِ وَأَلْحَقَهُ  
 فِي النَّكْبَةِ بَيْنِي زَمَنِهِ وَوَكَّلَ بِوِزِيرِهِ الدَّرَكِزْنِيَّ وَاعْتَقَلَهُ وَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَهُ، قَالَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ  
 عَلَيْهِ: وَكَانَ الدَّرَكِزْنِيَّ حِينْتَيْدُ صَدِيقِي فَاسْتَدْعَانِي إِلَى مَجْلِسِهِ فِي مَحْبِسِهِ فَلَمَّا بَصُرَ بِي دَعَا  
 عَلَى نَفْسِهِ بِالْوَيْلِ، وَاسْتَجَارَ بِي وَأَخَذَ مِنِّي بِالذَّلِيلِ، وَقَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ تَتَوَسَّلَ فِي أَمْنِي مِنَ  
 الْقَتْلِ فَقَدْ أَيقِنْتُ أَنِّي مَقْتُولٌ وَإِنْ لَمْ تَنْصُرْنِي أَنْتَ فَمَا أَنَا إِلَّا مَخْدُولٌ. قَالَ وَالِدِي: فَخَرَجْتُ  
 مِنْ عِنْدِهِ مُفَكِّرًا فِي أَمْرِهِ، وَمُتَرَوِّبًا فِي يُسْرِهِ بَعْدَ عُسْرِهِ، وَقَعَدْتُ فِي الْبَيْتِ مُشْتَغِلَ السَّرِّ  
 مُشْتَعِلَ الْجَمْرِ، فَلَمَّا عَرَفْتُ وَالِدِي عَدَمَ اغْتِمَاضِي لِوُجُودِ اغْتِمَامِي سَأَلْتُ بِمَاذَا هَمِّي وَيَمَنِ  
 اهْتِمَامِي، فَأَخْبَرْتُهَا بِقِصَّةِ الدَّرَكِزْنِيَّ وَقَصَّصْتُ عَلَيْهَا خَبْرَهُ وَأَنَّ الْوَزِيرَ لَمْ يَحْمَدِ سَيْرَهُ، وَأَنَّهُ  
 خَبِرَهُ وَسَبَّرَهُ فَاسْتَعْمَرَهُ وَحَلَفَ لَا سَتَعْمَرَهُ، وَقَدْ اتَّخَذَ لَهُ فِي كَيْفِيهِ كَنْفًا، وَعَدَا يَكْسُوهُ مِنْ دَمِهِ  
 كَنْفًا، فَقَدْ حَبَسَهُ فِي الْمُسْتَرَاكِ وَجَعَلَهُ لَهُ مَسْكَنًا، وَمَا أَرَى خِلَاصَهُ مُمَكِّنًا، وَهُوَ صَادِقُ الْعَقِيدَةِ  
 فِي عَقْدِ صِدَاقَتِي، وَالْآنَ يَطِيبُ لِي فِي صَوْنِهِ بِذَلِي وَإِرَامَتِي فَشَفَعْتُ فِي حَقِّهِ إِلَى أَخِي عَزِيزِ  
 الدِّينِ، وَكَانَ بِوَالِدِيهِ بَرًّا وَبِمَبْرَيْتِهِ لَهْمًا مُبْرَأً، فَمَا زَالَ بِالْوَزِيرِ الْكَمَالِ حَتَّى خَلَّصَهُ وَفَتَحَ عَلَى  
 ذَلِكَ الطَّائِفَةِ الْمَشُورِومِ قَفْصِهِ، وَكَانَ مَحْبُوسًا فِي مَوْضِعِ سَبِيلِ الْخَلَاءِ إِلَيْهِ فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَقَدَّرَ  
 اللَّهُ أَنَّ الشَّافِعَ فِيهِ بَعْدَ عَشْرِ سَنِينَ قَتِيلَهُ، وَمَا عَرَفَ وَالِدِي وَلَا عَمِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا

يَسْعِيَانِ فِي قَلْعِ الْبَيْتِ بِخَلَاصِهِ، وَيَحْصِلَانِ بِتَيْسِيرِ أَمْرِهِ عَلَى تَعْسِيرِ أَمْرِهِمَا وَاعْتِيَاصِهِ، فَقَدْ كَانَ أَبُو الْقَاسِمِ لِلدَّمَاءِ سَفَاكًا وَبِالْكَرَامِ فَتَاكًا، وَتَفَرَّسَ فِيهِ الْوَزِيرُ الْكَمَالُ الشَّرُّ فَأَرَادَ أَنْ يُرِيخَ النَّاسَ مِنْ غَائِلِيهِ وَيُدَيِّمَ صِحَّتَهُ عَلَيْهِمْ بِجَلْبِ عَلَيْهِ فَأَرَادَ الصَّحِيحَ فَمَا صَحَّ لَهُ مَا أَرَادَ، وَمَا بَدَأَ مِنَ الدَّرَكِزْنِيِّ مَا بَدَأَ مِنْهُ لَوْ بَدَأَ، وَلَكِنَّ الْقَدَرَ لَا يُطَاقُ وَالْمَقْدُورُ لَا يُعَاقُ، وَأَصْلَحَ الْوَزِيرُ الْكَمَالُ بِقَتْلِ عَلِيِّ بَارِ قُلُوبِ الْجَمَاعَةِ وَاسْتِمَالِهِمْ إِلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ كَانَتْ فِي نَفْسِهِمْ مِنْهُ إِحْسَنٌ، وَنَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِاسْتِيْلَائِهِ مَحَنٌ، فَوَجَدُوا بِانزِعَاجِهِ الثَّبَاتَ وَبِقَتْلِهِ الْحَيَاةَ، وَتَقَدَّمَ الْأَمِيرُ قَيْصَرَ وَتَرَقَّتْ دَرَجَتُهُ، وَقَامَتْ فِي الْقِيَامِ بِالدَوْلَةِ حُجَّتُهُ، وَارْتَفَعَ شَأْنُ أَمْرَاءِ كَانُوا مُتَضَعِينَ، وَمِنْ أَفْوَيقِ الْوَفَاءِ الْوَفَاقَ مُرْتَضَعِينَ، وَتَحَالَفُوا عَلَى أَنْ يَكُونُوا عَلَى طَاعَةِ السُّلْطَانِ وَتَرْجِيحِ جَانِبِهِ وَالْإِضْرَابِ عَنِ مَقَاصِدِ عَمِّهِ سَنْجَرٍ وَمَطَالِبِهِ، قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: فَشَرَّعُوا فِي نَكْثِ تِلْكَ الْإِيمَانِ الْمُغْلَظَةِ، وَنَقَضُوا تِلْكَ الْعُقُودَ وَتَضَيَّعُوا تِلْكَ الْعَهُودَ الْمَحْفُوظَةَ بِالْأَسْبَابِ الْمُحْفَظَةِ.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَشَرَّعَ الْوَزِيرُ فِي الْمُضَادَرَاتِ وَسَمَّى دِيْوَانَهَا دِيْوَانَ الْمُفْرَدَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَ وَلَا عَلَى وَفْقِ مَا أَنْكَرَ، وَإِنَّمَا طَالَبَ أَصْحَابُ الْأَمِيرِ عَلِيَّ بَارَ بِأَمْوَالِهِ، وَأَمَرَ بِمُحَاسَبَةِ عَمَلِهِ، وَبِالْحِثِّ عَنِ أَسْبَابِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَعَادَ رَوْنُقُ سُلْطَنَةِ الْعِرَاقِ غَضًّا، وَصَمَّ مِنْ نَشْرِهَا مَا كَانَ مُنْقَضًا، وَشَادَ مِنْ عِزِّهَا مَا كَانَ مُنْقَضًا، وَأَعَادَ مِنْ نَجْمِ سَعْدِهَا مَا كَانَ مُنْقَضًا، وَخَرَجَ الْوَزِيرُ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ مِنْ أَصْفَهَانَ عَلَى عِزْمِ بَغْدَادَ وَحُكْمِهِ فِي الْأَمْرِ وَأَعْطَى حُكْمَ الثَّمَادِ، وَلَمَّا عَزَلَ الدَّرَكِزْنِيَّ وَقَبَضَهُ وَحَطَّ قَدْرَهُ وَرَفَضَهُ وَتَى الْوَزِيرُ الْكَمَالُ مَنَصَّبَ الطَّغْرَاءِ أَخَاهُ النَّصِيرَ، وَنَاطَبَ بِهِ ذَلِكَ الْمَنَصَّبَ الْكَبِيرَ، وَفِيهِ يَقُولُ بَعْضُ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ: [الْخَفِيفُ]

إِنَّ خَطَّ النَّصِيرِ حِينَ يُوسِي      رَقَمَ طُغْرَائِهِ لِخَطْبِ جَسِيمِ  
كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا يُقَوْمُ فِيهِ      فَهُوَ قَوْسٌ وَقَوْسُهُ مُسْتَقِيمِ

وَكَانَ النَّصِيرُ رَصِينًا ثَقِيلَ الطَّبَعِ رَزِينًا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا كَانَ فِي أَخِيهِ الْوَزِيرِ مِنَ التَّلَطُّفِ وَالتَّطَفُّلِ عَلَى الْمَكَارِمِ وَالتَّعَطُّفِ، فَضَاقَتْ مِنْ ضَيْقِ خُلُقِ ذَلِكَ الصِّدْرِ الْخَلْقُ وَشَجَا مَحَلُّ قُرْبِهِ مِنْ أَخِيهِ وَكَانُوا يَقُولُونَ نَعَمَ الْمَوْلَى وَيَشَسَّ النَّصِيرُ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةَ جَرَى بَيْنَ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ وَأَخِيهِ الْمَلِكِ مَسْعُودِ مَصَافٍ بِقُرْبِ هَمْدَانَ، وَكَانَ النَّصْرُ فِيهِ لِلْسُّلْطَانِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ مَسْعُودًا كَانَ مُسْلِمًا إِلَى الْأَمِيرِ جَوْشَبَكٍ وَهُوَ أَتَابِكُهُ بِالْمُوصِلِ، وَعَسَكُرُ الشَّامِ وَدِيَارِ بَكْرِ فِي خِدْمَتِهِ وَهُوَ

يُنَعَت بِمَلِكِ الْعَرَبِ لِحَدِّ مَمْلَكِيهِ فَجَمَعَ أَتَابِكُ جُوشِبِكُ جُيُوشاً كَثِيراً وَجَمَعاً جَمّاً غَفِيراً وَطَمَعَ فِي أَخْذِ السُّلْطَنَةِ وَجَعَلَ الْأَسْتَاذَ مُؤَيِّدَ الدِّينِ الطُّغْرَائِيَّ وَزِيراً لِمَسْعُودٍ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتِمَّكُنُ فِيهَا مِنْ عَوْدِ، فَعَلِمَ السُّلْطَانُ بِجُنْدِيهِ وَخَشِرِهِ، وَطَيَّ طَرِيقَ الطَّمَعِ إِلَيْهِ وَنَشِرَهُ، وَرَاعَتْهُ جُيُوشُ جُوشِبِكُ فَانزَعَجَ لَهَا وَتَمَحَّرَكَ، وَأَعَدَّ عُدَّتَهُ لِلْحَرْبِ فَمَا أَبْقَى مُمَكِناً وَلَا تَرَكَ، وَحَكَى يَوْمَهُ الْمُسْفِرُ لِيَلَهُ الْمُعْتَكِرُ لَمَّا حَضَرَ الْمُعْتَرِكُ، وَبَرَزَ فِي حَدِيدِ لَمَعِ شِعَاعُهُ حَرَقَ سِتْرَ الْعَجَاجِ وَهَتَكَ، وَفِي عَدِيدِ كَمَلٍ عَوَارِضُهُ الْحُسْنَةَ الْجَامِعَةَ لَهُ بِالْآلَافِ الْمُؤَلَّفَةِ وَسَاقٍ وَقَدْلَكَ، وَجَاءَ جُوشِبِكُ بِمَسْعُودٍ تَحْتَ حَتْرِهِ كَالْقَمَرِ فِي الْهَالَةِ، وَلَمَّا اصْطَفَى الْجَمْعَانِ ثُمَّ كَادَ أَنْ يَجْتَمَعَ الصَّفَانِ وَدَنَا أَنْ يَلْتَقِيَ الْبَحْرَانِ وَيَلْتَطِمَ الْمَوْجَانِ بَصَرَ مَسْعُودٌ بِأَخِيهِ مَحْمُودٍ فَحَنَّنَ إِلَيْهِ، وَضَبَطَهُ جُوشِبِكُ فَلَمْ يَرَجِعْ عَلَيْهِ وَصَاحَ يُجْبِي يُجْبِي، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَرْكِيَّةٌ لِلْأَخِ الْكَبِيرِ، فَتَشَوَّشَ عَلَى جُوشِبِكُ جَمِيعُ مَا قَدَّمَهُ مِنَ التَّدْبِيرِ، وَسَاقَ مَسْعُودٌ وَوَقَفَ إِلَى جَنْبِ السُّلْطَانِ مَحْمُودُ أَخِيهِ فَاسْلَمَ لِلنَّهْبِ وَالسَّلْبِ جَمِيعَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ جُنُودِهِ وَمَوَالِيهِ، فَأَوَّلُ مَنْ أَخَذَ زِيْرُهُ الْأَسْتَاذَ مُؤَيِّدَ الدِّينِ أَبُو اسْمَاعِيلَ الطُّغْرَائِيُّ فَأُخْبِرَ الْوَزِيرُ الْكِمَالُ بِهِ، فَقَالَ الشَّهَابُ أَسْعَدَ وَكَانَ طُغْرَائِيًّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ نِيَابَةً عَنِ النَّصِيرِ: هَذَا الرَّجُلُ مُلْحِدٌ، فَقَالَ الْوَزِيرُ: مَنْ يَكُونُ مُلْحِداً يُسْتَحَقُّ قَتْلُهُ، فَقَتَلَهُ ظُلْماً، وَوَجَدُوا تِلْكَ الْحَالَةَ الْمُضْطَرِّمَةَ الْمُضْطَرِبَةَ فِي أَعْدَائِهِمْ غُنْماً، وَكُلَّهُمْ خَافَ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ لِفَضْلِهِ وَالْإِفْضَالِ عَلَيْهِ كِعَادَتِهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَقَتِلَ أَيْضاً فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ مِنَ الْفُضْلَاءِ الْأَكَابِرِ مِنْ دَوِي الْمَكَارِمِ وَالْمَفَاخِرِ الْأَسْتَاذُ زَيْنُ الْكُفَاةِ أَبُو الْفَتْوحِ وَكَانَ وَزِيرَ الْبَرْسَقِيِّ، فَفُجِعَ الْعَصْرُ بِعُضُوبِهِ وَالْفَضْلُ بِقَمَرِيهِ وَالتَّرْشُلُ بِأَسْتَاذِيهِ وَصَاحِبِيهِ، وَالْكَرْمُ بِفَكِّ غَرِيبِهِ، وَأَسْعَدَ مَسْعُودٌ مَحْمُوداً، فَأُخْبِدَ مَحْمُودٌ مَسْعُوداً، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَعَادَهُ إِلَى عَظَمَتِهِ وَرَتَّبَ لِأَتَابِكِيهِ آخَرَ وَلِيخْدَمَتِهِ، وَكَانَ أَوْحَدَ عَصْرِهِ فِي السَّمَاخَةِ الْغَيْثِيَّةِ وَالْحِمَاسَةِ اللَّيْثِيَّةِ، وَهُوَ الْمَلِكُ عَضُدُ الدِّينِ علاءُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْبَحَارِ كَرْشَاسَفُ بْنُ مُؤَيِّدِ الدَّوْلَةِ عَلِيِّ بْنِ شَمْسِ الْمُلُوكِ قَرَامِرْزُ بْنُ الْعَادِلِ علاءُ الدَّوْلَةِ ذُو الْمَحْتَدِ الْمَجِيدِ وَالْكَرَمِ السَّعِيدِ وَالْجُودِ الْحَاتِمِيِّ وَالْبَاسِ الْعَمْرِيِّ وَالْفَضْلِ الْقَابُوسِيِّ وَالشَّرَفِ الْخُسْرَوِيِّ، كَأَنَّمَا قُدَّ عَلَى قَدِّهِ لِيَأْسَ الْبَسَالَةِ، وَلَاقَ بِلِقَائِهِ جِلاءُ الْجِلَالَةِ، إِنْ جَادَ فَسَحَابٌ، وَإِنْ جَادَلَ فَسَحَابَانُ، وَإِنْ رَضِيَ فَالْحَيَا الْمُرُوضُ، وَإِنْ ضَرِيَ فَالْأَسَدُ الْغَضْبَانُ، وَكَانَ مِنَ السُّلْطَانِ بِمَنْزِلَةِ الْأَخِ، وَقَدْ أَنْزَلَهُ بِالْمَحَلِّ الْأَشْمِخِ،

وَهُوَ لِقَرَبٍ مَنْ أَثَبَتْ فِي صَمِيمِ قَلْبِ الْقَرَبِ مَحَبُّو مِنْهُ بِالْحَبَاءِ وَالْحَبِّ، وَكَانَ كَمَا قَالَ  
ابْنُ طَباطِبا<sup>(1)</sup>: [الكامل]

يَقْظَاتُهُ وَمَنَاةُ شَرْعٍ      كُلُّ لِكُلِّ مِنْهُ مُشْتَبَهُ  
إِنْ هُمْ فِي حُكْمٍ بِفَاحِشَةٍ      زَجَّرَتْهُ هِمَّتُهُ فَيَنْتَبَهُ

وَأَبْرَاهِيمَ فِي عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرَّوَانَ: [المتقارب]

إِذَا قِيلَ مَنْ خَيْرٌ مَنْ يُجْتَدَى      لِمُعْتَرِّفِهِرٍ وَمُحْتَاجِهَا  
وَمَنْ يَعْمَلُ الْخَيْلَ عِنْدَ الْوَعَى      بِالْجَامِهَا قَبْلَ إِسْرَاجِهَا  
أَشَارَتْ نِسَاءُ بَنِي مَالِكٍ      إِلَيْكَ بِهَا قَبْلَ أَزْوَاجِهَا

وَكَانَ مَعَ اخْتِصَاصِهِ بِالسُّلْطَانِ مُحْتَرِّزاً مِنْ حَاسِدِيهِ، مُطَّلِعاً عَلَى نِفَاقِ مُوَادِيهِ، عَارِفاً  
بِخُلُقِ بَنِي الدَّهْرِ فِي إِحْلَاءِ مَذَاقِ الْوُدِّ الْمَمْدُوقِ، وَإِظْهَارِ الْبِرِّ وَإِضْمَارِ الْعُقُوقِ، فَلَزِمَ بَيْتَهُ فِي  
مَدِينَةٍ يَزِدُ لِيَزِدَادَ احْتِرَاساً، وَصَارَتْ عِنَايَاتُ اللَّهِ بِهِ وَالطَّافَةُ لَهُ مِنْ سِهَامِ الْفَوَاحِشِ وَالْقَوَادِحِ  
تِرَاساً، فَمَا زَالُوا يُحْسِنُونَ مَنَابِتَهُ بِالْبَابِ، وَلَا يَصُوبُونَ رَأْيَهُ بِالْأَعْتَابِ، وَيُلْقُونَ أَحَبَّ الْحَبِّ  
وَيَنْصَبُونَ لَهُ الْفَعَّخَ فِي الْفَعَّخِ وَيَلْجُونَ عَلَيْهِ وَيَلْجُونَ مِنْ سَاحِلِ السَّلَامَةِ إِلَى الْوُقُوعِ مِنْ بَحْرِ  
الْخَطَرِ فِي اللَّجِّجِ، وَيُوثِقُ بِإِخْلَافِهِمْ أَنَّهُمْ أَحْلَافُهُ، وَأَنَّهُمْ فِي حُسْنِ الْمَنَانِ خُلَفَاؤُهُ عَلَى الْوَفَاءِ  
وَالْوَفَاقِ لِأَيُّدِ خِلَافَتِهِ وَلَا خِلَافَهُ، وَمَا عَمَلَ بِقَوْلِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرِ الْأَرْجَانِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ<sup>(2)</sup>:

[الوافر]

تَخَيْرَ مَنْ تَصَاحَبُهُ فَكَمْ مِنْ      وَتَوَقَّعَ عَادَ أَخْرَهُ وَتَاقَا  
إِذَا خَطَبَ الصِّدَاقَةَ مِنْكَ كُفَاءً      فَلَا تَطْلُبِ سِوَى صِدْقِ صِدَاقَا  
فَقَدْ صَدَقْتَ قُلُوبَ النَّاسِ عُشًّا      وَقَدْ صُقِلَتْ وَجُوهُهُمْ نِفَاقَا

فَلَمَّا رَكْنَ إِلَى رَكْنِهِمْ رَكَبَ وَكَرَبَ أَنْ يَخْلُوَ بِلِقَاءِ السُّلْطَانِ عَنْهُ الْكَرْبُ جَرَّدُوا إِلَيْهِ ثَلَاثِمَائَةَ  
فَارِسٍ فَاعْتَرَضُوهُ وَأَخَذُوهُ مِنْ طَرِيقِهِ وَقَبَضُوهُ، وَكَانَ الْأَمِيرُ قَيْصَرَ مِمَّنْ قَصَرَ فِي أَمْرِهِ، بَلْ

(1) شعر ابن طباطبا العلوي، جمع وتحقيق؛ جابر الحاقاني، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975 م، 108، ابن طباطبا: أبو الحسن، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا الحسيني العلوي، شاعر أكثر شعره في الغزل وعالم بالأدب، ولد في أصبهان وبيها توفي سنة 322 هـ، له كتب منها (عيار الشعر) و(تهذيب الطبع). و(العروض). جمع المرحوم جابر الحاقاني ما لقي من شعره.

(2) من قصيدة في مدح السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، ديوان الأرجاني 3 / 975

تَوَلَّى بِإِبْدَاءِ الْوَدِّ إِخْفَاءَ خَيْلِهِ وَخَتَرَهُ، فَلَمَّا أَخَذَهُ حَمَلَهُ إِلَى قَلْعَةٍ فِي يَدَيْهِ يُقَالُ لَهَا (فَرْزِين) فَاعْتَمَلَهُ، وَأَحْكَمَ قَيْدَهُ وَتَقَلَّه، وَهِيَ قَلْعَةٌ مَنِعَةٌ وَتَلَعَةٌ رَفِيعَةٌ، تَعُدُّهَا النُّجُومُ مِنْ أَرَابِهَا وَالسَّمَاءُ مِنْ أَسْبَابِهَا، فَلَطَفَ اللَّهُ بِهِ فَأَوْصَحَ لَهُ مَذْهَبَ مَهْرَبِهِ، وَجَعَلَ مَنَاجَاهُ مِنْ مَنَجْمِ الْعَطَبِ، وَمَحَى مُحْيَاهُ مِنْ صَيِّبِ السُّحُبِ، وَخَلَصَ بَوَجْهِهِ لَمْ يُدْخِلْ فِي الْوَهْمِ كَيْفِيَّتَهُ وَأَثَرَ مَنِيَّتِهِ، فَأَثَرَتْ أَمِينَتُهُ فَإِنَّهُ تَوَسَّلَ حَتَّى اشْرَفَ عَلَى السَّرُورِ فِي جُنْحِ الدَّيْجُورِ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ الْمَكَانِ الْعَالِيِّ، وَفَعَلَ فِعْلَ الْإَيْسِ مِنْ حَيَاتِهِ السَّالِي، وَسَلَّمَهُ اللَّهُ حَيْثُ لَا تُرْجَى السَّلَامَةُ، وَتَزَلُّ نُزُورُ الْقَطْرِ حَذَرَتُهُ الْغَمَامَةُ، وَتَوَقَّلَ فِي تِلْكَ الْأَهْضَابِ، وَتَوَغَّلَ فِي تِلْكَ الْعِقَابِ، وَتَسَلَّلَ مِنْ تِلْكَ الشُّعَابِ، وَتَسَرَّبَ كَأَنَّهُ حَيْثُ الْوَادِي، وَوَقَعَ إِلَى وِلَاتِهِ وَهَوَّ حَبَاءُ النَّادِي، وَسَرَّ النَّاسُ بَعُودِ الْأَنْسِ وَالسَّرُورِ بَعُودِهِ، وَأَعْلِمُوا أَنَّ خُطَى الْخُطُوبِ فِي طَوْرِهَا لَا تَصِلُ إِلَى طَوْدِهِ، وَكَانَ عَاقِبَةُ الْأَمِيرِ قَيْصَرَ أَنَّهُ ضَرِبَتْ بِنِغْدَادِ رَقَبَتِهِ، وَأَدَّتْ بِهِ فِي سَبِيلِ الْعَقُوبَةِ عَقْبَتَهُ.

قال أنوشروان: وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ غَيْرَ شَانِيٍّ لِهَذَا السُّلْطَانِ لَكِنِّي أَقْتَصِرُ عَلَى عِتَابِهِ عَلَى مَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ<sup>(1)</sup> وَهُوَ بَيْتَانُ: [الطويل]

سَمِعْتُ نُوبَ الْأَيَّامِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ  
فَأَقْلَمَنْ مِثْلَ عَيْنِ ظُلُومٍ وَصَارِحِ  
وَأَتَيْتِي وَإِعْدَادِي لِدَهْرِي مُحَمَّدًا  
لِمَلْتَمِسِ إِطْفَاءِ نَارِي بِنَافِخِ

قال أنوشروان: وَشَرَعَ هَذَا الْوَزِيرُ فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ وَالْفَتْكِ بِالْأَمْرَاءِ، حَتَّى يَهَابَهُ النَّاسُ وَيَخْشَوهُ، وَيَهْبُوا لَهُ وَيَرْشُوهُ، وَلَكِنِّي أَشْكُرُهُ حَيْثُ أَطْلَعَنِي عَلَى شَرِّهِ قَبْلَ ضَلْعِي مِنْ اضْطِلَاعِي بِشَرِّهِ، وَحَالِي مَعَهُ كَمَا رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ عَنِ الرَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ، فَقَالَ: مَانِعُ الْحَوَزَةِ مُطَاعٌ فِي إِذْنِيهِ شَدِيدُ الْعَارِضَةِ، فَقَالَ: أَمَا أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَكْثَرَ مَا قَالَ وَلَكِنَّهُ حَسَدَنِي شَرَفِي، فَقَالَ عَمْرُو: وَأَمَا لَيْنَ قَالَ مَا قَالَ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُهُ إِلَّا صَيِّقَ الْوَطَنِ، زَمَنَ الْمُرُوءَةِ، لَيْمَ الْخَالِ، أَحَمَقَ الْوَالِدِ، حَدِيثَ الْغِنَى، فَلَمَّا رَأَى الْإِنْكَارَ فِي عَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ] قَالَ: رَضِيْتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ، وَغَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبَحَ مَا عَلِمْتُ، وَمَا كَذِبْتُ فِي الْأُولَى، وَلَقَدْ صَدَقْتُ فِي الْأُخْرَى، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ

(1) إبراهيم بن العباس الصولي: هو أبو إسحاق إبراهيم العباس بن محمد بن صول، ولد سنة 176 هـ، أصله من خراسان، وكان جده محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها، وهو كاتب العراق في عصره، نشأ ببغداد وتأدب فقربه الخلفاء فكان كاتباً للمعتصم والوائق والمتوكل، وتنقل في الأعمال والدواوين حتى توفي سنة 243 هـ، قال دعبل: لو تكسب إبراهيم بن العباس بالشعر لتركنا في غير شيء، له ديوان شعر، وديوان رسائل، وكتاب الطيخ.

السَّلَام: [إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا]. قَالَ: وَهَذَا الْوَزِيرُ عَلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ بُعْدِ الْغَوْرِ وَقُرْبِ الْجَوْرِ فَلَقَدْ كَانَ أَصْلَحَ مِنَ الرَّبِيبِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ: [مَجْزُوءُ الرَّمْلِ]

لَا رَوَاءَ لَا بَهَاءَ لَا بَيَانَ لَا إِشَارَةَ  
لَا وَلَا رُدُّ سَلَامٍ مِنْكَ إِلَّا بِالْإِشَارَةِ  
أَنَا أهدبك وَلَكِنْ أَيْنَ الْوِزَارَةِ

قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَرِيعَةٌ فِي الْوِزَارَةِ إِلَّا انْتِسَابُهُ إِلَى الْوَزِيرِ أَبِي شِجَاعٍ، وَمُصَاهَرَتُهُ لِفَخْرِ الْمُلْكِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا لِتَرْقِيهِ فِي بَيْعِ الْارْتِفَاعِ، وَفِيهِ يَقُولُ شَاهُ بْنُ مَهْمَانَ: [الْمُتْقَارِبُ]

شُرُوطُ الْوِزَارَةِ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَلَكِنَّمَا هِيَ تَرْكُ الْكَلَامِ  
وَعُسْرُ إِذَا رَامَ فَصَلَ الْأُمُورَ وَبُخْلُ بِهِ فِاقَ كُلَّ اللَّئَامِ  
وَكُذْبٌ وَكِبْرٌ وَكُفْسٌ بِهِ يَصُولُ وَيَفْخَرُ بَيْنَ الْأَنَامِ  
فَلَا خَصْمَ رُئُوسَهُ بِالسَّلَامِ وَخَصَّ أَبَاهُ بِطَيْبِ السَّلَامِ

قَالَ: فَالْوَزِيرُ الرَّبِيبُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ مَدَّ الْيَدَ إِلَى الْمُصَادَرَةِ، وَأَخَذَ مَبَادِئَهَا بِالْمُبَادَرَةِ، وَبَلَغَ مِنْ كِبَرِهِ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَلَامًا وَلَا يَفْهَمُ كَلَامًا، حَتَّى امْتَنَعَ النَّاسُ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ وَلَمْ يُكْثِرُوا مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهِ، وَأَنْشَدَ الْأَخْفَشُ: [الطَوِيلُ]

رَأَيْتُ الْقَتَى يَزِدَادُ نَقْصًا وَذَلَمَةً إِذَا رَاحَ مَنْسُوبًا إِلَى النَّيِّهِ وَالْكَبِيرِ  
وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّيِّهَ مِنْ بَعْدِ هِمَّةٍ فَلَمِنِي رَأَيْتُ النَّيِّهَ مِنْ ضَيْعَةِ الْقَدْرِ  
وَبَلَغَ مِنْ عَبَثِ الدَّهْرِ بِهِ فِي رَفَاعَتِهِ وَتَهْوُّبِهِ أَنَّهُ تَوَصَّلَ إِلَى أَنْ سَقَاهُ السُّلْطَانُ الْخَمْرَ فِي مَجْلِسِهِ.

قال أبو العيناء: كنتُ أرثي للسُّلْطَانِ مِنْ حُمُقِهِ كَمَا أرثي للرعِيَةِ مِنْ ظُلْمِهِ، عَرَفَ عِبَاءَ مَا صَنَعَ، وَمَا حَصَدَ إِلَّا مَا زَرَعَ.

وَكَتَبَ أَيْضًا إِلَى وَزِيرٍ مِنْ وَزَرَاءِ زَمَانِهِ: نَحْنُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْوَزِيرِ - فِي الطَّلَعَةِ مَرْحُومُونَ وَفِي الْوِزَارَةِ مَحْرُومُونَ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ.

وقال ميمونُ بنُ إبراهيمَ: لَوْ تَأَمَّلَ رَجُلٌ أفعالَهُ فَاجْتَنَبَهَا لاسْتغْنَى عَنِ الْآدَابِ يَطْلُبُهَا. وَلِشَاهِ بْنِ مَهْمَانَ أَيْضًا فِي الْوَزِيرِ الرَّبِيبِ: [الْمُتْقَارِبُ]

كُنَّا نُوْمَلُّ لِلْمَعَارِفِ دَوْلَةً  
حَتَّى إِذَا صَارُوا دَوِي رُتَبٍ  
حَرَمُوهُ وَاحْتَجَبُوا بِقَوْلِهِمْ  
مَنَعُوا النَّدَى آيَامَ قُدْرَتِهِمْ  
وَعَظَّمَتْهُمْ الْآيَامُ قَبْلَهُمْ  
وَقَالَ سَدِيدُ الدَّوْلَةِ بِنُ الْأَنْبَارِيِّ<sup>(1)</sup> كَاتِبٌ إِنشَاءً دَارِ الْخِلَافَةِ فِي الْوَزِيرِ الرَّبِيبِ لَمَّا جُعِلَتْ  
إِلَيْهِ وَزَارَةُ دَارِ الْخِلَافَةِ مَعَ وَزَارَةِ السُّلْطَانِ: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

إِنَّ زَمَانًا قَدْ صَرْتُ فِيهِ  
قَدْ أَسْحَنَ اللَّهُ كُلَّ عَيْنٍ  
وَقَالَ الْأَسْتَاذُ أَبُو طَاهِرِ الْخَاتُونِيِّ لَمَّا تَوَلَّى الرَّبِيبُ وَزَارَةَ السُّلْطَانِ رِجْمَهُ اللَّهُ<sup>(2)</sup>: [الْخَفِيفُ]  
هَدَّدُونِي عَنِ الْوَزِيرِ وَقَالُوا  
أَدْخَلُونِي عَلَيْهِ تُمَّتْ قَوْلُوا  
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا<sup>(3)</sup>: [الْوَافِرُ]

وَقَالُوا لِلْوَزِيرِ عَلَيْكَ حَقٌّ  
عَفَا عَنِّي وَذَنْبِي كَانَ ذَنْبًا  
فَالْقَرُبُ الَّذِي رَبَّنَةُ الرَّبِيبُ وَتَسَجَّ الْكَمَالُ وَغَيْرُهُ عَلَى مَنَوَالِهِ وَتَلَاةً عَلَى مَثَالِهِ أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا  
فِي جَمِيعِ الْمَمَالِكِ لِخَاصِّ دَرَهْمًا وَلَا دِينَارًا، وَأَضْرَمُوا فِي كُلِّ قَطْرٍ مِنَ التَّعَدِيِّ نَارًا، وَزَادُوا  
فِي قَرَارِ الْحَشْمِ زِيَادَاتٍ اسْتَوْعَبَتِ الْجِهَاتِ، وَبَقِيَتْ عَلَى الدِّيَوَانِ مِنْهَا بَقَايَا وَمُطَالَبَاتٍ، وَكَانَ  
تُؤَابِ الدِّيَوَانِ وَصُدُورُ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ أَبَدًا بِتِلْكَ الْبَقَايَا مُطَالِبِينَ، فَتَلَجَّجْتُهُمُ الضَّرُورَةَ أَخَذَ  
الْأَمْوَالَ وَاسْتَبَاحَهَا وَاسْتَجْدَاءَ الْمُصَادِرَاتِ وَاسْتِمَاحَتَهَا، وَاسْتَطَالَتِ الْأَيْدِي تَطَالُ التَّعَدِيِّ

(1) سديد الدين، أبو عبد الله، سديد الدين، محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الشيباني، كاتب الانشاء لديوان الخلافة خمسين سنة، ولد سنة 469 هـ، وكان ذارأي وتدبير حتى علت مكانته عند الخلفاء والسلاطين، وناب في الوزارة، وبعث إلى ملوك الشام وخراسان، وكان فاضلاً أديباً، بينه وبين الحريري صاحب المقامات مراسلات، توفي سنة 558 هـ.

(2) خريدة القصر، قسم بلاد المعجم 3 / 86

(3) خريدة القصر، قسم بلاد المعجم 3 / 86

وَصَارَ التَّعَدِّي عَادَةً وَالتَّقْصُ زِيَادَةً وَالتَّجْرِي جَلَادَةً وَالْحَيْرَةَ بِلَادَةً وَالتَّكَايَةَ كِفَايَةً وَالْغَوَايَةَ هِدَايَةً، فَلَا جَرَمَ لَمَّا احتاجوا إلى العسكرِ فَقَدُوهُ، وَلَمَّا افتَقَرُوا إلى الأُمَالِ مَا وَجَدُوهُ. قَالَ حَكِيمٌ: فِي إِبْقَالِ الدَّوْلَةِ يَكْتَثُرُ العَدَدُ وَيَقْتُلُ العُرْمُ، وَفِي إِدْبَارِهَا يَقْتُلُ العَدَدُ وَيَكْتَثُرُ العُرْمُ. قِيلَ: كَانَ رِزْقُ الفَتْحِ بِنِ خَاقَانَ فِي أَيَّامِ الوَائِقِ عَشْرَةَ آفَافِ دَرَاهِمٍ وَلَمْ يَزَلِ المَتَوَكِّلُ يَزِيدُ حَتَّى بَلَغَ بِهَا ثَمَانِينَ آلْفَ دَرَاهِمٍ. وَكَانَ المُلْكُ فِي زَمَنِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ مَجْموعاً، وَجَانِبُهُ مِنَ الأَطْمَاعِ مَمْنوعاً، فَلَمَّا صَارَ إِلَى ابْنِهِ مَحْمُودٍ مِنْ بَعْدِهِ سَرَعَ المُتَوَكِّلُونَ فِي هَدِيمِهِ وَهَدَاهُ، وَفَرَقُوا المَجْتَمِعَ وَضَيَّقُوا المُنْتَسِعَ، وَجَعَلُوا لَهُ فِيهِ شِرْكَهَ، وَلَمْ يَتْرَكُوا لَهُ فِيهِ مُشْكَةً، وَذَلِكَ عِنْدَ حُضُورِ السُّلْطَانِ سَنَجِرَ، فَأَذْهِبُوا رَأْسَ الأَمَالِ وَضَيَّقُوا المَتَجَرَّ، فَأَوَّلَ مَا اقْتَطَعَهُ سَنَجِرَ مِنَ المُلْكِ لِنَفْسِهِ مَا زَنْدِرَانَ وَطَبْرِسْتَانَ وَالقَوْمَسَ وَالدَّامَغَانَ وَالرَّيَّ وَدَبَاوَنْدَ وَأَعْمَالَهَا وَمَا أَفْرَدُوهُ لِلْمَلِكِ رَكْنِ الدِّينِ طغرلِ بْنِ مُحَمَّدِ سَاوَةَ وَآبِهِ وَسَارِقَ وَسَامَانَ وَقَرْوِينَ وَأَبْهَرَ وَزَنْجَانَ وَجِيلَانَ وَالدَّيْلَمَ وَالطَّالْقَانَ، وَلِلْمَلِكِ سَلْجُوقَ أَخِيهِ وَلايَةَ فَارِسَ بِأَسْرِهَا وَسَطْرَ مِنْ أَصْفَهَانَ وَسَطْرَ مِنَ الخُوزِ، وَتَغَلَّبَ الأَمِيرُ دُبَيْسُ بْنُ صَدَقَةَ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ مَرْيَدَ عَلَى البَصْرَةِ وَأَعْمَالِهَا وَالمُضَافَاتِ إِلَيْهَا مِنَ البَطَائِحِ وَكَذَلِكَ هَيْتَ وَالأَنْبَارِ وَأَعْمَالِ الفِرَاتِ وَالرَّحْبَةَ وَعَانَةَ وَكَذَلِكَ أَعْمَالِ المَوْصِلِ وَنَيْصَبِينَ وَالخَابُورِ، وَقَدْ تَغَلَّبَ عَلَى كُلِّ مِنْهَا أَمِيرٌ، وَلِكُلِّ ذِي شَرٍّ مُسْتَطِيلٍ شَرٌّ مُسْتَطِيرٌ، وَالَّذِي بَقِيَ لِلسُّلْطَانِ أَقْطِيعَ جَمِيعُهُ، وَمَا انْحَقَفَ رُبْعُهُ وَانْحَقَفَ رُبْعُهُ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلسُّلْطَانِ خَاصٌّ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَمَالٌ، وَبَطَلُ الدِّيوانِ وَتَدَوَّنَ البَطْلَانُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلدِّيوانِ شُغْلٌ إِلَّا أَخَذَ أُمُوالِ دَوِي الِيسَارِ وَإِسْعَارُ نَارِ الإِعْسَارِ. قَالَ أَنُوشِروانُ: وَكَانَ الوَازِرُ يُزِيهُقُ الأَجْمِيعَ وَيَجْمَعُ بِالإِزْهَاقِ وَيَتَعَلَّقُ بِالأَنْفُسِ وَتَنافَسَ فِي الأَعْلَاقِ، أَمِنَ المَوْتِ أَمِنْ أَمٍ لَهُ أَمَلُهُ لِلْبَقَايَةِ ضَمِنَ؟

[الكامل]

أَجَلُ الفَتَى مِمَّا يُؤْمَلُ أَوْسَعُ      وَأَرَاكَ تَجَمَّعَ دَائِباً لَا تَشْبَعُ  
قُلْ لِي لِمَنْ أَصَبَحْتَ تَجَمَّعَ دَائِباً      إِلبَعْلِ عُرْسِكَ لَا أَبَاكَ تَجَمَّعُ

قَالَ أَنُوشِروانُ: وَإِنْ كَانَتْ لَهُ جُمْلَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا جَرَتْ لَهُ وَاقِعَةٌ خَافَ مِنْهَا وَقَوَّعَ الشُّفْعَةَ وَسَوَّءَ السَّمْعَةَ أَحَالَ بِهَا عَلَى مَنْ يَرَى فِتْرَةً مِنْ حَالِهَا، وَاسْتَقَالَ مِنْ قِبَلِهَا وَقَالَهَا، وَرَمَاهُ بِدَائِهِ وَأَدْمَاهُ بِرَمَائِهِ، فَاتَّقَدَى بِهِ وَزَرَأَ الأُمْرَاءَ فِي وَزَارَةِ أَمْرِهِ، وَيَكشِفُ ظِلَامَ الظُّلْمِ وَيَسْنِدُ رَكْنَ نُكْرِهِ، فَلَمْ يَبْقَ بِمُنْظَلَمٍ إِخْفَاءٌ وَلَا بِمُتَأَلِّمٍ شِفَاءً، وَمَتَّعَتْ ظُلُمَاتُ الرِّفَائِحِ رَفَعَ الظُّلُمَاتِ

وَعَلَامَاتٍ دَوِي الضُّعْفَةِ مِنْ وَضْعِ الْعَلَامَاتِ، وَصَارُوا يُجْحِفُونَ بِالرَّعِيَّةِ فَيَسْتَسْلِفُونَ الْخِرَاجَ قَبْلَ أَوَانِ الدَّخْلِ، وَحُمِّلَ مَا يَعْجُزُ عَنْهُ الْكَبُشُ عَلَى السَّخْلِ، وَأَخَذَ ثَمَنُ التَّمْرِ قَبْلَ تَلْفِيحِ النَّخْلِ، فَاسْتِسْلَفَ الْغَلَاتِ قَبْلَ الْحَصَادِ كَاسْتِنزَافِ الدَّمَاءِ بِالْفِصَادِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِالْمِرْصَادِ، وَخَرَجُوا عَنْ حُدِّ الْاِقْتِصَادِ، قَبْلَ جَاءِ تَاجِرٍ إِلَى أَعْرَابِيَّةٍ لَهَا نُحَيْلَاتٌ بِدِرَاهِمٍ قَبْلَ أَوَانِ إِدْرَاكِ ثَمَرَتِهَا فَقَالَ: بِعِينِي ثَمْرَةَ نَخْلَتِكَ وَهَذِهِ الدِّرَاهِمُ سَلَفٌ مِنَ التَّمْرِ، فَقَالَتْ لَا أَسَابِقُ اللَّهَ تَعَالَى فِي قَضَائِهِ.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَكَانَ جَمِيعُ مَالِهِ حَرَاماً مَحْضاً وَسُحْتاً بَحْتاً، وَلَمْ يَكْتَسِبْ مَقَّةً بَلْ احْتَقَبَ مَقْتاً، وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعَةٌ وَبَيْلٌ وَبَيْتٌ، كَمَا أَنَّ الْعَدْلَ مَسَاعُغُهُ هِنِيٌّ مَرِيٌّ، وَالظُّلْمُ أَدْعَى شَيْءٌ إِلَى تَغْيِيرِ النِّعْمَةِ وَتَعْجِيلِ النِّقْمَةِ، قَالَ: فَحَفِظْتُ لَهُ حَقَّ الصُّحْبَةِ الصَّحِيحَةِ وَأَتَيْتُهُ بِالنَّصِيحَةِ الْفَصِيحَةِ، وَأَنْشَدَهُ: [الكمال]

يَا مَنْ أَرَاهُ لَسَجَّ فِي طَيْرَانِهِ      إِذَا ذَكَرْتَ وَوَلَدْتَ قَاعِلِمُ أَنَّهُ  
أَخْطِرُ بِبَالِكَ إِنْ غَفَلْتَ وَقُوعَا      لَيْسَ الْقَضَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ مُطِيعَا  
وَقَالَ أَنُوشِرَوَانُ لَهُ مَا عَبَّرَتْ عَنْ مَعْنَاةُ:

إِنَّ أَعْمَارَنَا غَيْرُ مَضْمُونَةٍ، وَالْأَيَّامُ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ،  
وَالْحَيَاةُ مُنْقَضِيَةٌ مُنْقَرِضَةٌ، وَالْمَنُونُ مُعْتَرِيَةٌ مُعْتَرِضَةٌ

وَمِمَّا أَنْشَدَ: [الوافر]

سُتُورُ السُّدَارِ تُخْبِرُنَا جَمِيعاً      بِحَالِ وَزِيرِنَا عِنْدَ الْأَمِيرِ  
فَإِنْ أَنْكَرْتَ قَوْلِي يَا ابْنَ سَعْدِ      فَارْدِّدْ لِحِظِّ طَرْفِكَ فِي السُّتُورِ  
تَجِدُ فِيهَا الْأَسَامِيَّ بِأَقْيَاتٍ      وَأَصْحَابَ الْأَسَامِيَّ فِي الْقُبُورِ

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: الْوَاجِبُ أَنْ تَجْمَعَ مَحْفَلاً يُحْتَفَلُ فِيهِ بِجَمْعِ الْأَعْيَانِ وَأَصْحَابِ الدِّيَوَانِ وَنَفْعِ التَّدْبِيرِ فِي إِعَادَةِ شَيْءٍ مِنَ الْبِلَادِ إِلَى الْأَخْصَانِ، لِيُنَجِّبَ كَسْرُهُ وَيُكْمَلُ أَمْرُهُ بَعْدَ الْاِنْتِقَاصِ، وَيَخْفَ عَنِ النَّاسِ الثَّقُلُ، وَيَزُولَ الظُّلْمُ وَيَعُودَ الْعَدْلُ، وَتَأْمَنَ الْبَسِيطَةُ وَيُسَاطَ الْأَمْنُ، وَهُنَاكَ هُنَاكَ الْارْتِفَاعُ وَارْتَفَعَ الْوَهْنُ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ هَذَا مَا اضْطَرَّرْتُمْ إِلَى هَذَا الشَّرِّ، وَلَمْ يَخْشُوا غَائِلَةَ الْأَمْرِ. [الوافر]

إِبَاعُ عُثْمَانَ مَعْتَبَةً وَظَنْنَا      وَشَافِي الشُّصْحِ عِنْدَكَ كَالْأَنَافِي

وَقَدْ أوردَ الْعُصْرِيُّ آيَاتِ الْعَنَاصِرِ الْمُحْكَمَاتِ الْأَوَاصِرِ، مُسْتَحَقَّاتٍ أَنْ يُعْقَدَ عَلَيْهَا بِالْخَنَاصِرِ، فَعَرَّبْتُ مَعْنَاهَا وَزِدْتُ فِيهِ، وَقُلْتُ: [الْخَفِيف]

إِنَّ مَنْ رَامَ أَنْ يَعِيشَ مُطَاعاً  
نُصْحَكَ الْمَرْءَ مُتَعَبٌ لَكَ لَكِنْ  
كَالدَّوَاءِ الْمُرِّ الَّذِي بِهِ تَحَلُّو  
وَإِذَا اعْتَلَّتِ الْعَقُولُ أَرْهَاهَا  
لَا تَغْفِرُكَ الْوَجُوهُ حَسَاناً  
وَالْأَصُولُ الْهَجِينَةُ النَّجْرُ لَا يَنْدَمُ  
لَيْسَ يَسْمَى النِّجَاحُ نَحْوَكُ إِلَّا  
مَنْ يَمَلِّ سَمْعُهُ إِلَى النَّصِيحِ يَسْتَدِمُ  
وَالكِرِيمُ الَّذِي يُرْجَى الْكِرِيمُ السَّمِ  
كُنْ أَخَاهِمَةَ عَنِ النَّاسِ تَسْتَفِدُّ

قَالَ: فَلَاخَ لِي مِنْ صَفْحَاتِهِ بِشْرُ الْاسْتِمَاعِ وَمِنْ أَسَارِيرِهِ سِرُّ الْإِمْتِنَاعِ، وَهُوَ يَقُولُ مَا قَالَتْهُ  
الْأُمَّةُ لِمَوْلَاتِهَا وَقَدْ نَصَحْتَهَا لِتَسْتَصْلِحَهَا: [الْكَامِل]

اتْرَكَتَنِي وَتَقُولُ عِظِي وَأَصْبِرِي  
لَا يَأْمُقِفُلُ مَا عَرَفْتَ طَرَائِقِي  
وَلَاخِرُ: [الْبَسِيطُ]

قَالَتْ سُلَافٌ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ  
إِنَّ الْيَزِيدِيَّ يَهْوَى أَنْ يُحَصَّنَنِي  
فَإِنْ تُحَاصِفُهُ فَاَعْلَمْ غَيْرُ مُجْتَدِعٍ  
وَأَنْشَدَ: [الْبَسِيطُ]

إِذَا تَحَقَّقْنَا هُمْ نَمَّتْ عُيُونُهُمْ  
وَالْعَيْنُ تُخْبِرُ مَا فِي الْقَلْبِ أَوْ تَصِفُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾<sup>(1)</sup>

وَلَأَبِي عُثْمَانَ النَّاجِمِ<sup>(1)</sup>: [البسيط]

إِسْمَعْ مِقَالِي وَلَا تَسْمَعْ سِوَاهُ كَمَا  
لَا تَسَخَطَنَّ كَلَاماً إِنْ وُعِظْتَ بِهِ  
4 فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي هَذَا الْمَكَانِ عَلَى

وَأَنْشُدْ أَيْضاً: [الوافر]

مَتَى أَرْجُو شِفَاءَ كُفْمِ بَطْنِي  
فَمَا نَفَعَتْ فِيهِ هَذِهِ النَّصَائِحُ الْفَصَائِحُ، وَأَمَّا الَّذِي جَرَى فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ مِنَ الْفَوَاضِحِ  
فَوَاضِحٌ، وَأَنْشُدْ: [الطويل]

أَمَرْتُ خُضَيْرًا بِالْعَفَافِ وَبِالْتَّقَى  
وَوَلَّتْ تَعَلَّمُ أَنْ لِلَّهِ فَاحْتَسِرْ  
قَالَ: فَلَمَّا لَمْ يُؤْثِرْ فِيهِ حَدِيثِي وَوَجَدْتُهُ وَهُوَ مُتَغَافِلٌ وَالْمَسْرَاتُ أَمَامَهُ وَلَهَا صَدْمَةٌ لَا يَصْبِرُ  
لَهَا إِلَّا عَاقِلٌ تَمَثَّلْتُ بِقَوْلِ بَعْضِهِمْ: [الطويل]

تَعَزَّزْتُ يَا فَضْلُ بِنِ مَرَوَانَ فَاعْتَبِرْ  
ثَلَاثَةَ أَمْلاكٍ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ  
فِيكَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي النَّاسِ ظَالِمًا  
وَأَنْشُدْ: [الوافر]

أُنَادِي مِنَ بَطُونِ الْأَرْضِ شَخْصًا  
يُحَرِّكُهُ التَّنْدَاءُ فَمَا يُجِيبُ  
وَكَانَ مُتَغَاضِبًا يَتَهَوَّنُهُ دُنْيَاهُ بِجَرَحِ دِينِهِ، أَرَى أُنُوشِرَانَ وَقَدْ مَالَ عَلَى الْكَمَالِ وَانْتَقَصَهُ،  
وَعَمَّطُ إِحْسَانَهُ وَعَمَّصَهُ، وَكَانَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ أَنَّهُ إِلَى الْوِزَارَةِ سَبَقَهُ، وَأَنَّهُ أَخَذَ فِي رِهَانِ الْعَمَالِيِّ  
سَبَقَهُ، وَأَنَّهُ اجْتَهَدَ أَنْ يَلْحَقَ غُبَارَهُ فَمَا لَحِقَهُ، وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ قَلْبِهِ عَلَيْهِ حَنَقُهُ الَّذِي لَوْ كَانَ شَجِيئًا  
فِي حَلْقِهِ لَخَنَقَهُ، وَلَا أَرَاهُ أَجْمَلَ فِي ذِكْرِ أَحَدٍ وَلَا ذَكَرَ أَحَدًا بِجَمِيلٍ، وَإِنْ سِيرَهُ إِلَى مَدَى

(1) أبو عثمان الناجم: سعد بن الحسين بن شداد السلمي، المعروف بالناجم، والسلمي نسبة إلى السمع بن مالك من بني عبد شمس، من حمير، أديب من الشعراء، كان يصحب ابن الرومي ويروي أكثر شعره، توفي سنة

الْمَدَائِحِ وَإِنْ وَسَّيْرَهُ إِلَى الذَّمِّ ذَمِيلٌ، وَإِنَّ كَيْدَهُ فِي تَضْلِيلِ، وَأَيْدُهُ فِي تَقْلِيلِ، وَمَا أَبْرَدَ تَمَثُّلَاتِهِ! وَأَدْبَرَ تَحْيَلَاتِهِ! وَأَرْبَدَ مُحْيَلَاتِهِ! وَمَا أَمَلَقَ قَلَمَهُ! وَأَكَلَمَ كَلَمَهُ! وَالْأَدْعُ عَقْرَبَهُ! وَأَرَوَّعَ ثَعْلَبَهُ! وَأَطَنَّ فِي لُوحِ الْهَجِيرِ ذُبَابَهُ! وَأَزَنَّ فِي عَرَضِ الْكَرِيمِ سَبَابَهُ! وَمَا زَالَ الدَّهْرُ يَعْلُو فِيهِ الْمُنْحَطُّ وَيَنْحَطُّ الْعَالِي، وَيَتَحَلَّى الْعَاطِلُ وَيَتَعَطَّلُ الْحَالِي، وَيَسْمُو النَّازِلُ وَيَنْزِلُ السَّامِي، وَأَبْدَى قُدْرَةَ السَّخَطِ، وَجَرَى فِي الْاِقْتِرَاحِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الشُّطَطِ، فَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَيُقِيدُ وَيَقِيْتُ، وَيَهْدِي وَيُضِلُّ وَيُعِزُّ وَيَذَلُّ، وَقَدْ بَلَغَ أَنْوَشْرُوَانُ إِلَى أَوْفَى مِنْ أَصْلِهِ، وَرَقَا إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ مَحَلِّهِ، فَمَا بِاللَّهُ وَكَلَّ بِكُلِّ مِنْهُمْ بِاللَّهُ، وَسَدَّدَ إِلَى أَغْرَاضِ أَغْرَاضِهِمْ نَبَالَهُ، وَمَا ذَبَّهِمْ عِنْدَهُ إِلَّا أَنَّهُ اشْتَهَى إِدْبَارَهُمْ وَإِقْبَالَهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّصِيرُ أَخُو الْوَزِيرِ الطُّغْرَانِيِّ وَالنَّائِبُ شَهَابُ الدِّينِ أَسْعَدُ وَشَمْسُ الْمَلِكِ بْنِ نِظَامِ الْمَلِكِ الْمُسْتَوْفِي، وَالْمُتَحَكِّمُ فِي الْاِسْتِيفَاءِ عَزِيزُ الدِّينِ أَبُو نَصْرِ أَحْمَدُ، وَكَانَ النَّصِيرُ وَشَمْسُ الْمَلِكِ بَعِيدَيْنِ مِنْ قَانُونِ عَمَلِهِمَا، مُتَحَلِّينَ بِالْمُصَيِّبِينَ مَعَ عَطْلِهِمَا، وَكَانَ الْعَزِيزُ لِفَضْلِهِ وَتَمَهَّرَهُ فِي عِلْمِ الْاِسْتِيفَاءِ وَتَشَهَّرَهُ بِالصِّدْقِ وَالصَّحَّةِ وَالْكَرَمِ وَالْوَفَاءِ فِي ذَلِكَ مَا قَالَهُ الْأَعْرَابِيُّ: [الطويل]

إِذَا حَلَفُونِي بِالْإِلَهِ مَنَحْتَهُمْ      يَمِينًا كَشَجْوِ الْأَنْجَمِيِّ الْمُمَزَّقِ  
وَإِنْ حَلَفُونِي بِالْعِتَاقِ فَقَدْ دَرَى      دُهَيْمٌ غُلَامِي أَنَّهُ غَيْرُ مُعْتَقِ  
وَإِنْ حَلَفُونِي بِالطَّلَاقِ رَدَدْتُهَا      كَأَحْسَنِ مَا كَانَتْ كَأَنَّ لَمْ تُطَلَّقِ

وَبَعْدُ كَانَتْ زَارَتُهُ فِي رِيْعَانِيهَا، وَسَعَادَتُهُ فِي عُفْوَانِيهَا، وَدَوْلَتُهُ فِي كِمَالِ سُلْطَانِيهَا، وَمُكْتَنَتُهُ فِي جَلَالِ مَكَانِيهَا، وَالدُّنْيَا دَانِيَةٌ وَالْعَلْيَاءُ رَانِيَةٌ وَقُطُوفُ النِّعَمِ دَانِيَةٌ وَصُرُوفُ الْقَدْرِ وَانِيَةٌ وَأَوْتَارُ الْأَوْتَارِ وَأَعْطَافُ الْأَطْرَافِ مَتَّرَنَةٌ مُتَّرَنَةٌ، وَمَهَابُ الْمَوَاهِبِ وَمَطَالِعُ الْمَطَالِبِ مُتَوَصِّحَةٌ، وَأَمْرُ الْوَلِيِّ فَاشٍ وَقَلْبُ الْعَدُوِّ خَاشٍ، وَالسِّيفُ لِلْعِلْمِ خَادِمٌ، وَالْكِتَابُ عَلَى الْكِتَابِ حَاكِمٌ، وَالْحُظُوظُ مُسْتَقِيمَةٌ وَالْخُطُوطُ وَالْمُقَوِّدُ مُسْتَحْكِمَةٌ الشُّرُوطُ فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى عَاجَلَهُ الْأَجَلُ فُجَاءَةً، وَانْحَالَ فِي الْحَالِ كُلِّ مَسْرَّةٍ مَسَاءَةً، وَعَلِمَ أَنَّ الْقَدَرَ مَا رَقَدَ، وَأَنَّ ذَلِكَ الصَّفْوَةَ عَلَى الْكَدْرِ رَكَدَ، وَكَانَ فِي سِنَةِ عَشْرِ وَخَمْسِمِائَةٍ كَانَ السُّلْطَانُ مَحْمُودٌ قَدِيمٌ مِنْ بَغْدَادَ عَائِدًا إِلَى هَمْدَانَ فَتَخَلَّفَ عَنْهُ الْوَزِيرُ يَوْمًا عَلَى أَنْ يَتَبَّعَ فِي غَدِ السُّلْطَانِ فَلَمَّا بَكَرَ رَكَبَ وَقَدْ رَتَّبَ الْمَوْكَبَ، وَالسِّيُوفُ حَوَالِيَهُ مَسْلُولَةٌ وَالْعَاشِيَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَحْمُولَةٌ، وَالسَّلَاحِيَّةُ شَاكِيَةٌ، وَعُيُونُ الْحُرُوبِ ذَاكِيَةٌ، وَهُوَ جَائِزٌ فِي السُّوقِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْبَيْشِيِّ فِي الرَّيِّ الرَّائِقِ الْمَوْشَى، فَوَتَّبَ

عليه قومٌ من بعضِ تلكِ الدكاكينِ وصَرْمُوهُ بالسَّكَاكِينِ، فَمُحْمِلٌ جَرِيحاً، وَيَبْقَى فِي حُجْرَةٍ مِنْ غُرَفِ السُّوقِ طَرِيحاً، وَأُحْضِرَ مَنْ يُدَاوِيهِ وَاسْتَعْلَى بِالْجُرْحِ آسِيَهُ فَلَمْ يَحْسُوا إِلَّا بِرَجْلِ قَدْ قَفَرَ مِنَ السَّقْفِ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ بِمَدِيَةِ الْحَتَفِ، فَأَتَلَفَ مُهْجَتَهُ وَمَحَا مِنَ الزَّمَانِ بَهْجَتَهُ، وَرَكِدَتْ رِيحُهُ وَخَمَدَتْ نَارُهُ، وَنَضَبَ مَاؤُهُ وَسَكَنَ غُبَارُهُ، وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ غُرَابُهُ، وَانْجَذَبَ عَنْهُ أَتْرَابُهُ، وَأَضْرَبَ عَنْهُ أَضْرَابُهُ، وَخَلَاهُ أَخْلَاؤُهُ، وَدَلَاهُ فِي قَبْرِهِ أَدْلَاؤُهُ، وَتَقَفُوا مِنْ ثُرَيْبَتِهِ أَلْوَاحَهُ، وَتَقَفُوا مِنْ رُتْبَتِهِ السَّاحَهُ، وَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْكَنْفِ وَأَدْرَجُوهُ فِي الْكَنْفِ، وَتَقَلُّوهُ مِنَ الرَّفْعِ وَالتَّنْفِغِ إِلَى الْعَفْرِ وَالْعَقَنِ، وَأَحَلَّهُ بِدَارِ الْبِلَا بِدَارِ الْعُلَى، وَتَحَوَّلَ مِنْ قَلْبِ الْمَنْزَلَةِ الْمُوَثَّقَةِ إِلَى قَلْبِ النَّازِلَةِ وَالْقَلْبَى، وَآلٌ إِبْدَارُهُ إِلَى السَّرَارِ وَإِعْلَانُهُ إِلَى الْإِسْرَارِ، وَتَوَلَّى عَمِّي الْعَزِيزُ حِفْظَ مُخْلِفِيهِ، وَحَلَمَ عَنْهُمْ حَدَّ الزَّمَنِ السَّفِيهِ، وَاسْتَشْبَهَهُ وَلَهُ وَلِدَانِ أَحَدُهُمَا عَضُدُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ وَالْآخَرُ فَخْرُ الدِّينِ مُحَمَّدٍ، فَتَعَصَّبَ لِلْوَلَدِ الْكَبِيرِ ذِي الْفَضْلِ الْأَوْفِرِ وَالْإِعْتِقَادِ الْأَنْوَرِ وَالذِّينِ الْمَتِينِ وَالْعِلْمِ وَالْيَقِينِ، فَوَلَاهُ السُّلْطَانَ أَشْرَفَ الْمَنَاصِبِ وَأَرْفَعَ الْمَرَاتِبِ، فَزَهَدَ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْقُدْرَةِ، وَسَلَّكَ طَرِيقَ الْإِنْكَسَارِ وَالْقَنَاعَةِ بِالْكَسْرَةِ، وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ مِنْ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ حَسَنُ السِّيَرَةِ صَافِي السَّرِيرَةِ، خَسَنُ الْعَيْشَةِ قَالٍ لِلْمَعِيشَةِ، يَلْبَسُ السَّمْلَ الْبَالِي وَيَأْلَفُ الْمَنْزَلَ الْخَالِي، وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَأْخُذُ بِيَدِ الْمَلْهُوفِ، يَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الْعِيَاقَةِ، مُقْبِلٌ عَلَى الْآخِرَةِ، وَالتَّقْوَى قَدْ أَلْبَسَتْهُ شِعَارَ الْمَخَافَةِ، وَتَوَلَّى أَخُوهُ فَخْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْأَعْمَالِ الْفَاخِرَةَ إِلَى آخِرِ زَمَانِهِ، وَظَهَرَ قَدْرُ مَكَانِهِ، وَقَدْرَةُ إِمْكَانِهِ، وَالْعَضُدُ الزَّاهِدُ فِيهِ زَاهِدٌ فِي صَرْفِ جَاهِهِ عَنْهُ جَاهِدٌ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا تَضَادٌّ، وَتَبَاغُضٌ فِي الدُّنْيَا لَا تَوَادُّ، وَعَضُدُ الدِّينِ يَرْجِعُ إِلَى فَضْلِ وَافِرٍ، وَوَجِهٌ عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ سَافِرٍ، مُجْدِنَا إِلَى مَا ذَكَرَهُ أَنْوَشْرَوَانُ.

### وزارة شمس الملك بن نظام الملك

أُنشِدَ أَنْوَشْرَوَانُ مِثْلًا: [الطويل]

لَسِيْمٌ أَنَاهُ اللَّوْمُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ      وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ عِنْدِ أُمِّ وَلَا أَبِ  
قَالَ: لَمَّا صُرِعَ الْكَمَالُ وَاتَّسَعَ الْمَجَالُ نَهَضَتْ هِمَّةُ شَمْسِ الْمُلْكِ لِطَلْبِ الْوِزَارَةِ، وَخَطَبَ  
عَرُوسَهَا مَعَ الْعَجْزِ عَنِ افْتِرَاعِ الْبِكَارَةِ، وَيَخْلُ بِمَهْرِهَا وَمَا عَرَفَ أَنَّ رُبْحَهَا فِي التَّرَامِ الْخُسَارَةَ.  
[المتقارب]

يُحِبُّ النُّكْحَ أَبُو مُسْهَرٍ      وَلَيْسَ يُطَاوِعُهُ أَيْرُهُ  
 وَقَدْ أَمَسَكَ الْبُخْلُ مِنْ كَفِّهِ      فَاصْبَحَ لَا يُرْتَجَى خَيْرُهُ  
 وَكَانَتْ فِيهِ خِصَالٌ مِنَ اللُّؤْمِ جَلِيَّتُهَا الشُّحُّ، وَالبُّخْلُ أَحْسَنُ مَا فِيهِ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ عَمَّ خِلَالَهُ  
 الْقَيْحُ، قَالَ: وَوَصَفِي لَهُ بِالْبُّخْلِ لَا يَدُلُّ مِنِّي عَلَى طَمَعٍ مَا فِيهِ، وَمَا أَنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِمُعْتَقِيهِ،  
 لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ غَيَّبِي عَنِ الْعَالَمِينَ يَقُولُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: [وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ  
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ<sup>(1)</sup>].

وَلَأَيُّ الْعَتَاةِ<sup>(2)</sup> فِي شُكْرِ الْبُخِيلِ عَلَى بُخْلِهِ حَيْثُ لَمْ يَنْلَهُ بِذَلِّهِ فِي مَنَعِ بَدَلِهِ: [الكامل]  
 وَجَزَى الْبُخِيلَ عَلَيَّ صَالِحَةً      عَنِّي لِخِفَّتِي عَلَى ظَهْرِي  
 أَعْلَى وَأَكْرَمَ مِنْ يَدِيهِ يَدِي      فَعَلَّتْ وَتَنِيرَةٌ قَدْرِهِ قَدْرِي  
 وَرَزُقْتُ مِنْ جَدْوَاهُ عَافِيَةً      أَلَا يَضِيقُ بِشُكْرِهِ شُكْرِي  
 وَيَقْبِتُ خُلُوعًا مِنْ تَقْضِيلِهِ      أَحْنُو عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ الْعُنْدِ  
 مَا فَاتَنِي خَيْرَ امْرِئٍ وَضَعَتْ      عَنِّي يَدَاهُ مَوْؤُونََةَ الشُّكْرِ  
 فَاجْتَابَ الْوِزَارَةَ بَعْدَ أَنْ تَجَادَبَتْ رِءَاةَا الْقَوْمِ، وَرَافَعَ فِي سُوقِ رَوْمِهَا السَّوْمِ، وَأَنَارَتْ  
 شَمْسُ شَمْسِ الْمُلْكِ مِنْ مَطْلَعِهَا، وَوَرَدَتْ عَلَى الظَّمَا الْبَرَحَ إِلَيْهَا عَذَبَ مَشْرِعِهَا، وَتَوَلَّى  
 عَزِيزُ الدِّينِ أَبُو نَصْرِ أَحْمَدُ بْنُ حَامِدٍ مَنَصَّبَ الْاسْتِيفَاءِ، وَقَدْ فَضَّلَ بِالْفَضْلِ وَالْكَفَايَةِ جَمَاعَةَ  
 الْأَكْفَاءِ، وَتَغَاثَتْ عَنْ مَطَارِحِ مَجِيدِهِ وَمَطَالِيعِ جَدِّهِ نَوَاطِرُ النُّظْرَاءِ، وَأَنْكَسَرَ بِارْتِفَاعِ عِلْمِهِ  
 جَاهُ الْجُهْلَاءِ، وَيَبَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ الْكِرْمَاءِ وَكَرَمُ الْفَضْلَاءِ، وَأَعْلَى الْآلَاءِ لِأُولِي الْعِلْيَاءِ، وَرَاجَتْ  
 بِضَائِعِ الْبِدَائِعِ، وَظَهَرَتْ مَقَادِيرُ الصَّنَاعَاتِ بِأَقْدَارِ الصَّنَائِعِ، وَعَاشَ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالذَّرَائِعِ،  
 وَكَثُرَ الْمُفَاخِرُ وَفَخَّرَ الْمُكَابِرُ، وَعَمَّ الْمَائِزُ وَأَثَرَ الْعِمَائِرُ، وَأَحْسَنَ إِلَى كُلِّ مُحْسِنٍ، وَفَعَلَ مِنْ  
 الْجَمِيلِ كُلِّ مُمَكِّنٍ، وَرَفَعَ هَادِي الْهُدَى وَوَسَعَ نَادِي النَّدَى، وَهَؤُلَاءِ مُبْتَكِرَاتُ فِي الْجُودِ لَمْ يُسَبِّحْ  
 إِلَى افْتِرَاعِهَا، وَمُبْتَدَعَاتُ فِي الْخَيْرِ لَمْ يُسَمَّ خَاطِرٌ إِلَى اخْتِرَاعِهَا، مَنْ جُمِّلَتْهَا أَنَّهُ جَعَلَ لِلْعَسْكَرِ

(1) سورة الحشر، آية 9، و: سورة التباين، آية 16

(2) ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، 1964 م، 221، وأبو العتاهية: هو أبو إسحاق، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العتزي بالولاء، المشهور بأبي العتاهية، شاعر مكثر لا يمكن الإحاطة بجمع شعره، ويعد من مقدمي المولدين، من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما، نشأ في الكوفة، وكان يبيع الجرار في بدء أمره، ثم سكن بغداد واتصل بالخلفاء وتقدم عندهم، توفي سنة 211 هـ، وله ديوان مطبوع.

السلطانيّ بيمارستاناً تُحْمَلُ آلائِهِ وَخِيَمَتُهُ وَأَدِيَّتُهُ، وَالْأَطْبَاءُ فِيهِ وَالْغُلَمَانُ وَالْمَرْضَى مَا تَنَا بُخْتِي، وَاسْتُخْدِمَ لَهُ أَسَى نِظَامِيٌّ، وَأَكْثَرُ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ الْعَزِيْزَةِ الْوَجُودِ فِيهِ، وَوَفَّرَ وَأَعَدَّ فِي خَزَائِنِهِ التَّرِياقَ الْأَكْبَرَ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنَّهُ بَنَى بِمَحَلَّةِ الْعَتَائِيْنَ بِبَغْدَادَ مَكْتَبًا لِلْأَيَّامِ، وَوَقَّفَ عَلَيْهِ وَقُوفًا مُسْتَمْرَّةً الْجَدْوَى عَلَى الدَّوَامِ، وَالْأَيَّامُ مَكْفُولُونَ مِنْهَا إِلَى أَنْ يَلْغُوا الْحَلْمَ بِالنَّفَقَةِ وَالْكُسُورَةِ وَالطَّعَامِ وَتَعَلَّمَ الْأَدَابَ وَحَفِظَ الْقُرْآنَ وَمَعْرِفَةَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَبَنَى مَشَاهِدَ وَقَنَاظَرَ وَمَسَاجِدَ، وَاصْطَنَعَ أَكَارِمَ وَأَمَاجِدَ، وَصَحَّ لَهُ التَّحَكُّمُ عَلَى الْوَزِيرِ وَأَحْكَامُ التَّنْدِيرِ، وَتَوَلَّى دِيوَانَ الطَّغْرَاءِ وَالْإِنْشَاءِ الشَّهَابُ أَسْعَدُ، وَكَانَ مُعَلِّمًا لِلْسلْطَانِ فِي أَيَّامِ الْوَالِدِ وَتَنَجَّزَ حَظَّهُ أَنْ يَوَلِيَهُ الطَّغْرَاءَ إِذَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ السُّلْطَنَةُ وَأَنْ تَكُونَ دَوْلَتُهُ الْمُتَمَكِّنَةَ، وَلَمَّا تَوَلَّى لَمْ يَتَّعِرْ عَلَيْهِ مَنْصِبَهُ وَلَا فَاتَهُ عِنْدَهُ مَطْلَبُهُ، وَبَقِيَ إِلَى آخِرِ عَهْدِهِ فِي الطَّغْرَاءِ رَاجِحًا مَحَلَّهُ نَاجِحًا أَرَبَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ كَانَ سَرِيعَ التَّبَدُّلِ كَثِيرَ التَّحَوُّلِ مَشْغُوفًا بِالتَّنَقُّلِ، مَلُولًا لِلْمَوَدَّةِ وَدُودًا لِلْمِلَالَةِ، لَا يَلْبَثُ فِي حَقِّ صَاحِبٍ وَلَا صَاحِبٍ حَقًّا عَلَى حَالَةٍ، فَعَرَفَ الشَّهَابُ أَحْمَدَ خُلُقَهُ فَسَلَّكَ مَعَهُ سُبُلَ التَّحِيلِ وَطَرُقَهُ، وَاسْتَحَفَّ عَقْلَ الْمَخْدُومِ لِطَرَاةِ سِنِّهِ، وَعَامَلَهُ بِمَا قَرَّبَ مِنْ قَلْبِهِ وَأَثَّرَ فِي ذَهْنِهِ، فَشَرَعَ لَهُ فِي دِفَاتِرِ أَسْمَارٍ وَتَوَارِيخٍ وَأَخْبَارٍ يَنْسَخُهَا بِالْخُطُوطِ الْمَنْسُوبَةِ وَتَكْسِيَّتِهَا، وَيُصَوِّرُهَا بِأَحْسَنِ تَرْوِيْقٍ وَأَزِينِ تَنْمِيقٍ وَيُذَهِّبُهَا، وَيَأْتِي فِي كُلِّ حِينٍ إِلَى السُّلْطَانِ بِمُجَلِّدٍ مِنْهَا فَإِذَا تَأَمَّلَهُ السُّلْطَانُ وَارْتَاخَ لَهُ طَالِبُهُ بِتَمَامِهِ وَاسْتَعَجَلَهُ، فَوَعَدَهُ بِهِ وَاسْتَمَهَلَهُ، حَتَّى إِذَا أَنْهَى كِتَابًا عَلِقَ آخِرَ قَلْبِهِ وَخَلَبَ بِتَصَاوِيرِ خَلْبِهِ، فَهَوَّ يَسْتَهْوِيهِ بِمَا يُبْدِيهِ وَيُهْدِيهِ وَالسُّلْطَانُ يَسْتَبْقِيهِ مَا يَسْتَعِيدُهُ وَيَسْتَدْعِيهِ، فَتَوَلَّى أَبُو الْقَاسِمِ الْإِنْسَابَاذِيُّ دِيوَانَ الْعَرَضِ، وَكَانَ أَنْوَشِرُونَ عَارِضًا، وَهُوَ حَيْثُذِ غَائِبٌ وَفِي مَقَامِهِ عَنْهُ نَائِبٌ، وَهَهُنَا أَنْوَشِرُونَ وَقَعَ فِي ذَمِّ الْجَمَاعَةِ، وَشَحَدَ عَلَيْهِمْ حَدَّ الشَّنَاعَةِ، فَانشَدَ مُتَمَثِّلًا فِي حَقِّ الْعَزِيْزِ لِتَفَرُّدِهِ بِالْعِلْمِ: [الطويل]

إِذَا كُنْتَ تَقْضِي أَنَّنَا الدَّهْرَ عَاقِلٌ      وَكُلُّ بَنِي حَوَاءٍ عِنْدَكَ جَاهِلٌ  
وَأَنْ مَغِيْضُ الْعِلْمِ صَدْرَكَ وَحَدُّهُ      فَمَنْ ذَا الَّذِي يَدْرِي بِأَنَّكَ عَاقِلٌ

وَأَنشَدَ فِي الشَّهَابِ أَسْعَدَ مُتَمَثِّلًا: [السريع]

إِنَّ أَبَا الْعَيْنَاءِ فِي كُلِّ مَا      يَأْتِي بِهِ مِنْ أَبْرَدِ النَّاسِ  
جَمِيعُ مَا يُحْسِنُ مِنْ عِلْمِهِ      يَكْتُبُهُ فِي شِبْرِ قِرطَاسِ

وَأَنشَدَ أَيْضًا: [مَجْزُوءِ الرَّمْلِ]

يَنَمَاطِي كُلَّ شَيْءٍ      وَهَوَ لَا يُحْسِنُ شَيْئًا  
فَهُوَ لَا يَزْدَادُ رُشْدًا      إِنَّمَا يَزْدَادُ غِيَا

وَأُنشِدُ فِي الْأَنْسَابِ ذِي لَمَّا عَزَلُ: [الكامل]

أَهْجَوْتَنِي لَمَّا هَجَوْتُكَ قَالَ لِي      أَهْجَوْتُهُ بِي أَمْ بِهِ تَهْجُونِي  
وَالشُّتْمُ لَمَّا أَنْ شَتَمْتُكَ قَالَ لِي      يَا مَنْ يُشَاتِمُنِي بِمَنْ هُوَ دُونِي

قَالَ أَنُشِرَانُ: وَكُنْتُ أَنَا قَدْ تَخَلَّفْتُ بِبَغْدَادَ لِشُغْلِ أَقْضِيهِ وَأَمْرٍ أَمْضِيهِ، فَاجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ وَاعْتَمَمُوا غَيْبِي وَخَافُوا مِنْ أَوْيَتِي، فَتَعَلَّقُوا بِغَيْرِ مُتَعَلِّقٍ، وَتَسَلَّقُوا إِلَى غَيْرِ مُتَسَلِّقٍ، وَاجْتَمَعُوا وَقَالُوا الْآنَ أَمْرُ أَنُشِرَانِ وَإِنِّي، وَإِنَّ عِيونَهُ غَيْرُ زَوَانٍ، وَمَخَاتَلُهُ غَيْرُ دَوَانٍ، وَلَا يَسْقُ لَنَا حَالٌ وَلَا يَدُونُ إِلَيْنَا نُجُحٌ إِلَّا إِذَا بَعْدَ، وَلَا تَقُومُ لَنَا قَاعِدَةٌ إِلَّا إِذَا لَزِمَ بَيْتَهُ وَقَعْدَ، فَأَخَذُوا بِأَخْذِي وَتَعَوَّقِي تَوْقِيْعًا، وَسَنَعُوا عَلَيَّ عَمَلِي وَعَمَلُوا شَنِيعًا، وَكَانَ مَضْمُونُ الْمِثَالِ السُّلْطَانِيَّ الْأَمْرَ الْمُطَاعَ أَعْلَاهُ اللَّهُ أَنَّ أَنُشِرَانِ إِنْ كَانَ فِي حَدُودِ بَغْدَادَ لَزِمَ بَيْتَهُ بِيَابِ الْمَرَاتِبِ، وَسُدَّتْ عَنْ لِقَائِهِ طَرِيقُ الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَى بِلَادِ الْجَبَلِ فَيَقْعُدُ فِي وِلَايَةِ الْأَمِيرِ بِرَسْقٍ بِقَلْعَةِ كَفْرَاشِ، وَيُشْرَطُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ الْمَنْصِبَ وَالْمَعَاشَ، وَيَحْضُرُ مَمَالِكُهُ إِلَى الدَّرَكَاهِ لِيَسْتَقْلُوا إِلَى الْخَوَاصِّ مِنَ الْأَمْرَاءِ، وَيُحْمَلُ ثَقْلُهُمْ عَنْهُ مَعَ الْأَنْزَاءِ، قَالَ أَنُشِرَانُ: وَكَانَ الْمَثَالُ بِخَطِّ الْعَزِيزِ وَقَدْ مَدَّ الطَّغْرَاءَ عَلَيْهِ أَسْعَدُ، وَعِلَامَةُ الْوَزِيرِ فِيهِ (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعِمِهِ) وَتَوْقِيْعُ السُّلْطَانِ (اعْتَصَمْتُ بِاللَّهِ) وَمَا وَجَدْتُ مَنْ أَنْسَبَ إِلَيْهِ هَذَا الْقَصْدَ غَيْرَ الْعَزِيزِ، فَإِنَّ الْبَاقِيْنَ كَانُوا مُسَخَّرِينَ لَهُ وَهُوَ الْمُتَوَحِّدُ بِالْتَمْيِيزِ وَالتَّبْيِيزِ، وَلَقَدْ عَرَفْتُ بِهِ بَيْنَ الْوِشَاةِ وَفِي فَمِي مَا كَتَبَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ<sup>(1)</sup> إِلَى الْحَسَنِ بْنِ وَهَبٍ<sup>(2)</sup>: [مجزوء الكامل]

عَيْنَاكَ قَدْ حَكَمْتَ مَبِيئَنَا [م]      لَكَ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كَانَا  
وَلَكْرُبُّ عَيْنٍ قَدْ أَرْتَنَا [م]      لَكَ مَبِيئَتِ صَاحِبِهَا عَيَانَا  
وَكَتَبَ الْوَزِيرُ بِخَطِّ كَاتِبِهِ: إِنَّ شُغْلَ الْعَرَضِ قَدْ فَوَّضَ إِلَى الْعَمِيدِ الْأَجَلِّ الْأَخِي زَيْنِ الدِّينِ

(1) هو إبراهيم بن العباس الصولي، وقد ترجمنا له من قبل.

(2) الحسن بن وهب: أبو علي، الحسن بن وهب بن سعيد الخارثي، كاتب من الشعراء، كان معاصراً لأبي تمام وله معه أخبار، وكان وجيهاً، كتب للخلفاء ومدحه أبو تمام، مات سنة 250 هـ. ورثاه البحرني، وهو أخو سليمان بن وهب وزير المعتز والمهتدي.

ظهير الدولة أبي القاسم يعني الانساباذي، فُتِحْتُمْ جَمِيعُ دِفَاتِرِ الْعَرَضِ وَأَوْرَاقِهَا وَتُنْفَذُ حَتَّى يُسَلَّمَ إِلَيْهِ، وَلَآنَ كَلَامٌ مِنْهُمْ كَانَ مُسْتَحَدَّثَ النِّعْمَةِ مُسْتَجِدًّا الْجِشْمَةَ. [السريع]

مُسْتَحَدَّثُ النِّعْمَةِ لَا تَرْجُهُ      فَنَفْسُهُ مِنْ طَبْعِهَا الْفَقْرُ  
جُنَّ لَهُ الدَّهْرُ فَيَخْشَى بَأْنَ      يَعْقِلُ فِي أَمْثَالِهِ الدَّهْرُ

قَالَ: وَأَنْهَضُوا إِلَى طَرِيقِي مِنَ الْفِرْسَانِ عِدَّةٌ يُحَادُونَ عِدَاوَةً وَيُعِدُّونَ حِدَّةً، وَيَسْتَدُونَ فِي الْجِدِّ وَيَجِدُونَ شِدَّةً، وَأَمْرُوهُمْ بِحِفْظِ الْأَدَبِ وَالْجِدِّ فِي الطَّلَبِ وَإِنَالَةِ الطَّوْلِ بِإِلَاقَةِ الْقَوْلِ، وَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يَغْشَانِي ظَاهِرًا بِالْمَوَدَّةِ وَيُضْمِرُ لِي عُشًّا، وَيَهْشُ بِعَصَا كَيْدِهِ وَيَلْقَانِي هَشًّا بَشًّا. [الخفيف]

عَجَبًا إِنْ فِي ثَنَائِكَ لِحْمِي      وَإِذَا مَا زَايَسَنِي قُلْتَ أَهْلًا

وَهِيَهَاتَ أَنْ يَظْهَرَ الْوُدُّ الْمَسْتَقِيمُ مِنَ الْقَلْبِ السَّقِيمِ، أَوْ يَدُو حُسْنَ الْبَهْجَةِ مِنْ جَبْهَةِ الشَّتِيمِ، أَوْ يَحْمِي الْحَمْدُ ذِمَامَ الذَّمِّيمِ، قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: فَلَمْ يَكُنْ لِي أَيْضًا فِي صُحْبَتِهِمْ رَغْبَةٌ وَلَا جَذَبَتْ بِي إِلَى مِرَافِقِهِمْ مَحَبَّةٌ، وَلِلْمَلِكِ الْعَزِيزِ أَبِي مَنْصُورِ بْنِ جَلَالِ الدَّوْلَةِ: [الكامل]

مَنْ مَلَّنِي فَلِيَمِضْ عَنِّي رَاشِدًا      فَلَمَنْ عَرَضْتُ لَهُ فَلَسْتُ بِرَاشِدٍ  
مَا ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَيَّ بِأَسْرِهَا      حَتَّى يَرَانِي رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ  
وَلِعُرْوَةَ بْنِ أَدِينَةَ<sup>(1)</sup>: [البيسط]

لَا أَبْتَغِي وَصَلَ مَنْ يَبْغِي مُفَارَقَتِي      وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَسْتَهِي لِيْنِي

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ كُلِّ مِنْهُمْ مِنْ حَقِّ الْمُصَاحِبَةِ مَا كَانَ مُقْتَضَاهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ مِنْ عِنْدِهِ كِتَابًا يُعْنِي عَنِ مَلِكِ الْمُكَاتِبَةِ، فَيَحْصُلُ عَرَضُهُ إِنْحَاشِي، وَلَكِنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ عَشْرَتَهُمْ فِي انْتِعَاشِي، وَكُنْتُ أَرْجُوهُمْ لِلْخَيْرِ وَأَتَخَيَّرْتَهُمْ لِرَجَائِي وَأَوْدُهُمْ لِحُبِّي وَأَحْبُّ أَتَهُمْ أَوْدَانِي، فَتَدَبَّرُوا الْقَبِيحَ وَقَبَحُوا فِي التَّدْبِيرِ، وَأَنْكَرُوا الْمَعْرِفَةَ وَتَعَارَفُوا بِالتَّنْكِيرِ مِنْ غَضِّ. [البيسط]

مَنْ غَضَّ دَاوِي بِشَرْبِ الْمَاءِ غَضَّتَهُ      فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدَ غَضَّ بِالْمَاءِ  
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

(1) عروة بن أذينة: هو عروة بن يحيى (ولقبه: أذينة) بن مالك بن الحارث الليثي، شاعر غزل من أهل المدينة، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين، وقد غلب عليه الشعر، توفي نحو سنة 130 هـ، وقد جمع الأستاذ يحيى الجبوري شعره

وَالْغَدْرُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأُورِدَ بَيْنَ فَارِسِيِّنِ نَظْمَتْ عَوْضَهُمَا أَيْبَاتًا  
وَذَكَرْتُ مَعْنَاهُمَا فِي بَيْتٍ مِنْهُمَا قُلْتُ: [الكامل]

أَنَا لِلصُّدِيقِ مُسَاعِدٌ      لَكِنَّ مَالِي فِي الزَّمَانِ مُسَاعِدٌ  
حَظِي مِنَ الْخِلَانِ آتِي طَالِبٌ      لِرِضَاهُمْ وَعَلَيَّ كُفْلٌ وَاجِدٌ  
لَا أَجْحَدُ الْحَقَّ الَّذِي هُوَ لِأَزْمٍ      كَرَمًا وَكُلُّهُمْ لِحَقِّي جَاحِدٌ  
أَنَا قَادِرٌ أَنْ لَا يَرَانِي حَاسِدٌ      مَا قُدْرَتِي أَنْ لَا يَرَانِي حَاسِدٌ  
وَنَظَّمْتُ الْمَعْنَى فِي وَزْنٍ آخَرَ وَقُلْتُ: [المنسرح]

نَقَصُ بَنِي الدَّهْرِ زَائِدٌ قَمْتِي      أَرْجُو رَوَاجًا لِفَضْلِي الْكَاسِدِ  
قَدْ فَسَدَ الدَّهْرُ فِي مَذَاهِبِهِ      أَيُّ صَلاَحٍ يَكُونُ لِلْفَاسِدِ  
مَا لِأَخْلَاتِي لَيْسَ يَغْلُطُ فِي      إِصَابَةِ الْحَقِّ مِنْهُمْ وَاجِدِ  
وَأَنْ أَكُنْ جَاحِدًا حَقُوقَهُمْ      فَلِإِنِّي مَا خَلَوْتُ مِنْ جَاحِدِ  
أَقْدَرُ أَنْ لَا يَكُونَ لِي حَسَدٌ      مَا قُدْرَتِي لَا يَكُونُ لِي حَاسِدِ  
قَالَ: وَلَمَّا لَمْ يَجِدُوا لِي خِيَانَةَ اخْتَلَقُوهَا، وَأَلْفُوا أَكَاذِبَ وَتَقَفُوهَا. [المتقارب]

إِذَا لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَغْمَزٍ      سَلَكْنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ الْكَذِبِ  
وَمَا عَرَفَ كُلُّ مِنْهُمْ أَنَّهُ عَلَى خَطَرٍ مِنْ أَمْرِهِ وَعَرَّزٍ مِنْ ضَرِّهِ، وَأُورِدَ بَيْنَ فَارِسِيِّنِ فَعَرَّبْتُهُمَا  
وَقُلْتُ: [المتقارب]

تَعَرَّضْتَ فِي الدَّهْرِ عَنْ ضَلَّةٍ      لِأَخْطَارِهِ مَذْطَلِبَتِ الْخَطَرِ  
حَدِيدُكَ لِلْغَيِّ فِي نِسَارِهِ      مُعَدُّ وَمَالِكَ مِنْهُ خَبَرِ  
سَتَمَعْتُ أَنْ لَيْسَ عِلْمٌ يُفِيدُ      وَتَحَذَّرُ أَنْ لَيْسَ يُغْنِي حَذْرِ  
وَأَنْشَدُ مَثَلًا: [الطويل]

فَلَا تَتَجَسَّمْ حَصْدُ كُلِّ مَخْوَفَةٍ      فَإِنَّ الْأَعْصَادِي يَنْبِثُونَ مَعَ الْبَقْلِ  
قَالَ: فَلَقَيْتَنِي أَوْلَثَكَ الْفِرْسَانُ الْمُنْدُوبُونَ نَحْوِي، فَسَفَّهُوا بِسُكْرِ جَهْلِهِمْ عَلَى صَحْوِي،  
وَلَوْلَا إِعْظَامُ الْأَمْرِ السُّلْطَانِيِّ الْمُطَاعِ لَمَا رَعَيْتُ حُرْمَةَ أَوْلَثِكَ الرَّعَاعِ، وَلَعَادُوا وَحَكَّوْا أَنَّهُمْ  
لَقُّوا مِنِّي رَجُلًا، وَلَرَكِبُوا مِنَ الْخَوْفِ اللَّيْلِ جَمَلًا، فَاثْمَلْتُ الْأَمْرَ وَسَالَمْتُ الدَّهْرَ وَسَلَّمْتُ

إِلَيْهِمْ مَوْجُودِي، وَمَا بَرَّوْا بِرِّي بِالشُّكْرِ وَمَا حَمَّوْا جُودِي وَخَرَجْتُ مِنْ مَالِي كَالشَّعْرِ مِنْ  
 الْعَجِينِ، وَوَقَعَ الْهَجَانُ بِتَوْقِيعِ الْهَجِينِ، قَالَ: وَسَلَّمْتُ نَفْسِي إِلَى الْحَبْسِ، وَأَبْقَيْتُ أَمْرِي عَلَى  
 اللَّبْسِ. خَاطَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ اسْمَاعِيلَ بْنَ الْحُسَيْنِ الثَّعْلَبِيَّ فَاغْتَاظَ قَرْمَاهُ بِشَيْءٍ كَانَ  
 فِي يَدِهِ فَأَصَابَ سَاقَهُ، فَقَالَ وَقَدْ رَجِمَ: [الطويل]

أَمِنْ حَذْفَةٍ بِالرَّجْلِ مَنِّي تَبَاشَرْتِ      عُدَاتِي وَلَا عَارَ عَلَيَّ وَلَا سَخَرْتُ  
 وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِعْلَهُ      لَكَالذَّهْرِ لَا عَارَ بِمَا فَعَلَ الذَّهْرُ  
 ويشبه ذلك قول الأعرابية للمتوكل لما أراد قتلها: [الوافر]

فَإِنْ نَسَلِمَ فَفَضَلَ اللَّهُ نَرْجُو      وَإِنْ نُقْتَلَ فَمَاتَلْنَا شَرِيفُ  
 وَقِيلَ إِنَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ لَمَّا أَوْقَعَ بِهِمْ بُغَا فِي أَيَّامِ الْوَارِثِ. [الوافر]

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَمَّا إِلَيْنَا      سُمُّو اللَّيْثِ مِنْ حَيْثُ الْعَرِيفُ  
 فَإِنْ نَسَلِمَ فَفَضَلَ اللَّهُ نَرْجُو      وَإِنْ نُقْتَلَ فَمَاتَلْنَا شَرِيفُ  
 حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ إِسْحَاقَ الْقَاضِي قَالَ: رَأَيْتُ إِبْلِيسَ فِي النَّوْمِ رَاكِبًا عَلَى  
 كِرْكَدَنٍ أَيْضٌ يَقُودُهُ أَفْعَى فَاسْتَوْقَفْتُهُ فَوَقَّفَ لِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ لَكَ مِنْ قَلْبِي مَوْضِعٌ سَلَّ  
 حَاجَتَكَ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ قِصَّةً فَأَخَذَهَا مِنِّي وَقَرَّأَهَا وَوَقَّعَ فِي أَسْفَلِهَا: [السريع]

أَلَمْ يَرِ الْقَاضِي وَأَصْحَابُهُ      مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِأَهْلِ الْقُرَى  
 بَلَى وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ سَفَلَةٍ      إِلَّا إِذَا اسْتَعْلَى أَدْلُ السُّورَى  
 فَلَيْتَنِي قَدْ كُنْتُ فِي مَنْ مَضَى      وَلَمْ أَعِشْ حَتَّى أَرَى مَا أَرَى  
 وَكُلُّ ذِي خَفِضٍ وَذِي رَفَعَةٍ      لِأَبَدٍ أَنْ يَعْلُو عَلَيْهِ الثَّرَى  
 ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ لَا تَحْسَدِ النَّاسَ فَالْحَسَدُ أَوْقَعَنِي فِي مَا تَرَى وَاعْشَشِ الْعَالَمَ  
 تَعِشْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَضَرَبَ كِرْكَدَنَهُ وَمَضَى وَتَرَكَنِي. قَالَ أَنُوشِرَوَانُ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ:  
 [الكامل]

انظُرْ إِلَى ابْنِ الزَّرَانِيَيْنِ وَتَبِهُهُ      حَتَّى كَانَ أَبَاهُ عَبْدُ مُنَافٍ  
 مَا الذَّنْبُ فِيهِ لَهُ وَلَكِنْ لِلَّذِي      وَضَعَ اللَّثَامَ مَوَاضِعَ الْأَشْرَافِ  
 وأورد السنبلي بيتين عربتهما، قُلْتُ: [السريع]

فَقَدَ عَلا الأَدَوَانُ أَشْرَافَهُ  
يَكُونُ ظِلُّ الشَّخْصِ أَضْعَافَهُ

كِلَابُ الأَعَادِي مِنَ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ  
وَمَوْتُ عَلِيٍّ مِنْ حُسامِ ابْنِ مُلْجَمٍ

أَبْداً وَإِنْ كَانَ العَدُوُّ ضَبِلا  
وَلَرُبَّمَا جَرَحَ البِعْوُضُ الفِيلا

أَسودُ كِرامٍ أَوْ ضِباعٍ وَأَذُوبُ  
وَلَكِنَّمَا أودَى بِلَحْمِي أَكْلُبُ

وَمَا حَظَرَ بِبالي دُنُو حَظَرَ بِلانِي الأَدْباءِ

يَقْضِي بِهِ اللَّهَ امْتِناعُ  
نَسِ نُسِّ تَفْرُسُنِي الضُّباعُ

وقال زيد بن علي (عليهم السلام) وهو خارج من عند هشام مغضباً لكلام دار بينهما:  
والله ما الدليل من أدلثتموه ولكن من ملكتموه.

قال أنوشروان: فما قدرت إلا على الرضا بما قدره الله وقضى، وقلت مُنْشِداً: [الرجز]

يا أيها المشعِرُ هَمَّاً لا تَهْمُ

إنك إن تُقدِّرَ لَكَ الحُمَى تَحِمُّ

السَّهْرُ فِي آخِرِهِ يَوْمُهُ  
فِي كُلِّ يَوْمٍ عِنْدَ إِسائِهِ

وَأَنشَدَ: [الطويل]

وَلَا عَجَبٌ لَلأسدِ إِنْ ظَفَرَتْ بِها  
فَضْرِبَةٌ وَحِشِي سَقَتْ حَمْرَةَ الرَّدَى

وَأَنشَدَ أَيْضاً مُثَمِّلاً: [الكامل]

لَا يَسْتَخَفُّنَ الفَتَى بِعَدُوِّهِ  
إِنَّ القَدَى يُؤْذِي العَيُونَ قَليلُهُ

وَلِلْعُتْبِيِّ<sup>(1)</sup>: [الطويل]

فَلَوْ أَنَّ لِحْمِي إِذْ وَتَى عَبَّتْ بِه  
لَهَوْنَ مِنْ وَجْدِي وَسَلَى مَصِيبِي

قال:

وَأَنَا كُنْتُ تَأَهَّبْتُ لِذَمِّ الخُصُومِ الأَقْواءِ

وقال: [مجزوء الكامل]

مَالِ المَعْبِيدِ مِنَ الَّذِي  
دُذْتُ الأَسودَ عَن القَرا [م]

(1) العُتْبِيُّ: أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله بن عمرو العُتْبِيُّ الاموي، من بني عتبة بن أبي سفيان، أديب كثير الاخبار، حسن الشعر، من أهل البصرة وبها توفي سنة 228 هـ، له عدد من التصانيف في اخبار الشعراء، وكتاب في الخيل.

وَلَوْ عَلَوْتَ شَاهِقاً مِنَ الْعَلَمِ  
مِمَّ تَوَقِيكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ  
وَحُطَّ أَيَّامَ الصَّحاحِ وَالسَّقَمِ

وَأَنشَدَ: [الرجز]

إِنْ تَحْسِبُونِي فَالْكَرِيمُ يُحْبِسُ  
إِنِّي سَامِي النَّاطِرِينَ أَشْوَسُ  
عِرْضُ نَقِيٍّ وَأَدِيمِي أَطْلَسُ

وَعَرَفْتُ أَنَّ الْوَزِيرَ نَاقِدٌ بِلَا بَصَرٍ وَحَاقِدٌ بِلَا وَرَرٍ، وَأَنِّي أَنَسِي بِأَذَى الْإِنْسَابِ أَذَى وَأَنَسَا عَنْ  
الْمَنْصَبِ بِنَصِيهِ الْمُنْسِي، وَعَلِمْتُ أَنَّ الْحَقَّ قَدْ أُذِيلُ وَالْبَاطِلُ قَدْ أُدِيلُ، وَأَنشَدَ بَيَّتَيْنِ فَارْسِيَيْنِ  
عَرَّبْتُهُمَا وَقُلْتُ: [الطويل]

أَرَاكَ تَرَكْتَ الْحَزَمَ حَرَصاً وَعَفْلَةً  
وَسَوْفَ تَرَى عِنْدَ انْتِبَاهِكَ فِي غَدٍ  
قَالَ: وَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ الْأَعْرَابِيِّ فِي ابْنَةِ عَمِّهِ الْيَبِّي  
فَهَا أَنْتَ بَيْنَ النَّارِ وَالْمَاءِ قَاعِدٌ  
مُقَابِلَ هَذَا أَنْتَ الْيَوْمَ رَاقِدٌ  
فَقُلْتُ كَأَنِّي نَاطِرٌ مَا قَرِينُهَا  
وَكَانَتْ لَيْلِي تَبْعَةٌ لَا تَشِينُهَا  
أَقْلُ تَعِمَّتْ لَيْلِي وَشَلَّتْ يَمِينُهَا  
وَأَخْرَجْتُ: [الوافر]

كَفَانِي اللَّهْ شَرِّكَ يَا ابْنَ عَمِّي  
نَظَرْتُ فَلَـمَ أَجِدَ أَشْقَى لِعَيْظِي  
وَقُلْتُ لِقَلْبِي كُنْ جُلُوهَ الصَّبْرِ عِنْدَ مَرِّ النَّازِلَةِ، قَالَ إِفْلَاطُونُ: الْكَبِيرُ النَّفْسِ لَا يَحْزَنُ عِنْدَ  
الْمَصَائِبِ وَلَا يَصْغُرُ عِنْدَ الْعِظَائِمِ، وَلَا يَبِي عَلِيٌّ بِنِ ثِقَلَةَ: [الْخَفِيفِ]

لَسْتُ ذَا ذَلَّةٍ إِذَا عَضَّنِي الدَّهْمُ [م]  
أَنَا نَارٌ فِي مُرْتَقَى نَفْسِ الْحَا [م]  
رُ وَلَا شَايخاً إِذَا وَاتَانِي  
سِدْمَاءُ جَارِمَعَ الْأَخْوَانِ



قال: فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى الْقَلْعَةِ الَّتِي حَمَلُونِي إِلَيْهَا تَذَكَّرْتُ مَا كَتَبَهُ يَوْسُفُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَلَى بَابِ سَجِينِهِ: هَذِهِ مَنَازِلُ الْبَلْوَى وَقُبُورُ الْأَحْيَاءِ وَتَجْرِبَةُ الْأَصْدِقَاءِ وَسَهَامُ الْأَعْدَاءِ. فَمَا زِلْتُ هُمُومِي مُتَّصِلَةً وَهَمَمِي مُنْفَصِلَةً إِلَى أَنْ ذَكَرْتُ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ): مَنْ اتَّكَلَّ عَلَى حُسْنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ لَهُ لَمْ يَتَمَنَّ أَنْهُ فِي غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي اخْتَارَهَا اللَّهُ لَهُ. قَالَ وَأَنْشَدْتُ: [الْخَفِيفُ]

أَرَأَيْتَ الْأُمُورَ كَيْفَ تَفَانَتْ      دَرَسْتَ ثُمَّ قِيلَ كَانَ وَكَانَتْ  
كَمْ أُمُورٍ قَدْ كُنْتُ سَدَدْتُ فِيهَا      ثُمَّ هَوْنَتْهَا عَلَيَّ فَهَانَتْ

وَلَا يَنْبَغِي لِلْمَكْرُوبِ أَنْ يَقْتَطَعَ مِنَ الْفَرْجِ ، كَمَا قَالَ الْبُسْتِيُّ<sup>(1)</sup>: [الطَوِيلُ]

إِذَا ضَاقَ أَمْرٌ فَادْعُ رَبَّكَ إِنَّهُ      قَدِيرٌ عَلَى تَيْسِيرِ كُلِّ عَسِيرٍ  
وَبَيْنَ تَرْقِي حَوَازِ وَأَنْحَادِهَا      مَكَانُ كَسِيرٍ وَأَنْجِبَارُ كَسِيرٍ

وَكَمَا قَالَ آخَرُ: [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

فَرَجَّ فُؤَادَكَ بِالرُّضَا      تَرْجِعْ إِلَى فَرْجٍ وَطِيبِ  
لَا تَبَاسَنَنَّ وَإِنَّ أَلْحَ الذَّمِّ [م]      دَهْرٌ مِنْ فَرْجٍ قَرِيبِ

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) أَنَّهُ قَالَ: مَا كَرَّبَنِي أَمْرٌ قَطُّ إِلَّا تَمَثَّلَ لِي جِبْرَيْلُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَقُولُ لِي: قُلْ تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا. [السَّرِيعُ]

لِكُلِّ أَمْرٍ فَرْجٌ عَاجِلٌ      يَأْتِيكَ فِي الصُّبْحِ وَ[فِي] الْمَمْسَى  
لَا تَنْهَيْهِمْ رَبَّكَ فِيمَا قَضَى      وَهَوْنِ الْأَمْرِ وَطِيبِ نَفْسًا

فَكَانَتْ مِنْ أَلْفَافِ اللَّهِ الْأَكِيدَةِ عَاقِبَةُ تِلْكَ الْمَكِيدَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي

(1) ديوان أبي الفتح البستي، تحقيق شاعر العاشور، ط3، دمشق، 2011م، 147..

وأبو الفتح البستي: علي بن محمد بن الحسين البستي، شاعر عصره وكتابه، ولد في (بُست) قرب سجستان وإليه نسب، وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، وقدمه الأمير سبكتكين وابنه محمود، ثم أخرجه هذا إلى ما وراء النهر، فمات هناك غريباً في بلد (أوزجند) ببخارى سنة 400 هـ، وله ديوان شعر مطبوع بتحقيق الأستاذ شاعر العاشور.

بِرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِرِينَ<sup>(1)</sup> وَتَمَثَّلْتُ بِبَيْتِ فَارِسِيِّ قُلْتُ  
فِي مَعْنَاهُ: [الكامل]

مَارَامَ حَاسِدُهُ سَوَى لظَلَامِهِ      وَسَقَامِهِ كَيْدًا فَخَابَ مَرَامُهُ  
قَدْ رَدَّ عَنْهُ اللَّهُ كَيْدَ حَسَوْدِهِ      فَأَنَارَ مُظْلَمَهُ وَصَحَّ سَقَامُهُ

قَالَ ثُمَّ أَفَكَّرْتُ فِي أَمْرِي وَأَجَلْتُ فِيهِ فِكْرِي، وَمَا رَأَيْتُ لِحَسْبِي سَبَبًا وَلَا لَاعِثْقَالِي مُوْجِبًا،  
إِلَّا أَنَّ الْقَوْمَ مَا أَرَادُوا حُضُورِي بِالْبَابِ، وَحَسَدُونِي عَلَى مَا يُحْسَدُ عَلَيْهِ ذُوو الْأَلْبَابِ، فَقُلْتُ  
لَا كِرَامَةَ لِلثَّامِ وَلَا مَلَامَةَ عَلَى الْكِرَامِ، وَكَانَ جَوَابُ مَنْ قَصَّدَنِي قَوْلَ ابْنِ عَائِشَةَ<sup>(2)</sup>: [الخفيف]

أَنْتَ كَلْبٌ وَإِنْ نَبَحْتَ اخْتِيَالًا      وَبِإِحْسَاءٍ كَمَا يُجَابُ الْكَلَابُ  
وَلَوْ أَنِّي أَعُدُّ قَوْلَكَ شَيْئًا      لَمْ تَعْدْ لِي وَبَيْنَ فَكَيْكَ نَابُ

قَالَ: وَكُنْتُ رَجُلًا مُتَّحِبًّا إِلَى النَّاسِ مُتَّاسًا بِالْأَحْبَابِ، مُتَّسِبًّا إِلَى الْمَوَدَّاتِ بِتَوْفِيرِ مَوَادِّ  
الْأَسْبَابِ، وَكُنْتُ قُرْبِيًّا مِنَ السُّلْطَانِ مُتَّسِلًا عَلَى قُرْبِهِ، مَحْبُورًا بِاخْتِصَاصِهِ حَظِيصًا بِحَبِّهِ، مَا  
اخْتَنْتُ مَالًا وَلَا مِلْتُ إِلَى خَنَاءٍ، وَلَا حَسَنْتُ لَهُ قِيحًا وَلَا قَبِحْتُ حَسَنًا، وَلَا حَالَفْتُ مُخَالَفًا  
وَلَا خَالَفْتُ لَهُ مُحَالَفًا، وَلَا سَعَيْتُ فِي إِرَاقَةِ دَمٍ، وَلَا قَصَّدْتُ أَدْيَةَ مُسْلِمٍ، وَلَا أَفْشَيْتُ سِرًّا وَلَا  
هَتَكْتُ سِتْرًا، وَلَا اسْتَبَحْتُ مُحَرَّمًا، وَلَا ارْتَكَبْتُ مَأْتَمًا، وَمَا عَقَلْنِي إِلَّا عَقْلِي، وَلَا نَقَصْنِي إِلَّا  
فَضْلِي، وَمَا أَقَعَدْنِي إِلَّا نُهْوَضِي، وَمَا أَثَّرَ الشَّرَّ عَلَيَّ إِلَّا رُبُوضِي، وَمَا أَرَعَجَّنِي إِلَّا سُكُونِي،  
وَمَا أَخْرَجْنِي إِلَّا تَقَدُّمَ دَوَانِ دُونِي، وَمَا أَعَجَزْتَنِي إِلَّا قُدْرَتِي، وَمَا أَعْضَعْتَنِي إِلَّا قُوَّتِي، وَمَا قَيْدْتَنِي  
إِلَّا طَلَاقِي، وَمَا أَسْكَرْتَنِي إِلَّا إِفَاقِي، وَمَا زَيْفَ نَقْدِي إِلَّا صَيَارْفِي، وَمَا أَنْكَرْتَنِي إِلَّا مَعَارْفِي،  
وَمَا قَصَّدْتَنِي إِلَّا حَاسِدِي، وَمَا حَسَدْتَنِي إِلَّا قَاصِدِي، فَلَمْ أَرِ إِلَّا الصَّبْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْشِفُ  
الضَّرَّ، كَمَا قِيلَ: [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

أَصْبُرُ عَلَى مَضْضِ الْحَسَوِّ [م]      دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ  
كَالنَّارِ تَأْكُلُ نَفْسَهَا      إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وَأَشَدُّ نَظْمًا فَارِسِيًّا لِأَبِي الْمَعَالِي النَّخَاسِ عَرَبِيٌّ مَعْنَاهُ وَقُلْتُ: [مَجْزُوءُ الْوَافِرِ]

(1) سورة الانبياء، آية 69

(2) ابن عائشة: هو عبدالرحمن بن عبيدالله بن محمد بن حفص التيمي، المعروف بابن عائشة، شاعر متأدب من أهل  
البصرة قصد بغداد واتصل بالفاضل أحمد بن أبي دواد فمدحه فلم يعطه ما يرضيه فهجاه، توفي سنة 227 هـ.

يَقُولُ النَّاسُ لِمَ تُنْفِ— [م] رَدُّ بِالْقَضْدِ وَلِسْمِ تَظْلَمِ  
 قُلْتُ الشَّجَرُ الْمُنْ— [م] مِرُّ قَدْ يُرْمَى وَقَدْ يُرْجَمُ  
 قَالَ: وَخَلْتُ أَنْ فِي النَّاسِ ذَا خَلَّةٍ شَدِيدَةٍ لِسَدِّ الْخَلَّةِ، وَمَنْ لَهُ عَقْلٌ يَنْشُطُ لِنَشْطِ الْعُقْلَةِ،  
 وَمَنْ لَهُ إِنْسَانِيَّةٌ لَا أَنْسَانِيَّةَ، أَوْ هِمَّةٌ عُلُويَّةٌ وَأَبْيَّةٌ دِينِيَّةٌ لَا يَرْضَى لِلْمَاجِدِ دِينَهُ، وَقَدْ بَقِيَ كَرِيمٌ  
 يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيُحَقِّقُ الْعِرْفَ، وَيُسَعْفُ بِالرَّفْعِ وَيَرْفَعُ الْعَسْفَ، وَيَدْفَعُ الضَّرَّ وَيَجْلِبُ النَّفْعَ،  
 وَمَنْ إِذَا عَرَفَ خَرَقًا قَصَدَ الرَّقْعَ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ فِي نَفْعِي صَرَرٌ، وَلَا فِي أَمْنِي حَدَرٌ، فَقَدْ  
 كُنْتُ لَهُمْ مُذْ كُنْتُ سَفِيرًا بِالْبَابِ ظَهِيرًا فِي الْأَرَابِ لِلْأَصْحَابِ، وَكُنْتُ كَمَا قِيلَ: [مَجْزُوءِ  
 الْكَامِلِ]

إِقْضِ الْحَوَائِجَ مَا اسْتَطَع— [م] سَتَ فَكُنْ لَهُمْ أَحْيَاكَ فَارِجَ  
 فَلَحْخِيرُ أَيَّامِ الْفَتَى يَوْمٌ قَضَى فِيهِ الْحَوَائِجَ  
 وَمَا كَانَ فِي الْقَوْمِ إِلَّا خَائِفٌ أَوْ حَالِفٌ أَوْ جَائِفٌ أَوْ عَنِ الْمُسَاعِدِ وَاقِفٌ، وَكُلُّهُمْ يَطْلُبُ  
 رِضَا صَاحِبِهِ وَيُرَاقِبُ غَرَضَ مُقَارِبِهِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ وَاللَّهِ لَا أُكْرِمُ أَحَدًا بِإِهَانَةِ نَفْسِي، وَقَالَ  
 رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ. وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ  
 مَثَلُ الَّذِي تَرَى لَهُ، وَعَرَبِيَّتُ مَعْنَى كَلَامِ ذِكْرِهِ نَثْرًا فَنَظَمْتُهُ وَقُلْتُ: [السَّرِيعِ]

لَأُبَدِّلَ لِمَاقِلٍ مِنْ وَكْسَةٍ فِي السَّرَائِي إِنْ صَاحَبَهُ الْغَمْرُ  
 كَالذَّهَبِ الْخَالِصِ إِبْرِيزُهُ يُوكَسُ إِنْ خَالَطَهُ الضُّفْرُ  
 وَقُلْتُ: [الْكَامِلِ]

إِنَّ الْكَرِيمَ وَإِنْ تَعَالَى أَمْرُهُ مِنْ صُحْبَةِ اللُّؤْمَاءِ يَنْزَلُ قَدْرُهُ  
 مِثْلُ النُّظَارِ وَإِنْ صَفَا إِبْرِيزُهُ مِنْ صُحْبَةِ الْأَخْلَاطِ يُوكَسُ تَبْرُهُ  
 وَقُلْتُ: [السَّرِيعِ]

إِنَّ تَفْيِيسَ الْقَدْرِ مَاخَالِطُ الد— [م] أَرَدَلَّ إِلَّا غَضَّ مِنْ نَفْسِهِ  
 مَا يُوكَسُ الدِّينَارُ إِلَّا إِذَا خَالَطَهُ مَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ  
 قَالَ وَلَأَيُّ هَفَّانٍ<sup>(1)</sup>: [مَجْزُوءِ الرَّمْلِ]

(1) أبو هفان: هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي، راوية عالم بالشعر والادب ومن الشعراء، من أهل البصرة، سكن

سَ بِجَاهٍ وَيِمَالٍ  
ثُكَّ إِلَّا مِنْ حَلَالٍ

وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسُرُّكَ فَعَلُهُ  
فَأَدَّبَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ  
وَحَصَلَ الْمَعْرِفَةُ بِأَحْوَالِ النَّاسِ بِالتَّجْرِبَةِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا تَنَالُ الْمَرْتَبَةَ بِالْمَتَقَبَّةِ، وَأَنْشَدَ:

وَإِنْ ظَنَنْتَ بِهِمْ خَيْرًا وَإِنْ طَرَفُوا  
فِي النِّجَاهِ وَالْأَمَالِ حَاجَاتٍ فَيَنْكَشِفُوا

فَلَوْ قَدِمَاتَ كَانَ أَقْلٌ نَفْعَا

إِلَّا لِمَنْ صَحِبُوا يَرْضَوْنَ بِالذُّوْنِ  
وَقَرُبُكُمْ آفَةُ الدُّنْيَا مَعَ الدِّينِ

فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مَعَارِفٌ  
إِلَّا التَّمَلَّقَ وَالتَّوَاصَّفَ  
فِي النَّسَائِرِ وَالتَّنَوَّافِ  
لِلْجَمِيعِ وَلَا تُكَاشِفُ  
وَاطْوِ كُنُحَ قَيْسٍ مُخَالِفِ  
إِنَّهُمْ قَوْمٌ صَيَارِفِ  
فَالْقَوْمُ زَيُّوفٌ وَزَائِفِ

أَمْ مَنْ لَا يَنْفَعُ النَّاسَ [م]  
تُحِبُّهُ لَا يُمْنَعُ النَّاسَ [م]

آخر: [الطويل]

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَّى يَسُرُّكَ قَوْلُهُ  
فَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبِي

وَحَصَلَ الْمَعْرِفَةُ بِأَحْوَالِ النَّاسِ بِالتَّجْرِبَةِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا تَنَالُ الْمَرْتَبَةَ بِالْمَتَقَبَّةِ، وَأَنْشَدَ:

لَا تَعْرِفُ النَّاسَ أَعْلَاهُمْ وَأَسْفَلَهُمْ  
حَتَّى تُكَلِّفَهُمْ عِنْدَ امْتِحَانِهِمْ

وَإِنْ شَدَّ لِأَخْرَجِ: [الوافر]  
إِذَا مَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْفَعَكَ حَيًّا

وَلِأَخْرَجِ: [البيسط]  
قُلْ لِلَّذِينَ صَحَبْنَاهُمْ قَلِمَ نَرَهُمْ  
سَلَامَةً الدِّينِ وَالدُّنْيَا قَرَأْتُمْ

وَمَا أَصْدَقَ قَوْلَ الْقَائِلِ: [مَجْزُوءَ الْكَامِلِ]  
ذَمُّ التَّوَاصُلِ وَالتَّعَاظِفِ

لَمْ يَبْقَ فِيمَا بَيْنَهُمْ  
وَعِنَاقُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

لَا تَنْقَدَنَّ عَلَى الْمَمُودَةِ  
وَابْسِطْ لَهُمْ وَجْهَ الْمُوَافِقِ

صَارَفْتُهُمْ عِنْدَ الْمَمُودَةِ  
إِنِّي انْتَقَدْتُ خِيَارَهُمْ

بغداد وأخذ عن الأصمعي وغيره، وكان منهتكاً فقيراً يلبس ما لا يكاد يستر جسده، له عدد من الكتب في الشعر وصناعته وأخبار الشعراء، توفي سنة 257 هـ.

آخر: [المجث]

جُئِلَ الْأَنْسَامُ كِلَابٌ هَرَوَا بِكِلِّ طَرِيقٍ  
فَإِنْ ظَفَّرْتَ بِحُرٍّ فَاحْفَظْهُ فَهُوَ سُلوْقِي

وَلَعَبِيدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ الْمَغْرِبِيِّ: [السريع]

يَا ذَا الَّذِي يَطْلُبُ مِنْ جَهْلِهِ شَيْئاً بَعِيداً مَا إِلَيْهِ طَرِيقُ  
صَدَائِقَةِ النَّاسِ عَلَيَّ مَا أَرَى إِسْمٌ بِلَا مَعْنَى وَأَيُّنَ الصَّدِيقِ

قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ عَزَلْتُ هَؤُلَاءِ عَنْ حَاجَتِي وَأَنْزَلْتُهَا بِكَ، وَقَالَ بَشَارٌ: لَقَدْ عِشْتُ فِي زَمَانٍ وَأَدْرَكْتُ أَقْوَاماً لَوْ احْتَقَلْتُ فِي الدُّنْيَا مَا تَجَمَّلْتُ إِلَّا بِهِمْ، وَإِنِّي لَفِي زَمَانٍ مَا أَرَى عَاقِلاً حَصِيْفاً وَلَا فَاتِكاً ظَرِيفاً، وَلَا نَاسِكاً عَفِيفاً وَلَا جَوَاداً شَرِيفاً، وَلَا خَادِماً نَظِيفاً وَلَا جَلِيساً خَفِيفاً وَلَا مَحْبُوباً ظَرِيفاً، وَلَا مَنْ يُسَاوِي مِنَ الْخُبْزِ رَغِيفاً، قَالَ: فَعَصَمَنِي اللَّهُ بِفَضْلِهِ مِنْ مِتَّةِ الْأَصْدِقَاءِ، وَلَكُمْ قَوْمٌ أَوْدُ الْأَوْدَاءِ.

قِيلَ سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ): لِمَ أَوْتَمَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَبِيهِ؟ فَقَالَ: لِثَلَا يُوجِبَ عَلَيْهِ حَقٌّ لِمَخْلُوقٍ.

وَلِزَيْدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ): [الخفيف]

إِنْ يَكُنْ نَالِكَ الزَّمَانِ بَبْلَوِي عَظُمَتْ شِدَّةُ لَدَيْكَ وَجَلَّتْ  
وَأَنْتَ بَعْدَهَا نَوَازِلُ أُخْرَى سُمِّمَتْ دُونَهَا الْحَيَاةُ وَمُلَّتْ  
فَاصْطَبِرْ وَأَنْتَظِرْ بُلُوغَ مَدَاهَا فَالرَّزَايَا إِذَا تَوَالَتْ تَوَالَتْ  
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): مَنْ بَدَأَ وَعَاتَدَنِي فَاقْتَصَّ مِنْهُ فَلَا قَوْدَ لَهُ. وَقِيلَ:

[السريع]

مَنْ أَسْرَعَ الرَّمْحَ إِلَى نَحْرِهِ لِابِدِّ أَنْ يَقْلِبَ ظَهَرَ الْمِجَنِّ

قَالَ: عُدْنَا إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْوَزِيرِ شَمْسِ الْمَلِكِ بْنِ نِزَارِ الْوَزِيرِ بْنِ الْوَزِيرِ [مَجْزُوءِ

[الكامل]

كُلِّ لِمَنْبِرِ أَبِي الصَّرَدِ مَا فِي قَمِيصِكَ مِنْ أَحَدٍ

عَادَ الْمَلِكُ بِهِ إِلَى أَدْنَى اسْتِقَامَةٍ، وَوَجَدَ إِلَى كِفَايَتِهِ أَيْسَرَ اسْتِنَامَةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَطِوَ بِسَاطِ الظُّلْمِ

وَالْمُصَادَرَةَ، وَلَمْ يَقْبِضْ عَنِ التَّعَدِّي الْأَيْدِي الْمُتَجَرِّئَةَ عَلَى الْمُبَادَرَةِ، وَكَانَ إِلَى النَّاسِ مُبْغِضاً  
وَلِمَقْتِهِمْ مُتَعَرِّضاً. [مَجْزُوءِ الرَّمْلِ]

كُلْتُ يَوْمًا لِأَبِي الْعَبِّ [م]      بِبَاسِ فَضْلِ بْنِ الْبَيْرِزِيِّ  
وَهُوَ إِنْسَانٌ صَاحِحُ الْم [م]      سَقَلِ ذُو رَأْيٍ سَدِيدِ  
سَمَّ لِي أَبْفَضَ مَنْ يَم [م]      شَيْ عَلَى وَجْهِ الصَّعِيدِ  
قَالَ وَهَبُ بْنُ سُلَيْبٍ [م]      مَانَ بْنِ وَهَبِ بْنِ سَعِيدِ

فَلَمْ يَكْفِ ذَلِكَ حَتَّى اسْتَنَابَ عَنْهُ بَغِيضاً، وَاسْتَطَبَّ لِمَرَضِهِ مَرِيضاً، وَهُوَ الْكَامِلُ بْنُ  
الْكَافِي الْأَصْفَهَانِيِّ، الَّذِي مَضَى ذِكْرُ مَخَازِيهِ فِي وَزَارَةِ الْخَطِيرِ، وَوُصِفَ بِالشُّؤْمِ وَالشَّرِّ فِي  
الْإِدْبَارِ وَالتَّدْبِيرِ، وَهَذَا الْكَامِلُ مَا نَابَ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا وَنَابَهُ خَطْبُ مُبِيرٍ وَدَهَمَهُ مُلِمٌ كَبِيرٌ، كَمَا قَالَ  
الْبُحْتَرِيُّ<sup>(1)</sup> فِي سَعْدِ حَاجِبِ عَبْدِ اللَّهِ: [الْكَامِلِ]

يَا سَعْدُ إِنَّكَ قَدْ خَدَمْتَ ثَلَاثَةً      كُئِلَ عَلَيْهِ مِنْكَ وَسَمٌ لِأَيْحُ  
وَأَرَاكَ تَخْدُمُ رَابِعاً لِتُبَيْرَهُ      فَارْفُقْ بِهِ فَالْشَّيْخُ شَيْخُ صَالِحُ  
يَا حَاجِبَ الْوُزَرَاءِ إِنَّكَ عِنْدَهُمْ      سَعْدٌ وَلَكِنْ أَنْتَ سَعْدُ الذَّابِحُ

وَكَانَ هَذَا الْكَامِلُ نَاقِصاً، فِي اللُّؤْمِ مُقَدِّمًا وَفِي الْكِرَمِ نَاقِصاً، ذَا شَرٍّ وَأَشْرٍ وَطَرِبٍ وَبَطَرٍ  
وَبِطْنَةٍ، وَبَاطِنٍ وَسَعَةٍ فِي سَعْيِ مُخَاطَبِ بِيضِيقِ مَعَاظِنِ، مَا نُكِبَ فِي الْعَصْرِ أَحَدًا إِلَّا وَكَانَتْ  
لَهُ فِي نَكْبَتِهِ يَدٌ، وَلَا خَفِيٍّ لِلْعَدْلِ جَدِّدٌ إِلَّا وَقَدْ تَوَالَى إِلَيْهِ مِنْ ظُلُمَاتِ ظَلْمِهِ مَدَدٌ، وَلَمَّا قُتِلَ  
الرَّئِيسُ حَسَنُ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ الْفَضْلِ بْنِ مَحْمُودٍ مُقَدِّمُ أَصْفَهَانَ فِي وَزَارَةِ الْخَطِيرِ تَحْتَ  
الْمُصَادَرَةِ، وَكَانَ شَمْسُ الْمَلِكِ يُسَلِّمُهُ إِلَى دَارِهِ، وَأَخَذَ حَظَّهُ بِمَا قَاطَعَ عَلَيْهِ مِنْ قَرَارِهِ، وَهُوَ  
ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَقَتْلُهُ فِي بَيْتِهِ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، وَكَانَ هَذَا الْكَامِلُ حَيْثُ نَائِبُ  
الْخَطِيرِ فَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى شَمْسِ الْمَلِكِ وَأَنَارَ عَلَيْهِ وَرَثَةَ الرَّئِيسِ لِطَلَبِ الثَّارِ وَأَخَذَ حَظَّهُمْ عَلَى  
شَرِطِ اسْتِيفَاءِ الْقِصَاصِ بِالتَّزَامِ ذَلِكَ الْقَرَارِ، وَعَرَضَهُ الْخَطِيرُ عَلَى السُّلْطَانِ فَأَمَضَاهُ، وَعَمَلَ  
الْوَزِيرُ الْخَطِيرُ بِمُقْتَضَاهُ، فَحَبَسَ شَمْسَ الْمَلِكِ عَلَى الْقِصَاصِ، وَالزَّمَ الْوَرَثَةَ الْمَالَ وَشَرَعَ

(1) الْبُحْتَرِيُّ: هُوَ أَبُو عُبَادَةَ، الْوَلِيدُ بْنُ عُيَيْدِ بْنِ بَحَّيْحِ الطَّائِي، شَاعِرٌ كَبِيرٌ، يَوْصَفُ شِعْرَهُ بِسِلْسَلِ الذَّهَبِ، لِحْسَنِ  
صَنْعَتِهِ وَتَنَاسُقِهِ وَرِقَّتِهِ، وَلِدَ بِبَنْجِيقِ بَيْنَ حَلَبَ وَالْفِرَاتِ سَنَةَ 206 هـ، وَارْتَحَلَ إِلَى الْعِرَاقِ وَانْصَلَّ بِعَدَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ  
أَوْلَهُمُ الْمُتَوَكِّلُ ثُمَّ عَادَ إِلَى الشَّامِ وَتَوَفَّى بِبَنْجِيقِ سَنَةَ 284 هـ، لَهُ دِيْوَانُ الْبُحْتَرِيِّ وَ: كِتَابُ الْحِمَاةِ.

الكامل في الاستخلاص، وَابْتَسَمَ الْمَلِكُ فِي السَّجِنِ بِضَعِ سِنِينَ، وَلَقِيَ بِسَعْيِ الْكَامِلِ الْهُوَانَ الْمُهَيْنِ.

وَكَانَتْ لِلْكَامِلِ أَيْضاً سَيِّئَةٌ أُخْرَى عِنْدَ أَوْلَادِ النِّظَامِ، مُؤَذِيَةٌ لَهُمْ عِنْدَهُمْ بِوَصْفِ الْإِنْتِقَامِ، وَهِيَ أَنَّ نِظَامَ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ نِظَامِ الْمَلِكِ لَمَّا عَزَلَ عَنِ الْوِزَارَةِ بِالْخَطِيرِ شَمَّرَ لَهُ الْكَامِلُ فِي أَدْنِيَةِ غَايَةِ التَّشْمِيرِ، وَسَلَّمَهُ إِلَى الْأَمِيرِ عَلَاءِ الدَّوْلَةِ حَتَّى اسْتَصَفَى حَالَهُ وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ مَالَهُ، فَلَمَّا تَوَلَّى شَمْسُ الْمَلِكِ الْوِزَارَةَ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ لَمْ يَشْكُ أَحَدٌ فِي أَنَّهُ يُؤَاخِذُ الْكَامِلَ بِتِلْكَ الْحَوِيَّةِ، وَأَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ بِأُضْغَانِهِ وَيُكَافِئَهُ عَنِ هَوَانِهِ بِهَوَانِهِ، فَخَدَعَ الْوَزِيرَ بِأَنْ كَتَبَ لَهُ خَطَّهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ فَاسْتَبَدَلَ بِذَلِكَ الْوَعْدِ جَنَّةً مِنْ نَارٍ، وَصَارَتْ سَيِّئَاتُهُ حَسَنَاتٍ وَمَضْرَأَتُهُ مَبْرَاتٍ، وَلَمَّا عَنَّ لِرِضَاهُ رِضِيَ عَنْهُ وَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْوَعْدِ بِمَا طَلَبَ مِنْهُ فَاسْتَدْعَاهُ وَاسْتَنْابَهُ وَاسْتَعْدَى عَلَى الظُّلْمِ مِخْلَبُهُ وَنَابَهُ، وَأَحَبَّهُ وَحَبَاهُ وَأَرْهَفَ شِبَاهَهُ، وَدَارَتْ أَرْحَاءُ النُّجُورِ بِحَجْرِهَا، وَاحْتَرَقَتْ الدَّوْلَةُ وَالِدَيْنِ بِشَرِّرِيهِمَا، وَصَارَتْ لَهُمَا بِالسَّلْبِ أَسَالِيبُ وَجَرَتْ مِنْهُمَا فِي الْعَجَبِ أَعَاجِيبُ، وَعَادَتْ تِلْكَ الْحُقُودُ حُقُوقاً، وَتَبَدَّلَ وَثَاقُهُ مِنْهُ بِهِ وَثُوقاً، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَدَّمْتَهُ إِلَى الْوَزِيرِ إِسَاءَاتِهِ، وَجَلَبَتْ لَهُ الْمَنَافِعَ مَضْرَأَتُهُ، وَهَدَتْهُ إِلَى الْوِلَايَاتِ ضَلَالَاتِهِ، وَبَلَّغَتْهُ إِلَى الْغَايَاتِ غَايَاتِهِ، وَأَوْرَدَتْ لِأَبِي الْمَعَالِي النَّخَاسِ نِظْمًا فَارْسِيًّا فِي رَيْسِ جُرْجَانَ يَقُولُ إِنَّهُ مَا اصْطَنَعَ إِلَّا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا حَنَّ وَالِدَهُ وَالْآخَرُ كَانَ مُتَّهَمًا بِوَالِدِيَّةٍ، فَعَرَّبْتُ الْمَعْنَى وَقُلْتُ: [المُخْفِيفُ]

فِي حِجَاهُ وَفِي نُهَاهُ وَفَهِمَهُ  
مِنْ لِكُلِّ ضَنْعٍ قَبِيحٍ بِعِلْمِهِ  
وَالَّذِي سَدَّ بَابَ رُوحِ أَبِيهِ

إِنَّ هَذَا الرَّئِيسَ وَهُوَ سَدِيدٌ  
خَصَّ حُسْنَ الصَّنِيعِ مِنْهُ لِشَخْصِيَّةِ [م]  
بِالَّذِي سَدَّ بَابَ رُوحِ أَبِيهِ

وقال: [الكامل]

أَوْ كُنْتَ تَطْلُبُ حَمْدَهُ فَبِذَمِّهِ  
نَاكِي أَبِيهِ ثُمَّ نَائِكِ أُمِّهِ

إِنْ رُمْتَ أَنْ أَرْضَى فِحَاوَلِ سُخْطَهُ  
مِنْ سُوءِهِ لَمْ يَنْجُ فِي الدُّنْيَا سِوَى  
وَسَأَلْتُ الْمَعْنَى وَقُلْتُ: [الكامل]

بِحَيَاتِهِ وَبِحُبِّهِ وَفَوَائِدِهِ  
وَالْقَاطِعِي نَفْسِ الْحَيَاةِ لِوَالِدِهِ

قَدْ خَصَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ دُونِ الْوَرَى  
الْوَاصِلِي رِحْمَ السَّفَاحِ لِأُمِّهِ

وَأَعَدْتُ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ فِي وَزْنٍ آخَرَ وَقُلْتُ: [السريع]

مَأْخَصٌ بِالرُّؤْدُ سَوَى مُسْلَفِي      سُوءٌ إِلَى أَصْلَانِيهِ فِي رُغْمِهِ  
مَنْ سَدَّ أَنْفَاسَ أَبِيهِ وَمَنْ      حَلَّ السَّرَاوِيلَ عَلَى أُمِّهِ

وَأَخَذْتُ الْمَعْنَى فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ وَقُلْتُ: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

بِئْسَتْ مَنْ خَيْرَهُ لَأْتِي      عَرَفْتُ فِي الْجُودِ مِنْهُ رُسْمَهُ  
قَدْ خَصَّ إِحْسَانَهُ بِشَخْصٍ      نَفْسِي أَبَاهُ وَنَاكَ أُمَّهُ

وَأَضْرَبَ أَنْوَشِرَوَانُ عَنْ إِيْرَادِ تَمَامِ الْأَبْيَاتِ الْفَارْسِيَةِ وَعَنْ إِشَاعَتِهَا لِإِسَاعَتِهَا وَعَنْ بِيْضَاعَةِ  
بِيْضَاعَتِهَا، وَأَنْشَدَ: [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

إِنَّ الَّذِي يَرْضَى بِمَنْ [م]      قِصَّةٌ بِمَنْ قِصَّةٌ حَقِيقٌ  
فَلَمَّا تَصَدَّرَ الْكَامِلُ فِي النِّيَابَةِ لِبَسِّ وَجْهًا وَقَاحًا وَأَظْهَرَ أَخْلَاقًا قِيَاحًا، وَهَدَّدَ النَّاسَ وَهَدَّ  
الْأَسَاسَ، وَعَدَا وَأَوْعَدَ وَأَبْرَقَ وَأَرَعَدَ.

قِيلَ لِأَرْسَطُو طَالِيْسٍ: أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: مَنْ لَا يُبَالِي أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مُسِيئًا. قَبْدًا بِالْأَوَّلِ  
بِأَخِيذٍ مُخْلِيفِي الْوَزِيرِ الْمَقْتُولِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَغْلَالَ دَوِي الْعُلُولِ، وَكَانَتْ خَزَائِنُهُ مِنْ قَبْلِ قَدْ  
نُهَيْتَ وَذَخَائِرُهُ قَدْ ذَهَبَتْ، وَهُمْ فِي سَوَاقِ الْأَحْزَانِ يَرِجُونَ عَوَاطِفَ السُّلْطَانِ فَلَمْ يَرْضَ لَهُمْ  
بِالْعُدْمِ وَيَمَا أَسْلَفُوهُ مِنَ الْعَزْمِ حَتَّى سَجَنَهُمْ، وَضَاعَفَ عَلَيْهِمْ مِحْنَهُمْ، وَأَضْعَفَ مِنْتَهُمْ وَعَرَقَ  
عِظَامَهُمْ وَفَرَّقَ نِظَامَهُمْ، وَسَامَهُمْ خُطَّةَ الْخُسْفِ، وَوَسَمَهُمْ بِخَطْبِ الْعُسْفِ، ثُمَّ أَمَرَ بِاسْتِعَادَةِ  
الرُّسُومِ وَالْإِدْرَارَاتِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَطْعِ الصَّلَاتِ حَتَّى كَتَبَ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ بِاسْتِرْجَاعِ  
مَا أَخَذَهُ أَرْبَابُ الصَّدَقَاتِ لِسِنِينَ، وَمَنْ كَانَ أَخَذَ عَرَضًا بِإِدْرَارِهِ أَلْزِمَ بِرَدِّ الْعَيْنِ، فَوَكَّلُوا فِي كُلِّ  
بَلَدٍ بِالْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَافِ، وَأَخَذُوا دَوِي الْاسْتِحْقَاقِ بِأَذَى الْاسْتِخْفَافِ، وَسَلَطُوا أَقْوِيَاءَ الشَّرْطِ  
عَلَى الضُّعَافِ، وَخَطَبُوا خُطْبَ الْخُطْبَاءِ وَدَابَّ الْأَدْبَاءِ، وَأَفْسَدُوا قُلُوبَ الصُّلَحَاءِ وَاسْتَنْطَقُوا  
بِالذَّمِّ أَلْسِنَةَ الْفُضَحَاءِ، وَقَبَّحُوا عَلَى الْمُتَجَمِّلِينَ، وَوَكَّلُوا بِالْمُتَوَكِّلِينَ، وَهَتَكُوا حُرْمَةَ  
الْمُتَصَوِّفِينَ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَأَرَأَقُوا مَاءَ وَجْهِهِ الْمُتَتَرِّهِينَ الْمُتَعَفِّفِينَ، فَفَقِرَتْ طَيُورُ الدَّعَاوَاتِ  
عَلَيْهِمْ مِنْ مَصَاعِدِ الْقَبُولِ إِلَى أَوْكَارِهَا، وَأَحْرَقَ حَرَّ أَنْفَاسِ الْمُكْرُوبِينَ بَرْدَ أَسْحَارِهَا، وَبَلِيَّ  
أَرْبَابِ الْجِرَايَاتِ بِالْأَيْدِي الْجَائِرَةِ، وَحَصَلَ أَصْحَابُ الرُّسُومِ الدَّارَةَ فِي سُوءِ الدَّائِرَةِ.

كَانَ قَدْ عَزَمَ السُّلْطَانُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَلَى الْغَزَاةِ وَالْجَمْعِ لِلْجِهَادِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ فَصَدَّقُوهُ وَصَدَّوهُ، وَرَدُّوهُ بِرَأْيِ آخَرٍ وَرَدُّوهُ، وَعَزَمُوا عَلَى عَزْمِهِ الصَّالِحِ فَأَفْسَدُوهُ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ كِتَابًا وَصَلَّ إِلَيْهِمْ مِنْ بَعْضِ أُمَرَاءِ بِلَادِ شُرَوَانَ إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَصْتُ لَكُمْ الْمَمْلَكَةَ الشُّرَوَانِيَّةَ، وَأَهْلُهَا يَنْتَظِرُونَ الرَّايَةَ السُّلْطَانِيَّةَ، وَإِنَّ الْمَلِكَ شُرَوَانَشَاهَ مَحْضُورًا، وَإِنَّ الْفَرَجَ عَلَيْهِ مَحْضُورًا، فَإِنْ أَرَدْتُمْ تَمَلُّكَ الْخَزَائِنِ وَاسْتِخْرَاجِ الدَّفَائِنِ وَالْاِسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَمَالِكِ الْمَوْفُورَةِ وَالْكَنُوزِ الْمَذْخُورَةِ فَاصْرِفُوا إِلَيْهَا الْأَعِينَةَ وَأَشْرَعُوا نَحْوَهَا الْأَيْسَنَةَ، فَتَنُوا عَزَمَ السُّلْطَانِ إِلَى قَصْدِ بِلَادِ شُرَوَانَ، فَسَارَ سَافِرَ الْوَجْهِ وَعَبَّرَ السُّلْطَانُ بِعَسَاكِرِهِ وَادِي الْكُرِّ، وَحَمَلَ الطَّبِيعُ عَلَى اسْتِحْلَاءِ الْمُرِّ، وَظَنَّ بِشُرَوَانَ الشَّرَّ وَانِيًا وَالْخَيْرَ دَانِيًا، وَالْحِلْفَ زَانِلًا وَالْخُلْفَ حَافِلًا، فَلَمَّا وَصَلَ وَجَدَ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ، وَعَدِمَ الْاِخْتِلَافُ حِفْلَ الْبَلَدِ حُفُولَ أَحْلَافِهِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ شُرَوَانَشَاهَ مُقْبِلًا بِأَسْلِهِ أَمِلًا لِأَقْبَالِهِ، مَائِلًا لِطَاعَتِهِ مُطِيعًا لِمِثَالِهِ، عَارِضًا لِحَمِيدِهِ ضَارِعًا بِخَدِّهِ سَاعِيًا إِلَى بَابِهِ وَاعِيًا لِخِطَابِهِ، دَاعِيًا بِالصَّلَاحِ رَاعِيًا لِلْفَلَاحِ، رَاجِيًا أَنَّهُ قَدْ عَادَ عَيْدُهُ، وَأَنْ يَتَّخِذَ بَعْدَ الْعَطْلِ بِطُورِ الْإِنْعَامِ جِيدُهُ، فَإِنَّهُ كَانَ فَقِيرًا قَدْ قَنَعَ الرَّعِيَّةَ بِمُلْكِهِ، وَالْفُؤَادَ الْاِنْخِرَاطَ فِي سُلْكِهِ، لَا ذَخِيرَةَ لَهُ وَلَا مَالٍ وَلَا حِلِيَّةَ وَلَا حَالٍ، وَلَا حِيلَةَ وَلَا حَوْلَ وَلَا طَوْلَ وَلَا طَوْلَ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ السُّلْطَانَ يَلْقَاهُ بِالرَّفِيقِ وَالرَّفِيدِ، وَأَنَّهُ فَازَ مِنْهُ بِالْجِدِّ وَالْوَجْدِ، فَأَذِنَ أَمَلُهُ بِأَذَاهُ وَالْبُيُهِ، وَأَنْذَرَتْ صِحَّةَ اعْتِقَادِهِ بِسَقْمِهِ، فَحَيَّنَ وَطِيعَ الْبَسَاطَ طُويَ بَسَاطُهُ وَعَقَلَ نَشَاطُهُ، وَسُحِبَ وَحَيَسَ وَغَيَّنَ وَنَجَسَ، وَصَارَ فِيمَا ظَنَّهُ مَعْقَلًا مُعْتَقَلًا، وَأَصْبَحَ لَهُ مَوْتَلًا مِنْ أَمْسَى لَهُ مُوْتَلًا، وَانْتَظَرَ أَهْلَ الْبَلَدِ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَيْهِمْ مَلِكًا مُكَمَّلًا مُشْرَفًا مُجَمَّلًا، مَخْلُوعًا عَلَيْهِ لَا مَخْلُوعًا، مُرَاعِيًا بِالْحَيَاطَةِ لَا مُحْتَاطًا عَلَيْهِ مَرُوعًا، فَحَيَّنَ عَرَفُوا أَنَّ عَوْدَهُ قَدْ بَيَسَ، وَمِنْ عَوْدِهِ قَدْ بَيَسَ، وَأَنَّ سَجْنَةَ قَدْ حُمِّ، وَأَنَّ وَهَنَهُ قَدْ تَمَّ، وَأَنَّهُ مَا تَمَّ مِنْ احْتِرَازٍ مِنْ هَذَا الْمَأْتَمِّ، جَلَسُوا لِمَا تَمَّ فِي الْمَأْتَمِّ، وَكَثُرُوا الصَّرَاحَ وَالْبُكَاءَ وَالصَّيَاحَ وَالِدُّعَاءَ، وَأَثَارُوا الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ، وَخَرَّبُوا الْجَمَاعَ وَرَمَوْا مَنَارَتَهُ، وَسَعَثُوا الْبَلَدَ وَأَذْهَبُوا عِمَارَتَهُ، وَانْتَحَوْا لِصَاحِبِهِمْ فَمَا أَفَادَهُمُ الْاِنتِخَاءَ، وَانْقَطَعَتْ الْأَصْوَاءُ وَاتَّصَلَتْ الضُّوْضَاءُ، وَجَرَّتْ عِظَائِمُ يَأْتَفُ مِنْهَا الْعُظْمَاءُ، وَاجْتَرَحَتْ كِبَائِرُ يَأْبَاهَا الْكُبْرَاءُ، وَجَرَّ ذَلِكَ الْخَبْطُ خَبْطًا، لَمْ يَدَعْ يَابَسًا وَلَا رَطْبًا، وَطَمَعَ الْكِفَارُ الْمُثَاغِرُونَ فَأَغَارُوا، وَأَبَادُوا الْأَعْمَالَ وَأَبَارُوا، وَقَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلْفَيْنِ، وَخَرَجَ ذَلِكَ عَنِ الْحَدِّ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الدَّفْنِ، وَجَاوُوا وَنَزَلُوا قِبَالَ عَسْكَرِ السُّلْطَانِ فِي ثَلَاثِينَ أَلْفِ عِنَانٍ عَلَى فَرَسَخَيْنِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَدَارَكَ رَمَقَ الْإِسْلَامِ بِكِسْرِ أَوْلَئِكَ الْأَغْنَامِ، وَنَهَضَ السُّلْطَانُ مَحْمُودٌ إِلَيْهِمْ مَحْمُودًا، وَلَمْ

يَدْعُ فِي هَزِيمِهِمْ وَهَضْمِهِمْ مَجْهُوداً، وَعَادَ مَنْصُوراً مَسْعُوداً، وَلَوْلَا الْقَدْرُ الَّذِي قَدَّرَهُ وَالْجِدُّ مِنْ اللَّهِ الَّذِي أَنْجَدَهُ وَنَصَّرَهُ لَعَزَّ النَّاصِرُ وَمَا ذَلَّ الْكَافِرُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ نَاصِرٍ نَاصِرِهِ وَمُظْفَرٍ مُطِيعِ أَوْامِرِهِ، وَلَمَّا حُبِسَ الْمَلِكُ اخْتَلَّ نِظَامُ الْمَمْلَكَةِ وَغَاضَتِ مَنَابِعُ الْبَرَكَةِ، وَوَقَعَ الشَّرُوعُ فِي مُصَادِرَةِ الرَّعِيَّةِ، وَابْتَزَوْا كُسُوةَ الْكَاسِيَةِ مِنْهُمْ وَالْعَرِيَّةِ، فَلَمْ يَحْصِلُوا عَلَى طَائِلٍ، وَلَمْ يَظْفَرُوا فِي التَّطَاوُلِ بِحَاصِلٍ، وَكَانَتْ لِلْخِزَانَةِ السَّلْطَانِيَّةِ فِي كُلِّ سَنَةٍ عَلَى الْأَعْمَالِ الشَّرَوَانِيَّةِ مُقَاعَطَةٌ مَبْلُغُهَا أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ فَبَطَلَ حَقُّ تِلْكَ الْمَوَاضِعَةِ بِوَضْعِ الْبَاطِلِ، وَمُلِيَ ذَلِكَ الْمَلَأُ بِالْغَوَايِبِ وَالْغَوَائِلِ، وَطَالَ الْمَقَامُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ لِرِفْعِ الْبَلَاءِ وَرَفْعِ الْأَهْوَالِ، وَتَلَفِي مَا تَلَفَ مِنَ النُّفُوسِ وَالنَّفَائِسِ، وَإِحْيَاءِ مَا دَرَسَ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ، وَشَمَلِ الْمُسْلِمِينَ شَوْمُ ابْنِ الْكَافِي الْكَامِلِ النَّاقِصِ وَكَانَ بَرَأْيِهِ تَمَامُ هَذِهِ الْمَنَاجِسِ، وَكَانَ هَذَا الْقَرَارُ عَلَى شِرْوَانَ مِنْ عَهْدِ السَّلْطَانِ مَلِكِشَاهِ بْنِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ فَإِنَّهُ لَمَّا عَبَّرَ عَلَى أَرَانَ وَصَلَ إِلَى خِدْمَتِهِ الْمَلِكُ فَرَيْرِزَا صَاحِبُ شِرْوَانَ، وَكَانَ مَلِكاً كَبِيراً ذَا دِهَائٍ وَغِنَى وَغَنَاءٍ وَشَهَامَةٍ وَمَضَاءٍ، وَقَالَ مَدُودٍ وَعَسْكَرٍ غَيْرِ مَعْدُودٍ، وَامْتَنَعَ فِي مُبْتَدَأِ الْأَمْرِ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْخِدْمَةِ وَالْمُتَوَلِّ بِالْحَضْرَةِ، فَتَزَلَّ جَلَالُ الدَّوْلَةِ مَلِكِشَاهِ بْنِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ عَلَى ثَلَاثِينَ فَرَسَخاً مِنْ بِلَادِهِ وَسَيَّرَ إِلَيْهَا سَرَهَنَكَ سَاوَتَكِينَ أَمِيرَ الْعَسْكَرِ الْمُظْفَرَ فَضَبَّقَ عَلَيْهِ الْعُرْصَةَ وَجَرَّعَهُ الْغُصَّةَ، حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى وَطِيءِ الْبَسَاطِ السَّلْطَانِيِّ لِأَنْذَاءٍ بِالصَّفْحِ عَائِداً بِالْعَفْوِ وَالْمَنْحِ، فَحِينَ بَصَرَ بِهِ السَّلْطَانُ شُرْفَهُ عَجَّلَ تَسْرِيحَهُ، وَقَبَلَ تَعْرِضَهُ بِالْعَذْرِ وَنَصْرِيحَهُ، وَأَشْفَقَ مِنْ اضْطِرَابِ مَمْلَكَتِهِ بِغَيْبَتِهِ، وَأَمَرَ فِي الْحَالِ بِتَعْجِيلِ عَوْدَتِهِ، ثُمَّ رَتَّبَ تَشْرِيفَاتِهِ وَسَيَّرَهَا مِنْ وِرَائِهِ، وَأَمَرَ بِتَقْوِيَةِ حُكْمِهِ فِي مَمْلَكَتِهِ وَرَأْيِهِ، وَاسْتَعَادَ سَرَهَنَكَ سَاوَتَكِينَ وَزَادَ فِي تَأْيِيدِهِ وَالتَّمَكِينِ، وَالتَّرَمَّ بِحَمَلِ سَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى الْخِزَانَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ تِلْكَ الْوِلَايَةُ عَلَى الصِّيَانَةِ، وَمَا زَالَتْ الْمُسَامَحَاتُ تَدْخُلُ فِي الْقَرَارِ إِلَى أَنْ أَوْفَقَ عَلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَفِي هَذِهِ النَّوْبَةِ الثَّانِيَةِ وَالنَّبَوَّةِ الرَّانِيَّةِ لَمْ يَبْتَثْ عَلَى قَرَارِ وِيَاءِ الْوَزِيرِ بِالْوَزِيرِ وَقُبِحَ الذِّكْرُ، وَلَمْ يَحْظَ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ وَزَارَتِهِ بِعَمَلٍ يُذَكِّرُ بِهِ إِلَّا حَبْسَ أَنْوَشِرْوَانَ وَتَخْرِيْبَ شِرْوَانَ، وَلَمَّا أَبْصَرَ السَّلْطَانُ اخْتِلَالَ الْأَحْوَالِ وَاخْتِلَاطَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ سَخَطَ عَلَى الْوَزِيرِ شَمْسِ الْمُلُوكِ عُثْمَانَ بْنِ نِظَامِ الْمَلِكِ وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ حُكْمَ الْهُلُوكِ وَقَتْلَهُ بِالسَّيْفِ صَبِراً، وَمَا خَشِيَ فِي الْوَزِيرِ وَزْراً، وَذَلِكَ فِي آخِرِ ربيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِظَاهِرِ مَدِينَةِ بَيْلِقَانَ، وَالسَّلْطَانُ عَائِدٌ مِنْ شِرْوَانَ، وَاقَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْأَسْمِ وَالشَّهَادَةِ، وَلَمْ يُوَافِقْهُ فِي الْحِلْمِ وَالذِّينِ وَالزَّهَادَةِ.

وَتَمَثَّلَ أَنْوَشْرَوَانِ فِي دَمِّ أَوْلَيْكَ الْقَوْمِ بِشَعْرِ فَارِسِيِّ لِلْعُنْصَرِيِّ أَعَدْتُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ عُنْصَرَهُ،  
وَأَحْلَيْتُ لِمُقْتَطِفِهِ ثَمْرَةً وَاحِدَةً وَأَخَذْتُ صَفْوَةَ مَعْنَاهُ وَتَرَكْتُ كَدْرَهُ، وَقُلْتُ وَزِدْتُ عَلَيْهِ لِأَوْكَدَهُ  
وَأَقْرَبَهُ: [مَجْرُوءَ الْكَامِلِ]

عُ مَعَرَّفٌ قُبْحُ الْأَصُولِ	تُبْحُ الْفِعَالِ مِنَ الْفُرُو [م]
ذِنْ مِنْهُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ	وَجَمِيلٌ بَخْتِ النَّجْلِ يُؤُ [م]
لِ لِمَوْضِعِ الْأَضْلِ الدَّخِيلِ	وَوَضَاعَةُ الْقَرَعِ الدَّخِيلِ [م]
وَلَا تَخْفَ شَرًّا الْأَصِيلِ	لَا تَرْجُونَ خَيْرَ الدَّنِيِّ [م]
رُ يَكُونُ ذَا طُولٍ وَطُولِ	وَمَلِ اللَّثِيمُ أَوْ الْقَصَبِ [م]
رِ كَمَا الْجَلِيلُ مِنَ الْجَلِيلِ	إِنَّ الْحَقِيرَ مِنَ الْحَقِيقِ [م]
ة مَاعَلِيهِمْ مِنْ سَبِيلِ	وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى الْحَقِيقِ [م]
بَيْنَ الْحُزُونِ إِلَى الشُّهُولِ	بَيْنَ الْخَلَاتِقِ مَثَلُ مَا
رِ وَذَا كَثِيرٌ بِالْقَلِيلِ	هَذَا قَلِيلٌ بِالْكَثِيرِ [م]
سَبِّ نَقَصَ هَذَا بِالْمُفْضُولِ	فَكَمَالُ ذَا بِالْمُفْضَلِ نَا [م]

[وَكَانَ] هذا الوزيرُ بَخِيلًا بالنوالِ، حريصاً على جمعِ المالِ، لا يُبالي حَصَلَ الدُّنْيَا مِنَ  
الْحَرَامِ أَوْ الْحَلَالِ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنِ صَرَفِ الزَّمَانِ الْمُغْتَالِ، يَجْمَعُ وَالْقَدْرُ فِي تَشْتِيهِ، وَيَصِلُ  
وَالْقَضَاءُ فِي تَبْتِيهِ، وَيَأْخُذُ مَا لَا يَدَّ مِنْ تَرْكِهِ، وَيَنْظُمُ مَا يُفْرِي الْجِمَامُ بِتَبْدِيدِ نَظْمِ سَلَكِهِ،  
فِياعَجَباً لِلْبَخِيلِ كَمْ يُدِي نَاراً لِيُخْفِي دِينَاراً، وَيَثْرِي مِنَ التَّيْرِ وَهُوَ عَنِ كَثْبِ شَوْى فِي الثَّرَى  
تَبَاراً، لَا جَرَمَ مَا نَجَا مِنْ جُرْمِ مَا جَنَى، وَقَطَعَتْ طَارِقَةُ الْمَتُونِ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْمُنَى، وَسَلَبَتْ  
الْأَيْدِي الْخَاطِفَةَ مِنْهُ كُلَّ مَا جَمَعَتْ الْأَيْدِي الْخَاطِفَةَ، وَدَاسَتْهُ مِنَ الْخُطُوبِ الْمُتَوَاطِفَةِ عَلَيْهِ  
الْأَرْجُلُ الْوَاطِفَةَ، وَتَفَرَّقَ الْمَجْمُوعُ وَتَخَفَّضَ الْمَرْفُوعُ، وَتَبَدَّلَ الْمَرْتِي وَالْمَسْمُوعُ، وَضَرَجَ  
بَدْمِهِ وَأَعِيدَ وَجُودُهُ إِلَى عَدَمِهِ، وَهَاهُنَا تَمَثَّلَ أَنْوَشْرَوَانِ بِأَبْيَاتٍ مِنْهَا: [الْبَسِيطُ]

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِهَلِكِ لِلْبَخِيلِ قُتِلَ بُعْدًا وَسُحْقًا لَهُ مِنْ هَالِكِ مُودٍ  
وَقِيلَ لِأَبِي قَلَابَةَ الْجُرْمِي<sup>(1)</sup>: مَاتَ الْأَصْمَعِيُّ<sup>(2)</sup>، فَقَالَ: [السَّرِيعُ]

(1) أبو قلابَةَ الجُرْمِي: هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجُرْمِي، عالم بالقضاء والاحكام من أهل البصرة، ارادوه على القضاء فهرب إلى الشام، ومات فيها سنة 104 هـ، وكان من رجال الحديث الثقات.

(2) الاصمعي: أبو سعيد، عبد الملك بن قُرَيْبِ الباهلي الاصمعي، نسبة الى جده اصمغ، راوية من أئمة العلم باللغة

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي نَعْمِيهِ      بُعْدًا وَشُحْقًا لَكَ مِنْ هَالِكِ  
بِأَشْرَمَيْتِ خَرَجَتْ نَفْسُهُ      وَشَرًّا مَدْفُوعِ إِلَى مَالِكِ  
قَالَ: وَسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ الْخَصِيبِ، فَقَالَ: أَكَلْتُ أَكْلَةَ نَهْمٍ فَأَصْبَحَ يَدْرُقُ ذَرَقَةً بِشِيمِ.

وَأَنْشَدَ أَشْعَارًا كَثِيرَةً فِي وَصْفِ الْبِخْلَاءِ، وَمِنْهَا لِحِجْظَةَ<sup>(1)</sup> فِي وَزِيرٍ: [الطويل]

إِذَا غَمَرَ الْمَاءُ الْبِخِيلَ وَجَدْتُهُ      يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ  
وَلَيْسَ عَجِيبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ      إِذَا غَمَرَ الْمَاءُ الْحِجَارَةَ يَصْلُبُ  
وَلابن الرومي<sup>(2)</sup>: [الخفيف]

بِأَبَا قَاسِمٍ وَزَيْرِ الْأَنْبَامِ      لَا تَفُزَّنَكَ غَفْلَةَ الْأَيَّامِ  
أَجِلِ السَّرَّايِ هَلْ رَأَيْتَ رَضِيْعًا      لَمْ يُنْقِصْ رِضَاعُهُ بِالْفِطَامِ  
وَأَنْشَدَ لِلْبُسْتِيّ الشَّاعِرِ بِالْفَارَسِيَّةِ بَيْتًا ذَكَرْتُ مَعْنَاهُ فِي وَصْفِ بَخِيلٍ: [الخفيف]

وَبِخِيلٍ وَآكَلْتُهُ ظَنَّ أَنِّي      أَخَذْتُ رَوْحَهُ بِأَكْلِ طَعَامِهِ  
خَلْتُ لَمَّا سَأَلْتُهُ وَتَمَطَّى      بِنَلِّ جِمَلٍ أَوْأَنَّ شَدَّ حِزَامِهِ

وَكَانَ سَبَبُ قَتْلِ هَذَا الْوَزِيرِ أَنَّهُ نَمَّتْ عَلَيْهِ مَكَائِدُ ذَوِي التَّدْبِيرِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا الْقَاسِمِ الْأَنْسَابَاذِيَّ كَانَ رَسُولًا عِنْدَ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ سَنْجَرٍ، وَقَرَّرَ مِنْ أَمْرِ السُّلْطَانِ مَحْمُودِ بْنِ أَخِيهِ مَا قَرَّرَ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ الْوَزِيرَ هَذَا الَّذِي أَذْهَبَ الْهَيْبَةَ وَشَتَّ شَمْلَ الْأَجْنَادِ وَبَتَّ حَبْلَ السُّدَادِ، وَحَسَّنَ الْقَبِيحَ وَأَمْرَضَ الصَّحِيحَ، وَحَلَّ الْعُقُودَ وَأَحَالَ الْعُهُودَ، وَعَدَلَ عَنِ الْعَدْلِ وَجَهَلَ سِوَى الْجَهْلِ، وَفَتَكَ فِي حَبْلِ الظُّلْمِ وَنَهَضَ بِثِقَلِ الْإِثْمِ، وَأَنَّهُ مَادَامَ وَزِيرًا كَانَ الْوَزِيرُ كَبِيرًا، وَالْخَطَرُ عَظِيمًا وَالشَّرُّ مُقِيمًا، وَيَتَوَسَّلُ بِكُلِّ طَرِيقٍ حَتَّى يُنَجِّزَ كِتَابَ السُّلْطَانِ سَنْجَرَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ فِي طَلَبِ وَزِيرِهِ وَأَمْرِهِ بِتَسْيِيرِهِ، فَحَارَ مَحْمُودٌ بَيْنَ امْتِثَالِ الْأَمْرِ وَبَيْنَ خِلَافِهِ، وَلَمْ يَزِيلَا

والشعر والبلدان، ولد في البصرة سنة 122 هـ، وكان كثير التطواف في البوادي يقتبس علومها ويسمع أخبارها ويتحف بها الخلفاء، وكان كثير الحفظ، توفي في البصرة سنة 216 هـ

(1) البيتان لم يذكر في: كتاب الدكتور مزهر السوداني: جحظة البرمكي الأديب الشاعر، ط 1، مط النعمان، النجف الأشرف، 1977 م.

(2) ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العباس بن جريح، شاعر كبير، كان جده من موالي بني العباس، ولد ونشأ ببغداد، وفيها مات مسموماً سنة 283 هـ، إذ دس له القاسم بن عبيدالله وزير المعتضد السمع، لأن ابن الرومي قد هجاه، فما مدح رئيساً ولا وزيراً إلا وعاد فهجاه، ولذا تحاماه الرؤساء وكان ذلك سبباً لاطراحه وتركه، خلف ديواناً كبيراً طبع مراراً.

في الأمر إلا بإتلافه، وَخَشِي أَنَّهُ إِنْ سِيرَهُ أَطْلَعَ عَلَى سِرِّهِ أَسْحَطَ عَمَّهُ لِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ فَأَشِيرَ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ وَتَسْيِيرِ رَأْسِهِ فَبَعَثَ الْوَزِيرُ أَمْرِي مَا كَانَ رَجَاهُ فِي الْحَيَاةِ بِأَمْسِهِ وَسَرِي هُمُ السُّلْطَانِ بِتَسْيِيرِ هَامَةِ الْوَزِيرِ، وَأَدَّى بِهِ إِلَى سَفْكِ دَمِهِ سُوءَ التَّفَكِيرِ، فَمَا عَرَفَ حَرَمَتَهُ وَلَا أَحْتَرَمَ مَعْرِفَتَهُ، وَلَا وَفَى بِدَمَتِهِ وَلَا وَفَاهُ حَقَّ خِدْمَتِهِ، وَإِنَّمَا قَتَلَهُ لِسُوءِ فِكْرَةٍ هَمَجَسَتْ، وَبِخَطَرَةِ خَطَأٍ فِي جَنَانِهِ وَسُوسَتْ، أَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَن قَتْلِهِ مَنَدُوحَةً، أَمَا كَانَتْ أَبْوَابُ الْمَقَادِيرِ لَهُ مَفْتُوحَةً، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ نَارٌ تَحْرُقُ سَالِقِيْبٍ مِنْهُ وَإِنْ أَضَاءَتْ لِلْبَعِيدِ، وَمَا الشَّقِيُّ إِلَّا مَنْ نَظَنَّهُ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ السَّعِيدِ، وَمَا غَدَرَ الدُّنْيَا! وَمَا أَدْنَى غَدَرَهَا! وَمَا أَنْكَرَ مَعْرِفَتَهَا! وَأَعْرَفَ نُكْرَهَا! وَمَا أَجْهَلَ بِنَيْهَا! وَأَبْيَنَ جَهْلَهَا! وَمَا أَوْعَرَ سَهْلَهَا! وَأَعْوَرَ أَهْلَهَا!

قال أنوشروان: كان هذا الوزير بخيلاً، لا يجدُ مُعْتَمِيَهُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ سَبِيلاً، وَمَنْ سَأَلَهُ مَعْرُوفاً دَفَعَهُ بِالْإِضَاقَةِ وَإِدْعَاءِ الْفِاقَةِ، حَتَّى أَوْدَى فِي سُكْرِهِ قَبْلَ الْإِفَاقَةِ، وَأَنْشَدَ مَثَمَلًا:

[مجزوء المتقارب]

سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ      فَقَالَ يَدِي تَقْضُرُ  
فَقُلْتُ كَذَا عَاجِلاً      يَكُونُ كَمَا تَذْكُرُ

قال رسول الله [عليه الصلاة والسلام]: (لا يجتمع غبارٌ في سبيلِ الله ودُخانٌ جهنم في جوفِ عبدٍ أبداً، ولا يجتمع الشُّحُّ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ أبداً)، قال إفلاطون: (لا تؤخر إنالة المُحتاجِ إلى عِدِّ، فإنَّك لا تدري ما يكونُ في عِدِّ).

قال أنوشروان: وإن كان الذي جرى عَلَيَّ مِنَ الْأَخْذِ وَالنَّهْبِ بِيَابِ حُلُوانٍ فِي آخِرِ ربيعِ الأولِ سنةً ستَّ عشرة، وأخذَ الوزيرُ الذي سَعَى فِي أَخْذِي فِي بَابِ بَيْلِقَانَ<sup>(1)</sup> فِي آخِرِ ربيعِ الأولِ سنةً سَبْعَ عشرةٍ وَخَمْسَمِائَةٍ. [مجزوء الرجز]

مَنْ يَرِي مَوَاطِئَ رَبِّهِ      وَالذَّهْرُ لَا يُغْتَرُّ بِهِ  
كَانَتْ الْفُرْسُ تَقُولُ: (أرانيك الله تُعْمَلُ الشَّرَّ فَإِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ عَامِلاً بِهِ رَأَيْتُهُ واقِعاً بِكَ)، قال الواثق لأحمد بن أبي دُواد: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ذَكَرَكَ عِنْدِي بِقَبِيحٍ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْوَجَهُ إِلَى الْكُذْبِ عَلَيَّ وَتَرَّهَنِي عَن قَوْلِ الْحَقِّ فِيهِ).

(1) بَيْلِقَانَ: قال ياقوت الحموي: مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الأبواب، تعد في أرمينية الكبرى قريبة من شروان.

وَعَادَ حُكْمُ الْمَمْلَكَةِ كُلُّهُ إِلَى عَزِيزِ الدِّينِ أَبِي نَصْرِ أَحْمَدَ بْنِ حَامِدٍ، وَكَانَ حَيْثُ يُدْعَى مُسْتَوْفِي الْمَمْلَكَةِ وَصَاحِبَ قَلَمِهَا وَرَافِعَ عِلْمِهَا، وَجَازِبَ زِمَائِهَا وَمَالِكَ نِظَامِهَا، وَمُصْرَفَ عَنَائِهَا وَمُتَصْرَفَ سُلْطَانِهَا وَحَاكِمَ دِيَوَانِهَا وَشَائِدَ أَرْكَانِهَا، وَالْيَ أَمْرِهَا وَأَمْرَ وَلَا يَأْتِيهَا وَمُسْنِي أَرَائِهَا وَمُسْتَي رِيَائِهَا، وَفَاضِلَهَا وَمَفْضَلَهَا وَمُجْمَلَهَا وَمُجْمَلَهَا، وَجَوَادَهَا الْمُوَضَّحَ لِحُجُودِهَا وَمُؤَادَهَا الْمُوَفَّرَ لِمُؤَادِهَا، فَسَكَنَ السُّلْطَانُ إِلَيْهِ وَعَوَّلَ عَلَيْهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْوِزَارَةَ فَأَبَاهَا، وَوَجَدَ مَعَارِسَ الْمَمْلَكَةِ ذَاوِيَةً قَرِيبًا، وَقَالَ أَنَا أَنْفَعُ أَمُورِكَ وَأَوَامِرِكَ وَأَصْفِي مَوَارِدِكَ وَمَصَادِرِكَ وَلَا أَدْعُ مَصْلِحَةَ تَقَفٍ وَلَا مَنَفَعَةَ تَنْصَرَفٍ، وَأَحْبِي الْعَدْلَ الَّذِي أَمَاتُوهُ، وَأَوْجِدُ الْإِحْسَانَ الَّذِي أَفَاتُوهُ، لَكُنْتِي لَا أَتِسِّمُ بِالْوِزَارَةِ وَلَا أَتَقَلِّدُ وَزَرَها عَلَى أَنِّي أَتَقَلِّدُ أَمْرَهَا، فَإِذَا حَضَرَ صَدِيقِي أَبُو الْقَاسِمِ الْإِنْسَابَاذِي جَعَلْتُهُ صَدْرَهَا، وَمَا عَرَفَ أَنَّ صِدَاقَتَهُ عِنْدَ عَوْدِهِ عِدَاوَةً، وَأَنَّهُ يَنْجَرِّعُ مَرَارَةً سُمًّا مَا قَدْ ظَنَّهُ بِحَلَاوَةٍ، فَكَثَرَ سَنَةً بِالْمَنَاصِبِ مُتَوَحِّدًا وَبِالْمَرَاتِبِ مُتَفَرِّدًا، حَتَّى عَدَلَ الْجَوَانِحَ وَذَلَّلَ الْجَوَامِعَ، وَأَعَادَ الْقَوَانِينَ إِلَى اعْتِدَالِهَا وَأَعَادَ الدَّوَابِينَ مِنْ اعْتِلَالِهَا، وَسَدَّ الْخَلَّةَ وَسَدَّدَ الْخَلَلَ، وَأَقَالَ الْعَثَارَ وَأَزَالَ الرَّزْلَ، وَسَاعَتِ الْفَوَاضِلُ وَسَاعَتِ الْفَضَائِلُ، وَتَفَقَّ الْفَضْلُ الْكَاسِدُ وَصَلَحَ الْمُلْكُ الْفَاسِدُ، وَعَادَ السُّلْطَانُ مَحْمُودٌ إِلَى مُلْكِهِ مَحْبُوبًا مَجْبُورًا، مَحْمُودًا الْأَثَرِ مَشْكُورًا، وَأَسْتَمَرَ شِهَابُ الدِّينِ أَسْعَدُ الطُّغْرَائِي فِي الْإِنشَاءِ وَمَنْصِبِ الطُّغْرَاءِ، وَبَالِغَ أَنْوَشِرَوَانَ فِي دَمِهِ، وَجَرَى فِي التُّعْرُضِ وَالْإِعْرَاضِ عَلَى رَسْمِهِ، وَأُورِدَ بَيْتِي الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْأَرْجَانِي فِيهِ<sup>(١)</sup>: [البسيط]

مَازَلْتُ أَسْمَعُ أَنَّ الشُّهْبَ ثَابِتَةً حَتَّى رَأَيْتُ شِهَابًا وَهَوَّ مَشْقُوبٌ  
فِي كَفِّهِ الدَّهْرَ أَوْ فِي دِبْرِهِ قَلَمٌ فَنَصَفَهُ كَاتِبٌ وَالنُّصْفُ مَكْتُوبٌ  
وَكَانَ الشُّهْبُ أَسْعَدُ مِضْفَارًا دَقِيقَ الرَّقِيبَةِ طَوِيلَهَا، فَقِيلَ فِيهِ أَشْعَارٌ فَارْسِيَّةٌ، عَرَبَتْ مِنْهَا مَا  
أُورِدْتُهُ وَهَوَّ: [الرملي]

وَجْهَهُ الْأَصْفَرُ فَوْقَ الرَّكْبَةِ يُشْبِهُ الْغَنَائِطَ فَوْقَ الْعَقَبَةِ  
كُلُّ خِزْيٍ فِي الْوَرَى يَجْمَعُهُ كَلُّ مَنْ يَذْكُرُ يَوْمًا لِقَبَهُ  
وَعَرَبَتْ أَيْضًا: [الخفيف]

إِنْ تَقُلْ فِي امْرِئٍ بَعِيدٍ عَنِ الْحَيِّ [م]  
أَوْ تُرِدْ لَفْظَةً تَدُلُّ عَلَى كُلِّ [م]

رَفَقَانَ الشُّهَابِ أَنْسَى وَأَبْعَدَ  
الْمَخَازِي فَسَادِهِ يَا أَسْعَدَ

وكان أبو القاسم الدرّكزنيّ الإنسابادي غائباً بخراسان وقد قال العزيزُ إنّه لَمَّا حَصَرَ جَعَلَ لَهُ اسْمَ الْوِزَارَةِ، وَهُوَ لَا يُخَالِفُنِي فِي الْمَشُورَةِ وَالْإِشَارَةِ، وَكَانَ رَجُلًا فَلَاحًا مَا فِيهِ رَجَاءُ فَلَاحٍ، وَمُقْسِدًا مَا فِيهِ أَمَلٌ صَلاَحٍ، وَاعْتَقَدَ عَمِي الْعَزِيزُ أَنَّهُ صَدِيقُهُ الصَّدُوقُ، وَأَنَّهُ إِلَى كُلِّ مَا يَرُومُهُ مِنْهُ سَبُوقٌ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَأَطَمَعَهُ فِي الْمَنْصَبِ وَنَصَبَهُ لِلطَّمَعِ، وَجَمَعَ لَهُ أَسْبَابَ التَّنْوِيهِ وَنَوَّهَ بِهِ فِي الْمَجْمَعِ، وَظَنَّ أَنَّهُ حِمَارٌ يَحْمِلُ الْأَثْقَالَ وَلَا شُغْلُهُ الْإِجْمَالُ، وَأَنَّهُ يَشْكُرُ وَلَا يَكْفُرُ وَيَعْرِفُ وَلَا يُنْكِرُ، وَمَا دَرَى أَنَّ الْإِكْرَامَ لَا يَزِيدُ الْجَاهِلَ إِلَّا جَهْلًا، وَأَنْتَضَ الْإِعْزَازَ لَا يَجْعَلُ الْغِرَازَ الْوَعَرَ سَهْلًا، فَمَا زَالَتِ الدَّوْلَةُ بِاسْتِقْلَالِ الْعَزِيزِ مُسْتَقِلَّةً بِالْعِزِّ الْمُدِيلِ مُسْتَمْلَةً مِنْ يَرَاعِهِ وَيَرَاعِيهِ تُجْحِ التَّامِيلِ، وَالرَّاجِحِي جَارٍ إِلَى التَّجَاحِ جَارُ النَّجَاةِ، وَاللَّاحِحِي حَالٌ وَجْهُهُ إِلَّا مِنْ جَائِلٍ فِي حَلِيَةِ الْيَمَنِ، وَالرَّعِيَّةُ مَرَعِيَّةٌ وَالسَّيْرَةُ مَرَضِيَّةٌ وَالْحُقُوقُ مَقْضِيَّةٌ، وَالسُّبُلُ أَمَنَةٌ وَاللِّدْهَمَاءُ سَاكِنَةٌ، وَالشَّرْعُ قَاضِي وَالْحَقُّ رَاضِي، وَالْبَاطِلُ عَاطِلٌ وَالْعَدْلُ شَامِلٌ وَالْمُلْكُ كَامِلٌ، وَالْعَيْشُ رِخِيٌّ وَالْجَيْشُ قَوِيٌّ، وَيَدُ الظُّلْمِ مَقْبُوضَةٌ وَعَيْنُ الْحَيَاءِ مَغْضُوضَةٌ، وَعَيْنُ الْجُودِ مُرْفُوضَةٌ، وَسُنَّةُ الْبُخْلِ مَرْفُوضَةٌ، وَتُجُومُ الرُّجُومِ عَلَى الشَّيَاطِينِ مُنْقَضَةٌ، وَمَعَاقِدُ الشَّرِّ مَنقُوضَةٌ، وَالْمَوَاجِلُ مُرُوضَةٌ وَالْمَصَاعِبُ مُرُوضَةٌ، وَحَيُّ الْجُودِ وَجَادُ الْحَيَاةِ، وَذَلُّ الْجَانِي وَكَذُّ الْجَنَانِ، وَغَمَرُ النَّدَى وَغَمَّ النَّدَى، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ وَأَقَامَ الْحِجْجِي، وَسَمِعَ السُّلْطَانُ نُصْحَهُ، وَاجْتَلَى بِالْعَدْلِ بَعْدَ ظِلَامِ الظُّلْمِ صُبْحَهُ، وَوَجَدَ فِي عَصْرِ الْخُسْرِ مِنْ بَحْرِهِ الرِّيحَ رِيحَهُ، وَقَبْلَهُ وَقَبْلَ مِنْهُ، وَأَقْبَلَ بِهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَقَوَاهُ وَقَوِيَ بِهِ، وَرَغَبَهُ وَرَغِبَ إِلَيْهِ، وَاكْتَفَى بِكَفَايَتِهِ وَكَفَى وَاسْتَكْفَى، وَاشْتَفَى بِمَعْرِفَتِهِ وَشَفَى، وَعَادَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ حَيْثُ تَزِدُ سُلْطَانًا مُحَمَّدًا، وَأَصْبَحَ فَضْلُهُ مُودودًا وَظِلُّهُ مَمْدودًا، وَبَرَفُهُ مَشِيمًا وَبَرُّهُ مَرُومًا، وَلَمَّا عَادَ الدَّرَكزَنِيّ مِنْ رِسَالَةِ خِرَاسَانَ إِلَى الدَّرَكَاهِ وَجِيهًا بِالْحِلَّةِ جَدِيدِ الْجَاهِ [فَقَالَ] الْعَزِيزُ لِلْسُّلْطَانِ قَدْ وَصَلَ مَنْ يَكْفُلُ بِالْأَمْرِ وَيَكْفِي فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْحُلُولِ وَالْمُرِّ، فَأَنهَضَهُ لِلْوِزَارَةِ فَيَأْتِي غَيْرُ نَاهِيضٍ بِأَوْزَارِهَا، وَاتْرَكْنِي وَمَضَانِي فِي غَيْرِ هَذِهِ الْخِدْمَةِ وَلَا تَغْلِبْنِي بِمَضَارِبِ مَضَارِبِهَا، فَقَالَ لَهُ السُّلْطَانُ هَذَا أَبَدًا لَا يَكُونُ وَهُوَ صَعِبٌ عَلَيَّ لَا يَهُونُ، فَإِنَّهُ يَتَعَرَّضُ لِلتَّبْدِيلِ بِمُلْكِي الْمَصُونِ، فَلَا يَعْزُ عَلَيَّ بِاسْتِعْفَانِكَ هَذِهِ السُّنَّةُ الْحَسَنَةُ، وَلَا يُسْتَنْطَقُ بَعْدَ الشُّكْرِ بِالشُّكْرِ الْأَلَيْسَةِ، وَلَا تَعْطَلُ الْحَالَةَ الْحَالِيَةَ وَلَا تَرْخُصُ الْقِيَمَةَ الْغَالِيَةَ، وَلَا تُسَلِّطْ الْجُهَالَ عَلَى سُلْطَنِي، وَلَا تُخَفِّضْ بِأَهْلِ الدَّنَاءَةِ بَعْدَ الرِّفْعَةِ مَرْتَبِي، وَمَتَى لَمْ تَرَعْ الْمَمْلَكَةَ أَغَارَتْ عَلَى سَرِحِهَا الذَّنَابُ الضَّارِيَةُ، وَعَائَتْ فِي سِرْبِهَا الْأَيْدِي الْعَادِيَةُ، وَعَادَتْ الْجَاهِلِيَّةُ جَهْلَاءَ بِالْجُهَالِ وَعَفَّتْ مِنْهَا رُسُومُ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ، فَقَالَ الْعَزِيزُ مَعَادَ اللَّهِ فَسَعَادَتُكَ الَّتِي

هِيَ عَادَتُكَ تُجْرِي أُمُورَكَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ وَقَدْ عَرَفْتَ مِنَّا صِحَّةَ الْمُنَاصِحَةِ النَّاصِعَةِ الْمُشَابِعَةِ الشَّائِعَةِ، وَأَنَا إِنْ خَلَيْتُ الْوِزَارَةَ اسْمًا فَمَا أَخَلَيْتُهَا نَظْرًا وَأَعْدَمْتُهَا بَسْوَايَ وَأَكُونُ عَلَيْهِ بِحِلْمِي مُسْتَظْهِرًا فَيَكُونُ أَبُو الْقَاسِمِ لِي قَسِيمًا وَأَصْبِحُ أَنَا لَهُ مَقْعَدًا فِي الْمَصَالِحِ مُقِيمًا، فَقَالَ السُّلْطَانُ أَنَا مَا أَعْرَفُ سِوَاكَ وَلَا أَعُوْلُ إِلَّا عَلَى حَجَّتِكَ وَحِجَاكَ، وَسَيَاتِي ذِكْرُ الْحَالِ فِي ذَلِكَ.

وَمَا ذَكَرَهُ أَنْوَشْرَوَانُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ سَبَبُ قَتْلِ الْوَزِيرِ شَمْسِ الْمَلِكِ عِثْمَانَ بْنِ نِظَامِ الْمُلْكِ اسْتَدْعَاءُ السُّلْطَانِ سِنَجَرَ لَهُ وَاسْتَشْعَارُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ مِنْ مَعْبَةِ حُضُورِهِ عِنْدَهُ، قِيلَ لَهُ إِنْ الْمَصْلَحَةُ أَنْ لَا تُؤَلِّيَ وَزِيرًا إِلَّا مَنْ يَخْتَارُهُ لَكَ عِثْمَكَ وَلَا يَضُرُّكَ أَمْرُهُ وَلَا يَهْمُكَ فَإِذَا لَيْتُ وَزِيرًا بِإِذْنِهِ كُنْتُ مُسْتَظْهِرًا وَإِنْ وَلَّيْتَهُ لِغَيْرِ إِذْنِهِ كُنْتُ بِهِ مُعَرَّزًا، وَهَابَ الْجَمَاعَةُ تَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ وَخَافُوهُ وَاسْتَعْفَوْا مِنْهُ وَعَافُوهُ، وَكَاتَبُوا أَبَا الْقَاسِمِ الدَّرَكْزَنِيَّ وَهُوَ فِي الْمُرَاسَلَةِ عِنْدَ السُّلْطَانِ سِنَجَرَ وَقَالُوا لَهُ خَاطِبُ فِي هَذَا الْمَنْصَبِ وَخَاطِبُهُ، وَلَا تَرَغَّبْ عَنْهُ وَاطْلُبْهُ، فَأَعْطَى وَبَدَّلَ وَرَشَا وَبَرَّطَلْ، وَأَخَذَ رِضَا سِنَجَرَ بِتَوَلِّيَّتِهِ، وَمَكَثَ هُنَاكَ مُدَّةً حَتَّى دَعَا بُلُوغَ أَمْنِيَّتِهِ.

قَالَ أَنْوَشْرَوَانُ: وَفِي تِلْكَ الْمُدَّةِ اسْتَدْعَانِي السُّلْطَانُ إِلَى بَابِهِ، وَأَحْلَى لِي جَنَابِيهِ، قَالَ: لَمَّا انْقَضَتْ مَدَّةُ اعْتِقَالِي، وَانْتَهَتْ شِدَّةُ حَالِي، وَأَنْقَذَنِي اللَّطْفُ الرَّبَّانِيَّ مِنْ كَيْدِ الْخُصُومِ، وَعَرَفْتَنِي التَّجَارِبُ أَنَّهُ لَا مَحِيدَ مِنَ الْمَحْتَمِ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يُجْدِي طَلَبُ الْعِزِّ فِي زَمَانِ الدُّلِّ، وَلَا يُوجَدُ الْخِصْبُ فِي سَنَةِ الْأَزْلِ، فَاتَّبَعْتُ رَأْيَ الصَّابِي الصَّابِ حَيْثُ يَقُولُ: [مَجْرُوءُ الْوَافِرِ]

عَلَامٌ أَعْمُومٌ فِي الشُّبِّهِ      وَأَمْرِي غَيْرُ مُشْتَبِهٍ  
بِلِحْظِ غَيْرِ ذِي سَنَةِ      وَحِظُّ غَيْرِ مُنْتَبِهٍ  
أَرْوَحُ وَأَغْتَدِي عَنَّا      أَكْثُرُ مَنْ أَقْبَلَ بِهِ

وَتَمَنَيْتُ مَا تَمَنَاهُ الرَّضِيُّ<sup>(1)</sup> فِي قَوْلِهِ: [الْبَسِيطُ]

مَنْ لِي بِبُلْعَةِ عَيْشٍ غَيْرِ فَاضِلَّةٍ      تَكْفُنِي عَنِ الدُّنْيَا وَتُغْنِنِي  
لَا عُدْتُ أَوْلَعَ بِالسُّلْطَانِ ثَانِيَةً      وَيَلُ لَوْلَاجِ أَبْوَابِ السُّلْطَانِينَ

(1) ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، 1961 م، 2 / 446

والشريف الرضي: هو أبو الحسن، محمد بن الحسين بن موسى، الرضي العلوي الحسيني الموسوي، ولد ببغداد سنة 359 هـ وها توفي سنة 406 هـ، أشعر الطالبين وأرقهم عبارة، انتهت إليه نقابة الاشراف في حياة والده، وخلع عليه السواد، وجدد له التقليد سنة 403 هـ، له مجموعة من المؤلفات منها ديوانه، و (المجازات النبوية) و (مجاز القرآن) ورسائل.

وَقَبِلْتُ نَصِيحَةَ ابْنِ الْأَهْبَارِيَّةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي الصَّادِحِ وَالْبَاغِمِ: [مَجْزُوءَ الرَّجْزِ]

لَا تَصْحَبِ السُّلْطَانَ لَا تَقْرَبِ الْأَخْوَانَ  
إِجْتَنِبِ الْإِنْسَانَ عُدَّ الْوَرَى حَيْتَانَا  
كَمْ رَاحَةٌ فِي الْعُزْلَةِ وَعَمَلٌ فِي الْمُطْلَةِ  
كَمْ كَثْرَةٌ فِي الْوَحْدَةِ كَمْ سَهْرٌ مِنْ رَقْدِهِ

وَأَنْشَدَ الثَّوْرِيُّ<sup>(1)</sup> عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ<sup>(2)</sup>، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى: [الْكَامِلُ]

سَقَطَتْ نُفُوسٌ ذَوِي الْعُقُولِ فَأَصْبَحُوا  
وَلَعَلَّمَا عَشَرَ الزَّمَانِ كَسَاءِنِي  
لَا عَشْتُ حَتَّى اسْتَكْبَيْنَ لِصَاحِبِي  
نَفْسِي تُنَزَّرُهُنِي وَتَأْبَى هِمَّتِي  
قَالَ: فَصَمْتُ الْعِزْمَ وَنَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمُهَلَّبِ ذَوِي الْكِرْمِ وَالْفَضْلِ وَالْعِلْمِ كَمَا قِيلَ:

[الطَوِيلُ]

نَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمُهَلَّبِ شَاتِيَا  
فَمَازَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَافْتِقَادُهُمْ  
وَعَنِي أَنْوَشِرَوَانُ بآلِ الْمُهَلَّبِ الْإِمَامِ صَدْرِ الدِّينِ عَبْدِ الْلَطِيفِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ ثَابِتِ الْخُجَنْدِيِّ

بِأَصْفَهَانَ، فَإِنَّهُ مِنْ بَنِي الْمُهَلَّبِ، وَكَانَ أَجُودَ الْأَمْجَادِ وَأَمْجَدَ الْأَجْوَادِ، وَالصَّدْرَ الرَّحِيبَ  
الصَّدْرِ، وَالْبَحْرَ الْمُبْحَلَ كَرَمَ الْبَحْرِ، فَلَمَّا ضَافَهُ أَنْوَشِرَوَانُ آوَاهُ وَأَكْرَمَ مَتَوَاهُ، وَلَقَدْ كَانَ مَوْتَلَّ  
اللاجي وَمُوَيْدَ الرَّاجِي، وَمَلَادَ اللَّائِيذِ وَمَعَادَ الْعَائِيذِ، وَثَمَالَ الْخَاشِيِ وَكَهَفَ الْمُعَاشِيِ، يَرَى

(1) سفيان الثوري: أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، نت بني ثور بن عبد مناة، ولد في الكوفة سنة 97 هـ وبها نشأ، وكان مشهوراً في زمانه في الحديث وعلوم الدين، أراه المنصور على القضاء فأبى وسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي من بعده فانتقل إلى البصرة ومات فيها مستخفياً سنة 161 هـ، خلف من بعده عدداً من المؤلفات.

(2) أبو عبيدة: أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري التيمي بالولاء، من أئمة العلم بالأدب واللغة، ولد في البصرة سنة 110 هـ وبها مات سنة 209 هـ استقدمه الرشيد إلى بغداد وقرأ عليه أشياء من كتبه، أثنى الجاحظ على سعة علمه وحفظه للحديث، وكان أباضياً شعوبياً يكره العرب، ذكر ابن تقيية أنه صنف كتاباً في مثالب العرب، ولما مات أمّ يحضر جنازته أحد، ومع سعة علمه لا يقيم وزن بيت من الشعر ويحط في قراءة القرآن، له نحو مائتي مؤلف في اللغة والأدب والانساب.

إِسْعَافَ الْعَافِي وَإِنصَافَ الْمُصَافِي، وَإِجَازَةَ الصَّائِحِ وَإِجَازَةَ الْمَادِحِ، وَإِجَابَةَ الدَّاعِي وَإِنجَاحَ الْقَاصِدِ السَّاعِي.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: فَصَرَفَ إِلَيَّ الْأَصْدِقَاءُ الْهِمَمَ وَحَقَّقَ إِكْرَامَهُمْ عِنْدِي، وَإِنِّي لِأَشْكُرُ يَدَ الْمُسْدِي، أَنَّهُ جَاءَنِي فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ بِأَجْرِ غَرِيبٍ وَعَرَضَ عَلَيَّ مَا لَأَلَهُ قَدْرٌ، وَقَالَ خُذْهُ مِنِّي قَرْضًا وَاجْعَلْ قَضَاءَهُ مِنْ نَوَافِلِ أُمُورِكَ، فَقَدْ رَأَيْتُ بِذَلِكَ قَرْضًا، قَالَ: فَشَكَرْتُهُ عَلَى بَدْلِ الْعَيْنِ، وَكَتَبْتُ عَلَيَّ وَثِيقَةً بِالدِّينِ، وَمَضَى وَمَا عَادَ إِلَيَّ وَلَا اقْتَضَى وَجَاءَ بَعْدَ حِينٍ إِنْسَانٌ وَقَالَ: مَخْدُومِي عَزِيزُ الدِّينِ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ وَقَدْ نَقَدَ هَذِهِ الْوِثِيقَةَ إِلَيْكَ، وَقَالَ لَكَ اقْبَلْهَا فَإِنَّ الدِّينَ قَدْ قُضِيَ وَصَاحِبُهُ قَدْ رَضِيَ، فَعَجِبْتُ كَيْفَ تَوَسَّلَ فِي إِسْدَاءِ هَذِهِ الْبَيْدِ إِلَيَّ وَإِفْضَالِهِ عَلَيَّ، فَبَقِيتُ مُدَّةً فِي تِلْكَ الضِّيَافَةِ، أَمِنًا مِنَ الْمَخَافَةِ، سَالِمًا مِنَ الْآفَةِ، حَتَّى اسْتَدْعَانِي السُّلْطَانُ بَعْدَ قَتْلِ الْوَزِيرِ وَأَهْلَيْهِ لِلتَّدْبِيرِ، فَاْمْتَنَعْتُ أَيَّامًا، وَطَلَبْتُ مِنَ الْخَطِرِ ذِمَامًا، ثُمَّ قَالَتْ لِي نَفْسِي قَدْ خَلَا لَكَ الْأَمِيدَانُ، وَرَغَبَ فِيكَ السُّلْطَانُ، وَبِيدِكَ الْأَكْرَةُ وَالصَّوْلَجَانُ، وَقَدْ سَاعَفَ الزَّمَانُ وَسَاعَدَ الْإِمْكَانُ، فَلَا تُفَوِّتْ حُصَّتِكَ، وَادْرَجْ إِلَى عَشِّكَ وَقَرِّجْ عَنِ عَيْشِكَ، وَالْإِمَارَةُ حُلُوةٌ وَلِلنَّفْسِ مِنَ الْأَمَانِي حَطْوَةٌ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْهَبَّارِيَةِ أَيْضًا فِي الصَّادِحِ وَالْبَاغِمِ: [مَجْزُوءُ الرَّجْزِ]

شُرَيْفَةُ الْمَعَانِي  
لَيْسَتْ لَهَا أَفْهَامُ  
مَخْطُوبَةٌ مَوْدُودِهِ  
جَبَلٌ عَنِ الْأَشْبَاهِ  
وَالْمَثَارَاتِ الْفَاحِشَةِ  
وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ  
سِيَّاسَةُ الْجُنُودِ  
رَدْعُ الْقَشُومِ الْبَاغِي  
مِنْ بَسْطِ شَنْبِيغِهِ  
سِيَّاسَةُ الْجُمْهُورِ  
مِنْ شَرِّ كُلِّ فَاتِكِ  
إِمَاتَةُ الْمُتَدَوِّنِ  
مَمُونَةُ الْمُحْتَاجِ

وَصُحْبَةُ السُّلْطَانِ  
قَدْ دَمَّهَا أَقْوَامُ  
وَأَنَّهَا مَحْمُودَةٌ  
إِذْ هُوَ ظَلُّ اللَّهِ  
بِهَاتَيْنِ نَالَ الْآخِرَةَ  
إِغَائِثَةُ الْمَلْهُوفِ  
إِقَامَةُ السُّحُودِ  
قَمْعُ الظُّلُومِ الْبَاغِي  
حَرَّاسَةُ الشَّرِيفِ  
حَمَايَةُ الشُّغُورِ  
حَمَايَةُ الْمَسَالِكِ  
إِقَامَةُ الْإِحْسَانِ  
جَبَايَةُ الْخِرَاجِ

حَفِظَ الْحَقُوقَ الضَّايِعَةَ      وَضَعُ النَّدَى مَوَاضِعَهُ  
إِزَالَاتُ الْمَنَّاكِرِ      حِيَاطَةُ الْمَنَابِرِ  
الرَّفْقُ بِالرَّعَايَا      إِزَالَاتُ الشُّكَايَا

قَالَ: فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى الدَّرَاكِهَ كَانَ اضْطِرَابُ الْجَمَاعَةِ بِمَقْدَمِي شَبِيهَ اضْطِرَابِي أَوْ أَنَّ قَصْدِهِمْ، وَكُلُّ يَقُولُ مَا اسْتَحْضِرَ إِلَّا لِسَبَبٍ وَمَا اسْتَقْدِمَ إِلَّا لِأَرْبٍ، وَكَانَ كَمَا كَتَبَ أَبُو سَعْدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ الْكَاتِبَ الْأَصْفَهَانِيَّ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْبَغَلِ وَقَدْ اسْتَقْدِمَ لِلْوِزَارَةِ ثُمَّ عُدِلَ بِهِ عَنْهَا: [الطويل]

أَرَادُوا لَهُ مَا لَمْ يُرِدْهُ لِنَفْسِهِ      لِكَيْ يُدْرِكُوا عِزًّا وَطُولَ ثَرَاءِ  
وَأَفْضَلَ مِنْ نَيْلِ الْوِزَارَةِ لِأَمْرِي      بَقَاءِ يُرْبِهِ مَصْرَعِ الْوِزَارِ  
وَلَا سِيَّامَنْ كَانَ مُسْتَوْجِبًا لَهَا      وَإِنْ عَاقَهُ عَنْهَا اعْتِلَالُ قَضَاءِ  
أَرِيدَ لَهُ طُولَ الْحَيَاةِ وَقَلَّمَا      رَأَيْتُ وَزِيرًا نَالَ طُولَ بَقَاءِ

قَالَ فَوَصَلْتُ وَقَدْ حَسَنُوا لِلسُّلْطَانِ مِشَاوَرَةَ عَمِّهِ فَهَوِيَ فِي انْتِظَارِ مَا يَكُونُ مِنْ حُكْمِهِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّرَقُّبُ لِمَا يَرِدُ بِهِ الْأَمْرُ السَّنَجْرِيُّ، فَلِذَلِكَ عَرَّيْتُ الْكَاسِي بِالْفَضْلِ وَاکْتَسَى الْعُرِّيَّ وَعَزَلْتُ الرَّأْيَ وَعَدَمْتُ الرَّيَّ، حَكَى أَبُو شُرَوَانَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى لَمَّا صُرِفَ عَنْ وَزَارَةِ الْمُقْتَدِرِ وَاعْتَقِلَ عَرَضُوا عَلَيْهِ أَسْمَاءَ مَنْ يَصْلُحُ لِلْوِزَارَةِ وَعَرَفُوا مِنْهُ النَّصْحَ، فَكَتَبَ تَحْتَ كُلِّ اسْمٍ عَلِيٌّ بْنُ عَيْسَى قَدْ تَفَضَّلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْفَاهُ، إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَيْسَى صَلَفٌ شَرٌّ لَا يَصْلُحُ، حَامِدُ بْنُ الْعَبَّاسِ عَفِيفٌ كَثِيرُ الْمَالِ، عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ أَمِينٌ ثِقَةٌ، الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَادَرَانِيُّ لَا أَعْرِفُهُ لَكِنَّهُ اسْتَكْفَيْتَنِي شَيْئًا فِقَامَ بِهِ، ابْنُ أَبِي الْبَغَلِ فَاجِرٌ ظَالِمٌ لَا يَنْقِي اللَّهُ، أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ جَاهِلٌ أَخْمَقُ، عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَوَارِيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ كَتَبَ حَدَّثْتُ بِذَلِكَ مِنْ مَوْضِعِ الْخَبْرَةِ.

وَلَمَّا عَزَلَ عَلِيٌّ بْنُ عَيْسَى وَوَلِيَ ابْنُ الْفَرَاتِ قَالُوا: أَخَذُوا مِنَّا مِصْحَفًا وَأَعْطَوْنَا طُبُورًا، وَكَانَ عَلِيٌّ اسْمَ الْوِزِيرِ السُّمَيْرِيِّ فَلَمَّا قُتِلَ وَتَوَلَّى شَمْسُ الْمُلْكِ وَاسْمُهُ عَثْمَانُ، قَالَ الشَّاعِرُ آيَاتًا فَارِسِيَّةً عَرَبْتُهَا، وَهِيَ: [المجتث]

مَنْ عَفَاكَ السُّلْطَانُ      وَرَأَيْتَهُ الْمُنْتَوَانِي  
تَمَوَيْضُهُ عَنْ وَزِيرٍ      مَضَى بِهَذَا الثَّانِي  
عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ عَلِيٌّ      بِمِثْلِ ذَا عَثْمَانِ

## ذكر وزارة الدرگزینی سنة ثمان عشرة وخمسائة

فلما جاء أبو القاسم الدرگزینی وَوُضِعَ عَلَيْهِ اسْمُ الْوِزَارَةِ تَبَدَّلَتْ الْغَزَاةُ بِالنَّزَارَةِ، وَهُوَ  
أَوَّلُ فَلَاحٍ تَرَكَ الْعَمَلَ بِالْفِدَانِ قَدَانٌ لَهُ عَمَلُ التُّرْكِ، وَحَلَّ الْبَقْرُ عَلَى الْمَلِكِ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ،  
وَلَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِ يُسْتَكْتَرُ لَهُ أَقْلُ عَمَلٍ، وَيُعَدُّ مِنَ الْأَدْوَانِ وَالسَّفَلِ، وَيُضْرَبُ بِجَهْلِهِ الْمَثَلُ،  
فلما تَوَلَّى تَذَكَّرْتُ بَيْتِي الْأَحْوَصَ<sup>(1)</sup>: [الكامل]

أَعَجِبْتُ إِنْ رَكَبَ ابْنُ حَزْمٍ بَغْلَةً      فَرَكَوْبُهُ فَوْقَ الْمَنَابِرِ أَعَجَبُ  
وَعَجِبْتُ أَنْ جُعِلَ ابْنُ حَزْمٍ حَاجِبًا      سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ ابْنَ حَزْمٍ يَخْجِبُ  
آخر: [الرملة]

سَلَّمَ النَّاسُ وَلَكَمْ يَبْقَى نِزَاعُ      إِنَّكَ الْخَطِيئِيُّ وَالْقَوْمُ يَرَاغُ  
آخر: [الوافر]

لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا نُسِبَ الْمُعَلَى      إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ  
وَلَكِنَّ السَّبْلَادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ      وَصَوَّحَ نَبْثَهَا رُعيَ الْهَشِيمُ  
آخر: [المقارب]

لَسْتُ كُنْتُ لَا أُجْتَرِي أَنْ أَقُولَ      بِأَنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُنْصِفُ  
وَأَنْتِي بِمُسْتَحْسِنٍ أَنْ أَقُولَ      بِأَنَّ الْمَقَادِيرَ قَدْ تُشْرِفُ  
بِرَفْعِ الْوَضِيعِ وَوَضْعِ الرَّفِيعِ      فَنَفْسُ اللَّسْبِيبِ بِذَا تَلْفُ  
وتداول شعراء العجم ذكروا تفاوت هذه الحظوظ والقسم، ونظم أحدهم عند تولي هذا  
الوزير أبياتاً عربتها: [الوافر]

فَسَمَتِ الْمَلِكُ فِي عَمْرٍو وَزَيْدٍ      فَأَصْبَحَ كُلُّ جُنْدِيٍّ أَمِيرًا  
فَمَنْ يُعْطِيكَ قَسْمًا أَوْ خَرَجًا      وَأَضْحَى كُلُّ فَلَاحٍ وَزَيْرًا  
وَيَسْقُطُ كُلُّ ذِي خَطَرٍ إِذَا مَا      غَدَا مَنْ مَالَهُ خَطَرٌ خَطِيرًا

(1) ديوان الاحوص الانصاري، جمع وتحقيق: عادل سليمان جمال، القاهرة، 1970 م، 76، والاحوص: هو عبد الله بن محمد بن عبد الله الانصاري، شاعر هجاء كان من طبقة جميل بنية ونصيب، وهو معاصر للفردق وجري، مدح الوليد بن عبد الملك فآكره ثم بلغه أنه سيء السيرة فأمر بجلده ونفاه إلى جزيرة (دهلك) في البحر الأحمر بين اليمن والحيشة، فبقى إلى وفاة عمر بن عبدالعزيز فاطلقه يزيد بن عبد الملك فقدم دمشق ومات فيها سنة 105 هـ وله ديوان مطبوع.

قَالَ أَنُوشِرَوَانُ: فَرَأَجَعْتُ فِكْرِي وَتَدِمْتُ فِي أَمْرِي، وَقُلْتُ أَعْمَالُ السُّلْطَانِ عَوَارِي لِأَبَدٍ مِنْ  
ارْتِجَاعِهَا وَمَلَابِسُ لِأَبَدٍ مِنْ انْتِزَاعِهَا، وَالسَّعِيدُ مَنْ حَسُنَتْ مِنْ تِلْكَ الْعَوَارِي حَالُهُ، وَكُرِمَتْ مِنْ  
خِلَالِ تِلْكَ الْمَلَابِسِ خِلَالُهُ، فَإِذَا ارْتَجَعْتَ مِنْهُ بَقِيَ لَهُ مِنْ حَظِّ تَوْفَرٍ، وَإِذَا انْتَزَعْتَ عَنْهُ صَفَا عَلَيْهِ مِنَ  
الْحَمْدِ بُرْدٌ مُحَبَّرٌ، فَحُفَّتْ بِالصَّالِحَاتِ أَعْمَالُهُ وَذُكِرَتْ بَعْدَهُ بِالْخَيْرَاتِ أَفْعَالُهُ، وَأَنْشَدَ: [الطويل]

وَإِذَا رَأَى دُنْيَاهُ أَكْثَرَ أَهْلِهِ      لَمُسْتَمْسِكٍ مِنْ حَبْلِهَا بِغُرُورٍ  
وَأَنْشَدَ: [الرملي]

يَأْسَفُ الْمَرْءُ عَلَى مَا فَاتَهُ      مِنْ لُبَانَاتٍ إِذَا لَمْ يَفْضِهَا  
وَتَرَاهُ فَرِحًا مُسْتَبْشِرًا      بِالنِّيِّ أَمْضَى كَأَنْ لَمْ يُمَضِّهَا  
إِنَّهَا عِنْدِي وَأَحْلَامُ الْكَرَى      لَقَرِيبٍ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضِهَا  
وَعَرَبَتْ بَيِّنِينَ فَقُلْتُ: [المنسرح]

مَا لَكَ تَقْصُ بِمَا عَدِمْتَ وَمَا      وَجَدْتَهُ أَنْتَ مِنْهُ فِي حَكْمٍ  
فَالْعَدَمُ الْمَحْضُ كَالْوُجُودِ إِذَا      عَلِمْتَ أَنَّ الْوُجُودَ كَالْعَدَمِ  
وَالدُّنْيَا كَمَا قِيلَ: [الرجز]

إِنَّ ابْنَ آوَى لَشَدِيدُ الْمُقْتَنَصِ      وَهُوَ إِذَا مَا صِنْدَ رِيحٍ فِي قَفْصِ  
وَأَنْشَدَ: [الطويل]

لَا تَغْبِطَنَّ أَحَا دُنْيَا بِمَقْدَرَةِ      فِيهَا إِذَا كَانَ ذَا عِزٍّ وَسُلْطَانِ  
يَكْفِيكَ مِنْ عَبْرِ الْأَيَّامِ مَا صَنَعْتَ      حَوَادِثُ الدَّهْرِ بِالْفَضْلِ بِنِ مَرَوَانِ  
إِنَّ اللَّيَالِيَّ لَمْ تُحْسِنِ إِلَى أَحَدٍ      إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ  
وَالْعَيْشُ حُلُوٌّ وَمُزٌّ لَا بَقَاءَ لَهُ      جَمِيعُ مَا النَّاسُ فِيهِ زَائِلٌ فَإِنَّ

وَأَنْشَدَ: [السريع]

أَصَبَحْتُ فِي دَارِ الْبَلِيَّاتِ      أَدْفَعُ أَفْئَاتِ بَأَفَاتِ  
وَأَنْشَدَ: [السريع]

نَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا وَسُكَّانُهَا      نَدْفَعُ مَكْرُوهَهَا بِمَكْرُوهِ  
وَأَنْشَدَ: [المتقارب]

وَكَانَ لَنَا أَصْدِقَاءُ حُمَاءُ  
وَأَعْدَاءُ سُوءٍ فَمَا خُلِدُوا  
تَسَاءَلُوا جَمِيعاً كُؤُوسَ الرَّدَى  
فَمَاتَ الصَّدِيقُ وَمَاتَ الْعَدُو  
وَأُنشِدُ فِي الرَّهْدِ: [الْخَفِيفُ]

إِغْتَنِمْ رَكْعَتَيْنِ زُلْفَى إِلَى اللَّـمِ [م]  
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ تَنْطِقُ بِالْبَا [م]  
وَالزَّمِ الصَّمْتَ وَاجْتَنِبْ هَدْرَ الْقَوْلِ [م]  
ه إِذَا كُنْتَ فَارِغاً مُسْتَرِيحاً  
ط ل فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحاً  
ل وَإِنْ كُنْتَ بِالْكَلامِ فَصِيحاً

قَالَ: فَتَذَكَّرْتُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ أَيَّامَ الرَّفَاهَةِ، وَقَدْ وَجَدْتُ فِي الْقَنَاعَةِ عِزَّ الْوَجَاهَةِ. [الطَوِيلُ]  
وَأَذْكَرُ أَيَّامَ الْحَمَى ثُمَّ أَنْتَنِي عَلَى كَيْدِي مِنْ خَشْيَةِ أَنْ تَصَدَّعَا  
فَقُلْتُ: لَوْ خَلَصْتُ فَرِحْتُ فَرِحْتُ، وَكَوْ اسْتَحَرْتُ اللَّهَ فِي الْانزِوَاءِ لِاسْتِرْحَتِ، وَسَأَقْتَرِحُ  
مَا أَنَالُهُ مِنْ عِزِّ الْعِزْلَةِ إِذَا لَمْ أَتَلْ مِنَ الْوَالِيَةِ مَا اقْتَرَحْتُ، وَقَرَأْتُ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا  
فَنَاظِلُّمُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

قَالَ: وَكَانَ السُّلْطَانُ فِي الْإِذْنِ لِي مُتَوَقِّفاً وَلِمُفَارَقَتِي خِدْمَتِهِ مُسْتَعِيفاً، وَأَنَا قَدْ مِلْتُ إِلَى  
الْوَحْدَةِ وَالْإِنْفِرَادِ، وَقَصَّرْتُ هَمَّتِي عَلَى هَذَا الْمُرَادِ، فَمَازَلْتُ بِالسُّلْطَانِ حَتَّى اسْتَأْذَنْتُ  
عَلَيْهِ وَأَكْرَمْتِي بِلُطْفِ الشَّفَاهِ، وَأَمَّنْتِي مِنْ ذَوِي السَّفَاهِ، وَفَسَّخَ لِي بِالْإِنْصِرَافِ وَخَصَّنِي مِنْ  
مَوَاعِدِ عَوَائِدِهِ الْجَمِيلَةِ بِالْإِلْطَافِ، قَالَ: فَسَاعَدَنِي أَرْبَابُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْخَيْلِ وَغَيْرِهَا بِمَا حَمَلَ  
أَنْقَالِي مِنَ الْأَرْوَادِ وَغَيْرِهَا بِمَا نَقَلَ أَحْمَالِي، وَتَوَجَّهْتُ مِنْ أَصْفَهَانَ إِلَى بَغْدَادَ أَعْمَلُ الْإِعْذَادَ  
وَعَدَمْتُ الْمَلَادَ لِأَجْدِ الْمَلَادِ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى حَضْرَةِ الْخِلَافَةِ وَجَدْتُ الْإِكْرَامَ وَالْإِنْعَامَ  
وَالْإِحْتِرَامَ وَبَرَزَ بِالْخَطِّ الْأَشْرَفِ الْإِمَامِيُّ الْمُسْتَرَشِدِيُّ تَوْقِيعَ نَسَخَتِهِ:

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، التَّطَلُّعُ إِلَى مُوَاصِلَتِكَ بِالْمُطَالَعَاتِ تَامٌ، وَالثَّقَّةُ بِكَ كَامِلَةٌ الْأَسْمَاءُ،  
وَلَمَّا اسْتَمَرَّ تَأَخَّرْنَا لَمْ يَرِ الْإِحْخَالُ بِاسْتِدْعَائِهَا مَعَ ضَعْفِ أَسْبَابِ عِذْرِكَ فِي أَعْبَائِهَا بِمَحَلِّكَ عِنْدَنَا  
يُوجِبُ أَنْ لَا نَضَعَنَّ مِنْكَ بِذَلِكَ وَالسَّلَامَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَآلِهِ.]

وَأُنشِدُ: [الطَوِيلُ]

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي الْحُمُولِ مَعَ الْغَنَى  
وَعَافِيَةٍ تَغْدُو بِهَا وَتَرْوِحُ

قَالَ: وَأَشَارَ عَلِيٌّ الْأَصْدِقَاءَ بِحِفْظِ قَلْبِ الْوَزِيرِ وَمُرَاقِبَتِهِ وَرِعَايَةِ خِدْمَتِهِ وَمُقَارَبَتِهِ، فَسَنَنْتُ  
وَأَنْفَتُ وَعَقَفْتُ وَعَعَفْتُ. [الطويل]

فَأَرَعَدَ مِنْ قَبْلِ اللَّقَاءِ ابْنَ مَعْمَرٍ وَأَبْرَقَ وَالْبَرَقُ الْيَمَانِيُّ خَوَانٌ  
وَمِنْ كِتَابِ رَجُلٍ كَتَبَ يَخْطُبُ إِلَى آخِرِ ابْنَتِهِ فَرَدَّ عَنْهَا: أَتُرَدُّنِي وَأَنَا ابْنُ مَنْ أَنَا ابْنُهُ وَيُجَابُ  
مَطْمَونُ النَّسَبِ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: (وَصَلَّ كِتَابُكَ تَهْدُرُ فِيهِ بِشَقِيقَةِ صُلَمَاءَ مِنْ شَفَةِ عُلَمَاءَ تَزْعُمُ  
أَنَّكَ وَأَنِّي، فَدُمَ حَيْثُ أَنْتَ وَدَعْنِي حَيْثُ أَنَا وَلَا تَأْتِنِي حَتَّى آتِيكَ، فَلَعَمْرِي لَتَبْطِئَنَّ بِي عَنْكَ مَا  
أَسْرَعَ بِكَ إِلَيَّ.)

وَقَوْلُ الْأَمِيرِ سَدِيدِ الْمُلْكِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُنْقِذٍ فِي قَاضِي طَرَابَلَسَ مَعْرُوفًا: [البسيط].  
قَالُوا تَسِيرُ إِلَى الْمِيدَانِ قُلْتُ لَهُمْ تَحْتَ الصَّلِيبِ وَلَا فِي مَوْكِبِ الْقَاضِي  
وَأَنَا أَهْنَى السُّلْطَانَ بوزيره كما هَنَّأَ أَبُو جَهْرٍ الشَّاعِرُ الْأَمُورَ بِيورَانَ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلِ:  
[مَجْزُوءُ الْخَفِيفِ]

بَارَكَ اللَّهُ لِلْحَسَنِ وَلِإِيورَانَ فِي الْخَتَنِ  
يَا إِمَامَ الْهُدَى ظَفَر [م]  
إِنَّ السُّلْطَانِينَ وَإِنْ رَفَعُوا وَضِعُوا وَوَضِعُوا رَفِيعًا، وَأَدْنُوا دَنِيًّا وَأَعْنُوا فَقِيرًا وَأَفْقَرُوا غَنِيًّا،  
وَأَتَمَّنُوا خَائِنًا وَاسْتَخَانُوا أَمِينًا، وَقَدَّمُوا يَسَارًا وَأَخَّرُوا يَمِينًا، وَاسْتَعَجَزُوا كَافِيًّا وَاسْتَكْفَوُا  
عَاجِزًا، وَغَضُّوا حُرًّا كَرِيمًا وَخَدَمُوا عَمِيدًا غَامِرًا، وَأَقَامُوا ظَالِمًا وَأَقْعَدُوا عَادِلًا، وَفَضَّلُوا  
نَاقِصًا وَتَقْصُوَا فَاضِلًا، وَزَيَّفُوا نَقْدًا وَتَقَدَّوَا زَيْفًا، وَهَجَرُوا حَبِيبًا وَوَصَلُوا طَيْفًا، وَعَدَّلُوا  
مُجْرَحًا وَجَرَحُوا مُعَدَّلًا، وَهَدَمُوا مَعْلَمًا وَاسْتَهْدَوْا مَجْهَلًا، وَخَقَّرُوا عَظِيمًا وَعَظَّمُوا حَقِيرًا،  
وَعَقَرُوا صَحِيحًا وَاسْتَصَحَّحُوا عَقِيرًا، وَاسْتَحْسَنُوا قَبِيحًا وَاسْتَقَبَّحُوا حَسَنًا، وَاسْتَعْفَلُوا يَقْظًا  
وَاسْتَسَحَّرُوا وَسَنًا، وَاسْتَهَزَّلُوا سَمِينًا وَاسْتَسَمَّنُوا هَزِيلًا، وَاسْتَكْتَرُوا قَلِيلًا وَاسْتَقَلَّوْا كَثِيرًا،  
فَإِنَّهُمْ يَذْهَبُونَ مَعَ كُلِّ خَيَالٍ، وَيُعْجَبُونَ بِكُلِّ مُحْتَالٍ، وَيُخْلَبُونَ بِكُلِّ خَالٍ، وَيَطْرَبُونَ لِتَرْبَمِ  
كُلِّ مُحَالٍ، وَأَخْلَاقُهُمْ كَأَخْلَاقِ الدَّهْرِ لَا تَثْبُتُ عَلَى حَالٍ، يَشِيمُونَ كُلَّ بَرِّقٍ وَيَرِدُونَ كُلَّ  
طَرِّقٍ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ رُزِقُوا السُّلْطَنَةَ لِكَمَالِهِمْ وَأَتُوا الْمُلْكَ لِاسْتِقْلَالِهِمْ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ الْكَرِيمَ  
مَنْ أَكْرَمُوهُ، وَالْعَظِيمَ مَنْ عَظَّمُوهُ، وَالْمَقْبُولَ مَنْ قَبَلُوهُ، وَالْعَاقِلَ مَنْ اسْتَعْقَلُوهُ، وَالْحَسَنَ  
مَنْ اسْتَحْسَنُوهُ، وَالْمُسْتَهْجَنَ مَنْ اسْتَهْجَنُوهُ، فَيَنْزِلُونَ النَّاسَ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ، وَيُسْعِدُونَ نَهْمَ

وَيُسْقَوْنَهُمْ بِأَقْبَالِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ، وَيُمْضُونَ مَا تُسَخِّحُ فِي خَيَالِهِمْ، وَيَقْضُونَ مَا يَخْطُرُ بِأَيْدِيهِمْ، فَلَا نَفْعَ لِلتَّيْمِ إِذَا رَفَعُوهُ، وَلِلْجَاهِلِ إِذَا اصْطَنَعُوهُ، أَنَّهُ زَادَ وَسَادَ وَسَاوَى الْأَمْجَادَ وَضَاهَى الْأَجْوَادَ، فَإِنَّ الْحَنْظَلَ مَرٌّ وَإِنْ أُحْلِيَ، وَالْقَبْرَ خَرَابٌ وَإِنْ عُمِّرَ، وَالطَّائِشَ خَفِيفٌ وَإِنْ وُقِّرَ، وَالرَّدِيَّاءَ مَرْدُودٌ وَإِنْ قَبِلَ، وَالدُّنْيَا مَرْدُودٌ وَإِنْ بُجِّلَ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَبَّ الْعَاقِلُ لِمَا يُحْرِمُهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخَطْوَةِ وَيَطْرُقُهُ مِنَ النَّائِبَةِ وَالنَّبْوَةِ، فَإِنَّ الْقَمَرَ مِنْيرٌ وَإِنْ نُجِحَ، وَالْمَسْكَ ذَكِيٌّ وَإِنْ أُطْرِحَ، وَالْعَلَمَ عَزِيزٌ وَإِنْ جُهِلَ، وَالْفَضْلَ غَزِيرٌ وَإِنْ أَهْلَ، وَالشَّمْسَ لَا حَظَّ لِلْأَكْمَهِ مِنْ نُورِهَا، وَالصَّبْحَ الْمُسْتَفِرَّ لَا عَارَ عَلَيْهِ مِنْ عُمِي الْبَرِيَّةِ وَعُورِهَا، فَمَا السِّيَادَةُ بِقُرْبِ السُّلْطَانِ وَلَا لِمَكَانِهِ بِوُجُودِ الْمَكَانِ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ لِلْمَاجِدِ وَالْمَجْدُ لِلْفَاضِلِ، وَالْعَقْلُ لِلْحَكِيمِ وَالْحُكْمُ لِلْعَاقِلِ، وَالسُّوْدُودُ لِمَنْ يَتَخَلَّى عَنْ سُوءِ الرَّدِّ وَيَتَخَلَّى بِكِرَمِ الْمَحْتَدِ، وَيَتَجَلَّى بِسَنَا الْمَكَارِمِ وَيَسْتَجَلِّي بِجَنَى الْمَحَامِدِ، وَيَسْتَعِذُّ بِمَرَاثِفِ الْمَرَاثِدِ، وَلَيْسَتْ الرَّئِيسَةُ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَهُ عَتِيقٌ وَعَرَفَهُ عَبِيقٌ، وَعَرَفَهُ عَرِيقٌ وَعُودُهُ وَرَيْقٌ، وَرَوْضُ فَضْلِهِ أَنْيَقٌ وَظِلُّ اسْتِمَالِهِ صَفِيقٌ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالُوا لَهُ كَبْرَانِكَ كَبِيرٌ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالُوا لَهُ قَدَّ قَدْرَانِكَ قَدَّ رَفِيٍّ، وَالذَّنْبِيُّ لَا تَزِيدُهُ الرُّفْعَةُ إِلَّا دَنَاءَةً، وَالْبَدْرُ الْمُضِيءُ لَا تَزِيدُهُ الدُّجْنَةُ إِلَّا إِضَاءَةً، وَلَا كُلُّ مَنْ تَرْتَبَّ رُتَبٌ، وَلَا كُلُّ مَنْ صَرَفَ الْقَلَمَ كَتَبَ، وَلَا كُلُّ مَنْ حَلَّ فِي الصَّدْرِ حَلًّا فِي الصَّدْرِ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَرَ كَانَ وَزْرًا فِي الْوِزْرِ.

[الطويل]

وَلَيْسَ مِنَ الْفَتِيَانِ مَنْ جُلَّ هَمُّهُ      صَبُوحٌ وَإِنْ أَمْسَى فَفَضَّلُ غَبُوقِ  
وَلَكِنْ فَتَى الْفَتِيَانِ مَنْ رَاحَ وَاعْتَدَى      لَضُرًّا عَدُوًّا أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقِ  
وَلَا يَسْتَحِقُّ الرَّجُلُ أَنْ يَكُونَ مَخْدُومًا، وَبِالْحَمْدِ وَالتَّعْظِيمِ مَوْسُومًا، إِلَّا إِذَا فَضَّلَ وَأَفْضَلَ  
وَعَدَلَ وَاعْتَدَلَ وَرَوَّفَ وَرَحِمَ وَعَطَفَ، وَحَلَمَ وَرَفَقَ وَرَفَدَ، وَحَلَّ بِالْكَرَمِ وَعَقَدَ، وَأَنْصَفَ  
وَأَنْتَصَفَ وَأَسْعَدَ وَأَسْعَفَ وَقَلَدَ الْإِمْنَ، وَخَلَدَ بِالذِّكْرِ الْحَسَنِ السَّنَنِ، وَكَانَتْ لَهُ فِي حُبِّ  
النُّجَارِ أَصَالَةٌ، وَفِي حِسَابِ الْفَخَارِ إِصَابَةٌ، وَمِنَ الشَّرِّ انْتِقَالَةٌ، وَمِنَ الْخَيْرِ قَرَابَةٌ.

كَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ: أَمَا بَعْدُ فَإِنَّهُ لَا  
يَقُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي النَّاسِ إِلَّا خَصِيفُ الْعُقْدَةِ، بَعِيدُ الْغَيْرَةِ، لَا يَحِيقُ عَلَى جَرِّهِ، وَلَا يَطْلُعُ النَّاسُ  
مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. [البسيط]

تَلَّكَ الْمَكَارِمُ لَا عُقْبَانَ مِنْ لَبَنِ      شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدَ أَبْوَالِ

فَأَهْمَرْنَا عَلَى السَّلَاطِينِ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ سُلْطَنَتَهُمْ عَارِيَةٌ، وَأَنَّ مَمْلَكَتَهُمْ فَانِيَةٌ مِنَ الْبَقَاءِ عَارِيَةٌ، وَأَنَّ أَعْمَارَهُمْ مُنْقَضِيَةٌ مُنْقَضِبَةٌ مُتَنَاهِيَةٌ، وَأَنَّ مَعَاقِدَ الدُّنْيَا وَاهِيَةٌ، لَكِنَّ النُّفُوسَ الْغَافِلَةَ عَنِ اللَّهِ لَاهِيَةٌ، لَا خُلُودَ فِي الدُّنْيَا لِمَلِكٍ وَلَا سُوقَةَ، وَآيَةٌ عَيْشِيَّةٌ فِيهَا مُحِضَتٌ وَهِيَ غَيْرٌ مَمْدُوقَةٌ، وَمَنْ لَمْ يَكْتَسِبْ فِيهَا حَسَنَةً فَهُوَ خَاسِرٌ وَالْقَدْرُ مِنْهُ سَاخِرٌ، وَقَدْ سُمِّيَ السُّلْطَانُ ظِلَّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ لِأَنَّهُ فِي عَهْدَةِ أَمِيرٍ عَظِيمٍ، وَطَالِبٍ لِنِتَاجِ مُلْكٍ عَقِيمٍ، وَوَاقِفٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَإِنَّ رَأْيَ بِيهِ الْقَدَمُ حَلَّ بِهَذَا النَّدَمِ.

قَالَ الْمَأْمُونُ يَوْمًا لِابْنِهِ الْعَبَّاسِ وَهُوَ يَعْظُمُ: يَنْبَغِي لِمَنْ أَسْبَغَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهِ نَعْمَهُ وَأَشْرَكَهُ فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَبَسَطَ لَهُ فِي الْمَقْدَرَةِ أَنْ يُنَافِسَ مِنَ الْخَيْرِ فِيمَا يَبْقَى ذِكْرُهُ وَيَجِبُ أَجْرُهُ وَيُرْجَى ثَوَابُهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ هِمَّتَهُ فِي عَدْلِ بِنَشْرِهِ، وَبِدَعَةٍ يُمِيتُهَا أَوْ جَوْرِ يَدْفُنُهَا، أَوْ سُنَّةٍ صَالِحَةٍ يُحْيِيهَا، أَوْ مَكْرَمَةٍ يَعْتَقِدُهَا أَوْ صَنِيعَةٍ يُسَيِّدُهَا، أَوْ يَدٍ يُودِعُهَا أَوْ أَثَرٍ مَحْمُودٍ يُذِيعُهَا، وَالسُّلْطَانُ إِنْ اسْتَرَاحَتْ الرِّعْيَةُ فِي رُوحِ رِعَايَتِهِ فَهُوَ ظِلُّ اللَّهِ، وَإِنْ فَقَدَتْ الرَّاحَةَ فِي السَّاحَةِ فَاعْلَمْ أَنَّ ضَالًّا مُضِلًّا وَأَمْرُهُ مُضْمَحِلٌّ، وَفِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ وَمَقَامِ الْمَدْلَةِ يُسْأَلُ عَنْ كُلِّ خِصْلَةٍ وَخَلَّةٍ.

وَلَمَّا فَسَدَ الزَّمَانُ وَتَكَبَّرَ الْعِرْفَانُ وَأُنْسَ بِأَذَى الْإِنْسَابِادِيِّ الْمُؤْذِي، قَالَ لِلْمَمْلَكَةِ إِنْ شِئْتَ عُودِي بِسُوءٍ إِلَى عَادَةِ الشَّرِّ وَإِنْ شِئْتَ فَبِاللَّهِ مِنْهُ عُودِي، وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَصِيرَ الْمُلْكُ الْمَحْمُودِيُّ مَدْمُومًا وَعَلَى ذَوِي النَّقْصِ وَالْجَهْلِ مُبَارِكًا وَعَلَى أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ مَشُومًا قَبِضَ لَهُ ذَلِكَ الْجَاهِلُ الْغَشُومُ، وَحَقَّقَ لَدَيْهِ النُّحْسَ وَالشُّومَ، فَلَمَّا تَوَلَّى أَخْرَجَ مِنْ خَلْفِ الْفَدَنِ بَقْرَهُ وَأَحْضَرَ مِنْ وَرَاءِ الْكِرَابِ بَقْرَهُ، وَحَشَدَ وَحَشَرَ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ وَمَزْرَعَةٍ مَعَشَرَهُ، وَأَشْبَعَ مِنْهُمْ كُلَّ ضَارٍ طَارٍ، وَكَانُوا كَالْعَقَاقِيرِ الْوَانَا وَفِي الْغِيَايَةِ أَعْوَانًا، وَكَانَ كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ النَّجَّهِمِ<sup>(1)</sup> فِي ابْنِ أَبِي دُوَادَ<sup>(2)</sup>: [الكامل]

وَإِذَا تَرَبَّعَ فِي الْمَجَالِسِ خَلَّتَهُ ضَبْعًا جَنًّا وَبَنِي أَبِيهِ قُرُودًا

(1) علي بن الجهم: أبو الحسن، علي بن الجهم بن بدر، من بني سامة من لؤي بن غالب، شاعر من بغداد، كان معاصراً لأبي تمام، مدح المتوكل العباسي وتقرب إليه بدم العلويين، ثم غضب عليه المتوكل العباسي فنفاه إلى خراسان، وانتقل بعدها إلى حلب، قتله فرسان من بني كلب سنة 249 هـ.

(2) ابن أبي دواد: هو أحمد بن أبي دواد بن جرير بن مالك الإيادي، أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، ولد في تفسرين قرب حلب سنة 160 هـ، وقبل ولد في البصرة، وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء، وقد أتى عليه خلفاء بني العباس، وتقدم في عهد المأمون والمعتصم والواتق كان شديد الدهاء محباً للخير، أصيب بالفالج في آخر أيامه، وتوفي ببغداد سنة 233 هـ.

وَإِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا شَبَّهَتْهُ  
لَا صُبْحَتْ بِالْخَيْرِ عَيْنٌ أَبْصَرَتْ  
شَرْقًا بِعَجَلِ شِدْقِهِ مَزْرُودًا  
تَلَكَّ الْمَنَاخِرَ وَالْتَنَابَا السُّودَا  
وَتَبًّا لِذَهْرِ أَحْوَجَ إِلَى مِثْلِهِ، وَلِمَلِكٍ رَجَحَ مِيزَانَ ظُلْمِهِ بِجَهْلِهِ.

اعتلَّ أبو الدَّقِيشِ الأعرابيُّ فدخلَ عليه أصحابُه يعودونَه، فقالوا له: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي ما لا أجدُ وأجدُ ما لا أشتهي، ووجدتُ من وجدَ لم يجدُ ومن جادَ لم يجد، وأنشد: [الطويل]

اتعرف في الدنيا كريماً تؤمُّهُ  
أخو الجود معتوبٌ عليه ودُّ الغنى  
لقد كنتُ أحوي منه غيرَ قليلٍ  
ولا فما يُغني احتيالَ حبولٍ  
فهذا زمانٌ خَيْرُهُ للئامه  
للو كانَ مالٌ باكتسابٍ وحيلةٍ  
هو الصبرُ حتى يَأدُنَ اللهُ بالغنى

قال أنوشروان: وما أنشدتُ هذا البيتَ لأنَّ طبعي أملُ الغنى فإني ما أمثلتهُ في الشبيهة فكيف في الشيب، وقد لپستُ الزمانَ على ما فيه من العيب والرَّيب، وحكيَّ أَنَّهُ عرَضَ العباسُ على أبيه المأمونِ رُقعَةً للعتابيِّ فيها: أما بعدُ فإني تابعتُ الأنامَ في مسألةِ الشيمِ وأخذَ عفوَ الأخلاقِ واغفَارَ التَّقصيرِ مِنَ المَعاشِرِ وذلكَ عندَ استقصائي الطبقاتِ وامتحانِي صُفوفِ الأشكالِ فرأيتُ اللوائِمَ تعقبُ الذلَّةَ وتَهيجُ القُطيعَةَ، فرَضيتُ باليأسِ مِنَ الناسِ وتَبَلَّغتُ بالمُمكنِ وجعلتُ معرفتي بهم عَوْضاً مِمَّا فاتَ من تأملي لهم. [الوافر]

مَتَى تُرَدُّ الشِّفَاءَ لِكُلِّ غَیْظٍ  
تَكُنْ مِمَّا يُغِیْظُكَ فِي اِزْدِیَادِ  
وَلَمَّا تَمَّ إِصْرَارُ السُّلْطَانِ عَلَى إِضْرَارِ الْخَلْقِ وَنَصْرُ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ مَكَنَ أَبَا الْقَاسِمِ مِنْ  
وَزَارِيهِ، فَفَتَكَ وَهَتَكَ وَاسْتَبَاحَ الدَّمَاءَ وَسَفَكَ، وَلا بَسَّ الْمَحْظُورَاتِ وَغَامَسَ الْمَحْذُورَاتِ،  
وَشَرَعَ الْمُنْكَرَاتِ وَأَنْكَرَ الْمَشْرُوعَاتِ، وَكَتَفَ الظُّلْمَاتِ وَكَثَّرَ الظُّلَامَاتِ، وَخَرَّبَ مِنْ  
المَعْرُوفِ العِمَارَاتِ وَعَمَّرَ بِالْمُنْكَرِ الخَرَابَاتِ، وَظَهَرَ فِي عَصْرِهِ أَلْفُ سُوقٍ لِلْفُسُوقِ وَأَلْفُ  
جُورٍ مَعَ الفُجُورِ، وَبَسَطَ كَفَّ الكُفُورِ، وَارِي فِي العُقُوقِ وَرَفَضَ الحُقُوقِ، كَلَبَ العَقُورُ، وَعَقَرَ  
وَعاقرَ، وَنَفَرَ وَنَافَرَ، وَعَضَّ وَرَضَّ، وَقَضَى وَانْقَضَى وَأَمْرَضَ وَأَمَّضَ، وَنَهَسَ وَنَهَسَ وَأَوْجَسَ  
وَأَوْحَسَ، وَضَامَ وَظَلَمَ، وَغَشِمَ وَتَغَشَّرَمَ، وَاسْتَحَلَّ الحُرْمَاتِ وَاسْتَحَلَّى المَحْرَمَاتِ، وَأَعَدَمَ

الْمَكَارِمِ، وَأَوْجَدَ الْمَكَارَةَ، وَنَبَّهَ الْخَامِلَ وَأَخْمَلَ النَّابَةَ، وَوَضَعَ التَّغْيِيرَاتِ وَغَيَّرَ الْمَوْضُوعَاتِ، وَحَرَّمَ الْحَلَالَ وَأَحْلَى الْحَرَامَ، وَقَبِحَ الْأَثَارَ وَاجْتَرَحَ الْأَثَامَ وَعَادَى الْكِرَامَ وَبَدَّدَ النِّظَامَ وَوزَعَ الْمُصَادِرَاتِ، وَصَدَّرَ التَّوْزِعَاتِ، وَظَاهَرَ الْبَاطِنِيَّةَ، وَأَحْيَى السُّنَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ، وَشَرَعَ فِي الْفِتَنِ فِي الْأَحْرَارِ وَهَتَكَ الْأَسْتَارَ، وَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَتَهَوَّرَ وَتَهَوَّسَ، وَتَغَشَّمَرَ وَأَبَى وَاسْتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَظَنَّ أَنَّهُ مِنَ الرَّابِحِينَ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَشَرَعَ فِي وَضْعِ الْبَاطِنِيَّةِ عَلَى الْأَكَابِرِ لَلْفِتَنِ وَالْإِغْتِيَالِ، وَنَصَبَ بِذَلِكَ شَرَكَ الْغَدْرِ وَالْإِحْتِيَالِ، فَمِنْ جُمْلَةِ مَنْ فَتَكَ بِهِ قَاضِي الْقَضَاةِ زَيْنُ الْإِسْلَامِ أَبُو سَعْدٍ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مَنصُورِ الْهَرَوِيِّ، وَكَانَ أَوْحَدَ ذَهْرِهِ وَشَيْخَ عَصْرِهِ الْمَعْرُوفِ بِإِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ، وَالْمَرْجُو لِإِعْدَاءِ الْمَلْهُوفِ، وَهُوَ حَبْرُ الْعَالَمِ وَالْحَاكِمُ بِالْعَدْلِ وَالْعَادِلُ فِي الْحُكْمِ، وَلَهُ الصِّبْتُ الرَّفِيعُ وَالصَّدْرُ الرَّحِيبُ، وَالسُّمُو الْمَهِيدُ وَالسَّمْتُ الْمَهِيْبُ، وَقَدْ مَلَكَ مِنْ قُلُوبِ السُّلْطَانِ الْقَبُولَ، وَلَمْ يَرَوْا مِنْ نُصْحِهِ وَإِشَارَاتِهِ الْعُدُولَ، وَكَانَ مِنْ مُتَعَصِّبِي عَمِي الْعَزِيزِ الْمَخْصُوصِينَ فِي الْإِفْضَالِ بِالتَّبْرِيْزِ، فَتَقَرَّرَتْ لَهُ بَعْدَ وَزَارَةِ أَبِي الْقَاسِمِ الدَّرَكْزِنِيِّ الْإِنْسَابَاذِيِّ رِسَالَةُ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ سَنَجَرِ، وَسَارَ إِلَى خِرَاسَانَ فِي الْبَهَاءِ الْأَبْهَرِ وَالْجَمَالَ الْأَوْفَرَ وَالْأَوْفَرَ، فَصَعَبَ عَلَى هَذَا الْوَزِيرِ أَمْرُهُ وَتَقَسَّمَ سِرُّهُ وَتَوَزَّعَ فِكْرُهُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ هُنَاكَ انْتَهَكَ سِتْرَهُ، فَإِنَّهُ كَانَ مَوَّهًا وَلَبَّسَ، وَأَخْفَى أَحْوَالَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ وَدَلَّسَ، حَتَّى تَسَنَّى لَهُ وَزَارَةُ الْعِرَاقِ، وَرَوَّجَ بِإِنْفَاقِهِ كَاسِدَ حَالِهِ فِي سُوقِ النِّفَاقِ، فَعَرَفَ أَنَّ الْهَرَوِيَّ يَهْرِيهِ، وَتَنَزَّعَ عَنْهُ لِبَاسَ تَلْبِيسِهِ وَيَعْرِيهِ، وَأَنَّهُ تَوَّهَّ بِجَهْلِهِ وَرُبَّمَا رَجَعَ بِعَزْلِهِ، فَتَقَرَّرَ مَعَ عِدَّةٍ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ أَنَّهُمْ فَتَكُوا بِهِ عِنْدَ عَوْدِهِ مِنْ رِسَالَةِ خِرَاسَانَ وَقَدْ حَضَرَ الصَّلَاةَ فِي جَامِعِ هَمْدَانَ، فَاسْتَشْهَدَ قَبْلَ أَنْ يَشْهَدَ السُّلْطَانَ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةَ، وَكَانَ حَيْثُذُ بِالْمُوصِلِ سَيْفُ الدِّينِ آقِ سَنَقَرِ الْبَرَسَقِيِّ الْغَازِي الْمُجَاهِدِ التَّقِيُّ النَّفِيُّ فِي وَزِيرِ ذَلِكَ السَّعِيدِ الْوَزِيرِ الشَّقِيِّ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ قَمَعَ أَهْلَ الْإِنْحَادِ وَغَمَّهُ أَمْرُ هَذَا الْوَزِيرِ الَّذِي سَدَّ بَابَ السُّدَادِ وَنَهَجَ طَرِيقَ الْفَسَادِ، وَتَوَسَّلَ الْوَزِيرُ عِنْدَ السُّلْطَانِ فِي عَزْلِهِ فَلَمْ يَقْدِرْ، وَبَالَغَ فِي كُلِّ مَكِيدَةٍ وَلَمْ يَقْصُرْ، فَلَمَّا أَعْيَاهُ أَمْرُهُ اسْتَدْعَى أَحْوَانَهُ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ حَتَّى جَلَسُوا لَهُ فِي جَامِعِ الْمُوصِلِ بَزِي الصُّوفِيَّةِ وَقَفَرُوا عَلَيْهِ وَضَرَبُوهُ بِالسَّكَاكِينِ، وَسَعَى الْوَزِيرُ فِي هَذَا رُكْبِهِ الرُّكْبَيْنِ، وَجَلَّ بِهِ مِصَابُ الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ عَشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةَ، وَكَانَ وَزِيرَ السُّلْطَانِ سَنَجَرِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ الْأَجَلِّ مُعِينُ الدِّينِ مُخْتَصُّ الْمَلِكِ أَبُو نَصْرِ أَحْمَدُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ مَحْمُودٍ وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ كَرَمِهِ وَقَضِيلِهِ فِي زَمَانِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ وَتَوَلَّيَهُ دِيْوَانَ الْإِسْتِيفَاءِ،

وَلَقَدْ كَانَ مُوثَلًّا لِأَهْلِ الرَّجَاءِ وَهُوَ مِنْ مَمْدُوحِي الْقَاضِي أَبِي بَكْرِ الْأَرْجَانِيِّ، وَلَهُ فِيهِ قَصِيدَةٌ صَادِيَةٌ أَوْلَاهَا<sup>(1)</sup>: [الْخَفِيفُ]

رَوْحًا سَاعَةً مَتُونِ الْقِلَاصِ  
وَيَقُولُ فِيهَا:

بِاخْلِيلِيٍّ مِنْ سِرَاةِ بَنِي الدِّ [م]  
وَاسِيَانِيٍّ فَلِإِخْلَاءِ قَدَمًا  
وَمِنْهَا:

إِنْ تُرِينِي صَلَاةَ جَمْرَةٍ خَطَبِ  
فَالْمَلَمَاتُ لِلرِّجَالِ مَحَكُّ  
وَمِنْهَا فِي الْمَخْلَصِ:

فُلْتُ لَمَّا فَشَّتْ جُرُوحُ اللَّيَالِي  
مَنْ زَمَانَ أَضْحَى لَتِيمَ شَبَاعِ الرَّ [م]  
كَلَّ يَوْمَ لَرِيْبِهِ فِي فُوَادِي  
هُوْنَ الْأَمْرِ وَأَسْتَعْنُ بِمَعِينِ الدِّ [م]  
وَإِذَا اسْتُنْصِرَ الْهَمَامُ أَبُو نَصَبِ [م]  
كَيْفَ أَشْكُو خَطْبًا وَمُخْتَصُّ مَلِكِ الدِّ [م]  
وَمِنْهَا:

ذُو نَدَى يَسْتَهْلُ كَالدَّيْمَةِ السَّكِّ [م]  
وَيَنْبَانِ تُرِيْبِكَ لِلْقَلَمِ النَّا [م]  
وَمِنْهَا:

وَإِذَا مَا امْتَطَى لَهُ الْكُفَّ سَيْفُ  
لَا يُخَيِّطُ الْكُرَى جَفُونَ أَعَادِي- [م]  
بَيْنَمَا الْخَيْلُ فِي الْعِيُونَ طَيُوفًا

وَإِخْطِيفًا وَقَفَةً بِتِلْكَ الْعِرَاصِ

أَقْبَالِ وَالْفُرْمِ مِنْ بَنِي الْأَعْيَاصِ  
بِالتَّوَاسِي فِي النَّائِبَاتِ تَوَاصِ

سَبَكْتَنِي بِالْيَدِ سَبَكَ الْخَلَاصِ  
فَارِقُ بَيْنَ تَبْرِهَا وَالرِّصَاصِ

فِي فُوَادِي وَعَزَّ نَيْلُ الْقِصَاصِ  
رَهْطٍ مِنْ أَهْلِهِ كَرِيمِ الْخِمَاصِ  
وَخَزْرَةَ مِثْلُ قَصَّةِ الْمِقْرَاصِ  
دِينِ يَقْتَصُّ مِنْهُ إِيَّيَّ اِقْتِصَاصِ  
رَأْطَاعَتِ لَنَا اللَّيَالِي الْعَوَاصِ  
أَرْضِ أَضْحَى بِالْقَرَبِ مِنْهُ اِخْتِصَاصِ

سِبِّ وَيَشُرُّ كَالْكُوكِبِ الْتَوَاصِ  
حِلِّ فَضْلًا عَلَى الْقَنَا الْعَرَاصِ

قَالَ لِلْقِرْنِ لَاتَ حِينِ مَنَاصِ  
سَهْ عَلَى الْأَمْنِ بِالْمَحَلِّ الْقَاصِ  
إِذْ رَمَاهَا الثُّبَاتُ بِالشَّخَاصِ

مَارَسُوا طَعْنَ كُلِّ ذَمِرٍ لِعَيْنِ الشِّدِّ [م] شَمْسٍ عِزْرًا بِرَمَجِهِ بِتَخَاصِ  
وَكَأَنَّ النَّسُورَ عِنْدَ اشْتِبَاكِ السِّدِّ [م] سُمِّرَ طَعْنًا يَلْحَنُ فِي أَقْفَاصِ

فَالْمُعِينُ أَحْمَدُ بْنُ الْفَضْلِ كَانَ مَعْرُوفَ الْفَضْلِ فَاضْلَ الْعَرَفِ صَائِبَ الرَّأْيِ صَيِّبَ الْجُودِ طَيِّبَ  
الْعَرَفِ فَأَيَّفَ مِنْ وَزَارَةِ الدَّرَكِزْنِيِّ بِالْعِرَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ عَلَى الدَّوْلَتَيْنِ شَدِيدَ الْإِشْفَاقِ، وَعَرَفَ  
الدَّرَكِزْنِيُّ أَنَّ نَقْصَهُ مَعَ فَضْلِ ابْنِ الْفَضْلِ بَادٍ، وَأَنَّ أَمْرَهُ مَبْنِيٌّ لِعَمَى دَهْرِهِ عَنْهُ عَلَى غَيْرِ عِمَادٍ،  
فَلَمْ يَزَلْ يُعْمَلُ كَيْدُهُ فِي نَكَيْتِهِ، وَيَتَسَلَّقُ بِالْمَكْرِ عَلَى ذُرَى هَضْبَتِهِ، وَبِاطْنِ الْبَاطِنِيَّةِ عَلَى قَتْلِهِ وَفَرَعِ  
فِكْرِهِ لِبُغْلِهِ، فَوَجَدَهُ مُتَحَرِّزًا مُتَيْقِظًا مُتَحَفِظًا، وَبَثَّ عَلَيْهِ حَبَائِلَهُ وَأَرَثَ عَلَيْهِ غَوَائِلَهُ، وَسَيَّرَ إِلَى  
خِرَاسَانَ عِدَّةً مِنَ الْمَلَاحِدَةِ فَتَوَصَّلَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ إِلَى أَنَّ خَدَمَ فِي اصْطِبْلِ الْوَزِيرِ الْمُعِينِ سَائِسًا  
لِدَوَائِبِهِ، وَخَدَمَهُ حَتَّى كَمَلَتْ بِهِ بَيْتَةَ أَصْحَابِهِ، فَأَرَادَ الْوَزِيرُ يَوْمًا عَرْضَ عِتَاقِ خَيْلِهِ وَعِرَابِهَا، وَجَلَسَ  
لِاسْتِحْضَارِهَا وَانْتِخَابِهَا، فَحَضَرَ ذَلِكَ السَّائِسُ عُرْيَانًا، وَقَدْ حَبَّأَ سَكِينَتَهُ فِي نَاصِيَةِ حِصَانٍ، فَأَطْلَقَ  
حِصَانَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى شَغِبَ، وَاسْتَخْرَجَ مِنْ نَاصِيَتِهِ السَّكِينَةَ وَوَثِبَ، وَتَعَمَّدَ مَقْتَلَ الْوَزِيرِ فَأَصَابَهُ،  
وَعَظَّمَ عَلَى الْكِرَامِ مُصَابَهُ، وَبُضِعَ السَّائِسُ فِي الْحَالِ تَبْضِيعًا، وَوَزَعُوا وَمَزَعُوا لِحَمِّهِ تَوَازِعًا  
وَتَمَزِيعًا، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَمَا زَالَ الْوَزِيرُ الدَّرَكِزْنِيُّ  
ضَارِبًا ضَرْهَ مُسْتَشْرَأٍ شَرْهٍ، يَتَّبِعُ الْأَكَابِرَ وَيَرْتَكِبُ فِيهِمُ الْكِبَائِرَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُهُ جَهَارًا بِإِذْنِ مَنْ  
السُّلْطَانَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُهُ غَيْلَةً بِمَنْ يُنْجِدُهُ مِنَ أَوْلِئِكَ الْأَعْوَانِ، وَكَانَ الْوَزِيرُ الْمُعِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ  
مُحْرَصًا عَلَى الْإِقْيَاقِ بِالْبَاطِنِيَّةِ، صَحِيحَ عَقْدِ الْإِيمَانِ ظَاهِرًا نَيَّةً، وَكَانَ سَبَبُ مِيلِ الْبَاطِنِيَّةِ إِلَى  
الدَّرَكِزْنِيِّ أَنَّ الْأَمِيرَ شِيرْكَزِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ مُشْتَغَلًا بِحِصَارِ قَلْعَةِ أَلْمُوتِ وَقَدْ قَارَبَتْ فَتْحَهَا،  
وَشَارَفَتْ الْأَمَالَ فِي أَخْذِهَا نُجْحَهَا، فَلَمَّا تَوَفَّى السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ وَتَوَلَّى السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ وَتَمَكَّنَ  
الدَّرَكِزْنِيُّ مِنَ الدَّوْلَةِ وَجَالَ عَلَى كُرَّةِ الْمُلْكِ بَصُولَ لِحَاكِ الصَّوْلَةِ أَعْمَلَ الْحِيَلَةَ فِي اسْتِدْعَاءِ شِيرْكَزِ  
وَتَفَسَّرَ عَنْ قَلْعَةِ أَلْمُوتِ بِخَفِيِّ التَّلْبِيرِ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَدْفُقُ الْإِحْتِيَالَ وَيُصْعَدُّ وَيُصَوِّبُ الْإِغْتِيَالَ حَتَّى  
جَعَلَ لِشِيرْكَزِ عِنْدَ السُّلْطَانِ ذُنُوبًا اخْتَلَفَهَا وَمَسَاوِيءَ لَفَقَهَا، وَبُهْتَانًا زَوْرَةً وَتَزْوِيرًا صَوْرَةً حَتَّى اعْتَمَلَ  
ذَلِكَ الْأَمِيرَ الْغَازِي، وَكَادَ لَهُ وَلَوْلَايِهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ عَمْرَ الرَّازِي، وَلَمْ يَزَلْ يَطْلُبُ غَيْرَةَ السُّلْطَانِ  
فِي أَمْرِهِمَا حَالَتِي سُكْرِهِ وَصَحْوِهِ وَكَدْرِهِ وَصَفْوِهِ حَتَّى أَخَذَ رُخْصَتَهُ فِي سَفْكِ دَيْمِهِمَا الْحَرَامِ،  
وَأَذَهَبَ بِقَتْلِهِمَا قُوَّةَ الْإِسْلَامِ، وَأَتَّخَذَ بِذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْأَلْحَادِ يَدًا، وَاسْتَكْرَهَ لَهُ مِنْ أَعْوَانِهِمْ مَدَدًا،  
وَتَمَكَّنَ مِنَ الشَّرِّ وَقَوِيٍّ وَصَلَّ وَعَوِيٍّ، وَكَانَ عَمِي الْعَزِيزُ يَحْسَبُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْهُ جِزَاءٌ  
الْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، فَلَمَّا أَحَسَّ بَشَرَاةَ شَرْهٍ وَصَرَاطَةَ ضَرْهٍ أَفْكَرَ فِي طَرِيقِ الْإِنْزَوَاءِ وَالْخُلُوصِ مِنْ

تلك الأحوال والأهواء، فاستأذن في الحجّ وأداء فريضته واقتناء فضيلته، فسار في سنة سبع عشرة وخمسمائة وثمانين عشرة، وحاج تلك السنة بأجمعهم في ضيافته وكرامته وعمهم شمول عارفته، حتى قال فيه الرئيس أبو الحارث المراكري [كذا] البغدادي: [السريع]

يا كعبة الإسلام مالي أرى  
فصدت في العام وهذا الفتى  
وهنا عند عودِهِ القاضي أبو بكر الأرجاني بقصيدته النونية التي أولها<sup>(1)</sup>: [الكامل]

ورد الخدود ودوتهُ شوك القنا  
لا تمدد الأيدي إليه قطالما  
ويذكر في عودِهِ من غزوة الترك لَمَّا كَانَ بِشروان واتباعهُ لها بالبحج

انبعت غزوتك الحميدة غزوة  
وجررت أذيال الكتائب موعلاً  
حتى عدت تلك الجحافل منهم  
ومنها:

فقدنا هناك ببأس أحمد مؤمنا  
فليهنأ الإسلام إن عماده  
ومنها:

لله مقدم ماجد أضحى به  
عود إلينا عاد أحمد كاسمه  
ومخلص هذه القصيدة:

ما إن جفوت الطيف إلا ليلة  
لما ألمم وقد شغلت بمدحة  
في ليلة حسدت مصابيح الدجى  
فلمي بها حتى الصباح وشمعتي

والحى قد نزلوا بأعلى المنحنى  
لعزيز دين الله فكري مؤمنا  
كلمي وقد كانت بها هي أزيانا  
بشنا ثلاثنا ومدحك شغلنا

لَمَّا تَشَاهَرْنَا عَلَيْهِ الْأَسْنَا  
سَهْرًا فَأَصَبَحْنَا وَأَسْعَدُهُمْ أَنَا  
لَكُنْتِنِي اسْتَبْضَعْتُ دُرًّا مَثْمَنَا  
مِنْ قَبْلِ شَكْوَانَا لِمَا قَدَّمَسْنَا  
الْقَبِيَّةَ فَرَدًّا مَوَاهِبُهُ نُنِّي

ومنها:

مُذْ كَانَ لَمْ يُخْسِنَ سِوَى أَنْ يُحْسِنَا  
أَضْحَى بِغُرَّةٍ وَجْهَهُ مُتَيَّمْنَا  
يُعْنِي الْمُسِيرَ عِنَادُهُ وَالْمُعْلِنَا  
أَوَى إِلَى قَلَمٍ لَهُ فَتَتَعَبْنَا

حَتَّى إِذَا وَافَى ذُرَاكَ اسْتَوْطَنَا  
فَكَذَلِكَ أَنْتَ بِهِ شَدِيدُ الْمُعْتَنَى  
فَالْيَكْ كَانَ أَشَارَ حَيْنَ بِهِ اِكْتَنَى

وَالذِّكْرُ فِي الْأَيَّامِ نِعَمَ الْمُقْتَنَى  
كَمَزِيدٍ مَا يُؤَلِّيهِ حُسْنًا عِنْدَنَا  
وَأَعْدْتُ تَرَكَ مَدِيحٍ مِثْلِكَ أَهْجَنَا  
صِيَّةَ الْعُلَى وَحَوَيْتَ عَاصِيَةَ الْمُئِنَى  
وَبِلَا تَغْيِيرٍ آخِرٍ مُتَمَكَّنَا

لَمَّا عَادَ مِنْ حَجِّهِ وَفَارَّ بِوُضُوحِ نَهْجِهِ، اسْتَعْفَى السُّلْطَانَ مِنْ شُغْلِهِ، وَرَغِبَ فِي الْعَطْلَةِ  
فَطَلَبَ الْعُرَّةَ، فَمَا أَجَابَهُ إِلَى مُرَادِهِ وَلَا مَكَّنَهُ مِنْ انْفِرَادِهِ، وَأَعَادَهُ إِلَى مَنْصِبِهِ عَلَى الْعَادَةِ،  
وَأَشْرَقَ بِهِ مَطْلَعُ السَّعَادَةِ، وَأَصْبَحَ الْوَزِيرُ يُجَوِّلُ فِي مَكْرٍ مَكْرِهِ، وَيُسِّرُ لَهُ مَا يَرِجِعُ بِشُغْلِ سِرِّهِ،  
وَعَادَتِ تِلْكَ الصَّدَاقَةُ عِدَاوَةً، وَالْمَعْرِفَةُ نُكْرَةً وَعِبَاوَةً، وَعَبَّرَتْ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً قَبَّتَ الْعَزِيزُ  
عَلَى الْاسْتِعْفَاءِ وَتَرَكَ مَنْصِبَ الْاسْتِعْفَاءِ، فَقَالَ السُّلْطَانُ إِذَا كُنْتَ مُسْتَعْفِيًّا وَلَا تُؤَثِّرُ أَنْ تَكُونَ

حَتَّى هَزَمْنَا لِلظُّلَامِ جَنُودَهُ  
أَفْنَاهُمَا قَطِي وَأَفْنَيْتُ الدَّجَى  
وَإِلَى الْعَزِيزِ أَمَلْتُ نَضْوَى زَائِرًا  
فَقَدَا بَنِيْلَ الرَّفْدِ مَوْفَى كَيْلُهُ  
مَلِكٌ أَغْرُ أَذَا انْتَدَى يَوْمَ النَّدَى

أَمَنْتَ إِسَاءَتَهُ عِدَاةً لِأَنَّهُ  
لَمَّا رَأَى السُّلْطَانَ خَالَصَ نُصْحَهُ  
فَقَدَا وَفِي بَيْمَانِهِ أَيْةُ مُلْكِهِ  
فَمَتَى تَفَرَّعَنْ فِي الْمَمَالِكِ مَارِقًا  
وَمِنْهَا وَكَانَتْ كُنْيَةُ وَالِدِ الْعَزِيزِ أَبُو الرَّجَاءِ:

أَمَا الرَّجَاءُ قَلَمٌ يَزَلُ مُتَفَرِّبًا  
الْقَى إِلَى ابْنِ أَبِيهِ مِنْكَ رِحَالُهُ  
أَنْتَ الرَّجَاءُ لِكُلِّ مَنْ يَطَّأُ الثَّرَى

ومنها:

يَا مَا جَدًّا عَبَقَ الزَّمَانُ بِذِكْرِهِ  
يَزْدَادُ عَنْكَ حُسْنُ مَا تُثْنِي بِهِ  
وَأَعْدُ مَدَحَ مُلُوكِ عَضْرِي هُجْنَةً  
فَبَلِغَتْ قَاصِيَةَ الْمَدَى وَمَلَكْتَ نَا[م]  
وَبَقِيَتْ مِنْ عَبِيرِ انْقِطَاعِ مَاضِيَا

مُسْتَوْفِيًا فَمَالِي أَعَزُّ مِنَ الْوَالِدِ وَالْمَالِ وَتَوَلَّيْهِمَا مِنْ أَعَزِّ الْأَعْمَالِ، وَقَدْ سَلَّمْتُ إِلَيْكَ خَزَائِنِي وَأَوْلَادِي، وَبِهَذَا يَحْصُلُ مُرَادُكَ وَمُرَادِي، فَلَمَّا خَلَا مَنْصَبُهُ مِنْهُ وَرَغِبَ الْعَزِيزُ عَنْهُ تَوَلَّى الصَّفِيَّ أَبُو الْقَاسِمِ الْجَنْزِيُّ دِيْوَانَهُ وَجَلَسَ مَكَانَهُ، وَمِنْهُ يَقُولُ الشَّرِيفُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْحَوِيزِيِّ<sup>(1)</sup> يَهْجُو الصَّفِيَّ حُسَيْنًا: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

فَالْوَاتَوْلَى الْعَزِيزُ فِينَا      قُلْتُ زَيْنٌ وَأَيُّ زَيْنٍ  
لَمْ تَوَلَّى الصَّفِيَّ فِينَا      فَقُلْتُ شَبِينًا وَأَيُّ شَبِينٍ  
وَلَا بَيْتَ صَفْوَةٍ وَلَكِنْ      كَدَّرْتَ بِالصَّفِيِّ حُسَيْنٍ

ومنها:

مَنْجَمُ السُّرْمِ فَهُوَ يَهْوَى      جَرَّ الزَّيَّانَا إِلَى الْبُطَيْنِ  
فَتَوَارَزَ هَذَا الْمُسْتَوْفِي وَالْوَزِيرُ وَالْجَمَاعَةُ عَلَى قَصْدِ الْعَزِيزِ فَلَمْ يَقْدِرُوا لَهُ عَلَى مَصْرَةٍ، وَلَمْ يَعْتَرُوا لَهُ عَلَى عَشْرَةٍ، وَكَانَتْ قَدْ مَضَتْ عَلَى وَزَارَتِهِ ثَلَاثُ سِنِينَ مُظْلِمَةَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، دَارِسَةً فِيهَا مَعَالِمُ الْمَعَالِي، وَسَمَلُ الْعَدْلِ بَغَيْرِ التِّيَامِ، وَسَلَكُ الْمُلْكِ بِلَا نِظَامٍ، وَالْمَرَاتِبُ غَيْرُ مُرْتَبَةٍ، وَالْمَذَاهِبُ غَيْرُ مُهَدَّبَةٍ، وَالْمَعَاقِدُ غَيْرُ مُبْرَمَةٍ، وَالْقَوَاعِدُ غَيْرُ مُحْكَمَةٍ، وَالْمَقَاصِدُ غَيْرُ صَادِقَةٍ، وَالْمَحَامِدُ غَيْرُ نَافِقَةٍ، وَالرَّجَاءُ غَيْرُ فَارِحٍ، وَالْقَدَرُ غَيْرُ فَارِحٍ، وَالْأَمْرُ بِالْعَدْلِ غَيْرُ خَارِجٍ، وَالرَّعِيَّةُ غَيْرُ مَرْعِيَّةٍ، وَالْقَضِيَّةُ مُبْهَمَةٌ غَيْرُ مُرْضِيَّةٍ، وَتَفَرَّغَ الْعَزِيزُ لِإِعْلَامِ السُّلْطَانِ بِالتَّشْوِيشِ وَالتَّشْوِيهِ، وَحَصُولِ كُلِّ أَمْرٍ كَرِهِيٍّ بِهِ فِي الْأَمْرِ الْكَرِيهِ، فَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِقَبْضِ الْوَزِيرِ وَاعْتِقَالِهِ، وَسَلَّمَهُ إِلَى الْعَزِيزِ لِيُرِيحَ النَّاسَ مِنْ شُرِّهِ وَاعْتِيَالِهِ، وَقَالَ لَهُ هَذِهِ الْوِزَارَةُ لَكَ وَالْوَزِيرُ فِي يَدِكَ وَقَدْ أُذِنَ لِي فِيهِ مَقْطَعُ عَلَّتِكَ وَحَلَّ عَقْدِكَ، فَرَأَى أَنَّ هَلَاكَهُ عَلَى يَدَيْهِ شَنِيعٌ، وَأَنَّ ذِكْرَهُ بِالْفَتْكَ وَهُوَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ قَظِيحٌ، وَدَبَّرَ فِي تَوَلِّيِّهِ وَزِيرٍ يُسَلِّمُهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ لِأَجْلِ الْخَوْفِ عَلَى مَنْصَبِهِ فِيهِ يَقْضِي عَلَيْهِ، فَسَمَى فِي اسْتِدْعَاءِ شَرْفِ الدِّينِ أَنْوَشِرَوَانَ بْنِ خَالِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ مِنْ بَغْدَادٍ، فَلَمَّا حَضَرَ وَاسْتَوَزَرَ حَمَلَ الْوَزِيرَ الدَّرَكَزْنِيَّ إِلَى دَارِهِ عَلَى حَالِهِ وَصَبَّرَهُ فِي اعْتِقَالِهِ، فَكَانَتْ فِي أَنْوَشِرَوَانَ رَكَاتَةٌ ظَاهِرَةٌ وَوَضَاعَةٌ لِخُلُقِي الرَّفِيعَةِ قَاهِرَةٌ، فَلَمَّا تَسَلَّمَ الْوَزِيرَ الدَّرَكَزْنِيَّ صَرَبَ لَهُ فِي دَارِهِ الْخَرَكَاهُ،

(1) الشريف شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد العباسي الحويزي، قال العماد في خريدة بلاد العجم: كان ذارياً وروية، وبصر وبصيرة، غزير الفضل، كبير القدر، عالي الهمة، نوه بذكره عمي العزيز ورفعه على الأفاضل وجاه وأغناه، وشعره كان مقتصرًا على مدح العزيز وهجو أعدائه وله فيه قصائد كثيرة.

وَأَذِنَ لِكُلِّ صَاحِبٍ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهِ وَيَلْقَاهُ، وَأَعَادَ إِلَيْهِ فِي حَبِيبِهِ الْوَقَارَ وَالْجَاهَ، وَكَانَ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدْخُلُ إِلَيْهِ وَيَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيُخَاطِبُهُ بِمَا مَوْلَانَا، وَيَقُولُ لَهُ أَنْتَ أَوْلَى مِنَّا بِالْمَنْصَبِ الَّذِي خُصَّنَا بِهِ السُّلْطَانُ وَأَوْلَانَا فَسَقَطَتْ حُرْمَتُهُ وَذَهَبَتْ هَيْبَتُهُ، وَأَتَّصَعَتْ زَارَتُهُ وَعُرِفَتْ حَقَارَتُهُ، وَخِيفَ عَوْدُ الدَّرَكَزِيِّ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ سَلَامَتِهِ إِلَى مَنْصَبِ كَرَامِيَّةٍ، فَشَرَعُوا فِي إِعَادَتِهِ وَجَرَوْا عَلَى إِرَادَتِهِ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي دَارِ أَنْوَشِرَوَانَ وَالنَّاسُ مُتَأَوِّبُونَ إِلَيْهِ لِتَقْرِيرِ زَارَةِ السُّلْطَانِ وَأَنْوَشِرَوَانَ سَاهٍ لَاهٍ، وَبِمَا هُوَ مِنَ النَّصَبِ وَالنَّسَبِ زَاهٍ، فَمَا شَعَرَ حَتَّى أُخْرِجَ مِنْ دَارِهِ، وَرُدَّ إِلَى مَقَرِّهِ عَلَى قَرَارِهِ، وَأَذِنَ لِأَنْوَشِرَوَانَ فِي الْعَوْدِ إِلَى مَوْضِعِهِ وَالْغِيْضِ مِنْ مَنَبِعِهِ، فَرَأَى الْغَنِيْمَةَ فِي الْإِيَابِ، وَاعْتَمَّتِ السَّلَامَةُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَهُ فِي الْحِسَابِ، وَكَانَتْ زَارَتُهُ سَنَةً وَاحِدَةً، وَأَعُودَ عَلَى مَا أُورِدَ فِي بَابِهِ، وَالْآنَ أَذْكَرُ مَا ذَكَرَهُ عَن نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ.

#### وزارة شرف الدين أنوشروان بن خالد

قَالَ أَنْوَشِرَوَانَ: وَإِنْ كُنْتُ قَدْ اتَّخَذْتُ بَغْدَادَ مَدِينَةَ السَّلَامِ دَارَ الْمَقَامِ، وَأَنَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ فِي أَوْفَى ذِمَامٍ، وَأَسْرِعُ مُرَادٍ وَأَنْجِحُ مَرَامٍ، فَجَاءَنِي كِتَابُ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ وَخَاتَمُهُ، وَوَصَلَ رَسُولُهُ وَخَادِمُهُ يَسْتَحْتَنِي فِي الْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَيَسْتَعِجِلُنِي فِي الْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَوَصَلْتُ السَّيْرَ بِالسَّرِيِّ، وَهَجَرْتُ الرَّاحَةَ وَالْكَرَى، فَحِينَ حَضَرَتْ الْخِدْمَةُ شَافَهَنِي بِالتَّقْلِيدِ، وَخَصَّنِي بِأَمْرِهِ الْأَكِيدِ، وَكَمَّلَ لِي تَشْرِيفُ الْوِزَارَةِ وَخَلْعُهَا، وَأَدَوَاتُهَا مُحَلَّاهَا وَمُرْصَعُهَا، وَدَوَاةُ الذَّهَبِ وَالسَّلَاحِ الْمُجَوَّهَرُ وَالذَّسْتُ الْمُوقَرُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْوِزَارَةِ سَنَةً وَأَشْهُرًا لَا أَنْظُرُ شِفَاءً وَلَا أَشْفِي نَظْرًا، وَلَا أَسْتَمُرُّ جَنَى وَلَا أَجْنِي ثَمَرًا، وَلَا أَقْدُرُ عَلَى الْخُطَابِ فِي مَصْلَحَةٍ، وَلَا عَلَى التَّنْفِيسِ بِفَائِدَةٍ مُتَرَجِّحَةٍ، وَصَاحِبَا يَمِينِي وَيَسَارِي الشَّهَابُ أَسْعَدُ الطَّغْرَاثِي وَالصَّفِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ الْمُسْتَوْفِي، وَكِلَاهُمَا مُدْجِجٌ مَادِقٌ مُنَافٍ مُنَافِقٌ، وَقَدْ تَصَافَيَا عَلَى الْفَسَادِ، وَتَصَافَحَا عَلَى الْإِعْتِضَادِ، وَالْأَمِيرُ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ حَيْثُذِ أَرْغَانَ وَامْرَأَتُهُ خَلَفَ السَّيْرَ قَهْرْمَانَةُ السُّلْطَانِ، وَقَدْ زَادَتْ الدَّوْلَةُ بِالْحَاجِبِ وَظَعِينَتِهِ تَقِيصَةً وَعَادَتْ الْقِيَمَةُ الْغَالِيَةَ بِهِمَا رَخِيصَةً. [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

قَدْ كَانَ بَدْرَ السَّمَاءِ حُسْنًا وَالنَّاسُ فِي حُبِّهِ سَوَاءً  
فَزَادَهُ رَبُّهُ عَازَارًا تَمَّ بِهِ الْحُسْنَ وَالْبَهَاءُ  
لَا تَعَجَّبُوا رَبُّنَا قَدِيرٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

وَيُقَالُ فِي مِثْلِ عَوَامِ الْعَجَمِ أَنَّ الْعَذْرَةَ كَانَتْ رَطْبَةً وَوَقَعَ عَلَيْهَا الْمَطَرُ، وَمَا الَّذِي يُؤْمَلُ مِنْ سُلْطَانٍ خَرَجَ مِنْ ذَيْلِ أُمِّهِ وَانْتَقَلَ إِلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ مِنْ مَهْدِ يُتَيْمِهِ، فَلَا وَجَدَ تَرْبِيَةً وَلَا أَسْمَعَ لِنْدَاءِ الْأَدَبِ تَلْبِيَةً، وَتَسَلَّمَ الْمُلْكَ وَكَمْ يُؤْنَسُ رُشْدَهُ، وَعَقِدَ لَوَاؤُهُ وَكَمْ يَتَمَّ عَقْدُهُ، وَوَقَعَ فِي أَيْدِي هَمَلٍ مِنَ الْجِلْيَةِ مِنْ كُلِّ كَلٍّ وَكُلِّ وَكِلٍ، فَأَمْرُجُوهُ فِي شَهَوَاتِ صِبَاهِهِ وَأَرْهَقُوا لِلْمَسَاوِي شِبَاهَهُ، فَأَنْسَدُوهُ بِأَحْسَنَتِ وَصَدَقَ الْأَمِيرُ وَاخْتَلَفَ الْبِرُّ... وَتَعَلَّمَ الْإِيقَاعَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَكَانَ يَمِيلُ إِلَى وَاحِدٍ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ مَالَهُ، ثُمَّ يَمِيلُ عَلَيْهِ وَيَنْصُرُ صَاحِبَهُ فَيُخَوِي أَيْضاً حَالَهُ.

قَالَ أَنْوَشْرَوَانُ: فَلَمَّا رَأَيْتُ اتِّفَاقَ الشَّهَابِ أَسْعَدَ وَالصَّفِيِّ أَبِي الْقَاسِمِ وَالْحَاجِبِ أَرْغَانَ وَزَوْجَتَهُ وَتَوَازَرُهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ وَالْخَدَمِ وَالْمَمَالِكِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ كُلِّ مِنْهُمْ يَرْضَوْنَهُ يُرْضِيهِ قُلْتُ فِي نَفْسِي لَا يَظْهَرُ لِي مَعَ النَّاقِصِينَ فَضْلٌ، وَلَا يُقْبَلُ مَعَهُمْ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ. [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

لَطِي يَوْمٍ وَكِلْتَيْنِ      وَلَبَسُ ثَوْبَيْنِ بِالْيَيْنِ  
أَبْسَرُ مِنْ نِعْمَةٍ لِقَوْمٍ      أَغْضُ مِنْهَا جُفُونَ عَيْنِي  
إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ذَا اضْطِرَارٍ      وَكُنْتُ ذَا عِزَّةٍ وَدَيْنِ  
لَأَحْمَدُ اللَّهَ حَيْثُ صَارَتْ      حَوَائِجِي بَيْنَهُ وَبَيْنِي  
فَاسْتَعْفَيْتُ وَاخْتَرْتُ الْعِزْلَ عَلَى التَّوَلِيَةِ وَأَخَذْتُ نَفْسِي عَنِ الْوَلَايَةِ بِالْتَّعْزِيَةِ وَالتَّسْلِيَةِ،  
وَذَكَرَ بَيْتَيْنِ فَارِسِيِّنِ عَرَبْتُهُمَا وَأَوْرَدْتُهُمَا، وَهُمَا: [الدُّوَيْتُ]

يَا عَزَلِي أَنْتَ مَنْ أَذَاهُمْ مُنْجٍ      مِنْ شَرِّ طَبَاعِ رُومِهِمْ وَالزَّنَجِ  
لَا أَبْصُرُ بِأَبْهًا قَبِيحَ الْغَنَجِ      وَجْهَ الْكَنْجِي وَأَسْعَدُ الْقَوْلَنْجِي  
قَالَ: فَفَقَضْتُ يَدِي مِنْ صُحْبَتِهِمْ، وَقُلْتُ الْعَفَاءَ عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ وَرَتْبَتِهِمْ.

### وعاد الوزير الدرگزيني إلى الوزارة

فَإِنَّهُ أَرْغَبَ أَرْغَانَ الْحَاجِبَ بِالرُّشَى، وَمَشَى بِهِ غَرَضُهُ وَمَشَى، وَرَجَعَ كَالْكَلْبِ الْكَلْبِ وَالْبَغْلِ الشَّغْبِ، وَهَابَهُ مَنْ كَمْ يَكُنْ يَهَابُهُ، وَقَدْ امْتَلَأَ بِاللُّؤْمِ وَالشَّرِّ إِهَابُهُ، قَالَ أَنْوَشْرَوَانُ: وَعُدْتُ إِلَى بَغْدَادَ مُسْتَأْنَسًا بِالْوَحْشَةِ آلِفًا الْوَحْدَةَ مُتْلَانًا لِلشَّدَةِ، مُتَّهَبًا فِي الرَّقْدَةِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْوَزِيرُ الدَّرْكَزِينِيُّ إِلَى بَغْدَادَ اجْتَهَدَ أَنْ يَنَالَنِي بِسَرِّهِ، فَعَصَمَنِي اللَّهُ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ،

لا لإساعة مِنِّي سَبَقْتُ، وَلَا لِضَعْفِيَّةِ عَلَيَّ بِقَلْبِهِ عَلَبْتُ، فَإِنِّي قَدْ كُنْتُ أَسْلَفْتُهُ فِي حَالِ عَزْلِهِ وَحَسْبِهِ إِحْسَانًا وَقَلْدَتْهُ امْتِنَانًا، وَلَمْ أَتْرِكْ فِي الْإِنْعَامِ إِمْعَانًا، لَكِنَّهُ هَمَّ بِقَصْدِي لِمُجْرِدِ الْحَسَدِ، وَرَاوَعْنِي مُرَاوَعَةَ الثُّعْلَبِ لِلْأَسَدِ، وَقَالَ وَأَشَارَ عَلَى الْأَصْدِقَاءِ بِقَصْدِهِ وَاسْتِبْقَاءِ وُدِّهِ، وَقَالَ إِنَّهُ وَزِيرُ الْوَقْتِ السَّعِيدُ الْبَحْتِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُسَالَمَتِهِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْمَمْتِ. [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

قَالُوا تَلَقَى ذَا الْوَزِيرِ      فَقُلْتُ بَطْرُ أَمِّ الْوَزِيرِ  
يُلَقَى الْكِرَامُ؟ نَعَمْ      فَأَمَّا ذَا فَيُلَقَى جَوْفَ بَيْرِ  
مَالِي أَشَاهِدُ تِلْكَ الطَّلْعَةَ الْمُظْلِمَةَ وَالسَّحْنَةَ الْقَتِمَةَ، وَالْوَجْهَ الْعَبُوسَ وَالضَّرَّ وَالْبُوسَ،  
وَالْأَنْفَ الْأَحْسَ وَالنَّاطِرَ الْأَسْحَنَ، وَالْمَلْقَى الْمُسْتَهْجَنَ وَالْقَوْلَ الْمُسْتَخْشَنَ، قَالَ: وَلَمَّا  
كَلَّأَنِي اللَّهُ مِنْ غَائِلِيهِ وَأَعَادَنِي مِنْ دَرِكِ طَائِلِيهِ، وَمَدَّ يَدَهُ الْقَصِيرَةَ عَنِّي بِالْتَطَاوُلِ إِلَى مَالِي  
وَأَنْزَلَ النِّوَازِلَ بِأَسْبَابِي وَأَحْوَالِي، وَقَدْ كُنْتُ بَنَيْتُ عَلَى دَجَلَةٍ دَارًا أَدْعَاهَا لِيَتَّقِسَ مُلْكًا،  
وَاسْتَحْضَرَ عُدُولًا شَهَدُوا لَهُ بِالْمَلِكِيَّةِ زُورًا وَإِفْكًَا، وَانْتَقَلَ إِلَى الدَّارِ بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وَصَارَ  
بَاطِلُهُ حَقًّا بَيِّنَاتِهِ الْكَاذِبَةُ فِي الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ. [الْبَسِيطُ]

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا كَانَتْ أَسْنَتُهُمْ      بَتَّ الشَّهَادَاتِ لِلْحُكَّامِ بِالزُّورِ  
هُمُ الصَّعَالِيكُ إِلَّا أَنْ بَأْسَهُمْ      عَلَى الْبَسَاتِينِ وَالْفَعْلَاتِ وَالذُّورِ  
قَالَ: وَكَانَ لِهَذَا الْوَزِيرِ أَبٌ وَأُمُّ يَأْتِفُ مِنْهُمَا، وَيَرَى الْعَارَ كُلَّ الْعَارِ فِي اعْتِرَافِهِ بِهِمَا،  
وَيَخْشَى أَنْ تَتَلَوَّثَ بِخَسَاسِيهِمَا حِشْمَتُهُ، وَتُنْتَقِصَ بِرِذَالِيهِمَا عَظَمَتُهُ، وَتَنْتَقِصَ بِحَقَارَتِيهِمَا  
نِعْمَتُهُ، فَإِنَّهُمَا مَا عَيْرَا زِيَّ الْفِلَاحَةِ، وَلَا اسْتَنْكَفَا مِنْ يَزَةِ الزَّرَاعَةِ، وَلَا تَرَفَّعَا بِتَرْفِعِهِ عَنْ وَضِعِ  
الرِّضَاعَةِ، فَمَا زَالَ لَهُمَا بِالْجَفْوَةِ عَاقًا، وَبِالشَّقَاقِ عَلَيْهِمَا شَاقًا، وَهُمَا لَا يَرْفَعَانِ بَرِثَاسِيَهُ وَرِفْعَتِيهِ  
رَأْسًا، وَلَا يَرِيَانِ بِيَأْسِهِ وَبُؤْسِهِ بَأْسًا، وَحَسْبُهُ لَوْ مَا أَنَّهُ انْتَقَى مِنَ الْوَدِيهِ، وَابَى الْاعْتِرَازَ بِالْاعْتِرَازِ  
إِلَى أَبِيهِ، فَاجْتَرَأَ عَلَى الْاجْتِرَامِ وَاجْتِرَاحِ الْأَنَامِ، وَسَفَكَ دِمَاءَ الْكِرَامِ وَأَكَلَ أَمْوَالِ الْأَيْتَامِ، فَتَارَةً  
يَظْهَرُ التَّسَنُّنُ بِرَاقَةِ دَمِ الْعُلُوبِيَّةِ وَأَوْنَةُ يَدْعَى التَّشْيِيعِ وَيَسْعَى فِي قَتْلِ الْأَئِمَّةِ السُّنِّيَّةِ، فَمِنْ جُمْلَةِ  
مَنْ سَفَكَ دَمَهُ وَرَامَ عَدَمَهُ عِلَاءُ الدَّوْلَةِ رَيْسُ هَمْدَانَ، وَكَانَ شَابًا حَسَنًا سُنِّيًّا شَرِيفَ النَّسَبِ  
كَرِيمَ الْحَسَبِ، وَكَانَ بِأَصْفَهَانِ قَدْ حَضَرَ مَجْلَسَ الْوَعِظِ، وَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ مُقْتَضِي الْحَزْمِ شَدِيدُ  
التَّحَرُّزِ وَالْحَفِظِ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْوَزِيرِ الدَّرَكِزِيِّ بِسُكِينِهِ، وَقَرَى بِمُدِيَّتِهِ حَبْلَ  
وَتِينِهِ، وَكَذَلِكَ عَيْنُ الْقُضَاةِ الْمِيَانَجِيِّ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَئِمَّةِ الْأَوْلِيَاءِ ذَوِي الْكِرَامَاتِ، وَقَدْ

خَلَفَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيُّ فِي الْمَوْلَفَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْمُصَنَّفَاتِ فَحَسَدَهُ جُهَالُ الزَّمَانِ الْمُتَكَبِّسُونَ بِزِيِّ الْعُلَمَاءِ وَوَضَعَهُمُ الْوَزِيرُ عَلَيْهِ فَفَقَّصَدُوهُ بِالْإِيْدَاءِ، وَأَفْضَى الْأَمْرُ بِهِ إِلَى أَنْ صَلَبَهُ الْوَزِيرُ بِهِمَذَانَ، وَلَمْ يُرَاقِبْ فِيهِ اللَّهَ وَلَا الْإِيمَانَ، وَكَذَلِكَ الْمَلِكُ عِلَاءُ الدَّوْلَةِ بَيَّرَدَ سَعَى فِي دَمِيهِ وَهَتِكَ حُرْمِهِ، وَكَذَلِكَ رَيْسُ سَاوَةِ اعْتَقَلَهُ ثُمَّ قَتَلَهُ، وَتَبِعَ الْبُيُوتَ الْكِبَارَ وَقَلْعَهَا، وَالْجِبَالَ الْعِظَامَ فَزَعَزَعَهَا، وَالْأَرْكَانَ الْمَشِيدَةَ فَهَدَّهَا، وَالْأَسْبَابَ الْأَكِيدَةَ فَحَدَّهَا، وَالْأَبْوَابَ الْمَفْتُوحَةَ فَسَدَّهَا، وَالرَّغَائِبَ الْمَمْنُوحَةَ فَزَدَّهَا، وَمِنْ جُمْلَةِ أَعْيَالِهِ الْقَبِيحَةِ، وَأَعْمَالِهِ الْعَائِدَةِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالْفَضِيحَةِ، أَنَّهُ حَسَنَ لِلْسُلْطَانِ وَقَدْ وَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ فِي سَنَةِ عَشْرِينَ وَخَمِيسًا ثَمَّ أَنْ رَحَفَ بِعَسْكَرِهِ إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا شَمْلَ الْإِتْلَافِ، وَقَالُوا وَقَعَلُوا مَا لَا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ وَعَاتَمَدَ وَأَكَلَ مَا قَبِحَتْ سَمْعُهُ وَعَظَّمَ وَزَرَّهُ، وَكَانَ حَيْثُ ذُو الْوَزِيرِ الْخُلَيْفَةِ الْمُسْتَرْتَبِدِ بِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَلَّالُ الدِّينِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ صَدَقَةَ، فَتَوَسَّطَ الْأَمْرَ بِكِفَايَتِهِ، وَكَشَفَ تِلْكَ الضَّلَالَةَ بِهَدَايَتِهِ، وَكَانَ صَدِيقَ عَمِّي الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَتَعَاوَنَا عَلَى الْإِصْلَاحِ وَأَسْوَأَ النُّجْرَاحِ، وَحَمَلَ السُّلْطَانَ عَلَى مُعَاوَدَةِ طَاعَةِ إِمَامِهِ وَالتَّصَرُّفِ عَلَى أَوَامِرِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ عَشْرِينَ أَوْ أَوَائِلِ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ إِحْدَى وَعَشْرِينَ، وَلَمَّا قَرَّبَ مَسِيرَ السُّلْطَانِ مِنْ بَغْدَادِ حَدَّثَ بِهِ مَرَضٌ ضَعَفَ مِنْهُ جِسْمُهُ وَقَلْبُهُ، وَحَارَ ضَمِيرُهُ وَخَارَ لُبُّهُ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ سُؤْمٍ خِلَافِهِ لِلْخُلَيْفَةِ، فَجَلَسَ فِي مَحْفَةٍ وَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْحَرَمِ لِلْمَوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ، وَأَبْدَى الْإِعْظَامَ وَالْإِجْلَالَ وَطَلَبَ الْعَفْوَ وَالْإِسْتِحْلَالَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ التَّوَقُّعُ الْإِمَامِيُّ بِأَجْمَلِ جَوَابٍ وَالطَّفُّ بِخِطَابٍ وَطَابَتْ نَفْسُهُ، وَزَادَ بِذَلِكَ أَمَلُهُ فِي الْبُرِّ وَأُنْسُهُ، وَوَصَلَ إِلَى هَمَذَانَ وَقَدْ أَبْلُغَ وَتَوَقَّرَتْ لَهُ حُصَّةُ الصَّحَّةِ، وَشَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَوْاحِ الْمِحْنَةِ وَرُوحِ الْمِنْحَةِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عُرِّلَ الدَّرَكِزْنِيُّ وَوَلِيَ أَنْوَشِرُونَ عَلَى مَا مَرَّ شَرْحُهُ وَسَبَقَ ذِكْرُهُ، ثُمَّ عُرِّلَ أَنْوَشِرُونَ بَعْدَ سَنَةٍ وَأُعِيدَ الدَّرَكِزْنِيُّ وَصُرِفَ الدَّنِيُّ، وَمَا زَالَ عَمِّي الْعَزِيزُ فِي عِصْمَةٍ مِنْ شَرِّ الْوَزِيرِ وَكَلَاهَةِ اللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ وَهُوَ يُجِيلُ مَكِيدَتَهُ لَهُ فِي مَكْرِهِ، وَيَبْدُلُ لِلْسُلْطَانِ فِيهِ بُدُولًا وَلَا يَرَى مِنْهُ فِيهِ قَبُولًا وَلَا عَنَ الْإِسْتِمْسَاكِ بِهِ عُدُولًا، حَتَّى أُخْرِجَ السُّلْطَانَ أَنَّ عَمَّهُ سَنَجَرَ قَدْ سَيَّرَ فِي طَلَبِ مِيرَاثِ ابْنَتَيْهِ وَجَوَاهِرِهِمَا رَسُولًا بِأَنَّ ابْنَةَ السُّلْطَانِ سَنَجَرَ كَانَتْ زَوْجَةَ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ فَلَمَّا تَوَقَّيْتُ وَصَّيْتُ الدَّرَكِزْنِيَّ إِلَيْهِ فِي الرِّسَالَةِ خَطَبْتُ إِلَيْهِ أُخْرَى فَرَزَّوَجَهَا بِهِ وَأَرْسَلَهَا إِلَيْهِ وَبَقِيَتْ عِنْدَهُ مَدَّةً وَقَصَّتْ نَحْبَهَا، وَكَلَّحَتْ بِأُخْيَتِهَا وَأَلْقَيْتْ رَبَّهَا، فَمَا زَالَ السُّلْطَانُ سَنَجَرَ يَدْعِي

أَنَّهُ سَيَّرَ مَعَهَا جَواهرَ كُلِّها يَتِيمةً وَوِواقِيَتَ ما لَها قِيمةً، وَالسُّلطانُ يُنكَرُ مِقدارَ ذلكَ وَلا يَعرِفُ  
 بِهِ وَسَنجِرُ لا يَنْتَهي عَن طَلَبِهِ فَوَضَعَ الوَزيزُ الدَرَكَزِيَّيْنِ مَن قالَ لِلسُّلطانِ إِنَّ رَسولَ عَمَّكَ  
 واصلُ إِلَيكَ بِسَببِ تلكَ الجَواهرِ، وَإِنَّه لا يَعودُ عَنكَ بِما تُقيمُهُ مِنَ المَعاذِرِ، وَقَد رَضِيَ عَمَّكَ  
 سَنجِرُ بِشَهادَةِ العَزيزِ فَإِنَّهُ آمِنٌ قَولُهُ صادِقٌ، وَالسُّلطانُ سَنجِرُ بِصَحيَّتِهِ واثِقٌ، وَتَحنُّنُ تَرى مَن  
 المَصلِحَةُ أَن تَحسِبَ العَزيزُ فِي بَعضِ المَعاقلِ مَحفوظاً مِنَ العَواثِلِ، حَتى إِذا وَصَلَ الرَسولُ  
 وَأَدى رِسالَتَهُ وَطَلَبَ العَزيزُ وَشَهادَتَهُ قُلْتَ لَهُ هَذا كانَ صَاحبِنا وَقَد نَقِمنا مِنه أَمراً فَعَزَلناهُ،  
 وَقَبَضنا عَلَيهِ وَاعْتَقَلناهُ، وَما بَقينا نَرجِعُ إِلَيهِ فِي الشَّهادَةِ، وَسؤالُ المُعتَقَلِ خِلافَ العادَةِ، فَتَلوَمُ  
 السُّلطانُ مَحمودٌ وَتَدَمَّمُ، وَتَرَدَّدَ فِكرُهُ وَتَقَسَّمَ، فَتارَةً يَرى أَن لا يَسَمَحُ بِالعَزيزِ لِدَوي الضَّغِينَةِ،  
 وَتارَةً يَرى أَن يَضنَّ بِالجَواهرِ الثَمِينَةِ، فَفاوَضَهُ الدَرَكَزِيَّيْنِ وَهَوَّنَ عَلَيهِ الأَمْرَ، وَسَهَّلَ عِندَهُ  
 الوَعرَ، وَقَالَ لَهُ إِذا كُنْتَ مُعتَبِياً بِهِ فَمَما يَضُرُّهُ القَعودُ مَصوناً، فَمَما يَعيبُ الدُّرُّ مَكنوناً وَالذَخرُ  
 مَخرَوناً، قالَ: وَأنا أَطَلُّكَ لَكَ مِن مالِي ثَلاثِمِئَةَ أَلِفِ دِينارٍ إِذا حَبَسَتَهُ، وَأقومُ بِأَدائِهِ إِذا أَجَلَسَتَهُ،  
 فَمالٌ إِلى المَمالِ وَحالٌ بِالْمُحالِ، وَذَهَبٌ مَعَ الدَّهَبِ، وَنَشَبٌ بِالنَّشَبِ، وَعَصِي الضَّنَّةَ وَأَطاعَ  
 الظَّنَّةَ، وَصدَقَ الكاذِبَ وَوافَقَ الجاذِبَ، وَباعَ نَقَدَ دينِهِ الحَاصِلِ بِوَعِدِ دُنياءِ الباطِلِ، وَاغْتَرَّ  
 وَانْحَدَعَ وَأصغى إِلى حَدِيثِهِم وَاسْتَمَعَ، فَاسْتَدعى عَمِّي العَزيزُ مِن دارِهِ وَأَطَلَعَهُ على أَسرارِهِ،  
 وَعَرَفَهُ بِعَرَضِهِ وَطَمَعِهِ فِي جَواهِرِهِ وَعَرَضِهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّوَكُّلِ بِهِ على أَجْمَلِ وَجِهِ، وَأَراهُ أَنَّ  
 ذلكَ على إِباٍ مِنه وَكُورِهِ، وَكانَ ذلكَ وَالسُّلطانُ حَينئِذٍ بِبِغدادَ فِي أوائِلِ سَنَةِ خَمسِ وَعَشرينَ  
 وَخَمسمائَةَ، ثُمَّ قالوا لِلسُّلطانِ الصَّوابُ إِنفاذُهُ إِلى مَعقِلِ، وَإِيداعُهُ هَناكَ فِي زِيٍّ مُعتَقَلِ، فَقدَّ  
 قَرَبَ وَصولُ الرَسولِ مُقابلَ الإِشارةِ بِالقَبولِ، وَسَلَّمَ العَزيزُ إِلى بَهورِزِ الخادِمِ شُحَنَةَ بِغدادَ  
 حَتى سَيرَهُ إِلى بَكرِيتِ، وَسَيرَ إِلى نِظامِ دولَتِهِ التَّشْتِيتِ، وَعَوَّضَ النُفوسَ بِالتَّهوينِ، وَبَتَّ حَبَلِ  
 الدِّينِ المَتمينِ، وَقامتَ قِيامَةُ المُلُكِ بِقَعودِهِ وَأَفلَ نَجْمُ سَعودِهِ، وَانْحَلَّ سَلَكُ عَقودِهِ، وَزالَتِ  
 حَدودُ جُنودِهِ وَذَهَبَ عِزُّهُ بِذَهابِ العَزيزِ وَبَطَلَتِ سَوقُ التَّمييزِ، وَراجَ الرِّصاصُ عِوَضَ  
 الإِبرِيزِ، وَعَرَضَ عَقَدَهُ المُبَرِّمَ لِتَقْضِيهِ، وَكانَما كانَ مَوعِدُ قَبْضِهِ عامِرَ قَبْضِهِ، فَإِنَّ السُّلطانَ لَم  
 يَلبَثَ بَعدَ حَبسِ العَزيزِ إِلا قَلِيلاً وَجاءَهُ النَّدَمُ وَكَمَ تَلا: (لِيتَيَّي لَم اتَّخَذَ فُلاناً خَليلاً<sup>(1)</sup>) وَذلكَ  
 أَنَّهُ لَم يَسْمَعْ مِن رَسولِ عَمِّهِ عِندَ حُضورِهِ ما قِيلَ عَن رِسالَتِهِ وَاسْتَدَلَّ بِذلكَ على كَذِبِ الوَزيزِ

وَطَالَبَهُ بِمَا بَدَّلَهُ مِنْ ذَهَبِهِ، فَرَأَى عَنِ مَطْلَبِهِ وَمَطَّلَ بِهِ، وَسَيَّرَ الْوَزِيرُ الدَّرَكِزْنِيَّ إِلَى أَصْفَهَانَ يَتَبَضُّ عَلَى وَالِدِي صَفِيِّ الدِّينِ وَعَلَى عَمِّي ضِيَاءِ الدِّينِ وَاعْتَقَلَهُمَا بِقَلْعَتَيْهِمَا، وَبَالَغَ فِي كُلِّ مَا أَبَانَ مِنْ قُبْحِ الدَّوْلَةِ وَسُوءِ سُمْعَتَيْهَا، وَنَهَبَ وَسَلَبَ وَاسْتَوْلَى عَلَى أَمْلَاكِنَا وَأُمُورِنَا، وَاسْتَوْعَبَ وَحَوَى كُلَّ نَاطِقٍ وَصَامِتٍ، وَحَصَلَ كُلُّ نَاجِحٍ وَنَابِتٍ، فَأَمَّا الْعَمُّ الْعَزِيزُ فَإِنَّهُ كَتَبَ إِلَيْهِ السُّلْطَانَ بِتَكْرِيتِ يَدَيْهِ وَيَأْمُرُهُ بِالصَّبْرِ، وَأَصْدَرَ إِلَيْهِ مَشْرُوحاً يَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَيَقُولُ إِذَا أَخَذْتَ مِنَ الْوَزِيرِ مَا بَدَّلَهُ فَأَنَا لَأَبْدُ أَنْ أُطْلَقَكَ وَاعْتَقَلَهُ، وَالْوَزِيرُ فِي كُلِّ مُدَّةٍ يَزِنُ لَهُ شَيْئاً مِنَ الْمَالِ وَيُرِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ وَمِنْ ذَهَبِهِ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ جَبَاهُ مِنْ مَالِ الْمُصَادِرَاتِ وَجَاءَ بِهِ وَوَعَدَهُ بِالْبَاقِي إِلَى هَمْدَانَ وَفِي الْقَدْرِ أَنْ بَقَاءَهُ قَدْ انْتَهَى وَأَنَّ حَيْنَهُ قَدْ حَانَ، وَرَحَلَ السُّلْطَانُ إِلَى بَغْدَادٍ فَمَرَّ فِي الطَّرِيقِ وَاشْتَدَّ مَرَضُهُ ثُمَّ فَارَقَ جَوْهَرَهُ عَرَضُهُ، وَذَلِكَ فِي شَوَالِ سَنَةِ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ وَخَمِيسَانِيَّةٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْوَزِيرَ سَمَّهَ فِي طَعَامِهِ وَرَاعَ حِمَاهُ بِحِمَامِهِ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَصَرَ فِي آدَاءِ الْمَالِ وَنَظَرَ فِي سُوءِ الْمَالِ شَرَعَ فِي اغْتِيَالِ السُّلْطَانَ عَلَى وَجْهِ الْاِحْتِيَالِ، فَتَمَّ لَهُ تَأْمِيلُهُ، وَحِينَ مَضَى السُّلْطَانُ لِسَبِيلِهِ، وَضَحَّ فِي التَّسَلُّطِ سَبِيلَهُ، وَانْقَلَعَ الْمُلْكُ وَانْقَطَعَ السَّلْكُ، وَانْقَضَتِ الْمَنِيَّةُ وَانْقَضَتِ الْأَمْنِيَّةُ، وَيَبْلُغُ الْكِتَابُ الْأَجَلَ، وَغَلَبَ الْيَأْسُ الْأَمَلَ.

وَمِنَ الْحَوَادِثِ الْمُؤَدِّيَةِ بَرَوَالِ مُلْكِهِ، الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى انْحِلَالِ سَلْكِهِ، الْبَادِيَةُ فَإِنَّهُ بَائِدَةٌ رُسُومُهُ، الْمُتَنَادِي عَلَيْهِ رَجْرُ نَاعِبِ الْبَيْنِ وَشَوْمُهُ، صَفْوُهُ إِلَى الْوَزِيرِ الدَّرَكِزْنِيَّ فِي اِكْتِسَابِ الْأَوْزَارِ، وَالتَّنْدُسِ بِالْأَوْضَارِ وَالتَّلْبَسِ بِالْعَارِ، وَاسْتِحْلَالِ الدَّمَاءِ الْمُحَرَّمَةِ، وَاسْتِیَاحَةِ الْمُهْجِ الْمُحْتَرَمَةِ، وَإِنَّمَا تَمَّ لِلْوَزِيرِ هَذَا بَعْدَ حَسْبِ عَمِّي الْعَزِيزِ بِحَمَلِهِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَإِيفَاءِ الْحَقُوقِ عَلَى ذَوِي الْاِسْتِحْقَاقِ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَى ذَوِي الْاِضْطِاقِ وَالْاِمْلَاقِ، فَلَمَّا خَلَا وَجْهَ السُّلْطَانِ لِلْوَزِيرِ الْوَازِرِ عَلَّمَهُ صِنَاعَةَ الْعُجَازِ، وَحَسَّنَ لَهُ الْفَتَاكَ، فَكُلُّ مَنْ كَانَتْ عِدَاوَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، صَوَّبَ لِلْسُّلْطَانِ قَتْلَهُ وَحَسَّنَ حَيْنَهُ، فَكَانَ قَدْ اتَّفَقَ وَصُولُ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ إِلَى بَغْدَادٍ وَقَصْدُ أَتَابِكِ شِيرْكَزِ مَقْطَعِ أَبْهَرٍ وَرَنْجَانِ مُخَاطَباً سَنَجَرَ فِي إِعَادَةِ أَتَابِكِيَّةِ طُغْرُلِ إِلَيْهِ عَلَى عَادَتِهِ، وَأَنْ يَأْمَنَ مِنْ سُرِّ الدَّرَكِزْنِيَّ وَعَادَتَيْهِ، فَلَمَّا عَرَفَ الْوَزِيرُ قَامَتِ قِيَامَتُهُ وَغَامَتِ بِالْعَمِّ غَمَامَتُهُ، وَسَارَ إِلَى السُّلْطَانِ سَنَجَرَ يَسْتَزِلُّهُ وَيَسْتَنْزِلُهُ وَأَرْضَاهُ عَنِ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ بِمَبْلَغِ مَائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ مُعْجَلَةً، فَصَرَفَ شِيرْكَزِ عَنِ الْأَتَابِكِيَّةِ وَفَوَّضَ أَتَابِكِيَّةَ طُغْرُلِ إِلَى قِرَاسَنْقَرِ، وَقُرَّرَتْ لَهُ بِلَادُ أَرَانِيَّةٍ، فَلَمَّا وَقَعَ شِيرْكَزِ فِي السُّرِّ الْكَبِيرِ وَانْعَكَسَ عَلَيْهِ وَجْهُ التَّدْبِيرِ بَدَّلَ لِلْوَزِيرِ مَالاً عَظِيماً

حَتَّى تَوَسَّطَ أَمْرَهُ وَأَرَاخَ مِنْ تِلْكَ الْعَثْرَةِ سَرَّهُ، فَقَالَ لِلسُّلْطَانِ سَنَجْرٍ بِمَحْضَرٍ مِنَ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ: هَذَا رَجُلٌ قَدْ أَنَا فِى الثَّمَانِينَ، وَهُوَ شَيْخٌ قَدْ خَدَمَ السُّلْطَانِينَ، وَقَدْ عَرَفَ بِمُرَابَطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَبِمُجَاهَدَةِ الْحَشِييَّةِ، وَالصَّوَابُ أَنْ تُوصِيَ ابْنَ أَخِيكَ بِهِ وَتُسَرِّحَهُ إِلَى بَلَدِهِ فَإِنَّهُ جُلُّ أَرْبِيهِ، وَإِنْ أَقَامَ بِالْبَابِ لَمْ يَأْمَنَ أَنْ يَفْتَكَّ بِهِ الْبَاطِنِيَّةُ، فَيَحْصَلَ عَلَى قُبْحِ الْمَقَالَةِ وَسُوءِ السَّمْعَةِ، وَتَقْسُدَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ فِينَا النَّيَّةُ، فَسُرِّحْ مِنْ سَاعَتِهِ وَسَكَنْ مِنْ رَوْعَتِهِ، وَأَعْذِ الْمَسِيرَ حَتَّى وَصَلَ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَى مَدِينَةِ أَبْهَرِ بِلَدَّتِهِ، وَهِيَ يَقْرِبُ سَرْجِهَانَ قَلْعَتِهِ، وَعَادَ السُّلْطَانُ سَنَجْرًا وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ الْمَلُوكَ تَانِيْسًا لِمَحْمُودٍ بِاسْتِصْحَابِ أَخَوِيهِ طُغْرُلٍ وَمَسْعُودٍ، وَعَادَ مَحْمُودٌ إِلَى سَرِيرِهِ، وَانْفَرَدَ الْوَزِيرُ بِتَدْبِيرِهِ.

وَمِنَ الْاِتِّفَاقَاتِ الْعَجِيبَةِ وَالْوَقَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ أَنَّهُ اجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ فِي خِرْكَاهِ وَاحِدِ السُّلْطَانِ سَنَجْرٍ وَالْأَخُوَّةِ الْأَرْبَعَةِ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ وَمَسْعُودٍ وَطُغْرُلٍ وَسَلِيمَانَ وَالْوَزِيرَ الدَّرَكِزِيَّ وَالنَّصِيرَ مَحْمُودُ بْنُ أَبِي تَوْبَةَ وَزَيْرُ سَنَجْرٍ، وَهَذَا رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْفَلَكُ وَهُوَ مِنْ النَّدْمَاءِ الْمَطْبُوعِينَ الَّذِينَ يُجْرِي الْفَلَكُ وَهُوَ عَلِيُّ الْجَنْزِي، فَقَامَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَرَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ الْيَدَيْنِ، وَجَعَلَ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى وَيَضْرَعُ، وَيَبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ وَيَخْشَعُ، فَاسْتَدْعَاهُ سَنَجْرٌ وَقَالَ: مَا هَذِهِ الصَّلَاةُ وَالِدُعَاءُ، وَفِيمَنْ هَذَا التَّضَرُّعُ وَالِاسْتِجْدَاءُ؟ فَقَالَ: نَاجَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَقُلْتُ: هُوَ لِأَنَّ الْعُصْبَةَ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا فِي هَذِهِ الْخِرْكَاهِ هُمْ أَصُولُ الْفِتَنِ وَفُرُوعُ الْمِحَنِ، وَمَضَارِبُ الْمَضَارِّ وَمَعَارِكُ الْمَعَارِ، فَأَخِيفُ بِهِمْ هَذِهِ الْبُقْعَةَ، وَانْفُضْ عَنْهُمْ هَذِهِ الرَّفْعَةَ، حَتَّى يَسْلَمَ خَلْقُكَ وَيَسْلَمَ حَقُّكَ، فَضَحِكَ مِنْهُ سَنَجْرٌ وَاسْتَحَفَّ النَّدِيمَ الْمُتَمَسِّخِرَ، فَلَمَّا عَادَ مَحْمُودٌ سَارَ إِلَى بَغْدَادَ وَشَرَعَ فِي إِرْهَاقِ النُّفُوسِ وَأِزْهَاقِهَا، وَالْأَخِيذِ بِمَشُورَةِ الْوَزِيرِ لِتَفَاقُهَا عِنْدَهُ مَعَ زِنَاقِهَا، فَسَعَى إِلَيْهِ بَعْدَهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَصْفِيَاءِ الْخِدْمَةِ، وَأَمَاجِدِ الْعَصْرِ وَأَجَاوِدِ الدَّهْرِ، مِنْهُمْ تَاجُ الدَّوْلَةِ كَامِيَارُ الدِّيَلْمِيِّ مِنْ دُهَاهِ الرُّجَالِ، وَالْمُسْتَشَارُ بِهِ عِنْدَ إِجَالَةِ الْأَرَاءِ لِلتَّحْيِيلِ فِي تَوْسِيعِ مَا ضَاقَ مِنَ الْمَجَالِ، وَكَانَ قَدْ اعْتَقَلَ مَرَّةً بِتَكْرِيتِ وَصُودِرَ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفِ دِينَارٍ حَتَّى خُلِّصَ، فَخَشِيَ مِنْ بُوَادِرِ سَطْوَةِ الْوَزِيرِ أَنْ يُعَاوَدَ الْقَنْصَ، فَأَتَى إِلَى قَرْوِينَ وَالتَّجَا إِلَى صَاحِبِهَا يَرْتَقِشُ الْبَازِدَارَ فَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ وَأَوَاهُ، وَاعْتَصَمَ مِنْهُ بِمَنْعِ الدَّمَامِ وَكَرِيمِ الدَّمَارِ، فَإِنَّ تَاجَ الْمُلْكِ كَامِيَارَ صِهْرُ شِيرْكَزِ بَيْتِهِ وَبَيْنَ صَاحِبِ قَرْوِينَ صِدْقُ اتِّحَادٍ وَحَقُّ وِدَادٍ، وَوَزِيرُهُ وَكَاتِبُهُ مُحَمَّدُ الْكَلْبِيُّ الْمُنْعَوْتُ بِالرَّبِيبِ، ذُو الصَّوْبِ الْمُرُويِّ وَالرَّأْيِ الْمُصِيبِ، وَهُوَ يَرْجِعُ

إلى مروءة وكرم وفتوة، وكان فيه تهوُّر وإقدام، وتَسَوَّرَ على الأمور واقتحام، وقصده الوزير الدرَكزبني ورام عزله من وزارة صاحب قزوين فلم يمكنه ذلك إذ منعه سَرَخك أحر سَلار المَنعوت بِصَلاحِ الدِّين، فَبَقِيَ تاجُ الدَّولَةِ كاميار وهذا الوزيرُ الرَّيبُّ على مَجاري مَخازي الوزيرِ وإِقْفَيْنِ، ومن بَوادي عَواديه خائِفَيْنِ، ومن شَرَّةِ مُستَكفِينِ ومن مَكْرِهِ مُستَخْفِينِ ولمساويهِ راوين، وفي الإساءة إليه مُتروِّين، وَأَتَقَقَ عُوْرُ صاحبِ قزوين على فِجِجٍ في فِجِجٍ، وَرَأَهُ مُسْرِعاً مَشِياً مِنْ قَلْعَةِ أَلْمُوتِ على نَهْجٍ، فَسَيْلٌ عَنِ الْمَقْصِدِ فَمَا كُنِيَ وَلَا عَنَى، وَأَفْصَحَ عَنْهُ وَأَعْرَبَ بِاللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، وَقَالَ قَدْ أَنْفَذَنِي سَنَجُرُ إِلَى صَاحِبِ أَلْمُوتِ بِمَلْطَفَةٍ وَقَرَّبَهَا يُكْرِهُ مِنْهُ وَيُخِيفُهُ، فَخُوِّفَ الْقَاصِدُ مِنْ إِيقَاعِ الْقَرْوِينِيَّةِ بِهِ وَأُنزِلَ فِي مَوْضِعٍ يَخْفَى فِيهِ وَقَتٌ ذَهَابِهِ وَوَجْهٌ مَذْهَبِهِ، وَأُخِذَتْ مِنْهُ الْمُلْطَفَةُ وَفُضَّتْ وَأُخِذَتْ عُذْرَتُهَا وَافْتَضَّتْ، وَكَانَ الرَّيبُّ الْكَلْبِيُّ يَكْتُبُ عَلَى أَيِّ حَظٍّ شَاءَ، وَيُبْدِعُ فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَقْلَامِ لِلْإِنْشَاءِ فَتَسَخَّحَ كِتَابُ السُّلْطَانِ وَعَلَامَتُهُ بِحَظِّ السَّبِيهِ، وَأَسْلَمَ النِّسْخَةَ إِلَى الْقَاصِدِ وَصَمَّمَهَا إِلَى مَا صَحَبَهُ مِنْ كُتْبِهِ، وَأَمْسَكَ الْأَصْلَ عِنْدَهُ وَتَأَمَّلَهُ بَعْدَهُ، فَحَلَّ تَرْجَمَتَهُ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِعَرَبِ شَاهِ التُّرْكِيِّ، وَكَانَ يَرْجِعُ إِلَى فِكْرِ مُضِيِّ وَخَاطِرِ ذَكِيِّ، وَمَضْمُونُهُ اسْتِدْعَاءُ قَوْمٍ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ لِلْفَتْكِ بِالْمَلِكِ طُغْرُلِ الْمُتَرَشِّحِ لِلْمَمْلَكَةِ لِمَا جَمَعَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ الْجَلِيلَةِ الْجَلِيلَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِوَضْعِ الْوَزِيرِ أَبِي الْقَاسِمِ الدَّرَكزبِنِيِّ وَأَمْرِهِ، وَهُرَادُهُ أَنْ يُرِيحَ السُّلْطَانُ مِنْ مُعَارَضَةِ أَخِيهِ لَهُ فِي أَمْرِهِ، فَقَالَ الْجَمَاعَةُ قَدْ وَجَدْنَا فِيهِ مَجَالَ الْقَوْلِ ذَا سَبْعَةٍ، وَوَجْهَ الطَّعْنِ فِيهِ غَيْرَ مُمْتَبِعَةٍ، فَرَادُوا فِي الْكِتَابِ اسْتِدْعَاءَ جَمَاعَةٍ لِلْفَتْكِ فِي خَوَاصِ أَمْرِ الدَّوْلَةِ وَالْأَصْحَابِ فَمِنْهُمْ أَنْبَاكُ قَرَايَهِ صَاحِبُ فَارِسَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْأَمَائِلِ، وَتَسَخَّحُوا بِهِ نَسْخاً سَبَّرُوهَا فِي الْبِلَادِ وَقَرَأُوهَا فِي الْمَحَافِلِ، فَتَنَمَّرَتْ الْأَسْوَدُ وَاضْطَرَبَتِ الْأَطْرَافُ وَالْحُدُودُ، وَتَفَرَّتِ الْقُلُوبُ وَنَشَأَتِ الْحُرُوبُ، وَاجْتَمَعَ الْجَمَاعَةُ عَلَى اسْتِحْضَارِ الْمَلِكِ مَسْعُودٍ مِنْ جُرْجَانَ لِيَلْقَوْا بِهِ أَخَاهُ السُّلْطَانَ، فَلَمَّا وَصَلَ الْخَبِيرُ إِلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ وَهُوَ بِبَغْدَادَ عَجَّلَ تَسْيِيرَ صَلاحِ الدِّينِ سَرَخَكَ أَمِيرِ آخِهِ وَأَمْرَهُ بِالْإِغْذَاذِ، فَسَارَ إِلَى قَزْوِينَ وَاسْتَمَالَ مِنَ الْقَوْمِ يَرْنَقِشَ الْبَاذَرِ، وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ فِي الْمِقْدَارِ، وَيَقِي الْأَمِيرُ شِيرِكِيْرٌ وَحِيداً قَدْ خَذَلَ نَاصِرَهُ، وَخَافَتْ مَوَارِدَ أَمْلِهِ مِصَادِرَهُ، وَأَرْسَلَ إِلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ يَسْطُ أَعْدَارَهُ وَيَسْتَقِيلُ عِثَارَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَجِيرُكَ إِلَّا مِنْ عَمِّي فَإِنَّهُ لَا يَبْصُورُ أَنْ يَكُونَ عَلَى خِلافِ حُكْمِهِ، فَلَمَّا حَضَرَ مَظْفُرُ الدِّينِ يَرْنَقِشَ الْبَاذَرِ بِالْبَابِ، وَتَمَّ بِحُضُورِهِ زَوَالُ الْارْتِيَاعِ وَالْارْتِيَابِ، أَشَارَ الْوَزِيرُ الدَّرَكزبِنِيُّ عَلَى السُّلْطَانِ بِطَمْعِ وَزِيرِهِ الرَّيبِّ الْكَلْبِيِّ فِي مَنْصَبِ

الطغراء، عَلَى أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَيَذَكِّرَ لَهُ مَا اعْتَمَدُوهُ فِي الْمُلْطَفَةِ السَّنْجَرِيَّةِ وَمَا أَحَقَّوهُ بِهَا مِنَ الزِّيَادَةِ الْجَالِيَّةِ لِلْبَلِيَّةِ، فَشَرَحَ الْأَمْرَ وَأَفْشَى السَّرَّ وَبَحَثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى مُدْيَتِهِ وَمَا كَثَّفَهَا عَنْ كَفِّهِ، فَلَمَّا وَصَلَ السُّلْطَانَ مَحْمُودًا إِلَى هَمْدَانَ وَصَلَ الْمُخْبِرُونَ مِنْ خُرَّاسَانَ قَبْضَ عَلَى الْمَذْكُورِينَ، وَهُمْ الْأَمَائِلُ شِيرُكِيْرٌ وَشَرَفُ الدَّوْلَةِ عَمْرٌ وَلَدُهُ الْكَبِيرُ وَتَاجُ الدَّوْلَةِ كَامِيَارُ صِهْرُهُ وَالرَّيْبُ مُحَمَّدُ الْكَلْبِيُّ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَالرَّيْبُ هِنْدَوَا وَعَيْنُ الْقِضَاءِ الْمِيَانَجِي وَكَانَ مِنَ الْعَالِمِينَ الْعَامِلِينَ، الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الْفَاضِلِينَ، وَصَلِبَ هُوَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِهَمْدَانَ وَالْحَقُّ بِهِ كَامِيَارُ وَالرَّيْبَانِ، وَحَمَلَ شِيرُكِيْرٌ إِلَى قَلْعَةٍ بِهَا، وَقُتِلَ بِهَا صَبْرًا، وَحُجِسَ وَلَدُهُ شَرَفُ الدَّوْلَةِ عُمَرُ بِقَلْعَةِ هَمْدَانَ، ثُمَّ قُتِلَ وَأُودِعَ قَبْرًا، وَأَنْقَذَ رَأْسَ شِيرُكِيْرٍ إِلَى خُرَّاسَانَ فَنُصِبَ بَنِيْسَابُورَ عَلَى رُوحٍ وَتَاجُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ فَلَمْ يَشُقْ بَعْدَ شَيْبَتِهِ النَّوْرِيَّةَ لَيْلُهُ بِصَبْحٍ، وَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا هَذَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَشَيْبَةُ ذِي النَّوْرِينَ وَقَدْ عَمَرَ عُمَرَيْنِ بِعَدْلِ الْعُمَرَيْنِ، وَجَاوَزَ الثَّمَانِينَ وَحَدَّمَ السُّلْطَانَ وَلَهُ الْمَقَامَاتُ الْمَشْكُورَةُ وَالْكَرَامَاتُ الْمَشْهُورَةُ وَالْإِعْدَاءُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالْإِعَادَةُ فِي مَوَاقِفِ الْعَزَوَاتِ بَعْدَ الْإِبْدَاءِ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ نَاحِيَةٌ، وَتَدَبَّتْ ذَلِكَ التَّدَبُّ فِي كُلِّ صَانِحَةٍ صَالِحَةٍ، وَلَمَّا عَرَفَ الْمَلِكُ طَغْرُلَ رَأْسَ أَتَابِكِهِ أَتَى بِكِي، وَأَلِمَ لِمَا أَوْشَكَ مِنْ مُلْمَأِهِ أَوْ شَكَا، وَأَمَرَ سَنَجَرَ بِإِنزَالِ الرَّأْسِ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ وَتَسْكِينًا لِكُرْبِهِ وَخَلْبًا لِخَلْبِهِ، وَلَقَدْ كَانَ شَرَفُ الدَّوْلَةِ عُمَرُ بْنُ شِيرُكِيْرٍ ذَا أَدَبٍ غَزِيْرٍ وَحَزْمٍ وَتَدْبِيْرٍ، وَرَأْيٍ غَيْرِ رَائِبٍ، وَقَوْلٍ مَقْبُولٍ غَيْرِ كَاذِبٍ، وَخَاطِرٍ لِلْفَضْلِ خَاطِبٍ، وَعَزْمٍ لِغَيْرِ مَجَانِبِي الْعِزِّ مُجَانِبٍ، فَلَمَّا اعْتُقِلَ نَظَّمَ لِلْسُّلْطَانَ أَبْيَاتًا لِتَرْقِيْقِهِ وَاسْتِعْطَافِهِ وَاسْتِعْفَاؤِهِ، فَمَا أَفْضَلَ عَلَى فَضْلِهِ وَمَا عَدَلَ فِيهِ إِلَى عَدْلِهِ، وَمَا حَكَمَ فِيهِ بِحِلْمِهِ، وَلَا رَجَعَ فِي حِفْظِ حَقِّهِ وَحَقِّ حِفْظِهِ إِلَى عِلْمِهِ، وَرَأَى أَنْ يَقْتَلَهُ، وَجَلَبَ بِمَقْتَلِهِ الْمَقْتَلُ لَهُ، فَلَا جَزْمَ مَا أَدْرَكَ السُّلْطَانُ إِلَّا جُرْمَهُ، وَلَا نَالَهُ إِلَّا إِنْثَمَهُ، وَلَا تَمَتَّعَ بِعُمُرِهِ بَعْدَ قَطْعِ تِلْكَ الْأَعْمَارِ وَانْتَقَلَ بِجُورِهِ وَجَبْرَوْتِهِ إِلَى جَوَارِ الْجَبَّارِ.

حَكَى نَجْمُ الدِّينِ رَشِيْدُ الْخَادِمِ الْغِيَاثِيُّ قَالَ: حَضَرْتُ السُّلْطَانَ مَحْمُودًا رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ فِي سَكْرَةِ الْمَوْتِ مُضْطَرَبٌ وَعَلَى فِرَاشِهِ يَنْقَلِبُ، وَيَقُولُ إِدْفِعُوا عَنِّي شِيرُكِيْرَ وَوَلَدَهُ فَقَدْ شَهَرَا سَيِّفَيْنِ لِيَقْتُلَانِي، وَكَانَ يُكْرَهُ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى أَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَوَلَّيَ رَبَّهُ، وَمَا عَصَبَتْ بِهِ هَذَا الْوِزَرَ إِلَّا عَصَبِيَّةُ الْوَزِيْرِ، وَعَجَّلَ لَهُ سُوءَ الْإِدْبَارِ بِسُوءِ التَّدْبِيْرِ.

وَكَانَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ الْخَلِيفَةُ مَدُودَ الطَّرِيقَةِ، إِنْ تُرِكَ وَطَبَعُهُ وَقَفَ عَلَى الْخَيْرِ بِصُرَّةٍ

وَسَمِعُهُ، وَمَنَعَ ضَرَّهُ وَمَنَحَ نَفْعَهُ، لَكِنَّهُ بُلِيٌّ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ مِنْ أَعْوَانِهِ، وَتَفَضَّلُوا عَلَيْهِ مَشْرَبَ سُلْطَانِهِ، وَفَرَّغُوا فِي ابْتِدَاءِ دَوْلَتِهِ خَزَانَةَ أَبِيهِ، وَاسْتَضَعَفُوا جَانِبَهُ وَطَمَعُوا فِيهِ، وَوَجَدَ تَفْصِيلُ بِحِطِّ عَمِّي الْعَزِيزِ أَنَّ الْخَزَانَةَ الْغِيَاثِيَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ أَلْفٍ دِينَارٍ، سِوَى الصِّيَاغَاتِ وَالْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ السَّنِّيَّةِ وَأَصْنَافِ الثِّيَابِ الْعَدِيَّةِ.

قَالَ الْأَمِيرُ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا وَإِخْرَاجِ الْأَجْنَاسِ بَعْدَ نِضَارَتِهَا وَرَقَّتِهَا وَرَفَعَ الْحَسْبَةَ بِجُمْلَتِهَا وَعَرَضَ وَرَقَهَا إِنَّهُمْ احْتَاجُوا إِلَى إِقَامَةِ وَظِيْفَةِ الْفَقَاحِ، فَلَمْ يَجِدُوا مَا يُصَرِّفُ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ، فَأَخْرَجُوا إِلَى الْفَقَاحِيِّ عِدَّةً مِنْ صِنَادِيقِ الْخَزَانَةِ الَّتِي فَرَعَتْ فَبَاعَهَا بِمَا بَلَغَتْ، وَحَتَّى طَلَبَ السُّلْطَانُ مِنْ شَابُورِ الْخَازِنِ غَالِيَةً فَاسْتَمَهَلَهُ أَيَّاماً وَادَّعَى إِقْلَالاً ثُمَّ أَحْضَرَ بَعْدَ الْمُهْلَةِ ثَلَاثِينَ مِثْقَالاً، فَقَالَ السُّلْطَانُ لِشَابُورِ وَكَانَ خَازِنَ أَبِيهِ، وَهُوَ حَافِظُ مَالِهِ وَمُتَوَلِّيهِ: حَدَّثَ الْجَمَاعَةَ بِمَا كَانَ فِي خَزَانَةِ الْوَالِدِيِّ مِنَ الْغَالِيَةِ، وَكَيْفَ أَخْلَوْهَا مِنْهُ فِي هَذِهِ السَّنِينَ الْخَالِيَةِ، فَقَالَ شَابُورُ: كَانَ فِي قَلْعَةِ أَصْفَهَانَ مِنْهَا فِي الْأَوَانِيِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضِيَّةِ وَالْبَلُورِ الْمُحَكَّمِ وَالصَّنِينِيَّةِ مَا يُقَارَبُ مِثَّةً وَثَمَانِينَ رَطْلًا، وَمَعَنَا فِي خَزَانَةِ السَّفَرِ فِي الْأَوَانِيِ الْمَوْصُوفَةِ تَقْدِيرُ ثَلَاثِينَ رَطْلًا. فَقَالَ السُّلْطَانُ لِلْحَاضِرِينَ اعْتَبَرُوا بِالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَفَضِّلْ مَا بَيْنَ الْعَصْرَيْنِ.

وَكَانَ قَوِيًّا الْمَعْرِفَةَ بِالْعَرَبِيَّةِ حَافِظًا لِلْأَشْعَارِ وَالْأَمْثَالِ الْأَدَبِيَّةِ، عَارِفًا بِالتَّوَارِيخِ وَالسِّيَرِ، نَازِلًا فِيمَا يُوجِبُ الْإِعْتِبَارَ مِنَ الْغَيْرِ.

ذَكَرَ مَا حَدَّثَ بَعْدَ وَفَاةِ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ طَغْرُلُ

كَانَ قَدْ تَفَرَّسَ الْوَزِيرُ فِي السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ أَنَّهُ مَوْوُودٌ، وَأَنَّهُ فِي الْأَحْيَاءِ غَيْرُ مَعْدُودٍ، وَحِينَ فَارَقَ كَنَفَهُ وَرَافَقَ كَفَنَهُ، وَسَكَنَ الرَّغَامَ وَأَرْغَمَ سَكَنَهُ، وَرَاحَتْ رِيحُهُ وَصَافَحَهُ صَفِيحُهُ، وَأَسْلَمَهُ جُنْدُهُ إِلَى جَنْدَلِهِ، وَأَجَّلَ أَجْلَهُ رُزْءَ أَمَلِهِ، وَتَقَضَّ عَنْهُ بَيْتِي الرَّجَاءِ رَجَالَهُ، وَجُدَّتْ بِشِبَا الْمُنُونِ مِنْ جِبَاءِ الشَّبَابِ جِبَالَهُ، اسْتَصَحَبَ الْوَزِيرُ الدَّرَكُزْنِيُّ إِلَى الرَّيِّ مَعَهُ عَسَاكِرَ الْعِرَاقِ، وَنَظَّاهَرُوا عَلَى الْإِتْفَاقِ، وَأَمْرَاؤُهُمْ بِرَسَقٍ وَفَزَلٍ وَقِرَاسْتَقَرُّ وَقِرَاطِغَانَ وَغَيْرُهُمْ، وَأَقَامُوا بِهَا تِلْكَ الشُّتُوَّةَ، وَعَقَدُوا بِهَا فِي انْتِظَارِ السُّلْطَانِ سِنَجَرَ الْحَبُوبَةِ، وَلَبِثُوا مِنْ يَوْمِ مَوْتِ مَحْمُودٍ إِلَى حِينِ وَصُولِ سِنَجَرَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ مُعَقِّينَ سَبِيلَ كُلِّ مَعْرُوفٍ وَمُخْفِيْنَ إِلَى كُلِّ مُنْكَرٍ، وَبِالْبِلَادِ بِلَا دَوْلَةٍ وَالِ، وَالْحَالَ مُخْلِِفٌ وَالْخَلْفُ حَالٍ، وَلَمَّا تَوَلَّى رَيْبَ الرَّبِيعِ بِشِمَالِهِ

شَتَاتٍ شَمَلِ الشِّتَاءِ، وَالْبَسَتْ الْعَبْرَاءُ خَلْعَةَ الْخَضْرَاءِ، وَحَكَتْ أَزْهَارُ الْأَرْضِ زَهَرَ السَّمَاءِ، وَابْتَسَمَتِ الرِّيَاضُ عَنِ نُفُورِ الْأَقَاحِي، وَقَامَتِ نَوَاحِيهَا فِي تِلْكَ النَّوَاحِي، وَلَاقَى بِهَذِهِ الْحَالِ بَيْتَانِ نَظَّمْتُهُمَا، وَهُمَا: [الْخَفِيفُ]

قُلْتُ لِلوَرْدِ مَا لَشَوْكَكَ يُدْمِي      كُلُّ مَا قَدْ أَسَوْتُهُ مِنْ جِرَاحِي  
قَالَ لِي هَذِهِ الرِّيَاحِيْنَ جُنْدِي      أَنَا سُلْطَانُهَا وَشَوْكِي سِلَاحِي

فَلَمَّا بَسَطَ سُلْطَانُ الْوَرْدِ فِرَاشَهُ، وَصَارَ كُلُّ قَلْبٍ لِلْهَوْبِ إِلَى لَوْنِهِ النَّارِيِّ فِرَاشَهُ، نَشَطَ السُّلْطَانُ سَنَجَرَ لِقَصْدِ الرَّيِّ، فَوَافَى إِلَيْهَا حَسَنَ الرَّيِّ، مَهَيْبَ الْقُدُومِ كَرِيمَ السَّعْيِ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَخَمِيسَانَةِ، وَاسْتَقْبَلْتُهُ عَسَاكِرُ الْعِرَاقِ مَعَ الْوَزِيرِ، وَجَلَسَ سَنَجَرَ عَلَى السَّرِيرِ، وَوَصَلَ بَعْدَهُ لَيْلَا أَلْمَلِكُ طَغْرُلُ سَحْرَةَ وَلَقِيَّ عَمَّهُ بَكْرَةَ، وَتَرَجَّلَ لَهُ الْوَزِيرُ الدَّرَكِزْنِيُّ بَيْنَ يَدَيْ السُّلْطَانِ سَنَجَرَ فَمَا احْتَرَمَهُ طَغْرُلُ وَلَا التَّمَتَ إِلَيْهِ، وَلَا قَبِلَهُ وَلَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْوَزِيرُ قَدْ سَبَّرَ رَسُولًا إِلَى طَغْرُلُ بِتُحْفَةٍ وَنَسَخَةِ عَهْدٍ، بِأَنَّهُ عَنِ نُصْحِ وَشَفَقَةِ وَبَدَلِ جَهْدِ.

وَحَكَى زَيْنُ الدِّينِ الْمُظْفَرُ بْنُ سَيْدِي الزُّنْجَانِيِّ وَهُوَ رَسُولُهُ أَنَّهُ لَقِيَ طَغْرُلًا بِجَوَارِ الرَّيِّ فَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَوْصَلَ هَدِيَّةَ الْوَزِيرِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا وَزْنَ، وَأَظْهَرَ عِنْدَ رُؤْيَيْهَا حُزْنَ، وَذَكَرَ أَتَابِكُهُ شِيرِكِيْرَ وَشَرَفَ الدَّوْلَةَ وَوَلَدَهُ، وَاعْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ وَأَبْدَى عَلَيْهِمَا كَمَدَهُ، وَقَالَ: أَيْنَ هُمَا فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَلَوْ عَاشَا لَكَانَا أَنْفَعَ لِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَلَمَّا عَرَضْتُ عَلَيْهِ الْعَيْنَ بَانَ فِيهِ السَّخَطُ وَغَضُّ الْجَبِينِ، ثُمَّ عَبَسَ، وَبَسَّرَ وَأَرَمَ وَمَا تَكَلَّمَ بَيْنَتْ شَفَةَ وَلَا نَبَسَ، ثُمَّ قَالَ: لَا كَرَامَةَ لَهُ وَمَا أَحْمَقُ الرَّجُلَ وَأَجْهَلُهُ! ثُمَّ أَلَحَّ عَلَيْهِ أَتَابِكُهُ قِرَاسَنْقَرُ وَبَيَّنَّ لَهُ وَجْهَ الصَّوَابِ، وَلَا نَ لَهُ فِي الْخِطَابِ، حَتَّى شَرَعَ فِي الْيَمِينِ مُتَلَفِّظًا، وَمِنْ أَنْ يَمُنَّ مُتَحَفِّظًا، فَلَمْ يَتَفَوَّهْ بِرَوَابِطِهَا وَلَمْ يَتَنَبَّهْ عَلَى شَرَائِطِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعِ الْقَارِئُ عَلَيْهِ فِي مَوَاضِعِ الْإِلْزَامِ وَقَطَعَ السِّيَاقَةَ وَالنِّظَامَ بِدُخُولِ الْكَلَامِ عَلَى الْكَلَامِ، وَهَابَهُ مِنْ حَضْرَةِ وَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ الْوَزِيرِ إِلَيْهِ عَرَفَهُ بِمَا جَرَى وَأَخْبَرَهُ فَلَمْ يَكْتَرِثْ بِتِلْكَ الْحَالِ اغْتِرَارًا بِقُوَّةِ الْاِخْتِيَالِ، وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُ الْمُبَالَاهُ بِالْخَطِيْرِ بِالْبَالِ، وَكَانَ وَزِيرُ السُّلْطَانِ سَنَجَرَ يَوْمَئِذٍ نَصِيْرُ الدِّينِ مَحْمُودُ بْنُ أَبِي تَوْبَةَ، ذُو الْمَحَاسِنِ الْمَوْصُوفَةِ وَالصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ، فَأَنْعَمَ عَلَى الْقَوَامِ الْوَزِيرِ الدَّرَكِزْنِيِّ بِفِرْعِ الرَّيِّ لِتِلْكَ السَّنَةِ، فَإِنَّ الرَّيِّ كَانَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّنَجْرِيَّةِ وَوَالِيهَا مِنْ أَصْحَابِهِ الرَّجُلُ الْمُتَقَرَّبُ جَوْهَرُ الْمَعْرُوفُ بِالْأَمِيرِ الْأَجَلُّ ذُو الْجَرَاءَةِ السَّاطِيَّةِ وَالسُّطُوَّةِ الْجَبْرِيَّةِ، فَلَمَّا فَرَعَ الْوَزِيرُ

الْفَرَعِ وَوَزَّعَهُ مَتَعَهُ الْأَمِيرُ الْأَجَلُّ وَرَدَّعَهُ، فَجَرَى بَيْنَهُمَا حَطْبٌ وَخِطَابٌ، وَتَمَّ مِنْهُمَا بِسَبِيهِ سَبَابٌ، فَأَعْلَظَ الْوَزِيرُ لَهُ فِي الْمَقَالِ، وَكَانَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ حَتْفِهِ فِي الْمَالِ، وَعَلَا الْوَزِيرُ عُلُوًّا وَعَتَا عَتُوًّا، وَاتَّخَذَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ وَدِينٍ وَكَرَمٍ عَدُوًّا، وَرَحَلَ سَنَجِرَ إِلَى هَمْدَانَ وَخَيَّمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ غَيْرَ نَاوٍ لِمُقَامٍ، ثُمَّ نَهَدَ إِلَى نَهَاوِنْدٍ وَحَثَّ عَلَى اتِّبَاعِهِ الْجُنْدَ، لِأَنَّ الْخَبَرَ وَصَلَ بِأَنَّ الْمَلِكَ مَسْعُودًا وَصَلَ مُسْتَعِدًّا لِلْمَلِكِ مُسْتَجِيشًا بِجُيُوشِ التُّرْكِ، وَمَعَهُ صَاحِبُ فَارَسٍ قِرَاجَةَ أَتَابِكَ أَتَى بِكُلِّ بُهْمِيهِ، كَأَنَّهُ أَشْعِرَ الْعَجَزَ مِنْ نَفْعِهَا فِي دُهِمِهِ، وَلَمَّا سَمِعَ طغرلُ بِإِقْبَالِ أَخِيهِ مَسْعُودَ، لَمْ يَطْمَعِ مِنَ السُّلْطَنَةِ فِي مَسِّ عُودٍ، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ فَرَّجَاهُ قِرَاجَةَ وَأَنَّهُ لَا يُلْقَى وَلَا يُوَاجِهَهُ، فَعَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ، وَصَرَفَ عَنِ التَّأْمِيرِ وَجَهَ التَّأْمِيلِ، فَأَحْسَنَ سَنَجِرَ بِعَزْمِهِ وَهَمَّ بِإِبْطَالِ وَهْمِهِ، وَسَيَّرَ إِلَيْهِ الْوَزِيرَ وَالْأَمِيرَ الْحَاجِبَ وَهُوَ مَحْمُودُ الْقَاسَانِيِّ فَأَتَوْهُ وَهُوَ واقِفٌ عَلَى قَلْعَةِ حِذَاءِ كَنْكُورٍ وَبَلَّغُوهُ رِسَالَةَ عَمِّهِ سَنَجِرَ أَنَّهُ وِلَاةُ سُلْطَنَةِ الْعِرَاقِ وَسَلَّطَهُ عَلَى وِلايَاتِهِ، وَرَأَيْهِ أَنْ يُعْلِيَهُ بِإِعْلَاءِ رِايَتِهِ، وَأَنَّهُ وَلِيٌّ عَهْدِهِ وَمَالِكُ خِرَاسَانَ مِنْ بَعْدِهِ، فَهَوَى إِلَى الْأَرْضِ مُقْبِلًا، وَجَرَى الْقَدْرَ بِمُلْكِهِ مِنَ السَّمَاءِ فَأَصْبَحَ مُقْبِلًا، وَعَادَ إِلَى خِيَمِهِ وَخِيَمِهِ، وَرَجَعَ إِلَى مُدِيرِ مُدَامِهِ وَدِيَمِهِ، وَنَادَى النَّادَ مِنْ نُدْمَائِهِ، وَنَظَّمَ سِمَاطًا عَظِيمًا يَنْظُمُ سِمِطَ عَظْمَائِهِ، فَبَيْنَا هُوَ عَلَى سَرِيرِ أُنْسِيهِ وَسُرُورِ نَفْسِيهِ، وَرُوحِهِ وَرَيْنِحَانِهِ وَمَجَانِيهِ وَمُجَانِيهِ، وَأُوطَارِهِ وَأُوطَانِهِ وَأُوتَارِهِ وَعِيدَانِهِ، وَرُوقِهِ وَرَاوُوقِهِ وَسَاقِيهِ وَأَشْرَاقِهِ، وَنَهَائِهِ وَبَهْوِهِ وَزَهَاءِ خَدَمِهِ وَزَهْوِهِ، وَأَغَانِيهِ وَغَوَانِيهِ وَمَغَانِيهِ وَمَغَانِيهِ، وَأَطْرَابِيهِ الْمُنْشُودَةَ وَأَنَاشِيدِهِ الْمُطْرِبَةَ، وَأَعَاجِيْبِيهِ الْمُتَفَنَّنَةَ وَأَفَانِيْبِيهِ الْمُعْجِبَةَ إِذْ عَرَضَتْ لَهُ قَشْعَرِيَّةٌ فَجَاءَتْهُ وَفَاجَأَتْهُ، وَهِيَ عَلَى سَرِحِ سَلَامَتِيهِ مُعْيِرَةٌ ثُمَّ تَجَاوَزَتْ حَدَّ حُمَاهُ الْحَادَّةَ، وَتَوَقَّرَتْ لِمَرَضِهِ وَصَرَمِهِ الْمَادَّةَ، وَكَانَتْ حُخْمِي يَوْمَ نَضَّتْ ثُوبَ نَضَارَتِهِ، وَغَضَّتْ مِنْ غَضَارَتِهِ، وَغَيَّرَتْ سِحْنَتَهُ وَصَفَّرَتْ حُمْرَتَهُ، وَأَطْفَأَتْ بِإِشْعَالِ نَارِهَا جَمْرَتَهُ، وَأَذْهَبَتْ لَوْنَهُ وَذَهَبَتْ لُجْبِيْنَهُ، فَبَقِيَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ مُصَفَّرَ الْوَجْنَةِ مُتَغَيَّرِ السَّحْنَةِ، وَسَارَ سَنَجِرَ إِلَى نَهَاوِنْدَ بَعْدَ ثَلَاثِ فِي أَسُودٍ إِلَى الْفَرَاتِ غِرَاثِ، وَتَقَدَّمَ السُّلْطَانَ فِي الْعَسْكَرِ الْعِرَاقِيِّ يَطْوِي سُهُولًا بِأَوْعَاثِ، فَجَاءَهُمُ الْخَبِيرُ بِأَنَّ مَسْعُودًا أَمْسَى عَائِدًا إِلَى أَدْرَبِيْجَانَ عَنْ سَمْتِ دِيْنُورٍ وَمَا فِي عَزْمِهِ أَنْ يَلْقَى عَمَّهُ سَنَجِرَ، فَأَعَدَّ الْجَمَاعَةَ إِلَيْهِ سَاتِرِينَ، وَخَفُّوا بِأَجْنِحَةِ الْجُرْدِ طَائِرِينَ، وَهَجَرُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْكُرَى، وَوَصَلُوا السَّيْرَ بِالسُّرَى، فَمَا أَسْفَرَ الصُّبْحُ إِلَّا وَكُلُّ الْعَجَاجِ جَانَ، وَالْخَطِيَّ يَهْتَرُّ عَلَى يَمِينِ الشُّجَاعِ كَأَنَّهُ جَانَ، وَالْحَيْنَةَ مِرْنَانَ وَوَالْمَنْتِيَّ سُلْطَانَ، وَالسَّمَاءَ نَقَعَ وَالنَّجُومَ خِرْصَانَ، وَالْجَوْ مُظْلَمًا وَالنَّهَارَ مُعَيَّنًا، وَجَدَاوُلَ الْبَيْضِ فِي بُحُورِ

الإيمان تسليلاً، ونيران النصال من موايد المرأى تستطيل، والكوسات تدعُر والبوقات تنعُر،  
وصادقوا العسكر المسعودي على موضع من عمل دينور يُقال له بنجنكشت، ومَرَّتْ تَلْكَ  
الجِيوشُ بِهِ فامْتَلَأَ الْمَلَأُ وَجَاشَ الْمَوْتُ، وَبِذَلِكَ الْمَرْجُ مَرْجُ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ وَتَقَارَبَ بِحُكْمِ  
تَبَاعُدِ أَهْوَانِهِمَا الْفَرِيقَانِ، فَلَوْ أَنَّ أَتَابَكَ قِرَاجَةُ صَدَمٍ أَوَّلَ الْعَسْكَرِ عِنْدَ طُلُوعِ طَلَائِعِهِ وَظُهُورِ  
رَوَائِعِهِ لَلَّفَهُ وَفَلَّهُ وَأَزَّاهُ وَأَزَّلَهُ، لِأَنَّ الْعَسَاكِرَ كَانَتْ سَائِرَةً عَلَى الطَّرِيقِ أَرْسَالاً بِغَيْرِ سِلَاحٍ غَيْرِ  
مُتَاهِينٍ لِقِرَاعٍ وَلَا مُسْتَعِدِّينَ لِكِفَاحٍ، وَلَا عَالِمِينَ بِقُرْبِ الْخَصْمِ وَلَا عَارِفِينَ بِاللِّقَاءِ لِلْحَزْمِ،  
فَوَقَّفَ قِرَاجَةُ بِنَجْوَةَ إِلَى ضَحْوَةِ يَمِينِ عَسْكَرِهِ وَلَا يَعْباَ بِعَسْكَرِهِمْ، وَيَكْثُرُ بِيَضُّهُ وَسُمْرُهُ وَلَا  
يَكْتَرِثُ بِأَبْيَضِهِمْ وَأَسْمَرِهِمْ، فَتَلَاخَقَتْ الْعَسَاكِرُ وَتَوَافَقَتْ الْأَوَائِلُ وَالْآوَاخِرُ، وَزَخَرَتْ  
أَمْوَاجُ السُّوَابِحِ وَمَاجَتْ الزُّوَائِرُ، وَنَارَتْ الْأَرْضُ إِلَى السَّمَاءِ رِكْضاً، وَصَارَتْ السَّمَاءُ  
بَانْعِقَادِ النَّقِيعِ دُونَهَا أَرْضاً، وَطَلَعَتْ رَايَةَ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ سَنَجْرَ حَالِيَةَ الْحَالَةِ جَلِيَةَ الْجَلَالَةِ،  
وَهُوَ تَحْتَ مِظْلَتِهِ كَالْقَمَرِ فِي الْهَالَةِ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ السُّلْطَانُ طغرل وَالْأَمِيرُ قِمَاجُ، وَعَلَى  
مَيْسَرَتِهِ خَوَارِزْمِشَاهُ وَعَدَّةُ أَمْراءَ مَسَاعِرُ تَسْتَعِيرُ بِبِأَسِيهِمُ الْهَيَاجُ، فَحَمَلَتْ مَيْسَرَةَ مَسْعُودَ عَلَى  
مَيْمَنَةِ سَنَجْرٍ وَفِيهَا السُّلْطَانُ طغرل فَصَدَمَتْهَا وَهَزَمَتْهَا وَهَضَمَتْهَا وَرَكَضَ طغرلُ  
فِي الْهَزِيمَةِ فَرَسَخَيْنِ ثُمَّ تَحَيَّزَ إِلَى عِمِّهِ فَوَقَّفَ فِي قَلْبِهِ وَثَبَتْ بِجَنْبِهِ، وَحَمَلَتْ مَيْسَرَةَ سَنَجْرَ  
عَلَى مَيْمَنَةِ مَسْعُودَ فَمَزَقَهَا وَمَزَعَتْهَا وَوَزَعَتْهَا، وَفَرَقَتْ نِظَامَهَا وَالتَّهَمَّتْ لَهَا مَهَا، وَقَرَّ قِرَاجَةُ  
بِوَثْبَاتِهِ وَثَبَاتِهِ، وَحَمَلَ فِي خَوَاصِّهِ وَثْبَاتِهِ، وَكَانَتْ لِسَنَجْرٍ صُفُوفٌ وَرَاءَهَا صُفُوفٌ، وَرَجَالُهَا  
فِي مَوَاضِعِهَا وَقُوفٌ، فَخَرَقَتْهَا إِلَى الْقَلْبِ، وَدَارَتْ فِي الْإِحَاطَةِ بِهِ رَحَا الْحَرْبِ، وَكَانَ  
أَشْجَعُ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَلَوْ عَاشَ عِنْتَرُهُ لَأَقَرَّ أَنَّهُ مِنْ أَقْرَانِهِ، فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ،  
وَلَمْ يَرِ فِي الْإِقْدَامِ بِالرُّوحِ بُحْلَهُ، فَلَمَّا كَسِرَ أُسْرَ، ثُمَّ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ حُدِرَ لثَامَ حَيَاتِهِ وَحُسِرَ،  
وَقَبِضَ مَعَهُ مِنْ أَمْرَائِهِ عَلَى يَوْسَفَ الْجَاوُوشِ، وَلَقَدْ كَانَ جَرَّاراً لِلْجِيوشِ، وَأَسْرَ أَيْضاً تَاجُ  
الَّذِينَ بَنَ دَارِسْتَ وَوَزِيرُهُ فُقِقِلُوا وَتَقَلُّوا بِالْحَدِيدِ وَاعْتَقِلُوا، ثُمَّ رَكِبَ السُّلْطَانُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ  
وَوَقَّفَ عَلَى ثَلْعَةِ، مُسْتَبْشِراً بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ نَصْرِ وَرَفَعِهِ، فَأَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ قِرَاجَةَ وَيَوْسَفَ  
صَاحِبَهُ وَهُوَ مُطْرِقٌ لَا يَضْرَعُ لَهُ وَلَا يُخَاطِبُهُ فَضْرِبَتْ رَقَبَتَهُمَا وَطَوَّيْتُ وَرَقَتَهُمَا ثُمَّ انْصَرَفَ  
السُّلْطَانُ سَنَجْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَارْتَحَلَ مِنْ غَدِهِ وَاسْتَنَّ عَلَى سَنَتِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى كُورْشَنَةِ  
قَامَنَّ تَلْكَ الشَّبَّهَةُ، خَلَعَ عَلَى السُّلْطَانِ طغرلَ وَسَايِرَهُ بِانْفِرَادِهِ وَوَصَّاهُ بِبِلَادِهِ وَتَلَايِهِ، وَأَفْضَى  
إِلَيْهِ بِأَسْرَارِهِ وَأَسْرَّ إِلَيْهِ بِمُفَاوِضَاتِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ مَعَ رِضَاهُ وَنَهَاةً عَنِ مُعَارَضَاتِهِ، فَقَبَّلَ

عَيْنَ الْوَزِيرِ ذَاكَرَهُ لَمَّا ذَاكَرَهُ عَمَّهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ سَرٌّ يُخْفَرُ فِيهِ ذِمَامُهُ وَيُخْفَى ذِمَّتُهُ، ثُمَّ طَلَبَ سَنْجَرُ طُغْرُلَ وَدَعَاهُ وَوَدَّعَهُ وَأَوَدَّعَهُ مِنَ النَّصِيحَةِ مَا أَوَدَّعَهُ، وَانصَرَفَ إِلَى الرَّيِّ رَاجِعاً وَبِمَصَالِحِ الْمَمَالِكِ جَامِعاً.

**جلوس السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبي طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان**

جَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ بِهَمَذَانَ بَعْدَ انصِرَافِ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ سَنْجَرَ إِلَى خُرَّاسَانَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ سِتِّ وَعَشْرِينَ وَخَمِيسِمَائَةَ. وَوَزِيرُهُ الْقَوَامُ أَبُو الْقَاسِمِ نَاصِرُ بْنُ عَلِيِّ الدَّرَكْزَنِيِّ الْإِنْسَابَادِيِّ اسْتَبَدَّ بِتَمَشِيَةِ الْأُمُورِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى الْجُمْهُورِ، وَكَانَ لَا يُوقَعُ فِي الْأُمَثَلَةِ السُّلْطَانِيَّةِ مُظْهِراً أَنَّهُ وَزِيرُ سَنْجَرَ، وَإِنَّمَا حَلَفَهُ بِالْعِرَاقِ لِيُهْدَبَ الْمَمَالِكُ وَيُدَبَّرَ، وَهِيَ فِي هَذَا الْكَبِيرِ نَشِيطٌ وَالسُّلْطَانُ طُغْرُلُ مِنْهُ مُسْتَشِيطٌ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُبْدِي امْتِعَاضَهُ مِنْهُ وَلَا يُظْهِرُ إِعْرَاضَهُ عَنْهُ، فَالْوَزِيرُ مُسْتَقَلٌّ وَالسُّلْطَانُ مُسْتَقِيلٌ، فَهَذَا مُسْتَطَبٌّ مِنْ غَيْظِهِ وَذَلِكَ مُسْتَطِيلٌ، وَكَانَ مُرَادَ السُّلْطَانِ صَدِّ مُرَادِ وَزِيرِهِ، فَلَا جَرَمَ سَدَّ عَلَيْهِ مَتَاهِجَ تَدْبِيرِهِ فَهِيَ فِي بَتِّ الْعَدْلِ وَالْوَزِيرُ فِي بَتِّ الْحَيْلِ، وَهُمْ فِي شَمْلِ الشَّتَاتِ وَالْوَزِيرُ فِي شَتِّ الشَّمْلِ، فَذَلِكَ يُجَبِّزُ وَهَذَا يَجُوزُ، وَذَلِكَ يُمِيرُ النَّعْمَ وَهَذَا بِالنَّقْمِ يَمُورُ، وَذَلِكَ يُعْطِي وَهَذَا يَأْخُذُ، وَهَذَا يُورِطُ وَذَلِكَ يُنْقِذُ.

وَوَصَلَتْ رُسُلُ الْإِمَامِ الْمُسْتَرَشِدِ بِاللَّهِ فَلَقِيَهُمُ الْوَزِيرُ بَعْبُوسُ وَبُوسُ، وَكُلُّوْمُ كَلَامِ احْتِاجَا إِلَى التَّحْصَنِ مِنْ سِهَامِهَا بِلَا لُبُوسِ، وَوَأَقَعَهُمُ بِالنَّجَةِ وَوَأَقَعَهُمُ بِالْجَنَّةِ، وَشَافَهُ فَسَافَهُ، وَوَجَّهَ خُطَابَ الشَّرِّ وَبِالْحَطْبِ وَاجَهُ، وَدَانَ بِالْإِلْحَادِ وَالْحَدِّ فِي الدِّينِ وَمَا أَمِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَحَمَلَهُ الطَّبَعُ فِي دَارِ الْخِلَافَةِ عَلَى الْخِلَافِ الدَّائِرِ، وَانْفَصَلَ الرَّسُلُ وَمَا قَرَّوْا لِلْقَرَارِ الْجَارِي مِنْ الْجَائِرِ، وَصَبَّحَ لِلطَّمَعِ فِي الرَّشَى الرَّشْدَ، وَضَلَّ عَنْ نَهْجِ الضَّلَالَةِ الَّتِي تَشِدُّ، وَأَسَدَّ مَا صَلَحَ، وَجَرَى عَلَى خُلُقِ الْفِلَاحَةِ وَمَا أَفْلَحَ، وَلَمْ تَسْتَقَرَّ بَيْنَ الْإِمَامِ وَالسُّلْطَانِ قَاعِدَةٌ، وَكُلَّمَا ظَنَّتْ مُتَقَارِبَةً عَادَتْ وَهِيَ بِعَادِيَّةِ عَادَةِ الْوَزِيرِ مُتَبَاعِدَةً.

**ذكر ما جرى للملك داود بن السلطان محمود بعد وفاة أبيه**

كَانَ دَاوُدُ وَلِيِّ عَهْدِ أَبِيهِ، وَآقِ سَنْقَرِ الْأَحْمَدِيِّ أَتَابِكُهُ وَمُرَبِّيَهُ، وَهُوَ بِأَذْرَبِجَانَ فِي جَمِّ غَفِيرٍ وَجَمِّعٍ كَثِيرٍ، وَقَصَدَ خَوَاصَّ الْوَالِدِ وَتَعَصَّبَا وَثَابُوا إِلَيْهِ وَوَثَبُوا، وَنَهَضُوا وَاسْتَنْهَضُوا،

وَانْقَضُوا وَتَقَضَّضُوا، وَغَارُوا لَهُ وَعَوَّرُوا، وَثَارُوا مَعَهُ وَتَوَّرُوا، وَتَفَرَّوْا وَاسْتَنْفَرُوا، وَحَسَدُوا وَحَسَرُوا، وَهَاجَبُوا وَهَيَّبُوا وَمَاجَبُوا وَمَوَّجَبُوا، وَعَزَّوْا وَعَزَّمُوا، وَتَقَدَّمُوا وَأَقَدَّمُوا، وَأَسَالُوا الْأَسْلَ، وَأَجَالُوا الْأَجَلَ، وَأَمَالُوا إِلَيْهِ الْأَمَلَ وَأَزَالُوا عَنْهُ الزَّلَلَ، وَأَسَعَرُوا الرُّوعَ، وَرَوَّعُوا الْمُسَعَّرَ، وَأَضْمَرُوا الْإِجْرَارَ إِلَى الْخَصْمِ وَأَجْرَوُا الضَّمْرَ، وَمَعَهُمُ الْأَمِيرُ سَعْدُ الدَّوْلَةِ يَرِنُقَشُ الزَّكَوِيُّ، وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ أُمَرَاءِ الْخَدَمِ، وَأَوْحِدِهِمْ فِي إِحْيَاءِ رُسُومِ الْبَاسِ وَالْكَرَمِ، وَمَعَهُمْ أَبْنَاءُ قَرَابَةِ ابْلِزَمِشٍ وَأَخُوهُ، وَعِدَّةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ هُمُ الْأَعْيَانُ وَالْوَجُوهُ، وَمِنْ أَرْيَابِ الْعِمَائِمِ الصَّفِيِّ الْأَوْحَدِ [أَبُو الْقَاسِمِ] الَّذِي جُعِلَ مُسْتَوْفِيًا لِلسُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ بَعْدَ الْعَزِيزِ فَحَمَلَهُمْ عَلَى التَّبْرِيزِ مِنْ تَبْرِيزٍ، وَنَهَضَ السُّلْطَانُ دَاوُدُ فِي سَنَةِ سِتِّ وَعِشْرِينَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَسَارَ مُغِذًا مُجِدًّا غَيْرَ مُتْرِيثٍ فِي مَرَحَلَةٍ، وَلَا مُتَلَبِّثٍ فِي مَنَزَلَةٍ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى هَمْدَانَ وَلَمَّا قَرَبَ مِنْ عَسْكَرِ عَمِّهِ طغرل طغى زَالَ مِنْ ظُلُمَاتِ عُلَمَانِهِ، وَعَدَّتْهُ عِدَّةٌ مِنْ أَمَاثِلِ مُلْكِهِ وَأَعْيَانِهِ، وَرُمُوا بِالذَّاءِ وَدَّ دَاوُدُ، وَلَوَّوْا مَعَ قُوْدِ الْخَيْلِ عَذَابَاتِ لِيَاءِ لِلْحَرْبِ مَعْقُودٍ، وَكَانَ يَمَنَّ أَيْقَنَ بِأَنَّ حَازَ السَّعَادَةَ أَنْ انْحَارَ وَتَعَجَّلَ إِنْجَارَ الْإِرَادَةَ أَنْ جَارَ بَلَنْكَرِي وَأَخُوهُ يَكْرِي وَعُصْبَةٌ ذَاتُ عَصَبِيَّةٍ، وَكَذَلِكَ شِيْمَةُ الْأَتْرَاكِ غَيْرُ وَفِيَّةٍ، وَبَرَزَ طغرل فِي الْجُنُودِ الْمُتَّفِقَةِ وَالسُّودِ الْمُخْتَفِقَةِ، وَالْجِيُوشِ السَّائِرَةِ بِالْأَيَاتِ، وَالْوَحُوشِ الطَّائِرَةِ مَعَ الرِّيَابِ، وَالضُّوَامِرِ الضُّوَامِرِ لِلنَّصْرِ، وَالصَّلَادِمِ الصَّوَادِمِ بِالنَّحْرِ، فَلَمَّا تَصَافَّ الْعَسْكَرَانِ وَتَصَافَّقَ الْعَثِيرَانِ، وَثَارَ الْعِجَاجُ وَعَجَّ الثَّائِرُ وَزَارَّ الضَّيْغَمُ وَضَغَمَ الزَّائِرُ، وَدَجَا النَّهَارُ وَانْهَرَّتِ الْأُودَاجُ، وَسَجَّتِ الرَّقْعَةُ وَوَقَعَتِ الشَّجَاجُ، وَطَارَتِ حَمَامُ الْحِمَامِ تَكْتَبُ الْكُتُبَ مِنْ أَوْكَارِ الْأُوتَارِ، وَصَارَتِ سِهَامُ السَّهَامِ تُفْرَقُ عَلَى مَصَارِفِهَا مِنْ الْخَدَقِ وَالْأَبْصَارِ، وَتَبَّتِ الْفَرِيقَانِ وَلَمْ يَفْرَقِ الثَّابِتَانِ، فَكَانَتْهُمَا وَهُمَا لَا يُدْبِلَانِ يُدْبِلَانِ، فَلَمْ يُسْمَعْ إِلَّا وَقَعُ الْبَيْضِ، وَلَمْ يَرِ إِلَّا مَجْرُ الدَّمِ يَجُودُ مِنَ الْغَيْظِ بِالْفَيْضِ، حَتَّى تَكَسَّرَتِ اللَّتُوتُ وَعَسَّرَتِ الرَّتُوتُ، وَتَلَكَّمَتِ فِي الدَّرُوعِ الْخُدُودُ، وَتَلَكَّمَتِ بِالنَّجِيعِ الْخُدُودُ، وَتَحَطَّمَتِ الْأَبْرُقُ وَتَحَطَّمَتِ السُّيُوفُ، وَحَزَّتْ أَكْفُ الْخَطِيِّ لِأَنَّهُ السَّابِرِيُّ، وَسَاءَ صَبَاحُ السَّقِيمِ وَمَسَاءُ الْبَرِيِّ وَأَسْلِمَ الْهِنْدِيُّ وَأَعْوَجَ الرُّدْنِيُّ وَوَدِيَ الْأَعْوَجِيُّ، وَزَالَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يَزُولَا وَطَالَتِ الْحَرْبُ فَلَا يَدَ لِأَحَدِهِمَا طُولِي، وَمَضَى الظُّهْرُ وَلَا ظَهُورُ، وَقَدَّ حُويَا بِالصُّدُورِ وَالظُّهُورِ، ثُمَّ ظَفَرَ الْعَمُّ وَتَفَرَّ ابْنُ الْأَخِ وَقَرَّ مِنْهُ النَّفْرُ، وَانْهَزَمَ آقِ سَنَقَرِ بَدَاوِدَ، وَبَاءَ الْبَاقُونَ بِأَغْلَالِ وَقِيُودِ، وَقَبِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ ابْلِزَمِشُ بْنُ قَرَابَةِ مُقَدِّمًا، وَبَدَّلَ رُوحَهُ فِي الْمُلْتَقَى مُكْرَمًا، وَأَخِذَ سَعْدُ الدَّوْلَةَ يَرِنُقَشُ الزَّكَوِيُّ فَاعْتَقِلَ فِي هَمْدَانَ عِنْدَ الْوَزِيرِ فِي قَصْرِهِ، وَأَمْضَى عَلَى سَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَصَلَ أَمْرَهُ،

وَتَسَلَّمَ مِنْهُ قَلْعَةُ قَرْوِينٍ وَخَلَّتْ عَنْهُ بِلَادُهُ قَرْوِينٍ، وَأَخَذَ أَيْضًا الصَّغِيَّ الْمُسْتَوْفِي الْمَعْرُوفَ بِأَوْحِدٍ بِهَرُوزٍ، وَجَاءَ لِيَبِينَنَّ فَصَارَ الْمُبْرُورُ، وَجَلَسَ عِنْدَ جَاوَلِي جَانِدَارٍ، وَسَأَلَ الْوَزِيرَ يَنْقُلُهُ وَيَعْتَقِلُهُ عِنْدَهُ بِالْدارِ فَمَا رَخَّصَ فِيهِ السُّلْطَانُ، وَلَا تَمَكَّنَ مِنْهُ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ كَتَبَ إِلَى طغرل يقول إن سَلَّمْتَنِي إِلَى الْوَزِيرِ أَسَلَّمْتَنِي إِلَى الْبَيْرِ، وَأَنَا أُعْطِيكَ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ عَلَى أَنْ أَسَلَّمَ وَلَا أَسَلَّمَ، وَيُسْتَصْفَى مَالِي لَا الدَّمَّ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَفَّرَ بِي أَرَأَى دَمِي، وَالْأُولَى أَتَى عِنْدَكَ فِي الْقَيْدِ أَرَى قَدَمِي، فَلَمَّا يَتَسَّ الْوَزِيرُ مِنْ وَقْعِهِ فِي يَدِهِ وَتَكْدِيرِهِ لِمُورِدِهِ أَفْكَرَ فِي حِيلِ بِهَا مَالٌ مُصَادَرَتِهِ حَتَّى أَدَى مِائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ، فَادَى ضَعْفَ الْمَالِ عَلَيْهِ بِكُلِّ ضِعْفٍ، وَتَلَّكَ أَنَّهُ قَالَ لِلْسُّلْطَانِ طغرل إِنَّ عَمَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ الدِّينَارَ الرَّكْبِيَّ فِي هَمْدَانَ حَتَّى يَنْفَقَ نَقْدُ الْعِرَاقِ وَنَقْدُ خِرَاسَانَ، وَتَقَدَّمَ بِضَرْبِ أَلْفِ دِينَارٍ بِذَلِكَ الْعِيَارِ، وَنَادَى بِالتَّعَامُلِ بِهِ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ، وَطَوْلِبَ الصَّغِيَّ الْأَوْحَدَ بِذَلِكَ النَّقْدِ مِنْ غَيْرِ تَضْعِيفِ الْعَقْدِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَمْرُ مُصَادَرَتِهِ وَاسْتَدْرَأَ الْأَدَاءَ مِنْ جِهَتِهِ لَمْ يَنْفَقَ نَفَاقَ ذَلِكَ الْعِيَارِ الْمُجَدَّدِ، فَعَادُوا إِلَى نَقْدِ الْبَلَدِ وَبَسَطَ الْوَزِيرُ يَدَهُ وَاعْتَمَّ اسْتِيلَاءَهُ وَتَفَرَّدَهُ فَفَسَطَ وَقَسَطَ وَفَرَطَ وَأَفَرَطَ، فَفَرَزَ عَلَى قُتْلِ الرَّشِيدِي وَكَانَ أَسْتَاذِ دَارِ مَحْمُودٍ ثَمَانِينَ أَلْفِ دِينَارٍ أَذَاهَا بَعْدَ بَذْلِ كُلِّ مَجْهُودٍ، فَادَانَ حَتَّى أَذَاهَا، وَخَافَ عَلَى ذَخِيرَةِ لَهُ فَمَا أَبْدَاهَا، ثُمَّ غَدَرَ بِهِ الْوَزِيرُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْ وَدَائِعِهِ ثَلَاثِينَ أَلْفِ دِينَارٍ أُخْرَى قَفَرْتُهُ وَأَفْقَرْتُهُ وَكَسَرْتُهُ وَخَسَرْتُهُ، وَأَخَذَ مِنَ الْجَمَالِ ابْنَ مِيَاذَةَ الْبَيْعِ بِهَمْدَانَ ثَلَاثِينَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَوَلِيَ فخرُ الدَّوْلَةِ بَنُ أَبِي هَاشِمٍ الْحَسَنِيَّ رِئَاسَةَ هَمْدَانَ، وَأَخَذَ مِنْهُ عِشْرِينَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَقُرَّرَ عَلَى تَاجِ الدِّينِ دَوْلَتِشَاهِ بْنِ عَلَاءِ الدِّينِ وَوَالِدِهِ وَوَزِيرِهِ مِائَةَ وَخَمْسِينَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَصَادَرَ الْأَكْبَارَ وَصَدَرَ الْكِبَائِرَ، وَجَرَّ الْعِظَائِمَ وَعَظَّمَ الْجَرَائِرَ، وَبَعَثَ وَبَحَثَ وَنَقَضَ وَنَكَثَ، وَعَقَرَ وَغَرَقَ وَحَرَقَ وَأَحْرَقَ، وَقَلَعَ الْقُرَى وَقَطَعَ الْقُرَى، ثُمَّ وَزَعَ عَلَى بِلَادِ الْمَمَالِكِ بَغْلَةً ضِيَاعَاتِ بَيْتِ الشَّرَابِ وَالْمَطْبَخِ أُلُوفًا مُؤَلَّفَةً أَذْهَلَتْ أُمَاتِ الطَّيْرِ فِي أَوْكَارِهَا عَنِ الْأَفْرَاحِ، فَاطَّلَعَ السُّلْطَانُ طغرل عَلَى طَغْيَانِهِ وَتَسَلُّطِهِ وَتَجَرُّبِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَبَسَلُّطِهِ فَأَنْقَذَ إِلَيْهِ أَنْكَ أَسَاتِ سُمْعَتِي وَأَسْمَعَتِ مَسَاءَتِي، وَقَضَّحَتِ أَمْرِي وَأَمَرَتِ بِفَضِيحَتِي، وَشَنَّتْ شَأْنِي وَقَعَقَعَتِ بِشَأْنِي، وَوَقَعَتِ فِي شَأْنِي، أَلَمْ يَكْفِكَ سَلْخُ جُلُودِ الْعُظْمَاءِ حَتَّى شَرَعَتْ فِي اسْتِفْرَاحِ دِمَاءِ الضُّعَفَاءِ وَاسْتِزْوَافِ دِمَاءِ الْفُقَرَاءِ، فَكَفَّ الْوَزِيرَ عَنِ التَّوْزِيعِ بَعْدَ جَبَايَةِ الْأَكْثَرِ وَالْخِيَانَةِ فِي الْأَوْفَرِ، وَسَمِعَ السُّلْطَانُ طغرل بِتَحَرُّكِ أَخِيهِ مَسْعُودٍ، وَخُرُوجِهِ مَعَ آقِ سَنَقَرٍ فِي جُمُوعِ وَحُشُودِ، فَارْتَحَلَ صَوْبَهُ عَلَى أذربيجانٍ يُزْحِزِحُ عَنْهُ قِرَاسَنَقَرَ إِلَى زَنْجَانَ وَتَحَصَّنَ عَيْنَ الدَّوْلَةِ

خوارزمشاه والأُميرَانِ تَشْتَكِينِ وَيَبْلِقُ بِأَرْدَبِيلِ وَالْأَمِيرُ الْحَاجِبُ تَتَارُ بِأَرْمِيَةِ، وَأَبْعَدُوا عَنْ خَصْمِهِمُ الرِّمِيَةَ، وَتَحَكَّمِ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ وَأَقِ سَنَقَرُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَانْتَضَمَتْ أُمُورُهُمْ فِي سَلِكِ السُّدَادِ، وَنَزَلَ عَلَى أَرْدَبِيلِ مُحَاصِرِينَ وَتَبَّتْ أَهْلُهَا صَابِرِينَ مُصَابِرِينَ، فَكَتَبَ الْوَزِيرُ الدَّرَكْزِينِيُّ إِلَى قِرَاسَنْقَرٍ يُحَرِّضُهُ وَيَحْضُهُ، وَيُوقِظُهُ لِمَا يَقْضُهُ، وَيَقُولُ لَهُ بَارِزُ أَقِ سَنَقَرُ فَأَنْتَ لَهُ مُبَارٍ بِالْمُبَارَزَةِ، وَأَحْضِرُهُ وَنَاجِزُهُ بِنَفْسِكَ وَإِلَّا حَضَرْتُ بِنَفْسِي إِلَى الْمُنَاجِزَةِ، فَإِنَّكَ إِنْ تَمَهَّلْتَ عَنِ الْخَصْمِ تَمَهَّلْتَ لِلْوَصْمِ، وَأَمْرٌ أَمْرُهُ وَاسْتَعَلَّ جَمْرُهُ، وَاسْتَعَلَّ بِكَ مَجْرُهُ، وَقَدَّمْتَ زَلَّتْكَ وَزَلَّتْ قَدَمُكَ، وَدَامَ الْإِعْرَاضُ عَنكَ وَتَعَرَّضَ لِلْهَدْرِ دَمُكَ، فَإِنْ تَقَدَّمَ تَتَقَدَّمُ وَإِنْ تَبَدَّدَ تَتَبَدَّدُ، فَكَتَبَ فِي الْجَوَابِ مَا إِمَهَالِي لِإِمَهَالِي وَلَا إِغْفَانِي لِإِغْفَالِي، بَلْ رُبُوضِي لِئِهْوَضِي، وَجُثُومِي لِئِهْجُومِي، وَتَمَهَّلِي لِتَمَحَّلِي، وَبَاتِي لِوَبَاتِي، وَسُكُونِي لِحَرَكَتِي وَخُمُودِي لِشُعَلْتِي، فَمَا أَغْنَانِي مِنْكَ فِي أَنْاتِي وَمِنَ السُّيُوفِ أَقْوَاتِي، وَإِنْ عَجَلْتُ حَجَلْتُ فَإِنِّي بغيرِ عِلْمِكَ عَمَلْتُ، فَأَنَا مُتْرَبِّتٌ مُتَلَبِّتٌ مَتَمَكَّتْ فِي الرَّأْيِ رَبِّتٌ إِلَى أَنْ تَجْتَمِعَ الْعَسَاكِرُ وَتُعَسِّكَرَ الْجُمُوعُ، وَيَتَوَقَّعُ مِنَ التَّابِعِ وَالْمَتَبَوِّعِ، وَيَصِلُ أَوْلِيَاءَ الدَّوْلَةِ وَمُدْبِلُ الْوَلَايَةِ، وَتَنْصَمَّ مِنَّا الرَّاْيَةُ إِلَى الرَّاْيَةِ، فَإِنَّا إِنْ أَتَرْنَا الْقَوْمَ أَقَمْنَا الثَّائِرَ، وَلَا طَمْنَا الْمُتَلَاطِمَ الرَّاحِزَ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَنْ بِالْأَطْرَافِ، وَأَنْحَلَّ الْعَقْدُ بِفِصَامِ الْمَصَافِ، فَإِنْ أَسْرَعْتَ وَأَسْرَعْتَ وَشَرَعْتَ وَأَشْرَعْتَ فَمَا بَلَاقٌ إِلَيَّ بِلَاقٍ، وَلَا جُنُودَ الْأَمِيرِ تَتَارُ تَتْرَى إِلَيَّ عَلَى اسْتِيَاقٍ، وَلَا أَقْدُرُ لِلْحَقِّ عَلَى لِحَاقٍ، وَيَعِيمُ فِي الْبِدَارِ بَدْرِي بِدَارٍ مُحَاقٍ، فَخَلَّتْنِي وَرَأَيْ حَتَّى إِذَا خَلَصَ إِلَيَّ خُلَصَانِي وَحُيِّبْتُ بِأَنْوَاعِ الْحِجَابِ مِنْ أَعْوَانِي وَوَيْقْتُ مِنْ أَجْنَادِي بِأَنْجَادِي قَدَرْتُ عَلَى إِضْعَافِ أَعْدَائِي بِأَضْعَافِ أَعْدَادِي، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الدَّرَكْزِينِيُّ إِنْ نَكَلْتُمْ عَنِ اللَّقَاءِ لَقَيْتُمُ النَّكَالَ، وَإِنْ أَخَلَلْتُمْ بِالْأَمْرِ صَادَفَ أَمْرُكَ الْإِخْتِلَالَ، فَارْزَعْ بِطَاعَتِنَا السَّمْعَ وَلَا تَنْتَظِرِ الْجَمْعَ، وَاحْسِمِ بِحُسَامِكَ الدَّاءَ وَتَأَخَّرِ الْأَعْدَاءَ، فَإِنَّهُمْ إِنْ اسْتَخْلَفُوا الْمُجَاوِرِينَ وَاسْتَفْحَلُوا جَائِرِينَ، وَفِي إِمَهَالِ الْخَصْمِ إِمَهَاؤُهُ، وَفِي تَرْكِ إِرْهَاقِهِ إِرْهَاقُهُ، فَاسْتَشَاطَ قِرَاسَنْقَرُ مِنْ اسْتِطَاطِ الْوَزِيرِ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَجَالُ التَّدْبِيرِ، وَقَالَ لِجَمَاعَتِهِ قَدْ بَلَانَا اللَّهُ بِهَذَا الْفَلَاحِ فَإِنَّ هَذَا الرَّسْتَاقِيَّ يَسْتَأِقُ النَّاسَ بِعَصَا، وَيَتَوَقَّعُ الدَّوْلَةَ بِطَيْشِهِ فَرُصَا، وَيَتَسَوْمُ أَوْلِيَاءَهُ بِشُومِهِ نَعْصَا، فَمَتَى نَسْتَرِيحُ مِنْ ثُنَيْنِ رَيْحِهِ، وَإِلَى مَتَى نَحْسُنُ الصَّبْرَ عَلَى قَبِيحِهِ، فَاحْتَدَّ الْأَمِيرَانِ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ تَتَارُ وَجَاوِلِي الْجَانِدَارِ وَقَالَا لَا بُدَّ مِنْ طَاعَةِ السُّلْطَانِ فِي مُحَارِبَةِ أَهْلِ الْعِصْيَانِ فَلَا نَجُونَ، وَهَذَا مُقَامُ الشُّجْعَانِ، فَقَالَ قِرَاسَنْقَرُ لَهُمَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَدْ زَالَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ بِرَأْيِكُمْ وَرَأْيِ الْوَزِيرِ، وَلَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ فِي التَّدْبِيرِ، فَشَهِدَ ثُمَّ نَهَدَ،

وَوَجَدَ مِنَ الْغَيْظِ وَجَدًّا، وَسَرَى تَيْفًا وَعَشْرِينَ فَرَسَخًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِنَيَاتٍ صَادِقَةٍ، وَعَزَائِمَ مُتَعَادَّةً، وَجُمُوعَ حَاشِدَةً، وَقُلُوبَ لِصَالَةِ الْمَوْتِ نَاشِدَةً، وَأَرْوَاحَ إِلَى الْأَجَالِ مُشْتَاقَةً، وَأَهْوَاءَ بِعِلَاقَةِ الْأَهْوَالِ لَهَا عِلَاقَةً، وَخِيُولَ كَالسِّيُولِ الْجَارِفَةِ جَارِيَةً، وَمَنْنَ لِلْمَنْوَنِ الشَّارِدَةِ شَارِيَةً، وَأَبَابٍ لِأَبَابِ الْقِرَاعِ قَارِعَةً، وَهَمَمَ لَدُرُورَةِ الرَّدَى فَارِعَةً، فَوَصَلَ قِرَاسَنْقَرَ بِخِيُولِ رَازِحَةٍ وَخِيُولُ آقِ سَنْقَرِ جَامِئَةٍ غَيْرِ جَامِئَةٍ، فَلَمَّا تَقَارَبَا وَثَبَتَ الْقِرْنَانِ وَاقْتَرَنَ الثَّابِتَانِ وَاسْتَيْقَظَ خِيَالُ الْمَنْوَنِ لِلتَّبَاعُدِ وَتَوَارَدَا لِغَيْرِ التَّوَادِّ وَتَقَالِيًا فَتَقَالِيًا وَتَضَارِبًا وَتَضَارِبًا لِهَاجِعٍ فِي الْأَجْفَانِ وَشَدًّا عَلَى الْقِتَالِ وَاقْتِتَلَا شَدِيدًا وَأَعَادَا لِلتَّبَارِ فِي لَوْنِ التَّبِيرِ حَدِيدًا، ثُمَّ انْهَزَمَ قِرَاسَنْقَرُ وَقَرَّ، فَظَفَرَ آقِ سَنْقَرُ وَقَرَّ، وَكَانَ الْحَرْبُ عَلَى بَابِ أَرْدَبِيلَ، فَشَفَى آقِ سَنْقَرُ مِنْهُمْ الْغَلِيلَ، وَاحْتَوَى عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ وَلَمْ يَقُمْ بَعْدَهُمْ وَتَبِعَهُمْ وَهَجَرَ الْكُرَى وَوَصَلَ السَّيْرَ بِالسُّرَى، حَتَّى جَاءَ إِلَى هَمْدَانَ وَعَنَا لِمَسْعُودِ الْمُلُوكِ وَدَانَ، وَخَرَجَ السُّلْطَانُ طَغْرُلُ وَتَحَصَّنَ بَارُونَدَ وَمَاوَشَانَ، وَكَانَ قَدْ عَرَضَ لَهُ مَرَضٌ أَقْعَدَهُ عَنِ الْحَرَكَةِ وَأَعَجَزَهُ عَنِ حِمَايَةِ الْمَمْلَكَةِ، فَقَدَّمَ الْأَمِيرَ حَسَنًا الْجَانِدَارَ عَلَى الْعَسْكَرِ وَهَاجَهُ إِلَى اللَّقَاءِ وَالْقَاهُ فِي الْهَيْجَاءِ، وَمَاجَ بَحْرُ الْحَرْبِ، وَحَلَا ضَرْبُ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، وَحَصَدَتِ الصَّوَارِمُ سَنَبْلَ الْهَامِ، وَحَرَّتْ الْعَوَامِلُ أَرْضَ اللَّامِ، وَنَقَعَ النَّقْعُ غَلَّةَ الْعَضَابِ الْغِضَابِ، وَقَصَّتِ الْقَوَاضِبُ بِالْإِرْوَاءِ مِنْ وَرْدِ الْأَرْوَاحِ تِرَاتِ التَّرَانِ، وَتَنَاءَى مِنْ الْعَسْكَرَيْنِ عَلَى احْتِوَاءِ الْفَانِي الْفَانِ، وَتَنَافَسَ الْأَخْوَانُ فِي الْمُلُوكِ الْخَوَانِ، وَسَبَّحَ فِي بَحْرِ النَّجِيعِ الْقَانِي الْفَرِيقَانِ، ثُمَّ انْهَزَمَ طَغْرُلُ إِلَى الرَّيِّ قَادِمًا وَلِلرَّيِّ عَادِمًا، وَعَلَى الرَّأْيِ نَادِمًا، وَعَلَى وَزِيرِهِ وَاجِدًا، وَلِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِهِ سَاجِدًا.

ذَكَرَ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ عَمِي عَزِيزِ الدِّينِ وَحَادِثَتِهِ بَعْدَ عَوْدِهِ إِلَى الْقَلْعَةِ

قَدْ مَضَى ذِكْرُ السُّلْطَانِ سَنْجَرٍ وَمَجِيئِهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ إِلَى الرَّيِّ، وَمُؤَافَقَةَ الْوَزِيرِ الدَّرَكْزِينِيِّ عَلَى الْعَيْ، وَأَنَّهُ وَلَّى طَغْرُلَ وَجَعَلَ عَلَيْهِ الْمَعْوَلَ، وَجَدَّدَ تَقْلِيدَهُ بِالْوِزَارَةِ، وَسَلَّكَ إِلَيْهَا طَرِقَ الْجَسَارَةِ، وَاجْتَرَأَ وَاجْتَرَمَ وَاجْتَرَحَ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمِهِ كُلَّ مَا وَضَحَ، وَبَسَطَ يَدَ السُّوءِ وَمَدَّهَا وَشَرَعَ فِي اسْتِنطَاقِهَا حَتَّى بَلَغَ السُّكَيْنَ إِلَى الْعِرَاقِ، وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُ هَذَا الْفَصْلِ مُسْتَوْفَى حِينَ مَلَأَ الْمَلَأَ حَيْفًا وَخَوْفًا، وَقَالَ لِسَنْجَرِ أَنْتَ تَعُودُ إِلَى خُرَاسَانَ وَبَعْدُ عَلَيْنَا اسْتِثْنَاؤُكَ فِي الْمَهَامِ وَاسْتِثْمَارُكَ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ، فَاعْطِنَا عِلَامَاتِكَ فِي دَرَجِ بِيَاضٍ لِمَقْصَدِ تَعَرُّضِ وَأَغْرَاضِ، فَإِذَا عُنَّتْ مَصْلِحَتُهُ، وَأَنْفَقَتْ مَنَفْعَةً لِلدَّوْلَةِ مُتَرَجِّحَةً، أَصْدَرْنَا بِهَا بِمِثَالًا بِعِلَامَتِكَ مُتَوَجِّبًا، وَعَلَى

أَمْرِكَ الْمَطَاعِ مُدْرَجًا، فَلَا يُخَالِفُهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَلَا يَنْقَادُ إِلَّا لَهُ الْعَوِيُّ وَالرَّشِيدُ، وَكَانَتْ  
عَلَامَةُ سَنْجَرٍ تَحْتَ قَوْسِ الطُّغْرَاءِ وَفَوْقَ بِسْمِ اللَّهِ (تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ) فَأَخَذَ الْعَلَامَاتِ فِي  
عِدَّةِ دُرُوجٍ، وَأَتَّخَذَهَا أَسْبَابًا لِاسْتِيحَاةِ دِمَائِهِ وَفُرُوجِ، فَأَوْلَى مِثَالِ زَوْرُهُ وَتَزْوِيرِ مِثْلِهِ وَمَكْرٍ مَكْرُهُ  
وَاحْتِيَالِ تَحْيَلِهِ وَسَوْءِ سَوَاءِهِ وَسَوَّلُهُ أَنَّهُ وَقَعَ تَحْتَ عَلَامَةٍ مِنْهَا بِقَتْلِ الْعَزِيزِ إِلَى صَاحِبِ تَكْرِيتِ  
بِهَرُوزِ الْخَصِيِّ الْمَقِيَّتِ، وَاتَّفَقَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ فِي الْعَسْكَرِ فَأَرْهَبَهُ وَأَرْعَبَهُ وَخَدَعَهُ بِبِقَاءِ  
شُحْنَكِيَّةِ بَغْدَادَ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ إِنَّ أَنْتَ أَطْلَقْتَهُ اعْتَقَلْتِ، وَنُقِلَ عَلَيْكَ وَبِالْحَدِيدِ نُقِلْتِ، فَلَا  
تُحْفِظُنَا بِحِفْظِهِ، وَلَا تَبِعِ رَفْضِ حَظِّكَ لِفَرْضِ حَظِّهِ، وَلَا تُوجِدْهُ فَتُعَدِّمِ، وَلَا تَبْنِيَهُ فَتُهْدِمِ، وَلَا  
تَسْتَقْبِحْهُ فَتَنْدَمِ، فَبَهْرُوزِ بِالْخَوْفِ، وَوُلْعِ وَلُوعِ بِعَقْلِهِ السَّخِيفِ، وَرَغْبِهِ وَطَاشِ لُبِّهِ وَسَفَهِ  
حِلْمِهِ وَجَهْلِ عِلْمِهِ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَنَفَّسَ بِخَوْفِهِ، وَأَيَقَنَ بِصَرْفِهِ مِنَ الْخِدْمَةِ بِلِ بَحْتِفِهِ،  
وَوَظَّهَرَ مِنْهُ مَا فِي الْخِصْيَانِ مِنْ طَبَعِ الْارْتِيَابِ وَالْارْتِيَاعِ، وَسُرْعَةِ الْانْخِرَاعِ وَالْانْخِدَاعِ، وَتَمَكَّنَ  
مِنْهُ الْخَوْزُ الَّذِي هُوَ خَصِيصِي كُلِّ خَصِيصِي وَخُلِقَ كُلُّ بَعْغِي، وَكَانَ وَزِيرُ هَذَا الْخَادِمِ قَدْ اسْتَحْضَرَ  
الْوَزِيرَ وَخَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ: لِمَ لَا تُشِيرُ عَلَيَّ هَذَا الْخَادِمَ مَخْدُومِكَ وَالْأَسْتَاذِ أَسْتَاذِكَ، فَأَنَا عَارِفٌ  
بِاسْتِيْلَاتِكَ عَلَيْهِ وَاسْتِحْوَاذِكَ، وَقُلْ لَهُ هَذَا الْعَزِيزُ ذَلِكَ بَلْ فَنَاوُكُ فِي إِبْقَائِهِ وَخَفْضُكَ مَعَ  
عَلَائِهِ، فَأَثَرَ خِدَاعِ الْوَزِيرِ الدَّرَكَزْنِيِّ فِي وَزِيرِ الْخَصِيِّ وَمَنَاهُ وَمَنَّ عَلَيْهِ، وَحَسَّنَ لَهُ وَأَحْسَنَ  
إِلَيْهِ، وَأَرْسَلَهُ سَهْمًا يَنْفَدُ، وَسُمًّا يَنْثُثُ، وَشَرًّا يَنْكُثُ وَشُورًا لَا يَمْكُثُ، وَحِيَّةً تَسْعَى وَسَاعِيًا لَا  
يَسْتَحِي، وَضَارِبًا يَسْتَبِقُ إِلَى الضَّرِّ وَلَا يَسْتَبْقِي، فَجَاءَ وَزِيرُ بَهْرُوزِ وَتَجَرَّأَ بِالْقَوْلِ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ:  
أَمَا أَنْتَ مُشْفِقٌ مِنْ كَوْنِكَ مُشْتَفِيًا عَلَى الْهَلَاكِ فَتَلَاَفَ فَارِطَ تَلَاَفِكَ بِالْأَسْتِدْرَاكِ، وَأَرِحِ الْوَزِيرَ  
مِنْ الْعَزِيزِ وَفَزِ بِجَاهِكِ الْحَرِيزِ، فَمَالَ الْجَاهِلُ إِلَى الْجَاهِلِ، وَاسْتَخَفَّ بِقَوْلِ وَزِيرِهِ الْكَهْلِ  
فُقِلَ الْوَزِيرُ عَلَى الْكَاهِلِ، وَكَتَبَ فِيهِ إِلَى وَالِي تَكْرِيتِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُوبَ، وَخَاطَبَهُ فِي الْخَطْبِ  
الْمَخْطُوبِ، وَقَالَ لَهُ: هَذَا تَوْقِيعُ السُّلْطَانِ مَعَ صَاحِبِ وَزِيرِهِ يَأْمُرُ بِقَتْلِ الْعَزِيزِ وَتَسْلِيمِهِ إِلَيْهِ  
وَتَسْيِيرِهِ، فَإِنَّ أَيْتَ فَقَدَ رَضِيَتْ بِسُخْطِي وَخَالَفَتْ شَرْطِي، وَأَرَدَتْ الْخَطَأَ فِي رَدِّ حَطِّي، وَكَانَ  
نَجْمُ الدِّينِ أَيُوبَ رَجُلًا مُسْلِمًا، فَمَا رَأَى أَنْ يَكُونَ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ مُسْلِمًا، وَعَرَفَ أَخُوهُ أَسَدُ  
الدِّينِ شِيرِكُوهُ الْحَالِ، وَحَجَزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَقُوفِ عَلَى التَّوْقِيعِ الْوَاصِلِ وَحَالِ، فَشَارَكَهُ أَخُوهُ  
شِيرِكُوهُ فِي رَدِّ الْوَارِدِ، وَصَرَفُوهُ بِالْخُلْعِ وَالْفَوَائِدِ، وَكَانَ شِيرِكُوهُ مُلَازِمًا لِلْعَزِيزِ وَمُتَبَرِّكًا بِهِ  
وَمُتَمَسِّكًا بِسِنِّهِ سَمِعْتِهِ، يَقُولُ صَلِيْتُ لَيْلَةً مَعَ عَمِّكَ الْعَزِيزِ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ جَعَلَكَ اللَّهُ  
عَزِيزًا كَمَا حَمَيْتَ الْعَزِيزَ، فَمَا أَطْمَعَنِي فِي مِصْرَ بَعْدَ تَيْفٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا هَذِهِ الدَّعْوَةُ، وَأَبْقَنْتُ

أَنِّي أَنَالُ هَذِهِ الْحَطْوَةَ، وَكَانَ كَمَا قَالَ فَإِنَّهُ مَلَكَ مِصْرَ وَصَارَ عَزِيزًا، وَمَنْ حَارَ الْجَنَّةَ مِمَّا فَعَلَهُ فَلَا عَجَبَ لِمَمْلَكَةِ مِصْرَ أَنْ يَحُورَهَا، فَلَمَّا عَرَفَ الْوَزِيرُ الدَّرَكِزْنِيُّ بِمَنْعِ مَا تَوَقَّعَهُ ضَاقَ عَلَيْهِ الْفِضَاءُ، وَمَا وَسِعَهُ نَقَلَ عَلَى بَهْرُوزَ وَفَرَعَهُ، وَقَالَ لَهُ سِرْ بِنَفْسِكَ وَلَا تَتَنَسَّ بِسِرِّكَ، وَلَا تَقِفْ مَخْلُوقًا عَلَى أَمْرِكَ، حَتَّى تَأْتِيَنِي إِلَى تَكْرِيتِ، وَبَيَّتَ مَنْ بِهَا قَبْلَ أَنْ تَبِيَّتَ، وَوَكَّلَ بَهْرُوزَ أَيَّامًا وَمَزَجَ لَهُ فِي الشَّهْدِ سِمَامًا ثُمَّ أَطْلَقَهُ عَلَى الشَّرْطِ، وَسَلَّطَهُ بِحَدِّ عُدُوَانِهِ السَّلْطِ، وَأَرْسَلَهُ كَلْبًا كَلْبًا وَذُبَابًا سَغْبًا وَنَمِرًا مَتَوْتِبًا، وَعَنْ اثْنَيْنِ الْفَضْلِ وَالكَرِّمِ رَاغِبًا، وَمَدَدُوا إِلَى السُّوَيْدِيِّ لِيَقِيمَ عَلَيْهِ نَادِبًا، وَسَارَ سَيِّرَ ابْنِ مُلْجَمٍ إِلَى الْوَصِيِّ، أَوْ ابْنِ سَعْدٍ إِلَى ابْنِ بِنْتِ النَّبِيِّ، وَشَمَّرَ تَشْمِيرَ شَمِيرٍ أَوْ قَدَارٍ، وَقَدْ رَأَى لِنَاقَةِ اللَّهِ الْعَقْرَ وَنَزَلَ عَلَى الشَّيْخِ فِي الدَّارِ، وَجَارَ وَكَمْ يَرِيعُ ذِمَّةَ الْجَوَارِ، وَكَمْ يَشْعُرُ أَيُّوبَ وَشِيرُكُوهُ بِهِ حَتَّى هَجَمَ عَلَيْهِمَا الْقَلْعَةَ، وَقَالَ لَهُمَا قَدْ دَافَعْتُمَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ دُفَاعًا فَكَيْفَ تَدْفَعَانِ هَذِهِ الدَّفْعَةَ، فَتَمَنَّعَا عَلَيْهِ تَمَنُّعَ الْغُلَامِ عَلَى صَاحِبِهِ، وَخَوَّفَاهُ عُقُوبَاتِ الْأَمْرِ فِي عَوَاقِبِهِ، وَدَفَعَاهُ فَلَمْ يَنْدَفِعْ، وَرَدَّعَاهُ فَلَمْ يَرْتَدِعْ، وَوَزَّعَاهُ فَلَمْ يَتَزَّعْ، وَأَسْمَعَاهُ فَلَمْ يَسْتَمِعْ، وَتَرَكَاهُ وَشَانَهُ فَمَا تَرَكَ مَا شَانَهُ، وَكَانَ بَهْرُوزُ أَرْمَنِيًّا مُقِيمًا عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْكَفْرِ عَلَى نَبِيِّهِ فِي سِرِّهِ وَعِلَانِيَّتِهِ، وَقَدْ اسْتَضَحَبَ مَعَهُ مِنْ أَعْوَانِ الْوَزِيرِ الدَّرَكِزْنِيِّ مُلْجِدًا مِثْلَهُ مُفْسِدًا، فَلَمَّا عَرَفَ الْوَزِيرَ رِحْمَةَ اللَّهِ أَنَّهُ قَدْ أُسْلِمَ وَأَحْسَسَ بِالْأَمْرِ وَمَا أَعْلِمَ أَقَامَ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ فَصَلَّى الْأُولَى بِالْكَهْفِ وَشَرَعَ فِي الثَّانِيَةِ بِيَّاسِينَ، وَطَالَتْ صَلَاتُهُ عَلَى الْمُلْحِدِ اللَّعِينِ فَضَرَبَهُ وَهُوَ فِي السُّجُودِ، فَجَادَ بِرُوحِهِ فِي مُنَاجَاةِ الْمَعْبُودِ، وَشَهِدَ السَّعَادَةَ وَسَعَدَ بِالشَّهَادَةِ، وَكَانَ قَدْ حُبِسَ مُتَوَقِّرًا عَلَى الْعِبَادَةِ يَصُومُ وَيَقُومُ، وَلَا يَطْلُبُ وَلَا يَرُومُ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَعُمُرُهُ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً، وَجَرَى هَذَا الْأَمْرُ، وَكَمْ يَكُنْ عِنْدَ السَّلْطَانِ طَغْرُلُ خَبِيرٌ، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ، فَإِنَّهُ بَعْدَ قَتْلِهِ لِلْوَزِيرِ الدَّرَكِزْنِيِّ طَلَّبَ الْعَزِيزُ وَأَعْلِمَ بِحَادِثِهِ وَحَدِيثِهِ، فَلَعَنَ الْوَزِيرَ الدَّرَكِزْنِيَّ عَلَى تَأْتِيرِهِ وَشُؤْمِهِ النَّارِي وَتَأْرِيَّتِهِ، وَكَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَقْتَلِ الشَّهِيدِ وَبَيْنَ مَقْتَلِ الْمُرِيدِ الْوَزِيرِ سَوَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا.

### ذَكَرَ قَتْلَ الْوَزِيرِ الدَّرَكِزْنِيِّ وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرَ السَّلْطَانِ طَغْرُلِ

قَدْ ذَكَرْنَا نَفْدَهُ إِلَى الرَّبِّيِّ مِنْ قَدَّامِ آقِ سَنْقَرٍ وَمَسْعُودٍ فِي عَدَدِ مَقْلُولٍ وَقَلِّ مَعْدُودٍ، وَخَرَجَ الْأَمْرَاءُ الَّذِينَ كَانُوا بَارْدَبِيلَ فِي الْإِصْحَارِ عَلَى الْإِصْحَارِ، فَرَحَلُوا عَلَى سَمْتِ أَصْفَهَانَ لِيَلْحَقُوا السَّلْطَانَ وَفَارَقَهُمُ الْعَسْكَرُ فَوَصَلُوا فِي خَفٍّ مِنَ الْخَوَاصِ وَعَبَرُوا لِلْخَلَاصِ عَلَى

النَّهْجِ الْمُعْتَصِرِ، وَجَاءَتِ الْعَسَاكِرُ إِلَى مَسْعُودٍ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ تَنْسِيلٌ، وَيَكُلُّ عَسَالٍ تَعَسِيلٌ، فَكَانَ السُّلْطَانُ طُغْرُلٌ قَدْ رَحَلَ إِلَى أَصْفَهَانَ ثُمَّ رَحَلَ لِقَاصِدِ أَخِيهِ مَسْعُودٍ إِلَى خَوْزِسْتَانَ، وَأَيَقَنَ أَنَّ كُلَّ مَا تَمَّ عَلَيْهِ مِنَ الْوَهْنِ فِي أُمُورِهِ كَانَ بِوِزْرِ الْوِزِيرِ وَبِإِدْبَارِ تَدْبِيرِهِ، وَبِزَلَايَةِ الْمُرَّةِ وَبِضَلَالِيَةِ الْمُضْلَةِ، وَبِعَادَاتِهِ الْعَادِيَةِ وَبِأَهْوَائِهِ الْوَاهِيَةِ، وَبِأَرَائِهِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَبِأَرَائِهِ الْمُسْتَحَلَّةِ، وَبِأَعْرَاضِهِ الْفَاسِدَةِ وَبِأَعْدَائِهِ الْحَاسِدَةِ، وَبِأَصْلِهِ الْخَبِيثِ وَبِخَلِيلِهِ الرَّثِيثِ، وَبِخَلْقِهِ اللَّثِيمِ وَبِخَلْقِهِ الرَّسِيمِ، فَأَمَرَ بِصَلْبِهِ فَصَلَبَ بِأَمْرِهِ، وَانْقَطَعَ لِثَقَلِ جِسْمِهِ حَبْلُ خِنَاقِهِ، فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ فِي آخِرِ رِمَاقِهِ، وَفِي جُمْلَةِ السُّلْطَانِ مَمْلُوكٌ مِنْ مَمَالِكِ شِيرِكِيَرٍ وَاقِفٌ، وَهُوَ بِمَا جَرَى مِنْهُ عَلَى مَالِكِهِ عَارِفٌ، فَشَقَّ الْحَلْقَةَ بِسَيْفِهِ الْمَسْلُولِ، وَضَرَبَ رَقَبَةَ الْوِزِيرِ الْمَغْلُولِ، فَأَرَّاحَ النَّاسَ مِنْ ظُلْمِهِ وَظَلَامِيهِ، وَأَوْجَدَ الْكَرَمَ وَالْجُودَ بِإِعْدَامِهِ، فَاحْيَى الْعُرْفَ بِإِمَاتِيهِ، وَأَفَادَ الْخَيْرَ بِإِفَاتِيهِ، وَقَطَعَ فِي الْحَالِ إِرْبًا إِرْبًا، وَأَفْرَغَ قَفْحَ رَأْسِهِ وَحُمِلَ إِلَى ابْنِ شِيرِكِيَرٍ فَاتَّخَذَ مِنْهُ لِلْكَلابِ شُرْبًا، وَأَهْدَيْتْ كُلُّ أُتْمَلَةٍ لَهُ لِمَنْ عِنْدَهُ ثَارٌ، وَانْتَعَشَ بَعَثَارُهُ مَنْ كَانَ لَهُ عِثَارٌ، وَاسْتَرَّاحَ الْمَلِكُ وَمَلَكَتِ الرَّاحَةُ، وَسَاحَ نَجِيعُهُ فَانْتَجَعَتِ السَّاحَةُ، وَعَادَ الْوَفُودُ وَعَاشَتِ الْجُنُودُ، وَرَاجَ الرَّجَاءُ وَأَرْجَتِ الْأَرْجَاءُ، وَنَشَرَ الطَّيْبُ وَطَابَ النَّشْرُ، وَنَصَرَ الدِّينَ وَدَانَ النَّصْرُ، وَعَادَتِ الْمُضْرَّةُ بِقَتْلِهِ مَنَفَعَةً، وَأَصْبَحَ رَأْسُهُ لِلْكَلابِ مَنَفَعَةً، وَقَدْ نُظِمَ فِيهِ مِنَ الْأَهَاجِيِّ شِعْرٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ لَهُ أَنْفٌ أَفْطَسٌ أَحْسَنُ كَبِيرٌ، فَمِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ فِيهِ وَأَطْنُتُهُ لِلشَّرِيفِ الْحُوَيْرِيِّ<sup>(1)</sup>: [السريع]

يَا دَرَكِزْنِي إِلَى كَمْ يُرَى  
يَا فُرْحَةَ السَّوِّءِ مَتَى مَا مَضَتْ  
زِدْنَاكَ حَرْفَ السَّوِّءِ فِي نَاصِرٍ  
وَفِيهِ فِي هَجْوِ أَنْفِهِ: [الكامل]

(1) الشريف الحويري: هو شهاب الدين، وشرف الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن محمد العباسي الحويري، قال العماد في خريدة بلاد المعجم: كان ذا رأي وروية، وبصر وبصيرة، غزير الفضل كثير القدر، عالي الأهمية، نوه بذكره عمي العزيز ورفعته على الأفاضل وحباه وأغناه، وقال العماد: إن الحويري جاء إلى العزيز وهو فقير جداً مع والده وكان يتفقه ولم يزل مع عمي إلى استشهد العم فجاور دار الخلافة، وكان اكتسب معرفتها بعمي ورفعته أمير المؤمنين المنتضي لأمر الله واعتمد عليه في الأفعال، وكان في آخر عهده ناظر تهر الملك، ففتك به الصيادون ليلة السبت الثامن من شعبان سنة خمسین وخمسائة ومُحِلٌ لِي بَغْدَادٍ تَجْرُوحاً فَهَاتِهَا لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْهُ، وَدَفِنَ فِي الْجَنْابِ الْغُرْبِيِّ عِنْدَ جَامِعِ الْمَنْصُورِ، وَشِعْرُهُ كَانَ مَقْصُوراً عَلَى مَدْحِ الْعَزِيزِ وَهَجْوِ أَعْدَائِهِ.

سَلَحَ الْوَزِيرُ عَلَى الْوِزَارَةِ سَلْحَةً  
فَانظُرْ فَإِنِ افْكَرْتَ قَوْلِي تَلَقَّه

وفيه وأظنه أيضاً لشرف الدين الحُويزي<sup>(1)</sup>: [الكامل]

هَذَا الْوَزِيرُ وَمَا اسْتَعَرْتُ لَهُ الْخَنَا  
مُتَقَلِّصُ الْعَرَنَيْنِ فَهُوَ كَأَنَّهُ

وفيه: [الكامل]

هَذَا الْوَزِيرُ كَمَثَلِ زَقِّ مَاعِزِ  
آيَاتُ سُورَةِ نَوْنٍ فِيهِ أَنْزَلْتَ  
أَوْ مَا تَرَى أَتَرَ الْوَعِيدِ بِأَنْفِهِ

وَلِلْوَزِيرِ أَنْوَشِرْوَانَ بْنِ خَالِدٍ فِيهِ: [السريع]

بِابْغَلَةٍ خَنْسَاءَ رَقَاسَةً  
دَمَّرْتَهَا إِذْ أَنْتَ أَدْبَرْتَهَا

وَيَلِيقُ بِهِ مَا قَالَه الْأَحْنَفُ الْعُكْبَرِيُّ<sup>(2)</sup> فِي ابْنِ بَقِيَّةٍ لَمَّا وَرَرَ لِمَلُوكِ الدَّيْلَمِ: [الوافر]

وَأَمَّا ذَا الْوَزِيرُ فَمَنْ أَوَانَا<sup>(3)</sup>  
فَإِن تَكُنْ الْوِزَارَةُ فِي أَوَانَا  
وَقُلْنَا يَا أَبَا إِسْحَاقَ مَهَلًا  
وَمَا يَبْقَى مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا

وَكَانَ مَقْتَلُهُ بِمَدِينَةِ سَابُورِ خَوَاسْتٍ وَكَمَلَ بِقَتْلِهِ تَشَقِّي الْكِرَامِ، وَحُسِمَ دَارُهُ بِحَدِّ الْحُسَامِ،  
وَرَضِيَتْ الدَّوْلَةُ بِأَنْ يُقَامَ مِنْهُ سُوقُ الْإِنْتِقَامِ، وَقَتِيلٌ أَفْطَحَ قَتْلًا، وَمَثَلٌ بِهِ أَشْنَعُ مَثَلًا، وَيَبْضَعُ قِطْعًا

(1) شرف الدين الحُويزي: وهو ولد الشريف أبي العباس الحُويزي، قال العماد في خريدة بلاد العجم: لقيه بواسط وقد تزهد وليس شعار التقى المرابط، ويورد نَهْادِج من شعره.

(2) الاحنف العكبري: أبو الحسن عقيل بن محمد الملقب بالاحنف، شاعر من أهل عُكْبَرَاءَ، عاش ببغداد وبها اشتهر، وصفه الثعالبي بشاعر المكدين وظريفهم، وكثير من شعره في وصف القلة والذلة، وكان يفخر بها على ذوي الجاه والمال، توفي سنة 385 هـ.

(3) أوانا: بلدة كثيرة البساتين نزهة، من نواحي دجيل ببغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت، كثيراً ما يذكرها الشعراء الخلعاء في أشعارهم.

وَاسْتَبْضِعَ سَلْعاً، فَمَا دَخَلَ عَضْوُ لَهُ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْامَ فِي الْأَمْنِ عُيُونَ الْأَنَامِ، وَأَقَامُوا مُوسِمًا لِلْمَهْنَاءِ بِعَزَائِهِ، وَتَنَجَّتْ نِعْمَةُ الْخَلْقِ مِنْ بَلَائِهِ، وَقَدْ جَمَعَ لِحَيْنِهِ بَيْنَ الْحَبْلِ وَالنَّصْلِ وَالصَّلْبِ وَالْقَتْلِ، وَالشَّقِّ وَالشَّقِّ وَالْحَرْقِ وَالْخَنْقِ، فَلَا سَلَتْ يَدٌ هَزَّتْ الصَّمْصَامَةَ وَحَزَّتْ تِلْكَ الْهَامَةَ، لَقَدْ طَهَّرَ الْأَرْضَ بِدَمِهِ الْخَبِيثِ مِنْ رَجْسِهِ، وَأَحْيَى حُسْنَ الْحُسْنَى بِإِمَاتِهِ حِسَّهُ.

نَظَمَ فِيهِ بَعْضُ شِعْرَاءِ الْعَجَمِ بَيِّنِينَ عَرَبْتُ مَعْنَاهُمَا، وَقُلْتُ: [المنسرح]

الدركزيني حَلَّ فِي سَقَرٍ      وَهُوَ شَهِيدٌ فَقُلْتُ ذَا عَجَبُ  
كُلُّ شَهِيدٍ بِدِينٍ مَزْدَكَ لَا      شَكٌّ عَلَيْهِ الْجَحِيمُ يَلْتَهَبُ  
وَقُلْتُ: [المنسرح]

قَالُوا شَهِيدٌ فَقُلْتُ ذَا عَجَبُ      لَوْ كَانَ حَقًّا مَا كَانَ فِي سَقَرٍ  
ذَا مَزْدَكِيٍّ مَا كَانَ أَجْدَرُهُ      بَلْفَحِ نَارٍ عَلَيْهِ مُسْتَمِرٍ  
وَقُلْتُ: [المنسرح]

مَرَّ شَهِيداً وَحَلَّ فِي سَقَرٍ      لِكُفْرِهِ فَهُوَ خَالِدٌ فِيهَا  
وَحَسْبُهُ أَنَّهُ بِشَقْوَتِهِ      يَهْوِي مِنَ النَّارِ فِي مَهَاوِيهَا

وَكَانَ السُّلْطَانُ طَغُرُلُ فِي مَبْدَأِ أَمْرِهِ لَهُ مُبْغِضًا، وَمِنْ سَيِّئَاتِهِ مُمْتَعِضًا، وَعَلَيْهِ مُتَغِظًا وَمَنْهُ مُتَحَفِّظًا، لَكِنَّهُ تَفَكَّرَ فِي أَمْرِهِ، وَاسْتَأْمَرَ فِيهِ مُتَرَوِّيَ فِكْرِهِ، وَرَجَوُ أَنْ يَتَدَلَّلَ جَامِعُهُ، وَيَتَعَدَّلَ جَانِحُهُ، وَيَأْمُلُ أَنْ تَسْتَقِرَّ سُلْطَنَتُهُ وَتَسْتَقِيمَ مَكْتَبَتُهُ فَلَمَّا آلَ الْأَمْرُ إِلَى الْخَلْلِ وَأَتَى الْعُرْقُ بَعْدَ الْبَلَلِ، وَكَبَا الرِّزْدُ وَتَبَا الْحُدُّ، وَتَنَاقَصَتِ الْأُمُورُ بِالْعَدْوَى وَتَنَاقَصَتِ وَتَقَارَصَتِ الْأَلْسُنُ الشُّكْوَى، وَتَقَارَصَتِ وَرَغَبَتِ الْعَسَاكِرُ فِي مَسْعُودٍ وَمَأَلَتْ إِلَيْهِ وَانثَالَتْ عَلَيْهِ، قَالَ لَوْزِيرُهُ الدَّرَكَزِينِيُّ وَهُوَ إِلَى خَوْزِسْتَانَ جَافِلٌ وَمِنْ طُلُوعِ أَخِيهِ عَلَيْهِ آفِلُ أَيْنَ الْعَسَاكِرُ أَيْنَ الْجُنْدُ أَيْنَ مَا سَبَقَ مِنْكَ فِي الْكَيْفَايَةِ؟ فَقَالَ لَهُ: لَا تُبَالِ وَلَا تَحْطَرَّ حَظْرًا بِالْبَالِ، فَإِنِّي قَدْ نَدَبْتُ جَمَاعَةً مِنْ الْحَشِيشِيِّ رُفْقَانِي وَأَصْدِقَانِي لِقَتْلِ أَعْدَائِكَ وَأَعْدَائِي، فَكَأَنِّي بِهِمْ وَقَدْ تَعَجَّلَ فَمَعَهُمْ وَتَفَلَّلَ جَمْعُهُمْ وَسُفِكَ دَمٌ مُقَدِّمُهُمْ وَأَقْدِمٌ بِالْقَتْلِ عَلَى مُقَدِّمِيهِمْ، فَحَمَلَ السُّلْطَانُ غِيظَهُ مِنْهُ عَلَى أَنْ غِيضَ مَاءَ حَيَاتِهِ وَيَعْتَهُ حَفِظَتُهُ عَلَى أَنْ لَمْ يَحْفَظْ فِيهِ مَوَاتِ خِدْمَاتِهِ وَقَالَ لَهُ قَدْ وَضَحْتَ صِحَّةَ الْحَالِ وَيَانَ فَسَادَ اعْتِقَادِكَ، فَأَمَرَ بِتَجْرِيدِهِ، وَأَشْعَلَ نَارَ الْحَدِيدِ فِي مَاءِ وَرِيدِهِ، وَظَهَرَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ، وَدَبَّ الرَّهْبُ بِمَا دَبَّرَهُ، وَوَصَلَ الْخَبْرُ بِأَنَّ الْبَاطِنِيَّةَ دَخَلُوا عَلَى آقْسَنَقَرِ

فِي خَيْمَتِهِ بِمَرْجِ قِرَانِكِي وَتَنَاوَبُوهُ بِالسَّكَاكِينِ، وَأَنَّ أَصْحَابَهُ مَا بَتُوا، وَأَنَّ أَجْنَادَهُ تَسْتَوُوا، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ أُصِيبَ بِوَاوَحِدِهِ، وَأَنَّ الدِّينَ فُجِعَ بِمُجَاهِدِهِ، وَأَنَّ عَسَاكِرَهُ ارْتَحَلَتْ مِنْ هَمْدَانَ عَلَى صَوْبِ أَدْرَبِجَانَ، لَا يَجِدُ مُسْتَصْرِخٌ مُصْرَحًا، وَلَا يَنْتَظِرُ أَحًا، فَإِنَّ السُّلْطَانَ مَسْعُودًا وَإِنْ كَانَ فِي جَمْعِ جَمٍّ وَعَسْكَرِ دَهْمٍ، لَكِنَّ أَمْرَهُ مُدْبِرٍ، فَقَدْ عَدِمَ مَنْ هُوَ لَهُ مُدْبِرٌ، فَتَنَّى طَغْرُلُ عِنَانَهُ، وَشَرَعَ لِنَحْرِ الْخَصْمِ سِنَانَهُ، وَمَضَى إِلَى الرَّيِّ، وَطَوَى الْمَنَازِلَ إِلَيْهَا أَسْرَعَ طَيًّا، فَلَمَّا خَيَّمَ بِهَا اجْتَمَعَ الذَّبَابُ عَلَى عَسَلِهِ، وَالذُّوْبَانُ الْعَاسِلَةُ عَلَى جَحْفَلِهِ وَمَحْفَلِهِ، وَالْأَسْوَدُ فِي عَرِينِهَا مِنْ أَسَلِهِ، وَلِيُوْتُ الْوَعْيُ تَحْمَلُ حَيَاتِ اللَّدَانِ، وَذَوِي الْأَقْدَامِ الثَّابِتَةِ فِي الْإِقْدَامِ مَا لِلدَّهْرِ بِكَفِّهِمْ يَدَانِ، وَكُلُّ شُجَاعٍ فِي يَمِينِهِ مِنَ الْمُتَّقِفِ شُجَاعٍ، وَكُلُّ بَاسِلٍ لِيَأْسِهِ مَعَ الزَّمَانِ قِرَاعٌ، وَرَحَلَ السُّلْطَانُ مَسْعُودًا بَعْدَ مَقْتَلِ أَتَابِكِهِ آق سَنَقَرٍ إِلَى الرَّيِّ لِإِضْعَافِ أَحْيِهِ، وَمُنَاجَزَتِهِ قَبْلَ انْتِهَاضِ قَوَادِمِهِ بِخَوَافِيهِ، وَالْعَسْكَرُ الْبَاقِي مَعَهُ يَزِيدُ عَلَى سِتَّةِ آلَافٍ فَارِسٍ لِلْأَسَدِ فَارِسٍ، وَطَغْرُلُ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارِسٍ لِلْحَرْبِ مُمَارِسٍ، فَبَرَزُوا بَعْدَ الْمُبَارَزَةِ وَأَنْجَزَ عِدَّةَ الْمُنَاجَزَةِ، فَتَعَاثَرَ الرَّدَى فِي ذَيْلِ الْعَثَارِ وَجَنَى الْمَوْتِ الْأَحْمَرَ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضِرِ، وَهَجَرَتْ الْأَجْفَانُ عَذَارَهَا، وَدَارَتْ الْأَهْيَجَاءُ مِنْ عَارِضِ اللَّعْمِ عَذَارَهَا، وَأَطَارَتْ غُرَابَهَا وَأَنَارَتْ غُبَارَهَا، وَأَشْعَلَتْ بِمَاءِ النَّصَالِ نَارَهَا، وَشَدَّتْ لِشِدَّةِ أَوْتَارِهَا عَلَى قُيُوسِ قَسَاوَرِهَا أَوْتَارَهَا، وَهَمُّوا بِقَلْبِ طَغْرُلِ الْلِقَاءَ فَلَقِيَ أَلْهَمُ قَلْبَهُ، وَحَزَبَ الْوَهْنُ حَزْبَهُ، وَتَحَرَّكَ فُصٌّ صَفْهُ وَتَحَرَّكَ رِصٌّ رِصْفَهُ، وَمَزَّقَ الْمَازِقُ إِهَابَ إِهَابِيهِ، وَعَرَّكَ الْمَعْرَكُ أَدِيمَ مَهَابِيهِ، وَحَمَاهُ حُمَاهُ خَوَاصِيهِ، وَخَلَّصَهُ ذُووُ إِخْلَاصِهِ، فَانْهَزَمَ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ الشُّجَاعَةُ حَقَّهَا، وَمَلَكَ مِنَ الْمَنِيَّةِ رِقَّهَا، وَأَصَابَتْ الْأَمِيرَ جَاوِلِي الْجَانِدَارِ جِرَاحَةً فِي وَجْهِهِ مُنْكَرَةً، وَدَارَتْ فِي صِفَاحِ الصَّفَاحِ كُؤُوسٌ مِنْ مُدَامِ الدَّمَاءِ مُسْكِرَةً، وَاسْتَأْمَنَ الْأَمِيرُ بُلَاقَ وَالْأَمِيرُ سَنَقَرَ صَاحِبُ زَنْجَانَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْعَسْكَرِ الْمَسْعُودِيِّ، وَاسْتَوَتْ سَفِينَةُ السَّكِينَةِ مِنْهُمْ فِي بَحْرِ جُودِهِ عَلَى الْجُودِيِّ، وَذَلِكَ فِي ثَامِنِ عَشْرِ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، وَامْتَدَّ طَغْرُلُ إِلَى طَبْرِ سْتَانَ وَتَزَلَّ عَلَى الْإِصْفَهَيْدِ عَلِيٍّ فَأَكْرَمَهُ وَأَعَزَّهُ مَقْدَمَهُ، وَوَسَّعَ لَهُ وَلِعَسَاكِرِهِ الْإِنْزَالَ، وَأَنْفَقَ فِيهِمُ الذَّخَائِرَ وَالْأَمْوَالَ، وَكَانَ فِي الصُّحْبَةِ مَلِكُ الْعَرَبِ دُبَيْسُ بْنُ صَدَقَةَ الْمَزِيدِيِّ فَحَمَلَ لَهُ الْإِصْفَهَيْدَ هَدَايَا جَلِيلَةً وَتُحْفًا جَمِيلَةً وَصِيَاعَاتٍ ذَهَبِيَّةً وَفِضِيَّةً، وَنَقُودًا رُكْنِيَّةً وَمُسْتَعْمَلَاتٍ طَبْرِيَّةً، وَجَوَارِيَّ وَمَمَالِكَ تَرْكِيَّةً، وَأَقَامُوا شَتُوتَهُمْ عِنْدَهُ فِي جَنَابِ ذِي ظُلٍّ وَجَنَابِ مَحْلُولٍ، وَطَلَاوَةَ وَطُولٍ، وَخَلَاوَةَ وَخَوْلٍ، وَضِيَافَةَ وَضِيَاءِ، وَرِيَّ وَرَوَاءِ، وَرَفَاهِيَّةً وَرَفَاءِ، وَغِنَى وَغِنَاءِ، وَنَعْمَةً وَرِضَاءِ، وَرَوْضَةً وَبِهَاءِ، وَبَهْجَةً وَغَنِيمَةً،

وَنِعْمَةٌ وَنَشَاطٌ، وَنَشْوَةٌ وَلَهُوَ وَلَهُوَةٌ، وَقِرَى وَقَرَاءٌ، وَاشْتِهَاءٌ وَاشْتِهَارٌ، وَطَرَبٌ وَطَيْبٌ، وَعَيْشٌ وَطَيْبٌ، فَلَمَّا انْحَسَرَ الشِّتَاءُ وَأَنْحَلَّتْ عُقْدَتُهُ وَأَنْفَلَتْ حِدَّتُهُ، وَهَانَتْ صُعُوبَتُهُ، رَحَلَ السُّلْطَانُ طَغْرُلَ عَائِدًا إِلَى هَمْدَانَ دَارِ مُلْكِهِ وَمَعْقِدِ سُلْكِهِ، وَأَتَّصَلَ بِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ الْأَكْبَارِ جَمَاعَةٌ لَهُمْ عَلَى الْأَنَامِ طَاعَةٌ، مِثْلُ عَيْنِ الدَّوْلَةِ خَوَارِزْمِشَاهِ وَمُحَمَّدِ بْنِ سَهْلِكَ، وَحِيدِ بْنِ شِيرَكِيَرٍ وَسَعِيدِ الدَّوْلَةِ يَرْفُقْشَ، وَوَصَلَ بوزَابَةَ مِنْ عِنْدِ أَتَابِكِ مَنكُوبِرْسِ فِي أَلْفِي فَارِسٍ مِنْ فَارِسٍ، وَوَرَيْتَ زِيَادَهُ وَشَفَعَتْ مُنَادُهُ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ أَجْنَادُهُ، وَعَظَمَتْ هَيْبَتُهُ وَهَيْبَتُ عَظَمَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَوْكُهُ وَاحْتَدَّتْ شِكَّتُهُ، وَكَانَ السُّلْطَانُ مَسْعُودَ بِأَدْرِيْجَانَ فَاسْتَدْعَى فَخَرَ الدِّينَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايِرِكٍ وَأَتَّصَلَ بِهِ بِرِنَقْشِ الْبَازْدَارِ وَتَجَمُّ الدِّينِ رَشِيدٍ وَنَهَضُوا صَوْبَ قِزْوِينَ وَالرَّيِّ، عَازِمِينَ حَسَمَ الدَّاءِ بِالْكَيْ، فَرَحَلَ السُّلْطَانُ طَغْرُلَ يَتَّبِعُ آثَارَهُمْ وَيَشُقُّ عَثَارَهُمْ، فَتَكَلَّوْا عَنْ لِقَائِهِ، وَوَلَوْهُ ظُهُورَهُمْ عِنْدَ ظُهُورِ لَوَائِهِ، وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَأٍ، وَعَنِمَ أَصْحَابُ السُّلْطَانِ مَا وَجَدُوهُ مِنْ دَوَابِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ فِي الْفَرَى، وَتَبَّتْ قِرَاسِنِقُ فِي مُحَارَبَةِ مَلِكِ دَاوُدَ بْنِ مَحْمُودَ بِالْمِرَاعَةِ فَهَزَمَهُ وَقَلَّ عَزْمُهُ وَتَلَمَّه، وَتَمَكَّنَ السُّلْطَانُ مِنْ سُلْطَنِيَّتِهِ وَتَسَلَّطَ بِمُكْنَتِيَّتِهِ وَقَوَّعَ سَرِيرَهُ وَعَرَفَ سُرُورَهُ.

### ذِكْرُ جُلُوسِ الْوَزِيرِ شَرْفِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ رِجَاءٍ

سَمِعْتُ وَالِدِي صَفِيَّ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَشْكُرُهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ وَيَقُولُ: لَمَّا قَتَلَ السُّلْطَانُ طَغْرُلَ وَزِيرَهُ الدَّرَكِزْنِيَّ اسْتَدْعَانِي مِنْ أَصْفَهَانَ وَظَنَّ أَنَّ الْعَزِيزَ بَاقٍ، وَأَنَّهُ عَنْ حَضْرَتِي إِذَا طَلَبَهُ غَيْرَ مُعْتَنَاقٍ، قَالَ فَفَرَّقْتَنِي وَأَكْرَمْتَنِي وَشَافَهْتَنِي وَاجْتَرَمْتَنِي، وَقَالَ خُذْ خَطِي إِلَى بَهْرُوزَ بِإِحْضَارِ أَخِيكَ، وَأَسْرِعْ فَإِنِّي مُتَنَظِّرٌ لِتَوْافِيكَ، فَقَالَ: مَضَيْتُ إِلَى بَغْدَادَ وَإِذَا الْقَضَاءُ قَدْ قَضِيَ وَالْحُكْمُ قَدْ مَضَى، وَالْخَصِيُّ قَدْ عَجَلَ وَالْعَرُوفِيُّ قَدْ جَهَلَ، فَلَمَّا عَلِمَ طَغْرُلَ بِوَفَاتِهِ وَفَوَاتِهِ، قَالَ إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْقَدْرِ فَوَاتِهِ، وَطَلَبَ رِجَاءًا كَافِيًا أَمِينًا وَافِيًا، يُعِزُّ الْعَزِيزِيَّةَ وَيَبْدُلُ الدَّرَكِزْنِيَّةَ، فَوَجَدَ عَلِيَّ بْنَ رِجَاءٍ عَلِيًّا كَمَا رَجَا، فَعَوَّلَ فِي زَارَتِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُنْتَصِبَ إِلَيْهِ، وَشَرَعَ فِي مُصَادَرَةِ الدَّرَكِزْنِيَّةِ وَقَبَضَ عَلَى نَوَابِهِمْ، وَصَيَّقَ عَلَى أَصْحَابِهِمْ، وَفِي هَذِهِ النَّوْبَةِ قَتَلَ السُّلْطَانُ مَسْعُودَ الصَّنْفِيَّ الْأَوْحَدَ الْمُسْتَوْفِيَّ وَصَادَرَ أَهْلَهُ عَلَى مَائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ بِرَأْيِ سَعِيدِ الدِّينِ أَسْعَدِ الْمُنْشِيءِ الْأَخْرَاسَانِيِّ وَيَمُوطَاةِ الْكَمَالِ ثَابِتِ الْقَمِي، فَإِنَّهُ تَوَلَّى مَنْتَصِبَ الْاسْتِيفَاءِ، فَرَأَى اتِّلَافَ مَنْ تَرَشَّحَ لِمَنْصِبِهِ لِيَبْطِشَ بِيَدِ الْاسْتِيفَاءِ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ قَاعِدَةُ

طغولاً وَوَعَدَ مُسْتَقْرَأً، وَتَصَرَّفَ مُبْرَأً وَمِنَ الصُّرُوفِ مُبْرَأً، وَأَمِنَ مِنْ مَعَارِئِ مُعَارِضِيهِ، وَعَلَا عَلَى مَقَارِئِ مُقَارِعِيهِ، وَجَلَسَ عَلَى تَخْتِهِ وَتَبَجَّلَ بِعُلُوِّ بَحْتِهِ، وَانْبَسَطَتْ يَدُهُ وَتَأَيَّدَتْ بَسْطَتَهُ، وَقَدَّرَتْ عَلَيْهِا وَعَلَتْ قُدْرَتُهُ، وَقَوِيَ رِكْنُهُ وَرَكَكَتْ قُوَّتُهُ، وَأَدْبَلْ عِزَّهُ وَعَزَّتْ دَوْلَتُهُ، وَاحْتَلَّ سِرِيرَ سُورِهِ، وَاجْتَابَ حَبِيرَ حُبُورِهِ، وَاسْتَقَامَ وَاسْتَنَامَ وَقَامَ وَنَامَ وَسَمَا وَاسْتَامَ وَحَمَى وَحَامَ، وَسَكَنَتْ عِدَاوَةُ حَاسِيْدِهِ، وَنَكَسَتْ مَعَانِي مُعَايِدِهِ، وَسَالَمَهُ مُحَارِبُهُ، وَثَابَ إِلَيْهِ مُوَابِيهِ، وَقَارَبَهُ مُجَابِيهِ، وَأَذْعَنَ لَهُ الدَّهْرُ إِذْ عَنَا، وَأَمَكْنَ سُؤْلُهُ فَسْؤَالُهُ صَرَّحَ بِالنُّجْحِ أَمْ كَتَى، وَدَانَ لَهُ الْمُلْكُ وَذَنَا، وَسَرَّ سِرَّهُ وَدَرَّ دَرَّهُ، وَأَمَرَ أَمْرَهُ وَطَابَ عَائِمُهُ وَعَمَّ طَيْبُهُ، وَوَصَلَ حَبِيْبُهُ وَفَارَقَ رَقِيْبَهُ، وَغَفَلَ عَنِ الْخَطْبِ فَعَاغَفَلْتَهُ الْخُطُوبُ، وَعَرِيَّ عَنِ الْكَرْبِ فَعَرَّتُهُ الْكُرُوبُ، وَلَمَّا غَدَا فَبَجَاءَتْهُ الْأُمْنِيَّةُ أَمْسَى وَقَدَا فَجَاءَتْهُ الْمَنِيَّةُ، وَرَفَعَتْ فِيهِ الرَّعِيَّةَ وَبَرَّتْ مِنْهُ الْبَرِيَّةَ، وَصَارَ تَرِباً لِلتُّرْبِ، وَعَادَ بَعْدَهُ فِي الْقُرْبِ، وَانْتَقَلَ مِنَ الثَّرَاءِ إِلَى الثَّرَى، وَمِنَ دَارِ الْبَلَاءِ إِلَى دَارِ الْبِلَى، وَذَلِكَ فِي أَوَائِلِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَإِنَّهُ عَرَضَ لَهُ قَوْلُنَجِّ فَشَرِبَ دَوَاءَ أَسْهَلِهِ، وَأَدَوَاهُ وَأَسْقَطَ قُوَاهُ فَمَاتَ بِأَجَلِهِ، وَسَبَّبَ خَطَأُ الطَّيْبِ فِي تَقْدِيرِ الدَّوَاءِ وَالتَّرْتِيبِ، فَتَفَرَّقَ ذَلِكَ السَّمْلُ، وَتَلَاشَى ذَلِكَ الْحَفْلُ، وَتَشْتَّتَ ذَلِكَ الْجَمْعُ، وَانْطَفَأَ ذَلِكَ الشَّمْعُ، وَغَاضَ ذَلِكَ الْبَحْرُ، وَغَابَ ذَلِكَ الْبَدْرُ، وَتَزَعَزَعَ ذَلِكَ الطَّوْدُ، وَأَقْلَعَ ذَلِكَ الْجَوْدُ، وَحَمَّ حِمَامُهُ وَلَمْ تَحْمِهِ حُمَاتُهُ، وَأَصِيبَ عَلَى فِرَاشِهِ وَلَمْ يَحْضُرْهُ كُمْتُهُ وَكُمَاتُهُ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِهَمْدَانٍ وَدَفَنَتْهُ بِهَا فِي مَدْرَسَةٍ بِنَاهَا لِيَعْمُرَ خَدَمِهِ، وَأَسِيفَ بَنُو الْأَمَالِ عَلَى كَرَمِهِ، وَكَانَتْ مُدَّةُ وِلَايَتِهِ سِتِّينَ وَشَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ، وَكَانَ جَامِعًا لِلْخِلَالِ الَّتِي تَفْتَقِرُ إِلَيْهَا السُّلْطَنَةُ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّحْفِظِ وَالْعَزْمِ وَالتَّيَقُّظِ، وَالْوَقَارِ وَالْمَهَابَةِ وَالْفَهْمِ وَالْإِصَابَةِ، مُحِبًّا لِلْإِنصَافِ مُؤَثِّرًا لِلْإِسْعَافِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَبَدًّا بَارِئًا مُعْجَبًا بِأَمْوَانِهِ، لَا يَسْتَشِيرُ فِي أُمُورِهِ، وَلَا يَسْتَرْشِدُ فِي تَدْبِيرِهِ، وَإِنْ أُشِيرَ عَلَيْهِ بِصَوَابِ خَالْفِهِ، وَإِنْ أَعْجَبَهُ رَأْيٌ رَائِبٌ حَالْفِهِ، وَكَانَ مُصْطَفِعًا لِأَرَاذِلِ صَحْبِهِ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ فَصَارُوا مُقَدَّمِي جُنْدِهِ وَالْمَخْصُوصِينَ بِرَفْدِهِ، فَكَانَتْ دَنَاءَتُهُمْ تَغْضُ مِنْ جَلِيلِ قَدْرِهِ وَتُغْمِضُ عَلَى ذِكْرِهِ، وَذَلِكَ مَعَ مَبِيئَتِهِ الشَّدِيدَةِ وَخَلَّتِيهِ السَّدِيدَةِ، وَقَلَّ الْأَجَلُ شَبَابِيهِ، وَنَابَهُ الْقَدْرُ مَعَ قَدْرِهِ النَّابِيهِ بِنَابِهِ، وَكَانَتْ عَلَامَتُهُ: [اعْتَصَدْتُ بِاللَّهِ وَحَدَهُ].

ذَكَرَ جُلُوسَ السُّلْطَانِ الْمُعْظَمِ غِيَاثِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ أَبِي الضُّحَى مَسْعُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةَ

قَدْ جَرَى ذِكْرُ أَوْلَادِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ وَكَيْفَ كَانُوا، وَهُمْ خَمْسَةٌ: مَحْمُودٌ وَطُغْرُلٌ وَمَسْعُودٌ وَسُلَيْمَانٌ وَسُلْجُوقٌ، وَكُلُّهُمْ جَلَسُوا عَلَى سَرِيرِ السُّلْطَانَةِ غَيْرِ سُلْجُوقٍ، فَأَمَّا مَسْعُودٌ فَأَمَّهُ حَظِيئَةٌ تُسَمَّى نَيْسَتَ أَنْدَرْجَهَانَ، مَعْنَاهَا مَعْدُومَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَرَزَوَجُوهَا بَعْدَ وَفَاةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ بِالْأَمِيرِ الْأَسْفَهْسَلَارِ مَنكُوبَرَسِ وَالْيَ الْعِرَاقِ، وَتَقَلُّوا مَعَهَا بِرِسْمِ جَهَازِهَا مِنَ الْخَزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ أَمْوَالاً لَا تَنفَدُ مَعَ دَوَامِ الْإِنْفَاقِ، وَكَانَ مَنكُوبَرَسٌ مِنْ أَكْبَرِ أُمَرَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَعْيَانِهَا وَالْمُحْتَوَى عَلَى مَكَانِهَا الْمُسْتَوْلَى عَلَى سُلْطَانِيهَا، وَكَانَ قَدْ اسْتَبَدَّ بِاقْطَاعِ الْعِرَاقِ بَعْدَ وَفَاةِ السُّلْطَانِ وَتَفَرَّدَ بِهَا مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَارْتَفَعَ بِوَفُورِ ارْتِفَاعَاتِهِ، وَحُكْمِي عَنِ زَوِيِّهِ وَلِيِّ الدِّينِ الْمُخْلِصِ مُحَمَّدِ بْنِ بَايْكَتَبِ الْإِمِيَانِجِيِّ أَنَّهُ قَالَ: جَمَعْتُ لَهُ بِالْعِرَاقِ أَلْفَ وَثَلَاثِمِئَةَ أَلْفِ دِينَارٍ تَقْدِماً مَطْبُوعاً بِالسُّكَّةِ الْإِمَامِيَّةِ، سِوَى مَا كَانَ لَهُ مِنَ الْآلَاتِ وَالثِيَابِ وَالذَّوَابِ وَالْجُوهَرِ وَالصِّيَاغَاتِ الذَّهَبِيَّةِ، وَقَدْ أَلَمْنَا بِذِكْرِ قَتْلِهِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ، وَرَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ مَسْعُودٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ سَلَّمَهُ وَالِدُهُ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِمِائَةَ إِلَى الْأَمِيرِ الْأَسْفَهْسَلَارِ مَوْدُودِ صَاحِبِ الْمَوْصَلِ ثُمَّ جَهَّزَهُ مَوْدُوداً لِحَرْبِ الْفَرَنْجِ فَاسْتَرَّ مِنْ غَزْوِهَا عَلَى النَّهْجِ، وَوَصَلَ إِلَى طَبْرِيَّةَ، وَأَطَابَ رِيَّ الْمَشْرِفِيَّةِ، وَرَوَى صَدَى الْإِسْلَامِ مِنْ دَمِ الْكُفْرِ، وَشَهَرَ عَلَى أَيْمَانِ الْإِيمَانِ نَصْلَ النُّصْرِ، وَعَادَ إِلَى دِمَشْقٍ مُحِبُّوهُ بِالْفَتْحِ مُحْبُوراً بِالنُّجْحِ، وَخَضَرَ الْجَمَاعَ فِي آخِرِ جُمُعَةٍ فِي رِبْعِ الْآخِرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِمِائَةَ وَخَرَجَ وَيَدُهُ فِي يَدِ طُغْتَكِينَ صَاحِبِ الْبَلَدِ، وَهُوَ مَحْفُوفٌ مِنْ جُنْدِهِ بِذَوِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ وَضْرَبَهُ بِخَنْجَرِهِ ضَرْبَتَيْنِ فِي سُرَّتِهِ فَتَفَقَّدَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى خَاصِرَتِهِ، وَحُمِلَ إِلَى دَارِ طُغْتَكِينَ، وَعَزَّ فِيهِ عَزَاءُ الْمُسْلِمِينَ، وَقِيلَ إِنَّهُ خَافَ مِنْهُ عَلَى دِمَشْقٍ فَدَسَّ إِلَيْهِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ لَمَّا أُرِيقَ مِنْهُ الدَّمُ شَقٌّ عَلَيْهِ، وَلَمَّا وَصَلَ نَعِيَ مَوْدُودَ إِلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ سَلَّمَ وَوَلَدَهُ مَسْعُوداً إِلَى أَقْسَقْرِ الْبَرَسَقِيِّ وَأَقْطَعَهُ الْمَوْصَلَ وَالْجَزِيرَةَ، وَأَجْرَلَ لَهُ عَطَايَاهُ الْغَزِيرَةَ، وَلَمَّا تُوْفِيَ مُحَمَّدٌ تَوَلَّى مَحْمُودٌ، وَرَوَّجَ أُمَّ مَسْعُودَ بِمَنكُوبَرَسِ إِسْتِمَالَةً لِقَلْبِهِ، وَإِظْهَاراً لِلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ تَرْغِيباً لَهُ وَرَغْبَةً فِي قُرْبِهِ، فَلَمَّا ظَفَرَ بِهِ قَتَلَهُ، وَحَلَّى بِصَبْغِ دَمِهِ مِنْ سَيْفِهِ عَطْلَهُ، وَجَمَعَ جُوشِكَ الْجِيُوشِ وَسَارَ مَسْعُودٌ إِلَى حَرْبِ أَخِيهِ مَحْمُودٍ وَصَمَّمَهُ فِي عَزِيمَتِهِ، وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ هَزِيمَتِهِ، وَقَتَلَ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الطُّغْرَائِيَّ وَزَوِيِّهِ، ثُمَّ اسْتَدْعَى السُّلْطَانَ سَنَجَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مَسْعُوداً وَأَخْرَجَتْهُ، وَفَرَّرَ عَلَى السُّلْطَانِ مَحْمُودٍ مِنْ مَالِ الْعِرَاقِ نَفَقَتَهُمْ وَنَفَقَتَهُ،

إلى أن خرج الأمراء على محمود في آخر أيامه فاستدعوا مسعوداً من جرجان، وحمّله على مناجزة السلطان، فما تمشى له أمرٌ، ولا تهيأ له نصر، فاستمال السلطان محموداً أخاه مسعوداً وقرّبه وسيره إلى أران، واستكانت بهيبة عيون أعيانها الرانية، ثم لما توفي محمود جرى له ما ذكرنا مع أخيه طغرل من منازعاتٍ للمنى وزعت، ومقارعاتٍ للمقتِ وعت، ومراجعاتٍ بالبراءِ حجت، ومدافعاتٍ للهدى عفت، ومناوشاتٍ بالمناوأةِ وشت، ومضاجراتٍ في الشرِّ للمضاء جرّت، حتى مضى طغرل لسبيله وملاهُ بالأسفِ عليه قلوب قبيله، وكان أخوه مسعود قد وصل إلى دار الخلافة في حياة أخيه وخطب الخليفة المسترشد بالله له وأجله وبجله، ووقعت عليه سمة السلطنة بلا سمو، وعلا صيته بلا صوتِ علو، وكان الجند يجتمع عليه ويفترق، وتُسيّم تارة معه ويعرق، فتارة يُحيل ويُخلف، ويهبُّ ويهبُّ ويهبُّ ويهبُّ، وآونة يُجند ويجمد، ويعورُّ ويعيرُّ، وينظم ويبدد، فلما نبت غرسه وثبت عرشه قرّ قراره وسرت أسراؤه، وكان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد، وكان المسترشد قد استوزره مدةً، ولما وصل السلطان مسعود إلى دار الخلافة خطب له آخر جمعة في المحرم سنة سبع وعشرين وخمسمئة، وسفر أنوشروان وهو وزير الخليفة في مهمته، فسفر عن سفارته وجه مرامه، وأحضره المسترشد وقال شفاهاً تلق هذه النعمة بشكرك، وأتت الله في سرك وجهرك، وخلع عليه وطوقه وسوره، وجلس على الكرسي المعد له قبل الأرض، وقال له أمير المؤمنين من لم يحسن سياسة نفسه لم يصلح لسياسة غيره، قال الله تعالى ذكره [فمن يفعل مثقال ذرة خيراً يره ومن يفعل مثقال ذرة شراً يره<sup>(1)</sup>] فأعاد عليه الوزير بالفارسية فأكثر من الدعاء والضراعة، ونطق بالإذعان والطاعة، وقلده بسيفين، وعقد له بيده لواءين، وسلّم إليه ابن أخيه داود وأتابكته أقسنقر، وقال له انهض وأخذ ما أتيتك وكُن من الشاكرين فمضى مسعود، وهي النوبة التي نُصِرَ فيها على أخيه طغرل وقد مضى شرحه.

ثم رأى الخليفة عزل أنوشروان واستبزاز شرف الدين تقيب النقباء علي بن طراد، وفيه يقول الأمير سعد بن الصفي المعروف بحيص بيص من قصيدة تتضمن شكر المعروف والشاء على المولى، أوّلها<sup>(2)</sup>: [الكامل]

شُكْرُ الْدَهْرِي بِالضَّمِيرِ وَبِالْفِمْ  
لَمَّا أَعَاضَ بِمُنْعَمٍ عَنِ مُنْعَمٍ

(1) سورة الزلزلة، آية 7، 8

(2) ديوان حيص بيص / 1 / 257

فَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ مُكْرَمًا وَكَرَّمَ مَنَزِلَهُ مُحْتَرَمًا، ثُمَّ اجْتَمَعَ بِالسُّلْطَانِ مَسْعُودَ فَاسْتَوَزَرَهُ، وَصَدَّ رَهْمَةَ الْأَطْمَاعِ حِينَ صَدَّرَهُ، وَكَانَ الْمُسْتَوْلِي عَلَى مَسْعُودِ آقِ سَنَقَرٍ فَلَمَّا اسْتَشْهَدَ تَمَكَّنَ الْأَمِيرُ الْأَسْبَهْسَلَارُ يَرْنَقَشُ الْبَاذَارَ فَتَزَلَّ وَفَرَى وَأَجْتَرَأَ وَجَرَأَ، وَأَمَرَ وَنَهَى وَجَدَّ وَلَهَا، وَاقْتَطَعَ وَقَطَعَ وَنَادَى وَأَسْمَعَ، وَأَرْضَى وَأَسْحَطَ وَقَبَضَ وَبَسَطَ، وَجَلَسَ السُّلْطَانُ بَعْدَ أُخِيهِ عَلَى سَرِيرِهِ، فَاسْتَوْلَى يَرْنَقَشُ عَلَى تَدْبِيرِهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ وَلَا إِلَى وَزِيرِهِ، وَكَانَ أَتَابِكُ قِرَاسَنْقَرٍ حِينْتِذَ قَدْ وَصَلَ إِلَى الْخِدْمَةِ فِي حُشُودِهِ وَجُنُودِهِ وَعُقُودِهِ وَبُنُودِهِ، وَحُمَاةِ أَدْرِيْبِجَانٍ وَكُمَاةِ أَرَانَ، وَعِنْدَهُ اسْتَشْعَارٌ مِنْ زَوْجَةِ السُّلْطَانِ الْخَاتُونِ زَيْبِدَةَ بِنْتِ بَرَكِيَارِقٍ فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى السُّلْطَانِ مُسَلِّطَةً، وَبِالْتَّحَكُّمِ عَلَيْهِ مُتَبَسِّطَةً، فَرَأَى صُلْحَهَا وَإِصْلَاحَ رَأْيِهَا، وَحَمَلَهُ دَهَاؤُهُ عَلَى حَمْلِ النِّفَاسِ إِلَيْهَا وَإِهْدَائِهَا، فَلَمْ يَعْجَبِ الْأَمِيرُ يَرْنَقَشُ أَنْ يَرَى نَقْشَهُ وَوَجَدَ خَدَشَهُ لِحَدِّ شَهْوَتِهِ بَلْ نَهَشَهُ، فَاسْتَوْحَشَ وَنَفَرَ نَفَارَ الْوَحْشِ وَاسْتَبَعَّ نَبْوَةَ حَاشِيَةِ عَدَّةٍ مِنْ أَقْوِيَاءِ الْعُجُوشِ، وَوَافَقَهُ الْأَمْرَاءُ الْأَكَابِرُ بِرَسَقٍ وَقَوْلِ أَمِيرِ آخَرَ وَسَنَقَرِ صَاحِبِ زَنْجَانٍ وَجَاوَلِي وَحِيدِرِ بْنِ شِيرَكِيرٍ وَأَكْثَرِ أَمْرَاءِ الْخَضْرَاءِ وَعِظْمَاءِ الدَّوْلَةِ، وَسَقَّ الْعَصَا وَسَاقَ وَعَصَى، فَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَقْتَرِحُوا عَلَى السُّلْطَانِ اقْتِرَاحَاتٍ مُقَرَّحَاتٍ وَمُنَى مُنْفَرَاتٍ، وَأُمُورًا لَا يُمَكِّنُ إِلَيْهَا الْإِجَابَةَ، وَأَعْرَاضًا لَا تُوَافِقُهَا الْإِصَابَةَ، فَخَرَجُوا بِهَا عَنِ الطَّاعَةِ، وَتَدَّرَجُوا إِلَى مُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، وَرَحَلَ يَرْنَقَشُ بِهِمْ وَامْتَدَّ إِلَى الْبَيْرِ وَجَرَدَهُمْ إِلَى بُرُوجَرْدٍ، وَقَادَ إِلَيْهَا تَحْتَ الْمُرْدِ الْعُجْرَدِ، وَبَقِيَ السُّلْطَانُ وَمَعَهُ قِرَاسَنْقَرُ فِي جِيوشِهِ، وَوَانِسُ جُنْدِهِ وَوَحُوشِهِ، وَاتَّصَلَ بِهِ خَوَارِزْمِشَاهُ وَكَلَهُ الْعَسْكَرُ وَالْهَيْبَةُ وَالْجَاهُ، وَوَصَلَ الْأَمِيرُ السَّابِقُ رَشِيدٌ مِنْ خِرَاسَانَ وَكَانَ مِقْدَامًا جَرِيًّا هُمَامًا حَرِييًّا، وَظَهَرَتْ الْقُوَّةُ وَقَوِيَ الظُّهْرُ، وَأَمْرَتْ الْعَزَّةُ وَعَزَّ الْأَمْرُ، وَنَهَدَ السُّلْطَانُ بِهِمْ إِلَى أَوْلَئِكَ الْبُئْهِمْ، وَسَارُوا وَهُمُومُهُمْ بِقَدْرِ الْهَمِّمْ، وَقَامَتِ السِّيُوفُ خُطْبَاءَ عَلَى مَنَابِرِ الْقِمِّمْ، وَأَفَاقَتِ الْأَعْمَادُ مِنَ الْإِعْمَاءِ فَأَيَّقَطَتْ إِحْتَهَا، وَاعْتَدَّرَتْ الْخُطُوبُ مِنَ الْخَطَأِ وَصَوَّبَتْ أَسْتَهَّهَا، وَتَوَاصَلَتْ تَعَالِبُ السُّمْرِ وَذَبَابُ الْبِيضِ، وَتَنَاسَقَتْ غَزْرُ السُّوَابِقِ السُّوَانِحِ تَنَاسِقُ قَوَافِي الْقَرِيضِ، وَطَلَعَتْ ضُنْمُهَا شُعْتُ النَّوَاصِي، وَذَابَتْ بَلْ ذَبَّتْ سُورِدُ الْمَنَايَا الْعَوَاصِي، وَوَقَفَ الْفَرِيْقَانِ وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ وَتَقَابَلَا وَتَقَاتَلَا، وَتَوَاصَلَا وَتَصَاوَلَا، وَبَيَّنَّا بَيَانًا وَبَيَّنَّا بَيَانًا، ثُمَّ وَلَّى يَرْنَقَشُ هَزِيمًا وَأَصْبَحَ بِنَفْسِهِ هَشِيمًا، وَأَمَرَ مِنَ الْأَمْرَاءِ الطُّغْرَلِيَّةِ جَمَاعَةً، وَقَعَتْ فِي إِطْلَاقِهِمْ مِنْ قِرَاسَنْقَرِ شَفَاعَةً، فَلَمْ يَقْنَعْ بِخِلَاصِهِمْ حَتَّى خَلَصَ لَهُمْ مَا أَقْنَعَهُمْ مِنْ

الإقطاع، وَاتَّخَذَ عِنْدَهُمْ يَدًا لِلْعَارِفَةِ وَالْإِصْطِنَاعِ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى أَصْلَحَ أَحْوَالَهُمْ  
وَأَنْجَحَ آمَالَهُمْ وَقَضَى أَشْغَالَهُمْ، وَسَمِعَ شَجُونَ أَحَادِيثِهِمْ فِي حَوَادِثِهِمْ الشَّاجِيَةِ،  
وَأَصْغَى لَهُمْ وَانْتَعَشَ السُّلْطَانُ وَارْتَعَدَ الدَّهْرُ مِنْ بَأْسِهِ وَارْتَعَشَ الْبَاذِرُ فَإِنَّهُ رَهَبَ  
فَهْرَبَ، وَتَسَحَّبَ حِينَ أَحْسَسَ بِضِدِّ مَا حَسِبَ، وَدَارَ بِخِلَافِهِ إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ، فَحَطَّ بِحَرَمِ  
الْأَمْنِ رَحْلَ الْمَخَافَةِ، وَاسْتَصَحَبَ مَعَهُ مِنَ الْأَثَرِكِ جَمْعًا كَثِيفًا وَجَمًّا كَثِيرًا، وَصَارَ بَيْنَ  
الْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ لِلشَّحْنَاءِ مُتْبِرًا، فَأَشَاعَ عَنِ السُّلْطَانِ رَفْضَ الْإِيمَانِ وَنَقْضَ الْإِيمَانِ،  
وَرَعَمَ أَنَّهُ قَدْ عَزَمَ عَلَى صِدْقِ الْقُصْدِ، وَأَنَّهُ بَاغٍ بَاغِ زَرْعِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَرَشِدِيَّةِ بِالْحَصْدِ،  
وَأَنَّهُ لِنَمَّا فَارِقُهُ وَجَمَاعَتُهُ لَمَّا فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَأَنَّهُ تَرَكَ طَاعَتَهُ حِينَ تَرَكَ الطَّاعَةَ، وَأَنَّهُ  
تَوَلَّى قِتَالَهُ لَمَّا تَوَلَّى قِتَالَ الْإِمَامِ، وَأَنَّهُ مَا أَرَادَ حَرْبَ دَارِ السَّلَامِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَحْتَمَى لِلدِّينِ  
وَدَنَا لِلْجَمَاعَةِ، وَأَنَّهُ قَدْ تَعَوَّضَ عَنِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَايَةِ، وَكَانَ الْمُسْتَرَشِدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
قَدْ انْقَرَضَ مِنَ السُّلْطَانِ فِي تَغْيِيرَاتٍ رَأَاهَا غَيَّرَتْ فِيهِ آرَاءَهُ، وَبَدَّتْ مِنْ شُحْنَةِ بَغْدَادَ مَا  
أَبَدَتْ شُحْنَاءَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ قَوْلَ يَرْنَقِشَ صَارَ يَرَى نَقْشَهُ فِي الْحَجَرِ، وَتَبَّتْ مَا شَجَرَ مِنْ  
الْخِلَافِ وَالْعِنَادِ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ نَبَاتَ الشَّجَرِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ قَدْ هَمَّ بِاتِّبَاعِ يَرْنَقِشَ بِعَسْكَرِ  
يَكْفُهُ وَيَكْفِيهِ، وَيَقِفُ عَلَى أَثَرِهِ وَيَقْتَفِيهِ، فَصَدَّقَ الْخَلِيفَةُ قُصْدَهُ، وَتَحَقَّقَ حَقُّ عِنَادِهِ عِنْدَهُ،  
فَحَبِطَ خَطْبُ وَخَاطَبُ وَطَلَبُ وَطَالِبُ، وَحَضُّ وَحَرَضُّ وَنَهَضُّ وَاسْتَنْهَضُّ، وَكَتَبَ  
وَكَبَّتْ وَسَرَى وَسَرَبَ وَجَرَّ وَجَرَّدَ وَأَوْرَى وَأُورِدَ، وَبَدَّ وَبَدَّلَ وَعَدَّ وَعَدَلَّ، وَأَعَدَّ وَأَعْدَى  
وَأَجَدَّ وَأَجْدَى، وَأَنْفَذَ وَأَنْفَقَ وَفَرَى وَفَرَّقَ، وَتَوَوَّعَ وَتَوَوَّقَ، وَتَجَمَّلَ وَتَحَمَّلَ، وَتَكَلَّفَ  
وَتَكَلَّفَلُ، وَخَرَجَ فِي هَيْئَةٍ رَائِقَةٍ وَهَيْبَةٍ رَائِعَةٍ، وَحَالَةٌ حَالِيَةٌ وَسِمَةٌ سَامِيَةٌ، وَكِفَايَةٌ وَافِيَةٌ،  
وَهَيْبَةٌ كَافِيَةٌ، وَعُدَّةٌ مُتَّخِبَةٌ وَعِدَّةٌ مُتَّجِبَةٌ، وَعُصْبَةٌ مُعْزَةٌ إِلَى الْعُصْبِيَّةِ فِي اللَّهِ مُعْتَزِيَةٌ، وَفُؤَدٌ  
جِنَادِهِ أَجْيَادٌ وَسَرَا حَيْبٌ كَالسَّرَا حِينَ وَمَطَاعَيْنُ كَالثَّعَابَيْنِ، وَكُنُتٌ تَحْتَ الْكُمَامَةِ وَشُهْبٌ  
كَالْبُرَاةِ، وَشُقْرٌ كَالْأَسْوَدِ وَدُهْمٌ كَالْأَسْوَدِ وَخَيْلٌ كَالسَّيْلِ الْجَارِي، وَبَحْرٌ كَاللَّيْلِ الْوَارِدِ،  
وَجَحْفَلٌ كَالْخُضْمِ، وَحَفْلٌ كَاللِّمِّ، وَدُهْمٌ كَالدَّهْرِ، وَحَشْدٌ كَالْبَحْرِ، وَلَجِبٌ كَالْجَبَلِ،  
وَصَوَافِرٌ كَالْقَلَلِ، وَفِيَالِقُ كَالْعَلَقِ، وَسَرَادِقُ فِي لَوْنِ الْعَسَقِ، وَمَضَارِبُ سُودٌ وَجَنَابُ  
فُؤَدٌ، وَهَضَابٌ رَاسِيَاتٌ وَهَوَاضِبُ سَارِيَاتٌ، وَخَرَجَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ أَعْيَانُهَا وَتَعَاوَنَتْ  
عَلَى التَّنَاصُرِ أَنْصَارُ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانُهَا، وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا،  
وَأَنْزَلَتْ السَّمَاءُ أَفْلَاكَهَا، وَضَرَبَتْ ثَائِرَةُ النِّعَمِ عَلَى نُجُومِهَا شِبَاكَهَا، وَسَارَ سَارًا سَادًا،

شَادَاً لِلِوَاءِ النَّصْرِ جَادًا، وَصَحْبَهُ حَتَّى الشُّعْرَاءِ وَالْأَطْبَاءِ وَالصَّوْفِيَّةِ وَالْفُقَهَاءِ، وَفِي تِلْكَ  
السَّفَرَةِ يَقُولُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ الْفَضْلِ<sup>(1)</sup> الشَّاعِرُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوْلَاهَا<sup>(2)</sup>: [الكامل]

فِي الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ نَحْنُ عَصَابَةٌ      مَرْدُولَةٌ أَحْسِنُ بِهَا مِنْ مَعَشِرِ  
خُذْ عَقْلَنَا مِنْ عَقْدِنَا فِيمَا تَرَى      مِنْ خِيفَةٍ وَرَقَاعَةٍ وَتَهْوِيرِ  
وَيَقُولُ فِيهَا:

تَكَرِبْتُ تَعَجُّزَنَا وَنَحْنُ بِيَجْهَلِنَا      نَمْضِي لِنَأْخُذَ تَرِمِذًا مِنْ سِنَجِرِ  
وَذَكَرَ الْجَمَاعَةَ الَّذِينَ فِي الصَّحْبَةِ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ:

أَمَّا الْحُوَيْرِيُّ الدَّعِيُّ فَإِنَّهُ      دَلَّوْ يَشُوبُ تَكْبُرًا بِتَمَسْخِرِ  
يُكْنَى أبا الْعَبَّاسِ وَهُوَ بِصُورَةٍ      حَكَمَتْ عَلَيْهِ وَأَشْجَلَتْ بِمَعْمَرِ  
وَحَدِيثُهُ فِي الْحَيِّ أَوْفَى بَاطِلٌ      لَمْ يُخْلِهِ مِنْ وَحْشَةٍ وَتَمَهَّرِ  
فِي كَفِّ وَالسُّدِّ وَفِي أَقْدَامِهِ      آتَارُ نَيْلٍ لَا يَزَالُ وَعَصْفِرِ  
وَإِذَا رَأَى التَّرْكَيلَ يَرْعُدُ خِيفَةً      ذِي الْهَاشِمِيَّةِ أَصْلُهَا مِنْ خَيْبِرِ  
نَسَبٌ إِلَى الْعَبَّاسِ لَيْسَ شَبِيهُهُ      فِي الضَّعْفِ غَيْرَ الْبَاقِلَاءِ الْأَخْضَرِ<sup>(3)</sup>  
وَالصَّائِنُ الْمَهْتَوُكُ نَفْثَةُ سَحْرِهِ      فِي كَلِّ مَطْبُوعٍ ثَقِيلٍ أَصْفَرِ  
هُوَ تَرْجُمَانٌ بِالْمُحَالِ مُغَالِطٌ      أَبْدَأُ كَسَارِقٍ فَرْدَةٍ مِنْ بَيْدِرِ  
مَازَالَ يَسْعَى فِي فُضَائِحِ نَفْسِهِ      جِلْدًا مِنْ الْأَجْلَادِ غَيْرِ مَقْصَرِ  
وَأَبْنُ الْمُؤِيدِ ظَلٌّ تَجَاوَشَ      يَجْنِي بِهِ نَفْعًا وَبَيْنَ تَمَشِيرِ  
صَيْدُ الدَّجَاجِ مِنَ الْمَوَائِدِ دَابُّهُ      مَشْوِيَةٌ لَا صَيْدُ ظَنِّي أَعْفَرِ  
يَخْتَالُ بِالسَّيْفِ الْمُحَلَى وَالْقَبَا      كَطْفَانٍ يَخْطُرُ فِي سِمَاطِ مُطَهَّرِ  
مَا فِيهِ عَجْرَقَةٌ عَلَى عِلَاتِهِ

(1) أبو القاسم بن الفضل: قال ابن أبي أصيبعة في كتابه (طبقات الأطباء): هو أبو القاسم، هبة الله بن الفضل، شاعر بغدادى المولد والمنشأ، وكان يعاني صناعة الطب ويأشر أعمالها ويعد من جملة الموصوفين بها، وكان أيضاً يكحل، إلا أن الشعر غلب عليه، وكان كثير النوادر خبيث اللسان وله ديوان شعر، وبينه وبين حيص بيص شأن وتأثر ألف مجموعة من الكتب في الطب، وله ديوان شعر.

(2) القصيدة في: عيون الانباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا (ط. مكتبة الحياة، بيروت د.ت.)، 380 - 389، و: خريدة القصر، قسم العراق 2 / 270 - 288، وقد ذكر منها أربعة أبيات.

(3) قال العماد في الخريدة، قسم العراق 2 / 276: ينادى في بغداد على الباقلاء الأخضر (العباسي)

وَأَخِي ابْنِ حَيَّوْسِ الْمُهَوَّسِ خَامِلٌ  
 يَدْرِي بِمِيقَاتِ الْخُسُوفِ إِذَا رَأَى  
 لَا تَطْلُبُوا مِنْهُ الصَّحِيحَ فَإِنَّهُ  
 وَأَخُو السَّرَابِاذِي يَتْلُو تَلْوَهُ  
 صِنَوَانَ قَدْ سَقِيَا بِمَاءِ وَاحِدٍ  
 حَاشَاهُمَا مِنْ مِثْلِ مَا قَدْ فَاتَهُ  
 وَالْحَبِصَ بَيْصَ مُبَارِزٍ بِقَنَاتِهِ  
 هَذَاكَ لَا يُرْجَى لِقَتْلِ بَعْوَضَةٍ  
 [أَجْرِي بِمِضْعِي الدَّمَاءِ وَسَيْفُهُ  
 لِقَرِينِهِ فِي الْحَرْبِ طَوَّلُ سَلَامَةٍ  
 رَجُلٌ إِلَى الْقَوْمِ انْتَمَى وَكَعَلَهُ  
 النَّسْعَةُ الرَّهْطُ الَّذِينَ فَسَادُوا  
 وَسَيْدِ الرَّيِّ الْمُخْلَفِ هَاهُنَا  
 مَا غَابَ لِمَا غَابَ عَنْهُ نَصِيبُهُ  
 هُوَ لِلْجَمَاعَةِ كُلِّهَا شِنَادَةٌ  
 أَمَا النَّجِيبُ فَمَا ظَلَفَرْتُ بِبَغْيِهِ  
 لَهُمْ مَعَايِشُهُمْ وَمَالِي بَيْنَهُمْ  
 وَوَلَايَ فِي الْحَرَمَانَ لَيْسَ بِنَاقِصٍ  
 وَكُلُّ الْحَبِيبِ مَعَ امْتِنَاعِ حَبِيبِهِ

وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّخْلُفِ عَنِ الْخَلِيفَةِ وَقَدَرَ فَلَمْ يَفْسَحْ لِذِي عِذْرِ وَسَارٍ فِي حَشْدٍ وَحَشَرٍ،  
 وَصَمٌّ وَنَشْرٌ وَارْتَجَّتِ الْأَرْضُ، وَضَاقَ طَوْلُهَا الرَّحْبَ وَالْعِزْضَ، وَأُنْمِيَ إِلَى السُّلْطَانِ خُرُوجُ  
 الْخَلِيفَةِ فَشَقَّ عَلَيْهِ شِقَاقُهُ وَأَظْلَمَتْ آفَاقُهُ، وَأَضْطَرَّ لِمَا اضْطَرَّ لِلْمَكْرِ الْمَكْرَ، وَأَفْكَرَ فِي الْعَمَلِ  
 فَأَعْمَلَ الْفِكْرَ، وَجَمَعَ أَهْلَ الْمَشُورَةِ وَاسْتَشَارَ، وَفَقَدَ الْجَمَاعَةَ مِنْهُ بِمَا تُنْبِي بِهِ الْاسْتِشَارَ، فَهَوَّنُوا  
 الْخَطْبَ، وَاسْتَسْهَلُوا الصَّعْبَ، وَاسْتَصَابُوا الْحَرْبَ، وَتَدَمَّرُوا وَتَبَهَّرُوا وَشَمَّرُوا، وَأَجْرُوا فِي

الغَمَائِرِ إِجْرَاءَ الصُّوَامِرِ، وَدَارُوا بِالْخَوَاطِرِ أَخْطَارَ الدَّوَائِرِ، وَقَالُوا لَوْ أَنَّ السُّلْطَانَ الْإِمَامَ اشْتَلَّ بِمَا أَمَامَهُ مِنَ الْأَشْغَالِ وَأَقَاتَلَ مِنَ الْقِتَالِ وَاحْتَمَى بِالْإِحْتِمَالِ وَتَارَكَ طَوَائِفَ الْإِتْرَاكِ وَتَوَخَّذَ بِبَصَرِ التَّوْحِيدِ وَفَهَّرَ أَشْرَاكَ الْإِشْرَاكِ لِأَمِينِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَتَمَّ أَمَانُ الْإِمَامِ، وَتَرَبَّتْ التُّرْبَةُ مِنَ الْمِحْنِ، وَخَلَّتْ الْأَحْنَاءُ مِنَ الْإِحْنِ، وَدَامَتِ الدِّمَاءُ مَحْقُونَةً وَالْأَمْوَالُ مَصُونَةً وَالْقِنَنُ مَأْمُونَةً، وَسَارَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَغْدَادَ وَالسُّلْطَانُ مَسْعُودٌ مِنْ هَمْدَانَ وَالتَّقْوَا يَمْرُجُ يُقَالُ لَهُ وَادِي مَرْكٍ، وَمَسَّ الْأَذْيَمَ الْعَرْكَ، وَاجْتَمَعَ الْمَصْطَفُونَ وَاصْطَفَى الْجَمْعُ، وَاتَّسَعَ الرَّفْعُ وَسُمِعَ فِي النَّعْمِ الْوَقْعُ، وَطَلَعَ فِي هَالَةِ الْمِظْلَةِ مِنْ وَجْهِ الْإِمَامِ الْبَدْرُ، فَاحْتَجَبَتْ بِنِقَابِ الْقَتَامِ الشَّمْسُ، وَذَادَتْ الْحُمُسُ الْعَبَاسِيَّةُ عَنْهَا كَأَنَّهَا فِي الشَّدَّةِ وَالْبَأْسِ عُبْسٌ، فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ مَالَ الْجِنْسِ إِلَى الْجِنْسِ وَمَالَ التُّرْكَ إِلَى التُّرْكَ، وَأَسْلَمُوا حُرْمَةَ الْإِسْلَامِ الْمَصُونَةَ إِلَى الْهَيْكَلِ، وَتَفَرَّدَ الْخَلِيفَةُ مَعَ مُفْرَدِيهِ، وَبَعُدَ مِنْ جَدِي مُجْتَدِيهِ، ثُمَّ اتَّسَعَ نَشَاطُهُ، وَانْفَلَّ عَنْهُ خَوَاصُّهُ، وَوَقَفَ وَلَمْ يُؤَلِّمْ وَتَبَّتْ وَلَمْ يُخَلِّمْ، وَهَابَ الْجَمَاعَةُ الْإِقْدَامَ عَلَيْهِ وَالتَّقَدَّمَ إِلَيْهِ، وَنَزَلَ أَمِيرُ الْعَلَمِ السُّلْطَانِيَّ وَتَقَدَّمَ وَلَمْ يَزَلْ يُقْبَلُ الْأَرْضَ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ وَعَنَّ لَهُ أَخْذَهُ فَأَخْذَهُ بِعِنَانِهِ، ثُمَّ أَحْدَقَ بِهِ الْأَمْرَاءُ كَمَا يُحْدِقُ كُلُّ مَوْكِبٍ بِسُلْطَانِهِ، وَأَنْزَلُوهُ فِي خَيْمَةٍ قَدْ ضُرِبَتْ، لِنَكْبَةٍ فِي سِرِّ الْغَيْبِ قَدْ قَرَّبَتْ، وَمَعَهُ وَزِيرُهُ نَقِيبُ النِّقْبَاءِ وَابْنُ طَلْحَةَ صَاحِبُ الْمَخْزَنِ وَسَدِيدُ الدِّينِ بَنُ الْأَنْبَارِيِّ كَاتِبُ الْإِنْشَاءِ، وَيَقِي هَكَذَا فِي مُخَيِّمِ السُّلْطَانِ يَرْحَلُ بِرَحِيلِهِ وَيَحُلُّ بِحُلُولِهِ، وَهُوَ يَعُدُّهُ بِإِعَادَتِهِ إِلَى دَارِ الْإِمَامِيَّةِ، وَعَادَتِهِ مِنْ دَرِّ الْكِرَامَةِ، حَتَّى كَانَ بِالْمَعْسَكِ عَلَى الْمَرَاغَةِ، وَالْقَوْمُ فِي الْإِرَاعَةِ صَلْتُهُ وَالْإِرَاعَةَ، فَوَصَلَ الْأَمِيرُ بِرِنْقَشِ قِرَانِ خِوَانٍ مِنْ خِرَاسَانَ بِرِسَالَةِ سَنْجَرِيَّةٍ كَيْمَ سِرُّهَا وَخُفِيِّ تَحْتِ الرَّمَادِ جَمْرُهَا، وَهَجَمَ عَلَى الْخَلِيفَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ فَفَتَكُوا بِهِ فِي سُرَادِقِهِ، وَفَجَعُوا الزَّمَانَ بِسَيِّدِ خَلَائِفِهِ وَخَلَائِقِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ، وَأَصِيبٌ جَلَالُهُ فَجَلَّ مَصَابِيهُ، وَخَذَلَهُ أَنْصَارُهُ وَأَسْلَمَهُ أَصْحَابُهُ، وَضَبَعَهُ حَافِظُوهُ وَمَا لَاحِظُهُ مُلَاحِظُوهُ، فَعُرِفَ بِقِرَائِنِ الْأَحْوَالِ أَنَّ سَنْجَرَ سَيَّرَ الْبَاطِنِيَّةَ لِقَتْلِهِ فَمَا أَسْنَعَ وَأَفْطَعَ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلِهِ!

ولاية امير المؤمنين جعفر المنصور الراشد بالله بن المسترشد بالله

فوصل الخبر إلى بغداد باستشهاد المسترشد رضوان الله عليه يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين، وبويع الراشد بالخلافة وجلس في منصبها

في ذي الحجة ثابت الحجة واضح المحجة، وبقي مقيماً في الدار الإمامية ببغداد قريب تسعة أشهر على إرجاف مزعج للأرجاء، وخوف غالب على الرجاء، وأمر بلا أمن وعيش بلا وزن، حتى تفرغ السلطان إلى شغلِهِ وَيَسْتَمَلَّ بِبَيْتِ شَمْلِهِ، وَكَرَّرَ عَلَيْهِ فِي مَطَارِهِ فَأَطَارَهُ مِنْ وَكْرِهِ، وَشَاقَهُ فَصَدَفَ عَنْهُ دَرَهُ، وَشَقَّ عَنْهُ صَدَفَ دُرَّهُ، فَأَخْرَجَ بَدْرَهُ مِنْ بَيْتِ شَرْفِهِ، وَأَتَى عَلَى مُتْلِدِهِ وَمُطْرِفِهِ، وَسَيَّأَتِي ذِكْرُ ذَلِكَ مُوجِزاً فِي مَوْضِعِهِ، فَأَمَّا السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ فَإِنَّهُ بَعْدَ حَادِثَةِ الْمُسْتَرَشِدِ بِاللَّهِ قَبِيحَتْ سُمْعَتُهُ وَسُمِعَتْ فِيهِ الْقَبَائِحُ، وَتَفَرَّحَتْ بِمَا جَرَى الْقُلُوبُ وَتَقَلَّبَتْ فِي دَمِّ جَرِيرَتِهِ الْقَرَائِحُ، وَذَكَرَتْهُ الْأَلْسُنُ وَنَكَرَتْهُ الْأَعْيُنُ، فَظُنَّتْ بِهِ الظُّنُونُ، وَشَبَّتْ بِهِ الشُّيُونُ، وَصَارَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرٍ يَنْفِي عَنْهُ الظَّنَّ، وَيَسْتَلُّ بِهِ مِنَ الْقُلُوبِ السَّخِيمَةَ الْمُسْتَكْبِتَةَ، حَتَّى سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ دُبَيْسِ بْنِ صَدَقَةَ، وَكَانَ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ إِنْسَانٍ عَيْنِهِ الَّذِي بَوَّأَهُ الْخَدَقَةَ، قَرَأَى أَنَّهُ إِذَا قَتَلَهُ نَسَبَ النَّاسُ إِلَيْهِ قَتْلَ الْخَلِيفَةِ وَأَنَّ السُّلْطَانَ لِذَلِكَ لَمْ يَرَّ عَلَيْهِ الْبُقْيَا، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ الدِّينَ بِإِقَاءِ الشَّامِتِ بِالْإِمَامِ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ الْأَمِيرُ دُبَيْسُ الْمَرْزِدِيُّ قَدْ حَضَرَ بَارَكَاةَ السُّلْطَانِ وَهُوَ جَالِسٌ يَنْتَظِرُ الْإِذْنَ لَهُ وَقَدْ آلَاهُ الْوَقُوفُ بِالزَّمَانِ عَنْ صَرْفِهِ وَأَغْفَلَهُ، فَجَاءَ فَجَاءَةً مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ لَا يَرَاهُ بِخْتِيَارِ الْوَشَاقِ، فَأَبَانَ بِسَيْفِهِ رَأْسَهُ وَأَسَالَ عَلَى الْبِسَاطِ دَمَهُ الْمُهْرَاقِ، وَكَانَ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَبَيْنَ قَتْلِ دُبَيْسِ شَهْرٌ وَاحِدٌ، وَفِيهِ يَقُولُ الْأَمِيرُ أَبُو الْفَوَارِسِ بْنُ الصَّيْفِيِّ الْمَعْرُوفُ بِحَيْصٍ بَيْصٍ مِنْ قَصِيدَةٍ لَمْ يَحْضُرْنِي مِنْهَا غَيْرُ هَذَا الْمِصْرَاعِ<sup>(1)</sup>: [الطويل]

### أَقْلِي قَبِيْنَ الْأَحْمَرِيْنَ هِلَالُ

يعني المُسْتَرَشِدَ وَدُبَيْسَ، وَكِلَاهُمَا كَانَ أَشَقَرَ وَلَقِيَ الْمَوْتَ الْأَحْمَرَ، وَكَانَتْ هَذِهِ النَّوْبَةُ أَيْضاً شَنِيعَةً وَالْفَضِيحَةَ فَظِيحَةً، وَشَفَعَتْ الْكَبِيرَةَ بِالْكَبِيرَةِ وَأَتَبَعَتْ الْجَرِيرَةَ بِالْجَرِيرَةِ، فَتَفَرَّحَتْ الْقُلُوبُ وَتَحَرَّقَتْ، وَأَشْفَقَتْ النُّفُوسُ وَأَشْفَقَتْ، وَتَلَهَّيْتُ الْأَفْتَدَةَ وَتَلَهَّيْتُ، وَأَسَيْتِ الْأَرْوَاحُ وَأَسَيْتِ، وَتَفَتَّتِ الْأَكْبَادُ وَتَفَرَّقَتْ، وَتَأَثَّرَتْ الْهِمَمُ وَتَأَثَّرَتْ، فَلَمْ يَكْتَرِثِ السُّلْطَانُ بِمَا كَثُرَتْ، وَلَمْ يَتَحَدَّثْ عَمَّا حَدَثَ، وَلَا بِالِي بِمَا بِهِ بُلِي، وَلَا أَقْوَى بِالْهُ بَلِ قَوِي، وَتَجَرَّأَ بِمَا تَجَرَّعَ، وَتَشَبَّعَ بِمَا اسْتَبْشِعَ، وَطَمَا عَابُ طَمَا عَابِيهِ، وَلَفَّحَ سَرُّ سَرُّ شَرَّتِهِ، وَخَشِيَهُ الْأَكَابِرُ وَالْأَمَائِلُ، وَغَشِيَهُ الْأَصَاغِرُ وَالْأَرَادِلُ، وَتَبَّ السَّاقِطُ وَسَقَطَ النَّابَهُ، وَأَعْرَضَتْ الْمَكَارِمُ وَتَعَرَّضَتْ الْمَكَارُهُ، وَرَفَعَ قَوَائِنَ السُّلْطَانَةِ وَأَبْطَلَهَا، وَمَحَا سَنَا مَحَاسِنَهَا وَعَطَّلَهَا، وَعَرَفَ الْمُنْكَرَاتِ وَأَنْكَرَ الْمَعْرُوفِ،

(1) ديوان حيص بيص 3 / 43، وهو عجز بيت قاله حيص بيص من مقطوعة، وصدرة: نُعْتُفِي فِي شَرِبِ كَاسِي ضَلَالَةَ

وَأَلْفَ الْبَاطِلِ وَأَبْطَلَ الْمَأْلُوفَ، فَسَاقَ الْفُسَّاقَ إِلَى الْآلِيهِ، وَمَاجَ الْمَائِجُونَ مِنْ نُدْمَائِهِ فِي دَأْمَائِهِ، وَسَيَّاتِي شَرْحُ تَحْزِيمِهِ وَتَجْرِيمِهِ وَتَهْجُرِهِ فِي تَهْجِيمِهِ.

فَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ بَعْدَ حَادِثَةِ الْخُلَيْفَةِ وَمُصَابِهِ أَنَّهُ نَهَضَ إِلَى بِلَادِ سَكْمَانَ، فَجَلَبَ عَلَى سُكَّانِهَا الْبَلَاءَ وَأَضْرَى بِهَا الضَّرَاءَ، وَرَاعَ رَعِيَّتَهَا وَأَمَّ أُمَّتَهَا، وَخَافَهُ ابْنُ سَكْمَانَ فَجَفَلَ ثُمَّ بَدَّلَ لَهُ الْبَدَلَ خِدْمَةً حَتَّى قَتَلَ، وَحِينَئِذٍ تَوَجَّهَ إِلَى بَغْدَادَ مُنَاصِباً لِلْخُلَيْفَةِ، نَاصِباً لَهُ وَجْهَ الْخِيْفَةِ، فَتَنَزَّرَ وَحَدَرَ وَضَاقَ الْمَقَرُّ وَذَاقَ الْمَقْرُ، وَفَرَّغَ وَعَزَّ وَعَزَفَ، وَأَنَافَ بِيَارِثِ النَّبْوَةِ فَنَبَا وَأَنَفَ، وَقَامَ وَقَعَدَ وَنَزَلَ وَصَعَدَ، وَأَحْسَنَ بِقُرْبٍ مِنْ قَتْلِ أَبَاهُ قَابَاهُ وَبَعَدَ، وَكَانَ الْأَمِيرُ زَنْكِيُّ بْنُ أَقِ سَنَقَرِ صَاحِبِ الشَّامِ بِيغْدَادَ، فَحَمَلَهُ عَلَى السَّيْرِ عَنْهَا وَالْإِغْدَادَ، وَكَانَ دَاوُدُ بْنُ السُّلْطَانَ مَحْمُودٌ قَدْ وَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ، وَزَنْكِيُّ مُؤَاوِزُهُ وَمُظَاهِرُهُ وَمُضَافِرُهُ وَنَاصِرُهُ، فَلَمَّا حَضَرَهَا مَسْعُودٌ وَحَضَرَهَا وَنَازَلَ بِعَسْكَرِهِ عَسْكَرَهَا رَحَلَ دَاوُدُ عَائِداً إِلَى أَدْرَبِيجَانَ وَأَشَارَ عَلَى الْخُلَيْفَةِ بِاتِّبَاعِهِ، فَمَا أَصْغَى إِلَيْهِ وَلَا سَهَّلَ الْخُرُوجَ مِنْ بَيْتِهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَوْحَشَ مِنْ مَقَامِهِ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ مَدَّةً عَلَى اسْتِحَاشِ، وَصَبَرَ فَمَا بَصَرَ لَهُ بِقُوَّتِي جَيْشٍ وَجَاشٍ، فَرَحَلَ رِحْلَةَ آيِسٍ وَتَفَرَّقَ نَفْرَةَ خَاشٍ، وَمَضَى إِقْبَالَ خَادِمِ أَبِيهِ مَعَهُ وَمَضَى الْإِقْبَالَ وَمَضَّ إِلَهُ بِفِرْقِ فِرَاقِهِ وَمَضَّ الْأَلَّ وَصَحْبُهُ مِنْ مُؤَاوِزِيهِ، وَصَحْبُهُ وَزِيرُهُ جَلَّالُ الدِّينِ أَبُو الرِّضَا بْنِ صَدَقَةَ، وَأَشْفَقَ مِنَ الْعُدْمِ وَعَدِمَ عَلَيْهِ الشَّفَقَةَ، وَلَوْ أَقَامَ الرَّاشِدُ الرَّاشِداً فِي مَقَامِ إِمَامَتِهِ وَمَقَرَّ كِرَامَتِهِ لَهَيْبَ لَهَيْبِ نَارِهِ وَنُورِهِ، وَزِيرَ وَزِيرُهُ بِتَوْفِيرِهِ وَتَوْفِيرِهِ، وَقَرَّ وَقَرَّ سَرِيرِهِ بِسُرُورِهِ، لَكِنَّهُ وَجَلَ فَجَلَّ وَوَهَمَ وَوَهَلَ وَخَيَّمَ بِظَاهِرِ الْمَوْصِلِ مُسْتَمْسِكاً بِحَبْلِ قَاطِعِهِ، مُعْتَرِياً بِسِلْمِ مُنَازِعِهِ، وَوَثِقَ بِمُوثِقِهِ، وَأَبَقَ إِلَى مُوثِقِهِ، وَأَنَسَ بِحَفِظِ مُضَيِّعِهِ وَلَمْ يَدِرْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ مِصْرِهِ مُسْرِعاً إِلَى مِصْرَعِهِ، فَإِنَّ زَنْكِيّاً لَمَّا أَصْلَحَ أَمْرُهُ مَعَ مَسْعُودِ سَيِّئِهِ وَخَيَّبَهُ وَشَابَهُ بِمَا سَيَّئِهِ، وَأَخَذَ إِقْبَالَ خَادِمَتِهِ وَحَبَسَهُ ثُمَّ قَتَلَهُ، وَأَزْعَجَ الْخُلَيْفَةَ الْمَذْكُورَ وَجَفَلَهُ، حِينَ فَجَلَ عَلَيْهِ وَجَفَلَ لَهُ، فَانْتَقَلَ عَنْهُ انْتِقَالَ الْمُرْتَابِ الْمُرْتَاعِ، وَقَرَّبَ أَنْ يَجْتَاخَ ضِيَاءَ عَيْنِهِ فَصَفَا لِلْإِنْتِجَاعِ، وَأَعْمَلَ أَحْقَافَ الْإِحْقَاقِ، وَمَرَى أَفَاقِيقَ الْآفَاقِ، فَمَا دَرَّتْ لَهُ حُلُوبَةٌ وَلَا دَارَتْ بِهِ حُلُوبٌ، وَلَا اسْتَقَرَّ بِهِ مَكَانٌ وَلَا تَمَكَّنَ لَهُ قَرَارٌ، وَلَا أَنَارَ لَهُ مَعْلَمٌ وَلَا عَلَا لَهُ مَنَارٌ، كَذَلِكَ سَنِينَ كَسَنِينَ يَوْسُفَ لَمْ يَنْلُ لَهُمَا ذَوْقًا، وَلَمْ يَبْلُ بِبِهِمَا شَوْقًا، وَلَمْ يُجِدْ طَعْمَهُ طَمَعًا، وَلَمْ يَجِدْ مَا لَقِيَهُ مِنْ وَكَلِهِ وَوَلَعِهِ، وَاجْتَمَعَ بِالسُّلْطَانَ دَاوُدَ فِي أَدْرَبِيجَانَ وَجَاءَ مَعَهُ إِلَى مُحَاصِرَةِ أَصْفَهَانَ

وَحْتِمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ عَلَيْهَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ فِي ظَهْرِ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ السَّادِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْقَيْظِ وَقَتِ الْهَاجِرَةِ الْمُتَأَجِّجَةِ وَالْقَائِلَةِ الْمُتَوَهِّجَةِ، فَهَجَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ مِنْ فِدَائِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ، فَأَضْجَعُوهُ عَلَى فِرَاشِ الْمَنِيَّةِ، وَأَنَا أَذْكَرُ فِي صِغَرِي هَذِهِ الْحَادِثَةَ الْكَبِيرَةَ وَحَدِيثَهُ، وَتَأْتِيْرُهُ فِي الْقُلُوبِ وَتَأْرِيْثُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ بِعَقَبِ سَنَوَاتِ أَسْنَانِ وَسَنَوَاتِ سِنِيَّاتِ، وَمُحَوَّلِ عَارِقَةٍ وَقُحُولِ طَارِقَةٍ، وَمَجَاعَاتِ لِلْجَمَاعَاتِ مُفْرَقَةٍ، وَنَوَائِبِ نَوَابِي لِلنَّوَابِتِ مُحْرِقَةٍ، وَاضْطِرَارَاتِ مُحَوَّجَةٍ وَاضْطِرَابَاتِ مُحْرَجَةٍ، وَضُرُوسِ عَاصِبَةٍ وَنُحُوسِ مَاصَّةٍ، وَنُوبِ قَاشِرَةٍ وَنُيُوبِ كَاشِرَةٍ، وَجُدُوبِ جَارِقَةٍ وَقُلُوبِ رَاجِفَةٍ، وَعُيُونِ غَائِرَةٍ وَشُؤُونِ ضَائِرَةٍ، وَشِدَائِدِ كَرِيْهِةٍ وَمَكَارِهِ شَدِيدَةٍ، وَعَوَاصِفِ مُبِيرَةٍ وَقَوَاصِفِ مُبِيدَةٍ، وَقَحِطِ عَاقِرٍ وَقَفَرِ فَاقِرٍ، وَعَجْفِ فَاجِعٍ وَعَذَابِ وَاقِعٍ، وَنَبَأِ عَظِيمٍ مِنْ نَبَأِ آتٍ وَوَبَاءِ عَمِيمٍ وَمَوَاتٍ، حَتَّى قُضِمَتِ أَوْرَاقُ الشَّمْرِ، وَهُضِمَتِ أَعْرَاقُ الشَّجَرِ، وَأَكِلَ الْكَلَأُ وَتَكَلَأَ الْمَلَأُ، وَشُويَتِ السَّنَانِيْرُ فِي التَّنَانِيْرِ، وَسُويَتِ الْحَيْفُ بِالْدَنَانِيْرِ، وَصَارَتِ الْهَيْمَةُ طَعَامًا، وَلَحْمُ الْآدَمِيِّ آدَامًا، وَالْحَبْرُ مَعْدُومًا وَالْدَمُّ مَادُومًا، وَجَفَّ الصَّرْعُ وَجَفَّ الزَّرْعُ، وَصَوَّحَ النَّبْتُ وَاقْتَبَتِ الْقَتُّ، وَأَقْوَتِ الْقُوَّةُ وَعَزَّ الْقُوْتُ، وَأَيَقَنَ كُلُّ حَيٍّ أَنَّهُ لَأَشَكُّ يَمُوتُ، وَعَبَّرَتِ عَلَى ذَلِكَ سُنُوْرُ رَمَادٍ وَأَعْوَامُ جَمَادٍ، وَهَلَكَ النَّاسُ جُوعًا، وَخَرَجَ مِنْ أَهْلِ أَصْفَهَانَ مَنْ لَمْ يَبْنُوْ إِلَيْهَا رُجُوعًا، وَمَا كَفَاهُمْ مَا دَهَاهُمْ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُفْرَقَةِ بَيْنَ الْأَدْوَاءِ وَالْأَسْوَاءِ الْمُضِلَّةِ عَنِ نَهْجِ الْإِسْتِوَاءِ وَالنَّوَابِ الْعُضْلِ الْأَنْيَابِ وَالْمَصَابِ الْمُعْضِلَةِ الْأَوْصَابِ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِمْ دَاوُدُ الرَّاشِدُ، فَلَمْ يَنْشِدِ الضَّالَّةَ وَضَلَّ النَّاشِدُ، وَخَرِبَتِ الْقُرَى وَالْحِقَّتْ بِالْوَهَادِ الذَّرَى، وَقَامَتِ عَلَى النُّوَاحِي النَّوَائِحُ وَعُدِمَ الْإِجَارَةُ الصَّارِخُ وَالْإِجَابَةُ الصَّانِحُ، وَسَاعَتِ الْفَضَائِحُ وَذَاعَتِ الْقَبَائِحُ، وَأَغْلِقَتِ أَبْوَابُ الْبَلَدِ، وَانْتَقَلُوا إِلَى ظَاهِرِهَا، وَسَكَنُوا حَتَّى فِي مَقَابِرِهَا، وَهُنَاكَ بِقُرْبِ رَنْدَرُودِ عِنْدَ الْمُصَلَّى قُصُورٌ عَالِيَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى قُبُورِ أَكْبَارِهَا، وَكُنَّا نَحْنُ مِنْ جُمْلَةِ الْمُتَسَيِّلِينَ إِلَى بَعْضِ قُصُورِنَا، وَقَدْ عُيِنَا بِأَمُورِنَا فَجَاءَ الْعَسْكَرُ الْمُحَاصِرُ فِي عَدَدِ كُلِّ مِنْ عَدَدِهِ الْحَاصِرُ، وَكَانَ عَمِيْ بِهَاءِ الدِّينِ مَعَ دَاوُدَ فِي دِيْوَانِ الْإِسْتِيفَاءِ وَالِيهِ خَوَارِزْمِشَاهُ وَهُوَ أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ الرَّاشِدِ وَزِيْرُهُ أَبُو الرُّضَايْنِ صَدَقَةَ، فَإِنَّ زَنْكِيَا أَحْبَسَهُ عِنْدَهُ ثُمَّ اسْتَوْرَزَهُ فَنَقَدَّ إِلَى وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَالزَّرَمَةَ بوزارتهِ قَائِبِي، وَلَقَدْ كَانَ مَاضِيًا فِي الْأُمُورِ لَكِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ النَّبَأَ نَبَا، ثُمَّ اتَّفَقَتِ حَادِثَةُ الرَّاشِدِ فَحَمَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَرْكِ خِدْمَتِهِ وَالْعَصْمِ مِنْ وَاقِعَتِهِ، فَإِنَّ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ حَلَفَ أَنْ لَا يَخْدَمَ بَعْدَ الْعَزِيْزِ

سُلْطَانًا وَلَا يَتَوَلَّى دِيوَانًا، فَوَفَى بِيَمِينِهِ مُدَّةَ عُمُرِهِ، وَعَاشَ بَعْدَ أَحْيِهِ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً مُقْبَلًا فِي أَمْرِهِ، وَدُفِنَ الرَّاشِدُ فِي مَدِينَةِ جَنِي وَأَفْرَدَتْ لَهُ تُرْبَةً فِي جَامِعِهَا، وَصَارَ إِلَى الْيَوْمِ مَوْضِعُ قَبْرِهِ مِنْ أَشْرَفِ مَوَاضِعِهَا، وَحِينَئِذٍ تَفَرَّقَ شَمْلُ تِلْكَ الْعَسَاكِرِ، وَعَادَتْ مَوَارِدُهَا وَيَبَّةَ الْمَصَادِرِ، وَتَوَاتَلَتْ رَدِيَّةُ الْأَوَاخِرِ، وَرَحَلَ دَاوُدُ وَأَخَذَ طَرِيقَ الرَّيِّ وَسَارَ مَعَهُ وَالِدِي وَاسْتَصْحَبَنِي وَأَبَا بَكْرٍ أَحْيَى، وَخَلَانَا بِقَاشَانَ عِنْدَ غُلَامٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ الرَّكِي، وَأَقَمْنَا بِهَا سَنَةً تَتَرَدَّدُ إِلَى الْمَكْتَبِ فِي الْمَدْرَسَةِ الْمَجْدِيَّةِ، وَنَشْتَغَلُ بِالْقُرْآنِ وَالْكَتَبِ الْأَدَبِيَّةِ، وَعَدْنَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْفَهَانَ وَكِلَانَا لَمْ يَبْلُغْ قَمَرُهُ فِي الْإِبْدَارِ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَنْ سُنَنِ الْأَخْيَارِ، وَالْوَالِدُ قَدْ سَارَ فِي لَيْلِ الْإِسْفَارِ فِي طَلَبِ الْأَسْفَارِ، خَائِفٌ مِنَ الْأَخْطَارِ، مُخَاطِرٌ بِقَطْعِ مَسَافَاتِ الْمَخَافَاتِ مُسْتَدْرِكٌ طَلَبَ مَا فَاتَ بِالْآفَاتِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ أَقَارِبِ الْوَزِيرِ الدَّرَكُزْنِيِّ فَلَمْ يَرُجْ مِنْهُ خَيْرًا وَلَمْ يَسْتَبْرِكْ لَهُ طَيْرًا، عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْوَزَرَاءِ الْعَجْزَةِ الْأَوْطِيَاءِ وَالْحَمَلَةِ الْأَغْيَاءِ.

قَالَ أَبُو شُرَوَانَ الْوَزِيرُ: مَا لَبَّثَ فِي الْوِزَارَةِ وَكَانَ مَعَهُدُ الْمُلْكِ فِيهِ غَيْرَ مُسْتَسْتَبِ الْعِمَارَةِ لَا لِتَقْصِي فِيهِ بَلْ لِتَغْيِيرِ الْقَوَاعِدِ وَتَكْدِيرِ الْمَوَارِدِ، وَتَجْنِيدِ الْأَطْمَاعِ وَطَمْعِ الْأَجْنَادِ، وَتَمَرُّدِ ذَوِي الْإِبَاءِ وَتَأْيِبِ الْمُرَادِ، فَعُزِّلَ وَاعْتَزَلَ، وَمَا انْتَقَلَ عَنْ دَارِهِ حَتَّى تَحَوَّلَ إِلَى جَوَارِ رَبِّهِ وَانْتَقَلَ.

### وزارة عماد الدين أبي البركات الدرگزيني

وجلس للوزارة عماد الدين أبو البركات الدرگزيني كان نسيباً للقوام الدرگزيني من جهة أخواله، وقد حسنت في أيام دولته حوالي أحواله، ورثته أيام وزارته المحمودية عارضاً للجيش وأحمد شيم عارض العيش، وبقي مستمراً في منصبه، مستقيماً في الوطأة على مذهبه، وهو الذي يقول فيه القاضي أبو بكر الأرجاني من قصيدة<sup>(1)</sup>: [مجزوء البسيط]

دَامَ عَالَاءُ الْعِمَادِ فَهُوَ رَجَاءُ الْعِمَادِ  
دَامَ لَنَا طَالِعاً فَهُوَ ضِيَاءُ السِّبْلَادِ

(1) ديوان الأرجاني 2 / 402 - 411، خريدة القصر / قسم بلاد العجم 3 / 236 - 237، والقصيدة في مدح عماد الدين أبي البركات عبد الواحد بن عبدالعزيز الدرگزيني، وكان عارضاً للجيش في وزارة نسيبه أبي القاسم الدرگزيني زمن السلطان مسعود بن محمد.

وَعَارِضٌ كَقَمُهُ  
 بُرُوقُهُ لَلْمَدَى  
 وَسَيْلُهُ سَيْبُهُ اللَّامِ [م]  
 لَهُ يَسْدُكُمْ يَزَلُ  
 أَقْلَامُهُ دُونَهَا  
 وَالسُّمُرُ مَحْمُولَةٌ  
 تُصْبِحُ مِنْ خُوفِهِ  
 عِيُونَُ حُسَّادِهِ  
 كَأَنَّ أَجْفَانَهُمْ  
 فِي السَّلْمِ وَفِي الْقُرَى  
 دُونِكَ سَيِّارَةٌ  
 غَرَاءُ أَبْيَانُهَا  
 يَمْبِقُ مِنْ نَشْرِهَا  
 أَسْمَارُ أَشْمَارِنَا  
 فَاغْضِبْ لَهَا عَضْبَةَ  
 وَمَا لِسَيْفِ الْعُلَى

وَلَمَّا رَأَى السُّلْطَانُ مَسْعُودُ فِي عُفْوَانِ دَوْلَتِهِ وَرَبْعَانِ سَلْطَنَتِهِ الْخَلْلَ حَالًا وَالْحَالَ  
 مُخْتَلَّةً، وَالْعِلْلَ بَادِيَةً وَالْمَبَادِيَّ مُعْتَلَّةً، وَاسْتَعْجَزَ أَنْوَشِرَوَانُ لِلْبَيْنِ أَخْلَاقِهِ، وَقَرَّبَ قَمِرَ  
 عُمَرُو مِنْ مَحَاقِهِ وَيُنْسِ أَوْرَاقِهِ، فَرَأَى صَرْفَهُ بِاحْتِرَامٍ وَعَزْلَهُ بِإِكْرَامٍ، وَظَنَّ أَنَّهُ أَوْلَى  
 دَرَكِزِنِيًّا إِحْيَاءَ رَسُومِ الْاِقْتِدَارِ وَسَطَا سَطْوَةِ الْجَبَّارِ، وَخَصَّ الْمَرَادَ مِنَ الْأَمْرَاءِ بِالذَّمَارِ،  
 فَوَلَّى الْعِمَادَ فَمَا رَفَعَ عِمَادًا، وَلَا عَرَفَ سَدَادًا، وَلَا مَشَى إِلَّا عَلَى طَرِيقِ السَّلَامَةِ، وَقَنَّعَ  
 بِالذَّسْتِ وَالْمَلَامَةِ، وَكَانَ فِي مَنَصَبِ الْاِسْتِيْفَاءِ حِينَئِذٍ كَمَالُ الدِّينِ ثَابِتُ الْقَمِيِّ النَّائِبِ  
 الْكَامِلِ الْحَازِمِ الْبَاسِلِ وَالْقَرْمُ الْبَازِلِ، وَكَانَ فِي زَمَنِ عَمِي مِنْ ثَوَابِ دِيَوَانِهِ وَصَنَائِعِ  
 إِحْسَانِهِ، فَاحْتِيجُ بَعْدَ عَدَمِ أَكْفَانِهِ إِلَى كِفَايَتِهِ وَتَحْلَى الْمَنَصَبُ بِوَلَايَتِهِ، وَكَانَ سَهْمًا  
 نَافِذًا وَسَهْمًا نَاقِذًا، حَيَّ الرَّأْيِ صَابِئًا، حَيَّا الرَّيِّ صَيِّبًا، فَأَنَسَ السُّلْطَانُ بِرَوَائِهِ، وَرَكَنَ  
 إِلَى آرَائِهِ، وَاسْتَضَاءَ بِذَكَائِهِ، وَاسْتَصَافَ بِذَكَائِهِ، وَاسْتَعْفَى عَنِ وَرَائِهِ، وَاسْتَعْلَى بِهِ

على أمرائه، وَغَنِيَّ بَعْنَانِهِ، وَمَضَى بِمَضَائِهِ، وَاسْتَعْلَى السُّلْطَانَ بِإِطْرَابِهِ وَإِتْرَابِهِ، وَحَلَا  
الْكَمَالَ بِأَرَائِهِ وَأَرَابِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ الْأَرْجَانِيُّ قَصِيدَةً تَائِيَةً<sup>(1)</sup>:

[الكمال]

إِذْ أَنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لِقَاءَكَ فَايْتِي  
بِهَجْرٍ فَتَى لِلْعَيْشِ دُونَكَ مَا قَبِتِ  
بِلا ضَارِبٍ مِيعَادٍ وَصَلِّ وَوَأَقِيتِ  
فَنَحْنُ كَتَفْلِيحِ الشُّغُورِ الشُّتَائِتِ  
أَشَاهِدَ مِثْلِي مِنْ جَلِيسِ مُبَايِتِ  
وَيَنْسَلُ فِي الصَّبْحِ انْسِلَالِ الْمُفَالِتِ  
عَلَى الْأَرْضِ مِنْ حَزْنٍ وَعَنْ فَمِ سَاكِتِ  
إِلَيْنَا وَلِلْأَجْيَادِ غَيْرُ لَوَافِتِ  
وَأَلْقَيْنَ أَطْرَافَ الْحِبَالِ الْبِنَائِتِ  
أَطْلَلْ دَمَاءَ يَوْمِ الرَّحِيلِ الْمُبَاغِتِ  
كَمَا بِيَّ مِنْ خَوْفِي لِوَأَشِ مُخَافِتِ  
عَلَى مَا دَرَوْا مِنْ حَسَنَةِ الْمُتَفَاوِتِ  
لَهُ الطَّبْعُ أَوْ مِنْ صَخْرٍ قَلْبِكَ نَاجِتِ  
وَقَدْ عَزَّنَا قَدَمًا أَعَزُّ الْمَنَابِتِ  
هُمُ مَعْشَرٌ بِيضُ الْوُجُوهِ مَصَالِتِ  
سُمُوا عَلَى جِذْمِ الْأَصُولِ نَوَابِتِ  
وَأَمَوَاتُهُمْ يُحْيَوْنَ وَلَدَ الْمُقَالِتِ  
عَدَا فِي الْوَرَى يَقْضِي حَشَاشَةَ مَائِتِ  
بِأَيْدٍ لِأَعْنَاقِ الْبَغَاةِ رَوَافِتِ

حَيَّاكَ مِنْ غُصْنٍ بَدْمَعِي نَابِتِ  
أَفِي الْعَدَلِ أَنْ تُغْرَى لَطَاعَةَ كَاشِحِ  
كَفَى حَزَنًا أَنَا تَنْزِيلًا مَحَلَّةِ  
بَعِيدٌ عَلَى قُرْبِ الْمَكَانِ التَّقَاوُنَا  
سَلَّ النَجْمَ عَنِّي فِي رَفِيعِ سَمَائِهِ  
أَسَاهَرُهُ حَتَّى تَكَلَّ لِحَاظُهُ  
حَسَرْتُ إِلَى الْعُدَالِ عَنْ يَدِ نَاكِتِ  
وَسَرُّ ظَبَاءِ بِالْعَيْونِ شَوَاحِصِ  
خَلَصَ عِدَاةَ الْبَيْنِ مِنْ شَبَكِ الْهَوَى  
قَلِيلُهُ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ مُحَبِّهِمْ  
أَلْسَمَاءَ مَا بِيَّ مِنْ عَيْبٍ مُحَارِبِ  
وَمَا يَنْظُمُ الشُّعْرَ الْبَدِيعِ مِنَ الْوَرَى  
سَوَى شَاعِرٍ مِنْ بَحْرِ عَيْنِي غَارِفِ  
أَخَا الْأَزْدِ مَا فِي الْخَطْبِ عَنكَ تَفَرَّدِ  
أَمَا نَحْنُ مِنْ أَمْلَاكِ عَمْرٍو بْنِ عَامِرِ  
فَرُوعَ سَمَتٍ مِنْ جِذْمِ نَبْتِ بْنِ مَالِكِ  
فَأَحْيَاؤُهُمْ يُفْنُونَ طَاعَتَهُ الْعَدَى  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ إِنْ لَمْ تُثَرِّ لَهُ  
فِيَا عَطْفَةَ الْأَنْصَارِ عَوْدُ كِبَدَاةِ

وَالْقَصِيدَةُ طَوِيلَةٌ وَمَخْلُصُهَا:

إِذَا ذُكِرَتْ مِنْهُمْ كِرَامُ النَّحَائِثِ  
يُجَلُّلُ وَجْهَ الْأَرْضِ وَرُقُ الْفَوَاحِثِ  
إِذَا مَا سَمَا إِنْ لَمْ يَكُنْ كَفَّ ثَابِتِ

فَلِلَّهِ أَخْوَانٌ تَقَطَّعَ مُهَجَّتِي  
سَقَى عَهْدَهُمْ غَيْثٌ تَقْوَلُ إِذَا بَدَا  
مَعْلَمَةُ الْأَمْطَارِ عَيْنِي عَلَى الثَّرَى

وَمِنْهَا:

أَبْرَّ عَلَى سَيْفِ الْكَمِيِّ الْمُصَالِتِ  
بِوَاحِدَةٍ أَوْ حَاسِبًا غَيْرَ غَالِتِ  
وَمِنْ مَالٍ مُسْتَرَعِنِهِ لَيْسَ بِأَلْتِ

لَهُ قَلَمٌ إِنْ هَمَزَهُ فِي كِتَابَةِ  
مَدَى الدَّهْرِ يَجْرِي كَاتِبًا غَيْرَ غَالِطِ  
لِمَنْعِ الَّذِي يَحْوِيهِ لَيْسَ بِأَلْتِ

وهذا ثابتٌ كان من دُهَاهِ الرِّجَالِ وَكُفَاةِ الْأَعْمَالِ، مُتَهَوِّرًا غَيْرَ مُتَوَرِّهٍ، وَمُتَسَنِّيًا غَيْرَ مُتَسَنِّهٍ، وَيَمْشُورِيهِ شَيْدَتِ الْقَوَاعِدُ، وَسُدَّتِ الْمَعَاقِدُ، وَوَلِيَ الْمُقْتَفِي، وَخُلِعَ الرَّاشِدُ، فَأَمَّا السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ فَإِنَّهُ بَعْدَ خُرُوجِ الرَّاشِدِ مِنْ مَقَرِّ تَوَارِثِ الرَّسَالَةِ وَمَقَامِ الْخِلَافَةِ وَالْجَلَالَةِ اسْتَشَارَ الْوَزِيرَ شُرْفَ الدِّينِ عَلِيَّ بْنَ طَرَادِ الزَّيْنَبِيِّ، وَكَانَ قَدْ اعْتَقَلَهُ بَعْدَ اعْتِقَالِ الْمُسْتَرَشِدِ ثُمَّ أَلْفَقَهُ، وَاسْتَحْضَرَهُ وَاسْتَوْفَقَهُ وَاسْتَطَابَهُ فَاسْتَصَحَبَهُ، وَقِيلَ إِنَّهُ خَاطَبَهُ عَلَى أَنْ يَخْطُبَ لَهُ فَأَشَارَ بِخَيْرِ الْخِلَافَةِ وَالْخِلَاطِ الْمَوْفِقِ الْمُوَافِقِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُسْتَظْهِرِ قُبُوعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَخَمِيسَاءَةَ، وَنُعِتَ بِالْمُقْتَفِي لِأَمْرِ اللَّهِ، وَوَزَّرَ لَهُ شُرْفَ الدِّينِ الزَّيْنَبِيُّ، وَخَطَبَ لَهُ الْمَشْرِقِيُّ وَالْمَغْرِبِيُّ، وَأَجْمَعَ الْأَنَامُ عَلَى بَيْعَتِهِ، وَاجْتَمَعَتِ الْأُمَمُ الظَّالِمَةُ عَلَى شِرْعَتِهِ، وَرَضِيَتِ الْأُمَّةُ بِإِمَامِيَّتِهِ، وَلَمْ يَجِرْ خُلْفٌ مِنْ خِلَافَتِهِ، وَعَادَ الْبِهَاءُ وَوَلَّاحَ الرَّجَاءُ وَرَجَعَ الرَّوْتُقُ وَطَلَعَ الْفَلْتُقُ، وَفَاضَ الْمَشْرِعُ وَاسْتَفَاضَ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، وَدَرَّ الْإِسْلَامُ بِدَارِ السَّلَامِ، وَأَضَاءَ تَحْتَ الْمِظْلَةِ السُّودَاءِ بَدْرُ الظَّلَامِ، وَأَوْمَأَتِ بِالْإِشَارَةِ بِهِ وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهِ أَنْامُ الْأَنَامِ، وَظَهَرَ الشَّرْعُ وَخَفِيَ الشَّرُّ، وَسَكَرَ الْعَامُّ وَعَمَّ الشُّكْرُ، وَنُصِرَ الْحَقُّ وَحَقَّقَ النُّصْرُ، وَنُشِرَ الطِّيبُ وَطَابَ النَّشْرُ، وَغَاضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَاسْتَوَتْ سَفِينَةُ السَّكِينَةِ عَلَى جُودِي الْجُودِ، وَعَدَمَ طُوفَانُ الْفِتَنِ مِنَ الْوُجُودِ، وَاعْتَدَلَ زَمَانُ الْعَدْلِ، وَفَضَلَ الْأَعْصَارُ عَصْرَ الْفَضْلِ، وَكَرَّ السُّلْطَانُ رَاجِعًا إِلَى الْجَبَلِ، وَإِثْقًا بِحُصُولِ الْأَمَلِ، مُغْتَبِطًا بِالْجِدِّ، مُرْتَبِطًا بِالسَّعْدِ، مُعْتَدًّا بِأَنَّ الْوَرْدَ عَدَبَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ ضِدٌّ، وَلَا فِي النَّادِي نَدٌّ، وَأَنْتَهَى إِلَيْهِ أَنَّ أَتَابِكَ مَنُكُوبِرْسَ لِلخُرُوجِ عَلَيْهِ مُسْتَعِجِدًّا، وَإِنَّهُ مُسْتَعِجِدٌّ وَمُسْتَنْجِدٌّ، وَلِمُجَاوِرِيهِ مُسْتَجِدٌّ، وَلِعُدَّةِ الْحَرْبِ مُسْتَجِدٌّ، فَأَنْهَضَ أَتَابِكَ

قراستقر إلى أصفهان ليكون على طريق دَفْعِهِ، وَقَوَاهُ بِالْأَمْرَاءِ الْوَافِينَ بِالْمَنْعَةِ لِيُوفُوا بِقُوَّةِ مَنْعِهِ، فَبَارُوهُ وَمَعَهُ يَرْتَقِشُ الْبَازِدَارَ وَجَاوِلِي الْأَجَانِدَارِ وَسَتَقِرُ صَاحِبُ زَنْجَانٍ، وَهُمْ الْعِظَمَاءُ الْكِبَارُ وَأَصْحَابُ الْأَلُوفِ وَأَلْفِ الْخُتُوفِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ قَرِيبُ الْمُلُوكِ وَمُقَارِعُهَا، وَمُعَارِضُ السَّلَاطِينِ وَمُضَارِعُهَا، وَهُمْ أَعْضَادُ الدَّوْلَةِ وَأَرْكَانُهَا، وَمُلَاكٌ مَسْكِنِ الْمَمْلَكَةِ وَسُكَّانُهَا، وَأَنْصَمَ إِلَيْهِمْ مَنْ دُونَهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ مِنْ ذَوِي الْمُدُنِ الْكُبْرَاءِ، فَتَهَضُّوا فِي مَجَرِ شَاكٍ وَجَمْرِ ذَاكٍ، وَجَيْشٍ مُحِيطٍ وَجَاشٍ رَيْبُطٍ، وَلُيُوثٍ حَرَبٍ وَغُيُوثٍ حِصْبٍ، وَحُمَاةٍ حِمَامٍ وَرُمَاةٍ سِهَامٍ لَا سِهَامٍ، وَذُبَابٍ ذِبَابٍ وَأَجَوَادٍ عَلَى حِيَادٍ، وَنِيرَانٍ صَالِيَةٍ وَسِيدَانٍ ضَارِيَةٍ، وَعَجَمٌ مِنَ التُّرْكِ غُثْمٌ يَبُوءُ مَنْ يَلْقَاهُمْ بِكُلِّ يَتِيمٍ، وَهُمْ كَمَا قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ الْغَزِّيُّ فِيهِمْ<sup>(1)</sup>: [الْبَسِيطُ]

قَوْمٌ إِذَا قُوِيلُوا كَانُوا مَلَانِكَةً  
بِدَارِ قَارُونَ لَوْمَرُوا عَلَى عَجَلٍ  
مُدَّتْ إِلَى النَّهْبِ أَيْدِيهِمْ وَأَعْيُنُهُمْ  
فِي قَصِيدَةِ أَوْلَاهَا:

أَمَطَ عَنِ السُّدْرِ الزُّهْرَ الْيَوَاقِيْتَا      وَاجْمَلَ لِحَجِّ تَلَاقِيْنَا مَوَاقِيْتَا  
وَوَصَلُوا إِلَى أَصْفَهَانَ وَأَحْلَوْهَا مِنَ الْفِتَنِ النَّيْرَانِ، وَثَارُوا بِكُلِّ جَارِحٍ ضَارٍ وَمُجْتَرِحٍ ضَارٍ،  
وَوَسَّوِرِ قَاسِرٍ وَصَيْغَمِ ضَاغِمٍ، وَأَفْبَحِ كَاسِرٍ وَأَفْدَحِ غَاشِمٍ، وَكَانَ الْفَحْطُ فِي الْإِبْتِدَاءِ وَكَانُوا  
سَبَبَ الْوَبَاءِ وَالْغَلَاءِ، وَزَادُوا الْبَلَادَ بِالْبَلَاءِ، وَأَكَلُوا مَا وَجَدُوهُ مِنَ الرُّطْبِ وَالْيَابِسِ، وَالْحَقُّوا  
الْغَنَى بِالْفَقِيرِ الْبَائِسِ، وَأَنَا أَذْكَرُ وَقَدْ وَصَلَ قِرَاسْتَقِرَ وَوَزِيرُهُ عَزُّ الْمُلْكِ أَبُو الْعِزِّ الْبُرُوجَرْدِيُّ  
فَأَرَدَى الْخَلْقَ خَلْقَهُ، وَكَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِينَ اسْتَبَعَهُمْ فِي عَصْرِهِ الْوَزِيرُ الدَّرَكَزْنِيُّ  
فَقَبَّضَ بَقَايَا أَمْلَاكِنَا الَّتِي أَسَارَتْهَا الْمُضَادَرَاتُ، وَعَهَدَ إِلَى شَمْلِ جَمَاعَتِنَا لِيَشْرَعَ فِيهِ الشَّنَاتُ،  
وَأَقَامُوا تِلْكَ الشَّنَوَةَ فِي تَشْتِيَةِ الْمُقِيمِينَ، وَتَبْتِيَةِ حَبْلِ الْخَيْرِ الْمَتِينَ، لِئَامَا مُلْتَمَتِينَ وَذِنَابًا  
كَالسَّرَاحِينِ، عَبَّتْ بِالسَّرْحِ وَنَكَتْ الْقَرْحَ بِالْقَرْحِ، فَأَوْقَدُوا خَشَبَ الْبُيُوتِ، وَأَهْلَكُوا الْحَرثَ  
وَالنَّسْلَ فَأَعْدَمُوا مَادَّتِي الْقُوْتِ، وَأَيَقْظُوا أَعْيْنَ الْأَسْحَارِ لِإِرْسَالِ سِهَامِ الدُّعَاءِ، وَتَصَاعَدَتْ  
حُرْقُ أَنْفَاسِ الْمُتَطَلِّمِينَ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْطَقَتْ الْأَلْسُنُ بِيَارِبِ يَارِبِ، وَرُفِعَتْ فِيهِمْ إِلَى مَالِكِ  
الْمَلِكِ قِصَصُ الْكَرْبِ، وَأَقْلَعُ كُلُّ مُذْنَبٍ عَنِ الذَّنْبِ، وَضَاقَ الْبَلْدُ بِأَهْلِهِ، وَتَفَاقَمَ الْمَحْلُ

(1) ديوان الغزي (تحقيق: عبدالرزاق إبراهيم، دبي، 2008 م) 450-455.

فِي مَجَلِّهِ، وَتَبَتُوا شُهُوراً شَاهِرِينَ لِلوُثِيَةِ سِلَاحِهِمْ، جَائِرِينَ عَلَى الْأُمَّةِ غُدُوهُمْ وَرَوَاحِهِمْ،  
 فَلَمَّا نَصَرَ الرُّوْضُ وَاحْضَرَّتْ الْأَرْضُ، وَاهْتَزَّتْ التُّبْتُ وَاعْتَزَّتْ الْوَقْتُ، وَرَبَّى الرَّبِيعُ رَبَابَهُ، وَنَشَرَ  
 الرَّهْمُ ذَوَائِبَهُ، وَجَلَّتْ الرِّيَاضُ عَنْ عَرَائِيسِهَا، وَدَبَّجَتِ الْأَنْوَاءُ مِنَ الْأَنْوَارِ مَلَاسِهَا، وَأَبْرَزَ  
 النُّورُ نُورَهُ، وَدَارَ الزَّمَانُ كَهَيْئَتِهِ دَوْرَهُ، وَأَبْعَدَ الشِّتَاءُ جَوْرَهُ، وَقَرَّبَ الصِّيفُ زَوْرَهُ، صَحَّ  
 الْخَبْرُ بِأَنَّ أَتَابِكَ مَنكُوبِرْسَ جَدًّا عَنْ فَارِسٍ لِيَجِدَّ الْفَرَسَ، وَأَنَّهُ فِي سَبِيلِ عَارِمٍ وَحَبْلِ غَارِمٍ  
 وَلَيْلِ عَائِمٍ، وَخَضَمِ مَائِحٍ وَبَحْرِ هَائِحٍ، وَعَجَاجِ نَائِرٍ وَضَجَاجِ سَائِرٍ، فَعَرَفَ قِرَاسِقِرَ وَالْأَمْرَاءُ  
 أَنَّهُمْ لَا يَكْفُونَ وَلَا يَكْفُونَ، وَأَنَّهُمْ لَا يَشْتَفُونَ مِنْهُ وَلَا يُشْفُونَ، فَسَارُوا إِلَى هَمْدَانَ وَلَحَقُوا  
 بِالسُّلْطَانِ وَجَاءَ مَنكُوبِرْسُ إِلَى أَصْفَهَانَ فَخَلَفَهُمْ فِي الظُّلْمِ وَالْإِظْلَامِ وَالْإِيلَامِ وَالْإِعْدَامِ  
 وَالنَّهْبِ وَالسَّلْبِ، وَجَذِبَ الْعُمَادَ وَالْجَدْبَ، وَأَنَاحَ عَلَى بَلَدِنَا تَبْرُكَ الْكَرْبِ، وَرَعَى الْغِيَالِ  
 قَبْلَ إِدْرَاكِهَا، وَأَعَجَلَ الْأَرْمَاقَ عَنْ امْتِسَاكِهَا، وَأَقَامَ مُدَّةً وَلَقِيَ النَّاسَ مِنْهُ وَمِنْ جُمُوعِهِ شِدَّةً،  
 وَرَحَلَ وَالْأَمْنِيَّةُ تَشَوُّفُهُ وَالْمَنِيَّةُ تَسَوُّفُهُ، وَالْقَضَاءُ يَحْتَهُ وَالْقَدْرُ يَحْضُهُ، وَالْأَمَلُ يُغِيظُهُ وَالْأَجَلُ  
 يَغْضُهُ، وَهُوَ فِي أَوْفَرِ عِدَّةٍ وَأَوْفَى عُدَّةٍ، وَأَكْثَرَ مَنَعَةٍ وَأَمْتَعَ كَثْرَةَ، وَأَشْهَرَ جَمَالٍ وَأَجْمَلَ شُهْرَةَ،  
 قَدْ اسْتَدْعَى كُلَّ آلِيهِ وَاسْتَعَدَّ غَيْرَ آلِيهِ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ وَمَعَ صَحْبِهِ كُلَّ نَاطِقٍ وَصَامِتٍ، وَقَادَ  
 الْجِيَادَ وَاسْتَجَادَ الْقَوَادَ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنَ السُّلْطَانِ مَسْعُودٍ تَحَاجَزَ الْعَسْكَرَانِ، وَبَاتَا عَلَى لِقَاءِ  
 مَوْعُودٍ، وَالتَّقْيَا بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِكُورِشِنَبِهٍ وَصَدَقَا الْوَيْبَةَ، وَكَانَتِ الدَّبْرَةُ فِي الْأَوَّلِ عَلَى  
 عَسْكَرِ فَارِسٍ، وَأَصْبَحَ قَوَارِشُهُ فَرَانِسَ، وَأَسْرَ مَنكُوبِرْسَ وَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِقَتْلِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ  
 شُجَاعاً كَرِيماً فَاسْفَتَ الْقُلُوبَ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ بوزَابَةَ مِنْ أَعْظَمِ أَصْحَابِهِ وَأَفْخَمِ أَضْرَابِهِ  
 فَلَمَّا رَأَى الْعَزِيمَةَ أَجَلَّتْ عَنْ الْهَزِيمَةَ، قَالَ إِذَا سَلِمْنَا فَقَدْ أَبْنَا بِالْغَنِيمَةِ، وَحَسَبَ أَنَّ مَنكُوبِرْسَ  
 نَاجٍ، وَلَمْ يَدِرْ أَنَّ بَغِيَةَ لَهُ مُفَاجِئٌ، فَلَمَّا نُعِيَ إِلَيْهِ صَاحِبُهُ ضَاقَتْ بِهِ مَذَاهِبُهُ، وَأظْلَمَتِ الدُّنْيَا فِي  
 عَيْنِهِ وَاحْتَالَ لِحُلُولِ حَيْنِهِ وَحَلَفَ أَنَّهُ لَا يَبْرُحُ حَتَّى يَأْخُذَ بِنَارِهِ وَيَسْتَقِيلَ مِنْ عَثَارِهِ، فَعَطَفَ  
 عَلَى عَسْكَرِ السُّلْطَانِ مَسْعُودٍ وَقَدْ أَمِنَ، وَوَفَى لَهُ النُّصْرُ بِمَا ضَمِنَ، وَالْمَضَارِبُ قَدْ شِيَمَتِ  
 وَالْمَضَارِبُ قَدْ أَقِيمَتِ، وَأَوْرَازُ الْحَرْبِ قَدْ وُضِعَتِ، وَأَطْبَاءُ الْأَنْسِ قَدْ رُضِعَتِ، وَالذُّهْمَاءُ قَدْ  
 سَكَنَتِ وَالذُّهْمُ وَالشُّهْبُ قَدْ صَفَّتَتْ، وَالسَّوَابِقُ قَدْ أُرْنِحَتْ وَالسَّرَابِغُ قَدْ أُزْنِحَتْ، وَالْحَفُونَ  
 قَدْ عَاوَدَتْ غِرَازَهَا، وَالْقُلُوبُ قَدْ وَاغَدَتْ قَرَارَهَا، وَالْقُدُورُ قَدْ غُرِفَتْ وَالْأَقْدَارُ قَدْ عُرِفَتْ،  
 وَالْمَوَائِدُ قَدْ نُظِّمَتْ وَالْفَوَائِدُ قَدْ اغْتَنِمَتْ، وَالْأَوْتَارُ قَدْ أَطْرَبَتْ وَالْأَوْطَارُ قَدْ أَعْرَبَتْ، وَالسَّقَاةُ  
 قَدْ أَدَارَتْ وَالْمَجَالِسُ قَدْ أَنَارَتْ، وَالْكُؤُوسُ قَدْ نُعُوطِيَتْ، وَالْبَوَاطِي قَدْ اسْتَبْطِئَتْ، وَالرَّاوِوِيُّ

قَدْ وَشَى، وَالصَّاحِي قَدْ انْتَشَى، وَهُمْ فِي أَغْفَلٍ حَالَةٍ وَأَحْلَى عَفْلَةٍ، وَالْهَى عَلَّةٌ وَالْهَجَّ نَهْلَةٌ،  
 إِذْ هَجَمَهُمْ بُوْزَابَةٌ فَسَاءَهُمْ وَهُمْ سَارُونَ، وَأَغَارَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ غَارُونَ، وَاسْتَخْرَجَ كُلُّ أَمِيرٍ مِنْ  
 مَضْرِبِهِ، وَسَدَّ عَلَى كُلِّ كَبِيرٍ طَرِيقَ مَهْرِبِهِ، وَرَكِبَ السُّلْطَانُ مَسْعُودًا قَابِلِيَّ بِنَفْسِهِ بِلَاءً أَحْسَنًا،  
 وَلَمْ يَتْرِكْ فِي الدِّفَاعِ عَنِ مَهْجَتِهِ مُمَكِّنًا، ثُمَّ وَلَّى وَمَعَهُ قِرَاسَنْقَرُ هَزِيمًا، تَشْلُهُ الرِّمَاحُ هَشِيمًا  
 تَذْرُوهُ الرِّيحُ، وَحَصَلَ فِي قَبْضَةِ بُوْزَابَةِ إِثْنَا عَشَرَ أَمِيرًا بَعْدَدِ بَرُوجِ السَّمَاءِ وَسِنَّةِ أَقْمَارِهَا،  
 وَيَحْسِنُ الرِّيَاضِ وَنُصْرَةَ أَزْهَارِهَا، مِنْهُمْ صَدَقَةُ بْنُ دُبَيْسٍ بْنِ صَدَقَةَ الْمَزِيدِيِّ وَالْأَمِيرُ عَتْرُ  
 الْجَاوَانِي وَالْأَمِيرُ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ أَرْغَانُ وَأَنَابِكُ سَنْقَرُ صَاحِبُ زَنْجَانٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ قِرَاسَنْقَرِ  
 وَعِدَّةٌ أُخْرَى عَنْ ذِكْرِهِمْ أَصْغَرُ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ قَدَّمَهُ وَأَرَأَى دَمَهُ، وَشَفَى وَقَرَهُ وَوَفَى نَذْرَهُ. وَفِي  
 عَتْرِ بْنِ أَبِي الْعَسْكَرِ الْجَاوَانِيِّ يَقُولُ حَيْصُ بَيْصٍ<sup>(1)</sup>: [الطويل]

إِذَا مَا اشْتَكَّتْ بِيضُ السُّيُوفِ ظَمَاءَهَا  
 وَلَمْ أَرِدِ الْعَبْسِيَّ لَكِنْ سَمِيَهُ  
 فَإِنِ فَمَّخَرْتَ عَبَسَ بِفَارِسٍ رَوْعَهَا  
 فَتَى هُوَ لِلْعَمَافِيِّ مِنَ الْجَوْدِ مَوْرِدُ  
 وَفِيهِ يَقُولُ<sup>(2)</sup>: [الطويل]

وَأَنِّي وَإِنِ أَمَسَيْتُ سَيْدَ دَارِمٍ  
 لَمُتُّنَ عَلَى الْجَاوَانِ مِنْ أَجْلِ عَتْرِ  
 فَتَى الْحَيِّ أَمَّا عُدْرُهُ فَهُوَ صَبِيحُ  
 مَرِيرِ الْقَوَى نَبَطَتْ حَمَائِلُ سَيْفِهِ

وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ، ثُمَّ قَفَلَ بُوْزَابَةُ إِلَى فَارِسٍ وَاسْتَوَلَى عَلَى مَمْلَكِيهَا  
 وَاسْتَقَرَّ فِي وِلَايَتِهَا، وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى سَرِيرِهِ، مُسَلِّمًا لِقَضَاءِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ، وَهُوَ الْغَالِبُ  
 الْمَغْلُوبُ وَالْحَارِبُ الْمَحْرُوبُ، وَالسَّالِبُ الْمَسْلُوبُ وَالنَّاهِبُ الْمَنْهُوبُ، وَقَدْ قُطِعَتْ  
 رُؤُوسُ صَنَائِيهِ وَكَسَفَتْ شُمُوسُ مَطَالِيهِ، وَقَلِعَتْ غُرُوسُ إِنْعَامِهِ، وَثَلَّتْ غُرُوسُ أَيَامِهِ،  
 وَبُدِّدَتْ عَقُودُ سُلُوكِهِ، وَبَادَتْ سَعُودُ مُلْكِهِ، فَجَلَسَ لِمَا تَمَّ فِي الْمَأْتَمِ، ثُمَّ سَلَا فَعَادَ إِلَى مَا

(1) ديوان حيص بيبص 1 / 320

(2) ديوان حيص بيبص 1 / 292

ثُمَّ مِنْ عَادَةِ الْمَأْتَمِ، وَاتَّخَذَ سِوَاهُمْ نُدْمَاءً وَرَفَعَ غَيْرَهُمْ أُمْرَاءً، وَاسْتَجَدَّ أَحَدَانَا وَاسْتَحَدَّتْ  
 أُخْوَانًا، وَهَذِهِ عَادَةُ الدَّهْرِ الْخَوَانِ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَخْوَانِ، وَيُسْلِي بِالْخِلَانِ عَنِ الْخِلَانِ، وَفِي  
 أَثْنَاءِ هَذِهِ الْفِتْرَةِ وَغِمَارِ هَذِهِ الْعَثْرَةِ كَانَ خُرُوجُ السُّلْطَانِ دَاوُدَ وَمَعَهُ الرَّاشِدُ وَوَصُولُهُمَا إِلَى  
 مُحَاصِرَةِ أَصْفَهَانَ، وَقَدْ مَضَى شَرْحُ ذَلِكَ وَاسْتَوْفِينَا الْبَيَانَ وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ  
 اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَحِينَ قُتِلَ الرَّاشِدُ وَانْعَكَسَتْ عَلَى دَاوُدَ الْمَقَاصِدُ وَتَمَهَّدَتْ  
 لِمَسْعُودِ الْقَوَاعِدِ وَاتَّصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَلِكُ سَلْجُوقَ بَأَخِيهِ السُّلْطَانِ مَسْعُودَ فَأَقَطَعَهُ بِلَادَ  
 سَكْمَانَ مِنْ خِلَاطِ وَأَعْمَالِهَا وَمَنَازِكِرْدَ وَأَرْزِيزَ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ الْأَمِيرَ غَزَّالِي السُّلْحِيَّ  
 مُقَطَّعَ تَبْرِيْزَ، فَقَصَّصَهَا فَاسْتَصَفَاهَا وَاسْتَخْرَجَ أَمْوَالَهَا وَاسْتَوْفَاهَا وَأَوْسَعَهَا سَيِّئًا وَتَخْرِيْبًا،  
 وَسَامَ أَهْلَهَا ظُلْمًا وَتَعْدِيًّا، وَمَا زَالَتِ الدُّوْلَةُ مُضْطْرِبَةً وَالْفِتْنَةُ مُضْطْرِمَةً وَالظُّلْمَاتُ مُدْلَهَمَةً  
 وَالظُّلَامَاتُ مُلِمَّةً، وَأَيْدِي الظُّلْمِ عَائِثَةٌ، وَالسُّنُّ الدِّمَّ عَائِثَةٌ، حَتَّى اسْتَجَدَّ السُّلْطَانُ وَزِيْرًا  
 اسْتَجَادَ لِمَمْلَكَتِهِ تَدْبِيرًا، وَحَكَمَ وَأَحْكَمَ وَأَسْرَجَ وَالْجَمَّ وَنَقَضَ وَأَبْرَمَ وَأَقَامَ الْهَيْبَةَ وَهَابَهُ  
 الْقَوْمَ وَاقْتَنَى الْفَضْلَ وَارْتَفَعَ فِي السُّمُوِّ السُّومَ وَهُوَ:

### الوزير كمال الدين محمد بن علي الخازن من اهل الري

كَانَ مِقْدَامًا جَرِيًّا مَقَامًا سَرِيًّا حَرِيًّا، فَيَاضَ الْفَوَاضِلِ فَضْفَاضَ الْفَضَائِلِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ  
 اسْتَعَجَزَ الْعِمَادَ أَبَا الْبَرَكَاتِ وَوَجَدَهُ فِي تَسْكِينِ الْخُطُوبِ عَدِيمَ الْحَرَكَاتِ فَصَرَفَهُ إِلَى بَيْتِهِ  
 عَلَى أَجْمَلِ وَجْهِ، وَكَزِمَ مَوْضِعُهُ عَلَى رِفْقِ وَرَفْعِهِ، وَلَمْ يَفْلِتْ وَزِيرُهُ كَافِلَاتِهِ، وَكَانَتْ اللَّيَالِي  
 بِالسَّلَامَةِ كَافِلَاتِهِ، وَسَعَلَتْهُ الْعُطْلَةُ بِصَوْمِهِ وَصَلَاتِهِ، وَتَوَلَّى الْوِزَارَةَ مِنْ شَرَفِ الْوَسَادَةِ وَسَادَ  
 الْأَشْرَافِ، وَأَنْطَقَاتُ بِهِ نَائِرَةُ الْعَذَابِ وَعَذَبَتِ النَّطَافِ، وَمَدَحَهُ الْأَمِيرُ ابْنُ الصَّيْفِيِّ الْمَعْرُوفُ  
 بِحَيْصِ بَيْصِ بَقُولِهِ<sup>(1)</sup>: [الكامل]

بَعْدَ التَّجَادُلِ بِالْوِزِيرِ الْفَاضِلِ  
 فِينَا تَعَاطُفُهُ الْكَرِيمِ الْعَادِلِ  
 بَأَعْرَ فُضْفَاضِ الْوِدَادِ حَلَّاحِلِ  
 لَمَّا تَحَلَّى بِالْكَمَالِ الْكَامِلِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَصَرَ الْعُلَى  
 وَأَمَاتَ نَفْسَ الْجَوْرِ لَمَّا أَنْ قُتِلَتْ  
 وَأَضَاءَ لَيْلُ الْحَطِّ بَعْدَ ظِلَامِهِ  
 وَأَعَادَ نَقْصَ الْمَجْدِ فَضْلًا كَامِلًا

حامي دمار الجار قبل صرنيخه  
جبل احتمال أو رياح عزيمة  
مولى مكارمه بغير مسائل  
في يوم أندية ويوم جحافل  
حاز الشناء مجمعا أشنائه  
بالحزم من أفعاله والنائل

وكانت وزارته في أوائل سنة ثلاث وثلاثين ببغداد، وكان في ديوان الاستيفاء كمال الدين ثابت، وفي منصب الإشراف المهذب بن أبي البدر الأصفهاني وفي كتابة الإنشاء ولي الدين المعروف بسياه كاسه، وفي منصب الطغراء مؤيد الدين المرزبان بن عبد الله الأصفهاني، فانشرت الصدور وانتظمت الأمور، وعاد روث الكرام، وعز أرباب الأقاليم، وترتب لرخانة السلطان أموراً لا تحمّل إليها، وجهات توفّر عليها، وأحصى معالم للملك قد دترت، ونظم عقوداً للمصالح قد انتشرت، وأجد السلطان صياغات فضية وذهبية وأظهر في إقامة الحرمه حمية شديدة وهمة آية، فرجاه البريء وخافه السقيم، وخشيه اللثيم وأمله الكرم، ونهر ذوي الجراة، وأجرى أنهار العدل والجود، وردع أهل الفضول، وأظّل ردع الاضال والفضل، وراج الرجاء وأرجت الارجاء، وسما الجود وجادت السماء، وروى الحمد وأحمد الرواء، وهوي العدل واعتدل الهوا، ونصر الملك والنصر، وذكر الطيب وطاب الذكر، وأنشرف العرف وعرف النشرف، وأبتدأ بكسر الجبارين وجبر المنكسرين، وقصر المطاولين والظلول يتهدب المقصرين، وقرّر مع السلطان سراً أن ينوي لقراسنقر شراً، وبذل لقراسنقر في وزيره عز الملك أبي العز البروجردي خمسمائة ألف دينار على أن يسلمه إليه ويسلط عليه يد الأقدار فأعرض عنه، وما قبل البذل منه وبخل بصاحبه لمحض الكرم، وما أسعد من اختار الصاحب على الدنيا والدرهم! فلما آيس من جانبه أخاف السلطان من عواقبه، وقال لا يجمع في غمد سيفان، ولا يظهر لك مع تسلطه القوي قوة السلطان، وقرّر معه استدعاء بوزابة من فارس ليقرسه به، ويجر الخلاف إلى مذهبه، لكنه لم يوضح هذا الرأي فأخدج جنينه، وهزل سمينه ووهي متينه، وتربب حصرمه، وتدليك فروجه وظهره بأجوجه، وعثر عليه فعتّر وترك الاستظهار في كتمانها فظهر، فاستوحش سراً قراسنقر فأضمر الكيد وأعمل الأيد، فاستدعى الملك سلجق ووعده بأن يمضي معه إلى فارس ويستخلصها لأجله، فترع بوزابة بها عن محله، وحمل أيضاً على النهضة معه داود بن محمود وأتابكته إياز، وكان من صنائع قراسنقر ومن يراه بعين الإعزاز، ورحل قراسنقر عن أذربيجان نحو السلطان مسعود إلى همدان ومعه الملكان ومعه من العساكر عشرة آلاف

لِلرُّوعِ أَلَا فِ وَ لِلْبَّاسِ أَحْلَافَ، فَلَمَّا قَرَبَ أَنْفَذَ وَزِيرَهُ عِزَّ الْمُلْكِ أبا العِزِّ إِلَى السُّلْطَانِ رِسُولًا، وَيُحَدِّثُ مَعَهُ وَقَرَّرَ سُؤلاً، وَحَمَلَهُ مِنْهُ وَمِنَ الْمَلِكِيِّينَ وَمِنَ جَمَاعَةِ الْأَمْرَاءِ كُتُبًا مَضمُونُهَا: إِنَّا لَا نَأْمَنُ مِنْ جَانِبِ الْوَزِيرِ الْكِمَالِ وَإِنَّا لَا نَصْبِرُ عَلَى مَا يَدُو مِنْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ فَإِنَّمَا أَنْ تَعِدْمَهُ، وَإِنَّمَا أَنْ تُسَلِّمَهُ، فَإِن دَفَعْتُهُ إِلَيْنَا فَتَحْنُ طَائِعُونَ، وَإِن دَافَعْتَ عَنْهُ فَتَحْنُ عَنْ أَنْفُسِنَا مُدَافِعُونَ، وَاعْلَمْ أَنَّ نَقْصَكَ مِنْ هَذَا الْكِمَالِ، وَأَنَّ مُلْكَكَ إِنْ اسْتَمْسَكَتْ بِهِ عَلَى الزَّوَالِ، فَأَسْلِمَهُ تُسَلِّمُ، وَأَعِدْمَهُ كِي لَا تُعَدِّمَ الْمُلْكَ وَتَنْدَمَ. فَلَمَّا سَمِعَ السُّلْطَانُ مَا قَالُوهُ اسْتَقَالَهُمْ فِيمَا أَقَالُوهُ، فَحَارَ فِي تَدْبِيرِهِ، وَاضْطَرَّ إِلَى تَسْلِيمِ وَزِيرِهِ، وَدَافَعَ عَنْهُ مَا أَمَكَّنَ الدَّفَاعُ، وَضَاقَ وَضَاقَ بِهِ ذَرْعُهُ وَقَصُرَ الْبَاعُ، فَصَارَ يَبْكِي وَفِي عِزِّهِ قَتْلُهُ، وَعِزُّ عَلَيْهِ فِي يَدِهِ ذُلُّهُ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْأَمِيرِ الْحَاجِبِ تَارَ، فَوَقَعَ بِهِ الْبِتَارُ، وَأَسْلَمَهُ مِنْ مَنْصِبِهِ وَنَصَبَهُ لِسَلْبِهِ، وَفُجِعَ الْمُلْكَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ، وَشَفَى عِلَاقَةَ الْقَوْمِ بِعَلْقِهِ، وَحُمِلَ إِلَيْهِمْ رَأْسُهُ، وَقُوِّضَ مِنَ الْمَجِيدِ أَسَاسُهُ، وَذَلِكَ فِي شَوَالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَحَيْثُ نَزِدَ وَصَلَ قِرَاسَنْقَرُ وَمَعَهُ الْمَلِكَانِ سَلْجُوقُ وَدَاوُدُ إِلَى الْخِدْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَحَمَدُوهُ عَلَى تِلْكَ الْهِمَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

### الوزير عز الملك أبا العز البروجردي في وزارة السلطان مسعود

ورتب قِرَاسَنْقَرُ الْوَزِيرَ عِزَّ الْمُلْكَ أبا العز البروجردي في وزارة السلطان مسعود وكان شيخاً ذا بهجة وبهاء ولهجة ورواء، ولم يزل مُدَّ عَهْدِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ مُتَّصِرًا مَعَ أَكْبَارِ الْأَمْرَاءِ لَمْ يُبْطَلْ، وَتَحْلِيًا بِالْوِلَايَةِ لَمْ يَعْطَلْ، وَمَا زَالَ مُتَدَرِّجًا فِي الْوِلَايَاتِ لِلدَّرَجَاتِ حَتَّى بَلَغَ الْوِزَارَةَ، وَوَجَدَ بَعْدَ النَّزَارَةِ الْعِزَّازَةَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي رِيْعَانِ عُمُرِهِ يَخْدُمُ شَاكِرْدَا، وَيَسْتَعِذُّ فِي كُلِّ أَوَانٍ فِي خِدْمَةِ كَبِيرٍ وَرِدَا، وَيَجْنِي مِنَ رِيَاضِ السَّعَادَةِ وَرِدَا، فَتَمَوَّلَ الْأَمْوَالَ وَتَمَلَّكَ الْأَمْلَاقَ، وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ يُجْرِي فِي مُلْكِهِ أَيَّامَ وَزَارَتِهِ أَرْبَعَمِائَةَ قَرِيْبَةً، وَكَانَ ذَا هَيْبَةٍ فِي الْجُرْأَةِ ذَا جِرَّةٍ بِهِ فَكَلَّتِ الْكِمَالُ ثَابِتًا الْمُسْتَوْفِي وَقَبِضَهُ وَأَعْدَمَهُ، وَقِيلَ إِنَّهُ حَنَقَهُ وَأَذْهَبَ بِذَهَابِهِ بِهَجَّةِ الْمُلْكَ وَرَوَيْقِهِ، وَتَوَلَّى مَنْصِبَ الْاسْتِفَاءِ بَعْدَهُ الْمُهَذَّبُ أَبُو طَالِبِ بْنِ أَبِي الْبَدْرِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ الْأَرْجَانِيُّ مِنْ قَصِيدَةٍ ثَابِتِيَّةٍ، أَوْ لَهَا<sup>(1)</sup>: [الكامل]

أَرَاكَةَ الْوَادِي سَقَّتْكَ عُيُوثُ وَنَمَاكِ مَوْلِي السَّلَاحِ رَمِيْتُ

(1) ديوان الارجاني 1 / 260 - 268، القصيدة في مدح مهذب الدين أبي طالب بن أبي البدر

سَارِ تُدَرِّجُهُ أَبَاطِخُ مَيْتُ  
عَنْ سِرِّ أَفْوَهِ الدَّمَى تَنْفِيْتُ  
وَلَيْبَسَمَنَّ مِنَ الشُّغُورِ حَدِيثُ  
وَلِكُلِّ مَلْتَهْفٍ أُتْبِيحُ مَغِيْتُ  
وَالدَّهْرُ فِيهِ حُزُونُهُ وَوُعُوتُ  
يَخْتَالُ أَمْ عَوْدُ بِهِ تَشْعِيْتُ  
أَنْ يُومِضَا إِلَّا وَأَنْتِ مَغِيْتُ  
وَالْحِظُّ بِمَعْجَلِ نَارَةٍ وَتَرِيْتُ  
وَالْعَهْدُ لَوْلَا أَنَّهُ مَنَكُوتُ  
بِالسَّحْرِ فِي عَهْدِ الْقُلُوبِ نَفُوتُ  
فِي مَاءِ عَيْنِي لَو تَلَيْنُ أَمِيْتُ  
لِلنَّاطِرِينَ فَوَاضِحٌ وَأَثِيْتُ  
وَاللَّيْلُ فِي حَيْثُ الْخِمَارُ تَلُوتُ  
وَالنَّجْمُ لَو أَمْسَى بِهَا التَّرْعِيْتُ  
إِنْ قَدْ يَمَلِقُ بِأَسْمِهَا التَّأْنِيْتُ  
هِيَهَاتَ لَيْسَ لِقَاتِلِ تَوْرِيْتُ  
وَلَهُمْ مِنَ الْحَدَقِ النُّجَيْعُ نَفِيْتُ  
مِثِّي الْفَوَادُ بِكَفِّهِ مَضْبُوتُ  
أَبْصَارَ دَمْعٍ سَيَّرُهُنَّ حَثِيْتُ  
وَكَأَبْتِي حَبْلُ الدُّجَى مَثْلُوتُ  
رَنَقٌ وَفِي تِلْكَ الْقَوَى تَنْكِيْتُ  
وَلَهُمْ بِحُسْنِ تَجَلُّدِي تَحْدِيْتُ  
حَتَّى ارْصُوتُ وَلِلْأَمُورِ حُدُوتُ  
بِهِمَاءِ فَنَلَاءِ السُّذْرَاعِ دَلُوتُ  
رَاعَتَهُ غُضْفٌ شَفَّهَا التَّغْرِيتُ  
لَمَّمُ الْبِلَادِ نِجَادُهَا الْمَحْثُوتُ

وَسَرَى إِلَيْكَ مَعَ الصَّبَاحِ بِسَحْرَةِ  
مَنْ أَيْگَةَ مَجْدُودَةً لِفِرْعَوِيهَا  
لَرَطِيبِهِنَّ مَعَ الْغُدُوِّ حِكَايَةُ  
يَا جَدُّ مَنْهُ جَدُّ مَنْ رَشَفَاتِهَا  
أَبِي الْمَشَارِبِ كَانَ أَنْقَعَ قُلُّ لَنَا  
أَزْمَانَ غُصْنِكَ يَا أَرَاكُ مُرْنَحُ  
بِرُقِّ الْغَمَائِمِ وَالْمَبَاسِمِ لَمْ يَكْدُ  
حَطُّ رُزُقَتِكَ مَنَالَهُ وَحَرَمَتُهُ  
وَاهَا لَعَصْرُ الْعَامِرِيَّةِ بِالْحَمَى  
كَيْفَ السَّلْوُ وَيَابِلِي لِحَاطِهَا  
بِيضَاءُ فَاتِنَةٌ لَصَخْرَةِ فَلِبِهَا  
مَقْسُومَةٌ لِبَلَاءٍ وَتَمَسَا إِذْ بَدَّتْ  
فَالشَّمْسُ فِي حَيْثُ النَّقَابُ تَحْطُّهُ  
وَدَّ الْهَلَالُ لَوْ أَنَّهُ طُوقٌ لَهَا  
وَالشَّمْسُ أَقْنَعَ قَلْبِهَا مِنْ شَبْهِهَا  
شَامَتْ لِيُورَثَهَا فَوَادِي نَظْرَةِ  
سَائِلٍ عَنِ الشَّهْدَاءِ مِنْ قَتْلِ الْهَوَى  
رَشَاءً يُخَضَّبُ عَشْرَةٌ إِنْ لَمْ يَزَلْ  
كَمْ قَدْ أَثَرْتُ وَرَاءَهُ مِنْ مُقَلَّتِي  
فِي لَيْلَةٍ مِنْ شَعْرِهِ وَطَلَامِهَا  
فَالْيَوْمَ فِي تِلْكَ الْمَوَارِدِ مِنْهُمْ  
فَلْيَرْجِعَنَّ الْعَادِلُونَ عَلَى الْهَوَى  
فَلَقَدْ جَدَّبْتُ زَمَامَ قَلْبِي جَذْبَةً  
وَتَغَوَّلْتُ فِي عَرْضِ كُلِّ تَنُوقَةٍ  
وَكَأَنَّهَا وَسَطُ الْقُدَافِ نَاشِطٌ  
مَا زَالَ يُفْلِي فِي عَلَى هَوْلِ السُّرَى

لَمْ يُجَلَّ عَنْ مِثْلٍ لَهُ تَحْنِثُ  
غُرٌّ وَكَيْتُ وَغِيٌّ نَمَتْهُ لُيُوثُ  
فَالطَّارِقُونَ فَرَّاشُهَا الْمُبْثُوثُ  
وَالْجُودُ فِي مَالِ الْكِرَامِ يُغَيِّثُ  
فَلَهُ إِلَيْهَا مِنْ سَنَاهُ يَغُوثُ  
أَمْسَى بِخَامِدٍ نُوْرُهُ تَأْرِثُ

فِيهِ لِأَكْبَادِ الْعِدَا تَفْرِثُ  
أَبْدَاءُ بِهِ دُرُّ الْكَلَامِ نَبِيْتُ  
لِ زَمَانِهِ وَلِوَفْدِهِ التَّلْثِيْتُ  
لِعُفَاتِهِ التَّنْقِيْبُ وَالتَّبْحِيْتُ  
بِيَدِي نَدَاهُ وَأَصْلُهُ مَجْشُوثُ  
الْمَعْرُوفِ إِنْ زَكَّتِ الْيَفَاعُ حَرُوثُ

كَلِمٌ فَمِنْهَا طَيِّبٌ وَخَبِيثُ

وَكَمَا تَلَبَّثَ فِي مَنْصَبِ الْاِسْتِيفَاءِ أَشْهُرًا حَتَّى اخْتَفَى بَدْرُ ابْنِ الْبَدْرِ فِي السَّرَارِ، وَانْتَقَلَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ إِلَى تِلْكَ الدَّارِ، وَتَوَلَّى مَكَانَهُ فِي الْاِسْتِيفَاءِ رَضِيَ الدِّينُ أَبُو سَعْدِ الْحَوَامِي، وَتَوَلَّى نِيَابَةَ دِيْوَانِ الْاِسْتِيفَاءِ كَمَالَ الدِّينِ أَبُو الرَّيَّانِ الْاِصْفَهَانِي، وَهُوَ لَأَدْرَجُوا فِي مَنْصَبِ الْاِسْتِيفَاءِ وَكَانُوا تَلَامِيذَ الْعَمِّ عَزِيزِ الدِّينِ وَصَنَائِعِهِ، وَاتَّبَعُوا فِي صِنَاعَةِ الْاِسْتِيفَاءِ شَرَاتِعَهُ، وَكَانَ فِي دِيْوَانِ الْاِنْشَاءِ سَعْدُ الدِّينِ الْخُرَّاسَانِي، وَفِي مَنْصَبِ الطَّغْرَاءِ مُؤَيَّدُ الدِّينِ الْمَرْزُبَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْاِصْفَهَانِي، فَأَمَّا أَتَابِكُ قَراسنقر فَإِنَّهُ لَمَّا قُتِلَ الْوَزِيرُ كَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْخَازَنُ وَجَلَسَ وَزِيرُهُ عَزُّ الْمَلِكِ فِي وَزَارَةِ السُّلْطَانِ رَحْلَ بِالْمَلَكَيْنِ سَلْجُوقِ وَدَاوُدِ إِلَى بِلَادِ فَارَسَ، وَوَصَلُوا إِلَى التُّوْبَنْدَجَانَ فِي جَمْعِ رَائِعٍ وَرُوعِ جَامِعٍ، وَجَدُّ صَاعِدٍ وَحَدُّ صَادِعٍ، وَكُلُّ بَيْتِيهِ دَارِعٌ وَبَيْتِيهِ رَادِعٌ، وَبَطْبِيعِهِ حَدِيدٌ وَبِحَدِيدِهِ طَائِعٌ، فَلَمَّا عَرَفَ بُوزَانَةَ حَضُورَهُمْ غَابَ، وَأَثَرُ لَتَشْبَهَ عَلَى الْاِصْحَارِ الْعَابِ، وَلَجَّ إِلَى قَلْعَةِ كُلِّ وَكَلَابِ وَهِيَ بَيْنَ خُوزِسْتَانَ وَفَارَسَ، وَدَخَلَ الْمَلِكُ

حَتَّى نَزَلْتُ بِسَرٍّ مَجْدٍ بَاهِرٍ  
فَرَأَيْتُ غَيْثَ نَدَى مَرْتَهُ سَحَابٌ  
مَنْ شَبَّ نَارًا لِلْسَمَاحِ رَفِيعَةً  
يَبْنِي مَنَاقِبَهُ بِهَدْمِ تِلَادِهِ  
وَالشَّمْسُ تَسْتَضْوِي بِنُورِ جَبِينِهِ  
وَالْبَدْرُ بِابْنِ أَبِيهِ يَفْخَرُ كَلَّمَ  
وَمِنْهَا فِي الْقَلَمِ:

أَسَدْلُهُ مِمَّا يَرَاهُ مَخْلَبُ  
وَرِشَاءُ فِكْرٍ مَرْسَلٍ فِي كَفِّهِ  
نَظَرَ اِنْدَاهُ لِمَا لَهُ التَّرْبِيعُ طَوً  
أَمَّا إِذَا اعْتَمَدَ الْحِسَابَ قَدَابُهُ  
حَتَّى إِذَا مَا جَادَ أَصْبَحَ مَالُهُ  
كَفُّ الْكِرِيمِ غَمَامَةٌ وَصِنَائِعُ

وَمِنْهَا:

وَكَمَا تَلَبَّثَ فِي مَنْصَبِ الْاِسْتِيفَاءِ فِيهِ الْوَرَى

سَلَجُوقَ مَدِينَةِ شِيرَازَ، وَوَجَدَ مَقْصُودَهُ وَمَقْصَدَهُ النَّجَاحَ وَالنَّجَازَ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ بِهَا مَسْرُورًا، وَنَظَّمَ مَا كَانَ مِنَ الْمَصَالِحِ مَشُورًا، وَغَفَلَ عَنِ الْقَدْرِ فَأَنَسَ بِمُلْكِهِ مَغْرُورًا، وَأَرَادَ قِرَاسَنْقَرَ يُحَلِّي عِنْدَهُ عَسْكَرَ أَحْمِي حِمَاهُ وَيَعْدِي عَلَى عِدَاهِ، فَحَمَلَ الْأَمِيرُ غَزَاوُغَلِي السَّلَاحِيَّ وَهُوَ مُقَدَّمُ عَسْكَرِ الْمَلِكِ سَلَجُوقَ عَلَى حُبِّ التَّقَرُّدِ وَالتَّلَدُّدِ بِالتَّوْحِيدِ عَلَى إِظْهَارِ الْغِنَى عَمَّنْ يُنَجِّدُهُ، وَأَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى مَنْ يُسَعِدُهُ، فَقَالَ لِقِرَاسَنْقَرَ أَنَا لَا أَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ وَلَا أَفْتَقِرُ إِلَى مَدَدٍ، وَإِذَا صَحَّ لِي الِاسْتِبْدَادُ تَمَّ الِاسْتِعْدَادُ، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ نَشِبَتْ وَالْحَبَايَا فَتَشَتْ، فَأَعَدَّ قِرَاسَنْقَرَ السَّيْرَ إِلَيْهَا حَتَّى أَشْرَفَ عَلَيْهَا، وَكَانَ ابْنُ أَبِي اللَّيْثِ مُقَدَّمُ عَسْكَرِ الْأَبْخَازِ قَدْ جَمَعَ الْفَارِسَ وَالرَّاجِلَ وَالرَّمِيحَ وَالتَّنَابُلَ، وَحَشَدَ عَلَى الْحَقِّ الْبَاطِلَ، وَقَرَنَ بِالزَّلْزَلَةِ الزَّلَازِلَ وَبِالنَّازِلَةِ النَّوَازِلَ، وَكَانَ قَدْ حَمَلَ بَابَ مَدِينَةِ جَنْزَةَ وَبَنَى مَدِينَةً سَمَّاهَا جَنْزَةَ، وَعَلَّقَ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْبَابَ، وَاعْتَمَمَ غَيْبَهُ قِرَاسَنْقَرَ عَنِ الْبِلَادِ فَسَامَهَا الْعَذَابَ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فَلَمَّا وَصَلَ قِرَاسَنْقَرَ عَادَتْ دَوْلَةُ الدِّينِ وَعَادَ النَّصْرُ وَالتَّمَكُّنُ، وَظَهَرَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ عَلَى أَهْلِ التَّثَلُّثِ، وَنَعَشَ الطَّيِّبُ بَعْثَارِ الْخَبِيثِ، وَأَوْقَعَهُمْ قِرَاسَنْقَرَ فَهَزَمَهُمْ، وَتَلَمَّهُمْ وَحَطَّمَهُمْ وَكَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَنَالَ مِنْ كَسْرِ الْكُفَّارِ حَظْوَةَ كَرِيمَةً، وَأَطْفَأَ الْجَدْوَةَ الْمَأْرُوثَةَ وَخَرَّبَ الْبِلْدَةَ الْمُسْتَحْدَثَةَ، وَأَعَادَ بَابَ جَنْزَةَ إِلَيْهَا وَأَعَادَهَا فِي الْعِمَارَةِ إِلَى أَحْسَنِ حَالِهَا وَأَجْمَلَ هَيْئَاتِهَا، وَأَنْفَقَ ذَخَائِرَ فِي عِمَارَةِ سُورِهَا وَأَسْوَارِ الْمُدُنِ وَالْمَعَاقِلِ مِنْ أَعْمَالِهَا، وَأَقَالَ تِلْكَ الْأَرْضَ زَلْزَلَةً زَلَزَلِهَا، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ هَلَكَ بِهَا زَوْجُهُ بِنْتُ الْأَمِيرِ أَرْغَانَ وَأَوْلَادُهُ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ اللَّهُمُّ، وَأَوْقَعَهُ فِي الْغَمِّ الْعَمِّ، وَعَلَّقَ بِهِ السُّلَّ، وَبَقِيَ مَدَّةً يَتَدَاوَى وَلَا يَبُلُّ، وَتَوَفَّى سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِأَرْدَبِيلَ، وَكَثُرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ الْعَوِيلَ، وَعَدِمُوا عَنْهُ الْبَدِيلَ، فَقَدْ كَانَ أَدْلَ الْكُفْرِ وَأَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَحَقَّقَ بِمَعَاظِسِ الْمُشْرِكِينَ الْإِرْغَامَ، فَلَمَّا اتَّصَلَ بِهِ أَجَلُهُ وَانْقَطَعَ عَنِ الْحَيَاةِ أَمَلَهُ أَحْضَرَ جَاوَلِي الْجَانِدَارِ وَنَصَبَهُ مَكَانَهُ، وَسَلَّمَ إِلَيْهِ ابْنَهُ وَجُنُودَهُ وَسُلْطَانَهُ، وَوَصَّى إِلَيْهِ بِقَطْعِ دَابِرِ الْكُفْرِ وَمُواصَلَةِ بَرِّ الْأَبْرَارِ، فَتَوَلَّى وِلَايَتَهُ وَوَصَلَ بِنَهَائِهِ بِدَايَتِهِ، وَقَادَ الْجِيُوشَ وَشَادَ الْعُرُوشَ، وَأَنَسَ الْوُحُوشَ، وَأَثْبَتَ الْخَالِصَ وَنَفَى الْمَغْشُوشَ، وَرَتَّقَ الْفُتُوقَ وَرَتَّبَ الْحَقُوقَ، وَسَدَّ الشُّغُورَ وَسَدَّدَ الْأُمُورَ، وَجَنَّدَ الْجُنُودَ وَحَشَدَ الْحُشُودَ، وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ السُّلْطَانَ مَسْعُودَ الْخِلْعَةِ وَالْعَهْدِ، وَأَجْرَلَ لَهُ الْعَطَايَا وَالنَّقْدَ، وَقَرَّرَ عَلَيْهِ جَمِيعَ أَعْمَالِ قِرَاسَنْقَرَ بِأَرَانِيَّةٍ وَأَذْرَبِيجَانَ، وَوَلَّاهُ تِلْكَ الْمَعَاقِلَ وَالْمُدُنَ وَالْبُلْدَانَ، وَنَهَضَ الْأَمِيرُ جَاوَلِي الْجَانِدَارِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانَ، فَقَبَّلَ الْبَسَاطَ وَأَقْبَلَ بِإِقْبَالِ

السلطان عليه، وَنَظَرَ إِلَيْهِ السَّعْدُ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ، وَاعْتَزَّ بِاعْتِزَالِهِ وَاهْتَزَّ بِاهْتِزَالِهِ، وَضَرَبَ خِيَمَةَ قَرْيَةٍ مِنَ الْعَسْكَرِ فَأَعَادَ الْبِرَّ الْأَعْبَرَ كَالْبَحْرِ الْأَخْضَرَ، وَضَاقَ الْفَضَاءُ الْوَاسِعَ بِمَضَارِبِ جُنُودِهِ، وَخَفَقَتِ الْقُلُوبُ لِهَيْبَةِ خَوَافِقِ بُنُودِهِ، وَرَكَزُوا الْأَرْمَاحَ عِنْدَ الْخِيَامِ، وَكَانُوا كَالْأَسْوَدِ فِي الْأَجَامِ، وَاتَّصَلَ بِالْأَمِيرِ عَبَّاسٍ صَاحِبِ الرَّيِّ، وَنَشَرَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَوَدَّةِ مَا كَانَ تَحْتَ الطِّيِّ، وَتَوَافَقَا وَتَوَافَقَا وَصَدَقَا فِي الْمَوَدَّةِ وَتَصَادَقَا، وَنَظَمَتُهُمَا طَاعَةَ السُّلْطَانِ فِي سَلِكِ الْمُوَاخَاةِ، وَنَهَجَتْ لهُمَا مَسَلَكَ الْمُصَافَاةِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ عَبَّاسٌ مِنْ مَمَالِكِ الْأَمِيرِ الْأَجَلِّ جَوْهَرِ خَادِمِ السُّلْطَانِ سَنْجَرِ، وَالرَّيُّ فِي إِقْطَاعِهِ وَقَدْ نَفَذَهُ إِلَيْهَا وَالْيَا، وَكَانَ أَمْرُهُ بِهَا عَالِيًا، فَلَمَّا قُتِلَ صَاحِبُهُ بِفَتْكِ الْبَاطِنِيَّةِ بِهِ نَارَ عَبَّاسٍ لِلثَّارِ وَجَدَّ فِي طَلِبِهِ وَاسْتَوْلَى عَلَى الرَّيِّ وَأَعْمَالِهَا، وَتَفَرَّدَ بِجِيَاةِ أُمُورِهَا، وَقَوِيَ عَلَى السُّلْطَانِ سَنْجَرِ وَمَسْعُودِ، وَاسْتَظْهَرَ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ جُمُوعِ وَجُنُودِ، وَبَعْنَ اتَّصَلَ مِنْ مَمَالِكِ الْأَمِيرِ الْأَجَلِّ صَاحِبِهِ، وَكَانُوا زَهَاءَ أَرْبَعَةِ آلَافٍ فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ وَجَمَعَ كَثِيرًا، وَقَصَرَ عَزَمُهُ عَلَى قَصْدِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَأَزَارَهُمْ بِأَسْبَابِ الْمَنِيَّةِ، وَكَبَسَهُمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ، وَبَيَّتَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ، وَهَجَمَهُمْ فِي مَعَاقِلِهِمْ، فَأَنْزَلَ النَّوَازِلَ بِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَدَارَ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ فِي دُورِهِمْ، وَدَامَ مُجِدِّدًا فِي دُمُورِهِمْ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ فِي مَلَّةٍ وَوَلَايَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ، فَهَوِيَ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي فَتْحِ وَهُمْ فِي حَتْفِ، حَتَّى بَنَى فِي الرَّيِّ مِنْ رُؤُوسِهِمْ مَنَارًا أَذَّنَ عَلَيْهَا الْمُؤَذِّنُونَ، وَأَخَافَ الْقَوْمَ فَمَا كَانُوا فِي عَصْرِهِ يَأْمَنُونَ الْمَنُونَ، وَيَبَالِغُ حَتَّى قَتَلَ الْمُتَمَهِّمِينَ، وَخَضَبَ بِدِمَائِهِمْ سِيوفَ الْمُنتَقِمِينَ، وَإِذَا سَمِعَ بِقَرْيَةٍ أَنَّ فِيهَا مَنْ يَمِيلُ بَاطِنًا مِيلَ الْبَاطِنِيَّةِ صَبَّحَهَا بِالْمَنِيَّةِ وَتَفَكَّ مِنْ أَهْلِهَا الدَّمَاءَ وَأَبَاحَ النِّسَاءَ، فَكَسَبَ فِي الْإِسْلَامِ حُسْنَ أُحْدُوثِهِ، وَكَانَ ذَاهِمَةً كَافِلَةً لِلرَّعِيَّةِ بِكُلِّ مَعُونَةٍ وَمَعُونَةٍ، فَرَضَى السُّلْطَانُ بِيَايَتِهِ وَأَقْرَهُ عَلَى وَوَلَايَتِهِ، وَلَمَّا اتَّصَلَ جَاوِلِي الْجَانِدَارِ بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ وَجَدَّهُ حَاضِرًا، وَأَلْفَى رَوْضَ الرِّضَا نَاضِرًا، وَكَانَ الْأَمِيرُ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ فَخْرُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايِرِكِ الْحَاكِمِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمَهَبِ الصُّوْلَةِ، وَكَانَ وَسِيمًا وَجَسِيمًا وَلِلْسُلْطَانِ قَسِيمًا، لَا يُؤْخَذُ إِلَّا بِأَمْرِهِ وَلَا يُقْبَسُ إِلَّا مِنْ جَمْرِهِ، وَلَا يُورَى إِلَّا مِنْ زَيْدِهِ، وَلَا يُقَطَّعُ إِلَّا بِجُنْدِهِ، وَلَا يُرَى إِلَّا بِرَأْيِهِ، وَلَا يُعْيَى إِلَّا مِنْ وَعَائِهِ، وَلَا إِجَابَةُ إِلَّا لِدَعَائِهِ، وَلَا تَلْبِيَّةٌ إِلَّا لِئِدَائِهِ، وَلَا نَائِلٌ إِلَّا بِإِنْفَائِهِ، وَلَا وَابِلٌ إِلَّا بَعْدَ رَذَائِهِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ بَكِ أَرْسَلَانِ خَاصِّبِكَ بِنُ بَلَنْكِرِيِّ أَحْصَى النَّاسَ بِالسُّلْطَانِ وَأَعْظَمَهُمْ بِقَلْبِهِ، وَأَلْيَقَهُمْ بِقُرْبِهِ وَأَبْلَقَهُمْ بِحُبِّهِ، وَأَعْتَبَهُمْ بَلْبَةً لِجَدِّهِ وَلَعْبِهِ، قَدْ اخْتَارَهُ مَنْدُ شُعْفَ بِهِ عَلَى صَحْبِهِ يَرَى بَهْجَةَ الدُّنْيَا فِي دُنُوِّ بَهْجَتِهِ وَدَرَجَةَ الْعُلْيَا فِي عُلُوِّ دَرَجَتِهِ، قَدْ ارْتَفَعَ وَأَفْنَعَ بِحُسْنَائِهِ لِحُسْنِهِ، وَصَافَحَ بِيَدِ أَيْدِيهِ يُمْنَى يَمِينِهِ

وَلَمَّا كَبُرَ كَانَ أَكْبَرَ الْكِبَرِ وَأَعْظَمَ الْعُظْمَاءِ، وَجَمَعَ هَؤُلَاءِ الْأَكْبَارِ تِلْكَ السَّنَةَ بِالْحَضْرَةِ، وَالذُّنْيَا بِالنَّعْمِ لَهُمْ بِأَبِيَةِ النُّصْرَةِ، وَحَمَلَ فُخْرَ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايِرِكَ الْأَمِيرِ عَبَّاساً عَلَى مُبَايَنَةِ عِزِّ الْمَلِكِ الْوَزِيرِ وَمُعَارَضَتِهِ فِي التَّدْبِيرِ، وَمُحَاوَلَةِ صَفْوِهِ وَدَهِّهِ بِالتَّكْدِيرِ، وَأَطْمَعَهُ فِي تَوَلِيَةِ نَائِيهِ الْجَمَالِ الْأَجْرَمِيِّ فِي الْوِزَارَةِ وَنَصَبِهِ فِي مَنْصِبِهِ وَتَرْتِيهِ فِي رُتْبَتِهِ، وَكَانَ شَاباً مَقْبُولَ الْحَرَكَةِ مَأْمُورَ الْبَرَكَةِ، مَأْمُونُ الرَّزْلِ مِيمُونُ الْعَمَلِ، يَرْجِعُ إِلَى تَوْشِعٍ فِي الْمُرُوءَةِ وَتَرْفُعٍ فِي الْفُتُوَّةِ، وَحُبِّ لِلتَّحْمَلِ وَكَلْفِ بِالتَّكْلُفِ، وَتَصَرُّفٍ فِي الْمَعْرِفَةِ وَمَعْرِفَةٍ بِالتَّصَرُّفِ، فَاسْتَحْكَمَ طَمَعُهُ فِي الْمَنْصَبِ، وَاسْتَدَّ رَجَاؤُهُ فِي نَجْحِ الْمَطْلَبِ، وَقَوِيَ قَلْبُهُ بِمُسَاعَدَةِ الْأَمِيرِينَ عَبَّاسٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَهُمَا الْمُدَبِّرَانِ لِلدُّوَلَةِ الْحَاكِمَانِ، فَتَحَمَّلَ وَتَجَمَّلَ وَعَزَمَ وَعَزِمَ، وَجَدَّ وَجَادَ وَاسْتَجَدَّ وَاسْتَجَادَ، وَقَرَّبَ أَنْ يَتِمَّ مُرَادُهُ وَكَادَ، فَتَعَصَّبَ الْأَمِيرُ جَاوَلِي الْجَانْدَارِ لِلْوَزِيرِ عِزُّ الْمَلِكِ، وَأَعَادَ نَظْمَ جَاهِهِ إِلَى السَّلَكِ، وَسَاعَدَ الْأَمِيرُ خَاصِبِكَ بْنَ بَلَنْكِرِيِّ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ، وَعَضَّدَهُ فِي مُعَاضَدَتِهِ، فَاسْتَقَامَ أَمْرُ الْوَزِيرِ وَنَجَا مِنْ مَعَارِضِهِ، وَأَبْرَمَ عَقْدَ بِنَائِهِ وَلَمْ يَحْصُلْ مَتَى مُنَاقِصِهِ، وَعَرَضَ جَاهُهُ وَطَالَ، وَعَدَمَ مِنْ وَعَدِ حَطَهُ الْمَطَالِ، وَأَجْمَعَ الْجَمِيعُ عَلَى إِبْقَائِهِ، وَاتَّفَقَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا مُضَاهِيَّ لَهُ فِي مَضَائِهِ، وَرَحَلَ السُّلْطَانُ إِلَى بَغْدَادَ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَاسْتَصْحَبَ جَمَاعَةَ الْأُمَرَاءِ، وَعَادَ عَبَّاسٌ إِلَى الرَّيِّ عَبَّاسِيَّ الرَّايَةَ سُلْطَانِيَّ الْوَالِيَةَ عَالِي الْقَدْرِ قَادِرَ الْعُلَا، مَصْرُوفاً بِبُلُوَائِهِ صَرَفَ اللَّأْوَاءِ، وَأَنَا أَذْكَرُ وَصُولَهُمْ إِلَى بَغْدَادَ فِي هَيْئَةٍ عَظِيمَةٍ وَهَيْئَةٍ وَسِيمَةٍ وَأَهْبَهُ زَائِدَةٌ وَأَهْبَهُ رَائِدَةٌ وَكُلُّ رَاجِعَةٍ وَرَاجِعَةٍ وَبَارِقَةٍ وَرَاعِدَةٍ فِي سَنَةِ سِتِّ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَخَطَبَ جَاوَلِي الْجَانْدَارِ بِنْتَ الْأَمِيرِ الْحَاجِبِ الْكَبِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الطَّغَايِرِيكَ وَتَمَّتْ بَيْنَهُمَا الْمُصَاهَرَةُ، وَتَأَكَّدَتِ بَيْنَهُمَا عَلَى الْمُضَافَرَةِ وَالْمُظَاهَرَةِ، وَعَادَ جَاوَلِي إِلَى بِلَادِ أَرَانِيَّةٍ وَأَذْرَبِيجَانَ مُسْتَدًّا الْأَرَزِ مُسْتَدًّا الْأَمْرِ، قَوِيَ الظَّهْرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْ عَقْدِ الْوَصْلَةِ وَالْأَحْوَةِ، وَأَقَامَ بِبَغْدَادَ تِلْكَ الشَّتْوَةَ، مُتَوَقِّراً عَلَى نَيْلِ الْوَطْرِ وَقَضَاءِ الشَّهْوَةِ، مُبْتَهِجاً بِزُورِ النَّدِيمِ وَمُنَادِمَةً الزَّرِيرِ، مُلْتَهِجاً بِالْخَمْرِ وَالتَّرْمِيرِ وَالرَّطْلِ الْكَبِيرِ دُونَ الصَّغِيرِ، مُسْتَهَاماً بِإِدْنَاءِ الدُّنْيَانِ وَاقْتِنَاءِ الْقِيَانِ، وَتَقَرُّبِ الْمَتَاجِرِ، وَإِبْعَادِ ذَوِي الْمَفَاحِرِ، مُتَكَلِّلاً عَلَى السَّعَادَةِ فِي دَفْعِ الْأَعْدَاءِ وَتَفْعِ الْأَوْلِيَاءِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ كَاسِمُهُ مَسْعُوداً وَلَمْ يَقْصُدْ بَعْدَاوَتَهُ إِلَّا مَنْ لَقِيَ اللَّهَ شَرَّهُ فَاصْبَحَ عَنْهُ مَصْدُوداً، فَغَفَلَ عَنِ الزَّمَانِ وَذُهِلَ عَنِ الْحَدَثَانِ، وَوَاصَلَ الْمَسَاءَ بِصَبَاحِ الرَّاحَةِ وَالتَّرَاحِ، جَامِئاً لِلْجَامِ، مُدْبِئاً لِلْمُدَامِ، قَادِحاً بِالْقَدْحِ، زَنَاداً لِلنَّادِي، نَاشِداً ضَالَّةً الْاِنْتِشَاءَ بِإِنْشَادِ الشَّادِي، حَايِياً حُظُوظَ حَظَابَاهُ بِحُبِّهِ، مَلِيئاً نِدَاءً نَدَامَاهُ بَلِيَّهِ، وَقَدْ كَانَ لِلْعَفَافِ عَيْوَفَاً، وَعَنْ

سوى العزف عزوفاً، غير ملتصق إلى قانون، ولا إقامة مفروض ومسنون، وقد استولى عليه  
الأمرء، وتناصرت منهم على نصرة هواه الأهواء، وتابعوهُ على أربه وطاوعوه في طربه،  
وكلُّ منهم حاكمٌ على إقليمٍ بغيرٍ منازع، وظالمٌ لغيرٍ وازع، ووال مُعيرٌ لاو، ومُتناولٌ بغيرٍ  
مناو، وكان الأميرُ سعدُ الدولة يرنقش الزكويُّ من أكابر الدولة وقدمائها وأكابرها وعظماؤها،  
وهو أسماهم هممةً وأناهم نعمةً، وأعليهم مروءةً وأصلبهم مروءةً، وآثرهم وفراً وأوفرهم ثروةً،  
وأعرفهم بالقوانين، وأعلمهم برسوم السلاطين، ومُتولي يمين الدين المكين أبو عليّ  
العارض، وله الفضلُ المُستفيض والإفضالُ الفاضل، وكان سعدُ الدولة يرنقش الزكويُّ  
مُتولي أصفهانَ والأميرُ غلبك نائبه، مُتمكّنة يده مرهوبٌ جانبه، وسعدُ الدولة للمعسكر غير  
مُفارق، ولما لا يوافق رضا السلطان غير راضٍ ولا موافق، فكانت أبهةُ الملك بمقام أبهته  
قائمةً، ونُصرة الإقبال بدوامٍ نظير إقباله دائمةً، وكان الخُدامُ الجُوش لهم الجُوش والأسرةُ  
والعروش، منهم نجمُ الدين رشيد من مشايخهم وأكابرهم، وجمالُ الدين إقبال الجاندار،  
وشرفُ الدين كردبازو، ومسعودُ البلائي، ودونهم في الرتبة عمادُ الدين صواب، وشمسُ  
الدين كافور، وأمينُ الدين فرجُ الدوي وأمثالهم، وهم عصبه فيها عصبيةً على الشافعية،  
ويتقربون إلى الله بما يُوصلون إليهم من الأذية، وتكبو أصحابُ الشافعي بأنواع البلاء في  
جميع البلاد، وخصّوهم بالطرد والإبعاد، وحاولوا إخفاء مذهبه فتعالى ظهوراً، وأرادوا  
إطفاء نُوره فما زاده الله إلا نُوراً، وكانوا يعقدون مجالس في منازلهم لإحضار أئمة الفريقيين  
للمناظرة وفقهاها المُبرزين وهم في عزِّ سلطانهم، وأصحابنا يحضرون بالله تعالى مُتعرّزين،  
وكنْتُ أحضرُ مع مشائخي رحمهم الله فما تنقضي مناظرة إلا وحججتنا فيها ظاهرة، وبراهين  
أدلتنا بالإدالة باهرة، والشملُ مُجتمعٌ والخصمُ مُنقطع، وهم يزيدون في الإيذاء، ولا يتجافون  
عن الجفأ، وتكبو رؤساء المذهب في كلِّ بلد، ولم يفقوا منهم على كلِّ أحد، فمنهم أبو  
الفضائل بنُ المشاط البرقي، ومنهم بهاءُ الدين أبو الفتح الإسفراييني ببغداد، ومنهم بنو  
الخجنديّ بأصفهان، ودخل في مذهب أبي حنيفة جماعةٌ طلباً للجاه، وخوفاً منهم لا من  
الله، ومن جملتهم القاضي عمدة الدين الساوي، وكان الشافعية مع ذلك يزيدون إيماناً  
وتبتيّاً، ويُجيدون في المُجادلات النظرية والمناظرات الجدلية لخصومهم تبكيةً وتبكيّاً،  
وكنْتُ في ذلك العهد قريبَ العهد بالتحفة، طلق الوجه بالبحري في طلق التوجّه، فإن والدي  
رحمه الله كما توالّت عليه النكبات وتتابعت من ذوبان الظلمة على سرحنا الوثبات نقلنا إلى

دارِ السَّلَامِ وَظَلَّ الْإِمَامَ، لِيُرِيَنَا وَنَحْنُ حِينْتِذِ صَغَارٍ فِي كَنْفِ الْإِعْتِصَامِ، وَكُنْتُ أَكْبَرَ الْأَحْوَةِ  
وَأَنَا فِي سَنِّ الْبُلُوغِ يَافِعٌ وَأَسْرِ الْبَلَاغَةِ فَارِعٌ، فَانْتَهَيْتُ بِالنِّظَامِيَّةِ بِبَغْدَادَ فِي سَلِكِ الطَّلِيَّةِ  
مُتَنَفِّسِينَ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَنْقَبَةِ.

### عَلِيِّ بْنِ طَرَادِ الزَّيْنَبِيِّ فِي وَزَارَةِ الْخَلِيفَةِ الْمُقْتَضِي

وكان وزيرُ الخليفةِ المُقتضي لما تولى شرفُ الدين عليُّ بنُ طرادِ الزينبي، وكان شريفاً  
كأصله عليّاً في محلّه سرياً، بأفضالهِ وَفَضْلِهِ مَمْدُوحاً بِالْأَلْسِنَةِ، مُقَرَّطاً لِخَلَائِقِهِ الْحَسَنَةِ،  
وَلِلْقَاضِي أَبِي بَكْرِ الْأَرْجَانِيِّ فِيهِ مِنْ قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا <sup>(1)</sup> [الكامل]

لَمَنْ الرِّكَاثُ سَيْرُهُنَّ تَهَادٍ      مِيلٌ مَسَامِعُهُنَّ نَحْوَ الْحَادِي  
مَا زَالَ يَنْظِمُهُنَّ فِي سَلِكِ الْبُرَى      حَتَّى تَوَشَّحَهُنَّ بِطَنِ الْوَادِي  
ومنها:

رَحَلُوا أَمَامَ الرَّكْبِ نَشْرُ عَبِيرِهِمْ      وَوَرَاءَهُمْ نَفْسُ الْمَشْوِقِ الصَّادِي  
فَكَأَنَّ هَذَا مِنْ وِرَاءِ رِكَابِهِمْ      حَادِي لَهَا وَكَأَنَّ ذَلِكَ صَادِي  
ومنها في النسيب:

شَابَ الْمَفَارِقُ لِلْمَفَارِقِ حَرْقَةً      مُذْ بَدَلَّ الْأَدْنَاءَ بِالْأَبْعَادِ  
جَلَبَ الْمَشِيبُ هُمُومَهُ فَتَرَى لَهُ      أَنْسَرَ الْفِؤَادِ يَلُوحُ فِي الْأَفْوَادِ  
صَدَعُوا سَوَادِي فِئُودِهِ وَفِئُودَهُ      فَاَنْجَابَ عَنْهُ وَمِنْهُ كُلُّ سَوَادِ  
وَكَأَنَّمَا أَحْبَابُهُ وَشَبَابُهُ      رَحَلَا غَدَاتِنِذِ عَلَى مِيعَادِ  
ومنها في المخلص:

أَبْنِي الرَّجَاءِ السَّائِرِينَ لَتُدْرِكُوا      فِي الدَّهْرِ أَقْصَى غَايَةِ الْمُتْرَادِ  
مَنْحُ الْبَحَارِ تَدُقُّ عَنِّ آمَالِنَا      فَرِدُوا فَنَاءَ عَلِيِّ بْنِ طِرَادِ  
مَنْ مَعَشَرَ بِيضِ الْوُجُوهِ أَكْرَامِ      يَوْمَ السَّمَاكِ وَفِي الْوَعْيِ أَنْجَادِ  
رَجِحُ الْحُلُومِ لَدَى النَّدَى فَكَأَنَّهَا      عَقْدُ الْحُبِّيِّ مِنْهُمْ عَلَى أَطْوَادِ

وَأَظْلَهُمْ بَيْتُ النَّبِوَةِ وَابْتَنَوْا  
 فَلَهُمْ إِذَا مَا زُرْتَهُمْ وَخَبَرْتَهُمْ  
 قَوْمٌ إِذَا سَفَرُوا حَسِبْتَ وَجُوهَهُمْ  
 وَيَكَادُ إِنْ وَطِئُوا الْمَنَابِرَ أَنْ تُرَى  
 وَهُوَ مَمْدُوحُ الْأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ سَعْدِ بْنِ الصَّيْفِيِّ الْمَعْرُوفِ بِحَيْصِ بَيْصٍ، وَلَهُ فِيهِ فَلَانْدُ  
 وَفَرَانْدُ، وَلَهُ فِيهِ (1): [الطويل]

وَأَخْلَافٌ مَجْدٌ مُوجِبِينَ إِلَى الْعُلَى  
 تَقْلَهُمُ الْجُرْدُ الْجِيَادُ كَأَنَّهَا  
 بِرُودُونَ رَائِبًا مِنْ لَبِيبِ مُغَايِرِ  
 مَنَحْتَهُمْ أَسْطَارَ طَرَسٍ وَمَعْرَكَ  
 فَعَادَتِ لَهُمْ صَيْدُ الْمَلُوكِ أَذْلَةٌ  
 وَمَنْ كَالِوَزِيرِ الرَّيْنِيِّ مُقْرِبًا  
 فَتَى لَا يُدَانِيهِ رِضَاءٌ لَلِيْنِهِ  
 وَكَاتَبُ الْإِنشَاءِ سَدِيدُ الدِّينِ بْنِ الْأَنْبَارِيِّ وَصَاحِبُ الْمَخْزَنِ كَمَالُ الدِّينِ بْنِ طَلْحَةَ، وَتَزَوَّجَ  
 الْإِمَامُ الْمُقْتَضِي بِأَخْتِ السُّلْطَانِ مَسْعُودِ فَاطِمَةَ خَاتُونَ، وَعَزَلَ شَرَفُ الدِّينِ الرَّيْنِيِّ عَنِ وِزَارَةِ  
 الْخَلِيفَةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ، وَسَبَبُ عَزْلِهِ أَنَّهُ اسْتَشْعَرَ فَمَضَى إِلَى دَارِ السُّلْطَانِ بِهَا مُعْتَصِمًا،  
 ثُمَّ لَزِمَ بَعْدَ ذَلِكَ دَارَهُ مُحْتَرَمًا.

وَتَوَلَّى الْوِزَارَةَ نِظَامُ الدِّينِ أَبُو نَصْرٍ بْنُ جَهْمِرٍ، وَكَانَ الْاِسْتِيلَاءُ بِالْعِرَاقِ لِأَصْحَابِ السُّلْطَانِ  
 وَلَيْسَ لِأَحَدٍ بِكَفَّهِمْ يَدَانِ.

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ خَرَجَ الْكَافِرُ الْخَطَائِيُّ وَاسْتَوَلَى عَلَى مَا وِرَاءَ النَّهْرِ،  
 وَكَتَسَرَ السُّلْطَانُ سَهْجَرًا أَشَدَّ الْكَسْرِ، وَوَقَعَ عِظْمَاءُ مَمْلَكَتِهِ فِي الْأَسْرِ.

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ قُتِلَ السُّلْطَانُ دَاوُدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ  
 بِيَدِ الْمَلْجِدَةِ بَتْبَرِيْزِ غَيْلَةَ وَعَاشَ أَيَّامَهُ مِنْ شَرِّ يَدِ الدَّهْرِ شَرِيْدًا، وَلَمْ يَسْتَرْجِحْ لَيْلَةً وَكَانَ قَدْ

زَوْجَةَ السُّلْطَانِ مَسْعُودَ بِنْتِهِ، وَاقْتَعَدَ بِتَبْرِيزٍ مُلَازِمًا لِبَيْتِهِ، جَالِسًا فَوْقَ تَخْتِهِ تَحَتَّ بِخْتِهِ، وَكَمَا جَاءَتْهُ فِي الْمَبْدِ السَّعَادَةُ وَقَتَ لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ الشَّهَادَةُ، وَقِيلَ إِنَّ الْأَمِيرَ زَنْكِيًّا وَضَعَ عَلَيْهِ مِنْ حَشِيشِيَّةِ الشَّامِ مِنْ فَتْكَ يَهْ فَأَمَرَ عَلَى بِلَادِهِ بِسِيِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ مَسْعُودًا قَدْ عَوَّلَ عَلَى أَنْ يَسِيرَ دَاوُدُ إِلَى الشَّامِ وَيَحْفَظَ بِهِ ثَعُورَ الْإِسْلَامِ، فَفَزِعَ زَنْكِي وَجَزَعَ وَسَقَطَ فِي يَدِهِ مِنْ حَدِيثِ الْحَادِثِ الَّذِي وَقَعَ، وَخَذَلَهُ الْأَيْدُ وَلَكِنْ نَصَرَهُ الْكَيْدُ، وَوَصَلَ الْخَبْرُ إِلَى بَغْدَادَ فَعُقِدَ لَهُ فِي دَارِ الْخِلَافَةِ مَجْلِسُ الْعَزَاءِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِحُضُورِ أَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ، وَعُدَّتِ الْمُصِيبَةُ بِقَتْلِهِ مِنْ أَفْجَعِ الْمَنَاصِبِ.

وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمَائَةٍ وَصَلَ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ إِلَى أَصْفَهَانَ وَكَانَتْ دَارُ السُّلْطَنَةِ قَدْ تَشَعَّتْ فَشَدَّ مِنْهَا الْأَرْكَانَ وَتَغَيَّرَ رَأْيُهُ فِي الْوَزِيرِ عَزِّ الدِّينِ الْبَرِّ وَجَرْدِيِّ، بَلْ مَالَ فِيهِ إِلَى غَرَضِ عَدُوِّهِ الرَّدِّيِّ، فَعَزَّ لَهُ وَكَمْ يَسْتَبِقِي الْعَزَّ لَهُ، وَاسْتَصْفَى مَالَهُ وَشَغَلَ بِوَبَالِهِ سِرَّهُ وَبَالَهُ.

### وِزَارَةُ الْمُرْزِيَانِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْأَصْفَهَانِيِّ

وَاسْتَوَزَرَ مُؤِيدَ الدِّينِ الْمُرْزِيَانَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ الْأَصْفَهَانِيَّ وَنَقَلَهُ مِنَ الطُّغْرَاءِ إِلَى الْوِزَارَةِ، وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ تَرْكِيَّةٌ مِنْ جَوَارِي السُّلْطَانِ سَلِيطَةُ مُتَسَلِّطَةٌ، حَاكِمَةٌ عَلَيْهِ مُتَبَسِّطَةٌ، فَتَسَلَّمَ عَزَّ الْمُلْكِ وَسَلَّمَهُ إِلَيْهَا فَخَنَقَتْهُ بَعْدَمَا عَدَّبَتْهُ وَعَلَّقَتْهُ فَقَتِلَ بِمِثْلِ الْقِتْلَةِ الَّتِي قَتَلَ بِهَا الْكَمَالَ ثَابِتًا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَاسِدًا لَهُ عَلَى مَنْصِبِهِ عَادَ شَامِتًا، وَكَانَ عَزَّ الْمُلْكِ الْبَرِّ وَجَرْدِيِّ شَيْخًا بَهِيحًا بَهِيًّا جَلِيلًا جَلِيًّا، حَالِي الْهَيْئَةِ عَالِي الْهَيْبَةِ، وَقَدْ جَاوَزَتِ الثَّمَانِينَ سِنَهُ، وَنَاهَزَ الْبِلَى سِنَتَهُ، وَمَعَ شَيْخُوخْتِهِ يَقَطُرُ مَاءُ النُّضَارَةِ مِنْ مُحْيَاهُ، وَكَانَ حَيَّ السَّعَادَةِ سَعِيدًا فِي مُحْيَاهُ، وَكَانَ فِي أَيَّامِ وَزَارَتِهِ مَرْهُوبَ الْعِزِّ مَشْبُوبِ النَّارِ مَرْجُوًّا الْهَيْبَةَ مَحْشِيًّا الْهَيْبَةَ، وَكَانَ نَائِبُهُ فِي الْوِزَارَةِ نَجِيبُ الدِّينِ عَبْدِ الْجَلِيلِ السُّهْمَ الْمُصِيبَ وَالشُّهْمَ الْمَهِيْبَ، وَالسَّيْفَ الْقَاطِعَ وَالْخُطْبَ الصَّادِعَ، يَبْرِي وَيَقْضِلُ وَيَقْرِي وَيُقْضِلُ، وَيَجْلِسُ فِي بَهْوِ إِيوَانِهِ، وَيَهْ زَهُوِّ دِيوَانِهِ، وَهُوَ مِلٌّ مَكَانِهِ مَلِيٌّ بِإِمَاكِنِهِ، حَرِيٌّ بِمَنْصِبِهِ جَرِيٌّ فِي نَصْبِهِ، يَبْتُ الْأَصُولَ وَيَسْتَأْصِلُ الْبِيوتَ، وَيَسْبُرُ الْجُرُوحَ وَيَجْرَحُ السَّبْرُوتَ، وَيَسْتَنْزِلُ مِنَ الْجَوِّ الْعُقَابَ، وَيَسْتَخْرِجُ مِنَ قَعْرِ الْبَحْرِ النُّحُوتَ، فَكَأَنَّ النُّوَابِثَ نُوَابِثُهُ وَالْخُطُوبَ خُطَابُهُ، وَقَدْ صَرَبُوا عَلَى بَغْدَادَ الصُّرَايِبَ وَمَسَكُوا الْمَكَاسِبَ، وَسَدُّوا عَلَى التُّجَّارِ الرَّتَاجَ، وَكَمْ يَرَوُا بِالْكَرَمِ

على ذَوِي الْمَجَاعَةِ الْمَعَاجِ، يَعْسِفُونَ وَلَا يُسْعِفُونَ، وَيَخْلِفُونَ وَيَحْلِفُونَ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ رِبَا طَوْلُهُ بِأَبَاطِيلِهِ، وَمَا فِيهِ خَصْلَةٌ تُفْضِي لَهُ إِلَى تَفْضِيلِهِ، وَكَانَ رَضِيُّ الدِّينِ أَبُو سَعْدٍ مُسْتَوْفِي السُّلْطَانِ الْبَعِيدِ عَنِ الشَّيْنِ الْبَدِيعِ الشَّانِ مِمَّنْ يَغْشَاؤُهُ وَالَّذِي بِسَبَبِ خِدْمَتِهِ لِأَخِيهِ الْعَزِيزِ فِي أَيَامِهِ وَكَانَ رَيْبٌ بِإِنْعَامِهِ، فَلَمَّا صَارَ فِي مَنْصِبِهِ لَمْ يَجْرِ فِي الْمُرُوءَةِ عَلَى مَذْهَبِهِ، وَاعْتَرَضَ بَعْدَ الْأَمْلَاكِ وَأَظْهَرَ دَعْوَى الْأَشْتِرَاكِ، وَأَرَادَ أَنْ يَحُوزَ جَوَاباً بِالْإِرْتِشَاءِ وَحُزُواً بِالْإِشْتِرَاءِ، وَلَمْ يَزَلْ مُقِيمًا عَلَى الْإِعْتِدَادِ بِكَيْفِ الْإِعْتِدَاءِ، ثُمَّ حَصَّ مِنْهَا حَصَّةً وَقَصَّ قِصَّةً، وَأَخْفَ بَعْضًا وَتَرَكَ بَعْضًا، وَلَمْ يَدَعْ لِكُلِّ مَا حَاوَلْنَاهُ مِنَ الْإِبْرَامِ تَقْضَاءً، وَعَادَ عَلَى الْحَصَّةِ الَّتِي أَبْقَاهَا فَاسْتَوْعَبَ جَدْوَاهَا، فَتَارَةً يُضْمِنُهَا وَلَا يَفِي بِشَرْطِهَا، وَأَوْنَةً يَكْتُبُ حَظَّهُ فَلَا يَسْكُنُ إِلَى حَظِّهِ، فَالْزَمَنِي وَالَّذِي أَوَّلَ سَنَةِ وَصَوْلْنَا إِلَى بَغْدَادَ أَنْ أَقْصَدَهُ بِقَصِيدَةٍ لَعَلَّهُ يَجْعَلُ جَائِزَتَهَا إِطْلَاقَ الْمُلْكِ مِنْ عِقَالِ ضَمَانِهِ، وَيَجْعَلُ الْإِعْرَاضَ عَنْ إِسَاءَتِهِ مِنْ عَرُوضِ إِحْسَانِهِ، فَجَرَى قَلَمِي مُتَكَلِّفًا بِمَدْحِهِ وَلَمْ يَجْرِ عَلَى التَّكْلِيفِ قَلَمٌ، وَتَرَفَعْتُ إِلَى رَبِّتِةِ النَّظْمِ وَلَمْ يَرْتَفِعْ لِي فِي الْعِلْمِ عِلْمٌ، وَقَصَدْتُ خِدْمَتَهُ بِالْقَصِيدَةِ وَبَدَّلْتُ جُهْدَ الْمُقَلِّ فِي ابْتِكَارِ الْمَقَالِ السَّدِيدَةِ فَأَمَرَ لِي بِخَلْعَةِ أَبَاهَا أَبِي، وَقَالَ أَنَا أَرَبًا أَنْ أَجْعَلَهَا أَرَبِي، وَقَالَ إِنَّهُ كَانَ مُشْرِفٌ مَطْبَخِي يَخْدُمُنِي فِي عَهْدِ أَخِي، وَالْيَوْمَ يَرُومُ أَنْ يَخْلَعَ عَلَيَّ وَكَأَنَّكَ لَا أَنْتَخِي، وَمَا زَلْنَا بِهِ حَتَّى أَطْلَقَ الْمُلْكَ وَأَعْرَضَ عَنِ اعْتِرَاضِهِ، وَقَلَعَ نَابَ نَائِبِهِ عَنْهُ وَقَدْ أَبْقَى بِهِ بَدُونَ عَضَائِهِ، وَكَانَ هَذَا رَضِيُّ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي عَلَى مَا كَانَ بِهِ مِنْ ضَيْقِ الْعَطَنِ أَوْسَعِ صَدُورِ ذَلِكَ الْعَصْرِ صَدْرًا وَأَقْلَهُمْ شَرًّا، وَأَوْطَاهُمْ جَنَابًا وَأَصْفَاهُمْ شَرْبًا، وَكَانَ نَائِبُهُ كِمَالُ الدِّينِ أَبُو الرَّيَّانِ الْأَصْفَهَانِي مِنْ تَلَامِيذِ عَمِّي الْعَزِيزِ وَغُلَمَانِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَعْرِفُ مِنْهُ بِقَوَائِنِ الْإِسْتِيفَاءِ فِي زَمَانِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْأَدَبِ، عَالِيًا مَعَ تَقْصِيهِ فِي أَكْمَلِ الرَّتَبِ، وَهُوَ صُورَةٌ بِلَا مَعْنَى وَحُسْنٌ بِلَا حُسْنِي، وَجَنَابٌ بِلَا جَنَابٍ، وَجَدُّ بِلَا جَدْوَى، وَبَرَقٌ بِلَا إِبِلٍ، وَطَوَّلٌ بِلَا طَائِلٍ، وَجَمَالٌ بِلَا جَمِيلٍ، وَجُمْلَةٌ بِلَا تَفْصِيلٍ، وَمَلَقَى كُلَّهُ مَلَقًا، وَمَنْظَرٌ مُرَوِّزٌ مُرَوِّقٌ، وَكَانَ عَزُّ الْمُلْكِ الْوَزِيرُ مَعَ جَهْلِهِ وَشِدَّةُ بُخْلِهِ رَبَّمَا سَمَتَ لَهُ رِيحَ أَرْنِجِيَّةٍ وَسَمِيَتَ رُوحَ نُحَيْجَةٍ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِالْعِرَاقِ عَمِيدٌ رَازِيٌّ وَلَهُ أُنَاثٌ وَرِيٌّ تَوَلَّى سَنَةً وَتَسَنَّى وَلايَةً، وَاكْتَفَى ثُرُوءًا حِينَ أَرَى كِفَايَةَ قَدْ اسْتَقْنَى وَاسْتَغْنَى، وَحَبَى وَجَحَى، وَتَمَوَّنَ وَتَمَوَّلَ، وَتَخَوَّنَ وَتَخَوَّلَ، وَاقْتَطَعَ وَاقْتَطَفَ، وَتَسَلَّمَ وَتَسَلَّفَ، وَاسْتَنْفَضَ وَاسْتَنْطَفَ، وَاسْتَرَفَقَ وَاسْتَرَفَدَ، وَغَضِبَ وَغَضَدَ، وَخَضَدَ وَخَضَمَ وَقَضَبَ وَكَبَسَ وَكَسَبَ، وَخَلَا لَهُ الْجَوْ قَبَاضَ وَصَفَرَ، وَصَفَا لَهُ

مَلْبَسُ النُّجُجِ، وَصَفَرَتْ بِهِ خُطَّةُ الظَّفَرِ، فَلَمَّا جَاءَ السُّلْطَانُ قِيلَ لَهُ إِمْعَلْ حَسَابَكَ وَاكْتَسِبْ  
الْجَاهَ وَوَجْهَ أَكْسَابِكَ، فَأَحْضَرَ الْمُشْرَفَ وَكَانَ يُعْرَفُ بِابْنِ الْحَكِيمِ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ، وَقَالَ  
أَرِيدُ أَنْ يَدَعَ الْمَكْرَ مِنْكَ وَيَدْعُو مَكْرَ مَتَكَ وَتَهْتَمَّ بِأَمْرِي وَتَسْتَأْمِرَ هِمَّتَكَ وَتُحَسِّنَ الْحِسْبَةَ  
وَتَحْتَسِبَ الْحُسْنَ، وَتَكْتَفَّ بِكِفَايَتِكَ عَنِّي الْأَيْدِي وَالْأَلْسِنَةَ، فَقَالَ الْمُشْرَفُ أَنَا لَا أَجْسُرُ أَنْ  
أَسْتُرُ، وَلَكُلِّ مَا أَذْكَرُ لَا بُدَّ أَنْ أَذْكَرَ، وَعَلَيَّ أَنْ أَخْفِيَ كَثِيرًا مِمَّا خَفِيَ مِنَ الْجَنَائِبِ وَالْخِيَانَاتِ  
وَالْاجْتِنَابَاتِ وَالْجُعَالَاتِ، وَلَا بُدَّ أَنْ أَجْمَعَ كُلَّ مَا أَخَذْتُهُ مِنَ الْمُرَاقِبِ الْوَافِرَةِ وَالْفَوَائِدِ  
الظَّاهِرَةِ، وَاتَّفَقَا عَلَى إِسْقَاطِ مَبَالِغٍ حَتَّى تَقَرَّرَ عَلَى ذِكْرِ خَمْسِينَ أَلْفِ دِينَارٍ مِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ  
مِنَ الْمُرَاقِبِ وَالرُّسُومِ، وَرَأَى الْمُشْرَفُ إِضَافَةَ ذَلِكَ فِي الْحَسَابِ مِنَ الْمُخْتَوَمِ، فَبَدَّلَ لَهُ أَلْفِي  
دِينَارٍ عَلَى أَنَّهُ يَذْكُرُهَا فِي الْحَشْرِ وَلَا يُبْرزُ بِهَا لَعَلَّ الْوَزِيرَ يَغْفُلُ عَنْهَا وَلَا يُؤَاخِذُهُ بِسِيَّهَا  
فَأَبَى إِلَّا إِيْرَادَهَا، وَتَخْصِيصَهَا بِالذِّكْرِ وَإِفْرَادَهَا، وَحَدَّثَنِي الْمُشْرَفُ ابْنَ الْحَكِيمِ قَالَ: دَخَلْنَا  
بِالْحَسَابِ إِلَى الْوَزِيرِ عَزِّ الْمُلْكِ الْبُرُوجَرْدِيِّ فَأَوَّلُ مَا وَقَعَتْ عَيْنُهُ فِي الْمَجْمُوعِ عَلَى الْمَبْلُغِ  
الْمُرْفُوعِ، فَقَالَ مَا هَذَا؟ فَقِيلَ الرُّسُومُ الَّتِي أَخَذَهَا وَالْمُرَاقِبُ الَّتِي اجْتَدَّهَا، فَضَرَبَ عَلَيْهِ  
بِقَلْمِهِ، وَقَالَ: كَيْفَ تُجِزُونَ أَنْ يَجْمَعُوا عَلَيْهِ مَا ارْتَفَقَ بِهِ مِنْ رُسُومِهِ وَخَدِمِهِ، هَذَا بَقِيَّ عَلَى  
الْبَابِ سِتِّينَ يَتَدَبَّرْنَ وَيَتَمَوَّنَ وَيَغْرَمُ وَيُنْفِقُ وَيُلَازِمُ لِخَدِمِهِ يُنْفِقُ، فَلَمَّا شَفِيَ أَلَمَ أَمَلِهِ وَرَفَعَ  
عَلْمَ عَلَيْهِ صَارَ لَهُ مَعْلُومٌ وَحَصَلَتْ لَهُ رُسُومٌ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ تَسْتَعِيدَهَا، وَمَا فَوْضَ  
إِلَيْهِ الشُّغْلُ إِلَّا لِيَسْتَفِيدَهَا قَالَ: فَخَرَجْنَا نَسْحَبُ أَذْيَالَنَا، أَنَا لِلْحَجَلِ وَالْعَمِيدُ لِلْحَذَلِ، وَقَدْ  
رُدُّوا إِلَى الْعَمَلِ فَأَخَذَ بِيَدِي وَنَاوَلَنِي صُرَّةً فِيهَا سِتُّمِائَةِ دِينَارٍ، وَقَالَ هَذَا بَقِيَّةُ مَا كُنْتُ عَزَلْتُهُ  
لَكَ وَبَدَلْتُهُ فَإِنَّكَ لَمَّا أَبَيْتَهُ اسْتَعْنَيْتُ مِنْهُ بِجَمَاعِهِ فِي غَرَمِ بِجُمْلَتِهِ وَمَا بَقِيَ قَدْ جَعَلْتُهُ بِأَسْمِكَ،  
وَمَا ضَرَّتْنِي أَمَانَتُكَ فَاجْرِ فِيهَا عَلَى رَسْمِكَ، وَلَمَّا جَلَسَ مُؤَيَّدُ الدِّينِ الْمُرْزِبَانُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ  
فِي الْوِزَارَةِ بَدَأَتْ الْأُمُورُ فِي الْإِخْتِلَالِ وَالْعُقُودِ فِي الْإِنْحِلَالِ، وَالرَّفْعَةُ فِي الْإِنْخِفَاضِ،  
وَالْبَسْطَةُ فِي الْإِنْقِبَاضِ، وَالْمَطَالُغُ فِي الْخَفَاءِ، وَالْمَطَالِبُ فِي الْجَفَاءِ، وَقَدْ قَنَعَ مِنَ الْوِزَارَةِ  
بِأَسْمِهَا، وَمِنَ الْمَرْتَبَةِ بِرُسْمِهَا، وَمِنَ الْجِسْمَةِ بِحَشْمِهَا، وَمِنَ الْخِدْمَةِ بِخَدْمِهَا، وَلِحَيْصِ  
يَيْصِ مِدْحَةٍ أَشَدَّنِي لِنَفْسِي<sup>(1)</sup>: [الوافر]

لِسَارِيهِ الْوَزِيرُ الْمَرْزِيَانُ  
عَلَى الدُّنْيَا بِرَأْفَتِهِ أَمَانٌ  
وَعِنْدَ الْعِمَارِ هَيَابٌ جَبَانٌ  
حَفِظَتْهُ الْمُهَنْدُ وَاللِّسَانُ

أضَاءَ اللَّيْلُ مِنْ زَمَنْ وَحَظُّ  
طَلِيقُ الْبُوجِهِ سَهْلُ الْبَابِ سَمْحٌ  
شَجَاعٌ فِي اكْتِسَابِ الْحَمْدِ ذَمْرٌ  
يُودُ الْمَاءُ شِيمَتَهُ وَيَخْشَى  
وَأَشْدَنِّي فِيهِ لِنَفْسِهِ (١): [الْبَسِيطُ]

وَاللَّيْلُ أَسْحَمُ نَائِي الصُّبْحِ غَرِيبٌ  
عَذْبُ الشَّمَائِلِ مَرْغُوبٌ وَمَرْهُوبٌ  
مَا أَمْسَكَ الْغَيْثُ وَأَغْبَرَ الْمُخَاصِبُ  
بِأَسِّ جَرِيءٍ وَهَامِي الْعَرَفِ مَسْلُوبٌ  
لِللَّخَطِ تَحْسَدُهُ الشَّمُّ الشَّخِيبُ  
وَفِيهِ عَن عَوْرَاتِ الْقَوْلِ تَقْطِيبُ  
وَفِي قَمِيصِهِ ذُو نَيْقٍ وَشُؤْبُوبُ

وَخَاطِرُ مَنْ حَدِيثِ الْمَجْدِ سَاوَرَنِي  
بَغَى عَلَى النِّجَاحِ رَدَاءً فَاسْتَجَابَ لَهُ  
مُؤَيَّدُ الدِّينِ بِذَلِكَ النَّوَالِ إِذَا  
غَمَّرَ الرِّدَاءَ لَهُ فِي كُلِّ مَنْقَبَةٍ  
مُؤَقَّرٌ وَحَسْبَى الْأَقْوَامِ طَائِثَةٌ  
إِذَا كَفَهَرَ شَدِيدٌ فَهُوَ مُبْتَسِمٌ  
لَا يَدْرِكُ الْحَيَّ عَيْبًا فِيهِ يَنْقَمُهُ

وَكَانَ يَرُوقُ النَّاسَ بِبِشْرِ الْمَحْيَا، وَيَرُوقُهُ الْأَنْسُ بِشْرِبِ الْحُمَيَّا، وَكَهْ هَشَاشَةٌ مَوْمِقَةٌ  
وَيَشَاشَةٌ مَرْمُوقَةٌ، يُعْرِي الْكَيْسَ وَيَكْسُو الْكَأْسَ، وَيُحِبُّ أَنْ يُبَيِّحَ النَّاسَ الْإِنْيَاسَ، وَهُوَ سَمْحٌ  
الشِّيمَةُ مَشِيمُ السَّمَاخَةِ، مُنَادِمٌ لِلزَّاحِ فِي نَادِي الرَّاحَةِ، لَا يَتَنَبَّسُ إِلَّا عَلَى قَدَحٍ، وَلَا يَتَلَكَّسُ إِلَّا  
بِفَرْحٍ، وَلَا يُنَافِرُ إِلَّا الْعَوَانِي، وَلَا يُنَافِثُ إِلَّا الْأَغَانِي، وَلَا يُصَارِعُ إِلَّا دَنَاءً، وَلَا يُرَاضِعُ إِلَّا سَنَاءً،  
يَرشِفُ الْعَتِيقَ، وَيَفْرُشُ الْحَدِيثَ، وَيُقَبِّلُ الشَّنِيتَ، وَيَقْبَلُ الْأَثِيثَ، وَوزراءُ الْأُمَرَاءِ قَدْ غَلَبُوا  
عَلَى أَمْرِهِ وَبَلَّغُوا إِلَى قَدْرِهِ، وَتَعَرَّفُوا إِلَيْهِ ثُمَّ رَفَعُوا عَلَيْهِ، وَأَطَعَمَهُمْ فَأَطَعَمَهُمْ، وَتَسَبَّعُوا عَلَيْهِ  
لَمَّا أَشْبَعَهُمْ، فَمَا لَهُ أَمْرٌ مَاشٍ وَلَا أَمِيرٌ خَاشٍ، وَلَا لَهُ قَوْلٌ مَسْمُوعٌ وَلَا طَوْلٌ مَتَّبِعٌ، وَلَا هُوَ  
مَشْكُورٌ وَلَا مَشْكُورٌ، وَلَا هُوَ مَخْشِيٌّ وَلَا مَرْجُوءٌ، بَلْ عَرَفَ أَنَّ السَّلَامَةَ فِي سَلَامَةِ الْقَلْبِ وَطَوَاءَةِ  
الْجَنبِ، وَالْمَلَقَى الْعَذْبِ وَالْمَلَقَى الرَّحْبِ، وَالْأَشْتِغَالِ عَنْهُ بِالْأَشْتِغَالِ بِالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ،  
وَخَاصَبِكَ بِنُ بَلَنْكِرِي هُوَ الْأَمِيرُ النَّاهِي، الزَّاهِرُ الزَّاهِي، الْمُتَفَرِّدُ بِالتَّنَاهِي فِي التَّبَاهِي، وَهُوَ  
دَاهِيَةٌ مِنَ الدَّوَاهِي، وَكَانَ وَزِيرُهُ رَيْسُ الدِّينِ أَبُو تَغَلَبَ بْنُ حَمَادِ السَّهْرُورِدِيِّ الْعَبِيقُ بَرِيًّا  
الرَّنَاسِيَّةَ، اللَّيْقُ بِرَأْيِ السِّيَاسَةِ، الْمُقْبَلُ الْمَقْبُولُ وَالْمُمُولُ الْمَأْمُولُ، وَالْحَصِيفُ الْفَصِيفُ

وَالنَّجِيبُ النَّجِيجُ، وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمْرِ وَاحْتَوَى، وَتَمَكَّنَ مِنْ وَرْدِ الْمُلْكِ وَارْتَوَى، وَمَا هُوَ مَاضِي الْحُكْمِ حَاكِمُ الْمَضَاءِ، مُكْتَبِرٌ مِنَ الْغِنَى كَثِيرُ الْغِنَاءِ، وَكُلُّ أَمْرٍ لَا يُنْفَذُهُ لَا يُنْفَذُ، وَكُلُّ حَقٍّ لَا يَأْخُذُهُ لَا يَأْخُذُ، وَكُلُّ حَدٍّ لَا يَفْلُهُ لَا يَفْلُ، وَكُلُّ مُشْكَلٍ لَا يَحُلُّهُ لَا يُحَلُّ، وَكُلُّ عَلِيلٍ لَا يَعُودُهُ لَا يُبِيلُ، وَكُلُّ غَلِيلٍ لَا يَجُودُهُ لَا يُبِيلُ، وَكَانَ كَصَاحِبِهِ الْمَسْعُودِ مَصْحُوباً بِالسَّعَادَةِ، مَمْدُوداً مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ بِالزِّيَادَةِ، وَهُوَ مِنْ مَمْدُوحِي الْأَمِيرِ أَبِي الْفَوَارِسِ الْمَعْرُوفِ بِحَيْصٍ بَيْصٍ، أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِيهِ فِي أَوَّلِ لِقَائِهِ لَهُ<sup>(1)</sup>: [الطويل]

وَلَمَّا تَلَّاقَيْنَا وَلِلشُّوقِ سَوْرَةٌ  
عَشَوْتُ لِأَدْنَى لَمْعَةٍ مِنْ سَنَى الْعُلَى  
فَقُلْتُ رَيْسُ الدِّينِ أُمَّ جَوْنَةَ الضُّحَى  
أَغْرُتُ وَقُورُ الْعَطْفِ مَلَأَنَّ مِنْ نُهَى  
يَمُدُّ أُنْبِيَاهُ لَدَى السَّلْمِ وَالْوَعَى  
بِأَدْنَى مَدَى فِي الطَّرْسِ سَارَ يَرَاعُهُ  
يَرُدُّ دُجَى الْخَطْبِ الْبَهِيمِ ظَهِيرُهُ  
وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِيهِ يَهْتَهُ بِالْعِيدِ وَيَصِفُ الْعِيدَ<sup>(2)</sup>: [الطويل]

وَزَيْنْتُهُ مَعْسُولَةً وَشَمَائِلُهُ  
إِلَى غَيْرِ رَوْعِ جُرْدُهُ وَصَوَاهِلُهُ  
بِبَغْدَادَ عَيْدٌ مَا تَغِبُّ نَوَافِلُهُ  
إِلَى الْحَوْلِ نَزَرٌ مِنْ نَدَى أَنْتَ بَازِلُهُ  
فَلَمْ يَعْدُنَا يَوْمًا نَدَاهُ وَنَائِلُهُ  
وَعَقَرُ أَعَادِيهِ حِدَادٌ مَنَاصِلُهُ  
إِلَى الْمَجْدِ تَشْقَى نَيْبُهُ وَعَوَاذِلُهُ  
وَيَحْسُدُهُ دَرُّ النِّمَامِ وَوَابِلُهُ  
غَدَا بِيهِمَا أَفْضَالُهُ وَقَفْضَالُهُ

(1) ديوان حيص بيص 2 / 324

(2) ديوان حيص بيص 2 / 325

كَانَتْ قَدْ تَأَكَّدَتْ بَيْنَ الْأَمِيرِ عَبَّاسِ صَاحِبِ الرَّيِّ وَالْأَمِيرِ بُو زَابَةَ صَاحِبِ فَارَسِ صِدَاقَةً صَادِقَةً، وَمَوَدَّةً أَحْوَالَهَا الْحَوَالِي مُسَاسَةً مُتَنَاسِقَةً، فَتَمَلَّكَهُمَا الطَّمَعُ وَطَمَعًا فِي الْمَمْلَكَةِ وَعَزَمًا وَزَعَمًا أَنَّ الْبَرَكَةَ فِي الْحَرَكَةِ، وَقَالَ إِنَّ الْعُرْصَةَ خَالِيَةً وَالْفُرْصَةَ بَادِيَةً، وَالْأَرَابَ وَالْأَدَابَ مُخْتَلَفَةً مُخْتَلِطَةً، وَالْأَهْوَالَ وَالْأَهْوَاءَ مُحِيطَةً مُحْتَبَطَةً، وَالْخُطُوبَ خَاطِبَةً وَالْوَجُوهَ قَاطِبَةً، وَالْأَيْدِيَّ بَاطِشَةً وَالْحُلُومَ طَائِشَةً، وَالسُّلْطَانَ مَشْغُوفٌ بِمَلَازِمِهِ مَشْغُوفٌ عَنِ مَلَازِمِهِ، فَهَذَا وَقْتُ الْإِرْتِمَاءِ فِي الْغُرَةِ وَامْتِرَاءِ الدَّرَةِ، وَالْإِنْتِهَاضِ بِالرَّايَةِ وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى الْغَايَةِ، فَكَتَبَ بُو زَابَةَ إِلَى السُّلْطَانِ إِنِّي وَاصِلٌ إِلَى خِدْمَةِ السَّرِيرِ لِلسَّرُورِ بِالْخِدْمَةِ، وَالْحَضُورِ حَيْثُ الْحُظُوظُ وَافِرَةٌ مِنَ النِّعْمَةِ، وَالنِّهْمَةُ الْعَالِيَةُ فِي شَرَفِ الْمُتَوَلِّئِ مُتَقَاضِيَةً، وَالْعَزِيمَةُ مِنِّي عَلَى قُرْبِ الْوُصُولِ مَاضِيَةً، وَخَرَجَ مِنْ شِيرَازَ بِالْمَلِكَيْنِ مُحَمَّدٍ وَمَلِكِشَاهِ ابْنِي السُّلْطَانِ مَحْمُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكِشَاهِ، وَخَرَجَ عَبَّاسٌ مِنَ الرَّيِّ بِالْمَلِكِ سُلَيْمَانَ أَخِي السُّلْطَانِ مَسْعُودِ، وَكَتَبَ أَيْضًا إِنِّي وَاصِلٌ إِلَى جَنَابِكَ لِمَلَازِمَةِ رِكَابِكَ، وَأَسِيرٌ لِأَرْضِي بِأَسْمَائِكَ، وَأَصِيرٌ أَرْضًا لِسِمَائِكَ، وَأَكُونُ مُجَالِسًا لِيَابِكَ وَمُسَاجِلًا لِبَلْبَابِكَ، فَحَمَلَ السُّلْطَانُ قَوْلَهُمَا عَلَى الظَّاهِرِ، وَأَبْدَى لَهُمَا صَفْحَةَ الشَّاكِرِ، وَخَافَ مَا خَفِيَ فِي الْبَاطِنِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَعَدِمَ مَنْ يُدَبِّرُ بِالْحِجْيِ فَلِ الْجَحَافِلِ، وَعَرَفَ أَنَّهُمَا إِنْ وَصَلَا قَطْعًا، وَإِنْ مُنَحَا مَنَعًا، وَإِنْ بَلَّغَا غَلْبًا، وَإِنْ طَلَعَا طَلَبًا، وَعَلِمَ أَنَّ أَمْرَهُ مَعَهُمَا غَيْرٌ مُسْتَقِيمٌ، وَإِنْ رَحَلَا إِلَيْهِ فَهُوَ غَيْرٌ مُقِيمٌ، وَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ جَاوَلِي الْجَانِدَارِ يَسْتَدْعِيهِ، وَيَسْتَعْدِيهِ وَيَسْتَنْجِدُ بِهِ وَيَسْتَجِدِيهِ، فَوَجَدَهُ مُتَّجِنًا مُتَّجِنًا مُتَّعِضًا مُتَّعِضًا، مُتَّعَلَّلًا بِالْقَبْضِ عَلَى الْوَزِيرِ عَزَّ الْمُلْكُ مِنْ غَيْرِ مُشَاوَرَتِهِ وَلَا مُسَاوَرَتِهِ، وَقَلَّةِ اكْتِرَائِهِمْ بِهِ وَتَرَكِ مُرَاصِدَتِهِ فِي مُصَادِرَتِهِ، فَلَمَّا شَعَرَ السُّلْطَانُ بِتَأَخُّرِهِ وَتَقَدُّمِهِمَا اسْتَشْعَرَ حَذَرَهُ وَأَضْمَرَ شَرَّهُ وَمَا أَظْهَرَهُ، وَوَزَّى عَنِ الْهَزِيمَةِ بِرَحْلَةِ الشِّتَاءِ إِلَى بَغْدَادَ، وَحَثَّ السَّرِيرَ بِالْإِعْزَازِ، وَمَعَهُ مِنَ الْأَكَابِرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايِرِكَ وَخَاصِبِكَ بْنُ بَلَنْكِرِيِّ، وَوَصَلَ بُو زَابَةَ وَعَبَّاسٌ بَعْدَهُمَا إِلَى هَمْدَانَ، عَلَى ظَنِّ أَنَّهُمَا يَجْتَمِعَانِ بِالسُّلْطَانِ، وَهُمَا مُبْدِيَانِ لِلطَّاعَةِ مُخْفِيَانِ لِلْعَصِيَانِ، فَأَقَامَا بِهَا شَاتِيَيْنِ، وَبَاتِي الْعَسْفِ آتِيَيْنِ، وَاتَّصَلَ بِهِمَا الْأَمِيرُ نَاصِرُ الدِّينِ الْبَاذَرَايِيُّ، وَكَانَ لَيْثًا خَادِرًا وَقَسُورًا قَاسِرًا، مِقْدَامًا عَلَى الْأَهْوَالِ، مِقْدِيمًا فِي الْأَحْوَالِ، وَكَتَبُوا إِلَى الْأَمِيرِ جَاوَلِي الْجَانِدَارِ بِأَذْرِيحَانَ يَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ الْكَبِيرُ وَلَكَ التَّدْبِيرُ، وَنَحْنُ أَتْبَاعُكَ وَأَشْيَاعُكَ، فَإِنْ قَدِمْتَ عَلَيْنَا قَدِمْتَ عَلَيْنَا، وَكُنْتَ صَاحِبَ جِيُوشِ مَنْ يَنْتَصِبُ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ، وَانْخَرَطْنَا مَعَكَ طَائِفِيْنَ فِي السَّلْكِ، فَردَّ جَوَابَهُمْ بِجَمِيلٍ وَأَعَادَ

رَسُولَهُمْ بِتَأْمِيلٍ، وَاشْتَعَلَ بِحَشْدِ الْجَمُوعِ وَجَمَعَ الْحُشُودَ وَحَشَرَ الْجُنُودَ وَتَشَرَ الْبُيُوتَ  
وَأَتَصَلَ بِهِ أَتَابِكُ إِيَّازَ وَكَانَ أَتَابِكُ دَاوُدَ فِي حَيَاتِهِ، وَهُوَ مَشْكُورُ الْعَنَاءِ فِي مَقَامَاتِهِ، وَعَصَدَهُ  
الْأَمِيرُ شِيرُ بْنُ أَسْتَقْرَ فَأَظْهَرَ حَيْثُنَا النُّهْدَةَ إِلَى هَمْدَانَ، وَالنَّهْضَةَ إِلَى النَّاهِضِينَ الْمُتَسَلِّطِينَ  
عَلَى السُّلْطَانِ، فَوَجَدَ الطَّرِيقَ مَسْدُودَةً بِالثَّلُوجِ وَالْمَسَالِكَ ضَيْقَةً الْفُرُوجِ، فَأَقَامَ بِعَسْكَرِهِ  
مُجْتَمِعاً، وَلِلنَّهْضِ عِنْدَ انْحِسَارِ الثَّلُوجِ مُزْمِعاً، وَتَطَايَرَتْ كِتَبُهُ إِلَى بَغْدَادَ لِاسْتِدْعَاءِ  
السُّلْطَانِ إِلَيْهِ وَاسْتِقْدَامِهِ عَلَيْهِ، وَالسُّلْطَانُ بِيغْدَادَ لَاهٍ بِلَهْوِهِ زَاهٍ بِزَهْوِهِ غَافِلٌ عَنِ ذَلَّتِهِ غَافٍ  
لِلذَّلَةِ، قَدْ شَغَلَتْهُ الْقَهْوَةُ عَنِ الصَّهْوَةِ، وَالخَنْدَرِيسُ عَنِ الْخَمِيسِ، وَالْكَمَيْتُ عَنِ الْكَمَيْتِ،  
وَالصَّهْبَاءُ عَنِ الْهَيْجَاءِ، وَالْبَيْضُ وَالسُّمْرُ عَنِ الْبَيْضِ وَالسُّمْرِ، وَالْأَكْلُ وَالشَّرْبُ عَنِ النَّهْيِ  
وَالْأَمْرِ، لَا يُنْكِرُ وَلَا يُفَكِّرُ وَلَا يَفْرُدُ وَلَا يَنْفَرُ، حَتَّى طَابَ الزَّمَانُ وَاعْتَدَلَ، وَسَبَّ النَّبْتُ  
وَاكْتَهَلَ، وَحَيَّى الثَّرَى ثَرَاتُ الْحَيَا، فَأَثَرَ الثُّورُ مِنْ نَوَى الثُّرَيَا، وَفَاحَتْ أَرْجَاءُ الرِّيَاضِ الْفَيْحِ  
بِرِيَاحِينِهَا أَوْلَجَهُ الرِّيَا، وَتَنَبَّهَ السُّلْطَانُ مِنْ وَسْنِهِ، وَرَجَعَ مِنَ الْحَزَمِ إِلَى سَنْيَةِ، وَكَلَّبَى نِدَاءَ  
جَاوَلِيٍّ وَأَجَابَ دَعْوَتَهُ، وَعَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ إِلَيْهِ وَوَسَّعَ حُطُوتَهُ، وَسَارَ عَلَى الدَّرْبِ بِنَدَى الْقَرَابِلِيِّ  
إِلَى الْمُرَاغَةِ فِي أَوْعَرِ طَرِيقٍ وَأَعْيَبِ مَضِيقٍ، حَتَّى اتَّصَلَ بِالْأَمِيرِ جَاوَلِيٍّ جَانْدَارٍ فَافْتَرَضَ إِلَى  
خِدْمَةِ السُّلْطَانِ الْبَدَارَ فَكَتَفَ مِنَ الْعُدَدِ الْجَمْعُ، وَكَثَرَ مِنَ الْعُدَدِ اللَّمْعُ، وَاسْتَمَرَّ وَقَعَ النَّقْعُ  
وَخَرَقَ الْخَرَقَ، وَبَاءَ يَغْرِبُ مَا شِيمَ مِنْ مَاءِ الْجَفُونِ شَرَقُ الشَّرْقِ، وَبَرَقَتِ الْأَبْصَارُ مِنْ  
بَوَارِقِ الْبِيَارِقِ بِأَبْصَارِ الْبُرَى، وَعَرَضَ الْجَيْشُ وَجَاشَ الْعَرَضُ، وَأُرْتَجَّتِ السَّمَاءُ بِالْعِجَاجِ،  
وَأُرْتَجَّتِ الْأَرْضُ بِالضُّجَاجِ، وَتَعَبَ غُرَابُ الْغُبَارِ بِنَوَى الْأَنْوَارِ، وَطَمَّتِ الْحَوَافِرُ الْحَوَافِرُ  
أَنْهَاءَ النَّارِ، وَأَقْتَرَضَتِ السَّمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ تَرَابَهَا وَاهْنَةً بِهَ عَيْنَ الشَّمْسِ، وَكَمَعَتِ أَشْعَةُ  
الْأَلْوَانِ الْحَمْرِ قَبْدًا فِي مِرَاةِ الْجَوْ الشَّفَقِ الْعَكْسِ، وَمَاجَتْ بِحَاوِزِ السَّوَابِغِ وَالسَّوَابِغِ،  
وَاهْتَزَّتْ لِالْإِرْتِيَاكِحِ إِلَى مُدَامِ الدَّمَاءِ مَعَاطِفُ الطَّبِيِّ الْعَوَائِقِ الصَّوَانِحِ، وَأَعَجَبَتِ السُّلْطَانَ  
الْحَالَ وَحَلَّ بِهِ الْعُجْبُ، وَأَنْقَلَبَ إِلَى الْقُوَّةِ وَقَوِيَ مِنْهُ الْقَلْبُ، وَقَالَ مَا جَاءَ وَلِيَّ لِيَجَاوِلِيَّ  
وَأِنَّهُ أَوْلَى مِنْ صَحَّةِ مُنَاصِحَتِهِ وَهُوَ لِي، وَحَسَدُهُ الْجَمَاعَةَ وَعَظِيمُوهُ، وَتَحَيَّلُوا فِي أَنْ يَقْبِضُوا  
عَلَيْهِ وَيَرْبِطُوهُ، وَكَانَ فَخْرُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ طَغَايِرِ بْنِ مَعْ مُصَاهِرِيهِ لِيَجَاوِلِيَّ مُسْتَقْبَلًا  
بِمَكَانِهِ مُتَعَدِّراً بِإِمَّاكِيهِ، مُتَبَرِّئاً مِنْ اسْتِيْلَائِهِ مَتَوْهَمًا مِنْ بِلَائِهِ، سَاخِطاً مِنْ مَرَاضِيهِ، قَانِطاً مِنْ  
أَرْجِيهِ، سَاقِطاً مَعَ انْتِعَاشِهِ، وَاجِمًا بِاهْتِشَاشِهِ، وَكَانَ خَاصِبِكُ بْنُ بَلَنْكِرِيِّ مَنْطُوباً مِنْهُ عَلَى  
عِمْرَ عَمْرٍ، مَتَوْطِنًا مِنْ وَغْرِهِ الْوَعْمِ الْجَمْرِ عَلَى جَمْرِ، قَدْ انْحَنَّتْ بِالْإِحْنِ أَحْنَؤُهُ، وَشَحِنَتْ

بِالْمِحْنِ شَحَانُوهُ، وَتَعَاقَدَتْ عَقَائِدُهُ فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ حَلَّ تَبْرِيْرَ عَنْهُ وَأَقْرَاهَا عَلَى أُرْسُلَانِ بِنِ آقِ  
سَنْفَرٍ فَحَقَّقَدَ عَلَيْهِ وَأَدَبَ كَيْدَهُ إِلَيْهِ، فَتَأَمَّرَ الْجَمَاعَةُ فِي جَاوَلِيٍّ وَأَجْمَعَ الْأَمْرَاءُ وَاحْتَالُوا  
لَاغْتِيَالِهِ فِي سُرَادِقِ السُّلْطَانِ فَظَهَرَ الْخَفَاءُ، وَقَالُوا إِذَا أَشْفَيْنَا مِنْهُ صُدُورَنَا بِشَفَاءِ صُدُورِ  
سُيُوفِنَا فَلَا بُيَالِي إِذَا غَلَبَ عَلَى الْمُلْكِ الْأَعْدَاءُ، فَاطَّلَعَ عَلَى السَّرِّ، وَوَقَعَ عَلَى مَكْرٍ الْمَكْرِ،  
وَتَطَايَرَ نَحْوَهُ مِنْ قَدَحِ الْقَدَحِ فِيهِ شَرُّ الشَّرِّ، فَعَرَفَ أَنَّ حَقُوقَهُمْ بِحُقُودِهِمْ مُبْطَلَةٌ، وَأَنَّ  
عُقُودَهُمْ بِعُقُولِهِمْ مُعْطَلَةٌ، وَأَنَّهُ قَنَصَ مَصَائِدَهُمْ، وَلَا مَخْلَصَ لَهُ مِنْ مَكَائِدِهِمْ، وَأَنَّ كُلَّ مَا  
يَنْفَعُهُمْ ضَرُّهُ وَكُلُّ مَا نَفَعَهُمْ جَرُّهُ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَأْخُذْ حَذْرَهُ أُخَذُوهُ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَنْتَبِذْ عَنْهُمْ  
نُبْدُ، وَأَنَّهُمْ رَبَّمَا احْتَالُوا فَاعْتَالُوا، وَنَالُوا بِالْكَيْدِ الْخَفِيِّ مَا تَعَسَّرَ عَلَيْهِمْ مَعَ الْقُوَّةِ أَنْ يَنَالُوا،  
وَالْحَزْمُ أَنْ يُظَهَرَ أَمْرُهُمْ وَلَا يَسْتُرَ مَكْرَهُمْ، فَإِنَّ الْاسْتِلَابَ مَعَ الْإِلْتِيَّاسِ وَالْإِحْتِرَازِ  
بِالْإِحْتِرَاسِ، فَاحْتَرَزَ مِنْهُمْ وَتَقَبَّضَ عَنْهُمْ وَأَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِهِمْ كَمَا أَرَادُوا الْبَطْشَ بِهِ، ثُمَّ  
جَرَى فِي الْحِلْمِ وَالْكَرَمِ عَلَى حَسَبِ مَذْهَبِهِ، وَكَرِهَ مُوَاجَهَتَهُمْ بِوَجْهِهِ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَبَيَّيَ مِنْ  
يَوْمِ شَهْرِهِمُ الْمَشْهُودِ كَالْمَدْهُوسِ الْمَشْدُودِ، فَحَذَرَ وَنَذَرَ، وَدَعَرَ وَعَذَرَ، وَتَحَجَّرَ وَتَحَجَّرَ،  
وَتَفَرَّرَ وَتَفَرَّرَ، وَضَرَبَ خَيْمَتَهُ نَاحِيَةً وَلَمْ يُعْرَ سَمْعُهُ فِي الْحَزْمِ لِأَخِيهِ، وَقَالَ لِلْسُّلْطَانِ أَنَا  
عَلَى مُنَاصِحَتِكَ وَفِي مَنِيَّ صَحْتِكَ وَلَا يَجْمَعُنِي وَإِيَّاكَ بَعْدَ هَذَا نَادٍ، وَلَا يَسْمَعُ تَلَيُّبِي فِيهِ  
مُنَادٍ، بَلْ لَا يَلْقَانِي إِلَّا وَأَنَا رَاكِبٌ فَرَسِي وَفَارَسٌ مَرْكَبِي، وَأَرِيْبُ مَمْلَكَتِي وَمَالِكُ أَرِيْبِي، وَمَا  
اجْتَمَعَ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ وَجَاوَلِيٍّ جَانِدَارٌ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا رَاكِبَيْنِ مُنْفَرِدَيْنِ عَنِ الْعَسْكَرِ  
مُتْجَانِبَيْنِ، وَقَالَ السُّلْطَانُ إِنْ أَرَدْتَ تَدَانِيَّ أَمْنِي فَتَبَاعَدْ عَنِّي وَدَعْنِي أَنْهَضُ بِعَسَاكِرِي إِلَى  
أَعْدَائِكَ، وَأَخْذُهُمْ إِلَى وَلَائِكَ وَأُذْكَرُهُمْ بِحَقُوقِ نَعْمَائِكَ، وَإِنْ أَنَابُوا أَكْرَمْتُهُمْ وَإِنْ أَتَبَعُوا  
بَسْرِيْرَتَهُمْ وَإِنْ سَارُوا أَتَبَعْتَهُمْ، وَإِنْ قَارَعُوا قَرَعْتَهُمْ وَإِنْ صَارَعُوا صَرَعْتَهُمْ، فَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ  
السُّلْطَانُ وَاسْتَمَأَّهُ، وَاسْتَعْفَاهُ مِنْ ذِكْرِ مَا جَرَى وَاسْتَقَالَهُ، وَكَتَبَ بِتَوَلِيَّتِهِ مَنشُورًا، وَصَمَّ بِهِ مَا  
كَانَ مِنْ مَصَالِحِ حَضْرَتِهِ مَنشُورًا، وَحَكَّمَهُ فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَالْقُرْبِ وَالْبُعْدِ، وَالْإِقْطَاعِ  
وَالْجُنْدِ، وَالتَّقْرِيبِ وَالتَّقْرِيرِ، وَالتَّوْفِيَةِ وَالتَّوْفِيرِ، وَأَمَرَ الْأَمْرَاءَ بِالِاتِّمَارِ لِأَمْرِهِ، وَأَبْرَ بِيْرَهُ  
وَسَرَّ بِسِرِّهِ وَاسْتَبَسَّرَ لِإِسْرِهِ، وَسَرَعَ جَاوَلِيٍّ فِي مُكَاتِبَةِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ وَخَدَعَهُ، وَرَدَّهُ عَنِ  
الْمُقَامِ مَعَ الْقَوْمِ وَرَدَّعَهُ، وَتَوَثَّقَ لَهُ بِبَيْمِينِ، وَسَيَّرَ نَسْخَةَ أَمَانٍ لَهُ مَعَ أَمِينٍ، فَفَارَقَهُمْ وَوَصَلَ  
وَأَنْفَصَمَ عَنْهُمْ وَأَنْفَصَلَ، وَوَصَلَ أَيْضًا الْأَمِيرُ خَوَارِزْمِشَاهُ يَوْسُفَ وَأَخُوهُ، فَعَانَتْهُمَا عَلَى  
التَّوَجُّهِ لِلْأَعْيَانِ وَالْوَجُوهِ، وَحِينَ تَسَلَّمَ الْأَمَانَ سُلَيْمَانُ اسْتَسَلَّمَ وَظَنَّ أَنَّهُ سَالِمُهُ الزَّمَانَ،

وَلَمَّا عَرَفَ بوزَابَةَ وَعَبَّاسٌ بِتَعَدُّرِ مَا حَاوَلَاهُ، وَتَعَسَّرَ مَا زَاوَلَاهُ، وَتَطَاوَلَ الْمَدَى فِيمَا تَطَاوَلَ إِلَى مَدَاهُ، وَتَفَرَّقَ الْجِنْدُ الَّذِي جَمَعَاهُ، تَفَارَقَا عَلَى مُوَاعِدَةٍ فِي مُعَاوَدَةِ الْجَمْعِ وَوَدَّعَاهُ إِلَى مُوَادَعَةٍ مُوَدَّعَةٍ لِلطَّاعَةِ وَالسَّمْعِ وَعَزَمَ كِلَاهُمَا عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى بَلَدِهِ بِنَيْتِ الرَّجُوعِ، وَالغُرُوبِ فِي أَفْقِهِ عَلَى اسْتِثْبَاقِ الطَّلُوعِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ عِنْدَ اتِّصَالِ أَخِيهِ سَلِيمَانَ بِجَانِبِهِ وَاسْتِظْهَارِهِ بِكُتَابِهِ عَلِمَ أَنَّ بوزَابَةَ وَعَبَّاسًا يَفْتَرِقَانِ وَلَا يَتَّفِقَانِ، وَأَنَّهُمَا يَعِيدَانِ بَأَنَّهُمَا يَعُودَانِ، فَرَحَلَ الْعَسْكَرُ وَجَاوَلِي مَعَهُ إِلَى مَدِينَةِ سَجَّاسٍ عَلَى عَزِيمَةِ الْإِسْرَاعِ وَالْإِتْبَاعِ، وَالسُّلْطَانُ وَخَوَاصُّهُ عَلَى حَالَةٍ مِنَ الْارْتِيَاعِ وَالْإِرْتِيَاعِ، فَقَالَ لِجَاوَلِي إِنَّهُضْ أَنْتَ وَرَاءَ بوزَابَةَ بِالْعَسْكَرِ وَالشُّوْكَةِ مَعَهُ وَالرَّأْيِ مَسِيرِي إِلَى الرَّيِّ لِأَلْقَى عَبَّاسًا وَأَقْمَعَهُ فَمَضَى جَاوَلِي إِلَى هَمْدَانَ فِي الْآفِ الْآفِ لِلْمَصَالِ وَالْمَصَاعِ، أَحْلَافٍ لِيَمْلَأَ صِحَافِ الصِّفَاحِ مِنْ عُقَارِ الدَّمَاءِ بِإِدْمَانِ الْقِرَاعِ، وَعَمَدَ مَسْعُودٌ نَحْوَ الرَّيِّ فَحَصَلَ مِنْ وَرِيدِهِ بِالرَّيِّ، وَغَنِيَ بِالسَّعَادَةِ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْمُشْرِفِي وَالسَّمْهَرِي، وَقَبَضَ سَلِيمَانُ شَاهُ أَخَاهُ وَحَبَسَهُ فِي قَلْعَةِ سَرَجَهَانَ، وَتَلَقَّى مَا صُعِبَ بِالْإِحْتِمَالِ وَالْإِحْتِمَاءِ فَهَانَ، وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ جَاوَلِي جَاءَ وَلَى، وَأَخْلَى هَمْدَانَ وَتَرَكَ أَثْقَالَهُ وَخَزَائِنَهُ بِهَا وَخَلَى، فَسَارَ جَاوَلِي وَرَاءَهُ جَرِيدَةً وَرَأَاهُ لَهُ طَرِيدَةً، وَقَطَعَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْقُرْبِ مَرَاحِلَ بَعِيدَةٍ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ نَأَى عَنْهُ وَرَجَعَ عَزَمَهُ عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فِي ارْتِجَاعِهِ، وَأَبْدَى الْبَقَاءَ عَلَيْهِ وَأَسَدَى الْحُسْنَى إِلَيْهِ وَقَالَ أَتَّخِذُ الْيَوْمَ عِنْدَهُ يَدًا، لِيُنْجِدَنِي عِنْدَ الْحَاجَةِ غَدًا، فَهَذَا السُّلْطَانُ غَيْرُ مُوثِقٍ بِمَوَاقِيهِ، وَلَا مُوَفِّقٌ فِي تَسْدِيدِهِ وَتَقْوِيهِ، وَمَا حَفِظَهُ إِلَّا مَنْ أَحْفَظَهُ، وَلَا نَهَضَ بَغْيِي إِلَّا مَنْ يَهْظُهُ، فَمَا لِي أُخَاطِرُ بِنَفْسِي وَمَالِي أَشْغُلُ بِالْيَ بَشْغَلٍ مَنْ لَا يُبَالِي وَأَرَى لِمَنْ لَا يَرَى لِي، وَأَعْرَفُ حَقَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ حَقِّي، وَأَبْقِي عَلَى قَدْرِ مَنْ لَوْ قَدَّرَ فَإِنَّهُ عَلَيَّ لَا يُبْقِي، أَمَا وَثِقَ أَخُوهُ سَلِيمَانُ شَاهُ أَمْسَ بِصَفْقَةِ يَمِينِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَا يَمِينُ فِي يَمِينِهِ، وَالْيَوْمَ نَكَتْ أَيْمَانُهُ وَبَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَاهُ، وَعَابَ غَرَسَهُ وَسُقْيَاهُ، وَإِذَا لَمْ يَرِعْ أَخِيَةَ أَخِيهِ، وَلَمْ يَرِفْ إِلَّا فِي آلِهِ وَمُقَارِبِيهِ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ يُظَنُّ بِهِ الْقُرْبُ وَهُوَ بَعِيدٌ، وَيُعْتَقَدُ أَنَّهُ مُطْرَدٌ الْأَمْرِ عِنْدَهُ وَهُوَ عِنْدَ اعْتِقَادِهِ طَرِيدٌ، فَكُتِبَ إِلَى بوزَابَةَ وَهُوَ عَلَى جِدِّ الْعَزِيمَةِ وَحَدِّ الْهَزِيمَةِ قَدْ شَرَدَ وَرَشَدَ، وَهَرَبَ وَرَعَبَ وَعَزَبَ، وَهُوَ فِي وَصْلِ مَخَافَةٍ وَقَطْعِ مَسَافَةٍ، وَنَجَاءِ لِلنَّجَاةِ وَرَجَاءِ لِلْقَضَاءِ بِالْمَفْرَجَاتِ وَلَمْ يَدِرْ أَنَّ جَاوَلِي جَاءَ وَآيًّا، وَحَاوَلَ يَعِشُو بِأَمْنِهِ بِشَهْدِ الْوُدِّ مَلِيًّا، وَمَضْمُونُ كِتَابِهِ إِنِّي ضَامِرٌ كَيْتِيكَ، وَتَقْيِبُ وَدَكُّ وَوَادُتُ تَعْبِيَّتِكَ، وَخَاطِبُ حَبِّكَ وَمُحِبُّ خَطْبِكَ، وَالْعَامِلُ بِرِضَاكَ وَالرَّاضِي بِعَمَلِكَ، وَالْأَمِلُ بِمُؤَافَقَتِكَ وَالْمُؤَافِقُ لِأَمَلِكَ، وَمُؤَيَّرُ

لِإِنْبَارِكَ وَأَثَرِ آثَارِكَ وَمُثِيرِ ثَارِكَ وَمُجِيرِ جَارِكَ، وَأَنَا مُصَدِّقُكَ وَمُصَادِقُكَ، وَمُؤَافِقُكَ لَا مُفَارِقُكَ، وَمُرَاقِبُكَ لَا مُقَارِبُكَ، وَمُجِيبُكَ لَا مُجَابِبُكَ، وَقَدْ كَفَفْتُ عَنْ عِنَادِكَ عِنَادِي، وَأَرَعَيْتُ جَنَابَكَ إِرْعَاءَ جَنَابِي، وَقَدْ صرْتُ مِنْ حَزْبِكَ وَمَا سِرْتُ لِحَرْبِكَ بِزِيَاةٍ عَلَى قَوْلِهِ وَاعْتَدْتُ بِطَوْلِهِ وَصَحَّةِ الرَّفْعَةِ لَمْ يَفْرَجْ وَوَاجِبُ الصَّفَقَةِ لَضَمِّ يَخْرُجُ، وَيَبْدَأُ وَالْجَوَابُ يُجِيبُ الْبَيْدَ، وَوَرَدَ الصُّوَابُ صَوَّبَ الْمُزِيدَ، وَمَلَأَ أَيْدِي الرُّسُلِ بِالْأَيَادِي أَرْسَالًا، وَقَالَ حَسَنًا وَحَسَنَ مَقَالًا، وَذَكَرَ أَنِّي أَجَبْتُ الدَّاعِيَ وَكَلَيْتُ الْمُنَادِيَ وَمَا حَشْتُ سَيْرِي مِنْ هَمْدَانِ رَهْبَةً مِنْ لِقَائِكَ بَلْ رَغْبَةً فِي وِلَايَتِكَ، وَعَلِمْنَا بِأَنَّكَ تَعْرِفُ الصَّحِيحَ وَلَا تَعْرِفُ الْقَبِيحَ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ لَكَ الْهُدَى وَأَهْدَى إِلَيْكَ الظُّهُورَ، وَوَفَّرَ لَكَ الْعَطَاءَ وَأَعْطَاكَ الْوَفُورَ، وَكَمْ يَبْقَى الْآنَ إِلَّا التَّعَاقُدُ عَلَى الْوُدِّ، وَالتَّعَاضُدُ عَلَى الْعَقْدِ، وَالتَّعَاهُدُ عَلَى الْجُدِّ، وَالتَّسَاعُدُ عَلَى الْعَهْدِ، وَهَا أَنَا بِيُشْرَى حُسْنَاكَ مُسَافِرٌ، وَسَاعُوذُ إِلَيْكَ بِكُلِّ فَارِسٍ يُفَارِسُ، لِلْأُسْدِ فَارِسٌ، وَبِالسِّيفِ حَاصِدٌ، وَبِالرَّمْحِ غَارِسٌ، وَعَلَامَةُ صَدَقِكَ فِي صِدَاقَتِكَ وَاعْتِلَاقِكَ بِعِلَاقَتِكَ إِنِّي قَدْ خَلَفْتُ فِي خَزَائِنِي ثَلَاثِينَ وَقْرًا مِنَ الْمَالِ الصَّامِتِ بِهِمْدَانِ فِي دَارِ الْأَمِيرِ أَبِي عَيْسَى، وَكَلِمَةٍ بِحَمَلِهَا إِلَيَّ يُوَسَّى، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَأْخُذَهَا فَخُذْهَا، وَإِنْ سَمَحْتَ بِإِنْفَازِهَا فَأَنْفِذْهَا، لِتَعْلَمَ أَنِّي مُسْتَوْثِقٌ مِنْكَ بِشَفِيقِ مُسْتَرْفِقِي، وَإِنْ اسْتَوْفَيْتَ فَمَا وَفَيْتَ، فَعَادَ جَاوِلِي جَانِدَارِ إِلَى هَمْدَانَ وَتَسَلَّمَ مِنَ الْأَمِيرِ أَبِي عَيْسَى الْمَالِ، وَسَيَّرَ عَلَى جِمَالِهِ تِلْكَ الْأَحْمَالَ، وَتَدَبَّ مَعَهَا مِائَةَ فَارِسٍ مِنْ عَسْكَرِهِ إِلَى أَصْفَهَانَ إِلَى الْأَمِيرِ غَلْبَكِ وَالِيهَا أَنْ يُضَمَّ لِحَفْظِهَا إِلَى فُرْسَانِهِ الْفُرْسَانَ، فَلَمَّا وَصَلَتْ خَزَانَةُ بُوَزَابَةَ إِلَيْهِ أَطَالَ الشُّكْرَ وَأَطَابَ الذِّكْرَ، وَهَشَّ وَيَشَّ، وَعَدَمَ فِي نَازِلِ الْمُوَدَّةِ وَفَلَّهَا الْغَشَاوَةَ وَالْعُشَّ، وَوَجَدَ الصَّنَادِيقَ صِينَ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا، وَالْمَوَاتِيقَ دَلَّ شَاهِدُهَا وَشَهَدَ دَلِيلُهَا، فَحَيْثُئِذْ عُقِدَ عَلَى الْوُدِّ الْخُنْصَرُ، وَزَكَا فِي الْوَفَاءِ وَالْوَفَاقِ مِنْهُ الْعُنْصَرُ، وَتَعَاقَدًا عَلَى الْمُعَاوَدَةِ وَتَعَاهَدًا عَلَى الْمُوَاعَدَةِ، وَأَنَّ بُوَزَابَةَ يَأْتِي جَاوِلِي جَانِدَارِ بِالْمَلِكِ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمُودٍ مَتَى أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ هِمَّتَهُمَا الْجَمْعَ وَالِاحْتِشَادَ، وَعَادَ كُلُّ مِنْهُمَا إِلَى مَرْكَزِهِ وَاحْتَمَى عَلَى السُّلْطَانِ بِتَعَزُّزِهِ، وَتَأَكَّدَتْ بَيْنَ جَاوِلِي جَانِدَارِ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ مَسْعُودِ الْوَحْشَةِ، وَدَبَّتْ إِلَى أَعْضَاءِ الْمَمْلُوكَةِ بِسَبَبِ فُتُورِ أَعْضَادِهَا الرَّعْشَةَ، وَفَارَزَتِ النَّفْرَةَ وَفَرَّتِ الشُّفْرَةَ، وَزَالَتِ الثَّقَةُ وَزَلَّتِ الْمِيقَةُ، وَثَارَتِ الْإِحْنَةُ وَتَرَّتِ الْمِحْنَةُ، وَاخْتَلَّتِ الْهَيْبَةُ وَاحْتَلَّتِ الْخَيْبَةُ، وَاعْتَلَّتِ الْعَقَائِدُ وَانْحَلَّتِ الْمَعَاقِدُ، وَفَسَدَ الصَّالِحُ وَكَسَدَ الرَّابِحُ، فَلَمَّا نَمَادَى الْأَمْرُ تَبَدَّى السَّرُّ وَارْتَفَعَ السِّتْرُ، وَوَقَعَ الشَّرُّ فَأَنْفَذَ جَاوِلِي جَانِدَارِ الْأَمِيرَ تَتَارَ إِلَى

بوزابة بفارسَ يَسْتَنْجِزُهُ الْوَعْدَ وَيَسْتَنْجِحُ مِنْهُ الْقَصْدَ، وَيَقُولُ لَهُ هَذَا أَوْ أَنَّ الْوَفَاءَ بِلِ هَذَا زَمَانُ الْأُمْنَى، فَقَدْ فَقِدَ الْعَجْزُ وَجَدَّ الْعَزْمُ وَوَجَدَ الْعِزُّ، فَأَقْدِمَ وَأَقْدِمَ وَاعْزِمَ وَاحْزِمَ، وَأَقْرَبَ بِالْمَلِكِ مُحَمَّدٍ فَإِنَّ الْمَلِكَ يَرْتَقِبُهُ وَالسُّلْطَنَةَ تَطْلُبُهُ، وَالسَّرِيرَ يَنْتَظِرُ السَّرُورَ يَنْظُرُهُ، وَالذُّسْتَ مُتَطَلِّعٌ إِلَى طُلُوعِ غُرْرِهِ، وَالْمُنْبِرَ مُنْبِرٍ مِنْ بَرِّهِ، مُنْبِرِمٌ بِهِ غَيْرُهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَاتٍ قَبْلَ أَنْ فَاتَ وَهَيَّيَ الْعِدَاتِ وَبَهَيَّ الْعُدَاةَ، وَاحْيِي بِمُؤَاسَاةِكَ مِنْ مَوَاتِ هَذَا الْمُلْكِ الْمَوَاتِ، وَأَقَامَ جَاوِلِي بِلَيْدِ مِيَانَجٍ وَمَعَهُ جَمِيعُ أَكَابِرِ الْأَمْرَاءِ، مُتَّفِقِي الْأَرَاءِ عَلَى الْإِصْدَارِ وَالْإِيرَادِ وَالْإِصْلَاحِ وَالْإِبْرَاءِ، وَالرُّسُلُ تَتْرَى مِنَ الْأَمْرَاءِ إِلَى الْأَمِيرِ تَتَارُ لَاسْتِحْثَاتِ بوزَابَةَ بِالْإِسْتِدْعَاءِ، وَأَقَامَ جَاوِلِي عَلَى ظَاهِرِ مِيَانَجٍ مُدَّةً يَنْتَظُرُ، وَفِي تَدْبِيرِ الْمُلْكِ يُفَكِّرُ، فَكَانَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ، وَدَنَا الْأَجَلَ الَّذِي فِي كِتَابِهِ.

#### ذِكْرُ وَفَاةِ جَاوِلِي جَانْدَارِ وَعَوَامِرِ السُّلْطَانِ مَسْعُودِ إِلَى الضَّرَارِ

لَمَّا عَرَفَ فُخْرُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايِرِكَ أَنَّ الْأَمِيرَ تَتَارَ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى بوزَابَةَ شَخَّصَ إِلَى فَارِسٍ مِنْ جَانِبِ السُّلْطَانِ لِيَصُدَّهُ عَنِ الْوَرُودِ، وَيَرُدَّهُ عَنِ الصَّدُودِ، وَتَمَادَى عَلَى جَاوِلِي جَانْدَارِ الْمَقَامَ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْعَسَاكِرُ الْعِظَامُ، وَازْدَحَمَ اللَّفِيفُ وَالتَّفَّ الرَّحَامُ، وَارْتَكَمَ اللَّهُامُ وَالتَّهَمُ الرَّكَامُ، وَخَلَعَ الْأَمَالُ وَلَيْسَ اللَّامُ، وَصَدَّقَ طُلَابُ الْأَبْطَالِ، وَحَقَّقَ رَجَاءُ الرَّجَالِ، لَمْ يَجِدْ جَاوِلِي بُدْأً مِنَ الرَّحِيلِ وَإِبْرَامِ الرَّأْيِ السَّحِيلِ، وَسَارَ وَبِجَيْشِهِ عُرَامُ، وَلَلَّيْلِ مِنْ لَمَعِ الْأَسْنَةِ يَوْمَ، وَلْيَوْمِهِ مِنْ نَفْعِ الْأَعْيَةِ لَيْلِ، وَلَمَجْرِهِ مِنْ مَجْرِّ الذُّوَابِلِ ذَيْلِ، وَيَخِيلِهِ مِنْ مَجْرِي السَّنَابِكِ سَيْلِ، وَلَمَجْرِهِ بِلِثَامِ الْقِتَامِ تَلْفَعُ، وَلَأَرْضِهِ بِمِثَالِ السَّمَاءِ تَرْفَعُ، وَلِبَرِّهِ مِنْ مَوْجِ السَّوَابِغِ بَحْرُ، وَيَلْحَرُهُ مِنْ فَوْجِ السَّلَاحِبِ بَرٌّ، وَلِشَّمْسِهِ مِنْ نَسْجِ الْقَسَاطِلِ ظِلٌّ، وَلِنَبْلِهِ وَسِيَاهِهِ مِنْ سَحْبِ الْقَيْسِيِّ طَلٌّ وَوَيْلٌ، وَلِسَرِّ السَّرَّاءِ بِالنُّوحِ بَوْحٌ، وَلَيْسَتْ الْخَطْيُ بِالذُّوِّ دَوْحٌ، وَبِرِيحِ اللِّقَاءِ لِلدُّوْحِ رَوْحٌ، وَالْمَنَآيَا تَدْنُو وَالْحَنَآيَا تَرْنُو، وَالْبَرَايَا تَسْتَكِينُ وَلِسَعَةِ الْفَضَاءِ مَضِيقٌ، وَلِسَاعَةِ الْقَضَاءِ مَضِيقٌ، وَلِجَنِّ الضُّوَامِرِ فِي الْمَضَامِيرِ عَزِيفٌ، وَلَأَسَدِ الرَّوْعِ مِنَ الْأَسْلِ عَزِيفٌ، وَجَاوِلِي مَسْرُورٌ بِالْجَنْدِ مَغْرُورٌ بِالْجَنْدِ، غَائِبٌ عَمَّا فِي الْغَيْبِ غَيْرٌ رَائِبٌ بِالرَّيْبِ، جَارٍ بِقَدْرَتِهِ وَالْقَدْرُ إِلَيْهِ جَارٌ، ضَارِبٌ فِي الْأَرْضِ وَقَضَاءِ السَّمَاءِ بِهِ ضَارٌّ، حَامٍ لِلْحَوْزَةِ وَالنَّجْمَاتِ لَهُ جَائِرٌ، وَعَلَى الْبِلَادِ وَالْبِلَاءِ عَلَيْهِ جَائِرٌ، وَهُوَ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دَارِعٍ، لِلْمَمُوتِ رَادِعٌ، وَبِالضَّرْبِ وَالطَّعْنِ بَارِقٌ رَاعِدٌ، وَمِنْ كُلِّ ذِي عَضِدٍ لِلْقَرْنِ عَاضِدٌ، وَسَاعِدٍ بِالْبَاسِ مُسَاعِدٌ، وَكَانَتْ مَعَهُ عَسَاكِرُ

أرانية وأرمينية وافرة العَدَدِ وافية العُدَد، مُمَدَّة الدَّيْمِ دائمة المَدَد، فَحَيِّمٌ على زُنْجَانٍ وَخَتَمٌ قَصْدٌ هَمْدَان، وَكَانَ بِيَدِ أَيْدِيهِ زَمَامُ الزَّمَانِ وَهُوَ أَصَمُّ عَنِ الْحَدَثَانِ، وَكَانَ قَدْ افْتَصَدَ لِغَيْرِ مَرَضٍ عَرَضٍ، ثُمَّ تَصَرَّفَ عَلَى عَادَتِهِ بِيَدِهِ فَبَسَطَ وَقَبَضَ، وَعَنَّ لَهُ أَرْتَبَ فِصَادِهِ بَعْدَ فِصَادِهِ، وَتَرَخَّ عَنْ قَوْسِهِ عَلَى قَصِيدِهِ، فَتَأَلَّمَ عِرْقَهُ وَتَوَرَّمْ، وَدَجَا أَفْقَهُ وَأَطْلَمَ، وَكَانَ سَرِيَانُ الْوَرَمِ مِنْ شِرْيَانِهِ، وَصَعَدَ فِيهِ الدَّمُ بَعْدَ جَرِيَانِهِ، وَتَجَاوَزَ مِنْ عِرْقِهِ إِلَى حَلْقِهِ وَصَدْرِهِ، وَانْتَقَلَ إِلَى بَطْنِ الثَّرَى مِنْ ظَهْرِهِ، وَمَا كَانَ أَبْعَدَ أَمَلَهُ! وَهُوَ بِالْغَمِّ قَرَّبَ قَبْرَهُ، وَالدَّهْرُ لَا يَبْقِي يَوْمٌ عَطْفِهِ بَعْدَ غَدْرِهِ، فَبِي صَفْوِهِ يَنْغُصُ وَفِي صَبْوِهِ تَقْلُصُ، وَلَعَزَمِهِ تَرُخُّصٌ وَلِصْدِيقِهِ تَحَرُّصٌ، وَفِي شَهِيدِهِ سَمٌّ وَفِي حَمِيدِهِ دَمٌّ، وَأَقْسَامُ الْحَصَةِ مِنْ صَحْبِهِ أَسْقَامُ، وَأَيَّامُ التَّنْبِيهِ لِنَبَاهَتِهِ أَحْلَامُ، وَإِقْبَالُهُ إِدْبَارٌ وَاعْتِرَازُهُ اغْتِرَارٌ، وَجِبَالُهُ رِثَاثٌ، وَحَبَاؤُهُ عِثَاثٌ، وَنُسُورُهُ بُغَاثٌ، وَقُصُورُهُ أَحْدَاثٌ، وَمَوَاتِنُهُ أَنْكَاثٌ، وَعَقُودُهُ مَفْسُوخَةٌ وَعُهُودُهُ مَسْخُوخَةٌ، وَعِيَانُهُ نَبَأٌ وَرَيْهُ ظِمَاءٌ، وَحَيَاتُهُ مَوْتٌ وَبِقَاؤُهُ فَوْتٌ، وَنُطْقُهُ خَرَسٌ وَهَوَاهُ هَوَسٌ، وَبِقَاؤُهُ لِلْفَنَاءِ وَفَنَاؤُهُ لِلْبَقَاءِ، فَمَا أَسْعَدَ مَنْ تَقَوَّى بِالتَّقْوَى! وَتَرَوَدُ مِنَ الْأُولَى لِلْآخِرَى، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِزُنْجَانٍ فِي جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ زَيْنُ الدِّينِ الْمُظْفَرُ بْنُ سَيْدِي مِنَ قَصِيدَةٍ لَمْ أَذْكَرْ مِنْهَا غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ: [الكامل]

عَشْرُونَ أَلْفَ مُهَنْدٍ قَدْ أَصَلَّتْ      قَلَّتْ مَضَارِبُهَا نِكَايَةَ مِبْضَعٍ  
 وَقِيلَ إِنَّ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُوْفِّي فِيهَا جَاوَلِي جَانِدَارٍ قُتِلَ زَنْكِي بْنُ أَقٍ سَنَقَرٍ بِالشَّامِ، وَكَانَ  
 كِلَاهُمَا قُطْبًا يَدُورُ عَلَيْهِ مَلِكُ الْإِسْلَامِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ زَنْكِيَّ بْنَ أَقٍ سَنَقَرٍ قُتِلَ فِي شَهْرِ  
 رَيْبِعِ الْآخِرِ مِنَ السَّنَةِ عَلَى قَلْعَةِ جَعْبَرٍ قَبْلَ مَوْتِ جَاوَلِي بِأَيَّامٍ وَلَكِنْ تَدَانِي مَوْتُهُمَا وَتَنَادَى  
 قَوْلُهُمَا، وَمِنْ قَبْلِهِمَا كَانَتْ وَفَاةُ سَعِيدِ الدِّينِ يَرِنُقَشُ وَوَفَاةُ قَزَلِ أَمِيرِ آخَرٍ، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ مِنْ  
 قَيْلِ نَاصِرِ الدِّينِ قُتِلَغِ الْبَازْدَارِيِّ فَتَقَارَبَتْ مَنَائِمُهُمْ، وَتَبَدَّلَتْ نُقُودُهُمْ بِنَسَائِيهِمْ، وَصَارُوا  
 أَسْمَارًا وَعَادُوا أَخْبَارًا، فَلَمَّا اخْتَرِمَ جَاوَلِي انْحَلَّتْ تِلْكَ الْمَعَاقِدُ وَاخْتَلَّتْ تِلْكَ الْقَوَاعِدُ،  
 وَتَفَرَّقَ ذَلِكَ الْجَمْعُ وَتَشَوَّشَ ذَلِكَ الْوَضْعُ، وَتَقَوَّصَتْ تِلْكَ الْخِيَامُ وَتَعَوَّصَتْ تِلْكَ الْغِيَامُ،  
 وَقَلَعَ ذَلِكَ السَّحَابُ وَبَطَلَ ذَلِكَ الْحِسَابُ، وَانْتَفَصَّتْ تِلْكَ الْعُرَا، وَانْحَفَصَتْ تِلْكَ الدَّرَى،  
 وَعَطَلَتْ تِلْكَ الْعُجْلَى، وَسَفَلَتْ تِلْكَ الْعُلَى، وَغَارَتْ تِلْكَ الْمَنَابِعُ وَبَادَتْ تِلْكَ الصَّنَائِعُ،  
 وَعَادَ كُلُّ طَائِرٍ إِلَى وَكْرِهِ، وَكُلُّ صَاحٍ إِلَى سَكْرِهِ، وَكُلُّ نَاسٍ إِلَى ذِكْرِهِ، وَأَمِنَ السُّلْطَانُ مِنْ

أَمَلِهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مَنْ قَبْلَهُ، وَعَادَ الْأَمِيرُ تَتَارَ إِلَى السُّلْطَانِ بوزائِهِ مُتَوَسِّطاً وَلِتَمَكِينِهِ مُشْرِطاً، وَكَانَ تَرَأَى الْأَصْلَ فِي هَذَا التَّدْبِيرِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايِرْبَكِ الْأَمِيرُ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ، وَعَلِمَتْ سَعَادَةُ السُّلْطَانِ عَمَلَهُ، وَقَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مَا لَمْ يَجْرِبْ بِخَاطِرِهِ أَمَلُهُ، وَحَيْثُ أَجْرَيْنَا ذَكَرَ زَنْكِي بْنِ آقِ سَنْقَرٍ وَقَتْلَهُ بِالشَّامِ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُوْفِيَ فِيهَا جَاوَلِي جَانِدَارِ بَزَنْجَانٍ، فَإِنَّا نَذْكُرُ جُمْلَةً مِنْ أُمُورِهِ إِلَى أَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَقْدُورِهِ.

### ذَكَرَ زَنْكِي بْنُ آقِ سَنْقَرٍ فِي آخِرِ عَهْدِهِ

وَكَانَ جَبَّارًا غَشُومًا بِنِكَابِ النِّكَابِ عَصُوفًا، قَسَوْرِي الْقَسْرِ قَيْصَرِي الْكَبِيرِ، نَمْرِي الْخُلُقِ أَسَدِي الْحَقِّ، لَا يُنْكِرُ الْعَرَفَ وَلَا يَعْرِفُ الْعَرَفَ، وَلَا يُؤَلِّي الْجَمِيلَ وَلَا يُجْمَلُ الْوَالِيَةَ، وَلَا يَرَعَى الْوَرَعَ وَلَا يَرَى الرَّعَايَةَ، قَدْ اسْتَوَلَى عَلَى الشَّامِ مُدَّ سِنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ إِلَى أَنْ قُتِلَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، وَهُوَ مَرْهُوبُ السُّطُورَةِ مَجْفُوعُ الْجَفُوعَةِ، عَادِ عَاتٍ حَتْفُ عِدَاةٍ وَرِعَاةٍ، لَكِنَّمَا خَتَمَ اللَّهُ لَهُ فِي آخِرَةِ عُمُرِهِ بِالسَّعَادَةِ وَبِالشَّهَادَةِ، وَوَفَّقَهُ لِلْجِهَادِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْفَضِيلَةِ الَّتِي رَجَحَتْ وَالْوَسِيلَةَ الَّتِي نَجَحَتْ إِلَّا فَتَحَ الرَّهَاءَ فَقَدْ عَادَ بِهِ عِيدُ الْإِسْلَامِ سَعِيدًا وَجَدَّ الدِّينِ جَدِيدًا، وَأَنَّهُ افْتَتَحَهَا عُنُودًا، وَاحْتَلَّ بِهَا مِنَ السَّعَادَةِ ذُرُورًا، وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فَتَسَنَّى بِفَتْحِ الرَّهَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْسُ بِلَادِ جَوْسَلِينَ، وَعَادَ جَمِيعُهَا إِلَى الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِ وَلَدِ زَنْكِي نَوْرِ الدِّينِ، وَصَارَتْ عَقُودُ الْفَرَنْجِ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ تَنْفَسِخُ وَأُمُورُهَا تُنْتَسَخُ، وَأَقْدَارُهَا تُنْتَقَصُ، وَأَقْدَامُهَا تُنْتَكِصُ، وَأَسْعَارُهَا تُرْتَخِصُ، وَتُجُومُهَا تُنْتَحَسُ، وَوَجُوهُهَا تُنْتَكَسُ، وَرَسُومُهَا تُتَدْرَسُ، وَمَعَاطِشُهَا تُرْعَمُ، وَمَوَاطِنُهَا تُهْجَمُ، وَمَعَاقِلُهَا تُفْرَعُ وَعَقَائِلُهَا تُفْتَرَعُ، وَسَاقِضِي ذَكَرَ ذَلِكَ فِيمَا يُقْتَضَى ذِكْرَهُ وَأَسِيرُ سِيرَتِهِ وَسَرَّهُ، وَأَنْشُرُ عَرْفُهُ وَأَعْرِفُ نَشْرَهُ، وَذَلِكَ فِي زَمَانِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ نَوْرِ الدِّينِ مَحْمُودِ بْنِ زَنْكِي بَعْدَ أَبِيهِ، وَفِي زَمَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَالِحِ الدِّينِ بَعْدَ تَمَلُّكِ الشَّامِ وَتَوَلِيهِ، فَأَمَّا زَنْكِي فَإِنَّهُ بَعْدَ افْتِتَاحِ الرَّهَاءِ نَزَلَ عَلَى حِصْنِ الْبَيْرَةِ وَهِيَ عَلَى الْفُرَاتِ وَهُوَ مَشْحُونٌ بِالْفَرَنْجِ الْعِتَاةِ، فَجَاءَ الْخَبِيرُ أَنَّ نَائِبَهُ بِالْمُوصَلِ وَهُوَ نَصِيرُ الدِّينِ جَغْرِ قَيْلٍ فَتَرَكَ الْحِصْنَ وَارْتَحَلَ.

## ذكر مقتل جفر نائب زنكي بالموصل

كَانَ مَعَ زَنْكِي مَلِكًا مِنْ أَوْلَادِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مَلِكِشَاهِ أَحَدَهُمَا يُسَمَّى أَلْبَ أَرْسَلَانَ، وَهُوَ فِي مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاقِلِ سِنْجَارٍ، وَالْآخَرُ يُسَمَّى فَرْخُ شَاهٍ وَوَعُرْفُ بِالْمَلِكِ الْخَفَاجِيِّ وَهُوَ بِالْمَوْصِلِ مُوَاصِلٌ بِالتَّكْرِمَةِ بِالْدَارِ، وَكَانَ هَذَا مُسْلِمًا إِلَى الْأَمِيرِ دُبَيْسِ بْنِ صَدَقَةَ فَانْتَزَعَهُ مِنْهُ زَنْكِي فِي حَرْبٍ، وَأَنْزَلَ مِنْ إِكْرَامِهِ فِي مَنْزِلٍ رَحْبٍ، وَكَانَتْ الْخَاتُونُ السَّكْمَانِيَّةُ زَوْجَتُهُ زَنْكِي تُرْبِيهِ، وَتَبَرُّهُ وَتَجْرِي بِهِ فِي حَلْبَةٍ تَجْرِيهِ وَتُجْرِيهِ، حَتَّى بَلَغَ وَأَدْرَكَ وَسَاكُنَ فِطْنَتَهُ تَحْرُكٌ، وَتَارَتْ هِمَّتُهُ لِلظُّهْرِ وَظَهَرَتْ آثَارُ الْإِهْتِمَامِ، وَيَعُدُّ عَنْ أَحْتِمَالِ الْعَنَاءِ بَعْدَ الْإِحْتِلَامِ، وَاقْتَضَتْ رِبْعَهُ حِجْرَهُ رَفَعَ حِجْرَهُ، وَسَمَتْ قُدْرَتُهُ لِإِسْمَاءِ قَدْرِهِ، وَأَزَّتْ إِرْثُ السُّلْطَنَةِ لَهُ نَارُ التَّسْلُطِ، وَجَاوَزَ أَمَدَ التَّقْبُضِ ثُمَّ مَدَّ يَدَ التَّبَسُّطِ، وَمَهَّدَتْهُ الْمَرَأَةُ غَيْرَ مَرَّةٍ وَأَنْهَدَتْهُ، وَعَاهَدَتْهُ عَلَى الْوَفَائِقِ وَعَلَى الْوَفَاءِ عَهْدَتُهُ، وَتَأَسَّدَ الشُّبْلُ فَصَاقَ بِهِ عَرِيْنُهُ وَشَمَخَ عَرِيْنُهُ، وَاشْتَاقَتْ بِشْرُهُ دَارَ مُلْكِهِ وَاسْتَاقَتْ عِطْرَهُ دَارَ بَيْتِهِ، وَتَجَرَّأَ لِسَانُهُ بِالْقَوْلِ، وَجَرَى بِنَانُهُ بِالطُّوْلِ، وَضَمَّ إِلَيْهِ أَنْبَاءًا، وَضَمَّنَ لَهُمْ إِتْرَابًا، وَأَعْجَبَ حُسْنُهُ وَحُسْنَاهُ، وَأَعْرَبَ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ، وَكَبَّرَ وَرَكَّبَ وَيَسَّلَ وَسَلَبَ وَتَطَاعَلَ بِالطَّلَبِ، وَكَانَ نَصِيرُ الدِّينِ جَفْرُ نَائِبُ زَنْكِي لِلذَّمَاءِ سَفَاكًا وَبِالنَّفُوسِ فَتَاكًا، يَأْخُذُ الْبَرِيءَ وَيَحْبِسُ السَّائِرَ عَنِ الْمُقِيمِ، وَيُلْحِقُ الْوَلُودَ بِالْعَقِيمِ، فَكَمَ أَنْكَلٌ أَمَا بَوَاجِدِهَا، وَوَادَ مَوْلُودَةَ دُونَ الْإِدْهَاءِ، وَأَرْدَى بِثَهْمَةِ ثَهْمَهُ، وَأَهْدَى لِمَقَرِّ الدَّهْرِ الْبَهِيمِ دَهْمَهُ، وَأَوْجَدَ وَجُودَ ظَلْمَةِ ظَلْمِيهِ، وَشَبَّ بِشُوبٍ مُلِمَّةٍ مِنْهُ أَلْمَهُ، وَقِيلَ إِنَّهُ لَمَّا أَحْكَمَ سَوْرَ الْمَوْصِلِ وَاحْتَرَزَ بِالْحِفْظِ مِنْهُ عَلَى الْمَخْرَجِ وَالْمَدْخَلِ أَعْجَبَهُ كَمَالُ إِحْكَامِهِ نَادَاهُ مَجْنُونٌ نَدَاءَ عَاقِلٍ، وَقَالَ: هَلْ تَقْدِرُ أَنْ تَعْمَلَ سُورًا عَلَى الْمَوْصِلِ تَسُدُّ طَرِيقَ الْقَضَاءِ النَّازِلِ، فَبَدَرَ لِتَكْذِيبِ الْمَجْنُونِ وَدَارَ بِتَصَدِيقِهِ الْمُنْجُونَ، فَإِنَّهُ لَمَّا أَحَسَّ مِنَ الْمَلِكِ بِحَسِّ الْمُلْكِ، وَإِنَّهُ إِنْ أَخَذَ فِي تَرْكِ حِمَايَتِهِ تَرَكْتَهُ حِمِيَّةَ الثَّرِكِ، فَصَارَ يَقْبِضُ عِنَانَهُ وَيَسْطُ فِيهِ لِسَانَهُ، وَيَقُولُ إِنْ عَقِلَ وَإِلَّا عَقَلْتُهُ، وَإِنْ نَقَلَ طَبَعَهُ وَإِلَّا نَقَلْتُهُ، فَسَمِعَ مَا رَاعَهُ وَأَسْرَهُ فِي نَفْسِهِ وَمَا أَدَاعَهُ، وَفَاصَ غَيْظُهُ وَغَاصَ فِيضُهُ، وَكَتَمَ وَكَظَمَ وَلَمْ يَسْتَصْغِرْ مَا عَظَّمْ، فَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ وَقَدَّرَ وَدَبَّرَ وَفَكَّرَ وَمَكَّرَ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ لَهُمْ تَكْتُمُوا قَوْلَهُ، وَأَتَّقُوا عَلَى أَنَّهُ إِذَا جَاءَ عَلَى عَادَتِهِ إِلَى سَلَامِ خَاتُونٍ أَوْ سَلَامِيهِ، أُحِيطَ بِهِ مِنْ خَلْفِهِ وَقُدَامِيهِ، فَإِذَا أَصَابُوا مِنْهُ الْمَقْتَلُ مَلَكُوا الْمَوْصِلَ، فَرَكَّبَ نَصِيرُ الدِّينِ عَلَى عَادَتِهِ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّ إِدَارَةَ الْفَلَائِكِ بِإِرَادَتِهِ، وَالْأَجَلَ قَدْ بَلَغَ كِتَابَهُ، وَالْقَدْرُ قَدْ عَمَلَ حِسَابَهُ، وَالْقَضَاءُ قَدْ قَرَعَ

بِأَبِهِ، وَهُوَ فِي مَوْكِبِ حَفَلٍ عَلَى مَرْكَبٍ فَحَلٍ، وَالْأَعْيُنُ لِمَهَابَتِهِ رَاعِيَةً، وَالْأَلْسُنُ بِإِدَامَتِهِ دَاعِيَةً، وَالْأَقْدَامُ بِخِدْمَتِهِ سَاعِيَةً، وَالْأَسْمَاعُ لِأَوَامِرِهِ وَاعِيَةً، وَكَأَنَّ الْأُسْتَاذَ مُؤَيَّدَ الدِّينِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ يَصِفُ مَوْكِبَهُ وَمَرْكَبَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي نِظَامِ الْمَلِكِ الْوَزِيرِ، فِي جُمْلَتِهَا <sup>(1)</sup>: [الطويل]

وَمُسْتَعْظِمُ فَصْلِ الْعَيَانِ كَأَنَّمَا  
إِذَا هَزَّهُ حَنَّ الْمَرَا حُ تَوَقَّرَتْ  
مَحَلِّي بِأَرْفَاضِ النُّجُومِ مَعْلَقُ  
أَطَافٍ بِهِ صَيْدُ الْمَلُوكِ نَوَاسِئُ  
يَرُومُونَ تَقْبِيلَ الرُّكَّابِ وَدُونَهُ  
تَجُودُ سَمَاءِ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ

يُلَاعِبُ عِطْفِيهِ سَحُوقُ مِنَ النَّخْلِ  
بِأَطْرَافِهِ أَعْبَاءُ حِلْمِكَ وَالْفَضْلِ  
عَلَيْهِ هِلَالُ الْأَفْصِقِ فِي مَوَاطِيِ النَّعْلِ  
عُيُونُهُمْ يَمْشُونَ هُونًا عَلَى رَسْلِ  
أَبَاءِ مَرْوَجٍ وَطُودِ الْيَدِ بِالْوَحْلِ  
بِذِيْمَةِ تَبْرِ غَيْرِ مُغْلَقَةِ الْهَطْلِ

وَهُوَ سَائِرٌ فِي تِلْكَ الزَّيْتَةِ وَالْمُكَنَّةِ الْمَكِينَةِ وَالْحُرْمَةِ الْمَيْبِتَةِ، وَقَدْ جَعَلَتْ خَيْلُهُ عَلَى السَّمَاءِ مَا رَفَعَتْ مِنْ عَجَاجِهَا، وَعَلَى الْأَرْضِ مَا أَلَقَتْ مِنْ ظِلِّهَا، وَاخْتَرَقَ الْمَدِينَةَ فَغَصَّتْ بِجَمْعِهِ مَضَائِقَ سُبُلِهَا، كَمَا غَصَّتْ بِوِلَايَتِهِ قُلُوبُ أَهْلِهَا، وَوَصَلَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي فِيهَا الْمَلِكُ لِلتَّسْلِيمِ مُتَلَقِّيًّا قَدَرَ اللَّهُ بِالتَّسْلِيمِ، فَمَلَكَتْ حُشَاشَتُهُ حَاشِيَةَ الْمَلِكِ، وَقَطَعَتْ سَلَكَ حَيَاتِهِ فِي طَرِيقِ الدَّهْلِيْزِ الْمُنْسَلِكِ، وَمَزَّقُوهُ بِسُيُوفِهِمْ وَمَزَّعُوهُ، وَضَرَبُوهُ بِسَكَكِينِهِمْ وَبَضَعُوهُ، وَنَادَوْا بِشِعَارِ الْمَلِكِ وَأَرْكَبُوهُ وَثَابُوا إِلَيْهِ وَوَثَبُوهُ، وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ تِسْعِ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ، وَتَشَوَّشَ الْبَلَدُ وَتَشَوَّرَ الْجُلْدُ، وَخَافَ أَهْلُهُ الْعَاقِبَةَ، وَحَذَرُوا مِنْ زَنْكِي سَطْوَتِهِ الْمُعَاقِبَةِ، فَخَرَجَ الْقَاضِي تَاجُ الدِّينِ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشَّهْرَزُورِيُّ وَجَاءَ إِلَى الْمَلِكِ وَهَنَاءَ، وَسَهَّلَ لَهُ الصَّعْبَ مِمَّا جَنَاهُ، وَقَالَ لَهُ: نَحْنُ قَدَامُكَ، قَدْ صِرْنَا مَمَالِكِكَ وَخُدَامِكَ، وَتَوَازَرَّ طَوْلُ عُمَرِكَ فَمَرْنَا بِأَمْرِكَ وَقَدْ أَنْقَذْتَنَا مِنَ الظُّلْمَةِ، وَحَيِينَا بِتَفْرِيجِ الْكُرْبَاتِ الْمُظْلِمَةِ، وَلَكُم رَجَوْنَا أَيَّامَ هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَتَرَقَّبْنَا مَحَاسِنَ هَذَا الْإِقْدَامِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ حَفِظْنَا فِيمَا عَرَى وَرَعَى، وَهُوَ مُجِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَا، فَبَسِرَ فِي الْمَدِينَةِ وَاسْلُكَهَا، وَادْخُلَ الْقَاعَةَ وَامْلِكْهَا، فَرَكَّنَ إِلَى قَوْلِهِ وَسَكَنَ بِحَوْلِهِ، وَأَحَدَقَ بِهِ الْجُنْدَ كَأَنَّهُمْ فِي خِدْمَتِهِ، وَصَوَّبُوا لَهُ سَدَادَ عَزْمَتِهِ حَتَّى صَعَدَ إِلَى الْقَلْعَةِ فَأَجْلَسُوهُ فِي الْمَرْكَزِ، وَأَحَاطُوا بِهِ إِحَاطَةَ الدَّائِرَةِ بِالْمَرْكَزِ، وَالتَّقَطُوا مَمَالِكَهُ مِنْ حَوَالِيهِ وَأَفْرَدُوهُ وَاحْتَاطُوا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَرْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَثَرٌ،

(1) ديوان الطغراني (تحقيق: علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري) ط وزارة الاعلام، بغداد، 1976 م، ص 273

وَلَمْ يُسْمَعْ لَهُ خَبْرٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ بَعْدَمَا خُتِلَ قِتْلٌ، وَبَعْدَمَا خُذِعَ جُدَيْعٌ، وَبَعْدَمَا احْتِيلَ عَلَيْهِ اغْتِيْلٌ، وَبَعْدَمَا اسْتَنْزِلَ وَاسْتَزَلَّ أُزَيْلٌ، وَوَلَّى زَنْكِي الْمَوْصِلَ بَعْدَ جَفْرِ زَيْنِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ بُكْتِكَيْنِ الْمَعْرُوفِ بِعَلِيِّ كُوجُكٍ، فَتَنَزَّمُ السَّلَكُ وَنَهَجَ الْمَسْلُكُ، وَأَخَذَ وَتَرَكَ وَتَلَا فِيهِ وَاسْتَدْرَكَ، وَتَوَلَّى وَاسْتَمْسَكَ وَتَسَلَّى بِمَا مَلَكَ، وَمَا سَأَلَ عَمَّنْ هَلَكَ، وَوَصَلَ زَنْكِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمَوْصِلِ فَاسْتَصَفَى أَمْوَالَ جَفْرِ وَاسْتَخْرَجَ ذَخَائِرَهُ، وَاسْتَعَطَفَ أَوْلَاهُ وَآخِرَهُ، وَصَادَرَ أَهْلَهُ وَأَقَارِبَهُ، وَأَحْلَلَ بَنُوَابِهِ نَوَائِبَهُ، وَسَلَبَهُمُ الْقُوَّةَ وَالْقُوَّةَ، وَتَوَعَّ عَلَيْهِمْ جَوْرَهُ الْمَمْقُوتِ، فَعَادُوا لَا يَشْبَعُونَ خُبْرًا، وَلَا يَتَمَنَّوْنَ بَعْدَ الدَّلِّ عِزًّا، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْمَلِكِ الْآخِرِ أَلْبَ أَرْسِلَانَ فَاسْتَخْرَجَهُ مِنْ مَعْقِلِهِ، وَعَيَّنِي بِتَفَاصِيلِ أَمْرِهِ وَجَمَلِهِ، وَضَرَبَ لَهُ نُوبِيَّةً وَنُوبًا، وَرَتَّبَ لَهُ فِي حَالَتِي جُلُوسِهِ وَرُكُوبِهِ رُتْبًا، وَأَغْرَى بِتَوَلِّي إِكْرَامِهِ وَتَوَخِيهِ، وَغَرَضَهُ خَفَاءَ مَا جَرَى مِنْ هَلَاقِ أَخِيهِ، وَقَصَدَ حِصَارَ قَلْعَةِ جُعبَرٍ عَلَى الْفِرَاتِ، وَصَاحِبُهَا عَزُّ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ مَالِكِ بْنِ سَالِمِ بْنِ مَالِكٍ، وَنَارَ لَهَا وَقَابَلَهَا وَقَاتَلَهَا، وَأَحَاطَ بِسُورِهَا الْمَعْصُومِ إِحَاطَةَ السُّوَارِ بِالْمَعْصَمِ، وَرَبِضَ عَلَى رَبِضِهَا فِي مَجْمَعِ الْمُحْخِمِ، وَهِيَ قَلْعَةٌ سَمَاءُ، كَأَنَّمَا افْتَلَعْتَهَا مِنَ الْأَرْضِ السَّمَاءِ، وَكَأَنَّ بَنَاتِ نَعَشٍ فِي حَصَانَتَيْهَا، وَالْقَدْرُ مُتَوَلَّى حَصَانَتَيْهَا، وَكَانَ زَنْكِي يَأْتِيهَا وَيَمْنَعُ عَلَيْهِ بَابَيْهَا، وَيَرْجِعُ عَنْهَا وَحَسْرَتُهُ فِيهَا، حَتَّى جَمَعَ لَهَا جُمُوعَهُ، وَخَشَدَ إِلَيْهَا أَصُولَ عَسْكَرِهِ وَفُرُوعَهُ، وَحَصَرَهَا وَحَصَرَهَا وَرَمَى بِالْحَجَرِ حُجْرَهَا، وَنَافَرَ وَنَافَى تَقَرَّهَا وَأَخَذَ مِنْهَا بِالْمَخْتَقِ، وَرَاحَ إِلَى السُّورِ وَالْخَنْدَقِ، وَأَقَامَ عَلَى الْحِصْنِ وَهُوَ لَا يَجِدُ مِنْ مَنَجِيئِهِ مَنَجَى نَيْقِهِ، وَحَمَى مَضِيقَ الْجِمَامِ عَلَى مَضِيقِهِ، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا الْقِتَالَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَظْلَمَ مِنْ جَوْهٍ كُلِّ ضَاحِيَةٍ، وَلَجَّ زَنْكِي فِي الْحِصَارِ، وَهُوَ مُسْتَظْهَرٌ بِالْأَنْصَارِ وَمُسْتَنْصِرٌ بِالْإِسْظَهَارِ، وَمُتَكَبِّرٌ بِالْإِسْتِعْدَادِ وَمُعْتَدٌّ بِالْإِسْتِكْتَارِ، مَرَعِيَّةٌ بِسَارِحِ مَسَارِهِ بِمُسَالَمَةِ الْأَقْدَارِ، مَحْيِيَّةٌ صَفَاءَ صَفَائِهِ مِنْ مَثَلَمَسَةِ الْأَكْدَارِ، مَغْرُورٌ بِالذَّهْرِ مَسْرُورٌ بِالْقَهْرِ، مَحْرُوسٌ بِحُرَايِهِ مَانُوسٌ بِنَايِسِهِ، يَظُنُّ أَنَّ الْقَضَاءَ بِحُكْمِهِ، وَأَنَّ الْقَدْرَ حَصَمَ حَصْمِهِ، وَأَنَّ الْمَوْتَ كَامِنٌ فِي زَنْدِ سَهْمِهِ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ، وَأَهْلُ الْحِصْنِ قَدْ أَشْفَقُوا مِنْهُ عَلَى الدَّمَاعِ الدَّامِرِ، وَقَدْ بُلُّوا مِنْ وَبَلٍ وَبَالِهِ بِالْهَامِلِ الْهَامِرِ، وَقَدْ لَجَّأُوا إِلَى الْقُنُوتِ لِلْقُنُوطِ، وَأَذْنَتْ مِنْ تَوَالِي الْحِجَارَةِ عَلَيْهِمْ سُقُوفُهُمْ بِالسُّقُوطِ، فَأَنَاهُمُ الْفَرْجُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَوَأَفَاهُمُ الْفَرْحُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَكْتَسِبُوا، وَذَلِكَ أَنَّ زَنْكِيًّا كَانَ إِذَا نَامَ نِيَامًا حَوْلَ سَرِيرِهِ عِدَّةً مِنْ خُدَامِهِ، يُشْفِقُونَ عَلَيْهِ فِي حَالَتِي يَقْظِيَّتِهِ وَمَنَامِهِ، وَيَذُودُونَ عَنْهُ ذُودَ الْأَسَادِ فِي مَلَاجِيهِ، وَيَزُورُونَهُ زُورَ الْخِيَالِ

فِي أَحْلَائِهِ، وَهُمْ مِنَ الصَّبَاحِ الرُّوقِ، وَفِي حُسْنِ الصَّبَاحِ لَدَى الشَّرُوقِ، وَهُوَ يُحِبُّهُمْ  
 وَيَحِبُّوهُمْ، وَلَكِنَّهُ مَعَ الْوَفَاءِ مِنْهُمْ يَجْفُوهُمْ، وَهُمْ أَبْنَاءُ الْفُحُولِ الْقُرُومِ، مِنَ التُّرْكِ وَالْأَرَمَنِ  
 وَالرُّومِ، وَكَانَ مِنْ دَابِيهِ إِذَا تَقَمَّ عَلَى كَبِيرِ أَرْدَاهُ وَأَفْصَاهُ، وَاسْتَبَقَى وُلْدَهُ عِنْدَهُ وَخِصَاهُ، وَإِذَا  
 اسْتَحْسَنَ غَلَامًا أَدَامَ مُرُودِيَّتَهُ بِالْخِصِي وَالسَّلِّ، وَوَجَّاهُ وَفَجَعَهُ بِقَطْعِ النَّسْلِ، فَهَمَّ عَلَى أَنْتَهُم  
 مِنْ دَوِي الْاِخْتِصَاصِ يَنْتَهَزُونَ فِيهِ فُرْصَةَ الْاِخْتِصَاصِ، فَقَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَيْهِمْ مُسْتَنِيماً  
 وَلِلوُثُوقِ بِهِمْ مُسْتَدِيماً، وَهُوَ صَرِيحُ الرَّاحِ نَزِيْفُ الْأَقْدَاحِ، عَقِيْرُ الْعُقَارِ وَزَيْرُ الْأَوْزَارِ، قَدْ  
 سَكَرَتْ سُكْرَةً سُكْرِهِ، وَنَكَرَتْ نُكْرَةً نُكْرِهِ، وَقَدْ حَارَتْ أَكْوَاسُهُ وَتَارَتْ أَنْفَاسُهُ، وَغَابَ  
 إِحْسَاسُهُ وَغَلَبَهُ نُبَاسُهُ، وَمَلَكَهُ رُقَادُهُ، وَحَوَّلَهُ مَمَالِكُهُ مُرْدَةً وَمُرَادُهُ، فَانْتَبَهَ وَهُمْ غَازُونَ  
 وَبِالْهُوِيِّ سَازُونَ، وَقَدْ شَرَعُوا فِي اللَّعِبِ وَأَخَذُوا فِي الشَّرْبِ وَالطَّرْبِ، فَزَبَّرَهُمْ وَزَجَّرَهُمْ  
 وَدَعَّرَهُمْ وَمَا عَدَّرَهُمْ، وَمَنَعَهُ السُّكْرُ مِنَ الْكَلَامِ حِينَ أَبْصَرَهُمْ، فَحَزَّكَ رَأْسَهُ يَتَوَعَّدُهُمْ،  
 وَهَيَمَ بِلِسَانِهِ يَتَهَدَّدُهُمْ، وَلَمْ يَدْرِ أَنْ تَحْرِيكَهُ لِلرَّأْسِ سَبَبُ قَطْعِهِ، وَأَنْ نُزُولُهُ عَلَى الْقَلْعَةِ  
 خَاتِمَةُ النَّازِلَةِ فِي قَلْعِهِ، وَطَرَقَهُمْ بِالرَّهْبِ، وَلَمْ يَجِدُوا طَرِيقَ الْهَرَبِ، فَتَوَلَّى كَبِيرُهُم الْأَمْرَ  
 وَالْبَاقُونَ سَاكِنُونَ، وَتَحَرَّكَ لِلشَّرِّ وَرُقَفَاهُ سَاكِنُونَ، وَكَانَ اسْمُهُ يَرْنُقُشُ وَهُوَ أَحْصَى خَدَمِهِ  
 فَأَخْصَصَ بِلَطْخِ دِمِهِ، وَأَنَّهُ لَمَّا خَافَهُ خَفَّ إِلَيْهِ وَبَرَكَ عَلَيْهِ، وَقَرَّشَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، وَغَشِيَهُ فِي  
 غِشَاشِهِ، وَذَبَحَهُ فِي نَوْمِهِ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُ ذَبُّ قَوْمِهِ، وَغَادَرَهُ يَشْخَبُ وَدَجُّهُ، وَيَزْخَرُ بِدَمِهِ  
 لَجَجُهُ، وَخَرَجَ وَمَعَهُ خَاتِمَتُهُ، وَهُوَ لَا يُرْتَابُ بِهِ لِأَنَّهُ خَاصُّ زَنْكِي وَخَادِمُهُ، فَرَكَّبَ فَرَسَ  
 النَّوِيَّةِ مُوهِماً أَنَّهُ فِي مِهِمَّ، وَقَدْ نُذِبَ لِكَشْفِ مِلْمٍ، وَالنَّاسُ مِنَ الْمَهَابَةِ حَاجِمُونَ وَاجِمُونَ،  
 وَالْحُرَّاسُ حَوْلَ الشَّرَاقِ هَامُونَ حَالِمُونَ، وَالْأَجْنَادُ بِعِزَّتِهِ وَلِنُصْرَتِهِ سَامُونَ سَاكِنُونَ،  
 وَالْيَسَاقُ تَبَقَى مُرْتَبَةً وَالْيَرَّكَ يَزْكِي مَقْبَتَهُ، وَالْأَصْوَاتُ هَامَسَةٌ وَالْأَرْجَاءُ دَامَسَةٌ، وَتَوَبُّ  
 الْمُنْجَنِيْقَاتِ عَلَى الْحِضْنِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ السُّورِ سُورَاءٌ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ بِالْهَتِكِ مَسْتَوْرَاءٌ، وَأَهْلُ  
 الْقَلْعَةِ فِي أَضْيَقِ شِدَّةٍ وَأَشَدِّ ضَيْقٍ، وَكُلُّهُمْ لِيَأْسِ الْمُطْفِيفِ بِهِمْ غَيْرِ مُطِيقٍ، حَتَّى أَتَاهُمُ  
 الْخَادِمُ فَحَدَّثَ بِمَا أَحْدَثَ، وَبَعَثَ رَجَاءَهُمُ الْمَيِّتَ بِمَا لَهُ انْبِعْثَ، فَأَشَاعُوا قَتْلَ زَنْكِي مِنَ  
 الْقَلْعَةِ، وَارْتَاعَ النَّاسُ لِمَا هَالَهُمْ مِنَ الرُّوْعَةِ، وَتَحَرَّكَ السَّاكِنُ، وَخَافَ الْأَيْمُنُ وَظَهَرَ الْكَايْمُنُ،  
 وَرَكَّبَ النَّاسُ وَكَبَسُوا السَّلَاحَ، وَرَقَبُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ لِأَمْرِهِمْ إِلَى الصَّبَاحِ، وَزَحَفَ بَعْضُهُمْ  
 إِلَى خَيْمَةِ جَمَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي مَنْصُورٍ قَرَمَى بِالنُّشَابِ، وَحَصَلَ مِنْ أَمْرِهِ  
 بِالْاضْطِرَابِ، فَقَصَدَ مَنْ حَمَاهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ، وَشَارَكَهُ فِي تَصْوِيبِ الْأَرَاءِ، وَأَتَّفَقُوا عَلَى أَنْ

يُبادِرُ نورُ الدينَ محمودُ بنُ زنكي إلى الشام لِلْحَوَاطِةِ على نُغُورِ الإسلامِ، فَسارَ مَعَهُ أولِياؤُهُ وَكُبراءُ الشامِ وَأمرأؤُهُ، وَكَبِيرُهُمُ صلاحُ الدينِ مُحَمَّدُ اليَغِيساني، وَسارَ مَعَهُ أسدُ الدينِ شيركوه، وَانحازَ إِلَيْهِ الأعيانُ وَالوجوهُ، فَمَلَكَ حَلَبَ، وَبَلَغَ المُرادَ وَعَلَبَ، وَسَبَى الكُفْرَ وَسَلَبَ، وَافْتَضَّ الفُتُوحاتِ الأَبكارَ، وَاسْتَخَلَصَ مِنَ الكُفْرِ الدِّيَارَ، فَأَمَّا الوَزيزُ جَمالُ الدينِ مُحَمَّدُ بنُ عليِّ بنِ أبي منصورٍ فَإِنَّهُ لَمَّا بَعُدَ عَنْهُ مَنْ كانَ يَحذَرُهُ، وَعَرَفَ الأمرُ مِمَّنْ كانَ يُنكرُهُ، ضَمَّ العِسكرَ وَاسْتَمَالَ المَلِكَ ألبَ أرسِلانَ وَأَطَمَعَهُ في المَمْلَكَةِ وَحَنَّهُ على الحَرَكةِ، وَكَاتَبَ زَيْنَ الدينِ عليَّ بنَ كوجكٍ بِالمُوصِلِ على أنْ يَسْتَدعيَ سِيفَ الدينِ غازياً أَكْبَرَ أولادِ زنكي، وَكانَ لا يُفارِقُ خِدْمَةَ السُلطانِ مسعودٍ بِأمرِ والدِهِ، أَمِناً بِهِ مِنَ عَواظِلِ القَصيدِ وَمَكاثِدِهِ، فَكَتَبُوا إِلَيْهِ بِالواقِعَةِ، وَأشاروا عَلَيهِ بِالمُسارَعَةِ، فَاتَّفَقَ وَصُولُ الخَبيرِ إِلَيْهِ بِشَهْرَزورٍ، وَقَدِ انْفَصَلَ عَنِ السُلطانِ بدستورٍ، فَأَغَدَّ السَّيْرَ وَاسْتَعجَلَ الخَيْرَ، وَسَبَقَ إلى المُوصِلِ قَبْلَ وَصُولِ الجَماعَةِ، فَدَخَلَهَا وَحَلَى بِحُلُولِهِ عَظَلَهَا، وَلَمَّا عَرَفَ جَمالُ الدينِ بِوَصُولِهِ سَبَقَ إلى المُوصِلِ بِدخولِهِ، وَبقي المَلِكُ مُتَفَرِّداً فَاسْتَوَحَشَ، وَتَشَوَّرَ في رَأْيِهِ وَتَشَوَّشَ، وَرَحَلَ حَوْلَ الجَزيرَةِ قَرِفاً مُفارقاً، وَإلى حَلَبَةِ النِجاةِ مُسابقاً، فَسَيروا وَراءَهُ مِنَ وَثَقِ بِتَوفِيرِ أمانِيهِ أمانَهُ، وَأقامَ على طاعةِ القومِ لَهْ بِرِهانِهِ بِرِهانِهِ، وَخَيَّلُوا لَهُ أَنَّ القومَ عادُوا غلمانَهُ، وَأَنَّ غازياً إِذا فَارَقَهُ زالتْ عَنْهُ سِمةُ الأتابِكِيَّةِ، وَأَنَّه إِذا بَعُدَ عَنْهُ البَحْرُ اضْطَرَّ إلى الجِياضِ البِكِيَّةِ، فَلَا تُشِمِتُ بِهِ أَعْداءُهُ، وَلَا يَنْقُصُ عَلَيْهِ فِعْراءُهُ، وَأرجعَ إِلَيْهِ مُوجِّهاً يُرجِعُ إِلَيْهِ جَاهَهُ، وَعَدَّ إلى صَوبِهِ بِصَوبِكَ يَتَلَطَّمُ بِبِحْرِكَ أُمَواجُهُ وَأُمَواجُهُ، وَإِذا كُنْتَ مَعَهُ أَخَذَ البَلاَدَ بِاسْمِكَ، وَجَعَلَ المَمالِكَ بِرِسمِكَ، وَلَاذَ بِعِزِّكَ وَعَادَ بِحِرْزِكَ، وَكانَ عامِلاً لِحاشِيَتِكَ وَحامِلاً لِغاشِيَتِكَ، وَحامِلاً مَعَ نَاشِيَتِكَ وَهامِلاً لِماشيَتِكَ، فَمازالوا بِالخَترِ وَالخَتلِ إلى قَلْبِ القَتْلِ فَإِنَّهُ عادَ مَعَهُمُ وَأَعطى خَدَعَهُمُ، وَدَخَلَ المُوصِلَ في أَهْبَةِ جَميلَةٍ وَأَهْبَةِ جَليلَةٍ، وَاسْتِقبالَ وَنثارَ وَإِعظامَ وَإِكثارَ، وَهَنا وَهَنا وَثِنا وَهَدايَةَ وَهَدا، وَجِلالَةَ وَجِلاءَ، حَتى وَصَلَ الدارَ وَخالَ الاستِقْرارَ، فَمَما أَجَلَسُوهُ حَتى اِختَلَسُوهُ، وَمَما ذَكَرُوهُ حَتى نَسُوهُ، وَمَما رَسَمُوهُ حَتى دَمَسُوهُ، وَنَقَلُوهُ مِنَ سَريْرِ المَلِكِ إلى سَريْرِ الأهلِكَ، وَكَتَمُوا أمرَهُ وَخَتَمُوا عُمَرَهُ، وَجَرى بَيْنَ جَمالِ الدينِ الوَزيزِ وَزَيْنِ الدينِ عليِّ كوجكٍ وَسِيفِ الدينِ غازيِ التَّعاقدُ على التَّعاضُدِ، وَالتَّعاهُدُ على التَّساعُدِ، وَالتَّحالُفُ على تَرَكِ التَّخالُفِ، وَالتَّوَأْفُ على رَفْضِ التَّخالُفِ، وَالتَّعاونُ على نَفيِ التَّبايِنِ، وَالتَّواطؤُ على حِفظِ التَّواطينِ.

وَتَوَلَّى جَمَالَ الدِّينِ زَارَةَ الْمُوصِلِ وَاسْتَوْلَى، وَكَانَ بِاسْتِرْعَاءِ مَا أَوْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النَّعْمِ أَوْلَى، وَأَنَّهُ عَاشَ بِنِدَائِ الْجُودِ، وَعَشَى إِلَى نَادِيهِ الْوَفُودِ، وَأَحْيَى سُنَّةَ الْكَرَمِ وَأَعْلَى سَنَاهَا، وَأَحْلَى جَنَّةَ النَّعْمِ وَأَحْلَى جَنَاهَا، وَعَادَتِ بِهِ الْمُوصِلُ قِبْلَةَ الْإِقْبَالِ وَكَعْبَةَ الْأَمَالِ، وَمَحَطَّ رِحَالِ رَجَاءِ الرِّجَالِ، وَنَادَى هَلُمُّوا لِلنَّدَى، وَتَهَادَى بِإِقْبَالِهِ الْهُدَى، وَأَنَارَتْ مَطَالِغُ سُعُودِهِ وَنَارَتْ مَطَامِيعَ حَسُودِهِ، وَسَارَتْ فِي الْأَفَاقِ مَعَ الرِّفَاقِ صَنَائِعُ جُودِهِ، وَعَمَّرَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَشَمَلَ بِالْبَيْرِ أَهْلَهُمَا، وَجَمَعَ بِالْأَمْنِ شَمْلَهُمَا.

ذَكَرَ حَالِ الْوَزِيرِ جَمَالِ الدِّينِ الْجَوَادِ أَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي مَنْصُورِ

كَانَ وَالِدُهُ مِنْ أَصْفَهَانَ الْكَامِلِ عَلِيٌّ، وَهُوَ حَاجِبُ الْوَزِيرِ شَمْسِ الْمُلْكِ بْنِ نِظَامِ الْمُلْكِ، وَكَانَ أَبُوهُ أَبُو مَنْصُورٍ فَهَادًا فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ مَلِكْشَاهِ بْنِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ، وَابْنُهُ الْكَامِلُ عَلِيٌّ نَجِيبٌ أَرِيبٌ أَدِيبٌ لَيْبٌ، قَدْ عَلَتْ هِمَّتُهُ وَحَلَّتْ شِيمَتُهُ وَعَلَتْ قِيمَتُهُ، وَجَادَ لَهُ الْجَدُّ وَمَا جَادَلُهُ، وَسَاعَدَهُ السَّعْدُ وَحَوَى لَهُ مَا حَاوَلَهُ، وَاقْتَنَى الْأَدَابَ وَابْتَنَى الْأَرَابَ، وَزَادَتْ أَيَامُهُ فِي السَّمَوِّ وَأَيَامُهُ فِي النَّوْمِ، حَتَّى تَنَافَسَ فِي اسْتِخْدَامِهِ الْمُلُوكُ وَالْوُزَرَاءُ، وَاسْتَعَضَّاتِ بَرَآئِهِ فِي الْحَوَادِثِ الْأَرَاءُ، وَصَاهَرَ الْأَكَابِرَ وَظَاهَرَ الْمَفَاحِرَ، وَرَوَّجَ بِنْتًا لَهُ لِبَعْضِ أَوْلَادِ أَسْوَالِ الْعَمِّ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَاشْتَمَلَ لِذَلِكَ الْعَمِّ عَزِيزُ الدِّينِ عَلِيُّ وَالِدُهُ جَمَالُ الدِّينِ أَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدٍ وَخَرَّجَهُ فِي الْأَدَبِ، وَدَرَّجَهُ فِي الرُّتَبِ، وَأَخْرَجَهُ فِي النَّعْمِ، وَأَلْهَجَهُ فِي الْكَرَمِ، فَأَوَّلُ مَا رَتَّبَهُ فِي دِيْوَانِ الْعَرَضِ السُّلْطَانِيِّ الْمَحْمُودِيِّ مُحَلِّيًّا، فَبَرَزَ فِي تِلْكَ الْحَلِيَّةِ سَابِقًا وَمُجَلِّيًّا، وَعَلَبَ فِي تَحْلِيَّتِهِ ذِكْرَ الْأَبْلَجِ، فَتَعَتَّهُ الْأَتْرَاكُ بِالْأَمْلَجِ، وَاسْتَقَامَ أَمْرُهُ عَلَى الْمُنْهَجِ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَلَّى زَنْكِي بْنُ أَقِ سَنْقَرِ الشَّامِ تَرَوَّجَ بِأَمْرَةِ الْأَمِيرِ الْأَسْفَهْسَلَارِ كَنْدَغْدِي، وَوَلَدَهَا خَاصِبِكُ بْنُ كَنْدَغْدِي مِنْ أَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَاءِ الْمَمْلَكَةِ، وَهُوَ يَسِيرٌ مَعَ زَنْكِي وَهُوَ سَامِي الْقَدْرِ نَامِي الْأَمْرِ، فَرَتَّبَ الْعَزِيزُ جَمَالَ الدِّينِ خَاصِبِكَ وَزِيرًا، وَوَضَى بِهِ كَثِيرًا، فَسَّرَ بِالرِّيَّةِ وَسَارَ فِي الصُّحْبَةِ، وَكَانَ مُقْبَلَ الْوَجَاهَةِ مَقْبُولَ الْوَكَاةِ، مَحْبُوبَ الْمُحَاوَرَةِ مَخْطُوبَ الْمُشَاوَرَةِ، ثَقِيلَ حِصَا الْحِصَافَةِ جَمِيلَ حَلِيِّ الظَّرَافَةِ، شَهِيَّ النَّشَاشَةِ بَهِيَّ الْبَشَاشَةِ، مَحْمُودَ السِّيْرَةِ سَائِرَ الْمَحَامِدِ، مَوْدُودَ الْفُكَاةِ كَثِيرَ الْمَوَادِدِ، فَتَوَفَّرَتْ مَنَى زَنْكِي عَلَى مُنَادِمَتِهِ، وَقَفَّرَ صَبَاحُهُ وَمَسَاوُهُ عَلَى مُسَاهَمَتِهِ، وَرَأَى جَمِيلَةً فَجَمَلَ فِيهِ رَأْيَهُ، وَتَكَاتَّرَتْ لَدَيْهِ أَمَارَاتُ نُضْجِهِ وَرِيهِ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي آخِرِ عُمُرِهِ فِي إِشْرَافِ دِيْوَانِهِ، وَزَادَ

الْمَالِ وَزَانَ الْحَالَ بِتَمَكِينِهِ وَمَكَانِهِ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْ جَمَالِ الدِّينِ فِي أَيَّامِ زَنْكِيِّ جُودٌ وَلَا عُرْفٌ لَهُ مَوْجُودٌ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقْتَنِعُ بِأَقْوَاتِهِ وَتَرْجِيَةِ أَوْقَاتِهِ، وَرَفَعَ جَمِيعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَى خَزَائِنِ زَنْكِيِّ اسْتِيقَاءً لِحَاجَتِهِ وَاسْتِعْلَاءً بِهِ عَلَى أَشْبَاهِهِ، فَتَوَقَّرَ وَوَقَّرَ وَظَهَرَ وَاسْتَظْهَرَ، وَمَكَّنَهُ زَنْكِيُّ مِنْ أَصْحَابِ دِيْوَانِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَصْرَرَ بِإِسَاءَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ انْتَفَعَ بِإِحْسَانِهِ، عَلَى أَنَّهُ تَكَبَّهْمُ وَسَلَبَهُمْ، وَنَصَبَ مِنْ عِنْدِهِ مَنْ اصْطَنَعَهُ حَتَّى عَرَفَهُ وَمَنْ رَفَعَهُ، وَلَمَّا قُيِّلَ زَنْكِيُّ صَارَ لِلدَّوْلَةِ الْأَتَابِكِيَّةِ مَلَاذًا، وَلِلْيَتِّ الْأَقِ سِنْقَرِي مَعَاذًا، وَاسْتَوَزَرَ الْأَمِيرُ غَازِيَّ بْنَ زَنْكِيِّ وَزَادَهُ عَلَيَّ كَوْجُكَ عَلَى وَزَارَتِهِ، وَحَلَفَ لَهُ عَلَى مَظَاهِرَتِهِ وَمُضَافَرَتِهِ، وَأَجْرَى بِحَرَ السَّمَاحِ، وَنَادَى حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، فَصَاحَتْ بِأَفْصَالِهِ أَلْفَاظُ الْفِصَاحِ، وَأَحْيَى سِنَّةَ السَّخَاءِ، وَأَطْلَعَ فِي آفَاقِ الشُّكْرِ سِنَاءَ الْعَطَاءِ، وَأَتَوْا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَقُصِدَ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ سَحِيقٍ، وَقَصَدَهُ الْعُظْمَاءُ، وَمَدَحَهُ الشُّعْرَاءُ، وَمَنَّ وَقَدَّ إِلَيْهِ وَمَدَحَهُ الْأَمِيرُ أَبُو الْفَوَارِسِ سَعْدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّيْفِيِّ الْمَعْرُوفُ بِحَيْصِ بَيْصِ، وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِيهِ قَصِيدَةً أَوْرَدْتُ مِنْهَا<sup>(1)</sup>:

[الكامل]

نَصْرًا وَمَنْ أَنْجَذَهُمَا لَمْ يُخَذَلِ  
جَادَ الزَّمَانُ وَبِالْعُلَى لَمْ يَبْخَلِ  
فَضَلَ الْأَخْبِرُ بِهَا مَقَامَ الْأَوَّلِ  
إِنِّي لَكُمْ مِنْ هِمَّتِي فِي جَحْفَلِ  
وَوَعَى أَصُولُ بَصَارِمِي وَيِمْقُولِي  
مَهَلًا فَإِنَّ عَزَائِمِي لَسَمَّ تَرَحَّلِ  
خَشِيَانٌ وَأَشْبِهِ الصَّبَاحِ الْمُقْبَلِ  
جَارٍ بِفَخْرِ السَّبْقِ أَيُّ مَوْكَلِ  
خَفِيَتْ جَوَاهِرُهُ لِفَقْدِ الصَّيْقَلِ  
ظَلَمْتُ جَمَالَ الدِّينِ مَاوَى الْعَيْلِ  
فَطَمَمْتُ فَسَالَتْ بِالْمَدَائِحِ مِنْ عَلِيٍّ  
نَقَلَ الْخُضْمُ إِلَى الْمَزَادَةِ يَخْجَلِ

نَالَ الصَّوَارِمَ بِالرَّمَاكِ الدُّبَلِ  
لَوْشْتُمَا وَمَشْبِيئَةً بِمَشْبِيئَةٍ  
كَمْ رَاحَ مَلِكٌ فَارَعَوَى بِعَزِيمَةٍ  
فَاقَتِي فَخَارَكَ بِأَمْجَاشِعُ وَأَعْلَمِي  
أَنَا فَارَسُ الْيَوْمَيْنِ يَوْمَ مَقَالَةٍ  
رَحَلَ الشَّبَابُ فَكَبِيلَ فَاتَتْهُ الْعُلَى  
كَرَمَ الدَّجَى عَمَّا يَشِينُ فَكَمْ أَبَتِ  
فَلِشْنِ أَخَذْتُ مِنَ الزَّمَانِ فَسَابِحُ  
وَلِشْنِ عَرَضْتُ فَصَارِمُ ذِي رُونِقِ  
ظَلَمْتُ فَضَائِلِي الْمَقَاوِلِ مِثْلَمَا  
مَدَحُوهُ كَيَّ يَحْوُوا مَنَاقِبَ نَفْسِهِ  
وَأَنِيْتُ أَبْذَلُ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَنْ يَرَدُ

وَيَجُودُ بِالنِّعْمَى إِذَا لَمْ يُسْأَلِ  
فَالْهَامُ مُطْرِقَةٌ لِذَلِكَ الْمُثْقَلِ  
فَضَلَ الْجَمَالِ عَلَى الْحَيَا الْمُتَهَلِّلِ  
يَسْرِي وَدَارُ مُقَامِهِ بِالْمَوْصِلِ  
مُحْيِي دَرِيْسِي شَرْعِي وَالْمَنْزِلِ  
وَمُعِينِ أُمَّتِهِ بِجُودِ مُسْبِلِ  
نَشْوَانِ يَمْرُحٍ بِالنِّعِيمِ الْمُخْضِلِ  
بَلَدٌ عَلَى شَطِّ الْفِرَاتِ السَّلْسِلِ  
بِمُبَابِ زَخَارٍ وَهَضْبَةِ يَذْبُلِ  
وَمِنْ النِّجَاحِ نِدَاءٌ سَمَّحٌ مُفْضِلِ  
وَأَنَا الْمُشَارُ وَمَا بَدَلَكَ فَافْعَلِ

وَكُنْتُ أَنَا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بِنِعْدَادِ مُتَقَهِّهَا وَاتَّفَقَ حُضُورِي بِالْمَوْصِلِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ  
اِثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فَحَضَرْتُ عِنْدَ جَمَالِ الدِّينِ بِالْجَامِعِ فِي جُمُعَتَيْنِ وَتَكَلَّمْتُ عِنْدَهُ  
مَعَ الْفُقَهَاءِ فِي مَسْأَلَتَيْنِ، وَمِمَّا مَدَحْتُهُ بِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوْلَاهَا، وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ نَظْمِي: [الوافر]

تَنَوَّعْنَا جَمَالًا لَا جَمَالَ  
فَلَمَّا حَالَ عَهْدُ الْوَصْلِ حَالًا

وَكَمْ هَمٌّ صَبَّرْتُ لَهُ فَرَا  
كَمَا قَصَّصْتُ آمَادًا طَوَالًا  
وَرِثْنَا مِثْلَهُ عَمًّا وَخَالًا  
وَأَصَدَقْنَا كَرَامَتَهُ النَّضَالَ

بِهِ أَخْلَى مِنَ الْأَشْجَانِ بِالَا  
وَلَمْ أَسْقِ الْعِدَى الدَّاءَ الْمُضَالَ  
وَلَا صَادَقْتُ مِنْ جُبْنِي مَنَالًا

يُعْطِي الْجَزِيلَ لِسَائِلِي مَعْرُوفَهُ  
تَقَلَّتْ بِهِ الْأَعْنَاقُ مِنْ مَنَنِ النَّدَى  
مَنْ سَمَرَ كُنْدًا إِلَى تَهَامَةٍ شَاهِدُ  
السَّحْبِ تَمَطَّرُ مَا تَطَّلُ وَجُودُهُ  
وَتَقَرُّ عَيْنُ مُحَمَّدٍ بِمُحَمَّدِ  
مَعْمَارِ مَرْقَدِهِ وَحَافِظِ دِينِهِ  
جَعَلَ الْمَدِينَةَ مَصْرَ رَيْفِ أَهْلًا  
فَكَأَنَّهَا بِالْخَصْبِ مِنْ قَرِبَاتِهِ  
خَرَقَ يُنَاطُ قَمِيصُهُ وَرِدَاؤُهُ  
أُمِّحَمَّدُ وَلَقَدْ دَعَا مَدْحًا  
هَذَا الزَّمَانُ وَهَذِهِ فِرْعُ الْعُلَى

أَطْنُنُهُمْ وَقَدْ عَزَمُوا إِرْتِحَالَ  
سَرَوْا وَالصُّبْحُ مُبَيِّضُ الْحَوَاشِي  
ومنها:

وَكَمْ خَطْبٍ تَبَّتْ لَهُ قَوْلِي  
وَكَمْ طَوَّلْتُ آمَالَ قِصَارًا  
وَكَمْ مَجْدٍ أَضْفَنَاهُ إِلَى مَا  
خَطْبِنَاهُ بِاللِّسَنَةِ الْعَوَالِي  
ومنها:

أَخْلَانِي وَمَلَّ فِي النَّاسِ خَلٌّ  
لَنْ لَمْ أَشْفِ صَدْرِي مِنْ حَسُودِي  
فَلَا أَدْرِكُكَ مِنْ آدِبِي مَرَامًا

وَلَا وَخَدَّتْ إِلَيْكُمْ بِي جَمَالَ      وَلَا وَالْبَيْتُ مَوْلَانَا جَمَالَا  
 وَقَائِلَةَ أَفْسَى الدُّنْيَا كَرِيمٌ      سِوَاهُ لَا وَأَبِي الْمُلَى لَا  
 وَإِذَا أوردَتْ بِالْفُحُولِ الشُّعْرَاءِ فِيهِ أَطْلُبُ      وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا جَادَ بِهِ لِلْفُودِ، حَتَّى زَمَّ إِلَى الْبِلَادِ  
 رِكَائِبَ الْجُودِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ بِلَدَةٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ مِنْ مَوَاهِبِهِ رَاتِبًا، وَأَصْبَحَ فِي الْأَفَاقِ إِلَى  
 الْمُقِيمِينَ سَائِرًا وَلِلطَّالِبِينَ طَالِبًا.

رجع الحديث إلى ذكر ما جرى للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بعد  
 موت جاوли جاندار

فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ لَمَّا تُوْفِيَ جَاوَلِي جَانْدَارَ طَمَعَ الْأَمِيرُ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ فَخَرُّ الدِّينِ  
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايَرِكِ فِي تَوَلَّى بِلَادِ أَرَانِيَّةِ وَأَرْمِينِيَّةِ وَأَذْرَبِيجَانَ، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَا يَتَمَسَّى لَهُ  
 ذَلِكَ مَعَ تَسَلُّطِ خَاصِبِكِ بْنِ بَلَنْكِرِيِّ وَتَبَسُّطِهِ، فَتَوَسَّلَ فِي اسْتِمَالَةِ الْأَمِيرِ بُوَزَابَةَ صَاحِبِ فَارَسِ  
 إِلَى السُّلْطَانِ لِيَتَمَّ لَهُ مُرَادُهُ بِتَوَسُّطِهِ وَتَسْرِطِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْأَمِيرِ الْحَاجِبِ تَنَارَ وَهُوَ عِنْدَ الْأَمِيرِ  
 بُوَزَابَةَ أَنَّ هَذَا أَوْانُ قُدُومِهِ وَزَمَانُ هُجُومِهِ، فَقَدَّمَ الْعَسْكَرَ السُّلْطَانِيَّ فِي عَسْكَرِ صَخْمٍ وَمَقْدَمِ  
 فَخْمٍ، وَقُوَّةٍ رَائِعَةٍ وَهَيِّبَةٍ رَادِعَةٍ، وَاتَّصَلَ بِهِ الْأَمِيرُ عَبَّاسُ صَاحِبِ الرَّيِّ فِي عُدَّةٍ وَعَدِيدٍ، وَحَدُّ  
 وَحَدِيدٍ، وَيَأْسٍ شَدِيدٍ، وَأَتَّفَقَ هُوَ لِأَبْنِ طَغَايَرِكِ وَبُوَزَابَةَ وَعَبَّاسٌ عَلَى تَدْبِيرِ الدَّوَلَةِ  
 وَتَقْرِيرِ قَوَانِينِهَا وَتَرْتِيبِ دَوَائِمِهَا وَكَفَّ عَادِيَةَ الْمُتَسَلِّطِينَ عَنْهَا وَتَوَفِيرِ حُظُوظِهِمْ بِالِاسْتِقْلَالِ  
 بِهَا مِنْهَا، فَأَحْوَجَتِ السُّلْطَانَ الضَّرُورَةُ إِلَى التَّزْوُلِ عَلَى حُكْمِهِمْ، وَرَأَى السَّلَامَةَ فِي سَلِيمِهِمْ،  
 وَأَقْسَمَ عَلَى رِضَاهُمْ وَرِضَايِهِمْ بِقِسْمِهِمْ، فَأَوَّلُ مَا عَزَلُوا وَزِيرَهُ وَنَقَلُوا إِلَى الْوَزِيرِ الَّذِي وَكَّلَهُ تَدْبِيرَهُ  
 وَزَارَةَ تَاجِ الدِّينِ بْنِ دَارِسْتِ الْفَارِسِيِّ، كَانَ وَزِيرَ بُوَزَابَةَ صَاحِبِ فَارَسِ، قَرَّبَهُ فِي وَزَارَةِ السُّلْطَانِ  
 لِيَتَصَدَّرَ الْأُمُورَ عَلَى مُرَادِهِ وَتَوَرَّدَ عَلَى وَفْقِ إِيْرَادِهِ، وَكَانَ هَذَا الْوَزِيرُ رَفِيعَ الْقَدْرِ وَسِعَ الصَّدْرِ،  
 مَجِيدَ الْمُحَيِّدِ سَدِيدَ السُّوْدِ، بَهِيَّ الشَّيْبِ نَقِيَّ الْجَيْبِ، مُبْغِضًا لِلشَّرِّ مُجِبًّا لِلخَيْرِ، غَنِيًّا عَنِ خِدْمَةِ  
 السُّلْطَانِ بِمَا لَهُ مِنَ الْوَفْرِ، لَكِنَّهُ أَلْزِمَ بِالْخِدْمَةِ وَمَا اسْتَطَاعَ الْإِبَاءَ، وَكَأَنَّمَا لَمَحَ مِنْ ابْتِدَائِهِ أَمْرُهُ  
 الْإِنْتِهَاءَ، فَتَصَدَّرَ بِصَدْرِ مُنْشَرِحٍ لِشَرَحِ الصُّدُورِ، وَأَمْرٍ مُنْتَظِمٍ لِنَظْمِ الْأُمُورِ، وَمَا فَعَلَ أَمْرًا يُنْتَقَمُ  
 عَلَيْهِ، وَلَا أَحَالَ حَالًا يُتَوَجَّهُ لِأَجْلِهَا اللَّائِمَةُ إِلَيْهِ، وَنَائِبُهُ أَمِينُ الدِّينِ أَبُو الْحَسَنِ الْكَازَرُونِيُّ ذُو  
 الدِّينِ الْأَمْتِينَ وَالرَّأْيِ الرَّزِينِ وَالْمَكَانِ الْمَكِينِ، وَالسَّمَّاحِ الشَّائِعِ وَالْكَرَمِ الذَّائِعِ، وَالِاسْتِشْهَارِ  
 بِأَعْمَالِ الْبِرِّ، وَالِاسْتِشْهَارِ بِأَفْعَالِ الْخَيْرِ، وَتَوَلَّى دِيْوَانَ الْعَرَضِ وَلَدُ الْوَزِيرِ عَضُدِ الدِّينِ، وَهُوَ

جَمِيلٌ مُجْمَلٌ لِدِيوانِهِ، مُهَذَّبٌ مُذَهَّبٌ فِي مَذْهَبِهِ، وَأَقْرَأُ وَلايَةَ أَذْرَبِيجانَ وَأَرانِيَةَ جَمِيعاً عَلَى ابْنِ طغايِرِك، وَقَرَّرُوا إِيعادَ خَاصِبِك بِنِ بِنْكَرِي عَنِ السُّلطانِ، فَسارَ فِي خَدْمَةِ ابْنِ طغايِرِك أَميراً، وَصَحْبُهُ فِي مِضْمارِ الخُلُصاءِ وَلَمْ يُخْلِصَ فِي صُحْبِيهِ ضَميراً، وَنَفَرُوا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ بِالنَّوِيَةِ مُلازِماً لِلسُّلطانِ حَتَّى يَسَلَّمَ لَهُمْ جِانِبُهُ وَيُؤَمِّنَ نَوائِبَهُ، وَأَنْفَصَلَ الأَميرُ بوزابَةَ إِلى بِلادِ فارسِ بِالأَمْرِ واثقاً، وَلِلْجَماعَةِ عَلَى ما تَقَرَّرَ مِنَ المُوافِقَةِ مُوافِقاً، وَرَحَلَ السُّلطانُ إِلى بَغدادَ وَمَعَهُ الأَميرُ الكَبيرُ عِباسُ صاحِبِ الرِّيِّ فِي سُوكةِ مانِعَةٍ وَسِكَّةِ قاطِعَةٍ، وَهَيبَةٍ ساطِعَةٍ وَهَيْبَةٍ رانِعَةٍ، وَلَمَّا قَدِموا بَغدادَ فِي خَريفِ تِلْكَ السَّنَةِ خَرَجَتْ مَعَ الفِقاها لِتَلْقِيهِم، وَالناسُ مُسْتَعِجلُونَ عَلَى تَخَوُّفِهِم مِنْهُم وَتَوَقُّعِهِم، فَلَمَّا وَصَلوا بَغدادَ نَزَلوا دُورَها وَسَكَنوا لِلتَّخريبِ مَعْمُورَها، وَاللَّهْبُوا الكُروبَ وَأَرهَبُوا القلوبَ، وَكانَتْ هذِهِ عادَتُهُم إِذا وَصَلوا وَعادَتُهُم إِذا نَزَلوا، فَتَمَكَّنَ الأتراكُ لا يَتْرُكونَ مُمكناً مِنَ الجَهِلِ، وَعَندَهُم أَنَّ الظلمَ مِنَ العَدْلِ، وَلَكِنَّ الوَزيزَ نَزَلَ فِي دارِ الوِزارَةِ بِالأَجْمَةِ، مُتَوَخِّياً بِتِ المَكْرَمَةِ، وَأَمَرَ بِتَجديدِ عِمارةِ المَدْرَسَةِ التاجِيَّةِ الَّتِي بَناهَا خالُهُ الوَزيزُ تاجُ المُلْكَ أبو الغنائِمِ بِنُ دارِستِ بِيغدادَ، وَواظَبَها شَيْخُنَا شَرَفُ الدِّينِ يوسُفُ الدَّمَشقيُّ فَأَحْيى دَرِيسَها بِدُرُوسِها، وَأَشْرَقَ أَفقُها بِنِجومِ العُلُومِ وَشُموسِها، وَرَتَّبَ الوَزيزُ فِي دارِهِ مِجالِسَ لِلخِتاماتِ، وَحَضُورِ أئمَّةِ الفِرْقِ وَفِقاهائِها لِلْمِنَاطِراتِ، وَلَمْ يُعارضِ السُّلطانُ فِي شَيْءٍ مِنَ أوامِرِهِ وَأَمُورِهِ، وَابْتَسَمَتِ الدُولَةُ بِإِسفارِهِ وَسُفُورِهِ، لَكِنَّهُ مَعَ تَقاضِرِ مُدَّتِهِ ما أَمَرَ وَلا أَحلى، وَلا سَغَلَ وَلا أَحلى، وَلا عَزَلَ وَلا ولى، وَلا عَيرَ نائِباً وَلا بانَ بَغيرِ، وَلا أَثَرِ رِيباً وَلا رابَ بِأَثَرِ، وَلا كَسَرَ حَقّاً، وَلا كَسَبَ حِقْداً، وَلا جَهدَ بِالقَصدِ تُركِياً، وَلا تَرَكَ فِي الاقْتِصادِ جَهداً، كُلُّ ذَلِكَ طَلَباً لِلسَّلَامَةِ وَاسْتِيقاءِ الاِسْتِقامَةِ، وَعِلْماً بِوَحيمِ العاقِبَةِ وَالْمِ المُعاقِبَةِ، وَإِنَّ الأَمْرَ لا يَتِمُّ وَالذَّهْرَ لا يَدُمُّ، وَعَرَفَ فِي يَومِهِ أَنَّ عَداءَ غادِرٍ، وَأَنَّ النَّارَ نائِرٍ، وَأَنَّ الوَهْنَ ظاهِرٍ، وَأَنَّ الهُونَ حاضِرٍ، وَأَنَّ الشَّرارَ مُتَطايِرٍ، وَأَنَّ الفِرارَ مُتَقاضِرٍ، فَاسْتَكفى الوَقْتَ بِمُداراتِهِ، وَاسْتَكفَى المَقْتِ بِمُداواتِهِ، وَمَشى الزمانَ بِمُقاومَتِهِ وَمُقاواتِهِ، فَلَاجِرمَ تَوَقَّرَتِ الدَّواعي عَلَى حُبِّهِ، وَقَرَّتِ العَوادي عَنِ حَرِبِهِ وَحزِبِهِ.

### ذِكْرُ وَصُولِ العَبادِي

وَفي هذِهِ السَّنَةِ قَدِمَ الأَميرُ العالِمُ قَطْبُ الدِّينِ أبو منصورُ المُظَفَّرُ بِنُ أَرْدَشِيرِ العَبادِي الواعِظُ، فَأَعجَزَ بِالفِصاحَةِ وَأعجَبَ، وَشَرَّقَ بِأنوارِ البِلاغَةِ وَأَغْرَبَ، وَحَلَّ عَقودَ العُقُولِ، وَحَلَّ فِي قلوبِ القَبولِ، وَفَتَحَ لِلافتانِ بِفنونِهِ عَلَى الألبابِ البابَ، وَأَماطَ عَنِ الأفهامِ بِالإِجْداءِ فِي اجادِ مَعانِيهِ

لِلْإِجْدَابِ، وَوَكَّلَ عَلَى الْإِعْرَاءِ بِهِ أَغْرَابَهُ، وَأَغْرَزَ لِيُوَارِدَ الرَّيِّ وَرَائِدَ الرَّأْيِ صَوْبَهُ وَصَوَابَهُ، وَأَنَا أَذْكَرُ قَدْ حَضَرْتُ مَجْلِسَهُ وَقَدْ وُضِعَ لَهُ عَلَى شَاطِئِ دَجْلَةَ تَحْتَ دَارِ السُّلْطَانِ، وَالسُّلْطَانُ مَسْعُودٌ مُطِِّلٌ عَلَيْهِ مِنْ أَعْلَى مَكَانٍ، وَالْأَمِيرُ عَبَّاسُ صَاحِبُ الرَّيِّ فِي شَبَّارَتِهِ بِدَجْلَةَ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ، وَالْعِبَادِيُّ يَفْتِنُ النَّاسَ بِمَا يُبْدِيهِ مِنْ سِحْرِهِ وَيُبْدِعُهُ، وَحَضَرْتُ مُدَّةَ بَقَائِي بِبَغْدَادَ جَمِيعَ مَجَالِسِهِ أَكْتُبُهَا مِنْ لَفْظِهِ، مَعَ جَمَاعَةٍ تَتَقَابَلُ عَلَيْهَا فَلَا تُغَادِرُ مِنْهَا كَلِمَةً، وَنَجِدُهَا كَمَا ذَكَرَهَا مُتَّسِقَةٌ مُنْتَظِمَةٌ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ الْمُقْتَضِي وَقَبْلَهُ وَرَفَعَهُ وَبَجَلَّهُ وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ فِي جَامِعِ الْقَصْرِ فِي مَوْضِعٍ يَقْرُبُ مِنْ مَنْظَرَتِهِ، لِيَجْلِسَ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ وَهُوَ بِحَضْرَتِهِ، وَأَنْبَتَتْ بَدَائِهُهُ وَبَدَائِعُهُ، وَأَشْرَفَتْ بِنُجْحٍ مُطَالِبِهِ مُطَالِعُهُ.

ذَكَرَ مَا جَرَى مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي أَنْحَلَتْ بِهَا تِلْكَ الْعُقُودَ فَاخْتَلَتْ تِلْكَ الْعَهُودَ

وَصَلَّ الْخَبِيرُ بِقَتْلِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَغَايِرِ بْنِ بَارَانِيَّةٍ، وَكَانَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ أَنَّهُ اسْتَصْحَبَ مَعَهُ خَاصِّبَكَ بْنَ بَلَنْكِرِي لِيُبْعِدَهُ عَنِ الْخِدْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، غَيْرَ مُكْتَرِبٍ بِهِ وَلَا مُسْتَشْعِرٍ مِنْ كَيْدِهِ وَلَا حَذِرٍ، وَكَانَ مَعَ ابْنِ بَلَنْكِرِي أَمْرٌ مِنَ السُّلْطَانِ سِرًّا فِي الْقَتْلِ بِهِ إِنْ خَلَّتْ عِرْصَةٌ أَوْ أَمَكَّتْ فُرْصَةٌ، فَرَكِبَ ابْنُ طَغَايِرِكَ يَوْمًا لِتَجْهِيْزِ الْعَسَاكِرِ إِلَى غَزَاةِ الْكُرْجِ، وَوَقَّفَ مُنْفَرِدًا فِي ذَلِكَ الْمَرْجِ، وَهُوَ يُسَيِّرُ أَمِيرًا أَمِيرًا، وَلَا يُمْكِنُ عِنْدَهُ عَنِ الْمَقَامِ كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا، وَابْنُ بَلَنْكِرِي وَاقِفٌ لَا يُرْنِمُ، وَهُوَ لِيُرْقِي مَا يَيْسِمُهُ مِنْ عَارِضِ الْغَمْدِ يُشِيمُ، وَمَعَهُ الْأَمِيرُ زَنْكِي الْجَانْدَارُ فَتَقَدَّمَ وَأَقْدَمَ وَضَرَبَ رَأْسَ ابْنِ طَغَايِرِكَ بِسَوْطِ حَدِيدٍ شَدَخَهُ وَفَشَخَهُ، وَاسْتَصْرَخَ بِأَعْوَانِهِ فَعَدِمَ مِصْرَخَهُ، وَضَرِبَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالسِّيُوفِ، وَتَفَرَّقَتْ عَنْهُ جُمُوعٌ تِلْكَ الصَّفُوفِ، وَتَغَلَّبَ ابْنُ بَلَنْكِرِي عَلَى أَرَانِيَّةٍ فَأَحْسَنَ إِلَى الَّذِينَ سَاعَدُوهُ، وَعَقَدَ حُبِّي الْحُبُّ لَهُمْ حِينَ عَاقَدُوهُ، وَجَعَلَ لَهُمْ شَرِكَةً فِي الْوِلَايَاتِ لَمَّا شَارَكُوهُ، وَمَلَكَهُمْ مِمَّا مَلَكَوهُ، وَامْتَدَّ إِلَى أَرْدَبِيلِ مُحَاصِرًا وَبِهَا الْأَمِيرُ آقِ أَرْسَلَانٍ، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا بِالْأَمَانِ، ثُمَّ اسْتَعْلَلَ بِحِصَارِ مَرَاغَةَ لِيُنَالَ مِنْهَا مَا أَرَاغَ، وَحَصَرَهَا طَوِيلًا وَلَمْ يَجِدْ فِيهَا الْمَسَاغَ، وَلَمَّا نَمِيَ إِلَى السُّلْطَانِ بِبَغْدَادَ خَبِرَ قَتْلَ ابْنِ طَغَايِرِكَ وَرَاحَتِهِ مِنْهُ أَحْضَرَ الْأَمِيرُ عَبَّاسًا فِي دَارِهِ لِيَخْلُوَ بِهِ وَيَسْتَشِيرَهُ وَهُوَ وَائِقٌ بِمَوَاقِيهِ، مُقِيمٌ عَلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ فِي تَصَدِيقِهِ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّهُ يَوْمَ حَلَفَ بِالْيَمِينِ حَانِثٌ وَلِلْعَهْدِ نَاكِثٌ، فَلَمَّا خَلَا بِهِ بِخَلَائِهِ أَمَرَ بِضَرْبِ رَقَبَتِهِ وَرَمَى جُثَّتِهِ، وَذَلِكَ بِكَرَةِ حَمِيسٍ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، فَرَكِبَ عَسْكَرُ عَبَّاسٍ وَمُقَدَّمُهُمُ الْأَمِيرُ آقْسَنْقَرُ الْفَيْرُوزْكَوْهِ وَشَقُّوا مَدِينَةَ بَغْدَادَ وَسَارُوا، وَنَهَضَ الْأَبَاشُ لِنَهْبِ دَارِ الْوَزِيرِ وَثَارُوا، فَأَرَكَبَ السُّلْطَانُ جَمَاعَةً مَنَعُوا مِنَ الْوُصُولِ إِلَى دَارِهِ، وَبَقِيَ مُوقِرًا

مُوقراً عَلَى حُرْمِيهِ وَقَرَارِهِ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ فِي الانْصِرَافِ إِلَى فَارِسٍ مَصْحُوباً بِالصَّيَانَةِ مَصُونٌ الصَّحْبَةِ، مُرْتَبِّ الأَحْوَالِ حَالِي الرُّتْبَةِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ وَوَدَّعَ وَوَدَّعَا، وَرَعَى لَهُ السُّلْطَانُ حَقَّ مَا رَعَى، وَتَلَا: [وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (١)].

### ذِكْرُ وَزَارَةِ شَمْسِ الدِّينِ أَبِي النُّجَيْبِ الأَصَمِّ الدَّرَكْزِينِيِّ

وَحَفِظَ السُّلْطَانُ حُرْمَةَ الوَازِرِ تَاجِ الدِّينِ فَلَنْ يَتَسَمَّ شَمْسُ الدِّينِ الوَازِرِ بوزارته حتى انصرف الوزير بجاهه وماله وحرمته ونعمته وحشمته وحشميه، لم يُكَلِّمْ لَهُ بِالْفَلِّ حَدٌّ، وَلَمْ يُلْثَمْ لَهُ بِالذُّلِّ حَدٌّ، بَلْ رَاحَ مُقْبِلَ اليمِينِ مَقْبُولَ اليمِينِ، وَلَمْ يَرِ لِلسُّلْجُوقِ وَزِيرٌ صُرِفَ وَلَمْ يُنْكَبْ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ سِوَاهُ، وَلَآئِذَا كَانَ يَرْجُو مِنْهُ اسْتِمَالَةَ الأَمِيرِ بوزابه وَيَحْصُلُ رِضَاهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْكُ فِي حَرَكَتِهِ وَالابتلاءِ بِمَعْرِكِهِ، وَإِنَّهُ يَتَوَرُّ لِثَارِ صَدِيقِيهِ المَقْتُولِينَ وَرَفِيقِيهِ المَجْدُولِينَ، فَضَمَّنَ لَهُ تَاجَ الدِّينِ بِنُ دَارِسْتِ أَنَّهُ يَكْفِيهِ أَمْرُهُ وَيَكْفِي شَرَّهُ، وَيُرِيحُ مِنْهُ سِرَّهُ وَيُزِيحُ عَنْهُ مَكْرَهُ، وَكَانَ هَذَا مِنْ دَهَائِهِ لِيَنْجُو مِنَ الدَّاهِيَةِ، وَيَسْتَفِيدَ الإِحْكَامَ لِقَوَاعِدِهِ الوَاهِيَةِ، فَرَحَلَ فِرْحَاناً لِلسَّلَامَةِ، ظَاعِناً مِنْ وَطَنِهِ إِلَى دَارِ الإِقَامَةِ، فَاسْتَقْبَلَ بِالْوَزَارَةِ حَيْثُ شَمْسُ الدِّينِ أَبُو النُّجَيْبِ، وَكَانَ مِنْ قَبْلِ يَخْدُمُ ابْنَ بَلَنْكِرِيِّ فَلَمَّا سَارَ وَيَعُدُّ أَقَامَ دُونَهُ وَقَعَدَ، وَخَدَمَ الأَمِيرَ الحَاجِبَ تَتَارَ، مُسْتَدِيناً لِعَوْدِ مَخْدُومِهِ الْإِنْتِظَارَ، فَرَغِبَ السُّلْطَانُ فِيهِ لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ بِخَاصِبِكِ، وَقَالَ لَهُ أَحْفَظْ فِي دَسَاتِ الوَزَارَةِ مَنْصِبَكَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنْ أَدْوَاتِ الوَزَارَةِ إِلَّا كَوْنُهُ لِلقَوَامِ الدَّرَكْزِينِيِّ نَسِيباً، فَحَازَ مِنْ مَنْصِبِهِ نَصيباً، وَكَانَ بِزَمَانِهِ شَبِيهاً، وَفِي مَكَانِهِ نَبِيهاً، لِإِنْفَاقِ القَوْمِ مُوَافِقاً لِلسُّومِ، لَا يَتْرُكُ المَفَارِقَةَ لِمُفَارِقَتِهِمْ، يَأْخُذُ بِالمُوَافَقَةِ عَلَى مُوَافِقَتِهِمْ، وَيَطْلُبُ مُوَافَقَتَهُمْ فِي مُرَافِقَتِهِمْ، وَالتَّخَلُّقَ بِخِلَاقِهِمْ وَالامْتِرَاجَ بِهِمْ فِي الامْتِرَاجِ، وَالإِنْجَادَ مَعَهُمْ فِي الإِنْدِمَاجِ، وَهُوَ يُشْرِكُهُمْ فِي نَصْبِ أَشْرَاكِ النَّصْبِ، وَيَتَعَصَّبُ فِي الجَّرَآءِ وَالجَّوْرِ لِتِلْكَ العُصْبِ، وَيُؤَاذِرُهُمْ عَلَى الأَوْزَارِ، مُسْتَقِيماً مَعَ الاستِقَامَةِ مِنْهُمْ مُرَوَّراً مَعَ الأَزْوَارِ، فَلَا جَرَمَ قَرَّ قَرَارُهُ وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ، وَنَصَّ عَلَى مُؤَاوَزَتِهِ فِي وَزَارَتِهِ نَصِيرُهُ، وَبَيَّتَ تَبِيرُهُ وَغَدَقَ غَدِيرُهُ، وَاسْتَنَدَ إِلَى مَسْنَدِهِ، وَاسْتَنَّ بِالْجِدِّ العَالِيِ عَلَى جَدِّدِهِ، وَلَمَّا أَلْفَوْهُ لَهُمْ فِي المُنَى مُنَاسِباً أَلْفَوْهُ، وَصَفَا وَرَدُّهُ لِكُدْرِهِمْ فَوَصَفَوْهُ، وَأَخَذُوا بِهِ وَأَعْطَوْهُ وَأَعَزُّوا بِهِ وَأَعَزَّوهُ، وَالأَحْقَا دَقَاقَتُهُ بِالدَّرَجِ، وَمَشُوا أَمْرَهُ عَلَى العَرَجِ، وَالسُّلْطَانُ لِأِهِ بِالمَلَاهِي مُتْنَاهِ فِي المَنَاهِي، لَا يَسْأَلُ عَمَّا

يُعْتَلُّ وَلَا يَفْعَلُ مَا يُسْأَلُ، وَلَا يَقْبَلُ مَا يُقَالُ وَلَا يَقُولُ مَا يُقْبَلُ، وَالْوَزِيرُ وَزِيرُ الْأُمَرَاءِ وَمُؤَامِرُهُمْ  
فِيْمَارِيهِ مِنْ مَّارِيهِمْ وَأَمْضَاءُ مِنْ مَضَارِيهِمْ، وَعَنْ لِسُلْطَانٍ أَنْ يُحْرَكَ سَاكِنُ الْمَوْصِلِ بِإِبْدَاءِ عَزْمِهِ  
إِلَيْهَا وَظَاهَرِ عَوْجِهِ إِلَيْهَا، فَمَتَى الْخَبِيرُ وَلَمْ، وَطَمَا الْخَطَرُ وَطَمْ، فَبَادَرَ مُتَوَلِّوْهَا بِحَمُولٍ وَتُحْفٍ  
وَهْدَايَا وَخِيُولٍ، فَقَبَلَهَا مِنْهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَأَقَامَ بِيغْدَادَ بَاقِي تِلْكَ الشُّتُوَّةِ لِأَيَالِي خَطَرِ الْأَخْطَارِ  
أَوْ طَارِيَاً بِالْأَوْطَارِ، أَوْ تَرْتَمَ مَعَ الْأَطْيَارِ، أَوْ تَرْتَمَعَ مَعَ الْأَشْجَارِ، أَوْ وَقَعَ عَلَى عَوْدِ أُنْمَرٍ لِلْأُنْمَارِ،  
وَتَرَاءَتْ لَهُ صُورَةُ الْأُوتَارِ فَيَتَهَادَى بَيْنَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ شَيْبَ طِفْلِ الْبَوَارِ، وَمَسِيَّةَ  
مُكْهَلِ الْأَزْهَارِ، وَفَضَلَ فَصْلَ الرَّبِيعِ وَفَضَّةَ الشِّتَاءِ، وَخَطَابَ خَطَبِ الْمِيَانَاتِ فِي نِكَاتِ اللَّبَانَاتِ  
بِالْإِيْتَاءِ، وَهَزَّ الْأَهْزَاءُ بِنُغْمَاتِهِ أَعْطَافَ الْأَعْصَانِ، وَرَفَى الْوَرَقَاءَ عَلَى الْأَفْنَانِ لِتَغْنِينِ الْأَلْحَانِ  
وَرِيَاضَةِ الرِّيَاضِ جَوَامِحَ الْنَفُوسِ، وَرِيَا الرِّيَاحِينَ فِي تَنَاشُقِ الْكُؤُوسِ، وَطَرَبَ الْعَنْدَلِيبِ عِنْدَ  
الْلَيْبِ، وَحَبَبَ الْخَنْدَرِيسِ مِنْ ثَغْرِ الْحَبِيبِ، وَقَطَعَ سَيْفِ الصَّيْفِ بُرْدَ الْبُرْدِ، وَجَرَى بَطْلُ الْبَاطِلِ  
بِفَرَسِ الْوَرْدِ، فَلَمَّا رَحَلَ ضَيْفُ الشِّتَاءِ وَحَلَّ رَيْبُ الرَّبِيعِ وَحَلَّى بَقْلَانِدَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ  
عَاطَلُ الْفِضَاءِ الْوَسِيعِ حَبُوبَةَ مَقَامِهِ، وَأَمَرَ خَبِيرَ خُرُوجِ بوزَابَةَ صَاحِبِ فَارَسِ مَا أَحْلَاهُ مِنْ أَحْلَاقِهِ،  
وَخَفَقَتِ الْقُلُوبُ وَالْبُنُودُ، وَقَلَبَتِ الْجَنُوبُ وَالْجَنُودُ، وَصُقِلَتِ الصُّوَارِمُ وَصَهَلَتِ الصَّلَادِمُ،  
وَمُلِيَتِ الْكِنَانُ وَحَمِيَتِ الصُّغَانُ، وَشَدَا أوتَارَ الْغَاشِيَةِ الْقُلُوبَ عَلَى فَيْسِهَا الْأوتَارِ، وَطَلَبَ  
حَمَامَ الْحَمَامِ مِنْ وَكُورِ الْكِنَانِ إِلَى مَطَارِدِ الْمُقَلِّ الْمَطَارِدِ نَدَيْتِ عَيْنِ الشَّمْسِ مِنَ الْقِيَامِ، وَخَفَقَ  
قَلْبُ السَّهْرِ خَوْفَ السَّهَامِ، وَتَصَمَّمَتِ الْعِزَائِمُ وَتَدَمَّمَتِ الصَّرَائِمُ، وَكَادَتِ تَسِيلُ نِطَافُ الْبَيْضِ  
مِنْ جَدَاوِلِ الْأَعْمَادِ، وَتَكَتَلُ حَوَافِرُ الصُّوَامِرِ جِنَادِلَ الْأَطْوَادِ، وَحَوَى الْجَوِبُ بِمَا تَارَ، وَدَوَى الدَّوَى  
بِمَا سَارَ، وَتَنَمَّرَتِ الْأَسْوَدُ وَتَدَمَّرَتِ الْحَقُودُ، وَأَلَقَتِ أَجْتِئَهَا غَمُودُ الْأَجَلِ، وَأَقَلَّتِ أَسْتِئَهَا عُقُودُ  
الْأَسْلِ، وَاشْرَابَتِ الْمَضَارِبُ وَاضْطَرَبَتِ الْمَشَارِبُ، وَارْتَاعَتِ الصُّمَائِرُ وَارْتَابَتِ السَّرَائِرُ، وَقَالُوا  
هَذَا بوزَابَةَ لَا يُطَاقُ وَلَا يُعَاقُ، وَقَدْ حَمَلَهُ الْخَنْقُ عَلَى الْعَنْقِ، وَبَعَثَهُ الْخَرْقُ عَلَى الْخَرْقِ، وَدَعَتُهُ  
الْإِحْنُ عَلَى الْمِحْنِ، وَخَدَاهُ الظَّمْنُ وَسَاقَهُ الشَّجْنُ إِلَى الشَّحْبِ، وَضَاقَ بِهِ الْعَطْنُ لِلْعَطْبِ،  
وَحَسَنَ لَهُ الثَّارُ بِقَبِيحِ الْآثَارِ، وَمَا أَقْدَرَهُ عَلَى الْجَهَالَةِ وَأَجْهَلَهُ بِالْأَقْدَارِ! أَمَا عَلِمَ أَنَّهُ مَا خَرَجَ مِنْ  
فَارَسِ مَنْ عَادَى السُّلْطَانَ فَعَادَ؟ أَمَا اعْتَبَرَ بِمَنْ تَقَدَّمَ وَخَافَ الْمُعْتَادَ؟ أَمَا لَهُ فِي مِصْرَعِ قِرَاجَةِ  
مُعْتَبِرٍ؟ أَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ قَتْلِ مَنْكُوبِرسِ أَثَرٍ؟ ثُمَّ أَعَدَّ السُّلْطَانُ مَسْعُودًا إِلَى هَمْدَانَ سَيْرَهُ لِيَسْبِقَهُ إِلَيْهَا  
قَبْلَ إِطْلَاقِهِ عَلَيْهَا، فَإِنَّهَا مَقَامُ مُلْكِهِ وَنِظَامُ سُلْكِهِ، وَطَبِيرُ الْكُتْبِ إِلَى خَاصِبِكِ بْنِ بَلَنْكِرِيِّ وَهُوَ  
عَلَى حِصَارِ مِرَاعَةَ، لِيَقْدِمَ تِلْكَ الْعَسَاكِرَ، وَيُقَدِّمَ إِقْدَامَ اللَّيْلِ الْخَادِرِ.

ذَكَرَ مَا اعْتَمَدَهُ بوزابة بعد وصول خَبَرِ قَتْلِ ابْنِ طغاييرك وعباس إليه

لَمَّا نَعِيَ إِلَيْهِ عَبَّاسٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنِّي بِالْهَمِّ وَمُنِي بِالْعَمِّ، وَقَامَتْ قِيَامَتُهُ وَغَامَتْ غَمَامَتُهُ، وَجُنَّ جَنَانُهُ وَسُنَّ سِنَانُهُ، وَأَقْرَبَ عِبَاؤُهُ وَأَضْطَرَبَ عَنَانُهُ، وَكَدَرَ عَيْشُهُ وَكَثَرَ طَيْشُهُ، وَجَاشَ جَيْشُهُ، وَحَزَنَ عَلَى حَزْبِيهِ، وَاحْتَضَنَ الْبِلَاءَ بَتَلَابِيهِ، وَطَارَ رُقَاؤُهُ وَطَالَ سُهَادُهُ، وَأَسْوَدَ عَلَيْهِ بَيَاضُ يَوْمِهِ، وَالتَفَّ إِلَيْهِ سَوَادُ قَوْمِهِ، وَقَالَ لَهُ أَمْرَاؤُهُ: الْأَمْرُ أَمْرُكَ وَالْغَالِبَانِ قُدْرَتُكَ وَقَدْرُكَ، وَالْعَالِيَانِ جِدُّكَ وَجَدُّكَ، وَالْقَوِيَانِ سَاعِدُكَ وَسَعْدُكَ، وَالرَّاجِحَانِ أَمْرُكَ وَنَهْيُكَ، وَالنَّاجِحَانِ عَزْمُكَ وَسَعْيُكَ، وَالنَّاصِرَانِ جَيْشُكَ وَرَعْيُكَ، وَالْقَاهِرَانِ جِزْبُكَ وَحَرْبُكَ، وَنَحْنُ أَكْرَبُ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَالْمُقَرَّرُونَ بِالنِّشَاءِ عَلَيْكَ، وَالْمُقَرَّرُونَ عِنْدَ الْإِقْدَامِ عَيْنُكَ، وَعِنْدَكَ الْمَلِكَانِ مُحَمَّدٌ وَمَلِكُشَاهُ ابْنَا مَحْمُودٍ، وَإِذَا أَنْبَتَا وَتَبْنَا ذَوِي عَوْدٍ مَسْعُودٍ، وَهُمَا يَتِيمَتَا عَقْدِ الْمَمْلَكَةِ، وَشِبْلَا عَرِينِ السَّلْطَنَةِ، وَقَمَرَا فَلَيْكَ الْمُلْكُ، وَذَخِيرَتَا رَهْطِ التُّرْكِ، وَحُجَّتَاكَ فِي الْإِقْدَامِ، وَمَحَجَّتَاكَ فِي الْإِنْتِقَامِ، وَنَصَّاكَ عِنْدَ الْإِسْتِدْلَالِ، وَنَصْرَاكَ عِنْدَ الْإِسْتِقْلَالِ، وَرُكْنَاكَ عِنْدَ الْإِسْتِنَادِ، وَحِصْنَاكَ عِنْدَ الْإِعْتِمَادِ، وَهُمَا جَنَاحَا نَجَاتِكَ، وَسِلَاحَا صِلَاحِكَ، وَصَيْحَا صَبَاحِكَ، وَسَمَاءَا سَمَاحِكَ، وَسِرَاجَا ظَلَامِكَ، وَعِلاجَا سَقَامِكَ، وَإِذَا طَلَعْتَ غَزَا نُهُمَا فِي أَفْقِ الصَّفِّ ذُلَّتِ الْأَسْوَدُ، وَفَلَّتِ الْخُدُودُ، وَحَلَّتِ الْعُقُودُ، وَعَنَّتِ الْوُجُوهُ وَعَقَدَتِ الْخُدُودُ، وَقَامَتْ قِيَامَةُ الْخُطُوبِ، فَمَا هَذَا الْقَعُودُ؟ فَلَا تَصْبِرْ عَلَى الضَّمِيمِ، وَأَبْرَزْ شِمْسَكَ مِنْ تَحْتِ الْغَيْمِ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تُبَادِرِ الْقَوْمَ بُودِرْتَ؟ وَإِنْ لَمْ تُغَادِرْهُمْ غُودِرْتَ؟ وَإِنْ لَمْ تَقْصِدْهُمْ قُصِدْتَ؟ وَإِنْ لَمْ تَحْصِدْهُمْ حُصِدْتَ؟ وَإِنْ لَمْ تَسِرْ إِلَيْهِمْ سَارُوا إِلَيْكَ؟ وَإِنْ لَمْ تَقْدِمْ عَلَيْهِمْ أَقْدَمُوا عَلَيْكَ؟ أَمَا احْتَالُوا فَاغْتَالُوا خَلِيفَتَيْكَ؟ أَمَا خْتَلَوْا أَلْفَيْكَ؟ فَتَهَدَّ بوزابة وَنَهَضَ وَمَلَأَ وَعَرَضَ وَفَضَّ الْقَضَاءَ خَتَامَ الْفِتَامِ، وَشَدَّتِ الشَّدِيدَةَ حِزَامَ الزَّرْحَامِ، وَاسْتَشْرَفَتِ الْمِشْرِفِيَةَ لِهَامِ الْهَامِ، وَتَمَرَّتِ الْمُرَّانُ لِإِلَامِ بِاللَامِ، وَطَاشَ الْوَقُورُ، وَطَارَتِ النَّسُورُ، وَمَادَتِ الصُّخُورُ، وَمَاجَتِ الْبُحُورُ، وَأَسْرَتِ الظَّهِيرَةُ وَظَهَرَ الْمَسْتُورُ، وَزُرَّتْ جِيُوبُ الْبَيْدِ عَلَى الْجِيُوشِ، وَبَلَّتِ الْوُحُوشُ مِنَ الْأَلْوِيَةِ أَشْبَاهَ الْوُحُوشِ، وَضَجَّ الْعِجَاجُ مِنَ السَّنَابِكِ، وَعَجَّ الضُّجَاجُ فِي الْمَسَالِكِ، وَدَوَّمَتِ كَوَاسِرُ الْعَسَاكِرِ، وَحَوَّمَتِ كَوَاشِرُ الْقَسَاوِرِ، وَنُثِرَتِ ذَوَائِبُ الدَّوَابِلِ وَبُشِّرَتِ الْعَوَاسِلُ بِالْعَوَاسِلِ، وَسَارَ بوزابة بِالْمَمْلِكَيْنِ كَالنَّيِّرَيْنِ مِنْ جَتْرَيْهِمَا فِي فَلَكَيْنِ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْ أَصْفَهَانَ تَلَقَّاهُ صَدْرُ الدِّينِ الْحُجَنْدِيُّ وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْإِصْحَابِ لَهُ أَصْحَابَهَا، وَبَعَثَ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لِأَرَابِيهِ أَرَابَهَا، وَوَصَلَ بِاسْتِيبَابِ

أمره أسبابها، ودخل دار مملكيتها ومقر سلطنتها، وأجلس الملكين على السرير الألب أرسلاني والتخت الخسرواني، وأطلع بسنا جلالهما في أفقها الشمس، وضرب لهما بالنوب الخمس، ثم خرج بهما على سميت همدان، وقد دنا لهما الملك ودان، وهو لا يشك أنه إذا بلغ غلب، وإذا بسلب، وإذا ضرب حرب، وإذا ناصب نصب، وإذا عزم عز، وإذا أحزم حزم، وإذا هزم هزم، وإذا هد هدم، وإذا سعى سعد، وإذا بدا بدد، وإذا ورد وري، وأوقد، ولم يدبر أن الأمر قد قضى، وأن العمر قد نضي، وأن القدر قد قدر، وأن الحكيم قد أحكم، ودبر فعضى على صوبه وأمض بصوله، وحاول للغرة واغتر بحوله، وقال أبادر السلطان مسعوداً قبل أن يلتفت عليه لفيقه، وتخف أثقاله ويتقل خفيقه، وقبل أن يصل ابن بلنكري في الجموع الكثيرة والحشود الكثيفة، فتصفو قوته وتقوى صفوه، حتى وصل إلى مرج قراتكين وهي من همدان على مرحلة، واتصل به ابن عباس صاحب الرّي في عدة مذهية وعدة مذهلة، فلما عرف السلطان مسعود قربه وأيقن حربه جمع قومه وقوم جمعه وحزب حزبه وقوى قلبه ورزى عصبه وطير إلى ابن بلنكري كئبه، وصيق في التأخير عذره ووسع عتبه، فوصل وقد حُم اللقاء وحق البلاء فقوي السلطان وتسلطت قوته، واحتبى بالشدّة واشتد بالحبوة، وقض خزائنه ونقض كئانته، ومج حافله وماجت جحافله، وزمحت ليونه، واتعجرت غيونه، وابتعت بوعونه، وغصت بجنوده سهول الفضاء ورعونه، وتحوّلت الأرض إلى السماء، وتعلقت الغبراء بذيل الخضراء، وحاولت الفلاة ذات الأحواز الجواز على الجوزاء وتقع النقع حرّ الحرب، وشار الشّر صرر الصّرب واشتاق الكلى إلى طعم الطّعن، واستولى على الخواطر وهم الوهن، وتشجع الخوف وخاف الشجاع، وقرعت السنّ وتسنّى القراع، ونزعت ألهمهم همّ النزاع، وربع الرّعيد وأرتعد اليراع، ورقص المران على غناء الصّواهل، واشتقت شفاة المشفار مياة المناهل، ولما تقارب الفريقان بانا ليلتهما يعبان، وبحرهما يعبّ وجمرهما يشبّ وريحهما يهبّ وكيدهما يدبّ، والدروع تسنّ والقسي ترنّ، والحنايا توترّ والمنايا توترّ، والعزائم تصمّم والغماغم تصمّم، والأخضارم تطموم والحوارجم تطمّم، والسوابغ نفاض والسوابق تراض، والأباهم تقضض، واللطائم تقضض، والبراجم تشدّد، واللهازم تُخرج، والصّوامر تسرج، والدخائر تُخرج، والعناق تُجرى، والرفاق تُعري، والبيض تُنقى، والبيض تُنقى، والفضاء يُنور، والناز تُقتضى، والسهام تُقوم، والجماجم تُحوم، والجعاب تُملأ، والعياب تُفرغ، والذماء تتموج، والذماء تتبوع، والجاووشية تنعز، والشتاليشية تُحسر،

وَالْبِوَقَاتُ تَضْرِبُ، وَالْكُوسَاتُ تَرْهَبُ، فَلَمَّا بَدَا الصَّبَاحُ خَلَفَ مِنَ الْعِجَاجِ اللَّيْلَ لَيْلًا، وَجَرَ مِنَ الْمَجْرِ مَنْ يُجْرِي الْمَجْرَيْنِ ذَيْلًا، وَطَمًا بِمَا سَلَ مِنَ الْجُفُونِ سَيْلًا، وَطَلَعَ فِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْ لَمَعِ الْيَمَانِيِّ سُهَيْلًا، وَاشْتَمَلَ التُّرْكِيُّ الْهِنْدِيَّ، وَاعْتَقَلَ الْخَطَائِيَّ الْخَطِيَّ، فَفِي كُلِّ يَمِينٍ وَلِكُلِّ مُعَانِدٍ مَعَانٍ، وَلِكُلِّ عِنَانٍ نَائِنٍ، وَبِكُلِّ سِنَانٍ حَائِنٍ، وَلِكُلِّ فَارِسٍ فَارِسٍ، وَلِكُلِّ مُمَارٍ مُمَارِسٍ، وَفِي كُلِّ عَيْبَرٍ عَائِرٍ، وَلِكُلِّ مَغْفِرٍ نَائِرٍ، وَلِلثُرَى مَعَ الثَّرِيَا فِيمَا حَدَّتْ حَدِيثًا، وَحَبَطُ الْخَبِطِ الْكَثِيرُ كَرِيثٌ، وَحَبْلُ الْحَيْلِ الْمَكِيثُ بَكِيثٌ، وَلِلرَّهِيحِ وَالْوَهْجِ تَأْتِيرٌ وَتَأْرِيثٌ، وَالصَّفِّ بِإِزَاءِ الصَّفِّ وَاقْفٌ، وَالْقِرْنُ بِبِلَاءِ الْقِرْنِ عَارِفٌ، وَالذَّمْرُ لِلذَّمْرِ مُبَارِزٌ وَلِلخَصْمِ مُنَاجِزٌ، وَهُمَا جَبَلَانِ لُجَيَانٍ، وَضَرَبَتْ أَشَاجِعُ الشُّجَاعِ الْحَدِيدَ لِرَضِّ جَبِينِ الْجَبَانِ، وَالتَّقَى الصَّفْقَانِ بِأَسَدِ خَفَانِ، وَتَعَلَّقَى الطُّودَانِ وَتَدَفَّقَ الْجُودَانِ، وَتَلَاطَمَ الْبَحْرَانِ وَتَلَافَحَ الْجَمْرَانِ، وَصَالَ الْعَدِيدُ عَلَى الْعَدِيدِ وَصَلَ الْحَدِيدُ فِي الْحَدِيدِ، وَكَثُرَ الشَّاكِي مِنَ الشَّاكِي، وَكَثُرَ الذَّاكِي مِنَ الذَّاكِي، وَاسْعَرَتْ مَسَاعِرُ الْحَرْبِ حَرَّهَا، وَسَيَّرَ مَغَاوِيرُ الْهَيْجَاءِ لَوْغَرَهَا غُورَهَا، وَكَادَتْ الْكُسْرَةُ تَصُحُّ عَلَى مَسْعُودٍ، وَبَقِيَ قَلْبُهُ بِبَيْنَاسِ طَارِدٍ مَطْرُودٍ، وَبِوِزَابَةِ قَدِّ تَهَوَّرَ وَتَهَجَّمَ وَتَقَدَّمَ وَحَمَلَ عَلَى الْقَلْبِ لِيَقْلَهُ بِحَمَلِيَّتِهِ، وَسَرَّ بِفَضْلِهِ عَن جَمَلِيَّتِهِ، فَكَبَا لِحِينِهِ بِهِ الْفَرَسُ فُفْرَسٌ، وَاخْتَلَسَهُ الْقَدْرُ فُقْدِرَ عَلَيْهِ وَاخْتَلَسَ، وَحُمِلَ إِلَى السُّلْطَانِ أَسِيرًا فَخَاطَبَهُ وَعَاتَبَهُ كَثِيرًا فَلَمْ يَنْبَسِ بِنَسِ شَفَةِ، وَلَمْ يَخْضَعْ بِكَلِمَةٍ مُسْتَعْفِفَةً، وَأَرَادَ السُّلْطَانُ الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِ لِشَهَامَتِهِ، فَأَبَى خَاصِبَكَ إِلَّا قَشَّ هَامَتِهِ، فَأَبَى خَاصِبَكَ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ بِالْإِضْرَابِ عَن رِقَبَتِهِ وَضَرْبِ رَقَبَتِهِ، وَأَمَرَ بِحَمْلِ رَأْسِهِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَأَن يُطَافَ بِهِ فِي الْأَفَاقِ، وَأَنْجَلَى الْغَبَارُ عَن ابْنِ الْأَمِيرِ عَبَّاسٍ مَقْتُولًا، وَوَلَّى عَسْكَرُ فَارِسٍ مَهْزُومًا مَفْلُومًا، وَالْمَلِكَانِ مُؤَلِّيَانِ لَا يَلْيَانِ، وَجَلَسَ مَسْعُودٌ لِلْهِنَاءِ، وَأَهْلٌ لِلْعَنَى أَهْلُ الْعَنَاءِ، وَخَصَّ خَاصِبَكَ بِالْإِصْطِنَاعِ وَالْإِصْطِفَاءِ، وَزَادَهُ فِي الْإِعْتِلَاقِ بِدَوْلَتِهِ وَالْإِعْتِلَاءِ، وَعَظَّمَهُ عَلَى الْأَمْرَاءِ وَأَمَرَهُ عَلَى الْعُظَمَاءِ، وَذَلِكَ فِي سِنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

### ذَكَرَ مَا جَرَى بِأَصْفَهَانَ مِنَ الْفِتْنَةِ بَعْدَ مَصْرَعِ بُوِزَابَةِ

كَانَ نَجْمُ الدِّينِ رَشِيدُ الْغِيَاثِيِّ الْخَادِمُ وَالْيَ أَصْفَهَانَ مِنْ قَبْلِ السُّلْطَانِ وَهُوَ عَلَى الشَّافِعِيَّةِ مُتَعَصِّبٌ مُتَعَصِّبٌ، مُتَبَعِّضٌ إِلَيْهِمْ وَعَلَيْهِمْ مُتَعَصِّبٌ، فَلَمَّا تَمَّ مِنْ صَدْرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللطيفِ الْخُجَنْدِيِّ إِلَى بُوِزَابَةِ الْمَيْلِ، وَسَارَ هَوَانُهُ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ السَّيْلِ، بَادَرَ رَشِيدٌ بِالْإِرْسَالِ إِلَى أَصْفَهَانَ لِلْإِقْفَاعِ بِمَنْ خَرَجَ عَلَى السُّلْطَانِ، وَعَلِمَ ابْنُ الْخُجَنْدِيِّ فَخَرَجَ مِنْهَا

خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ يَسْتَبَعُ وَيُتَعَقَّبُ، وَزَحَفَ الْعَوَامُّ التُّرَابِيَّةُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ النَّظَامِيَّةِ وَأَحْرَقُوهَا، وَهَتَكُوا حُرْمَتَهَا وَخَرَقُوهَا، وَنَهَبُوا لِلضَّلَالِ دَارَ كُتُبِهَا، وَكَتَبُوا إِلَى رَشِيدِ بَنَيْهَا، وَخَطَبُوا لَهُ بِخَطْبِهَا، وَسَعَبُوا صَدْعَهُ بِصَدْعِ شَعْبِهَا، وَقَالُوا أَنْتَ قَائِمٌ لِلانْتِقَامِ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَقَدْ كَسَرْنَاهَا بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ رُجْعَتُهَا إِلَّا يَوْمَ الرَّاجِفَةِ، وَالْمَدْرَسَةُ دَارَسَةٌ وَوَجُوهُ فَهَائِهَا عَابِسَةٌ، وَعَيُونُ أَعْيَانِهَا سَاهِرَةٌ بَلْ حُدُودُهَا قَاعِيسَةٌ، وَالْأَنْفُسُ بَائِسَةٌ وَالْمَغَارِسُ يَابِسَةٌ، وَاللِّيَالِي دَائِمَةٌ وَالرُّسُومُ طَائِمَةٌ، وَقَدْ مَحَوْنَا شِعَارَ الْأَشْعَرِيَّةِ، وَأَبْطَلْنَا شَوَافِعَ الشَّفْعَوِيَّةِ، وَاتَّحَدَتْ كَلِمَةُ الْحَنْفِيَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَقَدْ صَارَ الْقَوْمُ الْيَوْمَ تُرَابَ التُّرَابِيَّةِ، وَحَيْثُ فَرَعَتْ بِأَصْفَهَانَ الْعَرَشِيَّةُ عُرُوشَهَا، وَحَقَّقَتْ فِي التَّشْبِيهِ رُقُوشَهَا وَنُقُوشَهَا، وَأَعْلَنْتِ الْحُرُوفِيَّةُ أَصْوَاتِهَا بِقَدَمِ الْأَصْوَاتِ وَالْحُرُوفِ، وَصَرَّحَتْ بِالصُّعُودِ وَالنُّزُولِ وَالْجُلُوسِ وَالْوُقُوفِ، وَأَدَعَتْ الْكِرَامِيَّةُ كِرَامَتَهَا، وَأَعْلَتْ الْعَامَّةُ دِعَامَتَهَا، وَلَا تَدَوُّ اللَّوْثَةُ عِمَامَتَهَا، وَرَفَعَتْ الْوَهْمِيَّةُ هَامَتَهَا، وَقَوَّمَتْ قَامَتَهَا، وَأَبَدَتْ الْمُشَبَّهَةَ شُبُهَتَهَا، وَحَلَفَتْ الْمَنْدُوبِيَّةُ نُدُوبَهَا، وَأَظْهَرَتْ السُّنَّةُ سُبُتَهَا، وَوَقَعَ الصَّرِيحُ بِالتَّشْرِيحِ، وَحَسَّنُوا الذَّهَابَ مَعَ الْمَذْهَبِ الْقَبِيحِ، وَاتَّبَعُوا الْانْحِصَاءَ وَأَنْزَلُوا السَّمَاءَ، وَفَسَّرُوا بِالِاسْتِقْرَارِ وَالِاسْتِوَاءِ، وَسَقَطَ طُلُّ الْبَاطِلِ عَلَى السَّقَاطِ، وَطَالَتْ عَلَى عُلَمَاءِ السُّنَّةِ بِالِاسْتِطَاعِ، وَكَلَّمَ أَهْلَ الْعِلْمِ الثَّبُوتَ، وَاخْتَارُوا عَلَى النَّطْقِ السَّكُوتَ، وَزَادَ جَاهُ الْجَاهِلِيْنَ، وَكَثُرَ هُرُءُ الْهَازِلِيْنَ، وَتَمَّ انْقِصَاؤُ الْفَاضِلِيْنَ، وَنَقِضَتْ أَحْكَامُ الْكَامِلِيْنَ، وَتَشَتَّتْ بَنُو الْخُجَنْدِيِّ خَائِفِينَ مُتَّجَانِفِينَ عَنِ الْجَافِيْنَ لَهُمْ بَتَجَافٍ، وَقَصَدَ صَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ وَأَخُوهُ جَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْمَوْصِلَ، وَأَوْرَدَهُمَا جَمَالُ الدِّينِ الْوَزِيرُ مِنْ إِنْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ الْمَنْهَلُ الْمَنْهَلُ، وَأَدْرَكَ كَلَامُهُمَا، وَمَضَى جَمَالُ الدِّينِ الْخُجَنْدِيُّ إِلَى الْحَجِّ، وَأَقَامَ صَدْرُ الدِّينِ وَيَحْرُجُودُ الْوَزِيرُ لَهُ مُتَلَاتِمُ اللَّجِّ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ مَمْلُوءٌ الْحَقَائِبِ مَحْبُوبًا بِالْمَوَاهِبِ، مَصْحُوبًا بِالْأَيْدِي بِمَا يَقْضُرُ عَنْ حَصْرِهَا الْحَاصِي، وَعَمَلَ جَمَالُ الدِّينِ آيَاتًا مِنْ جَمَلَتِهَا: [السريع]

جَنَّتْ إِلَى بَابِكَ فَسَرْدًا وَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ نِعْمَاكَ فِي قَافِلِهِ

وَوَصَلَ إِلَى أَصْفَهَانَ فَتَوَقَّرَ أَهْلُهَا عَلَى خِدْمَتِهِ، وَافْتَرَضُوا إِقَامَةَ حُرْمَتِهِ، فَإِنَّهُمْ بَعِيرٌ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ لَا يَدِينُونَ، وَبَعِيرٌ أَصْحَابِهِ لَا يُعْنُونَ وَلَا يُعِينُونَ، وَأَمَّا جَمَالُ الدِّينِ بْنِ الْخُجَنْدِيِّ فَإِنِّي لَمَّا عُدْتُ إِلَى بَغْدَادَ لَقِيْتُهُ وَقَدْ عَادَ مِنَ الْحَجِّ فِي صَفْرِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ، وَكَانَ قَدْ عَزَمَ الْوَالِدُ رِجْمَهُ اللَّهُ عَلَى الْعَوْدِ إِلَى أَصْفَهَانَ فَصَجِبْنَاهُ وَجَمَعْتَنَا الطَّرِيقَ، وَوَجَدْنَاهُ نَعَمَ الرَّفِيقَ،

ثُمَّ تَقَارَقْنَا وَسَارَ هُوَ مَعَ قَافِلَةِ هَمْدَانَ وَسِرْنَا مَعَ قَافِلَةِ أَصْفَهَانَ فَلَمَّا دَخَلْتُهَا أَلْفَيْتُهَا بَعْدَمَا أَلْفَيْتُهَا بِالْجُهَّالِ أَهْلَةً، وَإِلَى الْفُضْلَاءِ مَاهِلَةً، وَعَنْ الْمَعْرُوفِ ذَاهِلَةً، وَبِالْعُلَمَاءِ جَاهِلَةً، وَالْمَدْرَسَةَ عَلَى بَابِهَا السَّوَادُ، وَفِي دَهْلِيْزِهَا الرَّمَادُ، كَأَنَّمَا عَلَيْهَا الْجُدَادُ، وَلِسُوقِهَا الْكَسَادُ، وَلِصَّلَاحِهَا الْفَسَادُ، وَالذَّنَابُ إِلَيْهَا الدِّيَادُ، وَلِعِدَاتِهَا الْإِرْيَادُ، وَلِمُنَاهَا التَّصَوُّبُ وَلِسَرَابِهَا الْإِبْعَادُ، فَمَا لَبْنَا حَتَّى وَصَلَّ الْخَبْرُ بِأَنَّ السُّلْطَانَ صَفَحَ عَنْ صَدْرِ الدِّينِ وَأَخِيهِ وَعَمَّرَهُمَا بِأَيَادِيهِ، وَأَنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيْهِمَا وَخَلَعَ عَلَيْهِمَا، وَأَطَابَ لَهُمَا رِيَّ الرَّاسِيَةِ، وَلَمَحَّ نَفَاسَتَهُمَا بِنُورِ الْفِرَاسَةِ، فَلَمَّا سَمِعَ أَمَاثِلَ الْبَلَدِ مِنْ أَهْلِ الْحَمِيَّةِ وَعُصْبَةِ الْحَصِيَّةِ أَسْرَعُوا وَشَرَعُوا فِي عِمَارَةِ الْمَدْرَسَةِ، فَأَعَادُوهَا أَحْسَنَ مَا كَانَتْ فِي أَقْرَبِ مُدَّةٍ وَجَلَّوْهَا فِي لِيَاسِيِ جِدَّةٍ وَجِدَّةٍ، وَأَبْرَزُوهَا فِي حَلِيِّ الْعُرُوسِ، وَأَحْيَوْا نَفَاسَتَهَا لِحَيَاةِ النُّفُوسِ، وَفَاضَ الْفَضْلُ، وَغَاضَ الْجَهْلُ، وَاجْتَمَعَ الْأَهْلُ، وَانْتَضَمَ الشَّمْلُ، وَاتَّصَلَ الْحَبْلُ، وَانْقَطَعَ الْخُتْلُ، وَعَزَّ الْحَقُّ، وَذَلَّ الْبَاطِلُ، وَأَقِيَمَتِ الْفَرَائِضُ وَالنَّوَافِلُ، وَانْكَسَرَتِ سُوقُ السُّوقِ، وَتَعَوَّضَ التَّمَوُّبُ بِالتَّوَجِيهِ، وَارْتَفَعَ عِلْمُ الْعِلْمِ، وَارْتَكَمَ هَمُّ ذَوِي الْوَهْمِ، وَذَكِرَ الدَّرْسُ، وَدُرِسَ الدَّرْسُ، وَدُرِسَ الذِّكْرُ، وَشُكِرَ الْفَضْلُ، وَأَقْلَعَ اللَّيْلُ، وَطَلَعَ الْفَجْرُ، وَوَضَحَ الصُّبْحُ، وَضَحَا الضُّحُ، وَانْدَمَلَ الْجُرْحُ، وَأَصْلَحَ مَا فَسَدَ الصُّلْحُ، وَنَضَحَ مَا كَانَ عَرَقَ مِنَ الْجَاهِ النَّضْحُ، وَقُلْنَا لَا نَجِدُ فَضْلَ اللَّهِ وَمِنْ أَفْضَالِهِ الْمَنْجَحُ، وَاحْتَرَقَتْ أَحْشَاءُ الْحَشَوِيَّةِ، وَاحْتَرِقَتْ مَكَانَهُ الْمَكَانِيَّةِ، وَخَرَجَتْ أَرْوَاحُ الْمُجَسَّمَةِ، وَخَابَتْ ظُنُونُ الْمُجْرِمَةِ الْمُرْجَمَةِ، وَتَرَبَّتِ التُّرَابِيَّةُ، وَهَامَتِ الْوَهْمِيَّةُ، وَاسْتَشَعَرَتِ الْعَرَشِيَّةُ، وَانْحَرَفَتِ الْحَرْفِيَّةُ، وَاجْتَمَعَتِ بِالسَّلَفِ الصَّالِحِ فَقَالَتْ نَحْنُ الصَّالِحِيَّةُ وَالسَّلَفِيَّةُ، وَبَطَلَتِ الْمُبْطَلَةُ، وَعُطِّلَتِ الْمُعْطَلَةُ، وَتَوَحَّدَتِ الْمُوَحَّدَةُ وَوَجَدَتِ وَجَدَتِ اللَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ الْمُوَجَّدَةِ، وَأَبِي الْأَبِي وَأَنَابِ النَّابِي، وَتَصَدَّرَتِ الصَّدْرِيَّةُ، وَشَفَعَتِ الشَّافِعِيَّةُ، وَانْتَضَمَتِ بِعَالَمِيهَا وَعَامِلِيهَا النِّظَامِيَّةُ، وَأَخْصَبَتِ مَسَارِحُ الْمَسَارِّ، وَرَحِبَتِ مَبَارِكُ الْمَبَارِ، وَتَكَسَّبَتِ الْأَنْوَاءُ بِالْأَنْوَارِ، وَحَسَنَتِ آثَارُ الْإِيثَارِ، وَجُمِعَتِ كِتَابُ الْوَقْفِ وَأَعِيدَتِ إِلَى دَارِهَا، وَقِيلَ لِلْحَجَنْدِيِّ هُوَ لَاءُ رَعِيَّةِ بَلَدِكَ فَدَارِهَا وَانظُرْ أَمْرَهُمْ، وَصُنْ عِرْضَكَ وَصُنْهُمْ، فَحَلَمَ عَنْهُمْ وَتَجَاوَزَ عَمَّا عَلِمَ مِنْهُمْ، وَسَمَا عَرِشُ الشَّرْعِ، وَتَمَا صَوْغُ الْوَضْعِ، وَأَقِيَمِ نَضَارَ النِّظَارِ، وَاسْتَدِرَّ جِلَادُ الْجِدَالِ، وَاسْتَقَامَ سَرْدُ الدَّرْسِ، وَاسْتَنَارَ سَنَاءُ الْأَنْسِ، وَرَجَّحَ أَدَبُ الْأَدِيبِ، وَنَجَّحَ أَرْبُ الْأَرِيبِ، وَنَجَّحَ لُبُّ اللَّيِّبِ، فَالْمَذْهَبُ مُذْهَبُ، وَالْمَعَارِبُ مُعْتَبُ، وَالصَّاحِبُ مُصْحَبُ، وَالْمَطْرَى مُطْرَبُ، وَفَاءُ الْوَفَاءِ، وَرَاجُ الرَّجَاءِ، وَثَرَى الثَّرَاءِ، وَتَمَّ النَّمَاءُ، وَأَبَّرَ الْبِرَّ، وَسَرَّ السَّرَّ، وَعَادَتِ أَصْفَهَانَ مِنَ النَّعْمِ جَنَّةً وَمِنَ النَّقْمِ جَنَّةً.

## ذكر بعض الحوادث

- في سنة إحدى وأربعين حَجَّ ابْنُ جَهْمِيزَ وَزَيْرُ الْمُتَّقِي فُرْتُبَّ صَاحِبُ الْمَخَزَنِ قِوَامَ الدِّينِ بِنِ صَدَقَةَ وَزَيْرًا، وَكَانَتْ نَبِيَّتُهُ ابْتِلَاءَهُ أَثِيرًا، وَرُتَّبَ فِي الْمَخَزَنِ عِوَضَهُ زَعِيمُ الدِّينِ يَحْيَى بِنُ جَعْفَرٍ، وَرُتَّبَ بَعْدَ ذَلِكَ يَحْيَى بِنُ مُحَمَّدٍ بِنِ هُبَيْرَةَ صَاحِبُ الدِّيَّانِ الْمَجْدِيَّةِ فَاسْتَقَرَّ.
- فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَمِائَةٍ تُوْفِيَ قَاضِي الْقَضَاةِ بِيغْدَادَ يَوْمَ النَّحْرِ فَخَرُّ الدِّينِ عَلِيُّ بِنِ الْحَسَنِ الزَّيْنِيِّ وَرُتَّبَ بَعْدَ ذَلِكَ عِوَضَهُ قَاضِي الْقَضَاةِ عَمَادُ الدِّينِ بِنُ الدَّامَغَانِيِّ.

## ذكر ما جرى للسلطان مسعود بعد قتل بوزابه

أرسل إلى ابن أخيه الملك محمد بن محمود بعد مدة فاستدعاه واستدناه، ومنَّ عليه ومناه، وأسنى له الرفد وسناه، وأحلَّه جناته وأحلى جناه، وروض شعبه ونفس كربه، وزوج بنته وزوجه بنته، وعهد إليه في الولاية وولاه عهده، ثم ملكه خوزستان، وأسكن الأسد حقان، ولما أمن ابن بلنكري الجوانب وأبعد الأقارب والأجانب، ونقى عن موارده الشوائب، وأقصى عن مقاصده النوائب، عهد إلى الأمير الحاجب تار وقبضه وثقه، وأنفذه إلى قلعة سرجهان واعتقله بها ثم خنقه، وصفا له الجوف فباض وصفر، وصفا عليه الضوء واجتلى الظفر.

## ذكر ما جرى ببغداد

وفي شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وصل شعبة من أكابر الأمراء ومعهم الملك محمد إلى بغداد مُحاصِرِينَ، وَعَلَى خُذْلَانَ السُّلْطَانِ مَسْعُودٍ لِشَقَوَاتِهِمْ مُتَنَاصِرِينَ، مِنْهُمْ شَمْسُ الدِّينِ اِبِلدَكَز، وَالْأَمِيرُ قَيْصَر، وَمَلِكُ الْعَرَبِ عَلِيُّ بِنُ دُبَيْسٍ وَغَيْرُهُمْ وَحَضَرُواهَا وَحَصَرُواهَا وَضَاقُوهَا وَأَرْهَقُوهَا، وَخَرَجَ أَهْلُ بَغْدَادَ لِدَفْعِهِمْ وَرَدَّهِمْ وَرَدَّعِهِمْ، فَأَفْرَجُوا لَهُمْ حَتَّى أَصْحَرُوا وَطَارُوا قُدَّامَهُمْ مُنْهَزِمِينَ، حَتَّى تَجَاسَرُوا وَتَهَوَّرُوا، وَسَمَّوْا رَاحَةَ الطَّمِيحِ وَسَمَّوْا، وَخَسِرُوا فَكَّرُوا عَلَى أَهْلِ بَغْدَادَ كَرَّةً وَاحِدَةً أَرَدْنَاهُمْ، وَمَا أَبَقَتْ عَلَيْهِمْ بَلْ أَفْتَنَاهُمْ وَفَرَشْتَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ فَرَشًا، وَكَانُوا كَالْأَسَادِ لَاقَتْ نَقْدًا وَفَرَشًا، وَكَانَتْ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ حُفْرَةُ الْغَسَالِينِ وَتَنَائِيرُ الْأَجْرِيِّينَ وَأَتَانِينُ الْحِصَاصِيِّينَ، فَمَا نَجَا إِلَّا مَنْ أَتَى أَتُونًا، أَوْ وَقَعَ فِي حُفْرَةِ

وَلَمْ قَعْرَهُ فَصَبَّ مِنْهُمْ بَعْقَرُهُ، وَقَتَلُوا زُهَاءَ خَمْسَمَائَةِ نَفْسٍ، وَزَارُوا ذَوِي السَّعَادَةِ بِكُلِّ نَحْسٍ، وَجُلُّ رُزْءِ بَعْدَادَ بِأَهْلِهَا، وَأَمْبُصَهَا مَا دَهَاهَا مِنْ شُغْلِهَا، ثُمَّ طَلَبُوا مِنَ الْخَلِيفَةِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ لِيَرْحَلُوا، وَفَضَلُوا الْأَمْرَ عَلَى الْمَبْلَغِ لِيَتَفَضَّلُوا، فَاسْتَشَارَ الْخَلِيفَةُ الْوَزِيرَ وَأَرْيَابَ الْمَنَاصِبِ، وَيَمَاذَا يَقُولُ نَابُ الْمَنَائِبِ، وَهَلْ يَبْدُلُ لِدَهَابِهِمُ الذَّهَبَ، وَهَلْ يَحْتَمِلُ لِلرَّاحَةِ مِنْهُمْ التَّعَبَ، فَمَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ عَجَلَ بِالْعَدْلِ لِلْبَانِي بِالْبَدْلِ، وَوَقَعَ فِي تَحْصِيلِ الْمَحْمُولِ وَحَمَلِ الْحَاصِلِ الْهَرْجُ وَالْمَرْجُ، وَأُخْرِجَتِ الْعَيْنُ وَتَعَيَّنَ الْخَرْجُ، فَأَشَارَ ابْنُ هُبَيْرَةَ وَهُوَ يَوْمئِذٍ صَاحِبُ الدِّيْوَانِ بِضِدِّ مَا أَشَارُوا، وَصَارَ إِلَى الرَّأْيِ غَيْرَ مَا صَارُوا، وَقَالَ لِلْإِمَامِ هُوَ لَاءَ خَرَجُوا عَلَيْكَ وَعَلَى السُّلْطَانِ وَجَاهِرُوكُمْ بِالْعَصْيَانِ، فَخَذَ جَدَّكَ فِي تَخْصِيصِهِمْ بِالْخُذْلَانِ، وَهَذِهِ الْخُسَارَةُ تُورَثُ مِنْهُمْ الْجِسَارَةُ، فَاجْعَلِ بِاللَّهِ الْاسْتِجَارَةَ، وَقَدِّمْ مِنْهُ الْاسْتِخَارَةَ، وَأَنْفِقْ مَا عَزَمْتَ عَلَى بَدْلِهِ لَهُمْ فِي عَسْكَرِ يُقَاوِمُهُمْ وَيُقَاوِمِهِمْ، وَيُنَادِيهِمْ بِاللِّقَاءِ وَيُنَاوِيهِمْ، فَإِنَّ نَهْرًا يَهْرُ وَيَزْرَأُ بِعِزِّ خَيْرٍ مِنْ بَدْلِ بَدْلٍ، فِي ضَمِيهِ لَذْعُ بَعْدَلٍ، فَإِنَّكَ إِنْ دَفَعْتَهُمْ بِالْعَطَاءِ لَا تَسْلَمَ مِنْ عَتَبِ السُّلْطَانِ مَسْعُودٍ، فَإِنْ هَزَمْتَهُمْ بِاللِّقَاءِ قُلْتَ إِنِّي قَدْ فَكَلْتُ جُنُودَ عَصِيَانِكَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِكَ بِجُنُودٍ، وَأَنْتَ لَا تُحْمَدُ عَلَى مَا تَحْمَلُ، وَلَا تُشْكِرُ عَلَى مَا تَعْمَلُ، فَقَبِلَ الْخَلِيفَةُ رَأْيَهُ وَلَمْ يَرِ خِلَافَهُ، وَعَفَّ عَنِ الْعَطَاءِ وَعَافَهُ، وَجَمَعَ حَيْبُذَ وَجَنْدَ وَحَشَرَ وَحَشَدَ، وَاسْتَخْدَمَ مِنَ الْبَطَالِينِ أَبْطَالًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ لِمُقَاتَلَةِ الْمُطْبِلِينَ، وَفَرَّقَ الْمَالَ وَمَالَ إِلَيْهِ الْفَرِيقُ، وَاتَّفَقَ فَتَفَقَّ فِي سُوقِ تَفْوِيقِهِ التَّوْفِيقُ، وَصَارَ مُدَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ لِلْخَلِيفَةِ جَنْدٌ مَهِيْبٌ، وَنَارٌ بِأَسِي لَهَا فِي أَفْتَدَةِ الْعِدَى لَهِيْبٌ، وَسَهْلٌ لَدَيْهِ التَّجْنِيدُ، وَصَعْبٌ عَلَيْهِ الْقَعِيدُ، وَوَدَّ أَوْلَئِكَ الْأَزْدِيَاءَ بِالْجَدِّ الْجَدِيدِ وَالْحَدِّ وَالْحَدِيدِ، فَلَمَّا انْدَفَعُوا بِغَيْرِ دَفْعٍ إِلَيْهِمْ وَأَدْبَرُوا بِغَيْرِ إِبَالٍ عَلَيْهِمْ قَالَ إِنِّي أَرَى الْمَشُورَةَ الْهَبِيرِيَّةَ أَرِيًا مَشُورًا، وَصَوَّبَ صَوَابُهُ لِرَيْي الرَّأْيِ مَشْكُورًا، فَجَاءَهُ وَزَرَ عَلَيْهِ جِيبُ الْوِزَارَةِ، وَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ مَوْدُودُ الشَّارَةِ، غَيْرَ مَرْدُودِ الْإِشَارَةِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ رَابِعَ أَوْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ، وَكَانَ سَعْدُهُ فِي التَّرْبِيعِ، وَجَدَّهُ مُقْبِلَ الرَّبِيعِ، وَشَرَعَ فِي نَصْرِ أَمْرِ الشَّرْعِ رَحِيْبَ الصُّدْرِ وَالْبَاعِ وَالذَّرْعِ، وَكَرَّمَ الْفَضْلَاءَ وَفَضَّلَ الْكِرْمَاءَ، وَعَاشَ فِي وَزَارَةِ الْمُقْتَفِي وَالْمُسْتَنْجِدِ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً وَشَهْرَيْنِ قَرِيرَ الْعَيْنِ أَيَّدَ الْيَدَيْنِ، سَامِيَ السَّنَا نَامِي الْجَنَّا، سَارِي الْجُودِ رَاسِي الطُّورِ، صَادِعَ السَّعْدِ صَادِقَ الْوَعْدِ، ظَاهِرَ النَّدَى، مُسْتَقْبِلَ الْحَبَى، مُسْتَهْلِلَ الْجَنَى، وَكَانَ بِهِ عَمَشٌ، وَيُوزِيرُ السُّلْطَانَ صَمَمٌ، وَأَمْرُ الدِّينِ وَالِدَوْلَةِ بِهِمَا مُنْتَظِمٌ، فَقِيلَ لَوْ كَانَ لِلدَّوْلَةِ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرٌ لَمَا حَكَمَ فِيهَا أَعْمَى وَأَصَمٌ، وَلَمْ يَزَلِ الْجَمَالَ وَالْجَلَالَ بِوُجُودِهِ وَجُودِهِ أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ.

## ذكر وصول السلطان سنجر بن ملكشاه

في أواخر شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة لما عرف سنجر ما تمَّ بالعراق من اغتيال النفوس واقتطاف الرؤوس، وإذكاء نار القراب لإجراء ماء الرقاب، وخرق العادة في عادية الخرق، ومحق السيادة بزيادة الحُمق، والتجري في الجور على الأكابر بالكبائر، ونصب النصب لذوي المناصب المرفوعة بجرّ الجرائر، واستيحاء المحارم واستيحاء المغارم، واستيلاء خاصبك على خواص الأولياء، وتعاظمه على ذوي الرفعة وترفعه على العظماء، وإغفاء السلطان في مهد الإغفال، وخذعه بالألطف خدع الأطفال، وتزايد طماع الأتباع، وتباعد الأعيان والأسماء عن الأبصار والأسماع، حشي أن الحبط يتفامم والخطب يتعاظم، والضر يعدي والشر يردى، والحر يق يخف والطريق يخيف، والبلاء ينزل والبلاد تُمجّل، وظلال الضلال على ذوي الترف ترف، وأسباب الشتات للأمة بالتلف تأتلف، وأوراء الأوامر يستعل، وخاطر ذي الخاطر يشتغل، فقال لابن لي من الإدراك والاستدراك والإمساك والإستمساك، والتلاقي للتلافي، وقطع التنايف بوقع التنامي، وكشف المظالم وكسف الظالم، ونصب الرفيع وخفض الوضيع، وتقويم المائل وتعميم النائل، وتعذيب المستولي وتهذيب المستعلي، وإسعاف العافي وإنصاف الصافي، وتخويف الكاشح وتخفيف الفادح، وإخفاء الشر اللائح، وإطفاء الشر اللافح، فنهض على كبر سنه وسني كبره، ووصل إلى الري في وسط الشتاء وقر بها في قره، فأجفل مسعود من همدان راحلاً، ورحل على سمت بغداد جافلاً، ففتى عنائه شرف الدين الموفق كردبارو، وقال أنت لسنجر مقام الولد، والأولاد يبر الآباء فازوا، وما سعدوا إذا حصلوا رضاهم وحازوا، والمصلحة أن تلقاه ولا تتوقاه، وتغشاه ولا نخشاه، وتزوره ولا تزور، وتعز به وبها ولا تغتر، فسار إلى الري ومعه ابن بلنكري أن يتبعه، وأقام هو والوزير الأصم بهمدان وودعهما، وقصد عمه السلطان فلما بصر سنجر بمسعود قدّمه وأكرمه وبجله بما أطربته، ورصي عنه وما عتبه، ونسي كل ما ذكره، وأدبر عن كل ما دبره، وشفع السلطان في خاصبك فأجابته، وذكر له فعله واستصابه، وزاده على أن وصى به، واستمراره على استمراء شهيده وصابه،

وَلَا أَحْمَدَ قَوْلًا وَلَا أَجْزَلَ طَوْلًا، وَلَا أَمْرَ بِعَرَفٍ وَلَا نَهْيَ عَنِ مُنْكَرٍ، وَلَا أَبَدَلَ شَكْوَى بِشُكْرِ، وَلَا رَدًّا إِلَى صَحْوٍ عَنِ سُكْرِ، وَلَا فَصْلَ قَضِيَّةٍ وَلَا وَصَلَ رَعِيَّةٍ، وَلَا كَشْفَ ظِلَامَةٍ وَلَا كَفَّ قَلَامَةٍ، وَلَا عَادَى أَعَادِيًّا وَلَا نَاوَأَ مُنَاوِئًا، وَلَا لَبِيَّ مُنَاجِيًّا وَلَا رَبِّي رَاجِيًّا، وَلَا نَهَجَ لِمُنْتَهَجٍ مَنَهَجًا لِكَنَّهُ وَدَّعَ ابْنَ أَخِيهِ وَعَادَهُ، وَأَعَدَّ إِلَى خِرَاسَانَ التَّأْوِيبَ وَالْإِسْتَادَ، وَرَجَعَ السُّلْطَانَ وَاسْتَصَحَبَ خَاصِبِكَ مَعَهُ وَالْوَزِيرَ إِلَى بَغْدَادَ، وَأَتَخَذَ مِنَ الْمَلَادِ الْمَلَادَ، وَأَقَامَ تِلْكَ الشُّتُوَّةَ بِهَا فِي رَفَاغَةٍ وَفِرَاغٍ، وَصَبَا صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ مَسَاغٍ، وَكَانَ مَعَ سِنَجِرِ كُبْرَاءُ أَمْرَائِهِ مِثْلُ الْمُؤَيَّدِ يَرِنُقَشُ هَرَبُوهُ، وَالْفَلَكَ عَلِيَّ الْجَنْزِيَّ، وَسَنَقَرَ الْعَزِيزِيَّ وَغَيْرَهُمْ مِنْ عُظْمَاءِ عَسْكَرِهِ وَخَوَاصِّ مَعَشِرِهِ.

### ذِكْرُ الْحَوَادِثِ فِي تِلْكَ السَّنِينَ

- 1- فِي السَّادِسِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ نَزَلَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ بِجَمْعِ عَظِيمٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ عَلَى دِمَشْقَ وَحَاصَرَهَا، وَأَشْرَفَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا عَلَى الْيَاسِ ثُمَّ مَنَعَهَا اللَّهُ بِظَاهِرِهَا، وَرَحَلُوا عَنْهَا بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ خَائِبِينَ هَائِبِينَ خَاسِرِينَ.
- 2- وَفِي أَوَائِلِ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ تُوفِيَ الْأَمِيرُ غَازِي بْنُ زَنْكِي صَاحِبُ الْمُوَصَّلِ، وَتَوَلَّى أَخُوهُ قَطْبُ الدِّينِ مَوْدُودٌ، وَجَمَالَ الدِّينِ الْجَوَادُ عَلَى حَالِهِ وَجَلَالِهِ وَجَمَالِهِ، وَزَيْنُ الدِّينِ عَلِيُّ كَوْجُكٍ مُسْتَوْلِي الْعَسْكَرِ وَرَجَالِهِ.
- 3- وَتَوَلَّى الْحَافِظُ مُتَوَلِّي مِصْرَ فِي خَمَاسِ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ وَتَوَلَّى بَعْدَهُ وَلَدُهُ الظَّافِرُ.
- 4- وَفِي حِجِّ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَقَعَتْ رَعْبٌ وَمَنْ تَابَعَهَا مِنَ الْعَرَبِ عَلَى قَافِلَةِ الْحَاجِّ عِنْدَ قُفُولِهَا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَهْلَكَتِ النَّاسَ وَأَصَلَّتْ بِهِمُ الْبُوسَ وَالْبَاسَ، وَعَظُمَ مِصَابُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَفَاقِ، وَنَجَّ مِنَ الْأَلْفِ أَحَادٌ بِأَخْرِ الْأَرْمَاقِ.
- 5- وَفِي الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ كَسَرَ نَوْرُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ بْنُ زَنْكِي عَلَى مَنْ الشَّامِ ابْرَنَسَ أَنْطَاكِيَّةً وَقَتَلَهُ وَحَزَّ رَأْسَهُ، وَشَيَّدَ بِتِلْكَ النُّصْرَةَ لِلْإِسْلَامِ قَوَاعِدَهُ وَأَسَاسَهُ.

- 6- وفي أوائلِ سنةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ أَسَرَ التُّرْكَمَانُ جُوسَلِينَ وَسَلَّمُوهُ إِلَى نَوْرِ الدِّينِ، وَنَزَلَ الْمَلِكُ مَسْعُودُ بْنُ قَلِجٍ أَرْسِلَانِ عَلَى تَلِّ بَاشِرٍ<sup>(1)</sup> مَعَ جُوسَلِينَ وَنَزَلَ نَوْرُ الدِّينِ بَعْدَ أَسْرِ جُوسَلِينَ فِي قَلْعَةِ عَزَازٍ<sup>(2)</sup> وَفَتَحَهَا بِالْأَمَانِ.
- 7- وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتِّ وَأَرْبَعِينَ تَسَلَّمَ الْأَمِيرُ خَانَ الْمُنِجِيَّ مِنْ أُمَرَاءِ نَوْرِ الدِّينِ تَلِّ بَاشِرٍ.
- 8- وَفِي سَنَةِ سِتِّ وَأَرْبَعِينَ أَغَارَ عَزُّ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ مَالِكٍ صَاحِبُ قَلْعَةِ جُعْبَرٍ<sup>(3)</sup> عَلَى أَطْرَافِ الرِّقَّةِ فَفَزَعُوا إِلَيْهِ وَأَدْرَكُوهُ وَقَتَلُوهُ، وَجَلَسَ مَكَانَهُ فِي الْقَلْعَةِ وَلَهُدُهُ شَهَابُ الدِّينِ مَالِكٍ.

### ذَكَرَ مَا تَجَدَّدَ مِنَ الْمَلِكِ مَلِكِشَاهِ مَحْمُودِ

أَغَارَ فِي رَبِيعِ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ مَلِكِشَاهُ بْنُ مَحْمُودٍ عَلَى أَصْفَهَانَ وَسَاقَ بَعْضَ مَوَاشِيهَا، وَصَارَ يُغَادِيهَا بِالْإِخَافَةِ وَيُعَاشِيهَا، وَكَانَ فِيهَا نَجْمُ الدِّينِ رَشِيدٌ وَالْيَا هَا فَانْتَهَضَ السُّلْطَانُ إِلَيْهَا وَلِمَسَاعِدَتِهِ شَرَفَ الدِّينَ كَرْدَبَاوَا وَضَمَّ إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَرَاءِ فَوَصَلُوا إِلَى أَصْفَهَانَ وَعَبَّرُوا إِلَيْهَا وَجَاوَزُوا وَرَاسَلُوا الْمَلِكَ مَلِكِشَاهَ وَقَبَّحُوا لَهُ مَا اسْتَحْسَنَهُ وَتَحَرَّكُوا إِلَيْهِ بِمَا سَكَنَ، وَتَحَمَّلَ لَهُ رَشِيدُ الدِّينِ بِمَالٍ حَمَلَهُ إِلَيْهِ وَسَبَّرَهُ إِلَيْهِ وَرَحَّلَهُ، وَنَزَلَتْ السُّكِينَةُ وَسَكَنَتِ النَّازِلَةَ، وَأَسْبَلَ الْأَمْنُ وَأَمِنَتِ السَّابِلَةُ، وَشَتَّى السُّلْطَانُ مَسْعُودُ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَمِائَةَ بِيغْدَادَ غَائِضاً مَعَ لِدَاتِهِ فِي لَدَّاتِهِ، قَانِصاً مِنَ الْعَيْشِ فُرْصَاتِهِ، نَاسِياً بِالسُّكْرِ مِنَ الْمَوْتِ ذَكَرَ سَكْرَاتِهِ، حَاسِراً عَنِ سَاعِدِ اللَّهِيِّ لَاهِياً عَنِ حَسْرَاتِهِ، سَاقِياً لِنُدْمَانِهِ مُنَادِماً لِسُقَاتِهِ، جَالِياً مَوْرَدَةَ الصَّهْبَاءِ عَلَى وَجَنَاتِ الْوَرْدِ وَجُنَاتِهِ، مَشْغُولاً بِكَاسَاتِ الرَّاحَةِ عَنِ كُوسَاتِهِ، وَبَيَاقَاتِ الرِّيَاحِينَ عَنِ بُوقَاتِهِ، مُغْتَبِراً بِمُنَاهَبَةِ الشَّهَوَاتِ عَنِ آفَاتِهِ، مُغْتَبِراً بِقَوْلِهِ خُذْ وَهَاتِهِ، وَقَالَ لِخَاصِبِكِ الْعَزِيزِ هُوَ الْخَاصُّ بِكَ وَالذَّلِيلُ مَنْ نَاصَبَكَ، وَخَصَمُكَ خَصَمِي وَحَكْمُكَ حُكْمِي، وَسَرِيرِي لَمَثَلِكَ وَسُرُورِي لِأَجْلِكَ، وَتَخْتِي لِخَيْتِكَ وَنَعْتِي لِنَحْتِكَ وَسَمْتِي لِسَمْتِكَ، وَغُلُوكَ فِي غُلُوكَ، وَسَمُوي لِئَمُوكَ

(1) تل باشر: قال ياقوت الحموي: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان وأهلها نصاري وأرمن، ولها رَيْضٌ وأسواق، وهي عامرة أهلة.

(2) قلعة عزاز: قال ياقوت الحموي: العزاز: الأرض الصلبة، وهي بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينها يوم، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة لا يوجد فيها عقرب.

(3) قلعة جعبر: قال ياقوت الحموي: قلعة على الفرات مقابل صفين، وكانت تعرف أولاً بدوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به.

وَهَوَايَ هَوَاكَ وَرِضَايَ رِضَاكَ، وَشَانِي الرَّفَاهَةَ وَشَانِي الْفَرَاهَةَ، وَجَاهِي يَوْمٌ إِذَا تَمَّتْ لَكَ  
 الْوَجَاهَةُ، لَا تَعْنِي بَأَن تَعُوْفِي عَنْ شَهَوَاتِي فَقَدْ حَلَا لِلْهُوِّ حِينَ حَلَّ فِي لَهَوَاتِي فَمَا اسْتَوَى  
 لِي إِلَّا سَمًا وَاسْتَوَلَى وَمَنْ تَوَالَيْنِي إِلَّا مَنْ وَلَى فَرَاخٍ خَاصٍ بِكَ فِرْحًا بِاخْتِصَاصِهِ، وَمُنْذُ  
 كَانَ مَا أَخْلَى صَاحِبَهُ فِي حَبِيهِ مِنْ إِخْلَاصِهِ، وَهُوَ مُطَاعُ الْحُكْمِ مُحْكَمُ الطَّاعَةِ، مُدَاعُ الطَّيِّبِ  
 طَيِّبُ الْإِدَاعَةِ، قَوِيُّ النَّفْسِ نَفِيسُ الْقُوَّةِ، فَتِي الْعِزِّ عَزِيزُ الْفُتُوَّةِ، عَظِيمُ الْقَدْرِ قَادِرُ الْعَظْمَةِ،  
 ظَالِمُ الْقَهْرِ قَاهِرُ الظُّلْمَةِ، مُنْفَرِدًا بِالظُّهُورِ مُسْتَظْهِرًا بِالتَّفَرُّدِ، مُتَوَحِّدًا بِالْحَدِّ مَحْدُودًا بِالتَّوْحُدِ،  
 وَابْتَنَى وَاقْتَنَى وَأَجْنَى وَاجْتَنَى، وَأَحَدٌ وَأَعْطَى وَأَفْقَرٌ وَأَغْنَى، وَذَخَرَ الْخَزَائِنَ وَخَزَنَ الذَّخَائِرَ،  
 وَكَبَّرَ الْأَصَاغِرَ وَصَغَّرَ الْأَكْبَارَ، وَحَقَّرَ الْعِظَامَ وَعَظَّمَ الْحَقَائِرَ، وَأَظْفَرَ الْحَدِيدَ وَأَحَدَ الْأَظْفَرَ،  
 وَأَضْمَرَ الْعَشَّ وَأَعَشَّ الضَّمَائِرَ، وَأَهْلَ أَهْلَةَ السُّلْطَنَةِ وَالتَّسْلُطِ وَعَدَا طَوْرَهُ وَلَمْ يُخْفِ عَادِيَةَ  
 التَّوَرُّطِ، وَكَسَرَ الْحُقُوقَ وَكَثَّرَ الْعُقُوقَ، وَأَوْهَنَ الْعُقُودَ وَحَلَمَ ذُو الْجِلْمِ بِأَمْنِيَةِ مَنِيَّتِهِ، وَانْتَظَرُوا  
 عِقُوبَةَ سُوءِهِ وَسُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَأَقَامَ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ تِلْكَ الشُّتُوَّةَ بِغِدَادٍ وَهُوَ مُتَعَوِّدٌ لِلرَّفَقَةِ مُتَوَدِّعٌ،  
 ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا رَحِيلٌ مَنْ هُوَ مُودِّعٌ مُودِّعٌ، وَفَرَى قَلْبُهُ قَلْبَ الْفِرَاقِ، وَأَحْبَلَ وَلَمْ يَعِدْ بَعْدَهَا إِلَى  
 الْعِرَاقِ، وَتَرَافَقَ السُّلْطَانُ وَخَاصَّبَكَ وَلَمْ يَتَفَارَقَا، وَتَوَافَدَا عَلَى التَّرَافِدِ وَتَوَافَقَا، وَهَمَّ ذَانِ فِي  
 هَمْدَانٍ بِالرِّيِّ فِيهِ لَذَائِهِمَا، وَالْمُنَى جَاءَتْهُمَا بِاللَّهْوِ وَلَهُ مُنَاجَاتُهُمَا، وَتَجَمَّ عَيْشًا وَعَاشَا فِي  
 نِعْمَةٍ، وَغَفَلَا عَنِ الْبِيَّاتِ وَبَاتَا بِغَفْلَةٍ، حَتَّى انْقَضَتْ سَنَةٌ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ صَافِيَةً مِنَ الْقَدَى كَافِيَةً  
 لِلْأَذَى، مَا ضِيَّةٌ مَعَ الْغِنَى مُضِيَّةٌ لِلْسِّنَا، طَنَانَةٌ بِالْعَنَا، مَنَانَةٌ بِالْمُنَى، فَلَا مُعَارِضَ وَلَا مُضَارِعَ، وَلَا  
 مُنَازِلَ وَلَا مُنَازِعَ، وَلَا مُكَاشِرَ وَلَا مُكَاشِحَ، وَلَا مُكَافِيَةَ وَلَا مُكَافِحَ، وَلَا مُعَادِيَةَ وَلَا مُعَادِلَ،  
 وَلَا مُشَاكِيَةَ وَلَا مُشَاكِلَ، وَصَفَا الْمُلُوكَ وَمَلَّكَ الصِّفَاءَ، وَوَفَى الْأَنْسَ وَأَنْسَ الْوَفَاءَ، وَلَمْ يَعْلَمَا  
 أَنَّ سَنَةَ سَبْعٍ بِسَنَتِهَا كَالسَّبْعِ عَضُوضٍ، وَأَنَّ كَلِمَةَ أَبْرَمَهُ الْيَوْمَ الزَّمَانَ عَدَا مَنَقُوضَ، وَأَنَّ نَكْتَ  
 الْمَضْفُورِ مِنْ نَكْتِ الْعَيْشِ الْمَرْفُوضِ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ مَخْتُومَةَ وَالْوَفَاةَ مَحْتُومَةَ، وَأَنَّ عَمْرَانَ الْعَمِيرَ  
 مَهْدُومَ، وَأَنَّ سَرَ الْقَضَاءِ مَكْتُومَ، وَأَنَّ حَدَّ الْجَدِّ مُثْلُومَ، وَأَنَّ شَنْبَ ثَغْرِ الشَّمْلِ بِقَمِ الشَّنَاتِ  
 مَلْثُومَ، وَأَنَّ الْحَوْلَ مُتَحَوِّلَ، وَالْحَلِيَّ مُتَعَطِّلَ، وَالْمُلُوكَ مُتَنَقِّلَ، وَالْعِزَّ بِالذَّلِّ مُتَبَدِّلَ، وَأَنَّ السَّمَاءَ  
 وَإِنْ أَضْحَتْ تَغِيْمُ، وَأَنَّ الدَّوْلَةَ وَإِنْ اعْتَدَلَتْ تَمِيلُ وَتَضْيِمُ، وَأَنَّ مِقَّةَ الدُّنْيَا الدُّنْيَا مَقْتٌ، وَأَنَّ  
 أَثْلَةَ كُلِّ أَثِيلٍ لَهَا حَتْ، وَأَنَّ الْأَرْضَ تَأْكُلُ مَا أَكَلَتْ مِنْهَا، وَالْمَنُونَ تُوقِظُ مَنْ نَامَ عَنْهَا، وَأَنَّ الثَّرَى  
 يُكْثِرُ مَنْ يَكْثُرُ بِهِ وَيَلِي بِالْبَلَى مَنْ فِي بِلَادِهِ يَلِيهِ، وَأَنَّ قَتِيلَ الدَّهْرِ يَهْدُرُ، وَحَدِيثَ الْحَدَنَانِ  
 بَعْدَهُمَا سَمَرٌ، وَأَنَّ الْعِيَانَ مِنْهُمَا خَبَرٌ، وَأَنَّ الصَّفْوَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَدْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ مَسْعُودٌ مَسْعُودًا

محموداً، وِجْبَاءِ الْحَيَاةِ مَجْدُوداً، حَتَّى عَاجَلَهُ الْقَدَرُ وَمَا أَجَّلَهُ الْأَجَلُ، وَحَلَّ الْأَكْمَ وَأَنْحَلَ الْأَمْلَ، وَاصَابَتْهُ عِلَّةُ الْغَثِيَانِ وَالْقِيَاءِ، فَمَا سَكَنتَ حَتَّى أَسَلَمْتَ نَشْرَهُ إِلَى الطَّيِّ وَتَمَسَّهُ إِلَى الْقِيِّ، وَعَدَا اغْتِرَارُهُ بِاعْتِرَارِهِ إِلَى الْكَيِّ، وَجَمَدَ فِي آخِرِ جُمَادَى الْآخِرَةِ ذُوْبُهُ، وَخَمَدَ ضِرَابُهُ وَأَقْلَعَ صَوْبُهُ، وَأَنْتَقَلَ مِنْ فَوْقِ الْمَرْتَبَةِ إِلَى تَحْتِ التَّرَابِ، وَتَبَدَّلَ شَهْدُ شَهْوَدِهِ بِصَابِ الْمُصَابِ، وَاعْتَاَضَ مِنَ الْجِمَى الْجِمَامَ، وَمِنَ الرَّجَاءِ الرَّجَامَ، وَمِنَ الْمُلْكِ الْهُلْكَ، وَمِنَ الْأَخِذِ التَّرْكَ، وَمِنَ الْكَنْفِ لِلْكَفْنِ، وَمِنَ الْمِنَحِ الْمِخْنَ، وَمِنَ لُقْيَةِ الْعَقَاءِ لُقْيَ الْعَفْنِ، وَمِنَ الْيَقِينِ أَنَّ الْأَعْمَارَ لَا تَعِينُ، وَلَا تُتَمَتَّعُ بِالنَّافِعِ وَلَا الْيَقِينِ، وَكَانَ مَسْعُودٌ ضَخَمَ الدَّسِيعَةَ جَمَّ الصَّنِيعَةَ، لَكِنَّهُ يَصْطَبِغُ الْأَرَاذِلَ وَيَرْفَعُ الْأَسَافِلَ، وَيُؤَلِّفُ الْأَنْدَالَ وَيُحَالِفُ الْجُهَالَ، وَهُوَ كَثِيرُ الْأَتْكَالِ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْإِقْبَالِ، قَلِيلُ الْإِحْتِفَالِ لِمَكَايِدِ الرِّجَالِ، دَائِمُ الْإِغْضَاءِ عَنِ دَمِيمِ الْفِعَالِ، وَطَيُّ الْأَخْلَاقِ زَكِيُّ الْأَعْرَاقِ، لَا يُضْمِرُ لِعَدُوِّ سَخِيمَةَ، وَلَا يَقْبَلُ فِي وَلِيِّ نَمِيمَةَ، وَأَتَقَّ قَبْلَ وَفَاتِهِ أَنْ أَخَاهُ سَلِيمَانَ شَاهَ كَانَ بَقْلَعَةَ قَرْوِينَ مُعْتَقِلاً، وَكَانَ عَلَيْهِ بِالْحَوْطِ مُتَقِلاً، فَوَاطَأَ مُسْتَحْفِظَهَا مُوفِقَ الْخَادِمِ عَلَى الْخُرُوجِ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ لِطَلْبِ السُّلْطَنَةِ، وَاتَّصَلَ بِذَوِي الْأَيْدِ وَالْأَيْدِي الْمُتَمَكِّنَةِ، وَكَانَ الْمَلِكُ مَلِكُشَاهَ بْنِ مَحْمُودٍ قَدْ اتَّصَلَ بِعَمِّهِ مَسْبُودٍ إِلَيْهِ لَاجِباً وَلَا لَاجِباً رَاجِياً، وَقَدْ أَحْمَلَ إِلَيْهِ وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ حَاضِرٌ حِينَ حَضَرَهُ الْحَيْنُ، وَغَارَتْ وَغَاضَتْ الْعَيْنُ وَالْعَيْنُ، وَحَلَّ لِحُلُولِ يَوْمِ الدِّينِ الدِّينِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقْطَعَ بَيْنَ الْمُتَوَاصِلِينَ الْبَيْنَ، وَذُفِنَ فِي هَمْدَانَ فِي مَدْرَسَةِ بَنَاهَا جَمَالَ الدِّينِ إِقْبَالَ الْجَامِدَارِ.

### ذِكْرُ جُلُوسِ السُّلْطَانِ مَلِكُشَاهَ بْنِ مَحْمُودٍ

لَمَّا تُوَفِّيَ عَمُّهُ اجْتَمَعَ الْعَسْكَرُ عَلَى نَصْبِهِ، وَعَقِدَ حُبِّي الْعِتْقَادِ لِحُبِّهِ، وَأَجْلَسُوهُ عَلَى السَّرِيرِ لِلْسُرُورِ، وَالْبَسُوهُ الْحَبْرَ وَأَطَاعَهُ الْأَمْرَاءُ وَاتْتَمَرُوا بِطَاعَتِهِ، وَتَيَمَّنُوا بِيَوْمِهِ وَسَعَدُوا بِسَاعَتِهِ، وَتَفَرَّدَ ابْنُ بَلَنْكِرِيِّ عَلَى عَادَتِهِ وَمُسَاعَدَتِهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَالْقَصْرِ وَالْمَدِّ، وَالْقَبُولِ وَالرَّدِّ، وَالْمَيْلِ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ وَجَبَايَةِ الْأَعْمَالِ، وَالْحَاقِ ذَوِي الْإِثْرَاءِ بِذَوِي الْإِقْلَالِ، وَذَرَّتْ مَوَارِدُ الْمَوَارِدَاتِ وَمَصَادِرُ الْمَصَادِرَاتِ، وَتَجَمَّعَتْ فِي مَطَالِعِ مَطَالِيهِ بُدُورُ الْبَدْرِ، وَدَامَتْ لَهُ مُضَاعَفَةُ الْقَدْرِ، وَخَزَنَ الْمَالُ وَمَلَأَ الْخَزَائِنَ، وَذَفَنَ الْكَثِيرَ وَكَثَّرَ الدَّفَائِنَ، وَكَتَزَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَجَمَعَ الْهَيْمَى الْمُتَفَضَّةَ، وَاشْتَغَلَ مَلِكُشَاهَ بِالْأَنْهَمَاكِ فِي الْقَصْفِ وَالْأَنْهَاتِكِ، وَبِالْعَرِقِ وَالْأَسْتِمْسَاكِ بِعُرْوَةِ الشَّهْوَةِ، وَالْأَسْتِدْرَاكِ لِفَارِطِ الْخَطُورَةِ، وَشَرِبَ الْمُدَامَ الْمُدَامَ،

وَقَصَّ الْفِدَامَ مَعَ النَّدَامِ، وَمُقَارَفَةَ الْفَرْقَفِ، وَمُحَارَفَةَ الْأَهْيَفِ الْمُهْفَهْفِ، وَمُرَاشَفَةَ الشَّفَاهِ وَمَسَارَةَ الشَّفَاهِ، وَمُنَاهِبَةَ اللَّذَاتِ وَمُقَانَاتِ الْقِيَانِ وَالْقَنَانِي، وَمُنَاغَةَ الْأَغَانِي وَالْعَوَانِي، وَمُصَافِحَةَ الصُّبَاحِ وَمُتَالِحَةَ الْجَمَلِ، وَمُواصَلَةَ الْمَسَاحِرِ وَمُهَاجِرَةَ الْمَفَاخِرِ، وَمُنَاقِبَةَ الْأَوْتَارِ وَمُنَاقِبَةَ الْأَوْطَارِ، وَمُجَالِسَةَ الْخُمَارِ وَمُتَالِسَةَ الْخُمَارِ وَمُسَالِبَةَ ذَاتِ الْخُمَارِ، وَمُحَاوَرَةَ الْخُورِ وَمُخَاوَرَةَ الْخُمُورِ، وَفَهْمَ زَمْرِ الزُّمْرِ، وَفَصْمَ زَهْرِ الزَّهْرِ، وَفَصْدَ عِرْقِ الدَّنِّ، وَمَزَجَ دَمَ الْعَنْقُودِ بِمَاءِ الْمُنِّ، وَقَطَمَ الْمُورِدِ مِنَ الْغَصَنِ الْوَرِيْقِ، وَقَطَعَ وَرِيدَ الْمُورِدَةِ مِنْ عِنَقِ الْإِبْرِيْقِ، وَصَرَفَ الْحَرِيْقِ بِصَرَفِ الرَّحِيْقِ، وَهُوَ مُبَاهٍ بِالْبَاهِ، جَاهِلٌ بِالْجَاهِ، عَنِ اللَّهِ مُدْبِرٌ، وَعَنِ التَّدْبِيرِ مُقْبِلٌ، وَعَلَى التَّدْبِيرِ مُنْهَمِكٌ، وَفِي الشُّكْرِ مُنْهَيْتِكُ، وَبِالنُّكْرِ لَا يَقُوْقُ وَلَا يُفِيْقُ، وَلَا يَلِي قَوْمَهُ بِمَا بِالسُّلْطَنَةِ يَلِيْقُ، وَفَوَّضَ الْأُمُورَ كُلَّهَا إِلَى ابْنِ بَلَنْكِرِي، وَكَانَ مِنْ فَلَكَ مَلِكِهِ فِي أَوْجِ الْمُشْتَرِي، وَظَنَّ أَنَّهُ يَسْلَمُ بِهِ مِنْ كَيْدِ الْمُفْتَرِي الْمُعْتَرِي، وَاعْتَلَقَ بِنُجْحِهِ وَوَثَقَ بِنُصْحِهِ، وَمَا دَرَى أَنَّهُ يَخْسَرُ مِنْ رِيْحِهِ، وَيُظْلِمُ يَوْمَهُ بِطُلُوعِ صُبْحِهِ، فَإِنَّ ابْنَ بَلَنْكِرِي طَرَبَ فِطْرَ، وَخَطَرَ بِضَمِيرِهِ أَنْ يُضْمَرَ الْخَطَرَ، وَجَمَعَ الْأَمْرَاءَ وَكَبِيرَهُمُ الْحَسَنُ الْجَامِدَارُ، وَهَنَّاكَ أَجْمَعَ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ، وَقَالَ لَهُمْ هَذَا سُلْطَانٌ لَا يُفْلِحُ، وَلِلْمَلِكِ لَا يَصْلُحُ، فَإِنَّهُ غَرٌّ ذُو غُرُورٍ وَغَمْرٌ جَاهِلٌ بِالْأُمُورِ، فَقَدْ سَعَلْتَهُ الْخَمْرُ عَنِ الْأَمْرِ، وَأَغْنَاهُ الْحَشْفُ عَنِ التَّمْرِ، وَالْهَاهُ لَهْوُ الْمُتَجَانِ عَنِ حَلْوِ الْمَجَانِي، وَسَعَلْتَهُ عَنِ طُغْيِ الْبَيْضِ بِيضِ الطُّبَاءِ، وَعَنِ سُمْرِ الْقَنَا خَمْرِ الْقَنَانِي، وَأَنَا أَرَى مِنَ الصَّوَابِ أَنْ نُخْلِيَهُ، وَنَسْتَدْعِي أَخَاهُ مُحَمَّدًا وَتُوَلِيَهُ، فَإِنَّهُ ذُو حَصْبَاءٍ ثَقِيلٍ وَحَصَافَةٍ وَتَحْصِيلٍ، وَعَقْلٍ سَدِيدٍ وَعَقْدٍ شَدِيدٍ، وَرَأْيٍ وَرِيٍّ وَزَنْدٍ وَرِي، وَصُوبٍ مُرٍ وَصَوَابٍ مُتْرَوٍّ، وَثَبَاتٍ رَأْسٍ وَثَبَاتٍ هَرِّ بَاسٍ، وَمَلِكْشَاهُ لَوْ مَلَكٌ شَاهٌ سَلَمَهَا إِلَى الذُّنْبِ، وَإِنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَدِيقٌ فَأَبْكْتَهُ بِالتَّكْذِيبِ فَعَلِمَ الْأَمْرَ أَنَّ خَاصِبِكَ كَالْبَاحِثِ عَنِ حَتْفِهِ بِظَلْفِهِ، وَالْجَالِبِ النُّكْرِ إِلَى عَرْفِهِ، وَكَانُوا قَدْ كَرَهُوا اسْتِيْلَاءَهُ وَسَيَّمُوا اسْتِيْلَاءَهُ، فَوَاقَفُوهُ عَلَى الرَّأْيِ الرَّائِبِ وَعَدَّوهُ مِنَ الْمَوَاهِبِ، وَقَالُوا لَعَلَّ الْمَلِكَ إِذَا تَوَلَّاهُ حَازِمٌ جَازِمٌ وَعَاقِلٌ بِمَصَالِحِهِ عَالِمٌ انْتَحَى لَهُ مِنْ هَذَا الْعَادِي وَشَفَى بِصَدَاهُ غَلِيلَ الْمَلِكِ الصَّادِي، وَحَيْثُذِ قَالُوا لِخَاصِبِكَ عَجَلُ هَذَا الْأَمْرِ قَبْلَ أَنْ يَفْطَنَ بِهِ، فَتِيَّاسٌ مِنْ نُجْحٍ مَطْلَبِيهِ، فَقبَضَ ابْنُ بَلَنْكِرِي مَلِكْشَاهُ فِي دَارِ الْحَسَنِ الْجَامِدَارِ، وَهُوَ فِي ضِيَاغَتِهِ فَقْرَاهُ بِأَقْبِهِ وَاعْتَقَلَهُ بِمَرَجِ هَمْدَانَ، فَكَانَ قَدْ أَنْفَذَ إِلَى الْمَلِكِ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمُودِ بِخُوزِسْتَانَ، وَسَارَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ الْحَاجِبُ الْكَبِيرُ جَمَالَ الدِّينِ ايلْفَقْسْتِ بْنِ قَائِمَازِ الْحَرَامِي وَنَفَّذَ إِلَى ابْنِ بَلَنْكِرِي لِاسْتِخْلَافِهِ الْأَمِيرَ مُشِيدَ الدِّينِ بْنِ شَهْمَلِكِ وَمَعَهُ وَزِيرُهُ كَمَالُ الدِّينِ أَبُو شَجَاعِ الرَّنْجَانِي

المعروفُ بالكمالِ التَّعْجِيلِيّ، فَجَاوَوْهُ فِي الرِّسَالَةِ، وَحَسَّنُوا لِلسُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ ضِدًّا مَا أَرَادَهُ مِنَ الْحَالَةِ، وَقَرَّرُوا مَعَهُ قِتْلَهُ يَوْمَ الْوُصُولِ، وَقَالُوا لَهُ لَا نَقْبَلُ غَيْرَ هَذَا الرَّأْيِ لِتَحْطَى بِالْقَبُولِ، وَعَادُوا وَقَالُوا لِابْنِ بَلَنْكِرِي إِنَّا قَدْ حَلَفْنَا فَمَا سَتَوْتَقْنَا مِنْهُ بِالْإِيمَانِ، وَأَكْذَبْنَا أَقْسَامَ الْقَسَمِ بِحَيْثُ يَكُونُ حَتُّهُ ارْتِدَادًا عَنِ الْإِيمَانِ، وَوَثَّقَ بِأَمَانَتِهِمْ مِنَ الْوَتُوقِ بِهِمْ، وَأَرْسَلَ وَاسْتَرْسَلَ وَعَجَّلَ وَاسْتَعَجَلَ، فَأَمَّا مَلِكْشَاهُ فَإِنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْ اعْتِقَالِهِ، وَخَرَجَ نَجْمُهُ مِنْ بَيْتِ وَبَالِهِ، وَكَانَتْهُمْ تَوَانُوا فِي جَفِظِهِ وَوَكْلُوهُ إِلَى حَظِّهِ، وَكَمَا أَغْفَلُوا الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ أَحْسَنُوا بِالْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُ نَأْرٌ فَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ، وَصَرَ حَوَا بِهَرَبِهِ وَلَمْ يَعْرِضُوا بِطَلْبِهِ، وَلَمْ يَلْبَثْ فِي السُّلْطَنَةِ إِلَّا مَدَّةَ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ، وَرُؤْيِي عَمَّا حَارَزَهُ مِنْ وِرَاثَةِ، ثُمَّ تَنَقَّلَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ وَتَحَوَّلَ بِهِ الْإِنْتِقَالَ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّ بِخُوزِسْتَانَ مَلِكًا، وَفِي سَلِكِ سَلُوكِ نَهْجِ السَّلَامَةِ مُنْسَلِكًا.

ذَكَرَ جَلُوسُ السُّلْطَانِ غِيَاثِ الدُّنْيَا وَالِدِ ابْنِ أَبِي شِجَاعِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهُ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ سَبْعِ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

وَقَدَّمَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ هَمْدَانَ فِي عَدَّةٍ بَسِيرَةٍ وَعَدَّةٍ غَيْرِ كَثِيرَةٍ، فَتَلَقَّاهُ خَاصِبِكُ بَلْقَائِهِ مُسْتَبْشِرًا وَبُوفَائِهِ مُسْتَظْهِرًا، وَلِصِفَاءِ وَرِدِهِ مُوقِنًا، وَبِصِفَاتِ مُحَمَّدِهِ مُؤْمِنًا، وَإِلَى دِينِهِ رَاكِنًا، وَإِلَى يَمِينِهِ سَاكِنًا، وَحَمَلَ إِلَيْهِ مَا يَجْمَلُ بِهِ مِنْ آيَاتِ الْمُلْكِ وَأَدْوَاتِهِ، وَمُخَبَّاتِ الْأَمْوَالِ وَمُذْخَرَاتِهِ، وَخِيَمِهِ وَسُرَادِقَاتِهِ، وَصَوَافِيهِ وَمَعَهَا جَوَاشِينُهُ وَزَرْدِيَاتُهُ، وَالْخَيْلَ الْعَرَابَ وَالْعُرُوضَ وَالثِيَابَ، وَالذَّهَبَ مُطْبُوعَاتُهُ وَمَصْغُوعَاتُهُ، وَاللُّجَيْنَ وَمَسْبُوكَاتُهُ وَمَصْنُوعَاتُهُ، فَعَلِقَتْ بِالنَّفُوسِ نَفَائِسُ أَعْلَاقِهِ، وَسَكَنَ الْمَسْكِينُ إِلَى وِفَاءِ السُّلْطَانِ وَوَفَاقِهِ، وَخَرَجَ لَهُ مِنْ قِشْرِهِ، وَأَرْجَ مِنْهُ بِشْرِهِ، وَأَجْلَسَهُ عَلَى السَّرِيرِ وَسَرَّ بِجَلُوسِهِ، وَلَمْ يَدِرْ أَنَّهُ سَعَى بِسَعُودِهِ نَحْوَ نُحُوسِهِ، وَلَقِيَهُ السُّلْطَانُ بِوَجْهِ لَهَ بِاشِرٍ، وَلِسَانٍ لِحْمِدِهِ نَاشِرٍ، وَمُخَيَّا بِمَاءِ الْحَيَاءِ قَاطِرٍ، وَمَلَقَى بِسَنَاءِ الْمَلِكِ سَافِرٍ، وَمَقُولِ لِمَنَاقِبِهِ وَمَحَاسِنِهِ ذَاكِرٍ، وَلَكِنَّ ضَمِيرَهُ لِلشَّرِّ مُضْمِرٍ، وَفَكْرَهُ لِلْفِكْرِ بِهِ مُفَكِّرٍ، وَخَاطِرَهُ لِيُوبَالِهِ بِبَالِهِ مُخْطِرٍ، وَقَوْلُهُ لِخِلَافِ بَاطِنِ فِعْلِهِ مُظْهِرٍ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُعَاوِدُهُ، وَيَعْتَهِدُ مِنْهُ أَنَّهُ مُعَاهِدُهُ، وَهُوَ مُلَاحِظُهُ لِأَنَّهُ مُحَالِفُهُ، وَمُؤَلِّفُهُ لِأَنَّهُ مُوَالِفُهُ، وَمُحْكَمُهُ كَمَا حَكَّمَهُ، وَمُقَدَّمُهُ لِأَنَّهُ قَدَّمَه، وَمَا دَرَى أَنَّهُ قَدْ فَرَعَ مِنْ شُغْلِهِ، وَدَبَّرَ فِي قِتْلِهِ، وَوَعَدَهُ السُّلْطَانُ بِمَوَاعِيدِ حِسَانٍ، وَقَرَأَهُ بِحُسْنَى وَجْهِ وَلِسَانٍ، وَأَنْصَرَفَ بِالصَّالِحَاتِ دَاعِيًا وَبِاللَّخِيْرَاتِ رَاجِيًا، وَبِالْأَمَانِ مُعْتَصِمًا وَبِالْأَمْنِ مُلْتَزِمًا، وَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ قُدُومِهِ جَلَسَ فِي أَعْلَى الْقَصْرِ وَاسْتَدْعَى ابْنَ بَلَنْكِرِي

لِمَشَاوِرَتِهِ فِي التَّفْوِيزِ وَالْمُفَاوَضَةِ فِي السَّرِّ، فَجَاءَ وَمَعَهُ الْأَمِيرَانِ زَنْكِي الْجَانِدَارِ وَالْأَمِيرُ كَشْطَغَانُ الْمَعْرُوفُ بِشَمْلَةٍ، فَلَمَّا حَصَلُوا عَلَى سُلْمِ الْقَصْرِ عَرَفَ الشَّمْلَةَ الْعَمَلَةَ، وَرَأَى أَمَارَاتٍ لَا تُوَافِقُ الْمُرَادَ قَاعًا، وَجَذَبَ ذَيْلَ ابْنِ بَلَنْكِرِيِّ وَزَنْكِي فَانْتَهَمَا صَعْدًا لِحَيْثُمَا، فَأَجْرَى مِنْ دَيْهَمَا تَبَرَّ التَّبَارِ عَلَى لُجَيْنِهِمَا، وَحَزَّ رَأْسَ خَاصِبِكَ وَزَمَى بِجُنَّتَيْهِ إِلَى الْمِيدَانِ، وَضُرِبَتْ أَيْضًا رِقْبَةُ زَنْكِي الْجَانِدَارِ وَكَانَ كَبِيرَ الشَّانِ، وَارْتَاعَتِ الْقُلُوبُ وَارْتَابَتِ النُّفُوسُ، وَذُرِفَتْ الْعِيُونَ لَهُ وَأَطْرَقَتِ الرُّؤُوسُ، وَمِمَّا يَعْتَبَرُ بِهِ الْمُسْتَبْصِرُ وَيَسْتَنْصِرُ بِهِ الْمُعْتَبِرُ أَنَّ خَاصِبِكَ بَنَ بَلَنْكِرِي خَلْفَ أُمُورًا لَا تَأْكُلُهَا النَّيْرَانُ وَلَا يَحْوِيهَا الْحِسَابُ وَلَا تَحْصُرُهَا الْخُزَانُ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَا وَجَدَ لَهُ أَلْفٌ وَسَبْعُمِائَةٌ أَطْلَسَ عَتَابِيَّ فَكَيْفَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَلْوَانِ، وَطُلِبَ لَهُ كَفَنٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَلَمْ يَوْجَدَ، فَبَيَّ عَلَى حَالِهِ وَلَمْ يَلْحَدْ، وَمَا أَلْقَى عَلَيْهِ رِءَاءَ، وَلَمْ يُبْذَلْ لَهُ فِدَاءٌ، حَتَّى جِيءَ مِنْ سَوَاقِ الْعَسْكَرِ الْكَفَنُ وَالْقَطَنُ، وَتَهَيَّأَ مَنْ تَوَلَّى أَمْرَ غَسَلِهِ وَالذَّفْنِ، حَسْبَهُ لِلَّهِ، فَيَا بَعْدًا لِلدُّنْيَا مَا أَبَعَدَ دُنُورَهَا، وَأَقْتَنَ هُدُورَهَا، وَأَقْتَلَّ غُلُورَهَا، وَمَا أَكْدَرَ صَفَاءَهَا، وَأَغْدَرَ وَفَاءَهَا! تَعْدَمُ مَنْ وَجَدَهَا، وَتُعْتَبُّ مَنْ شَهِدَهَا، وَتُحَيَّبُ مَنْ قَصَدَهَا، وَتَهْدَمُ مَنْ بَنَاهَا، وَتَجِيءُ عَلَى مَنْ حَبَاهَا، وَتُخْفِئُ مَنْ أَمَنَهَا، وَتُزْعِجُ مَنْ سَكَنَهَا، وَتُعْرِي مَنْ لَبَسَهَا، وَتَقْلَعُ مَنْ غَرَسَهَا، وَتَقْطَعُ مَنْ وَصَلَهَا وَتُعِزُّ مَنْ حَمَلَهَا وَتَقْبِحُ عَلَى مَنْ جَمَلَهَا، وَتُعْرِضُ عَمَّنْ قَبَلَهَا، وَتُقْبِلُ مَنْ أَحْيَاهَا، وَتَفْتِكُ بِمَنْ حَيَّاهَا، وَلَا تَرَعِي مَنْ رَعَاهَا، وَلَا تَحْوِي مَنْ حَوَاهَا، وَتُقْنِي مَنْ أَبْقَاهَا، وَتُظْمِي مَنْ سَقَاهَا، وَتُهْوِي مَنْ هَوَيْهَا، وَتُوَلِّي عَمَّنْ وَلِيَّهَا، وَتَغْضَبُ عَلَى مَنْ رَضِيَهَا، وَتُلْقِي فِي الْأَهْلِكِ مَنْ بِالْمَلِكِ لَقِيَهَا، وَلَمَّا وَاتَّ ابْنُ بَلَنْكِرِيِّ أُمَّتَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا بَسَطَتْ أَيَادِيهَا لَهُ قَبَضَتْ يَدَيْهِ، وَلَمَّا مَرَّتْ بِالرَّئِاسَةِ مَرَّتْ بِرَأْسِهِ، وَلَمَّا عَذِقَ رَجَاؤُهُ بِهَا عَذَقَتْهُ بِرَأْسِهِ.

### ذَكَرَ مَا جَرَى مِنَ الْوَأْدَاتِ بَعْدَ حَادِثَةِ خَاصِبِكَ بِنِ بَلَنْكِرِيِّ

ظَنَّ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ لَمَّا قَتَلَهُ أَنَّ الْمَوَانِعَ قَدْ ارْتَفَعَتْ، وَالرَّوَائِعَ قَدْ ارْتَدَعَتْ، وَالصَّنَائِعَ قَدْ انْتَسَقَتْ، وَالْمَنَافِعَ قَدْ اتَّسَعَتْ، وَأَنَّ الْأَمْرَ قَدْ انْتَضَمَ، وَالْعَجَزَ قَدْ ابْتَسَمَ، وَأَنَّ الْأَمْرَاءَ النَّافِرِينَ مِنْهُ بِسَبَبِهِ يَجْتَمِعُونَ، وَعَلَى نَصْرِهِ يُجْمَعُونَ، وَلَا مَرَهُ يَسْمَعُونَ، وَإِلَى حُكْمِهِ يَرْجِعُونَ وَلِيَابِهِ يَقْرَعُونَ، وَإِلَى جَانِبِهِ يَفْرَعُونَ، وَكَانَ فِي خَوْزَسْتَانَ الْوَزِيرُ جَلَالُ الدِّينِ بِنُ أَبِي الْقَاسِمِ الدَّرْكَزَنِيِّ، وَقَدْ أَبْقَاهُ عَلَى زَارِيَتِهِ، وَجَرَى مَا جَرَى بِمَشُورَتِهِ وَإِشَارَتِهِ، فَأَسَارَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَيَّرَ رَأْسَ خَاصِبِكَ إِلَى الْأَمِيرِينَ الْكَبِيرِينَ شَمْسِ الدِّينِ أَنْبَابِكِ أَيْلِدَكَزِ وَنُصْرَةَ الدِّينِ خَاصِبِكَ بِنِ

أَقْسَقِرْ صَاحِبِ مِرَاعَةٍ، وَظَنَّ أَنَّهُ يُعْجِبُهُمَا إِتْلَافُهُ، وَلَا يَسْتَعْمَهُمَا عَصِيَانُ السُّلْطَانِ وَخِلَافُهُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمَا الرَّأْسُ هَالَتْهُمَا حَالَتُهُ، وَأَعْيَتْهُمَا فِي هَذِهِ الْعَثْرَةِ إِقَالَتُهُ، وَقَالَ لَقَدْ أَقْدَمَ عَلَيَّ فَتْكٍ عَظِيمٍ بِعَظِيمٍ، وَلَقَدْ أَلَامَ ذَلِكَ الْكَرِيمَ بِظْفِيرِ لَيْثِيمٍ، أَمَا كَانَ اسْتَوْثِقَ مِنْهُ بِالْيَمِينِ؟ أَمَا اسْتَمْسَكَ مِنْ وَعْدِهِ بِالْحَبْلِ الْمَتِينِ؟ أَمَا سَرَّهُ بِالْمُلْكِ؟ أَمَا مَلَكَهُ السَّرِيرَ؟ أَمَا أَكْثَرَ لَهُ الْعَطَاءُ؟ أَمَا أَعْطَاهُ الْكَثِيرَ؟ أَمَا اسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ؟ أَمَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ؟ أَمَا تَرَكَ يَدَهُ فِي يَدِهِ؟ أَمَا حَبَاهُ بِصَلْتِهِ فَوَاصَلَهُ بِحَبِيبَتِهِ؟ أَمَا سَارَ فِي طَلْبِهِ فَسَيَّرَ إِلَيْهِ مَطْلُوبَهُ؟ وَبِمَنْ يَتَّقُ الْإِنْسَانَ فِيمَا يَنْبُوهُ؟ وَإِذَا كَانَ هَذَا الْمَلِكُ الْأَكْرَمُ مِنَ الْمُلُوكِ الْأَكْرَامِ مُجْتَرِئًا عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَجْرَائِمِ، وَمُسْتَصْغِرًا لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْعِظَائِمِ، فَقَدْ عَزَّ الْعِزَاءُ وَخَابَ الرَّجَاءُ، وَجَلَّ الْمَصَابُ وَعَظَّمُ الْبَلَاءُ بِمَا لَاعَنَهُ بِاللُّومِ مِنْهُ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنَّكَ أَخْطَأْتَ وَزَعَمْتَ أَنَّكَ أَصَبْتَ وَمَا تَتَّقُ بِكَ فَنَبَيْتُ إِلَيْكَ وَإِنْ وَثَقْنَا فَإِنَّكَ بِالْيَمِينِ الَّتِي خَلَفْتَ لَهُ بِهَا تَحْلِفُ، وَلِمِثْلِ الْوَعْدِ الَّذِي أَخْلَفْتَهُ مَعَهُ تُخْلِفُ، فَلَيْسَ لَنَا بِكَ إِلْمَامٌ، وَلَا لَنَا مَعَكَ كَلَامٌ، وَلِمَ مَا رَدَعَكَ الْعَقْلُ؟ وَهَلَا اسْتَشْرَتْنَا قَبْلَ؟ وَكَيْفَ تَهَجَمْتَ وَمَا تَهَجَمْتَ، وَلَوْ تَأَيَّبْتَ لَتَأَيَّبْتَ، وَلَوْ تَهَدَيْتَ لَتَهَدَّأْتَ، وَلَوْ أَتَبْتَ لَتَتَبْتَ، وَالْإِيمَانُ قَيْدُ الْفِتْكَتِ، وَالْإِحْسَانُ سَيْدُ الْمُلْكِ.

ذَكَرَ مَا جَرَى لِلْسُلْطَانِ سَلِيمَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ وَجُلُوسِهِ عَلَى سَرِيرِ السُّلْطَنَةِ

لَمَّا خَرَجَ مِنْ مَحْسِيهِ بِقِزْوِينَ، وَوَجَدَ التَّمَكُّنَ وَالتَّمَكِينَ، خَرَجَ بِهِ مَظْفَرُ الدِّينِ أَرْغُو بَنْ يَرِنَقْشَ الْبَاذِدَارِ إِلَى زَنْجَانَ وَكَاتَبَ فِيهِ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ الْإِبْدَكْزَ وَنُصْرَةَ الدِّينِ صَاحِبَ مِرَاعَةٍ، وَهُمَا فِي أَمْرِهِ مُتَرَوِّيَانِ فَلَمَّا تَفَرَّأَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَتَذَمَّمَا وَتَذَمَّرَا وَكَرَّهَا سُلْطَنَتَهُ وَتَأَسَّدَا وَتَمَمَّرَا سَارَا بِعَسَاكِرِهِمَا إِلَى سَلِيمَانَ بْنِ زَنْجَانَ وَحَمَلَاهُ إِلَى دَارِ الْمَلِكِ بِهَمْدَانَ، وَأَجْفَلَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ هَارِبًا فِي شَرْدُمَةِ سَيْرَةِ إِلَى أَصْفَهَانَ، وَاسْتَقَرَّ سَلِيمَانُ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ، وَحَشَرَ لَهُ جُنُودَهُ وَأَوْرَقَ عَوْدَهُ، وَأَنَسَ شَرُودَهُ وَنَجَزَتْ وَعُودَهُ، وَنَجَحَتْ قُصُودُهُ وَقُضِلَ أَمْسُهُ يَوْمَهُ، وَقُضِلَ عَلَى غَيْرِهِ قَوْمُهُ، وَعَلَا فِي السَّمُومِ سُمُومُهُ، وَحَلَا لِلْهَيْدُوِّ وَالْهَيْدَى نَوْمُهُ، وَكَانَ مَعَهُ بِيَالِكَيْنِ خَوَارِزْمِشَاهِ يَوْسُفُ بْنُ خَوَارِزْمِشَاهِ وَأَخْتُهُمَا زَوْجَةُ السُّلْطَانِ سَلِيمَانَ، وَهِيَ لِأَمْرِهِ مُتَوَلِّيَةٌ، وَعَلَيْهِ مُسْتَعْلِيَةٌ مُسْتَوَلِيَةٌ، وَكَانَ هَذَا السُّلْطَانُ زَيْرًا شَرِيبًا خَمِيرًا إِذَا سَكَرَ وَقَعَ صَرِيحًا وَنَامَ أَسْبُوعًا، كُلَّمَا رَفَعَ رَأْسَهُ لِإِفْرَافِ الْعُقَارِ ثُمَّ لَاتَ خِمَارَ الْخُمَارِ، وَعَادَ إِلَى الْإِعْمَاءِ وَالْإِعْمَاضِ، وَأَسْلَمَ مُبْرَمٌ أَمْرِهِ إِلَى الْإِنْتِقَاضِ، وَكَانَ يُقَلَى لِكُونِهِ لَا يُقَلَى، وَيَشَقُّ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ

لَا يُسْعَدُونَ بِهِ وَهُوَ يَشْقَى، وَإِذَا كَلَّمَهُ لَا يَفْهَمُ، وَإِذَا أَفْهَمَ لَا يَتَكَلَّمُ، لَا يَصْحَبُ غَيْرَ مَعَارِفِهِ وَلَا يَعْرِفُ غَيْرَ أَصْحَابِهِ، وَلَا أَرْبَ لَهُ إِلَّا فِي شَهْوَتِهِ وَلَا يَشْتَهِي سِوَى سَوْءِ أَرْبِهِ، وَكَذَلِكَ وَزِيرُهُ فَخْرُ الدِّينِ أَبُو طَاهِرٍ بِنِ الْوَزِيرِ الْمُعْتَمِدِ أَبِي نَصْرِ أَحْمَدَ بِنِ الْفَضْلِ بِنِ مَحْمُودِ الْقَاشَانِيِّ لَا يَصْحُو سَاعَةً، وَلَا يَمْحُو عَنْهُ شِنَاعَةٌ، وَلَا يُفَيْقُ غَدَاةً، وَلَا يَلْبِثُ دَوَاةً، وَلَا تَبْسُطُهُ إِلَّا لِلرَّاحِ رَاحًا، وَلَا يَسْجُدُ إِلَّا بِالصُّبْحِ صَبَاحًا، وَلَا يُسَلِّفُ إِلَّا فِي سُلَافٍ، وَلَا حَارَفَ إِلَّا ذَوِي انْحِرَافٍ، وَلَا يَقْرَعُ كَيْسَهُ إِلَّا لِشِعْلِ الْكَاسِ، وَلَا يَقْتَدِحُ زِنَادَ الْقَدْحِ إِلَّا لِجَلَاءِ سِرِّ الْجُلَاسِ، وَلَا يَرَى عَرَجَةً إِلَّا عَلَى عَرَجَةٍ، وَكَمْ بَاعَ رَكْعَةً بِكَرْعَةٍ، وَرَامَ رَضْعَةً فِي ضَرْعَةٍ، وَاسْتَجَلَى طَلْعَةً، وَاسْتَحَلَى لَطْعَةً، وَاسْتَطَابَ ضَرْعًا لِرَضْعَةٍ، وَحَكَّمَ قَرْعَةً فِي رَقْعَةٍ، وَأَمَّلَ رَجْعَةً مِنْ هَجْعَةٍ، وَدَاوَى ضَجْرَةً بِضَجْعَةٍ، وَاسْتَعْرَضَ سَاعَةً فِي مُتْعَةٍ لِرُقِيَةِ لَسْعَةٍ، وَهُوَ أَشْبَهُ بِسُلْطَانِهِ، وَكِلَاهُمَا الْيَقِينُ بِزَمَانِهِ، وَأَعْلَقَ بِهَوَاهُ وَهَوَانِهِ، وَأَشْهَى لِسَمِّ السَّمْعَةِ، وَأَشْهَدَ لِشَيْنِ النِّشْعَةِ، وَهُوَ يَدِينُ الدَّنَّ وَلَا يَسَاءُ الشَّنَّ، وَكَمْ شَانَ شَانَهُ أَنَّهُ مَا أَيْ رَيْقَ الْأَبَارِقِ، وَعَنْ لِهَوَاهُ عَقْلُهُ بَرَأِي الرَّاووقِ، وَتَبَذَّ النَّبِيذَ حِجَابَ حِجَاهِ، وَقَطَعَ بِوَصْلِ سَقِي السَّقَاةِ نَهْيَ نُهَاهِ، وَكَانَ هَذَا الْوَزِيرُ مُحَافِظًا عَلَى السُّكْرِ جَاحِظًا الْعَيْنِ لِإِدْمَانِ الْخَمْرِ، حَتَّى قِيلَ فِيهِ: [مُخْلَعُ الْبَسِيطِ]

جُحُوْظٌ عَيْنِ الْوَزِيرِ عِنْدِي أَقْوَى ذَلِيلٍ عَلَى زَوَالِهِ  
فَصَحِرَ الْأَمْرَاءُ الْأَكْبَرُ مِنَ الْمَقَامِ، وَشَرَعُوا فِي الْإِنْفِصَامِ وَالْإِنْقِصَامِ، وَعَادَ شَمْسُ الدِّينِ ائِلِدَكَزْ إِلَى أَذْرَبِيْجَانَ لِقَصْدِ أَرَانِيَّةٍ وَاتِّزَاعِهَا مِنْ يَدِ رَوَادِي ابْنِ عَمِّ بَلَنْكِرِيِّ، وَعَزَمَ نَصْرَةَ الدِّينِ بَنُ أَقْسَنْقَرِ إِلَى الْعَوْدِ إِلَى وَلايَتِهِ مُسَلِّمًا خُلْفَ الْخُلْفِ وَالْخِلَافِ إِلَى الْمُمْتَرِيِّ، وَسَيِّمَ مَن سَامَ السُّمُوًّا فَبَقِيَ سِلْعَتُهُ فِي يَدِ الْمُشْتَرِيِّ، وَقَالَ نَحْسُ زَحَلٍ عَلَيْهِ سَعْدُ الْمُشْتَرِيِّ، وَمَنْ أَشْفَاهُ اللَّهُ لَا يَسْعَدُ، وَمَنْ أَهْبَطَهُ لَا يَصْعَدُ، وَمَنْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ لَا يُفْلِحُ، وَمَنْ خَيَّبَ أَمَلَهُ لَا يَنْجِحُ، وَالشُّوْهَاءُ تَغْلُو فِي الْخَطِيئَةِ وَإِنْ رَخِصَ الْمَهْرُ، وَلَا يُصْلِحُ الْعَطَارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ، وَقَدْ آتَيْنَا بِمَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ إِبْجَالِيهِ فِي سُرَادِقِهِ، وَإِسْجَالِ وَثَائِقِهِ، وَإِجْرَاءِ سَوَابِقِهِ، وَإِرْجَاءِ عَوَائِقِهِ، وَمُعَارِضَةِ مُضَارِعِهِ، وَمُصَارَعَةِ مُعَارِضِهِ، وَمُقَارَعَةِ مُنَازِعِهِ، وَمُنَازَعَةِ مُقَارِعِهِ، وَإِخْلَاءِ مِيدَانِهِ، وَإِعْلَاءِ دِيوَانِهِ، وَمَا عَلَيْنَا الْآنَ إِذَا لَمْ يُسْعِدِ اللَّهُ جَدَّهُ وَكَمْ يُجِدُّ سَعْدَهُ، وَكَمْ يُرْشِدُ مُرَادَهُ وَكَمْ يُرِدُ رُشْدَهُ، فَلَمَّا رَحَلْتُ مَعَ ائِلِدَكَزْ عِنْدَ عَسَاكِرِ أَرَانِيَّةٍ وَأَذْرَبِيْجَانَ وَبَقِيَ فِي الْبَاقِيْنَ مِنَ الْأَمْرَاءِ بِهَمْذَانَ قَرَرُوا مَعَ أَنْابِكَ نُصْرَةَ الدِّينِ أَرْسِلَانُ بَنُ أَقْسَنْقَرِ أَنْ انْتَقَلُوا إِلَى مَرْجِ قَرَاتِكَيْنِ، وَخَلُّوا

السلطان بِقَصْرِ هَمْدَانَ مَعَ خَوَاصِّهِ وَالْمُقَرَّبِينَ، وَأَجْمَعَتِ أَرَاؤُهُمْ عَلَى قَبْضِ الْوَزِيرِ وَأَرَادُوا اتِّبَاعَ ذَلِكَ بِقَبْضِ خَوَارِزْمِشَاهِ بِيَالِكَيْنِ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ أُخْتُ خَوَارِزْمِشَاهِ زَوْجَتُهُ وَقَالَتْ لَهُ إِنْ لَمْ تَأْخُذْ لِنَفْسِكَ أُخِذَتْ نَفْسُكَ وَطَالَ حَبْسُكَ، وَمَضَى غَدَا يَوْمِكَ وَرَجَعَ فِي التَّضْيِيقِ عَلَيْكَ أَمْسُكَ، فَهَرَبَ لَيْلًا مَعَهَا وَمَعَ أَحْوَبِيهَا وَتَرَكَ خَاتُونَ الْأَبْخَازِيَّةَ فِي سَرَادِقِهِ وَقَدِ بَنَى عَلَيْهَا وَأَصْبَحَ الْأَمْرَاءُ وَقَدِ فَقَدُوهُ وَتَشَدُّوهُ وَمَا وَجَدُوهُ، وَمَا عَلِمُوا لِأَيِّ دَارٍ دَارَ، وَلَا فِي أَيِّ غَارٍ غَارَ، وَهَلْ أَنْجَدَ أَمَّ غَارَ، وَلَا أَيِّ سِرٍّ سَرَى وَسَارَ، وَهَلْ رَأَيْتُ فِي الرَّيِّ أُمَّ لِلزُّورَاءِ زَارَ، فَتَوَلَّتِ الْعَسَاكِرُ إِلَى وَلَايَاتِهَا، وَغَابَتْ تِلْكَ الْأَسْوَدُ إِلَى غَابَاتِهَا.

ذَكَرَ رَجُوعَ السُّلْطَانَ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكِشَاهِ إِلَى مَقَرِ مَلِكِهِ بِهِمْدَانَ بَعْدَ غِيَابَةِ السُّلْطَانَ سُلَيْمَانَ

لَمَّا وَصَلَ السُّلْطَانَ مُحَمَّدٌ إِلَى أَصْفَهَانَ مُنْحَازًا عَنْ عَمِّهِ سُلَيْمَانَ كَاتَبَ الْجَوَانِبَ وَقَارَبَ الْأَجَانِبَ، وَرَقَبَ الْخَصْمُ النَّوَابِثَ، وَأَتَّصَلَ بِهِ الْأَمِيرُ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبُ الرَّيِّ، فَقَوِيَتْ يَدُهُ وَتَأَيَّدَتْ قُوَّتُهُ، وَتَمَكَّنَتْ عِزَّتُهُ، وَتَعَزَّزَتْ مَكْنَتُهُ، وَعَرَفَ أَنَّ الْعَسَاكِرَ الْعَرَبِيَّةَ لَا تُقِيمُ مَعَ عَمِّهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا انْفَصَلُوا عَنْهُ كَانَ عَزْمُهُ مَلِيًّا بِهِزْمِهِ، فَوَصَلَتْهُ الْبُشْرَى بِأَنَّ عَمَّهُ عَامٌ فِي بَحْرِ اللَّيْلِ سَابِحًا، وَسَارَ لِعَرْضِ الْفَلَاحِ بِالْإِفْلَاتِ مَاسِحًا، وَأَنَّ هَذَا سُلَيْمَانَ وَإِنْ لَمْ يَزَلْ جَسَدًا مُلْقَى عَلَى كُرْسِيِّهِ لِسُكْرِهِ، قَدْ ضَلَّ خَاتَمَ مُلْكِهِ لِمَا عَرَفَ مِنْ نُكْرِهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا وَارِثٌ وَإِنَّ اللَّهَ لِمَنْ يَكُونُ إِصْلَاحُ الْخَلْقِ بِمُلْكِهِ بَاعِثٌ، فَسَرَّ بِمَا وَعَى وَسَارَ، وَسَعَى وَتَلَقَّاهُ أَمْرَاءُ الدَّوْلَةِ مُهْتَشِينَ، وَلِحَدِّ حُدِّهِ مُهْتَشِينَ، وَعَادَ إِلَى قَصْرِهِ، وَعَادَهُ نَصْرُهُ، وَنَفَاذُ أَمْرِهِ، وَنِظَامُ أَمْرِهِ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

ذَكَرَ مَا اعْتَمَدَهُ الْإِمَامُ الْمُقْتَضِي لِأَمْرِ اللَّهِ بِبَغْدَادٍ بَعْدَ مَوْتِ السُّلْطَانَ مَسْعُودٍ

كَانَتْ السُّدَّةُ الشَّرِيفَةُ الْإِمَامِيَّةُ مُنِيَّتَ بَجُورِ الْأَعَاجِمِ، وَلَمْ يَزَلْ عُودُهَا مِنْ عُدْوَانِهِمْ تَحْتَ سِنِّ الْعَاجِمِ، فَكَانَ أَهْوَنُ مَا عِنْدَهُمْ خِلَافَ الْخَلِيفَةِ وَعِنَادَهُ، وَتَمَرَّدُهُمْ عَلَيْهِ بِأَن يَحْصَلَ مُرَادُهُمْ لِمُرَادِهِ، وَلَمْ تَزَلْ بَغْدَادُ مَظْلَمَةً مَشْحُونَةً مِنْهُمْ بِالشُّحْنِ الظُّلْمَةِ، مَرْجُومَةً بِأَحْجَارِ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ وَالْوُجُوهِ الْمُجْرِمَةِ، وَلَهُمْ مَطَالِبٌ مِنَ الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ لَا يَفِي بِهَا خَوَاصُّهُ، وَمَغَارِمٌ تَلَحُّقُهَا مِنْهُمْ يَتَعَسَّرُ مِنْهَا خِلَاصُهُ، وَالْحَرَمُ مِنْ جُنَايَاتِهِمْ خَائِفٌ، وَالشَّرَفُ لِمَهَابَاتِهِمْ

عائف، وَالرَّعِيَّةُ مَرْوَعَةٌ، وَالسَّعَابِيَّةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالْخَيْرَاتُ مَمْنُوعَةٌ، وَالسَّبِيلُ مَقْطُوعَةٌ، وَالْهَيْبَةُ مَرْفُوعَةٌ، وَالْخَيْبَةُ بِالذَّلِّ مَشْفُوعَةٌ، فَلَا الدِّينَ يُزَعُّهُمْ، وَلَا الْعَقْلُ يَرُدُّهُمْ، وَلَا الْحَيَاءُ يَمْنَعُهُمْ، وَلَا الْقَلِيلُ يُقْنَعُهُمْ، وَلَا الْكَثِيرُ يُشْبِعُهُمْ، وَشَرِيعَةُ الشَّرِيعَةِ مُكَدَّرَةٌ، وَالِدَمَاءُ وَالْفُرُوجُ مُسْتَبَاحَةٌ مُهْدَرَةٌ، وَالْمَحَارِمُ مُسْتَحَلَّةٌ، وَالْمَرَاجِمُ مُسْتَرَلَّةٌ، وَالْحُرْمَاتُ مَهْتُوكَةٌ، وَالْمَكْرُمَاتُ مَنَهُوكَةٌ، وَالْأَقَاوِيلُ مَأْنُوكَةٌ، وَالْأَبَاطِيلُ مَسْلُوكَةٌ، وَالْمَسَالِكُ بَاطِلَةٌ، وَالْمَمَالِكُ عَاطِلَةٌ، وَعَرْشُ الشَّرْعِ قَدْ ثُلَّ، وَعَقْدُ الْعَقْلِ قَدْ حُلَّ، وَدَيْنُ الدِّينِ قَدْ لُوِيَ، وَيَسَاطُ الْبَاطِلِ قَدْ طُوِيَ، وَحَقُّ الْمُحِقِّ قَدْ مُحِقَّ، وَمَطْلَبُ الْمُبْطِلِ قَدْ حَقَّقَ، وَرَهْنُ الْوَهْنِ قَدْ غَلِقَ، وَطَارِقُ الْأَذَى قَدْ طَرَقَ، وَرَيْقُ الْبَغْيِ قَدْ فَتِقَ، وَعِرْقُ الْعِرَاقِ قَدْ عَرِقَ، وَحِجَابُ الْحِجْبِيِّ قَدْ خَرِقَ، وَقَدْ اتَّسَعَ الْخَرِقُ وَاتَّسَقَ الْخَرِقُ، وَفَاقَ الظُّلْمُ وَأَظْلَمَ الْأَفْقُ، وَسَكَنُوا بَغْدَادَ لِلْإِزْعَاجِ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى الْاِعْوَجَاجِ، وَاعْتَادُوا الْاِعْتِدَاءَ، وَرَامُوا الرِّمَاءَ، وَدَانُوا بِالْأَسْوَاءِ لِلْإِضْمَاءِ وَالْإِشْوَاءِ، فَأَمَامَ الْإِمَامِ مِنْ جَمْعِ الْعَجَمِ لَيْلُ اللَّيْلِ، وَدَاءُ الدِّيَانِ الْعَزِيزِ بِتَعْزِيزِهِمْ أَعْضُ وَأَعْضَلُ، وَقَدْ جَاوَزَ حَدَّ الْعَدِّ فِي الْعَدْوَى تَحَكَّمَهُمْ وَتَهَكَّمَهُمْ وَتَحَمَّقَهُمْ وَتَفَحَّمَهُمْ وَتَمَلَّكَهُمْ وَتَكَلَّمَهُمْ وَتَحَرَّفَهُمْ وَتَحَرَّمَهُمْ وَتَحْرَبَهُمْ وَتَحْرَبَهُمْ وَتَبَرَّوْهُمْ وَتَبَرَّمَهُمْ، وَتَضَاعَفَ الْعَنْفُ وَعِنْفُ الضَّعْفِ، وَفَرَّقَ الرِّفْقُ وَقَلَّقَ الْخَلْقُ، وَمَدِينَةُ السَّلَامِ قَدْ أُسْلِمَتْ إِلَى الْمُدَى، وَعَدَا بِهَا الْعِدَى، وَهُدًى فِيهَا الْهُدَى، فَالْبِضَاعَاتُ مَمْكُوسَةٌ، وَالصَّنَاعَاتُ مَوْكُوسَةٌ، وَالْمَنَازِلُ مَكْبُوسَةٌ، وَالنَّوَازِلُ مَلْبُوسَةٌ، وَالْعُقُولُ مَأْنُوقَةٌ وَالْعُقُلُ مَأْلُوقَةٌ، وَالضَّرَائِبُ مَضْرُوبَةٌ، وَالْمَصَائِبُ مُصْوبَةٌ، وَالشَّوَابِثُ مَشْبُوبَةٌ، وَالْمَشَارِبُ مَشُوبَةٌ، وَالْخُطُوبُ مَخْطُوبَةٌ، وَالْمَعْصُومُ مَعْصُوبٌ، وَالْمَحْرُومُ مَحْرُوبٌ، وَالسَّائِلُ مَرْدُودٌ، وَالنَّائِلُ مَرْدُودٌ مَصْدُودٌ، وَالغَنِيُّ مُصَادَرٌ، وَالْبَرِيُّ مُصَدُورٌ، وَالْفَاجِرُ مُعَاشَرٌ، وَالنَّاجِرُ مَعْشُورٌ، وَالْفَرِيُّ مَنَهُوبَةٌ، وَالذَّرِيُّ مَنَحُوبَةٌ، وَالْعَرِيُّ مَفْصُومَةٌ، وَالْبَرِيُّ مَفْصُومَةٌ، وَالْأَفْوَاهُ فَاعِزَّةٌ وَالْأَمْوَالُ غَائِرَةٌ، وَكَمْ حَتْفٌ مَدَّ عَيْنَ الطَّمَعِ مِنْ مُدَّعِينَ لِلتَّقْوَى، وَعِيفٌ مَعَ مَعِينِ الْوَرَى مِنْ مُجْمَعِينَ عَلَى الْعَدْوَى، وَكَمْ عَمَرَتْ خَرَابَاتُ الْفَجْرَةِ، وَخَرِبَتْ عِمَارَاتُ الْبَرَّةِ، وَمُنِيَّتْ بَغْدَادُ مِنْ أَهْلِ الْفَجْورِ بِالْفِ جَوْرِ وَدَوَائِرُ مَا تَدُورُ فِي مِثَّةِ دُورِ، وَالْخَلِيفَةُ يُعْضِي وَيَغْضِبُ، وَيَعْتَبُ وَلَا يُعْتَبُ، وَيَأْمُرُ وَلَا يُؤْتَمَرُ، وَيَعْفُو عَنْهُمْ عَلَى مَا لَا يُعْتَفَرُ، وَهُوَ يُظْلَمُ وَيَحْكَمُ وَيُكْرَبُ فَيُكْرَمُ، وَيُقَدَّرُ عَلَيْهِ وَلَا يَقْدَرُ، وَيُعَدَّرُ بِهِ وَهُوَ عَلَى الْعَهْدِ لَا يُعَدَّرُ، فَلَمَّا تَوَفَّى السَّلْطَانَ مَسْعُودًا قَالَ: لَا صَبْرَ عَلَى الضَّمِيمِ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَا قِوَامَ مَعَ هَوْلِ هَوْلِ الْقَوْمِ، وَلَا ذُلَّ مَعَ الْعِزِّ، وَلَا غَايَةَ لِمَعْرَبِي الْعِزِّ، وَأَزْرَهُ وَزِيرُهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ عَوْنُ الدِّينِ وَأَعَانَهُ وَنَبَتْ جَنَانَهُ.

وَكَانَ مَسْعُودُ الْبِلَالِيِّ الْخَادِمُ وَالْيَ بَغْدَادَ فَقَامَتْ عَلَيْهِ الْقِيَامَةُ، وَتَعَدَّرَتْ عَلَيْهِ الْإِقَامَةَ، فَرَحَلَ إِلَى الْحِلَّةِ، وَمَضَى مُتَحَمِّلاً فِي تَدْبِيرِ الْأُمُورِ الْمُضْمَحَلَّةِ، وَأَقَامَ يَحْشُرُ وَيَحْشُدُ وَيَطْوِي وَيَنْشُرُ، وَكَانَ بِالْحِلَّةِ السَّلَاةُ الْكُرْدِيَّةُ مِنْ أَكْبَرِ أُمَرَاءِ السُّلْطَانِ فَلَمْ يَكْتَرِثْ بِالْخَادِمِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ، وَقَصَدَهُ لِيُسَلِّمَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ الْخَادِمُ وَقَتَلَهُ وَعَرَفَهُ بِالْفِرَاتِ، وَجَمَعَ الْعَسَاكِرَ وَأَقَطَعَ تِلْكَ الْوِلَايَاتِ، وَفَرَّقَ عَلَى فَرِيقِهِ الْإِقْطَاعَاتِ، فَسَارَ إِلَيْهِ الْوَزِيرُ ابْنُ هُبَيْرَةَ وَلَقِيَهُ وَأَوْلَاهُ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَى الْحَبِيرَةِ الْحَبِيرَةَ وَهَزَمَ صَفَّةً وَهَمَزَ حَرْفَهُ، وَلَفَّقَ بِرِمْحِهِ بَيْنَ الْأَلْفِ وَاللَّامِ وَلَفَّ أَلْفَهُ، فَانْفَصَلَ عَلَى غَلْتِهِ الْبِلَالِيُّ بِلَا بِلَالٍ، وَأَتَّصَلَ مِنَ الْإِحْنِ وَالْمِحْنِ بِعِلَّتِهِ وَبِلَا بَالٍ بِأَلَهُ بِلَا إِبْلَالٍ، وَلَحَقَ بِهِمْذَانُ مُسْتَصْرِحاً، وَغَدَا عِقدُ جَمِيعِهِ مُنْفِيسِخاً، وَعَهْدُ عِزِّهِ مُتَمَسِّخاً، وَثُوبُ عِزِّهِ مُتَوَسِّخاً، وَاعْتِقَادُ إِدْبَارِهِ فِي الْقُلُوبِ مُتَرَسِّخاً، وَمَلِكُ الْخَلِيفَةِ الْعِرَاقِ مِنْ أَقْصَى الْكُوفَةِ إِلَى حُلُوانَ، وَمِنْ حَدِّ تَكْرِيتٍ إِلَى عِبَادَانَ، وَأَقَطَعَ وَاسِطاً وَأَعْمَالَهَا وَبَطَانَتِهَا وَمَدَائِنَهَا وَمَزَارَاتِهَا، وَالْبَصْرَةَ وَأَنْهَارَهَا وَجَزَائِرَهَا وَمَعَاقِلَهَا وَوِلَايَاتِهَا، وَالْحِلَّةَ وَالْكَوفَةَ وَالنَّيْلَ وَالنُّعْمَانِيَّةَ وَقُوسَانَ وَنَهْرَ الْمَلِكِ وَنَهْرَ عَيْسَى<sup>(1)</sup> وَدُجَيْلَ وَالرَّاذَانَ<sup>(2)</sup> وَطَرِيقَ خُرَاسَانَ إِلَى نَوَاحِي حُلُوانَ وَسَائِرِ تِلْكَ الْبِلَادِ وَالْقَرَايَا وَاللَّحْفَ<sup>(3)</sup> وَالْبَنْدِنِجِينَ<sup>(4)</sup> وَبَادِرَايَا<sup>(5)</sup> وَبَاكْسَايَا<sup>(6)</sup> وَهَيْتَ وَالْأَنْبَارَ وَعَيْنَ التَّمْرِ وَشَفَاثَا، وَأَقَطَعَ الْوَزِيرُ عَوْنَ الدِّينِ بِنِ هُبَيْرَةَ جَمِيعَ مَا كَانَ لُوْزِيرِ السُّلْطَانِ وَأَرْبَابِ مَنَاصِبِهِ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَعَانَهُ فِي الْاسْتِعْدَادِ وَإِضْعَافِ الْأَعْدَاءِ بِتَضْعِيفِ الْأَعْدَادِ، وَتَعَتَّهُ بِتَاجِ الْمُلُوكِ فَلِكِ الْجِيُوشِ، وَأَثَّلَ عَرِشَهُ لِيَقِلَّ الْعَرْشُ.

وَكَانَ الْإِمَامُ لَمَّا اسْتُخْلِفَ اسْتُحْلِفَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَشْتَرِي مَمْلُوكاً تَرْكِيّاً، فَكَانَ يَقْتَنِي مُدَّةَ خِلَافَتِهِ أَرْمِينِيّاً وَرُومِيّاً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْأَتْرَاكِ إِلَّا تَرْشُكُ، مَلِكُهُ قَبْلَ الْإِمَامَةِ فَوَلَاهُ الْإِمَارَةَ

(1) نهر عيسى: قال ياقوت الحموي: بلدة وكورة وقرى كثيرة في غربي بغداد تعرف بهذا الاسم، تنسب إلى عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس، ومأخذه من الفرات عند قنطرة ديمًا ثم يمر فيسقي طسوج فيروز سابور حتى ينتهي إلى المحول ثم تتفرع منه أنهار تخرق مدينة السلام ويمر بقناطر عديدة حتى يصب في دجلة عند قصر عيسى.

(2) الراذان: قال ياقوت الحموي: هما الراذان الأسفل والراذان الأعلى، كورتان بسواد بغداد، تشتمل على فرى كثيرة.

(3) اللحف: قال ياقوت الحموي: هو صقع معروف من نواحي بغداد سمي بذلك لأنه في لحف جبال همدان ونيهاوند وتلك النواحي، وهو دوتها بما يلي العراق ومنه البندنيجين وغيرها وفيه عدة قلاع حصينة.

(4) البندنيجين: اسم مدينة منبلي الحالية.

(5) بادرايا: اسم مدينة بدرة الحالية.

(6) باكسايا: قال ياقوت الحموي: بلدة قرب البندنيجين وبادرايا، بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي في أقصى النهران.

على الأُمراء، واختَصَّ من مَماليكِهِ الرومِ والأرمنِ عِدَّةً مِنَ النُّجَبَاءِ سَمَّاهُمُ الْخَيْلِيَّةَ، وَوَلَاهُمُ الرُّتَبَ الْعَلِيَّةَ.

وَأَحْكَمَ أَسْوَارَ بَغدَادَ وَحَفَرَ خَنْدَقَهَا وَرَتَّبَ الْوَلَاةَ فِي الْوِلَايَاتِ، فَأَمَّنَ طُرُقَهَا وَبَثَّ الْعِيُونَ وَأَصْحَابَ الْأَخْبَارِ، وَبَعَثَ الْجَوَاسِيسَ إِلَى جَمِيعِ الْأَمْصَارِ، وَأَخْرَجَ الْمَالَ وَلَمْ يَمَلِّ الْخُرْجَ، وَأَجْرَى الْخَيْلَ وَلَمْ يَضَعْ عَنْهَا السَّرَجَ، كُلُّ ذَلِكَ بَعَوْنَ عَوْنِ الدِّينِ وَتَدْبِيرِهِ، وَتَقْدِيمِهِ الْأَمْرَ الْبَعِيدَ وَتَقْرِيرِهِ، وَاسْتَعْلَلَ السُّلَاطِينَ بِبَعْضِ تِلْكَ السَّنِينِ، وَأَعْطَى اللَّهَ خَلِيفَتَهُ التَّائِيْدَ وَالتَّمَكِينَ، وَقَوِيَّ وَوَرِيَّ وَحَظِيَّ وَرَضِيَّ وَعَنَى وَغَنَى وَحَبَا وَحَبَّ وَحُبِّيَّ وَرَجَا وَخُشِيَّ، وَخَفَّ لَهُ مَا ثَقُلَ وَبَدَأَ لَهُ مَا خَفِيَ، وَأَجَابَ لِمَا دُعِيَ، وَكَفَأَ وَكَفَى وَشَفَا وَشَفِيَّ، وَحَقَّقَ نَعْتَهُ فِي الْاِقْتِفَاءِ لِأَمْرِ اللَّهِ بِالْحَقِّ فَاقْتَفَيْ، وَمَا وَالَاهُ إِلَّا مِنْ وَلِيٍّ، وَمَا عَادَاهُ إِلَّا مَنْ حَزِيَّ.

وَكَانَ الْخَلِيفَةُ قَدْ سَيَّرَ قَطَبَ الدِّينِ الْعِبَادِي فِي سَنَةِ سِتِّ أَوْ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ رَسُولًا إِلَى الْمَلِكِ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمُودِ بَخُوزِسْتَانَ، فَتُوْفِيَ هُنَاكَ وَخُتِمَتْ بِهِ الْفِصَاحَةُ الْوَعِظِيَّةُ، وَأَظْلَمَتْ مَطَالِعُ الْعِلْمِ الْمُضِيَّةِ.

وَلَمَّا عَادَ السُّلْطَانُ بَعْدَ هَرَبِ عَمِّهِ السُّلْطَانِ سَلِيمَانَ إِلَى هَمْدَانَ، وَدَرَّ مَلِكُهُ وَدَارَ فَلَكُهُ وَجَرَى فُلْكُهُ، رَاسَلَ الْخَلِيفَةَ وَخَاطَبَهُ فِي الْخُطْبَةِ فَمَا أَجَابَهُ، وَتَجَتَّى عَلَيْهِ بِقَتْلِ ابْنِ بَلَنْكِرِي وَعَابَهُ، وَأَيْسَهُ مِنْ مُلْكِ بَغدَادَ وَخَيَّبَ رَجَاءَهُ، وَمَنْ قَصَدَهُ فَمَا أَنْجَاهُ إِنْ جَاءَهُ، فَحَيْثُ اجْتَمَعَ عِنْدَ السُّلْطَانِ الْأَمْرَاءُ الَّذِينَ حُلَّتْ إِقْطَاعَاتُهُمْ بِبَغدَادَ وَأَقْطَعَتْ مَحَلُّو لَأْتَهُمْ، وَمَنْ مُلِكَتْ وَلايَتُهُ وَوُلِّيتْ مَمْلَكَتَهُ، وَمَنْ حِيَزَتْ ضَيْعَتَهُ وَضُبِّعَتْ حِيَازَتُهُ، وَمَنْ عُيِّبَتْ عَنْهُ نَاحِيَتُهُ وَأَشْغَلَتْ دُونَهُ غَلَّتَهُ، وَالتَّقَشُّ كَوْنُخِرِ صَاحِبِ اللَّخْفِ، وَهُوَ مُسْرِفٌ فِي السُّخْفِ وَالْخُسْفِ، وَمَسْعُودُ الْبِلَالِيِّ وَهُوَ صَاحِبُ الْمَصَابِ، وَمُتَجَرِّعُ الصَّابِ وَشَاكِي الْأَوْصَابِ، وَكُلُّ مَنْ ذَاقَ بِبَغدَادَ عُسَيْلَةَ، وَغَرَسَ نُخَيْلَةَ، أَوْ زَرَعَ عُغْلِيَةَ، فَقَالُوا أَرْزَاقَنَا قَدْ قُطِعَتْ وَأَعْرَاقُنَا قَدْ قُلِعَتْ، وَأَعْلَاقُنَا قَدْ حُوِيَتْ، وَخُفُوقُنَا قَدْ زُوِيَتْ، وَوَدَائِعُنَا بِالْعِرَاقِ قَدْ اسْتُخْرِجَتْ، وَدَسَائِعُنَا قَدْ أُرْعِجَتْ وَهَجِمَتْ، وَدُورُنَا قَدْ أَنْزَلَتْ، وَوُلَاثُنَا قَدْ عَزَلَتْ، وَأَعَزَّتْنَا قَدْ أَهَيْنَتْ، وَرُمِينَا بِالشُّتَاتِ وَشِينَتْ، وَلا بَدَّ مِنْ مُدَاوَاةِ هَذَا الدَّاءِ قَبْلَ إِعْضَالِهِ، وَتَدَاوُكِهِ قَبْلَ اسْتِفْحَالِهِ، وَمُعَاجَلَتِهِ بِمُعَالَجَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةَ فِي تَيْسِيرِ مُعَاشَرَتِهِ، فَكَانَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ يَرْجِعُ إِلَى عَقْلِ وَدِينِ، وَحُكْمِ رَكِيْنِ، وَرَأْيِ رَزِينِ، فَقَالَ لَا تَعْجَلُوا، فَإِنَّ مُخَالَفَةَ الْخَلِيفَةِ سُومٌ، وَمُوَالِيَةَ مَحْمُودٍ وَمُعَادِيَةَ مَذْمُومٌ، وَأَنَا اسْتَقْبَحُ أَنْ

أَسْتَفْتَحَ سُلْطَنِي بِمُعَادَاتِهِ وَبِنِيَّةِ مُنَاوَأَتِهِ، وَهُوَ مُطَاعُ الْأَمْرِ وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِطَاعَتِهِ، وَكُنَّا يَسْتَخْذِي لَهُ بِضْرَاعَتِهِ، فَإِنَّ الْكُرَيْمَ وَالْجَوَادَ يَجُودُ، وَالْحَلِيمَ يَصْفَحُ، وَالسَّخِيَّ يَمْنَحُ، وَلَا سِلاَفِنَا عَلَى دَارِ الْخِلَافَةِ حَقُوقَ حَقِيْقَةٍ بِأَنْ يَرَعَاهَا الْخَلَائِفُ فِي الْأَخْلَافِ، وَمَوَاتُ مَوَاتِيهَا جَدِيْرٌ مِنْ جَدْوَاهُمْ بِالْإِحْيَاءِ فِي الْإِسْعَادِ وَالْإِسْعَافِ، وَهَذِهِ رُسُلُنَا إِلَيْهِ تَتْرَى، وَالْحُرُّ الْكُرَيْمُ بِالْإِكْرَامِ أُحْرَى، فَلَا تَعْجَلُوا فَتَجْعَلُوهَا فِتْنَةً تَتَأَسَّدُ، وَإِحْنَةً تَتَأَكَّدُ، وَنَارًا تَتَوَقَّدُ، وَنَارًا تَتَمَهَّدُ، وَسَخِيْمَةٌ لَا تُشَلُّ، وَصَغِيْنَةٌ لَا تُفَلُّ، وَصَمَاءٌ لَا تُسْمَعُ، وَذَهِيَاءٌ لَا تُدْفَعُ، فَاصْبِرُوا وَأَفْكَرُوا اللَّيْلَةَ وَأَبْكَرُوا، فَاصْبِحْ أَوْلَئِكَ الصَّحْبُ أَوْلِي صَخْبٍ، وَلَجُوا وَجَاؤُوا فِي جَلِيَّةٍ وَلَجِبٍ، وَعَادُوا إِلَيْهِ لِيُوعِدَهُ، وَمَطَرُوا بِبِرْقِ الْقَوْلِ وَرَعِدَهُ، فَلَمَّا لَمْ يَرَوْا إِلَى أُمَّ الْإِمَامِ شَوْفَهُ وَعَرَفُوا تَطْيِرَهُ مِنَ الْحَرَكَةِ وَخَوْفَهُ قَالُوا لَهُ نَحْنُ نَمْضِي وَتَقْضِي هَذَا الشُّغْلَ، وَنُخَفِّفُ عَنْكَ هَذَا الثَّقْلَ، وَنَلْقَى بِجَمْعِنَا الْجَمْعَ وَنَحْصِدُ بِسِيُوفِنَا الزَّرْعَ، وَنَنْفِي الْهَمَّ، وَنَكْفِي الْمُهَمَّ، وَنَكْفِي الْمُلِيْمَ، وَنَسْتَرِدُّ السُّلْطَنَةَ مِنَ الْخِلَافَةِ، وَنَسْتَجِدُّ الْأَمْنَ فِي الْمُلْكِ الْعَقِيْمِ مِنَ الْمَخَافَةِ، فَقَالَ لَهُمْ كَانَ رَأْيِي مَا ذَكَرْتُمْ، وَعَرَفْتُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَالْآنَ فَافْعَلُوا مَا رَأَيْتُمْوهُ، وَاعْمَلُوا مَا تَوَيْتُمْوهُ، فَوَدَّعُوهُ وَرَكِبُوا، وَجَاءَ إِلَيْهِمْ مِنْ وَاقْفَهُمْ وَذَهَبُوا، وَتَجَمَّعُوا فِي جِحَافِلَ حَافِلَةٍ، وَعَسَاكَرٍ فِي دِلَالِ السُّوَابِغِ رَافِلَةٍ، وَكِنَاثِبِ إِلَّا مِنَ الْفَتِكِ تَائِبَةٍ، وَسَحَابِ لِيذِيْلِ الثَّرَى عَلَى فَلَكَ الثَّرِيَا سَاجِبَةٍ، وَمَضَارِبِ مَوَاضِي، وَقَوَاضِبِ قَوَاضِي، وَنَوَائِبِ نَوَابِ، وَسَوَابِقِ سَوَابِ، وَعَرَمَرِمِ عَارِمِ، وَعَشْمَشِمِ غَاشِمِ، وَسَاقُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمُ التَّرْكَمَانَ بِيُوتِهِمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَأَهَالِيَهُمْ وَحَوَاشِيَهُمْ، وَكَانَتْ قَلْعَةٌ تَكْرِيْتُ قَدْ بَقِيَتْ فِي يَدِ مَسْعُودِ الْبِلَالِيِّ وَبِهَا نَائِبَةٌ أَسْبَهُ، وَحَصْرَهَا الْخَلِيْفَةُ مِرَارًا فَتَمَنَّعَتْ، وَكَمْ يَفْتَحُ مَغَالِقَهَا الْمُتَصَعِّبَةُ، وَبِهَا مَلِكَانِ مِنَ السُّلْجُوقِيَّةِ مُعْتَقَلَانِ فِي مَعْقِلِيْهِمَا، مُلْقِيَانِ تَحْتَ كَلْكَلِيْهَا، وَهُمَا مَلِكُشَاهُ بَنُ سُلْجُوقِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكُشَاهُ، وَأَرْسَلَانَ شَاهُ بَنُ طَغْرُلِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكُشَاهُ، فَلَمَّا احْتِيَاجَ هَذَا الْجَمْعُ إِلَى مَلِكٍ يُقَدِّمُوْنَهُ فِي الْقَلْبِ، وَيُدِيرُوْنَ عَلَى قُطْبِهِ رَحَا الْحَرْبِ، قَالُوا لِمَسْعُودِ الْبِلَالِيِّ أَحْضِرْ لَنَا الْمَلِكَ أَرْسَلَانَ بَنُ طَغْرُلِ ابْنَ عَمِّ السُّلْطَانِ لِيَتَّقَ بِحُضُورِهِ جُمُوعَ الْأَجْنَادِ وَحَشُودِ التَّرْكَمَانَ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ بَدْرُهُ، وَرُفِعَ جِتْرُهُ، وَأَوْضَحَ بِشْرُهُ، وَصَوَّعَ نَشْرُهُ، وَكَانُوا فِي مَجْرِ كَاللَّيْلِ فَعَجَزَ بِهِ فَجْرُهُ، وَأَصْبَحُوا وَقَدْ امْتَدَّ مِنْ لَيْلِ الْعِجَاجِ عَلَى عَمُودِ الصَّبَاحِ رُوقًا، وَلِلْعَثِيْرِ مِنْ عَثِيْرِ الْعَادِيَاتِ إِشْفَاقًا، وَلِعُرُوسِ الشَّمْسِ فِي حِجَابِ الْقَنَامِ احْتِجَابًا وَاحْتِفَاءً، وَلِلْقُلُوبِ مِنَ الرُّوعِ كَمَا لِلْبُؤُودِ احْتِفَاقًا، وَالذَّرُوعُ قَدْ أَثْرَتْ فِي أَجْسَامِ الدَّارِعِيْنَ، فَكَأَنَّمَا تَحْتَ الزَّرْدِ زَرْدٌ، وَأَمَواجِ السُّوَابِغِ وَالسُّوَابِغِ زَاجِرَةٌ، وَالتَّجْدَانِ عَلَى الْأَفْنِيَّةِ وَالْفَتْ

زَيْدٍ، وَأَجْنَحَةُ الرِّيَابِ نَاهِضَةٌ بِعُقْبَانِهَا، وَلَهَاذِمُّ الرَّاعِفَاتِ لَامِعَةٌ بِعُقْبَانِهَا، وَالسَّهَامُ مِنْ رِيشِ  
الْكُوَابِرِ كُوَاسٍ، وَالْبَيْضُ وَالسَّمُرُ حَوَاسِرُ لُورِدِ الْوَرِيدِ حَوَاسٍ، وَالْقَيْسِيُّ قَاسِيَةٌ قَلُوبُهَا لِلْأَوْتَارِ،  
وَالْحَنَايَا حَانِيَةٌ طُهْرُهَا لِإِنَارَةِ الثَّارِ، وَالنَّجِيشُ جَائِشٌ، وَالْعَيْشُ طَائِشٌ، وَسُقَاةُ الرَّوْعِ حَلٌّ،  
وَأَنَّهُ قَدْ أَقْدَمَتْ عَلَى السَّيْلِ حَيَّةُ الْوَادِي، أَقَامَ فِي النَّادِي مِنْ نَدَاةِ الْمُنَادِي، وَدُعَاةِ الْهُدَاةِ إِلَى  
الإِمَامِ الْهَادِي، فَأُضْجِرَتْ أَسَدُهُ الْخَوَادِرُ مِنْ عَرِيْسَهَا، وَتَبَدَّلَتْ خَيْسَ الْوَشِيحِ مِنْ حَبْسِهَا،  
وَكَسَّرَتْ أَعْمَادَ صَوَارِمِهَا، وَوَقَّرَتْ أَمْدَادَ جَرَائِمِهَا، وَأظْهَرَتْ عَنَ عَزَائِمِهَا، وَأَصَمَّتْ مَسَامِعَ  
الْجِبَالِ عَمَّا عَمَّهَا، وَأَصَمَّتْ أَفئِدَةَ الْأَسَاوِدِ رَاسِفَاتٍ رُعْبِهَا، وَأَصَمَّتْ أَلْسِنَةَ الرُّوَاعِدِ صَاعِقَاتُ  
سُحْبِهَا، فِي مُحْجَلَةٍ كَأَنَّهَا خَاصَّتْ الْبَرَقَ حِينَ سَعِيهَا قَوَائِمِهَا، وَمُؤَلَّلَةٌ طَلَبَتْ النُّحُورَ وَالْكُلَى  
لَهَا ذِمَامًا فَأَبَتْ لَهَا دَمَهَا، وَكُلُّ طَرَفٍ اللَّيْلِ الدَّهْمَةُ عَلَى أَطْرَافِهِ الصُّبْحُ هَاجِمٌ، وَكُلُّ كُمَيْبٍ  
شَفَقِي الصَّيْغَةِ لِحَبَّيْتِهِ الْفَجْرُ لَاطِمٌ، وَكُلُّ ذِمْرٍ بَعْرَتِهِ وَبَعَارَتِهِ الْيَوْمَ شَامِسٌ غَانِمٌ، وَكُلُّ هُمَامٍ  
جُودُهُ وَبِأُسُهُ لِأَرْكَانِ الْعُلَى بَانَ وَلَبْنِيَانِ الْأَعَادِي هَادِمٌ، وَكُلُّ مُسَوِّمَةٍ يَصْحُبُهَا الْمَلَانِكَةُ  
الْمُسَوِّمُونَ، وَكُلُّ مُطَهَّمَةٍ يَقُودُهَا الْأَمْلَاكُ الْمُطَهَّمُونَ، وَكُلُّ مُقَوِّمَةٍ يَحِطُّمُهَا فِي الْأَقْرَانِ  
الْفَوَارِسُ الْمُعْلَمُونَ، وَكُلُّ ضَامِرٍ لَهُ النَّصْرُ بِالنَّصِّ ضَامِنٌ، وَكُلُّ آمِنٍ بَعْدَلِهِ الزَّمَانُ مِنْ خَوْفِ  
الْجَوَارِ آمِنٌ، وَكُلُّ طَالِعٍ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ الْعَابِسِ بُوْجْهِهِ الْبَاسِمِ السَّنَاءِ غُرَّةٌ غَرَاءٌ، وَكُلُّ مُظْهِرٍ  
فِي الدَّاهِيَةِ السُّودَاءِ وَالْغَمْرَةِ الدَّهْمَاءِ وَاللَّزِيَةِ الْحَمْرَاءِ يَدَا بِيضَاءٍ، وَكُلُّ مُطِيعٍ لِلْخَلِيفَةِ لَا  
يُخَالِفُ طَاعَتَهُ، وَكُلُّ جَامِعٍ لِسِنِّ الْعُلَى عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ جَمَاعَتَهُ، وَكُلُّ مُتَطَلِّعٍ فِي  
الْكَرْبِيَةِ كَأَنَّهَا يَطْلُعُ إِلَى وَجْهِ عَرُوسٍ، وَكُلُّ وَاطِيٍّ هَامٍ الْعِدَا مَا بَيْنَ نَعْرِ نَصْلِ ضَحُوكٍ وَوَجْهِ  
طَرَفِ عَبُوسٍ، وَكُلُّ مُتَوَعَّلٍ عِنْدَ الْمُبَارَزَةِ فِي شِدْقِ لَيْثِ ضَاغِمٍ، وَنَابِ صِلِّ نَاهِشٍ، وَكُلُّ  
مُتَكَلِّلٍ بِالْغِنَى مِنْ ظَهْرِ أَشَقَرٍ سَابِقٍ، وَصَدْرِ أَسْمَرَ دَاعِسٍ، وَكُلُّ مَاضٍ بِشَرْفِهِ وَأَيْدِيهِ مَضَاءُ  
الْمِشْرِفِيِّ فِي يَدِهِ، وَكُلُّ وَاقِفٍ مِنْ جِدِّهِ وَجَدِّهِ عَلَى سِنِّ الْإِعْتِدَالِ وَجَدِّهِ، وَمِنْ كُلِّ وَقُورٍ عِنْدَ  
طَيْشِ الْخَطْبِ لِفِكْرِهِ فِي الْعَوَاقِبِ، وَمِنْ كُلِّ الْوُفِّ لِغِنَارِ الدَّهْرِ لِأَنْسِيهِ النُّوَابِثِ، وَتَرَزَّ الإِمَامُ  
الْمُقْتَفِي فِي مِظَلَّتِيهِ كَأَنَّهُ الْبِدْرُ فِي هَالَتِيهِ، وَنَوَّرَ النُّبُوَّةَ يُشْرِقُ مِنْ جَبِينِيهِ، وَالْقَضِيبُ النَّبِيُّ يُورِقُ  
بِالنَّصْرِ فِي يَمِينِيهِ، وَالْبُرْدَةُ الْمُرُوثَةُ فَوْقَ رِدَائِيهِ، وَالْقَدْرُ بِالْقَدْرَةِ عَلَى أَعْدَائِهِ مُلَيِّي نَدَائِيهِ،  
وَاحْتَفَّ بِهِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الْمَلَائِكُ وَالْأَمْلَاكُ، وَسَارَ بِكُوَاكِبِ مَوَاكِبِهِ وَكَأَنَّهَا دَارَتْ  
تَحْتَ الْأَفْلَاكِ أَفْلَاكُ، وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سِيْمَاءُ النُّبُوَّةِ وَتُرَائِيهَا وَهَدْيُهَا الْمُرُوثُ إِذَا تَفَاوَضَتْ  
الْمَوَارِيثُ وَرَائِيهَا، وَلَهُ عَقْدُ الْإِمَامَةِ الَّتِي لَا يُخَافُ انْتِكَائُهَا، وَفِي شِمَائِلِهِ أَنْوَارُ الْهُدَى الَّتِي

يَهْجُمُ عَلَى الظُّلُمَاتِ فَلَا يَقِفُ وَاحِدُهَا وَلَا ثَلَاثُهَا، وَقَدْ اشْتَمَلَتْ بِالْبُرْدَةِ الشَّرِيفَةِ مَنَاكِبُهُ، وَأَرَهَفَتْ فِي غَمْدِهَا مَضَارِبُهُ، وَأَوَجَّهَ إِلَى الْحَرْبِ وَهِيَ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ، وَاسْتَقَلَّ فِرْعَ شَجَرَةِ الرِّسَالَةِ وَعَلَيْهِ مِنْهَا وَرَقٌ مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ مَلَكَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَافِيَهُمَا مِنَ الْخَطْبَيْنِ، وَيَمَا اشْتَرَكَ فِيهِمَا مِنَ الْخَطْبَيْنِ، وَطَلَعَتْ وَشَائِعُهَا أَمَانًا كَمَا طَلَعَ فِي وَشَائِعِهِ الْقَوْسُ الْقَرْحِيُّ، وَأَطَّلَ عَلَى الدُّنْيَا نَاشِرًا جَنَاحِيهِ كَمَا أَظَّلَ بِأَشْرُ جَنَاحِيهِ الْمُصْرَخِي، فَغَبَّتَ فِيهِمَا الْأَبْصَارُ إِلَى أَنْ نَقَضَ عَلَيْهَا سِوَادَهَا وَبَيَاضَ، وَهَطَلَتْ عَلَيْهَا سَحْبُ الْجَفُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَوَضَّحَتْ بِهَا طَرَائِقُ مِثْلِهَا فِي رِيَاظِ الرِّيَاضِ، وَلَمَّا تَخَفَّرَ بِالْقَضِيْبِ وَتَوَشَّحَ بِالْبُرْدَةِ، وَجَلِيَتْ لِلْعِيُونِ سُورَةٌ بِمِصْحَفٍ لِلْجَلَالَةِ قَدْ عَنَوْتَهُ آيَةُ سَجْدَةِ، نَزَلَ النُّصْرُ مَحْثُوًّا، وَجَرَدَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَبُعُوثًا، وَمَرَّتْ عَلَى تِلْكَ الْبُرْدَةِ الشَّرِيفَةِ تَذَكُّرُ صَاحِبِهَا وَتَقْضِي حَقَّهُ وَتَعْرِفُهَا وَقَدْ سَمَّ عَرَفَ الْهُدَى الَّذِي وَصَلَهُ لَابِسُهَا بِمِثْلِهِ وَهِيَ تَكَادُ تَجْدُبُ هُدَايَهَا لَوْلَا الْوَقَارُ، وَتَرَفَعَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَوْ أَنَّهَا لَا تُتَنَزَّعُ الْحَقُّ أَهْلَهُ الْأَطْهَارَ، وَكَانَ الْمِيرَاثُ الْمُحَمَّدِيُّ مَا كَانَ لِلْبَقِيَّةِ مِمَّا تَرَكَ أَلُّ مُوسَى وَأَلُّ هَارُونَ، وَكَانَ ذَخْرُهُمَا الْكَثْرُ الصَّحِيحَ لَا الَّذِي أُوتِيَ قَارُونَ، وَوَقَّتَ الْعِيُونَ تَبْكِي مِنْ ذِكْرِ حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ، وَتَأْسَى لِمَا نَسَجَ نَسِيجَ الشَّمْلَةِ مِنْ جِيُوبِ الْعَدَمِ وَسِمَالِهِ وَمَرَدَوْفُهَا النُّظْرَاتِ الَّتِي لَا يَظْفَرُ بِهَا فِي كُلِّ زَمَنِ، وَيَسْحَبُ وَوَادَةَ عَدَنِ لِابْنِهِ عَدَنَ، بَعْدَهَا عَقَّتْ عَلَى كَثْرَةِ الْأَوْلَادِ عَدَنَ، فَكَأَنَّمَا عَنَاهُ الْبِلَاذِرِيُّ فِي الْبَيْتَيْنِ فِي الْمُسْتَعِينِ: [الطويل]

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبَسْتَهُ  
يَظُنُّ لَظَنَّ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ  
وَقَالَ وَقَدْ أَعْطَيْتَهُ.....  
أَجَلٌ هَذِهِ أَعْطَافُهُ وَمَنَاكِبُهُ

فَسَارَ فِي مَوْكِبِهِ الشَّرِيفِ عَلَى مَرَكِبِهِ الْمُئِنِّفِ، وَعَلَى مُقَدَّمَتِهِ الْمُقَدَّمُ الْمُقَدَّمُ الْهُمَامُ وَزِيرُهُ عَوْنُ الدِّينِ بِنُ هُبَيْرَةَ فِي أَسْوَدٍ اسْتَلَّامَتْ مِنَ الدَّرُوعِ بِأَهَبِ أَسَاوِدَ، وَفِي سَحَابٍ قَسَاطِلَ مِنَ الْمَنَاصِلِ وَالصَّوَاهِلِ بَوَارِقُ وَرَوَاعِدَ، وَفِي عَزَائِمَ تَعَزُّ الْهُدَى تُوْطِيهِ أَوْ تَبْدُلُ الطُّودَ هَذَا، وَلِدَانِ نُفَيْمٍ مِنْ أَسْهَاءِ فِي فَصْلِ خِطَابِ الْخَطْبِ أَوْلَادِ أَلْسِنَةٍ لُدًّا، وَكُلُّ وَرْدٍ مُحَجَّلٍ كَأَنَّمَا سَأَلَ مِنْهُ لُحَيْبٌ عَلَى رَوَاءِ شُهْبٍ وَضَاحٍ وَضَاءٍ تَحَوَّلَ عَيْنَ رَائِيهِ مِنْ رَقْعَةٍ زَوَائِيهِ فِي نَشْرِ، وَأَدَهَمَ غَرِيبِ اللَّوْنِ غَرِيبِ الْحُسْنِ لَوْلَا لَمَعَةُ جَبْهَتِهِ وَلَمَحَةُ بَهْجَتِهِ لَمَا عَرَفَ مِنْ لَيْلِهِ وَسِوَادِهِ بِيَاضَ الْفَجْرِ، وَكُلُّ أَشْفَرِ ذَهَبِيٍّ الْإِهَابِ لَهَيْبِيٍّ الْإِلْتِهَابِ، كَأَنَّهُ بَدْرٌ تَمَامَ أَهَلَّتْ فِي عُرَّتِهِ غُرَّةُ الشَّهْرِ، وَكُلُّ سَابِحٍ فِي بَحْرِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ، وَكُلُّ كَوْكَبٍ فِي عَيْشِ الْعَجَاجِ الْأَكْدَرِ، وَالْوَزِيرُ الْأَوْحَدُ كَأَنَّهُ

لفظٌ واحدٌ يَتَضَمَّنُ معانيَ كثيرةً منَ العديدِ الأكثرِ، وفي الميمِنةِ والميسرةِ أمراءٌ ومُقَدَّمُونَ مِنْ  
 عَظَمَاءِ الْعَسْكَرِ كَنَاصِرِ الدِّينِ مَنْكُوبِرسٍ وَأَمِيرِ وَاسِطِ مُظَفَّرِ الدِّينِ قُتْلُغِ بَرَسٍ وَكِلَاهُمَا مِنْ  
 الْمُسْتَرَشِدِيَّةِ وَحَامِيَا الْحَوْزَةِ الْمُقْتَفِيَّةِ، وَفَخْرُ الدِّينِ قَوِيدَانَ وَمَنْكَلِبَةَ الْعَبَّاسِيِّ وَكِلَاهُمَا إِلَى  
 ظِلِّ الْإِمَامِ وَدَارِ السَّلَامِ مُهَاجِرٍ، وَأَمَامَ إِمَامِهِ مُجَاهِدٌ، وَبِشْعَارِ شَرَعِهِ مُجَاهِرٌ، وَبِهَاءِ الدِّينِ  
 صَنْدَلٌ وَكَأَنَّهُ فِي مَرَجِهِ أَجْدَلٌ، وَالْأَمْرَاءُ الْمُصْطَفَوْنَ الْمُصْطَلَعُونَ وَالْحِصَاةُ الْكُفَاءُ الْمُدَّرَعُونَ  
 الْمُقْتَنُونَ، وَخَيْمُ الْخُلَيْفَةِ عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ مِنْ بَغْدَادَ فِي مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِبَحْمَرَا، وَرَبَطَ الْقَبْ بَيْنَ  
 الْقِبَابِ، وَرَكَزَ الرِمَاحَ عِنْدَ الْأَطْنَابِ، وَالْعَسْكَرُ عُبابُ بَحْرِ طَامٍ، وَالْمَعْسَكُ هِضَابُ طَوْدِ سَامٍ،  
 وَجَيْشُ الْأَعَاجِمِ بِالْقُرْبِ مُخَيِّمٌ وَعَلَى الْحَرْبِ مُحْوَمٌ، كَأَنَّهُ خِضْمٌ يَتَدَفَّعُ وَجِبَلٌ يَتَزَعَزَعُ، وَأَقَامَ  
 الْخُلَيْفَةُ فِي مُخَيِّمِهِ دُونَ شَهْرٍ يَنْتَظِرُ مِنْهُمْ الْبَدَايَةَ، وَيَسْتَعِيدُ مِنْ غَوَايِبِهِمُ الْهَدَايَةَ، وَحَوْلَ سُرَادِقِهِ  
 كُلِّ مُوسِدٍ نَصَلُهُ كَأَنَّهُ نُؤْلٌ مُسْتَلَقٍ عَلَى شَاطِئِ جَدُولٍ، وَكُلُّ أَعْرَ تَالِ سُورَةِ الْفَتْحِ مَالُهُ عَلَى غَيْرِ  
 الذِّكْرِ الْمُتَزَلِّ مُعْوَلٌ، وَكُلُّ ابْنِ خَيْسٍ يَجْرُ ذَيْلُ الْخَمِيسِ، وَكُلُّ ابْنِ عَامَّةٍ بَيْنَ الْقَنَا الْمُتَأَسِّبِ  
 مُعْرَسٌ فِي عَرِيسٍ، وَكُلُّ ابْنِ ذَكَاءٍ إِذَا طَلَعَ أَنْجَلِي لَيْلِ الْبَلْمِ الْدَامِسِ وَيُجَلِي يَوْمَ الْغَرِّ الشَّامِسِ،  
 وَكُلُّ ابْنِ حَرْبٍ لِابْنِ الْغَمْدِ شَائِمٌ، وَبَابِنَةُ الزَّنْدِ حَاجِمٌ، وَكُلُّ مُغْرَى بِخَضْبِ اللَّيْمِ لَا رَشْفٍ  
 اللَّيْمَى مُغْرَمٌ، وَكُلُّ عَمِيدٍ بِثَلَمِ الثَّغْرِ لَا ثَمَّ الثَّغْرِ مُتَيِّمٌ، وَكُلُّ جَرَارٍ لِذَيْلِ الْأَسَلِ، وَكُلُّ كَرَارٍ عَلَى  
 طَلَبِ الْبَطْلِ، وَكُلُّ خَوَارِ الْعِنَانِ يَوْمَ الثَّبَاتِ، وَكُلُّ رَأْسٍ رَاسِخٍ لِيُوثَبَاتِ الثَّبَاتِ، فَلَمَّا تَرَاحَمَ  
 الْمَعْجَرَانِ وَتَرَاجَمَ الْجَمْرَانِ وَتَلَاطَمَ الْبَحْرَانِ وَتَرَاحَمَ السُّتْرَانِ وَتَسَاهَمَ الشُّطْرَانِ وَتَقَاسَمَ  
 السُّطْرَانِ وَتَحَاكَمَ الْعِمْرَانِ وَتَصَادَمَ النَّسْرَانِ وَتَمَوَّجَ الْعَمْرَانِ وَتَأَجَّجَ الْغَمْرَانِ تَجَّرَ الْعَدَى  
 بُغْيَتُهُمْ وَيَغْيُهُمْ عَلَى الْاِقْتِحَامِ، وَحَسَرُوا عَنْ أَقْدَامِ الْاِقْدَامِ وَجَسَرُوا عَلَى أُمَّ الْاِإِمَامِ، وَالْاِإِمَامِ  
 لِلشَّقَاقِ بَشَقِ الْاِإِمَامِ، وَقَالُوا لَوْ أَنَّ لِلْقَوْمِ بِنَا طَاقَةَ مَا تَحَمَّلُوا مِنْ تَوْسِيعِ مُدَّةِ الْاِإِمَامَةِ إِضَاقَةً، فَقَدَّ  
 أَقْوَتِ الْقَوَاتِ وَخَلَّتْ مِنَ الْاِقْوَاتِ الْاِأَوْقَاتِ، وَعَدَمَ الْعَلْفُ وَوَجَدَ التَلْفُ، وَجَهَلُوا أَنَّ الْاِإِمَامِ  
 مُتَّبِعُ حُكْمِ الشَّرْعِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْبِغْيِ عِنْدَ صِيَالِهِمْ بِالذَّفْعِ، فَرَكَبُوا وَمَارَقَبُوا، وَجَذَبُوا وَجَلَبُوا،  
 وَثَارُوا وَأَثَارُوا، وَأَبْرَزُوا وَاحْتَجَبُوا، فَرَكَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مُهَاجِرِيهِ وَأَنْصَارِهِ، وَوَقَفَ فِي  
 الْقَلْبِ بَيْنَ أَسْمَاعِيهِ وَأَبْصَارِهِ، وَقَدَّمَ وَزَيَّرَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ أَمَامَهُ وَسَيَّرَ مَعَهُ أَعْلَامَهُ، وَأَمَرَ الْأَمْرَاءَ أَنْ  
 يَكُونُوا مَعَهُ قُدَّامَهُ، فَأَقْفَرَتِ لِيَالِي الرِّايَاتِ السُّودِ بِوَجُوهِ رَافِعِيهَا الْبَيْضِ، وَأَشْرَقَتِ أَيَّامُ الْاِإِمَامِ  
 الْاِإِمَامِيَّةَ بِنُورِهِ الْمُسْتَقْبِضِ، وَشَرَعَ بَرَقُ الْحَدِيدِ الْاِإِمَامِ عَلَى حَوَاشِيِ بَوَارِقِ الْبَوَارِقِ فِي الْوَمِيطِ،  
 فَكَأَنَّمَا النَّعْمُ دُخَانٌ نَارٌ مِنْ نَارِ الْحَفِيطَةِ، وَكَأَنَّمَا النَّصْلُ مَا فَاضَ مِنْ مَغْيِضِ قَلْبِ الْقُلُوبِ

الْمَغِيظَةَ، وَالْبَيْضُ فِي الطُّلَى تَلْوِي عُرَى عَلَى أَرْزَارٍ، وَشَحُوبٌ وَجِهَ شَمْسِ الضُّحَى بِالْغَبَارِ  
 كَأَنَّهُ صَدَأٌ عَلَى دَمَارٍ، وَإِنْمِيدَ الْعَجَاجِ الْأَسْوَدِ فِي عَيْنِ الْوَعِيِّ كَحَلِّ، وَصَبَغُ النَّجِيعِ الْأَخْمَرِ فِي  
 خَدِّ الثَّرَى حَجَلٌ، وَأَطْرَافُ الْقَنَا الذَّبَلِ فِي أَجْفَانِ الْجِرَاحِ الرَّمْدِ قُبْلٌ، وَمَاءٌ قَرْنِدُ السَّيْفِ مِنْ نَارِ  
 الْبَاسِ فِي هَشِيمِ الْهَامِ مُشْتَعَلٌ، وَمَقَاوِلُ الْعَوَامِلِ فِي مَقَاتِلِ الْفِرْسَانِ وَكُلَى الشَّجَعَانِ رُسُلٌ،  
 وَالبَطْلُ فِي اللَّامَةِ الْخُضْرَاءِ كَأَنَّهُ فِي الْبَحْرِ الْمُتَلَاطِمِ جَبَلٌ، وَغُضُونُ الْمَفَاضَةِ أَثَرٌ فِي إِنْشَاءِ  
 مُجْتَابِيهَا فَكَأَنَّمَا جَرَى لَجِبُ الْغَدِيرِ غَدِيرًا، وَفَاضٌ فَوْقَ النَّمِيرِ نَمِيرًا، وَلَبَسَ الدَّرْعَ عَلَى جِلْدِ  
 أَرْقَمٍ، أَوْ أَفَاضَ الثَّرَةَ عَلَى لَبَدَةٍ صَيِّغَمَ، وَأَوْلَتْكَ قَدْ سَاقُوا دَوَابَّ التَّرْكَمَانِ وَمَوَاشِيَهَا وَأَعْنَامَهَا،  
 فَقَدَّمُوهَا بَيْنَ يَدَيْ صُفُوفِهَا قَدَّمَاهَا، وَكَانَتْ آفَافًا كَثِيرَةً الْأَعْدَادِ كَشَفَةِ السَّوَادِ مِنْ وَرَائِهَا الْوُقَاةُ  
 الْكُفَاءُ وَذَوُو الْحَمِيَّةِ الْحُمَاءُ، فَتَعَدَّزَ الْوُصُولُ إِلَيْهِمْ وَتَعَسَّرَتِ الْحَمَلَةُ عَلَيْهِمْ، وَأَعْتَامَتْهُمْ  
 يَسُوقُونَ أَغْنَامَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ بِمَا أَمَامَهُمْ، وَقَدْ أَخَذَتْ هَذِهِ الْمَوَاشِي طَوْلَ الْأَرْضِ وَعَرَضَهَا،  
 وَمَنَعَتْ بَتْرَاصِهَا تَقْوِيضَ صُفُوفِهَا وَنَقَضَهَا، فَتَرَكَ الْأَمِيرُ فِخْرَ الدِّينِ قَوِيدَانَ قَائِدِ الْجِيوشِ  
 وَمُضَرَّفُ الضُّمْرِ الْقُوْدِ وَقَبَّلَ الْأَرْضَ لِلْخَلِيفَةِ وَطَلَبَ بِلَادَ الْحِجْلَةِ، وَاقْتَدَى بِهِ نَاصِرُ الدِّينِ  
 مَنكُوبِرْسَ فِي طَلَبِ الْبَصْرَةِ، فَأَنَعَمَ بِهِمَا عَلَيْهِمَا حَمَلًا لُهُمَا عَلَى صِدْقِ الْحَمَلَةِ، فَتَأَبَّأَ لِلْقَضَاءِ  
 وَتَلَّهَبَا عَلَى الْهَيْجَاءِ، وَحَمَلَ الْوَزِيرُ وَمَنْ تَبِعَهُ وَهُمَا مَعَهُ فَلَمْ يَجِدُوا فِي تِلْكَ النُّقَادِ لِلْأَسَادِ  
 طَرِيقًا، وَصَادَقُوا فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْوَاسِعِ لِلْأَنْعَامِ الْمَحْشُورَةِ وَالْبَهَائِمِ الْمَحْشُودَةِ ضَيْقًا، وَكَانَ  
 تَرَشَكَ مَمْلُوكُ الْخَلِيفَةِ مَعَ الْمُخَالَفِينَ مُحَالَفًا وَفِي الْمَيْمَنَةِ وَاقِفًا، فَحَمَلَتْ مَيْمَتُهُمْ عَلَى  
 مَيْسَرَةِ الْخَلِيفَةِ وَفِيهَا مُهْلَهُلُ بْنُ أَبِي الْعَسْكَرِ وَالْأَكْرَادُ فَهَلْهَلَتْ نَسَجَهَا وَخَلَخَلَتْ بُرْجَهَا،  
 وَخَضَخَضَتْ لُجْجَهَا وَقَضَقَضَتْ فُوجَهَا، وَدَرَسَتْ فَجْجَهَا، وَأَخْرَسَتْ عَجْمَهَا وَأَهْبَطَتْ أَوْجَهَا  
 وَأَخْبَطَتْ مَوْجَهَا، وَعَادَتْ صُفُوفُ الْأَكْرَادِ أَكْدَارًا، وَأَجْفَلُوا كَالظُّلْمَانِ هَزِيمَةً وَفِرَارًا،  
 وَدَخَلَ تَرَشَكَ بَيْنَ أَطْنَابِ السَّرَادِقِ الشَّرِيفَةِ وَطَعَنَهُ بِرُمْحِهِ ظَهِيرُ الدِّينِ بْنُ الْفَقِيهِ الْمُرتَبِ فِي  
 الْمَخْرَنِ فَقَتَلَهُ، وَبَالَغَ فِيهَا حَسَنَةُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَسَوَّلَهُ، وَرَكَضَتْ مَيْمَتُهُمْ خَلْفَ الْمُنْهَزِمِينَ فَلَمْ  
 يَعْجُوا، وَمَرُّوا وَرَاءَهُمْ وَمَرَجُوا، وَأَمَّا الْمَيْمَنَةُ الْمَيْمُونَةُ الْإِمَامِيَّةُ فَإِنَّهَا حَمَلَتْ وَفِيهَا نَاصِرُ  
 الدِّينِ مَنكُوبِرْسَ وَفِخْرَ الدِّينِ قَوِيدَانَ وَالْأَبْطَالَ الشَّجَعَانَ، وَنَفَذَتْ إِلَى الْقُوَّةِ وَأَنْفَذَتْ  
 الْخُرْصَانَ، وَقَوَّضَتْ مَا قَابَلَهُ مِنَ الْبِنَانِ الْمَرْصُوصِ، وَحَكَمَتْ بِنَصْرِ الْحَقِّ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ  
 عَلَى الْبَاطِلِ الْمَنْقُوصِ، فَلَمْ يَرِ غَيْرَ رَاشٍ سَائِرٍ وَرَأْسٍ طَائِرٍ، وَرَمَحَ يَتَشَطَّى وَصَارِمٍ يَتَلَطَّى،  
 وَدَمٌ يَجْرِي وَمُخْذَمٌ يَبْرِي، وَقَانِ أَحْمَرٌ وَقَنَا أَسْمَرٌ، وَعَامِلٌ يَجْبِي خِرَاجَ الْأَرْوَاحِ، وَذَابِلٌ يَفِلُّ

شَبَا الْأَشْبَاحِ، فَهَنَّاكَ هَتَاكَ مَرَاكِ الرَّمَاحِ وَانْتَشَاؤَهَا مِنْ مَرَاكِ الْأَرْمَاقِ فِي صِحَافِ الصَّفَاحِ، وَأَقْصَى غِنَاءِ صَلِيلِ الْبَيْضِ عَلَى الْبَيْضِ بِالْعَدْوِ عَلَى النَّجِيبِ، وَكَأَنَّ جَمْعَهُمْ كَانَ هَشِيمًا وَالسُّيُوفَ الْهَائِشِمِيَّةَ كَالْهَلِيبِ، وَتَبَدَّدَ شَمْلُ أَمَالِ الْأَعَادِي وَتَفَرَّقُوا عِبَادِيَّةً، وَأَخْلَفَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ مَوَاعِيدٍ، وَطَارُوا عَلَى خِيُولِهِمْ كَأَنَّمَا اسْتَعَارَتْ قَوَائِمُهَا قَوَادِمَ، وَتَرَكَوا بِتِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ أَغْنَامِ التُّرْكَمَانِ مَعَانِي، وَنُهَبَتْ بِيُوتُهُمْ وَسُبِيَتْ ذُرَارِيهِمْ، وَتَدَكَّدَتْ رَوَاسِيهِمْ، وَخَذَلَتْهُمْ وَمَالَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ يُسَاوِيهِمْ وَيُوَاسِيهِمْ، وَهَبَّ نَائِمُهُمْ وَتَدَكَّرَ نَاسِيَهُمْ، وَحَارَ عَاصِيَهُمْ وَحَارَ عَاسِيَهُمْ، وَخَبَّ الْبَشْرَى إِلَى بَغْدَادَ بِالنَّصْرِ، يَعْقُبُ أَرْجَاتِ الْأَحْلَافِ الْمُنْهَزِمِينَ بِالْكَسْرِ، وَوَقَفَ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ مَسْعُودُ الْبِلَالِيِّ فِي قَلْبِهِ ثَابِتًا قَلْبُهُ، رَاجِيًا أَنْ يَنْوَبَ إِلَيْهِ حِزْبُهُ، فَهَبَّ إِلَيْهِ الْوَزِيرُ ابْنُ هُبَيْرَةَ فَهَبْرَهُ، وَبَرَى أَجْزَاءَ صَفْهِهِ وَجَزَّ وَبَرَهُ، وَصَبَرَ عَلَّمَهُ فَفَرَّقَ مُضْبِرَهُ، وَكَانَتْ حَوْلَهُ كَحَلَّتْ عِيُونَ الْأَنْجَمِ بِهَيُوتِهَا، وَدُوْلُهُ حَلَّتْ حُبَى الْإِدَالَةِ لَهَا لِعَقْدِ حَبَوَاتِهَا، وَلَمَّا لَمْ يُعْطِهِمُ اللَّهُ الظُّهُورَ أَعْطَاوُا الطُّورَ، وَقَرَّوْا بِقُلُوبٍ قَدْ قَرَّتْ مِنَ الصُّدُورِ، وَانْتَهَزَ الْفُرْصَةَ الْأَمِيرُ سُنْفَرُ الْهَمْدَانِيِّ فَانْفَرَدَ بِالْمَلِكِ أَرْسِلَانَ بْنِ طَغْرُلٍ وَسَارَ بِهِ، وَأَخْفَى مَسِيرَهُ فِي مَضَايِقِ كُلِّ وادٍ وَمَسَارِيهِ، حَتَّى وَصَلَ بِهِ إِلَى شَمْسِ الدِّينِ اِبْدَكُزْ زَوْجِ أُمِّهِ، فَكَأَنَّمَا أَنْزَلَ بِهِ الْغَنَى بَعْدَ عَدَمِهِ، فَأَمَّا الْخَلِيفَةُ فَإِنَّهُ سَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا، وَانْشَرَحَ بِالنَّصْرِ صَدْرًا، وَأَرَجَّ النَّشْرَ وَنَشَرَ الرَّجَاءَ، وَرَاجَ الطَّيْبُ وَطَابَتِ الْأَرْجَاءُ، وَسَكَنَتِ الصُّوْضَاءُ، وَسَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ، وَاسْتَقَرَّتِ الْبَيْضَاءُ وَالسَّمْرَاءُ، وَدَخَلَ إِلَى بَغْدَادَ مَرْفُوعُ اللَّوَاءِ، مَدْفُوعُ الْأَوَاءِ، مَصْحُوبًا بِأَمْلَاقِ السَّمَاءِ، مَسْحُوبًا دَيْلَ شَرْفِهِ عَلَى الْجُوزَاءِ، مَيْمُونَ الْجِدِّ جَدِيدِ الْيُمْنِ، رَكِيْنُ الْمَنْعَةِ مَنِيعِ الرُّكْنِ، ظَاهِرَ الشَّدَةِ شَدِيدِ الظُّهْرِ، أَمِيرًا بِالسَّدَادِ سَدِيدِ الْأَمْرِ، وَعَادَ إِلَى حَرَمِ مَا لَادَ بِهِ خَائِفًا إِلَّا حَلَّ مِنْ أَمْنِ بَرَأْسِ يَلْمَلَمَ، وَمَا عَادَ بِجَنَابِهِ الْخَصِيْبِ مُجْدِبًا إِلَّا اسْتَغْنَى عَنِ نَدَى الْغَمَامِ الْمُرْزَمِ، وَكَانَتْ نَوْبُهُ بِغَيْرِ نَبْوَةٍ، وَنَوْشُهُ بِلا فُشْوَةٍ، وَرَغْفُهُ بِلا غَفْوَةٍ، وَوَجْفُهُ بِلا جَفْوَةٍ، وَلَمَّا تَمَّتْ عَلَى أَوْلَتِكَ الْقَوْمِ فِي أَمْلِهِمُ الْخَبِيَّةَ تَمَلَّكَتْهُمْ مِنْ جَانِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْهَيْبَةَ، وَجَمَعُوا بَيْنَ الْمَهَابَةِ وَالْمَهَانَةِ، وَتَدَمَّوْا عَلَى الْجَنَابِيَّةِ وَالْخِيَابَةِ، وَعَرَفُوا أَنَّ مَرْتَعَ الْبَغْيِ وَبِيَّ، وَأَنَّ مَطْلَعَ الرَّشِيدِ مُضْيِي، وَأَنَّ الشَّقِيَّ لَا يُقَاوِمُ السَّعِيدَ، وَأَنَّ النَّاقِصَ لَا يَسْتَوْجِبُ الْمَزِيدَ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ عَائِزِينَ، وَبَدَّلِ الْخَجَلَ عَائِرِينَ، وَعَلَى سَبِيلِ الْوَجَلَ صَابِرِينَ، وَعَلَى هَوْلِ الْوَهْلِ صَائِرِينَ، وَإِلَى الزَّلَلِ سَائِرِينَ، وَبِالْخَلَلِ حَائِرِينَ مِنَ الْخَبَلِ، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمُودٍ نَدَّمَهُمْ وَعَاتَبَهُمْ عَلَى الْمُلْكِ الَّذِي نَدَّ مِنْهُمْ، وَقَالَ أَبْتُمْ بِعَثْرَاتٍ لَا تُقَالُ، وَهَفَوَاتٍ لَا تُزَالُ، وَهِيَ أَنْتُمْ

كَسَرْتُمْ نَامَوْسَكُمْ وَأَتَلَفْتُمْ نَفُوسَكُمْ، ثُمَّ أَهْلَكْتُمْ التَّرْكَمَانَ، وَعَرَّضْتُمْ لِسِنِّي الدَّرَارِي مِنْهُمْ وَالتَّسْوَانَ، ثُمَّ أَخْرَجْتُمْ الْمَلِكَ أَرْسِلَانَ، وَمَا أَحَطْتُمْ وَغَفَلْتُمْ عَنْ حِفْظِهِ وَمَا صَبَّطْتُمْ، فَهِيَ الْآنَ عِنْدَ أَيْلِدَكِزِ وَسَتْبُصِرُونَ مَا يُفْضِي إِلَيْهِ الْأَمْرُ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيَّ مِنْ جَانِبِهِ الشَّرُّ، وَقَدْ قُلْتُ وَمَا قَبَلْتُمْ، وَقَدْ صَارَ الْآنَ الْخَلِيفَةُ خَصْمًا وَخِلَافُهُ وَصَمًا، وَظَهَرَتْ كِرَامَتُهُ وَكِرَمَ ظُهُورُهُ، وَأَسْفَرَتْ بَهْجَتُهُ وَأَبْهَجَ سُفُورُهُ، فَهِيَ الْآنَ لَا يُحَابِي فِي هَذِهِ الْحَوْبَةِ، وَلَا يُقْبَلُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ، وَلَا يَرْضِي صَوَابًا إِرْضَاءَ هَذَا الصَّوْبِ، وَلَا يَخْلُصُ بَعْدَ هَذَا وَرُدُّ دَوْلَتِنَا مَعَهُ مِنَ الشُّوبِ، وَكَانَ كَمَا حَسَبَ فَإِنَّ الْخَلِيفَةَ لَمْ يَغْفِرْ لِلْسُلْجُوقِيَّةِ بَعْدَهَا ذَنْبًا، وَلَا فَرَّغَ لَهُمْ مِنْ جِهَتِهِ قَلْبًا، وَكَانَتْ وَقَعَةُ بَخْمَرًا<sup>(1)</sup> فِي أَوَاخِرِ سِنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

ذكر وصول السلطان سليمان بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد وقبول الخليفة له وتجهيز الجيش معه وذلك في سنة خمسين وخمسمائة

كَانَ سُلَيْمَانٌ قَدْ تَخَلَّى عَنِ الْمُلْكِ وَأَخْلَى سَرِيرَهُ وَوَأَفَّقَ إِدْبَارُهُ تَدْبِيرَهُ، يَدُورُ فِي الْبِلَادِ وَيُلَى بِالدَّوَاتِرِ، وَيُنْجِدُ مَعَ الْمُنْجِدِ وَيَعُورُ مَعَ الْغَائِرِ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ قَرَارٌ، وَلَا تُؤْوِيهِ دَارٌ، وَلَا يُجِيرُهُ جَارٌ، وَلَا يُؤْنِسُهُ فِي ظِلْمَةِ الْوَحْشَةِ نُورٌ وَلَا نَارٌ، وَالنَّحُوسُ مَعَهُ تَحُوسٌ، وَحَرِيفَاءُ مَحَارِفِهِ الْعُبُوسُ وَالْبُوسُ، وَلَمْ يَلْقَ لِأَمْرِهِ وَأَمْنِهِ حَامِيًا غَيْرَ جَمِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَصَّدَ أَنْ يَلْقَى مِنْ عَصْمَتِهِ الْحَبْلَ الْمَتِينِ، وَكَنْتُ حِينئِذٍ بِبَغْدَادَ وَوَصَلَ الْخَبْرُ بِقُرْبِ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ قَدْ دَنَا وَدَانَ، فَقَابَلُوا بِوَفُورِ الْقَبُولِ وَفُودُهُ، وَأَكْرَمُوا بِدُورِ الْكِرَامَةِ وَرُودَهُ، وَلَوْ وَقَوْهُ حَقَّ السُّلْطَنَةِ لَتَلْقَاهُ الْوَزِيرُ وَمَعَهُ قَاضِي الْقَضَاةِ وَالنَّقِيْبَانِ وَأَجْلَاءُ الْقَوْمِ كَمَا جَرَتْ عَادَةُ السُّلْطَانِ، لَكِنَّهُ اقْتَصَرَ فِي تَلْقَائِهِ عَلَى مَوْكَبِ شَرِيفٍ يَقْدُمُهُ عَزُّ الدِّينِ ابْنُ الْوَزِيرِ وَمَعَهُ مُخْلِصِ الدِّينِ ابْنُ الْكِيَا الْهَرَّاسِي وَخَادِمَانِ، وَوَقَفَ الْمَوْقِفُ خَارِجَ الْبَلَدِ لَهُ حَتَّى قَرَبَ ثُمَّ لَقِيَهُ ابْنُ الْوَزِيرِ وَخَاطَبَهُ بِكُلِّ مَا أَطْرَبَتْهُ مِنْ إِطْرَائِهِ وَأَعْجَبَهُ، وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ وَيُهْدِي نَحِيَّتَهُ إِلَيْكَ، وَتَرَجَّمَ ابْنُ الْكِيَا الْهَرَّاسِي هَذَا الْكَلَامَ بِالْفَارْسِيَّةِ فَتَرَلَّ سُلَيْمَانٌ عَنْ فَرَسِهِ وَقَبَّلَ الْأَرْضَ، وَأَدَّى مِنْ إِظْهَارِ الْعِبُودِيَّةِ الْفَرَضَ، ثُمَّ رَكِبَ وَدَخَلَ الْبَلَدَ وَآيَاتُ سَعَادَتِهِ مَشْهُورَةٌ

(1) بَخْمَرًا: ويكتب باخمرًا، موقع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب، قال ياقوت: بين باخمرًا والكوفة سبعة عشر فرسخًا، وبها كانت الوقعة بين أبي جعفر المنصور وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي (عليهم السلام) فقتل إبراهيم وقبره هناك يزار إلى زمن ياقوت.

وَرَايَاتُ سَيَادَتِهِ مَنْشُورَةٌ، وَخَرَقَ وَسَطَ الْبَلَدِ وَأَسَاقَهُ مِنْ بَابِ سَوْقِ الْحَلِيَّةِ إِلَى أَنْ جَاوَزَ فُرْصَةَ الرَّحْبَةِ، وَحِينَ وَصَلَ إِلَى بَابِ التَّوْبِيِّ مِنَ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ أَنْزَلُوهُ مِنْ مَوْكِبِهِ الْمُثْنِيفِ وَالزَّمُوهُ تَقْبِيلَ الْعَتَبَةِ وَقَدْ أَكْرَمُوهُ، وَهَنَّاكَ حَجْرٌ إِذَا وَصَلَ الرُّسُلُ وَمُقَدِّمُو الْحَاجِّ نَزَلُوا عِنْدَهُ وَلَثْمُوهُ وَعَظَّمُوهُ، وَمَا قَبَّلَ تِلْكَ الْعَتَبَةَ قَبْلَ سَلِيمَانَ شَاهِ سُلْطَانِ سُلْجُوقِيٍّ وَلَا مَلِكٍ دَيْلَمِيٍّ وَكَانَ مَعَهُمْ سَعِيدٌ وَسَقِيٌّ، لَكِنَّ سَلِيمَانَ كَانَ سَلِيمَ الْقَلْبِ وَطَيِّبِ الْخُلُقِ وَالجَنبِ، قَدْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى الْإِلْتِجَاءِ، وَرَأَى مِنْ وِرَائِهِ إِرْتَاجَ بَابِ الْإِرْتِجَاءِ، ثُمَّ أَرْكَبُوهُ وَخَرَقُوا بِهِ السُّوقَ وَالسُّوقَ، وَقَدْ صَيَّقَتِ النَّضَارَةُ بَازِدَحَامِهَا وَاقْتَحَامِهَا وَعَبَّرَ بَابَ السُّلْطَانِ وَأَنْزَلُوهُ بَدَارِ السُّلْطَنَةِ، وَأَوْطَنَهُ فِيهَا بِالْمَكْرُمَاتِ الْمُوَطَّئَةِ، وَوَطَّفُوا الرُّوَاتِبَ وَرَتَّبُوا لَهُ الْوِظَانَفَ، وَوَلَّوهُ مِنْ آيَةِ الْأَلْطَافِ اللَّطَائِفِ، وَشَرَّفُوهُ وَسَوَّرُوهُ وَطَوَّقُوهُ، وَشَوَّفُوهُ مِنْ إِنْجَاحِ مَقْصِدِهِ وَإِنْجَازِ مَوْعِدِهِ بِمَا شَوَّقُوهُ إِلَى مَلِكِيَّةِ وَشَرَّفُوهُ، وَخَطَبُوا عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْجُمُعِ وَالْجَوَامِعِ، وَخَصَّوهُ بِالْعَوَارِفِ الْفَوَارِعِ وَالصَّنَائِعِ النَّصَائِعِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْعَتُوهُ إِلَّا بِالتَّعْظُمِ وَذَلِكَ غَايَةٌ أَنْ يَعْظُمُوهُ، لَكِنَّهُ كَانَ فِي قَيْدِ عَقْلِيَّةٍ مِنْ عَقْلِيَّةِ، وَعِيٍّ لَهْجَتِهِ مِنْ عِيٍّ جَهْلِهِ، وَفِي سَهْوَةٍ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَعَلَى صَحْوَةٍ مِنْ قَهْوَتِهِ، وَفِي كَسْرَةٍ مِنْ سَكْرَتِهِ، وَفِي ذَلَّةٍ مِنْ لَدُنَّتِهِ، وَفِي هَوَانٍ مِنْ هَوَاهُ، وَفِي حِجَابٍ مِنْ حِجَابِهِ، وَفِي خِمَارٍ مِنْ خَمْرِهِ، وَفِي اِزْوَارٍ بُوِزْرِهِ، وَفِي تَهْوِينٍ مِنْ تَهْوِينِهِ، وَفِي تَهْوِيلٍ مِنْ تَهْوِينِهِ، قَدْ شَعَلَهُ الْفِرَاقُ، وَأَوْدَى بَدِينَهُ الْاِبْتَاغُ، لَا يَعْرِفُ الْعَرْفَ وَلَا يَنْكُرُ النُّكْرَ، وَلَا يَظْهَرُ الشُّكْرَ إِلَّا إِذَا ظَاهَرَ السُّكْرَ، وَقَدْ غَلَبَتْ حُلُومُهُ أَحْلَامُهُ وَأَذْهَبَتْ يَقْظَتُهُ مَنَامُهُ، وَأَغْمَضَهُ غَمْضُهُ وَقَبَضَهُ قَبْضُهُ، وَخَفِظَهُ طَيْبُ عَيْشِهِ وَخَفِضَهُ، فَمَا زَالَ مَدَّةَ مُقَامِهِ مُسْتَحْلِلًا لِمَحَارِمِ شَهْوَاتِهِ، مُسْتَحْلِيًّا مَذَاقَ الْلَهْوِ فِي لَهْوَاتِهِ، مُتْرَنِمًا بِنِعْمَاتِهِ مُتَّعِمًا بِرِنَاتِهِ، مُتَّعِمًا بِخُرَافَاتِهِ مُنْصَرَفًا إِلَى خُرَفَاتِهِ مُحَارَفًا فِي تَصْرُفَاتِهِ، وَالْخَلِيفَةُ مَعَ ذَلِكَ فِي وِلَايَتِهِ مُعْتَقِدٌ وَلِلْوَاوِيهِ عَاقِدٌ، مُتَّقِظٌ لِتَدْبِيرِ مَصَالِحِهِ وَهَوْرٍ عِنْدَ رَاقِدٍ، وَقَدْ أَوْعَزَ إِلَى عَسَاكِرِهِ بِالتَّأَهُبِ لِلْمَسِيرِ فِي خِدْمَتِهِ وَإِعَادَتِهِ إِلَى عَادَتِهِ فِي سُلْطَنَتِهِ، وَاسْتَوْرَزَ لَهُ شَرَفَ الدِّينِ الْخُرَاسَانِيَّ، وَكَانَ رَجُلًا كَبِيرًا يُرْجَعُ إِلَى سُودِيٍّ وَكِرْمٍ وَمَحْتَدٍ، وَكَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ سِنْجَرِ رَسُولًا، وَأَعَادَ مَعَهُ الْبُرْدَةَ وَالْقَضِيْبَ النَّبَوِيَّ إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَقَدْ كَانَا أُخِذَا فِي التَّوْبَةِ الْمُسْتَرَشِدِيَّةِ، وَأَقَامَ هَذَا شَرَفُ الدِّينِ فِي الظَّلِّ الْإِمَامِيِّ الشَّرِيفِ، وَالْجَنَابِ الْمُنْبَعِ الْمُثْنِيفِ، وَهُوَ مَخْصُوصٌ بِالْاِحْتِرَامِ وَالْاِكْرَامِ قَرَأَى الْمُقْتَفِي أَنْ يَجْعَلَهُ وَزِيرَ سَلِيمَانَ، وَسَيَّرَهُ إِلَى أَذْرَبِيْجَانَ، وَسَيَّرَ مَعَهُ عَسَاكِرَ وَافِيَةَ الْعَدَدِ وَافِرَةَ الْعُدَدِ، جَمِيلَةَ الْكَثْرَةِ كَثِيرَةَ التَّجْمُلِ، حَامِلَةً لِلْاِثْقَالِ ثَقِيلَةَ التَّحْمُلِ، فَسَارَ فِي كُلِّ سَلِيمٍ يَوْمَ

الْحَفِيظَةَ بِالْعِجَاجِ الْأَقْتَمِ، وَتَمْتَحَسِرُ لِثَامَهُ عَن كَوَكِبٍ يَثْلُقُ فِي الْأَحَادِثِ الْمُتَجَهِّمِ، وَكُلَّ ذِمِرٍ حَامِي الدَّمَارِ دَامِي الشُّفَارِ، وَكُلَّ مُتَهَلِّلٍ فِي صَبْوَةِ الْهَيْجَاءِ كَأَنَّ وَجْهَهُ غُرَّةُ أَدْهَمٍ، وَدَارِعٍ كَأَنَّمَا لَبَسَ فَوْقَ عَطْفِي ضَيْغَمٍ جِلْدَةَ أَرْقَمٍ، وَكُلَّ حَاسِرٍ يُغْنِيهِ حَمْلُ رَأْيِهِ عَن حَمْلِ السَّلَاحِ، وَكُلَّ طَالِعٍ فِي لَيْلِ النَّقْعِ يَوْمَ غَارِيهِ عَن ضَوْءِ الصَّبَاحِ، وَكُلَّ وَضَاحِ الْجَبِينِ كَأَنَّهُ تَحَتَّ الدُّجْنَةُ شَهَابٌ نَاقِبٌ، وَكُلَّ طِمَاحٍ سَيْفُهُ عَلَى الطُّلَى حَاطِبٌ، وَمَضُوبُهُ إِلَى أَرَانِيَةِ ثِقَةٍ بِأَتَابِكَ أَيْلِدُكُزٍ، فَمَا رَفَعَ بِهِمْ رَأْسًا وَلَا قَوَاهِمُ أَنْفَاسًا، وَوَصَلَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ بْنُ مَحْمُودٍ وَجَرَى الْمَصَافُ وَوَقَعَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْإِتِّصَافُ، ثُمَّ أَنْهَزَمَ سَلِيمَانُ مُؤَلَّبًا وَعَن عَسْكَرِ الْخَلِيفَةِ مُتَخَلِّيًا، فَعَادَتِ الْعَسَاكِرُ إِلَى بَغْدَادَ عَادِمَةَ الظَّفَرِ، نَادِمَةً عَلَى السَّفَرِ، وَرَجَعَ سَلِيمَانُ إِلَى مَشَقَّتِهِ وَشَقَوَاتِهِ أَيْسَاءَ بِعَادَتِهِ أَيْسَاءَ مِنْ سَعَادَتِهِ، ثُمَّ قَفَلَ عَائِدًا إِلَى بَغْدَادَ فِي طَرِيقِ الدَّرْبِنْدِ الْقِرَابَلِيِّ مُغْتَرًّا بِحِمَايَةِ نَسَبِهِ السَّلْجُوقِيِّ، فَصَحْبَهُ زَيْنُ الدِّينِ عَلِيِّ كُوجِكٍ مِنَ الْمُوَصِّلِ وَقَبْضَهُ فِي الْمَضِيقِ وَوَصَلَهُ طَارِقًا بَقَطَعَ الطَّرِيقَ، وَحَمَلَهُ إِلَى قَلْعَةِ الْمُوَصِّلِ وَأَعْتَقَلَهُ وَقَطَعَ مِنَ التَّدَاوِيرِ عِلْقَهُ وَأَرَاخَهُ مِنَ التَّعَبِ، وَأَبَاحَهُ مَا كَانَ يُؤْتَرُهُ مِنَ اللَّعْبِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ.

### ذِكْرُ اتِّصَالِ الْمَلِكِ جُغْرِي شَاهِ بْنِ مَحْمُودٍ بِأَخِيهِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ

كَانَ الْمَلِكُ جُغْرِي شَاهٍ مَعَ أَتَابِكِ أَيَازٍ فِي أَدْرَبِيجَانَ فَشَغَلَ خَوَاطِرَ الْأَمِيرَيْنِ أَيْلِدُكُزٍ وَأَرَسْلَانَ ابْنِهِ صَاحِبِي أَدْرَبِيجَانَ عِنْدَ اتِّصَالِهِمَا بِالسُّلْطَانِ بَعْدَ أَنْهَزَامِ مُحَمَّدٍ إِلَى أَصْفَهَانَ، فَلَمَّا عَادَ مُحَمَّدٌ إِلَى السُّلْطَانِيَّةِ وَرَجَعَ إِلَى مَرْتَبَتِهِ الْمُتَمَكِّنَةِ سَيَّرَ شَرَفَ الدِّينِ كَرْدبَازُوَ لِإِصْلَاحِهِمْ وَالصُّلْحَ بَيْنَهُمْ وَلِيُرِيحَ سَيْفَهُمْ، فَوَصَلَ وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِهَا آخِذَةٌ مِنَ الْأُرُوحِ بِأَطْوَاقِهَا، فَأَصْلَحَ ذَاتَ الْبَيْنِ وَعَادَ قَرِيرَ الْعَيْنِ، وَقَدْ تَسَلَّمَ الْمَلِكُ جُغْرِي شَاهٍ، وَمَلَأَ بِحَمِيدِهِ وَمَدَّحِهِ الْقُلُوبَ وَالْأَفْوَاهَ، وَجَمَعَ شَمَلَ السُّلْطَانِ بِأَخِيهِ وَعَادَ أَتَابِكُ أَيَازٌ إِلَى وِلَايَتِهِ، وَكَانَتْ رَعِيَّتُهُ آمِنِينَ فِي كَتَفِ رَعَايَتِهِ، وَاقْتَسَمَ شَمْسُ الدِّينِ أَيْلِدُكُزٌ وَنُصْرَةُ الدِّينِ أَرَسْلَانُ ابْنُ آقِ سَنْقَرِ أَدْرَبِيجَانَ وَأَفْرَجَا عَن أَرْدَبِيلَ لِلْأَمِيرِ أَعُوشِ وَجَمَعُوا الْجِيُوشَ، وَأَعَادُوا مِنْ رُسُومِ الدَّوْلَةِ الْعَدْلَ وَالنَّقْرُشَ، وَاسْتَمَالُوا النُّفُوسَ وَأَنَسُوا الْوَحُوشَ، وَاجْتَمَعَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ بِأَخِيهِ جُغْرِي، وَالْأَخُوَّةُ تَبَعَتْهُ عَلَى الشَّفَقَةِ وَالْمَلِكُ بِهِ يُغْرِي، وَكَانَتْ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ سَنَةٌ تَسَعُ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِهَمْدَانَ، وَقَدْ عُدْتُ مِنَ الْحُجِّ صُحْبَةَ جَمَالِ الدِّينِ مَحْمُودِ بْنِ عَبْدِاللطيفِ الْخُجَنْدِيِّ، فَأَقَامَ بِالْمُعَسْكَرِ شَهْرًا بِحَاجَاتِهِ مُذْكَرًا، وَأَقَمْتُ مَعَهُ فَشَاهَدْتُ تِلْكَ الْخَلَائِفَ عَلَى اخْتِلَافَاتِهَا وَتِلْكَ الْحَالَاتِ عَلَى عِلَاقَتِهَا، وَذَلِكَ

الاختلاط في الاختلاف وذلك الانكسار بعد الانكشاف، وأنه أنيس بأخيه وسر به وامتزج به في مطعوه ومشربه، ولاطفه بعطفه وعطف عليه بلطفه، وحالفه ولاحفه، وساعده وساعفه، وصافاه واصطفاه، ووفره ووفاه، ووقره ووقاه، وأكد أخيه إخائه وعمره بسخائه، وأطمعه في وفاقه ووفائه، فما أنسه حتى آيسه، وما احتبس حتى حبسه، وما جادله حتى جد له، وما عقل له حتى عقله، وما بر حتى عقى، وما شاق حتى شق، وما رق حتى أرق، وما أعطى حتى أعطب، وما أجدى حتى أجذب، وما وصل حتى قطع، ولا شعب حتى صدع، وما بشر حتى بسر، وما أصح حتى كسر، وما استمال حتى مال، وما صاب حتى أصال، وما لاح حتى حال، وما حلّى حتى أمر، وما نفع حتى ضر، وما وفى حتى جفا، وما أثبت حتى نفى، وما رحم حتى حرم، وما أوجد حتى أعدم، وما قرب حتى أبعد، وما أقام حتى أهدم، وما وعد حتى أوعده، وما من حتى مان، وما زان حتى شان، وما أكرم حتى أهان، وما بان حتى أبان، وما رفق حتى عنف، وما أسعف حتى عسف، وما أشرق حتى أظلم، وما أنصف حتى ظلم، وما موق حتى مقت، وما عنى حتى عنت، وما أقبل حتى أعرض، وما أحب حتى أبغض، وما بسط حتى قبض، وما رفا حتى فرى، وما برى حتى برى، وما مهد حتى هدم، وما أنعم حتى نقم، وما منح حتى محن، وما لان حتى خشن، فإنه أمر باعتقاليه في بيت خشب، وألغى ما بينهما من حسب ونسب، ووكل به الأمير عز الدين ستماز بن قيمان الحرامي يرصده ليلاً ونهاراً، ويرعاه سراً وجهاراً، وما زال الأمر على ذلك حتى فارقتا المعسكر فما ندري أين أقبل به القضاء كما أدبر، ومن حين نقل ما سمع له خبر، ولا ربي له أثر، فكأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء، وجبلت جبلتهم على الإغفال والإغفاء، فما أشد قساوتهم! وألد غباوتهم! وأكثر هفواتهم! وأكثر جفواتهم! وأنكث يمينهم! وأسرع تجيهم! وأسعر تمنيمهم! يصلون خبلاً ولا يصلون خبلاً، ويستطيون ولاية ولا يولون طولا، ويقتلون على وهم ويفتكون على هم، ويطيعون الهوى ويعصون التقوى، ويرون أن خطأهم صواب، وأن سرابهم شراب، وأن الذي ألهاهم إلهام إلهي، وأن الذي قدره توفيق قدري، إذا زعموا عزموا، وإذا كسبوا سبكوا، وإذا كسفوا سفكوا، وإذا طلبوا أدركوا، وإذا ملكوا أهلكوا، وإذا أخذوا خربوا، وإذا تركوا حزنوا، فعندهم الرحم مقطوعة والرحمة ممنوعة والحرمه مرفوعة، والعزة في خدمتهم بالذلة مشفوعة، والسن في صحتهم بالندم مقروعة، والورع معهم عور، والخطر معهم خطر، والاعتزاز بهم غرر، وصفوهم كدر، وأمنهم حذر، ووردتهم صدر، يقسمون ويحشون، ويبرمون وينكثون، ألم تر هذا السلطان لم

يَكُنْ فِي السَّلْجِيقِيَّةِ أَرَأْفَ مِنْهُ وَأَحْلَمَ وَأَعْطَفَ وَأَحْكَمَ، كَيْفَ مَا حَابَى أَخَاهُ فِي حَوَائِجِهِ، وَكَيْفَ قَطَعَ حَبْلَ إِخْوَانِهِ، وَكَيْفَ بَلَاهُ بِمَحْتَبِيهِ وَمَحَنَهُ بِبِلَائِهِ، وَأَظْهَرَ لَهُ بِشْرًا وَأَضْمَرَ لَهُ شَرًّا، وَكَانَ أَرْبُهُ شَرًّا وَكَرَمُهُ مَكْرًا، وَيَمِينُهُ لَهُ مِينًا، وَخَنِينُهُ إِلَيْهِ حِينًا، وَإِشْفَاقُهُ إِشْفَاءً، وَأَنَوَاؤُهُ إِنْوَاءً، وَضَمُّهُ مَضًّا، وَرَفَعُهُ خَفْضًا، وَمَحْضُهُ مَذْقًا، وَرَفَعَهُ فِتْقًا، وَمَدَّهُ جَزْرًا، وَمَدَدَهُ نَزْرًا، وَكَنَفَهُ كَفْنًا، وَحُسْنُهُ حُزْنًا، وَعَطَنُ حَرَمِهِ عَطْبًا، وَسَجِيَّةُ رَحِمِهِ سَجْبًا، وَمُلْتَحَدُ ظِلِّهِ لِحْدًا، وَمَعْرِفَةُ فَضْلِهِ جَحْدًا، وَرَزُّ نَكْرِهِ رُزَاءً، وَهَزُّ شُكْرِهِ هُزَاءً، وَجَدَى ثِمَارِهِ مَادَّةَ جَدَثٍ، وَإِعَادَةُ حَدِيثِ عَادِيهِ حَدَثٌ، وَرَسْمُ شَقِيْقِهِ شَقٌّ رَمَسٌ، وَحُسْنٌ وَحِيَّةٌ وَحَيٌّ حُسْنٌ، وَخَدْنٌ مُهَادِنِيَّةٌ عَلَى مُدَاهِنَةٍ وَدَخْنٌ، وَقَسِيٌّ نَوَالِيٌّ فِي نَوَى لُحْيٍ وَقُرْبِ فِتْنٍ، وَدَعْوَى حُبِّهِ عَدْوَى حَوْبٍ وَرَحِيْقٌ لَهْوٍ وَحَرِيْقٌ أَلْهَوْبٌ، وَذِمَامَةُ الْمَأْخُوذِ أَخْذٌ دِمَاءٌ، وَاعْتِدَالٌ وَدَادِيَةٌ دَاءٌ اعْتِدَاءٌ، وَشَهِدُ شَهْوَدِيٍّ صَابٌ مُصَابٌ، وَيَمٌّ يَمِيْنُهُ عُبَابٌ عَابٌ، وَتَعَشُّ عَثَارِهِ بِغَيْرِ انْتِعَاشٍ، وَتَقَشُّ ذَهَبِيَّةٌ لِدَهَابِ نَقَشٍ، وَعَادٌ مِنْهُ مُعَوَّلًا بَعْدَ مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَصَارَ وَصَلُ الْأَخِ إِخَاءً، وَالْفَخْرُ بِهِ فَخْرًا، وَصَادَقَ عَقْدِيهِ فَسَخَا وَعَهْدِيهِ نَسَخَا.

### ذِكْرُ حَوَادِثٍ جَرَتْ فِي هَذِهِ السَّنِيْنِ

- 1- فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِيْنٍ وَخَمْسِمَائَةِ اسْتَوْلَى الْغُزُّ عَلَى السُّلْطَانِ سَنْجَرِ بَمَرٍ وَكَانَتْ حَادِثَةً هَائِلَةً، وَاسْتَرْدُّ بِأَيَّامِ سَنْجَرٍ عِنْدَ ذِكْرِ وِفَاتِهِ.
- 2- وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ اسْتَوْلَى الْفَرَنْجُ عَلَى عَسْقَلَانَ.
- 3- وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ الْعَادِلُ بْنُ السَّلَّارِ سُلْطَانُ مِصْرَ قَتْلَهُ ابْنُ أَمْرَاتِهِ.
- 4- وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تُوْفِيَ ابْنُ مَنِيرٍ (1) الشَّاعِرُ بِدِمَشْقَ فِي الْخَادِي وَالْعَشْرِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ.
- 5- وَتُوْفِيَ أَبُو الْفَتْوحِ بْنُ الصَّلَاحِ الْفَيْلَسُوفُ الْبَغْدَادِيُّ بِدِمَشْقَ فِي الْخَامِسِ وَالْعَشْرِيْنَ مِنْهُ.
- 6- وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَخَمْسِمَائَةِ تُوْفِيَ تَمْرَتَاشُ صَاحِبُ مَارْدِيْنَ فِي أَوَّلِ الْمُحَرَّمِ، وَفَتَحَ نُوْرُ الدِّيْنِ مَحْمُوْدُ بْنُ زَنْكِي دِمَشْقَ يَوْمَ الْأَحَدِ ثَالِثَ صَفْرِ، وَقُتِلَ الظَّافِرُ مُتُوْلِي مِصْرَ لَيْلَةَ الْخَمِيْسِ لِانْسِلَاحِ صَفْرِ.

(1) ابن منير الطرابلسي: أبو الحسين، مهذب الدين، أحمد بن منير بن أحمد الطرابلسي، شاعر مشهور من أهل طرابلس الشام، ولد لها سنة 473 هـ، وسكن دمشق ومدح الملك العادل محمود بن زنكي بأجود الشعر، وكان هجاءً، حبسه صاحب دمشق لهجائه، ثم عفا عنه ونفي فسكن حلب حتى توفي فيها في سنة 548 هـ، وديوانه مطبوع.

عُدْنَا إِلَى حَدِيثِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَوَفِّيَتْ حَلِيلَتُهُ بِنْتُ السُّلْطَانِ مَسْعُودٍ، فَجَلَسَ لِلْعَزَاءِ وَامْتَرَى دَرَّ الْبُكَاءِ، وَكُنْتُ حَاضِرًا فِي زُمْرَةِ الْعُلَمَاءِ، وَوَصَلَ إِلَى خِدْمَتِهِ أَتَابِكُ ابِلْدَكْزِ فِي عَسَاكِرِ أذربيجانَ وَالْأَمِيرُ شَيْبُرُ بْنُ أَقِ سَنَقَرٍ بَعْسَكَرِ أَخِيهِ، وَأَقَامَا عِنْدَهُ عَلَى هَمْدَانَ ثُمَّ اسْتَأْذَنُوا فِي الْعَوْدِ وَعَادُوا، وَزَادَهُمُ السُّلْطَانُ حُرْمَةً وَقُوَّةً فَرَادُوا، وَوَصَلَ رَسُولُ مَلِكِ كَرْمَانَ فَكَرَّمَهُ وَأَحْضَرَ حَمَلًا فَقُدِّمَ، وَسُيِّرَ جَمَالُ الدِّينِ بْنِ الْحُجَنْدِيِّ مَعَ الرَّسُولِ رَسُولًا إِلَى كَرْمَانَ لِيُخَطَبَ بِنْتُ الْمَلِكِ لِلْسُّلْطَانِ فَعُدْتُ مَعَهُ إِلَى أَصْفَهَانَ فَسَأَمَنِي السَّفَرُ مَعَهُ فِي تِلْكَ السَّفَارَةِ، فَرَأَيْتُ الرِّيحَ فِيهِ عَيْنَ الْخَسَارَةِ، فَتَأَخَّرْتُ وَتَقَدَّمْتُ، وَأَحْجَمْتُ وَأَقَدَّمْتُ، وَأَقَمْتُ وَظَعَنْتُ، وَأَسْهَلْتُ وَأَحْزَنْتُ، فَإِنِّي عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى كَرْمَانَ سُرْتُ عَلَى طَرِيقِ خَوْزِسْتَانَ إِلَى مَعْدَانَ، وَجِئْتُ إِلَى عَسْكَرِ مَكْرَمٍ فِي شَوَالِ سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَالْمَلِكُ مَلِكُشَاهُ بْنُ مُحَمَّدٍ مَالِكُهَا، وَقَدْ أَمِنْتُ بِهِ مَمَالِكُهَا وَمَسَالِكُهَا، وَلَقِيتُ رَئِيسَ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْأَرْجَانِي وَهُوَ فِي نِيَابَةِ الْقَضَاءِ، مَوْفُورُ الْحُرْمَةِ فِي الْعُلَمَاءِ، فَذَكَرْتُ أَنَّ الْوَدَّ تَوَفَّى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَأَعْطَانِي مُسَوِّدَاتٍ مِنْ أَشْعَارِ الْوَدِّ، فَتَنَزَّهْتُ فِي رِيَاضِ فَوَائِدِهِ، وَاسْتَعَدْتُ مِنْ فَرَائِدِهِ وَقَلَائِدِهِ، وَأَنْسَيْتُ بِأَوَانِسِهِ وَسَوَارِدِهِ، ثُمَّ ارْتَحَلْتُ إِلَى بَغْدَادَ بَعْدَ وَصُولِ الْخَبَرِ بِبُصْرَةَ الْخَلِيفَةِ فِي حَرْبِ بَجَمَزَا وَظَفَرِهِ، وَكُنْتُ مَعَ الْوَدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَحَرَّضْتُهُ الْبُشْرَى عَلَى سَفَرِهِ، وَشَتَا السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بَسَاوَةً، وَحَرَفَ بِلِينِ هَوَائِهَا وَرَقَّتْهُ الشَّدَّةُ مِنَ الْبَرْدِ وَالْقَسَاوَةِ، وَاسْتَعْجَزَ جَلَالُ الدِّينِ بْنِ الْقَوَامِ وَزَيْرُهُ وَاسْتَقْصَرَ تَدْبِيرُهُ وَاسْتَدْعَى مِنْ فَارَسِ تَاجِ الدِّينِ الدَّارِسْتِي لِيَسْتَوَزِرَهُ وَيُقَوِّيَ يَدَهُ وَيُظَهِّرَهُ، فَوَصَلَ تَاجُ الدِّينِ إِلَى أَصْفَهَانَ وَأَنَا بِهَا بَعْدَ الْعَوْدِ مِنَ الْعَسْكَرِ بِهَمْدَانَ، وَأَقَامَ مَدَّةً فَبَرَدَ أَمْرُهُ وَخَمَدَ جَمْرُهُ، وَاسْتَبَطَّ السُّلْطَانُ سَيْرَهُ فَاسْتَوَزَرَ غَيْرَهُ.

### ذِكْرُ وَزَارَةِ شَمْسِ الدِّينِ أَبِي النَّجِيبِ الدَّرَكِزِينِي

كَانَ السُّلْطَانُ سُنيُّ الرَّأْيِ فِيهِ وَيَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَكْفِيهِ وَقَدْ غَلَبَهُ الطَّرْشُ، وَبَعِينَ الْمَلِكِ مَنْ صَمَّمِ أَذْنَهُ الْعَمَشَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنَ الْأَدَبِ خَالٍ، وَلَا أَهْلَ الْفَضْلِ قَالٍ، وَبِجِلِيَّةِ الزَّمَانِ فِي تَصَاريفِهِ حَالٍ، وَكَانَ الزَّمَانُ قَدْ خَلَا مِنْ كَافٍ، وَأَعْوَزَ مَرِيضُ نَوَائِبِهِ الْفَوْزَ بِشَافٍ، فَإِنَّ اسْتِيزَارَ الْمَذْمُومِينَ النَّاقِصِينَ بَعْدَ الْكَمَالِ السَّمِيمِيِّ مِنَ الْأَيَّامِ الْمَحْمُودِيَّةِ وَتَوْفِيرَ الْوُزَرَاءِ الْجَهْلَةَ جَاءَ الْجُهَالِ، وَتَلْقِيهِمْ ذَوِي الْإِدْبَارِ بِالْإِقْبَالِ، وَصَدَّهُمْ ذَوِي الْفَضْلِ مِنْ وَرِدِ الْإِفْضَالِ أَوْجَبَ حُمُولَ أَهْلِ

الفضائل، وَجُمُودَ مَوَادِّ فَضَائِلِ الْفَوَاضِلِ، وَرُكُودَ رِيحِ الْبَوَاعِثِ، وَكَسَادَ سَوَاقِ الْأَطْيَابِ بِتَفَاقٍ  
سُوقِ الْأَخَابِثِ، فَتَأَخَّرَ الْكِفَاةُ وَتَقَدَّمَ الْخُفَاةُ، وَعَلَّتْ عَلَى الرَّوْسِ الْأَخَامِصُ، وَذَهَبَ بِحِطِّ  
الْكَامِلِ النَّاقِصُ، وَعُدَّ الْفَضْلُ غِيًّا وَالْغِيُّ فَضِيلَةً، وَأَتَّخَذَ الْجَهْلُ إِلَى الْقَرَبِ مِنَ الظَّلْمَةِ وَسِيلَةً،  
فَالْوَزِيرُ الْجَاهِلُ مَا يُوَثِّرُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ، وَمَنْ يَخْشَى أَنَّهُ بِتَقْصِيهِ وَيَجْهَلُهُ  
يَهْتَفُ، فَعَادَ أَرْبَابُ الدَّوْلَةِ جُهَالًا لِرُسُومِ الْمُتَّقِينَ وَضُلَالًا لِشَرِيعَةِ الْخَيْرِ غَيْرِ مُؤْمِنِينَ، يَخْرُجُونَ  
أَخْلَاقَ الْمَمْلُوكِ عَلَى مَا يَدْخُلُ فِي أَخْلَاقِهِمُ الدَّمِيمَةَ، وَيَدْرَجُونَهُمْ لِحَيْثُ سَمَّيَهُمْ عَلَى حَنْثِ  
الشُّيْمَةِ، وَيَفْتَحُ شَرُّهُمْ لَهُمْ أَبْوَابًا قَدْ أَغْلَقَهَا الشَّرْعُ، وَيَضَعُونَ مَفَاسِدَ يَقْسُدُ بِهَا الْوَضْعُ، وَسَمَّوْا  
الْخَيْرَ عَاجِزًا وَالشَّرَّ كَافِيًا، وَالْجَانِي قَادِرًا وَالْقَدِيرَ جَافِيًا، وَأَتَتْ هَذِهِ السَّنُونَ عَلَى عُصْبَةِ ذَوِي  
عَصْبِيَّةٍ فِي الْإِيذَاءِ وَفِتْنَةٍ أَوْلَى فِيهِ غَيْرِ الْإِيْلَاءِ، لَا يُؤَلُّونَ حَسَنًا وَلَا يُحْسِنُونَ وَلَايَةً، وَلَا يَهْدُونَ رَأْيًا  
وَلَا يَرُونَ هِدَايَةً، وَلَا يَحْمُونَ جَارًا وَلَا يُجِيرُونَ حِمَايَةَ، وَلَا يَرَعُونَ جَمِيلًا وَلَا يُجْمِلُونَ رِعَايَةَ،  
فَهُمْ مُتَنَاسِبُو الطَّبَاعِ مُتَنَاسِقُو الْأَطْمَاعِ، إِنْ سُئِلُوا عَنْ كَرِيمٍ لَمْ يَدُلُّوا إِلَّا عَلَى مَنْ فَاقَهُمْ فِي اللُّؤْمِ،  
وَإِنْ اسْتَخِيرُوا عَنْ مَحْمُودٍ لَمْ يَقْرَظُوا بِالْجَلَادَةِ وَالْكَفَايَةِ غَيْرِ مَذْمُومٍ، فَلَا جَرَمَ لَمَّا اسْتَخَبَرَ  
السُّلْطَانَ عَمَّنْ يَصْلَحُ لِرِوَايَتِهِ وَيَرِخْصُ دُونَ نَزَارَةِ دَوْلَتِهِ بِفَيْضِ غَزَارَتِهِ لَمْ يُشِيرُوا عَلَيْهِ إِلَّا بِشَمْسِ  
الَّذِينَ أَبِي النَّجِيبِ، وَقَالُوا: هُوَ وَزِيرُ عَمِّكَ وَظَهِيرُ عَزْمِكَ وَمُفَوِّقُ سَهْمِكَ وَمُؤَمِّقُ هَمِّكَ، وَقَدْ  
سَبَقَتْ لَهُ حُرْمٌ وَتَبَّتْ لَهُ فِي الْقَدَمِ قَدَمٌ، وَإِنَّ صَمَمَهُ كَرَمٌ وَسَقَمَهُ صَحَّةٌ وَصِحَّتُهُ غَيْرُ سَقَمٍ، وَقَدْ  
حَنَكْتُهُ التَّجَارِبُ وَهَدَّبْتُهُ النِّوَابِثُ، وَتَنَقَّلْتَ بِهِ الْمَنَاصِبُ وَتَبَدَّلْتَ فِي السَّمُوبِ مِنَ الْمَرَاتِبِ، وَكَمْ مِنْ  
عَالِمٍ يَجْرُبُ فَهُوَ بَلِيدٌ، وَغَمِيرٍ قَدْ جُرَّبَ فَهُوَ سَدِيدٌ، وَالْكَفَايَةُ بِالتَّجْرِبَةِ مَنُوطَةٌ، وَالدَّوْلَةُ بِدُونِهَا مِنْ  
الْكَفَاةِ مَحْطُوطَةٌ، وَأَيُّ نَفْعٍ لِلسُّلْطَانِ بِمَنْ يَعْرُبُ بِالفِصَاحَةِ وَيُغْرِبُ، وَيُعْجِزُ بِالْحِصَافَةِ وَيُعْجِبُ،  
وَأِنَّمَا يُحْتَاجُ فِي هَذَا الزَّمَانِ إِلَى بَطَاشٍ يَفْتِكُ وَإِلَى قَتَالِكِ يِطُّشُ، وَتَقَاشٍ يَمْحُو وَمَحَاةٍ يَنْقُشُ،  
وَحَرِيصٍ يُشِيدُ وَشَدِيدٍ يَحْرُصُ، وَمُرْخِصٍ يُغَالِي وَغَالٍ يَتْرَخِصُ، وَمَوْجِزٍ يَلْخِصُ وَمُحْرِزٍ  
يُخْلِصُ، وَالْفَضْلُ فِي هَذَا الْأَوَانِ فَضُولٌ، وَالْعَدْلُ مِنْ خَلْقِ الزَّمَانِ عُدُولٌ، وَهَذَا الْوَزِيرُ قَدْ قَبِلَ  
خَلَاتِقَ خَالِهِ الْقِيَامِ فِي الْجَلَادَةِ، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ إِقْبَالَ الدَّوْلَةِ فِي الزِّيَادَةِ، فَاسْتَكْفَى بِكَفِّكَ خِلَافَ  
الْخُلَيْفَةِ، وَضَاعِفَ قُوَّتَهُ يُضَاعِفُ قُوَّةَ الدَّوْلَةِ الضَّعِيفَةَ، فَلَا تَخْشَ صَمَمَهُ فَإِنَّكَ تَأْمَنُ بِهِ مِنْ قَبُولِ  
الْمَطَالِبِ، وَجِدَّةُ بَصَرِهِ وَبَصِيرَتُهُ يُوقِفُكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْمَعَايِبِ، وَإِذَا صَلَحَ لِدَوْلَةِ عَمِّكَ  
فَهُوَ لِدَوْلَتِكَ أَصْلَحُ وَأَنْتَ بِصَفْقَتِهِ أَرِيحُ، فَإِنَّ عَمِّكَ وَكُلَّ الْأُمُورِ وَتَخَلَّى عَنْهَا وَأَنْتَ لَا تَكِلُهَا  
حَتَّى يَأْخُذَ بِحِطِّ التَّرْوِي فِيهَا مِنْهَا، فَأَنْتَ تُبْصِرُ بِبَصِيرٍ أَوْ تُؤَاوِرُ بِالرَّأْيِ وَزِيرًا، وَتُظَاهِرُ بِالْأَيْدِ ظَهِيرًا،

وَمَا زَالُوا بِالْسلْطَانِ حَتَّى أَمَلُوهُ إِلَيْهِ وَأَحَالُوهُ عَلَيْهِ، وَحَسَّنُوا مَسَاوِيَهُ وَعَرَفُوهُ أَنَّهُ لَا يَجِدُ مُسَاوِيَهُ، فَأَقْرَبَهُ بَعْدَ جَحْدِهِ وَقَرَّبَهُ بَعْدَ بَعْدِهِ، وَنَصَبَهُ فِي الْمَنْصِبِ وَرَتَّبَهُ فِي أَعْلَى الرَّتَبِ، وَاسْتَنْدَ وَتَصَدَّرَ وَأَوْرَدَ وَأَصْدَرَ، وَوَقَعَ وَعَلَّمَ وَمَثَلَ، وَكَثَّرَ وَقَلَّلَ، وَرَدَّ وَقَبَلَ، وَقَطَعَ وَوَصَلَ، وَأَحْزَنَ وَأَسْهَلَ، وَحَلَّ مَا أَشْكَلَ، وَدَاوَى مَا أَعْضَلَ، وَشَحَذَ وَقَلَّلَ، وَمَيَّلَ وَعَدَّلَ، وَرَاضَ وَذَكَّلَ، وَخَاطَبَ الْأُمَرَاءَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اسْتَأْثَرُوا بِالْبِلَادِ أَنْ يَتْرَكَ كُلُّ مِنْهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا فِي يَدِهِ لِتَكْثِيرِ الْخَوَاصِّ السُّلْطَانِيَّةِ، وَاسْتِضَافَ بِلَادًا عَامِرَةً إِلَى النُّوَاحِي الذِّيَابِيَّةِ فَذَرَّ الْخُلْفَ وَدَارَ الْخُلْفَ، وَتَوَقَّرَ الْاسْتِظْهَارَ وَظَهَرَ التَّوْفِيرَ، وَأَتَمَرَ الرَّجَاءَ وَرَجَا التَّمِيرَ، وَقَالَ لِلْسلْطَانِ قَدْ اتَّسَقَتِ الْأَحْوَالُ وَاتَّسَعَتِ الْأُمُورُ، وَانْتَهَمَتِ أُمُورُ الْجُمْهُورِ، وَابْتَسَمَتِ تُغُورُ الثُّغُورِ، وَقَدْ فَرَعَ الْبَالُ لِشُغْلِ بَغْدَادَ فَاسْتَرْجَعَ حَقَّكَ الْمَغْصُوبَ، وَلَا تَتْرَكَ بَخْتِكَ الْمَطْلُوبَ، فَإِنَّهَا دَارُ مُلْكِكَ وَدَرْ سُلْكَكَ، وَمَحَلُّ آبَائِكَ وَجَدُودِكَ، وَالْخِلَافَةُ تَوَامُهَا السُّلْطَنَةُ وَالْعَقْدُ بِهَا يَنْتَظَمُ وَالشَّمْلُ بِهَا يَلْتَمِثُ، وَأَنْتَ إِذَا مَضَيْتَ بِنَفْسِكَ فَمَا يَقْفُ بَيْنَ يَدَيْكَ أَحَدٌ، وَلَا يَكُونُ مَعَكَ لِأَحَدٍ يَدٌ، فَلَمَّا حَضَرَ الرَّبِيعَ مَائِدَتَهُ وَوَقَّرَ فَائِدَتَهُ وَأَحْسَنَ عَائِدَتَهُ وَقَلَّ مَشَارِبُ الْغَدِيرِ وَعَذِبَ مَشْرَبُ التَّمِيرِ، وَعَتَى الْهَزَارُ عَلَى الْعُودِ، وَاهْتَرَّتْ لِلطَّرِبِ عَطْفُ الْعُصْنِ الْأُمُودِ، وَبَلْبَلُ بَالِ الْبَلْبَلِ جُدُّ الْوَرْدِ، وَعَنْدَلَبُ الْعَنْدَلِيبِ شَائِقُ التَّقْلِ الْجَعْدِ، وَفَنَّتِ الْوُرُقَاءَ عَلَى الْأَفْنَانِ الْمُورِقَةَ بِالتَّقْرِيبِ فِي التَّغْرِيبِ، وَأَخَذَتِ الْيَمَامَةُ لِلْإِطْرَاءِ وَالتَّطْرِيبِ وَالتَّطْرِيبِ فِي الْإِنْشَاءِ وَالْإِنْشَاءِ وَالتَّشْيِيدِ عَادَ الْسلْطَانُ إِلَى هَمْدَانَ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِمَائَةِ، وَرَحَلَ عَلَى سَمْتِ بَغْدَادَ وَرَحَلَ عِدَّةَ مَرَّاحِلَ، وَتَرَكَ فِي قَصْدِهَا مَنَازِلَ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِعَادَ لِأَنَّ الْأُمَرَاءَ سَبَقَتْ مِنْهُمْ الْمُوَاعِدَةَ عَلَى الْمُعَاوَدَةِ أَخْلَفُوا الْعِدَاتِ وَلَمْ يَطَاوَعُهُ الْعَسْكَرُ عَلَى مُفَارَقَةِ الْبُيُوتِ وَالْإِطْعَامَاتِ، عِنْدَ إِدْرَاكِ الْغَلَاتِ وَإِنْبَاعِ الثَّمَرَاتِ، وَكَرِهُوا مَلَاسَةَ حَرِّ الْعِرَاقِ وَسُمُومِهِ، وَتَجَرَّعَ فِرَاقِ الْأَهْلِ وَسُمُومِهِ، فَانصَرَفَ رَاجِعًا، وَانفَصَلَ لِمُرَادِهِمْ مُطَاوَعًا، وَتَوَجَّهَ إِلَى أَدْرِيَجَانَ وَتَمَّ الْمَصَافَ الَّذِي نُصِرَ فِيهِ عَلَى عَمِّهِ سُلَيْمَانَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَقَرِّ مُلْكِهِ وَفِي قَلْبِهِ مِنْ أَمْرِ بَغْدَادَ هَمٌّ شَاغِلٌ وَجَمْرٌ فِي صَمِيمِ قَلْبِهِ وَإِغْلٌ، وَهُوَ فِي غِمَارِ غَمٍّ وَفِي خُمَارِ خَمِيرٍ وَضَغِينٍ وَسَكْرِ فِكْرٍ، وَفِي عَمِّ غَمَامَةٍ لَا تُقْشَعُ، وَفِي دَوَامِ أَسْفِ دَيْمَتِهِ لَا تُقْلَعُ، وَحَزْنِ حَزْنُهُ لَا يَسْهَلُ، وَشَجْنِ شَجَاهُ لَا يُمَهَلُ، وَمَرَضٍ يَذْكَو صَرْمَهُ، وَقَرَمٍ لَا يُمَحِي رَقْمَهُ، وَعَزِيمَةٍ تُذِيبُ الطَّوْدَ، وَصَرِيمَةٍ تُشِيبُ الْقَوْدَ، وَرَوِيَّةٍ تُجْبِلُ قِدَاحَ الْعُلَى وَتُسِيلُ مَاءَ الطُّبَى فِي جَدَاوِلِ الطُّلَى، وَهَمَّةٍ تَرُدُّ النَّقْعَ عَوْضَ الْقَطْرِ إِلَى السَّحَابِ وَتَشْمَلُ نَارَ الْفِرَاقِ فِي مَاءِ الرُّقَابِ، وَلَكُمْ حَاوِلٌ فِكْرٌ فِكْرِهِ وَجَاوِلٌ فِي مَكْرٍ مَكْرِهِ حَتَّى اسْتَبَانَ الرَّشْدَ وَاسْتَوْضَحَ سَبِيلَ الْقَصْدِ، وَعَلِمَ أَنَّ الْجُنْدَ لَا تُفَارِقُ بِلَادَهُ فِي الصَّيْفِ،

فَإِنَّهُ لَا يُجْمَعُ بَيْنَ حَرِّ بَغْدَادَ وَحَرِّ السَّيْفِ، فَوَاعَدَهُمْ إِلَى الْخَرِيفِ، وَأَمَّنَهُمْ مِنَ الْغَرْرِ الْمُخْتَفِ، وَاشْتَغَلَ بِالِاسْتِعْدَاءِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْاِحْتِشَادِ، وَتَجْهِيْزِ الْكُتُبِ إِلَى مُحَمَّدِ الْكِيَا فِي تَكْرِيزِ الْمَضَارِبِ وَتَمْيِيْزِ الطَّلَاعِ وَالْمَقَابِيْ، وَهُوَ لَا يَفْتَرُ لِهَمُوْمِهِ وَلَا يَغْتَرُّ لِيُجُوْمِهِ، وَلَا يَبْرُحُ يُنْقَبُ وَيَقْنَبُ وَيَكْتَبُ وَيَكْتَبُ، وَيُمْهِي الصَّوَارِمَ الصَّرَائِمَ، وَيَسْتَهْمِيْ عَمَائِمَ الْعَمَائِمِ، وَيَسْتَوْرِي صِلَادَ الصَّلَادِمِ، وَيَسْتَوْرِي حَيَاءَ الْحَيَازِمِ، وَيَفْتَحُ بِاللُّهُمَى الْهَى الْلَهَّازِمِ، وَيَعُوْلُ لِلْعَلَى عَزَّ الْعَزَائِمِ، وَيَنْتَظِرُ سَكُوْنَ غَيْظِ الْقَيْظِ وَالْحَرَكَةَ لِحِصِّ الْحِظِّ، وَيَسْتَبْطِئُ خُرُوْجَ الصَّيْفِ لِذُخُوْلِ الْخَرِيفِ وَاِحْتِمَادِ مَاءِ الْمَشْتَى نَارَ الصَّيْفِ، وَلَمَّا دَنَا الْفَضْلُ دَانَ الْوَصْلُ وَتَفَرَّغَ الْأَصْلُ وَتَقَرَّرَى النَّصْلُ زَحَفَ السُّلْطَانُ لِلْفَرَحِ وَجَهَّزَ بِالرَّهْجِ، وَأَوَّجَهَ فِي كُلِّ أَوْجٍ أَوْهَجَ وَكُلُّ أَوْهَجٍ أَوْهَجٌ وَكُلُّ أَوْهَجٍ أَوْجِيٌّ عَلَى صَهْوِيَّتِهِ مَنْ يُقُوْمُ بِذَاتِهِ الْمُتَقَفِّ مِنْ أَطْرَافِ الْمَلِكِ كُلِّ أَوْجٍ، وَكُلُّ ذِي بَأْسٍ بِأَسْلِ يُكِي الْوَرِيْدَ بِسَامِ الْفَرِيْدِ وَيُسَعْفُ ابْنَ الْغَمْدِ بِأَبْنَةِ الرَّنْدِ، حَيْثُ لَا مَاءَ إِلَّا فَوْقَ مَحْرَمٍ، وَلَا ظِلَّ إِلَّا تَحْتَ لَهْدَمٍ، وَلَا غَنَمٌ إِلَّا مَتَارُ أَقْتَمٍ، وَلَا بَرْقٌ إِلَّا جَرِيٌّ مُطَهَّمٍ، وَحَيْثُ رِيْحُ الطَّرَادِ يُسَمَّى فَرَسًا وَكَيْتُ الْغَابِ يُدْعَى فَرَسًا، وَوَجْهَ الشَّمْسِ يُخَالُ عَابِسًا، وَعَمَامُ النَّجِيْعِ يَهْطُلُ رَاجِسًا، وَكَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ ثَقْلَ خَطُوَاتِهِمْ إِلَى خَطِيئَاتِهِمْ، وَأَنَّ سَعِيْهِمْ بِالْبَغْيِ وَالْعَبْيِ إِلَى غَابَاتِ عُنَايَاتِهِمْ، وَأَنَّ مَشِيْهِمْ لِشِيْمِهِمْ بَوَارِقِ الْبَوَارِ، وَأَنَّ مَنْ اِكْتَسَى بِمَا اِكْتَسَبَ مِنَ الْخُرُوْجِ عَلَى الْإِمَامِ غَيْرِ عَارٍ مِنَ الْعَارِ، وَلَا هُوْرَانٍ إِلَّا إِلَى النَّارِ، فَثَارُوا أَبْطَالًا طُلَابَ نَارٍ، وَسَبَقُوا عَلَى ضَوَامِرٍ لَا تُسْبِقُ عَلَى مَضْمَارٍ، بِكُلِّ طَرُوبٍ أَدْعَى الْحَسَامَ مَرَقَ ثَوْبِ الْعَجَاجَةِ، وَصَلَدَمَ بِحَافِرِهِ الْحَافِرِ يَصْدَعُ الطَّوْدَ صَدْعَ الزُّجَاجَةِ، وَكُلُّ أَدْهَمٍ يُنْسَبُ إِلَى سَوَادِ الْقَلْبِ وَالنَّاطِرِ، وَكُلُّ أَشْهَبٍ يَشْتَعَلُ مِنْ خَوْضِهِ بَحْرُ الصَّبِيْحِ الزَّاحِرِ فِي كُلِّ مُزَاجِمٍ لِلتَّنْفِيْعِ حَتَّى يَشَقَّ بَرْدُهُ، وَكُلُّ مُنَاطِحٍ لِلْمَوْتِ حَتَّى يَخْرُ عَنْدَهُ، وَسَارُوا وَالْأَرْضُ تَشْكُو إِلَى السَّمَاءِ وَجَوْرُ الْفَلَايِيْثِ نَفَثَاتِ صَدْرِهِ إِلَى الْجُوزَاءِ، وَالْقَدْفُ تَرَقَّبُ رَسْلَهُ إِلَى الْفَرَقْدِ، وَالْجَوْ مُصَوَّبٌ بِبَارِقِي الصَّارِمِ الْمُجَرَّدِ وَالسَّابِقِ الْأَجْرَدِ، وَلَلْقَنَا أَعْيُنٌ تَنْظُرُ وَلِلطَّبِي أَلْسُنٌ تَزْخَرُ، وَلِلصَّوَارِمِ وَجُوهُ تُسْفِرُ، وَلِلصَّلَادِمِ بُحُوْرٌ تَزْخَرُ.

ذكر وصول السلطان محمد شاه إلى محاصرة بغداد وما اعتمده أمير المؤمنين المقتضي لأمر الله من حسن الصبر والمعقب حميد الظفر والنصر في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وصل الخبر إلى بغداد أن محمد شاه قد قرب في عسكر هائل في السماء قتاه، وقد أقبل على الضياء بالظلام وقصد منازل الإلهام

بِمَنَازِلِ اللَّهِامِ، وَعَارَضَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَصَارَعَ الْحَالِيَّ بِالْعَاطِلِ، وَأَطَاعَ الْعَصِيَانَ، وَخَالَفَ الْإِيمَانَ، وَحَالَفَ الشَّيْطَانَ، وَالغِيَّ مِنَ الرَّشْدِ وَالْبَغْيُ دَانَ مِنْ بُغْدَانِ، وَهُوَ بِمَنْزِلِ قَصْرِ قُضَاعَةَ، وَقَدْ اسْتَصْحَبَ الْفِطْرَةَ وَالْفِطَاعَةَ، وَفَرَضَ الْمَعْصِيَةَ وَرَفَضَ الطَّاعَةَ، وَشَانَ شَأْنَهُ وَمَا سَنَا السَّاعَةَ، فَصَدَّقَ اهْتِمَامَ الْإِمَامِ بِالْإِحْتِرَاءِ وَالْإِحْتِرَاسِ، وَأَجْرَّ لِبَاسَ الْجَدِّ لِلْبَاسِ، وَأَشَاعَ نَدَاهُ النَّدَاءَ بِأَيْنَاسِ النَّاسِ، وَبَالَغَ فِي تَحْصِيلِ الْعَدَدِ وَتَحْصِينِ الْبَلَدِ، وَتَفْرِيقِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِ الرِّجَالِ، وَأَدَارَ مِنَ الْمُنْجَنِيقاتِ سُوراً عَلَى السُّورِ، وَأَمَاطَ مِنْ سَنَا عَرَفِهِ وَسَنِي حَزْمِهِ نوراً عَلَى نَوْرِ، وَمَلَأَ الْأَبْرَاجَ بِالْحُمَاةِ الْكُمَاةِ، وَكَانُوا صُقُوراً فِي قُصُورِ وَأَجَادِلَ فِي وَكُورِ، وَصَارَ بَغْدَادُ حِصْناً دُونَهُ مِنْ مَمِي الْمَصِيفِ رُتْبَةً، وَمِنْ حَرَقِ الْمَهْنِدِ خَنْدُقٌ وَمَعْقِلٌ، أَحَاطَ بِهِ التَّوْفِيقُ وَحَاطَهُ التَّوْبِيقُ، وَلَهُ مِنْ حَوْطَةِ اللَّهِ مَوْتِقٌ، وَخَرَجَ الْوَزِيرُ عَوْنُ الدِّينِ بْنِ هُبَيْرَةَ وَخَيْمَ تَحْتَ التَّاجِ الشَّرِيفِ عِنْدَ الْمُثَمَّنَةِ عَلَى شَاطِئِ دِجْلَةَ، وَسَدَّدَ الْخَلَلَ وَسَدَّ الْخِلَّةَ، بِحَيْثُ يُظَلُّ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْمُثَمَّنَةِ عَلَى خَيْمَةِ وَزِيرِهِ وَيُشْرِكُهُ فِي تَدْبِيرِهِ، وَيَقْرُبُ عَلَيْهِ الْاسْتِثْمَارَ فِي دَفِيقِ الْأُمُورِ وَجَلِيلِهِ وَكَنْيَرِهِ وَقَلِيلِهِ، وَأَخْرَجَ الذَّهَبَ وَأَذْهَبَهُ فِي الْخَرْجِ، وَتَهَجَّ الْخَيْرَ بِالْجُودِ وَالْجُودَ خَيْرٌ النَّهَجِ، وَفَتَحَ بَابَ الْكِرَمِ الْمُتَرَجِّجِ الْمُتَرَجِّجِ، وَتَبَّتْ قَلْبَ الْإِسْلَامِ الْمُتَرَجِّجِ، وَأَحْسَنَ وَحَصَنَ، وَمَكَّنَ وَمَكَّنَ، وَهَبَّ وَوَهَبَ وَرَغَبَ وَرَهَبَ، وَجَادَ وَجَدَّ، وَأَجَدَّ، وَأَعَدَّ الْعُدَّةَ الْخَاصَّةَ وَالْخَرَجِيَّةَ، وَاسْتَخْدَمَ الْمُنْجَنِيقيَّةَ وَالْجَرَّخِيَّةَ، وَرَزَقَ الرِّزَاقَيْنِ، وَاسْتَكْتَمَ مِنَ الْخَدَّافَيْنِ الْخَرَّاقَيْنِ، وَجَرَّ الْأَحْدَاثَ وَحَدَّثَ أُولِي الْجَرَاءِ، وَأَشَعَرَهُمْ بِالْهَدَّةِ بَعْدَ إِشْعَارِ الْهَدَاءِ، وَأَحْمَى دَوِي النَّخْوَةَ وَنَحَى أَهْلَ الْحَمِيَّةِ، وَقَوَى دَوِي الْأَيْدِ وَالْأَيْدِي الْقَوِيَّةَ، وَكَانَ مِنْ حَزْمِ الْخَلِيفَةِ وَمَضَاءِ عَزْمِيَّةِ الشَّرِيفَةِ أَنَّهُ مَذُ تَوْفِي السُّلْطَانِ مَسْعُودُ وَيُفِي مَسْعُودُ الْبَلَالِيِّ مِنْ بَغْدَادِ أَوْعَزَ بِإِعْدَادِ الذَّخَائِرِ وَإِذْخَارِ الْعُدَّةِ، وَالْاسْتِظْهَارِ بِشُغْلِ صُنَاعِ السَّلَاحِ بِصَقْلِ الْبَيْضِ وَجَلَاءِ الْبَيْضِ، وَسَرْدِ الزُّرْدِ، وَكَانَتْ حِجَارَةُ الْمُنْجَنِيقيِّ مُعْوَرَّةً، فَأَحْضَرَ مِنْهَا فِي السَّفِينِ أُلُوفاً صَارَتْ مُحْرَرَةً، وَأَمَرَ بِنَاءِ الْمَرَاقِبِ الْمُقَاتِلَةِ وَالسَّفِينِ، فَرُغْنَ فِي دِجْلَةَ رَاسِيَاتٍ كَالرُّعْنِ، فَأَلْجِيوشُ مُهْمَمَةٌ وَالْهَمَمُ مُسْتَجِيشَةٌ، وَالزِّيَاشُ وَافِرُ السَّهَامِ وَالسَّهَامُ مَرِيشَةٌ، وَيَحْرُ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ مَمْتَوِّجٌ، وَلِسَانُ النَّمُوتِ الْأَخْمَرِ مُمْتَلِجِجٌ، وَجَمْرُ الْعَدُوِّ الْأَزْرَقِ مَمْتَوِّجٌ، وَيَرْقُ الْفِرَنْدِ الْبَيْضِ مَمْتَوِّجٌ، وَلَقِحَ الْخَطْبُ الْأَسْوَدُ مُمْتَأَجِّجٌ، وَصَهِيلُ الْأَغْرِّ الْأَدِيمِ مُمْتَهَزِّجٌ، وَصَبِحَ الْيَوْمِ الْأَغْبَرُ مُمْتَلِجِجٌ، وَنَاطِرُ اللَّيْلِ الْمُقِيمِ مُمْتَرَجِّجٌ، وَنَشْرُ عَطْرِ مَنَشِيمِ مُمْتَأَرِّجٌ، وَخَدُّ الْوَرْدِ الْمُطَهَّمِ مُمْتَصَّرِّجٌ، وَطَرَفُ الرَّأْيِ بِالتَّوْفِيقِ مُلْجَمٌ مُسَّرِّجٌ، وَصَدْعُ شَمْلِ اللَّيْلِ وَالْحَيْلِ فَلَقَّ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ وَقِيلَقَهُ، وَتَفَخَّتْ

ريحُ النصرِ في نارِ الحَفِيظَةِ فَهِيَ تَحْرُقُ حِجَابَ الْعِجَاجِ وَتَحْرِقُهُ، وَعَبَّرَ مُحَمَّدُ شَاهِ دَجَلَةَ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ أَعْلَى بَغْدَادَ عَلَى بُعْدٍ مِنْهَا بِجَمْعِهِ، وَرَاعَ كُلَّ قَلْبٍ بِصَدْوَعِهِ، وَغَرِبَتْ نُجُومٌ لِيَالِي السَّكِينَةِ بِطُلُوعِهِ، وَكَانَ قَدْ وَعَدَ زَيْنُ الدِّينِ عَلِيٌّ كُوجُكَ فَوَصَلَ بِعَسْكَرِ الْمُوصِلِ يَوْمَ الْمِيْعَادِ، فِي وَفُورٍ مِنَ الْعُدَّةِ وَالْأَعْدَادِ، وَسَفُورٍ مِنْ وَجْهِ الْبَيْضِ الْحِدَادِ، وَالشَّمْرِ الصُّعَادِ، وَأَطْلَوْا مِنَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ عَلَى بَغْدَادِ، كَأَنَّهُمْ هَضَابٌ عَلَى هَوَاضِبٍ، وَطَلَانَعٌ عَلَى غَوَارِبٍ، وَأَجَادُلٌ عَلَى مَرَايِبٍ، وَسَرَاخِينُ عَلَى سَرَاحِيْبٍ بِتَلَاهِبٍ، مِنْ كُلِّ صَخَبِ الشَّوَارِبِ عَلَى صَوَاهِلِ شَوَايِبٍ، وَمِنْ رَاكِبِي دُهْمٍ كَأَنَّهُمْ كَوَاكِبُ فِي غِيَاهِبٍ، وَقَانِدِي شُهْبٍ كَأَنَّهُمْ عَقُودٌ عَلَى تَرَائِبٍ، وَمَمْتَطِي شُقَيْرٍ كَأَنَّهُمْ بُرُوقٌ فِي سَحَابٍ، وَكَدَّرُوا الْمَشَارِبَ، وَعَوَّرُوا الْمَذَاهِبَ، وَعَوَّرُوا الْمَوَاهِبَ، وَوَفَّرُوا الْمَصَائِبَ، ثُمَّ بَكَرُوا وَأَشْرَفُوا وَيَالَعُوا فِي الْعُتُوِّ، وَأَسْرَفُوا وَوَقَفُوا بِأَزَاءِ التَّاجِ الشَّرِيفِ وَرَأَاهُ بِكُلِّ خُسْفٍ وَسُخْفٍ، وَرَأَاهُ وَسَامُوهُ كُلَّ عَسْفٍ وَعَصْفٍ وَسَامُوهُ، وَمَارَأُوهُ حَتَّى مَارَأُوهُ، وَمَا عَدُوهُ حَتَّى عَادُوهُ، وَيَدَّهُوا بِالْقَبَائِحِ وَيَالْفَضَائِحِ بَدَأُوهُ، وَشَرَعُوا فِي الشَّبَعِ غَامِضِينَ شَرَفَ الرَّيْعِ، جَارِينَ عَلَى سُوءِ الطَّيْعِ، وَبَعَثُوا مِنْ مَعَاجِنِ قَسِيهِمْ غُرُوبَ النَّبْعِ، وَجَرَّحُوا مِنَ النَّظَارَةِ قَوْمًا أَحْسَنُوا بِهِمُ الظُّنُونَ وَأَمِنُوا مِنْهُمُ الْمَنُونَ، فَإِنَّهُمْ مَا اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَبْلُغُونَ فِي الْبَغْيِ إِلَى شَهْرِ السَّلَاحِ، وَالنَّجْهِرِ بِالْكَفَاحِ، وَاجْتَرَحَ الْجِرَاحِ وَالْإِنضَاحِ، وَجَنُوا بِالْجُرُوحِ جُرُوحًا، وَنَكَبُوا رُوحًا وَنَكَبُوا رُوحًا، وَوَلَدُوا بِالْدَوَاهِي خَرَبًا لَقُوحًا، وَأَصْلُوا تِلْكَ الْعَرَبِيَّةَ الْمُتَنَكَّرَةَ غَبُوقًا وَصَبُوحًا، فَجَرَى فُجُورٌ وَجَرَّتْ أُمُورٌ، وَدَهَتْ دَوَاهٍ وَرَكِبَتْ مَنَاةٌ مِمَّنْ هُوَ بِيْهَمَا مُتْبَاهٍ، وَعِنَهَا غَيْرُ مُتْبَاهٍ، وَمَاءُ الْحَيَاءِ مِنْهُمْ ذَاهِبٌ وَعَقْدُ الدِّينِ مِنْهُمْ وَاةٌ، وَقَابَلُوا الْفَرَضَ بِالرَّفْضِ، وَقَاتَلُوا اللَّهَ بِقِتَالِ خَلِيفَتِهِ فِي الْأَرْضِ، وَتَزَلُّوا عَلَى بُعْدٍ مِنْ بَغْدَادَ حَتَّى تَأَلَّفَتْ أَلُوفُهُمْ وَالتَّفَّ لَفِيْفُهُمْ، وَتَصَرَّفَتْ صُرُوفُهُمْ، وَاسْتَرْهَفَتْ سُبُوفُهُمْ، وَاسْتَشَقَّتْ رِيحُ الْأَنْفِ أُنُوفُهُمْ، وَسَيَّرُوا إِلَى وَاسِطِ الْبَصْرَةِ وَالْحِلَّةِ وَالْكَوْفَةِ وَوَلَاةَ الْمُقْطَعَيْنِ وَشُحْنًا وَمُنْصَرِّفَيْنِ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ كُلَّ يَوْمٍ يُسَيِّرُ عَسْكَرَهُ فِي مَرَاكِبٍ مَمْلُوءَةٍ بِمَقَابِلٍ، وَفِيهَا الْمَجَانِيقُ الْخِفَافُ وَالْعَرَادَاتُ اللَّطَافُ، وَالرُّمَاهُ الْكُمَاهُ وَالنَّجْرُخِيَّةُ الْكِفَاهَةُ، فَيُحَادِثُونَ الْمُعْسَكَرَ الْمُحَمَّدِيَّ فِي دَجَلَةَ وَيَرْمُونَهُمْ وَيَسُوقُونَهُمْ وَيُصْمِنُونَهُمْ حَتَّى رَأَى السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهُ التَّنَقُّلَ إِلَى حَوَالِيِ أَسْوَارِ بَغْدَادِ، فَجَاءَ وَتَزَلَّ عَلَى الصَّرَاةِ بِدَارِ يَرْنَقِشُ الزُّكُوفِيَّ وَعَبَّرَ أُمَرَاءَهُ الْأَكَابِرَ إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِثْلَ أَتَابِكِ إِيَّازٍ وَعَزَّ الدِّينِ سَتَمَازَ، وَمَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ مِنْ ذَوِي الْإِعْتِرَازِ، وَيَقِيَّ عَلِيَّ كُوجُكَ بِالْعَسْكَرِ الْمُوصِلِيِّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَالسُّلْطَانُ مَعَهُ وَهُوَ فِي

دجلة إلى دار السلطنة في جانب بغداد في كل وقت ويعود، والبيض قد هجرتها الغمود،  
والعقول قد انحلَّت منها العقود، والوشح تزار في غابة الأسود، والذكور خاطبة عرائس  
المهج والخطوب شهود، وللخيل لبات معوزة للجراح وخدود، فمن شهب تتأري الشهب  
في انقضاضها فلها تارة هبوط وتارة صعود، ومن دهم أيام سبقها بما يُبئره كالليالي سود،  
ومن شقر وردية بها عند الظمأ على نطاف الوريد وروء، وتبرُّز خيل بغداد في كل يوم منها من  
يأتي سور السلطان ويظف به ويقف خلف الباشورة المبنية للحملة على من يكون منهم في  
الحاشية فهم يخرجون ويخرجون فإذا جالوا وصلوا سئل منهم ونالوا، ثم عادوا  
ودخلوا وتحدثوا بما عملوا، فيأمر لهم الخليفة بالعتاء على قدر بلائهم، وقد كان أثبتهم  
بأسمائهم، وكان على كل جراحة على مقدارها عطاء، ولكل عمل مبرور بالاحسان جزاء،  
فتوافرت بواعث العامة على التهاوت في نار الحرب تهاوت الفراش في النار للفرج عند العود  
بالدين والدنيا، فالوسع منهم مبدول والبُدول لهم واسعة، والجماعة طائفة والطاعة جامعة،  
والقتال على بغداد يغادي ويراوح، ويماسي ويصايح، والصفاح يصابح، وبرح الحرب لا  
ييارح، والضباع تضايح، والقوادح لوافح، والدماء سوافح، والقلوب جرائح، والطلانح  
طلائح، والوجوه كوالح، والرؤوس طوائح، والسوابح بالنجع سوابح، وفي النواحي  
من سن الإغارات وإغراء الشنأة نوايح، والقرى معدومة القرى، والرعاة مفصومة العرى،  
والقراغ يدق القرى، والبراز يقد البرى، وللكفاح كف لا يكف، وللجراح جفن لا يجف،  
ورسل المنايا عن الحنايا مرسله، والأرض بأشطان الرماح مطبته، وينسج أيدي المقربات  
مظللة، ونيران المناصل في مياه المقاتل من مساعير الحرب ومحازيب السعير مشعلته،  
والمران مخطمة والمنازل مخطمة، والحنايا حناته والمنايا متانه، والمنازل نواز والرزايا  
رواز، وحق الحقيقة مجازي بمجاز، وخطوط الحظوظ في الحضيض بلا موازين ولا موازر،  
والبلد محصور والجلد مهصور، والخلد على الهمة مقصور، والحق مع خذلان أهل الباطل  
له منصور، والمبطلون في كل يوم ينقصون وينقصون ويخسرون ويخسرون، ويحملون  
ويحملون، ويوافقون ويقعون، وتحوُّر العتاق لعناق الأسته متعودة، ولا فحات ضرام الضمر  
في عاصفات رياح الأعتة متوقدة، ونظائم عقود الهام في ترائب التراب متبذدة، وسن الموت  
بين الأرواح والأشباح بالسن النصال الجداد والصفاح الفصاح مترددة، وطالت مدة الحصار  
ولم يؤثر في الأسعار، وما عز غير اللحم ولا غير الملح، والأمل متقرب النجح، والليل

مُرْتَقِبُ الصُّبْحِ، وَخُسْرَانُ الْحَصَمِ دَلِيلُ الرِّيحِ، وَالْكِبَاشُ فِي النَّطْحِ، وَالزَّنَادُ فِي الْقَدْحِ، وَالْجَدُّ قَدْ أَهَى عَنِ الْمَرْحِ، وَكَانُوا قَدْ نَصَبُوا مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي مِنْ دَجَلَةَ عَلَى مُسْنَاةِ دَارِ الْعَمِيدِ وَيَقْرُبِ الْقَمْرِيَّةِ مَنْجِنِقَيْنِ عَظِيمَيْنِ كِلَاهُمَا يَرَقَى سَهْمُهُ عَنِ جَنْبِهِ الْحَيْنِ، وَالْمَنْخَنِقَاتُ فِي الْبَلَدِ وَفِي الشُّفَنِ بِأَزَائِهَا مَنْصُوبَةٌ، وَسَيَاطُ الْعَذَابِ مِنْهَا عَلَيْهَا مَصُوبَةٌ، وَقَدْ أَبَتِ الْخُطُوبُ أَنْ تَخْطُبَهُمْ إِلَّا عَلَى مَنَابِرِهَا وَأَنْ تَشُدَّ أَفْوَاهَ أَمَانِيهِمْ إِلَّا بِحُجْرِهَا، وَأَبَتِ الدَّوَاهِي أَنْ تَلْدَ عُقْمَ الْحَوَادِثِ إِلَّا عَلَى كُرْسِيِّ طَلِقِهَا، وَأَنْ تَنْقُصَ نُجُومَ الرُّجُومِ عَلَى شَيَاطِينِهِمْ إِلَّا مِنْ أَفْقِهَا، وَصَارَ كُلُّ صَخْرٍ حَيْنًا لِمَا يَأْتِفُهُ، وَكُلُّ حَجَرٍ الشَّرِيدُ عَنِ مُسْتَقَرِّهِ مِنْ رِصْفِ صَفِّهِ، وَهَمُّوا بِنَصْبِ مَنْجِنِقٍ عَلَى الْخَانِ الَّذِي بَنَاهُ سَرْخُكَ مُقَابِلَ التَّاجِ، وَلَوْ تَمَّ ذَلِكَ لَأَعْضَلَ دَاءَ الْإِزْعَاجِ، وَجَلَّ ضَيْقُ الْخَطْبِ عَنِ الْإِفْرَاجِ، فَعَبَّرَ الْخَلِيفَةُ كَيْلًا رَجَالًا أَتَوْا بُنْيَانَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ، وَلَكَانَ لِيُوقِعَهُ سَحْرًا رَجَفَاتِ كَأَصْوَاتِ الرِّوَاعِدِ، وَهَذَا الْخَانُ وَإِنْ أُرِيدَ بِنْيَانِهِ وَجَهُ اللَّهِ لَكِنَّهُ أُسِّسَ عَلَى غَيْرِ تَقْوَى، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي النُّفُوسِ أَنَّ الْعِمَارَاتِ آسَاسُهَا بِالتَّقْوَى تَقْوَى، فَإِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ لَنَا بَارِثُ الْعَمِّ الْعَزِيزِ فَغَضَبَهَا سَرْخُكَ وَبَنَاهَا، فَاحْبِطِ اللَّهُ عَمَلَهُ وَأَهْبِطْهَا وَأَهْوَاهَا، وَلَقَدْ دَخَلْتُ ذَاتَ يَوْمٍ مَعَ شَيْخِي شَرَفِ الدِّينِ يَوْسُفَ الدَّمَشَقِيِّ إِلَيْهِ لِيَكَلِّمَهُ فِي الْمَوْضِعِ وَيَسْتَنَّ لَهُ وَيَحْظَرَ عَلَيْهِ مَا هُوَ مُسْتَحِلُّهُ وَلَمَّا خَاطَبْنَاهُ كَانَ جَوَابَهُ أَنْ قَدْ بَنَيْتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَلَكُمْ ثَوَابُهُ، وَكَانَتْ عِمَارَةٌ بِنَاءً إِلَى الْخَرَابِ مَابَةٌ، وَكَانَتْ السُّفُنُ الْمُتَرَدِّدَةُ فِي دَجَلَةَ بِرُومَةِ الْجُرُوحِ وَالنُّشَابِ وَالْقَوَارِيرِ الْمُحْرِقَةِ وَالنَّفَاطَاتِ الْمُزْرَقَةِ وَالْعَرَادَاتِ الْحَلْقَةَ قَدْ آذَتْهُمْ وَأَذَتْهُمْ بِعَجْزِهِمْ، وَعَزَّتْ بِأَرَاهِقِهِمْ فَأَرْهَفَتْ رُوحَ عِزِّهِمْ، وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مَرَاقِبُ إِلَّا عِدَّةٌ يَسِيرَةٌ يُسَخَّرُونَ مَلَاحِيهَا وَيَخْسَرُونَ مَالِكِيهَا، وَلَا يَتَّقُونَ بِالرُّكُوبِ مَعَهُمْ فِيهَا، فَحَارُوا وَخَارُوا وَتَشَاوَرُوا وَاسْتَشَارُوا، فَقَالَ لَهُمْ بَدْرُ بْنُ الْمُظْفَرِ بْنِ حَمَّادِ صَاحِبِ الْعُرَافِ وَقَدْ كَانَ جَاهَرَ لِخَلِيفَتِهِ بِالْخِلَافِ، أَنَا أَكْفِيكُمْ بِسُفْنٍ مُقَاتِلَةٍ، وَأَعْنِيكُمْ بِمَرَاقِبٍ حَامِلَةٍ، وَجَوَارِي مُنْشآتٍ وَزَوَارِقٍ وَشَقَارَاتٍ وَذَلِكَ مِنْ بَلَدٍ وَاسِطٍ وَالبَطَانِحِ، مِنَ الدَّنَائِي وَالنَّازِحِ، وَلَكِنَّهُمْ يُقِيمُونَ وَلَا يُرِيمُونَ وَيَرْتَكِبُونَ إِلَى مَا أَحْضَرَهُ لَكُمْ بَعْدَ أَسْبُوعَيْنِ وَيَسْتَتِيمُونَ فَإِذَا أَحْضَرْتَ الْمَرَاقِبُ أَحْبَدْتَ الْعَوَاقِبُ وَشَجَنْتِ بِالْأَسَاوِدِ الْعَقَارِبِ وَضَوِيقَتْ بِهَا الْمَذَاهِبُ، وَهِيَ الْكُوَاسِرُ الْكُوَابِسُ وَالذَّوَاهِبُ وَالنَّوَاهِبُ، وَالسَّوَارِي السَّوَارِبُ وَالصُّوَارِي الصُّوَارِبُ، وَالشُّهْبُ الثَّوَابِقُ وَالغَرَابِيبُ الْغَرَائِبُ، وَالسَّهَامُ الصَّوَابِقُ وَاللَّوَاغِبُ الْعَوَالِبُ، وَإِذَا تَقَحَّحْتَ بِهَا الْأَحْزَابُ تَمَحَّحْتَ الْحَوَارِبُ فَهِيَ عَلَى حَقِيقَةِ مَفَاتِيحِ مَعَالِقِ هَذَا الْفَتْحِ، وَمَقَالِدِ رِتَاجِ هَذَا

النُّجْحِ، وَبَعِيرَهَا لَا يَهْجَمُ دَجَلَةَ وَيُسَوِّي تَقَاصِيلَهَا لَا يَمْلِكُ الْحَمَلَةَ وَالْأَبْحَمَالَ لَهَا لَا تَصْدُقُ الْحَمَلَةَ وَبِهَا تَجَسَّرُ عَلَى الشَّدَائِدِ وَتَشُدُّ الْجُسُورَ، وَتُكْسِرُ الصَّحَائِحَ وَتُصَحِّحُ الْمَكْسُورَ، فَحَمْدُوهُ وَشُكْرُوهُ، وَمَضَى وَأَقَامُوا وَانْتَظَرُوهُ، حَتَّى وَصَلَ بِالسَّفِينِ الْخِيفَافِ وَالثَّقَالِ وَالْمَلَاخِينِ وَالرَّجَالَ، امْتَنَعَ عُبُورَهُمْ فِي الْبَلَدِ إِلَيْهِمْ وَرَتَّبَ الْخَلِيفَةُ الرِّجَالَ فِي الْمَرَكَبِ لِلِقَائِهَا، وَإِحْرَاقِهَا بِالنَّارِ وَإِرْدَائِهَا، وَلَمَّا شَقَّ عَلَيْهَا شَقُّ الْمَاءِ وَلَا سَبِيلَ لَهَا إِلَى الرِّشَاءِ وَلَا طَرِيقَ إِلَى الْإِجْرَاءِ رَدَّوْهَا إِلَى بَعْضِ مَذَائِبِ الْفُرَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِدَجَلَةَ مَسَائِلُ مَائِهَا، وَتَعَسَّفُوا الْمَتَاعِبَ فِي شَدِّهَا بِالْحِبَالِ وَحَمَلِهَا بِالرِّجَالِ فِي مَضَاتِقِ تِلْكَ الْمَتَاعِبِ وَالْقَائِهَا وَمَدَّوْهَا إِلَى الْفُرَاتِ وَرَدَّوْهَا إِلَى نَهْرِ عَيْسَى، وَأَخْرَجُوا فَوْقَ بَغْدَادَ إِلَى الصَّرَاةِ وَتَكَامَلَتْ مُدَّةَ شَهْرٍ لِتِكَامِلِ مَدِّهَا، وَتَوَاصَلَ جَدُّهُمْ لِتَوَاصُلِ جُنْدِهَا، وَأَعِيدُوا بِصَدِيقٍ وَعَدِهَا فِي قَصِيدِهَا وَاسْتَدَّوْا بِشَدِّهَا، وَجَادُوا بِالْوَفْرِ لِيُفِيدِهَا، وَأَفَادَتْهُمْ تِلْكَ السَّفِينُ أَجْنَحَةَ الْإِنْتِهَاضِ إِلَى الْإِعْتِرَاضِ وَأَسْلِحَةَ اعْتِرَاضِ الْعَضَاضِ، وَرَكَّبَتْ فِيهِمُ الْمَرَكَبُ الْقَوَائِمُ قَوَائِمَ، وَأَعَارَتْهُمْ تِلْكَ الْجَوَارِي الْقَوَائِمُ فِي الْمَاءِ قَوَائِمَ، وَطَارُّوا وَطَاشُوا وَطَالُوا وَجَاشُوا، وَتَبَعُوا وَتَبَّعُوا وَتَزَعُوا وَتَزَعُوا، وَبَالَغُوا وَبَلَغُوا وَصَنَعُوا وَصَبَّغُوا، وَصَدَعُوا وَصَدَّعُوا وَرَدَّعُوا وَرَدَّعُوا، وَضَغَمُوا وَمَضَّغُوا وَأَرَزَمُوا وَأَرَزَمُوا، وَتَحَرَّكُوا بَعْدَ السُّكُونِ، وَعَادُوا إِلَى تَرْصِيفِ الصُّفُوفِ وَتَنْصِيفِ الصُّفُونِ، وَدَبَّ الْمَاءُ فِي عُودِهِمْ بَعْدَ الذُّبُولِ، وَحَلُّوا عِقَالَ الْعُقُودِ بَعْدَ حُلُولِ الْعُقُولِ، وَبَدَّأُوا بِعَقْدِ جَسْرِ عَلَى دَجَلَةَ فَوْقَ دَارِ السُّلْطَانِ مِنْ تِلْكَ الزُّوَارِقِ، وَاتَّسَعَتْ طَرِيقُهُمْ فِي الْعُبُورِ بِالتَّغْرِيبِ وَالتَّشْرِيقِ، وَضَاقُوا فِي الْخِصْرِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَشَدَّدُوا فِي مَنَعِ الْمَيْرَةِ وَجَلَبِ الْأَطْعَمَةِ وَالْأَقْوَاتِ بِجَدْعِ الْأَنْوْفِ وَقَطْعِ الْيَدَيْنِ، وَأَفْحَسُوا فِي الْحَرَائِمِ وَأَوْحَشُوا بِالْعِظَائِمِ، وَاسْتَحَلُّوا كُلَّ مُحْرَمٍ وَاسْتَحَلُّوا كُلَّ مَائِمٍ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَلَّةِ امْرَأَةٌ بِنْتُ أَسِيدٍ وَرَجَالُهَا وَقَتَاكُهَا وَأَبْطَالُهَا، فِي آلَافٍ مِنَ الرِّجَالِ لِلرُّوْعِ الْآلَفِ، وَأَخْيَافِ لِلْمَوْتِ أَخْلَافِ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا بِالْعَسْكَرِ مِنَ التَّدْوِبِ، وَمَا مَلَكَهُ الرُّعْبُ مِنَ الْقُلُوبِ، وَأَنَّ الْحُرُوبَ عَضَّتْهُمْ بِنَوَاجِذِهَا، وَصَيَّقَتْ عَلَيْهِمْ فِي مَآخِذِهَا، فَاسْتَهْوَنُوا مَا اسْتَهْوَلُوهُ، وَاسْتَعَجَلُوا مِنَ الْحَتْفِ مَا اسْتَأْجَلُوهُ، وَقَالُوا هَذِهِ بَغْدَادُ مِنْ جَانِبِ دَجَلَةَ مَا عَلَيْهَا سُورٌ وَتَوَانِيكُكُمْ فِي هَجْمِهَا قُصُورٌ وَفُتُورٌ، فَسَلَّمُوا إِلَيْنَا الْمَرَكَبَ لِتَهْجَمَهَا وَمَا أَسْهَلَ عَلَيْنَا أَنْ نَفْتَحَهَا، وَلَا يَقَعُ بِالْفَتْحِ إِلَّا مَنْ يَقَعُ وَإِلَّا مَنْ لَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنْ مَظَنَّةِ الْخَوْفِ وَأُذِنَ لَهُمُ السُّلْطَانُ فِي الرَّحْفِ فَرَكِبُوا الْمَرَكَبَ مُسْتَلِيمِينَ مُعْلِمِينَ، وَعَبَّرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى الْمَوْتِ مُقَدِّمِينَ، وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى قُرْبِ السُّورِ خَرَجُوا مِنَ السَّفِينِ شَاكِينَ، وَلِلْأَسْوَدِ الْغَضَابِ حَاكِينَ، فَخَرَجَ

إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ مِنْ مَمَالِكِ الْخَلِيفَةِ مَنْ طَارَدَهُمْ وَأَشْحَرَهُمْ وَجَالَدَهُمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُبْعَدُونَ مِنَ الشَّاطِئِ، وَيُوسِعُونَ إِلَى الْمَوْتِ خُطْرَةَ الْمُصِيبِ غَيْرِ الْخَاطِئِ، ثُمَّ كَثُرَ عَلَيْهِمْ رِجَالُ بَغْدَادَ كَثْرَةً مِنْهَا تَحْتَ الْعُسْرِ فِي قَبْضِ الْأَسْرِ، وَتَطَافَرُوا إِلَى سَفِينِهِمْ فَغَرَقُوا أَكْثَرَهَا وَأَخْصَفَ بِهِمْ مُوقِرُهَا، وَقَبِضَ الْأَمِيرُ حَسَنَ الْمُضْطَرِبِ وَأَخُوهُ مَاضِي وَعَدَّةٌ وَافِرَةٌ مِنْ مَعْرُوفِي بَنِي أَسَدٍ وَعَدَمٌ كَثِيرٌ يَمِّنُ غَرَقًا أَوْ قِتْلًا أَوْ فُقْدًا، وَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِصَلْبِ حَسَنِ وَأَخِيهِ عَلَى دَقْلِ زُورِقٍ وَأَصْبَحَ الْبَاقُونَ عَلَى السُّورِ مَا بَيْنَ مَصْلُوبٍ مُشْتَقٍّ وَمَقْتُولٍ مُغْلَقٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ لِلْخَلِيفَةِ مِنَ الْمَهَابَةِ لِأَوْلِيَائِهِ وَالْمَهَابَةَ لِأَعْدَائِهِ كُلِّ بَابٍ مُغْلَقٍ، وَسَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ يَهْدًا مَا بَسَطَ فِي تَعْدِيهِمْ وَأَنْفَلَتْ حُدُودُهُمْ وَأَنْحَلَّتْ عَقُودُهُمْ، وَبَانَتْ نُحُوسُهُمْ وَثَبَّتْ سَعُودُهُمْ، وَأَنْعَكَسَتْ مَكَائِدُهُمْ وَأَنْتَكَسَتْ مَقَاصِدُهُمْ، وَتَنَكَّسَتْ أَعْمَالُهُمْ وَتَوَكَّسَتْ أَحْوَالُهُمْ، فَمَا حَلَّوْا عُقْدَةَ حِيلَةٍ إِلَّا وَحَالَتْ عَلَيْهِمْ حَالُهَا، وَمَا أَخْطَرُوا بِبَالِهِمْ مَكِيدَةَ إِلَّا وَعَادَ عَلَيْهِمْ خَطَرُهَا وَبِأَلْهَا، وَلَمَّا طَالَ الْحِصَارُ وَتَمَادَى الْإِنْتِصَارُ وَتَوَالَى الْإِعْصَارُ خَافَ الْخَلِيفَةُ الْغَلَاءَ فَفَتَحَ الْأَهْرَاءَ، وَأَقْتَصَرَ لِلْأَجْنَادِ فِي الْأَعْطِيَاتِ عَلَى تَفْرِيقِ التُّمُورِ فِيهِمْ وَالْغَلَاتِ، وَأَخَذُوهَا وَاحْتَاجُوا إِلَى أَثْمَانِهَا فِي التَّفَقَاتِ قَرَمَوْهَا فِي الْأَسْوَاقِ وَبَاعُوهَا بِالْدِينَارِ، فَحَمَدَ بِذَلِكَ اسْتِعَارُ نَارِ الْأَسْعَارِ، وَمَا زَادَ سِعْرُ فِي الْأَقْوَاتِ، وَلَا غَلًا مَطْعُومٌ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

وَفِي صَفْرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَصَلَتْ قَافِلَةُ الْحَاجِّ مَبْرُورَةَ الْأَعْمَالِ مَسْرُورَةً بِالْإِقْبَالِ، فَوَجَدُوا دَارَ الْخَلِيفَةِ مَحْصُورَةً، وَالْهَمَمَ مِنَ الْخَارِجِينَ عَلَى خِلَافِ تَعْظِيمِهَا مَقْصُورَةً، وَرَأَوْهَا سَنَةً وَسُبَّةً سَيِّئَةً، وَشَنْعَةً سَمْعَةً مُسْتَبْشَعَةً، وَنَزَلُوا فِي الْمُعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ ثُمَّ تَفَرَّقُوا فِي بِلَادِهِمْ، وَرَحَلُوا طَالِبِينَ أَعْوَارَهُمْ وَأَنْجَادَهُمْ، وَمَنْ كَانَ مِنْ بَغْدَادَ تَحْيَلًا فِي الدَّخُولِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَالْوَصُولِ إِلَى مَنْهَلِهِ، وَبِغْدَادَ حَيْثُ خَلَقَ مِنَ التُّجَّارِ حَلْفَ الرِّتَاجِ، يُؤَثِّرُونَ مُرَافَقَةَ الْحَاجِّ، وَيَتَأَثَّرُونَ بِمُفَارَقَتِهِمْ فِي الْمَحَاجِّ، وَهُمْ مِنَ الْإِزْدَحَامِ فِي ضَيْقٍ، وَمِنَ الْجَمْعِيَّةِ فِي تَفْرِيقٍ، يَسْتَعِيدُونَ مِنَ عَاقِبَةِ الْحَصْرِ، وَيَسْتَبْعِدُونَ عَائِدَةَ النَّصْرِ، وَيَقُولُونَ مَتَى أَخَذُوا الْبَلَدَ نَهَبُوا بِضَائِعَنَا وَاسْتَحْرَجُوا دَائِعَنَا، وَلَا مَصْلِحَةَ لَنَا فِي الْمَقَامِ وَلَا إِقَامَةَ إِلَّا مَعَ الصَّلَاحِ، فَلَا رَائِدَ فِي الرُّوحِ إِلَّا مَعَ الرُّوْحِ، وَلَا أَمْنٌ لِلْسَّرْحِ إِلَّا عِنْدَ السَّرَاحِ، وَالْخَلِيفَةُ مُحَاصِرٌ وَالسُّلْطَانُ مُحَاصِرٌ، وَالصُّوَابُ خُرُوجُنَا مِنَ الْبَلَدِ بَعْدَ دَخُولِهِمْ وَأَنْفَصَالِنَا قَبْلَ وَصُولِهِمْ فَاجْتَمَعُوا إِذْنَ وَاجْتَمَعُوا عَلَى الْاسْتِعْدَاءِ وَاسْتِدْعَاءِ الْأُذُنِ، وَخَرَجُوا مِنْ مَحَلِّ الْمَحَلِّ وَالْخَوْفِ إِلَى مَقَامِ

الْخِصْبِ وَالْأَمْنِ، وَتَخَلَّصُوا مِنْ حَجَرِ الْحَصْرِ وَتَوَجَّهُوا سَافِرَةَ الْوَجْهِ مَعَ السُّفْنِ، فَحَضَرُوا النَّجَّاحَ، وَأَكْثَرُوا الصُّجَّاحَ، وَكَلِمُوا اللَّجَّاحَ، وَأَثَارُوا بِالْعَجَّاحِ، وَحَاقُوا مِنْ ضَيْقِهِمُ الْإِفْرَاجَ، وَقَالُوا: لَا تَدْخُلُوا فِي مَضْرَبَتِنَا وَمُتَوَالِيْنَا بِالْإِخْرَاجِ. فَقَالَ لَهُمُ الْوَزِيرُ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكُمْ أَنْتُمْ فِي حَرَمِ إِحْسَانِي وَفِي ضَمَانِ أَمَانِي، وَفِي كَنْفِ اِكْتِنَانِي، وَعَلَى مَوْرِدِي الصَّافِي الصَّافِي، وَقَدْ عَرَفْتُمْ إِسْعَافِي لِلْعَافِي، وَالتَّحَافِي لِلْحَافِي، وَالتَّوَافِي لِلْوَافِي، وَلَكُمْ بِي أُسُوءَةٌ، وَهَذِهِ التَّوْبَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ مَا لَهَا تَبَوُّةٌ، وَأَمُوكُمْ فِي الْبَلَدِ مَصُونَةٌ، وَبِأَسْبَابِ الرِّعَايَةِ مَتَا مَضْمُونَةٌ، وَإِذَا خَرَجْتُمْ وَضَعْتُمُوهَا عَلَى طُرُقِ الطَّوَارِقِ، وَتَعَرَّضْتُمْ لَكُمْ دُونَ السَّفَرِ عَوَائِدُ الْحَدَثَانِ فِي الْبَوَائِقِ، فَاصْبِرُوا فَإِنَّ الصَّبْرَ مَحْمُودٌ الْعَاقِبَةِ، وَاللَّهُ لَنَا كَفِيلٌ بِقَلِّ نَابِ النَّائِبَةِ. فَضَجُّوا حَتَّى صَجُّوا، وَزَجُّوا وَانْزَجُّوا، وَنُصِّحُوا وَمَا انْتَصَحُوا، وَشُرِّحَتْ لَهُمْ وَجُوهُ الْمَصْلَحَةِ فَمَا انْشَرَّحُوا، وَقَالُوا لَا نُصَحِّحُ بِصَجْرٍ، وَلَا يُسْتَظْهَرُ حَتَّى نَظْهَرَ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَى أُمُورِنَا حَتَّى نَخْرُجَ بِهَا، وَإِنَّا لَفِي شَجْنٍ وَشَجَى مِنْ خَوْفِ شُحَّتِهَا، ثُمَّ أُجِيبَ سُؤَالُهُمْ بَعْدَ صَدِّ وَمَنْعٍ، وَقِيلَ مُفْتَرِحُهُمْ بَعْدَ رَدِّ وَزَدَعٍ، وَوُكِّلُوا إِلَى آرَائِهِمُ الْغَائِلَةَ وَآرَائِهِمُ الْخَامِلَةَ، فَاسْتَبَقُوا الْبَابَ وَمَا اسْتَبَقُوا الْأَبَابَ، وَكَلِمُوا بِالْعَقْلِ لَعَقَلُوا مَا عَمَلُوهُ، وَكَلِمُوا بِالْفَهْمِ إِلَى مَا تَحَذَّرُ مِنْ الْقَطْعِ لَقَطَعُوا مَا وَصَلُوا، وَكَلِمُوا عَرَفُوا أَنَّ فِي الْعَجَلَةِ إِتْلَافًا لِتَلَاوُفِ الْعَجَلَةِ بِالتَّأْنِي، وَكَلِمُوا مَا يَتَمُّ عَلَيْهِمْ لَمْ يَتِمُّوا عَلَى التَّظْنِي، فَإِنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَى الْأَمْنِ مُعْتَقِدِينَ وَبِالْإِذْنِ مُعْتَصِدِينَ، وَعَلَى قُوَّةِ الْعَسْكَرِ مُصْدِرِينَ، وَأَحْرَزُوا تِلْكَ الْبِضَائِعَ فِي الدَّارِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَكَلِمُوا بِقُدْمَتِهِمْ مَعَ تِلْكَ الْفِتْنِ عَلَى السَّفَرَةِ الْهَمْدَانِيَّةِ، فَمَا مَضَتْ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى غَالَتْهُمْ غَوَائِلُ، فَنَهَبُوا وَسَلَبُوا وَفَجِعُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَنُكِبُوا وَأَصْبَحُوا أَفْقَاءَ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأَغْنِيَاءِ إِذَا كَانُوا أَغْنِيَاءَ، وَسَنَدَكُرُ سَبَبِ ذَلِكَ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْحِصَارِ وَاقْتِصَارِ الدِّينِ بِدَيْنِ الْاِتِّصَارِ، أَمَا الْعَسْكَرُ النَّازِلُ الْمُنَازِلُ فَقَدْ ضَلَّتْ عَنْهُ الْمَنَاهِجُ، وَضَيَّقَتْ عَلَيْهِ الْمَنَاهِلُ، وَرَأَى السُّلْطَانُ مُرَاسِلَةَ الْخَلِيفَةِ بِالِاسْتِعْطَافِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَلِلِاسْتِعْفَاءِ وَتَلَافِيهِ بِالِاتِّلَافِ، وَالتَّلَطُّفِ لَهُ بِالْإِلْطَافِ وَكَانَ فِي صُحْبِيهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ صَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللطيفِ الْخُجَنْدِيِّ مَلِكُ الْعُلَمَاءِ وَشَمْسُ الدِّينِ أَحْمَدُ شَاهُ الْغَزْنَوِيِّ، وَكَانَ مِنَ الْأَمَانِلِ الْفُضْلَاءِ، فَأَرْسَلَ كَلِمًا مِنْهُمَا عَلَى حِدَةٍ فَلَمْ يُمْكِنَّا مِنَ الْوَصُولِ، وَقِيلَ لَا طَمَعُ فِي نَجْحِ السُّؤَالِ بِالرُّسُولِ، وَلَا رَجَاءُ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِ الرَّدِّ فِي الْقَبُولِ، فَإِنَّكُمْ لَوْ أَرَدْتُمْ الْإِجْمَالَ لَقَدَّمْتُمْ الْإِرْسَالَ، فَأَمَّا الْآنَ فَحَيْثُ قَبِحْتُمْ وَفُضِحْتُمْ وَأُخْرِجْتُمْ وَمَا أُخْرِجْتُمْ، وَقَتَلْتُمْ وَجَرَحْتُمْ وَخَسَرْتُمْ مَا رَبِحْتُمْ وَاقْتَحَمْتُمْ بَابَ الْفِتْنَةِ وَقَدَحْتُمْ وَأَوْرَيْتُمْ زِنَادَ الشَّرِّ

وَافْتَدَحْتُمْ فَمَا أَبَقَيْتُمْ وَجْهًا لِلصُّلْحِ وَلَا سَمْعًا لِلنُّصْحِ، وَلَا يَدَ لِلشُّكْرِ وَلَا لِسَانًا لِلذِّكْرِ، وَلَا عَيْنًا لِلنَّظْرِ وَلَا قَلْبًا لِلْفِكْرِ، فَإِنْ اسْتَرَجَعْتُمْ وَرَجَعْتُمْ بِالْقَهْرِ فَهَقْرِي، وَعُدْتُمْ وَرَاءَكُمْ وَرَأَى مِنْكُمْ الْوَرَى النَّدَمَ عَلَى مَا جَرَى، فَهِنَالِكَ تُقْبَلُ الرِّسَالُ وَتُقْبَلُ الْوَسَائِلُ، وَتَفْضَلُ الْعَوَارِفُ وَتُعْرَفُ الْفَضَائِلُ، وَتُشَامُ السُّمَائِلُ وَتُفَاضُ الْفَوَاضِلُ، فَلَمَّا قَنَطَ الْقَوْمُ مِنْ قَبُولِ الرِّسَالَةِ وَتَعْفِيَةِ آثَارِ الْعَتَرَاتِ بِالْإِقَالَةِ سَرَعُوا فِي الشَّرِّ وَعَادُوا إِلَى الْعُدْوَانِ وَلَجُّوا فِي الطَّغْيَانِ وَتَحَرَّبَتِ الْعُمُرَانُ وَأَنْحَرَفَتِ مَهَابَتُهُمْ عِنْدَ أَهْلِ بَغْدَادَ فَطَلَبُوا بِكُلِّ نَوْعٍ عَلَيْهِمُ الْاسْتِحْوَاذَ، وَصَارُوا يَكْسِبُونَهُمْ فِي الضِّيَاعِ وَيُغَافِصُونَهُمْ بِالْقِرَاعِ، وَيُفَاجِئُونَهُمْ بِالْمُضَاعِ، وَيَقَطَّعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى غَلَاتِهِمْ وَيُوجِدُونَ السَّبِيلَ إِلَى تَكْثِيرِ مَخَافَتِهِمْ، وَكَانَتْ الْأَكْلَاكُ وَاصِلَةً مِنَ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِمْ بِالْمِيزَةِ وَالْأَقْوَاتِ الْكَثِيرَةِ فَتَلَقَّوْهَا فِي دَجَلَةٍ وَأَخَذَوْهَا، وَعَزَّوْا بِهَا عَلَيْهِمْ وَعَجَزُوا أَنْ يُنْفِذَوْهَا، وَامْتَنَعَ أَهْلُ الْمَوْصِلِ بَعْدَهَا عَنْ تَسْيِيرِ الْأَكْلَاكِ فَمَا أَنْفَذَوْهَا، وَاسْتَشَاطَ الْقَوْمُ غَضَبًا، وَاسْتَعْرَوُا مِنَ اللَّهَبِ لَهَبًا، وَقَالُوا لَا بُدَّ لِهَذَا الْخُطْبِ مِنْ فَيْصَلٍ، وَلِهَذَا الْخُطَابِ مِنْ فَيْصَلٍ، وَلِهَذِهِ الْعُقْدَةِ مِنْ حَلٍّ، وَلِهَذَا السَّيْفِ مِنْ سَلٍّ، وَلِهَذَا الْحَدِّ مِنْ قَلٍّ، وَكَانَ وَزِيرَ الْخُلَيْفَةِ مِنْذُ وَصَلَ مُحَمَّدُ شَاهٍ لِلْمُحَاصِرَةِ وَقَابَلَهُ بِالْمُرَابَطَةِ وَالْمُصَابِرَةِ قَدْ وَاصَلَ مُكَاتِبَةَ أَتَابِكِ شَمْسِ الدِّينِ ائِيلْدُكُزْ وَحَثَّهُ عَلَى الْحَرَكَةِ مَعَ أَحَدِ الْمَلِكَيْنِ مَلِكِشَاهِ وَأَرْسَلَانِ شَاهِ إِلَى هَمْدَانَ، وَأَنْ يَخْلُقُوا الْوَاصِلِينَ إِلَى بَغْدَادَ فِي الْأَوْطَانِ، فَوَصَلَهُمُ الْخَبْرُ أَنَّ مَلِكِشَاهَ مَلِكَ شَهْوَتِهِ مِنَ الْبِلَادِ وَاسْتَوْلَى عَلَى الطَّرَافِ وَالتَّلَادِ وَاقْتَطَعَ الْإِقْطَاعَاتِ وَجَنَى الثَّمَرَاتِ وَحَثَى الْجِرَاحَاتِ وَحَوَى الْغَلَابِ وَرَفَعَ الْارْتِفَاعَاتِ، فَتَتَّ ذَلِكَ فِي عَضِدِ الْعَسْكِرِ وَتَضَعُضَعَ بُنَاتُهُمْ لِهَذَا الْخَبْرِ، وَحَمَى أَيْضًا الْحَرَّ، وَتَضَرَّمَ مِنْهُ الْجَمْرُ، وَاشْتَعَلَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَ السُّلْطَانِ الْخَوَاجِكِيَّةِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْأَمَائِلِ الْكِبْرَاءِ، وَكَانَ الْوَزِيرُ شَمْسُ الدِّينِ أَبُو النَّجِيبِ الْأَصَمُّ وَالْمُسْتَوْفِي رَضِيَ الدِّينِ أَبُو سَعِيدِ الْخَوَافِي وَنَائِبُ الْاسْتِيفَاءِ كِمَالُ الدِّينِ أَبُو الرَّيَّانِ، وَمِنْ الْأَمْرَاءِ أَتَابِكِ ائِيَّازَ وَعَزَّ الدِّينِ سَتَمَازَ وَشَرْفُ الدِّينِ كَرِبَازَ وَمَسْعُودُ الْبِلَالِيَّ وَغَيْرُهُمْ وَظَاهَرَهُمْ عَلَى الرَّأْيِ زَيْنُ الدِّينِ عَلِيَّ كُوجِكِ الْمَوْصِلِيُّ وَقَالُوا نَعْبُرُ جَمْعُنَا إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ وَنُصِذِقُهُمُ الْقِتَالَ وَنُدْنِمُ مَعَهُمُ التَّرَالَ، فَإِنْ تَيْسَّرَ الْفَتْحُ فَقَدْ سَفَرَ النُّجُحُ وَأَسْفَرَ الصُّبْحُ، وَإِنْ تَعَدَّرَ وَتَعَسَّرَ وَأَقْوَى الْأَمَلُ فِيهِ وَأَقْفَرَ تَفَرَّقْنَا عَلَى مُوَاعِدَةٍ مُعَاوَدَةِ الْاجْتِمَاعِ مِنْ قَابِلٍ، وَحَصَلْنَا مِنْ إِدْرَاكِ الطَّوَائِلِ عَلَى طَائِلٍ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الْجِسْرِ فَأَحْكَمُوهُ وَتَجَاسَرُوا عَلَى الْحُكْمِ الَّذِي اعْتَمَدُوهُ، وَأَصْبَحَ الْعَسْكَرُ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ وَقَدْ أَخَذَ عُدَّتَهُ وَقَوَى شُوكَتَهُ، وَرَوَى نِصَالَهُ وَسَوَى أَحْوَالَهُ وَرَكِبَ خَيْلَهُ،

وَسَحَبَ مِنَ السَّوَابِغِ عَلَى السَّوَابِقِ ذَيْلَهُ، وَأَعَارَ نَهَارَهُ بِمَا يُبَيِّرُهُ الصَّافِنَاتُ مِنَ السَّافِيَاتِ لَيْلَهُ، وَأَجْرَى فِي جَدَاوِلِ الْجِسْرِ الْمَعْقُودِ عَلَى نَهْجِ الْبَحْرِ سَيْلَهُ، وَأَمَدَّتْ عَلَى مَفْرَقِ الشَّمْسِ ذَوَائِبَهُ، وَزَاخَمَتْ كَوَاكِبَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مَنَاكِبَهُ، وَطَالَتْ أَعْنَاقُ السَّمَاءِ غَوَارِبُهُ، وَسَدَّتْ مَهَبَ الرِّيَاحِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ جَوَانِبِهِ، فِي كُلِّ أَرْوَغٍ بَاسِلٍ يَرُوعُ بِأَسَاءٍ، وَكُلُّ مُشْتَدِّ مُشِيدٍ مِنْ صَفُوفِ الصُّفُونِ أَسَاسًا، وَكُلُّ أَعْرَ مُتَأَلِّقٍ كَأَنَّهُ فِي الْعَجَاجِ الْأَدْهَمِ عُرَّةٌ، وَكُلُّ مُغْضَبٍ مُتَوَقِّدٍ كَأَنَّهُ فِي مُصْطَلَى نَارِ الْحَفِيفَةِ جَمْرَةٌ، وَكُلُّ خَائِضٍ فِي الْحَرْبِ لُجَّةٌ لَا يُرَى لَهَا سَاحِلًا، وَكُلُّ كَأْسٍ لُجَيْنٍ نَصَلُهُ مِنَ الدَّمِّ عَسَجَدًا لَثَلًا يَكُونُ مِنْ حَلِيَّتِهِ عَاطِلًا، وَشَرَعُوا فِي عُبُورِ الْجِسْرِ مُزْدَحْمِينَ، وَعَلَى الْعُثُورِ بِالْمَنِيَّةِ مُقْتَحِمِينَ، وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هُبُوبُ رِيحِ عَاصِفٍ وَتَمَوُّجُ بَحْرِ مِنْ أَلْهَوَاءِ قَاصِفٍ، وَتَلَطَّمَتِ الْأَمْوَاجُ وَثَقَلَ الْجِسْرُ فَانْقَطَعَ وَهَمَّ الْعَسْكَرُ أَنْ يَرْجِعَ فَلَمْ يَجِدْ طَرِيقًا لِلرَّجُوعِ، وَخَافَ مَنْ عَلَى الْجِسْرِ مِنَ الْوُقُوعِ، فَمَدَّوْا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الدَّبَابِيْسِ، فَاضْطَرَّبُوا وَاضْطَرَّبُوا إِلَى التَّعْكِيسِ وَالتَّنْكِيسِ، وَلَمْ يَشْعُرْ مِنْ وِرَاءَهُمْ بِالْأَمْرِ وَلَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى انْكَسَارِ الْجِسْرِ وَأَنْخَرَعُوا لِمَا هَالَهُمْ، وَحَسِبُوا أَنْ خُطِبًا غَالَهُمْ، فَهَامُوا وَمَا فَهَمُوا وَهَمُّوا بِمَا وَهَمُّوا، وَرَكِبَ السُّلْطَانُ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْخُطْبِ وَأَتَجَاهِ الْخُبِطِ وَشَطَّ نَازِلًا وَنَزَلَ إِلَى الشُّطِّ فَقِيلَ لِيَزِينَ الدِّينَ عَلَيَّ كَوْجَكَ إِنَّ السُّلْطَانَ قَدْ رَكَبَ، وَإِنَّ الْعَسْكَرَ قَدْ اضْطَرَّبَ، وَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ فِي مَرَكِبِهِ وَعَبَّرَ إِلَى الدَّارِ، وَحَصَلَ عَلَى الْاسْتِشْعَارِ، وَرَكِبَ أَيْضًا فِي الْعَسْكَرِ الْمَوْصِلِيِّ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِظْهَارِ، وَعَرَفَ مُحَمَّدٌ شَاهَ أَنَّ زِينَ الدِّينَ قَدْ اسْتَظْهَرَ، وَأَنَّهُ أَرَكَبَ السُّلْطَانَ الْعَسْكَرَ، وَاسْتَشْعَرُوا أَنَّهُ قَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَرْحَلَ، وَقَدْ تَمَهَّدَ الْأَمْرَ أَوْ تَمَهَّلَ لِكَنَّهُ تَرَكَ مَا أَهَمَّ وَأَهْمَلَ، وَلَمَّا شَاهَدَ أَهْلَ بَغْدَادَ اخْتِلَالَهُمْ وَاخْتِلَاطَهُمْ وَاخْتِلَافَهُمْ وَاخْتِيبَاطَهُمْ وَوُقُوعَ بِأَسْهَمِ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَادَ سَنَاتَهُمْ وَأَبَدَى سَيِّئَهُمْ فَتَحُوا أَبْوَابَ الْبَلَدِ، وَهَتَفُوا بِأَرْبَابِ الْجَلِيدِ، وَنَحَوُا أَحْزَابَ الرَّشْدِ، وَنَادَاوُا بِشِعَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَصْرِهِ، وَزَحَفَ الْعَالَمُ فِي بَرِّهِ وَبَحْرِهِ، وَجَذَفَتِ السَّفْنُ الْخُفَافُ بِمَنْ خَفَّ مِنَ الرِّجَالِ، وَهَجَمَ الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ بِالْأَبْطَالِ، وَالْقَوْمُ مَشْغُولُونَ بِأَنْفُسِهِمْ حَائِرُونَ لِمَا عَرَاهُمْ مِنْ تَعَكُّسِهِمْ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ فَكَتَبَهُمُ الْبَغْدَادِيُّونَ عَنِ الدَّارِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا وَأَبْعَدُوهُمْ مِنْهَا وَدَخَلُوهَا وَنَهَبُوهَا مِنْهَا مِنْ الْأَمْوَالِ الْمُوَدَّعَةِ وَالْأَثْقَالِ الْمُجْمَعَةِ، وَعَاثُوا فِي بَضَائِعِ التَّجْرِ وَوَدَائِعِ السَّفْرِ، فَاتَّاهُمُ الْعَطَبُ مِنْ حَيْثُ رَعَمُوا أَنَّهُمْ سَلِمُوا، وَدَعَاهُمُ الْخَوْفُ مِنْ حَيْثُ أَمِنُوا، وَاعْتَصَمُوا، وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ فِي الدَّارِ شَيْءٌ قَلِعَتْ أَبْوَابُهَا وَسَلِبَتْ أَسْلَابُهَا وَقُطِعَتْ أَسْبَابُهَا،

وَانصَرَفَ الْقَوْمَ هَائِبِينَ خَائِبِينَ سَادِمِينَ نَادِمِينَ، وَشُغِلُوا عَنْ أَثْقَالِهِمْ وَتَقَلُّوا بِأَشْغَالِهِمْ، وَوَقَفُوا عَلَى صَهَوَاتِ الْخَيْلِ إِلَى دُخُولِ اللَّيْلِ، ثُمَّ سَرَوْا وَأَدْجَبُوا وَعَرَجُوا فِي تِلْكَ الْمَسَالِكِ وَلَمْ يَعْجُوا، وَسَارَ مَنْ بِالْجَانِبِ الْعَرَبِيِّ مِنْ عِسَاكِرِ هَمْدَانَ وَأَذْيِجَانَ مَعَ عَسَاكِرِ الْمُوصِلِ لِلضَّرُورَةِ، وَدَفَعُوا إِلَى مَا لَمْ يُقَدِّرُوهُ وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ مِنَ الْأَخْطَارِ الْمَقْدُورَةِ، وَأَصْبَحَتْ بَغْدَادُ وَقَدْ أَنَاهَا اللَّهُ بِالْفَرَجِ، وَقَرْنَ بِهَاءِهَا بِالْفَتْحِ وَصَبَحَ بَلَجُهَا بِالثَّلْجِ، وَأُثِبَتْ حُكْمُ نَصْرِهَا مِنْ الطَّافِهِ بِالْحُجَّجِ، وَأَجْرِي فُلُكُ فَلَكَهَا مِنْ بَحْرِ الثَّبَاتِ عَلَى الْمُنْهَجِ، وَأُنْجِي أَهْلَهَا فِي سَفِينَةِ السُّكِينَةِ مِنَ الْفِتَنِ الْمُتَلَاظِمَةِ اللَّجْجِ، وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَنُصِرَ الْحَقُّ وَحَقَّ النُّصْرُ، وَظَفَرَ الدِّينُ وَدَانَ الظَّفَرُ، وَأَثَرَ الْإِحْسَانَ وَحَسَّنَ الْأَثَرَ، وَأَثَمَرَتِ الْحَبَّةُ وَجُنِيَ الثَّمَرُ، وَسِيرَتِ السَّنَةُ وَتَسَّنَتِ السَّيْرُ، وَطَابَ الْعَيْشُ وَعَاشَ الطَّيِّبُ، وَوَجَبَتِ الرَّفْعَةُ وَارْتَفَعَ الْوَجِيبُ، وَوَلَبَّتِ السَّعَادَةُ وَسَعِدَ اللَّيْبُ، وَأَرَبَتِ الْكِرَامَةُ وَكَرَّمَ الْأَرِيبُ، وَكَفَّتِ الْمُقْتَفِي عَنْ اقْتِفَاءِ الْمُتَكْفِينِ، وَسَرَتْ عَلَى الْمُسْتَتْرِينَ مِنْهُمْ فِي الْمَحَالِّ وَالْمُخْتَفِينَ، وَانْتَشَرَتِ عَسَاكِرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْبِلَادِ، وَاسْتَسْرَتِ بِالنَّصْرِ الْمُعْتَادِ، وَعَرَفَ الْأَعَاجِمُ أَنَّهُ لَا مَطْمَعَ مِنْ بَعْدِهَا فِي بَغْدَادِ، وَكَانَتْ حَيْثُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، وَحَبَّرَتْ قِصَائِدَ فِي هِنَاءِ الْإِمَامِ، وَاسْتَخْدَمَتِي الْوَزِيرُ عَوْنُ الدِّينِ بِنُ مُبِيرَةَ تِلْكَ السَّنَةِ فِي النِّيَابَةِ عَنْهُ بِوَأَسْطِ، فَتَقَلَّبَتِي مِنَ الْمَدْرَسَةِ إِلَى الْعَمَلِ، وَعَظَّمَتِي عَنِ الْإِسْتِغَالِ بِالْعِلْمِ، وَظَنَّ أَنَّهُ حَلَانِي بِشُغْلِهِ عَنِ الْعَطَلِ، وَلَمْ يَنْكِبِ الْخَلِيفَةُ بَعْدَهَا نَاكِبَ، وَمَا نَابَ تِلْكَ الْبِلَادَ نَائِبَ، بَلِ الْأَمْنُ سَمَلٌ وَالْيَمْنُ كَمَلٌ، وَالْجُرْحُ أَنْدَمَلٌ وَالنُّجْحُ أَنْصَلٌ، وَالرَّبْحُ حَصَلٌ، وَالْعَدْلُ عَمَرٌ وَالْعُمُرُ اعْتَدَلٌ، وَالشَّرْعُ انْتَصَرَ وَالنُّصْرُ سَرَعَ، وَالصَّنْعُ حَسَنٌ، وَالنَّفْعُ تَبَّتْ وَالثَّبَاتُ نَفَعَ، وَالْقَطْعُ بَطَلٌ وَالْبَاطِلُ انْقَطَعَ، وَأَبَقِيَ اللَّهُ عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَاسِيَّةِ الَّتِي نَصَرُهَا عَلَى الْأُمَّةِ وَاجِبٌ وَجِزُّهَا عِنْدَ اللَّهِ غَالِبٌ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي هُوَ شَجْرَةٌ مِنْ فَرْعِ شَجَرَةِ الرِّسَالَةِ، وَشَاهِدُ الشَّرَفِ الْجَلِيِّ الْجَلَالَةِ، وَقَائِمُ الْقَوْمِ الَّذِينَ وَلَاهُمْ الْبُرُوجُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَوَدَّهْمُ وَيَغْفُضُ الْفَارِقَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ، وَعَلَى أَعْدَائِهِمْ عِقُوبَةَ الدَّوَائِرِ وَالْأَوْلِيَاءِ مِنْهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، فَهُمْ حُجَّجُ اللَّهِ عَلَى الْوَرَى، وَوَجُوهُهُمْ صُبْحُ لِيَالِي الشَّرَى، وَلَهُمُ الْأَيْدِي تَتَنَاوَلُ فَخَرَهَا الثُّرَيَّا وَتَنَالُ أَهْلَ الثَّرَى، وَالْأَسْبَابُ وَالْعُرَى مَفْصُومَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا لَهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْعُرَى، وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ نُزِّلَ التَّنْزِيلُ، وَإِلَى أَبِيهِمْ رُضْوَانُ اللَّهِ فُوضَ التَّأْوِيلُ، وَإِلَى بِيوتِهِمْ اخْتَلَفَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ مُصَابِحِهَا جَبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ، وَبِهِ بَشَّرَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَدَارَاهُمْ فِي الدَّارَيْنِ مَنْسُوبَتَانِ إِلَى السَّلَامِ، وَيَسِيوْفُهُمْ يُعَاتَبُ الذَّهْرُ وَمَحَامِلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ

تَسْتَعْتَبُ الْغَمَامَ، وَعَلَيْنَا لَهُمُ الطَّاعَةُ وَعَلَيْهِمْ لَنَا الشَّفَاعَةُ، وَالْيَوْمَ لَهُمُ الْجَاهُ، وَأَيْنَ جَاهُهُمُ الْيَوْمَ مِنْ جَاهِهِمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ؟ وَإِنَّ سَيْفًا لَا يُجَرِّدُهُ نَصْرُهُمْ لَسَيْفٌ نِعْمَةٌ مُجَرَّدَةٌ وَهُوَ سَيْفُ الْبَغِيِّ، وَإِنَّ طَرِيقًا لَا يُؤَدِّي إِلَى آدَاءِ حَقِّهِمْ لَطَرِيقٌ يَهْوِي بِسَالِكِهَا إِلَى النَّارِ، وَهِيَ طَرِيقُ الْعَنَاءِ، وَمَا اخْتَارَ اللَّهُ ظِلَالَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مِنْهُمْ، وَلَا قَائِمًا بِتَقْوِيمِ أَوْدِ الْإِمَامِ إِلَّا وَوَلَائُهُمْ وَالْوَلَاةُ عَنْهُمْ، وَلَهُمُ الْمَفَاخِرُ الْحُسْنَى وَحَسْبُهُمْ مِنْ مَجْدِهَا الْأَسْنَى لَيْلَةَ سَرَدَ اللَّهُ مَرَامِي سَارِيهِمْ فَكَانَ كَقَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، وَيَنْتَهِي كُلُّ شَرَفٍ إِذَا دَارَ انْتِهَاءُ شَرَفِهِمْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ، وَيَهْوَى كُلُّ مَجْدٍ إِذَا رَمَى اللَّهُ صَاحِبَهُمْ، وَأَقْسَمَ عَلَى أَنَّهُ مَا ضَلَّ وَلَا غَوَى بِالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، وَهُمْ الْقَبَسُ مِنَ السَّرَاجِ الْمُتَنِيرِ، وَهُمْ الْخَلْفُ مِنَ الْبَشِيرِ وَالنَّذِيرِ، خَلَفَهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي أُمَّتِهِ وَقَرْنَهُمْ بِالْكِتَابِ، وَبَوَّأَ أَقْدَامَهُمْ مَوْطِئِهِ مِنَ الْمُنْبَرِ وَالْمِحْرَابِ.

ذكر وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه وشرح شيء من أحواله من ابتداء عمره إلى خاتمة أمره

توفي سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجق يوم الإثنين رابع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة بعد خلاصه من أيدي الغز، واستعاد عادة الأيد والغز، وكان مولده بظاهر سنجار يوم الجمعة لخمسة بقين من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وولاه بركياروق بلاد خراسان سنة تسعين وأربعمائة.

ذكر السبب في ذلك

كانت بلاد خراسان في أيام ملكشاه ساكنة الممالك آمنة المسالك، مشحونة الأطراف بالشحن، مسكونة الأكناف بالسكن، مقصودة الموارد مورودة المقاصد، معمورة الولايات مولية العمارات، موطنة الديار بالابرار، دائرة المواطنين بالمبار، فائضة الأنواء مستفيضة الأنوار، منتظمة الشمم شتملة على النظام، موققة المرامي موققة المرام، أهلة السعد سعيدة الأهل، مفضلة بالغز عزيزة بالفضل، وقد زرت الأضواء بضواحيها، ودرت الأنواء في نواحيها، وأنسقت بالرعاية رعاياها وأنسقت قرباها، واصطحبت أسدها وغزلانها، واصطلح سرحها وسرحانها، فالحوزة محوطة والحوطة محورة، والمركز محروس والحراسه مركززة، والوفر مستفاد والفائدة موفورة، والآثار حسنة والحسنى مأثورة، وأيادي الضيم

مَقْبُوضَةٌ، وَأَعْيُنُ الظُّلْمِ مَعْضُوضَةٌ، وَالْمَوَاهِبُ مَفْرُوضَةٌ، وَالنَّوَائِبُ مَفْرُوضَةٌ، وَالْأَفَاوِيقُ مُسْتَدْرَةٌ، وَالْأَفَاقُ مُسْتَنِيرَةٌ، وَمُؤَالَاةُ شُكْرِ اللَّهِ لِمَدَادِ النِّعَمِ مُسْتَرِيدَةٌ مُسْتَرِيدَةٌ، وَالْبِلَادُ طَيِّبَةٌ وَالْعِهَادُ صَيِّبَةٌ، وَالْعَدْلُ حَاكِمٌ وَالْحُكْمُ عَادِلٌ، وَالْحَفْلُ جَامِعٌ وَالْجَمْعُ حَافِلٌ، وَالشَّرْعُ أَمْرٌ وَالْأَمْرُ مَشْرُوعٌ، وَالْجَنَى مَمْنُوحٌ مُسْتَكْفٍ، وَبِأَسْئِهِ لِذَوِي الْجَهْلِ مُسْتَكْفٍ، وَمَا بِخِرَاسَانَ رَأْسَانٍ وَمَا تَسَلَّطَ بِهَا سُلْطَانَانِ، فَلَمَّا اسْتَشْهِدَ النُّظَامُ وَأَبَاحَ جِمَى مُلِكِ مَلِكِشَاهِ الْجِمَامِ انْفَسَخَتْ تِلْكَ الْعُقُودُ، وَانْتَسَخَتْ تِلْكَ الْعُهُودُ، وَحَالَتْ الْأَحْوَالُ وَهَالَتْ الْأَهْوَالُ، وَغَالَتْ الْغَوَائِلُ وَتَزَلَّتْ النُّوَاذِلُ وَرَعَى الرَّعَاعُ وَاتَّبَعَ الْأَتْبَاعُ، وَاسْتَشْرَى الشَّرُّ وَاسْتَضَرَّ الضَّرُّ، وَوَقَعَ الْاِخْتِلَالُ وَاخْتَلَّتْ الْوَاقِعَةُ، وَقَرَعَتِ الرِّوَاثِعُ وَرَاعَتِ الْقَارِعَةُ، وَاسْتَوْلَى كُلُّ صَغِيرٍ عَلَى كَبِيرٍ وَكُلُّ مَأْمُورٍ عَلَى أَمِيرٍ، وَكَانَ لِلْسُلْطَانِ مَلِكِشَاهِ أُخٌ يُقَالُ لَهُ أُرْسِلَانُ أُرْغُونَ فَحَضَّهُ عَلَى طَلَبِ حَطِّ عُلُوِّهِ الْمَغْرُورُونَ الْمَغْتَرُونَ وَكَانَ مُقْطَعًا بِمَبْلَغِ سَبْعَةِ آلَافِ دِينَارٍ فِي نَوَاحِي هَمْدَانَ وَسَاوَةَ، فَقَالُوا لَهُ إِلَى مَتَى تَلْزَمُ مِرَاةَ الْعُطْلَةِ وَالْقَنَاعَةَ وَتَهْجُرُ حِلْيَةَ الْمَلِكِ وَالْحَلَاوَةَ، فَحَرَّكُوا سَاكِنَهُ وَيَعْتُوهُ عَلَى شُغْلِ أَخِيهِ مِنْهُ سَاكِنُهُ، فَتَزَلَّ عَلَى قَرِّ الْقَرَارِ وَرَكِبَ مَطَاءَ الْمَطَارِ، وَسَدَّ أَعْنَاقَ الْإِعْتِاقِ، وَرَدَّ عِرَاقَ الْعِرَاقِ، وَاشْتَدَّ بَطْلُ الطَّلَبِ، وَشَدَّ لَبِّ الْحَبِّبِ، وَاتَّخَذَ الْإِغْذَاذَ غِذَاءَ رَدْيَانٍ رَدَاءٍ وَخَطَرَ الْإِخْطَارِ وَطَارَ فِي الْأَوْطَارِ وَاسْتَظْهَرَ بِصَحْبِيهِ وَصَحِبَ الْاسْتَظْهَارَ، وَجَاءَ إِلَى نَيْسَابُورَ فَمَا تَمَكَّنَ مِنْهَا وَدَفَعَهُ أَهْلُهَا عَنْهَا، فَصَدَعَ مَرَّةً مَرَّةً، وَقَالَ أَمَلْتُهَا عُنُودًا وَلَا غُرُورًا، فَانْقَادَ لِأَمْرِهِ الْأَمِيرِ قُودُونَ شُحْنَتُهَا، وَجَعَلَ تَحْتَ مَكْتَبِهِ أَمَكْتَبَتَهَا، فَقَوِيَ أُرْسِلَانُ أُرْغُونَ بِقُودُونَ فَإِنَّهُ وَجَدَ الْجَوَادَ وَعَدِمَ الْكُودَانَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى بَلْخِ وَتَرْمِذَ، وَاسْتَخْلَصَ كُلَّ مَا خَرَجَ مِنَ الْبَيْدِ وَاسْتَفْقَدَ، وَصَفَّتْ لَهُ خُرَاسَانَ وَحِيَزَتْ بِلْدَانِهِ الْبُلْدَانَ، وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ السُّلْطَانِ بَرْكِيَارِقَ إِنِّي قَدْ مَلَكَتُ مَوْضِعَ جُغْرِي بِكَ بِنِ دَاوُدَ جَدِّي بِجَدِّي وَجَدِّي، وَقَدْ رَضَيْتُ بِهِ رِضَا قَانِعٍ، وَأَنَا فِيهَا سِوَاهُ غَيْرِ طَامِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ، فَأَنَا بِأَذَلِّ لِمَا يَطْلُبُونَ، وَحَامِلٌ لِمَا فِيهِ يَرْغَبُونَ، فَرَأَى بَرْكِيَارِقُ أَنَّهُ بِالْعِرَاقِ فِي شُغْلِ شَاغِلٍ وَهَمٌّ زَائِدٌ غَيْرُ زَائِلٍ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَأَطْهَرَ أَنَّهُ قَبْلَ مِنْهُ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ وَأَثَرُ قِتَالِهِ وَقَالَ إِذَا شَبَّ وَقَوِيَ وَشَبَّ وَزَوِيَ وَسَمَا وَسَمَنَ وَنَمَا وَأَمِنَ فَإِنَّ شُرَّةَ لَا يُؤْمَنُ، وَإِلَى قَوْلِهِ لَا يُرْكَنُ وَلَا يُسْكَنُ، فَنَحْنُ نَبَادِيُهُ وَنُبَادِرُهُ قَبْلَ أَنْ يُبَادِرَنَا وَيُبَادِرَنَا، وَقَبْلَ أَنْ يَنْفِذَ إِلَيْنَا بِعَسْكَرِهِ نُنْفِذَ إِلَيْهِ عَسَاكِرَنَا، وَكَانَ عِنْدَهُ عُمَةُ الْآخِرُ بُورِي بَرَسُ بْنُ أَلْبِ أُرْسِلَانَ فَأَنْهَضَهُ لِقِتَالِ أَخِيهِ أُرْسِلَانَ أُرْغُونَ فَنَهَضَ فِي جَاشٍ نَاهِضٍ وَجَيْشٍ فَائِضٍ، وَرِعَاةٌ رَائِعَةٌ وَرَعُودَةٌ وَارِعَةٌ، وَجَمَاعَةٌ مَانِعَةٌ وَمَنْعَةٌ جَامِعَةٌ، وَصَمَّ إِلَيْهِ مَسْعُودًا بِنَ مَاجِرٍ وَأَمِيرًا آخَرَ التُّونَنَاشَ، فَانْتَشَى

وَأَتَانِشَ، وَآكْتَسَى الرِّيشَ، وَاجْتَمَعَتَ إِلَيْهِ عَسَاكِرُ خِرَاسَانَ فَطَارَ مِنَ النِّشَاطِ وَطَاشَ، وَحَثَّ الْعَزْمَ الْبَطَاشَ، فَأَمَّا مَسْعُودٌ بِنُ مَاجِرٍ فَإِنَّ التُّوتَانِشَ تَوَهَّمَتْ مِنْهُ بِمَا قِيلَ لَهُ عَنْهُ فَقَتَلَ بِهِ وَيُولَدِهِ، وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ فِي يَدِهِ، وَوَزَرَ لِلْمَلِكِ بُورِي بَرَسَ عِمَادُ الْمَلِكِ أَبُو الْقَاسِمِ بِنُ نِظَامِ الْمَلِكِ، فَعَقَدَ وَحَلَّ، وَحَلَّ وَحَرَّمَ، وَأَجَلَّ وَأَدَقَّ، وَأَجَلَّ وَأَعَزَّ، وَأَذَلَّ وَأَزَلَّ وَأَزَالَ، وَصَالَ وَصَلَّ، وَأَكْتَرَّ وَأَقَلَّ، وَأَنْهَلَ وَعَلَّ، وَأَغَمَدَ وَسَلَّ، وَكَتَبَ وَكَتَّبَ، وَرَتَبَ وَرَتَّبَ، وَأَذْهَبَ وَهَذَّبَ، وَصَدَّقَ وَكَذَّبَ، وَصَعَّدَ وَصَوَّبَ، وَنَهَبَ وَوَهَبَ، وَرَغَبَ وَرَهَبَ، وَأَعْطَى وَأَعْطَبَ، وَأَبْعَدَ وَقَرَّبَ، وَوَقَعَ وَأَوْقَعَ، وَفَرَى وَفَرَعَ، وَوَضَعَ وَرَفَعَ، وَفَرَّقَ وَجَمَعَ، وَوَزَعَ وَوَزَعَ، وَأَبْدَى وَأَبْدَعَ، وَخَرَقَ وَرَفَعَ، وَصَيَّقَ وَأَوْسَعَ، وَضَرَّ وَنَفَعَ، وَمَنَعَ وَمَنَعَ، وَصَافَ بُورِي بَرَسَ أَخَاهُ أَرْغُونَ أَرْغُونَ وَصَدَمَهُ وَحَطَمَهُ، وَقَلَّ حُدُّهُ وَتَلَمَّهُ، وَهَزَّ طَوْدَهُ وَهَزَمَهُ، فَعَادَ أَرْسِلَانُ أَرْغُونَ إِلَى بَلْخِ مَكْسُورًا مَحْسُورًا، وَأَقَامَ بُورِي بَرَسَ بِمَكَانِهِ مَنصُورًا مَسْرُورًا، ثُمَّ أَرْسَلَ أَرْسِلَانُ أَرْغُونَ إِلَى الْأَطْرَافِ وَالْأَوْسَاطِ وَالْأَذْنَابِ وَالرُّؤُوسِ، وَحَشَّدَ وَحَشَّرَ شَاكِرِينَ لِلنِّعَمِ صَابِرِينَ عَلَى الثُّوسِ، مُحَاطِرِينَ فِي نَفَائِسِ الْأَخْطَارِ بِالنَّفُوسِ، بِأَشْرِينَ يَوْمَ الرُّوْعِ الْعَبُوسِ، وَنَهَضَ إِلَى مَرَوْ وَفَوَّضَ مَرَوْتَهَا، وَحَطَّ ذُرُوتَهَا، وَأَحْرَبَ عِمَارَتَهَا، وَأَذْهَبَ نَضَارَتَهَا، وَفَتَحَهَا عُتُوهَ وَهَدَمَ سُورَهَا وَقَتَلَ جُمْهُورَهَا، وَبَرَزَ بُورِي بَرَسَ مِنْ هِرَاةٍ لِقَصْدِ لِقَائِهِ وَحَفِظَ الْبِلَادَ مِنْ بَلَائِهِ، وَهَاجَ إِلَى هَيْجَائِهِ وَنَقَلَ أَرْضَهُ إِلَى سَمَائِهِ وَبَاحَ بِسُرِّ سَرَائِهِ، وَأَبْرَزَ بَنَاتَ الْأَعْمَادِ الذُّكُورَ مِنَ الْأَحْدُورِ، وَعَوَّرَى صُدُورَ الصُّعَادِ بِصُعُودِ الصُّدُورِ، وَأَطْلَعَ فِي لَيْلِ النَّعْمِ مِنْ بِيضِهِ صَبَاحًا، وَاقْتَضَى مِنْ ثَعَالِبِ رِمَاجِهِ فِي لِبَابِ الْأَسْوَدِ صُبَاحًا، وَنُشِرَتْ عُقْبَانُ أَلْوَيْتِهِ تُقْرِي النَّسُورَ، وَعَقَدَتْ نَارَ حَفِيطَتِهِ ظَلَمًا دُونَ الثُّورِ، وَزَحَفَ الْعَسْكَرُ إِلَى الْعَسْكَرِ وَطَنَّ الذُّبَابُ فِي الْمَغْفِرِ، وَصَبَحَ الثَّعْلَبُ فِي لَبَّةِ الْعَصْفَرِ، وَجَنَى ثَمْرَ النَّصْرِ مِنَ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْإِخْضَرِ، وَشَتَّهَ لِلنَّجِيعِ الْأَشْهَبِ، وَتَنَافَسَ الْأَشْمُرُ وَالْأَبْيَضُ فِي إِسْرَارِهِ الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَطَارَتِ فِرَاحُ الْجِعَابِ إِلَى أَوْكَارِ الْمُقْلِ، وَأَدَمَتِ لَوَاحِظَ السُّهَامِ مِنَ الْخُدُودِ مَوَاضِعَ الْقُبُلِ، وَعَدِمَتْ كُلَّ جَفْنِ غِرَارِهِ، وَكُلَّ قَلْبِ قَرَارِهِ، وَكُلَّ لَيْلٍ صَبَاحَهُ وَكُلَّ يَوْمِ نَهَارِهِ، وَسَدَّتْ عَرُوسَ الشَّمْسِ نِقَابَ النَّعْمِ طُيْبِي الطُّيْبِي فَتَارَتِ عَلَيْهَا مِنْ وَرْدِ الْوَرِيدِ بِالنَّعْمِ، وَبَرَزَ الْبَوَارِثُ لِبُورِي بَرَسَ فَأَدْبَرَ وَوَلَّى عَسْكَرُهُ فَصَابَرَ وَصَبَرَ، وَقُهِرَ وَكَبِرَ وَأَدْرِكَ وَأَسْرَى، وَحُمِلَ إِلَى أَخِيهِ أَرْغُونَ أَرْغُونَ فَمَا رَقَّ وَلَا رَفَقَ، وَلَا طَاوَعَ عَرَضَ الْحُنُوتِ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَنَقَ، فَاعْتَقَلَهُ فِي تِرْمِذُ ثُمَّ حَقَقَهُ، وَأَعَدَمَ فِي الدَّهْرِ فَيَلَقَهُ فَلَقَهُ، وَأَخَذَ زَوِيرَهُ عِمَادُ الْمَلِكِ بِنُ نِظَامِ الْمَلِكِ فَسَامَهُ سُوءَ الْعَذَابِ، وَسَلَّكَ بِهِ عِقَابَ الْعُقَابِ، وَصَادَرَهُ عَلَى

ثَلَاثِمِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، ثُمَّ قَتَلَهُ وَكَمْ يَتْرِكُ سُوءًا إِلَّا عَمَلَهُ، فَلَا جَرَمَ أَخَذَهُ اللَّهُ بِجُرْمِهِ، وَحَرَمَهُ نَصِيبَ حَلِيمِهِ، وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ قَدْرَهُ، وَسَلَّطَ عَلَى صَفْوِهِ كَدْرَهُ، فَإِنَّهُ عَادَ إِلَى مَرَوْ وَقَدْ سَرَّهُ الظُّهُورُ فَظَهَرَ بِهِ السُّرُورُ، وَظَنَّ أَنََّّهُ مَلِكٌ وَأَنَّ خُصْمَهُ هَلَكٌ، وَطَرَبَ وَبَطَرَ، وَاسْتَشْرَى وَأَشْرَى، وَافْتَرَّ فَرَحًا، وَاعْتَرَّ فَرَحًا، وَاهْتَزَّ وَاسْتَبَشَّرَ، وَاعْتَزَّ وَاسْتَكْبَرَ، وَابْتَزَّ وَاسْتَظْهَرَ، وَكَمْ يَدْرِي أَنَّ الدَّوَائِرَ دَائِرَةٌ، وَأَنَّ الْأَقْدَارَ قَائِدَةٌ وَثَائِرَةٌ، وَإِنَّ النُّوَابِثَ نَائِبَةٌ، وَإِنَّ الْمَصَائِبَ صَائِبَةٌ، وَإِنَّ الْقَضَاءَ قَدْ قَضَى، وَأَنَّ الْحُكْمَ قَدْ أَمْضَى، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ مُنْجِمُهُ أَرَى عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ قِطْعًا وَأَنْتَ لَا تَقْدُرُ لِمَا قُدِّرَ دَفْعًا فَأَدِمِ تَحَرُّزَكَ وَتَحَرَّسَكَ وَتَسْتُرْكَ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِالْمَخَافَةِ وَلَا تُخْشِيَ الْآفَةَ، فَاحْتَجَبَ عَنْ أَصْحَابِهِ، وَأَحْكَمَ رِجَاحَ أَبْوَابِهِ، وَخَلَى خِلَاتَهُ وَخَلَا وَمَا يَلِ قِلَا النَّاسِ بِالْقَلْبِ، وَجَاوَبَ مَنْ جَاءَ وَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ مِنْ حِذْرِ الْبَلَاءِ بِلَا، وَكَمْ يَدْعُ إِلَّا مَمْلُوكًا صَغِيرًا كَانَ بِهِ يَأْنَسُ كَرْبَهُ بِقُرْبِهِ يَتَّبِسُ فَانْتَظَرَهُ وَأَنْكَرَ تَأْخِيرَهُ، فَلَمَّا حَضَرَ عَاتَبَهُ كَيْفَ أَبْطَأَ وَعَاقَبَهُ كَيْفَ أَخْطَأَ، فَضْرَبَهُ الْغَلَامُ بِسَكِينٍ مَعَهُ وَصَرَعهُ فَقَضَى مَكَانَهُ، فَلَمَّا قِيلَ لِلْغَلَامِ لِمَ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَهُ؟ وَعَلَامَ قَتَلْتَهُ؟ قَالَ أَرَدْتُ أَنْ أُرِيحَ الْخَلْقَ مِنْ ظَلْمِهِ، وَكَانَ هَذَا بِقِضَاءِ اللَّهِ وَسَابِقًا فِي عِلْمِهِ، وَقِيلَ أُرْسِلَانِ أُرْغُونَ فِي سَنَةِ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ [وَسِنْتُهُ سِتٌّ وَعِشْرُونَ سَنَةً]، وَكَانَ السُّلْطَانُ بَرْكِيَارِقُ لَمَّا عَرَفَ اسْتِیْلَاءَ عَمِّهِ أُرْسِلَانَ بِخُرَاسَانَ قَلَّدَهَا أَبَا الْأَحَارِثِ سَنْجَرَ وَرَتَّبَ مَعَهُ الْعَسْكَرَ، فَوَصَلَ الْخَبِيرُ بِمَقْتَلِ عَمِّهِ فَكُفِّي قِتَالَهُ، وَاسْتَصَابَ إِنْفَادَ أَخِيهِ وَإِرْسَالَهُ، وَسَارَ السُّلْطَانُ بَرْكِيَارِقُ سَنْجَرَ فِي سَنَةِ جَارٍ وَسَيِّرٍ جَائِرٍ، وَتَهَادَى إِلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ حِينَ سَمِعَ مِنَ الْهَيْدَى وَنَاطَرَ، وَكَمَا وَصَلَ إِلَى دَامَغَانَ دَامِغًا لِلْعُدَاةِ عَلَى أَنَّهُ لِسَيْفِهِ غَامِدٌ، وَهُوَ لِيُزَامِنَهُ الَّذِي دَمَّهَ عَمُّهُ حَامِدٌ، وَصَلَهُ الْخَبِيرُ أَنَّ أَصْحَابَ عَمِّهِ قَدْ أَجْلَسُوا مَكَانَهُ وَكَلَّدُوا لَهُ صَغِيرًا أَشْغَلُوا بِهِ مِنْبَرًا، وَطَلَبُوا مِنَ السُّلْطَانِ بَرْكِيَارِقُ لَمَّا عَرَفُوا قُرْبَهُ مِنْهُمْ لَهُ الْأَمَانَ وَأَظْهَرُوا لَهُ الْإِذْعَانَ، وَأَحْضَرُوا عِنْدَهُ فَأَكْرَمَهُ وَاحْتَرَمَهُ وَقَدَّمَهُ، وَكَانَ وَصُولُ الصَّبِيِّ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ، مِنْ مُغَامِرِ اللَّزْوَغِ مُعَامِسٍ، وَقَدْ اسْتَصْغَرُوا وَتَهَبُّوا خِزَانَتَهُ وَأَفْقَرُوا وَأَقْطَعَهُ فِي نَوَاحِي الرَّيِّ وَهَمْدَانَ، وَدَخَلَ السُّلْطَانُ بَرْكِيَارِقُ إِلَى خُرَاسَانَ، وَبَلَغَ إِلَى تَرْمِذٍ، وَسَلَّمَ إِلَيْهِ مُسْتَحْفِظُهَا حِصْنَهَا، وَأَزَالَ تِلْكَ الْبِلَادَ مِنْ عَدْلِهِ خِصْمَهَا وَأَمْنَهَا، وَاسْتَوْلَى عَلَى جَمِيعِ خُرَاسَانَ وَبِلَادِهَا، وَأَقْدَرَهُ الْقَدْرُ عَلَى صَرْفِ الزَّمَانِ فِي إِفْسَادِهَا، أَنْقَذَ فِي سَمَرْقَنْدَ أَمْرَهُ وَوَقَدَّ بِهَا جَمْرَهُ، وَوَلَاهَا لِلخَانِ سَلِيمَانَ تَكِينٌ ثُمَّ لِمَحْمُودِ تَكِينٌ بَعْدَهُ ثُمَّ أَقْرَأَهَا عَلَى هَارُونَ تَكِينٌ وَحَدَّهُ، وَأَطَاعَهُ إِبْرَاهِيمُ صَاحِبُ غَزَنَةَ، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْبَسِيطَةِ الْمُكِنَّةِ، وَبَقِيَ سَنْجَرُ مَعَهُ لَا مُتَوَلِيًّا مُتَخَلِّيًا، بَلْ عَلَيْهِ اسْمُ الْوَلَايَةِ وَعَقْدُ الرَّأْيِ

وَالرَّايَةَ، فَلَمَّا سَمِعَ السُّلْطَانُ بَرَكْيَارِقَ عَنِ الْعِرَاقِ بِمَا تَمَّ مِنَ الْفَتْوَقِ، وَمَا هِيَ بِهِ مِنْ عَقْدِ الْوُثُوقِ، وَمَضَى مُؤَيَّدُ الْمُلْكِ بْنِ نِزَارِ الْمَلِكِ إِلَى جَنْزَةِ لِيَبْعَثَ السُّلْطَانِ مُحَمَّدَ بْنَ مَلِكْشَاهِ بِهَا عَلَى طَلَبِ الْمَمْلُوكَةِ وَحَثِّهِ عَلَى الْحَرَكَةِ، وَذَلِكَ بِرَأْيِ الْأَمِيرِ أُنْرَ فَإِنَّهُ وَسَّعَ لَهُ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى الْمُلْكِ وَيَدْعُوهُ لِنَفْسِهِ وَأَحْكَمَ مَعَ مُؤَاوَزَتِهِ قَوَاعِدَ أُسُسِهِ فَمَنْعَهُ الْقَاضِي بِشِيرَازَ أَبُو طَاهِرِ الْفَزَارِيُّ عَنِ هَذَا التَّدْبِيرِ، وَقَالَ لَهُ إِدْعُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ الْكَبِيرِ، فَسَارَ مُؤَيَّدُ الْمُلْكِ بِرَأْيِهِ لِطَلَبِ مُحَمَّدٍ وَاسْتِدْعَائِهِ وَخَرَجَ مِنْ جَنْزَةِ فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ، وَهَمَلَ بِغَيْرِ رَاعٍ وَلَا دَلِيلٍ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى تَبْرِيزِ اجْتَمَعَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَيْهِ وَتَوَاصَلَتْ إِلَيْهِ، وَسَارَ إِلَى الرَّيِّ وَبَرَكْيَارِقَ بِهَا، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ فَارْقَهَا وَأَخَذَتْ أُمُّهُ زَيْدَةَ خَاتُونَ فَحَبَسَهَا السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ وَخَنَقَهَا وَمَضَى إِلَى بَغْدَادَ عَلَى طَرِيقِ خَوْزِسْتَانَ وَوَأَسِطَ، وَوَجَدَ لِرَبِّهَا مَنَاجِحَ وَمَغَابِطَ، وَأَتَّصَلَ بِهِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ صَدَقَةٌ مِنْ مَنْصُورٍ، وَعَادَ إِلَى بَلَدِهِ بِوَفْرِ وَوَفُورٍ وَحُبَابٍ وَحُبُورٍ، وَعَادَ إِلَيْهِ كُوَهْرَاثِينَ وَكَرْبُوقَا فِي طَرِيقِ شَهْرَزُورٍ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مِنَ التُّرْكَمَانِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَمْعٌ كَثِيفٌ، وَحَارَبَ أَخَاهُ مُحَمَّدَ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ كُورْشَبَةِ فَأَنْهَزَهُمْ، وَأَنْفَلَ حُدَّةً وَانْتَلَمَ، وَسَارَ فِي خَمْسِينَ فَارَسًا إِلَى أَسْفَرَايِينَ ثُمَّ إِلَى نِيسَابُورَ، وَاسْتَجَدَّ الْأَمْرَاءَ وَاسْتَجَدَّ الْأُمُورَ، وَقَبَضَ عَلَى وَجُوهِ الْبَلَدِ وَأَمَانِلِهِ، وَأَخْنَى عَلَى أَعْيَانِهِ وَأَفَاضِلِهِ، وَمَاتَ فَخْرُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ الْإِمَامِ أَبِي الْمَعَالِي الْجُؤِينِيِّ فِي اعْتِقَالِهِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ سَنْجَرُ حَيْثُئِذٍ يُبْلِخُ مَعَ رَجَالِهِ، وَمَعَهُ الْأَمِيرَانِ كَنْدُكِرُ وَأَرْغِشُ، وَكِلَاهُمَا لِفَرَايِصِ الْأَعْدَاءِ مِنْ قَاسِمِيهَا يُرْعَدُ وَيُرْعِشُ، وَكَانَ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى مَعْظَمِ بِلَادِ خِرَاسَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ حَبْشِيُّ بْنُ التُّورْتَانَ، وَقَدْ شَقَّ الْعَصَا بِالْعِصْيَانِ وَالتَّفَاقُ وَهُوَ مُقِيمٌ بِالدَّامَغَانَ تَحْتَ اسْتِيْلَائِهِ أَكْثَرَ خِرَاسَانَ وَطَبْرِسْتَانَ وَجُرْجَانَ، وَمَعَهُ قَلْعَةُ كَرْدُكُوهِ، وَقَدْ تَطَرَّقَ مِنْهُ الْمَكْرُوهُ، فَنَهَضَ سَنْجَرُ فِي أَرْغِشَ وَكَنْدُكِرَ إِلَى قِتَالِهِ وَهُوَ فِي عِشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الرِّجَالِ وَمَعَهُ خَمْسَةُ آلَافٍ مِنَ الْبَاطِنِيِّينَ أَصْحَابِ إِسْمَاعِيلَ الْكَلْكِيِّ صَاحِبِ طَبَسِ، وَقَدْ بَشَّرَ وَجْهَ الْجُؤِ بِنَفْعِهِمْ وَعَسَسَ، وَقَوَّيْتَ قُلُوبَ السَّنْجَرِيِّينَ بِوَصُولِ السُّلْطَانِ بَرَكْيَارِقَ فَأَقْدَمُوا إِقْدَامَ اللَّيْثِ، وَاسْتَهْلَوْا اسْتِهْلَالَ الْغِيُوثِ، وَصَدَمُوا الْأَطْوَادَ بِالْأَطْوَادِ، وَرَجَمُوا الْحِيَادَ بِالْحِيَادِ، وَأَنْكَحُوا الرَّأْسَ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْمَادِ، وَأَرَامُوا جَلَاءَ نَصْلِ النُّصْرِ بِالْجِلَادِ، وَأَجْنَبُوا بِالرَّقَاقِ الْجِدَادِ رَفَاقَ الْأَعَادِي اجْتِنَابَ الْجِدَادِ، وَتَلَّمُوا الْبَيْضَ بِالْبَيْضِ وَحَطَّمُوا السُّمْرَ بِالسُّمْرِ، وَأَدَارُوا مِنْ رُوقِ الْأَيْسِنَةِ عَلَى الْعَدُوِّ الْأَرْزَقِ كُؤُوسَ الْمَنَابِيَا النُّحْرِ، وَكَانَتْ الْكُرَّةُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ صَارَتْ لَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا قِتَالَهُمْ وَقَتْلَهُمْ وَوَقَعَ حَبْشِيُّ فِي الْهَزِيمَةِ إِلَى بَعْضِ الْقُرَى، وَالطَّعْنُ وَرَاءَهُ يَرُومُ الْقِرَى، فَأَدْرِكَ وَأَخِذْ وَأَنْخَنْ

وَوُقِدَ وَحُمِلَ إِلَى الْأَمِيرِينَ أُرْغَشَ وَكَنْدَكَرَ فَاعْتَقَلَاهُ، وَبَدَّلَ عَنْ نَفْسِهِ مِثَّةَ أَلْفِ دِينَارٍ فَلَمْ يَقْبَلَاهُ  
وَقَتْلَاهُ، وَعَادَ السُّلْطَانُ بَرْكِيَارِقَ إِلَى الْعِرَاقِ وَأَتَّصَلَ بِهِ جَاوَلِي سَقَاوُو وَابْتَكَيْنَ النُّظَامِيَّ  
وَأَصْبَهَيْدَ صَبَاوَهُ ثُمَّ جَاءَهُ الْأَمِيرُ إِيَازُ فِي خَمْسَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مُدْرَعٍ مُقَنَّعٍ، لَا يَرَى غَيْرَ شُكْرِ  
الْهَامِ وَمَاءِ الطَّلِيِّ مِنْ مَرْتَعٍ وَلَا مَشْرَعٍ، وَقَصَدَ هَمْدَانَ وَهُوَ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفًا وَأَخُوهُ السُّلْطَانُ  
مُحَمَّدٌ فِي سَبْعَةِ آلَافٍ فَاصْطَدَمَا وَالتَّقْيَا وَاحْتَدَمَا وَاصْطَلَبَا وَتَمَوَّجَ بِهِمَا بَحْرُ الْحَرْبِ وَحَلَا  
بَيْنَهُمَا طَعْمُ ضَرْبِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، وَتَجَلَّتِ الْوَقْعَةُ عَنْ هَزِيمَةِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ وَأَفَلَّتْ مِنْهَا  
بِجَمْعٍ مُشَرَّدٍ وَشَمَلٍ مُبَدَّدٍ، وَأَسْرَمَ مُؤَيَّدُ الْمُلْكِ وَقَتَلَهُ السُّلْطَانُ بَرْكِيَارِقَ بِيَدِهِ تَشْفِيقًا مِنْهُ بِقَتْلِهِ لِمَا  
سَبَقَ إِلَيْهِ مِنْ سِيئَاتٍ فَعَلِيهِ بِأَخِيهِ وَإِطْمَاعِهِ فِي الْمُلْكِ، وَخَنِقَ وَالدِّيَةَ وَإِسْلَامِهَا إِلَى  
الْهُلْكِ، وَانْتَزَحَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ إِلَى جِرْجَانَ وَأَتَّصَلَ بِالْخَبَرِ بِأَخِيهِ سَنْجَرَ فَاعْتَمَمَ لَهُ وَاهْتَمَّ وَسَاءَهُ  
مَا تَمَّ، وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ مِنْ نَيْسَابُورَ مَا لَا عَظِيمًا، ثُمَّ سَارَ لِلْقِيَاهِ وَأَتَى لَهُ السُّوقُ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُقِيمًا،  
وَلَقِيَهُ بِجِرْجَانَ وَصَحْبَهُ إِلَى بَغْدَادَ، وَجَعَلَا دَارَ الْخِلَافَةِ الْمَعَادَ وَالْمَعَادَ، وَجَلَسَ الْإِمَامُ  
الْمُسْتَظْهَرُ لِمُحَمَّدٍ وَسَنْجَرَ، وَطَوَّقَ كُلًّا مِنْهُمَا وَسَوَّرَ، وَأَفِيضَتْ عَلَيْهِمَا الْخَلْعُ وَشُرْفَا، وَأُسْعِدَا  
بِمَا أَمَلَاهُ وَأُسْعِفَا، وَعَقَدَ الْخَلِيفَةُ لَهُمَا اللُّوَاءَ بِيَدِهِ، وَاسْتَدَامَ كِلَاهُمَا مِنَ الْمُلْكِ عَلَى جَدِيدِهِ،  
وَرَحَلَ سَنْجَرَ عَلَى سَمِيَةِ خِرَاسَانَ عَائِدًا، وَتَأَهَّبَ مُحَمَّدٌ لِقِتَالِ بَرْكِيَارِقَ عَامِدًا، وَتَصَافَا بِقُرْبِ  
مَدِينَةِ رُودْرَاوَرٍ وَصَفَّ كِلَاهُمَا عَقْدَ السَّلْمِ، وَجَرَى كِلَاهُمَا مِنْ قَصْدِ أَخِيهِ عَلَى الرَّسْمِ،  
وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمَا بِالرِّيِّ وَقَعَةٌ أُخْرَى، وَأَتَّصَلَتْ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ رُسُلُ التَّمَايَا تَتْرَى، فَمَا انْفَصَلَا  
عَنْ نَائِيَةٍ إِلَّا اتَّصَلَا بِثَانِيَةِ الْفِتْنِ ثَانِيَةً، وَحَادِثَةٌ كَارِثَةٌ لِلْمِخْنِ حَانِيَةً، وَلِخِطْبَانِ الْخُطُوبِ جَانِيَةً،  
وَخَوَمَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ بِأَصْفَهَانَ، وَلَقِيَهَا بِهَا شِدَّةً صَغُرَ عِنْدَهَا كُلُّ عَظِيمٍ فَهَانَ، فَرَأَسَلَهُ الْمُلْكَ  
مُودُودُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ يَاقُوتِي بْنِ مِيكَائِيلَ بَعْدَهُ بِالِاتِّصَالِ بِهِ وَإِسْعَاقِيهِ فِي نُصْرَتِهِ بِمَطَالِبِهِ  
فَخَرَجَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ مِنَ الْحِصَارِ، وَعَادَ الْأَسَدُ الْخَائِذِرُ إِلَى الْإِصْحَارِ، وَمَضَى صَوْبَ أَرَانِيَةِ  
مُتَلَبِّيًا أَلْسَنَةَ عَسَاكِرِهَا الرَّاعِيَةِ، وَمُتَمَرِّقًا عِيُونَ رَجَالِهَا الرَّانِيَةِ، وَاحْتَرَمَ مُودُودُ قَبْلَ اجْتِمَاعِهِ بِهِ،  
وَيُؤَلُّ مِنْ رَتْبِهِ إِلَى تَرْبِهِ، وَقَوِيَ مُحَمَّدٌ بِعَسْكَرِهِ، وَصَمَّمَهُ إِلَيْهِ مَعَ شَرِّ مَعْشَرِهِ، فَسَارَ السُّلْطَانُ  
بَرْكِيَارِقَ لِحَرْبِهِ، وَأَقْبَلَ مُحَمَّدٌ فِي حِزْبِهِ، وَطَلَعَتْ نُجُومُ الْخُرْصَانِ فِي لَيْلِ الْقِتَامِ، وَكَمَّ حَامَتِ  
الْكُمَاءُ الْجِمَامُ حَوْلَ حِمَى الْحَمَامِ، فَالتَّقْيَا عَلَى بَابِ حُوي فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ سِتِّ  
وَتَسْعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةِ فَانْهَزَمَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ إِلَى بِلْدَانِي، ثُمَّ تَوَسَّطَ بَيْنَ الْأَخْوَيْنِ الْأَقَاصِيَّ  
وَالْأَدَانِيَّ، وَقَسَمَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمَا قِسْمَيْنِ وَزَالَ التَّجَانُبُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَاسْتَقَرَّ أَنْ يَكُونَ لِلسُّلْطَانِ

مُحَمَّدٍ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ الْأَبْيَضِ الْمَعْرُوفِ بِأَسْفِيزْرُودَ مَعَ الْمَوْصِلِ وَالشَّامِ، وَعَادَ الْمُلُوكُ بِهَذِهِ الْقِسْمَةِ إِلَى النَّظَامِ، وَخُطِبَ لِيرِكْيَارِقَ بَبَعْدَادَ وَبِأَصْفَهَانَ وَجَمِيعِ الْعِرَاقِ وَسَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ، فَلَمَّا سَكَنَ إِلَى قُدْرَتِهِ حَرَكَهُ الْقَدْرَ وَدَنَا مِنْ وَرْدِ عُمُرِهِ الصَّدْرَ، وَزَادَ بِهِ مَرَضَ الْبُؤَاسِ وَالسَّلِّ وَتَزَلَّ الْمَطْلُ غَرِيمَ الْأَجْلِ الْمَطْلِ، وَانْتَقَلَ مِنْ شَمْسِ عُمُرِهِ إِلَى الظَّلِّ، وَتُوفِيَ بِرُجْدٍ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَتَسْعِينَ وَأَرْبَعِينَ، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ، وَمُدَّةَ وَقُوعِ اسْمِ السُّلْطَنَةِ عَلَيْهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

### عدنا إلى حديث السلطان سنجر

وَاسْتَمَرَ سَنَجَرٌ بِخِرَاسَانَ نَافِذًا الْأَمْرَ أَمْرًا بِالْفَتْحِ، رَاتِعًا فِي مُرَادِ الْمَرَادِ وَمَلَاذَ الْمَلَاذِ، وَقَدْ قَوِيَتْ سُلْطَنَتُهُ وَتَسَلَّطَتْ قُوَّتُهُ فَقَدَّرَ قَدْرَ خَانَ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ أَنَّهُ إِنْ عَبَّرَ إِلَى بِلَادِ خِرَاسَانَ مَلَكَهَا بِيَدِ الْقَهْرِ، وَطَمَعَ فِي سَنَجَرٍ لِيَصْغُرَ سِنُهُ وَدَارَ تَسْوِيلُ هَذَا السُّوْلِ فِي ظَنِّهِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ كَنْدُكِرَ مَكَاتِبَهُ، وَعَلَى التَّأخِيرِ يُعَاتِبُهُ، فَعَبَّرَ النَّهْرَ فِي مِئَةِ أَلْفٍ يُضَيِّقُونَ الْفَضَاءَ الْوَاسِعَ وَيُحَقِّقُونَ الْقَضَاءَ الْوَاقِعَ، وَيَسْدُونَ سَبِيلَ النَّوْرِ، وَيَرُدُّونَ ضِيَاءَ النَّهَارِ إِلَى ظِلْمَةِ اللَّيْلِ الدَّيْجُورِ، وَيُصِدِّثُونَ بِمَا يُبْثِرُونَهُ مَرَاةَ الشَّمْسِ الصَّقِيلَةَ، وَهُوَ عَلَى قَصْدِ سَنَجَرٍ مُصَمَّمٍ وَلِلْقَائِهِ مُقَدَّمٍ، فَعَظُمَتِ النَّوْبَةُ وَنَابَتِ الْعَظِيمَةُ، وَعَزَمَتِ الْبُعُوثُ وَانْبَعَثَتِ الْعَزِيمَةُ، وَاتَّفَقَ أَنَّ قَدْرَ خَانَ خَرَجَ مِنْ عَسْكَرِهِ مُتَجَرِّدًا وَبِحَوَاصِهِ مُتَقَرِّدًا، وَيَعُدُّ عَنْ مُخَيَّبِهِ فِي ثَلَاثِينَ فَارَسٍ مُتَّصِدًا، فَعَرَفَ سَنَجَرُ الْفُرْصَةَ فِيهِ فَأَدْرَكَهَا وَانْتَهَزَهَا، وَاعْتَدَّ انْفِرَادَهُ غَنِيمَةً فَلَمَّا كَلَّهَا وَأَحْرَزَهَا، وَأَنْهَضَ إِلَيْهِ بَزْغَشَ أَسْفَهْسَلَارَ عَسْكَرِهِ فِي عِدَّةٍ مُتَّخِبَةٍ مُتَّخِيَةً، وَسَرِيَّةٍ سَرِيَّةٍ ذَاتِ حِمَايَةٍ وَحَمِيَّةٍ، فَتَصَيَّدَهُ مِنْ مُتَّصِيدِهِ وَوَقَعَ فِي يَدِهِ، وَقَدْ سَقَطَ فِي يَدِهِ، وَسَهَلَ عَلَى سَنَجَرٍ مِنْ أَمْرِهِ مَا قَصَدَهُ ظَنُّهُ عَسِيرًا، وَحُمِلَ قَدْرَ خَانَ وَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَسِيرًا، فَوَقَّفَ عِنْدَهُ وَهُوَ يُؤْفِقُهُ عَلَى عِنَايَةِ، وَأَنَّهُ صَبْرُهُ تَمَرُّدُهُ وَبَغْيُهُ عَلَى بُعْيَتِهِ وَمُرَادِهِ، وَكَانَ قَدْ ظَاهَرَهُ وَعَاهَدَهُ وَصَاهَرَهُ وَعَاقَدَهُ، وَقَبَّضَهُ وَعَدَّرَهُ فَلَمْ يَسْطِ عُدْرًا، وَأَمْرٌ بِهِ فَضْرَبَ عُنُقَهُ صَبْرًا، وَتَفَرَّقَ جَمْعُهُ وَانْطَفَأَ شَمْعُهُ، وَدَجَا صَبَاحُهُ وَخَبَا مِصْبَاحُهُ، وَعَادَ السُّلْطَانُ سَنَجَرًا إِلَى مَقَرِّهِ بِرَمَقِهِ، وَطَلَعَ فَيَلْقُهُ بِفَلَقِهِ، وَذَلِكَ فِي حَيَاةِ أَخِيهِ بَرِكْيَارِقَ قَبْلَ أَيَّامِ وَفَاتِهِ، وَسَاعَدَهُ السُّعْدُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ سَعَادَتُهُ وَسَعَدَتِ أُمُورُهُ، وَأَنَارَتْ مَطَالِعُهُ وَطَلَعَ نُورُهُ، وَخَدَمَتَهُ الْإِقْبَالُ وَأَقْبَلَ خَدَمُهُ، وَنَعِمَ بِهِ الْأَوْلِيَاءُ وَتَوَالَّتْ نِعْمَتُهُ، وَاتَّسَعَتِ بِالْفَتْحِ مَمَالِكُهُ، وَاتَّسَقَّتْ بِالْمَنْحِ مَسَالِكُهُ، وَشَسَعَتِ أَطْرَافُ بِلَادِهِ، وَوَسَعَتِ طِرَافُهُ لِيَلَادِهِ، وَأَتَى مَدَدُهُ وَمَدَّ أَيْتَهُ وَجَنَى جَنِيَّتَهُ، وَفَرَا قَرْبُهُ وَسَمَا وَشَرَفَ سَمَهْرُهُ وَمِشْرِفِيَّتُهُ، فَمَا حَارَبُهُ

خَصِمٌ مُعَانِدٌ إِلَّا حَارِبَهُ وَحَرْبٍ، وَمَا انْتَدَبَ لَهُ عَدُوٌّ مَارِدًا إِلَّا انْتَدَى لَهُ الرَّدَى وَتَدَبَّ، حَتَّى رُجِيَ وَخُيِّبِيَ وَعُيِّبِيَ إِلَى سَنَاهُ وَعُيِّبِيَ، وَارْتَجَاهُ الصَّلُوكُ وَالتَّجَأَ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ، وَاشْتَعَلَ عَنْهُ أَخُوهُ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ بِالْعِرَاقِ، وَحَظِي سِنَجَرٌ بِمَا صَحَّ لَهُ فِي مُلْكِ خُرَّاسَانَ وَحَسَنِ الْإِتِّفَاقِ وَقَصْدُهُ بِهَرَامِشَاهُ مِنْ أَوْلَادِ مُحَمَّدِ بْنِ سُبُكْتِكِينَ إِلَيْهِ لِاجْتِبَاءِ وَإِنْجَادِهِ رَاجِيًا، وَلِشَقِيهِهِ الْمُسْتَقَرُّ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِ عَزَنَةَ مُشَاقِقًا مُدَاجِيًا، فَرَعَى وَفَادَتَهُ وَرَأَى إِفَادَتَهُ، وَاتَّرَ إِيْثَارُهُ فِي إِجَارَتِهِ وَإِجَابَتِهِ، وَاخْتَارَ اخْتِيَارَهُ فِي إِغَائِبَتِهِ وَإِعَانَتِهِ، فَجَعَلَ عَزَنَةَ مَغْزَاهُ وَأَجَارَ صَدُقَ قَصْدِهِ بِصَدِيقِ قَصْدِهَا وَجَزَاهُ، وَبَلَغَ الْخَبْرُ إِلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ فَلَمْ يَحْمَدْهُ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّ هَذَا بَيْتٌ كَبِيرٌ فَلَا تَقْصُدْهُ، فَرَدَّ نُصْحَ الْأَخِ وَاسْتَعَدَّ لِاصْرَاحِ الْمُسْتَصْرِخِ وَأَوْجَهَ فِي أَوْجِهِ لِلنَّصْرِ ثُبَارِي السَّعُودَ فِي أَوْجِهَا، وَبَحَرَ مُجْرَى بِالظَّفْرِ مُجَارِي الْبِحَارِ فِي مَوْجِهَا، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ عَشْرِ وَخَمْسِمِائَةٍ وَخَرَجَ صَاحِبُ عَزَنَةَ وَجَرَ ذِيولَهُ وَأَجْرَى سُيولَهُ وَصَفَّ خِيولَهُ وَزَفَّ فُيولَهُ، وَأَمْضَى صَرَيمَهُ وَانْتَضَى صَوَارِمَهُ، وَجَاشَ بِجِيوشِهِ وَحَوَّشَ وَحَوْشَهُ وَأَسَاوِدَهُ وَأَسْوَدَهُ، وَبَيَّضَهُ وَسَوَدَهُ وَهَنْدِيَهُ وَهَنْودَهُ وَجُنُودَهُ وَبُنُودَهُ، وَحَدَّ حَدِيدَهُ وَعَدِيدَهُ، وَثَارَ وَثَارًا وَأَغَارَ وَأَغَارَ، وَحَمَى لِحِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَإِدَالَةِ الْحَوْمَةِ، وَحَوَزَ الْعِصْمَةَ وَعَصَمَةَ الْحَوْرَةَ، وَخَرَجَ وَأَخْرَجَ وَانزَعَجَ وَأَزَعَجَ، وَتَبَوَّجَتِ بَوَارِفُهُ، وَتَبَلَّجَتِ بِيَارِفُهُ، وَتَمَوَّجَتِ فَيَالِقُهُ، وَتَمَرَّجَتِ مَغَارِبُهُ وَمَشَارِقُهُ، وَاخْتَلَطَ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ، وَاخْتَبَطَ سِرُّهُ وَجَهَارُهُ، وَوَضَحَ يَوْمَ النُّصْلِ الشَّامِسِ فِي لَيْلِ النَّعْمِ الدَّامِسِ، وَأَصْبَحَ الْفَارِسُ فَارِسَ الْفَارِسِ، وَالْأَفْيَالُ عَلَى الْأَفْيَالِ، وَالْأَسَادُ الْعَائِلَةُ مِنَ الْأَسْلِ فِي الْأَغْيَالِ، وَجَاءَ سِنَجَرُ وَالْحَتْرُ عَلَى رَأْسِهِ خَافِقٌ وَالنَّصْرُ لِيَمِينِهِ مُصَافِقٌ، وَالْقَدْرُ بِأَظْفَارِهِ مُوَافِقٌ، وَالظَّفْرُ لِأَقْدَارِهِ رَافِقٌ، وَقَدَّ عَبَى كُمْتَهُ وَكُمَاتَهُ وَلَبَّى إِلَى عِدَائِهِ وَدُعَائِهِ، وَكَتَبَ مَقَانِبَهُ وَقَنَّبَ كِتَابِيَهُ، وَقَدَّمَ ذَوِي الْإِقْدَامِ، وَفَرَّقَ اللَّهْيَ عَلَى جَمْعِهِ اللَّهَامِ، وَزَحَفَ وَحَفَزَ وَحَجَرَ وَحَجَزَ وَبَرَزَ وَبَرَزَ وَعَزَّ وَعَزَزَ وَرَتَّبَ قَلْبًا ثَابِتًا بِثَبَاتِ الْقَلْبِ، وَسَوَابِحَ سَابِحَةً فِي بَحْرِ الْحَرْبِ، وَثَارَ الْقَتَامُ وَحَامَ الْجِمَامُ، وَهَامَ الطَّائِرُ وَطَارَ الْهَامُ، وَحَنَّتِ الْحَتَايَا مِنَ الْمَتَايَا فَتَسَاهَمَتْ بِهَا السَّهَامُ، وَسَاعَدَتْ بِهِ السَّعَادَةُ فَوَمَّضَ الْجَهَامُ وَمَضَى الْكَهَامُ، وَكَانَ لِصَاحِبِ عَزَنَةَ خَمْسُونَ فَيْلًا قَدْ صَفَّهَا بَيْنَ يَدَيْ صَفْوِيهِ وَأَلْفَهَا قُدَّامَ أَلُوفِهِ، وَعَلَيْهَا الْكُمَاةُ الرُّمَاءُ وَدَوُو الْحَمِيَّةِ الْحُمَاةُ، فِي شَارَةِ هَائِلَةٍ وَشِرَةِ صَائِلَةٍ، وَكَادَتْ تَصُحُّ مِنْهَا عَلَى سِنَجَرِ الْكِسْرَةِ وَتَقَعُ فِي عَسْكَرِهِ الْفَتْرَةِ، فَإِنَّ الْخِيولَ نَفَرَتْ مِنَ الْفِيولِ حِينَ أَقْبَلَتْ كَالسِّيولِ، فَتَرَجَّلَ الْأَمِيرُ أَبُو الْفَضْلِ صَاحِبُ سَجِسْتَانَ وَقَدَّ كَانَ مِنْ أَبْطَالِ الشُّجْعَانِ، وَتَهَوَّرَ فِي الْإِقْدَامِ وَالتَّقَدَّمَ وَوَلَّجَ بَيْنَ قَوَائِمِ الْفَيْلِ الْأَعْظَمِ فَشَقَّ بِخَنْجَرِهِ بَطْنَهُ وَهَدَّ بِمِعْوَلٍ مِنْصَلِيهِ رِكْنَهُ، فَصَاحَ الْفَيْلُ وَوَلَّى ظَهْرَهُ، وَتَبَعَتِ الْفَيْلَةَ أَثَرَهُ فَأَنْهَزَمَ الْعَسْكَرُ

الغزنويُّ وَوَقَعَ فِيهِ الدَّاءُ الدَّوِيُّ، وَانْتَصَرَ الْحَزْبُ السَّنْجَرِيُّ الْجَرِي، وَنَفَثَ زَنْدَهُ الْوَرِي، وَاحْتَوَى عَلَى أَمْوَالٍ غَزَنَةَ وَخَزَائِنِهَا، وَحَصَلَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا وَبَوَاطِنِهَا، وَحَوَى جِوَاهِرَ تَمِينَةَ وَذَخَائِرَ دَفِينَةَ، وَكَانَ مَلِكٌ مَحْمُودٌ بِغَزَنَةَ مِنْ أَوَّلِ عَهْدِهِ إِلَى آخِرِ الْمُلُوكِ مِنْ بَعْدِهِ بِكَرَّامٍ يُقْتَضَى وَخَتَمًا لَمْ يُقْضَ، وَذُرُورَةٌ لَمْ يُحْتَلْ وَعُرُورَةٌ لَمْ تُحَلْ، حَتَّى أَتَى سَنَجَرَ فَأَنْتَرَعَ بِكَرَّهُ، وَكَسَرَ سِكْرَهُ، وَهَتَكَ سِتْرَهُ، وَخَفَّضَ قَلْبَهُ، وَحَلَبَ دَرَّهُ، وَنَهَبَ لُجْبِيئَهُ وَتَبْرَهُ، وَحَارَ أَمْوَالًا لَأُتْحَصَى وَاسْتَخْلَصَ مِنْهَا الْأَدْنَى وَالْأَقْصَى، فَلَمَّا اسْتَصْفَى مِنْ غَزَنَةَ أَمْوَالَهَا وَاسْتَنْظَفَ أَحْوَالَهَا وَفَرَّغَ جِوَانِبَهَا الْمَمْلُوءَةَ وَنَقَضَ كَنْوَرَهَا الْمَحْشُورَةَ نَصَبَ بِهَرَامِشَاهُ عَلَى سَرِيرِهَا وَأَمْرَهُ فَقَدَّ خَرَبَهَا بِتَعْمِيرِهَا وَشَغَلَ ذِمَّتَهُ بِمَا يُؤَدِيهِ إِلَيْهِ كُلَّ سَنَةٍ مِنْ قَرَارٍ وَهُوَ مَاتَانِ وَخَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَكُتِبَ إِلَى أَخِيهِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ بِبُشْرَى الْفَتْحِ وَبُشْرَى التَّحْجِ، فَوَجِمَ لِذَلِكَ وَوَجِدَ اسْتِشْاطًا وَعَيْضَ غَيْظُهُ مِنْهُ الشَّاطِطُ، وَكَانَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي شَغَلَهُ وَسَقَمِهِ الَّذِي أَنْهَكَهُ وَأَنْحَلَهُ، وَتُوْفِيَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةِ وَقَوِي سَنَجَرَ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْعَسْكَرُ، وَقَصَدَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ سَمَرَقَنْدَ، وَأَجَنَى جَنَاهَا الْجُنْدَ، وَذَلِكَ بَعْدَ تَطْوِيلِ حَصْرِ، وَتَضْيِيقِ عَصْرِ وَتَوْفِيقِ نَصْرِ، وَكَانَ صَاحِبُهَا أَحْمَدُ خَانَ الْكَبِيرِ الشَّانِ الْأَيْمَرِ السُّلْطَانِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ لَهُ إِثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَمْلُوكٍ تُرْكِيٍّ مِنْ كُلِّ لَيْثِ خَفَّانٍ، قَدْ نَصَّأَ فِي مَلَابِسِهِ الْعِزَّ وَغَرَارَةَ الْأَجْفَانَ، وَكَانَ لَا يَتْرُكُ غَزَوَ التُّرْكِ وَقَمَعَ جَمْعَ الشُّرْكِ، يَتَوَعَّلُ فِي بِلَادِهِمْ مَسَافَةَ شَهْرَيْنِ، وَيَسْتَبِي ظَافِرَ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ الْعَيْنِ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ عِلَّةٌ الْفَالَجِ وَأَعْمَى طَبُّهُ عَلَى الْمُعَالِجِ، وَبَقِيَ سَنَجَرَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ يُحَاصِرُهَا وَيُضَاقِقُهَا وَيَصَابِرُهَا، وَاسْتَفْنَى الْجِلْدَ فَاسْتَفْتَحَ الْجِلْدَ فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ أَحْمَدُ خَانَ فِي مَحْفَةٍ يَحْمِلُهَا الْغِلْمَانُ فَأَجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَاعَةً وَهُوَ لَا يَجِدُ لِلْكَلامِ اسْتِطَاعَةً وَلُعَابُهُ سَائِلٌ وَشَدْقُهُ مَائِلٌ، ثُمَّ حُمِلَ إِلَى دَارِ الْحَرَمِ لِلْقَرَابَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَرَكَانِ خَاتُونِ زَوْجَةِ سَنَجَرَ وَوَلِيِّ وَلَدِهِ نَصْرَخَانَ مَكَانَهُ وَأَحْبَى بِهِ سُلْطَانَهُ، ثُمَّ غَدَرَ بِعَهْدِ سَنَجَرَ صَاحِبُ غَزَنَةَ الْمَلِكُ بِهَرَامِشَاهُ وَمَا وَفَى وَتَكَلَّمَ عَنْ ضَمَانِهِ وَمَا طَالَ بِهِ الْأُمْرُ حَتَّى مَاطَلَّ، وَمَا خَفَّ لَهُ الْمَلِكُ حَتَّى تَنَاقَلَ، وَلَوْ حَمَى لَهُ الْمَلِكُ لِحَادَ بِمَا مَلَكَهُ وَحَمَلَهُ، لَا جَرَمَ مَا أَهْمَلَ حَرَمَهُ لِمَا أَهْمَلَهُ، وَعَزَمَ سَنَجَرَ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَى غَزَنَةَ ثَانِيًا، وَلَأَعِنَّةَ جِيوشِهِ وَجُنُودِهِ إِلَيْهَا ثَانِيًا، فَتَهَضَّ إِلَيْهَا كَالضَّبْعِ الْهَانِجِ، وَتَهَضَّ فِي الْجَبِشِ كَالْحِضْمِ الْهَانِجِ، فَسَارَ وَالنَّهَارُ مُظْلَمٌ بِدِيَا جَبْرِ قَسَاطِلِهِ، وَاللَّيْلُ مُضِيءٌ بِمَصَابِيحِ مَنَاصِلِهِ، وَرَحَلَ وَالزَّمَانُ خَرِيفٌ وَالْمَرَّانُ لِأَسَدِ الْهِيَاجِ عَزِيفٌ، وَالْأَرْضُ سَمَاءٌ لِانْقِضَاضِ خَيْلِهِ كَالشُّهْبِ، وَالسَّمَاءُ أَرْضٌ لِارْتِفَاضِ مَا نَارَ إِلَيْهَا مِنَ التُّرْبِ، وَالتَّرِيَاثُ الْحُمْرُ كَالْبُورِاقِ فِي السُّحْبِ، وَالتُّرْبُ بَحْرٌ مِنْ أَمْوَاجِ السَّرَائِعِ وَالسَّوَابِقِ، وَالتُّرْبُ بَحْرٌ مِنْ عَجَاجِ الْجِحَافِ وَالْقِيَالِقِ، وَلَمَّا بَلَغَ إِلَى بُسْتِ عَسَرَ عَلَيْهِ الْوُصُولُ وَحَالَتِ الْوُحُولُ، وَتَعَدَّرَتِ الْعُلُوفَاتُ

وَوَافَتِ الْأَفَاتُ، وَكَانَ التَّبِينُ أَعَزَّ مِنَ التَّبِيرِ، وَالشَّدَّةُ جَاوَزَتْ حَدَّ الصَّبْرِ، وَوَقَفَ الظَّهْرُ وَقَعَدَ الدَّهْرُ، وَقَدَرَ الصَّبْرُ وَعَجَزَ السَّيْرُ، فَمَا اكْتَرَتْ وَلَا أَحَدَتْ فُتُورًا لِمَا حَدَثَ، وَلَا احْتَفَلَّ بِمَا حَفَلَ وَلَا نَزَلَ لِمَا نَزَلَ، بَلْ رَكِبَ الإِهْمَالَ وَاحْتَمَلَ الْأَثْقَالَ، وَعَبَّرَ الْوَحْلَ بِالْحَوْلِ، وَجَاوَزَ مَحَلَّ الْمَحَلِّ، وَتَقَدَّمَ مُتَهَوِّرًا وَتَهَوَّرَ مُقَدِّمًا، وَرَأَى وَصُولَهُ إِلَى الْمُرَادِ مَعَ ذَلِكَ الْمَغْرَمِ مَعْنَمًا، وَيَهَرَّ بِهَرَامِشَاهُ رُغْنَةً وَأَبْعَدَهُ إِلَى لَهَاوِرِ قَرْيَةٍ، وَوَصَلَ سَنَجَرَ إِلَى غَزَنَةَ مُغَيَّرًا، وَلِكَأْسِ الدَّوَائِرِ عَلَيْهَا مُدِيرًا، وَلِلذَّرِّ وَالنَّسْلِ مُبِيرًا، وَسُلِبَتِ أَمْوَالٌ وَأَرْمَاقٌ، وَنُهَيْتِ مَحَالٌ وَأَسْوَاقٌ، وَنُقِضَتِ سُقُوفُ الدَّوَرِ، وَأَشْعِلَتِ أَبُوَابُهَا الْمَلِكِيَّةُ تَحْتَ الْقُدُورِ، وَأَحْدَثُوا النَّوَازِلَ وَسَعَثُوا الْمَنَازِلَ، وَأَتَارَوْا الْعَفَاءَ وَعَقَّوْا الْأَنَارَ، وَعَبَّرُوا الشَّارَ وَسَمَّوْا الْبَغَارَ، وَحَلَّوْا النَّظَامَ وَأَحَلَّوْا الْعِظَامَ، ثُمَّ نَادَى السُّلْطَانُ بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ بَعْدَ الْخَوْفِ وَالْعَدْلِ بَعْدَ الْحَيْفِ، فَآتَتْ السَّكِينَةُ وَعَادَتِ الطَّمَانِينَةُ، وَأَنَسَ النَّاسُ وَذَهَبَ الْبَاسُ، وَلَمَّا انْحَسَرَ الشَّنَاءُ وَانْكَسَرَ وَتَسَهَّلَ مِنَ الطَّرِيقِ مَا كَانَ تَوَعَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ السَّيْرِ مَا كَانَ تَعَسَّرَ رَتَّبَ أُمُورَ غَزَنَةَ وَأَصْلَحَهَا، وَنَهَجَ سُبُلَ سَدَادِهَا وَأَوْضَحَهَا، وَعَادَ إِلَى خِرَاسَانَ سَنِيَّ السَّنَا هَنِيَّ الْجَنَى غَنِيَّ الْمُنَى، وَلَمَّا تَوَفَّى السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ أَخُوهُ بِالْعِرَاقِ فِي سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَتَوَلَّى مَحْمُودُ ابْنَهُ السُّلْطَنَةَ وَبَسَطَ فِي الْبَسِيطَةِ يَدَهُ الْمُتَمَكِّنَةَ حَدَّثَتْ لِحِدَائِثِهِ وَصَغِرَهُ حَوَادِثُ عِظَامِهِ، وَلَزِمَتْ لِعَدَمِ اكْتِرَائِهِ بِالْمَوْجُودَاتِ كَوَارِثُ لَوَازِمِ، وَاحْتِاجُ سَنَجَرَ إِلَى الْإِلْمَامِ بِالْعِرَاقِ، وَضَاقَ دَرْعُ مَحْمُودٍ لِلْقَائِبِ شَقَقَ الشَّقَاقَ، وَجَرَّبَ الْحَرْبَ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا وَأَوْضَحْنَا عَرَفَهَا وَتَكْرَمَهَا، وَمَا عَادَ سَنَجَرُ إِلَّا وَقَدَ خُطِبَ لَهُ بِالْعِرَاقَيْنِ وَبِالشَّامِ وَالْمَوْصِلِ وَدِيَارِ بَكْرٍ وَدِيَارِ رِبِيعَةَ وَالْحَرَمَيْنِ، وَضُرِبَتْ الدَّنَانِيرُ بِاسْمِهِ فِي الْخَافِقَيْنِ، وَتَلَقَّبَ بِالسُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ مُعَزُّ الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَوَلَّى ابْنَ أَخِيهِ مَحْمُودَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَهْدَهُ بِالْعِرَاقِ وَنَعَتَهُ بِمُغِيثِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا وَصُولَ سَنَجَرَ إِلَى الْعِرَاقِ فِي أَيَّامِ مَحْمُودٍ مَرَّتَيْنِ وَفِي عَهْدِ طُغْرُلٍ وَفِي عَهْدِ مَسْعُودٍ دُفِعَتَيْنِ لَكِنَّهُ فِي زَمَانِ مَسْعُودٍ لَمْ يَتَجَاوَزِ الرِّيَّ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلْ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ بِهِ فِي وَعْدِ عَوْدِهِ الْكَيِّ.

### ذِكْرُ وُزَرَاءِ السُّلْطَانِ سَنَجَرَ بِخِرَاسَانَ

كَانَ مِنْ كُتَّابِهِ الْمَخْصُوصِينَ فِي صِغَرِهِ الْمَنْصُوصِينَ عَلَيْهِ بِخَطَرِهِ الْعَمِيدُ أَبُو الْفَتْحِ بْنُ أَبِي اللَّيْثِ، وَصَلَ مَعَهُ إِلَى بَغْدَادَ فِي ثَامِنِ شَوَالِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَمَعَ سَنَجَرَ أَنْابَكُهُ كِجْ كَلَاهِ، وَكَهُ الْأَمْرُ وَالْجَاهُ، وَذَلِكَ فِي عَهْدِ بَرْكِيَارِقِ أَخِيهِ وَابْتِدَاءِ خِلَافَةِ الْإِمَامِ الْمُسْتَظْهِرِ وَتَوَلَّيْهِ، وَاسْتَوَزَرَ عِنْدَ مُضِيِّهِ إِلَى خِرَاسَانَ فَخَرَّ الْمُلُوكُ الْمُظْفَرُ بْنُ نِظَامِ الْمُلُوكِ، وَكَانَ مَكِينًا

الْقَدْرِ مُتَمَكِّنَ الْقُدْرَةِ، جَمِيلَ الْإِشَارَةِ مُجْمِلًا لِلْأَشْرَةِ، مُبْرَ الْمَبْرَةِ سَرِيَّ الْأَسْرَةِ، مَنْصُورَ الصُّحْبَةِ مَصْحُوبَ النَّصْرَةِ، وَرُزُقَ التَّايِيدِ وَالتَّمَكِينِ، وَمَشَى الْأُمُورَ عَشْرَ سَنِينَ، وَقُتِلَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ مِنْ سَنَةِ خَمْسَمِائَةٍ. وَاسْتَوَزَرَ مِنْ وُلْدِهِ صَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ فخرِ الْمُلْكِ بْنِ نِظَامِ الْمُلْكِ، فَكَفَى الْمُهَيْمَ وَسَفَى الْمُلِيمِ، وَنَظَمَ الْمَثُورَ وَصَمَّ الْمَنْشُورَ، وَأَمَلَى الْمَزَائِنَ وَمَلَأَ الْخَزَائِنَ، وَسَدَّ الْخَلَّةَ وَسَدَّدَ الْخَلَلَ، وَحَلَى الْحَالَ وَأَزَالَ الزَّلَلَ، وَعَمِلَ الصَّلَاحَ وَأَصْلَحَ الْعَمَلَ، وَقُتِلَ بِبَلْخِ عِدَاةِ الْأَرْبَعَاءِ لِسَبْعِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسَمِائَةٍ.

### ذِكْرُ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ

كَانَ لِلسُّلْطَانِ سِنَجَرٍ مَمْلُوكٍ يُقَالُ لَهُ قِيْمَازٌ لَهُ قِيْمَازٌ قَدْ اسْتَحَسَنَهُ وَاسْتَخَصَّهُ وَاسْتَشْهَرَ بِحَبِيْبِهِ وَاسْتَخْلَصَهُ وَقَدَّمَهُ عَلَى أَمْرَائِهِ وَأَمْرَهُ عَلَى قُدَمَايِهِ، وَعَلَبَ عَلَى قَلْبِهِ وَلَعَبَ بَلْبَهُ، وَيَبْعُدُ رُشْدَهُ بِيَعْدِهِ وَيَقْرُبُ بِقُرْبِهِ، وَقَدْ أَصْبَحَ بِحَبِيْبِهِ صَبًا وَسَعْفَهُ حُبًّا، وَأَطَاعَ فِيهِ الْوَجْدَ اللَّادِعَ وَعَصَى الْعَادِلَ، وَهَجَرَ فِي وَصَالِهِ الظُّبْيَ الْخَاذِلَ، وَأَحَلَّهُ أَعْلَى ذُرْوَةِ وَأَحْلَى الْأَوَافِي حِظْوَةَ، وَكَانَ عَيْنَهُ الَّتِي بِهَا يَرَى وَأَذَنَهُ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُ، وَيَدَهُ الَّتِي بِهَا يَبِطِشُ وَيَقْبِضُ وَيَبْسِطُ وَيَرْفَعُ وَيَضَعُ، وَيَسْحُبُ عَلَى السُّلْطَانِ بِدَلَالِهِ وَإِدْلَالِهِ، وَمَا صَارَ يُيَالِي لِعِلْمِهِ بِاشْتِغَالِ بَالِهِ بِهِ تَسْتَغْلُ بِأَلِهِ، وَكَانَ هَذَا الْمَمْلُوكُ يُعْرَفُ بِكُجِّ كُلاهِ، أَيْ مَائِلُ الْقُلُنْسُورَةِ، وَكَانَ الْوَزِيرُ أَبْدَأَ بِنَهَائِهِ وَيَرُدُّهُ إِلَى نَهَائِهِ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا إِنْ عَقَلْتَ وَإِلَّا دَبَّرْتُ فِي تَسْوِيَتِكَ وَعَدَلْتُ مَيْلَ قُلُنْسُورَتِكَ، فَقَالَ لَهُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِوَعْدِهِ: إِمَّا أَنْ تُسَوِّيَ قُلُنْسُورَتِي وَإِمَّا أَنْ أُسَوِّيَ عِمَامَتَكَ، فَكُفَّ مَلَامَتَكَ، وَاتَّقَى أَنَّ السُّلْطَانَ كَانَ فِي ضِيَاغَةِ الْوَزِيرِ وَأَصْطَبَحَ وَاعْتَبَقَ عِنْدَهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ عَلَى الْبُيْمِ وَالزَّيْرِ، وَالْكَاسُ فِي يَدِ الْمُدِيرِ، وَالْمِزْهَرُ يَنْوُحُ وَالْمِجْمَرُ يَفُوحُ، وَالْعُودُ يُحْرَقُ وَالْعُودُ مُحْرِقُ، وَالْوَتْرُ غَرْدٌ وَالْوَطْرُ رَغْدٌ، وَالْحِجَى أَسِيرُ الشُّكْرِ، وَالْهَوَى أَمِيرُ النُّكْرِ، وَالْعَقْلُ وَاهِي الْعَقْدِ، وَالْجَهْلُ وَافِي الْجَهْدِ، وَلِلزَّمْرِ رَمَزٌ وَلِلخَمْرِ أَمْرٌ، وَالنَّائِي مَزْمُومٌ وَالنَّائِي مَعْدُومٌ، وَلِنَقْدِ السُّلَافِ إِسْلَافٌ، وَلِوَعْدِ الْخِلَافِ إِخْلَافٌ، وَالْجِلْمُ جُنُونٌ وَسِفَاهٌ، وَالنَّقْلُ خُدُودٌ وَسِفَاهٌ، وَهُمْ فِي أَحْلَى نَوْمٍ وَأَعْلَى سَوْمٍ، وَأَرْتَعِ عَيْشٍ وَأَفْرِعِ طَيْشٍ، وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ وَالْقَدْرُ يَتَحَرَّكُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَالسُّلْطَانُ فِي سَوْرَةِ رَاجِحِهِ وَسُكْرِ اصْطِجَاحِهِ، وَهُوَ صَرِيحٌ قَهْوِيَّةٍ وَضَجِيحٌ شَهْوِيَّةٍ، وَقَدْ ذَهَبَ ذِهْنُهُ وَضَعُفَتْ قُوَّةُ تَمْيِيزِهِ وَعَيْنُهُ فِي عَيْنِ الْمَمْلُوكِ وَيَدُهُ فِي يَدِهِ، وَقَدْ مَلَكَهُ بَعْمَزِيَّتِهِ وَتَعْمِيزِهِ، فَعَاغَلَهُ وَنَزَعَ خَتَمَهُ وَسَاتَرَهُ أَمْرَهُ وَكَاتَمَهُ، وَقَامَ وَمَضَى

وَهُوَ حَاقِدٌ، وَالْوَزِيرُ فِي حُجْرَتِهِ رَاقِدٌ، وَقَالَ اسْتَأْذِنُوا لِي عَلَيْهِ فَقَدْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ بِمُهُمَّ يَنْفَعُهُ، وَهَذَا خَاتَمُهُ لِأَسْرِّ إِلَيْهِ بِحَدِيثٍ يَسْمَعُهُ، وَلَجَّ حَتَّى وَلَجَّ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَاضِرًا بِدُخُولِهِ خَرَجَ، فَلَمَّا اسْتَخْلَى الْمَجْلِسَ وَأَصْعَى الْوَزِيرُ لَهُ وَاسْتَأْنَسَ حَزَّ رَأْسُهُ وَعَلَّقَهُ فِي يَدَيْهِ، وَدَخَلَ عَلَى السُّلْطَانِ وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَصَحَا سَنَجْرَ وَأَفَاقَ مِنْ نَشْوِيهِ وَهَالَهُ مَا جَرَى مِنْ اجْتِرَائِهِ وَاجْتِرَاحِهِ، وَأَخَافَهُ مَا تَمَّ مِنْ اقْتِحَامِهِ وَإِقْبَاحِهِ، فَاسْتَدْعَى الْوَزِيرَ قَمَاجًا، وَهُوَ أَوْضَحُ أَصْحَابِهِ فِي الرَّأْيِ مِنْهَاجًا، وَأَعَدَّلَهُمْ فِي النَّصِيحِ الصَّحِيحِ مِزَاجًا، وَقَالَ لَهُ سِرًّا انظُرْ إِلَى مَا صَنَعَهُ هَذَا الْمُؤَاجِرُ بُوَزَيْرِي، وَقَدْ نَعَصَ عَلَيَّ سُرُورِي وَسَرِيرِي، فَأَخْرِجْهُ مِنْ عِنْدِي عَلَى وَجْهِهِ سَحَابًا، وَقَطِّعْهُ إِرْبًا إِرْبًا، فَقَالَ لَهُ هَذَا أَمْرٌ فَطِيعٌ وَضِعُّ شَنِيعٌ، وَحِفْظُ النَّامُوسِ يُوجِبُ أَنْ لَا يَعْرِفَ أَحَدٌ مِنْ رَعِيَةِ بُلْدَانِكَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ يَتِمُّ فِي سُلْطَانِكَ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانِكَ، فَأَظْهَرَ أَنَّهُ جَرَى بِادْنِكَ، وَصُنَّ جَاهَكَ وَاحْدَرُ مِنْ وَهْنِكَ، وَارْكَبِ الْآنَ إِلَى دَارِكَ وَارْجِعْ إِلَى قَرَارِكَ، فَاقْبَلِ النَّصِيحَةَ وَكْتَمِ الْفَضِيحَةَ، ثُمَّ أَمَرَ بَعْدَ مُدِيدَةٍ بِالْفَتْكِ بِذَلِكَ الْمَمْلُوكِ وَقَتْلِهِ أَسْوَأَ قَتْلَةٍ، وَمُثِّلَ بِهِ أَفْبَحَ مِثْلَةٍ.

وَاسْتَوَزَرَ بَعْدَهُ ابْنَ أَخِي نِظَامِ الْمُلْكِ، وَهُوَ شِهَابُ الْإِسْلَامِ عَبْدِ الدَّوَامِ بْنِ الْفَقِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ إِسْحَاقَ، وَكَانَ ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ، وَقَبُولٍ وَإِقْبَالٍ، وَبَاسٍ وَتَوَالٍ، وَجَمَالٍ وَجَلَالٍ، مُتَبَحَّرًا فِي عِلْمِ الشَّرْعِ، مُتَكَلِّمًا فِي الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ، مُنَاطِرًا فِي الْعَجْمِ، مُورِدًا لِلتَّسْلِيمِ وَالْمَنْعِ، وَصَارَتْ لِلْفُقَهَاءِ فِي زَمَانِهِ سُوقٌ، وَظَهَرَتْ بِهِمْ حَقَائِقُ وَحُقُوقٌ، وَقَدْ جَعَلَ لَهُمْ مُوسِمًا لِأَفَادَتِهِ وَهُوَ فِي دَسْتِ زَارَتِهِ وَصَدْرِ سِيَادَتِهِ، وَلَمْ يَزَلْ مَقْصِدًا لِلْفُضْلَاءِ وَمُفْضِلًا عَلَى الْقُصَادِ، سَدِيدَ الْأَمْرِ أَمِيرًا بِالسُّدَادِ، وَتَحَلَّى الْمُلْكَ بِحِلَاهُ وَتَجَلَّى بِسَنَا عُلَاهُ، إِلَى أَنْ اسْتَوْفَى وَزَفَهُ وَوَأَفَاهُ أَجْلُهُ، وَتَخَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَخَلَا بِهِ عَمَلُهُ، وَتُوفِيَ بِسَرْحَسِ يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الْمَحْرَمِ سَنَةِ خَمْسِ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَتَوَلَّى بَعْدَهُ الْوِزَارَةَ أَبُو طَاهِرٍ سَعْدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى الْقَمِّيِّ، وَكَانَ وَجِيهَ الْقَدْرِ نَبِيَّةَ الذِّكْرِ كَبِيرِ الشَّانِ خَطِيرِ الْمَكَانِ وَلَمْ تَطُلْ مَدَّتُهُ وَلَمْ تَشْتَمَلْ عَلَى سِيَادَتِهِ سُدَّتُهُ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الْخَامِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الْمَحْرَمِ سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَتَقَلَّدَ بَعْدَهُ الْوِزَارَةَ الْوَزِيرُ الْكَاشِغَرِيُّ وَاكْتَسَى بِمِلاَسَتِهِ الْخُدْمَةَ الْمَلِكِ الْغُرِّيِّ وَتَجَدَّدَ بِجِدَّةِ رَأْيِهِ الرِّيِّ، وَتَطَرَّى بِنَصْبِهِ مَنْصِبُهُ الطَّرِيِّ، وَصَرَفَ عَنْهَا مُنْتَصَفَ صَفَرِ سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَتَوَلَّى الْوِزَارَةَ بَعْدَهُ مَعِينُ الْمَلِكِ مُخْتَصُّ الْمَلِكِ أَبُو نَصْرِ أَحْمَدُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ مَحْمُودٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ فَضْلِهِ وَشُكْرِ نَبْلِهِ وَصَرِيحِ مَحْتَدِهِ وَصَحِيحِ مَعْتَقِدِهِ وَتَنْقِيلِهِ فِي الْمَنَاصِبِ بِالْعِرَاقِ وَتَوْقُفِهِ فِي مَرَاqِبِ الْمَرَاتِبِ بِالِاسْتِحْقَاقِ وَلَقَدْ كَانَ أَمْجَدَ الْأَجْوَادِ وَأَجْوَدَ الْأَمَاجِدِ، وَأَكْبَرَ الْكِرْمَاءِ وَأَكْرَمَ الْكُبْرَاءِ، وَهُوَ الَّذِي حَسَبَ أَيَّامَ عَمْرِهِ وَرَدَّ كُلَّ مَظْلَمَةٍ جَرَتْ عَلَى ذِكْرِهِ، وَاسْتَدْعَاهُ السُّلْطَانُ سَنَجَرَ لِإِفْتِقَارِ مَلِكِهِ إِلَيْهِ، وَعَوَّلَ فِي الْوِزَارَةِ عَلَيْهِ، وَفَتَكَ بِهِ الْبَاطِنِيَّةُ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَقَدْ الْوِزَارَةَ بَعْدَهُ الْوَزِيرُ نَصِيرُ الدِّينِ أَبُو الْقَاسِمِ مَحْمُودُ بْنُ تَوْبَةَ الْمَرْوَزِيِّ، كَانَ مِنْ وَرَاءِ الْفَضْلِ وَأَفْضَلِ الْوِزَرَاءِ، وَلَمْ يَزَلْ لِلْأَفْضَلِ جَامِعاً وَلِلْأَرَاذِلِ قَامِعاً، وَبِالْفَضَائِلِ حَالِيّاً وَلِلْفَوَاضِلِ مُوَالِيّاً، وَقَصْدَهُ أَهْلُ الْفَضْلِ وَأَوَاهُمُ بِالْإِحْسَانِ الْوَافِرِ إِلَى وَافِرِ الظَّلِّ، وَاجْتَمَعَ ذَوُو الْأَلْبَابِ بِبَابِهِ، وَاسْتَحَلُّوا جَنَابَهُ وَخَدَمَهُ الْعُلَمَاءُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ وَخَصَّوهُ بِمُصَافَاتِهِمْ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِمَوْلَفَاتِهِمْ الْعِلْمِيَّةِ، وَصَنَّفَ لَهُ عَمْرُ بْنُ سَهْلَانَ كِتَابَ الْبَصَائِرِ النَّصِيرِيَّةِ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي لَمْ يُصَنَّفْ مِثْلُهُ فِي فَنِهِ وَلَمْ يُسَبَقْ إِلَى إِحْسَانِهِ فِيهِ وَحُسْنِهِ، وَهُوَ عَزِيزُ الْفَائِدَةِ غَزِيرُهَا، كَثِيرُ الْمُنْفَعَةِ أَثِيرُهَا، وَأَنْشَدَنِي بِأَصْفَهَانَ شَيْخُنَا جَمَالُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنُ الْأَخْوَةِ الشَّيْبَانِيُّ الْبَغْدَادِيُّ<sup>(1)</sup> مِنْ مَدَائِحِهِ فِيهِ عِنْدَ سَفَرِهِ إِلَى خُرَاسَانَ، وَاجْتِدَائِهِ مِنْهُ الْإِحْسَانَ قَوْلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ مَدَحَهُ بِهَا بِنِسَابِ بَوْرٍ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، مَطْلَعُهَا:

[البسيط]

حَلَّ الظَّلَامُ لِأَيْدِي الضُّمَرِ الْقُودِ      هَتَكَنَ مَا انْبَثَّ مِنْ أَنْوَائِهِ السُّودِ  
الليْلِ وَالنَّاجِيَاتِ الضُّمَرِ أَخْلَقْتُ بِي      إِذَا تَصَاريفُ أَرْزَانِي حَنَّتْ عُودِي  
وَلِلْقَوَاضِبِ مَنِّي هَبَّةٌ وَسَمَتْ      بِهُنَّ مَا ازوَرَّ مِنْ هَامِ الصَّنَادِيدِ  
قَرَعُ الطُّبِّيِّ بِالطُّبِّيِّ أَشْهَى لِسَامِعَتِي      مِنْ مَسْمَعِ حَنِيثِ الْأَعْطَافِ غَرِيدِ  
وَالنَّفْعِ مِنْ سَهْكِ الْمَادِيَّيْ أَرُوْعَ لِي      فِي السَّلْمِ مِنْ نَفْحَاتِ الْخُرْدِ الْغِيدِ

(1) عبد الرحيم بن الاخوة الشيباني: أبو الفضل، عبد الرحيم بن أحمد بن محمد بن الاخوة الشيباني، من فقهاء الشافعية ببغداد، سافر إلى خراسان ونيسابور وطبرستان في طلب الحديث، وأقام 40 سنة بأصفهان، كان سريع القراءة والكتابة، وكان يقول: كتبت بخطي ألف مجلدة، وله شعر، توفي سنة 548 هـ.

ومنها:

مَنِّي عِلَاءٌ وَمَنْ دَهْرِي مُطَارِدَةٌ  
وَالْأَعْجَبَانِ وَأَحْوَالُ الْوَرَى عَجَبٌ

ومنها:

مَنْ لِي بِأَحْمَسَ لَا يُنْسَى بِخَطْتِهِ  
إِذَا تَلَمَّسَ لِلْأَهْوَالِ شَيْعَهُ  
أَعْبِرُهُ شَعْبَةً مِنْ عَزْمَةِ نَشَدَتْ  
يَسْعَى وَأَسْعَى لِأَمْرٍ نَامَ طَالِبُهُ

قال: لَمَا أَنْشَدْتَهُ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ: هَلَا قُلْتُ:

وَمُنْتَشِينَ عَلَى الْأَكْوَارِ رَبِّحُهُمْ  
إِذَا اطْمَأَنَّتْ بِهِمْ أَرْضٌ نَبَتْ بِهِمْ  
شَامُوا بِرُوقِ الْغَنَى وَاشْتَفَّ أَنْفُسَهُمْ  
حَتَّى أَطْبَاهُمْ وَقَدْ كَلَّتْ عَزَائِمُهُمْ

ومنها في المديح:

لَيْنُ الثَّنَايَا وَفِي اثْنَائِهَا شَرَسٌ  
وَالْمِرَّةُ وَالسَيْفُ مَا لَمْ يُبْدِهَا أَتْرَأُ

ومنها:

نَدَاكَ وَالْأَفَقُ مُغْبَرٌ وَهَادِيُهُ  
كَمَا يُرَاعِلُ وَالْهَيْجَاءُ كَالْحَةِ  
إِذَا اعْتَلَى صَهْوَةَ الْقِرطَاسِ ضَاكِحَةٌ

ومنها:

لَدُمُ بِمَا يَكْمُدُ الْأَعْدَاءَ مُغْتَبِطًا  
وَصُرِفَ عَنِ الْوِزَارَةِ سِتَّةَ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ عِنْدَ وَصُولِ السُّلْطَانِ سَنْجَرٍ إِلَى  
الْعِرَاقِ بَعْدَ وَفَاةِ ابْنِ أَخِيهِ السُّلْطَانِ مَحْمُودِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَتَرْتِيبِ السُّلْطَانِيَّةِ لِأَخِيهِ طُغْرُلِ بْنِ

مُحَمَّدٍ مَكَانَهُ، وَحَاطَ بِهِ سِرِيرَ الْمَلِكِ وَصَانَهُ، وَكَانَ الْقَوَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الدَّرَكِزِيِّ مُسْتَوْلِيًا عَلَى الدَّوْلَةِ مُسْتَعْلِيًا بِالصَّوْلَةِ، وَسَأَلَ السُّلْطَانَ الْأَعْظَمَ سَنْجَرَ أَنْ تَكُونَ وَزَارَتُهُ بِاسْمِهِ، وَيُجْرِي رَسُومَهَا بِرِسْمِهِ، وَيَكُونُ هُوَ بِالْعِرَاقِ لِشُغْلِ طَغْرُلِ مُدَبِّرًا، وَعَلَى تَوْفِيرِ مَالِهِ وَجَاهِهِ مُتَوَفِّرًا، وَيَسْتَنِيبُ فِي الْحَضْرَةِ السَّنْجَرِيَّةِ مَنْ يَكْفُلُ بِأَمُورِهَا وَيَكْفِي وَيَكْلَفُ بِمَصَالِحِهَا وَيَشْفِي مَا جِيبَ سِوَالُهُ وَأُصِيبَ سُؤْلُهُ، وَعُزِّلَ عَالِمٌ وَوُلِّيَ جَهْوَلٌ، وَصُرِفَ ذَلِكَ الْفَاضِلُ بِهَذَا النَّاqِصِ، وَرَاجَ الْمَغْشُوشُ بِكِسَادِ الْخَالِصِ، وَتَمَهَّدَ مَحَلُّ اللِّثَامِ وَتَبَدَّدَ شَمْلُ الْكِرَامِ، وَنَزَلَ الصَّاعِدُ وَصَعَدَ النَّازِلُ، وَشَقِيَ الْمُجِدُّ وَسَعَدَ الْهَازِلُ، وَعَطَلَ الْحَالِي وَحَلَّى الْعَاطِلُ، وَقَعَدَ الْبَاطِلُ وَالْجَاهِلُ قَدْ جَاءَهُ الْجَاهُ، وَالنَّابِئُ قَدْ رَقَدَ حِظُّهُ وَأَعْيَى الْأَنْبَاءُ، وَالْفَسَادُ قَدْ تَكُونُ، وَالْمُرَادُ قَدْ تَدَوَّنَ، وَالزَّمَانُ قَدْ تَلَوَّنَ وَالْمَعْرُوفُ بِإِعَادَتِهِ إِلَى النِّكْرَةِ تَنَوَّنَ، وَاللِّثِيمُ قَدْ تَمَوَّلَ وَالْكَرِيمُ قَدْ تَمَوَّنَ.

### عبدالعزیز الحامدي

وتقلد نيابة الوزارة عن أبي القاسم الدرکزي الانسابادي ظهير الدين عبدالعزیز الحامدي وكان هذا عبدالعزیز يسكن إليه سنجر لأمانته وديانته، وهو الموعول عليه في خزانته، وهو يناظر الوزراء في قرب مكانه ومكانته، وطالت مع السلطان سنجر صحبتته ودامت معه صحته، وإنما فوض إليه الدرکزي نيابته لعلمه أن الأمر بغيره لا يتمشى، وأن ثوب الملك بدون طرازه لا يتوشع ولا يتوشى، ولما صلب الدرکزي بالعراق وضربت رقبته ارتفعت رقبته.

### ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك

تقلد الوزارة السنجرية ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وخمسائة واستمرت إلى آخر العهد، وكان في تقويم ما تأود وإصلاح ما فسد باذلاً للجهد، وكانت الدولة قد شاخت، وأنوارها قد باخت، وأسبابها قد راخت، وأقدامها قد ساخت، وجرت في وزارته أوزار، واختلف في أيامه بالقبض والغيب اغراض وأنزار، وتوفي في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسائة بعد مجيء الغز وذهاب العز.

ذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ خَوَاصِّ سَنَجَرٍ وَمَمَالِكِهِ أَحَبُّهُمْ ثُمَّ سَلَّاهُمْ وَخَلَا بِخِلَابِهِمْ ثُمَّ خَلَّاهُمْ، وَوَضَعَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَعْلَاهُمْ، وَحَطَّهُمْ بَعْدَ أَنْ حَاطَهُمْ، وَلَا مَ اعْتِبَاطَهُمْ بَعْدَ أَنْ سَامَ اعْتِبَاطَهُمْ

كَانَ مِنْ عَادَةِ سَنَجَرٍ أَنْ يَشْتَرِيَ مَمْلُوكًا يُسْرِيهِ، وَيَخْتَارُهُ لِهَوَاهُ وَيَرْضِيهِ، وَيَتَعَشَّقُهُ وَيَتَشَقَّقُهُ، وَيَشْتَهَرُ بِحَبِّهِ وَيَسْتَهَرُ بِقُرْبِهِ، وَيَبْدُلُ لَهُ مَالَهُ وَرُوحَهُ، وَيَجْعَلُ مَعَهُ غَبُوقَهُ وَصَبُوحَهُ، وَيَرْوِقُهُ وَيُسُوقُهُ، وَيُعَلِّقُ قَلْبَهُ بِقُرْطِهِ الْمُعَلَّقِ، وَيُعَلِّقُ لَبَّهُ لِيُشَاحِهِ الْقَلِقِ، وَيُحْكِمُ فِي سَبْكِهِ وَنَهْكِهِ حُكْمَهُ وَيُؤَيِّدُ سُلْطَانَهُ وَيَتْرُكُ لَهُ اسْمَهُ، فَإِذَا نَسَخَ اللَّيْلُ نَهَارَهُ وَسَيَّخَ بَنَفْسَجَهُ جُلْنَازَهُ وَتَنَفَّسَ بِالسَّوَادِ نَظَارَهُ وَغَشَّ بِالْفُضَّةِ دِينَارَهُ وَشَابَ بِالظُّلْمِ أَنْوَارَهُ، وَسَعَدَ بِالْقَارِ دَارَهُ وَأَدَارَ عَدَارَهُ، سَلَّاهُ وَقَلَّاهُ وَتَخَلَّى عَنْهُ وَخَلَّاهُ وَصَارَ اِحْتِمَالٌ ذَلِكَ ذُلًّا لَا يُحْتَمَلُ، وَالانْتِصَالُ بِقُرْبِهِ ذَنْبًا عَنْهُ يُتَّصَلُ، وَعَادَتُ مَحَاسِنُهُ ذُنُوبًا وَمَزَائِنُهُ عُيُوبًا، وَأَنْتَهَى فِي مَقْتَبِهِ بَعْدَ مِقْتَبِهِ، وَبَغَّضَهُ بَعْدَ مَوَدَّتِهِ، إِلَى أَنْ لَا يَرْضَى بِهَجْرِهِ بَعْدَ وَصْلِهِ، وَرَأَى الرَّاحَةَ مِنْهُ فِي قَتْلِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ أَوْلَاكَ مَمْلُوكٌ لِحَصِيرٍ فِي اسْمِهِ سَنَقَرٌ فَعَشِقَهُ قَبْلَ الرُّؤْيَةِ سَنَجَرٌ وَاشْتَرَاهُ بِالْأَلْفِ وَمَاتِي دِينَارٍ رُكْنِيَّةً بَعْدَ تَشْرِيفِ لِمَالِكِهِ وَعَطِيَّةً سَنِيَّةً، وَحُكِّيَ عَنِ ظَهْرِ الدِّينِ عَبْدِ الْعَزِيزِ خَازِنِهِ قَالَ: اسْتَدْعَانِي السُّلْطَانُ سَنَجَرٌ يَوْمًا وَقَالَ إِنِّي أَمْرُكَ مَا هُوَ أَوْ فِي خِدْمَاتِكَ وَأَوْثَقَ بِحَرْمَاتِكَ وَأَحْسَنَ بِاثْرَاتِكَ وَأَتَ فِيهِ الْإِمْمَكُنَ مِنَ الْاجْتِهَادِ يَوَاتِكَ مَا جِئْتَهُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَبَدَّلَ الْوَسْعَ وَالْإِسْطَاعَةَ، فَقَالَ هَذَا سَنَقَرٌ مَمْلُوكِي الْخَاصُّ قُرَّةُ عَيْنِي وَنَمْرَةٌ فُؤَادِي وَرِيحَانَةٌ رُوحِي وَنَتِيجَةٌ مُرَادِي، وَهَذِهِ خَزَانَتِي تَحْتَ خَنْمِكَ وَمَالِي بِحُكْمِكَ، وَحُمُولُ خَوَارِزْمٍ وَغَزَنَةٌ قَدْ وَصَلَتْ وَبُذُولُ الْمَمَالِكِ قَدْ عَرَضَتْ وَاسْتَعْرَضَتْ، وَهَذِهِ خِدْمَتِي الَّتِي أَمْرُكَ بِهَا فِي حَقِّهِ لَا تَرْفُضُهُ أَوْ افْتَرِضْهَا، وَلَا تَسْتَأْذِنِي فِي شَيْءٍ وَلَا تَسْتَأْمِرْنِي، وَقَدَّمَ هَذَا الْمُهَيْمَ وَاسْتَعْرَجَ اللَّهُ فِيهِ وَلَا تَسْتَأْجِرْ، وَأَرِيدُ أَنْ تَضْرِبَ لَهُ سُرَادِقًا كَسْرَادِقِي، وَتُجْرِي لَهُ سَوَابِقَ كَسَوَابِقِي، وَتَشْتَرِي لَهُ أَلْفَ مَمْلُوكٍ يَمْشُونَ فِي رِكَابِهِ، وَيَغْشَوْنَ إِلَى جَنَابِهِ، وَتَحِلَّ إِقْطَاعَ مَنْ رَأَيْتَ حَلَّ إِقْطَاعِهِ وَيُعَقِّدَ عَلَيْهِ، وَيَأْخُذَ بِلَدِّ مَنْ شِئْتَ وَتُفَوِّضَهُ إِلَيْهِ، وَاجْعَلْ لَهُ خَزَانَةَ كَخَزَانَتِي بِالْمَالِ مَمْلُوءَةً، وَبِأَجْنَسِ الصَّبَاغَاتِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفُضِّيَّةِ مَجْلُوءَةً، وَتَنْقُلْ إِلَيْهِ الْحَصْنَ الْعَرَبِيَّةَ وَالْبَغَالَ السَّرْحِيَّةَ، وَتَتَّخِذْ لَهُ مِنَ الْخِيُولِ وَالذَّوَابِّ، وَرَتِّبْ مَضَارِبَهُ مُرْتَبَةً الْأَسْبَابِ، وَتَجْعَلْ لَهُ دِيوانًا مُجَمَّلًا بِأَمَانِلِ الْكُتَابِ وَأَفْضَلِ النُّوَابِ، بِحَيْثُ يَكُونُ بَعْدَ اسْبُوعَيْنِ صَاحِبَ عَشْرَةِ آلَافِ فَارِسٍ، قَالَ فَاسْتَمَهَلْتُهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فَمَا أَهْمَلُ، وَأَمَرَ بِنَزْلِ الرُّتْبِ وَاسْتَعْجَلَ، فَمَازَلْتُ بِهِ حَتَّى فَسَّخَ لَهُ فِي مَهَلَةِ شَهْرٍ وَنِصْفٍ، وَشَرَعْتُ فِي الْأَمْرِ وَحَصَلْتُ كُلَّ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ كُلِّ

صَنِيفٍ، وَأَنْفَقْتُ عَلَى مَا قَدَّرَهُ فِي عِشْرِينَ يَوْمًا سَبْعِمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ رُكْنِيَّةً، وَذَلِكَ سِوَى مَا نَقَلْتُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْخَزَائِنِ مِنَ آلَاتِ خُسْرَوِيَّةٍ وَثِيَابِ عَدْنِيَّةٍ وَمَصُوغَاتٍ فَضِيَّةٍ وَذَهَبِيَّةٍ، وَذَلِكَ سِوَى الْإِقْطَاعَاتِ وَالْوَالِيَّاتِ وَالْقَرَارَاتِ، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ وَلَمْ يَمُضِ الشَّهْرُ بَأَنَّهُ قَدْ اسْتَمَرَ الْأَمْرُ، فَكَرَبَ السُّلْطَانُ سَنَجَرَ فَرَأَى الْعَسْكَرَ صُفُوفًا وَالْخَيْلَ صُفُوفًا حَوْلَ سُرَادِقِ سَنَقَرِ الْخَاصِّ، فَرَأَى رِوَاءَ ظَاهِرًا وَبِهَاءَ بَاهِرًا، قَالَ: وَشَكَرْنِي وَفَوَّضَ إِلَيَّ أَمْرَ خَزَائِنِهِ وَأَمْرِي بِتَحْصِيلِ مَالِهِ وَوَصَى كَلَامًا بِصَاحِبِهِ، قَالَ فَلَمْ تَمُضِ سِتَانِ حَتَّى اسْتَعَلَّتْ نَارُ حُدَيْهِ فِي الدُّخَانِ فَسَنَفَ أَوْ أَيْفَ وَعَافَ وَعَرَفَ، وَسَنَقَرَ يَزِيدُ فِي السَّحْبِ عَلَيْهِ وَالتَّبَسُّطِ، وَتَسْتَدِينُ مَعَ عَادَةِ التَّسْلِي عَنْهُ عَادِيَةُ التَّسْلُطِ، وَقَدْ زَادَ فِي غَيْظِ الْأَمْرَاءِ لِاسْتِحْقَارِ الْعِظَمَاءِ وَاسْتِصْغَارِ الْكِبْرَاءِ، وَهُوَ لَا يُبَالِي بِالسُّلْطَانِ إِذَا تَوَعَّدَهُ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ إِذَا تَهَدَّدَهُ، فَاسْتَدْعَى السُّلْطَانُ يَوْمًا جَمِيعَ أَمْرَائِهِ إِلَى حُجْرَةٍ مُفْرَدَةٍ مُفْرَدِينَ، وَمِنْ جَمِيعِ أَصْحَابِهِمْ سِوَى سِلَاحِيٍّ لِكُلِّ مُجَرَّدِينَ، وَقَالَ لَهُمْ إِذَا دَخَلَ سَنَقَرِ الْخَاصِّ إِلَيْكُمْ ضَعُوا بِأَجْمَعِكُمْ فِيهِ السَّكَاكِينَ، فَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِ أُمُورِهِ وَامْتَلَوْهُ، وَوَبَّوْا إِلَيْهِ وَقَتَلُوهُ، وَعَادَ ذَلِكَ الضِّيَاءُ دَنِجُورًا، وَذَلِكَ الْبِهَاءُ الْمَنْظُومُ هَبَاءً مَثُورًا، وَمِنْهُمْ قِيَمَازُ كُجْ كَلَاهِ قَاتِلِ وَزِيرِهِ، وَقَدْ آلَ أَمْرُهُ إِلَى تَصْغِيرِهِ، وَالتَّدْبِيرُ لَهُ إِلَى تَدْبِيرِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَنْ حَبَاهُ بِحُبِّهِ وَاخْتَصَّه لِقُرْبِهِ وَقَدَّمَهُ لِهَوَى قَلْبِهِ الْأَمِيرُ الْمُقَرَّبُ الْأَجَلُ اخْتِيَارُ الدِّينِ التَّاجِي، كَانَ مَمْلُوكٌ أُمِّيٌّ وَمِنْ خَوَاصِّ خَدَمِهَا وَمُخْلِصِ حَشَمِهَا، وَكَانَتْ تُوفِيَتْ أُمَّ سَنَجَرَ فِي شَوَالِ سَنَةِ عَشْرِ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَانْتَقَلَ هَذَا الْخَادِمُ إِلَى خِدْمَةِ سَرِيرِهِ، ثُمَّ غَلَبَ حُبُّهُ عَلَى ضَمِيرِهِ، فَغَلَبَ بِذَلِكَ عَلَى تَدْبِيرِهِ، وَرَقَاهُ إِلَى ذُرُورَةٍ لَمْ يَتَسَنَّهْ أَحَدٌ قَبْلَهُ، وَأَسْمَاهُ إِلَى مَرْتَبَةٍ لَمْ تَرَفِ فِيهَا عَيْنٌ مِثْلَهُ، وَأَوْطَأَ الْأَمْرَاءَ عَقِبَهُ، وَأَبْعَدَ مَرَقَى سُمُوهُ وَمَرَقَبَهُ وَقَرَبَهُ، وَبَلَغَ عَسْكَرُهُ مِنَ الْخَيْلِ ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَغَضَّ بِالرَّهْوِ طَرَفًا، وَثَنَى بِالْكَبِيرِ عِطْفًا، فَلَا يُنْتَقَضُ مَا أَبْرَمَهُ، وَلَا يُقَوَّضُ مَا أَحْكَمَهُ، وَلَا يُنَى مَا هَدَمَهُ، وَلَا يُوْجَدُ مَا أَعْدَمَهُ، وَلَا يَتَأْتِي لِلْوَزِيرِ وَلَا لِلْسُّلْطَانِ حُلٌّ مَا عَقَدَهُ وَلَا صَدٌّ مَنْ قَصَدَهُ، وَكَانَ إِذَا رَكَبَ مَشَى أَكْبَابُ الْأَمْرَاءِ فِي رِكَابِهِ، وَإِذَا نَزَلَ وَقَفُوا إِلَى أَنْ يُؤْذَنَ لَهُمْ عَلَى بَابِهِ، فَمَلَّ السُّلْطَانُ مِنْ طَوْلِ مُدَّتِيهِ، وَدَبَّرَ فِي إِخْلَاقِ جِدَّتِيهِ، وَمَلَأَ الْأَمْلَالَ مِنْهُ بِاللَّهِ يَلْبَالِهِ، وَضَاقَ مَجَالُ احْتِيَالِهِ، فَدَسَّ الْبَاطِنِيَّةَ لِاغْتِيَالِهِ، وَنَمَى إِلَى جَوْهَرٍ تَعَرَّضَ جَوْهَرِهِ لِأَنْ يَصِيرَ عَرَضًا، وَعَلِمَ أَنَّ عَرَضَ السُّلْطَانِ أَنْ يَصِيرَ لِسَهْمِ الْحَتْفِ غَرَضًا، فَأَخْفَى التِّيَّ عَلَيْهَا وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَكَتَمَهَا، فَقَالَ السُّلْطَانُ لَهُ يَوْمًا: يَا جَوْهَرَ إِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ هَوْلَاءِ الْمَلَاعِينِ فَتَحَرَّزْ مِنْهُمْ وَتَحَفَّظْ وَتَحَرِّمْ لِأَمْرِكَ وَتَبَقِّظْ، فَقَالَ لَهُ: لَوْ أَمْتَنِّي مِنْ نَفْسِكَ مَا خَفْتُ أَحَدًا، وَمَا أَرَدْتُ فِي

دَفَعَ غَائِلَةَ الْقَوْمِ مَدَدًا، فَاحْتَمَلَ السُّلْطَانُ مَقَالَهُ وَرَأَى احْتِمَالَهُ، وَرَكِبَ صَجْرَهُ جَوْهَرٍ مِنْ دَارِهِ، وَخَرَجَ خُرُوجَ الْقَمَرِ مِنْ سِرَارِهِ، وَالنَّاسُ بِأَشْرُونِ بَاهِلَالِهِ، وَالدُّنْيَا مُقْبِلَةٌ بِإِقْبَالِهِ، وَالرَّحَابُ قَدْ ضَاقَتْ بِرِحَالِهِ، وَالِدَوْلَةُ مُتْقَلِبَةٌ بِانْقِلَابِهِ مُتَّقِلَةٌ بِانْتِقَالِهِ حَالَةً بِحَالِهِ، وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ وَكَمْ يَدِرُ أَنَّ زَوَالَهَا عِنْدَ زَوَالِهِ، وَهَوَّ جَارٍ عَلَى قَالٍ إِغْفَالِهِ، سَاهٍ عَنِ الْقَدْرِ وَحُؤُولِ أَحْوَالِهِ، وَفِي رُكَابِهِ أَلْفُ سَيْفٍ مَسْلُولٍ، لَمْ يَنْخَلْهَا قِرَاعُ الْكُتَابِ مِنْ قُلُولٍ، فَلَمَّا نَزَلَ فِي دَهْلِيْزِ دَارِ السُّلْطَانِ وَكُمَائِهِ حَوَالِيهِ، وَحُمَاتِهِ مِنْ وَرَائِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ، وَرَجَالُهُ مُحْتَفُونَ بِهِ مِنْ جَانِبَيْهِ، نَفَرَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ، وَضَرَبُوهُ بِالسَّكَاكِينِ وَأَزَارُوهُ قَادِمِ الْمَنِيَّةِ، وَلَمَّا ارْتَفَعَ الصَّبِيْحُ قَالَ سَنَجْرُ وَهَوَّ فِي دَارِ حَرَمِهِ هَذَا جَوْهَرٌ قَدْ قُتِلَ، فَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ بَعْلِمِهِ عَمَلٍ، وَلَقَدْ كَانَتْ الدُّوْلَةُ عَقْدًا جَوْهَرٍ وَالْمَمْلَكَةُ عَقْدًا نِقَاوَةً رَابِطْتُهُ، وَكَانَتْ هَيْئَةُ الْمُلْكِ بِهَيْئَةِ سَرِيَّةِ وَرَوْضَةُ الْعَزِيْزِ وَبَيْتُهُ رَوِيَّةً، وَكَانَ عَاقِلًا مُنَاتِيًّا أَرِيْبًا مُتَهَدِّيًا، حُرَّ النَّفْسِ نَفِيْسًا مُتَحَرِّبًا، وَمِنْ نُكَيْتِهِ الْمُسْتَحْسِنَةُ أَنَّ السُّلْطَانَ كَانَ أَمْرَهُ بَيْنَاءِ قُبَّةٍ عَالِيَةٍ فِي مَرُو يَكُونُ فِيهَا ضَرْبُهَا وَتُنْضَدُ عَلَيْهِ بِهَا صَفِيْحُهُ، فَوَصَلَ إِلَى مَرُو وَرَأَاهَا غَيْرَ مَفْرُوعٍ مِنْهَا، فَقَالَ: يَا جَوْهَرُ مَتَى تَتَمُّ هَذِهِ الْقُبَّةُ؟ فَقَالَ: لَا أَتَمُّهَا اللَّهُ، فَأَبْكَى الْجَمَاعَةَ بِمَا ذَكَرَهُ وَلَطَّفَ مَوْقِعَ قَوْلِهِ عِنْدَ السُّلْطَانِ وَعَدَّرَهُ.

ذَكَرَ عُلُوَّ هِمَّةِ السُّلْطَانِ سَنَجْرِهِ وَكِرْمِهِ وَإِسْهَامِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرَائِهِ فِي نَعْمِهِ

كَانَ حَلِيْمًا حَيًّا مَلِيْنًا بِالْعَرَفِ وَفِيًّا عَلِيْمًا، وَيَالْمَجِدِّ عَلِيًّا كَبِيْرَ النَّفْسِ أَرِيْحِيًّا مُعْدِيًّا لِلْمَلْهُوفِ مُسِيْدِيًّا لِلْمَعْرُوفِ، ذُكِرَ عَنْهُ أَنَّهُ اصْطَبَحَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَاتٍ ذَهَبَ بِهَا فِي الْجُودِ كُلِّ مَذْهَبٍ، وَأَنْجَحَ فِيهَا كُلَّ مَقْصَدٍ وَمَطْلَبٍ، وَأَتَى عَلَى مَعْظَمِ مَا فِي الْخَزَائِنِ مِنْ عَرْضٍ وَذَهَبٍ، وَوَهَبَ وَخَلَعَ وَأَخْرَجَ وَأَقْطَعَ، وَجَادَ وَتَبَرَّعَ وَأَعْطَى وَوَسَّعَ، وَبَلَّغَتْ الْعَيْنُ سَبْعِمِئَةَ أَلْفِ دِينَارٍ أَحْمَرَ، وَجَاءَ مَا وَهَبَهُ مِنَ الْخَيْلِ وَالْخِلْعِ وَالشَّرِيْفَاتِ أَكْثَرَ، وَعَوِيْبَتِ عَلَى مَا بَدَّلَهُ وَنُسِبَ إِلَى الْإِسْرَافِ، وَقِيلَ لَهُ تَلَاْفٌ مُلْكِكَ فَقَدْ عَرَّضْتَهُ لِلتَّلَافِ، فَقَالَ فِي الْجَوَابِ أَمَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفُحُ إِقْلِيْمًا يَسْتَمِيْلُ عَلَى أَضْعَافِ مَا وَهَبْتُهُ مِنَ الْمَالِ وَأَهْبُهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لِمَنْ أَرَاهُ قَبْلَ السُّؤَالِ فَهَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ الْكَثِيْرِ قَلِيْلٌ، وَمَا لِلْمَلَامِ إِلَيَّ فِي نَهْجِ هَذِهِ السُّبُلِ سَبِيْلٌ، وَذُكِرَ عَنْ صَاحِبِ خَزَائِنِهِ ظَهِيْرِ الدِّيْنِ عَبْدِ الْعَزِيْزِ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّمْيِيْزِ قَالَ: أَحْبَبْتُ أَنْ يُشَاهِدَ السُّلْطَانُ سَنَجْرَ مَا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ خَزَائِنُهُ لِتُظْهَرَ كَفَايَةُ مُتَوَالِيَتِهَا وَأَمَانَتُهُ، فَقُلْتُ لَهُ أَخْدُمُكَ بِأَلْفِ ثَوْبٍ أَطْلَسَ حَتَّى تُبْصِرَهُ، وَتَسْتَعْرِضُ صَامِتَهُ وَنَاطِقَهُ وَعَيْنَهُ وَجَوْهَرَهُ، فَسَكَتَ وَظَنَنْتُ أَنَّهُ رَضِيَ

على ما ذَكَرْتُهُ فَجِئْتُ إِلَى الْخِزَانَةِ وَأَبْرَزْتُ مَا فِيهَا مِنْ طَرَائِفَ يَعَزُّ وَجُودَهَا، وَجَوَاهِرَ تُحُلُّ عَقُودَهَا، وَصُرَّرَ وَأَكْيَاسَ قَدْ مَلَأَتْ الْفَضَا بِعُودِهَا، وَأَعْلَاقٍ لَا يُعْرَفُ لَهَا قِيَمَةٌ، وَصَنَادِيقَ لَا يَلِي كُتْلَهَا يَتِيمَةٌ، فَلَمَّا قَصَدْتُهُ وَأَبْرَزْتُهُ وَلَقَقْتُ عَلَى كُلِّ جَنْسٍ وَنَوَعَةٍ وَمَيِّزْتُهُ وَكَلَّمْتُ مَنْظَرَ يَخْطَفُ النَّوَاطِرَ وَيُذْهِلُ الْخَوَاطِرَ قُلْتُ لَهُ: أَمَا تُبْصِرُ مَالَكَ وَتَشَاهِدُ حَالَكَ وَتَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خَصَّكَ بِهِ وَأَنَالَكَ، فَقَالَ: يَبْقِحُ لِمِثْلِي أَنْ يُقَالَ عَنْهُ إِنَّهُ مَالٌ إِلَى الْمَالِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ أَوْ أَخْطَرَهُ بِالْبَالِ، فَفَرَّقَ مَا جَعَلْتُهُ لِي مِنَ الثِّيَابِ الطَّلَسِ عَلَى الْأَمْرَاءِ، وَأَعْرَضَ عَلَيْهِمْ فِي الْخِزَانَةِ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ وَقُلَّ لَهُمْ يَقُولُ لَكُمْ سَنْجَرٌ قَدْ أَدَّخَرْتُ هَذَا لِأَجْلِكُمْ، وَجَمَعْتُهُ لِأَقْرَبَةٍ فِي قَمْعٍ عَدَوْتُمْ وَجَمَعَ شَمْلِكُمْ، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَفَرَحُوا وَاسْتَبَشَرُوا وَحَمَدُوا وَشَكَرُوا، وَكَانَ سَنْجَرٌ لَا يَدْخُلُ خِزَانَتَهُ وَلَا يُعَيِّرُهَا نَظْرَةً، وَلَا تَرِدُ خَاطِرُهُ مِنْهَا خَاطِرَةً، وَلَا يُصْغِي إِلَى خَبِيرِهِ سَمْعًا، وَلَا يَرَى لِمَا فِيهَا مَتَاعًا، وَكَانَ لِكَرَمِهِ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِتَوَابِهِ، وَيُسَلِّمُ حُكْمَ الْقَلَمِ إِلَى كُتَابِهِ، مُفْضِلًا عَلَى أَصْحَابِهِ، وَيَقُولُ إِنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ فَتَدْعُهُمْ بِرَتْعُونَ مَعَنَا، وَتَسْعُهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ مَا وَسَعْنَا، وَكَانَتْ جَوَاهِرُهُ فِي طُولٍ مَخْتُومٍ بِخْتَمٍ مَحْفُوظَةٍ بِاسْمِهِ، فَأَذَا أَرَادَ شَيْئًا اسْتَحْضَرَهَا وَفَضَّ خَوَاتِيمَ أَقْفَالِهَا، وَأَخَذَ مِنْهَا ثُمَّ أَعَادَهَا بِخْتَمِهَا إِلَى حَالِهَا.

### ذِكْرُ سَبَبِ اخْتِلَالِ مُلْكِهِ وَانْحِلَالِ سُلْكَه

لَمَّا امْتَدَّتْ مَادَةُ حَيَاتِهِ وَأَمَدَّتْ بِالطُّولِ مَادَةُ عُمُرِهِ تَسَلَّطَ الْأَمْرَاءُ عَلَى سُلْطَانِ أَمْرِهِ وَتَسَخَّبُوا عَلَى قَدْرِهِ وَتَسَبَّحُوا فِي بَحْرِهِ وَحَقَّرَ الصَّغِيرَ حَقَّ الْكَبِيرِ، وَتَأَخَّرَ الْكَبِيرُ لِتَقَدُّمِ الصَّغِيرِ، وَاسْتَخَفَّ الْوَقُورُ وَوَقَرَ الْخَفِيفُ، وَصُرِّفَ الْقَوِيُّ وَصُرِّفَ الضَّعِيفُ، وَضَاعَتِ الرَّعِيَةُ وَرُعِيَتِ الضِّيَاعُ، وَاتَّبَعَتِ الْأَطْمَاعُ وَطَمَعَ الْأَبْغَاعُ، وَعَمَّتِ الْمَطَالِمُ وَظَلِمَتِ الْعَامَّةُ، وَطَمَّتِ الْعُدُوانُ وَعَدَّتِ الطَّامَةُ، وَعَزَّتِ السَّلَامَةُ وَأَعْوَزَتِ الْاسْتِقَامَةُ، وَاسْتُهِنَّ بِأَمْرِ اللَّهِ فَضْلًا عَنْ أَوَامِرِ سُلْطَانِهِ، وَسَلِكَ بِهِمُ الْهَوَى فِي كُلِّ مَا يَعُودُ بِهَوَايِهِ، وَوَقَعَ التَّحَاسُدُ بَيْنَهُمْ وَالتَّحَاقُدُ، وَارْتَفَعَ وَأَنْحَلَّ التَّسَاعُدُ وَالتَّعَاقُدُ، وَامْتَدَّ التَّنَافُسُ وَالتَّنَافُرُ، وَدَامَ مِنْهُمْ عَلَى تَرْكِ التَّنَاصُرِ فِي مَصْلَحَةِ الدَّوْلَةِ التَّنَاصُرُ، وَرَكِبُوا الْفَضَائِحَ الْفَضَائِحَ، وَخَلَّوْا بِالشَّنَائِحِ وَخَلَّوْا الشَّرَائِحَ، وَكَانَ أَكَابِرُ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ سَنْقَرُ الْعَزِيزِيِّ وَيَرَنْقَشُ هَرَبُوهُ وَفَرْلُجَةُ وَأَضْرَابُهُمْ، وَأَقْدَمَ مِنْهُمْ الْأَمِيرُ قِمَاجُ وَالْفَلَكُ عَلِيُّ الْجَنْزِيِّ، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ آرَاؤُهُمْ وَأَرَائِبُهُمْ، وَرَكِبَ كُلٌّ مِنْهُمْ أُمَّ رَأْسِهِ، وَعَضَّ عَلَى الْأَضْرَارِ بِأَضْرَائِهِ، وَشَدَّ فِي مَرَايِسِهِ بِشَدِّ أَفْرَائِسِهِ، وَعَسَا فِي الْعَسْفِ، وَعَنِى بِالْعُنْفِ، فَأَوَّلُ خَطْبِ أَصَابِ

سنجر كسر الكافر الخطائي له ولعسكره وردّ صفير ملكه إلى كدره، واثارة عادة الفبح العادية العائذة بفتح أثره.

### ذكر السبب في ذلك وانكسار سنجر في حربه مع الخطائية

كانت خيول هراق في نواحي سمرقند وقد وفرت أموالهم وورفت ظلالمهم، وانتشرت مواشيههم وانتشأت غواشيههم وحواشيههم، وظهر عليهم أثر الإثراء، وأفضى بهم وفور الإغناء إلى الإعناء، وخيفت مضرتههم وخشيت معرفتههم، فأشار الأمراء على السلطان سنجر بأن يتوجه لدفعهم ويتببه لردعهم، لتحلل عن عقد الجراءة عاديتههم، وتحلا عن ورد الجور صاديتههم، والقوم مستمرون على الصلاح لو خلوا، مستقرون من الفلاح على ما إليه ذلوا، فمضوا إليهم وضايقوهم في مراعيهم وقايضوهم عن محاسنهم بمساويهم، وأخذوا طابعهم بعاصيهم ودانيهم بقاصيههم، وأسرعوا في سرقة نسائهم وذراريهم، وتمحلوا لوجوههم من الذنوب وجوهاً، وأكروههم على الازورار وأزاروهم مكروهاً، وعاملوا مستحسناً بناتيم بالقبايح، وصار سر الشراً ذائعاً على منطق البايح، فانفذوا إلى السلطان سنجر وبدلوا له الخدمة بخمسة آلاف جمل وخمسة آلاف فرس وخمسين ألف رأس غنم، ليتمسكوا منه بأقوى ذمم وأوفى عصم، وليأمنوا على أهاليهم ونسائهم وذراريهم، فلما لم يقبل خدمتههم ولم يحصل عصمتهم ولم يرع ذمتهم استأنفوا الانف وتلافوا التلف، وأخذوا لنفوسهم قبل أخذ نفائسهم، وعرسوا بالعراء ليحترسوا على عرائسهم، وحملتهم الحمية على الاحتماء بالتحمل، وآل بكبارهم الترحم والخنو على صغارهم إلى المرحل، واجفلوا من الظلم إجمال الظلم، وأزعجهم أقل السلام ازعاج الألم للسليم، وجابوا البيد راحلين، وجاؤوا إلى بلاد الترك داخلين، وقصدوا حضرة أون خان صاحب خطا وختن ونعما، وسددوا إليه مرمى مرام اللياذ به المرمى، ولم يكن في الكفار الخطائية أوسع منه ملكاً وأنظم سلكاً، وأوفر جنداً وأكثر عدداً، وأنفذ أمراً وأوفى مدداً، فان أمره كان ينفذ إلى حدود الصين، وكان بيني أمره على العزم المتين والرأي الرصين، فلما وصلت الفريقية إليهم ألقتهم وشوقتهم إلى الملك وشوقتهم، وأطمعت الكفر في الايمان واستصرخت على أهل العدل بأهل العدوان، وأطعمت الشرك رزق مملكة الخطائية في ما وراء النهر إلى هذا العصر فالولاءة مسلمون من قبل ولاية الكفر.

ذَكَرَ انْتِعَاشَ سَنَجَرٍ بَعْدَ أَنْ عَثَرَ وَانْتِيَاشَهُ وَأَنْحِيَازَهُ بَعْدَ أَنْ شَيْكَ وَانْكَسَرَ

كَانَ عِنْدَ انْتِجَاهِ سَنَجَرٍ لِجِهَادِ الْكَافِرِ وَقِتَالِهِ انْتَهَرَ خَوَارِزْمِشَاهُ أْتَسَزَ بِنُ مُحَمَّدِ بْنِ نُوشْتَكِينِ فِرْصَةً لِاسْتِغَالِهِ فَمَرَّ إِلَى مَرُوٍ وَدَخَلَهَا عُنُودًا وَعَدَّهَا غَزْوَةً، وَقَتَلَ وَجُوهَ أَهْلِهَا وَحَزَنَ بِالْجُورِ مُجَاوِرِي حَزْنِهَا وَسَهْلِهَا، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ سَنَجَرٍ، وَمَدَّ الطَّغْرَاءَ وَوَقَّعَ وَنَهَى وَأَمَرَ وَنَقَلَ مِنَ الْخَزَانَةِ السَّنَجَرِيَّةِ صِنَادِيقَ جَوَاهِرِهِ، وَلَمَّا عَادَ السُّلْطَانُ مِنْ وَجْهَتِهِ عَرَفَ خَوَارِزْمِشَاهُ أَنَّ الْقَدَرَ غَيْرُ مَظَاهِرِهِ فَرَجَعَ إِلَى خَوَارِزْمٍ وَاسْتَوْلَكَ ذَلِكَ الْعِزْمَ وَوَصَلَ سَنَجَرَ إِلَى دَارِ مَلِكِهِ وَقَدْ غَنِمَ السَّلَامَةَ فِي الْإِيَابِ، وَهُوَ عَارٍ مِنَ الْعَارِ كَاسٍ مِنْ تَوْبِ الثَّوَابِ، فَإِنَّهُ بَذَلَ الْجُهْدَ فِي الْجِهَادِ، وَانْفَقَ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ سِوَى مَا وَهَبَهُ مِنَ التَّشْرِيفَاتِ وَالْعُدَدِ وَالْجِيَادِ، فَاسْتَجَدَّ الْجَدَّ، وَجَدَّ الْجُمُوعَ وَجَمَعَ الْجُنُدَ، وَنَهَدَ إِلَى خَوَارِزْمٍ، وَلَسْنَا سِنَانَ سَنَجَرٍ أَوَارٍ، وَيُحَوِّرُ خَوَارِزْمِشَاهُ خُورًا، وَلِلْغَارَاتِ أَذْكَارًا وَلِلْمَدَالِي عُورًا، وَالنُّورُ مِنْ مَا مَرَّ الْقَتَامُ الثَّائِرُ نُورًا، وَلِلْعَرَاءِ ادْجَارٌ وَلِلدُّجَى اعْتُورًا، وَالْخَيْلُ مِنَ الْخَيْلِ جَافِلَةٌ كَمَا خَافَتْ مِنَ الْأَسْلِ صِرَارًا، وَوَصَلَ سَنَجَرَ إِلَى قَلْعَةِ هَرَارِشَفٍ فَحَصَرَهَا، وَرَمَى بِالْحَجَرِ حُجْرَهَا، وَنَفَرَ نَحْوَ الرَّدَى نَفْرَهَا، وَكَانَ لَهَا خَنْدَقٌ عَمِيقٌ عَرِيضٌ فَجَعَلَهُ هَمَّةً، وَكَانَ الْمَاءُ قَدْ طَمَأَ بِهِ فَطَمَّهُ، وَمَلَأَ جَوْفَهُ بِالْتَّرَابِ وَالْقَمِّ فَاهُ الْحَجَرِ، وَطَالَ الْحِصَارُ وَمَا ضَجَرَ، وَقَسَمَ السُّورَ عَلَى أَمْرَائِهِ، فَحَزَرُوا لِثَامَهُ وَحَقَّقُوا انْتِلَامِهِ، وَكَشَفُوا بِالنَّقَبِ نَفْعَهُ، وَرَفَعُوا حِجْبَهُ وَهَدَّوْا هَضْبَهُ، وَجَدَعُوا أَنْوْفَ أَبْرَاجِهِ، وَطَرَقُوا الْأَفْوَاجَ إِلَى فِجَاجِهِ، وَتَمَيَّحَتِ الْقَلْعَةُ عُنُودًا، وَأَضْحَتَ لِمَا يَرَامُ فَتَحَهُ مِنَ الْفِالَاعِ أُسُودًا، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ فِيهَا وَعَلَيْهَا أَلُوفٌ وَجُدِعَتِ أَنْوْفٌ، وَتَصَرَّفَتِ تَوْبٌ وَنَابَتِ صُرُوفٌ، وَمَا اقْتَبَضَتِ فُتُوحٌ إِلَّا اقْتَضِيَتْ حُتُوفٌ، ثُمَّ وَقَعَ الصَّلْحُ، وَأَسْفَرَ بَعْدَ الظُّلْمَةِ الصُّبْحُ، وَرَدَّ خَوَارِزْمِشَاهُ عَلَى سَنَجَرٍ صِنَادِيقَ الْجَوَاهِرِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنَ الْخَزَانَةِ بِمَرُوٍ بِخَنِمِهَا، وَحَقَّقَ سَلَامَةَ نَفْسِهِ بِحَقِّ سَلْمِهَا، وَرَكِبَ وَوَقَّفَ بِإِزَاءِ سَنَجَرٍ مِنْ شَرْقِيَّ جَيْحُونَ، وَقَدْ سَبَّرَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ إِلَى بَلَدِهِ عَسْكَرُهُ الْمَجْرُورِ وَفُلُكُهُ الْمَشْحُونِ، وَنَزَلَ بِحَيْثُ يَرَى وَقَبْلَ الْأَرْضِ وَتَقَبَّلَ الْفَرَضَ، وَعَادَ سَنَجَرَ إِلَى خُرَاسَانَ وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ، وَالْقَدَرَ بِنَصْرِهِ قَاضٍ، وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُهُ يَتَمَشَّى، وَبُرْدُ مَلِكِهِ بِالْحُسْنِ يَتَوَشَّى، وَوَلِيُّهُ يَتَرَجَّى وَعَدُوُّهُ يَتَحَشَّى، وَالْإِيَامُ وَاللِّيَالِي بِمُدَدِ عَمْرِهِ وَمُدَدِ أَمْرِهِ يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى، إِلَى أَنْ أَرَادَ اللَّهُ شَتَّ الشَّمْلِ وَيَتَّ الْحَبْلِ، وَحَلَّ الْعَقْدَ وَجَدَّ الْجَدَّ، وَقَطَعَ الرَّصْلَ وَقَلَعَ الْأَصْلَ، فَبَلَغَ الْمَدَى وَعَلَبَ الْعِدَى، وَسَلَبَ الْعِزَّ وَسَلَطَ الْغِزَّ، وَتَحَلَّلَّتْ عَقُودُ الدُّوَلَةِ، وَتَفَلَّلَّتْ حُدُودُ الصَّوْلَةِ، وَانْقَضَى الدَّهْرُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ.

## ذكر نوبة الغز

وذلك في سنة ثمانٍ وأربعينَ وخمسمائة، الغز من التركمان للضييم عاتفة، ولم تزل وهي بما يعيها عارفة، وعلى ما يعينها عاكفة، وكانت في اهتمام الأمير قماج، وهي تحمل إليه من غلتها من الخراج، وأميرها قززد وطوطي بك يخدمان الحضرة ويحضران الخدمة ويسدان بالخلّة خلّة السداد، ويتقربان بالمقربات ويجودان بالجياد، ويحضر مقدّموهم في كل سنة لشكرهم أو شكواهم، ويقدمون بين يدي نجواهم، فما زالت حركاتهم ساكنة وضارباتهم واكنة، وشوافعهم مقبولة وذرائعهم موصولة، وحرماتهم قائمة ومقاماتهم محترمة، وكراماتهم مقدّمة ومقدّموهم مكرّمة، حتى يجني عليهم الأمير قماج ذنباً تنصّلوا منه فلم يقبل، وتخيّلوا في تحليل عقد سُخْطِهِ فلم يتحلّل، وأبى إلا الإباء، ولم يحبّ العفو وعاف الحباء، وأرضوه بكلّ طريق وطريف فلم يرص، وصيق عليهم من واسع البسيطة الطول والعرض، واضطرّ إلى مضرته، ودفعهم إلى الشرّ لدفع شرّته، فأعشوه وناوشوه وهاوشوه وهاوشوه، ولم يتركوا في خلادِهِ خلدًا، وقتلوا له في تلك الوقعة ولدًا، فازدادت صراوته وثار ثاره والتهبّت ناره، وحمي أنفه وأنفت حميته، وتعاطمت مصيبته ونفاقت بليته، ولجّ وضجّ وأزعج وعجّ، وأرغى وأزبد وأبرق وأرعد، وعصّ غضبه من حليمه، وسدّ جهله نهج عليمه، وحضّر صلحاء القوم في إصلاحه، وانتهوا في البذل إلى غاية اقتراحه، وقالوا إن رأيت أن تقبل منا وتصفح عنا وتلوا: [أنهلكنا بما فعل السفهاء<sup>(1)</sup>]، وبذلوا له إحضار قتلة ولديه وإيقاعهم في يده، وعرضوا عليه أموالهم وأحوالهم فأبى إلا قتلهم وقتالهم وقلعهم واستئصالهم، وماج قماج بيحره الزاخر، وصرف إلى قصلدهم أعمته العساكر، فركبوا إليه وأكربوه والتهبوا به وألهبوه، وهزموه وهشموه، وأوقعوا به ويحشميه وما احتشموه، ورذوه أفصح رذو وصدوه أقطع صد، ولقوه أبقح لقاءً بأحسن بلاء والوائه من اعتدال إلى اعتداء، فجاء إلى سنجر وهو قلى حنى، وكأنه بالغيظ مُختنق، وقال له قد اختل الملك وأنحل السلك، فإن قعدت عنهم أقاموك، وإن لم ترمهم ولم تزيهم راموك، فأنهض إليهم بجنودك وردّ نحوهم بسعودك، ولمح سنجر سناء جرائيم وفكر في كرتيم، فكرة فكره، وماج قماج وشرة شره وضرّ ضره، وما آثر أحد من أولئك الامراء إثارة لذلك

الأمْرِ وَمَا أَشَارُوا بِالشَّرِّ، وَجَالُوا فِي فِكْرِ الْمَكْرِ، وَقَالُوا لَسَنَجِرُ إِنْ هَذَا قِمَاجًا قَدْ شَاخَ وَبَاخَ، وَخُشِي وَخَابَ وَأَخْطَأَ الصَّوَابَ وَارْتَاعَ وَارْتَابَ، فَإِنْ أَنْجَدْتَهُ خُذِلْتَ، وَإِنْ هَوَيْتَ هَوَاهُ لُدِعْتَ وَعَدِلْتَ، فَأَشِرْ عَلَيْهِ بِأَنْ يَعْذِرَهُمْ وَلَا يَذَعِرَهُمْ، وَيُخْمَدَهُمْ وَلَا يُسْعِرَهُمْ، وَيَدَعِ رَوْعَهُمْ يَفْرَقُ وَجَمَعَهُمْ يَتَفَرَّقُ، وَاجْتَرَحَهُمْ يُنْسِي وَجَرَحَهُمْ يُؤْسِي، وَبَدَلَهُمْ يُقْبَلُ وَقَبُولُهُمْ يُبْذَلُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ قَطُّوا نَطَقُوا، وَإِنْ كُذِّبُوا صَدَقُوا، وَإِنْ أُوحِشُوا وَحَشُوا، وَإِنْ سُقُوا كَأَسِ الْمُدَارَةِ انْتَشُوا، وَإِنْ أَشْعِرُوا بِالْحَسَنَةِ حَشُوا، وَالْإِغْضَاءُ عَنِ الْإِعْطَابِ أُولَى، فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يَكُونَ الْآخِرَةُ مَعَهُمْ كَالأُولَى، فَإِنْفَ قِمَاجٍ وَشَيْفٍ وَعَنْفٍ وَعَنْفٍ وَعَيْسِفٍ، وَتَظَلَّمَ وَتَأَلَّمَ وَتَلَوَى وَتَلَوَّمَ، وَذَكَرَ بَصْرَةَ ابْنِهِ وَوَقَعَهُ وَهَوْنَهُ، وَلَمْ يَزَلْ يَزْعَجُ وَيَرْهَجُ، وَيَخْرُجُ وَيَوْهَجُ، وَيَكْرِي وَيُنْضِجُ، وَيَلْحَى وَيَلْجُ وَيَمُوجُ وَيَمُجُّ، وَيَجْثُمُ وَيَجْثُو وَيَحْتُ وَيَحْتُو، وَيَقُومُ وَيَقْعُدُ وَيَدْنُو وَيَبْعُدُ، وَيَنْزِلُ وَيَصْعَدُ وَيَصْرُخُ وَيَسْتَصْرِخُ وَيَعْقُدُ وَيَفْسُخُ، وَيَجِيئُ وَيَسْتَجِيئُ وَيَسْتَشِيطُ وَيَطِيئُ، فَصَغَا سَنَجِرَ صَغَوَهُ وَنَحَا نَحَوَهُ، وَنَقَى بِكَدْرِهِ صَفَوَهُ، وَأَمَرَ أَمْرَاءَهُ بِالتَّأَهُبِ، وَصَرَى صَرْمَهُ بِالتَّلْهَبِ، وَأَشْعَلَ فِي مَاءِ عَزْمِهِ نَارَ الْمَضَاءِ، وَأَرْهَفَ مَضَارِبَ بِيضِهِ لِانْظَارِ الْإِنْبِضَاءِ، وَقَفَّى لُضْدَهُ بِضِدِّ مَا فِي الْقَضَاءِ، فَانَهُ ظَنَّ أَنَّ حُلَفَاءَهُمْ لَا يَثُرُونَ لِثَارِهِ وَثَارَ فِي جَمْعِ كَالْخِضْمِ زَاخِرٍ، وَسَوَادٍ كَاللَّيْلِ الْمَجْبَبِّ بِلَا آخِرٍ وَلِهَامِ اللَّهَامِ مُلْتَمِّمٍ، وَعَرْمَرِمٍ إِلَى مَرَامِي الْمَجْرَمِ عَرِمٍ، وَالْأَمْرَاءُ لِدَلِكِ الْأَمْرِ مُتَكَرِّهُونَ، وَإِلَى مُوَاجَهَةِ الْغَزْوِ قَلُوبُهُمْ وَمَوْجُهُمْ مُقَدِّمُونَ وَالْعَزَائِمُ مُتَخَلِّفَةٌ، وَسَاتِرُونَ وَالسَّرَائِرُ مُتَوَقِّفَةٌ، وَنَاهِضُونَ وَالضَّمَانُ مُتَقَاعِدَةٌ، وَمُتَقَارِبُونَ وَالْخَوَاطِرُ مُتَبَاعِدَةٌ، وَقَدْ كَثُرُوا غِنَى وَقَلُّوا غِنَاءً، وَتَضَاعَفُوا رِجَالًا وَضَعُفُوا رِجَاءً، فَلَمَّا عَرَفَ الْغَزْوُ أَنَّهُمْ قَدْ عَزَّوْا وَآلَ الشَّرِّ غَزَّوْا قَدَّرُوا أَنَّهُمْ عَجَزُوا وَاحْتَرَسُوا وَاحْتَرَزُوا، وَحَضَرَ مِنْهُمْ ذَوُو الْأَبْيَابِ بِالْبَابِ، وَأَعَدُّوا لِلْعُدَى جِبَاءَ الْحُبَابِ، وَاسْتَعَانُوا فِي النَّجْحِ بِأَرْيَابِ الْأَرَابِ، وَتَوَصَّلُوا وَوَصَّلُوا وَحَمَلُوا وَاحْتَمَلُوا، وَفَرَّقُوا التَّحْفَ وَأَتَحَفُوا الْفِرْقَ، وَقَالُوا نَحْدُمُ السُّلْطَانَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ رَأْسٍ مِنْ جِمَالٍ وَأَفْرَاسٍ وَبِمِائَتِي أَلْفَ دِينَارٍ رُكْنِيَّةً وَبِمِائَتِي أَلْفَ رَأْسٍ غَنَمٍ تَرْكِيَّةً، وَيَحْضُرُ قَبْلَهُ قَتْلَهُ وَكَيْدَ قِمَاجٍ، وَيَلْتَزِمُ كُلَّ سَنَةٍ بِخَرْجٍ وَخَرَايِجٍ، وَحَشَعُوا وَلَاثُوا وَخَضَعُوا وَاسْتَكَاثُوا، فَاعْلَقَ سَنَجِرُ بَابَ الْقَبُولِ فِي وَجْهِهِ أَوْلَثُكَ الْوُجُوهَ، وَأَبَى أَنْ يِعَامِلَهُمْ بِغَيْرِ الْمَكْرُوهِ، وَأَيْسَهُمْ مِنْ إِثَارِ الْعَفْوِ، وَعَقَى آثَارَ أَمَالِهِمْ بِالْيَأْسِ، وَنَازَعَهُمْ وَلَمْ يَنْزِعْ عَنْهُمْ لِيَأْسَ الْبَأْسِ، وَأَبْلَى سَمِعَهُمْ فِي خَطْبِهِمْ مِنْ خِطَابِهِ بِالْأَبْلَاسِ، فَتَوَهَّلُوا وَتَوَحَّلُوا، وَتَوَحَّشُوا وَتَغَرَّبُوا وَتَعَزَّلُوا، وَتَبَتَّلُوا وَاسْتَقْبَلُوا، وَلَجَّأُوا إِلَى أَرْضٍ لَا

يُسَلِّكُ إِلَيْهَا إِلَّا فِي وادٍ لَا يَسَعُ عَرْضُهُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ فَارِسٍ، وَشَدَّوْا بِالشَّدَةِ وَسَاعَدَ كُلُّ سَاعِدٍ لَهُمْ مُدَاعِسٌ، وَأَعَدَّوْا فِي الطَّرْفَاتِ الطَّرْفَانَ عَلَى رَسْمِ قِتَالِ تَرْكَمَانَ، وَنَشَرُوا الْمَصَاحِفَ يَطْلُبُونَ أَمَانَ أَهْلِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ اشْتَدَّوْا وَشَدَّوْا وَامْتَدَّوْا وَمَدَّوْا وَاسْتَعَدَّوْا وَاسْتَعَدَّوْا، وَجَعَلُوا الْخُرُكَاهَاتِ كَالْأَسْوَارِ بِهِمْ مُحَدِّقَةً، وَنِيرَانَ النَّصَالِ مِنْ وَرَائِهِمْ لِلْحَذْفِ مُحَرِّقَةً، وَصَبَرُوا حَتَّى لَا يَسْتَهْمُ الْعَسْكَرُ وَفِي قَلْبِهِ سَنْجَرٌ، وَقَدْ امْتَلَأَ الْوَادِي وَأَجْتَابَ النَّهَارُ لِيَأْسَ اللَّيْلِ، وَطَارَتِ الْأَسْهَامُ إِلَى أَوْكَارِ الْمُقَلِّ، وَخَطَرَ الْجِمَامُ فِي أَفْكَارِ الْوَجَلِ، وَانْفُضَّتِ بِالْقَوَاضِيهِ أَبْكَارُ الْأَجْلِ، وَنُسِيَتْ بِذِكْرِ الرَّدَى ادْكَارُ الْأَمْلِ، وَالْخَوْفُ عَزَلَ سُلْطَانَ الرَّجَاءِ، وَالرَّعْبُ رَعَى قَلْبَ اللَّقَاءِ، وَكَانَ فِي الْمَقْدَمَةِ أَمْرَاءُ خَارُوا وَخَامُوا، وَهَمُّوْا بِمَا وَهَمُّوْا وَهَامُوا، وَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَأَدْبَرُوا مُوَلِّينَ، وَاعْتَمَمَ الْغَزُ إِضْعَافَهُمْ وَرَكَّبُوا أَكْتِافَهُمْ، فَيَقْتُلُونَ وَيَأْسُرُونَ وَيَصْدُمُونَ وَيَكْسِرُونَ، وَعَزَّ الْمَخْلُصُ مِنَ الْمَضِيْقِ، وَفَرِشَتْ جِثُّ الْقَتْلَى عَلَى الطَّرِيقِ، وَقَتَلُوا قَمَا جَاءَ وَعَلَاءَ الدِّينِ وَلَدَهُ، وَأَتَوْا عَلَى الْعَسْكَرِ وَأَفْنَوْا عَدَدَهُ وَعُدَدَهُ، وَتَخَلَّصُوا إِلَى السُّلْطَانِ سَنْجَرٍ وَهُوَ فِي خَفٍّ مِنْ خَوَاصِهِ، وَجَوَادُهُ قَدْ بَخُلَ بِخِلَاصِهِ فَأَحْدَقُوا بِهِ إِحْدَاقَ الْأَهْدَابِ بِالْحَدِّقَةِ، وَحَصَلَ فِي وَسْطِ تِلْكَ الْحَلْفَةِ الْمُحَدِّقَةِ، وَبَقِيَ كَالْمَرْكَزِ فِي الدَّائِرَةِ، وَوَقَعَ فِي الْإَيْدِي الْجَائِزَةِ، وَنَزَلَ أَمِيرُهُمْ وَقَبْلَ الْأَرْضِ، وَأَمْسَكَ بِعِنَاوِهِ عِنَانَهُ، وَأَطْلَقَ بِدَعَائِهِ لِسَانَهُ، وَقَالَ إِنَّ قَوْمَكَ فَتَحُوا بِالْأَذْيَةِ، وَلَمْ يُحْسِنُوا رِعَايَةَ الرَّعِيَةِ، وَنَحْنُ خَوْلُكَ وَخَوْلُكَ نَقُولُ بِقَبُولِكَ وَنَسْمَعُ قَوْلَكَ، وَأَفْرَدُوهُ عَنْ أَصْحَابِهِ وَعَوَّضُوهُ عَنْ عَزِّ جُمَاغِهِ بِذُلِّ إِصْحَابِهِ، وَمَكَثَ مَعَهُمْ ثَلَاثَ سِنِينَ كَالْأَسِيرِ، وَقَدْ أَرْضُوهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ بِالْيَسِيرِ، لَكِنَّمْ يُجْلِسُونَهُ عَلَى السَّرِيرِ، وَيَقْفُونَ مَائِلِينَ بِخِدْمَتِهِ سِوَى قَرْغُودِ الْكَبِيرِ وَطُوطِي بَكِ الْأَمِيرِ، وَانْتَشَرُوا فِي الْبِلَادِ انْتِشَارَ الْجَرَادِ، وَدَبَّ دُبَاهُمْ بِالْفَسَادِ، وَأَذْهَبُوا الْأَمْوَالَ وَالنَّفُوسَ، وَأَعَدَّمُوا النَّعِيمَ وَأَوْجَدُوا الثُّوسَ، وَخَرَّبُوا مَدِينَةَ نِسَابُورَ وَقَتَلُوا أَهْلَهَا تَحْتَ الْعَذَابِ، وَسَفَكُوا دِمَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَثَمَةِ فِي الْإِمْحَرَابِ، وَكَانُوا يَسْتَصْحِبُونَ سَنْجَرَ مَعَهُمْ وَهُوَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرُدَّهُمْ، وَرَبَّمَا خَشِنَ عَلَيْهِمْ فِي الْقَوْلِ وَنَهَاهُمْ وَنَهَرَهُمْ وَسَنَّهُمْ وَشَنَعَهُمْ، وَهُمْ لَا يُجِيبُونَهُ إِذَا نَجَّهَهُمْ وَجَبَّهَهُمْ بِالْمَكْرُوهِ أَوْ أَسْمَعَهُمْ، وَلَمَّا آيَسَ الْبَاقُونَ مِنْ عَسْكَرِ سَنْجَرٍ مِنْ خِلَاصِهِ وَرَأَوْهُ مُضَيِّقًا عَلَيْهِ فِي قَفْصِ اقْتِنَاصِهِ فَرَقُوا وَتَفَرَّقُوا وَخَفَّقُوا وَأَخْفَقُوا، فَهَرَبَ مِنْهُمْ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، وَوَقَعَ فِي تَرْمِذَ، وَأَرْهَفَ حَدَّ الْعِزْمِ وَشَحَذَ، فَأَصَابَهُ سَهْمُ الْأَجْلِ وَنَفَذَ، فَأَحْضَرَ عَسْكَرَ سُلَيْمَانَ شَاهِ ابْنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ لِيَتَوَلَّى مَكَانَهُ وَيُجِدَّ سُلْطَانَهُ، فَلَمْ يُفْلِحْ وَلَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَصْلُحْ وَيُصْلِحْ، وَلَا قَرَّ وَلَا

اسْتَقَرَّ وَلَا اعْتَرَفَ بِهِ الْجُنْدُ وَلَا أَقْرَبَ، فَبَعَدَ إِلَى الرَّيِّ وَمِنْهَا إِلَى بَغدَادَ، وَكَمْ يَجِدُ أَمْرُهُ لِلنَّفَادِ النَّفَادَ، وَأَجْمَعَ الْعَسْكَرُ عَلَى الْإِتْفَاقِ عَلَى تَوَلِيَةِ مَحْمُودِ خَانَ ابْنِ أُخْتِ سَنْجَرٍ، وَمَهَّدَ الْعِرَاقَ وَأَقَامَ بِنِسَابُورٍ مُمْتَكِنًا حَسَنًا فِي هَيْبَتِهِ مُحْسِنًا، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ، فَكَتَبَ لَهُ الْعَهْدَ مِنْ هَمْدَانَ وَوَلَاهُ، ثُمَّ اسْتَوْلَى الْأَمِيرُ الْمُؤَيَّدُ آيَ أَبِي بِنِسَابُورٍ، فَأَخَذَ مَحْمُودَ خَانَ وَأَعَدَّمَهُ وَتَوَلَّى الْأَمُورَ، وَبَقِيَ الْغَزْبُ بِمَرَوْ وَبَلْخَ وَسَائِرِ الْبِلَادِ، ضَالِّينَ عَلَى نَهْجِ عَائِدِينَ لِلْجُورِ جَائِرِينَ عَلَى الْعِبَادِ.

ذَكَرَ الْحَوَادِثَ بِالْعِرَاقِ بَعْدَ انْفِصَالِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ مَحْمُودِ عَنِ بَغدَادِ بَعْدَ حَصَارِهَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةَ

قَدْ سَبَقَ شَرْحُ الْحَصَارِ وَمَا قَوَى اللَّهُ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْتَفِي مِنَ الْإِنْتِصَابِ وَالْإِنْتِصَارِ، وَكَانَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ وَأَقْسَاهَا وَأَكْفَلَهَا بِدَفْعِ الْمُحَاصِرِينَ وَأَلْفَاهَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ رَاسَلَ شَمْسَ الدِّينِ ائِلْدَكَزَ أَنْ يَنْهَضَ بِعَسْكَرِهِ إِلَى هَمْدَانَ وَيَتَّجَهَرَ حَتَّى إِذَا عَرَفَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ أَنَّ سَرِيرَهُ قَدْ فُرِعَ، وَأَنَّ سُرُورَهُ قَدْ رُفِعَ، وَأَنَّ بِلَادَهُ قَدْ طُوِيَتْ، وَأَنَّ تِلَادَهُ قَدْ حُوِيَتْ، وَأَنَّ أَطْرَافَهُ قَدْ تَوَسَّطَتْ، وَأَنَّ أكنَافَهُ قَدْ حَاطَتْ وَخَاطَتْ، أَجْفَلَ مُشْفِقًا وَقَفَلَ فِرْقًا، فَسَارَ أَمَاثِلُ ائِلْدَكَزَ بِالسُّلْطَانِ مَلِكْشَاهِ بْنِ مَحْمُودِ إِلَى هَمْدَانَ وَدَخَلَهَا، وَاسْتَوْلَى عَلَى ذَخَائِرِ الْمُلْكِ بِهَا وَنَقَلَهَا، وَأَجْلَسَ مَلِكْشَاهَ عَلَى السَّرِيرِ وَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالتَّدْبِيرِ، فَلَمَّا عَرَفَتْ الْعَسَاكِرُ الْمُنَازِلَةَ لِبَغدَادِ أَنَّ مَنَازِلَهَا بِهَمْدَانَ قَدْ نَزَلَتْ وَأَنَّ وِلَايَتَهَا فِي وِلَايَتِهَا قَدْ عَزَلَتْ، تَشَوَّشَتْ خَوَاطِرُهَا وَاسْتَوْحَشَتْ صَمَاتُهَا، وَثَارَتْ قُلُوبُهَا وَفَارَتْ كُرُوبُهَا، وَاضْطَرَبَ أَمْرُهَا وَاضْطَرَمَّ جَمْرُهَا، وَاتَّفَقَ عَنِ بَغدَادِ انْفِلَاتِهِمْ وَانْفِلَالِهِمْ وَقَدَرَ انْفِصَالُهُمْ وَانْفِصَالُهُمْ، وَمَا أَجْمَلَ ذَهَابَهُمْ لَمَّا ذَهَبَ جَمَالُهُمْ، وَعَادُوا إِلَى هَمْدَانَ هَامِدِينَ خَامِدِينَ، ذَامِنِينَ لِلغَيْرِ غَيْرَ حَامِدِينَ، وَلَمَّا أَحَسَّ مَلِكْشَاهُ بِقَرَبِ أَخِيهِ مُحَمَّدِ انْصَرَفَ وَانْحَرَفَ، وَقَفَا أَثَرَ أَتَابِكِ ائِلْدَكَزِ وَمَا تَوَقَّفَ، وَكَانَ قَدْ اسْتَوَزَرَ سَنْقَرُ بْنُ بَنْدِي مِنَ زَنْجَانِ، وَكَانَ كَبِيرَ الْأَهْلِ كَثِيرَ الْفِضْلِ، لَهُ نَظْمٌ رَائِقٌ وَشِعْرٌ فَاتِقٌ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي شَمْسِ الدِّينِ أَبِي النَجِيبِ وَزَيْرِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ: [الْبَسِيطُ]

أَنَا النَجِيبُ وَمَا فِي الْحَقِّ مَغْضَبَةٌ      أَنْتَ مِثْلِي؟ فَأَيْنَ الْعِلْمُ وَالْحَسَبُ  
وَأَنْتَ أَنْتَ وَهَذَا الْوَفْرُ مُنْتَقِلٌ      إِلَى سُؤَالٍ وَهَذَا الْأَمْرُ مُنْقَلِبٌ

وقوله أيضاً: [الْبَسِيطُ]

إِنِّي وَتَسِجَانُ أَسْلَافِي وَتَلِكْ لَنَا  
لَا لِحَظِ الْمَلِكِ الطَّاعِي بِسَطْوَتِهِ  
يَبْنِي السُّوَارَةَ قَوْمٌ يَكْثُرُونَ بِهَا  
فُلِدَتْهَا مُكْرَهًا وَالْقَوْمُ فِي قَلْقِ  
وَعَفْتُهَا طَائِعًا وَالِدَوْلَةَ اضْطَرَبَتْ  
وَرَدَّ نَفْسِي إِلَى التَّقْوَى تَيَقَّنْتُهَا  
وَاسْأَلِ الْحَتَمَ بِالْحُسْنَى إِذَا انْقَلَبَتْ

أَلِيَّةٌ بَرَّةٌ لَا يُمْتَرَى فِيهَا  
شُرْزًا وَأُعْرَضُ عَنْ غِشْيَانِهَا نِيهَا  
وَقَدْ تَصَاغَرَ قَدْرِي فِي تَوَالِيهَا  
يُرَاوِعُونَ سُؤْوًا فِي مَرَاقِيهَا  
مِنْ بَعْدِ مَنْ هُوَ بَعْدَ اللَّهِ يَحْمِيهَا  
أَنَّ التُّقَى هِيَ مِنْ أَجْدَى مَرَامِيهَا  
نَفْسِي إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهَا وَمَوْلِيهَا

وبقي السلطانُ مُحَمَّدٌ بعد ذلك سقيمَ الاملِ قسيمَ الألمِ، عديمَ الشبهِ في سيرتهِ لكنه شبيهَ العدمِ، متصرِّمَ المزاجِ مُتَمَرِّضًا، متغيِّرَ البهائمِ والبهجةِ مُتَغَيِّضًا، مُتَوَجِّعَ الجسمِ مُتَعَوِّجَ الرَّسْمِ، مُعْضُوضَ النشاطِ مُعْتَرِضَ الانبساطِ، لا يرافقهُ حبيبٌ ولا يفارقهُ طيبٌ، ولا يتزهَى راحةٌ ولا تسرى له ساحةٌ، ولا تصحو له صحةٌ ولا تصحُّ له صفةٌ، ولا يحظى به صحابُه، ولا يصحبهُ خطوةٌ ولا تحسنُ له سحنةٌ، ولا تمتنُّ له منتهٌ، وقد جفَّت أطباءُ علاجِهِ وجفَّت أطباءُ علاجِهِ، فلا يجدُ ليريهُ برًا، ولا يعدمُ لكرهه كَرًا، ولا يطيقُ من قربه قرأً، وقد جرَّت الأدويةُ أوديةَ أدوائِهِ، وتعوَّج من توجعِهِ أوداءُ أدوائِهِ، ولو أَرَادَ اللهُ شفاءَ رعيتهِ لَعَجَّلَ رعايتَهُم بشفائِهِ فانه كان خيرَ الارادةِ مُريدًا للخيرِ، مُبْدِيًا للعدلِ مُبْدِيًا للجبرِ، واشتدَّت به الحُمى لِشِدَّةِ الحَمِيَّةِ، ومُنِي من الأساءةِ بالإساءةِ في المنيَّةِ، واشتهوا ذهَبَهُ فَأَذْهَبُوا شَهْوَتَهُ وَاسْتَحَلُّوا حباهُ فَحَلُّوا حَبْوَتَهُ، وبقي ممراسًا بالسقمِ مرضًا وبالصبرِ مُعْتاضًا، وقد دفعَ من أمرِهِ وأمرائِهِ إلى الاحتماءِ والاحتمالِ، فهُم في الاعتلاءِ وَهَوَ في الاعتلالِ، وقد خَرَجُوا بِالاعتداءِ عَنِ الاعتدالِ، وهو بِهِم يعلمُ وعَنهُم علمُ، ولا حُرْمَ صفاءِ ودايِهِم وَوَفِي سدايِهِم، وَتَمَلَّكُهُمْ حُبُّهُ وَأَحْبَبُوا مُلْكَهُ، وضمَّنوا بالوفاءِ مَسْلَكَهُ، وَنَظَّمُوا بِالوفاقِ سَلَكَهُ، وَكَانَ فِي عَصْرِهِ أَكْبَرُ الدَوْلَةِ مِنَ الفحولِ وَدَوِي الأهمِّمِ وَالعقولِ عز الدين ستماز وناصر الدين آقش وأمين الدين أبو عبد الله أمير الدَّوَاةِ، ومن الخَدَمِ شرف الدين كردبازوا ونجم الدين رشيد، وهؤلاءِ مازالوا أَكْبَرَ في الدولِ، مُقَدِّمِينَ ذَوِي العديدي وَالجِيوشِ وَالخَوْلِ، يَلْازِمُونَهُ فِي السَفْرِ وَالإقامةِ، وَيَسْنُونَ مَعَهُ فِي سُبُلِ الاستقامةِ، وَوَادَعَ ملكشاهُ أَخاهُ وَوَاوَعَدَهُ عَلَى ما تَوَخَّاهُ وَعَاوَدَهُ فَأَرْضاهُ، وَعَقَدَ لَهُ عَلَى خوزستانَ فَمَا تَمَكَّنَ مِنْها جُهْ، وَلا تَمَّ بِها ابْتِهاجُهُ، وَلا أَضَاءَ فِي أَفْقِها سِراجُهُ، لا سِتْيلاءِ أمير ابدغدي بن كشطغان المعروفِ بِسَمْلَةِ عَلِيها وَبِغَلْبَتِهِ وَتَبَطَّلَ أَمْرُهُ بِتَبَطُّلِهِ، وَسَمَلَهُ سُؤْمُ

سُئِلَ فِي تَقْلِيهِ وَتَقْلِيهِ، وَامْتَنَعَتْ مَهْلِكُهَا أَنْ تَصَلَ بِهِ لِتَصْلِيهِ فَبَقِيَ مَلِكُشَاهُ دَائِرًا فِي الْبِلَادِ حَائِرًا بِالْبِلَاءِ، صَائِرًا إِلَى الضَّيْقِ صَابِرًا عَلَى الْقَضَاءِ، فَلَا تَقَرُّ لَهُ دَارٌ وَلَا يَدْرُ لَهُ قَرَارٌ، وَلَا يَقْبَلُهُ مَكَانٌ وَلَا يَتِمَّكَنُّ لَهُ قَبُولٌ، وَلَا يُؤَمَّلُ لَهُ نَجْحٌ وَلَا يَنْجَحُ لَهُ أَمَلٌ، وَهُوَ يَدُورُ وَيَرُودُ وَيَعْدُو وَيَعُودُ وَيَدْنُو وَيَعُودُ، وَإِنْ جَلَسَ فِي غَارٍ أَسَدٌ قُصِدَ، وَإِنْ زَرَعَ حُصِدَ، وَإِنْ وَرَدَ أَوْ صَدَرَ رُدٌّ، وَإِنْ سَكَنَ أُرْعِجَ، وَإِنْ رَكَنَ أُحْرِجَ وَإِنْ تَمَكَّنَ أُخْرِجَ، لَا يَدْرِي مَتَى يَدْرُ حَلْبَهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَخْلُصُ مِنَ الْمُطَّلِ الْمُطَّلِ مَطْلَبُهُ، وَأَمَّا السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ فَانهُ مَعَ تَكْسُلِهِ وَتَكْسِرِهِ وَتَنَكُّبِهِ وَتَنَكُّرِهِ وَامْتِرَاجِ صِحَّةِ مِرَاجِهِ بِسَقَمِهِ وَوَقُوفِ رَصِدِ الْأَمَنُونَ عَلَى لِقْمِهِ وَضَرْبِ قَلَمِ الْقَدْرِ عَلَى رَقِيعِهِ، رَغَبَ فِي التَّرْوِجِ بَابِنَةِ مَلِكِ كِرْمَانَ فَحَطَبَهَا مَعَ مَا هُوَ فِي حُطْبِهِ، وَالْقَضَاءُ أَحَاطَ بِهِ وَعِلْمُهُ لَمْ يُحِطْ بِهِ، وَبِذَلٍّ وَحَمَلٍ وَانْحَفَ وَاحْتَمَلَ وَوَأَصَلَ الصَّلَاةَ وَأَتَمَّ الْوَصْلَةَ، وَوَادَتْ خَاتُونَ الْكِرْمَانِيَةَ كَرِيمَةَ الْخَنْزِ، آيَلَةَ إِلَى الْوَطْرِ مِنَ الْوَطَنِ، جَالِيَةً أَوْجَةً سُعُودَهَا مِنْ أَوْجِهَا، حَالِيَةً بِالْجُوزَاءِ الْحَالِيَةِ زَوْجِهَا، فَانْهَا مُنْتَقَلَةٌ مِنْ مَلِكٍ إِلَى مُلِكٍ، وَامْتَصَلَةٌ مِنْ سَلِكٍ بِسَلِكٍ، فُزِنَتْ لِقُدُومِهَا الْقُصُورُ وَوَفَرَ لِحَضُورِهَا الْحُبُورُ، وَهُمْ إِذَنْ بِهَمَّذَانَ وَقَدْ أَعْلَنُوا بِبُشْرَاهَا الْإِيذَانَ، وَوَصَلَتْ فِي اللَّفِيفِ الْمَجْتَمِعِ وَالْجَمُوعِ الْمُتَلَفِّةِ، وَاسْتَقْبَلَهَا السُّلْطَانُ مُحَمَّدٌ لِمَرْضِهِ فِي الْمَحْفَةِ وَأَحْلَهَا فِي كَنَفِهِ وَأَجَلَّهَا بِشَرَفِهِ، وَتَرَكَهَا لَا يَقْدِرُ مِنْهَا عَلَى مَتَعَةٍ، وَلَا يُطِيقُ الْإِلْمَامَ مِنْ رَوْضِهَا بِرَتَعَةٍ، فَمَا اقْتَصَّتْ بِاقتضاضِهَا قُدْرَتَهُ، وَلَا افْتَرَّتْ بِاقتراعِهَا مَسْرَتَهُ، بَلْ عَجَزَ عَنِ الْبِنَاءِ عَلَيْهَا وَقَصُرَتْ يَدُ صَحْبَتِهِ عَنِ الْاِمْتِدَادِ إِلَيْهَا، وَبَقِيَتْ فِي جَنَابِهِ مُخِيَّمَةً وَفِي حَيَاتِهِ مُتَأَيَّمَةً.

وَعَرَضَتْ لِلْوَزِيرِ شَمْسِ الدِّينِ أَبِي النُّجَيْبِ هَيْصَةَ غَرِبَتْ بِهَا شَمْسُهُ وَفَاضَتْ نَفْسُهُ، وَغَاضَ بِغِيضِهِ رَمْسُهُ، وَانْقَطَعَ غَدَهُ وَنَسِيَ بِيَوْمِهِ أَمْسُهُ، وَخَلَّى زَارَتَهُ وَخَلَّفَ زَرَّهُ، وَأَخْلَى قَصْرَهُ وَشَغَلَ قَبْرَهُ، وَأَفْرَدَ عَنْ أَمْلِهِ بِعَمَلِهِ، وَزَلَتْ قَدْمُهُ بِزَلِيلِهِ، وَلَمَّا قَضَى الْوَزِيرُ أَبُو النُّجَيْبِ نَحْبَهُ قَضَى مُؤَازِرُوهُ وَنُجَابُؤُهُ بِالنُّحَيْبِ، وَضَاقَ بِهِمْ صَدْرُ الزَّمَنِ الرَّحِيْبِ، وَلَقَدْ كَانَ أَقْوَمَ قَوْمِهِ سَيْرَةً وَأَمَثَلُ أَمْثَالِهِ وَتَيَّرَةً، وَأَطْلَبُهُمُ لِلسَّلَامَةِ وَأَسْلَمَهُمْ طَلْبًا، وَأَحْلَبَهُمُ لِلدَّرِّ وَأَدْرَهُمُ حَلْبًا، وَكَانَ بِالتَّوَاضُعِ حَالِيًا، وَمِنَ التُّكْرِ خَالِيًا، عَارِيًا بِجَدِّهِ وَجَلَادِيَّةً، مُعْتَرَفًا بِأَنَّهُ وَاحِدٌ بِلَدِّهِ فِي بِلَادِيَّتِهِ.

## تقلد ضياء الدين بن مجد الدين بن علجة الاصفهاني وزارة السلطان

وقلد السلطان وزارته ضياء الدين بن مجد الدين بن علجة الاصفهاني فنقله إلى الوزارة من منصب الطغراء، وزفَّ عروسَ تلك المرتبة منه إلى أمثل الأكفاء، ولقد كان في السيادة عريقاً، وبالرئاسة لبيقاً، وبنشر الكرم عبيقاً، ولقلب الدولة عشيقاً، لكنَّه جاءته الوزارة وهو مشارفُ الرجلِ ومُشارُ الأجلِ، وقد بلغت به حُمتى الربعِ إلى ربيعِ الحِمامِ، وحصلت على الاستسقاء لنصيبه في نصيبه من أقسام السقام، فما قرب الوسادة حتى فبرَ ووسد، وما قام حظه بقدره حتى قاومه القدر وأقعد، وأتته الأمانة في الأمانة، وتمت جناية الردى على وردته الجنية، وزادته في كنف الكفن وعطَّ برد مجمر عطبه في عارة العطن، ووافته رتبته في تربيته، وجاءته نكبته في جاه ركبته، وعثر بنعشه في نعش عثاره، وقد كان بأثر الزمان أثره ثم ناز لثاره، وعاد نوره ظلمة وسوره ثلثة، وأبته السكينة إلا يسكنى تابوته، وتحرَّك القضاء الساكن بسكونه وسكونه، فحزن السلطان موته وحزبه قوته، وفاءت وفائه بوفائه، وأفاض في وصف فيضه وصفائه، فلم يُرتب بعده وزيراً، ولم يعد للهَمُّ منه سَمْعُه بُمأ وزيراً، وأسف وأسيى وذكره بالخير أيام حياته وما نسي، وكان قد طالب له صحبه، ودالت منه لديه صحته وهو بعده بالوزارة، ويعرضها المظل، وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل، ومكث السلطان بعد ذلك لا حياً فيرجى ولا ميتاً فيسجى، وقد نضا الضياء قباء بقائه، واستشعر بداية البلى زمنُ البلاء بدائه، وكبت وفدة علبه ومكثت وقدها، وانقرضت مادة حياته وانقضت مدتها، وتوفي والعيون باكية والقلوب ذاكية، والجيوب عليه مشقوقة، والضمائر متلهبة متلهفة، والخواطر آسية آسفة، والدموع تحدر والضلوع تسعر، وللعبرات غروب وللحسرات كروب، وفي كل ناحية نائحة، ولكل جارحة من كلم مصابه جارحة، فانه كان أوفر السلجقية جلماً وأوفرهم علماً، وأحبهم للعدل وأحياهم للفضل، وأسداهم للمعروف وأعرفهم بالسداد، وأجودهم بالمال وأميلهم إلى الأجواد، وكانت وفاته بهمدان يوم السبت وانسلاخ ذي القعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وكثر عليه الترحم، وزاد لمصابه التألم، والتَهَفَ الأصحابُ لفقده، واختلَفَ الأحزابُ من بعده، واجتمع رأيُ الأمراء في منحهم على استدعاء الأمير ايناج صاحب الرِّيِّ ونسروا من الأمر المستور لأنه كان في الطيِّ، ثم تعارضت آراؤهم وتناقضت أهواؤهم، فإنهم من مال إلى ملكشاه أخي المستوفي، وقالوا الأول هو الأول والأوفق

الأوفى، ومنهم من رأى الإرسال إلى المملك أرسلان خان أتابك ايلدكز زوج أمه، ومنهم من أشار بتعليك سليمان عمه، وكان الأمير ايناج يومئذ أكثر جنداً، وأكثف جمعاً وأرهف حداً، وأقوى شوكة وأوفى شكراً، وأخفى عزّة وأعزّ حمى، وأنمى جاهاً وأوجه مُتَمى، ومال إلى سليمان وقال هو أسلم جانباً وأوطأ، وأثبت عن الأذى وأبطأ، فأنه يلهو بلهوه أو يزهى بزهوه، ويقسم زمانه من سُكره وتوهمه، ويعقل عن قوام أمره وقويوه، فاذا تولى تولى عن الأذى، واشتغل ديدنه بذا وذا، لاسيما وله السمو كبراً والنمو خطراً، والخليفة كان قد ولّاه والى إليه الجميل وأولاه، فاذا أجلسناه قام الخليفة بتربيته ورصي بتوليته، وإن تسلطن سواه تسلط بالسوء، وحال بيننا وبين الهدوء، ويستأنف الخليفة خلافاً ويستدر من الأخلاف إخلافاً، وسليمان سليم وهو في حلم وحليم، وهو بالموصل في اعتقال علي كوجك والفرار منه وعسى أن يستدرك، فاتفق الأمير ايناج وناصر الدين آقش وشرف الدين كردباروا على إرسال الأمير مظفر الدين ألب أرغو صاحب قزوين إلى الموصل للوصول به وكوتب صاحبها في طلبه، وكان زين الدين علي كوجك أطلقه عند علمه بوفاة السلطان وجّهه بعد التوثقة منه بالأيمان، فسار بالإقبال وأقبل بالمسار، وقدم بالسعد البار والأمر القارّ، وأوجهت نحوه الوجوه، ومرر لتلقيه في ترقيه مرجوه، واستقبله العظماء وقبلوه، واجتمعوا حوله وهابوه وأملوه، وسنقر بهمدان على سرير المملك ودخل في طاعته سراة الترك، وخلا جوه وعلا ضوه وخلا نوه واستهل جوده واستقل طوده وانتظم أمره واضطرم جمره، ووافقه مخالفيه ووافقه مخالفيه، وصحت مراسمه ووضحت مباسمه، وطاب سروره وطال غروره، وأجمع جميع الأمراء على إعلاء أمره، وبدلوا مخامرته والحاشية وتركوه أنيس خمره، وأصبح بالأمير ايناج عقد الدولة وحلها وحرمتها وحلها، وبأيده جلها، وبأيده وصلها، وبرأيه بريها، وبإجائه جريها، وبجلده جدها، وبإسعاديه سعدها، وبإنجاديه أجنادها، وبسداديه سدأدها، وصار ناصر الدولة ارغون يرئس صاحب قزوين الأمير الحاجب الكبير الامين.

وقلد وزارته شهاب الدين محمود بن الثقة عبدالعزيز النيسابوري وكان وزير الأمير ايناج وتقدت في الأقاليم أقالمه، ومضت بالإحكام أحكامه، وتصدّر وتصدى وتجاوز وتعدى، وأعاد إلى وجه الوزارة ماءها الذاهب، وأوضح في إنارة آفاقها المذاهب، وأعطى وأخذ ووقف وأنفذ، وقطع وأقطع ووقع وأوقع، وتمم ونقص وعمم وخصص، ورزق وحرّم

وَوَصَلَ وَصَرَمَ، وَأَطْفَأَ وَأَضْرَمَ وَغَنِمَ وَغَرَمَ، وَعَدَلَ وَظَلَمَ وَجَهَلَ وَعَلِمَ وَأَنَعَمَ وَأَنْتَقَمَ، وَكَانَ مِنْ خِرَاسَانَ، مُقَدِّمًا جَرِيًّا وَمَقَامًا سَرِيًّا، مُتَهَوِّرًا فِي الصُّرُوفِ، مَيْسُورًا عَلَى الْمَخُوفِ، مُعَلِّمًا فِي الْحُرُوبِ، مُقَدِّمًا فِي الْخُطُوبِ، مُتَوَقِّحًا فِي التَّصْرِيفِ مُلْتَفِحًا بِالْتَعْرِيفِ، مُتَعَلِّقًا بِالْأَسْبَابِ مُتَسَلِّقًا عَلَى الْأَرَابِ، وَهُوَ نَاجٍ بِاتِّبَاعِ إِيْنَاجٍ مِنْ كُلِّ تَبِيعَةٍ، مُنَاجٍ بِإِيثَارِهِ كُلِّ أُمْنِيَةٍ مُتَدَعَةٍ، فَقَرَّرَ الْمُلْكَ وَهَدَّبَهُ، وَحَلَّى الْعِطْلَ مِنْهُ وَأَذْهَبَهُ، وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَكَابِرِ أَعْظَمُ مِنْ آتَابِكَ شَمْسِ الدِّينِ إِيْلِدِكْزِ وَأَنَّ الْمُلْكَ أَرْسَلَانَ بْنَ طَغْرُلَ مَعَهُ وَأَنَّهُ رُبَّمَا قَصَدَ سَلِيمَانَ لِيُدْفَعَهُ سَيْرًا إِلَيْهِ مَوْلَاتُهُ أَرَانِيَّةَ مَنشُورًا، وَنَظَمَ وَصَمَّ بِهِ هُنَاكَ مَا كَانَ مَيْسُورًا مَسْتُورًا، وَجَعَلَ وَايَةَ الْعَهْدِ لِلْمُلْكِ أَرْسَلَانَ بَعْدَ سَلِيمَانَ فَذُلَّ الصَّعْبُ وَهَانَ، وَتَسَهَّلَ الْوَعْرُ وَوَلَانَ، وَغَبَّ الْإِي وَدَانَ، وَظَهَرَ الْخَفِيُّ وَبَانَ، وَأَمِنَ الْخَائِفُ، وَكَمَلَ السُّكُونُ وَحَصَلَ الرُّكُونُ، وَحَسِبُوا أَنَّ السُّلْطَانَ بَعْدَ غَمُوضِهِ يَتِيَهُ وَمِنْ غَمُوضِهِ يُنْبِيهِ، وَلِكَايسِهِ يُرِيقُ وَمِنْ سُكْرِهِ يُفِيقُ، وَلِنَصَائِحِهِ يُصْغِي وَلِفَضَائِحِهِ يُلْغِي، فَبَقِيَ عَلَى الشَّرَابِ مُكَبِّبًا وَلِلْعَبِّ مُحِبِّبًا، وَلِلْعَقْلِ هَاجِرًا، وَلِلْحَلْمِ زَاجِرًا، وَيَالِدَنَّ لَاهِيًا، وَفِي الدِّينِ وَاهِنًا، لَا يَلْبُثُ الْخُمَارُ إِلَّا بِكَرِ الْخَمْسَةِ، وَلَا يَلْبِي لَبُّهُ إِلَّا غَيْرَ رَمَزِ الرَّمْرِ، فَلَا جَرَمَ حَالٍ بِحَرَمِهِ حَالُهُ، وَمَالَ إِلَى مَا سَاءَ فَسَاءَ مَالُهُ، وَسَنَدَكُرُ ذَلِكَ بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ الْحَوَادِثِ فِي أَيَامِهِ وَفَصْلِ افْتِتَاحِهِ بِاخْتِتَابِهِ.

ذِكْرُ وَفَاةِ الْإِمَامِ الْمُقْتَدِي بِأَمْرِ اللَّهِ وَجُلُوسِ وَلَدِ الْإِمَامِ الْمُسْتَنْجِدِ بِاللَّهِ أَبِي الْمَظْفَرِ يُوْسُفَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

كَانَ الْمُقْتَدِي لِأَمْرِ اللَّهِ بَعْدَ انْفِصَالِ الْحَضْرَةِ وَاتِّصَالِ النُّصْرَةِ، وَانْكَشَافِ الْكُرْبِ وَانْصِرَافِ الْخُطْبِ أَثَرًا أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْبِلَادِ لِيَرَاهَا وَيُثْرِي بِبِرْكَةِ حَرَكَتِهِ ثَرَاهَا، وَيَخْرُجَ مُتَصَدِّقًا لَهَا مُتَصَدِّقًا بِهَا مُتَنَزِّهًا فِي مَسَارِحِهَا، مُتَنَبِّهًا لِمَصَالِحِهَا، مُتَفَرِّجَةً نَوَاطِرَ أحوَالِهَا فِي نَوَاطِرِهَا الْحَوَالِي، مُتَبَلِّجَةً فِي فُضَاءِ فُضَائِلِهَا مَعَالِمَ الْمَعَالِي، مُتَّفِقَةً عَلَى تَفْضِيلِ أَيَامِهِ وَأَيَّامِنِ فَضْلِهِ آرَاءَ الْمَعَالِي وَالْمَوَالِي، وَالْوَالِيَّاتِ بِآلَائِهِ هِنِيئَةَ الْمَجَانِي سَنِيَّةَ الْمَجَالِي، فَمَا خَطَرَ طَرْفًا إِلَّا خَطَرُهُ، وَمَا نَظَرَ كِتَابًا إِلَّا نَضَّرَهُ، وَكَانَ فِي إِقَامَةِ عَسْكَرِهِ مَجَالًا فَضَّرَ سَفْرُهُ، وَالْأَخْيَارُ وَالْأَغْنَامُ وَالْجَوَائِحُ وَالْعَلَاتِقُ تَفَرَّقُوا عَلَى عَدَدِ النَّاسِ وَالِدُوَابِّ، وَعَسَاكِرُهُ مُجْرُونَ مِنْ جَرَايَتِهِمْ وَبِقَضَائِهِمْ وَأَعْطِيَتِهِمْ عَلَى الْمُبَارِّ وَالْمَحَابِّ، فَمَا يَنْفَقُ لِأَحَدٍ قَرْسُهُ إِلَّا أَحْلَفَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَلْتَمَسُ صَاحِبُ مَعُونَةٍ وَلَا مَعُونَةٍ إِلَّا عَجَّلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَاجْنَادُهُ يَتَمَنُّونَ أَنْ تَطُولَ أَسْفَارُهُ لِيُدْوِمَ بِصَبْحِ سَعَادَتِهِمْ

بِعطاياهُ إِسْفَارُهُ، وَوَصَلَ إِلَى وَاسِطٍ فِي أَوَاخِرِ صَفْرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَأَنَا نَائِبُ  
 وَزِيرُهُ عَوْنِ الدِّينِ بْنِ هُبَيْرَةَ بِهَا فَقَدَّمَ إِلَيَّ كِتَابَهُ لِتَلْقِيهِ بِالْأَزْوَادِ وَالْعُلُوفَاتِ، وَأَمَرَنِي بِالإِسْتِكْثَارِ  
 مِنْ أَصْنَافِ الإِقَامَاتِ، فَسَيَّرْتُ وَأَعَدَدْتُ وَوَالَيْتُ وَأَمَدَدْتُ، وَخَرَجْتُ فِي أَصْحَابِي لِلتَّلْقِي،  
 وَكُنْتُ مِنْ زُحْمَةِ اللِقَاءِ عَلَى غَايَةِ التَّوْقِي، فَبَصُرْتُ مَوْكِبَ الْخَلِيفَةِ وَقَدْ أَقْبَلَ فِي أَفْوَاجِهِ كَأَنَّهُ  
 الْبَحْرُ فِي أَمْوَاجِهِ، وَاللَّيْلُ مُشْتَمِلٌ مِنْ نُورِهِ عَلَى النَّهَارِ، وَالسَّيْلُ مُتَّصِلٌ مِنْ سَكِينَتِهِ بِالْقَرَارِ،  
 وَالْفَلَكَ قَدْ أَحَاطَتْ بِبَنِيهِ، فَتَزَلَّتْ وَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَقَبَلْتُ الأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَوَقَفَ لِأَرْكَبَ  
 إِشْفَاقًا عَلَيَّ مِنَ الرِّحْمَةِ، وَكَانَتْ فَطْرَتُهُ مَجْبُولَةً عَلَى الرَّأْفَةِ وَالرِّحْمَةِ، وَقَالَ لَهُ مُخْلِصُ الدِّينِ  
 بَنُ الكِيَا الأَيْمِي وَكَانَ عِنْدَهُ فِي مَحَلِّ الأَمِينِ النِّظَامِيِّ هَذَا الَّذِي يَقُولُ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ  
 قَصِيدَةٍ كَأَنَّهُ يَصِفُ هَذِهِ الْحَالَةَ: [الكامل]

لَمَّا شَفَعْتُ العِزْمَ وَهُوَ مُؤَيَّدٌ      بِأَلْحِزْمٍ أَسْفَرَ بِأَلْمُنَى مِنْكَ السَّفَرَ  
 وَبَسْرَتْ مِثْلَ الشَّمْسِ تَشْرُقُ لِلوَرَى      وَسَنَاكَ يَحْجُبُ عَنْكَ نَاطِرَ مَنْ نَظَرَ  
 بِمِظْلَةٍ سَوْدَاءَ تَحْكِي هَالَةً      وَجَهَ الإِمَامِ يُضِيءُ فِيهَا كَالْقَمَرِ

وقَالَ الوَازِرُ: هَذَا صَاحِبِي وَقَدْ وُلِّيْتُهُ وَأَصْحَبْتُهُ وَأَوْلَيْتُهُ، وَبَهَجَ بِخِدْمَتِي وَنَجَحَ وَبَدَخَ  
 بِبِنَايَتِي وَرَجَحَ، فَوَصَّى الإِمَامُ وَزِيرَهُ بِي وَأَعْجَبَهُ سَمِيَّتِي وَأَسْلُوبِي، وَسَارَ عَلَى رَسْلِهِ وَدَخَلَ  
 إِلَى دَارِ الدِّيْوَانِ، وَجَلَسَ سَاعَةً فِي الإِيْوَانِ، ثُمَّ قَامَ وَجَلَسَ الوَازِرُ فِي الدَّسْتِ، وَكَتَبَ وَوَقَعَ  
 وَقَالَ وَأَسْمَعَ، وَالنَّاطِرُ حَيْثُ تَبَدَّدَ فِي وَاسِطِ الأَمِيرِ شَمْسُ الدِّينِ أَبُو الفَضَائِلِ فَاتَّقِ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَارِ  
 الخَدَمِ الَّذِينَ لَهُمُ المَزَايَا وَالمَزَايِينُ، ثُمَّ انْتَقَلَ الخَلِيفَةُ إِلَى سُرَادِقِهِ وَالوَازِرُ إِلَى مِضَارِيهِ، وَتَزَلَّ  
 أَرْبَابُ الدَّوْلَةِ كُلِّ مِنْهُمُ عَلَى مَرَاتِبِهِ، وَخَضَرَتْ إِلَى مِيدَانِ وَاسِطِ، وَالمُقْتَضِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ  
 حَاضِرٌ وَمَعَهُ أَوْلَادُهُ وَلِيَّ العَهْدِ المُسْتَجِدُّ يُوْسُفُ وَأَبُو عَلِيٍّ وَأَبُو أَحْمَدَ وَوَلَدُ المُسْتَجِدِّ  
 أَبُو مُحَمَّدٍ، وَهُوَ المُسْتَضِيءُ الَّذِي حَفِظَ عَهْدَهُ وَتَوَلَّى بَعْدَهُ، وَلَعَبُوا بِالْكَرَةِ، وَجَدُّوا فِي آثَارِ  
 المَكْرَمَةِ وَكَرَمِ المَأْتَرَةِ، وَلَمْ يَلْبَثْ بِوَاسِطِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى عَادَ إِلَى بَغْدَادٍ سَرِيعًا، وَمَحَا نَفْسُ  
 صَنِيعِ عَدْلِهِ وَإِحْسَانِهِ الصَّنِيعِ مِنَ النُّجُورِ صَرِيحًا وَمِنَ الفَضْلِ سَرِيعًا، وَكَانَ وَصُولُهُ لِلْإِنْحِدَارِ  
 إِلَى الغُرَافِ وَتَطَرَّفَ تِلْكَ الأَطْرَافِ، فَزَادَ المَاءُ زِيَادَةً مَنَعَتْ العُبُورَ وَوَسَّعَتْ العُثُورَ، فَرَجَعَ  
 عَلَى نِيَّةِ الرَّجُوعِ، وَسَهَرَ لِنَقَرِ الأُمَّةِ فِي مَهَادِ الهَجُوعِ، وَعِنْدَ عَوْدَتِهِ غَرِقَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ  
 رِبِيعِ الأَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ، وَمَدَّ المَاءُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ، وَزَادَ إِسْرَافُهُ

وَأَسْرَفَ فِي زِيَادَتِهِ، وَتَهَوَّرَ بِهِ بِتُقُ الْقَوْرَجِ وَتَقَوَّرَ وَغَلَبَ، وَبَلَغَ السُّورَ مِنْ صَوْبِ الظُّفْرِ، وَتَسَوَّرَ وَطَافَ بِتِلْكَ النُّوَاحِي طُوفَانٌ نُوحٍ، وَرَاحَ شَبِيحُ كُلِّ بِنَاءٍ بِغَيْرِ رُوحٍ، وَدَارَ الْمَاءُ فِي الدُّورِ، وَدَامَ التَّخْرِيْبُ الْمَعْمُورِ، وَضَاقَ مَجَالُ الْمَحَالِّ الْوَاسِعَةِ، وَتَفَرَّقَتْ مَبَانِي الْمَعَانِي الْجَامِعَةِ، وَشَرَعَتْ الْمَعَالِمُ تَنْهَدُ وَالْمَعَارِمُ تُنْسَدُ، وَالْمَنَازِلُ تُنْزَلُ وَالْأَعَالِي تُسْفَلُ، وَالسَّاحَاتُ تُسَيِّحُ وَالْبَاحَاتُ تُسَيِّحُ، وَالْجُدْرَانُ تُقَعُّ وَالْحَيْطَانُ تُقْلَعُ وَالسَّقُوفُ تُتَقَوَّضُ وَالْقَوَاعِدُ تُنْتَقِضُ، وَكَانَ ذَلِكَ مَنْظَرًا هَائِلًا وَقَدْرًا نَازِلًا، وَحَطْبًا مَا كَانَ يُتَوَقَّعُ، وَخَرَقًا مَا كَانَ يُتَرَفَّقُ، وَطَارِقًا كَثُرَتْ طَرَفُهُ، وَفَتَقًا عَسَرَ رَتَقُهُ، وَرَكِبَ الْوَزِيرُ وَأَرَبَابُ الدَّوْلَةِ فَصَدُّوهُ وَسَدُّوهُ وَرَدَّعُوهُ وَرَدَّوهُ وَتَلَافُوهُ، وَأَدَّ مُدْوِيهِ الْمُتَلَفَّةَ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَحَالِّ الْمُخْتَلَفَةِ، وَاتَّفَقَ أَنَّهُ نَقَصَ وَوَقَفَ وَغَرَفَ مَعْظَمُهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ الْعَظِيمِ عَرَفَ وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْمَحَالُّ مُتَشَعِّتَةً وَمِنْ حَادِثِهَا مُتَحَدِّثَةً حَتَّى عَادَتْ عَادَةً عِمَارَتِهَا أَحْسَنَ مَا كَانَتْ، وَزَادَتْ عَلَيْهَا وَزَانَتْ، وَلَمَّا انصَرَمَ الصَّيْفُ وَانصَرَفَ وَتَطَلَّلَ فَصُلُّ الْخَرِيفِ بِالْفَضْلِ وَتَلَطَّفَ وَانكَسَرَ الْحَرُّ وَانْحَسَرَ فَطَابَ الزَّمَانُ، فَأَشْبَهَ الْأَصِيلُ السَّحْرَ، وَعَزَمَ الْمُقْتَضِي إِلَى وَاسِطِ مَرَّةٍ أُخْرَى وَوَصَلَتْ إِلَيْنَا بِقُدُومِهِ الْبَشْرَى فَنَبَاشَرْنَا لِقُدُومِهِ، وَتَبَادَرْنَا إِلَى مَرْسُومِهِ، وَانْحَدَرَ إِلَى نَاحِيَةِ الْغَرَافِ فَطَافَهَا، وَشَاهَدَ أَوْسَاطَهَا وَأَطْرَافَهَا، وَعَزَلَ عَنِ وِلَايَتِهَا طَغْرًا خَادِمَهُ، وَوَلَاهَا أَبَا جَعْفَرِ بْنِ الْبَلَدِيِّ وَلَقِّنَهُ فِيهَا مَرَامِسَهُ، وَقَبَضَ ابْنَ مُفْلِحٍ وَزَيْرَ طَغْرٍ وَعَاقِبَهُ، وَالزَّمَهُ بِمَا اسْتَخْرَجَهُ مِنْ دِفَائِنِ ابْنِ حَمَادٍ وَطَالِبَهُ، وَكُتَابَةَ الْفُرْسِ، فِي بَعْضِ تِلْكَ السَّنَوِي فُوقَ وَتَأَلَّمَ، وَاعْتَذَرَ بِصِحَّتِهِ إِلَيْهِ الْقَدْرُ مِمَّا تَجَرَّمَ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ، وَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ عَالِي الْجَدِّ مَجْدُودَ الْعِلَاءِ، مُنْعَمَ الْحَالِ حَالِي النُّعْمَاءِ، وَبَلَغَهُ بَغْيُ السُّلْطَانِ مُحَمَّدٍ فَاعْتَمَ وَوَجَمَ لَهُ وَاهْتَمَّ، وَقَالَ زَوَالُ الْخَصْمِ بِيْزِ الْوَالِيَا وَخَيْرُ حَادِثِهِ بِحَادِثِنَا مُخْبِرٌ، وَلَمَّا دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمِيسَمَائَةَ خَرَجَ الْخَلِيفَةُ إِلَى هَيْتٍ، وَأَلْفَى شَمْلَ مَصَالِحِهَا وَجَلَّ مَنَاجِحِهَا قَدْ شَارَفَا التَّشْتِيْتِ وَالتَّبِيْتِ، وَوَجَدَ دَكَكِيْنَهَا مُغْلَقَةً وَرَعَايَاهَا مُتَفَرِّقَةً، وَأَسْوَاقَهَا خَالِيَةً وَأَفَاقَهَا خَاوِيَةً، وَالْعُلُوفَاتُ مَعْدُومَةٌ وَالْأَقْوَابُ مَكْتُومَةٌ وَرَأَى أَمْرًا مُخَالِفًا لِلْعَادَةِ مُبَايِنًا لِلسَّعَادَةِ، فَانَّهُ تَعَوَّدَ أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ مَدِيْنَةَ أَخْرَجَتْ لَهُ أَثْقَالَهَا، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ حَوَالِيَهَا وَأَحْوَالَهَا، وَقَدَّمَتْ مُقَدِّمَةَ احْتِفَاءِهَا وَاحْتِفَالَهَا، وَكَانَ مُقَطَّعُ هَيْتِ نُوْرِ الدَّوْلَةِ بْنِ الْأَمِيْرِ الْعَمِيْدِ، فَكَتَبَهُ نَهْجَ الرَّأْيِ الْحَمِيْدِ، وَظَنَّ أَنَّهُ إِذَا صَنَّ قَيْلٌ إِنَّهُ فَقِيْرٌ، وَأَنَّهُ إِذَا أَخْفَى خَيْرٌ بِلَدِّ ظَهَرَ أَنَّهُ حَقِيْرٌ، فَبَرِيْهِ لَهُ الْخَلِيفَةُ وَيَرُقُّ وَيُؤْتِيهِ مِنْ إِنْعَامِهِ مَا يَسْتَحِقُّ، وَلَمَّا سَأَلَ الْخَلِيفَةُ عَنْ سَبَبِ مَا عَايَنَهُ، وَلِمَاذَا جَانَبَ هَذَا الصَّعْقُ كُلَّ صَقْعٍ وَبَايَنَهُ، قِيلَ لَهُ إِنَّهُ رَجُلٌ بَخِيْلٌ، وَأَنَّ هَذَا لِشُحِّهِ مُنَاسِبٌ مُحِيْلٌ،

فَحَلَّ عَنْهُ الْإِقْطَاعَ وَالزَّمَةَ سُحَّهَ الْمُطَاعَ، وَنَادَى بَيْنَاسِ النَّاسِ بِنْدَاهُ وَاهْتَدَتْ الرِّعْيَةُ بِهُدَاهُ، وَرُزِنَتْ هَيْتٌ وَفُتِحَتْ الْحَوَانِيْتُ، وَوُجِدَتْ الْمِيرَةُ الْمَعْدُومَةُ، وَأُحْمِدَتْ السَّيْرَةُ الْمَذْمُومَةُ، وَأَقْبَلَ مِنْ سَفَرِهِ سَافِرَ الْإِقْبَالِ ظَافِرَ الْأَمَالِ، وَافِرَ الْجَلَالِ مُتَّصِفِرَ الْأَحْوَالِ فِي الْاسْتِقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ، فَمَا عَادَ حَتَّى عَادَهُ سَقَمٌ وَالْمَمِّ، وَتَرَقَّتْ عَلَيْهِ لِلتَّرَاقِي وَظَهَرَتْ فِي ظَهْرِهِ، وَكَمَ قَهْرُ عِدَانِهِ فَعَدَّتْ بِقَهْرِهِ، وَلَمَّا قَامَ الْقَدَرُ بِأَقْدَارِهِ ثُمَّ فَعَدَّ بِقَدْرِهِ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِيِ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فَانْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ الرَّبِّ طَاهِرَ الدَّلِيلِ نَقِيَّ الْجَبِيبِ أَمِينِ الْغَيْبِ، مُنِيرَ السَّبَبِ، بَرِيئاً مِنَ الْعَيْبِ، وَلَمَّا عَرَفَ وَلَدُهُ وَوَلِيَّ عَهْدِهِ الْمُسْتَنْجِدَ بِاللَّهِ أَبُو الْمُظْفَرِ يَوْسُفَ أَنَّ وَالِدَهُ قَدْ وَقَعَ الْيَأْسُ مِنْهُ وَأَنَّ الْأَطْبَاءَ قَدْ أَعْرَضُوا عَنْهُ أَشْفَقَ مِنْ إِيْتِمَامِ الْأَمْرِ لِأَخِيهِ أَبِي عَلِيٍّ، وَأَنَّهُ لِيْلَعَهْدٍ غَيْرِ وَلِيٍّ، فَهَجَمَ الدَّارَ وَقَبِضَ الْكِبَارَ وَالصَّغَارَ، وَعَقَلَ وَاعْتَقَلَ وَتَنَقَّلَ وَنَقَلَ، وَيُوبِغُ لَهُ بِالْخِلَافَةِ يَوْمَ وَفَاةِ الْوَالِدِ، وَاحْتَوَى عَلَى طَارِفِهِ وَتَالِدِهِ، وَقَبِضَ عِدَّةً مِنَ الْأُمَرَاءِ مَمَالِيكَ الْمُقْتَضِيِّ وَأَعَدَمَ مِنْهُمْ وَانْتَخَبَ جَمَاعَةً مِنْ مَمَالِيكِهِ وَأَمَرَهُمْ وَقَدَّمَ مَعَهُمْ، وَأَخَذَ الْقَاضِيَّ سَدِيدَ الدِّينِ بِنَ الْمُرْخَمِ أَخْذاً شَدِيداً وَأَثَقَلَهُ حَدِيداً، وَرَدَّدَ الْعَذَابَ عَلَيْهِ تَرْدِيداً، إِلَى أَنْ فَاطَتْ نَفْسُهُ وَعَاضَ بِهِ رَمْسُهُ، وَحَبَسَ الْمُخْلِصَ بِنَ الْكِيَا الْلَاسِي مَدَّةَ أَيَّامٍ خِلَافَتِهِ وَحَرَمَهُ حَقَّ عَاطِفَتِهِ وَرَافَتِهِ، وَأَقْرَعَ عَضُدَ الدِّينِ أَبَا الْفَرَجِ بِنَ رُئَيْسِ الرُّؤَسَاءِ عَلَى اسْتِزَادِيَةِ الدَّارِ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ عَلَى الْأَقْدَارِ، وَأَقْرَعَ عَوْنَ الدِّينِ بِنَ هُبَيْرَةَ عَلَى وَزَارَتِهِ، وَبَقِيَ مَاءُ الدَّوْلَةِ قَائِماً ذُو عِزٍّ بِالْإِعْزَازِ.

### ذِكْرُ مِرَاسَلَةِ الْخَلِيفَةِ لِلْمُلْطَانِ

وَأَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ إِلَى الْمُلْطَانِ يَسْأَلُهُ الطَّاعَةَ وَالْإِدْعَانَ وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَخْطُبَ لَهُ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ، وَيَقْوِي رِجَاءَهُ مِنْهُ فِي نَيْلِ الْمُرَادِ، وَيَذْكُرُهُ بِأَحْسَانِ الْإِمَامِ الْمُقْتَضِيِّ إِلَيْهِ وَإِفْضَالِهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَكْرَهُ رِضَاهُ وَلَا يَرْضَى كِرَاهَتَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ يَرُومُهُ وَيَرُومَ وَجَاهَتَهُ، فَبَادَرَ الْمُلْطَانُ إِلَى التَّامِ الْأَرْضِ وَامْتِثَالَ الْفَرَضِ، وَقَبِلَ كِتَابَهُ وَقَبَّلَهُ، وَكَتَبَ إِلَى الْبِلَادِ لِيَخْطُبَ لَهُ وَآتَى مَنَابِرَهَا مُمْتِنِي بَرِّهَا، وَأَنْطَقَ أَلْسِنَةُ الْأَعْوَادِ سِمَةَ الْخِلَافَةِ وَذَكَرَهَا، وَسَاوَى بَيْنَ سَرِّهَا وَجَهْرِهَا، وَشَكَرَ أَنْعَامَهَا وَأَمَعَنَ فِي شُكْرِهَا، وَظَنَّ الْمُلْطَانُ أَنَّ الْوَرْدَ قَدْ صَفَا، وَأَنَّ الْبُرْدَ قَدْ صَفَا، وَأَنَّ الْعَهْدَ قَدْ وَفَى، وَأَنَّ الْعَقْدَ قَدْ كَفَى، وَأَنَّ بَغْدَادَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى بُغْيَتِهِ وَحَصَلَتْ فِي قَبْضَتِهِ، وَأَنَّهَا فِي أَنْتِظَارِ نَهْضَتِهِ، وَأَنَّ الْخَلِيفَةَ يُحَالِفُهُ وَلَا يُخَالِفُهُ، وَيُؤَافِقُهُ وَلَا يُؤَافِقُهُ، وَأَنَّ إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْهَا

شُحْتُهُ قَبْلَ بِلَا شَحْنَاءَ، وَلَهُ بَأْنُ يُدَانَ لَهُ يُدَانَ إِذَا دَنَا مِنْهَا بِغَيْرِ اسْتِدْنَاءٍ، فَافْتَرَّ فَرَحًا وَاغْتَرَّ مَرَحًا، وَطَرِبَ بَطْرًا وَأَشَارَ بِمَا رَأَهُ مِنْ رَأْيِهِ أَشْرَاءً، وَرَتَّبَ الْقَاضِيَّ نَبِيَةَ الدِّينِ أَبَا هُرَيْرَةَ الْهَمْدَانِيَّ رَسُولًا، وَكَانَ مُقْبِلًا فِي سَمِيَّتِهِ وَسَمِيَّتِهِ مَقْبُولًا، وَهُوَ مِنْ أَعْيَانِ الْمَمْلَكَةِ وَأَمَائِلِهَا، وَعُلَمَاءِ الْأُمَةِ وَأَفَاضِلِهَا، وَنَدِبَ مَعَهُ الْأَمِيرَ ابْنَ طَغَايِرِ بْنِ لَيْكُونَ بَيْغِدَادَ وَالْيَأَى، وَيُعِيدَ مَا رَخِصَ وَيَذَكِّرُ مِنَ قَدْرِ السَّلْجُوقِيَّةِ عَالِيًا غَالِيًا، فَعَزَمَ فِي عِدَّةٍ وَرَعَمَ أَنَّهُ عَلَى عِدَّةٍ وَمَالَ إِلَى الْعَمِّ فَعَزَمَ مَالًا وَتَبِعَ رَجَاءً، فَاسْتَبَعَ رَجَالًا فَسَارَ الْقَاضِيَّ وَالْأَمِيرَ وَمَنْ مَعَهُمَا مَعَ رَسُولِ الْخَلِيفَةِ فِي أَمَانِ أَمَانٍ وَضَمَانِ اثْتِمَانٍ وَاطْمِئْنَانٍ، وَكَانَ رَسُولُ الْمُسْتَنْجِدِ الْحَاجِبُ سَوْنِجِ النَّظَامِيُّ ذُو الْمَنْطِقِ وَاللَّسَنِ، وَاللِّسَانِ وَالرَّأْيِ الْحَسَنِ، وَالْبَلَاغَةِ فِي الْبَلَاغِ، وَالْبِرَاعَةِ إِذَا أَطَّلَ وَأَظْلَمَ فِي الْإِسْبَاعِ وَالْإِسْبَاعِ، وَالْعِلْمِ وَالْفَصَاحَةِ وَالْحِلْمِ وَالْقَصَافَةِ فَاسْتَصْحَبَهُمْ وَوَصَلَ، عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ بِالْمُرَادِ حَصَلَ، فَلَمَّا قَرَّبَا قُرْبًا وَبِالرَّغَائِبِ رُغْبًا وَوُظِّفَتْ لَهُمَا الْإِقَامَاتُ، وَتَعَمَّتِ الرُّوَافِئُ، وَلَطْفَ مَوْضِعَيْهِمَا وَوَضَعَتِ اللَّطَائِفُ، وَأَقَامَا مَدَّةً لِلتَّقَرُّبِ وَالتَّرَقُّبِ، ثُمَّ قَامَا لِلتَّلَطُّبِ وَالتَّقَلُّبِ، وَقَالَا إِنَّا جِئْنَا لِلتَّلَعُّوفِ وَالتَّصَرُّفِ لَا لِلتَّوْفِيِّ وَالتَّوَقُّفِ، فَقَالَ لَهُمَا الْوَزِيرُ مَا بِالْكُفْمَا وَمَا حَالُكُفْمَا؟ وَبِمَ أَرْسَلَكُفْمَا؟ وَفِيمَ سَأَلَكُفْمَا؟ فَقَالَا مَا جِئْنَا لِنَذْهَبَ وَإِنَّمَا جِئْنَا لِنُخَاطَبَ وَنُخَطَبَ، فَقِيلَ لَهُمَا مَا أَنْتُمَا إِلَّا سَفِيرَا اهْتِدَاءٍ وَإِهْدَاءٍ وَخَفِيرَا وَلايَةِ وَلاءٍ، وَالتَّعَرُّضُ لِلخُطْبَةِ تَعَرُّضٌ لِلخُطُوبِ، فَلَا تَرَعْبَا فِي الخُطْبَةِ إِنْ رَغِبْتُمَا فِي الْوَلَاءِ الْمَخْطُوبِ، فَقَالَا رَسُولُكُمْ بِهَا وَعَدَ وَتَمَّ إِخْلَافُ الْعِدَّةِ وَإِتْلَافُ الْجِدَّةِ وَإِثَارَةُ الثَّائِرَةِ الْمُوجِدَةِ الْمُوجِدَةِ، فَقِيلَ لَهُمَا مَا كَانَ لِرَسُولِنَا أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يُشْرَ بِهِ وَفِي رِضَانَا عَنْ مُرْسَلِكُمَا أَمِنْ سُرْبِهِ وَسَرْبِهِ، وَغَدَاً يُوَفِّقُكُمْ رَسُولُنَا إِنْ لَمْ يَقُلْ مَا قُلْتُمَا وَلَمْ يَعُدَّ وَلَمْ يَجِدْ فِيمَا بِهِ عَقْدُتُمَا وَعَلَيْهِ أَحْلَتْهُمَا، فَافْتَرَقُوا لِلْإِجْتِمَاعِ فِي غِدِّ وَالْمُعَاوَدَةِ لِمَوْعِدِ، فَاتَّفَقَ أَنَّ رَسُولَ الْخَلِيفَةِ وَهُوَ الْحَاجِبُ سَوْنِجِ النَّظَامِيُّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ قَدْ تُوْفِيَّ، وَأُخِيمَدَ سِرَاجُ حَيَاتِهِ وَأُطْفِيَّ، وَكَتَمَ سِرَّهُ تَحْتَ التَّرَابِ وَأُخْفِيَّ، وَعُفِّيَّ أُنْزَهُ وَكَلَمَ لَوْ أُرُوا لَاعْفِيَّ، وَلَوْ نَجَا بِنَجَابَتِهِ أَحَدٌ مِنَ الشَّجَنِ وَالشَّجَى لَكَانَ سَوْنِجِ مِنَ السُّوءِ نَجَا، وَكَانَ هَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْغَرَائِبِ وَأَعْجَبِ الْعَجَائِبِ، حَتَّى تَحَدَّثَ النَّاسُ بِذَلِكَ الْحَادِثِ، وَابْتَعَثُوا لِذِكْرِهَا لِمَا تَجَدَّدَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُبَاعِثِ، وَقِيلَ إِنَّهُ خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يُقْتَلَ صَبْرًا أَوْ يَشْرَبَ سُمًّا وَمَا فِيهِمَا حَظٌّ لِمُخْتَارِ، وَقِيلَ بَلْ يَقْضَاءُ مِنَ اللَّهِ جَارٌ، وَأَجَلٌ مُقَدَّرٌ بِمِيقَاتٍ مَوْقُوتٍ بِمِقْدَارِ، فَلَمْ تَجْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ تِلْكَ الْمَوْاعِدَةُ مُعَاوَدَةً وَلَا مُوَاةً، وَوَقَعَتْ مِنَ الرَّسُولَيْنِ مُنَافَرَةٌ وَمُنَافَاةً، فَاتَّفَقَ أَنَّ الْقَاضِيَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَحَدَ الرَّسُولَيْنِ تُوْفِيَّ بَعْدَ أُسْبُوعٍ مِنْ وَفَاةِ سَوْنِجِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَنْبُهُ أَيْضًا مِنَ الْقَدْرِ الْمَحْتَمِ بِمُنْجٍ، فَجَعَفَ النَّاسُ

وَأَرْجَفُوا، وَتَحَدَّثُوا بِمَا عَرَفُوا وَبِمَا لَمْ يَعْرِفُوا، وَاسْتَشَعَرُوا رَسُولَهُ الْآخَرَ، وَقَالَ مَا لِي فِي  
 الْإِقَامَةِ خِلَاصٍ، وَأَفَلَتَ رَاحِلًا وَلَهُ حِصَاصٌ، فَانَهُ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ إِنْ أَقَامَ قَضَى، وَلَحِقَ  
 بِمَنْ مَضَى، فَتَلَاثَتِ تِلْكَ الرِّسَالَةَ لِعَدَمِ رِسَالِهَا، وَلِرُوعَةِ مِثْلِ ذَلِكَ الْحَادِثِ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى  
 مِثْلِهَا، وَوَقَعَتْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَغْدَادِ الْهَيْبَةِ وَمِنْ حُصُولِهَا الْخَيْبَةَ، فَلَمْ يُقَدِّمِ مَلِكٌ إِلَيْهَا وَلَمْ  
 يُقَدِّمِ سُلْطَانٌ عَلَيْهَا.

فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَهِيَ سَنَةُ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ كَانَتْ وِفَاةُ مَلِكِشَاهِ بْنِ مَحْمُودِ بْنِ  
 مُحَمَّدٍ، لَمَّا عَرَفَ مَلِكِشَاهُ أَنَّ عَمَّهُ سُلَيْمَانَ مَلِكًا، وَأَنَّ حِسَابَ الْمَمَالِكِ بِهِ تَفَذَّلَكَ، وَإِنَّهُ يَتَعَوَّدُ  
 خَلْوَتَهُ وَلَا يُخَلِّي عَادَتَهُ، وَيُرِيدُ هَوَاهُ وَيَهْوَى إِرَادَتَهُ، وَأَنَّهُ يَهْمَلُ الرِّعْيَةَ وَلَا يَرَعَى الْهَمَلَ، وَلَا  
 تَعْمَلُ صَالِحًا وَلَا تُصْلِحُ الْعَمَلَ نَهَضَ بَطْلَ الْطَلَبِ أَرِيْبَ الْأَرْبِ، وَافَرَ الْعَدَدَ وَافِيَ الْعُدَدَ، وَقَدْ  
 احْتَشَدَ جَمْعُهُ وَجَمَعَ حَشْدَهُ، وَشَدَّ ظَهْرَهُ وَظَهَرَ رَشْدَهُ، وَاحْتَدَّ عَزْمُهُ وَاحْتَدَمَ رَعْمُهُ، وَحَمَيْتِ  
 حَمِيَّتُهُ وَهَمَّتْ هِمَّتُهُ، وَسَمَّتْ نَارُهُ وَأَنَارَتْ سَمَاوَهُ، وَأَضَاءَتِ مَطَالِعُهُ وَطَلَعَتْ صُوضَاؤُهُ،  
 وَجَالَ إِلَى جَيْ بِلَالِي، وَوَقَرَ حَبُورَ أَهْلِ أَصْفَهَانَ بِحُضُورِهِ وَأَدْعَنُوا لِأَمِيرِهِ، إِذْ عَنُوا بِأُمُورِهِ  
 وَدَخَلَ الْأَسَدُ إِلَى غَايِهِ، وَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِيهِ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ أَبِيهِ وَجَدَّهُ بِأَبَائِهِ وَجَدَّهُ،  
 وَأَمَالَ قُلُوبَ قَوْمِهِ إِلَى قُبُولِ قَوْلِهِ بِرَمَقِهِ وَوَفِيهِ، وَنَادَى إِلَى نَادِي نَدَاهُ، وَطَالَ بِالطُّوْلِ هَادِي  
 هُدَاهُ، وَاسْتَبَسَّرَ النَّاسُ وَأَنْسُوا بِيَشْرِهِ، وَنَشَرُوا الطَّيْبَ وَطَابُوا بِنَشْرِهِ، وَدَانَتْ السَّكِينَةُ وَسَكَنَتْ  
 الْمَدِينَةُ، وَزِينَتِ الظَّوَاهِرُ وَظَهَرَتِ الزَّيْنَةُ، وَقَالُوا قَدْ عَاوَدَتْنَا الْأَلطَافُ الْإِلَهِيَّةُ وَعَادَتِ عَلَيْنَا  
 الْإَيَامُ الْمَلِكِشَاهِيَّةُ، فَالْفَضْلُ قَدْ نُشِرَ وَالْعَدْلُ قَدْ أَنْشُرَ، وَالسَّنَاءُ قَدْ سَفَرَ وَالْحِمَى قَدْ وَفَرَ  
 وَالسَّعْدُ قَدْ لَاحَ، وَاللَّاحِي قَدْ أَسْعَدَ، وَالْوَلِيُّ قَدْ وَلِيَ، وَالْعَدُوُّ قَدْ بَعُدَ، وَأَصْبَحَتْ أَصْفَهَانَ  
 وَهِيَ لِلْمَلِكِ دَارٌ وَلِلْفَلَكِ مَدَارٌ، وَلِثِيَابِ الْجِزِّ وَثَائِيهِ مَزْرٌ وَمَزَارٌ، وَلِمَعْنَقِ الْبَصْرِ وَعَنْقَائِهِ مَطَابٌ  
 وَمَطَارٌ، وَقَالُوا مَا سُلَيْمَانُ إِلَّا جَسَدٌ عَلَى كَرْسِيِّهِ مُلْقَى، وَجَمَدٌ مِنْ سُكْرِهِ مَا إِلَى إِفَاقَتِهِ مَرْقَى،  
 وَالْأَمْرَاءُ يَرْدُونَ أَمْرَهُ وَلَا يُرِيدُونَ، وَسَيِّدُو لَهُمْ بِهِ مِنْهُ مَا بِهِ يُيَدُونَهُ وَسَيِّفِدُونَ لِمَا يَسْتَفِيدُونَهُ،  
 وَأَقَامَ وَسِيرَ الْكُتُبِ إِلَى الْأَطْرَافِ بِالِاسْتِمَالَةِ وَالِاسْتِعْطَافِ، وَخَطَبَ الْهَوَى وَلَهَا عَنِ الْخُطْبِ،  
 وَعَمَلَ إِلَى إِسْرَاعِ الدَّوَى إِلَى عُوْدِهِ الرُّطْبِ، وَكَانَ مَغْرُورًا بِالشَّبَابِ مَشْبُوبَ الْغُرَارِ، مُقَدَّرًا  
 لِلْأَمْنِ آمِنًا مِنَ الْأَقْدَارِ، قَدْ بَطِرَ بِالطَّرْبِ، وَوَلَجَ بِاللَّعْبِ وَأَشْرَابَ إِلَى الشُّرْبِ، وَقَرَّ بِقُرْبِ  
 الصَّحَاحِ مِنْهُ وَالْجُرْبِ، وَأُدِيرَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الْمُدَامِ فِي نُجُومِ النَّدَامِ، وَدَاوَمَ رِضَاعُ رُضَابِ

الغِيدَ غَيْرَ نَاوٍ لِلْفِطَامِ، وَسَامَرَ أَرْخَاصَ الْعُقُولِ فِي مِكَاسِ الْكَاسِ، وَخَلَعَ لِلخَلَاعَةِ لِإِنْيَاسِ النَّاسِ لِيَاسِ الْبَاسِ، وَعَرَّرِي بِالْعَوَانِي وَعَنِي بِالْأَغَانِي وَاسْتَطَابَ وَاسْتَطَارَ وَاسْتَطَالَ وَاسْتَزَلَّ وَاسْتَزَالَ وَاسْتَلَدَّ الْحَيَاةَ وَأَحْيَى اللَّذَاتِ، وَنَسِيَ بِأَنْسِ الْغَفْلَةَ أَقَاتِ الْقَوَاتِ، فَلَمْ يَنْقُضِ عَلَيْهِ شَهْرٌ حَتَّى اشْتَهَرَ أَنَّهُ قَضَى وَأَنَّ يَوْمَهُ وَمَضَ بَرَقُهُ وَمَضَى، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَيْبِعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ سَبَقَ وَلَا عَرَضٍ عَرَضَ وَاتَّفَقَ، وَلَا أَلَمَ أَلَمٌ وَلَا حَدِيثَ حَدِيثٍ وَتَمَّ، بَلْ كَانَتْ لَهُ مُضِيئَةٌ قَدْ اسْتَهْوَتْهُ وَاسْتَعْوَتْهُ وَخَلَبَتْ خُلْبَهُ وَسَلَبَتْ لُبَّهُ، وَقَلَبَتْ قَلْبَهُ وَعَقَلَتْ عَقْلَهُ وَعَلَقَتْ بِالْعَلَاةِ حَبْلَهُ، فَصَارَ يَأْكُلُ مِنْ يَدِهَا وَيَشْرَبُ، وَيَجِيءُ بِخَتْمِهَا وَيَذْهَبُ، وَفِي هَوَاهَا يَمْنَعُ وَيُعْطِي، وَبِرِضَاهَا يُصِيبُ وَيُخْطِي، فَلَمَّا انْتَقَلَ مِنْ مَجْلِسِ النَّدَامَى إِلَى مَجْلِسِ النَّدَامَةِ، وَمِنْ مَنَزَلِ قَوْمِ إِلَى مَجْلِسِ الْقِيَامَةِ، فَجَاءَتْ فَجَاءَةً نَدَامَتُهُ وَمَنِيئَتُهُ، وَفَجَعَتْ بِالْخَبِيئَةِ أَمْنِيئَتُهُ، وَقِيلَ إِنَّهَا نَعَتْ مَوْتَهُ فَمَاتَ بَغْتَةً وَقِيلَ بَلْ أَصَابَ عِلْتَهُ وَأَنَّهَا قَدْ رَعِيَتْ حَتَّى سَقَتْهُ سُمًّا وَكَانَ قَدْرًا حَتْمًا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهِ عِلْمًا.

ذَكَرَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرَ السُّلْطَانِ سَلِيمَانَ وَكَيْفَ جَفَاهُ زَمَانُهُ وَخَانَ، وَكَيْفَ دُلَّ بَعْدَ مَا عَزَّ وَهَانَ

وَكَيفَ قُبِضَ مِنْ مَجْلِسِ مُلْكِهِ، وَنُقِلَ إِلَى مَجْلِسِ هُلْكِهِ، لَمَّا اتَّسَعَ مُلْكُهُ وَاتَّسَقَ سَلْكُهُ، وَخَابَتْ مَتَى مُنَازِعِيهِ وَخَافَتْ مَقَارِفِ عِيهِ، وَفَسَدَ مَعَادُ مُعَادِيهِ، وَصَلَحَتْ مَوَادُّ مُوَادِيهِ، وَأَعْسَبَ وَادِيهِ وَأَخْصَبَ نَادِيهِ، ظَنَّ الْأُمَرَاءُ أَنَّهُ قَدْ لَاحَفَ الْفَلَاحَ وَصَافَحَ الصَّلَاحَ وَرَشِدَ مِنَ الْغَوَايَةِ وَنَشَدَ ضَالَّةَ الْهُدَايَةِ، وَأَنَّهُ قَدْ وَضَحَتْ سُبُلُ نُبُلِهِ وَصَحَّ عَقْدُ عَقْلِهِ وَلَهَا عَنِ اللَّهِوِ وَمَهَا عَنِ سَهْوِهِ، فَلَمْ يَضُنُّوا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ لِحُسْنِ ظَنِّهِمْ فِيهِ، وَمَا زَالُوا فِي تَقْرِيرِ أَسْبَابِهِ وَتَسْيِيبِ قَرَارِ مُسَاعَدِيهِ وَمُسَاعَفِيهِ حَتَّى بَدَأَ لَهُ حَالَتُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْأَمِيرَ أَيْنَاجَ عَادَ إِلَى رِيئِهِ، وَالسُّلْطَانَ سَلِيمَانَ أَنَّهُمْ كَفَى فِي عَيْهِ، وَأَخْلَلَ مَظْفَرُ الدِّينِ صَاحِبُ قَزْوِينَ بِمَوْضِعِ الْحَجِيَّةِ، وَتَبَّتِ الْبَاقُونَ مِنَ الْأُمَرَاءِ عَلَى الْفَتْكِ بِالسُّلْطَانِ وَالْوَثِيَّةِ، فَأَنَّهُ اشْتَكَلَ بِلَهْوِهِ وَلَهَا بِشُغْلِهِ، وَجَدَّ حَبْلَ جَدِّهِ بِخَبْلِهِ، وَأَثَرَ ذَاتَ خِمَارِهِ وَذَاتَ خُمَارِهِ، وَغَامَرَ كُلَّ غَمْرٍ وَمَسَدَ فِي غِمَارِهِ وَاخْتَارَ عَلَى ضَرْبِ أَوْتَارِهِ وَعَرَفَ فِي اشْتِهَائِهِ بِاشْتِهَارِهِ وَفِي تَسْيِيهِ بِاسْتِهَارِهِ، وَكَانَ يَشْرَبُ يَوْمًا وَيَسْكُرُ أُسْبُوعًا، وَيُمْسِي وَيُصْبِحُ مَصْرُوفًا مَصْرُوعًا، وَكَمْ فَخَرَ مِنْ جَوْعَا، وَآلَفَ فِي مُحَارِفِ الْمَخَازِي مَجْمُوعَا، وَحَضَرَ مَحْظُورَا وَمَجَرَ مَسْرُوعَا، وَأَغْفَى وَأَغْفَلَ

وَدَهَبَ مَعَ الذَّلَّةِ بِاللَّذَّةِ، وَذَهَلَ فَفَنَّرَ مِنْهُ النَّفْرَ وَظَفَرَ مِنْهُ الظَّفَرَ، ثُمَّ تَوَازَرَ الْأَمْرَاءُ فِي الْأَزْوَارِ عَنْ أَمْرِهِ، وَقَالُوا نَحْنُ الْمُخَاطَبُونَ بِخَطْبِهِ الْوَازِرُونَ بِعُدْرِهِ، الْمُتَوَلُونَ بِجَرِيمَتِهِ الْمُجْرِمُونَ بِتَوَلِّيهِ، السَّاهِرُونَ بِنَوْمِهِ، وَالْمَظَاهِرُونَ بِلَوْمِهِ، وَنَحْنُ نَجْهَلُ عَلَيْهِ فَانِهِ يَجْهَلُ، وَنَعْقَلُهُ لِكُونِهِ لَا يَعْقِلُ، فَإِنْ نَدَّ مِنَّا نَدِمْنَا وَإِنْ صَدَّ عَنَّا تَصَدَّعْنَا، وَالصَّوَابُ صَبَطُهُ وَرَبَطُهُ وَقَبْضُهُ لَا بَسْطُهُ، وَإِقَاعُهُ فَلَا يَقُومُ، وَإِبَاعُوهُ مِمَّا يَرُومُ، وَمَكَّثُوا مَدَّةً يَتَشَاوَرُونَ فِي خَلْعِهِ، وَيَتَأْمُرُونَ فِي وَضْعِهِ، وَيُكَاتِبُونَ شَمْسَ الدِّينِ أَيْلِدَكَزَ لِيَقْدَمَ بَابِنَ زَوْجَتِهِ وَحِلْفَ مُهَجَّتِهِ الْمَلِكِ أَرْسِلَانَ بْنِ طَغْرُلَ، وَأَنْتَهُمْ لَا يَقْطَعُونَ أَمْرًا حَتَّى يَصَلَ، وَلَا يَقْبَلُونَ عَلَى مُهْمٍ حَتَّى يُقْبَلَ، وَأَحْكَمُوا الْعَهْدَ وَأَيَّرُوا الْعَقْدَ، وَأَتَّفَقَ أَنَّهُ حَدَثَ بِالسُّلْطَانِ سُلَيْمَانَ صَرَخٌ لِصِرْعَةٍ فِي قَرَسِهِ فَقَفَّضَتْ بِضِيْقِ نَفْسِهِ وَنَفْسِهِ، وَضَعْفِ قَلْبِهِ وَقُوْيِ كَرْبِهِ، وَوَجَدَ لِلْأَمَامِ الْإِمَامَا وَتَرَكَ الشَّرْبَ أَيَامًا، فَعَاوَدَهُ الْأَلْمُ وَعَادُوهُ فِي أَمْلِهِ، وَكَبِدُوهُ وَكَبَسُوهُ وَسَجَنُوهُ وَحَبَسُوهُ، وَاعْتَقَلُوهُ فِي قَصْرِ مِنْ الدَّارِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَوَكَّلَ كُلُّ أَمِيرٍ بِهِ مِنْ ثِقَاتِهِ جَمَاعَةً، وَعَقَدُوا عَلَى إِضَاعَتِهِ عَهْدًا وَاعْتَقَدُوا لِعَهْدِهِ إِضَاعَةً، وَذَلِكَ فِي شَوَالِ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَأَبَاتُوا سُلَيْمَانَ بِلِيلِ السُّلَيْمِ وَصَبَّحُوهُ يَوْمَ الْمَلِيمِ، ثُمَّ لَمْ يَرَوْا حِفْظَهُ بَعْدَ إِحْفَاطِهِ، وَلَا بِلَيْنِ الْخُلُقِ بَعْدَ إِغْتِلَاطِهِ فَقَتَلُوهُ، وَأَقَامُوا بِهَمْذَانَ شَهْرَيْنِ شَاهِرَيْنِ لِلْعِزِّ، ظَاهِرَيْنِ بِالْفُوزِ، سَاهِدَيْنِ لِمَوَاسِمِ الْإِقْبَالِ، مَاهِدَيْنِ لِمَرَامِسِ الْإِقْبَالِ، ثُمَّ تَوَجَّهَ السُّلْطَانُ إِلَى أَصْفَهَانَ وَجَعَلَ سَاوَةَ مَسْلِكُهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ أَيْلِدَكَزَ أَتَابِكُهُ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ فِي سَاوَةِ الْأَمِيرِ أَيْنَانَجِ بْنِ سَنْقَرِ صَاحِبِ الرَّيِّ، وَمَا زَالَتْ أَيَّامُ سَعَادَتِهِ الْمُنشُورَةِ مَصُونَةٍ مِنَ الطِّيِّ، فَابْتَهَجَ بِلِقِيَّتِهِ وَلَقِيَ سَنِيَةً بِهَجَّتِهِ، وَأَقَامَ بَايْضَاحَ مَحْجَةِ خُلُوصِهِ عَلَى حُكْمِ طَاعَتِهِ حِجَّةً فَقُبُولَ إِقْبَالُهُ بِالْقُبُولِ، وَصَفَتْ شَمْسُ الدِّينِ وَجَاهَةً الطَّالِعَةَ بَايْجَابِهِ مِنَ الْإِفْوَالِ وَآكَرَمَ بِالْوَصْلَةِ الْبَارِكَةَ لِيَرْكَبَةَ كِرَامَةِ الْوَصُولِ، وَصَارَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَيْلِدَكَزِ مُصَاهَرَةً، وَتَمَّتْ بِذَلِكَ لِلْسُّلْطَانِ مَعَهُمَا مُظَاهَرَةً، وَزُوَّجَتْ ابْنَتَهُ أَيْنَانَجِ بَابِنِ أَيْلِدَكَزِ الْأَكْبَرِ، وَهِيَ نُصْرَةُ الدِّينِ بَهْلَوَانَ مُحَمَّدَ، ذُو الْعِزِّ الْأَظْهَرِ وَالْمَجِيدِ الْإِبْهَرِ، وَهِيَ أَخُو السُّلْطَانِ لِأُمِّيٍّ، وَأَقَوْمُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِمُهْمِهِ، ثُمَّ أَكْرَمُوا أَيْنَانَجَ وَرَدَّوهُ إِلَى وِلَايَتِهِ، وَاسْتَظْهَرُوا وَظَهَرُوا بِهَدْيِهِ وَهِدَايَتِهِ، وَأَعَادُوهُ عَلَى عَادَتِهِ فِي عِلَاةٍ وَإِلَى رِيٍّ وَرَبِّهِ بِرَايِهِ وَرَايَتِهِ، وَمَضَى مُتَلَالِي السُّمْرِ وَالْبَيْضِ، مُسْتَضِيْفًا جَاهًا جَدِيدًا إِلَى جَاهِ جَدِّهِ الْمُسْتَفِيضِ، غَيْرَ أَنَّهُ بَاقٍ عَلَى عُنُوتِهِ، رَانٍ فِي عُلُوِّهِ، لَاقٍ مَزِيدٌ نُمُوُّهُ، قَالٍ غَيْرَ مَا يُؤْذَنُ بِسُمُوِّهِ، فَتَكَرَّرَ بِتَكَرُّرِ أَيْلِدَكَزِ مُتَكَرَّرَتْ، مُتَأَثَّرَ قَلْبُهُ مِنْ تَقْدِيمِهِ مُتَأَثَّرَتْ، مُتَفَرَّحَ حَشَاهُ مِنْ حَشْمَتِهِ مُتَفَرَّحَتْ، لَكِنَّهُ أَبَدَى الرِّضَا وَرَضِيَ

بِذَا، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَأَسَرَ كَوْنُهُ مِنَ الْعَدَى، وَأَنْصَرَفَ هُوَ يَسْرُ حَسْرًا فِي ارْتِقَاءِ، وَيَضُمُّ كَدْرًا مِنْ ظَاهِرِ صَفَاءِ، وَاسْتَقَلَّ السُّلْطَانُ وَالْجَمَاعَةُ مَعَهُ وَآيَقَنَ بِالْمَذْكُورِ، مُعْتَدِينَ بِعَمَلِهِ الْمَشْكُورِ، مَطْمَئِنِينَ بِمَا خَلَصَ مِنَ التَّمَارِجِ بِالتَّمَارِجِ، آمِنِينَ بِمَا حَصَلَ مِنَ التَّوَاشِجِ وَالتَّوَاشِجِ، وَوَصَلُوا إِلَى أَصْفَهَانَ وَقَدْ زُيِّنَتِ الْمَدِينَةُ وَأَبْدِيَتِ الزَّيْنَةُ، وَسَيَقَتُ أَعْلَافُهَا وَعَلَّقَتْ أَسْوَاقُهَا، وَأَطْرَبَتْ مَلَاهِيهَا وَعَاجَبَتْ رِيَاهِيهَا، وَتَرَنَّمَتْ مَغَانِيهَا بِأَغَانِيهَا، وَتَرَنَّتْ لِلْمَعَاظَةِ مَعَاظُ غَوَانِيهَا، وَرَنَّتْ مَعَازُفُهَا وَرَنَّتْ مَعَارِفُهَا، وَوَمَقَّتْ أَحْدَاقُ نَظَارَتِهَا وَآيَقَتْ حَدَائِقُ نَضَارَتِهَا، وَدَخَلَ السُّلْطَانُ دَارَ السُّلْطَنَةِ فَاحْتَلَّ سَرِيرَهَا، وَقَرَّبَهَا سَامِيَ الْعَيْنِ قَرِيرَهَا، وَابْتَسَمَ الْجَمَاعَةُ بِأَصْفَهَانَ فَمَا بَيْنَهُمْ شِلْوٌ، وَجَعَلُوا عُضْوًا عُضْوًا مَدَّوْا أَيْدِيَهُمْ وَأَخَذُوا بِعَدِيَّتِهِمْ، وَحَافَ الْأَغْيَاءُ وَخَافَ الْأَغْنِيَاءُ، وَتَخَلَّفَ التَّجَارُ خَلْفَ الرِّتَاجِ وَظَلَّ الظُّلْمُ مُجْتَاخَ الْمُحْتَاجِ، وَاسْتَرَّ ذُو الْمَالِ، وَانْكَسَرَ ذُو الْحَالِ، وَأَخَذَ الْبَرِيُّ بِالسَّقِيمِ، وَالكَرِيمُ بِاللَّئِيمِ وَالْحَمِيدُ بِالذَّمِيمِ، وَالسَّالِمُ بِالسَّلِيمِ، وَسَيَقَ النَّاسُ بِقَلَمِ التَّوْزِيعِ إِلَى لِقَمِ التَّفْرِيعِ، وَاسْتَمَرُّوا أَصُولَ الْمُصَادِرَاتِ بِالتَّقْرِيعِ، وَقَسَطُوا وَقَسَطُوا وَقَبَضُوا وَبَسَطُوا، وَارْتَكَبُوا كُلَّ مَحْظُورٍ وَارْتَكَبُوا بِكُلِّ مَحْذُورٍ، وَمَا بَاتَ كُلُّ مُصَادِرٍ غَيْرَ مَصْدُورٍ، وَمَالَ لِلْجَامِعِ جِدَارٌ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ وَأُسَيْدٌ بِخَشْبَتَيْنِ مِنْ جَانِبِهِ، وَكَانُوا قَدْ اسْتَصَفَّوْا مَالَ وَفَقِيهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَا يُنْفَقُ عَلَيْهِ، فَقَالَ النَّاسُ قَدْ صُودِرَ الْجَامِعُ وَتُرِكَ عَلَيْهِ الْمِعْصَارُ، وَلَوْ أَقْصَرُوا عَلَى أَخْذِ شَيْءٍ لَكَانَ عَنْهُ الْاِقْتِصَارُ، فَمَارُوا فِي جِبَايَةِ الْوُقُوفِ وَقُوفًا، وَالْأَفْوَ كُنُوزًا وَكُنُوزًا أَلْفَافًا، وَسَدُّوا الْأَنْهَارَ عَلَى الْبَسَاتِينِ وَالضِّيَاعِ حَتَّى أَخَذُوا أَمْنَانَ الْمِيَاهِ، وَشَفِهُوا الْمَوَادِدَ، وَصَدَّوْا عَنِ الصَّادِي وَرَدَ الشِّفَاهِ، وَظَهَرَتْ مُكْنَةُ الْوَزِيرِ وَمَكَانَتُهُ فِي وَزَارَتِهِ لِمَكَانِ وَزَرِهِ، وَشَرَعَ فِي التَّحْصِيلِ وَلَمْ يَعْفَ عَنِ كَثِيرِ الْمَالِ وَنَزَرِهِ، وَضَاقَ صَدْرُ الْمُتَجَمِّلِينَ لِسِعَةِ صَدْرِهِ، وَآبَ نُؤَابُهُ وَمُتَصَرِّفُهُ بِنَوَائِبِ وَصُرُوفِ، وَعَرَفُوا كُلَّ مُنْكَرٍ وَنَكْرًا كُلَّ مَعْرُوفٍ، وَجَبُّوا سَنَامًا وَحَبَّوْا سِمَانًا، وَأَمَلُوا أَشْحَانًا وَمَلَّأُوا أَشْجَانًا، وَعَصَرُوا وَهَصَرُوا، وَجَسَرُوا وَخَسَرُوا، وَفَتَكُوا وَهَتَكُوا، وَبَتَكُوا وَبَتَرُوا، وَكَرَعُوا وَعَرَكُوا، وَأَخَذُوا وَمَا تَرَكَوْا، وَكَانَ الْوَزِيرُ فِي الْحُرْمَةِ رَاسِيَ الْهَضْبِ، وَفِي الرَّحْمَةِ قَاسِيَ الْقَلْبِ، وَفِي تَحْصِيلِ الثَّرْوَةِ شَدِيدَ الْمَطْمَحِ، وَفِي تَحْصِينِ الْحُوزَةِ بَعِيدَ الْمَطْرَحِ، حَرِيصَ الطَّبَاعِ صَرِيحَ الْأَطْمَاعِ، مَحْضُورًا دِينَهُ فِي دُنْيَاهُ، مَقْضُورًا نَظْرَهُ عَنِ نَضَارِهِ، وَأَقَامَ السُّلْطَانُ بِأَصْفَهَانَ بُرْهَةً، وَاغْتَمَّتْ لِفِرْصِ لَدَائِهَا وَفِي رِيَاضِ حَسَنَاتِهَا نَهْزَةً وَنُزْهَةً.

ذِكْرُ مُحَارِبَةِ الْأَمِيرِ أَيْنَانَجِ السُّلْطَانِ وَأَمْرَاءِ بَنَوَاحِي الْكُرْجِ وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
مِنَ النَّصْرِ وَالْفَرَجِ

لَمَّا عَزَمَ السُّلْطَانُ عَلَى الرَّحِيلِ مِنْ أَصْفَهَانَ وَتَسَهَّلَ عَلَيْهِ كُلُّ مَا صَعُبَ وَاعْتَاَصَ فَهَانَ عَلَيْهِ  
بَلَوَى الْأَمِيرَ عَزَّ الدِّينَ سَتَمَازَ وَتَلَوَّمَ، وَقَدْ مَرَّ لِمَا لِحَقَّهُ الْحَقَّةَ وَتَذَمَّمَ، وَتَخَلَّى عَنْهُ وَتَخَلَّفَ،  
وَتَوَقَّى مِنْهُ وَتَوَقَّفَ، وَكَانَ قَدْ كَاتَبَ الْأَمِيرَ أَيْنَانَجَ لِلْمُؤَافَقَةِ عَلَى الْمُؤَافَقَةِ، وَمِنَافَاةِ السُّلْطَانِ  
وَالْمُؤَافَقَةِ، وَسَقَّ الْعَصَا بِالْعِصَانِ وَالْمَشَاقِقَةَ، وَاسْتَدْعَاءِ أَخِيهِ مَلِكِ مُحَمَّدِ بْنِ طغرلِ مِنْ  
فَارِسٍ وَجَمَعِيهِ فِي الْمُمَارَاةِ الْعَسْكَرِ الْمُمَارَسِ، وَأَحْسَسَ السُّلْطَانُ بِالتَّدْبِيرِ، فَوَقَعَ فِي التَّشْوِيشِ  
وَالتَّشْوِيرِ، فَإِنَّ أَتَابِكَ أَيْلِدِكْزَ وَأَوْلَادَهُ كَانُوا يَهْمَذَانِ، وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ مِنْ أَوْلَتِكَ بِالْإِيذَانِ،  
فَاخَذَ فِي السَّيْرِ، وَاسْتَعَارَ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِمْ قَادِمَةَ الطَّيْرِ، فَلَمَّا اتَّصَلَ بِهِمْ أَفْرَغَ رَوْعَهُ وَأَفْرَقَ،  
وَأَشْرَفَ صَوْؤُهُ وَأَشْرَقَ، فَظَهَرَتْ قُوَّتُهُ وَقَوِيَّ ظَهْرُهُ، وَزَهَرَتْ أَنْوَارُهُ وَأَنَارَتْ زَهْرُهُ، وَمَعَهُ مِنْ  
الْأَكَابِرِ إِيَازُ وَكَرْدِبَازُو وَقَدْ فَارَ مَعَاضِدَتِهِمْ، وَفَازُوا وَحَازَتْ بِمُسَاعَدَتِهِمُ السَّعَادَةَ وَحَازُوا،  
وَكُلُّهُمْ ذُو شَوْكَةٍ رَادِعَةٍ مَانِعَةٍ وَشِكَاةٍ رَادِعَةٍ، وَجَمَاعَةٌ مُسْتَعِدَّةٌ وَعَدَّةٌ جَامِعَةٌ، وَامْتَدَّ أَيْنَانَجٌ مِنْ  
الرَّيِّ مُتَوَجِّهًا وَبِالْحَشِيدِ مُتَّجِوًا مُسَارِعًا إِلَى لِقَاءِ السُّلْطَانِ وَمُنَاجَزَتِهِ قَبْلَ التَّقَاءِ أَتَابِكَ أَيْلِدِكْزِ  
بِهِ وَمُحَاجَزَتِهِ فَاتَّصَلَ بِأَيْنَانَجِ السُّلْطَانِ سَتَمَازَ وَصَاحِبُ قَزْوِينَ أَلْبُ أَرْغُوا فِي جُمُوعِ حَاشِدَةٍ  
وَحَشُودِ جَامِعَةٍ، تَرَوُّعٌ وَتَرْغُوعٌ وَالْمَلِكُ مُحَمَّدُ بْنُ طغرلِ فِي الْقَلْبِ مَعَهُمْ وَقَلُوبُهُمْ مَعَهُ، وَقَدْ  
ضَاقَ الْفِضَاءُ بِالْعَسْكَرِ فَمَا وَسِعَهُ، وَهُمْ فِي أَلُوفٍ مَا فِيهَا لِلْمَوْتِ غَيْرُ أَلُوفٍ، وَمَمَالِكِ أَيْنَانَجِ  
مُرْدٌ عَلَى جُرْدٍ فِي زُعْفِ سَرْدٍ، مِنْ كُلِّ شَجَاعٍ قَدْ احْتَابَ مِنْ دِرْعِهِ جِلْدَ الْأَرْقَمِ، وَانْتَضَى مِنْ  
غَمِيدِهِ نَابَ الضَّيْغَمِ، وَكُلُّ ذِمِرٍ مَا لِلْقَرْنِ مِنْهُ ذِمَارٌ، وَكُلُّ غَمِرٍ لِلْمَنُونِ مِنْ غَمْرِهِ غِمَارٌ، وَكُلُّ لَيْثٍ  
ذُو لَوْثَةٍ، وَكُلُّ غَيْثٍ ذِي مَغُوثَةٍ، وَكُلُّ أَيْلِخٍ قَاشِرٍ، وَكُلُّ أَفْتَحٍ كَاشِرٍ، وَكُلُّ قَطَامِيٍّ قَطِيمٌ وَكُلُّ  
مُلَاجِمٍ إِلَى الْمَلْحَمَةِ لَجِمٌ، وَكُلُّ بَايِزٍ قَرِيمٌ وَكُلُّ بَايِزٍ نَازِلٌ، وَكُلُّ نَازِلٍ إِلَى الشَّرِّ وَكُلُّ شَرِّ نَازِلٍ، وَكُلُّ  
جَارِحٍ جَارِحٌ وَكُلُّ سَرْحَانَ سَارِحٌ، وَكُلُّ رَبِّيَالٍ ذِي بَالٍ، وَكُلُّ خِتَالٍ قِتَالٍ، وَكُلُّ سَفَاكٍ سَفَاحٌ،  
وَكُلُّ مَوَاقِعٍ وَقَاحٌ، وَكُلُّ نَابٍ ذِي نَابٍ، وَكُلُّ أَبِي صَدَاعٍ رَابٍ، وَكُلُّ ذَنْبٍ عَنِ الْحِمَى ذَابٌ،  
وَكُلُّ شَابٍ لِنَارِ الْوَعْيِ شَابٌ، وَكُلُّ أَجْدَلٍ أَجْدَلٌ وَالسُّلْطَانُ فِي عَرْمَرِيهِ الْعَرْمِ وَجَحْفَلِهِ الْجَفَلِ،  
وَلَيْلُ خَيْلِهِ الدَّاجِي الْمُضِيءُ بِذُبَالِ أَطْرَافِ الْقَنَا الذُّبَلِ، وَيَوْمَ تَقَعِيهِ الْعَاطِلِ مِنْ حَلِيَةِ الشَّمْسِ  
الضَّاحِي مِنْ ضَرَامِ الصَّوَارِمِ بِالشَّعْلِ، وَكَتَابَتُهُ الْكَاتِبَةُ بِالْيَرَاعِ الْحَطِيَّ بَرَاءَاتِ الْأَجَالِ، وَجِيوشُهُ

الْجَائِشَةُ فِي جَاشِ الْعَدُوِّ مِنْ نَارِ الْعَدُوِّ الرَّعْبِ بِفَوَارَاتِ الْأَوْجَالِ، وَطَلَانَعُهُ الطَّالِعَةُ كَوَاكِبُ  
مَوَاكِبِهَا مِنْ غَيَابِيبِ الْقَتَامِ وَضَوَامِرِهِ الضَّوَامِنِ مِنْ بَحِيرَتِهَا فِي ضِيَاءِ النَّهَارِ إِجْرَاءَ أَنْهَارِ الظَّلَامِ  
وَجِيَادِهِ الْجِيَاعِ إِلَى النَّجِيعِ فِي الْإِنْتِجَاعِ وَمَشْرِفِيَاتِ الْمَشْرِفَاتِ عَلَى هَامِ اللَّهَامِ الْمُتَطَوَّلَاتِ  
نَسَخَ طُلَى الشَّجَاعِ وَسَوَائِقِهِ السَّوَابِحِ فِي دَأْمَاءِ الدَّمَاءِ وَمَذَاكِيهَا الْمُرْكَبَاتِ نَارَ الرَّوْعِ الْعَاقِدَاتِ  
بِمَا، تُحَلُّهُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ سَمَاءَ دُخَانٍ تَحْتَ السَّمَاءِ، وَرَحَفَ الْجَيْشَانِ وَوَجَفَ الْجَاشَانِ،  
وَتَحْرَكَ الْمَجْرَانِ وَتَحْرَقَ الْجَمْرَانِ وَرَسَا الْجَبَلَانِ وَسَرَى اللَّجْبَانِ وَسَاحَ الْقِرْبَانِ وَتَنَاطَعَ  
الْقِرْنَانِ وَتَقَابَلَ الْفَلْكَانِ وَتَلَاطَمَ الْبَحْرَانِ وَتَصَادَمَ النَّحْرَانِ وَتَأَهَّبَ الْقَلْبَانِ وَتَلَهَّبَ الْقَلْبَانِ  
وَتَرَاصَّ الصَّفَانِ كَمَا تَرَاصَعَ الْفُضَّانِ وَتَرَاحَمَ الْمَنَكِبَانِ وَتَرَاجَمَ الْمِقْبَنَانِ وَتَقَارَبَ الطُّودَانِ  
وَتَقَارَعَ الْعُودَانِ وَذَابَ الْفُؤَادَانِ وَشَابَ الْفُودَانِ وَجَرَّتِ الْإِيهْمَانِ وَجَرَى الْإِدْهَمَانِ وَتَعَارَضَ  
الْجِمَامَانِ وَتَرَاضَعَ الْعَمَامَانِ وَتَبَايَنَ الْخَطَّانِ وَتَبَيَّنَ الْخَيْطَانِ وَتَوَازَنَ الْبَعْدَانِ وَتَوَازَى الْعَقْدَانِ،  
وَكَانَ اجْتِمَاعُهُمَا بِنَوَاحِي الْكَرْحِ وَكَرْبُ الْحَرْبِ مُعْوِزُ الْفَرْجِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ قَدْ أَنَّهُمُ الْوَزِيرُ  
بِمُدَاجَاتِهِ وَمُكَاتِبَةِ إِبْنَانِجٍ وَمُنَاجَاتِهِ، وَحَصَلَ فِي وَرْطَةٍ عَمِيٍّ عَلَيْهِ نَهْجٌ نَجَاتِهِ وَبَلَّغَتْ مِنْهُ  
السَّعَايَاتُ وَأَتَسَّعَتْ فِيهِ الْبَلَاغَاتُ، وَأَوْقَعُوا فِيهِ الظُّنُونِ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ، وَتَعَرَّضُوا  
لِعَرْضِهِ وَتَقَارَضُوا فِي قَرَضِهِ، وَتَكَلَّمُوا فِي كَلِمِهِ وَبَالَغُوا بِمَا بَلَغُوا عَنْهُ فِي ثَلْبِهِ وَثَلْمِهِ، وَحَمَلُوا  
السُّلْطَانَ عَلَى قِتْلِهِ، وَحَذَرُوهُ مِنْ مَكْرِهِ وَخَتَلِهِ، فَمَا سَمِعَ فِيهِ مَقَالًا، وَمَا رَأَى لَهُ اعْتِقَالَ، بَلْ  
وَكَلَّ بِهِ فِي السَّرِّ جَمَاعَةٌ يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ فِي خِدْمَتِهِ، وَيُظَاهِرُونَ فِي حِفْظِ حُرْمَتِهِ، فَهُمْ يَسِيرُونَ  
إِذَا سَارُوا حَوَالِيهِ، وَيَقِيمُونَ مَعَهُ إِذَا أَقَامَ لِلْحَوِطَةِ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي إِهْتِمَامِ نَصْرِ الدِّينِ بِهَلْوَانِ،  
فَدَفَعَ بَعْضُ دَيْتِهِ لَهُ عَن نَحْرِهِ الْهَوَانَ، وَقَرَّرَ أَمْرَهُ عَلَى هَدَايَا يُهْدِيهَا، وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ يُؤَدِّيهَا،  
فَأَخَذُوا مِنْهُ فِي الْمَالِ الْمَالَ وَتَرَكُوا فِيهِ الْقَيْلَ وَالْقَالَ، فَصَرَفُوا الْمَالَ فِي مَصَالِحِ الْعَسْكَرِ،  
وَعَادَ الْوَزِيرُ إِلَى سَعْدِهِ الْإِزْهَرِ وَجَدَّهُ الْإِبْهَرَ، وَقَدَّمَ الْحُرْكََةَ وَكَزَمَ الْمَعْرَكَةَ، وَلَكَمَا تَوَاقَفَ  
الْجَمْعَانِ وَاجْتَمَعَ الْمَوْقِفَانِ، وَشِيَمَتِ الْبَيْضُ وَشِيَمَ الْوَمِيضُ، سَنَ أَسْنَانَ الْأَسْلِ وَجَنَّ جَنَّاتُ  
الْبَطْلِ، وَحَنَّتِ الْحَنِيتُ إِلَى قَذْفِ مَقْلَمَةِ سَهْجِهَا فِي لَمَى الْمُقْلِ، وَتَجَرَّدَتِ قَوَارِمُ الصَّوَارِمِ  
وَقُضِيضَتِ، وَتَجَرَّاتُ أَرَاقِمِ اللِّهَادِمِ وَتُضْيِضَتِ، وَطَارَ السَّهْمُ وَطَاشَ الشَّهْمُ، وَأَنْجَزَتِ  
بِالرِّيَاةِ أُرْدَانُ الرِّدِينِيَّاتِ، وَأَتَشَّحَّتْ مَعَ الْإِعْمَادِ هَدْنَةُ الْهِنْدُونِيَّاتِ، وَأَنَارَتِ فِي مَغَارِبِ  
الطُّلَى مَشَارِقُ الْمَشْرِقِيَّاتِ، وَاسْتَحَلَّتْ بِإِثْمِدِ الْغُبَارِ الْعَجَاجِ عَيْنَ الشَّمْسِ، وَحَصَلَ ابْنُ دُكَاءِ  
مِنْ مُلَازِمَةِ غَرِيمِ الرُّغَامِ لَهُ فِي الْحَبْسِ، وَفَارَقَ الْغُرَارُ الْجَفْنَ وَالشَّرَارُ الرُّنْدَ، وَطَلَبَتْ ظِمَاءُ

الطُّبَى مِنَ الرُّوَيْدِ الْوَرْدِ، وَاحْتَجَبَتِ السَّمَاءُ بِنَسِجِ الْأَرْضِ، وَضَاقَ الْفِضَاءُ فَاشْتَبَهَ الطُّوْلُ بِالْعَرْضِ، وَأَنَّ الْبُوقَ وَزَقَّ الْمُوقَ، وَصَرَخَ الْكُوسُ وَصَرَخَ الْبُوسُ، وَضَجَّ الصَّلِيلُ وَعَجَّ الصَّهِيلُ، وَصَلَّ الدَّلِيلُ وَصَلَّ الصَّقِيلُ، وَبَرَقَ الْمِرْيَاثُ وَفَرَّتِ السَّمْهَرِيَاثُ، وَاحْمَرَّتْ مِنَ الْبَيْضِ الْخُدُودُ، وَاهْتَرَّتْ مِنَ السَّمْرِ الْقُدُودُ، وَاعْتَلَقَتْ الْأَسَاوِدُ مِنْ غَابِ الْوَحْشِ الْأَسْوَدُ، وَحَمَلَتْ مِيمَنُهُ إِيْنَاجَ عَلَى مَيْسِرَةِ السُّلْطَانِ، فَكَسَرَتْهَا وَحَسَرَتْهَا وَمَزَعَتْهَا وَمَزَقَتْهَا، وَكَسَفَتْهَا وَكَشَفَتْهَا وَكَسَفَتْهَا وَنَسَفَتْهَا، فَوَجَدَ السُّلْطَانُ وَوَجَمَ وَهَجَمَ عَلَيْهِ الْهَمُّ بِمَا هَجَمَ، وَظَنَّتْ بِهِ الْهَزِيمَةَ وَضَنَّتْ بِهِ الْعَزِيمَةَ، وَبَتَّ فِي قَلْبِهِ ثَابِتَ الْقَلْبِ، وَبَثَّ بِبَثَاتِهِ ثِبَاتَهُ لِلْوَثْبِ، فَاتَّحَى إِيْلِدِكْزَ وَأَوْلَادَهُ، وَقَالُوا هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ جِلَادَ الْجِلْدِ جِلَادُهُ، وَلَا يُصْعِدُ جَدَّ ذِي الْجَدِّ إِلَّا صِعَادُهُ، وَخَفَقُوا عَلَى قَلْبِ إِيْنَاجِ فَتَجَا وَقَلْبُهُ خَافِقٌ، وَهَمَّهُ لَوْهِيهِ مُصَافِحٌ مُصَافِقٌ، وَالطَّرْدُ مِنْ وَرَائِهِ وَرَأْيُهُ فِي الطَّرَادِ، وَغَابَ فِي الْغِبَارِ وَأَضْمَرَتْهُ دِيَاجِي الضَّمْرِ الْجِيَادِ، وَتَجَا إِيْنَاجِ وَالْمَعْرَكَةُ قَدْ عَرَكَتُهُ، وَالْمَمْلَكَةُ قَدْ فَرَكَتُهُ، وَالْمَهْلَكَةُ قَدْ حَرَكَتْهُ، وَفِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ أَصِيبَتْ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ عِدَّةٌ وَنَالَتْهُمْ شِدَّةٌ، وَأَصَابَتْ الْوَزِيرَ فِي وَجْهِهِ ضَرْبُهُ سَيْفٍ أَذْهَبَتْ عَيْنَهُ الْيَمْنَى، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّهُ بَعْدَ ذَهَابِ ذَهَبِهِ وَعَيْنِ نَضَارِهِ بَذَاهِبِ نَاطِرِ عَيْنِهِ الْيَمْنَى، وَحُجِلَ إِلَى هَمْدَانَ فِي مَحْفَةٍ لِيَتْدَاوَى، وَشَمَّتْ بِهِ عِدَاتُهُ وَعَادَتْ ضَوَارِيهَا عَلَيْهِ تَتَّعَادَى، وَكَانَ أَتَابِكُ إِيْلِدِكْزَ قَبْلَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ قَدْ أَمَّلَ إِيْنَاجِ بِالرَّسْلِ وَالْكَتْبِ وَأَنْذَرَهُ وَحَذَّرَهُ وَأَوْرَدَهُ بِنِصَائِحِهِ وَأَصْدِرَهُ وَعَرَفَهُ أَنَّ ثِعَالَةَ تَسْنُحُ فِي خَيْسِ الضَّمِيمِ الْخَادِرِ، وَإِنَّ الْبُغَاثَةَ لَا تَسْرَحُ فِي مَطَارِ الْقَشْعَمِ الْكَاسِرِ، وَغَابَ الْمَلِكُ مَا غَابَ عَنْهُ ضَرْغَامُهُ، وَأَنْفَ عَدُوِّ السُّلْطَانِ بِيَدِ الْقَدْرِ إِرْغَامُهُ، فَمَا بِالْكَ يَخْطُرُ بِيَالِكَ الْخَطَرُ وَتَعْتَزَلُ رِكْبَتَكَ فَتَرْكُبُ الْغَرْرَ، الزَّمَّ حَدَّكَ وَحَدَّهُمَا لَا يَلْزَمُكَ، وَأَكْرَمَ نَفْسَكَ وَلَا تُهْنِهَا، فَإِنَّ نَفْسَكَ الَّتِي تُهْيِيكَ وَتَكْرِمُكَ، فَمَا ارْتَدَّ وَلَا ارْتَدَّعَ وَلَا ابْتَدَّ وَلَا اتَّدَّعَ، بَلْ أَسْرَعَ فَأَعْسَرَ، وَجَسَا وَجَسَرَ، وَعَرَضَ زَجَاغَهُ لِلزَّجَاغِ فَانْكَسَرَ، وَخَسَرَ وَأَخْسَرَ وَعَبَسَ وَبَسَرَ، وَوَلَّى مُدْبِرًا وَأُدْبَرَ مُوَلِيًّا، وَخَلَى رِحْلَهُ وَرَحَلَ مُخَلِيًّا، وَخَرَجَ مِنْ نَارِ الْوَعْيِ بَادِي الْكَيْ، وَرَجَعَ فِي طَيْبِهِ عَلَى الطُّبَى، وَبَلَغَ مِنْهُ الطُّحَا الرِّحَّ فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ رَبِّهِ بِالرِّي، وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى عَادِيهِ فِي السُّلْطَنَةِ بَانَ جَاشُهُ وَجَيْشُهُ بِأُمُورِهِ الْمُسْتَقْرَةَ الْمُسْتَوِطِنَةَ، وَقَدْ وَقَدَّ وَقَدَّهُ، وَنَفَقَ نَفَقَهُ، وَنُقِدَّ عَقَدُهُ، وَأَتَسَّعَ مَلِكُهُ وَأَتَسَّقَ سَلِكُهُ وَدَارَ فَلَكَهُ وَدَرَّ فَلَكَهُ، وَخَلَا مَطَاؤُهُ وَعَلَا ضَوْؤُ مَنَارِهِ، وَتَقَرَّدَ زَوْجُ أُمِّهِ أَتَابِكُ إِيْلِدِكْزَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالنَّشْرِ وَالطُّبَى، وَالْوَعْدِ وَاللَّيِّ، وَالْحَسْمِ وَالْكَيِّ، وَالرُّشْدِ وَالغَيْيِّ، وَالْإِنْبَاتِ وَالنَّفْيِ، وَأَدْنَى وَأَبْعَدُ، وَأَشْقَى وَأَسْعَدُ، وَأَنْزَلَ وَأَصْعَدُ، وَأَبْرَقَ

وَأَرَعَدَ، وَوَعَدَ وَأَوْعَدَ، وَأَقَامَ وَأَعَدَّ، وَرَاقَبَ الْأَضْرَابَ وَضَرَبَ الرِّقَابَ، وَحَابَى الْأَعْدَاءَ وَالْأَحْبَابَ، وَأَحْوَجَهُ التَّبَسُّسُ بِالْمُلْكِ إِلَى مُلَابَسَةِ الْأَصْدَادِ وَمَنَافِسَةِ الْأَنْدَادِ، وَخَوْضِ الْوُحُولِ وَوُخْضِ الْفُحُولِ، وَتَسْهِيلِ الْوَعِيدِ وَتَذَلِيلِ الْوَعُودِ، وَلَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَرَحَّضَتِ أَوْزَارَهَا أَوْجَةَ السُّلْطَانَ نَحْوَ الرَّيِّ بِرِيَابَتِهِ وَوَصَلَ سَرِيَاةُ إِلَى ابْنَانِجِ سَرِيَابَتِهِ، فَقَدَمُوهَا وَقَدَّ دَعَوْهَا وَيَا الْأَرْمَ رَمَوْهَا، وَجَبَّوْا عُمَالَهُ وَجَنَوْا أَمْوَالَهُ، وَأَقْسَطُوا وَقَسَطُوا وَأَفْرَطُوا وَفَرَطُوا وَضَبَطُوا وَضَغَطُوا وَمَالُوا وَنَالُوا وَجَالُوا وَصَالُوا وَأَخَذُوا وَوَقَدُوا وَأَمْضُوا وَأَنْفَذُوا وَجَمَعُوا وَجَمَعُوا ذَخَائِرَهَا وَيَسَطُوا بِالسُّطَى أَيْدِي الْأَيْدِ، وَشَدَّوْا مِنَ الشَّدَّةِ قَيْدَ الْكَيْدِ، وَبَادَرُوا إِلَى بِيَادِرِ الْارْتِفَاعَاتِ فَرَفَعُوهَا، وَضَرَّوْا الرِّعِيَةَ بِالْأَذْيَةِ وَمَا نَفَعُوهَا، وَكَانَ ابْنَانِجُ بِنَجْوَةَ وَقَدْ قَنَعَ مِنْ الْعَيْشِ، وَهُوَ فِي حُدُودِ الدَّامَغَانَ يَسْتَعِطِفُ وَيَسْتَسْعِفُ وَيَسْتَشْفِعُ وَيَتَوَصَّلُ وَيَتَوَسَّلُ وَيَتَعَرَّضُ وَيَتَضَرَّعُ وَمَا زَالَ يُرْسَلُ وَلِدَرَيْنِ زَلِيلِهِ يَغْسِلُ، وَيَتَنَصَّحُ وَيَتَنَصَّلُ، وَدَامَ بِالدَّامَغَانَ إِلَى أَنْ صَلَحَتْ أَسْبَابُهُ وَاسْتَبَّ صَلْحُهُ وَنَجَحَتْ آرَابُهُ وَأَرَبَى نُجْحُهُ، وَعَادُوا إِلَيْهِ إِلَى الرِّضَا وَعَدَّوْا عَمَّا مَضَى، وَقَصَرُوا رَأْيَهُ عَلَى الْقِنَاعَةِ بِالرِّيِّ، وَتَعَوَّضَ بِرُشْدِهِ عَنِ الْغِيِّ، وَحَلَّتْ عَنْهُ جَرِيذَانُ وَسَاوَةَ وَعَاوَدَتْ مَعِيشَتَهُ وَعَيْشَتَهُ الطَّلَاوَةَ وَالْحَلَاوَةَ، وَرَحَّلُوا إِلَى قَرْوِينَ فَتَحَصَّنَ صَاحِبُهَا فِي قَلْعَةٍ سَرْجِهَانَ، وَعَايَنَ وَعَانَى الْامْتِحَانَ وَالْامْتِهَانَ، فَفَرَّقُوا الْعَمَالَ وَجَمَعُوا الْأَمْوَالَ وَبَنَوْا الْجُنَاتَ وَبَنَوْا الْحَيَاةَ، وَقَطَّعُوا وَأَقْطَعُوا وَصَدَّعُوا وَصَدَّعُوا وَصَلَّوْا وَصَلَّوْا وَجَالُوا وَجَلَّوْا وَأَقَامُوا إِلَى أَنْ دَهَمَ الشَّتَاتُ الدَّهْمَاءَ وَأَحَلَّ الْبَلَاءُ بِنُزُولِ الْبَلَاءِ فَانْتَهَمَ لَمْ يَقِيمُوا بِالْمَكَانِ وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْمَقَامِ، وَفَكَوْا عَنِ الْبَلَدِ عُرُوءَةَ الْإِزْدِحَامِ، وَسَأَلَ السُّلْطَانَ نَحْوَ هَمْدَانَ وَأَتَابِكَ أَيْلِدَكَزَ إِلَى أَدْرِيَجَانَ، وَلَمَّا حَمَلَتْ أَمْرَ الثَّوْرِ فِي بَيْتِ الْحَمَلِ وَحَصَّنَتْ رَيْبَ الرَّبِيعِ الْمَعْتَدِلِ وَهَزَّتْ نَشْوَةَ الصَّبَا عِطْفَ الْغَصَنِ الثَّمَلِ وَأَجَدَّتْ الرِّيَاضَ مِنَ الْإِزْهَارِ مُقَوِّفَاتِ الْحُلَلِ وَلَاثَ الْهَابِ الْهَائِمِي لِهَامِ الْبَرِّ مِنْ حَوْلِ الْغَمَائِمِ عَمَائِمِ، وَشَدَّتْ مَوَاضِعَ الْعَوَارِضِ مِنْ سَقِيطِ الْبَرِّ وَعَلَى وَاضِعِ الْكَمَائِمِ ثَمَائِمِ، وَقَبَّلَ خَدَّ الْوَرْدِ تَغْرَ الْأَفْحُونَ، وَكَمِنَ سُرَّ الطَّيِّبِ فِي ضَمِيرِ الضُّمْرَانَ، تَحَرَّكَتِ الْعَزَائِمُ السَّاكِنَةُ وَظَهَّرَتْ السَّرَائِرُ الْكَامِنَةَ، وَثَارَتْ الْهَمَمُ الرَّابِضَةُ وَفَاضَتْ الْأَهْوَاءُ الْغَائِضَةُ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ سُلْطَنَةُ أَرَسْلَانَ بْنِ طَغْرَلِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَلِكْشَاهِ، وَعَدَمَ فِي عَزِهِ وَنَصْرِهِ وَنَشَاطِ أَمْرِهِ الْأَشْبَاءَ، وَحَكَمَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْبِلَادِ جَمِيعِهَا شَمْسُ الدِّينِ أَيْلِدَكَزُ زَوْجُ أُمِّهِ، وَجَرَى فِي إِقَامَةِ نَامُوسِ سُلْطَانِيهِ عَلَى رَسْمِهِ وَكَانَتْ الْوِزَارَةُ مُسْتَمْرَةً بِشَهَابِ الدِّينِ الثَّقَفِيِّ، وَلَهُ مِنْ النَّاسِ لِكَرَمِهِ وَعُلُوِّ هِمَمِهِ الْمِقَّةُ، إِلَى أَنْ تُوْفِيَ بِإِصْفَهَانَ وَخَلَا الْمَنْصَبَ بَعْدَهُ فَهَانَ.

## وزارة فخر الدين بن الوزير المعين المختص القاضي

واستوزر بعده فخر الدين بن الوزير المعين المختص القاضي فأمر ونهى وبلغ في استيادته المتهى ونال ما اشتهى، ولما توفي بهمدان بعد ستين استوزر جلال الدين بن القوام الدرگزني، وامتدت وزارته في الأيام الأرسلائية، ووفى بإحكام الأحكام السلطانية.

## ذكر وفاة السلطان

في سنة إحدى وسبعين، ووفاة شمس الدين ايلدكز قبله، كان السلطان أرسلان تزوج بأخت فخر الدين رئيس همدان فاتفق وفاة شمس الدين ايلدكز بنخجوان<sup>(1)</sup>، وتمكن ابنه الممتعوت بهلوان وهو أخو أرسلان من أمه، فأراد الاستبداد دونه بحكمه، وكان أرسلان مريضاً فنقل إلى دار زوجته بهمدان وتوفي بها، وتقصي نفسه ولم يقص نفسه أفول أربها، وقيل إن أخاه بهلوان سقاه، وللحرم في بقائه ما ألقاه، وأجلس ولده طغرل الصغير وشغل به السرير، ونفذت أومره في الممالك واضحة المسالك، واسعة المبارك سائمة المدارك، وما زال أمره مستقيماً واستقامته مستمرة، وبناء دولته عن مباسم السعود مفتررة، إلى أن توفي بهلوان في أوائل سنة اثنتين وثمانين، وتولى أخوه مظفر الدين قزل أرسلان بن ايلدكز ونهج الملك ونسق السلوك، وطغرل قد سب وأرب فوجد أمره مهجوراً وعزّه محجوباً محجوراً، فأحب الأفراد وأراد الاستبداد فهرب ليلاً وانضم إليه جماعة من الامراء البهلوانية، وبعثوه على التوحيد بالعزة السلطانية، وكان سيء التدبير، يعاقب على التهم بالقتل والتدمير، وكان البهلوانية قد أنجدوه وساعدوه وأسعدوه، وأقام قزل أرسلان مراراً وأقعدوه فأنههم يوماً على ظنة أضرمت ناراً اشتطاطه، فقتلهم غيلة على بساطه، فنقرت منه القلوب، وسفرت بظلمات مضائبة الحروب والكروب، وتمكن قزل أرسلان وتضعص السلطان وأنهم وزيره عز الدين بن رضي الدين يوماً فقتله وأخاه بين يديه صبراً، وزاد في قتله بخاوصه كلما انكسر ولم يلف خيراً، واغتال فخر الدين رئيس همدان وسمه، وسلط على كل من يقرب منه وهمه وهمه، وكلما تمكن أمر عمه قزل أرسلان عمه حتى [وصل] في سنة خمس وثمانين إلى الأمير حسن بن قفجاق وتزوج باخيه، وجرى معه في حكم وقته، فنهض معه لينصره

(1) نخجوان: قال باقوت: بلد بأقصى أذربيجان.

وَيَعُضِدُهُ وَيُوزِرُهُ، وَوَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ أَرْمِيَةِ فَأَغْلَقُوا بَابَهَا دُونَهُ، وَالْقَفْجَاقِيَّةُ مَعَهُ يُسْعِدُونَهُ، فَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ وَاسْتَبَاحُوهَا وَنَهَبُوهَا وَاجْتَا حُوهَا وَخَرَّبُوهَا، وَاسْتَحَلُّوا الْمَحَارِمَ وَاسْتَقَلُّوا الْعِظَائِمَ، وَسَيَّرَ صَلاَحُ الدِّينِ رُسُلَهُ فِي الْإِصْلَاحِ مِنَ الشَّامِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَزَلِ أَرْسَلَانَ فَدَانَ لَهُ وَلَا نَ، وَتَبَسَّرَ الصَّعْبُ وَهَانَ، وَكَادَ الصَّلْحُ يَتِمُّ، وَالنَّفْعُ يَعْمُ، وَالشَّرُّ يَصْمُ، وَالْفِتْنُ تَضْمَحَلُّ وَالْإِخْنُ تَقَلُّ، فَأَبَى سِوَاءَ الْأَرَاءِ وَاسْتِوَاءَ الْأَرَابِ وَالصَّوَابِ بِالْحُجَابِيَّةِ، فَعَنَّ لِلْسلْطَانِ أَنْ يَقْصِدَ قَزَلَ أَرْسَلَانَ بِهَمْدَانَ أَحْمَادِ كَبِيرَانَ الْأَمَهَانَ فَقَبَضَهُ يَوْمَ قُدُومِهِ وَاعْتَقَلَهُ فِي بَعْضِ الْمَعَاقِلِ، فَتَعَقَّبَ آثَارَ تِلْكَ الطَّوَائِلِ، وَسَكَنَ الدَّهْرُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَضَرَبَ قَزَلَ أَرْسَلَانَ النَّوْبَ الْخَمْسَ، وَوَطَّنَ عَلَى الْاسْتِبْدَادِ بِالْسلْطَنَةِ النَّفْسَ، وَلَهَا بِالْصَّفَاءِ عَنِ الْكُدْرِ، وَعَفَلَ عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، فَوُجِدَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي بِهَمْدَانَ مَذْبُوحاً عَلَى فِرَاشِهِ، وَقَدْ تَبَسَّ عَائِثُ الْمَلِكِ بِهِ مِنْ ائْتِمَاعِهِ، وَكَانَ بَيْنَ حُقَاطِهِ وَخُرَاسِهِ، وَلَمْ يُعْلَمْ مَنْ الَّذِي فَتَكَ بِقَطْعِ رَأْسِهِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَسَارَ ابْنُ أَخِيهِ نَصْرَةَ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَهْلَوَانَ إِلَى أذربيجَانَ فَهَلَكَا، وَسَارَ قَتْلُغُ ائِنَاجِ بْنِ بَهْلَوَانَ إِلَى طَرِيقِ الرَّيِّ فَسَلَكَهَا وَأَدْرَكَهَا، وَسَعَى بَعْضُ الْأَمْرَاءِ فِي إِخْرَاجِ طَغْرُلِ مِنْ حَبْسِهِ، إِعَادَةً مِنَ الْسلْطَنَةِ إِلَى مَجْلِسِهِ، وَمَضَى إِلَى دَارِ الْمَلِكِ هَمْدَانَ وَاسْتَأْنَفَ الْإِمْكَانَ، وَاسْتَجَدَّ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ، فَجَاءَ خَوَارِزْمِشَاهُ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ يَطْمَعُ فِي الْاسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَمْلَكَةِ، فَلَقِيَهُ الْسلْطَانُ طَغْرُلُ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَخَرَقَ بَقِيَّةَ قَلِيلَةَ الصَّفِّ الْخَوَارِزْمِيِّ، وَأَظْهَرَ الْبَاسَ الرَّسْتَمِيَّ، فَأَصْعَوْا بِهِ وَرَمَوْهُ وَأَخَذُوا رَأْسَهُ إِلَى بَغْدَادَ، وَجَرَى مِنَ الْخَوَارِزْمِيِّ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ الْاسْتِحْوَاذَ، وَخَتَمَ الدَّوْلَةَ السَّلْجُوقِيَّةَ بِطَغْرُلِ وَقَدْ لَانَ ائْتِفَاتِحُهُ بِطَغْرُلِ، وَقَدْ كَانَ مُدَّةَ مُلْكَيْهَا مُدَّةً وَصَلَ طَغْرُلِيكُ إِلَى بَغْدَادَ وَإِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ مِئَةً وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَكَانَتْهَا ائْتَهَتْ سِنَتَهُ، فَسَبْحَانَ الَّذِي لَا يَزُولُ مُلْكُهُ وَحُكْمُهُ لَا يَحُولُ.

### ذِكْرُ الْوُزَرَاءِ ائْتَمْتُولِيْنَ

كَانَتْ الْوُزَارَةُ لِجَلَالِ الدِّينِ بْنِ الْقَوَامِ، فَلَمَّا تُوفِّيَ تَوَلَّى الْوُزَارَةَ أَخُوهُ قَوَامُ الدِّينِ ثُمَّ عَزَلَ، وَاسْتُوزِرَ كَمَالُ الدِّينِ الزَّنْجَانِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْتَّعْجِيلِ، وَبَقِيَ سِتِّينَ ثُمَّ اسْتُوزِرَ صَدْرُ الدِّينِ قَاضِي مِرَاغَةَ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ الْوُزَارَةُ بَعْدَ عَزَلِهِ عَلَى عَزِيْزِ الدِّينِ بْنِ الرَّضِيِّ، ذِي الْخُلُقِي الرَّضِيِّ وَالْكَرْمِ الْمَرَضِيِّ، ثُمَّ جَرَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِهِ، وَأَذِنَ الْمَلِكُ بِشَتَاتِ شَمْلِهِ، وَفِي شَهْرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَوُجِدَ ائِنَاجِ صَاحِبُ الرَّيِّ مَقْتُولاً عَلَى سَرِيرِهِ، وَلَمْ يُعْلَمْ كَيْفَ

كَانَ حَقِيقَةً تَدْمِيغُهُ، وَاحْتَفَّ الْفَتْكَ بِهِ إِلَى مَمَالِكِهِ بِتَدْبِيرِ الْوَزِيرِ وَتَشْرِيكِهِ، وَكَانَ وَزِيرَ إِيْنَانَجِ سَعْدُ الدِّينِ أَسْعَدُ الْأَسْلِفِ فَاسْتَوَزَّرَهُ شَمْسُ الدِّينِ إِيْلِدَكْزَ وَاسْتَقَلَّ وَكَانَ وَزِيرَ إِيْلِدَكْزَ مِنْ قَبْلِهِ مُخْتَارُ الدِّينِ، وَتَوَلَّى السُّلْطَانُ طَغْرُلُ فِي الدَّوْلَةِ الْإِمَامِيَّةَ الْمُسْتَضَيَّةَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَانَتْ وَايَةُ الْمُسْتَضِيِّ فِي سَنَةِ سِتِّ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَانْتَقَلَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَوَلَّى الْإِمَامُ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ الْمُسْتَضِيِّ بِأَمْرِ اللَّهِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ الْمُسْتَنْجِدِ بْنِ الْمُقْتَدِي صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ كُنْتُ أَوْثُرُ أَنْ أَنْهِيَ هَذَا الْكِتَابَ إِلَى آخِرِهِ وَشَرَحَ حَادِثَةَ كُلِّ عَامٍ وَالْإِنْتِهَاءَ فِيهِ إِلَى كُلِّ عَامٍ، لَكِنَّهُ بَغِيْبِي إِلَى الشَّامِ، وَتَبَاعُدِي عَنِ مَعْرِفَةِ صُرُوفِ تِلْكَ الْأَيَّامِ اقْتَصَرْتُ عَلَى مَا عَرَفْتُهُ مِنَ الْجُمْلِ، وَاسْتَغْنَيْتُ بِهَا عَنِ ذِكْرِ الْمُفْصَلِ، وَلِأَنَّ السُّلْطَنَةَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَهْنَتْ وَهَانَتْ، وَبَانَتْ أَسْبَابُ اعْتِلَالِهَا وَظَهَرَتْ أَسْرَارُ ذَهَابِهَا وَبَانَتْ، وَمَا تَمَكَّنَ وَزِيرٌ مِنْ سِرِّةٍ سَارَّةٍ وَمَبْرَةٍ بَارَّةٍ حَتَّى أَنْوَّهُ بِذِكْرِهِ وَأَنْبَهُ، وَفِي مَا أَنْشَأْتُهُ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ كِفَايَةً، وَلِكُلِّ مُوَفِّقٍ إِلَى هُدَاهُ هِدَايَةً.

تَمَّ كِتَابُ (نُصْرَةُ الْفَتْرَةِ وَعَصْرَةُ الْفِطْرَةِ) بِعَوْنِ اللَّهِ وَمَنْنِهِ وَالصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ.

\*\*\*

## المصادر والمراجع

- 1- ابن أبي أصيبعة الخزرجي، أحمد بن القاسم.  
عيون الانباء في طبقات الأطباء. تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.
- 2- ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني.  
الكامل في التاريخ. دار صادر، بيروت، 1966 م.
- 3- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي.  
المنتظم في تاريخ الملوك والدول. حيدرآباد، الهند، 1357 هـ.
- 4- ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس.  
ديوان ابن الرومي. تحقيق: حسين نصار، دار الكتب والوثائق، القاهرة، 2003 م.
- 5- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا.  
الفخري في الآداب السلطانية. دار صادر، بيروت، 1966 م.
- 6- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحفي.  
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. مكتبة القدسي، القاهرة، 1351 هـ.
- 7- ابن الهبارية، محمد بن محمد بن صالح العباسي الهاشمي.  
شعر ابن الهبارية. جمعه وحققه محمد فائز سنكري طرايشي. قدم له محمد خموية،  
وزارة الثقافة، دمشق، 1997 م.
- 8- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم.  
وفيات الاعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عياس، دار الثقافة، بيروت.
- 9- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي.  
البداية والنهاية في التاريخ. مط السعادة، د. ت.

- 10 - ابن نباته السعدي، أبو نصر عبدالعزيز بن عمر التميمي السعدي.  
ديوان ابن نباته السعدي. تحقيق عبدالامير مهدي الطائي، وزارة الاعلام، بغداد، 1977م.
- 11 - أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم.  
ديوان أبي العتاهية. دار صادر، بيروت، 1964 م.
- 12 - أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي،  
ديوان أبي تمام. جمع الصولي، ترتيب علي بن حمزة الاصفهاني. قدم له: عبدالحميد  
يونس وعبدالفتاح مصطفى، القاهرة، 1942 م.
- 13 - أبو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان.  
ديوان أبي فراس الحمداني، برواية ابن خالويه. دار صادر، بيروت، 1961م.
- 14 - أبو نواس، الحسن بن هاني.  
ديوان أبي نواس. حققه وضبطه وسرجه أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي،  
بيروت، 1953 م.
- 15 - الارجاني، أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين.  
ديوان الارجاني، تحقيق محمد قاسم مصطفى، مط دار الكتب، الموصل.
- 16 - براون، أدوارد جرانييل.  
تاريخ الادب في ايران من الفردوسي إلى سعدي. ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، مط  
السعادة، القاهرة، 1954 م.
- 17 - بروكلمان، كارل.  
تاريخ الادب العربي، ترجمة عبدالحليم النجار وآخرين، دار الكتاب الاسلامي، قم،  
2008 م.
- 18 - البستي، أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين.  
أبي الفتح البستي، تحقيق شاعر العاشور. ط 3، دمشق، 2011 م.

- 19 - جحظة البرمكي، أحمد بن جعفر بن موسى البرمكي.  
 جحظة البرمكي الاديب الشاعر. تأليف مزهر عبد السوداني. ط 1، مطبعة النعمان،  
 النجف الاشرف، 1977 م.
- 20 - جرجي زيدان.  
 تاريخ آداب اللغة العربية، راجعه وعلق عليه شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، د.ت.
- 21 - الحسين بن الضحاك.  
 أشعار الخليل الحسين بن الضحاك. جمع وتحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار الثقافة،  
 بيروت، 1960 م.
- 22 - حيص بيص، سعد بن محمد بن الصيفي التميمي البغدادي.  
 ديوان حيص بيص. تحقيق: مكّي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، وزارة الاعلام،  
 بغداد، 1974 - 1975 م.
- 23 - الخالديان، أبو عثمان سعيد بن هاشم وأبو بكر محمد بن هاشم.  
 ديوان الخالديين. تحقيق سامي الدهان، دار صادر بيروت، باذن من المجمع العلمي  
 العربي بدمشق.
- 24 - دعبل بن علي الخزاعي.  
 ديوان دعبل بن علي الخزاعي. تحقيق عبدالصاحب عمران الدجيلي، ط 2، دار الكتاب  
 العربي، بيروت، 1970 م.
- 25 - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.  
 1 - سير أعلام النبلاء. تحقيق: شبيب الارناؤوط وآخرين، بيروت، 1981 - 1988 م.  
 2 - العبر في خبر من غير. تحقيق صلاح الدين المنجد وآخرين، الكويت، 1960 - 1961 م.
- 26 - سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي.  
 مرآة الزمان في عيون الأعيان. (حوادث 495 - 589 هـ) حيدرآباد، الهند، 1951 م.
- 27 - الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك.  
 الوافي بالوفيات تحقيق: ديدرنيغ وآخرين. دار صادر، بيروت.

- 28 - الطاهر، علي جواد.  
الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي. ط 2، دار الرائد العربي، بيروت، 1985 م.
- 29 - الطغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي.  
ديوان الطغرائي، تحقيق: علي جواد الطاهر وَيَحْيَى الْجُبُورِي، وزارة الاعلام، بغداد، 1976 م.
- 30 - عبد الباقي، محمد فريد.  
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. مطابع الشعب، القاهرة. 1378 هـ.
- 31 - العماد الاصفهاني، محمد بن محمد بن حامد.  
1 - تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي البنداري. مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1900 م.  
2 - جريدة القصر وجريدة العصر.  
أ - قسم بلاد العجم. تحقيق: عدنان محمد آل طعمة، طهران. 1999 م.  
ب - قسم العراق، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المجمع العلمي العراقي، ووزارة الاعلام، بغداد.  
الغزي، أبو عثمان إبراهيم بن عثمان.
- 32 - ديوان الغزي. تحقيق عبدالرزاق إبراهيم، دبي، 2008 م.
- 33 - الكتبي، محمد بن شاكر.  
فوات الوفيات والذيل عليه. تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973 م.
- 34 - كعب بن معدان الاشقري.  
كعب بن معدان الاشقري، حياته وما تبقى من شعره، جمع وتحقيق: نوري حَمُودي القيسي، في مجلة (المورد) [بغداد] 5 / 1976 م.

- 35- كور كيس عواد.  
خزائن الكتب القديمة في العراق. ط 2، دار الرائد العربي، بيروت.
- 36- الممتني، أبو الطيب أحمد بن الحسين.  
ديوان الممتني. شرح عبدالرحمن البرقوقي، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت.  
الهدلي، أبو ذؤيب خويلد بن خالد.  
ديوان الهدليين، الدار القومية، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة. 1965م.
- 37- ياقوت الحموي.  
أ- معجم الأدباء، أو: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993 م.  
ب- معجم البلدان. دار صادر، بيروت، 1955م.

## سلسلة «دراسات فكرية»

### من إصدار جامعة الكوفة

- الحقبة التأسيسية للتشيع الاثني عشري: خطاب الحديث بين قم وبغداد، أندرو جي. نيومان، ترجمة علي زهير، مراجعة حسن ناظم، 2019.
- مصادر التصوّف الإيراني، سعيد نفيسي، ترجمة مازن النعيمي وعبد الكريم جرادات، تقديم محمد الندوي، 2019.
- الاعتقاد بعدالة العالم: الوهم والضرورة، فارس كمال نظمي، 2019.
- المحرومون في العراق: هويتهم الوطنية واحتجاجاتهم الجمعية (دراسة في سيكولوجية الظلم)، فارس كمال نظمي، 2019.
- سياسة الألم والمعنى: طقوس عاشوراء وزيارة الربيعين بالعراق، فرج الحطّاب، 2019.
- العنف الثقافي: خطاب خصوم الحدائث، حسن الخاقاني، 2019.
- سوسيولوجيا المنقذ: أيديولوجيا الغيبة ويوتوبيا الظهور، أحمد الصحّاف، 2019.
- التربية المدنية العالمية: مسؤوليات وحقوق في عالم مترابط، هاكان ألتناي، ترجمة عبد النور خراقي، 2019.
- المعجل في الغلوسيماتيقا: دراسة في منهجية الإنسانيات مع إحالة خاصة على اللسانيات (النظرية العامة)، هانز يورغن أولدال، ترجمة يوسف إسكندر، 2019.
- أبحاث في الغلوسيماتيقا، تحرير وترجمة يوسف إسكندر، 2019.
- الحوزة تحت الحصار، عباس كاظم، 2018.
- مع الجواهري: الحدث والذات والقصيدة، زهير الجزائري، 2018.

- المهابهارتا: عن ملحمة الهند الخالدة، جان كلود كارييه وبيتر بروك، ترجمة حسن ناصر، 2018.
- مداخُلٌ لنظرية اللغة، لويس هلمسليف، ترجمة يوسف إسكندر، مراجعة حسن ناظم، 2018.
- اقتصاد ما لا يضيغ، آن كارسن، ترجمة علي مزهر، مراجعة حسن ناظم، 2018.
- أزمة التنوير العراقي، فلاح رحيم، 2018.
- الذاكرة التاريخية والثقافة السياسية، لؤي خزعل جبر، 2018.
- الصراع المذهبي: فصول في المفهوم والتاريخ، نخبة من المفكرين، 2018.
- إلى كربلاء: دراسة مسحية عن شيعة إيران والعراق، (فوتيني كرستيا، أليزابيث دكيسر، دين نوكس)، ترجمة نصر الحسيني، حسن الأسدي، آية الرواف، مراجعة حسن ناظم، علي حاكم صالح، 2018.
- مقالات في الأدب والثقافة، سعيد عدنان، 2018.
- تذيب الإنسان، حسن الخاقاني، 2018.
- أصول العنف: الدين، والتاريخ، والإبادة، جون دوكر، ترجمة علي مزهر، مراجعة حسن ناظم، 2018.
- جمره الحكم: مخاضات التجربة الشيعية في السلطة بعد 2003، علي طاهر الحمود، 2017.
- السيرة والعنف الثقافي: دراسة في مذكرات شعراء الحداثة بالعراق، محمد غازي الأخرس، 2017.
- الصحراء، علي شريعتي، ترجمة حسن الصراف، مراجعة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، 2017.
- الحروب الباردة، حميد الخطيب، 2017.
- شيعة العراق، علي الشكري، 2017.
- حكاية الجُند، صموئيل هاينز، ترجمة فلاح رحيم، 2016.

- دور هيئة الأمم المتحدة في النزاعات الدولية: العراق أنموذجاً، حميد الخطيب، 2016.
- نصوص مسمارية تاريخية وأدبية، ترجمة نائل حنون، 2015.
- المنمنمات الإسلامية، ماريا فيتوريا فوتانا، ترجمة عز الدين عناية، 2015.
- أربع رسائل فلسفية، أبو الحسن العامري، تحقيق سعيد الغانمي، 2015.
- الذات تصف نفسها، جوديت بتلر، ترجمة فلاح رحيم، 2014 (طبعتان).
- ثورة 1920، عباس كاظم، ترجمة حسن ناظم، 2014.
- الطائفية في العراق: الوحدة والرؤى المضادة، فخر حداد، ترجمة حسين ناصر جبر وسعدية إبراهيم علي، مراجعة حسن ناظم، 2019. (قيد الطبع)
- قراءة العراق: صراع الثقافة والسلطة، محسن الموسوي، ترجمة إنعام هاشم الشريف، مراجعة حسن ناظم، 2019. (قيد الطبع)

